جمـــال حمّـــاد

المعـــارك الحربيـــة على الجبهة المصرية

دار الشروقـــــ

المعـــارك الحربيــة
على الجبهة المصرية

طبعة الشروق الأولـى
١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م

القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصرى
رابعة العدوية - مدينة نصر - ص . ب : ٣٣ البانوراما
تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى: email: dar@shorouk.com

بسم الله الرحمن الرحيم

«وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ
وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ»

صدق الله العظيم
فصلت/٣٣

الإهداء

إلى خير أجناد الأرض أبطال مصر

إلى من حموا أرض الوطن في كل عصر

إلى من رفعوا فوق بلادهم رايات النصر

جمال حماد

تقديم

على الرغم من أن الجيش المصري يعد أعرق جيش في العالم باعتباره أول جيش نظامي عرفه التاريخ، ورغم ما سطره من مفاخر وأمجاد في ساحات القتال على مر العصور، فإن الفرصة لم تتح له في الزمن الأخير لإثبات مدى عظمته وشجاعته ومعدنه الأصيل وإظهار روعة أدائه وبسالته، إلا حين تحقق ذلك لأول مرة في حرب العاشر من رمضان عام ١٣٩٣ هـ الموافق ٦ أكتوبر ١٩٧٣م.

لقد نشبت أربع حروب بين العرب وإسرائيل خلال ربع القرن الذي أعقب إعلان قيام دولة إسرائيل في ١٥ مايو ١٩٤٨، وبسبب سياسة دولية مناوئة لمصر وأوضاع داخلية سيئة وأخطاء عسكرية فادحة ارتكبتها قيادات غير واعية، لم يتمكن الجيش المصري من إثبات جدارته واستعادة أمجاده وانتصاراته في الحروب الثلاث الأولى التي خاضها، إذ لم تتهيأ أمامه الفرصة التي كان ينشدها، كي يخوض غمار القتال بعد إتمام استعداداته، ولمواجهة عدوّه وجها لوجه تحت قيادة عسكرية واعية بأصول الفن الحربى.

لقد كانت حرب فلسطين في ١٥ مايو ١٩٤٨ حربا قديمة الطراز في معظم مراحلها وإن كانت قد وقعت في زمان حديث، ورغم الأطراف العديدة التي اشتركت فيها فلم يكن ضمنها ما يستحق أن يطلق عليه اسم جيش عصرى. وبسبب الاحتلال البريطانى الذي كان ما يزال مسيطرا على الدول العربية التي قامت جيوشها بأدوار رئيسة في هذه الحرب، فقد دخلت القوات العربية أرض فلسطين دون تدريب جيد أو تسليح كاف أو إعداد مسبق، ولعبت السياسة البريطانية المتواطئة مع الصهيونية والتي كانت تؤازرها معظم القوى الغربية وقتئذ وبخاصة الولايات المتحدة، دورا مهما في إلحاق الهزيمة بالعرب. فلم تكد الجيوش العربية تقترب ـ رغم كل ما صادفها من عقبات ومؤامرات ـ من تل أبيب حتى تم الضغط على الحكومات العربية الخاضعة وقتذاك لسطوة الاستعمار للموافقة على وقف القتال وقبول الهدنة الأولى في ١١ يونيو ثم الهدنة الثانية في ١٨ يوليو ١٩٤٨. وتحت ستار الهدنة، تدفقت الأسلحة والمعدات والإمدادات العسكرية والمساعدات المادية

على إسرائيل، في الوقت الذي تم فيه حرمان العرب من أي إمدادات أو مساعدات خارجية. وفي ظل وقف إطلاق النار، قامت إسرائيل - كما اعتادت بعد ذلك في جميع حروبها - بخرق الهدنة وفاجأت القوات العربية بالهجوم، وتمكنت عن طريق الغدر من احتلال القسم الأكبر من الأراضي الفلسطينية. وقد اتضح أن إسرائيل قد قامت دولتها على مساحة من الأرض تتجاوز كثيرا المساحة التي خصصت للدولة اليهودية، وفقا لقرار التقسيم الذي أصدرته الأمم المتحدة في ٢٩ نوفمبر عام ١٩٤٧، إذ زادت من ٥, ٥٦٪ من المساحة الكلية لفلسطين إلى ٤, ٧٧٪، ولم يبق للعرب بعد انتهاء الحرب سوى أراضي الضفة الغربية لنهر الأردن وقطاع غزة.

ونشبت الحرب الثانية في ٢٩ أكتوبر ١٩٥٦ في ظل التواطؤ البريطاني الفرنسي مع إسرائيل، ردا على القرار الذي أصدره الرئيس الراحل جمال عبد الناصر بتأميم شركة قناة السويس في ٢٦ يوليو ١٩٥٦. ولم تقع خلال هذه الحرب معارك واسعة النطاق مع إسرائيل على أرض سيناء، فقد صدرت الأوامر قبل نشوب الحرب بسحب القوات المصرية الرئيسية من شبه جزيرة سيناء انتظارا للغزو البريطاني الفرنسي المتوقع في اتجاه الإسكندرية أو بورسعيد، ولم تبق في سيناء سوى ثماني كتائب مشاة، وزع سبع منها على مثلث أبو عجيلة - رفح - العريش، وتمركزت الكتيبة الثامنة في شرم الشيخ.

وعندما بدأ الهجوم الإسرائيلي بإسقاط كتيبة من رجال المظلات في الساعة الخامسة مساء يوم ٢٩ أكتوبر بالقرب من المدخل الشرقي لممر متلا على مسافة ٦٥ كيلو مترا من قناة السويس، ثم تسلمت مصر في اليوم التالي (٣٠ أكتوبر) إنذارا بريطانيا فرنسيا بطلب انسحاب القوات المصرية عشرة أميال غرب قناة السويس، وأن تقبل الاحتلال المؤقت من قوات الدولتين لبورسعيد والإسماعيلية والسويس، ليتسنى الفصل بين الطرفين المتحاربين وضمان حرية مرور السفن بالقناة وفقا لأحكام القانون الدولي - عندئذ انكشفت بجلاء أبعاد المؤامرة الثلاثية، فأصدرت القيادة السياسية أمرها بالانسحاب العام لجميع القوات المصرية في سيناء إلى غرب القناة؛ لإفساد المخطط الموضوع لقطع خط الرجعة على هذه القوات تمهيدا لإبادتها.

وفي الحرب الثالثة التي بدأت في ٥ يونيو ١٩٦٧، لم تسنح الفرصة للقوات المصرية للقتال، فقد تم حشد هذه القوات في سيناء بطريقة مظهرية وبعيدة عن أي أصول حربية، كما لم توضع لها أي خطة أو تحدد لها أي أهداف إستراتيجية، بل فرضت عليها أوضاع خاطئة تخالف كل المبادئ والأصول التكتيكية.

ونتيجة لارتباك القيادة العسكرية واهتزاز أعصابها في إثر ضربة الطيران الإسرائيلي صباح ٥ يونيو، صدر أمر الانسحاب المشئوم مساء يوم ٦ يونيو بدون وضع أي خطة أو تنظيم للانسحاب، الأمر الذي أدى إلى تحويل الانسحاب من عملية حربية إلى حالة شاملة من الفوضى والاضطراب، انتهت بإخلاء سيناء وفقد القوات المسلحة المصرية بصفة عامة ما يعادل ٨٠٪ من أسلحتها ومعداتها. ووصلت القوات الإسرائيلية يوم ٨ يونيو إلى الضفة الشرقية لقناة السويس، ووقعت أرض سيناء العزيزة في قبضة الغزاة.

وكان للانتصار الخاطف الذي أحرزته إسرائيل في حرب يونيو ١٩٦٧ تأثير كبير على كل من العرب والإسرائيليين. ورغم أن هذا الانتصار كان يرجع في الدرجة الأولى إلى الأخطاء التي ارتكبتها بعض القيادات العسكرية العربية وليس إلى مقدرة الجيش الإسرائيلي وبراعته، فإن إسرائيل أثملها النصر بعد أن استطاع جيشها إلحاق الهزيمة بثلاثة جيوش عربية في ستة أيام، وأن يضم إليها من الأراضي العربية ما يزيد على ثلاثة أمثال مساحتها. ولهذا انتاب إسرائيل الصلف والغرور، وآمنت بأوهام لم تلبث أن أصبحت بالنسبة لها حقائق ثابتة ومعتقدات راسخة، من بينها أسطورة التفوق النوعي الإسرائيلي على العرب وجيشها الذي لا يقهر. وذراع إسرائيل الطويلة القادرة على سحق أعدائها العرب في أي مكان مهما نأت ديارهم، فضلا عما كانت تردده عن تلك الفجوة الحضارية الواسعة التي تفصل بينها وبين العرب والتي تحتاج لعدة قرون حتى يستطيع العرب الاقتراب منها.

ونتيجة لضم الأراضي العربية الشاسعة إليها، آمنت إسرائيل بنظرية حاولت إقناع العالم وقتئذ بها، وهي نظرية الأمن الإسرائيلي، التي تقوم على أساس ارتكاز قواتها خلف موانع طبيعية والاحتفاظ بالأراضي المحتلة التي توفر لها العمق الإستراتيجي، وتبعد ميادين العمليات الحربية عن قلب إسرائيل والأماكن ذات الكثافة السكانية فيها، وتوفر لقواتها مجال التعبئة وحرية العمل والمناورة، وتهدد عمق الدول العربية المجاورة.

ورغم الجهود العربية والدولية التي بذلت لتسوية النزاع العربي الإسرائيلي بطريقة سلمية، فإن إسرائيل رفضت في عناد وإصرار أي تسوية سلمية، كما رفضت الالتزام بقرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ الصادر في ٢٢ نوفمبر ١٩٦٧ والذي ينص على الانسحاب الإسرائيلي من الأراضي العربية المحتلة في حرب يونيو ١٩٦٧، فقد كانت على يقين من عجز العرب عسكريا عن التحرك ضدها، وكانت على ثقة تامة بعدم مقدرة مصر، وهي الجبهة العربية الرئيسية من جبهات دول المواجهة، على القيام بأي هجوم شامل ضدها، وأن

أي محاولة مصرية لعبور القناة للحصول ولو على موطئ قدم على ضفتها الشرقية، سوف تقضي عليها قواتها في ساعات معدودة، كما رسخ في أذهان قادتها استحالة تنسيق أي هجوم عربي ضدها على أكثر من جبهة، بسبب عدم مقدرة القيادات العسكرية العربية على التخطيط، وضعف شأن القوات العربية وعجزها عن مواجهة جيش إسرائيل الذي لا يقهر.

ونتيجة لهذا الغرور القاتل، آمن القادة الإسرائيليون بأنهم يملكون التفوق التام، وأنه ليس أمام العرب سوى الاستسلام لشروط إسرائيل والسكوت المطلق عن المطالبة بأراضيهم التي احتلتها في حرب يونيو ١٩٦٧.

ولكن مصر على خلاف ما كانت إسرائيل تتوقع لم تستسلم لليأس، ولم يكن هناك مصري واحد يقبل أن يبقى جزء من تراب الوطن - وهو سيناء - خاضعا للاحتلال الإسرائيلي البغيض. وبدأت مصر على الفور في إعادة بناء قواتها المسلحة بمعاونة الاتحاد السوفيتي، الذي أمدها بالأسلحة والمعدات عوضا عما فقدته في حرب يونيو ١٩٦٧، فضلا عن إمدادها بالخبراء والمستشارين السوفيت.

هذا ولم تهدأ الجبهة المصرية عسكريا كما كانت إسرائيل تتوقع، فما كادت الدفاعات تقوى وتتماسك على طول مواجهة قناة السويس حتى بدأت حرب الاستنزاف في سبتمبر ٦٨، والتي استمرت لمدة عامين. وبرزت خلال هذه الحرب قوة نيران المدفعية المصرية، وتكبدت إسرائيل خسائر كبيرة في الأرواح والأسلحة والمعدات، مما دفعها إلى إقامة خط من الدفاعات والتحصينات والموانع والسواتر الترابية العالية أطلقت عليه اسم خط بارليف. وقد أنفقت إسرائيل على نظامها الدفاعي الذي أنشأته في سيناء حوالي ٥٠٠ مليون دولار، أنفق منها على تحصينات خط بارليف وحدها ٢٠٠ مليون دولار.

وكانت مصر على يقين من أن استرداد أرضها السليبة لا يمكن أن يتم إلا عن طريق حرب تحرير شاملة مع إسرائيل، ولكن كان من الواجب وضع إستراتيجية عليا لهذه الحرب، فإن سياسة الوفاق بين القوتين العظميين والتي كانت تدعو إلى الاسترخاء العسكري في المنطقة، لم تكن تتقبل نشوب حرب جديدة في الشرق الأوسط، وكان الموقف الدولي يتطلب أسلوبا خاصا في إدارة الصراع المسلح في المنطقة.

وإزاء هذه الحقائق، تم التخطيط لحرب أكتوبر على أنها حرب محدودة Local Conflict لا تستخدم فيها سوى الأسلحة التقليدية، ويكون لها أهداف إستراتيجية حاسمة بحيث تقوّض نظرية الحدود الآمنة الإسرائيلية، وتهدم أسس إستراتيجية إسرائيل القائمة

على أساس التفوق العسكري والسبق في توجيه الضربة الأولى؛ للحصول على المبادأة Initiative كوسيلة لإحراز المفاجأة الإستراتيجية، وهي الإستراتيجية التي تدعو إلى توجيه ضربة إجهاض ضد أي تحضيرات هجومية عربية، وأن تكون الحرب قصيرة وحاسمة مع نقل المعركة إلى الأراضي العربية فور بدء أي اشتباكات.

وكان التغلب على هذه الإستراتيجية الإسرائيلية يتطلب تحدي نظرية الأمن الإسرائيلي عن طريق عمل عسكري يكون هدفه إلحاق أكبر قدر من الخسائر بإسرائيل، وإقناعها بأن مواصلة احتلالها للأراضي المصرية يفرض عليها ثمنا باهظا لا تستطيع تحمله، على أن يمتد هذا العمل العسكري لفترة زمنية طويلة مما يكبد إسرائيل خسائر مادية ومعنوية لا قبل لها باحتمالها، ويتيح الفرصة في الوقت نفسه للطاقات العربية الأخرى للتدخل وفرض تأثيرها على نتائج الحرب.

وعندما بدأت الحرب في الساعة الثانية من بعد ظهر يوم ٦ أكتوبر ١٩٧٣ كانت إسرائيل ما تزال تبدو أمام العالم قلعة عسكرية منيعة لا يمكن اقتحامها. ووصل الغرور بالإسرائيليين إلى الاعتقاد بأن هذه الحرب ما هي إلا اليوم السابع من حرب الأيام الستة السابقة. ومن قاعة دار «سوكولوف» التي شهدت المؤتمرات الصحفية الخاصة بأنباء الانتصارات الإسرائيلية الباهرة في حرب يونيو ٦٧، أعلن موشى ديان وزير الدفاع مساء ٦ أكتوبر في مؤتمر صحفي «سوف يدحر جيش الدفاع الإسرائيلي المصريين بضربة شديدة في سيناء، وسوف ينتهي القتال بانتصارنا في الأيام القادمة».

وصرح الجنرال دافيد أليعازر رئيس الأركان في مؤتمر صحفي يوم ٨ أكتوبر وسط تصفيق الحاضرين، بأن الجيش الإسرائيلي سيواصل ضرب العدو وتحطيم عظامه.

ولكن هذه الأوهام الإسرائيلية لم تلبث أن تبددت منذ الساعات الأولى من القتال، فقد نجحت القوات المصرية في اقتحام قناة السويس واجتياح حصون خط بارليف، وبدأت في إنشاءمنطقة رءوس الكباري - وفقا للخطة الموضوعة - على الضفة الشرقية للقناة، كما تمكنت من تدمير ثلاثة ألوية مدرعة إسرائيلية تدميرا يكاد يكون كاملا. وعلى الجبهة السورية، نجحت القوات السورية في عبور الخندق الصناعي الذي أقامته إسرائيل، واندفعت كالسيل الجارف تشق طريقها في مرتفعات الجولان من الشرق إلى الغرب على ثلاثة محاور رئيسية.

وهكذا انهارت نظرية الأمن الإسرائيلي بكل أسسها ومقوماتها، وتقوّضت سمعة

الجيش الإسرائيلي الذي ذاعت شهرته في الآفاق بأنه الجيش الذي لا يقهر، وأصيب الشعب الإسرائيلي بصدمة عنيفة وصفها بعض المحللين العسكريين بالعبارة الشهيرة «زلزال في إسرائيل».

لقد كانت حرب أكتوبر حدثا فريدا بلا شك، بل نقطة تحول Turning Point في مسار الصراع العربي الإسرائيلي. فقد تعرضت إسرائيل كدولة لمفاجأة إستراتيجية كاملة أفقدت الإسرائيليين ثقتهم في جيشهم وفي جهاز مخابراتهم، الذي كان يدّعي أنه أقدر جهاز مخابرات في العالم خبرة بشئون الشرق الأوسط. كما تعرضت القوات الإسرائيلية على جبهتي سيناء والجولان لمفاجأة تكتيكية أفقدت أفرادها توازنهم، وأجبرتهم على الانسحاب من مواقعهم الأمامية. وكان الأمر الذي أدهش العالم هو نجاح مصر وسوريا في تحقيق المفاجأة على المستويين الإستراتيجي والتكتيكي - رغم التطور الهائل في وسائل الاستطلاع الحديثة - وقدرتهما على خداع جهازي المخابرات الإسرائيلية والمخابرات الأمريكية في وقت واحد.

ولقد تمكنت القوات المصرية من تقويض أسس العقيدة القتالية للقوات الإسرائيلية خلال حرب أكتوبر، ففقدت بالتالي مميزاتها الرئيسية وأهمها خفة الحركة والقدرة على المناورة وتحقيق السيادة الجوية على ميدان المعركة. فقد هبطت قدرات وفعالية الدبابات الإسرائيلية إلى درجة خطيرة عندما واجهت القواذف والصواريخ المضادة للدبابات المصرية، كما اضطرت الطائرات الإسرائيلية إلى تجنب الاقتراب من قناة السويس، حتى لا تقع فريسة لشبكة الصواريخ المصرية أرض جو سام المنتشرة غرب قناة السويس. وإزاء كثافة الصواريخ المصرية وفعاليتها ضد كل من الطائرات والدبابات، وهما السلاحان الرئيسيان لإسرائيل اللذان كانا يهيئان لها القدرة على شن الحرب الخاطفة القصيرة المدى فيما مضى، فقد ارتبكت خططها العسكرية وتجمدت عقيدتها الهجومية وعجزت عن إحراز التفوق الذى كانت تحصل عليه دائما في الحروب السابقة مع العرب، وفي الوقت نفسه استرد العرب كرامتهم وثقتهم في أنفسهم وسمعتهم أمام العالم، واسترد الجندي العربي ثقته في نفسه وفي سلاحه وفي قياداته، وكان أحسن تعبير عما جرى هو أن العرب قد عبروا الهزيمة.

هذا ولم تقدم الخطوط الدفاعية والتحصينات القوية على جبهتي سيناء والجولان في بداية الحرب الوقاية التي كانت تنشدها إسرائيل من إقامتها، فقد سقطت حصون خط بارليف الشامخة في ساعات معدودة، كما تمكنت القوات العربية من اقتحام هذه

التحصينات واكتساحها على الجبهتين، وثبت أن الموانع الطبيعية والصناعية والدفاعات الحصينة لا يمكنها أن تقف حائلا أمام الجيوش الحديثة، بما لديها من تجهيزات وأسلحة ومعدات، وبخاصة إذا كان لديها العزيمة والإرادة والتصميم على القتال.

ولا شك في أن حرب أكتوبر قد قلبت موازين القوى في الشرق الأوسط رأسا على عقب، فقد كانت إسرائيل تركز بعد حرب يونيو ٦٧ على نغمة التفوق النوعي للفرد الإسرائيلي، ومقدرته على استخدام التكنولوجيا الحديثة، مما يقلل إلى حد كبير من ميزة التفوق العددي العربي.

وجاءت حرب أكتوبر، فكان من أبرز سماتها ظهور كفاءة المقاتل العربي ومدى ارتفاع مستوى نوعيته وقدرته على استيعاب واستخدام الأسلحة الحديثة والمعقدة بما فيها الأسلحة الإلكترونية. لقد أثبت كل من المخطط والقائد والمقاتل العربي كفاءته وقدراته الحقيقية في ميدان القتال، ولذا فإنه بإضافة النوعية العربية المتفوقة على الكم العددي فسوف تكون للعرب الكفة الراجحة في أي صراع مقبل في الشرق الأوسط.

ولقد أفرزت حرب أكتوبر العديد من الدروس المستفادة التي كان لها تأثير كبير في إعادة تقييم النواحي الإستراتيجية والسياسية بالنسبة للشرق الأوسط، وفرضت على العالم أن يعيد حساباته بالنسبة لموقفه من النزاع العربي الإسرائيلي.

لقد شهد مسرح العمليات بالشرق الأوسط في حرب أكتوبر أكبر حشد من الجيوش المتحاربة في تاريخ الصراع العربي الإسرائيلي، سواء من ناحية حجم القوات أو من ناحية الأسلحة والمعدات والذخائر التي استخدمت. وقد أثبتت نتائج الاشتباكات أن الحرب باهظة التكاليف فادحة الخسائر، وأن من المستحيل على أي دولة صغيرة أن تستمر في القتال لمدة طويلة دون أن تتلقى الإمدادات من دولة عظمى تساندها. ولولا الإمدادات الأمريكية التي زودت بها الولايات المتحدة إسرائيل عن طريق الجسرين البحري والجوي، ولولا الإمدادات السوفيتية التي أمد بها الاتحاد السوفيتي سوريا ومصر عن طريق الجسرين البحري والجوي، لما كان في الإمكان أن يواصل الطرفان هذه الحرب طوال المدة التي استغرقتها؛ إذ إن معدلات الاستهلاك كانت عالية للغاية. وبهذا لن تكون هناك وسيلة للتقليل من نفوذ الدولة العظمى التي تورد السلاح والمعدات للدولة الصغرى، والتي تتحكم تبعا لذلك في فرض وقف إطلاق النار في الموعد الذي يتمشى مع مصالحها، إلا باللجوء إلى سياسة تنويع مصادر السلاح والعمل على توافر القدرة الذاتية على التصنيع الحربي.

وكان من ضمن الدروس المفيدة التي بينتها الحرب أيضا خطأ إستراتيجية إسرائيل في التركيز على سلاحي الطيران والمدرعات في الجيش الإسرائيلي، فقد أحدث التزاحم على الحصول على أحدث الطائرات والدبابات دون غيرها خللا خطيراً فيما يتعلق بالتوازن المطلوب في معركة الأسلحة المشتركة، إذ تم إهمال سلاحي المشاة والمدفعية مما أدى إلى أن تتكبد الوحدات المدرعة الإسرائيلية خسائر فادحة على جبهتي سيناء والجولان في المرحلة الأولى من الحرب. وجرى هذا في الوقت الذي حققت فيه معركة الأسلحة المشتركة المصرية نجاحا باهرا على المستوى التكتيكى، وحقق تعاون جميع أفرع القوات المسلحة نجاحا مرموقًا على المستوى الإستراتيجي.

ولقد أثارت معارك حرب أكتوبر العديد من التساؤلات حول مستقبل بعض الأسلحة الرئيسية في حروب المستقبل. فقد ثار التساؤل حول مدى سيادة الدبابة لميدان القتال، وهل ستظل محتفظة بالمكانة العالية التي تحتلها في المعركة الهجومية؟ لقد نجح المشاة المصريون المجردون من أي تدريع ومن مسافات قصيرة، في صد أقوى أنواع الدبابات الإسرائيلية، من طراز «سنتوريان وM48 وM60» وفي إلحاق خسائر جسيمة بها خاصة في المرحلة الأولى من الحرب، عن طريق استخدام قذائف «آر بي جي ٧» المضادة للدبابات وصواريخ مالوتكا (ساجر) الموجهة بالسلك. ولا شك في أن الصراع بين الدبابة والصاروخ الموجه ضدها سوف يستمر لزمان غير محدد، إذ كلما تطورت وتحسنت في المستقبل وسائل التوجيه للمقذوفات الصاروخية المضادة للدبابات، فسوف يقابلها من الناحية الأخرى تحسن وتطوير في وسائل الإعاقة المضادة للصواريخ التي ستزود بها الدبابة في المستقبل. ورغم الخسائر الكبيرة التي لحقت بالدبابات في حرب أكتوبر، سواء لدى الجانب المصري أو الإسرائيلي بفعل الصواريخ المضادة للدبابات، فسوف تبقى التشكيلات المدرعة بلا شك هي عنصر الهجوم الرئيسي في معركة الأسلحة المشتركة.

وقد أثبت الدفاع الجوي المصري فعاليته في الحد من التفوق الجوي الإسرائيلي على أرض المعركة، وقد كانت صواريخ سام ٢ وسام ٣ التي أثبتت فعاليتها خلال حرب الاستنزاف مضافا إليها صواريخ سام ٦ المتحركة والمدافع ٢٣ مم الرباعية المواسير (شيلكا) وعدد كبير من صواريخ الكتف سام ٧، هي الوسائل الرئيسية التي أمكن بها تحقيق ذلك الهدف. وبفضل شبكة الدفاع الجوي المشكّلة أساسا من الصواريخ أرض جو سام، عجزت الطائرات الإسرائيلية عن تدمير الكباري التي أقامتها القوات المصرية على قناة السويس، وبذا تم تأمين تدفق القوات والإمدادات طوال مراحل الحرب إلى الضفة

الشرقية. ولقد أجبرت النتائج التي أحرزتها قوات الدفاع الجوي المصرية الدوائر العسكرية الغربية على إعادة النظر في أنظمة دفاعها الجوي فيما يختص بالتوازن بين الطائرات المقاتلة والصواريخ المضادة للطائرات. فقد أثبتت الدروس المستفادة من حرب أكتوبر مدى أهمية الدور الذي تلعبه الصواريخ المضادة للطائرات. فإذا اعتبرنا أن الطائرات المقاتلة هى العنصر الرئيسى للدفاع الجوي Main Element فينبغي أن تكون الصواريخ المضادة للطائرات هي العمود الفقري Back Bone لهذا الدفاع. لقد كانت حرب أكتوبر ٧٣ هي أول حرب إلكترونية في التاريخ، فقد شهدت هذه الحرب استخداما مكثفا لكل ما توصل إليه العلم والتكنولوجيا في هذا المجال، وواجهت قوات الدفاع الجوي المصري أحدث ما أنتجته الترسانة الأمريكية من معدات وفنون الإعاقة الإلكترونية بكل صورها وأشكالها.

هذا وتشهد النتائج التي أحرزتها قوات الدفاع الجوي المصري في حرب أكتوبر، بأن هذه الإعاقة لم يكن لها التأثير ولا الفعالية التي كانوا ينشدونها فيها. وبذا تمكنت هذه القوات من تحقيق المبدأ القائل: «إن أي جهاز رادار يمكن إعاقته، وأيضا كل إعاقة يمكن مقاومتها بإعاقة مضادة». وكانت الدروس المستفادة من عمليات القوات الجوية المصرية في حرب أكتوبر أن تحقيق مبدأ الحشد الذي هو من أهم مبادئ الحرب قد أدى إلى نجاح الضربة الجوية المركزة التي أفقدت العدو توازنه منذ اللحظات الأولى من القتال. كما أن نجاح هذه الضربة في شل مراكز الإعاقة والسيطرة الجوية للعدو قد أتاح الفرصة للطائرات المصرية بمختلف أنواعها وواجباتها، كي تعمل بحرية وخاصة في المرحلة الأولى من الحرب. وقد حقق التعاون الفعال مع وسائل الدفاع الجوي تأمين وحماية القوات والأهداف الحيوية للدولة.

وكانت ثقة الطيارين بأنفسهم وروحهم المعنوية العالية، سببا في جعلهم يتفوقون على المعدلات القياسية العالمية. وأخيرا ثبت أنه يلزم الدول النامية التي لا تمتلك قاعدة صناعية حربية أن يكون لديها مخزون كاف من السلاح لمواصلة المعركة حتى لا تستطيع الدول الكبرى التحكم في قرار مواصلة القتال.

وعن النتائج الإستراتيجية للحرب، يمكن التأكيد بأن من أهم النتائج هو تحقيق الهدف الرئيسي التي كان ينشده الرئيس الراحل أنور السادات، وهو إنهاء حالة اللاسلم واللاحرب التى كان استمرارها لا يعني سوى انهيار مصر وتعرضها لدمار محقق. فقد أرغمت القوتان العظميان على التدخل المباشر لمحاولة إيجاد حل للنزاع العربي الإسرائيلي

وعلى ممارسة تأثيرهما القوى لإنهاء حالة الركود الذي ساد الموقف السياسي منذ انتهاء حرب يونيو ١٩٦٧، وذلك بهدف التوصل إلى إقرار السلام في الشرق الأوسط.

كما أظهرت الحرب بجلاء مدى أهمية التضامن العربي في مواجهة الخطر الإسرائيلي، فقد اتخذت الدول العربية جميعا خطوات عملية لتدعيم مصر وسوريا، فقامت تسع دول منها بتقديم الدعم العسكري لهما بنسب متفاوتة، وهي العراق والجزائر وليبيا والأردن والمغرب والسعودية والسودان والكويت وتونس. كما قررت دول الخليج والمملكة السعودية تقديم الدعم المالي لهما، فقدمت السعودية مائتي مليون دولار وقدمت الإمارات مائة مليون دولار لمصر وخمسين مليون دولار لسوريا، وأسهمت قطر بخمسة عشر مليون دولار وبمعونات عينية من الأدوية والقمح، ووضع الرئيس الجزائري بومدين خلال زيارته للاتحاد السوفيتي مائة مليون دولار تحت تصرف كل من مصر وسوريا لدى الحكومة السوفيتية لتدبير ما قد تحتاجه الدولتان من تسليح.

وعلى الجبهة الاقتصادية، اتخذت الدول العربية المنتجة للبترول قرارا بتخفيض إنتاجها من البترول، ثم أعلنت تطبيق الحظر الكامل على صادراتها إلى الولايات المتحدة، وبذلك تأكد دور البترول كسلاح فعال لتحقيق الأهداف السياسية العربية، فقد ارتبط أمام العالم بإعادة إسرائيل إلى حدود ما قبل ٥ يونيو ١٩٦٧. وقد أثر الحظر البترولي تأثيرا فعالا على دول أوربا الغربية واليابان، مما جعلها تضغط بقوة على الولايات المتحدة للاستجابة إلى الحق العربي. وعلى المستوى السياسي اتسع نطاق المعركة إلى آفاق بعيدة غير متوقعة، فقد أصيب حلف الأطلنطي بشرخ كبير نظرا لغضب الأعضاء من موقف الولايات المتحدة المتسلط تجاهها، وكانت صدمة كبيرة لهذه الدول عندما طلبت منها الولايات المتحدة أن تقدم إلى طائراتها تسهيلات الهبوط والتزود بالوقود في مطاراتها وقواعدها الجوية، لتمكينها من إقامة الجسر الجوي الطويل لنقل الإمدادات والأسلحة والذخائر من القواعد الجوية الأمريكية إلى إسرائيل. وقد اعتذرت بعض هذه الدول عن عدم إمكانها تقديم هذه التسهيلات، ورفضت بعض الدول الأخرى رفضا باتا صريحا حرصا على عدم إثارة العرب ضدها، وخشية رفض إمدادها بالبترول من جهة، ولإيمان معظمها بعدالة قضية العرب من جهة أخرى. ولم تتمكن الطائرات الأمريكية إلا من استخدام مطار واحد فقط في جزر الأزور في محيط الأطلنطي التابعة للبرتغال. وفي المقابل، غضبت الإدارة الأمريكية من موقف حلفائها الأوربيين، واعتبرت موقفهم المعارض من هبوط طائرات الجسر الجوي الأمريكي في مطاراتهم بمثابة جحود ونكران للجميل، باعتبار أن مظلتها

النووية في أوربا الغربية هي التي تحمي هذه الدول من الخطر النووي السوفيتي. وعلى المستوى الإفريقي، قامت اثنتان وعشرون دولة بقطع علاقاتها الدبلوماسية بإسرائيل، فضلا عن ثماني دول أخرى كان قد سبق لها قطع علاقاتها معها في أعقاب حرب يونيو ١٩٦٧. وكانت هذه الخطوة بمثابة نجاح كبير للسياسة المصرية إزاء القارة الإفريقية، وكانت تمثل في الواقع إضافة جديدة لتحقيق عزلة إسرائيل سياسيا، ودعما لا شك فيه للسياسة العربية.

كل حرب في التاريخ مهما كانت نتائجها لا بد أن تضم كثيرا من نقاط القوة ومن نقاط الضعف على السواء، ولذا فمن واجب كل دولة عقب أي حرب من الحروب أن تأمر بإجراء الدراسات والبحوث وتقصي الحقائق لمعرفة عناصر التفوق والقوة التي ظهرت، وفي نفس الوقت لاكتشاف أوجه القصور والضعف وتحديد الأخطاء التي وقعت في هذه الحرب، إذ إن تجارب الحروب هي دون غيرها من التجارب تسدد الجيوش ثمنها بالدماء وتدفع فيها الدول أغلى ثرواتها البشرية والاقتصادية. ولهذا ينبغي الخروج منها بالتجارب والدروس المستفادة حتى لا تضيع أرواح الضباط والجنود وثروات البلاد هباء، وحتى يتعلم القادة على جميع المستويات والجنود من واقع خبراتهم وخبرات من سبقوهم من أبناء الوطن، والتي اكتسبوها في ميادين القتال بعرقهم ودمائهم، ما يجنبهم بعد ذلك مزالق الأخطاء ونواحي الضعف والقصور التي حدثت من قبل.

ولقد كان من أكبر أخطاء القيادة المصرية عقب انتهاء العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦، تسترها على الأخطاء العسكرية الجسيمة التي ارتكبتها بعض القيادات العسكرية الكبرى، وإسدال ستار كثيف من السرية والكتمان على ما وقع خلال هذه الحرب من خلل وتقصير أديا إلى تدمير معظم الطائرات المصرية في مطاراتها وهي جاثمة على الأرض، وكذا ما جرى في سيناء من عمليات انسحاب لبعض الوحدات العسكرية بطريقة غير منظمة اتسمت بالفوضى والارتباك ومخالفة جميع الأصول والمبادئ التكتيكية السليمة، فضلا عن حالات الانهيار التي أصابت بعض القادة نتيجة لضعفهم وعجزهم عن التصرف إزاء المواقف الحرجة التي كانت تواجههم.

وبدلا من إجراء تحقيق ودراسة دقيقة لاكتشاف أسباب الخلل ونقاط الضعف، ولتحديد القادة المسئولين عن هذه الأخطاء لمحاسبتهم، أو على الأقل تنحيتهم عن مناصبهم ليحل محلهم قادة آخرون مشهود لهم بالكفاءة والخبرة فضلا عن الشجاعة

والإقـدام، أدى الصراع على السلطة الذي كان قائما وقتئذ بين الرئيس جمال عبد الناصر والمشير عبد الحكيم عامر إلى إصرار المشير عامر على التمسك بهؤلاء القادة، باعتبارهم رجاله ومناصريه ضد خصومه ومعارضيه، ولذا بقوا جميعا في قياداتهم ومناصبهم رغم إرادة عبد الناصر رئيس الدولة.

ولم تبذل أي جهود تستحق الذكر لدراسة الخطط الإستراتيجية والتكتيكية التي اتبعتها إسرائيل في عملياتها الهجومية على سيناء، أو تحليل المعارك الحربية التي نشبت بين قوات الطرفين المتحاربين، للخروج بالدروس المستفادة من الحرب، وبالتالي معرفة العقيدة الإستراتيجية لإسرائيل، واكتشاف أساليبها التكتيكية في الهجوم لوضع الخطط المضادة لها وتدريب الضباط والجنود على كيفية مواجهتها، وإعداد الأسلحة اللازمة للقضاء عليها، كما جرى الحال بعد ذلك ضمن المرحلة التحضيرية لحرب أكتوبر ١٩٧٣.

وبدلا من جلب المراجع والكتب العسكرية الإسرائيلية والأجنبية التي صدرت عن حرب العدوان الثلاثي عام ١٩٥٦ لترجمتها وتوزيعها على القادة والضباط المختصين، كي يعرفوا حقيقة ما جرى في الحرب من وجهة النظر الإسرائيلية، وليطلعوا على بعض وجهات النظر المحايدة كنوع من التعليم واكتساب مزيد من الخبرة والتثقيف في المجال العسكري، إذا بالسياسة التي اتبعت هي منع دخول هذه الكتب بمختلف أنواعها وحظر تداولها في مصر. واشتركت أجهزة الإعلام جميعا بعد الحرب في التطبيل والتهليل وإذاعة الأغاني والأناشيد الحماسية للإشادة بانتصارات عسكرية وهمية، وللتفاخر بأمجاد لا أساس لها من الواقع، مما أدى إلى خداع الشعب، وإلى أن يصدق القائمون بأمر هذه الدعايات الجوفاء أنفسهم في آخر الأمر.

وعندما قامت إسرائيل بعدوانها على مصر في ٥ يونيو ٦٧، لم تجد أدنى صعوبة في تكرار الجانب الرئيسي من خطتها السابقة «قادش» التي قامت قواتها بتنفيذها عندما شنت الهجوم على مصر في ٢٩ أكتوبر ١٩٥٦ دون أي تغيير.

ونظرا لأن القيادات العسكرية الكبرى التي واجهت الهجوم الإسرائيلي كانت واحدة في الحربين، لذا فكما كررت إسرائيل خططها وأساليبها دون تغيير كررت هذه القيادات نفس أخطائها السابقة دون تصحيح أو تطوير. لكن مصر في حرب يونيو ٦٧ هي التي دفعت الثمن، وكان ثمنا فادحا دفعته مصر وقواتها المسلحة من كرامتها وكبريائها وسمعتها.

ولقد وجدت لزاما عليّ بعد ذلك الانتصار الباهر الذي أحرزته قواتنا المسلحة في حرب أكتوبر ١٩٧٣ المجيدة، والذي استعادت به مصر كرامتها وشرفها وسمعتها أن

أسجل هذه الملحمة الحربية الفذة تسجيلا أمينا بعيدا عن التحيز والمبالغة، وأن أقوم بالتحليل الفني لجميع أحداث ومواقف هذه الحرب بكل صراحة وصدق. وقد كان اهتمامي بإبراز نقاط الضعف والأخطاء التي ارتكبت يماثل نفس اهتمامي بالإشادة بنقاط القوة والتفوق التي ظهرت، إذ إن إبراز كلتا الناحيتين هو الوسيلة الصحيحة للاستفادة من دروس الحرب وتجاربها دون زيف أو خداع.

وقد حرصت على أن يكون شرحي وتحليلي الفني للمعارك الحربية سهلا ومبسطا، وأن أرفق به بعض الخرائط والكروكيات المناسبة التي يمكن الاستعانة بها لفهم المواقف وتتبع الشرح، وبذا تتاح الفرصة للعسكريين والمدنيين على السواء من هذا الجيل والأجيال القادمة بمشيئة الله للاستفادة من ثمرة هذه الدراسة الطويلة المضنية، التي أنفقت فيها خمس سنوات كاملة من عمري عكفت خلالها على الاطلاع على كل ما تيسر لي الحصول عليه من الكتب والمراجع العربية والأجنبية. كما كان اهتمامي كبيرا بالاطلاع على وجهة نظر الجانب الإسرائيلي للعمليات الحربية التي دارت على الجبهة المصرية، وقد انتقيت لهذا الغرض مجموعة من الكتب الإسرائيلية المفيدة والبعيدة قدر الإمكان عن التحيز والمبالغة، وقد أمكنني عن طريقها استكمال الصورة الصحيحة لأهم المعارك التي دارت خلال هذه الحرب.

وفضلا عن ذلك، سنحت لي الفرصة لإجراء لقاءات شخصية ومناقشات مطولة على الخرائط مع نخبة من قادة حرب أكتوبر، حول الوقائع والعمليات الحربية التي جرت في قطاعاتهم أو التي اشتركت فيها تشكيلاتهم ووحداتهم، مما كان له فائدة كبرى في الدراسة التي أجريتها.

وحرصا على استكمال الجوانب الميدانية في الدراسة وتطبيق الآراء الإستراتيجية والنظريات التكتيكية على الواقع، كان من الضروري إلقاء نظرة فاحصة على المسرح الذي دارت عليه أهم العمليات الحربية خلال هذه الحرب. ولذا قمت في أثناء هذه الدراسة بزيارة ميدانية للأرض، حيث شاهدت على الطبيعة أهم المعالم والهيئات الحاكمة والمواقع الحصينة على الجانب الشرقي لقناة السويس ومن بينها أحد حصون خط بارليف. وكان اهتمامي كبيرا بمعاينة منطقة الدفرسوار التي تم من خلالها عبور القوات الإسرائيلية إلى الضفة الغربية للقناة، كما تتبعت بدقة محور تقدم هذه القوات بعد عبورها للقناة.

وبعد أن استكملت دراستي لملحمة حرب أكتوبر ١٩٧٣ بعون الله، وأردت إخراجها في كتاب يمكن أن يتداوله القراء، وجدت أنه من المتعذر إصدارها في كتاب واحد لفرط

ضخامتها، ولذا قمت بتوزيعها في كتابين يصلح كل منهما ليكون كتابا مستقلا. وقد صدر الكتاب الأول عام ١٩٨٨ تحت عنوان «من سيناء إلى الجولان»، ويضم هذا الكتاب أهم الأحداث العسكرية والسياسية للفترة المهمة التي تربو على ست سنوات والتي تقع ما بين حرب يونيو ١٩٦٧ وحرب أكتوبر ١٩٧٣، مضافا إليها جميع أحداث ووقائع حرب أكتوبر فيما عدا التحليل الفني للمعارك الحربية. ويقع الكتاب في ٦٢١ صفحة ويضم عشرة فصول كاملة محلاة بالصور وملحقين.

ويصدر هذا الكتاب عام ١٩٨٩ تحت عنوان «المعارك الحربية على الجبهة المصرية»، وهو عبارة عن شرح تحليلي دقيق لمعارك ووقائع وأحداث ومواقف حرب أكتوبر على جميع ساحات القتال. وقد زودته بالخرائط والكروكيات اللازمة ليمكن للقراء تتبع الشرح. ويضم الكتاب ١٤ فصلا وسبعة ملاحق، وكلها محلاة بالصور النادرة لقادة الحرب والأسلحة التي استخدمت فيها من الجانبين وبعض المواقف المهمة التي أمكن تسجيلها خلال الحرب.

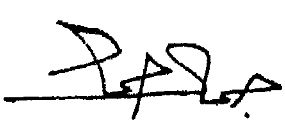
وبصدور هذين الكتابين، يكون الله سبحانه وتعالى قد وفقنا إلى إخراج «موسوعة حرب أكتوبر ١٩٧٣» بالصورة اللائقة المشرفة.

وأرجو أن أكون قد سددت بهذا الجهد المتواضع جانبا ولو ضئيلا من ذلك الدَّين الذي أدين به للقوات المسلحة التي أمضيت في خدمتها أحلى سنوات العمر، وأن أكون قد أوفيت بعهدى لها ولوطنى العزيز ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (الفتح: ١٠).

صدق الله العظيم

١٠ رمضان ١٤٠٩ هـ

١٦ إبريـــل ١٩٨٩م



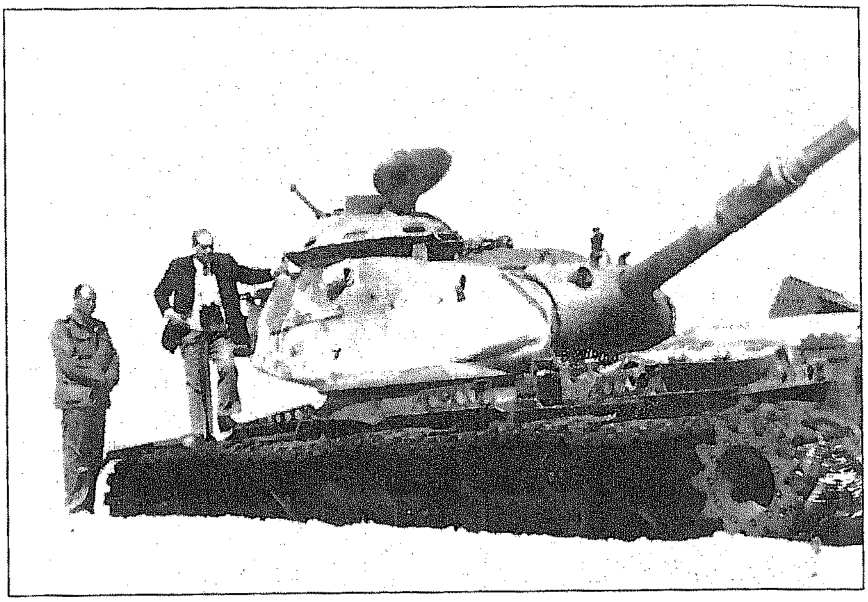


الرئيس محمد حسني مبارك

رئيس جمهورية مصر العربية

القائد الأعلى للقوات المسلحة

وقائد القوات الجوية في أثناء حرب أكتوبر ١٩٧٣.





المؤرخ العسكري جمال حماد في أثناء زيارته الميدانية لجبهة القتال التي دارت عليها أعنف معارك حرب أكتوبر ١٩٧٣.



أمام أحد حصون خط بارليف الذي اجتاحته القوات المصرية في
الساعات الأولى من حرب أكتوبر ١٩٧٣.

بسم الله الرحمن الرحيم

اكاديمية ناصر العسكرية العليا.
كلية الحرب العليـــا

القيد : ٨٨/٦٠٠/٦١٣
التاريخ : ١١/ ٧/ ١٩٨٨

مرفقات : (١)

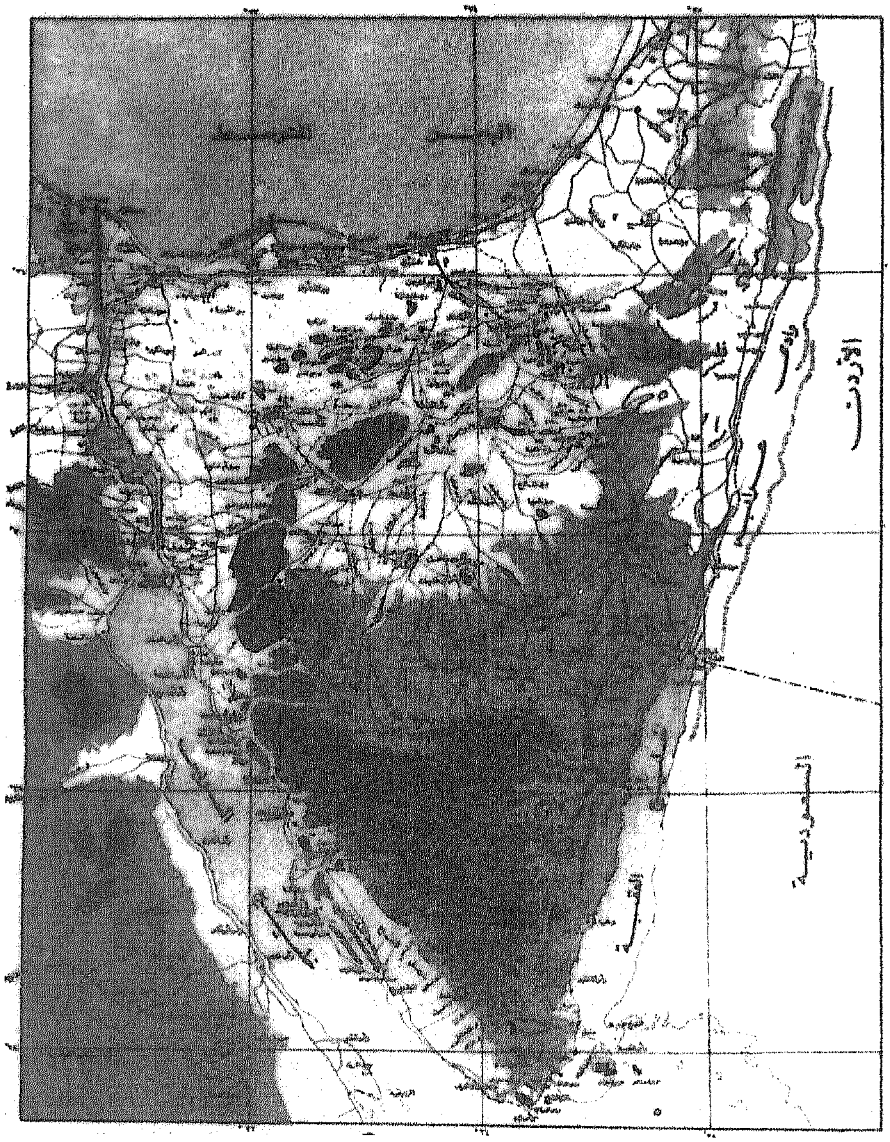
الى / السيد الاستاذ جمال حماد

يسعد كلية الحرب العليا بأكاديمية ناصر العسكرية العليـــا أن توجه الدعوة الى سيادتكم لحضور مناقشة مرجع " من سيناء الـــى الجولان " من تأليفكم الذى ينفذ فى اطار المنهج الدراسى للدورة الثانيـــة عشر بكلية الحرب العليا يوم السبت الموافق ١٦ يوليو ١٩٨٨ اعتبارا مـــن سعت ٠٩٠٠ وحتى سعت ١٤٠٠ من نفس اليوم .

برجاء التكرم بتشريفنا وحضور المناقشة وتعليقكم عليها .

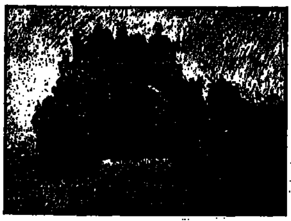
مع وافر التحيه

التوقيع "
لواء اح / محمود محمد احمد أمـــام
مدير كلية الحرب العليـــا



شبه جزيرة سيناء

مسرح العمليات في حرب أكتوبر ١٩٧٣.



■ الفصــل الأول ■

كيف جرى التخطيط لحرب أكتوبر ١٩٧٣؟

بعد هزيمة ٥ يونيو واستيلاء القوات الإسرائيلية على شبه جزيرة سيناء وقطاع غزة، كان الواجب الرئيسى للقيادة العامة للقوات المسلحة ورئاسة الأركان هو إعادة تنظيم وتسليح وتدريب القوات المسلحة المصرية التي أصيبت بالانهيار خلال الحرب على أسس سليمة من النظام والتخطيط والانضباط.

ومنذ شهر يوليو ٦٧ بدأت هيئة العمليات الحربية في وضع الخطة العسكرية لتحرير الأرض المحتلة بناء على توجيهات القيادة العامة للقوات المسلحة. وقد ظلت خطط العمليات تتبدل وتتغير عدة مرات، سواء في أهدافها المرحلية أو في أهدافها النهائية، حتى استقر الرأي في النهاية على تبني «الخطة جرانيت ٢ المعدلة»، والتي تم بموجبها تنظيم التعاون بين القيادتين: المصرية والسورية يوم ٧ يونيو ٧٣ بمقر القيادة العامة المصرية بمدينة نصر.. وهي الخطة التي تم تغيير اسمها الكودي في شهر سبتمبر ٧٣ إلى الخطة «بدر».
ولقد تولى منصب القائد العام للقوات المسلحة خلال الفترة من ١١ يونيو ٦٧ حتى بدء حرب أكتوبر ٧٣ (حوالي ست سنوات وأربعة أشهر) ثلاثة من القادة. ومما يدعو إلى الالتفات إليه أنهم جميعا تولوا منصب رئيس أركان حرب القوات المسلحة قبل إسناد منصب القائد العام إليهم، وهم وفقا لترتيب توليهم مناصبهم:

● الفريق أول محمد فوزي: وقد تولى منصب رئيس الأركان قبل حرب يونيو ٦٧، ثم تولى منصب القائد العام للقوات المسلحة من ١١ يونيو ٦٧ حتى تقدم باستقالته في ١٣ مايو ٧١، وبذا يكون قد أمضى في منصبه حوالي أربعة أعوام..

● الفريق أول محمد أحمد صادق: وقد تولى منصب رئيس الأركان اعتبارا من ١٠ سبتمبر ٦٩، وبعد أن أمضى حوالي عشرين شهراً في هذا المنصب عهد إليه بمنصب القائد العام

للقوات المسلحة يوم ١٣ مايو ٧١ على أثر الأحداث المعروفة بحركة ١٥ مايو، واستمر في منصبه حوالي عام ونصف العام حتى تمت للسادات تنحيته في ٢٦ أكتوبر ٧٢ .

- المشير أحمد إسماعيل علي : وقد تولى منصب رئيس الأركان اعتبارا من ١٠ مارس ٦٩، على أثر استشهاد الفريق عبد المنعم رياض، ولم يبق في منصبه سوى ستة أشهر فقط، فقد أمر عبد الناصر بتنحيته عن منصبه في ١٠ سبتمبر ٦٩ على أثر وقوع الإغارة البرمائية الإسرائيلية على الزعفرانة على خليج السويس في اليوم السابق، ولكن الرئيس الراحل السادات أسند إليه منصب القائد العام للقوات المسلحة في يوم ٢٦ أكتوبر ٧٢ على أثر تنحية الفريق أول محمد صادق، أي قبل نشوب حرب أكتوبر بعام واحد فقط .

هذا وقد تولى منصب رئيس أركان حرب القوات المسلحة خلال هذه الفترة أربعة من القادة، ذكرنا منهم اثنين وهما : المشير أحمد إسماعيل والفريق أول محمد صادق . وهناك اثنان آخران توليا هذا المنصب هما :

- الفريق عبد المنعم رياض : وقد تولى منصب رئيس الأركان في ١٢ يونيو ٦٧ وظل يتولاه لمدة ٢١ شهرا حتى استشهد في ٩ مارس ٦٩ خلال حرب الاستنزاف .
- الفريق سعد الشاذلي : وقد تولى منصب رئيس الأركان يوم ١٦ مايو ٧١ على أثر أحداث ١٥ مايو المعروفة، أي قبل نشوب حرب أكتوبر بحوالي عامين ونصف العام .

وهؤلاء القادة الخمسة كانوا هم بلا شك المسئولين طوال الفترة بين الحربين (يونيو ٦٧ وأكتوبر ٧٣) وفقا لترتيب توليهم لمناصبهم عن وضع الأسس والتوجيهات لهيئة العمليات الحربية، لإعداد خطط العمليات الهجومية لتحرير الأرض السليبة بشتى أشكالها ومراحلها مع مراعاة مدى إمكانات وقدرات القوات المسلحة على التنفيذ . وقد تمت لهم بالطبع مناقشة هذه الخطط الموضوعة على المستوى العسكري مع هيئة العمليات ومديري الأفرع والأسلحة وقادة الجيوش الميدانية . وعلى المستوى السياسي مع رئيسي الجمهورية الراحلين : عبد الناصر والسادات . ونظراً لأن ثلاثة فقط من هؤلاء القادة قاموا بنشر آرائهم بالنسبة لخطط العمليات الموضوعة وهم : الفريق أول محمد فوزي والفريق أول محمد صادق والفريق سعد الشاذلي، لذلك سوف نعرض وجهة نظر كل منهم في الخطة التي كان يتبناها، وسوف يتضح لنا من مناقشة وتحليل هذه الخطط الصورة الحقيقية لما كان يدور من مناقشات وخلافات في وجهات النظر سواء بين القيادات العسكرية بعضها وبعض، أو بينها وبين القيادة السياسية في تلك الفترة الخطيرة من تاريخ مصر .

ماذا قال الفريق أول فوزي عن خطة تحرير سيناء؟

ذكر الفريق فوزي أنه بناء على توجيهات الرئيس الراحل عبد الناصر الصادرة إليه في يوليو ٦٧ في أعقاب الهزيمة، أصبحت إستراتيجية العمل العسكري للقوات المسلحة المصرية هي تحرير الأرض المحتلة في سيناء بالقوة، والوصول بالقوات المصرية إلى خط الحدود المصرية الفلسطينية وتأمينها، ثم استغلال النجاح سياسيا لاسترداد حقوق الشعب الفلسطيني. وكانت الفترة الزمنية التي حددها عبد الناصر لتحقيق ذلك الغرض هي ثلاث سنوات. ونتيجة لدراسة اللجان العسكرية التي شكلت داخل القيادة العامة برئاسة الفريق عبد المنعم رياض رئيس أركان حرب القوات المسلحة التي استمرت لمدة شهر، تم وضع خطة عامة لتحرير الأرض أطلق عليها اسم الخطة ٢٠٠، وانبثقت من الخطة ٢٠٠ خطط مرحلية وخطط نوعية، وتم تطبيق هذه الخطط في شكل مشروعات عمليات مشتركة. وانتهت هذه المرحلة بوضع الخطة «جرانيت» التي كانت تحقق المرحلة الأولى من الخطة ٢٠٠ الشاملة. ويعني هذا الكلام بوضوح أن القيادة العامة قد تم لها وضع خطة هجومية شاملة هي الخطة ٢٠٠ للوصول إلى الحدود الدولية، وأن هذه الخطة كان سيجري تنفيذها على مرحلتين: المرحلة الأولى، وأطلق عليها اسم جرانيت، وكانت عبارة عن عبور قناة السويس واقتحام خط بارليف والوصول إلى منطقة المضايق الجبلية الإستراتيجية. والمرحلة الثانية: كانت عبارة عن التقدم من منطقة المضايق في عملية هجومية للوصول إلى الحدود الدولية، وبذا يتحقق الغرض النهائي وفقا للخطة ٢٠٠.

وأوضح الفريق فوزي بعد ذلك أنه عقب مرور ثلاثة أعوام على هزيمة يونيو ٦٧ وصلت القوات المسلحة المصرية إلى مقدرة وإمكانات عسكرية ومعنويات عالية، وتم اختبار التشكيلات الميدانية وجميع أفرع القيادة العامة على واجبات عملياتها، بحيث أصبح في إمكان هذه القوات البدء في معركة التحرير بمجرد صدور الأمر إليها بذلك.

وفي أواخر أغسطس عام ٧٠ وفي اجتماع مصغر دعا إليه عبد الناصر لعرض الموقفين السياسي والعسكري بعد أن توقفت حرب الاستنزاف في ٧ أغسطس ٧٠، عقب مبادرة روجرز التي كان أول بنودها ينص على أن يتوقف الطرفان عن إطلاق النار في الأرض وفي الجو عبر خط وقف إطلاق النار لمدة ثلاثة أشهر، ذكر الفريق فوزي أنه أبدى للرئيس الراحل عبد الناصر استعداد القوات المسلحة لبدء معركة التحرير فور انتهاء فترة وقف إطلاق النار المؤقت في ٧ نوفمبر ٧٠. وأكد الفريق فوزي في مذكراته أنه في الأسبوع الأول من سبتمبر ٧٠ حصل على تصديق شفهي من عبد الناصر - خلال وجوده معه في رحلة إلى مرسى مطروح -

على تنفيذ الخطة ۲۰۰ ، على أن يركز على تنفيذ الخطة جرانيت أولا وهي الوصول إلى منطقة المضايق، وعلى أن يتم تنفيذ ذلك بمجرد انتهاء فترة وقف إطلاق النار. وعلل الفريق فوزي سبب حصوله على تصديق شفهي من عبد الناصر على تنفيذ الخطة ۲۰۰ دون بحث أو مناقشة القرارات التفصيلية التي كان يحملها معه والخاصة بالخطة ۲۰۰ الشاملة والخطة جرانيت المرحلية كما كان الاتفاق، بأنه إنما يرجع إلى ظروف طارئة، فقد حضر الرئيس الليبي معمر القذافي ومعه اثنان من زملائه فجأة إلى مرسى مطروح وانشغل عبد الناصر معهم دون أن يتمكن الفريق محمد فوزي من الانفراد به خلال الأيام الأربعة التي قضاها معه هناك، ثم ما جرى بعد ذلك من تصاعد الموقف في عمّان على أثر الصدام بين الملك حسين والفلسطينيين، وأخيراً حالت وفاة عبد الناصر في ۲۸ سبتمبر ۷۰ التي كانت كما ذكر الفريق فوزي - حدثا ذا آثار إستراتيجية خطيرة - حالت دون استمرار التخطيط الزمني لبدء معركة التحرير.

ورغم ما ذكره الفريق فوزي في مذكراته بشأن الخطة الهجومية ۲۰۰ ومرحلتها الأولى «جرانيت»، فإن هناك عدة حقائق مهمة تجعلنا نشك في صحة ما سجله الفريق فوزي، سواء من ناحية الخطة الهجومية التي وضعها أو من ناحية إتمام القوات المسلحة استعداداتها لشن الهجوم في التاريخ الذي حدده. وتتلخص هذه الحقائق فيما يلي:

أولا - ليس من المعقول أن يعامل عبد الناصر الذي عرف عنه الالتزام وتقدير المسئولية القرار المصيري الذي كان يتوقف عليه مصير بلاده بل مصير عبد الناصر نفسه ونظام حكمه بهذه الخفة والاستهانة اللتين لا مثيل لهما. فلقد انشغل عن القائد العام الذي كان يحمل في حقيبته أخطر قرارات الحرب وأشدها سرية مدة أربعة أيام كاملة، نظراً لوصول القذافي وبرفقته بعض الضيوف من ليبيا، ثم بلغ انشغاله عن قائده العام إلى الحد الذي جعله يعطي الفريق فوزي تصديقا شفهيا على تنفيذ الخطة ۲۰۰ ، على أن يركز على تنفيذ الخطة جرانيت أولا، وذلك بعد انتهاء وقف إطلاق النار المؤقت في ۷ نوفمبر ۷۰، دون أي مناقشات أو دراسة أو اطلاع على خرائط الموقف.

ثانيًا - في الوقت الذي سجل فيه الفريق فوزي في مذكراته أن قياس قدرات قواتنا مع قوات العدو في أواخر عام ۷۰ وأوائل عام ۷۱ كان لصالح قواتنا عدداً وتسليحا وكفاءة في كل أفرع القوات المسلحة، وأن توقيت معركة التحرير «في نهاية عام ۷۰» وتنفيذ الخطة الموضوعة التي تم التدريب عليها عمليا وهي الخطة جرانيت واستكمالها بالخطة ۲۰۰

الشاملة كان توقيتا مخططا وسليما، وأن ميزان القوى كان إلى جانب مصر - نجد أن الفريق سعد الشاذلي يسجل في مذكراته أنه عندما بدأ عمله بعد تعيينه رئيسا للأركان في ١٦ مايو ٧١ بدراسة إمكانات القوات المسلحة الفعلية ومقارنتها بالمعلومات المتيسرة عن العدو، اتضح له نتيجة لهذه الدراسة أنه ليس من الممكن القيام بهجوم واسع النطاق يهدف إلى تدمير قوات العدو وإرغامه على الانسحاب من سيناء وقطاع غزة، وأن إمكانات القوات المسلحة المصرية الفعلية قد تمكنها - إذا أحسن تجهيزها وتنظيمها - من القيام بعملية هجومية محدودة تهدف إلى عبور قناة السويس وتدمير خط بارليف، ثم التحول بعد ذلك إلى الدفاع. ولا شك في أن نتيجة الدراسة التي أجراها الفريق سعد الشاذلي تتناقض تناقضا جوهريا مع ما سبق أن ذكره الفريق محمد فوزي من أن قدرات قواتنا كانت تفوق قدرات قوات العدو، وأن ميزان القوى كان إلى جانب مصر خصوصا وأن الفترة الزمنية التي كان يتحدث عنها القائدان هي فترة زمنية واحدة وهي أوائل عام ٧١.

ثالثـــــا ــ أن مجريات الحوادث عقب وفاة عبد الناصر وتسلم السادات مسئولية الحكم لا تدل مطلقًا على أن القوات المسلحة المصرية كانت على تمام الاستعداد للمعركة، وأن الفريق فوزي كان جادًا للبدء حقًا في حرب التحرير بمجرد انتهاء فترة وقف إطلاق النار المؤقت في يوم ٧ نوفمبر ٧٠، فإن وفاة عبد الناصر في ٢٨ سبتمبر لا يمكن أن تكون مبررًا معقولاً لمنع القائد العام للقوات المسلحة من شرف البدء في حرب التحرير التي أتم تجهيزاته وأعد خططه لها لاسترجاع قطعة غالية من أرض الوطن. وفضلا عن ذلك، فإن إتمام تجديد فترة وقف إطلاق النار لمدة ثلاثة أشهر أخرى انتهت في ٧ فبراير ٧١، ثم تجديدها مرة ثانية لمدة شهر انتهى في ٧ مارس ٧١ أمر يدل بوضوح على عدم استعداد القوات المسلحة وقتئذ لخوض المعركة، وبخاصة أن السادات في كتابه «البحث عن الذات» كان يشكو من أن الفريق محمد فوزي وجماعته الذين أسماهم مراكز القوى كانوا يهدفون خلال اجتماعاته بهم في اللجنة التنفيذية العليا عند بحث موضوع تجديد فترة وقف إطلاق النار إلى توريطه، وذلك عن طريق عدم التجديد واستئناف حرب الاستنزاف. وقد عارض السادات رأيهم خشية تعرض

الوجه القبلي وقتئذ للغارات الإسرائيلية لعدم إرسال الاتحاد السوفيتي الصواريخ التي وعد بإرسالها من قبل. ومن هنا يتضح أن أقصى ما كان يطالب به الفريق فوزي بعد انتهاء فترة وقف إطلاق النار هو السماح له باستئناف حرب الاستنزاف. ولم يطالب رئيس الجمهورية إطلاقا بالتصديق له على تنفيذ الخطة ٢٠٠ أو حتى الخطة المرحلية جرانيت رغم أنه ذكر أن عبد الناصر سبق أن منحه تصديقا شفهيا بتنفيذها في الأسبوع الأول من سبتمبر ٧٠، وفضلا عن ذلك فإنه عندما انتهت آخر فترة لتجديد وقف إطلاق النار في ٧ مارس ٧١ وأعلن السادات على أثرها أن مصر غير ملتزمة بوقف إطلاق النار، لم يحرك الفريق فوزي ساكنا ولم يأمر حتى بشن حرب الاستنزاف التي كان يطالب السادات خلال اجتماعاته به بالتصديق له باستئنافها. فهل تتماشى هذه التصرفات مع قائد كان عاقد العزم في أوائل سبتمبر ٧٠ على البدء بحرب التحرير فور انتهاء فترة وقف إطلاق النار في ٧ نوفمبر ٧٠؟

رابعا ـ نشر الفريق فوزي أن السادات قد أصدر له يومى ٢٩ إبريل و٩ مايو ٧١ في منزله بالجيزة التوجيهات النهائية لعمليات تحرير سيناء كما حدد له اليوم الذي تبدأ فيه المعركة، وأنه قام بالاشتراك مع الفريق محمد صادق رئيس الأركان وقتئذ بكتابة وثيقة تحرير الأرض، ولكن السادات رفض التوقيع عليها عندما عرضها عليه يوم ١١ مايو، وأنه حاول طوال يوم ١٢ مايو إقناعه بالعدول عن رفضه، ولكنه صمم على رأيه، وأن ذلك كان السبب الحقيقي في الاستقالة التي قدمها يوم ١٣ مايو ٧١. ولكن الفريق محمد صادق نفى هذه الواقعة من أساسها وأنكر اشتراكه في كتابة أي وثيقة خاصة بالمعركة مع الفريق فوزي. وعلاوة على ذلك فإن الوثيقة التي أكد الفريق فوزي أنها كانت تتضمن تنفيذ الخطة جرانيت أي الوصول إلى المضايق، اتضح عند عثورنا عليها أن كل ما كانت تتضمنه هو مجرد القيام بعمليات محدودة ابتداء من الأسبوع الأول من شهر يونيو ٧١، وهي عمليات تماثل إلى حد كبير العمليات التي تم التدرج إليها في نهاية حرب الاستنزاف قبل أن تتوقف في ٨ أغسطس ٧٠ على أثر مبادرة روجرز، أي أنه لا توجد ضمن هذه الوثيقة أي عبارة تشير إلى تحرير الأرض أو إلى الخطة جرانيت أو إلى الوصول إلى منطقة المضايق.

خامسًا ـ سجل الفريق سعد الشاذلي في مذكراته ما يهدم أقوال الفريق أول محمد فوزي من أساسها، فقد أورد في مقدمة الفصل الثاني من الباب الأول ما يلي بالحرف:

«عندما عينت رئيسًا لأركان حرب القوات المسلحة في ١٦ مايو ٧١ (على أثر تقديم الفريق محمد فوزي استقالته واعتقاله في أحداث ١٥ مايو)، لم تكن هناك خطة هجومية. لقد كانت لدينا خطة دفاعية تسمى الخطة ٢٠٠، وكانت هناك أيضا خطة تعرضية أخرى تشمل القيام ببعض الغارات على مواقع العدو في سيناء، ولكنها لم تكن في المستوى الذي يسمح لنا بأن نطلق عليها خطة هجومية، وكانت تسمى جرانيت». ومما يسترعي الالتفات إليه، أن السادات قد أيد ما ذكره الفريق سعد الشاذلي في مذكراته بشأن الخطة ٢٠٠. فلقد ورد في كتابه «البحث عن الذات» في الصفحة ٢٤٨ ما يلي بالحرف: «قبل أن يموت عبد الناصر بشهر واحد، دعاني وذهبنا معًا سويا إلى مبنى القيادة العامة للقوات المسلحة في مدينة نصر، وهناك جمع القادة المصريين والخبراء السوفيت ومحمد فوزي وزير الحربية في ذلك الوقت. ووقف الخبراء السوفيت والقادة المصريون لمدة ٧ ساعات أمام عبد الناصر وأمامي يشرحون الخطة الدفاعية ٢٠٠ التي أقرها الجميع. كان هذا هو الوضع العسكري الذي تسلمته من عبد الناصر: خطة دفاعية سليمة ١٠٠٪، ولكن لا وجود لخطة هجومية». ترى ما هو رأى الفريق فوزي بعد شهادتي السادات والشاذلي في خطته ٢٠٠ التي ادعى أنها هجومية، وأنها كانت تكفل تحرير سيناء والوصول إلى الحدود الدولية في ١٢ يومًا؟

ماذا قال الفريق أول محمد صادق عن الخطة الهجومية؟

نشر الفريق أول محمد صادق مقالاً له في نوفمبر ٨٤ ذكر فيه أن التفكير في حرب شاملة لتحرير كل الأراضي المحتلة في سيناء أمر لم يكن مطروحًا عندما كان قائدًا عاما للقوات المسلحة مادام ميزان القوى كان وقتئذ لصالح إسرائيل، ومادامت قدرة مصر على الحصول على الاحتياجات المطلوبة لمثل هذه الحرب كانت رهنا بسياسات الاتحاد السوفيتي. وليس بخاف أن القادة السوفيت كانوا ضد فكرة نشوب حرب جديدة بين

العرب وإسرائيل. ونتيجة لذلك كان تصور الفريق صادق للعمليات التي ينبغي أن تقوم بها مصر ضد إسرائيل مرتكزاً على الأسس التالية:

أولا ــ على الجانب الذي يبدأ الحرب أن يضع في حسابه أن يستثمر النجاح الذي يحققه في البداية للوصول إلى خط دفاعي يستند إلى مواقع طبيعية ليتحرش بالعدو من خلفه وليكون قادراً على مواصلة الحرب، إلى أن يتحقق وقف إطلاق النار. ومن خلف هذا الخط يعد كل قواه العسكرية والمدنية لتحمل الضغوط العسكرية المتمثلة في هجمات مضادة متواصلة للاختراق وتدمير رءوس الكباري التي يكون قد نجح في إنشائها، وفي ضربات قد توجه إلى أهدافه المدنية لتحقيق خسائر يمكنها أن تولد ضغوطاً مؤثرة على القرارين السياسي والعسكري.

ثانيــا ــ بالنسبة لمصر فإن تنفيذ خطة الاقتحام المدبرة للمانع المائي وخط بارليف الحصين كان يتطلب بعد إنشاء رءوس الكباري مواصلة التقدم السريع لبعض الوحدات المدرعة والمشاة لاحتلال منطقة المضايق الحاكمة في سيناء، فهذه المضايق هي الخط الدفاعي الأول والرئيسي عن منطقة القناة. وكانت جميع خطط العمليات تتضمن الأسلوب الملائم لتحقيق هذا الهدف، ومن اللازم إسقاط وحدات من المظلات وجنود الصاعقة عند المضايق لاحتلالها كواجب رئيسي، وفي نفس الوقت تقوم بمنع تدخل احتياطي العدو التعبوي الموجود في العمق في عمليات قواتنا حتى يتم العبور بالكامل.

ثالثــا ــ لو أن الحلفاء قد توقفوا بعد نجاحهم في إنشاء رأس كوبري في نورماندي واكتفوا بالقيام بالدعاية لهذا النجاح الذي أحرزوه، لكانت الفرصة قد سنحت للقائد الألماني الفيلد مارشال روندشتد لكي يقوم بالهجوم المضاد ويقذف بهم إلى البحر بسهولة. ولذا فإن الاكتفاء بإنشاء منطقة رءوس الكباري والوقوف قبل المضايق لن يمكن قواتنا من إنشاء خط دفاعي قوي، ويمكن للعدو حشد قواته واختراق دفاعاتنا وعبور قناة السويس إلى الغرب وتطويق قواتنا التي عبرت إلى الشاطئ الشرقي.

رابعــا ــ كانت فكرة السادات أن تعبر القوات المصرية القناة وأن تستولى ولو على متر واحد من الضفة الشرقية، وبعد ذلك نسعى للوصول إلى حل

سياسي. ثم تطورت فكرته إلى ضرورة التوقف بعد إقامة رءوس الكباري شرق القناة وتحريك القضية سياسيّا. ولكن الفريق صادق ذكر أنه كان معارضًا لهذه الأفكار وأنه شرح للسادات خطته التي كانت ترتكز على الخطوات التالية:

١ ـ عبور قناة السويس، ويمكن بسهولة التغلب على كل الصعاب التي تعترض أو تعرقل عملية العبور.

٢ ـ الاقتصار في مهاجمة النقط الحصينة في خط بارليف على تلك التي تؤثر على خطة الاقتحام وأجناب القوات القائمة بالعبور.

٣ ـ إسقاط وحدات مظلات وصاعقة وقوات اقتحام جوي فوق المضايق للتمسك بها لحين وصول القوات المدرعة والمشاة المدعمة لها، وفي نفس الوقت منع الاحتياطي التعبوي للعدو الموجود في العمق من التدخل في المعركة.

٤ ـ انطلاق مجموعات من القوات المدرعة والمشاة الميكانيكية إلى المضايق الثلاثة للانضمام وتدعيم القوات التي تم إبرارها عند المضايق.

٥ ـ رءوس الكباري ستستند على القناة وتحتمي خلف الخط الدفاعي المرتكز على المضايق.

٦ ـ يجرى نقل بطاريات صواريخ الدفاع الجوي إلى شرق القناة لحماية القوات البرية من أي هجمات جوية معادية بالإضافة إلى وحدات الدفاع الجوي الذاتية الحركة مع مراعاة أن جميع القوات سوف تكون تحت مظلة القوات الجوية.

٧ ـ إن مائة طائرة قاذفة مقاتلة ذات مدى طويل كافية لحماية قواتنا حتى الوصول إلى المضايق.

ولكن الفريق سعد الشاذلي أورد في مذكراته ما يتعارض مع ما نشره الفريق محمد صادق. فقد ذكر أن فكرة الفريق صادق عن العملية الهجومية عندما ناقشه فيها عقب تعيين الشاذلي رئيسًا للأركان بشهرين، كانت ترتكز على أن نقوم بتدمير جميع قوات العدو في سيناء والتقدم السريع لتحريرها هي وقطاع غزة في عملية واحدة ومستمرة. وقد أوضح

الشـاذلي له عـدم توافـر الإمكانات للقيـام بذلك، سـواء في الوقت الحـالي أو المسـتقبل القريب. وحتى على فرض أن السوفيت سوف يقومـون بتزويدنا بالأسلحة الهجومية التي نطلبها، فإننا نحتاج إلى عدة سنين للحصول عليها والتدريب على استخدامها. وعندما اقتنع الفريق صادق باستحالة تنفيذ خطته، في الوقت الذي كان يعارض فيه بشدة خطة الفريق الشاذلي في القيام بعملية هجومية محدودة نظرًا لما في هذه الخطة من عيوب وثغرات جسيمة، تم الوصول إلى حل وسط هو تجهيز خطتين، خطة تهدف إلى الاستيلاء على المضايق، وأخرى تهدف إلى الاستيلاء فقط على خط بارليف. وكان تنفيذ خطة الاستيلاء على المضايق يتوقف على مدى ما سيقدمه لنا الاتحاد السوفيتي من صفقات الأسلحة والمعدات التي تم تحرير كشوفات بها بالاتفاق مع المستشارين السوفيت الذين كانوا يتهموننا دائمًا بالمغالاة في مطالبنا. ومن أجل ذلك سافر الرئيس الراحل السادات والفريق صادق إلى موسكو في أكتوبر ٧١ حيث تم الاتفاق على صفقة أسلحة كانت تعتبر أكبر صفقة أسلحة مع السوفيت حتى ذلك الوقت. ورغم ضخامة هذه الصفقة فإنها لم تغط جميع الأسلحة اللازمة لتنفيذ خطة الوصول إلى المضايق. وقد تمت مناقشة هذه المشكلة ـ كما ذكر الفريق الشاذلي ـ في الاجتماع المصغر الذي تم في يوم ٦ يونيو ٧٢ في استراحة الرئيس بالقناطر الخيرية، والذي حضرته الدائرة الصغرى من أعضاء المجلس الأعلى للقوات المسلحة. وفي هذا الاجتماع قرأ اللواء عبد الغني الجمسي رئيس هيئة العمليات تقريرًا عن موقف القوات المسلحة، كما أشير أيضًا إلى تقرير أعده اللواء أحمد إسماعيل رئيس المخابرات العامة وقتئذ كان يؤكد فيه أن القوات المسلحة ليست في وضع يسمح لها بالقيام بعملية هجومية.

وقد اتضح خلال الاجتماع أن السادات كان يؤيد رأي الفريق محمد صادق في عدم بدء المعركة إلا بعد أن تتوافر لمصر قوة ردع، أي يكون عندنا طيران يستطيع أن يضرب عمق العدو. ولكنه في نفس الوقت تساءل عما يكون العمل إذا اضطرنا الموقف السياسي إلى بدء المعركة قبل الانتهاء من بناء قوة الردع.

وقد أوضح الفريق الشاذلي في هذا الاجتماع أنه يمكن التغلب على هذه المشكلة في حالة تنفيذ الفكرة التي أبداها من قبل، وهي وجوب التخطيط لمعركة هجومية محدودة في ظل تفوق جوي معاد. وذكر أنه يمكن الاعتماد في تحدينا للتفوق الجوي الإسرائيلي خلال تلك المعركة على الصواريخ المضادة للطائرات (سام). وقد أكد الفريق الشاذلي في

مذكراته أن اللواء المسيري الذي حضر هذا الاجتماع مندوبا عن القوات الجوية قد أيد رأيه تماماً.

لماذا دعا السوفيت محمد صادق لزيارة موسكو؟

ظلت العلاقات بين الرئيس الراحل السادات والفريق أول محمد أحمد صادق قوية وثيقة منذ وقوفه إلى جانبه في أحداث ١٥ مايو عام ٧١. وكانت وجهة نظرهما في أغلب الأوقات تبدو متفقة، كما رأينا في اجتماع المجلس الأعلى للقوات المسلحة يوم ٦ يونيو عام ٧٢ باستراحة القناطر الخيرية فيما يتعلق بوجوب عدم القيام بعمل عسكري واسع النطاق ضد إسرائيل إلا بعد تكوين قوة الردع، أي أن يكون عندنا طيران يستطيع أن يضرب عمق العدو. وقد بلغت ثقة السادات في الفريق أول محمد صادق إلى الحد الذي جعله ينتدبه أحيانا ليمثله شخصيا في بعض اللقاءات المهمة سواء مع الرؤساء العرب أو مع القادة السوفيت. وعندما سافر الفريق صادق في إحدى المرات إلى السعودية لمقابلة الملك فيصل، كان يحمل معه رسالة من السادات إلى الملك فيصل قال فيها: «إن الفريق صادق هو موضع ثقتي الكاملة. إن أي شيء يقوله أو يعد به هو باسمي، وتستطيع أن تتكلم وتتعامل معه كما لو كنت تتعامل معي».

وكان السادات قد سافر إلى الاتحاد السوفيتي يومي ١، ٢ فبراير ٧٢. وفي أول لقاء مع القادة السوفيت سألهم عن المسئول عن تأخير صفقة الأسلحة التي وعدوه بها عند زيارته لموسكو في ١١ أكتوبر ٧١، فردَّ بريجنيف وقال: إنه المسئول، نظراً للإجراءات المكتبية والروتينية. فرد السادات قائلا: «أنا لست مقتنعًا بهذا الكلام، وإذا تكرر ما حدث مرة أخرى فسوف أتخذ قراراً ما». ثم أعاد على مسامعهم نفس الكلام الذي سبق أن قاله في زيارته السابقة وخصوصا النقطتين الأساسيتين، وهما أن مصر لا تريد جنديًا سوفيتيًا ليحارب في معركتها، وأن سياسة مصر لا تهدف إلى عمل مواجهة بين الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة. فأنهوا المناقشة بتأكيد التزامهم باتفاقية أكتوبر ٧١ لتوريد الأسلحة وإقامة الصناعات العسكرية، ووعدوا علاوة على ذلك بإمداد مصر خلال عام ٧٢ بالأسلحة التالية:

- ٢٠٠ دبابة ت ٦٢ (T62).
- ٢٠ طائرة تي يو ٢٢ (TU22).

● ٢٥ طائرة ميج ١٧ يتم تسليمها فوراً كهدية .

● تدعيم وزيادة طاقة مصر في الحرب الإلكترونية .

ولتنفيذ هذه الاتفاقية سافر الفريق عبد القادر حسن نائب وزير الحربية على رأس لجنة عسكرية في ١٠ مارس ٧٢ إلى موسكو للتوقيع عليها وفقًا للأصناف التي تم الاتفاق عليها بين السادات والقيادة السوفيتية في الشهر السابق . وعاد الفريق عبد القادر حسن في ١٨ مارس دون أن يوقع على البندين الخاصين بالدبابات T62 والطائرات TU22 حيث إن القادة السوفيت طلبوا أن تدفع مصر ثمنهما والذخيرة الخاصة بهما بالعملة الصعبة وبالثمن الكامل . وكان أسلوب الدفع بين مصر والاتحاد السوفيتي فيما يتعلق بثمن الأسلحة والمعدات منذ أيام عبد الناصر يقوم على أساس أن يبيع لنا الاتحاد السوفيتي الأسلحة بنصف ثمنها ويتنازل عن النصف الثاني ؛ كما أن النصف الذي نقوم بدفعه كان يسدد بالجنيه المصري . وكان الاتحاد السوفيتي يقوم بإقراض مصر قرضًا يغطي ثمن السلاح الذي تشتريه (أي الـ ٥٠٪ التي يجب على مصر أن تدفعها) ، ويتم دفع هذا القرض على أقساط سنوية لمدة ١٠ ـ ١٥ عامًا بفائدة ٢٪ ، ويبدأ القسط الأول بعد فترة سماح طويلة . وكان ذلك يعني أن الثمن الذي تدفعه مصر ثمنًا للسلاح السوفيتي يعادل ٢٥٪ من ثمنه في السوق العالمية . وكان معنى ما طلبه الاتحاد السوفيتي من الفريق عبد القادر حسن أن الطائرة TU22 يصبح ثمنها ٦ , ٥ مليون دولار ، والدبابة T62 يصبح ثمنها ربع مليون دولار . وهذه الأثمان وإن كانت ما تزال تعادل حوالي ٥٠٪ من ثمن مثيلتها الغربية فإنها اعتبرت من جانب مصر عملاً يكاد يكون عدائيًا .

وفي ١٥ مايو ٧٢ حضر المارشال جريشكو وزير الدفاع السوفيتي إلى القاهرة في زيارة لمدة خمسة أيام بعد انتهاء جولته في العراق وسوريا . وقد عقد الفريق أول محمد صادق مع المارشال جريشكو اجتماعين في وزارة الحربية ، وكانت النقطة الأولى المهمة التي طرحت على بساط البحث خلال المباحثات بينهما هي موضوع صفقة الأسلحة التي تم الاتفاق عليها من قبل السادات والقادة السوفيت خلال زيارته لموسكو في فبراير ٧٢ ، والتي لم تقم اللجنة العسكرية برئاسة الفريق عبد القادر حسن التي سافرت إلى موسكو في ١٠ مارس وعادت يوم ١٨ مارس بالتوقيع على البندين الخاصين بالطائرات تي يو ٢٢ والدبابات ت ٦٢ . وكان السبب الحقيقي لعدم التوقيع بالنسبة للطائرات تي يو ٢٢ هو رفض اللجنة العسكرية شراءها ، فقد اكتشفت أن عيوبها لم تكن تقل عن عيوب الطائرة تي يو ١٦ التي وصلت إلى مصر منذ ثلاثة أشهر سابقة ، وضج الطيارون المصريون من

الشكوى منها بسبب عدم إمكان استخدامها بنجاح في العمليات الحربية بسبب ثقل حركتها وقلة سرعتها بالنسبة للطائرات المقاتلة القاذفة الإسرائيلية. أما بالنسبة للدبابات ت ٦٢ فقد امتنعت اللجنة عن التوقيع بسبب إصرار الجانب السوفيتي على أن يتم دفع ثمن هذه الدبابة بالعملة الصعبة كما سبق أن ذكرنا مما كان يجعل ثمن الدبابة الواحدة يصل إلى ربع مليون دولار. هذا وقد تمكن الفريق أول محمد صادق خلال محادثاته مع جريشكو من حل هذا الخلاف. فقد تنازل الجانب السوفيتي عن مطلبهم الخاص بالعملة الصعبة بالنسبة للدبابة ت ٦٢، وبالتالي تم التوقيع على صفقة الدبابات بنفس الشروط السابقة.

هذا وقد أثار المارشال جريشكو خلال محادثاته مع الفريق أول محمد صادق عدداً من الشكاوى التي تتعلق بالمعاملة السيئة التي يلقاها المستشارون والخبراء وأفراد الوحدات السوفيتية من بعض السلطات المصرية، وكان في مقدمة تلك الشكاوى الحادث الذي جرى في مطار القاهرة يوم ٨ مايو عندما أصر رجال الجمارك على تفتيش الضباط والجنود السوفيت العائدين إلى بلادهم بعد انتهاء مدة خدمتهم في مصر. وشكا جريشكو من أن إدارة التوجيه المعنوي للقوات المسلحة المصرية تتبنى نشاطًا معاديًا للسوفيت، وكذا من تصرفات بعض كبار قادة القوات المسلحة الذين يوجهون هجومهم علانية على الاتحاد السوفيتي أمام الضباط والجنود خلال مرورهم على الوحدات أو في أثناء انعقاد المؤتمرات العامة. وخلص جريشكو في النهاية بأن كل هذه الأعمال والتصرفات قد أدت إلى خلق تيار معاد قوي في القوات المسلحة المصرية ضد الاتحاد السوفيتي. وكانت التعليقات والتلميحات التي أوردها جريشكو في حديثه لا تترك مجالاً للشك في أن القادة السوفيت كانوا على يقين من أن الفريق صادق هو شخصيًا وراء كل الحملات المعادية للسوفيت في القوات المسلحة المصرية. وأكد جريشكو أن خطاب الفريق صادق الذي ألقاه في الاجتماع الذي عقد بالمنطقة المركزية يوم ٢٤ يناير ٧٢، وحضره عدة آلاف من الضباط من جميع الرتب والذي هاجم فيه الاتحاد السوفيتي هجومًا عنيفًا، وغير ذلك من التصرفات المماثلة، لا يمكن أن يخدم العلاقات بين مصر والاتحاد السوفيتي.

وخلال تلك الزيارة التي قام بها جريشكو لمصر وجهت الدعوة إلى الفريق أول محمد صادق لزيارة موسكو. وكان القادة السوفيت يتوقون إلى استقباله على اعتبار أنه المسئول الأول عن خلق هذا التيار المعادي للاتحاد السوفيتي في القوات المسلحة وفي رفض منحهم قواعد عسكرية في مرسى مطروح وبرنيس. وكانوا على ثقة من أن الشعبية التي اكتسبها داخل القوات المسلحة كان مرجعها هو ما اشتهر به من ناحية التصدي للسوفيت ورفض

مطالبهم. ولهذا السبب قامت السلطات السوفيتية كوسيلة لتحسين علاقاتها بالفريق صادق باستقباله في موسكو في ٨ يونيو ٧٢ الاستقبال الذي يعد لرؤساء الدول وليس لوزراء الحربية. وقد حمل الفريق صادق معه رسالة من الرئيس السادات إلى الرئيس السوفيتي بريجنيف، وقد كرر السادات فيها اعتقاده بأنه لا يمكن إيجاد حل سياسي إلا بعملية ضغط مستمرة على الولايات المتحدة وإسرائيل، وحين تقتنع إسرائيل بأن ميزان القوة العسكرية ليس في صالحها. وأكد في نهاية رسالته الحاجة إلى سرعة إنجاز البرنامج السابق الاتفاق عليه فيما يتعلق بتزويد مصر بالأسلحة والمعدات. وكان أول لقاء قمة بين الرئيس السوفيتي بريجنيف والرئيس الأمريكي نيكسون قد تم عقده في ٢٠ مايو ٧٢ بالكرملين بموسكو، أي قبل زيارة صادق بحوالي أسبوعين، ثم صدر أول بيان وفاقي بين موسكو وواشنطن ينادي بالاسترخاء العسكري في الشرق الأوسط، وقد عبر السادات عن مشاعره عقب صدور هذا البيان فذكر أنه كان صدمة عنيفة لنا لأننا كنا خلف إسرائيل عسكريا بعشرين خطوة، ومعنى الاسترخاء العسكري في هذا الوضع هو التسليم من جانبنا لإسرائيل.

وفي يوم ٢٠ يونيو، أي عقب عودة الفريق صادق بأسبوع من موسكو، دعا إلى عقد مؤتمر مصغر حضره الفريق سعد الشاذلي رئيس الأركان وقادة القوات الجوية والبحرية والدفاع الجوي وقائدا الجيشين الثاني والثالث ومدير المخابرات الحربية. وقد شرح الفريق صادق تفاصيل زيارته للاتحاد السوفيتي، وذكر أن رأي المارشال جريشكو في الموقف يتلخّص فيما يلي:

- يجب تجهيز القوات المسلحة والدولة والشعب لمعركة طويلة الأمد.
- إن الموقف في الشرق الأوسط بالغ التعقيد، فإن إسرائيل تعرض حلولا لا يمكن قبولها سواء من مصر أو الاتحاد السوفيتي.
- إن السوفيت يؤمنون مثلنا بأن ما أخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة.
- يجب العمل معًا في المحافل الدولية اعتمادًا على قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢.
- إن الإبقاء على المستشارين السوفيت في مصر هو ضرورة دولية.
- لن يقوم الاتحاد السوفيتي بعقد اتفاقية مع أمريكا على حساب مصر.

● إن تحرير الأرض يتطلب أولا بناء الجيش الدفاعي لمنع العدو من توسيع رقعة الأرض التي يحتلها، وبعد ذلك يجري بناء الجيش الهجومي الذي يقوم بتحرير الأرض.

وانتقل الفريق صادق بعد ذلك إلى ذكر انطباعاته الشخصية عن الزيارة التى كانت تتلخص فيما يلي:

١ ـ إن السوفيت مهتمون جدا بالجبهة الداخلية، بل إنهم طلبوا تنحية الأشخاص الذين تتعارض سياستهم مع الاتحاد السوفيتي.

٢ ـ لا تغيير في السياسة السوفيتية بعد مؤتمر قمة بريجنيف ـ نيكسون.

٣ ـ إن السوفيت يريدون تهدئة الموقف في المنطقة إلى أن ينجح نيكسون في الانتخابات في نوفمبر ٧٢، وبعد نجاحه فإن من المتوقع أن يماطلونا في إمدادنا بالسلاح لتمييع القضية وعلى أمل الوصول إلى حل سلمي.

ومما يدعو إلى العجب، أن الفريق صادق الذي كان ينظر إليه على أنه العدو رقم واحد للسوفيت في مصر قد تغير تفكيره تمامًا بعد الزيارة الودية التي قام بها إلى موسكو، وبعد الاستقبال الحافل الذي استقبله به القادة السوفيت، إلى الحد الذي جعله يعتقد أن السادات قد توهم أن اتفاقًا سريا قد تم في موسكو من وراء ظهره بين صادق وبريجنيف مما حمل السادات على الإسراع باتخاذ قراره بطرد الخبراء السوفيت.

وقد أوضح الفريق صادق هذا الاعتقاد بقوله: إن السادات عندما اطلع على محضر جلسة المحادثات التي جرت بين بريجنيف وصادق، والتي تعهد خلالها بريجنيف بحل مشكلة الشرق الأوسط حلا سلميا خلال ثلاثة أشهر بعد نجاح نيكسون في الانتخابات وإلا فسوف يقوم بإمداد القوات المسلحة المصرية بالأسلحة التي تحتاج إليها، ثار عليه السادات، وقال له: إنه لا يمكن أن يتم ذلك، وإن السوفيت خدعوك. وذكر صادق أنه فهم على الفور ـ نظرًا لأنه يعرف جيدًا طريقة تفكير السادات ـ أنه توهم أن تكون هناك صفقة قد تمت بينه وبين الجانب السوفيتي. وقد يكون الاعتقاد الذي دار في مخيلة الفريق صادق فيه جانب من الحقيقة، ولكنه لم يكن هو السبب الرئيسى بالطبع في قرار السادات بإنهاء الوجود العسكري السوفيتي في مصر، وهو القرار الذي اتخذه يوم ٨ يوليو ٧٢ عقب أن أبلغه السفير السوفيتي فينوجرادوف برسالة بريجنيف إليه ردا على الرسالة الحارة العاجلة التي أرسلها إلى بريجنيف، والتى حدد له فيها الخطة التي يقترحها لتحريك الموقف عسكريا. وكانت أهم

نقاطها مطالبة السوفيت بالإسراع في تنفيذ برامج إرسال الأسلحة إلى مصر التي سبق الاتفاق عليها. وعندما مضت ثلاثة أسابيع دون أن يصل أي رد من موسكو، استدعى الدكتور عزيز صدقي - رئيس الوزراء وقتئذ - السفير السوفيتي بالقاهرة حيث عبر له عما يعنيه هذا الصمت السوفيتي من إهانة لا تقبلها مصر، كما استدعى وزير الخارجية المصرية الدكتور مراد غالب السفير السوفيتي ليبلغه احتجاج مصر على هذا التأخير في الرد على رسالة الرئيس. وعندما وصلت الرسالة المنتظرة بعد أن تم استعجالها بهذه الطريقة المؤسفة ووجد السادات أن الرسالة لا تحوي شيئًا جديداً سوى التسويف والمماطلة، أبلغ السفير السوفيتي عند لقائه به يوم ٨ يوليو ٧٢ أنه يرفض هذه الرسالة شكلاً وموضوعًا ويرفض هذا الأسلوب في التعامل، وأنه قرر الاستغناء عن جميع الخبراء العسكريين السوفيت (حوالي ٨٠٠٠)، وأن يعودوا إلى الاتحاد السوفيتي في فترة أسبوع من ذلك اليوم.

لماذا غير السادات القائد العام قبل المعركة؟

كان يوم ٢٤ أكتوبر ٧٢ حافلاً بالأحداث السريعة والمتلاحقة. فقد طلب الفريق أول محمد صادق اجتماع المجلس الأعلى للقوات المسلحة في الساعة الثانية عشرة ظهرا، وكان الهدف من هذا الاجتماع هو الاستماع إلى رأي القادة عن الموقف العسكري، وذلك قبل حضورهم اجتماعا آخر في الساعة الثامنة والنصف مساء من اليوم نفسه بمنزل الرئيس الراحل السادات بالجيزة. وفي الاجتماع الذي عقده الفريق صادق، تكلم كل من أعضاء المجلس عن موقف قواته وعن المتاعب والمشكلات التي ما زالت تواجهه. وفي نهاية الحديث علق الفريق صادق قائلاً: «إن كل ما أريده هو أن يقوم كل منكم بإعطاء صورة حقيقية عن موقف قواته أمام الرئيس هذا المساء. إن الرئيس يعتقد أنني أبالغ في ذكر المشكلات، ولذلك فهو يريد أن يسمعها منكم شخصيا». فأجاب الجميع بأنهم سيفعلون ذلك وأن ما قالوه أمام الوزير سوف يقولونه أمام الرئيس.

هذا وقد انعقد المجلس الأعلى للقوات المسلحة في منزل الرئيس السادات في التاسعة مساء يوم ٢٤ أكتوبر ٧٢، وامتد الاجتماع حتى منتصف الليل. وليس بوسعنا في هذا المجال أن نسجل كل ما دار في هذا الاجتماع الخطير الذي استمر أكثر من ثلاث ساعات، فإن ذلك يحتاج منا إلى عشرات من الصفحات. ورغم أن الأستاذ موسى صبري قد دون محضراً لهذا الاجتماع في ٥٥ صفحة (من صفحة ٣٥ إلى صفحة ٩٠) في كتابه «وثائق حرب أكتوبر»، فإن الفريق محمد صادق صرح لي بأن المحضر السري للاجتماع المنشور في هذا الكتاب

حدث فيه تشويه كبير بالنسبة لحقيقة ما دار في هذا الاجتماع. والأمر الذي نستطيع أن نؤكده بالنسبة لحقيقة ما جرى، هو أن الرئيس الراحل السادات بدأ الاجتماع بكلمة مطولة استعرض من خلالها العلاقات بين الاتحاد السوفيتي ومصر منذ توليه مسئولية الحكم، وكيف استنفد قادة الاتحاد السوفيتي صبره بسبب مماطلتهم وتسويفهم في إرسال صفقات الأسلحة بما في ذلك الأسلحة التي كان يتفق عليها خلال زياراته لموسكو متحلين شتى الحجج والأعذار، وزاد الطين بلة سوء معاملتهم له وإهمالهم الرد على رسائله إليهم مما اضطره إلى إصدار قراره بطرد الخبراء والمستشارين السوفيت في ٨ يوليو ٧٢.

وذكر السادات أنه أخطر القيادة السوفيتية في إبريل ٧٢ بأن القضية لن تتحرك سياسيًا إلا إذا أمكن تحريكها عسكريا، وأيدهم في وجهة نظرهم بالعمل على إعادة انتخاب نيكسون في انتخابات الرئاسة الأمريكية القادمة في نوفمبر ٧٢، حيث إنه سيكون أفضل من رئيس جديد يصل إلى الحكم وتحكم تصرفاته رغبته في البقاء في الحكم لفترة ثانية. وعندما حضر المارشال جريشكو في مايو ٧٢ أرسل السادات معه كتابًا إلى القيادة السياسية السوفيتية طلب فيه تزويد مصر بطائرات ميج ٢٥ ومعدات وأجهزة الحرب الإلكترونية، وأخبرهم صراحة أنه لا يقبل بقاء أى وحدات سوفيتية ليست تحت القيادة المصرية.

وأوضح الرئيس السادات بأنه عقب إبلاغ السفير السوفيتي في ٨ يوليو بقراره بإنهاء عمل المستشارين السوفيت والوحدات السوفيتية في مصر، أرسل الدكتور عزيز صدقي رئيس الوزراء إلى موسكو في ١٧ يوليو ٧٢ قبل إعلان القرار رسميا، وكان الغرض من إرساله أن يشرح للقادة السوفيت الموقف ويعرض عليهم إصدار بيان مشترك حول هذا الموضوع، ولكنهم لم يوافقوا وقالوا: إن السادات اتخذ هذا القرار من جانب واحد، لذلك فإن الإعلان أيضًا يجب أن يكون من جانب واحد. لقد كانوا يظنون أن السادات لا يعني ما يقول، ولكن عزيز صدقي أكد لهم أنه جاد في تنفيذ ذلك.

وانتقل السادات بعد ذلك إلى شرح الدور الأمريكي والاتصالات العديدة التي أجريت بين الولايات المتحدة ومصر بشأن الحل السلمي، وأكد في النهاية أن الحل السلمي في مفهوم أمريكا لا يعني سوى الاستسلام الكامل، وأن المعسكرين الآن - الشرقي والغربي - صديقنا وعدونا قد فقدا الثقة في إمكان أي تحرك من جانبنا، وكل ما يصلنا من عروض أصبح يأتي من منطق واحد، هو أننا قد ألقينا السلاح وعلينا أن نستعد لقبول أي شيء يعرض علينا.

وأوضح السادات للقادة الحاضرين أنه أخبر الفريق صادق منذ الصيف الماضي بأنه

يجب أن تتحرك القضية عسكريا قبل أن ندخل الجولة الثانية مع إسرائيل بعد الانتخابات الأمريكية وأن ذلك يعتبره قراراً يبلغه للقادة وليس لأخذ رأيهم، حيث إن الموقف يعتبر اختبارا للقوات المسلحة. وفي حالة عدم القيام بعمل عسكري قبل نهاية هذا العام فإن القضية ستنتهي ويفقد المصريون والعرب ثقتهم بأنفسهم.

وعلى الرغم من أن بعض القادة قد اشتركوا بعد المقدمة التي ألقاها السادات في مناقشات معه، فإنه ظهر بجلاء عدم ارتياح الرئيس للحوار الذي أجراه معه ثلاثة من القادة، هم الفريق عبد القادر حسن نائب وزير الحربية، واللواء علي عبد الخبير قائد المنطقة المركزية واللواء محمود فهمي قائد القوات البحرية، ويبدو هذا بجلاء من الحوار الذي دار بين الرئيس السادات والفريق عبد القادر حسن والذي نذكر فيما يلي الجزء الأخير منه:

الفريق عبد القادر: قد نبدأ بمعركة محدودة ولكنها قد تتطور إلى حرب شاملة، قد ننجح في المراحل الأولى من المعركة ولكننا سوف نتحول في النهاية إلى اتخاذ موقف دفاعي. ستبقى إسرائيل في شرم الشيخ وفي معظم سيناء وستكون في موقف أفضل من موقفها الحالي، وقد يدفعها ذلك إلى أن تدعي حقوقها في تلك الأراضي التي تكون مازالت في قبضتها. يجب أن نضع في حسابنا قدرة العدو على ضرب العمق عندنا وعند سوريا أكثر. لا يصح أن ندفع أنفسنا إلى وضع قد يضطرنا إلى أن نصرخ طالبين النجدة من الاتحاد السوفيتي مرة أخرى ونقول له «ولع».

الرئيس (بغضب): يا عبد القادر دي ثاني مرة أنت بتغلط فيها قدامي، وأنا لا أسمح بهذا مش أنت الحريص على استقلال البلد دي. أنت اللي خدت القرارات؟

الفريق عبد القادر: لا يافندم.

الرئيس: أنا لا أسمح بهذا أبداً. أنا مسئول عن استقلال البلد، وأنا عارف أنا بعمل إيه ومحبش تتدخل في شغل غيرك. دي ثاني مرة تغلط فيها. الثالثة حقولك روّح. أنا عارف أنا عملت إيه وأنا وقفت للاتحاد السوفيتي لأحاسبه لغاية ما أكمل المعركة. إنما أنا مش محتاج إنك تنبهني لشغلي يا عبد القادر أبدا. لأنك في المرة دي أنت غلطت. الغلطة الأولانية كانت في الطيارة وأنا يومها فكرت أشيلك. عيب، الزم حدودك.

الفريق عبد القادر: أنا آسف قوي.

الرئيس: أنت شغلك عسكري بس مش سياسي، والدعم! عايز تنبهني لواجبي، دعم إيه؟ بتتكلم عن إيه؟

الفريق عبد القادر: أنا آسف خلاص.

هذا وقد سألت الفريق عبد القادر حسن أن يكشف لنا سر الغلطة الأولى التي حدثت منه في الطائرة والتي أشار إليها الرئيس السادات في أثناء مناقشته معه، وماذا كان يقصد بعبارة أننا لا ينبغي أن ندفع أنفسنا إلى وضع قد يضطرنا إلى أن نصرخ طالبين العون من الاتحاد السوفيتي ونقول له «ولع». وقد أجاب الفريق عبد القادر بأنه عندما عاد من الاتحاد السوفيتي في ١٨ مارس ٧٢ بعد أن رفض التوقيع على صفقة شراء الطائرات TU22 والدبابات T60 بسبب طلب السوفيت أن تسدد مصر ثمنها بالكامل وبالعملة الصعبة على خلاف الاتفاقيات السابقة، تصادف أنه سافر مع الرئيس السادات إلى ليبيا ضمن وفد مصري لتقديم العزاء إلى الرئيس الليبي معمر القذافي في وفاة محمد المقريف عضو مجلس الثورة الليبي. وفي الطائرة استدعى السادات الفريق عبد القادر، وعندما جلس إلى جانبه سأله عن نتائج محادثاته في الاتحاد السوفيتي، فشرح له موقف السوفيت الذي اضطره إلى عدم التوقيع على صفقة الأسلحة، وعندئذ أخطروه بأن مطالبتهم مصر بتسديد ثمن صفقة السلاح بالعملة الصعبة إنما هو نتيجة لاتفاق تم بينهم وبين الرئيس السادات. وأوضح الفريق عبد القادر أنه لم يكن يعلم أن الرئيس السادات قد اعتبر أن هذا الحديث الذي وجه إليه في الطائرة بحسن نية هو غلطة منه إلا عندما ذكره الرئيس السادات بذلك أمام المؤتمر. ومن جهة كلمة «ولع» التي وردت ضمن العبارة التي سجلت على لسانه في المؤتمر، فقد نفى الفريق عبد القادر أن تكون قد صدرت منه، لأن الكلمة لا معنى لها ولا تتماشى مع سياق حديثه. ويبدو أن الذي سجل محضر المؤتمر كتب العبارة التي صدرت منه بخط رديء مما جعلها تقرأ خطأ وأن العبارة الصحيحة التي ذكرها في المؤتمر هي أنه لا ينبغي أن ندفع أنفسنا إلى وضع قد يضطرنا إلى أن نصرخ طالبين العون من الاتحاد السوفيتي ونقول له عاوزين وحدات الدعم.

(وحدات الدعم هي أسراب الطائرات السوفيتية الميج ٢١ بطياريها وبطاريات صواريخ سام ٣ بأطقمها التي وصلت إلى مصر في أوائل عام ٧٠ استجابة لطلب عبد الناصر من الرئيس السوفيتي بريجنيف للتصدي لغارات العمق التي كانت تقوم بها الطائرات الإسرائيلية في أثناء حرب الاستنزاف. وقد تم للسادات الاستغناء عنها في القرار الذي أعلنه للسفير السوفيتي يوم ٨ يوليو ٧٢ بالاستغناء عن المستشارين والوحدات السوفيتية).

وعلى الرغم من أن الفريق محمد صادق قد صرح بأنه خلال اجتماع المجلس الأعلى لم يتقدم برأي ولم يتكلم مطلقًا، وترك القادة يتكلمون ليستمع الرئيس لهم بدون تدخل

منه، وعلى الرغم من أنه قال للرئيس في نهاية الاجتماع: إنه القائد الأعلى للقوات المسلحة وإن الجميع ملتزمون بتنفيذ أي أمر يصدره وسينفذونه كجنود، وإن كل ما قيل في الاجتماع هو مجرد عرض آراء ووجهات نظر، وإن القرار في النهاية متروك للرئيس، فإنه يتضح من مجريات الأحداث أن السادات كان عزمه قد استقر على تنحية الفريق صادق عن منصبه هو والقادة الثلاثة الذين استاء من طريقة مناقشتهم له خلال الاجتماع، وهم: الفريق عبد القادر حسن واللواء علي عبد الخبير واللواء محمود فهمي. وكان السادات يعتقد أنهم يشكلون حلفًا ضده. وقد ذكر الفريق صادق أنه عقب الاجتماع دعاه السادات إلى تناول فنجان قهوة معه في مكتبه، فعاتبه صادق على انفعاله ضد القادة الذين تناقشوا معه وقال له: لماذا عقدت المجلس إذا لم تكن تريد أن تسمع آراء؟ وذكر صادق أن السادات طلب منه إحالة القادة الثلاثة الذين عارضوه في الاجتماع إلى المعاش، فاعتذر لعدم اقتناعه بأنهم أخطئوا، وعرض استقالته على السادات فرفض وطلب منه السفر في اليوم التالي إلى سوريا لحمل رسالة إلى الرئيس السوري حافظ الأسد. وقد أكد لي الفريق صادق أنه لم ينخدع بهذا الطلب الذي لم يكن إلا نوعًا من تخدير الأعصاب لأنه كان على يقين من أن السادات قد قرر تنحيته، وأن مسألة سفره إلى سوريا لم تكن إلا حيلة من السادات ليبعث الاطمئنان إلى نفسه ريثما يتم تعيين القائد العام الجديد خشية أن يفكر في القيام بعمل ضده. ونظرًا لأنه كان متأكدًا من نوايا السادات نحوه، فقد اعتذر عن السفر إلى سوريا ورجاه بأن يعهد بالرسالة إلى شخص آخر لأن لديه عملا مهما يحتاج إلى وجوده بالقاهرة.

وكان ظن الفريق صادق في محله، فقد استدعى السادات يوم ٢٥ أكتوبر اللواء أحمد إسماعيل مدير المخابرات العامة وقتئذ، وطلب منه أن يأتي في اليوم التالي لحلف اليمين القانونية كوزير للحربية. وفي اليوم نفسه أرسل السادات سكرتيره الخاص فوزي عبد الحافظ إلى الفريق محمد صادق بعد الظهر (قبل الإفطار فقد كان الوقت في شهر رمضان المكرم) ليبلغه أن استقالته (التي لم تقدم) قد قبلت. وأعطى أوامره إلى الفريق سعد الشاذلي رئيس الأركان بأن يتولى القيادة إلى أن يحلف اللواء أحمد إسماعيل اليمين. فإن السادات كما قال لم يكن في إمكانه أن يترك أي فراغ في القوات المسلحة مهما كان بسيطا ولو للحظات.

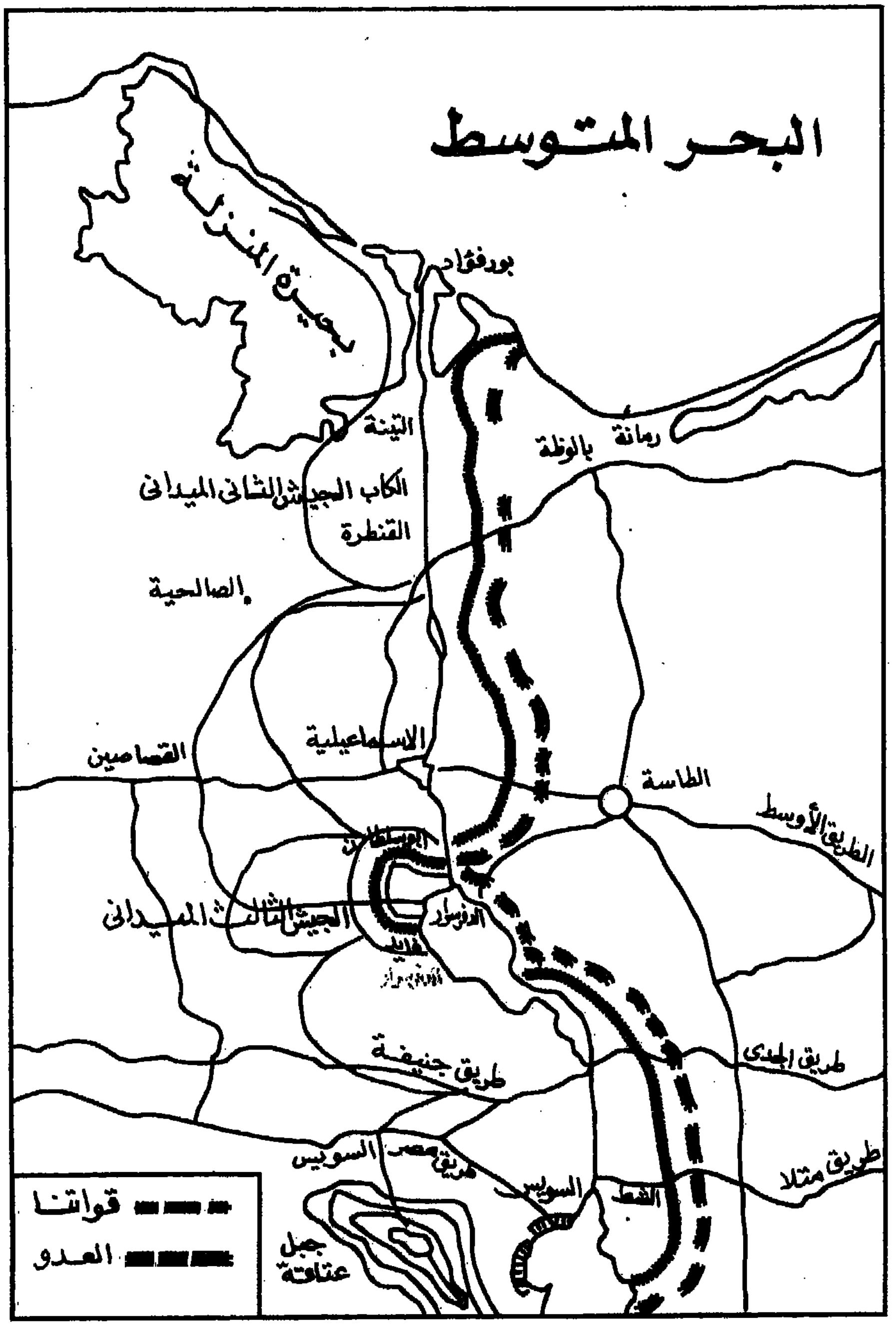
هذا، وقد شرح السادات المبررات التي دعته إلي عزل الفريق محمد صادق من منصبه ضمن الصفحات من ٢٤٥ إلى ٢٤٩ من كتابه «البحث عن الذات»، وتتلخص في أن

السادات استدعى وزير الحربية في صيف عام ٧٢ في الإسكندرية، وأبلغه أن يجمع المجلس الأعلى للقوات المسلحة ويخطره بأنه قرر أن تكون القوات المسلحة جاهزة للقتال ابتداء من يوم ١٥ نوفمبر ٧٢. وكان المفروض أن يقدم وزير الحربية تقريراً له عن الخطة والهيكل العام لها، وقد عاد الفريق صادق بعد يومين وقال له إنه جمع المجلس الأعلى للقوات المسلحة وأبلغهم رسالته، وإن القوات المسلحة ستكون جاهزة ليس في ١٥ نوفمبر ٧٢ ـ كما طلب ـ وإنما ستكون جاهزة في أول نوفمبر ٧٢. وذكر السادات أنه قد ثبت له عند اجتماع المجلس الأعلى للقوات المسلحة في منزله يوم ٢٤ نوفمبر ٧٢ أن وزير الحربية لم يبلغ بعض أعضاء المجلس برسالته، مما أكد له شكوكه في أنه لا يريد أن يحارب لأنه يخشى المعركة، وأن هذا هو السبب الذي دعاه إلى تنحيته عن منصبه.

أهداف خطة المآذن العالية

لقد اتضح لنا من الدراسة التي أجريناها أن خطط العمليات التي سمعنا الكثير عن أسمائها الكودية منذ أن تولى الفريق أول محمد فوزي القيادة العامة للقوات المسلحة في ١١ يونيو ٦٧ إلى حين نشوب حرب أكتوبر ٧٣، كانت عبارة عن مشروعات تعبوية بدون جنود، وكان الغرض منها هو تدريب أعضاء القيادة العامة للقوات المسلحة بأفرعها المختلفة وقيادات القوات الجوية والقوات البحرية وقوات الدفاع الجوي وقيادات الجيوش الميدانية على دور كل منهم في الخطة الهجومية. ومن أبرز هذه المشروعات ذلك المشروع التعبوي الذي قام بإدارته الفريق أول محمد فوزي والذي أسماه «التدريب العملي الأخير لتطبيق خطة تحرير سيناء»، وقد استغرق تنفيذه ١٢ يومًا متواصلة (من ١٤ إلى ٢٥ مارس ٧١)، ولم يتم في هذا المشروع تحرير سيناء فقط بل تم الاستيلاء كذلك على منطقتي العوجة وإيلات (داخل الحدود الإسرائيلية). ولا يمكن بالطبع اعتبار أن هذا المشروع كان تدريبًا على خطة حقيقية موضوعة، إذ من أين لنا في بداية عام ٧١ القوات والأسلحة والمعدات التي كانت تكفل تحقيق أهداف هذه الخطة؟ ولقد سبق لنا في كتابنا «من سيناء إلى الجولان» القيام بتحليل موضوعي لهذا المشروع، أثبتنا فيه بالأدلة القاطعة أن الفريق أول فوزي قد استخدم خياله أكثر من اللازم، سواء في وضع هذا المشروع أو في إدارته.

هذا وقد أكد الفريق سعد الشاذلي رئيس الأركان السابق في مذكراته، أن أول خطة هجومية وضعت في القوات المسلحة المصرية كانت خطة المآذن العالية، وأن كل ما وضع قبل هذه الخطة لم يكن سوى مشروعات تعليمية تفترض وجود قوات وأسلحة ومعدات لا



الموقف قبل حرب أكتوبر ١٩٧٣.

نملكها، وتذكر فقط في المشروعات لأغراض التدريب. وبالطبع يوجد فرق كبير بين مثل هذه المشروعات التعليمية وخطط العمليات التي توضع على أساس القوات والأسلحة الموجودة بالفعل، والتي توضع في خزانة هيئة العمليات الحربية بعد التوقيع عليها من رئيس الأركان ومن وزير الحربية، وتكون جاهزة للتنفيذ بمجرد صدور القرار السياسي بذلك.

وقد وصف الفريق سعد الشاذلي كيف أطلق على الخطة الهجومية الموضوعة اسم «المآذن العالية» فقال: إنه بعد الانتهاء من تجهيز الوثائق الخاصة بهذه الخطة كان المفترض أن يطلق عليها اسما كوديا، وعندما حضر إليه رئيس هيئة العمليات وقتئذ اللواء ممدوح تهامي يسأله عن الاسم المقترح سمعا صوت المؤذن يؤذن لصلاة العصر. وفي وسط هذا الجو الروحاني توصلا إلى إطلاق اسم «المآذن العالية» على الخطة، وكان الهدف النهائي لخطة المآذن العالية مقصوراً على عبور قناة السويس وتحطيم خط بارليف وإنشاء منطقة رءوس كباري على عمق ١٠ ـ ١٢ كم شرق القناة. وقد دافع الفريق سعد الشاذلي عن اقتصار الخطة الهجومية على ذلك الهدف العسكري المتواضع بقوله: «لو كان لدى مصر الإمكانات العسكرية التي تضمن لنا الاندفاع إلى المضايق واحتلالها فور عبور قناة السويس ولم نقم بتنفيذ ذلك، فإننا نكون قد ارتكبنا خطأ عسكريًا جسيمًا. ولكن السؤال الذي يطرح نفسه هو: هل كانت لدينا الإمكانات؟ ويجيب الفريق سعد الشاذلي عن السؤال بقوله: إننا لم نكن نملك وقتئذ الإمكانات التي تتيح لنا الفرصة للاندفاع إلى المضايق للأسباب الآتية:

١ ـ ضعف قواتنا الجوية وعدم قدرتها على حماية قواتنا البرية في أثناء تقدمها شرقا في اتجاه منطقة المضايق.

٢ ـ عدم توافر وحدات دفاع جوي صاروخي (سام ٦) تستطيع مرافقة القوات البرية في أثناء تقدمها نحو الشرق لصد الهجمات الجوية المعادية التي تهاجم قواتنا على الارتفاعات المتوسطة والعالية.

٣ ـ عدم توافر العربات ذات الجنزير لدى القوات البرية بأعداد كافية تسمح لقواتنا بعدم التقيد بالطرق المرصوفة في أثناء تحركها شرقًا.

مزايا خطة المآذن العالية

كانت خطة المآذن العالية ترمي إلى أن نفرض على إسرائيل أن تخوض حربا بأسلوب ليس من اختيارها بل من اختيارنا نحن، وهو أسلوب لا يناسبها ولم تهيئ نفسها له عسكريا أو سياسيًا أو نفسيًا. وكانت هذه الخطة تحقق المزايا التالية:

١ ـ إذا قام العدو بالهجوم على مواقعنا شرق القناة (بعد إنشائنا رءوس الكباري) فستكون لدينا الفرصة لأن نحدث خسائر فادحة في قواته البرية التي تهاجمنا وفي قواته الجوية التي تساندها، بعد أن نكون قد انتهينا من إعداد أنفسنا لهذا الهجوم المضاد المرتقب وانتظرناه بغابة كثيفة من الصواريخ المضادة للدبابات والصواريخ المضادة للطائرات لم تعرفها الحروب السابقة. وكان الفشل هو النتيجة المؤكدة لمثل هذا الهجوم.

٢ ـ إذا اكتشف العدو أن هذه الهجمات المضادة تكلفه خسائر لا يستطيع أن يتحملها في الرجال، وأحجم عن الاستمرار في هجماته ضد قواتنا، فإن بقاء قواتنا شرق القناة بهذا الحجم الكبير سيكون مصدر تهديد وقلق دائمين له. لقد كان العدو في جميع حروبه السابقة مع العرب يحسم المعركة في وقت قصير مستخدمًا في ذلك أسلوب الحرب الخاطفة blitz krieg التي تعتمد على سرعة المناورة بالمدرعات والطائرات، وبذلك لا يضطر إلى تعبئة قواته لمدة تزيد على بضعة أسابيع. وكانت خطة المآذن العالية ترمي إلى إطالة فترة الحرب.

ولم يكن الاستيلاء على الأرض هو الأمر المستهدف، بل كان المهم هو أن نفرض على العدو خيارين أحلاهما مر: فإما القتال وتحمل الخسائر تحت ظروف ليست مناسبة له، وإما العزوف عن القتال مع الاستمرار في تعبئة قواته خوفًا من الخطر الذي تسببه له قواتنا التي تتمركز شرق القناة. وحيث إن التعبئة العامة في إسرائيل تعني استدعاء ١٥٪ من تعداد الشعب اليهودي فإن إطالة مدة التعبئة هي السم الذي يضعف مقاومة إسرائيل يومًا بعد يوم. إن الجندي الإسرائيلي الذي يستدعى في التعبئة هو نفسه العامل والمهندس في المصنع، وهو نفسه الطالب والأستاذ، وهو نفسه الذي يقوم بجميع النشاطات الأخرى في الدولة، فكيف يمكن لهذه الدولة أن تعيش لو امتدت الحرب ستة أشهر فقط وهي بكامل تعبئتها؟

٣ ـ كانت مصر شعبًا وجيشًا وقيادة في حاجة إلى نصر يرفع معنوياتها، ويثبت للأعداء والأصدقاء قدرتنا على الأداء فيخشانا الأعداء ويثق بنا الأصدقاء. وليس سرًا أن كثيرا من الزعماء العرب كانوا يعتقدون أننا لسنا جادين في عزمنا على القتال. ولذلك فإنهم كانوا يضنون بتقديم المساعدات العسكرية والمادية. وليس سرًا أن الاتحاد السوفيتي كان هو الآخر لا يثق كثيراً بمزايا القيادة السياسية، وكان يشك في مقدرة قواتنا المسلحة على عبور قناة السويس، وبالتالي فإنه كان يضن علينا

بالأسلحة الهجومية التي تتطلبها حرب يكون هدفها هو تحرير سيناء بالكامل. وليس سرًا أن إسرائيل كانت تعتقد أن الجيش المصري لا يستطيع أن يعبر قناة السويس، وأن موشى ديان قال ساخرًا في أحد لقاءاته مع القادة: «لكي يعبر المصريون قناة السويس، فإنه يلزمهم سلاح المهندسين السوفيتي والأمريكي مجتمعين لمساعدتهم في ذلك».

وعلاوة على ذلك، كان الشعب المصري قد مل الانتظار الطويل في فترة اللاسلم واللاحرب، وكان بقاء الجنود في الخنادق لمدة أربع سنوات متتالية قد قتل فيهم الروح الهجومية، وأصبح الدفاع بالنسبة لهم وكأنه هو العقيدة القتالية للقوات المسلحة المصرية. وكانت تعبئة المثقفين من خريجي الجامعات في القوات المسلحة لمدة طويلة قد بدأت تثير الشكوى على المستوى العام وعلى المستوى الخاص.

وكان لابد من عمل شيء يغيِّر كل هذه الأوضاع السيئة. وكانت خطة المآذن العالية هي الحل الوحيد للتغلب على كل هذه المشكلات دفعة واحدة.

عيوب خطة المآذن العالية

على الرغم من المزايا الكبيرة التي كانت خطة المآذن العالية تحققها، فإن هذه الخطة لم يكن في مقدرتها تحقيق الأهداف التي تتطلع إليها مصر، سواء من الناحية السياسية أو العسكرية للأسباب الآتية:

أولا ـ من الناحية السياسية: لم يكن تحقيق الخطة يكفل تحريك قضية الأراضي العربية التي احتلتها إسرائيل في أثناء حرب يونيو ٦٧ سياسيًا، أو إثارتها على نطاق واسع على المستوى الدولي، نظرًا للعوامل الآتية:

١ ـ عدم حدوث أي تغيير مؤثر على الوضع الإستراتيجي في المنطقة، فإن تحرير شريط ضيق من الأرض طوله ١٦٠كم على امتداد القناة بعمق ١٢ كم شرقها لن يغير الوضع الإستراتيجي لسيناء التي سيبقى أكثر من ٩٠٪ من أراضيها في يد إسرائيل.

٢ ـ ستبقى جميع المناطق التي بها آبار البترول على الشاطئ الشرقي لخليج السويس في سيناء في يد إسرائيل (مناطق أبو رديس وأبو زنيمة وسدر).

٣ ـ ستبقى قناة السويس، وهي أهم ورقة سياسية في يد مصر وقتئذ، مغلقة أمام الملاحة الدولية كما كان الوضع قبل تنفيذ الخطة. إذن سيظل من المستحيل

على مصر إجراء أي تطهير بها لإعدادها للملاحة أو إعلان فتحها أمام الملاحة الدولية ما دامت القناة ستستمر واقعة فى مدى مدافع الميدان الإسرائيلية.

٤ ـ سيظل التحكم في الملاحة في خليج العقبة كما هو عليه في يد إسرائيل لاستمرار سيطرتها على شرم الشيخ ومضايق تيران.

٥ ـ لن يلبث التأثير النفسي الكبير الذي سيحدث نتيجة عبور الجيش المصري لقناة السويس وتحطيم خط بارليف أن يزول بالتدريج بمجرد أن يكتشف العالم أن كل هذا الانتصار المبدئي المذهل قد انتهى إلى مجرد إنشاء خط دفاعي على عمق ١٢ كم شرق القناة، وأن الوضع العسكري بخلاف ذلك لم تحدث به أي تغييرات أخرى جوهرية.

ثانيا ـ من الناحية العسكرية: إن إنشاء مواقع دفاعية على امتداد حوالي ١٦٠ كم وعلى عمق ١٠ ـ ١٢ كم شرق القناة في الصحراء المكشوفة بينما قوات العدو تتحكم في هذه المواقع من الأراضي المرتفعة في الشرق فيه أخطار عسكرية جسيمة، نظراً للعوامل الآتية:

١ ـ إن لجوء قواتنا للدفاع بعد عملية هجومية ناجحة يتم خلالها اقتحام قناة السويس وتحطيم خط بارليف معناه تسليمنا ميزة المبادأة Initiative للعدو طواعية واختياراً لكي يدبر بعد ذلك الخطط التي تكفل له تحقيق أهدافه الهجومية بقصد القضاء على قواتنا التي تمكنت من عبور قناة السويس.

٢ ـ طبيعة أرض سيناء في المنطقة ما بين قناة السويس ومنطقة المضايق ترتفع بالتدريج من الغرب إلى الشرق، مما يعني أن المواقع الدفاعية المصرية ستكون في الأرض المنخفضة بينما تشرف عليها المواقع الإسرائيلية من جهة الشرق.

٣ ـ إن إنشاء خط دفاعي في الصحراء المكشوفة لا يستند هو وأجنابه على موانع طبيعية أو صناعية معناه تعرض هذا الخط الدفاعي إلى أحد احتمالين: إما الاختراق Penetration بتركيز العدو قوة متفوقة أمام أي جزء ضعيف من أجزائه، وإما القيام بحركة التفاف Outflanking بغرض تطويقه من أحد الجانبين أو من كليهما (Encirclement). وقد اتضح بعد الحرب وبعد معرفة الخطط الإسرائيلية التي كانت موضوعة أن

العدو لم يكن على استعداد لاتباع الأسلوب الذي بنيت على أساسه خطة المآذن العالية، وكان سيحجم عن الهجوم على الخط الدفاعي المصري عندما يكتشف أن هجماته المضادة على هذا الخط ستكلفه خسائر جسيمة مما سوف يرغمه على إبقاء قواته جامدة شرق مواقعنا الدفاعية مع استمراره في عملية تعبئة قواته الاحتياطية التي تكلفه غاليًا.

ولا شك في أنه من الخطأ الفادح وضع خطة حربية تبنى على أساس أن العدو سيتبع في القتال أسلوبًا خاطئًا من الناحيتين الإستراتيجية والتكتيكية. فقد ثبت أن القيادة الإسرائيلية لم تكن على استعداد لترك القوات المصرية داخل منطقة رءوس الكباري لتستدرج القوات الإسرائيلية للقيام بالهجمات المضادة بقصد استنزافها، ولذا فقد كان تفكير هذه القيادة متجهًا إلى اتباع إحدى طريقتين: إما تطويق الجناح الأيمن للخط الدفاعي بعبور خليج السويس من الشمال، والقيام بعملية إنزال برمائية بقوات كبيرة على الشاطئ الغربي للخليج بنفس الأسلوب الذي خططت به الغارة الإسرائيلية البرمائية السابقة على الزعفرانة في سبتمبر ٦٩، والتي انتهت بإصابة الرئيس الراحل عبد الناصر بنوبة قلبية حادة وإحالة اللواء أحمد إسماعيل رئيس الأركان وقتئذ إلى التقاعد. وكان سيتبع عملية الإنزال على الشاطئ الغربي للخليج تقدم القوات الإسرائيلية شمالاً لإتمام تطويق القوات المصرية التي عبرت القناة، واتخذت مواقعها الدفاعية على الشاطئ الشرقي لها وعزلها عن أنساقها وقواعدها الإدارية غرب القناة.

أما الخطة الثانية فكانت مبنية على أساس اختراق المواقع الدفاعية المصرية شرق القناة في أضعف أجزائها وهي منطقة الوصلة بين الجيشين الثاني والثالث عند الدفرسوار شمال البحيرة المرة الكبرى، ولم تكن خطة الاختراق التي نفذت بالفعل خلال حرب أكتوبر في هذه المنطقة خاطرًا فجائيا طرأ على تفكير القيادة الإسرائيلية في أثناء احتدام القتال واشتداد المعارك، بل كانت خطة مسبقة تمّ تدريب القيادات الإسرائيلية في سيناء - على المستويات كافة - على القيام بها، وتم إجراء مناورة تدريبية بالقوات عليها، وذلك عندما كان الجنرال أريل شارون قائدًا للمنطقة الجنوبية. وقد

اتضح أنه كان لهذه الخطة اسم كودي هو «القلب الشجاع» وملف تفصيلي خاص بها كان محفوظًا بالقيادة الجنوبية. ووصل الأمر إلى حد أن شارون قد حدد على وجه الدقة المنطقة التي اختارها لعبور القناة شمال البحيرة المرة الكبرى، ووضع فيها علامات لتمييزها، وهي عبارة عن حجارة حمراء اللون، كما تعمد تخفيف الساتر الترابي في هذه المنطقة بجعله أقل سمكًا من باقي أجزائه الممتدة على طول الشاطئ الشرقي لقناة السويس.

٤ ـ لا يمكن من الناحية التكتيكية أن تكون عملية إنشاء رءوس الكباري هدفًا حربيًا في حد ذاته، بحيث يمكن للقوات أن تتوقف بمجرد تحقيقه؛ إذ إن الغرض من إنشاء منطقة رءوس الكباري هو أن تكون قاعدة وطيدة Firm Base تنطلق منها القوات المدرعة والميكانيكية المخصصة لذلك للاندفاع إلى الهدف النهائي. ولعل خير مثال على ذلك ما قامت به جيوش الحلفاء في الحرب العالمية الثانية، فعلى أثر نجاحها في إنشاء منطقة رءوس الكباري على شاطئ نورماندي شمال غرب فرنسا في ٦ يونيو عام ٤٤ اندفعت الجيوش البريطانية والأمريكية والكندية من منطقة رءوس الكباري، ولم تتوقف إلا بعد اجتياحها ألمانيا، وانتهى الأمر بكسب الحلفاء الحرب واستسلام ألمانيا. ولو كانت قوات الحلفاء اكتفت بإنشاء منطقة رءوس الكباري في نورماندي دون أن تتبع ذلك بالتقدم الفوري لاحتلال ألمانيا لاستطاع القائد الألماني فون روندشتد قذف قوات الحلفاء بسهولة إلى البحر.

٥ ـ لم يثبت حربيًا أو تاريخيًا أن هناك خطًا دفاعيًا غير قابل للاختراق أو التطويق مهما بلغت درجة تحصينه أو مناعته. والأمثلة على ذلك لا تحصى، كخط ماجينو في شرق فرنسا وخط سيجفريد في غرب ألمانيا، وخط بارليف على الشاطئ الشرقي لقناة السويس. وحتى جدار الأطلنطي الذي تفنن الألمان في تحصينه وأنفقوا عليه بلايين الجنيهات لم ينجح في صد قوات الحلفاء، ومنعهم من إنزال قواتهم في نورماندي.

٦ ـ إذا تأملنا الجولات العربية الإسرائيلية السابقة، وراجعنا العمليات الحربية التي وقعت خلال حربي ٥٦ و ٦٧ على الجبهة المصرية، فسوف نجد أن جميع الخطوط الدفاعية المصرية في شمال سيناء التي أقيمت وبذلت الجهود الكبيرة وأنفقت الأموال الطائلة لتحصينها وزيادة مناعتها: إما أنها

اخترقت وإما أنه تم تطويقها بواسطة القوات الإسرائيلية وأجبرت القوات التي كانت تدافع عنها على الانسحاب. وأكبر مثال على ذلك المواقع الدفاعية عند جرادة على طريق العريش رفح، وموقع بير لحفن جنوب شرق العريش ومواقع (أبو عجيلة) وأم قطف.

٧ـ أثبتت الدروس المستفادة من معارك حرب الصحراء الغربية التي دارت بين القوات البريطانية والقوات الألمانية والإيطالية عام ١٩٤٢ أن الخطوط الدفاعية التي تقام في الصحراء دون استنادها على موانع طبيعية خاصة في الأجناب، يمكن تطويقها بسهولة عن طريق حركات الالتفاف. وأكبر مثال على ذلك الخط الدفاعي البريطاني في ليبيا الذي كان يمتد من الغزالة على البحر المتوسط شمالاً إلى بير حكيم جنوبًا؛ فقد استطاع ثعلب الصحراء الفيلد مارشال روميل القيام بحركة التفاف واسعة النطاق من الجنوب حول هذا الخط بقوات البانزر الألمانية المدرعة وتطويقه، مما أجبر القائد البريطاني الجنرال ريتشي على التخلي عن هذا الخط الدفاعي، والانسحاب بقوات الجيش الثامن البريطاني ـ بعد أن دبت فيه الفوضى والانهيار ـ في اتجاه الحدود المصرية، بعد أن تكبد خسائر فادحة في الدبابات.

وعلى العكس عندما أقام الجيش الثامن البريطاني خطًا دفاعيًا على عجل عند العلمين مستندًا بجنبه الأيمن على البحر المتوسط وبجنبه الأيسر على منخفض القطارة، فشل روميل في اختراق الخط الدفاعي أو القيام بحركة التفاف حول أحد جنبيه نظرًا لارتكاز الجنبين على مانعين طبيعيين.

كيف وضعت الخطة جرانيت ٢ المعدلة (بدر)؟

عقب تعيين الفريق أحمد إسماعيل وزيرًا للحربية وقائدًا عامًا للقوات المسلحة في ٢٦ أكتوبر ١٩٧٢، عرض عليه الفريق سعد الشاذلي رئيس الأركان الخطة الهجومية لمناقشتها معه. وكان الفريق أحمد إسماعيل قد سبق له تقديم تقرير عن الموقف العسكري تضمن وجهة نظره عندما كان مديرًا للمخابرات العامة، وذلك في النصف الأول من عام ٧٢. وفي هذا التقرير ذكر أن مصر ليست على استعداد للقيام بحرب هجومية، وحذر من أنه لو قامت مصر بشن الحرب تحت هذه الظروف فإن ذلك يقود إلى كارثة. وقد عرض هذا

التقرير في الاجتماع المصغر الذي تم يوم ٦ يونيو ٧٢ في استراحة الرئيس بالقناطر الخيرية، والذي حضرته الدائرة الصغرى من أعضاء المجلس الأعلى للقوات المسلحة. وقد عرض فيه اللواء عبد الغني الجمسي رئيس هيئة العمليات خلال هذا الاجتماع تقريراً شاملاً عن موقف القوات المسلحة.

وعندما عرض الفريق سعد الشاذلي رئيس الأركان على الفريق أحمد إسماعيل القائد العام الجديد الخطة «جرانيت ٢» التي كانت تستهدف الوصول إلى المضايق، وخطة المآذن العالية التي كانت تستهدف مجرد إنشاء منطقة رءوس الكباري على عمق ١٠ ـ ١٢ كم شرق القناة، اقتنع الفريق أحمد إسماعيل بعدم قدرة القوات المسلحة المصرية على تنفيذ الخطة جرانيت ٢، واستقر رأيه على أنه ينبغي التركيز على خطة المآذن العالية، وتحدد ربيع عام ٧٣ كميعاد محتمل للهجوم.

وفي ١٠ يناير ٧٣ صدر قرار من مجلس اتحاد الجمهوريات العربية بتعيين الفريق أحمد إسماعيل قائداً عامًا للقوات الاتحادية. وفور صدور تعيينه وتعيين اللواء بهي الدين نوفل رئيسًا لهيئة عمليات القيادة الاتحادية، بدأت هذه القيادة تمارس عملها في التخطيط لعملية هجومية على الجبهتين المصرية والسورية في توقيت واحد، ووضع أسس التعاون الوثيق بينهما في المراحل المختلفة للمعركة، وأفضل السبل لاستخدام القوات المسلحة في الدولتين في عملية واحدة منسقة، وربط الجبهتين المصرية والسورية بوسائل وثيقة ومستمرة.

ونتيجة لدراسة الوضع الإستراتيجي على الجبهتين المصرية والسورية، حدث تبدل كبير في تفكير الفريق أحمد إسماعيل بالنسبة للخطة المصرية «المآذن العالية». فقد وجد أنه من الضروري تعديل هذه الخطة لكي تشمل الاستيلاء على خط المضايق الإستراتيجية في سيناء (٤٥ ـ ٥٥ كم شرق قناة السويس).

إن ظروف الجبهة السورية من الناحيتين الجغرافية والإستراتيجية كانت تفرض أن يكون غرض الهجوم السوري هو تحرير هضبة الجولان بأكملها، ووصول القوات السورية إلى الخط: نهر الأردن ـ الشاطئ الشرقي لبحيرة طبرية، وذلك نظراً لأن عمق هضبة الجولان في أوسع أجزائها لا يزيد على ٢٥ كم مع خلوها من أي موانع طبيعية، مما يجعل أرض المعركة في هذه الجبهة مع إسرائيل متصلة. وبالتالي يصبح من الصعب توقف القوات السورية إلا عند الوصول إلى الغرض النهائي بسبب الطبيعة الجغرافية للهضبة السورية.

وكان نجاح الهجوم السوري في اجتياح مرتفعات الجولان معناه وصول المدرعات السورية إلى نهر الأردن الذي لا يفصله عن كبريي الموانى الإسرائيلية في الشمال، وهما عكا وحيفا، سوى مسافة ٥٠ كم، يمكن للمدرعات قطعها في بضع ساعات، كما يعني وقوع شمال إسرائيل المكتظ بالسكان والذي يضم كثيراً من القرى والمدن والأهداف الإستراتيجية المهمة، مثل مطار رامات دافيد والمطلة وصفد وطبرية ومشروع تحويل نهر الأردن ومشروع روتنبرج الهيدو ـ كهربائي ـ تحت رحمة المدفعية السورية والصواريخ بعيدة المدى.

ونظراً لأن الوضع الإستراتيجي على الجبهة المصرية لم يكن يشكل بالنسبة لإسرائيل خطورة عاجلة على المراكز ذات الكثافة السكانية في الجنوب، بسبب وجود حاجز طبيعي متسع وهو صحراء سيناء (حوالي ٢٢٥ كم)، فقد كان من المنتظر بمجرد بدء الحرب على الجبهتين المصرية والسورية في توقيت واحد أن تركز إسرائيل المجهود الرئيسي لقواتها على الجبهة السورية، مما كان يعني إتاحة الفرصة أمام القوات المصرية لتطوير الهجوم شرقاً والوصول إلى خط المضايق من جهة. ومن جهة أخرى لم يكن في الإمكان إقناع القيادة السورية بالخطة المصرية عند القيام بعملية تنظيم التعاون بين الجيشين المصري والسوري قبل المعركة، فبينما تستهدف الخطة السورية الوصول إلى الخط نهر الأردن ـ الشاطئ الشرقي لبحيرة طبرية الذي يقع على عمق حوالي ٢٥ كم من خط بدء الهجوم، فإن الغرض النهائي للخطة المصرية كان ذلك الهدف المتواضع؛ أي مجرد إنشاء منطقة رءوس الكباري على عمق ١٠ ـ ١٢ كم شرق قناة السويس. وكان المنتظر أن يثير ذلك الوضع اعتراض القيادة السورية، إذ إن تركيز المجهود الرئيسي لإسرائيل ضد الجبهة السورية كما كان منتظراً دون أن يقابله قيام القوات المصرية بضغط مركز على القوات الإسرائيلية التي تواجهها كان يعني إتاحة الفرصة للقيادة الإسرائيلية لكي تقوم بعملية تثبيت للقوات المصرية في الجنوب بينما تلقي بكل ثقلها ضد القوات السورية المتقدمة في مرتفعات الجولان في الشمال. ورغم الاعتراضات التي تقدم بها الفريق سعد الدين الشاذلي رئيس الأركان للقائد العام الفريق أحمد إسماعيل حتى لا تجرى أي تعديلات في خطة المآذن العالية نظراً لأن إمكانات وقدرات القوات المسلحة المصرية لم تتغير عما كانت عليه منذ وضع هذه الخطة، فإن الوضع الإستراتيجي على الجبهتين أدى إلى تصميم الفريق أحمد إسماعيل على ضرورة تعديل الخطة المصرية لتتلاءم مع الخطة السورية.

وبناء على ذلك، أخذت هيئة العمليات الحربية المصرية التي كان يرأسها وقتئذ اللواء محمد عبد الغني الجمسي في تجهيز خطة عمليات أخرى خلاف خطة المآذن العالية تشمل

تطوير الهجوم شرقًا بعد العبور للوصول إلى خط المضايق. ونظرًا لأن الخطة الجديدة كانت بالضبط هي الخطة جرانيت ٢ مع إدخال بعض التعديلات عليها، لذلك سميت هذه الخطة باسم «جرانيت ٢ المعدلة» ولكن تم تغيير اسمها بعد ذلك في شهر سبتمبر ٧٣ أي قبل شن الهجوم بشهر ليكون «الخطة بدر». وتبعًا لذلك أصبح يطلق على خطة العبور وإنشاء رءوس الكباري اسم «المرحلة الأولى»، بينما أطلق على خطة التطوير شرقًا للوصول إلى المضايق اسم «المرحلة الثانية». ولإيجاد فاصل بين المرحلتين كان يقال عند الانتقال من ذكر المرحلة الأولى إلى المرحلة الثانية عبارة «وبعد وقفة تعبوية» يتم القيام بتطوير الهجوم شرقًا.

وفي ٧ يونيو ٧٣ جرت في القيادة العامة بمدينة نصر عملية تنظيم التعاون للخطة الهجومية المشتركة بين القوات المصرية والسورية التي حضرها الفريق أحمد إسماعيل قائد القيادة الاتحادية والفريق سعد الشاذلي رئيس الأركان واللواء بهي الدين نوفل رئيس عمليات القيادة الاتحادية وعدد من القادة المصريين والسوريين، حيث تم تحديد أهداف الخطة على الجبهتين، وكان الهدف هو وصول القوات السورية إلى الخط نهر الأردن ـ الشاطئ الشرقي لبحيرة طبرية، ووصول القوات المصرية إلى خط المضايق الإستراتيجية شرق قناة السويس. وقد قام قائد الجيش الثاني اللواء سعد مأمون وقائد الجيش الثالث اللواء عبد المنعم واصل بعد ذلك بتخصيص المهام لقادة الفرق المشاة الخمس التي تقرر قيامها بعبور قناة السويس كنسق أول للجيشين وفقًا للخطة، وهما الفرقتان ١٩ و ٧ التابعتان للجيش الثالث، والفرق ١٦ و ٢ و ١٨ التابعة للجيش الثاني. كذلك خصص القائدان المهام لقائدي الفرقتين ٤ و ٢١ المدرعتين والألوية المشاة الميكانيكية المعاونة للفرقتين التي تقرر أن تكون في النسق الثاني للجيشين، على أن يدفع بها من خلال رءوس الكباري للاندفاع شرقًا إلى المضايق. وقد قام قادة الفرق المشاة بالنسق الأول وقادة الفرق المدرعة وفرق المشاة الميكانيكية بالنسق الثاني جميعًا بأعمال الاستطلاع الخاصة بعملية العبور وتنفيذ المرحلة الأولى، وكذا الخاصة بعملية تطوير الهجوم شرقًا والوصول إلى المضايق وإتمام المرحلة الثانية، ووضعوا خططهم وتم إجراء عملية تنظيم التعاون داخل كل جيش. والأمر الوحيد الجدير بالملاحظة هو أن المرحلة الأولى من الخطة كانت تناقش خلال عملية تنظيم التعاون على كل المستويات بكل تفصيلاتها الدقيقة، بينما كان يتم المرور على المرحلة الثانية مرورًا سريعًا. وقد برر الفريق سعد الشاذلي رئيس الأركان هذه الظاهرة في مذكراته بأنه هو شخصيًا لم يكن يتوقع مطلقًا أن يطلب من القوات المصرية تنفيذ المرحلة الثانية، وأن هذا كان هو نفس شعور قائدي الجيشين الثاني والثالث.

التوجيه السياسي والعسكري لحرب أكتوبر

شهد الإعداد لحرب أكتوبر ٧٣ تغييراً كبيرا في المفهوم الإستراتيجي لدي القيادة السياسية للدولة؛ إذ لم يحدث في جميع الجولات العربية الإسرائيلية السابقة وضع إستراتيجية شاملة لمصر لتحقيق التنسيق والتوازن بين الهدف السياسي للدولة وقدراتها العسكرية.

وكانت القوات المسلحة المصرية في الجولات السابقة تصدر لها الأوامر للاحتشاد في سيناء دون أن يحدد لها الهدف العسكري المطلوب تحقيقه، ولذا فعندما كان القتال ينشب في الماضي كانت تصرفات القيادة العسكرية بعيدة تمامًا عن تصرفات القيادة السياسية خاصة كما جرى في حرب يونيو عام ٦٧ التي كانت فيها القوات المسلحة ضحية من ضحاياها، ولم تكن أبدًا هي السبب فيما حاق بالبلاد من هزيمة منكرة. ولكن قبل حرب أكتوبر ٧٣ تم وضع إستراتيجية شاملة للدولة بهدف إعدادها للحرب، قامت فيها القوات المسلحة بالدور الرئيسي بمعاونة ومؤازرة جميع القوى الأخرى السياسية والاقتصادية والإعلامية بالدولة.

وفي أول أكتوبر ٧٣ أرسل الرئيس الراحل السادات بصفته رئيسا للجمهورية توجيها سياسيا وعسكريا إلى الفريق أول أحمد إسماعيل وزير الحربية والقائد العام للقوات المسلحة كان يتكون من أربع فقرات رئيسية هي:

أولا ـ عن الوضع العام.

ثانيا ـ عن إستراتيجية العدو.

ثالثا ـ عن إستراتيجية مصر في هذه المرحلة.

رابعا ـ عن التوقيت.

وسوف نتناول في دراستنا هذه كل فقرة من هذه الفقرات على حدة بالتحليل والشرح فيما عدا الفقرة الأولى التي سنكتفي بعمل تلخيص عام لها باعتبارها فقرة شبه تاريخية وليس لها علاقة بالتخطيط الإستراتيجي للحرب.

- عن الوضع العام.. ركز الرئيس الراحل السادات في شرحه لهذه الفقرة على عدة نقاط كانت أولاها خاصة بالمحاولات التي تبذلها إسرائيل بتأييد من أمريكا لفرض إرادتها علينا وعلى إنهاء أزمة الشرق الأوسط على نحو يحقق لها سيطرة شبه مطلقة

في المنطقة العربية، وسجل السادات أن مصر حاولت بكل الوسائل أن تجد حلا للأزمة، بداية بقبول قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ الصادر في ٢٢ نوفمبر ٦٧ وانتهاء بالمبادرة التي تقدمت بها مباشرة لحل يكون فيه فتح قناة السويس تمهيداً لمراحل انسحاب شامل تطبيقًا لقرار مجلس الأمن (المقصود هو مبادرة السادات للسلام التي أعلنها في ٤ فبراير ٧١ في خطاب له أمام مجلس الشعب)، ولكن كل هذه الجهود إما فشلت وإما توقفت وإما حاول أعداؤنا الخروج بها عن مقاصدها. وذكر أن مصر قامت بعمليات عسكرية ذات طابع محدود (يقصد حرب الاستنزاف) في سنوات ٦٨ و٦٩ و٧٠، كما قدمت دعما كبيرا لقوات المقاومة الفلسطينية لمباشرة العمليات الفدائية، ولكن هذه العمليات كلها رغم ما حققته من نتائج لم تصل في ضغطها على العدو إلى الحد اللازم. وسجل السادات كذلك ما تحمله شعب مصر من أعباء مادية ومعنوية فادحة كانت أكثر مما كان يتصور خصومه وأصدقاؤه على السواء إيمانا منه بحريته. وبالنسبة للموقف العربي ذكر السادات أن تحسينات مهمة قد طرأت عليه مما أثر بشكل واضح في أوضاع تسليحنا، فإلى جانب ما نحصل عليه من الاتحاد السوفيتي والكتلة الشرقية، فقد أتيحت لنا من مصادر أخرى أنواع من السلاح لم تكن متوافرة لنا. وأنهى السادات شرحه للوضع العام بتركيزه على أن العدو أصبح في شبه عزلة بعد الجهود المصرية الناجحة في المجالات الدولية.

الإستراتيجية الإسرائيلية

ذكر الرئيس الراحل السادات ضمن توجيهه عن هذه الفقرة ما يلي:

«إن العدو الإسرائيلي ـ كما نرى ـ انتهج لنفسه سياسة تقوم على التخويف والادعاء بتفوق لا يستطيع العرب تحديه.. وهذا هو أساس نظرية الأمن الإسرائيلي التي تقوم على الردع النفسي والسياسي والعسكري. إن نقطة الأساس في نظرية الأمن الإسرائيلي هي الوصول إلى إقناع مصر والأمة العربية بأنه لا فائدة من تحدي إسرائيل، وبالتالي فليس هناك مفر من الإذعان لشروطها حتى وإن تضمنت هذه الشروط تنازلات عن السيادة الوطنية». انتهى توجيه السادات.

لقد كانت نظرية الأمن الإسرائيلي حتى ما قبل حرب يونيو ٦٧ مبنية على أساس القدرة على توجيه ضربة إجهاض حاسمة، ونقل الحرب إلى الأراضي العربية بسبب الوضع الجغرافي السيئ لإسرائيل نظراً لطول حدودها المشتركة مع دول المواجهة العربية،

في الوقت الذي لم يكن فيه عرضها في منطقة طولكرم وقلقيلية في الضفة الغربية للأردن يزيد على ١٥ كم. ونتيجة للانتصار الإسرائيلي الساحق في حرب يونيو ٦٧، وبعد أن أصبحت الخطوط التي تقف عليها قواتها تمر فوق موانع طبيعية منيعة تمثلها الهضبة السورية وأخدود نهر الأردن شرقا وخليجا العقبة والسويس جنوبًا والبحر المتوسط وقناة السويس غربًا، تغيرت نظرية الأمن الإسرائيلية، إذ إن أي حرب قادمة سوف تجرى بعيدا عن المناطق ذات الكثافة السكانية في إسرائيل، وبذلك يتوافر للجيش مهلة من الوقت ومجال للمناورة لمجابهة أي هجوم عربي دون أن تصاب الجبهة الداخلية بأضرار.

ووفقا لنظرية الأمن الجديدة ركز الفكر الإستراتيجي على ضرورة الاحتفاظ بالأراضي العربية المحتلة في حرب يونيو ٦٧ باعتبار أنها الحدود الآمنة لإسرائيل، وأصبحت الإستراتيجية الإسرائيلية الجديدة ترتكز على الأسس التالية:

أولا ـــ القدرة على الردع: بأن تكون إسرائيل أقوى دولة في منطقة الشرق الأوسط، وأن تكون قوتها توازي قوى الدول العربية مجتمعة. وتقوم القدرة على الردع على العناصر الآتية:

١ ـ السبق في توجيه ضربة الإجهاض. إن السبق في توجيه هذه الضربة معناه إحباط أي تحضيرات عربية للهجوم والاعتماد في ذلك على قوات جوية متفوقة من أحدث وأقوى الطائرات وأبعدها مدى لتكون أداة الردع الرئيسية وذراعها الطويلة للوصول إلى أعماق الدول العربية، مع الاعتماد في الهجوم البري على جيش عصري خفيف الحركة مجهز بقوات مدرعة كافية وعلى درجة عالية من الكفاءة القتالية لإمكان تدمير أي جيش عربي بصورة خاطفة وسريعة وتدمير أي هجوم عربي في ساعات قليلة، كما جرى في حربي ١٩٥٦ و ١٩٦٧.

٢ ـ ضرورة الاحتفاظ بالأراضي العربية المحتلة. إذ إن الخطوط الدفاعية الإسرائيلية المرتكزة على قناة السويس ونهر الأردن ومرتفعات الجولان هي أنسب وأقوى أنواع الدفاعات بالنسبة لإسرائيل، فهي ترتكز على موانع مائية (قناة السويس ونهر الأردن) وعلى حاجز جبلي كبير (مرتفعات الجولان)، مما يسهل مهمة القوات الإسرائيلية في الدفاع ويجعل مهمة القوات العربية المهاجمة شاقة ومعقدة، وعلاوة على ذلك تحقق هذه الحدود الآمنة لإسرائيل أحد مبادئ

الحرب الرئيسية وهو مبدأ (الاقتصاد في القوة) إذ تحتاج إلى قوات قليلة للدفاع والمراقبة ووقف الهجوم العربي لأطول مدة ممكنة ريثما تتم تعبئة الاحتياطي وتحريك التشكيلات المقاتلة من العمق إلى المواقع المحددة لها في الخطة.

ثانيًا - ضرورة الاحتفاظ بميزة المبادأة Initiative في جميع الظروف والأحوال، إذ إن المبادأة وفقا لنظريات الحرب هي الوسيلة الأساسية للحصول على المفاجأة التي تعد وفقا لتعريف مشاهير القادة وفلاسفة الحرب أهم مبادئ الحرب وأعظمها أثرا في إحراز النصر.

ثالثًا - وجود جهاز مخابرات قدير لجمع المعلومات وفرزها وتحليلها بسرعة فائقة ودقة متناهية لاكتشاف أي نوايا هجومية ضد إسرائيل قبل وقوعها بوقت كاف، مما يسمح للقوات بالاستعداد للقتال واحتلال المواقع المحددة لها في الخطة، وفي الوقت نفسه لتنفيذ عملية التعبئة الشاملة أو الجزئية للقوات الاحتياطية.

رابعا - ضمان مؤازرة قوة عظمى كحليف موثوق بنجدته في كل وقت، وقد تجلى ذلك باعتماد إسرائيل على بريطانيا وفرنسا في أثناء العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦، فلم تجرؤ إسرائيل على بدء العمليات الحربية ضد مصر في ٢٩ أكتوبر إلا بعد التأكد من أن بريطانيا وفرنسا ستشتركان معها في الحرب، كما حصلت على تأمين مضمون لحماية جوية فرنسية فوق المدن الرئيسية وميدان القتال بسيناء رغم أن الجيش المصري لم يكن قد استوعب بعد صفقة الأسلحة التشيكية التي حصل عليها في أواخر عام ١٩٥٥ استيعابا كاملا. وقد نقلت إسرائيل عقب حرب السويس عام ١٩٥٦ اعتمادها من بريطانيا وفرنسا وألقت بالمسئولية بأكملها على عاتق الولايات المتحدة التي تولت منذ ذلك الحين إمدادها بأحدث الأسلحة والمعدات المتطورة والتكنولوجيا الحديثة وبالمعونات المالية السخية وبتأييدها الدائم في المحافل الدولية رغم كل ما ترتكبه من اعتداءات، وتسخير الفيتو الأمريكي لمنع مجلس الأمن من إصدار أي قرارات بإدانتها.

ذكر الرئيس الراحل السادات ضمن توجيهه عن هذه الفقرة ما يلي :

«إن الهدف الإستراتيجي الذي أتحمل المسئولية السياسية في إعطائه للقوات المسلحة المصرية، وعلى أساس كل ما سمعت وعرفت من أوضاع الاستعداد يتلخص فيما يلي :

تحدي نظرية الأمن الإسرائيلي، وذلك عن طريق عمل عسكري حسب إمكانات القوات المسلحة يكون هدفه إلحاق أكبر قدر من الخسائر بالعدو وإقناعه بأن مواصلة احتلاله لأراضينا يفرض عليه ثمنا لا يستطيع دفعه، وبالتالي فإن نظريته في الأمن ـ على أساس التخويف النفسي والسياسي والعسكري ـ ليست درعا من الفولاذ تحميه الآن أو في المستقبل. وإذا استطعنا بنجاح أن نتحدى نظرية الأمن الإسرائيلي فإن ذلك سوف يؤدي إلى نتائج محققة في المدى القريب وفي المدى البعيد.

في المدى القريب : فإن تحدي نظرية الأمن الإسرائيلي يمكن أن يصل بنا إلى نتائج محققة تجعل في الإمكان أن نصل إلى حل مشرف لأزمة الشرق الأوسط.

وفي المدى البعيد : فإن تحدي نظرية الأمن الإسرائيلي يمكن أن يحدث متغيرات تؤدي بالتراكم إلى تغيير أساسي في فكر العدو ونفسيته ونزعاته العدوانية». انتهى توجيه السادات.

لقد بنيت الإستراتيجية المصرية لحرب أكتوبر على أساس مصري خالص غير مستورد من الشرق أو من الغرب، وكان الاعتماد في ذلك يقوم على متابعة واستخدام التقدم العلمي والتكنولوجي في المجال العسكري، وعلى الدروس المستفادة والمستمدة من التجارب المريرة التي شهدتها القوات المسلحة خلال حربي ١٩٥٦ و ١٩٦٧، وكانت الإستراتيجية المصرية ترتكز على الأسس التالية :

أولا ـ تقويض نظرية الأمن الإسرائيلي : لكي تقوم مصر بتحدي نظرية الأمن الإسرائيلية من الناحية الواقعية، من الضروري أن تحصل على ميزة المبادأة التي كانت تعني تحديا عمليا لأسلوب الردع المعنوي، كما كان أمرا جوهريا القيام بهجوم شامل على طول مواجهة القناة وليس على مجرد قطاعات معينة منها، حتى يمكن تقويض أسلوب الردع المادي. وكان التخطيط لاقتحام قناة السويس وتدمير خط بارليف بحصونه المنيعة يعني

في حالة نجاحه أن نظرية الاستناد إلى موانع طبيعية باعتبارها حدودا آمنة ليست سوى وهم كاذب وسراب خداع .

ثانيـــًا ــ خطة الخداع الإستراتيجي : حققت هذه الخطة التى رسمتها ونفذتها القيادة العامة المصرية بالتعاون مع أجهزة الدولة العليا نجاحا كاملا . وقد تم تنسيق الخطط المصرية والسورية الخاصة بالسرِّية والأمن والخداع على المستويين الإستراتيجي والسياسي، ونجحت القيادتان بالفعل بالتعاون مع بعض الأجهزة المدنية كوزارتي الخارجية والإعلام في المحافظة على سر الهجوم وفي اتباع الأساليب التي تمكنتا بها من خداع المخابرات الإسرائيلية والأمريكية اللتين تعدان بلا شك من أبرع أجهزة المخابرات في العالم ومن أشدها دهاء وحذرا .

ثالثـــًا ــ إرغام الجيش الإسرائيلي على القتال على جبهتين أساسيتين في وقت واحد (الجبهة المصرية والجبهة السورية) اللتين يفصل بينهما حوالي ٥٠٠كم، لتشتيت جهوده وبعثرة قواته بين الجبهتين، ولمنع إسرائيل من ممارسة خطتها التقليدية بتثبيت إحدى الجبهات وتركيز مجهودها الرئيسي ضد الجبهة الأخرى، وعندما يتم القضاء عليها ينتقل المجهود الرئيسي إلى الجبهة التي تم تثبيتها للقضاء عليها هي الأخرى، وهو الأسلوب الذي اتبعته بنجاح خلال حرب يونيو ١٩٦٧ .

رابعــــا ــ إغلاق مضيق باب المندب : بعد حرب يونيو ١٩٦٧ ، أخذت إسرائيل تعلن على الملأ عن عزمها على البقاء في شرم الشيخ لإبقاء السيطرة على مدخل خليج العقبة ليبقى الطريق من ميناء إيلات إلى إفريقيا وآسيا وبالعكس مفتوحا أمام سفنها التجارية . وقد استهدفت الإستراتيجية المصرية قطع ذلك الشريان الحيوي لإسرائيل وإثبات أن شرم الشيخ ليست مفتاحا لإيلات، فقد نزل المفتاح إلى أقصى الجنوب بناء على إستراتيجية عربية للبحر الأحمر تم بمقتضاها إغلاق مضيق باب المندب في وجه السفن الإسرائيلية قبل نشوب الحرب مباشرة .

خامسًـا ــ إبطال وتحييد عناصر القوة في الجيش الإسرائيلي وفقا للأساليب التالية :

١ ـ حرمان العدو من مزايا توجيه الضربة الأولى، وأن يبدأ الجيشان المصري والسوري بتوجيه الضربة الأولى في توقيت واحد للاستفادة بمزاياها .

٢ ـ شل فعالية القوات الجوية الإسرائيلية المتفوقة وإضعاف قوتها عن طريق شبكة دفاع جوي متكاملة كانت تعد من أقوى الشبكات الدفاعية في العالم، وذلك بالتعاون مع القوات الجوية.

٣ ـ شل فعالية القوات المدرعة الإسرائيلية التي تركز اهتمام إسرائيل بها عقب نجاحها الساحق في حربي ١٩٥٦ و ١٩٦٧، والحد من تأثيرها عن طريق تزويد المشاة التى تعبر قناة السويس بأكبر عدد من الأسلحة والصواريخ المضادة للدبابات، تعاونها قوة نيران كثيفة من المدفعية في المراحل الأولى الحرجة، على أن يكون القتال معارك أسلحة مشتركة طوال مدة الحرب.

ملاحظة: نتيجة لهبوط فعالية القوات الجوية الإسرائيلية بسبب شبكة الصواريخ سام، غرب قناة السويس وضعف فعالية القوات المدرعة الإسرائيلية بسبب تزويد المشاة المصرية بأعداد وفيرة من الأسلحة والصواريخ المضادة للدبابات، عجزت إسرائيل عن اتباع أساليب الحرب الخاطفة Blitz Krieg التي كانت تتبعها في كل حروبها السابقة، إذ إن الطيران والمدرعات هما السلاحان الرئيسيان في الحرب الخاطفة التي اعتادت إسرائيل أن تشنها.

٤ ـ عرقلة وصول القوات الاحتياطية الإسرائيلية من العمق. نظرا لأن نظام تعبئة الاحتياطي الإسرائيلي يعد من أفضل النظم الموجودة في العالم، ويحقق أحسن المزايا ويتيح الفرصة لتجنيد ثلاثمائة ألف مقاتل وقت الحرب لدفعهم إلى ميدان القتال، لذلك استهدفت الإستراتيجية المصرية التدخل في عملية وصول القوات الاحتياطية إلى جبهة سيناء عن طريق التخطيط لإنزال وحدات كاملة من رجال الصاعقة بواسطة طائرات الهيليكوبتر في عمق سيناء، وإنزال وحدات صاعقة أخرى عن طريق البحر على ساحل البحر المتوسط بموازاة طريق العريش ـ رمانة. وكان الغرض من ذلك هو بث الذعر على خطوط مواصلات العدو وتشتيت جهوده وعرقلة وصول احتياطياته إلى ساحة المعركة.

التوقيت

ذكر الرئيس الراحل السادات ضمن توجيهه عن هذه الفقرة ما يلي :

«إن الوقت من الآن ومن وجهة نظر سياسية ملائم كل الملاءمة لمثل هذا العمل الذي أشرت إليه في ثالثا من هذا التوجيه (يقصد إستراتيجية مصر في هذه المرحلة). إن أوضاع الجبهة الداخلية وأوضاع الجبهة العربية العامة بما في ذلك التنسيق الدقيق مع الجبهة الشمالية (الجبهة السورية) وأوضاع المسرح الدولي تعطينا من الآن فرصة مناسبة للبدء. ومع العزلة الدولية للعدو. . ومع الجو الذي يسود عنده بنزعات الانتخابات الحزبية وصراعات الشخصيات ـ فإن احتمالات الفرصة المناسبة تصبح أحسن أمامنا». انتهى توجيه السادات.

لقد كانت الأحوال السياسية في الساحة الدولية بالفعل تسير في غير صالح إسرائيل، إذ كانت تعاني وقتئذ من مرارة العزلة السياسية نتيجة لتحديها المستمر للمجتمع الدولي ولقرارات الأمم المتحدة. وكان الاتحاد السوفيتي إحدى القوتين العظميين ماضيا في سياسته في تأييد القضايا العربية وتزويد العرب وخصوصا جيشي مصر وسوريا بكميات ضخمة من أحدث الأسلحة والطائرات والمعدات المتطورة والأجهزة الإلكترونية المتقدمة، وكان البترول العربي يضغط على دول السوق الأوربية المشتركة وبريطانيا واليابان ـ وهي الدول الصناعية الكبرى ـ لتبعد عن الخط الإسرائيلي ولتنتج سياسة أكثر موالاة للعرب.

وفي مايو ١٩٧٣ اتخذ مؤتمر الوحدة الإفريقية الذي عقد في أديس أبابا عاصمة إثيوبيا قرارا صريحا بإدانة إسرائيل، كما قطعت معظم الدول الإفريقية علاقاتها الدبلوماسية معها. وفي الدورة الطارئة لمجلس الأمن المنعقدة في يونيو ١٩٧٣ صوّت المجلس في ٢١ يوليو على قرار يدعم فيه قراره السابق رقم ٢٤٢ الصادر في ٢٢ نوفمبر عام ٦٧ بدعوة إسرائيل للانسحاب من الأراضي التي احتلتها في حرب يونيو عام ١٩٦٧، وحصل القرار على أغلبية ١٤ صوتا من ١٥ أي باستثناء صوت واحد هو صوت الفيتو الأمريكي. وفي سبتمبر ١٩٧٣ أعربت دول عدم الانحياز التي اجتمعت في مؤتمر القمة بالجزائر عن تأييدها التام للقضية العربية، ووصفت سياسة إسرائيل بأنها تشكل تهديدا للسلام والأمن العالميين.

وبعد أن وصل التأييد العربي والعالمي للقضية العربية في كل المجالات إلى هذه الدرجة العالية التي لا مجال بعدها لإضافة جديدة إلا إضافة تصنعها القوات المصرية والسورية بقوة السلاح، بدأ التفكير في انتخاب أنسب التوقيتات ليوم وساعة الهجوم.

ومن ناحية تحديد يوم «ي» يوم الهجوم ذكر الفريق أول أحمد إسماعيل في حديث له أن البحث كان يدور للاهتداء إلى ليلة تتوافر فيها المميزات التالية:

١ ـ ليلة مقمرة يتصاعد فيها القمر معنا في الساعات الحاسمة.

٢ ـ ليلة يكون تيار القناة فيها مناسبا للعبور من ناحية السرعة.

٣ ـ ليلة يكون عملنا فيها بعيدا عن توقعات العدو.

٤ ـ ليلة لا يكون العدو فيها مستعدا للعمل.

وهذه المميزات هي التي حددت لنا يوم ٦ أكتوبر قبل أن يحل بشهور عديدة للأسباب الآتية:

١ ـ الحسابات الفلكية كانت تدل على أن القمر في تلك الليلة ينمو في أول الليل ثم يغيب في آخره.

٢ ـ علماء القوات المسلحة بعد دراسة تقارير هيئة قناة السويس لسنوات طويلة سابقة من أجل حساب سرعة التيارات في جميع أيام السنة ـ وجدوا أن يوم ٦ أكتوبر أكثرها مناسبة.

٣ ـ العدو لا يتوقع منا العمل في شهر رمضان.

٤ ـ العدو مشغول بمناسبات مختلفة بينها انتخاباته العامة التي تشد اهتمام الجميع.

لقد كان شهر رمضان هو الذي أوحى للقائد العام بتغيير الاسم الرمزي لعملية الهجوم «الخطة جرانيت ٢ المعدلة». فقد اختار لها الاسم الرمزي الجديد «بدر» تيمنا بغزوة بدر. وكان السادات من وجهة نظره السياسية يسميها عملية (الشرارة).

أما من جهة تحديد ساعة «س» أي ساعة الهجوم، فقد ذكر الفريق أول أحمد إسماعيل في حديثه أن الموعد ظل إلى ما قبل بدء القتال موضوع مناقشة بين القيادتين المصرية والسورية. فقد كان السوريون لعدة أسباب من بينها اتجاه الشمس معهم وضد العدو يفضلون العمل مع أول ضوء في الفجر، وكان المصريون لعدة أسباب من بينها اتجاه الشمس وضرورات العبور ونصب الكباري وفتح الطريق لدخول المعدات الثقيلة كالدبابات والمدافع في الظلام يفضلون العمل في آخر ضوء في المساء. وكان الفريق أول أحمد إسماعيل بوصفه قائدا عاما للجبهتين المصرية والسورية قد بعث إلى السوريين يوم ٣٠ سبتمبر بإشارة التحذير بأن العملية محتملة في أي وقت، وسافر هو بنفسه يوم ٢

أكتوبر إلى دمشق وحدثت مناقشات عديدة بينه وبين القادة السوريين حول ساعة الهجوم. وبعد دراسة تفصيلية تم الاتفاق على أن تكون الساعة الثانية بعد الظهر موعدا للساعة «س»، وصدّق الرئيس حافظ الأسد على ذلك. وقد كان اختيار ذلك التوقيت أمرا غريبا، فلم يكن منتظرا ولا مألوفا في الحروب، فإن هذا الموعد هو وقت ظهيرة وغداء وراحة، وكان يوافق يوم عيد الغفران لدى إسرائيل وهو إجازة من العمل والطعام والشراب. ومن المعتاد في الحرب أن تكون الضربات الجوية وبدء الهجوم العام قبل أول ضوء أو قبل آخر ضوء، أما في منتصف النهار، فلم يكن ذلك أمرا مألوفا. وكانت إسرائيل تفخر دائما بأنها هي التي تبدأ الحرب وهي التي تنهيها كما حدث في حربي ١٩٥٦ و ١٩٦٧، ولكننا في حرب ١٩٧٣ اختطفنا منها ميزة المبادأة، ووجدت نفسها لأول مرة في موقف الدفاع.

التوجيه الإستراتيجي للسادات في ٥ أكتوبر

في يوم ٩ من رمضان الموافق ٥ من أكتوبر ١٩٧٣، أرسل الرئيس الراحل السادات بوصفه رئيسا للجمهورية وقائدا أعلى للقوات المسلحة توجيها إستراتيجيا إلى الفريق أول أحمد إسماعيل وزير الحربية والقائد العام للقوات المسلحة، كان نصه كما يلي:

١ ـ بناء على التوجيه السياسي والعسكري الصادر لكم مني في أول أكتوبر ١٩٧٣، وبناء على الظروف المحيطة بالموقف السياسي والإستراتيجي، قررت تكليف القوات المسلحة بتنفيذ المهام الإستراتيجية الآتية:

أ ـ إزالة الجمود العسكري الحالي بكسر وقف إطلاق النار اعتبارا من يوم ٦ أكتوبر ١٩٧٣.

ب ـ تكبيد العدو أكبر خسائر ممكنة في الأفراد والأسلحة والمعدات.

جـ ـ العمل على تحرير الأرض المحتلة على مراحل متتالية حسب نمو وتطور إمكانات وقدرات القوات المسلحة.

٢ ـ تنفذ هذه المهام بواسطة القوات المسلحة المصرية منفردة أو بالتعاون مع القوات المسلحة السورية. انتهى توجيه السادات.

من هذا التوجيه الإستراتيجي، يتضح لنا أن الهدف السياسي الذي كان الرئيس السادات يروم تحقيقه من الهجوم العسكري لم يكن استرداد الأراضي التي احتلتها

إسرائيل في حرب يونيو عام ١٩٦٧ (شبه جزيرة سيناء وقطاع غزة)، ولم يكن كذلك تدمير الجيش الإسرائيلي وإنزال هزيمة قاصمة به، ذلك لأن إمكانات مصر العسكرية في ذلك الوقت لم تكن تسمح لها بتحقيق أي من هذين الهدفين. وعلى ذلك كان الخيار المطروح أمام القيادة العامة المصرية لتنفيذ توجيه الرئيس فيما يتعلق بإزالة الجمود العسكري وكسر وقف إطلاق النار هو أحد الاحتمالين التاليين:

١ ـ العودة إلى شن حرب الاستنزاف. ولكن كان من الواضح أن هذه الحرب قد استنفدت أغراضها في الفترة التى جربت فيها (في الأعوام ١٩٦٨، ١٩٦٩، ١٩٧٠)، كما أن إسرائيل لن تقبل بالعودة إليها تجنبا للخسائر التي سوف تلحق بها في الأفراد والأسلحة والمعدات. ولذلك فإن أي محاولة من جانب مصر للعودة إلى هذه الحرب كان من المتوقع أن تقابل من إسرائيل برد فعل قوي وعنيف. وقد أثبتت تجارب حرب الاستنزاف أن القيادة الإسرائيلية عندما ضاقت ذرعا بهذا الأسلوب من الحرب قررت إدخال الطيران الإسرائيلي المعركة اعتبارا من ٢٠ يوليو ١٩٦٩، وانتقلت حرب الاستنزاف وقتئذ إلى مرحلة خطيرة أطلق عليها الإسرائيليون حرب الاستنزاف المضاد. وكانت أخطر نتائج إدخال الطيران الإسرائيلي هي اتساع رقعة حرب الاستنزاف لتشمل الأراضي المصرية بأكملها بدلا من منطقة القناة وحدها كما كان الحال في بادئ الأمر، وتعرض العمق المصري لخسائر فادحة من جراء غارات طائرات الفانتوم وسكاي هوك الإسرائيلية، مما أجبر الرئيس الراحل عبد الناصر على القيام برحلته السرية الشهيرة إلى موسكو في ٢٢ يناير ١٩٧٠ حيث تم اتفاقه مع قادة الكرملين وبعد تهديده لهم بالاستقالة من منصبه على إمداد مصر بفرقة دفاع جوي كاملة من الفرق السوفيتية بأطقمها السوفيت وصواريخها سام ٣ ومعداتها، وكذا بثلاثة ألوية جوية كاملة (بطائراتها الميج ٢١ وأطقمها السوفيت) لتتولى الدفاع عن العمق المصري. وقد قام الرئيس الراحل السادات بإصدار قراره بالاستغناء عن الخبراء والمستشارين السوفيت وكذا عن هذه الوحدات السوفيتية يوم ٨ يوليو عام ١٩٧٢ وعاد الجميع إلى بلادهم. وعلى ذلك، كانت العودة إلى استئناف حرب الاستنزاف فيها مخاطرة كبرى، علاوة على أن حرب الاستنزاف كانت في حد ذاتها تعد عملية عسكرية ذات طابع محدود ولا جدوى من ورائها من حيث تحريك القضية سياسيا كما أثبتت التجربة العملية من قبل، وكان رد الفعل المتوقع من العدو أكبر بكثير من قيمتها السياسية أو العسكرية، وهذا ما دعا إلى استبعاد حرب الاستنزاف من التفكير.

٢ ـ القيام بعملية حربية كبيرة تتفق مع قدراتنا العسكرية ـ أي أوسع نطاقا من حرب الاستنزاف وفي الوقت نفسه أقل طموحا من حيث الهدف من تحرير الأرض المحتلة كلها ـ وفي هذه الحالة سوف يتناسب رد فعل العدو المنتظر مع حجم وقوة ضربتنا. والنوع الوحيد من العمليات التي يمكن لمصر أن تحتفظ فيه بالمبادأة أطول فترة ممكنة مع استمرارها في تكبيد القوات الإسرائيلية أكبر قدر من الخسائر في الأفراد والأسلحة والمعدات، هو إنشاء منطقة متماسكة من رءوس الكباري المتينة على الشاطئ الشرقي لقناة السويس لتهديد القوات الإسرائيلية تهديدا دائما وتكبيدها أكبر كمية من الخسائر عن طريق صد هجماتها المضادة.

ونظرًا لأن العدو كان يملك أربع ميزات أساسية، وهي: تفوقه الجوي ومقدرته التكنولوجية الراقية ومستوى تدريب قواته العالي وأخيرا اعتماده على معاونة عاجلة من الولايات المتحدة تكفل له فور بدء العمليات الحربية سيلا مستمرا من الأسلحة والمعدات لتعويض ما يفقده في ميدان القتال، في الوقت الذي كان يعاني فيه من أربع نقاط ضعف رئيسية وهي: طول خطوط مواصلاته وامتدادها على جبهات متعددة يصعب الدفاع عنها، وأوضاعه البشرية التي لا تسمح له بتحمل خسائر كبيرة، وظروفه الاقتصادية التي تمنعه من قبول حرب طويلة الأجل، وأخيرا ما تملكه من صلف وغرور قاتلين عقب نجاحه الساحق في حرب يونيو ١٩٦٧ ـ لذلك وضعت القيادة العامة المصرية خطتها على أساس تلافي وتحييد نقاط امتياز العدو وفي الوقت نفسه استغلال نقاط ضعفه. وقد ساعد على نجاح التخطيط العسكري المصري أن التوجيه الإستراتيجي للرئيس لم ينص على أي مهمة محددة خاصة باسترجاع الأراضي المحتلة، فقد ترك ذلك حسب نمو وتطور إمكانات وقدرات القوات المسلحة.

وكانت حكمة بالغة من القيادة العامة المصرية حينما وضعت في تخطيطها أن يكون الهجوم بخمس فرق مشاة على طول مواجهة قناة السويس على خط يمتد حوالي ١٦٠ كم من بورسعيد شمالا إلى السويس جنوبا، فقد حقق ذلك المزايا التالية:

١ ـ إرغام العدو على توزيع ضرباته الجوية المضادة على قواتنا سواء في أثناء العبور أو عند إنشاء رءوس الكباري.

٢ ـ نظرا لاتساع المواجهة فسوف يرغم العدو على بعثرة وتشتيت قواته المدرعة عند قيامه بشن هجماته المضادة التكتيكية.

٣ ـ لن يتمكن العدو بسبب اتساع المواجهة وقوة رءوس الكباري من اكتشاف اتجاه المجهود الرئيسي لقواتنا مما سوف يجعل رد فعله متأخراً بالنسبة للهجوم المضاد سواء على المستوى التعبوي أو الإستراتيجي.

هذا وقد كان التخطيط يقتضي وقفة تعبوية بعد إتمام عملية العبور وبعد القيام بتأمين رءوس الكباري شرق قناة السويس. وكان الغرض من هذه الوقفة التعبوية هو إعادة تقدير الموقف والتأهب للمرحلة الثانية من الخطة «بدر»، وهي تطوير الهجوم شرقا للوصول إلى منطقة المضايق الإستراتيجية الجبلية. ولم يكن في التخطيط أن تكون الوقفة التعبوية فترة جمود أو سكون، ولكنها كانت فترة تقبل لهجمات العدو المضادة على المستوى التكتيكي والتعبوي، بهدف تدميرها وإلحاق أكبر خسائر ممكنة بالعدو، وفي الوقت نفسه عمل الاستعدادات اللازمة والاحتياطات الكافية لكي يتسنى للقوات المصرية بدء المرحلة الثانية من الخطة.

تجهيز وإعداد مسرح العمليات

بدأت القوات المصرية والقوات الإسرائيلية في تنفيذ مخطط تجهيز مسرح العمليات لكل منهما في أعقاب حرب يونيو ١٩٦٧ بعد أن فقدت إسرائيل الأمل الذي ظل يراودها طويلا، وهو أن تقبل مصر عقد معاهدة للصلح معها، وخاصة بعد الهزيمة النكراء التي منيت بها قواتها المسلحة، وبعد وصول القوات الإسرائيلية إلى الشاطئ الشرقي لقناة السويس.

وقد قام الجانبان بتنفيذ مخططيهما على مراحل بدأت بإعداد وتجهيز المواقع والنطاقات الدفاعية بالقرب من القناة وفي العمق، ثم تطورت إلى التحضير للعمليات التعرضية. واستمرت هذه الأعمال حتى انطلقت الشرارة الأولى لحرب أكتوبر ١٩٧٣.

التجهيزات المصرية

ركزت القوات المسلحة المصرية جهودها وطاقاتها مستغلة طاقات الشركات المدنية من القطاعين العام والخاص، وقامت بأعمال ضخمة شملت الأراضي المصرية على اتساعها، وقد بلغ ما أنفقته الدولة على تلك الأعمال مئات الملايين من الجنيهات، بالإضافة إلى عرق ودماء أبنائها من العسكريين والمدنيين.

وقد شملت تلك الأعمال الهائلة إقامة التحصينات لوقاية الأفراد والأسلحة والمعدات والذخائر وحفر الخنادق، ومرابض نيران المدفعية الرئيسية والتبادلية والمؤقتة والهيكلية وتجهيز مراكز القيادة والسيطرة الرئيسية والتبادلية على جميع المستويات وإقامة وتعلية السواتر الترابية غرب القناة لتوفير الوقاية لقواتنا من أعمال مراقبة العدو ونيرانه ولتتمكن قواتنا في نفس الوقت من مراقبة العدو والسيطرة على مواقعه وإنشاء هيئات حاكمة على الساتر الترابي غرب القناة لاحتلالها بالدبابات والأسلحة المضادة للدبابات، كما تم إنشاء نقط قوية في الاتجاهات ذات الأهمية الخاصة. ولقد كان إنشاء قواعد شبكة الصواريخ المضادة للطائرات التي تم إنجازها تحت ضغط مكثف من جانب قوات العدو الجوية، من أضخم ما قامت به القوات المسلحة المصرية والقطاع المدني من أعمال.

ولتسهيل مناورة القوات، تم إنشاء شبكة مطورة من الطرق والمدقات الطولية والعرضية بلغ طولها في منطقة الجبهة فقط حوالي ٢٠٠٠ كم، كما أقيمت السواتر الترابية على أجناب وفي مواجهة تلك الطرق والمدقات لإخفاء تحركات قواتنا عليها، وتم تجهيز عشرات من المخاضات على ترعتي الإسماعيلية والسويس لتسهيل عملية عبور الترعتين في حالة نجاح طائرات العدو في تدمير الكباري المقامة عليهما. ولكي يتيسر لقواتنا إقامة الكباري على القناة على مسافات متساوية على طول المواجهة من السويس حتى شمال القنطرة، تم تجهيز نقط الإسقاط لوحدات الكباري على الضفة الغربية للقناة وكذلك المنازل اللازمة لاستخدام المعدات.

وتفاديا لتكرار تعرض قواتنا الجوية للضربة المفاجئة الأولى، وضمانا لاستمرار تقديمها للمجهود والدعم اللازمين لتأمين سمائنا، وكذا لتأمين مسرح عمليات قواتنا البرية والبحرية والعمل على إنزال ضربات ساحقة ومستمرة بقوات العدو وفي أثناء سير العمليات، تم تنفيذ مخطط ضخم لإنشاء دشم وملاجئ خرسانية مسلحة للطائرات والمعدات الفنية بالقواعد الجوية والمطارات زودت بأبواب من الصلب، كما تم تطوير شبكة القواعد الجوية والمطارات بإنشاء ٢٠ قاعدة ومطارا جديدا. وقد تم تشكيل وحدات هندسية في كل مطار لصيانة وسرعة إصلاح ممراته بمجرد قصفها بقنابل الطائرات حتى يسترد المطار كفاءته في أقصر وقت ممكن. وشملت أعمال المهندسين أيضا تجهيز القواعد البحرية ومراكز قيادة المدفعية الساحلية وحواجز الأمواج الخرسانية بالموانئ والمراسي بالبحرين المتوسط والأحمر. وحرصا على تأمين عبور قواتنا قناة السويس، أجري العديد من التجارب والدراسات للوصول إلى أنسب وأسرع أسلوب لفتح الثغرات في الساتر

الترابي الضخم الذي أنشأه العدو على الحافة الشرقية للقناة. وقد تدرجت هذه التجارب وتلك الدراسات من محاولات نسف الساتر بالمفرقعات، إلى استخدام نيران المدفعية والصواريخ، إلى استخدام طريقة التجريف بالمياه باستخدام مضخة مياه قوية تسمح بضخ ٥٠٠ متر مكعب في الساعة. وأخيرا تم التوصل إلى استخدام مضخات مياه خفيفة الوزن تعمل بالوقود وذات قدرة عالية على ضخ المياه ويمكن حملها بالأفراد أو في القوارب، كما تم إعداد الكميات الكافية من معدات ومهمات العبور وتدريب وحدات المهندسين على إنشاء وتشغيل الكباري والمعديات والناقلات البرمائية، وكذا تدريب القوات على استخدام القوارب والعبور بوسائل العبور المختلفة.

وقد قامت هيئة العمليات بالاشتراك مع إدارة المساحة العسكرية وإدارة المهندسين وإدارة المركبات بإجراء الدراسات والتجارب العملية لتطوير خرائط السير مقياس ١/ ٠٠٠ , ١٠٠، وتم بالفعل إعادة طبع مجموعات خرائط السير مقياس ١/ ٠٠٠ , ١٠٠ لمنطقتى شمال وجنوب سيناء بعد إيضاح وإضافة الجديد من المعلومات عن الأرض والطرق والمدقات والأهداف المهمة. وقد كان لهذه الدراسات والتجارب الفضل الكبير في توفير المعلومات بأكبر قدر ممكن لدى القادة على الأرض ومسرح العمليات في أثناء تنفيذ المهام القتالية في حرب أكتوبر ١٩٧٣، كما أمكن التغلب على مشكلة عدم قدرة بعض المركبات ذات العجل على السير في الأراضي الصعبة عن طريق عمل بعض تعديلات في الإطارات وضغوط الهواء الخاصة بها.

التجهيزات الإسرائيلية

بعد أن نجحت القوات الإسرائيلية في تعلية الساتر الترابي على الضفة الشرقية للقناة حتى وصل إلى حوالي ٢٥ مترا وإزاحته غربا حتى وصل إلى الحافة الشرقية للقناة بزاوية ميل حادة حوالي ٤٥ درجة، أنشأت مصاطب للدبابات على أبعاد تصل من ١٠٠ إلى ٤٠٠ متر فيما بينها، بحيث يمكن للدبابات الصعود إليها وهي مختفية خلف الساتر حتى تصل إلى ارتفاع يظهر منه البرج والمدفع فقط، وبذلك تشتبك وأجنابها غير معرضة للخطر مع تحقيق التعاون فيما بينها.

وأقامت القوات الإسرائيلية عدة نقط حصينة في باطن الساتر الترابي تركزت أساسا على محاور الاقتراب الرئيسية لقواتنا عبر القناة. وقد بلغ إجمالي المواقع الحصينة ٢٢ موقعا تضمنت ٣٥ نقطة دفاعية بلغت مساحة كل منها ٤٠٠٠ متر مربع.

وتتكون كل نقطة حصينة من عدة طوابق، ويتكون كل طابق من عدة دشم من الأسمنت المسلح المقوى بقضبان السكك الحديدية وألواح الصلب، ويفصل كل طابق عن الآخر طبقة من القضبان والخرسانة المسلحة والأتربة والأحجار. ويبلغ سمك هذه الطبقة مترين كما تعلوها لفات كثيفة من سلك الكنسرتينا وصناديق سلك معبأة بالدبش والحجارة للوقاية من أسلحة الضرب المباشر. ويوجد في كل نقطة حصينة من ٣ إلى ٦ ملاجئ للأفراد ومخازن ذخيرة ووقود ودشم ومرابض هاونات وصواريخ أرض - أرض وخنادق مواصلات مكسوة بألواح الصلب وشكاير وصناديق الذخيرة. وكان الملجأ له أكثر من مدخل ويتفرع من أكثر من خندق مغطى، وكلها مكسوة بالصاج المعرج بالزوايا الحديدية وتتوافر بها كل سبل الراحة ووسائل التهوية والإضاءة والتدفئة والاتصال التليفوني. وقد وفرت هذه التحصينات والأعمال الهندسية المختلفة وقاية للنقط القوية ضد القنابل الثقيلة حتى زنة ١٠٠٠ رطل أو أكثر، وأحيطت كل نقطة حصينة من جميع الجهات بسورين من السلك الشائك بينهما حقل ألغام مضاد للدبابات وبعض الألغام المضادة للأفراد، وفي مواجهة النقطة يوجد مانع سلك كثيف غير منتظم يصعب فتح ثغرة فيه أو اجتيازه بالمشاة.

وأنشأت القوات الإسرائيلية بين الخط الأول على القناة (خط بارليف) وخط المضايق الجبلية، خطين دفاعيين هما خط الدفاع الثاني والثالث. ويبعد الخط الثاني من ٣٠٠ إلى ٥٠٠ متر عن الخط الأول، ويتركز في الاتجاه الأكثر صلاحية لعبور القناة وتقدم قواتنا شرق القناة، وهو مجهز أساسا لاحتلاله بالعناصر المدرعة المتمركزة في الخلف. أما الخط الثالث على مسافة من ٣ إلى ٥ كم من الخط الأول على بعض الاتجاهات المهمة وعلى أجناب الطرق الرئيسية المؤدية للعمق.

وللتغلب على طبيعة الأرض المفتوحة شرق القناة أقامت القوات الإسرائيلية مجموعة من التلال والسواتر الصناعية على أعماق مختلفة حتى خط المضايق، وجهزتها لكي تحتل بالدبابات لصد الهجمات المعادية أو كخطوط فتح لشن هجماتها المضادة. وتم تجهيز مناطق تجمع للاحتياطيات المدرعة على أعماق مختلفة، وتتمركز في هذه المناطق الاحتياطيات المدرعة للقوات الإسرائيلية في سيناء وكذلك الأسلحة والصواريخ المضادة للطائرات والصواريخ المضادة للدبابات.

وتم تجهيز عدد كبير من مرابض النيران الرئيسية والتبادلية لمدفعية الميدان المتوسطة والبعيدة المدى، بلغ عددها حوالي ٢٤٠ موقعا مجهزا.

وأنشأت القوات الإسرائيلية شبكة ضخمة من الطرق والمدقات الطولية والعرضية

شرق القناة لتسهيل حركة القوات في أي اتجاه والمناورة بها حسب تطور القتال، وكان أهم هذه الطرق الطريق الذي أسماه الإسرائيليون «لكسيكون»، وأطلق عليه المصريون اسم (الطريق العرضي رقم ١) وهو طريق ممهد يسير بموازاة قناة السويس من الشمال إلى الجنوب وعلى بعد حوالي من ٨ إلى ١٠ كم شرق القناة. وبموازاة طريق «لكسيكون» يمتد طريق ممهد من الشمال إلى الجنوب أطلق عليه اسم طريق المدفعية أو (الطريق العرضي رقم ٢). وعلى بعد من ٣٠ إلى ٣٥ كم شرق القناة كان يمتد الطريق الرئيسي الذي عرف باسم (الطريق العرضي رقم ٣) وكان يمتد من بالوظة شمالا إلى الطاسة حيث يتقاطع مع طريق الإسماعيلية أبو عجيلة، ثم يمتد جنوبا غرب ممري الجدي ومتلا.

تزويد المشاة بمعدات خاصة وبأسلحة الدعم

إن الظروف التي خلقتها مشكلة عبور قناة السويس فرضت على القيادة العامة المصرية ضرورة ابتكار شدة ميدانية تستطيع أن تستوعب جميع أحمال جندي المشاة بطريقة جيدة، بعد أن ثبت أن الشدة الميدانية (البل) التي كان معمولا بها في القوات المسلحة وقتئذ أصبحت لا تتناسب مع الظروف الجديدة. وقد قامت إدارة المهمات بتجارب عديدة حول هذا الموضوع إلى أن توصلت إلى العينات المطلوبة. وقبل نهاية أكتوبر ١٩٧٢، كان قد تم تشغيل ٥٠ ألف شدة ميدانية من هذه الأنواع الجديدة. كذلك قامت إدارة المهمات بتغيير (زمزمية) المياه التي يحملها جنود العبور لكي تصبح سعة ٢,٥ لتر بدلا من القديمة التي كانت تسع ٣/٤ لتر ماء، حتى يكون مع الجندي ما يكفيه من المياه لمدة يوم كامل. ونظرا للأحمال الثقيلة التي أصبح جندي العبور مكلفا بحملها، فقد تم تزويد المشاة بعربات جر يدوية يمكن جرها لمسافة ٥ كم بواسطة فردين بعد تحميلها بحوالي ١٥٠ كم من الذخائر والمعدات العسكرية عبر أرض غير ممهدة. وعلاوة على ذلك تم تجهيز جندي المشاة بالكثير من المعدات الحديثة. ففي منتصف عام ١٩٧٢ كان قد تم تجهيز جميع وحدات المشاة بأجهزة الرؤية الليلية (كان بعضها يعمل بنظرية الأشعة تحت الحمراء، وكان البعض الآخر يعمل بنظرية تقوية وتكبير ضوء النجوم Star Lighter). وإلى جانب هذه الأجهزة الحديثة كان هناك أجهزة ومعدات بدائية بسيطة مثل النظارات السوداء المعتمة التي كانت تصنع من زجاج سميك معتم من نوع الزجاج الذي يستخدمه عمال لحام الأوكسجين، وذلك حتى يلبسها الجنود عندما يستخدم العدو أشعة Zenon البالغة القوة في تعميتهم. وكان العدو يستخدم الضوء الباهر المركب على دباباته في شل أبصار جنودنا، فكان الرد على ذلك هو أن يلبس الجندي هذه النظارة ثم يوجه قذيفته إلى مصدر الضوء فيدمره.

ومن ضمن هذه الأجهزة البسيطة سلم الحبال، وهو يشبه السلالم المستخدمة في الوحدات البحرية وأجنابه مصنوعة من الحبال ولكن درجاته من الخشب يسهل طيه وحمله ثم فرده على الساتر الترابي، وبذلك يستطيع جندي المشاة أن يتسلق الساتر الترابي دون أن تغوص قدماه في التراب، كما أنه بوضع سلمين متجاورين يمكن أن نجر مدافعنا (المدفع عديم الارتداد ب ١٠ والمدفع عديم الارتداد ب ١١ والصاروخ المالوتكا والقاذف آر بي جي والصاروخ المضاد للطائرات ستريللا (سام ٧) ومدفع الماكينة المتوسط ٦٢ , ٧م ومدفع الماكينة الثقيل ٧ , ١٢م)، وكذا عربات الجر التي ترافق المشاة ويمكن أن تسير فوق هذا الساتر الترابي دون أن تغوص عجلاتها في الرمال.

وبعد تجهيز جندي المشاة كما رأينا بأفضل الأسلحة والمعدات، وبعد أن تم تحميله بأقصى ما يستطيع أن يحمل، كان من الطبيعي أن تكون مقدرته القتالية قد زادت زيادة كبيرة، فقد أصبح خصما قويا وعنيدا للدبابة والطائرة. ولكن المشكلة التي كانت تواجه القيادة العامة هي كيف يمكن لوحدات المشاة التي تم التخطيط لعبورها في ١٢ موجة على مدى ثلاث ساعات، أن تقوم بتحدي قوة العدو التي تتكون من ثلاثة ألوية مدرعة ولواء مشاة متحصنة داخل حصون خط بارليف ونقطه القوية، وأمامهم قناة السويس التي تعد أشد الموانع المائية صعوبة؟ وإذا جاز لنا أن نتصور أنهم قادرون على العبور والوصول إلى الشاطئ الشرقي للقناة؛ فهل هم قادرون بعد ذلك على صد الهجوم المضاد الكبير الذي من المنتظر أن يقوم به العدو؟

لقد كان الموقف يدعو إلى الاطمئنان فيما يتعلق بصد هجمات العدو المضادة التكتيكية التي كان من المنتظر أن يستخدم فيها ثلاثة ألوية مدرعة إذا ما قاتل مشاتنا بصلابة وعناد. ولكن الموقف كان لابد أن يتغير إذا ما دفع العدو باحتياطيه التعبوى الذي كان يقدَّر بثلاث فرق مدرعة بعد ٢٤ ساعة من بدء الهجوم، لذلك كان لابد من اتخاذ إجراءات معينة لمواجهة هذا الموقف. وكان الإجراء الأول هو تقديم المعاونة بالنيران لقواتنا التي عبرت إلى الشاطئ الشرقي للقناة بجميع الأسلحة الثقيلة المتيسرة في غرب القناة. أما الإجراء الثاني، فكان ينحصر في فرض قيود مشددة على سرعة تقدم المشاة، وذلك لضمان وجودها دائما في مدى المعاونة القريبة بالنيران من الضفة الغربية، وأن تراعي تقصير خطوطها الدفاعية، وبذا تزداد قدراتها لصد هجمات الدبابات المضادة.

وتطبيقا لذلك، كان من المقرر أن يصل رأس الكوبري لكل فرقة مشاة بالتدريج إلى عمق ٥كم وقاعدة ٨كم في خلال أربع ساعات من بدء الهجوم. وعند الوصول إلى هذا

الخط، يجب على المشاة أن تتوقف إلى أن تصلها أسلحة الدعم التي تعبر على المعديات والكباري، والتي كان من المنتظر أن تبدأ في الوصول بعد عشر ساعات من بدء القتال. وعقب وصول أسلحة الدعم وإجراء عملية إعادة التنظيم، كان مخططا أن تستأنف فرق المشاة تقدمها، بحيث يصبح رأس كوبري الفرقة ٨كم في العمق، و ١٦كم في القاعدة في خلال ١٨ ساعة من بدء الهجوم. وقد نفذت هذه التوقيتات بدقة تامة خلال معركة العبور، ففي الساعة الثامنة صباحا يوم ٧ أكتوبر، أي بعد ١٨ ساعة، قامت فرق المشاة الخمس التي عبرت قناة السويس بعد تدعيمها بالدبابات وأسلحة الدعم الأخرى، بدفع رءوس الكباري إلى عمق ٨ كيلو مترات شرق قناة السويس.



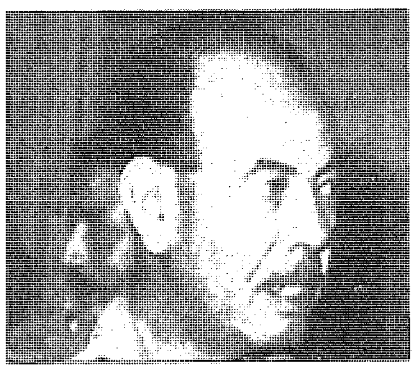
ملحق صور الفصل الأول

جميع القادة يحملون لقب أركان الحرب



الرئيس أنور السادات

رئيس الجمهورية والقائد الأعلى للقوات المسلحة.



الفريق أول محمد فوزي

وزير الحربية والقائد العام للقوات المسلحة

(من ١١ يونيو ٦٧ حتى ١٣ مايو ٧١).



الفريق عبد المنعم رياض

رئيس أركان حرب القوات المسلحة

(من ١٢ يونيو ٦٧ حتى ٩ مارس ٦٩).



الفريق أول محمد أحمد صادق
وزير الحربية والقائد العام للقوات المسلحة
(من ١٣ مايو ٧١ حتى ٢٦ أكتوبر ٧٢).



الفريق أول أحمد إسماعيل
وزير الحربية والقائد العام للقوات المسلحة
(خلال حرب أكتوبر ٧٣).



الفريق سعد الشاذلي
رئيس أركان حرب القوات المسلحة
(خلال حرب أكتوبر ٧٣).



الفريق عبد القادر حسن

نائب وزير الحربية (أحيل إلى التقاعد بعد مؤتمر الرئيس يوم ٢٤ أكتوبر ٧٢).



لواء بحري محمود عبد الرحمن فهمي

قائد القوات البحرية (أحيل إلى التقاعد بعد مؤتمر الرئيس يوم ٢٤ أكتوبر ٧٢).



اللواء بهي الدين نوفل

رئيس عمليات القيادة الاتحادية

(خلال حرب أكتوبر ٧٣).



اللواء محمد عبد الغني الجمسي

رئيس هيئة العمليات

(خلال حرب أكتوبر ٧٣).



الملك فيصل بن عبد العزيز آل سعود

ملك المملكة العربية السعودية مع الرئيس السادات.



الرئيس ريتشارد نيكسون

رئيس الولايات المتحدة.

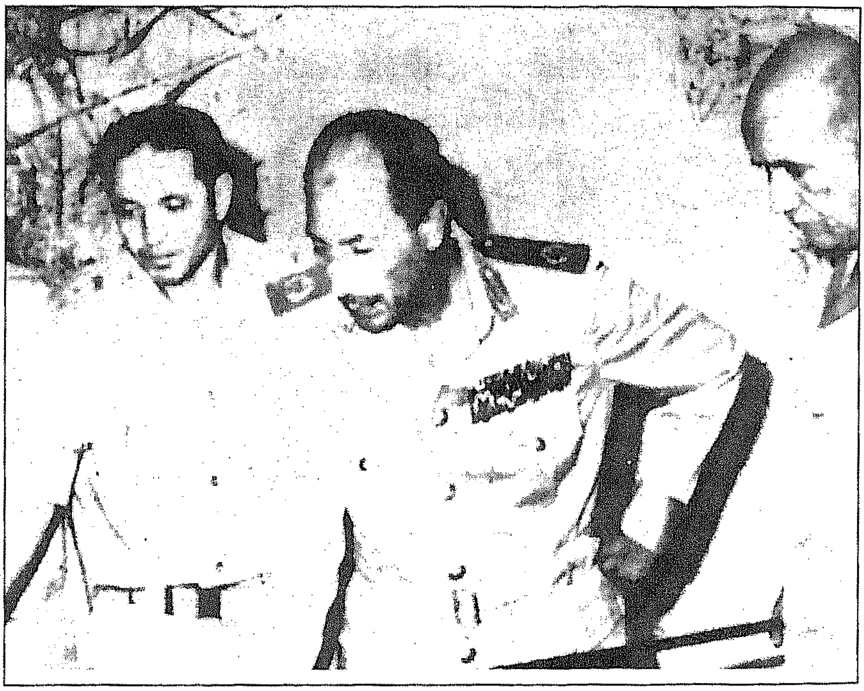


الزعيم ليونيد بريجنيف

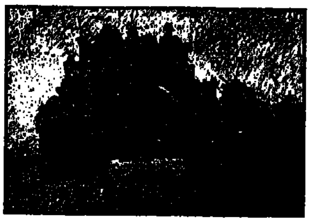
السكرتير العام للحزب الشيوعي السوفيتي.



المارشال أندريه جريشكو
وزير الدفاع السوفيتي.



الرئيس أنور السادات في مركز القيادة (المركز ١٠) وعلى يمينه **فريق سعد الشاذلي** رئيس الأركان وعلى يساره **فريق أول أحمد إسماعيل** القائد العام.



الفصـل الثـاني

العبور العظيم وتحطيم خط بارليف

تعتبر عملية اقتحام مانع مائي مثل قناة السويس ضد عدو يتمركز في نقط قوية محصنة تحصينا جيدا على الجانب الآخر من أصعب العمليات الحربية وأكثرها تعقيدًا، خصوصا أن عبور المانع المائي كان سيتم بواسطة خمس فرق مشاة وعلى مواجهة قدرها ١٦٠كم. وكان التخطيط موضوعًا على أن الموجة الأولى من قوات العبور تتكون من الأنساق الأولى لكتائب النسق الأول على طول القناة، وكان عليها عبور القناة في قواربها المطاطية والخشبية تحت ستر غلالة من قصفات المدفعية في نقط بعيدة عن النقط الإسرائيلية الحصينة، ثم تتسلق الساتر الرملي الناعم المقام على الشاطئ الشرقي للقناة، وتلقي السلالم إلى الجانب الآخر لكي يسهل بعد ذلك للموجات الأخرى التي ستتبعها من المشاة اجتياز الساتر الرملي..

وكانت المهمة المخصصة لقوات الموجة الأولى هي الاندفاع السريع نحو خط النسق الثاني للدفاعات الإسرائيلية مع تجاهل النقط الحصينة من حصون خط بارليف المقامة في النسق الأول على الشاطئ الشرقي للقناة. ولكي يمكن نجاح القوات المصرية في هذه المهمه، خصصت عناصر معينة سميت جماعات اقتناص الدبابات لمواجهة الدبابات الإسرائيلية الموجودة بدفاعات النسق الثاني، والتي كان من المفترض اندفاعها في اتجاه قناة السويس بمجرد بدء عملية العبور. وكانت كل جماعة من هذه الجماعات تتكون من حوالي عشرة جنود مسلحين بقواذف آر بي جي ٧ (R.B.G. 7) (تشبه قواذف البازوكا وتطلق من الكتف ولها القدرة على نسف برج أي دبابة من طراز سنتوريان أو باتون)، ومسلحة كذلك بصواريخ موجهة من طراز مالوتكا المسماة في حلف الأطلنطي باسم صواريخ ساجر..

وكان التخطيط المرسوم يقضي بأن تتجه الموجة الثانية من المشاة بعد عبور القناة نحو اليمين ونحو اليسار في اتجاه النقط الحصينة من خط بارليف لتطويقها واقتحامها. ونظرا

لأنها كانت في حاجة إلى المعاونة بقذائف ناسفة للتحصينات من مدافع الضرب المباشر، فقد اتخذت الترتيبات ضمن خطة المدفعية كي تتولى مدافع الضرب المباشر من مصاطبها على الشاطئ الغربي للقناة معاونة المشاة في اقتحام هذه النقط الحصينة.

ونظراً لتوقع قيام العدو بإشعال سطح مياه القناة بالنابالم السائل من تجهيزات إشعال اللهب المقامة داخل حصون خط بارليف، فقد أرسلت جماعات من أفراد الصاعقة والمهندسين المصريين يوم ٥ أكتوبر لقص الخراطيم التي كان مفروضا طبقا لخطة العدو أن تحمل كميات هائلة من النابالم وتلقيها في القناة لكي تشتعل بالنار عند الإحساس ببدء العبور.

وكان الجنرال جونين قائد القيادة الجنوبية عقب تلقيه تعليمات رئيس الأركان مساء يوم ٥ أكتوبر ١٩٧٣ برفع درجة استعداد الجيش الإسرائيلي إلى الدرجة القصوى «ج»، قد كلف رئيس مهندسيه بإعداد تجهيزتي إشعال اللهب في القناة في الفردان والدفرسوار (وهما التجهيزتان الوحيدتان الصالحتان للعمل) لتكونا جاهزتين اعتباراً من اليوم التالي. وفي صباح يوم ٦ أكتوبر ١٩٧٣، وصلت جماعة من المهندسين بقيادة الملازم شيمون تال إلى خط التحصينات الأمامية، وتوجهت في بادئ الأمر إلى النقطة القوية في الفردان، وشرح الضابط لجنود الموقع طريقة تشغيل النظام الإشعالي. ونظراً لأن جهاز التحكم الكهربائي داخل الحصن كان تالفًا، فقد كانت الوسيلة الوحيدة للتشغيل - كما أوضح الضابط المهندس - هي أن يخرج بضعة أفراد من الحصن ويجرون بضع مئات من الأمتار في اتجاه القناة، ثم يقومون بفتح خراطيم النابالم السائل باليد. وعندما يبدأ تدفق السائل في مياه القناة كان على الجنود أن يقذفوا قنبلة فوسفورية لإشعال النابالم السائل، وبذا تتحول مياه القناة إلى قطعة كبيرة من النار واللهب تكفي لمنع المصريين من عبور هذا الحاجز الرهيب..

وبعد أن أنهى الضابط المهندس مهمته في حصن «هيزايون HIZAYON» في منطقة الفردان استأنف رحلته نحو الجنوب، وعندما وصل إلى النقطة القوية «متسميد MATZMED» في منطقة الدفرسوار اكتشف أن أحد الخراطيم خارج الحصن مقطوع ويحتاج إلى إصلاح، فانهمك على الفور في إصلاحه. وفي أثناء قيامه بعمله وقع تحت تأثير قصف شديد من نيران المدفعية المصرية، فقد كانت الساعة وقتئذ قد بلغت الثانية وخمس دقائق بعد الظهر، وكانت المدفعية المصرية قد بدأت في تلك اللحظة في عمل أضخم تمهيد نيراني شهده الشرق الأوسط. واضطر الملازم شيمون تال من أجل الوقاية إلى الالتصاق بالأرض، وعندما هم بالنهوض بعد انتقال غلالة المدفعية إلى الداخل فوجئ

ببعض رجال الصاعقة المصريين يقفون فوق رأسه حيث اقتادوه أسيراً إلى الشاطئ الغربي للقناة. وقد ترتب على ذلك عدم تمكن الإسرائيليين من تشغيل أي تجهيزات لإشعال اللهب في مياه قناة السويس، وبالتالي تجنبت القوات المصرية مواجهة هذا الحاجز الرهيب في أثناء عبور القناة.

كيف تمت أروع عملية عبور في التاريخ؟

نظراً لأن التوجيه الإستراتيجي الصادر في ٥ أكتوبر ١٩٧٣ كان ينص على تحرير الأرض المحتلة على مراحل متتالية حسب نمو وتطور إمكانات القوات المسلحة، فقد تركت الأهداف العسكرية مرنة تسمح بالتغيير والتبديل على ضوء الموقف العسكري. وكانت الخطة العسكرية «بدر» مبنية على الأسس التالية:

المهمة المباشرة: اقتحام قناة السويس، وتدمير خط بارليف، وإنشاء منطقة رءوس كباري على الشاطئ الشرقي للقناة على عمق ١٠ ـ ١٢ كم، وصد وتدمير الهجمات المضادة التي يقوم العدو بشنها.

المهمة الثانية: بعد وقفة تعبوية أو بدون وقفة تعبوية، تطوير الهجوم نحو الشرق للاستيلاء على خط المضايق الجبلية الإستراتيجية، وهي من الشمال إلى الجنوب (الختمية ـ الجدي ـ متلا ـ رأس سدر).

ولتنفيذ الخطة الهجومية (بدر) تم حشد القوات المصرية طبقاً للأوضاع الآتية:

أولا ـ النسق الأول: كان يتشكل من منطقة البحر الأحمر العسكرية والجيشين الثالث والثاني الميدانيين.

● منطقة البحر الأحمر العسكرية:

تحت قيادة اللواء إبراهيم كامل، وكانت تتشكل من نسق أول واحتياطي. النسق الأول ويتكون من لواءي مشاة مستقلين (عدا كتيبة)، والاحتياطي يتكون من الكتيبة المشاة.

● الجيش الثالث الميداني:

تحت قيادة اللواء عبد المنعم واصل، وكان يتشكل من نسقين واحتياطي.

النسق الأول: في اليمين الفرقة ١٩ مشاة بقيادة العميد يوسف عفيفي، ومعها اللواء

٢٢ المدرع (من الفرقة ٦ مشاة ميكانيكية). في اليسار الفرقة ٧ مشاة بقيادة العميد أحمد بدوي ومعها اللواء ٢٥ المدرع المستقل.

النسق الثاني: الفرقة ٤ المدرعة بقيادة العميد محمد عبد العزيز قابيل والفرقة ٦ مشاة ميكانيكية (عدا لواء) بقيادة العميد محمد أبو الفتح محرم.

الاحتياطي: مجموعة صاعقة ولواء إقليمي وفوج سيارات حدود ولواء صاعقة فلسطيني.

● الجيش الثاني الميداني:

تحت قيادة اللواء سعد مأمون، وكان يتشكل من نسقين واحتياطي.

النسق الأول: في اليمين الفرقة ١٦ مشاة بقيادة العميد عبد رب النبي حافظ ومعها اللواء ١٤ المدرع (من الفرقة ٢١ المدرعة). وفي الوسط الفرقة ٢ مشاة بقيادة العميد حسن أبو سعدة ومعها اللواء ٢٤ المدرع (من الفرقة ٢٣ مشاة ميكانيكية). وفي اليسار الفرقة ١٨ مشاة بقيادة العميد فؤاد عزيز غالي ومعها اللواء ١٥ المدرع المستقل.

● منطقة بورسعيد:

النسق الأول: ٢ لواء مشاة مستقل بقيادة اللواء عمر خالد.

النسق الثاني: الفرقة ٢١ المدرعة (عدا لواء) بقيادة العميد إبراهيم العرابي.

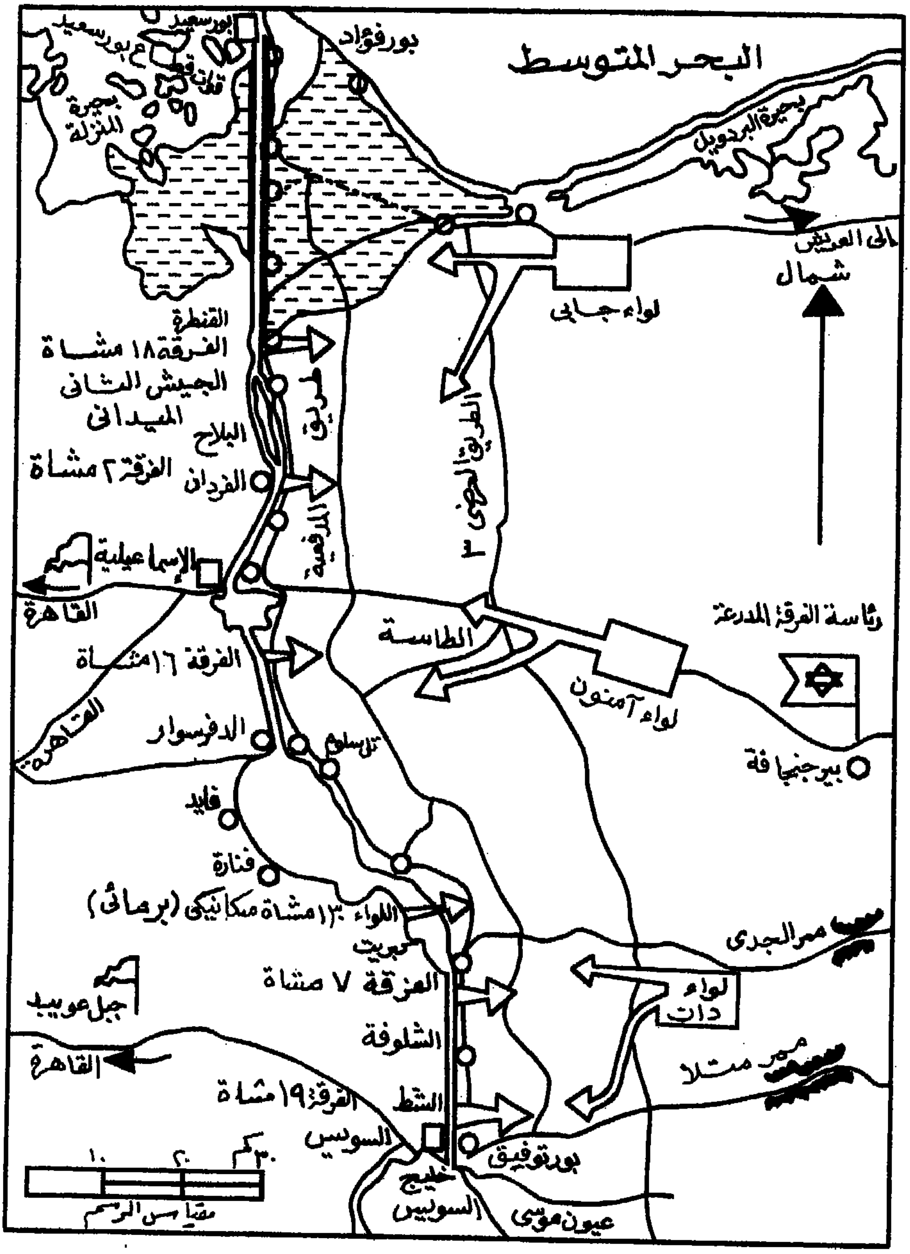
الاحتياطي: الفرقة ٢٣ مشاة ميكانيكية (عدا لواء) بقيادة العميد أحمد عبود الزمر.

واللواء ١٠ مشاة ميكانيكي (من الفرقة ٣ مشاة ميكانيكية الموجودة في احتياطي القيادة العامة بالقاهرة).

ثانيا ـ احتياطي القيادة العامة:

كان يتشكل من الفرقة ٣ مشاة ميكانيكية (عدا لواء ميكانيكي) بقيادة العميد محمد نجاتي فرحات، ومن لواءين مدرعين مستقلين ولواء مظلات ولواءي اقتحام جوي (عدا كتيبة) ومجموعة صاعقة.

في الساعة الثانية تمامًا، قامت أكثر من ٢٠٠ طائرة مصرية من المقاتلات والمقاتلات القاذفة من طراز ميج ٢١ وميج ١٧ وسوخوي ٧، بعبور قناة السويس في اتجاه الشرق على ارتفاع منخفض، بعد أن أقلعت من ٢٠ قاعدة جوية لتنفيذ المهمة التي حددها



مرحلة العبور وإنشاء رءوس الكباري ٦، ٧ أكتوبر ١٩٧٣.

اللواء طيار محمد حسني مبارك قائد القوات الجوية في الضربة المركزة الأولى في عمق سيناء، التي شملت مركز قيادة العدو في أم مرجم ومركز الإعاقة والشوشرة في جبل أم خشيب ومطاري المليز وبير تمادا ومناطق تمركز احتياطيات العدو ومواقع بطاريات الصواريخ هوك المضادة للطائرات ومحطات الرادار ومدفعيات العدو بعيدة المدى من عيار ١٧٥م، وبعض مناطق الشئون الإدارية وحصن بودابست (من حصون خط بارليف) الذي يقع على الضفة الرملية شرق بور فؤاد. وقد نجحت الضربة الجوية نجاحا مؤثرا، وعادت الطائرات في الساعة الثانية وعشرين دقيقة بعد أداء مهمتها خلال ممرات جوية محددة تم الاتفاق عليها بين قيادة القوات الجوية وقيادة الدفاع الجوي من حيث الوقت والارتفاع. وكانت خسائر الضربة الجوية المركزة عبارة عن ٥ طائرات.

وفي الساعة الثانية وخمس دقائق، بدأت ٢٠٠٠ قطعة مدفعية وهاون ولواء صواريخ تكتيكية أرض أرض، التمهيد النيراني الذي يعد واحدًا من أكبر عمليات التمهيد النيراني في التاريخ. وقد قام بالتخطيط له اللواء محمد سعيد الماحي قائد المدفعية، واشتركت فيه ١٣٥ كتيبة مدفعية وعدة مئات من مدافع الضرب المباشر، كانت تتبع العميد محمد عبد الحليم أبو غزالة قائد مدفعية الجيش الثاني والعميد منير شاش قائد مدفعية الجيش الثالث. وقد تم تنفيذ التمهيد النيراني على طول خط المواجهة مع العدو في أربع قصفات استغرقت ٥٣ دقيقة عن طريق الرمي المباشر وغير المباشر على نقط العدو الحصينة واحتياطياته القريبة ومرابض مدفعياته ومراكز قياداته. وقد صبت المدفعية على مواقع العدو ما يبلغ زنته ٣٠٠٠ طن من الذخيرة، وكان عدد دانات المدفعية في الدقيقة الأولى ١٠,٥٠٠ دانة، أي بمعدل ١٧٥ دانة كل ثانية. وقد احتلت مدفعية الضرب المباشر مصاطب الدبابات والسواتر الترابية على الشاطئ الغربي للقناة خلال القصفة الأولى من التمهيد النيراني، وذلك لمنع العدو من احتلال السواتر الترابية ومصاطب الدبابات على الشاطئ الشرقي للقناة، وشل حركة النقط الإسرائيلية الحصينة، ولكي توفر لقواتنا في أثناء اقتحامها للقناة ومهاجمتها للنقط الحصينة المعاونة المباشرة بإزالة الأسلاك الشائكة وحقول الألغام وتدمير الدشم والمزاغل وأبراج الملاحظة في النقط القوية. أما المدفعية المتوسطة من مدافع عيار ١٣٠ م وهاوتزر عيار ١٥٢ م ذاتي الحركة فكانت مخصصة للتعامل مع البطاريات الإسرائيلية المتمركزة في العمق.

ومع بدء التمهيد النيراني، بدأت مجموعات اقتناص الدبابات عبور قناة السويس بواسطة قوارب مطاطية، والقيام بمهمة تدمير دبابات العدو ومنعها من التدخل في

عمليات عبور القوات الرئيسية وحرمانها من استخدام مصاطبها بالساتر الترابي على الضفة الشرقية للقناة.

وقد أثبتت وقائع القتال أن العدو، علاوة على المفاجأة الإستراتيجية التي حاقت به، قد لحقته أيضا مفاجأة تكتيكية، إذ لم يتمكن من رفع درجة الاستعداد لقواته إلى الحالة القصوى ساعة الهجوم، ولم تحتل دباباته الموجودة بالنسق الثاني أماكنها المحددة لها لتدعيم حصون خط بارليف وسد الثغرات التي بين نقاطه القوية. وعندما بدأت هذه الدبابات في الساعة الثانية وعشرين دقيقة في التقدم في اتجاه القناة على أثر انتهاء القصفة الأولى من التمهيد النيراني ونقل المدفعية قصفها إلى العمق، تصدت لها مجموعات اقتناص الدبابات التي سبقتها في احتلال بعض المصاطب المخصصة لها في الخط الدفاعي الأول، مما أدى إلى تدمير أعداد كبيرة منها بواسطة هذه المجموعات، علاوة على القذائف التي انهمرت عليها من مدافع الدبابات والمدافع المضادة للدبابات وصواريخ مالوتكا التي كانت تحتل المصاطب والسواتر الترابية على الشاطئ الغربي للقناة.

وقد فوجئ العدو بكثافة نيران المدفعية المصرية، كما فوجئت قواته الجوية بالطائرات المصرية وهي تدك المواقع الإسرائيلية في عمق سيناء، إذ لم تكن هناك أي طائرة إسرائيلية في الجو. ولكن سرعان ما بدأ رد الفعل بعد مرور خمس دقائق فقط من مهاجمة الطائرات المصرية لأهدافها، وذلك بدفع أسراب من الطائرات الإسرائيلية التي كانت في وضع الاستعداد في مطارات سيناء وجنوب إسرائيل لمحاولة صد الضربة الجوية المصرية.

وفي الساعة الثانية وعشرين دقيقة، كانت المدفعية المصرية قد أتمت القصفة الأولى من التمهيد النيراني التي استغرقت ١٥ دقيقة، والتي تركزت على جميع الأهداف المعادية التي على الشاطئ الشرقي للقناة إلى عمق يتراوح بين كيلو متر واحد وكيلو متر ونصف في اتجاه الشرق. وفي اللحظة التي تم فيها رفع نيران المدفعية لتبدأ القصفة الثانية لمدة ٢٢ دقيقة على الأهداف المعادية إلى عمق يتراوح بين ١,٥ و ٣ كم من الشاطئ الشرقي للقناة، في هذه اللحظة (س + ١٥) بدأ عبور الموجات الأولى من سرايا النسق الأول من كتائب النسق الأول المشاة في القوارب الخشبية والمطاطية، وذلك في الفواصل بين النقط الحصينة في خط بارليف. وكانت الموجات الأولى تتكون أساسًا من عناصر المشاة ومعها نقط ملاحظة الأسلحة المشتركة، وكانت مدعمة بأسلحة وقواذف خفيفة مضادة للدبابات آر بي جي ٧ وصواريخ الكتف المضادة للطائرات سام ٧ ستريلا Strella، كما زودت بسلالم حبال ليتسنى للأفراد تسلق الساتر الترابي، وكذا بحبال البرلون وحبال الجر التي كان لها أثر كبير

في معاونة المشاة في جر المدافع عديمة الارتداد ب ١٠ وب ١١ المضادة للدبابات، والصاروخ المالوتكا والقاذف آر بي جي والصاروخ سام ٧ ومدفع الماكينة المتوسط ٦٢ ,٧مم ومدفع الماكينة الثقيل ٧ ,١٢ مم، وفي تسلقها جميعا الساتر الرملي بنجاح.

وفي نفس التوقيت، بدأت عناصر من كتائب الصاعقة التي تحت قيادة الجيوش الميدانية في عبور القناة للعمل ضد مراكز القيادة والسيطرة للعدو ومرابض مدفعياته بهدف إفقاده السيطرة على قواته، ولدفع الكمائن ورص الألغام على طرق اقتراب العدو وطرق تحرك احتياطياته في اتجاه حصون خط بارليف ونقطه القوية، ولمنع الدبابات المتحركة من العمق من التدخل في المعارك الدائرة للاستيلاء على الحصون والنقط القوية.

ومع تدفق الموجات الأولى من المشاة، بدأ الإبرار البحري لمفرزتين من اللواء ١٣٠ المشاة الميكانيكي البرمائي المستقل، وكانت كل منهما تتكون من كتيبة ميكانيكية مدعمة، وذلك عبر البحيرة المرة الصغرى بغرض الاندفاع شرقًا والاستيلاء على مدخل مضيق الجدي ومضيق متلا بالتعاون مع قوة الإبرار الجوي التي سيتم إبرارها بطائرات الهيليكوبتر خلف خطوط العدو.

وفي الساعة الثانية وخمس وثلاثين، دقيقة، قامت طلائع القوات التي عبرت القناة برفع أعلام جمهورية مصر العربية على الشاطئ الشرقي للقناة معلنة بدء تحرير الأرض السليبة. واستمر تدفق الموجات عبرالقناة بانتظام، بفاصل حوالي ١٥ دقيقة بين كل موجة وأخرى حتى الموجة الرابعة، حيث بدأ تناقص معدل التدفق نتيجة لإرهاق الأطقم المخصصة للتجديف في القوارب ولحدوث بعض الأعطال فيها وتسرب المياه بداخلها. وقد أدى عدم انتظام تدفق موجات العبور إلى اللجوء إلى المرونة وعدم التقيد بتسلسل العبور، ولذا أعطيت الأسبقية لعبور الأفراد والأسلحة المضادة للدبابات والمعدات التي تؤثر على سير القتال مع استخدام بعض الناقلات البرمائية K.61 (حمولة ٣ أطنان) لنقل الألغام. وقد تمت تعبئة الذخيرة في عربات جر يدوية مجهزة بعجل كاوتشوك، وبعد أن يتم تحميل هذه العربات في القوارب يجري تفريغها بمجرد الوصول إلى الشاطئ الشرقي ويتم عبور عربات الجر فارغة عبر الساتر الرملي ليعاد تحميلها بالذخيرة من جديد، حيث يواصل دفعها في اتجاه الوحدات الأمامية. وقد اتبعت هذه الطريقة بعد فشل طريقة نقل الذخيرة وهي داخل عربات الجر عبر الساتر الرملي باستخدام سلالم الحبال، نظرًا لتهايل الساتر الرملي وسقوط عدد من هذه العربات في القناة. وقد أدت عربات الجر دورها بنجاح في نقل الذخيرة، وكذا في الإمداد بالمياه والتعيينات في المراحل التالية.

وحتى الساعة الرابعة والنصف مساء، تم عبور ٨ موجات من المشاة وأصبح لدينا على الشاطئ الشرقي للقناة خمسة رءوس كباري، قاعدة كل منها حوالي ٦ كم وعمق كل منها كيلو متران، واشتد ضغط أفراد المشاة المصريين على حصون خط بارليف ونقطه القوية. وكان الحصن المقام عند علامة الكيلو متر ١٩ جنوب بورسعيد «حصن لاهتزانيت Lahtzanit» هو أول الحصون التي سقطت، وكان ذلك في الساعة الثالثة والنصف بعد الظهر، وتوالى بعد ذلك سقوط الحصون في أيدي قواتنا، كما تم إسكات نيران بعض النقط القوية. وانتقل منذ هذا التوقيت العبء الرئيسي في صد الهجمات المضادة المحلية للعدو بواسطة دباباته التي انطلقت من خط دفاعات النسق الثاني على عاتق المشاة وجماعات قنص الدبابات التي عبرت، وليس على الأسلحة المضادة للدبابات التي كانت لا تزال على الشاطئ الغربي للقناة.

وكان التخطيط الذي وضعه اللواء جمال علي قائد سلاح المهندسين مبنيا على أساس تخصيص ٦٠ معبراً على طول مواجهة قناة السويس، مما كان يتطلب عمل ٦٠ فتحة في الساتر الرملي، وخصص لكل معبر فصيلة مهندسين عسكريين مدعمة بعدد ٥ قوارب خشبية حمولتها ١,٥ طن و ٥ مضخات مياه وآلة جرف. وكانت الخطة تقضي بإقامة عدد ١٢ ممراً في قطاع كل فرقة من فرق المشاة الخمس التي عبرت بالطريقة التالية:

كوبري اقتحام ثقيل حمولة ٧٠ طنًا (لعبور الدبابات والمدفعية الثقيلة)، وكوبري اقتحام خفيف حمولة ٢٥ طنا (لعبور المركبات بأنواعها والمدفعية الخفيفة والمشاة)، وكوبري هيكلي (لعبور بعض المركبات الخفيفة، حتى يعتقد العدو أنه كوبري حقيقي)، ومعديتان حمولة كل منهما ٧٠ طنًا (لنقل الدبابات)، و ٥ ناقلات برمائية K.61، وممران احتياطيان. ومع الموجة الأولى من المشاة عبرت عناصر من المهندسين إلى الشاطئ الشرقي للقناة لتأمين مرور المشاة في حقول الألغام، وتلا ذلك مباشرة عبور عناصر أخرى من المهندسين لتحديد محاور الثغرات في الساتر الترابي، وأماكن رسو القوارب التي تحمل المضخات، وإعداد مكان الأكتاف اللازمة للترسية حسب خصائص المعبر المخصص له الممر (معبر كباري أو معديات أو مركبات برمائية). وبعد عبور هذه المجموعات بخمس دقائق بدأ عبور المجموعات المكلفة بتشغيل المضخات، وفور وصولها إلى الشاطئ الشرقي للقناة وضعت الطلمبات على المصاطب التي أعدت من قبل.

وفي الساعة الثالثة والنصف بدأ تشغيل الطلمبات، واندفعت المياه من البشابير كالسيل الجارف تكتسح أمامها الرمال، وتم فتح الثغرة الأولى في قطاع الجيش الثاني في زمن

قياسي لم يتجاوز الساعة، وتوالى بعد ذلك فتح الثغرات على طول مواجهة العدو. وفي نفس الوقت اندفعت مئات من العربات الضخمة المحملة بمهمات الكباري واللنشات من أماكنها المستورة على الشاطئ الغربي إلى ساحات الإسقاط المحددة على القناة، وعن طريق المنازل السابق تجهيزها اقتربت العربات بظهرها من سطح المياه وأسقطت حمولتها من البراطيم واللنشات إلى الماء حيث بدأت وحدات الكباري في عمليات تركيبها.

وبدأت الكباري تقام أمام الثغرات التي فتحت في الساتر الرملي. وخلال فترة زمنية من ٦ إلى ٩ ساعات كانت كل الكباري الثقيلة والخفيفة والهيكلية والناقلات البرمائية والمعديات الخاصة بالجيش الثاني قد أقيمت وفقا للخطة المرسومة، واندفعت على أثر ذلك الدبابات والعربات المجنزرة والمعدات الثقيلة إلى الشاطئ الشرقي للقناة. أما في الجيش الثالث، فقد اصطدمت عملية فتح الثغرات في الساتر الترابي وإنشاء المعابر بعوامل عديدة معوقة وبخاصة ارتفاع الساتر وسمكه وصلابة التربة واحتوائها على عناصر كلسية مما جعل التجريف عملية شاقة، وأدت هذه المعوقات إلى الاكتفاء بتجهيز ميول حادة في الممرات حتى يمكن تقليل الوقت والاكتفاء بعبور الدبابات والعربات المجنزرة التي كانت الحاجة ماسة إليها في الساعات الأولى من صباح ٧ أكتوبر، على أن يتم بعد ذلك استخدام آلات الجرف في تخفيف حدة الميول في الممرات المختلفة. هذا ولم يتم إنشاء كباري الفرقة ٧ مشاة من الجيش الثالث إلا في نحو ١٦ ساعة بتأخير زمني قدره سبع ساعات عن التخطيط الموضوع، وعلى أثر ذلك عبرت دبابات الفرقة وعرباتها المجنزرة ومعداتها الثقيلة إلى الشاطئ الشرقي للقناة. ونظراً لعدم إمكان تشغيل معابر الفرقة ١٩ مشاة حتى ذلك التوقيت نتيجة لبعض الصعاب الفنية ولأعمال العدو المضادة، فقد قرر قائد الجيش الثالث الميداني دفع كتائب دبابات الفرقة ١٩ مشاة وكتائب اللواء ٢٢ المدرع الذي تحت قيادتها من معابر الفرقة ٧ مشاة التي على يسارها.

وفي حوالي الساعة الخامسة والنصف مساء، أي قبيل الغروب، تم إبرار ٤ كتائب صاعقة بواسطة طائرات الهيليكوبتر التي كانت تطير على ارتفاع منخفض في عمق العدو في أماكن متفرقة داخل سيناء. ونظراً لخروج هذه الطائرات عن نطاق مظلة الصواريخ المصرية غرب القناة، فقد استطاع العدو إسقاط عدد منها بحمولتها البشرية.

وقامت الدبابات والأسلحة الثقيلة طوال الليل بالانضمام إلى وحدات وتشكيلات المشاة في منطقة رءوس الكباري. وكانت هذه عملية شاقة نظراً لأنه كان المطلوب انضمام آلاف من الدبابات والعربات والمدافع خلال ساعات الظلام إلى وحداتها التي عبرت من

قبل. وقد بذلت الشرطة العسكرية أقصى جهد ممكن لإرشادها عن طريق تمييز الطرق ووضع علامات الإرشاد ذات الألوان المختلفة الخاصة بالتشكيلات المقاتلة. وقد نجحت هذه العملية رغم صعوبتها بسبب تدريب القوات المصرية عليها لشهور عديدة قبل المعركة حتى أتقنتها.

لماذا نجحت الضربة الجوية؟

إن الإعداد للضربة الجوية المركزة قد بدأ بلا شك بعد هزيمة ٥ يونيو ٦٧ مباشرة، فقد كان لا مفر من إعادة بناء القوات الجوية من نقطة الصفر بعد تدمير معظم طائراتها ومنشآتها صباح ذلك اليوم المشئوم. وكان جميع أفراد القوات الجوية يحلمون بيوم الثأر لمحو ذلك العار الذي ألصق بسلاحهم ظلما لإخفاء مسئولية وأخطاء الذين تسببوا في هزيمة مصر في حرب يونيو ٦٧. وسنحت أول فرصة لاسترداد الطيارين ثقتهم بأنفسهم بعد ٤٠ يوما فقط من الهزيمة، فقد صدرت أوامر القيادة العامة في ١٥ يوليو ١٩٦٧ بقصف الحشود الإسرائيلية شرق القناة وتفجير تشوينات الذخيرة الضخمة التي تمكن العدو من جمعها من المواقع المصرية في سيناء. وانقض الطيارون المصريون بطريقة انتحارية على التجمعات الإسرائيلية بشراسة وعنف، وكأنما ينفسون عما كانت تختزنه صدورهم في ذلك الوقت من مرارة وإحساس بالظلم. وأدى القصف الجوي المركز إلى تشتت قوات العدو وانسحابها شرقا، وإلى حدوث انفجارات مروعة في تشوينات الذخيرة، واضطر الإسرائيليون إلى الاستعانة بمراقبي الأمم المتحدة طلبا لوقف إطلاق النار.

واعتمد التخطيط في إعادة بناء القوات الجوية على أسلوب علمي منظم، وهو الإعداد السليم للعناصر الثلاثة التي تشكل الهيكل الأساسي للقوات الجوية، وهي الطيارون والطائرات والمطارات. وكان العنصر الأول - وهو إعداد الطيارين - هو أشق هذه العناصر وأصعبها، فإن تدريب الفرد ليكون طيارا مقاتلا كفئا هو مهمة شاقة وتحتاج إلى تدريب متواصل لفترة من أربع إلى خمس سنوات.

ولم يكن العنصر الثاني - وهو امتلاك القوات الجوية للطائرات التي تكفل لها التفوق الجوي على الطيران الإسرائيلي - أمرا يمكن لمصر وحدها تحقيقه، فقد كان الاتحاد السوفيتي قبل حرب أكتوبر هو المصدر الوحيد لإمداد مصر بالسلاح، وكانت هذه العملية تخضع لظروف سياسية بالغة التعقيد، فهي ترتبط بالعلاقات المصرية السوفيتية من جهة، وبسياسة وإستراتيجية الاتحاد السوفيتي كإحدى الدولتين العظميين من جهة أخرى. وعلاوة على

ذلك فقد كانت الطائرات الأمريكية التي تزود بها الولايات المتحدة إسرائيل بكميات ضخمة تتميز بشكل واضح من جهة الخواص والتسليح والمعدات على الطائرات السوفيتية التي يزود بها الاتحاد السوفيتي مصر. وأدت هذه العوامل بالطبع إلى إحراز الطيران الإسرائيلي التفوق من حيث الكم والكيف على الطيران المصري، الأمر الذي من أجله بنيت خطة استخدام القوات الجوية المصرية على أساس حقيقة لم يكن هناك مناص من الاعتراف بها، وهي أنها ستعمل تحت ظروف تفوق جوي إسرائيلي.

أما العنصر الثالث - وهو المطارات - فقد تم تطويرها بما يتلاءم مع تطور العمليات الجوية الحديثة، وشملت خطة التطوير إنشاء شبكة من المطارات الجديدة في الأراضي الصحراوية والزراعية، وزيادة عدد الممرات ببعض القواعد الجوية المهمة.

ولتجنب تدمير الطائرات، وهي جاثمة على الأرض كما جرى يوم ٥ يونيو ١٩٦٧، فقد تم إنشاء دشم حصينة في المطارات لوقاية الطائرات من القصف الجوي، كما تم إنشاء ملاجئ لوقاية المعدات الفنية المتطورة. ولضمان صيانة المطارات وسرعة إصلاحها في حالة ضربها شكلت وحدات خاصة لهذا الغرض منعا لتعطيل أي مطار نتيجة للغارات الجوية. وقد أثبتت هذه الترتيبات كفاءتها في أثناء الحرب، فعلى الرغم مما أسقطه العدو من قنابل وما أطلقه من صواريخ جو أرض، فإنه لم تصب غير دشمة واحدة من دشم الطائرات بإصابة جزئية ولم تدمر طائرة واحدة على الأرض. وعندما نجح العدو في ضرب مطار المنصورة تمكنت وحدات الصيانة من إصلاحه في بضع ساعات.

وكانت حرب الاستنزاف فرصة ثمينة سنحت للطيارين المصريين لإثبات جدارتهم، وللتدريب العملي على الاشتباك وجها لوجه مع الطائرات الإسرائيلية، وإتقان فن المناورة والانقضاض، كما أتاحت لهم فرصة الضرب على الأهداف الإسرائيلية في عمق سيناء. وخلال المرحلة التحضيرية التي سبقت حرب أكتوبر مباشرة، كان أشد ما أثار قلق اللواء طيار حسني مبارك قائد القوات الجوية وقتئذ، هو احتمال اكتشاف إسرائيل للتحضيرات الهجومية المصرية على الضفة الغربية للقناة مما قد يحفزها على التفكير في توجيه ضربة إجهاض على غرار الضربة التي وجهتها في ٥ يونيو ١٩٦٧.

وكان لمخاوف قائد الطيران المصري ما يبررها. فقد اتضح فيما بعد أن القيادة العسكرية الإسرائيلية طلبت من القيادة السياسية قيام السلاح الجوي الإسرائيلي بتوجيه ضربة إجهاض في الساعة الواحدة ظهرا يوم ٦ أكتوبر، بهدف إجهاض التحضيرات الهجومية

العربية وإرغام مصر وسوريا على وقف الهجوم المنتظر، ولكن القيادة السياسية في إسرائيل رفضت القيام بهذه المخاطرة لمحاذير عسكرية وسياسية في ذلك الوقت. ولمواجهة هذا الاحتمال، كان اللواء طيار حسني مبارك قد طلب من جميع مراكز الرصد والإنذار تسجيل جميع طلعات الطيران الإسرائيلي في سيناء وداخل إسرائيل أولا بأول. وفي الوقت نفسه كانت هناك مظلة جوية مصرية تنتشر في سماء مصر وترقب أي احتمال لتحركات الطيران الإسرائيلي في اتجاه مصر. ولو كان الإسرائيليون قد قاموا بأي ضربة جوية مضادة لتحولت إلى مصيدة قاتلة لطائراتهم.

وعلى الرغم من أن الطيران الإسرائيلي كان في درجة الاستعداد القصوى منذ ظهر الجمعة ٥ أكتوبر بناء على الأمر الذي أصدره الجنرال دافيد أليعازر رئيس الأركان العامة إلى الجنرال باني بيليد قائد الطيران الإسرائيلي، ورغم أن مراكز الإنذار والرادار الإسرائيلية في سيناء قامت برصد جميع طلعات الطيران المصري ظهر يوم ٦ أكتوبر بفضل ما تمتلكه من أجهزة إلكترونية متطورة، فإن المفاجأة الكاملة لحقت بهم بسبب أساليب الخداع التي خططت لها بنجاح قيادة القوات الجوية، والتي كان أبرعها بلا جدال رفع درجة الاستعداد القصوى وإعلان حالة التأهب في جميع المطارات والقواعد الجوية المصرية في الفترة من ٢٢ إلى ٢٥ سبتمبر. وخلال هذه الفترة تتابع خروج الطلعات من مطارات الدلتا والصعيد بشكل متواصل، مما أصاب الإسرائيليين بأشد أنواع البلبلة والارتباك، فقد اضطروا إلى إطلاق طائراتهم في الجو كلما انطلقت أي طائرة من أي مطار مصري. وعندما لم تحدث أي هجمات جوية مصرية كما كانوا يتوقعون دب إلى نفوسهم الهدوء والاطمئنان، فقد أيقنوا بأن طلعات الطيران المصري إنما هي لمجرد التدريب. وعندما رصدوا خروج الطائرات المصرية من القواعد الجوية والمطارات بعد ظهر ٦ أكتوبر ظنوا كالعادة أنها مجرد طلعات للتدريب، وبذا وقعوا في الفخ وانطلت عليهم الخدعة. وخلال الساعات الحرجة الأخيرة التي سبقت الهجوم أضاف اللواء طيار حسني مبارك وسيلة أخرى من وسائل التمويه. فقد أجرى ترتيبات دقيقة في القاهرة واتصالات عاجلة مع طرابلس بعد ظهر يوم الجمعة ٥ أكتوبر للإعداد لزيارة أوهم المحيطين به أنه سوف يقوم بها إلى ليبيا وبرفقته بعض كبار ضباطه في مهمة عاجلة تستغرق ٢٤ ساعة. وعندما كان يقترب موعد إقلاع الطائرة الذي تحدد في الساعة السادسة مساء يوم ٥ أكتوبر في بادئ الأمر، كان اللواء حسني مبارك يؤجل الموعد المرة بعد الأخرى حتى تم تحديده نهائيا ليكون في الساعة الثانية بعد ظهر ٦ أكتوبر، أي في نفس الموعد المحدد لبدء الحرب.

وفي الساعة التاسعة والنصف صباح يوم ٦ أكتوبر دعا اللواء حسني مبارك قادة القوات الجوية إلى اجتماع عاجل في مقر قيادته، وألقى عليهم التلقين النهائي لمهمة الطيران المصري، وطلب منهم التوجه إلى مركز العمليات الرئيسي كي يأخذ كل منهم مكانه هناك استعداداً لتنفيذ الضربة الجوية المنتظرة التي كان نجاحها يعني نجاح خطة المفاجأة المصرية وبدء معركة التحرير. وفي الساعة الثانية من بعد ظهر السادس من أكتوبر انطلقت أكثر من ٢٠٠ طائرة مصرية من ٢٠ مطارا وقاعدة جوية في مختلف أرجاء الجمهورية. وعن طريق الترتيبات الدقيقة والحسابات المحكمة التي أجرتها قيادة القوات الجوية تم لهذا العدد الضخم من الطائرات عبور خط المواجهة على القناة في لحظة واحدة على ارتفاعات منخفضة جدا. وكانت أسراب المقاتلات القاذفة والقاذفات المتوسطة تطير في حماية أسراب المقاتلات. وقد استخدمت في الضربة التي تركزت على الأهداف الإسرائيلية الحيوية في عمق سيناء طائرات من طراز ميج ١٧ وميج ٢١ وسوخوي ٧ وسوخوي ٢٠. وفي الساعة الثانية وعشرين دقيقة عادت الطائرات المصرية بعد أداء مهمتها خلال ممرات جوية محددة تم الاتفاق عليها بين قيادة القوات الجوية وقيادة الدفاع الجوي من حيث الوقت والارتفاع.

هذا وقد نجحت الضربة الجوية في تحقيق أهدافها بنسبة حوالي ٩٠٪، ولم تزد الخسائر على ٥ طائرات مصرية. وكانت نتائج الضربة وفقا لما ورد في المراجع الموثوق بصدقها هي شل ثلاثة ممرات رئيسة في مطاري المليز وبير تمادا بالإضافة إلى ثلاثة ممرات فرعية وإسكات حوالي ١٠ مواقع بطاريات صواريخ أرض جو من طراز هوك وموقعي مدفعية ميدان، وتدمير مركز القيادة الرئيس في أم مرجم ومركز الإعاقة والشوشرة في أم خشيب وتدمير وإسكات عدد من مراكز الإرسال الرئيسة ومواقع الرادار.

وقد اشتركت بعض القاذفات التكتيكية (إل ٢٨) في الضربة الجوية، وركزت قصفها على حصن بودابست الإسرائيلي (من حصون خط بارليف، ويقع على الضفة الرملية شرق مدينة بورفؤاد). وكان من المقرر القيام بضربة جوية ثانية ضد العدو يوم ٦ أكتوبر قبل الغروب، ولكن نظرا لنجاح الضربة الأولى في تحقيق كل المهام التي أسندت إلى القوات الجوية، فقد قررت القيادة العامة إلغاء الضربة الثانية.

وقد اضطرت القيادة الإسرائيلية الجنوبية في سيناء إلى استخدام مركز القيادة الخلفي بعد ضرب المركز الرئيس في أم مرجم، كما أصبح مركز الإعاقة والشوشرة في العريش هو المركز الوحيد المتبقي لإسرائيل في سيناء بعد تدمير مركز الإعاقة والشوشرة في أم

خشيب، مما أتاح حرية العمل للطائرات المصرية في سماء المعركة وفي تلقيها التوجيهات الملاحية بكفاءة ودقة تامتين.

الحصار البحري الإستراتيجي لإسرائيل

كانت القوات البحرية المصرية في الفترة التي سبقت حرب يونيو ١٩٦٧ قد أسندت إليها مسئولية تنفيذ القرار السياسي الذي أصدره الرئيس الراحل جمال عبد الناصر في ١٨ مايو بإنهاء وجود قوات الطوارئ الدولية على أرض مصر وإغلاق خليج العقبة في وجه السفن الإسرائيلية، ولذا تركز اهتمام قيادة القوات البحرية وقتئذ على تجميع قوة بحرية متوازنة بهذه المنطقة للسيطرة على الملاحة بمدخل خليج العقبة، خاصة بعد ما أذيع من أن بعض الدول البحرية قررت إرسال بعض قطع أسطولها لاقتحام خليج العقبة بالقوة وتحدي القرار الذي أعلنه الرئيس المصري. وقد تمكنت البحرية المصرية من تنفيذ هذه المهمة الصعبة بكفاءة عالية، وسيطرت بالفعل على المياه التي تشرف على خليج العقبة. وحاولت أجهزة الدعاية الإسرائيلية بعد حرب يونيو ٦٧ الترويج بأن إسرائيل قد تمكنت بخطة خداع ماكرة من اجتذاب الوحدات البحرية المصرية إلى البحر الأحمر لإبعادها عن البحر المتوسط. وعلى الرغم من أن القطع البحرية المصرية أصبحت عقب انتهاء الحرب وإغلاق قناة السويس عاجزة عن العودة إلى قواعدها بالبحر المتوسط، فإن ذلك الوضع قد أدى إلى تغيير جذري في ميزان القوى بالبحر الأحمر لصالح البحرية المصرية، كما كان له فضل كبير في تجميع القوة البحرية التي تمكنت بعد حوالي ست سنوات من فرض حصار إستراتيجي محكم على إسرائيل في البحر الأحمر وخليج العقبة. وفي ٢١ أكتوبر ١٩٦٧، أي بعد أقل من خمسة أشهر على انتهاء حرب يونيو ١٩٦٧، تم إغراق المدمرة الإسرائيلية إيلات بواسطة لنشات الصواريخ المصرية. ولم تكن عملية إغراق إيلات في مياه بورسعيد مجرد معركة بين وحدات بحرية مصرية وإسرائيلية، بل إنها كانت تمثل حدثا بحريا مهما اهتزت له الأوساط البحرية، على المستوى العالمي. فقد ثبت أن الصواريخ سطح سطح قد أصبحت سلاحا فعالا وذا تأثير خطير على نتائج المعارك البحرية، وأنها باتت تشكل تهديدا سافرا ضد أضخم القطع البحرية. وخلال حرب الاستنزاف. قامت القوات البحرية ببعض عمليات لا مثيل لها في الجرأة، فقد أغارت الضفادع البشرية المصرية على ميناء إيلات أربع مرات، وأصابت الميناء الإسرائيلي بخسائر جسيمة في السفن والأفراد، كما قامت المدمرات المصرية بقصف بعض الأهداف الحيوية على ساحل العدو.

هذا ولم يتولد التخطيط لعملية إغلاق باب المندب فجأة في الفترة التي سبقت الحرب، بل إن التخطيط لهذه العملية الإستراتيجية الكبرى بدأ في الواقع في أكتوبر ٧١ أي قبل عامين من نشوب الحرب، فقد تم إيفاد مجموعة من الخبراء البحريين المصريين إلى منطقة جنوب البحر الأحمر لإعداد الدراسات التفصيلية للموقفين البحري والجوي في هذه المنطقة. وفي مايو ١٩٧٣ تم وضع الخطة التفصيلية وتنسيقها بين القيادات العليا. ومن أجل خداع إسرائيل عن حقيقة النوايا المصرية، أرسلت القطع البحرية المصرية في زيارات مختلفة لبعض الموانى العربية والأجنبية كي تعتاد إسرائيل على تحركات هذه القطع البحرية في اتجاه الجنوب، وحتى لا يثير تحركها عندما يأزف الموعد المحدد شبهات إسرائيل وشكوكها.

وبناء على أمر اللواء بحري فؤاد أبو ذكري قائد القوات البحرية تم خروج قوة بحرية تتكون من بعض المدمرات والغواصات ولنشات الصواريخ في أول أكتوبر ١٩٧٣ من أماكن رسوها في البحر الأحمر إلى عرض البحر مع الإعلان بأن وجهتها هي الباكستان لإجراء عمرة ولإصلاح بعض الأجهزة والمعدات الحيوية بها. وكان خروج هذه القوة البحرية لتتخذ أوضاع القتال في باب المندب وتستعد للقيام بالمهام المحددة لها وفقا للتلقين الذي تلقاه قادتها، يعني أن الحرب قد بدأت بالنسبة لهذه القوة منذ أول أكتوبر، فقد فرضت لأغراض الأمن والسرية ضرورة التزام هذه القطع البحرية بصمت اللاسلكي طوال مدة إبحارها حتى لا يلتقط العدو الإشارات اللاسلكية المتبادلة بينها وبين قيادتها ويضيع عامل المفاجأة، ولم تكن هناك أي وسيلة للاتصال بهذه القطع البحرية إلا بعد بدء العمليات الفعلية في ٦ أكتوبر وكسر صمت اللاسلكي. وللتأكيد على القيادة العامة بهذه الحقيقة، اتصل اللواء بحري فؤاد أبو ذكري بالقيادة العامة قبل خروج القوة البحرية في أول أكتوبر لإفادتها بأنه عقب إبحار هذه القوة لن تصبح لديه أي وسيلة للاتصال بها لإجراء أي تعديل في التوقيت.

وعندما نشبت الحرب في الساعة الثانية بعد ظهر السادس من أكتوبر، تم إبلاغ القوة البحرية المصرية التي كانت قد وصلت إلى مياه باب المندب بالكلمة الكودية عن طريق اللاسلكي لكي تبدأ في تنفيذ المهام الموكولة إليها. وبهذا سددت البحرية المصرية ضربة إستراتيجية كبرى إلى إسرائيل لم تكن تخطر لها على بال، فقد تمت سيطرة القطع البحرية المصرية على مضيق باب المندب (المدخل الجنوبي للبحر الأحمر)، وظهرت فجأة المدمرات والغواصات ولنشات الصواريخ لتباشر حق التفتيش واعتراض السفن التجارية التي ترفع

العلم الإسرائيلي وكذا السفن الأخرى من مختلف الجنسيات المتجهة إلى إسرائيل، وهو حق يكفله لها القانون الدولي.

وقد قطعت البحرية المصرية بهذا الحصار الذي فرضته، الشريان الحيوي لإسرائيل الذي يربطها بإفريقيا وآسيا والذي اتخذته في حربي ١٩٥٦ و ١٩٦٧ ذريعة لكي تمنع سيطرة مصر على مضايق تيران وشرم الشيخ على مدخل خليج العقبة حتى لا تقطع مصر عنها الطريق إلى ميناء إيلات.

لقد أفاد العمق الإستراتيجي للوطن العربي القطع البحرية المصرية وهيأ لها إمكانات ممتازة من حيث التمركز في موانئ صديقة والتزود بكل حاجاتها من الوقود والطعام والمياه، وكان اختيار مضيق باب المندب المتحكم في المدخل الجنوبي للبحر الأحمر لفرض الحصار البحري على إسرائيل والتعرض لخطوط مواصلاتها البحرية عملا إستراتيجيا بارعا، إذ لم يكن في مقدرة الطائرات الإسرائيلية ولا القطع البحرية الإسرائيلية الوصول إلى هذا المضيق الذي يبعد عنها أكثر من ٢٥٠٠كم للقيام بعملية فك الحصار. وقد أثرت هذه الصدمة العنيفة على القيادات الإسرائيلية إلى الحد الذي جعل موشى ديان وزير الدفاع يأمر بمنع نشر أي أنباء عن هذا الحصار البحري المصري في أي وسيلة من وسائل الإعلام الإسرائيلي.

وفي الوقت الذي عجزت فيه البحرية الإسرائيلية عن المساس بأمن وسلامة حرية الملاحة إلى الموانئ الرئيسة المصرية خاصة الإسكندرية على البحر المتوسط وسفاجة على البحر الأحمر، مما جعل هذه الموانئ تستمر في العمل بحالتها الطبيعية وبنفس طاقاتها المعتادة. كانت نتائج إغلاق مضيق باب المندب هي قطع الإمدادات تماما عن ميناء إيلات أي أن نسبة نجاح عمليات البحرية المصرية في البحر الأحمر وصلت إلى ١٠٠٪. أما في البحر المتوسط، فإنه نتيجة لقيام وحدات الأسطول المصري بنشر وفتح الغواصات والمدمرات وبث الألغام استطاعت تحقيق مهمة قطع خطوط المواصلات إلى الموانئ الإسرائيلية الواقعة على هذا البحر بنسبة تجاوزت ٨٠٪ مما يعد نجاحا باهرا للقوات البحرية المصرية.

وفضلا عن ذلك اشتركت البحرية المصرية في عملية التمهيد النيراني للمدفعية التي بدأت في الساعة الثانية وخمس دقائق يوم ٦ أكتوبر، فقد قصفت المدفعية الساحلية في بورسعيد نقطة العدو الحصينة شرق بورفؤاد (كان الإسرائيليون يطلقون عليها اسم حصن

بودابست)، وكذا النقطة الحصينة عند الكيلو متر ١٠ جنوب بورفؤاد في منطقة رأس العش (كان الإسرائيليون يطلقون عليها اسم حصن أوركال)، كما قصفت المدفعية الساحلية في السويس الأهداف المعادية التي كانت تواجه قطاع الجيش الثالث. وقامت لنشات الصواريخ بتوجيه صواريخها ضد تجمعات العدو في رمانة ورأس بيرون على ساحل البحر المتوسط. وعلى خليج السويس وجهت اللنشات صواريخها على أهداف العدو الحيوية في رأس مسلة ورأس سدر، وهاجمت الضفادع البشرية منطقة البترول في بلاعيم، وتمكنت من تعطيل الحفار الضخم بها. وعلى مدخل مضيق تيران في خليج العقبة وجهت اللنشات صواريخها ضد أهداف العدو في شرم الشيخ ورأس محمد. وقامت وحدات بث الألغام بإغلاق مدخل خليج السويس بالألغام لمنع العدو من نقل البترول من حقول خليج السويس إلى إيلات. ولقد كان لإغراق لنشات الصواريخ المصرية المدمرة الإسرائيلية إيلات يوم ٢١ أكتوبر ١٩٦٧ أثر كبير في تغيير الفكر الإستراتيجي البحري على المستوى العالمي. وفي إسرائيل ابتعد التفكير عن حيازة القطع البحرية الكبيرة، وأخذت تبني قوتها البحرية على أساس أن اللنشات الصغيرة السريعة والمسلحة بصواريخ سطح سطح هي أساس القوة الضاربة في البحرية الإسرائيلية. وقد اشترت لهذا الغرض ١٢ قاربًا من طراز سعر SAAR من فرنسا، وبدأت في أوائل عام ١٩٧٣ في بناء نوع جديد من اللنشات السريعة في الترسانة البحرية بميناء حيفا أطلق عليه اسم رشيف Reshef، وقد تم تسليح جميع هذه اللنشات بالصواريخ سطح سطح من طراز جبراييل التي قامت بتصنيعها محليا. وقد وقعت عدة اشتباكات بين لنشات الصواريخ المصرية والإسرائيلية قرب بورسعيد وأبى قير وشمال دمياط، وانتهت بإغراق عدد من لنشات الطرفين.

دور المهندسين العسكريين في ملحمة العبور

إن العبور العظيم الذي تم يوم ٦ أكتوبر عام ١٩٧٣ والذي عبر به العرب من مذلة الهزيمة إلى قمة النصر كان في مرحلته الأولى عملية مهندسين بحتة، ولولا فتح الثغرات في الساتر الترابي على الضفة الشرقية وتركيب الكباري الثقيلة والخفيفة لعبور المدرعات والمركبات، وإقامة كباري الاقتحام لعبور المشاة، وتجهيز وتشغيل المعديات لنقل الدبابات والأسلحة الثقيلة، وتشغيل آلاف القوارب التي حملت عشرات الألوف من أفراد المشاة إلى الشاطئ الشرقي للقناة - لولا كل هذه المهام التي قام بها المهندسون في وقت واحد تقريبا وتحت سيل منهمر من نيران وقذائف وصواريخ العدو من البر والجو لما أمكن لملحمة

العبور أن تتم، ولما تيسر اقتحام قناة السويس أصعب مانع مائي في العالم خلال ساعات معدودة على مواجهة حوالي ١٦٠ كيلو مترا بقوة خمس فرق مشاة تتكون من حوالي ٨٠ ألف جندي بكامل معداتهم وأسلحتهم ومركباتهم في ١٢ موجة متتالية، مستخدمين المعابر والتجهيزات التي أعدها المهندسون لهم لعبور القناة، ولتعزيز مواقعهم على الشاطئ الشرقي لها فور وصولهم. وكان الذين هيئوا للقوات المصرية فرصة إحراز ذلك النصر العظيم هم ضباط وجنود ٣٥ كتيبة مهندسين من مختلف التخصصات قاموا بعمل خارق كان أشبه بالمعجزات.

وبعد تطوير أسلحة القتال وإدخال الدبابات والمركبات البرمائية ضمن تنظيم التشكيلات البرية، لم تعد الأنهار والقنوات تشكل عائقا كبيرا أمام الجيوش الحديثة كما كان الحال في الماضي، إذ أصبح في مقدور التشكيلات المدرعة والميكانيكية أن تقتحم الموانع المائية بالهجوم من الحركة وعلى مواجهة واسعة عن طريق دفعها لمفارز برمائية أمامها تتولى عبور المانع مباشرة وتقوم بإنشاء رءوس الكباري الثقيلة والخفيفة التي تعبر عليها القوات الرئيسية بمجرد وصولها إلى المانع المائي. ولا تستغرق عملية تركيب الكباري الحديثة المتطورة في الوقت الحاضر أكثر من ساعة ونصف الساعة على أكثر تقدير، مما يجعل عمليات اقتحام الموانع المائية في الجيوش الحديثة عملية عادية وخالية من أي تعقيد.. ولكن الوضع بالنسبة للقوات المصرية غرب قناة السويس كان مختلفا أشد الاختلاف، بل كان على أبلغ درجة من الصعوبة والتعقيد، إذ كانت القناة في حد ذاتها تعتبر مانعا مائيا فريدا في طبيعته ولا تماثل غيرها من الموانع المائية في العالم، كما أن الكباري البرمائية المتطورة الموجودة في الجيوش الحديثة لم يكن لها وجود لدى وحدات المهندسين في مصر، بل كان كل ما في حوزتها كباري قديمة الطراز من النوع الذي استخدم في الحرب العالمية الثانية، وبهذا أصبح عبور القوات المصرية للمانع المائي الهائل الذي يواجهها أمرا يكاد يكون مستحيلا سواء من وجهة نظر الأصدقاء أو الأعداء. وقد ثبت أن موشى ديان وزير الدفاع الإسرائيلي خلال حرب أكتوبر، وفي إحدى المناقشات التي دارت في رئاسة الأركان الإسرائيلية حول احتمالات عبور المصريين للقناة، قال في صلف وغرور: «لكي يعبر المصريون قناة السويس، فإنه يلزمهم سلاح المهندسين الأمريكي وسلاح المهندسين السوفيتي مجتمعين لمساعدتهم في ذلك»، كما ذكر اللواء جمال علي مدير سلاح المهندسين خلال حرب أكتوبر، أن كبير الخبراء السوفيت قال له ذات مرة ـ قبل رحيل الخبراء السوفيت عن مصر ـ وهما يتطلعان معا إلى الساتر الترابي الهائل الحجم على الشاطئ الشرقي للقناة: «إنكم تحتاجون إلى قنبلة ذرية لفتح ثغرة في هذا الساتر».

ولكن العقل المصري وما يتميز به من القدرة على الابتكار والإبداع أمكن له القيام بجميع التحضيرات والإنجازات المطلوبة والتغلب على جميع المصاعب والمشكلات، وتم للقوات البرية المصرية اقتحام القناة دون الحاجة لا إلى تفجير قنبلة ذرية ولا للاستعانة بسلاح المهندسين الأمريكي أو السوفيتي.

هذا ويبلغ طول قناة السويس من بورسعيد شمالا إلى السويس جنوبا نحو ١٦٠ كيلو مترا، ويتراوح عرضها ما بين ١٨٠ و٢٠٠ متر، ويبلغ عمقها نحوا من ١٤ ـ ١٨ مترا، وهي لا تصلح للعبور في بعض المناطق بقوات كبيرة، مثل المنطقة الشمالية ما بين بورسعيد حتى جنوب رأس العش، نظرا لوجود مستنقعات مالحة على الشاطئ الشرقي لا تصلح لسير المركبات، وكذا منطقة البحيرات المرة نظرًا لاتساع مسطحها المائي؛ ولذا فإن أكثر المناطق صلاحية لعبور قوات كبيرة وتأمين طرق إمدادها بواسطة إقامة جسور عائمة ومعديات وكبار هي التي تقع ما بين مدينة القنطرة شمالا إلى مدينة الإسماعيلية جنوبا، ثم من جنوب بحيرة التمساح حتى شمال البحيرات المرة، وأخيرا من جنوب البحيرات المرة حتى مدينة السويس.

وتعد القناة مانعا صعبا نظرًا لأن أجنابها حادة الميل ومكسوة بالدبش والحجارة لمنع انهيار الأتربة والرمال إلى القاع، مما يجعل من الصعب على أي مركبة برمائية أن تعبرها إلا إذا تم نسف أكتاف الشاطئ وتجهيز منزل ومطلع تستطيع المركبة البرمائية أن تستخدمهما في النزول إلى الماء والخروج منه. أما بالنسبة للتربة والرمال الناتجة من عمل الكراكات التابعة لهيئة القناة والتي كانت تستخدم قبل حرب يونيو ١٩٦٧ في أعمال تطهير القناة وتعميقها لإمكان استقبال سفن ذات غاطس كبير، فقد كانت تلقى كلها على الضفة الشرقية للقناة باعتبارها صحراء جرداء وغير مأهولة بالسكان، وقد شكلت هذه الرمال حاجزا يتراوح ارتفاعه ما بين ٦ ـ ١٠ أمتار. وقد زاد المهندسون الإسرائيليون ارتفاع هذا الساتر الترابي إلى حوالي ٢٠ ـ ٢٥ مترا في الأماكن المحتمل اختيارها للعبور، وبالتالي أصبح الساتر الترابي جزءا مكملا لسلسلة النقاط الحصينة التي أقيمت في أثناء حرب الاستنزاف على امتداد القناة والتي عرفت باسم خط بارليف، وعمل الإسرائيليون بعد ذلك على زحزحة هذا الساتر الترابي إلى القناة حتى أصبح ميله يتقابل مع ميل شاطئ القناة، وبذا انعدم وجود أي كتف ظاهر أو مصطبة على الشاطئ الشرقي، وكانت درجة ميل هذا السد الهائل تتراوح ما بين ٤٥ إلى ٦٥ درجة، وعلاوة على ذلك كانت هناك صعاب طبيعية أخرى إذ إن سرعة اتجاه تيار الماء في قناة السويس تتبدل أربع مرات يوميا، كما أن المد

والجزر فيها يخلق فرقا في ارتفاع سطح المياه يتراوح بين نصف متر ومترين، ولذا فإن الوقت الملائم للعبور يصبح محدودا نسبيا من حيث توافر الوقت المناسب من ناحية سرعة التيار وحالة المد والجزر.

وفي أثناء إنشاء تحصينات خط بارليف توصل المهندسون العسكريون الإسرائيليون إلى ابتكار نظام يمكن به عن طريق إشعال النابالم السائل تحويل أجزاء كاملة من القناة إلى شعلة من النار واللهب. وكانت الفكرة من استخدام هذا النظام هي بث الرهبة في نفوس المصريين على الشاطئ الغربي للقناة ليكفوا عن التفكير في عبور المانع المائي الذي أصبح من المنتظر أن يعلوه مانع آخر من اللهب أشد منه صعوبة وخطرا، ويمكن أن يؤدي إلى احتراقهم بناره. ولتنفيذ هذه الفكرة الجهنمية بنوا خزانات يسع الواحد منها ٢٠٠ طن من النابالم السائل، ووصلوا هذه الخزانات بخراطيم ممتدة من الخزانات إلى سطح القناة. ونظراً لأن كثافة النابالم أقل من كثافة الماء فإنه يطفو على السطح، فإذا اشتعل بطريقة كهربائية عن طريق جهاز خاص داخل الحصون الممتدة في نطاق خط بارليف أو بواسطة إلقاء قنبلة فوسفورية، تحول سطح المياه إلى قطعة من الجحيم، ومع استمرار تدفق النابالم تظل المياه مشتعلة. وقد حرصت القيادة الجنوبية للقوات الإسرائيلية على إجراء تجربة عملية يوم ٢٨ فبراير ١٩٧١ بواسطة التجهيزات المقامة في النقطة القوية في الدفرسوار ليمكن خلق تأثير سيكولوجي رهيب على القوات المصرية. واسترعت تلك التجربة ـ كما توقع الإسرائيليون أنظار الوحدات المصرية المرابطة أمام مكان التجربة على الشاطئ الغربي للقناة.

وانتقل النبأ بسرعة إلى القيادة العسكرية الأعلى، حتى وصل إلى القيادة العامة بالقاهرة. وانشغلت القيادة العامة بهذه المشكلة الجديدة التي لم تكن في الحسبان، والتي تهدد عملية العبور بأخطار فادحة، وبدأت في دراسة الوسائل العملية التي يمكن بها التغلب عليها.

ذلك كان المانع المائي الذي كان على القوات المسلحة المصرية اقتحامه والتغلب على مشكلاته المستعصية. وقد قام اللواء جمال على مدير سلاح المهندسين وأفراد سلاحه بالعمل على حل هذه المشكلات إلى أن تم لهم بالشجاعة والمثابرة والصبر التغلب عليها جميعا.

وقد ظل المهندسون العسكريون المصريون أكثر من خمس سنوات يبذلون جهودهم الجبارة ومحاولاتهم المتواصلة لإيجاد الحلول السليمة لمشكلات العبور الصعبة. وقبل

حلول ٦ أكتوبر ١٩٧٣ كانت جميع المشكلات قد حلت، وجميع المصاعب قد ذللت. وكانت أهم هذه المشكلات وأعقدها ما يلي:

أولا: فتح الثغرات في الساتر الترابي:

كان من واجب المهندسين الاهتداء إلى أسلوب عملي لفتح الثغرات في الساتر الترابي الهائل الذي يمتد على طول الشاطئ الشرقي للقناة حتى يمكن عند بدء العبور إقامة وتشغيل الكباري والمعديات، وحتى تجد مركبات القتال من دبابات وعربات وجرارات ثقيلة للمدفعية والصواريخ ميولا رأسية تستطيع استخدامها لاجتياز الساتر الترابي. وقد تم إعداد وتجهيز جزء من فرع دمياط بالقرب من القناطر الخيرية ليماثل قناة السويس تماما، من حيث المواصفات وبنفس ارتفاع الساتر الترابي على الضفة الشرقية للقناة. وقد أجريت من أجل التوصل إلى الحل المطلوب مئات التجارب، واستحدثت شتى الوسائل والأساليب التي كان من ضمنها: النسف بالمفرقعات، واستعمال البلدوزرات، والقصف بالطيران، والرمي بالمدفعية والصواريخ، إلا أن كل هذه التجارب فشلت في تحقيق النتائج المطلوبة. وكانت مجموعات من الضباط المهندسين برئاسة مدير السلاح قد انهمكت في البحث عن وسيلة عملية أخرى لحل هذه المشكلة المستعصية التي كانت تهدد عملية اقتحام قناة السويس بالتوقف التام. وفي يونيو ١٩٧١ تقدم مدير السلاح باقتراح جديد للقيادة، وهو استخدام طريقة التجريف بالمياه بواسطة الطلمبات لفتح الثغرات في الساتر الترابي. وكانت الفكرة سهلة وبسيطة، وقد سبق لبعض المهندسين العسكريين مشاهدتها أثناء عملهم في مشروع السد العالي بأسوان، إذ تمكن المهندسون السوفيت بهذه الوسيلة من إزاحة جبل رملي من متخلفات الحفر كان حجمه يبلغ حوالي ٥ ملايين متر مكعب من مكانه إلى مكان آخر يبعد عنه نحو خمسة كيلو مترات، ووفروا بذلك الكثير من الجهد والمال والوقت. ولكن الطلمبات السوفيتية لم تكن تصلح للاستخدام في مسرح العمليات بالقناة لضخامة حجمها وثقل وزنها وتعذر نقلها إلى الشاطئ الآخر، لذا نبتت فكرة استخدام طلمبات مياه خفيفة الوزن قوية الدفع لتغذية مدافع المياه خلال الخراطيم المتصلة بها، وهو نظام مماثل لنظام إطفاء الحرائق.

وقام المهندسون بعمل تجربة لاختبار الأسلوب الجديد الذي اقترحوه، واستخدموا فيه ثلاث مضخات مياه صغيرة إنجليزية الصنع، وكللت التجربة بالنجاح. وكان واضحا أنه كلما زاد ضغط المياه زاد تهايل الرمال وبالتالي سرعة فتح الثغرة، وبعد عدة تجارب اتضح

أن كل متر مكعب من المياه يزيح مترا مكعبا من الرمال، وأن العدد المثالي لكل ثغرة هو خمس مضخات. وبناء على ذلك تقرر منذ منتصف عام ١٩٧١ أن يكون أسلوب المهندسين في فتح الثغرات في الساتر الترابي هو أسلوب التجريف (ضغط المياه). وتقرر على أثر ذلك شراء ٣٠٠ مضخة مياه إنجليزية الصنع وصلت خلال عامي ١٩٧١ و١٩٧٢. وفي أوائل عام ١٩٧٢ تقرر شراء ١٥٠ مضخة أخرى ألمانية الصنع من شركة دوبتس الألمانية بجوار مدينة كولون بألمانيا الغربية، نظرًا لأنها أكثر قوة من المضخة الإنجليزية. وبتخصيص ثلاث مضخات إنجليزية ومضختين ألمانيتين لكل ثغرة، ثبت أنه من الممكن إزاحة ١٥٠٠ متر مكعب من الأتربة خلال ساعتين وبعدد من الأفراد يتراوح ما بين ١٠ ـ ١٥ فردا فقط. وكان ذلك يعتبر حلا عمليا وسهلا، وتم عن طريقه تلافي جميع عيوب الطرق السابقة. ومما يثير الدهشة أنه رغم إجراء عشرات التجارب على أسلوب فتح الثغرات في الساتر الترابي بطريقة التجريف، فإن الإسرائيليين لم يفطنوا إلى أن المهندسين المصريين قد توصلوا إلى هذا الأسلوب الجديد في فتح الثغرات، وفوجئوا به مفاجأة تامة يوم ٦ أكتوبر ١٩٧٣. وكان نظام التشغيل يقضي بوضع الطلمبات في قوارب يستقلها أطقم من المهندسين لترافق قوارب المشاة في الموجات الأولى من الاقتحام، وعند الوصول إلى الشاطئ يمهد جنود المهندسين مصاطب بسيطة لوضع مدافع المياه عليها، وعن طريق تشغيل الطلمبات تندفع المياه بقوة هائلة للبدء في عمل الفتحات. وكانت ترافق قوارب الطلمبات قوارب خاصة لحمل الوقود اللازم لتشغيلها، وكانت تقف بجوارها لسرعة إمدادها بالوقود عن طريق خراطيم خاصة لهذا الغرض.

ثانيا: إنشاء المعديات والكباري:

لم يكن لدى سلاح المهندسين عقب حرب يونيو ١٩٦٧ سوى عدد محدود من الكباري السوفيتية الصنع، وهي الكباري الثقيلة من طراز TPP (لعبور الدبابات وجرارات المدافع والصواريخ)، والكباري الخفيفة LPP (لعبور المركبات الخفيفة الحركة). وكانت هذه الكباري بنوعيها من الطراز القديم الذي سبق استخدامه في الحرب العالمية الثانية والتي يستغرق تركيبها ما لا يقل عن خمس ساعات، ولم يحاول السوفيت إمداد سلاح المهندسين بالكباري البرمائية الحديثة التي لا يستغرق تركيبها أكثر من ساعة ونصف الساعة. ولم تكن كمية الكباري التي في حوزة سلاح المهندسين تزيد على نصف الكمية اللازمة لعبور قوات الجيشين الثاني والثالث. ولكن مخازنه كانت تضم عددا من الكباري الإنجليزية الصنع من طراز بيلي سبق الاستيلاء عليها من مخازن القاعدة البريطانية بقناة السويس عقب العدوان

الثلاثي عام ١٩٥٦ . ونظرا لأنها كانت مصممة للاستخدام في الخطوط الخلفية ، وكان تركيب الكوبري الواحد منها يستغرق ٢٤ ساعة لذلك لم يكن في الإمكان من الناحية التكتيكية استخدامها في عملية عبور القناة . وعلى أثر دراسات تمت على أعلى مستوى من الفكر الهندسي أمكن تحويل كباري البيلي الإنجليزية الثقيلة إلى كباري اقتحام لا يستغرق تركيبها أكثر من بضع ساعات ، وذلك باستخدام البراطيم الخاصة بها فقط والاستغناء عن باقي أجزائها . ولكي يمكن استخدامها لتكون كباري اقتحام تم تخصيص عربات نقل ضخمة لحمل براطيمها بنفس الطريقة المستخدمة في تحميل البراطيم السوفيتية . ولاستكمال النقص الموجود في عددا لكباري تم تشغيل عدد من البراطيم (وفقا للتصميم السوفيتي) مع بعض المعدات الفنية الأخرى المصنعة محليا في مصانع وورش شركات القطاع العام تحت إشراف سلاح المهندسين بما حقق الزيادة المطلوبة في عدد الكباري . ونتيجة لذلك أصبحت الكباري التي يمتلكها سلاح المهندسين يتكون ثلثها من طراز سوفيتي الصنع ، وثلثها من طراز إنجليزي الصنع ، في حين كان الثلث الآخر صناعة مصرية خالصة .

وكانت المعديات rafts المصممة للانتقال ما بين الشاطئين عن طريق جرها باللنشات يتم إنشاؤها عن طريق تجميع عدد من البراطيم Pontoons ، وكانت المعديات مخصصة كي تستخدم في نقل بعض الدبابات والأسلحة الثقيلة ذات الأسبقية الأولى إلى الشاطئ الشرقي للقناة بعد إتمام فتح الثغرات في الساتر الترابي وقبل ساعتين من موعد البدء في تشغيل الكباري . وبعد إتمام تشغيل الكباري كانت المعديات مصممة لاستخدامها كوسيلة معاونة وتبادلية لها . وكانت الكباري تتكون من عدد من المعديات التي تضم بعضها إلى بعض حسب طول الكوبري ، وفي حالة ضرب أجزاء من الكوبري بواسطة الطائرات الإسرائيلية كانت الخطة موضوعة على أساس أن المعديات التي أصيبت يستبدل بها على الفور معديات احتياطية . واستعداداً لإقامة الكباري على القناة ، تم تجهيز ساحات الإسقاط لوحدات الكباري على الضفة الغربية للقناة ، وكذا المنازل اللازمة لاستخدام المعديات ، وذلك على طول المواجهة من شمال القنطرة إلى السويس على مسافات متساوية حتى لا يتمكن العدو من تحديد قطاعات العبور مبكرا ، فيركز جهوده ضدها بما يفسد عملية العبور أو يحبطها .

أما عبور المشاة في المرحلة الأولى من العملية لتأمين رءوس الكباري ، فكان الأمر يستلزم تدبير ٢٥٠٠ قارب ، وقد أمكن للمهندسين إعداد هذه الكمية الضخمة بفضل تصنيع نصفها محليا في مصانع وورش شركات القطاع العام ، ولمعاونة المشاة في تسلق

الساتر الترابي على الشاطئ الشرقي للقناة، ابتكر المهندسون سلالم من الحبال، وهي تشبه السلالم المستخدمة في الوحدات البحرية؛ إذ إن أجنابها من الحبال، ولكن درجاتها من الخشب، بحيث يسهل طيها وحملها، ثم فردها على الساتر الترابي، وبذلك يستطيع جندي المشاة أن يتسلق الساتر الترابي دون أن تغوص قدماه في التراب، كما أنه بوضع سلمين متجاورين يمكن جر المدافع وعربات الجر التي كانت ترافق المشاة فوق هذا الساتر دون أن تغوص عجلاتها في الرمال. وقد تم تصنيع سلالم الحبال وزلاقات خاصة من الصاج في ورش سلاح المهندسين. ورغم بساطة هذه المهمات، فإنها حققت نجاحا كبيرا إذ مكنت قواتنا خلال الفترة من بدء العبور حتى بدء تشغيل الكباري والمعديات أن تنقل أعدادا كبيرة من الأسلحة الخفيفة المضادة للدبابات والرشاشات المتوسطة والرشاشات المضادة للطائرات وصناديق الذخيرة وغيرها من الأسلحة والإمدادات اللازمة للمشاة في الساعات الحرجة الأولى من المعركة.

ثالثا: تجهيزات إشعال القناة بالنابالم:

في خلال شهر يونيو ٧١، أي بعد ثلاثة أشهر فقط من إجراء التجربة الإسرائيلية في حصن الدفرسوار لإشعال مياه القناة، أجرى المهندسون المصريون عدة تجارب للاهتداء إلى الطريقة العملية لمقاومة النيران المشتعلة، وذلك في المكان المحدد لإجراء التجارب في فرع دمياط. وقد استخدمت طريقة مقاومة جزر النيران المشتعلة في المياه بضربها بسعف النخيل لتقسيمها إلى عدة جزر صغيرة، وتتكرر العملية عدة مرات حتى يتلاشى اللهب من القناة. وعندما اتضح فشل هذا الأسلوب، تقدم أحد المهندسين باقتراح جديد وهو أن تُستبدل بالقوارب التي تقترب من النيران والقابلة للاشتعال مركبات برمائية، وأن يستبدل بسعف النخيل مواد كيمياوية يمكن بها إطفاء الحريق، ولكن هذا الأسلوب لم توافق عليه القيادة العامة. وكان الحل الذي وافق عليه الفريق أول أحمد إسماعيل القائد العام للقوات المسلحة هو ضرورة إغلاق فتحات الخراطيم التي تصب السائل الملتهب في القناة قبل بدء العمليات سدا محكما، وضرب الخزانات المليئة بالنابالم خلف الساتر الترابي بنيران المدفعية في أثناء فترة تحضيرات المدفعية التي تسبق الهجوم. وكانت الوسيلة التبادلية للتغلب على النيران، هي اختيار نقط العبور بحيث تكون فوق التيار حيث إن النابالم المحترق يسبح مع التيار ويصبح عديم المفعول ضد أي قوات تعبر من فوق اتجاه التيار. وقد استمرت الجيوش الميدانية المصرية نحو عامين في مراقبة هذا النظام الإشعالي بدقة وانتظام، ودفعت لهذا الغرض عشرات من دوريات الاستطلاع إلى الشاطئ الشرقي للقناة.

ووفقا للمراجع الإسرائيلية وتقارير المخابرات المصرية، لم يكن قد أنشئ من هذه التجهيزات سوى مجموعتين فقط في حصون خط بارليف، إحداهما في النقطة القوية التي اسمها الكودي هيزايون Hizayon في منطقة الفردان، والثانية في النقطة القوية التي اسمها الكودي متسميد Matzmed في منطقة الدفرسوار، وتوقف الإسرائيليون بعد ذلك عن إنشاء أي تجهيزات جديدة نظراً لاكتشافهم عدم جدوى هذا النظام وضعف تأثيره من الناحية العملية في منع المصريين من عبور القناة بسبب سرعة التيار، مما سوف يؤدي إلى عدم ثبات الأجزاء الملتهبة في أمكنتها، إذ إن التيار سيجرفها في طريقه، وقد أدى ذلك إلى عدول القيادة الإسرائيلية عن إنشاء باقي التجهيزات في حصون خط بارليف.

وفي الساعة الثانية وعشرين دقيقة يوم ٦ أكتوبر، وبعد أن نقلت المدفعية قصفها إلى عمق دفاعات العدو، عبرت عناصر من المهندسين مع الموجة الأولى إلى الشاطئ الشرقي للقناة لتأمين مرور المشاة في حقول الألغام المعادية، وتلا ذلك مباشرة عبور عناصر أخرى من المهندسين لتحديد محاور الثغرات في الساتر الترابي وتجهيز الأرصفة للمعديات والكباري. وفي الموجة الثانية عبرت ٨٠ وحدة هندسية في قواربهم الخشبية المحملة بالطلمبات والخراطيم والوقود وكل التجهيزات اللازمة لفتح الثغرات في الساتر الترابي، وفور وصولها إلى الشاطئ الشرقي للقناة وضعت الطلمبات على المصاطب التي أعدت من قبل. وبتشغيل الطلمبات اندفعت المياه من البشابير كالسيل الجارف تكتسح أمامها الرمال، وتم فتح الثغرة الأولى في زمن قياسي لم يتجاوز الساعة. وتوالى بعد ذلك فتح الثغرات على طول مواجهة العبور. وفي نفس الوقت اندفعت مئات العربات الضخمة المحملة بمهمات الكباري واللنشات من أماكنها المستورة على الشاطئ الغربي إلى ساحات الإسقاط المحددة على القناة. وعن طريق المنازل السابق تجهيزها اقتربت العربات من سطح المياه وأسقطت حمولتها من البراطيم واللنشات إلى الماء، حيث بدأت وحدات الكباري في عمليات تركيبها. وخلال ساعتين من بدء العبور كان حجم قوات المهندسين التي عبرت مع المشاة، والتي تعمل في فتح الثغرات في الساتر الترابي، والتي تقوم بعملية تركيب الكباري والمعديات فوق صفحة القناة قد تجاوز الخمسة عشر ألف مقاتل من مختلف التخصصات الهندسية.

وبدأت الكباري تقام أمام الثغرات التي فتحت في الساتر الترابي، وخلال فترة زمنية من ٦ إلى ٩ ساعات كانت كل كباري ومعديات الجيش الثاني الذي كان يتولى قيادته اللواء سعد مأمون قد أقيمت وفقا للخطة المرسومة. أما في قطاع الجيش الثالث الذي كان يتولى

قيادته اللواء عبد المنعم واصل فقد اصطدمت عملية فتح الثغرات في الساتر الترابي وإنشاء الكباري بعوامل عديدة معوقة خصوصا صلابة التربة واحتواءها على عناصر كلسية، مما جعل عملية التجريف شاقة. وأدت هذه المعوقات إلى أن يتم إنشاء كباري الجيش الثالث في نحو ١٦ ساعة بتأخير زمني قدره سبع ساعات عن التخطيط الموضوع، وإلى أن تعبر مركبات الفرقة ١٩ على كباري ومعديات الفرقة السابعة. وأخيرا نجح المهندسون في إنشاء عشرة كبار ثقيلة وعشرة كباري مشاة، وعدد من الكباري الهيكلية علاوة على ٣١ معدية أخذت تعمل بين الشاطئين الغربي والشرقي للقناة. واندفعت الدبابات والمركبات والأسلحة الثقيلة تعبر فوق الكباري والمعديات إلى الشاطئ الشرقي للقناة. وقام العدو خلال هذه العمليات بتركيز هجماته الجوية ونيران مدفعيته على الكباري لإحباط عملية العبور. وفي خلال ساعات الظلام نجحت بعض دبابات معادية في الوصول إلى خط المياه، وتمكنت من تعطيل كوبريين اثنين وتدمير بعض وسائل العبور الأخرى، ولكن قبل طلوع الصباح كان قد تم تدمير الدبابات التي نجحت في الوصول خلال الليل، وقام المهندسون بإصلاح الكباري التي تعطلت في أزمنة قياسية وتحت نيران العدو.

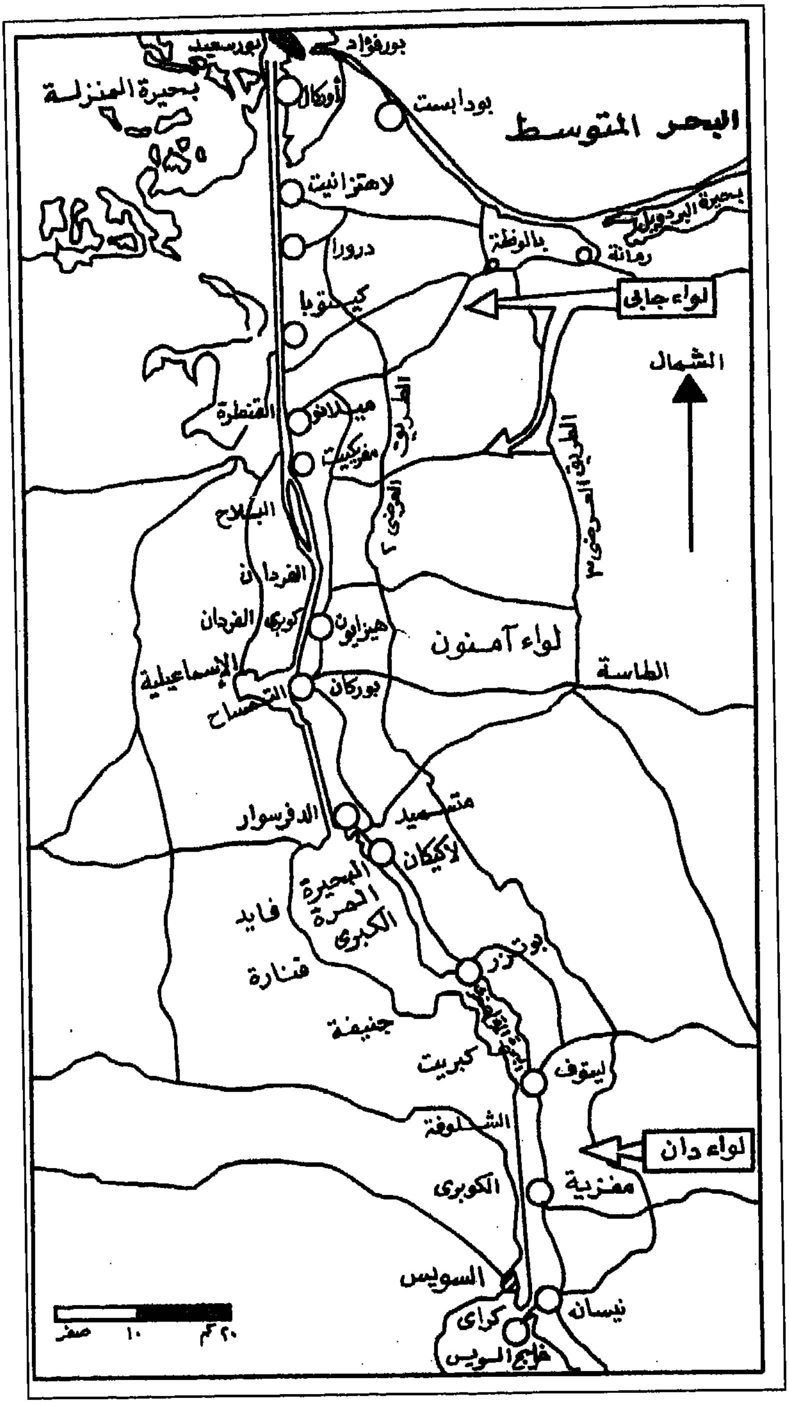
وبحلول الساعة الثامنة من صباح الأحد ٧ أكتوبر، كانت المعابر المختلفة التي أقامها المهندسون لاجتياز أصعب مانع مائي في العالم قد عبر عليها حوالي مائة ألف ضابط وجندي، و٨٠٠ دبابة وما يزيد على ١٣٠٠٠ مركبة مختلفة الأنواع في خلال ١٨ ساعة فقط، وهو رقم قياسي لم تحققه أي عملية عبور في تاريخ البشرية.

وقد أصيبت معظم الكباري وأعيد إصلاحها أكثر من خمس مرات، وقد ضرب العميد أحمد حمدي نائب مدير سلاح المهندسين وقائد أحد ألوية الكباري المثل الأعلى في التضحية والفداء، إذ استشهد بينما كان يشارك أفراد أحد الكباري في عملية إصلاحه، وقد سمي باسمه النفق الذي يربط حاليا بين الشاطئين شمال السويس تقديرا لبطولته. هذا ولم يقتصر دور المهندسين على إنشاء المعديات والكباري، بل قاموا بالاشتراك مع الأسلحة الأخرى في إنشاء مناطق رءوس الكباري على الشاطئ الشرقي وتعزيزها، وأسهموا في صد الهجمات المضادة للعدو برص الألغام المضادة للدبابات لسد طرق الاقتراب المحتملة. وعن طريق المعدات الهندسية الضخمة التي عبرت إلى الضفة الشرقية عاونت وحدات المهندسين القوات التي عبرت في تجهيز مواقعها بحفر خنادق المشاة ومواقع الدبابات ومرابض المدفعية وإنشاء السواتر والدراوي. وقد بلغ عدد الألغام التي تم لوحدات المهندسين رصها خلال حرب أكتوبر ٧٣ ما يربو على مليون لغم من مختلف الأنواع.

عندما تسلم الجنرال أريل شارون قيادة المنطقة الجنوبية في يناير عام ٧٠، وجد نفسه في وضع يفرض عليه تقوية وتدعيم الخط الدفاعي الأمامي الذي اشتهر باسم خط بارليف رغم أنه كان من أشد المعارضين في إقامته من قبل. وكان هو صاحب نظرية الدفاع المتحرك التي كانت تتعارض مع نظرية الدفاع الثابت التي كان يتبناها الجنرال حاييم بارليف رئيس الأركان العامة، والتي تم على أساسها إنشاء حصون خط بارليف. وكان الجو في بداية عام ٧٢ قد أصبح مهيئا للجنرال شارون لتنفيذ اقتراحه السابق بتخفيض عدد الحصون. فقد أحيل معارضه العنيد الجنرال بارليف إلى التقاعد وخلفه في منصبه الجنرال دافيد أليعازر، كما أن حرب الاستنزاف توقفت تماما منذ ٨ أغسطس عام ٧٠ إثر مبادرة روجرز، وكان الانطباع الذي رسخ في نفوس القادة الإسرائيليين أن القوات المصرية ليست لديها أي مقدرة عسكرية للقيام بهجوم واسع النطاق عبر المانع المائي الصعب للوصول إلى الدفاعات الإسرائيلية المقامة على الشاطئ الشرقي للقناة، وكانت سياسة تخفيض الحصون تتمشى في نفس الوقت مع اتجاه الرأي العام الإسرائيلي الذي أثقلته الأعباء الاقتصادية بسب التوسع الهائل في ميزانية وزارة الدفاع، لهذه الأسباب تم تنفيذ اقتراح الجنرال شارون بإخلاء ١٤ حصنا من حصون خط بارليف واكتفت القيادة الجنوبية ببقاء ١٦ حصنا فقط تم اختيارها في الأماكن الحيوية التي تقع على محاور التقدم وطرق الاقتراب المهمة داخل سيناء. وبهذا الحل الوسط الذي اتخذه الجنرال شارون للتوفيق بين نظامي الدفاع الثابت والمتحرك فقد خط بارليف توازنه إذ أصبح أقوى من أن يكون جهازا إنذاريا، وأضعف من أن يكون خطا دفاعيا، وكان هذا التميع في مهمته هو السبب في فشل الخط في تأدية الدور المطلوب منه، وعجزه التام عن صد الهجوم المصري الكاسح بعد ظهر يوم ٦ أكتوبر ٧٣.

وكان عدد حصون خط بارليف ١٦ حصنا ممتدة على الشاطئ الشرقي للقناة ابتداء من بورفؤاد الواقعة على ساحل البحر المتوسط شمالا إلى بورتوفيق الواقعة على خليج السويس جنوبا، على مواجهة حوالي ١٦٠ كيلو مترا، وبفواصل من ١٠ إلى ١٢ كم. وكانت الحصون التي أطلق عليها الإسرائيليون أسماء كودية موزعة على ثلاثة قطاعات رئيسة كما يلي:

القطاع الشمالي: وكان يضم سبعة حصون منها أربعة تقع في المنطقة الضيقة ما بين المستنقعات شرقا وقناة السويس غربا، وهي من الشمال إلى الجنوب: أوركال orkal



النقط الحصينة في خط بارليف.

ولاهتزانيت Lahtzanit ودرورا Droara وكيتوبا Ketuba. وكان حصن واحد منها يقع على شاطئ البحر شرق بورفؤاد وهو بودابست Budapest، بينما يقع حصنان آخران شرق مدينة القنطرة وهما ميلانو Milano ومفريكيت Mifreket .

القطاع الأوسط: وكان يضم أربعة حصون هي هيزايون Hizayon وبوركان Purkan ومتسميد Matzmed ولاكيكان Lakekan .

القطاع الجنوبي: وكان يضم خمسة حصون هي بوتزر Botzer وليتوف Lituf ومفزياه Mafzeah ونيسان Nissan وكواي Quay (المعروف باسم لسان بورتوفيق).

وفي الساعة الثانية وعشرين دقيقة يوم ٦ أكتوبر ٧٣، وبمجرد أن انتقلت نيران تحضيرات المدفعية المصرية إلى العمق، انطلقت كتائب الدبابات الثلاث الإسرائيلية التي كانت محتلة خط النسق الثاني إلى الأمام بأقصى سرعة لكي تحتل المواقع المخصصة لها داخل حصون خط بارليف لتدعيمها ولاحتلال المصاطب المحددة لها في الفواصل بين الحصون لسد الثغرات في الخط الدفاعي الأول على حافة القناة. وكان واضحا من تأخير تقدم هذه الدبابات حتى ذلك الحين أن القوات الإسرائيلية على جبهة القناة علاوة على المفاجأة الإستراتيجية التي أصيبت بها قد لحقت بها مفاجأة تكتيكية، فلقد كان المفترض بعد أن علمت القيادة الجنوبية منذ الصباح أن هجوما مصريا كبيرا سوف يقع على طول القناة مما دفعها إلى إعلان حالة الاستعداد القصوى بين قواتها - أن يجرى تنفيذ الخطة شوفاخ يونيم، وأن يتم احتلال الحصون الأمامية بمشاة النسق الأول من لواء القدس، وأن تتقدم لتدعيمها دبابات النسق الثاني، التي يبلغ عددها نحو ١٠٠ دبابة، وبذا كان العبور المصري للقناة سيقابل بكمية هائلة من النيران وتتعرض القوات المصرية لخسائر جسيمة. وقد تسبب تأخير تقدم الدبابات الإسرائيلية عن التوقيت المحدد في الخطة إلى تغير كامل في مجرى المعركة. فقدتم عبور القوات المصرية قناة السويس بخسائر لا تزيد على ٢٨٠ شهيدا، بينما تعرضت الدبابات الإسرائيلية خلال تقدمها من الخلف للأمام لغابة من قذائف الصواريخ والقنابل الخارقة للدروع. وكانت الصورة أمام كتائب الدبابات الثلاث رهيبة ومفزعة، فلقد انهالت عليها قذائف آر بي جي RBG التي كان آلاف من جنود المشاة المصريين الذين عبروا القناة يحملونها ويوجهونها في عزيمة وثبات إلى أبراج الدبابات وجنازيرها فتنفجر وتتعطل، وفي نفس الوقت كانت الدبابات المصرية الرابضة على قمة الحاجز الرملي على الضفة الغربية ووحدات الصواريخ مالوتكا المضادة للدبابات تتصيد الدبابات الإسرائيلية واحدة وراء الأخرى كلما أخذت في الاقتراب من شاطئ القناة. وكانت أشد الصدمات

تأثيرا عليها حينما اكتشفت الدبابات الإسرائيلية أن معظم المصاطب المعدة لها من قبل على طول خط الحصون والتي كانت تتيح لها الفرصة للاستتار من النيران المهلكة التي تتعرض لها قد سبقها رجال الصاعقة المصريون إلى احتلالها، وراح هؤلاء يمطرونها بوابل من قذائف RBG مما جعلها تهرول في كل اتجاه بلا نظام للنجاة من هذا الجحيم.

ونتيجة للخطأ التكتيكي الجسيم الذي ارتكبه الجنرال جونين قائد المنطقة الجنوبية بتأخيره إصدار تعليماته لدبابات النسق الثاني باحتلال مواقعها على خط الحصون قبل بدء العبور، وبفضل شجاعة وعزيمة رجال المشاة والصاعقة المصريين الذين تصدوا للدبابات الإسرائيلية في ثبات، ونظراً لدقة وكثافة نيران الدبابات والصواريخ المضادة للدبابات من الشاطئ الغربي للقناة، تم للقوات المصرية سحق وتدمير كتائب الدبابات الثلاث الإسرائيلية، ولم تنج من الدبابات الإسرائيلية المائة من طراز باتون وسنتوريان من الدمار والوصول بعد ذلك إلى حصون خط بارليف سوى حفنة قليلة توزعت على بعض الحصون. ومع غروب شمس يوم السبت ٦ أكتوبر كان في إمكان القيادة الإسرائيلية أن تستغل فرصة حلول الظلام لإصدار تعليماتها الفورية لإخلاء هذه الحصون، وكان هذا حتى ذلك الحين أمرا سهلا ومتيسرا، إذ إن الموجات الأولى من المشاة المصرية عقب عبورها القناة من بين الفواصل القائمة بين الحصون اندفعت في طريقها إلى العمق لكي تحقق مهمتها المباشرة وهي إنشاء مناطق رءوس الكباري، ولم تلق أهمية كبيرة لهذه الحصون التي تركتها وراءها، إذ إن التعامل مع هذه الحصون ومحاولة اقتحامها كان كفيلا بتعطيل التقدم نحو العمق، وبالتالي تأخير عملية إنشاء رءوس الكباري، ولذا كان واجب أفراد الموجات التالية من المشاة أن تتجه عقب عبور القناة صوب هذه الحصون لتطويقها وضرب الحصار حولها تمهيدا لاقتحامها. ولم يكن هناك في الواقع أي واجبات رئيسة يمكن لأفراد هذه الحصون البقاء في مواقعهم من أجل القيام بها عقب نجاح القوات المصرية في اقتحام القناة والتقدم في اتجاه العمق. فلقد قدمت الحصون التغطية اللازمة لحامياتها أثناء عملية قصف المدفعية خلال فترة التمهيد النيراني، وقامت بواجباتها كنقاط ملاحظة للمدفعية الإسرائيلية وكنقاط مراقبة للقيادات الخلفية لإبلاغها بتحركات القوات المصرية، ولكن القيادة الإسرائيلية أضاعت الفرصة الثمينة التي كان في إمكانها الاستفادة منها وهي سرعة إخلاء هذه الحصون بسبب الغرور والثقة المفرطة في النفس، إذ لم يكن أحد من كبار القادة يجرؤ على إصدار الأمر بإخلائها، إذ إن ذلك يعني في نظرهم الانسحاب وكانوا على ثقة من أن الحصون سوف تستطيع الصمود في القتال، فإن كل حصن منها

مزود بذخيرة وطعام ومياه تكفيه لمدة أسبوع، ولم يجل في خاطر أحد منهم أن الجيش الإسرائيلي سوف يعجز عن هزيمة المصريين وردهم على أعقابهم إلى الشاطئ الغربي قبل مرور هذا الأسبوع. وفي الحصون الكبرى كان يوجد أطباء ووسائل إسعاف كافية، ولذا كان الجرحى الذين يتم إخلاؤهم من الدبابات الإسرائيلية المصابة بالقرب من القناة يجري نقلهم إلى الحصون الأمامية على خط بارليف وليس إلى مستشفيات الميدان الخلفية كما كان المفترض، وذلك من فرط الثقة بأن الحصون آمنة وأنه لن تمضي سوى بضعة أيام إلا وتلتحم القوات الإسرائيلية التي ستقوم بطرد المصريين وإعادتهم إلى الشاطئ الغربي بهذه الحصون ثانية، ويعود الحال إلى ما كان عليه من قبل.

وعلاوة على ذلك الغرور القاتل الذي أصبح سمة من سمات القادة الإسرائيليين عقب انتصارهم في حرب يونيو ٦٧، اتضح أنه لم تكن هناك أي خطة موضوعة من قبل لإخلاء الحصون، بل إن التوجيهات التي تم إعدادها في قيادة الجنرال ماندلر قائد جبهة سيناء في بداية الحرب كانت تحدد وظيفة الحصون بواجبين: أولهما أن تكون بمثابة عائق لمنع تقدم المصريين إلى العمق، وثانيهما أن تشكل بوجودها في مؤخرة القوات المصرية قوة خلفية لإرباك تحرك هذه القوات وعزل أقسام كبيرة منها.

ولكن أحداث القتال أثبتت أن الحصون لم تستطع تحقيق أي من هذين الواجبين. وعلى العكس لم تكد قوات الجيشين الثاني والثالث تثبت أقدامها على الشاطئ الشرقي للقناة، وفور أن تمكنت الفرق المشاة الخمس التي عبرت من إنشاء مناطق رءوس الكباري، كانت حصون خط بارليف قد فقدت تماما قيمتها الدفاعية، إذ أصبحت مطوقة بالمصريين من كل جانب ومعزولة عن باقي القوات الإسرائيلية في سيناء. وبدلا من أن تلعب دورها المحدد لها في الخطة الإسرائيلية شوفاخ يونيم، وهو القيام بواجب الصد الرئيسي ومنع أي عبور مصري لقناة السويس والحيلولة دون تقدم أي قوات مصرية إلى عمق سيناء، إذا بهذه القوات تجد نفسها سجينة في مصيدة الحصار المصري، وأصبح إنقاذ هذه القوات مشكلة خطيرة أقلقت القيادة الجنوبية في سيناء بل رئاسة الأركان العامة في تل أبيب.

كيف تم إنهاء أسطورة خط بارليف؟

طوال الأربع والعشرين ساعة التي أعقبت عملية اقتحام القوات المصرية لقناة السويس منذ الساعة الثانية بعد ظهر السبت ٦ أكتوبر، أسندت قيادة القطاعات الثلاثة الإسرائيلية على جبهة قناة السويس إلى قادة الألوية المدرعة التي كانت ترابط في الاحتياطي في

في مناطق المضايق الجبلية في الخلف، فتولى العقيد جابي Gapy قيادة القطاع الشمالي، والعقيد آمنون Amnon قيادة القطاع الأوسط والعقيد دان Dan قيادة القطاع الجنوبي، وذلك بصفة مؤقتة إلى حين وصول قادة الفرق الاحتياطية بفرقهم الثلاث. ونظرا لأن كلا من هذه الألوية الثلاثة قد فقد الكتيبة المدرعة التي سبق له دفعها لاحتلال مواقع النسق الثاني في أثناء تقدمها من مواقعها للانضمام إلى الخط الدفاعي الأول وفقا للخطة الموضوعة، بعد أن انهالت عليها كل أنواع القذائف والصواريخ المضادة للدبابات من الشاطئين الشرقي والغربي للقناة، بحيث لم يتمكن من الوصول إلى مواقع الحصون سوى عدد قليل من الدبابات، فقد أصبح كل لواء يتشكل فقط من كتيبتين مدرعتين مجموعة دباباتهما حوالي ٧٠ دبابة.

ولو كانت القيادة الجنوبية الإسرائيلية قد فكرت تفكيرا منطقيا وواجهت الموقف المتحرج أمامها بتصرف تكتيكي سليم بعيدا عن تأثير العاطفة، لكان الواجب عليها هو تركيز الدبابات التي كانت في حوزتها وقتئذ والتي كان عددها يصل إلى نحو ٢٠٠ دبابة أمام نقاط العبور الرئيسة للقوات المصرية والاشتباك معها، بهدف عرقلة وإبطاء معدل تقدم هذه القوات إلى العمق لإنشاء مناطق رءوس الكباري إلى حين وصول الفرق الثلاث الاحتياطية التي كانت متقدمة وقتئذ على وجه السرعة وعلى عدة طرق من مركز تجميع الاحتياط في بئر السبع إلى جبهة القتال. ولكن الأمر الذي جرى كان مثيرا للدهشة، إذ إن القيادة الجنوبية التي كان على رأسها وقتئذ قائدان يعدان من أكفأ القادة الإسرائيليين وهما الجنرال شموئيل جونين قائد القيادة الجنوبية والجنرال ألبرت ماندلر قائد جبهة سيناء الذي كان يعد واحدا من أقدر الخبراء في حرب الدبابات، استخدما الألوية المدرعة الثلاثة بطريقة خاطئة أدت إلى القضاء عليها. ويبدو أن ذلك كان مرجعه إلى عاملين مهمين: أولهما، اضطرارهما للانصياع للأوامر الصادرة إليهما من رئيس الأركان العامة الجنرال دافيد أليعازر وعدم قدرتهما على مخالفتها، والأمر الثاني، كان يرجع إلى ناحية إنسانية معنوية وهي ناحية أصبحت بمثابة عرف وتقليد في الجيش الإسرائيلي منذ حرب عام ١٩٤٨، وهو عدم ترك القتلى والجرحى في صفوف العدو وتحت رحمته، وطوال الجولات العربية الإسرائيلية كانت القوات الإسرائيلية تشن هجمات ضارية لإنقاذ بضعة أفراد أو لاسترجاع بعض جثث في الوقت الذي كانت تكلفها فيه هذه الهجمات أعدادا من القتلى والجرحى يفوق عددهم كثيرا أولئك الذين جرى الهجوم من أجل إنقاذهم أو إعادة جثثهم. وهكذا صدرت الأوامر لقادة الألوية الثلاثة بالقيام بواجبين كان من الصعب

التوفيق بينهما: الأول هو الالتحام بدباباتهم بحصون خط بارليف الموجودة في قطاع كل منهم لتدعيم هذه الحصون بعدد من الدبابات وإخلاء القتلى والجرحى. وكان الواجب الثاني هو القيام بعمليات الصد ومنع القوات المصرية التي عبرت القناة من توسيع وتعميق رءوس الكباري. وطوال ليلتى ٦ و ٧ أكتوبر انهمكت المجموعات المدرعة التي أخرجها قادة الألوية في القيام ببعض الهجمات المضادة ضد رءوس الكباري المصرية، وكذا في عمليات قاسية ومريرة من أجل الوصول إلى بعض حصون خط بارليف. وقد نجحت بعض هذه المجموعات في عمليات الإنقاذ ولكن بعد أن تكبدت خسائر فادحة، كما نجحت حاميات بعض الحصون في النجاة بأنفسها بمجهوداتها الخاصة والوصول إلى المواقع الإسرائيلية، ولكن بعض الحصون تحت وطأة الهجمات المصرية العنيفة لم تجد أمامها بدا من التسليم ووقع أفرادها أسرى في أيدى القوات المصرية. ونتيجة لتكليف الألوية المدرعة بهذين الواجبين المتعارضين، فقد كل منها خلال المعارك نحو ثلثي دباباته. وفي صباح يوم الأحد ٧ أكتوبر كان عدد الدبابات في كل لواء لا يزيد على ٣٠ دبابة من أصل ١٠٠ دبابة بدأ بها القتال في الساعة الثانية بعد ظهر يوم ٦ أكتوبر.

وعند ظهر يوم الأحد ٧ أكتوبر طرأ تغيير كبير في الموقف، فقد توالى وصول الفرق الاحتياطية إلى أرض المعركة وألقيت مسئولية الدفاع عن القطاعات على عاتق الفرق المدرعة بدلا من الألوية. وفي القطاع الشمالي تولى الجنرال إبراهام أدان (برن) مهام القيادة، وفي القطاع الأوسط تولى القيادة الجنرال أريل شارون، بينما انتقل الجنرال ألبرت ماندلر الذي كان يتولى قيادة جبهة سيناء قبل الحرب وخلال يومها الأول من مقر قيادته ليتولى مسئولية قيادة القطاع الجنوبي. ونتيجة لنجاح الفرق المصرية في تعميق رءوس الكباري حتى ثمانية كيلو مترات شرقا، في الوقت الذي تم لها فيه بمعاونة القوات الجوية سحق الهجمات المضادة التكتيكية التي قامت بها الألوية المدرعة الثلاثة كما سبق أن ذكرنا، أصبح موقف المحاصرين داخل الحصون سيئا للغاية، مما اضطر معه موشى ديان وزير الدفاع عندما وصل إلى موقع القيادة الأمامي وعرف الصورة الحقيقية للموقف أن يقرر أنه لا مناص من التخلي عن جنود التحصينات، وأنه ينبغي أن يهرب كل من هو قادر على الهرب، أما الباقون بمن فيهم الجرحى فينبغي أن يبقوا في أماكنهم داخل التحصينات حتى يقعوا في الأسر.

ولكن الجنرال شارون كان مشغولا تماما بأمر إنقاذ الأفراد المحاصرين في المواقع إذ كان هذا في نظره واجبا أدبيا، ولذا لم يكد يلتقي مع الجنرال دافيد أليعازر رئيس الأركان في

مقر القيادة الأمامية بسيناء حتى عرض عليه خطته المقترحة لإنقاذ أفراد الحصون. ورفض رئيس الأركان اقتراحه، وذكر له أن خطة الإنقاذ المقترحة من شأنها أن تكلف الجيش الإسرائيلي خمسين دبابة. وكان رئيس الأركان متبنيا في الواقع رأى الجنرال جونين قائد القيادة الجنوبية الذي قرر التخلي عن إنقاذ حاميات الحصون بعدما تكبدته الألوية الثلاثة المدرعة من خسائر فادحة في الليلة السابقة، وحتى يمكن تركيز الجهود استعدادا لعمليات الصد المستقبلة والتأهب في نفس الوقت للهجوم المضاد الكبير الذي تقرر أن تقوم به فرقة الجنرال إبراهام أدان صباح اليوم التالي ٨ أكتوبر في الشمال على مواجهة الجيش الثاني، بهدف تدمير القوات المصرية التي عبرت، والاستيلاء على ثلاثة كباري مصرية سليمة بمنطقة الفردان لتقوم الدبابات الإسرائيلية بالعبور فوقها إلى الشاطئ الغربيّ للقناة، على أن يقوم الجنرال شارون بعد ذلك بهجوم مضاد في الجنوب في اتجاه السويس بمجرد أن ينجح الجنرال أدان في مهمته.

هذا وقد سجل أفراد حصن بودابست الواقع على شاطئ البحر المتوسط جنوب شرق بورفؤاد قصة بطولة نادرة، وكان هذا الحصن قد تم بناؤه بمجهود كبير نظرا لصعوبة البناء في هذه المنطقة المحصورة بين البحر والمستنقعات.

وبعد معارك دامية دامت ثمانية أيام، قامت القوات المصرية برفع الحصار عن حصن بودابست وأصبح هو الحصن الوحيد الذي لم يسقط من حصون خط بارليف طوال الحرب.

ولم تلبث نهاية قصة حصون خط بارليف أن حلت بعد أسبوع واحد من بدء القتال، وكان ذلك في أقصى الجنوب عند الحصن المقام على لسان بورتوفيق في المدخل الجنوبي للقناة. وكان حصنا منيعا ومحاطا بالمياه من جهات ثلاث، ولم يكن هناك سوى طريق ضيق يؤدي إليه. وعندما انتهى قصف المدفعية يوم ٦ أكتوبر تمكنت أربع دبابات إسرائيلية من الوصول إلى ساحة الحصن ولكن ثلاثا منها كانت مصابة وكان أوائل الجرحى من رجال هذه الدبابات، ثم أضيف إليهم بالتدريج جرحى من بين جنود الحصن.

ولقد تعرض الحصن لآلاف من القذائف والصواريخ التي سقطت فوقه، ووصل الجنود المصريون إلى جدرانه وألقوا عشرات من القنابل اليدوية داخل سراديبه، وقد أدرك القائد شلومو أردينست منذ الليلة الأولى أن الحصن محاصر ومعزول من جميع الجهات ولكنه لم يكن لديه أي شك في أن قوات الجيش الإسرائيلي ستأتي سريعا لمساعدته وترفع

الحصار المصري عنه. ولكن بعد مرور بضعة أيام تحرج الوضع داخل الحصن، فقد أخذت الذخيرة في التناقص ونفد المورفين والأمصال والضمادات وراح الجرحى يتلوون من آلامهم. وأخذ الدكتور ناحوم فريين طبيب الحصن في علاج المصابين والقيام بالعمليات بدون تخدير.

وفي اليوم الخامس وصلت إلى الحصن رسالة لاسلكية من القيادة كان نصها «إذا لم نستطع خلال ٢٤ ساعة إرسال التعزيزات إليكم يمكنكم الاستسلام».

وكان داخل الحصن ٤٢ جنديا منهم ٥ قتلى و٢٠ جريحا أحدهم مصاب بجروح خطيرة.

وفي صباح يوم السبت ١٣ من أكتوبر ظهر ممثلو الصليب الأحمر في الجانب المصري من القناة، وعلى أثر ذلك دار بين القيادة الإسرائيلية وقائد الحصن عن طريق اللاسلكي الحوار الآتي بعد:

القيادة : هل تستطيع الصمود؟

قائد الحصن : أخشى ألا أستطيع، وضعنا صعب جدا. أريد الاستسلام.

القيادة : إذا قررت الصمود فسنساعدك على قدر ما نستطيع.

قائد الحصن : هذا لا يكفي.

القيادة : هذه هي الشروط التي قدمناها إلى الصليب الأحمر.. الأمر يعود إليكم.

قائد الحصن : أخشى ألا أستطيع الصمود.. سأستسلم حسب الشروط التي وضعتموها. سنضطر إلى الافتراق. آمل أن أراك قريبا، سلامي إلى البيت.

القيادة : هل تريد شيئا ما؟

قائد الحصن : العودة إلى الوطن.

القيادة : هل حالتنا معروفة لك؟

قائد الحصن : أبدا.

القيادة : حالتنا جيدة. . لقد تم الأمر لأنه إلى حين نستطيع أن نصل إليكم سيكون ذلك متأخرا.

قائد الحصن : تقبلنا كل شيء بروح طيبة وإلا لكان يوجد هنا مسادة ثانية (مسادة قلعة يهودية مشهورة في التاريخ اليهودي القديم انتحر كل المحاربين فيها بعد حصارها ونتج عنها عقدة مسادة في الشخصية اليهودية).

القيادة : سنراكم على الشاشة مرفوعي الرأس. أعط توجيهات بأن تكون الرءوس مرفوعة وأن تكون هناك ابتسامة. . هل لديك ما تضيفه؟

قائد الحصن : إبلاغ الأسر وتعزية الآباء. إنهم ينقلون الجرحى والموتى، وقد وعدوا بالتصرف وفقا لاتفاقية جنيف.

وباستسلام حصن لسان بورتوفيق، انتهت من التاريخ أسطورة حصون خط بارليف إلى الأبد.

لماذا تأخرت إسرائيل في شن هجومها المضاد الرئيسي؟

بحلول الساعة الثامنة من صباح يوم الأحد ٧ أكتوبر كانت القوات المصرية قد حققت نجاحا حاسما في معركة القناة، فقد تمكنت من اقتحام أصعب مانع مائي في العالم، وقضت على أسطورة خط بارليف بعد أن سقطت معظم تحصيناته ونقطه القوية في يدها. وضربت الحصار حول الحصون الباقية، وقد تم ذلك في زمن لم يتجاوز ١٨ ساعة من بدء (ساعة س) وبخسائر لم يكن يتصورها أكثر المخططين تفاؤلا، فقد بلغت ٢٨٠ شهيدا و٥ طائرات و٢٠ دبابة، وكان مقدرا أن عملية العبور ستكلف قواتنا ٣٠ ألف ضابط وجندي منهم عشرة آلاف قتلى. وفي المقابل فقد العدو في معارك يوم ٦ وليلة ٧ أكتوبر ٣٠ طائرة ونحو ٢٠٠ دبابة وعدة مئات من القتلى والجرحى. .

وفي صباح يوم ٧ أكتوبر اتضح أن القوات المصرية قد قامت بتنفيذ الخطة بدر تنفيذا رائعا، فقد نجحت الفرق المشاة الخمس في العبور إلى الشاطئ الشرقي بكامل أسلحتها الثقيلة، وعبرت معها حوالي ٨٠٠ دبابة، في الوقت الذي دمرت فيه القوات الإسرائيلية المعدة لعملية صد الهجوم المصري، وهي اللواء ١١٦ مشاة «القدس» وثلاثة ألوية مدرعة تدميرا يكاد يكون كاملا. .

وكان عدم تمكن العدو من القيام بهجماته المضادة التعبوية طوال يومي ٦ و ٧ أكتوبر ضد القوات المصرية التي أنشأت خمسة رءوس كباري على الشاطئ الشرقي للقناة فيه الدلالة القاطعة على مدى المفاجأة الإستراتيجية التي حاقت بالعدو والتي أدت إلى تأخير وصول قواته الاحتياطية إلى أرض المعركة طوال هذه المدة. وكانت أفرع القيادة العامة المصرية قد اختلفت تقديراتها قبل المعركة حول الموعد المتوقع لقيام القوات الإسرائيلية الرئيسة التي كانت تتمثل في القوات الاحتياطية بشن هجومها المضاد الرئيسي على رءوس الكباري المصرية. فبينما قدرت هيئة العمليات الحربية أن هذا الموعد لن يتأخر عن ٢٤ ساعة من بدء تنفيذ الخطة «بدر» على أساس أن العدو رغم كل الإجراءات الخداعية التي اتبعت سوف يكتشف بلا شك الاستعدادات المصرية النهائية قبل بدء المعركة بثلاثة أيام على الأقل، كانت إدارة المخابرات الحربية قد بالغت في حذرها فقدرت أن العدو سوف يكتشف حتما النوايا الهجومية المصرية بمجرد بدء مرحلة العد التنازلي أي قبل ١٥ يوما من ساعة الهجوم مما سوف يتيح له الفرصة لاستدعاء قواته الاحتياطية وإتمام حشدها في أرض المعركة دون أي تدخل أو ضغط، ووفقا لهذا التقدير كان المتوقع أن يتمكن العدو من القيام بهجومه المضاد الرئيسي في خلال ٨ ساعات على أكثر تقدير من بدء الهجوم المصري. .

ولكن الواقع أثبت أن العدو قد خالف كل التقديرات المصرية. فعلى الرغم من أن نقاط المراقبة الأمامية الإسرائيلية قد رصدت وسجلت وصول معدات العبور الثقيلة والخفيفة وقوارب الاقتحام المصرية إلى قرب خط المياه وأبلغت ذلك على الفور لرئاستها الخلفية، وهي تحضيرات إلى جانب التحضيرات الهجومية الأخرى على جبهتي سيناء والجولان كانت قاطعة الدلالة على أن مصر وسوريا سوف تقومان بشن هجوم مشترك على إسرائيل في توقيت قريب، فإن المخابرات الإسرائيلية بتأثير ما رسخ في أذهان رجالها من الاستهانة بمقدرة العرب العسكرية أخطأت في التوصل إلى التقييم السليم لأنباء الاستطلاع، وتقارير المعلومات التي وصلتها، وأسهمت بتقديرها الخاطئ للموقف في تضليل المسئولين بالقيادتين السياسية والعسكرية، مما جعل إسرائيل تفاجأ بالحرب وكاد يعرضها لكارثة محققة. ولولا ذلك التحذير الخفي الذي أبلغ للمخابرات الإسرائيلية في الساعة الرابعة صباحا يوم ٦ أكتوبر، والذي نقلته المخابرات إلى القيادتين السياسية والعسكرية في إسرائيل قبل نشوب الحرب بعشر ساعات فقط لكانت الضربة العربية على جبهتي سيناء والجولان ساحقة ولكانت المفاجأة شديدة مذهلة.

ونتيجة لعدم قدرة العدو على القيام بهجومه المضاد الرئيسي المنتظر طوال يومي ٦ و ٧

أكتوبر واقتصار هجماته ضد رءوس الكباري على هجمات مضادة تكتيكية خلال ليلتي ٧ و ٨ أكتوبر اشتركت فيها الألوية المدرعة الثلاثة التي كانت تحت قيادة الجنرال ألبرت ماندلر والتي تم خلالها سحق معظم دباباتها، استفادت القوات المصرية التي عبرت من ذلك الموقف في إنجاز عدد من الأعمال المهمة. فعلى أثر انتهاء الدبابات والأسلحة الثقيلة والعربات المجنزرة من إتمام عبورها قامت الفرق المشاة الخمس بتوسيع رءوس الكباري وسد الثغرات فيما بينها وبين الفرق المجاورة داخل كل جيش، وبحلول صباح الاثنين ٨ أكتوبر كانت رءوس كباري الفرق الخمس قد أدمجت في رأسي كوبريي جيشين. وكان رأس كوبري الجيش الثاني يمتد من القنطرة شمالا إلى الدفرسوار جنوبا وكانت الدفرسوار داخلة في نطاق مسئولية الجيش الثاني. وكان رأس كوبري الجيش الثالث يمتد من البحيرات المرة شمالا حتى بورتوفيق جنوبا. وكان رأس كوبري كل جيش يصل في عمقه من ٨ إلى ١٠ كيلو مترات. ونتيجة لهذا الوضع أصبحت هناك ثغرة تفصل بين رأس كوبري الجيش الثاني ورأس كوبري الجيش الثالث كان طولها حوالي ٣٥ كم وتشمل معظم المسطح المائي للبحيرات المرة، وكانت مسئولية وقايتها موزعة بين الجيشين الثاني والثالث دون تحديد واضح لمدى هذه المسئولية. ولم يكن في مقدرة الجيش الثالث بالقوات التي تحت قيادته أن تمتد حدود مسئوليته لتغطي هذه المساحة الشاسعة من سطح البحيرة باعتباره مسئولا وفقا للمبادئ التكتيكية عن حماية نقط اتصاله مع جاره الأيسر (الجيش الثاني). وربما نشأ هذا الوضع على اعتبار أن البحيرات المرة تعد مانعا طبيعيا أمام العدو لا يمكنه اجتيازه، وعلى ذلك فلا داعي لتخصيص قوات معينة لحمايته، ولكن الموانع الطبيعية وفقا للمبادئ التكتيكية السليمة لا قيمة لها إذا لم تخصص قوات معينة بالذات لحمايتها وتغطيتها بشبكة من النيران وتعزيز الدفاع عنها بالموانع الصناعية كحقول الألغام والأسلاك الشائكة..

وقد دفعت القوات المصرية فيما بعد ثمنا باهظا لوجود هذه الثغرة بين رأسي كوبريي الجيشين الثاني والثالث دون تأمينها تأمينا كافيا. فلقد اكتشفت سرية استطلاع إسرائيلية من قوة القطاع الأوسط الذي كان يتولى قيادته الجنرال شارون بعد ظهر يوم ٩ أكتوبر خلو منطقة البحيرة المرة الكبرى من القوات المصرية، وأمكنها الوصول إلى خط المياه وقضاء الليل بأكمله على شاطئ البحيرة. وقد جاء في رواية إسحاق آجام قائد إحدى الفصائل في هذه السرية التي كان يتولى قيادتها رافي بارليف ـ وفقا لما ورد في المراجع الإسرائيلية ـ أن السرية المذكورة تمكنت في هذه الليلة من اكتشاف حدود سيطرة الجيش الثاني الجنوبية، وأنها تقدمت على الرمال إلى أن وصلت إلى البحيرة المرة الكبرى. وورد في روايته بعد

ذلك أن سرية الاستطلاع هذه هي التي قادت بعد أسبوع واحد فقط القوات الإسرائيلية التي عبرت في الدفرسوار وأقامت رأس كوبري غرب قناة السويس . .

ماذا جرى يوم ٦ أكتوبر على الجبهة الإسرائيلية؟

عندما نشبت الحرب في ٦ أكتوبر ١٩٧٣ كان الجنرال شموئيل جونين Shamuel Gonen يتولى قيادة المنطقة الجنوبية في مقرها بمدينة بئر السبع وكانت المنطقة الجنوبية تشمل القطاع الجنوبي من إسرائيل وصحراء النقب وشبه جزيرة سيناء . والنقب هي في الأصل صحراء رملية مقفرة توجد فيها بعض المستوطنات خاصة حول بئر السبع وعند ميناء إيلات على البحر الأحمر . وكان الجنرال جونين قد تسلم مسئولية القيادة الجنوبية في ١٥ يوليو عام ١٩٧٣ ، أي قبل حوالي ثلاثة أشهر من قيام الحرب ، خلفا للجنرال أريل شارون الذي كان قد أمضى أكثر من ثلاثة أعوام ونصف العام قائدا لهذه القيادة ، ثم تقاعد عن الخدمة العسكرية للعمل بالزراعة ، واشتغل بالسياسة بعد أن انضم إلى حزب الليكود .

وكان الجنرال جونين المعروف بالصرامة والعنف من مواليد القدس أي من جيل السابرا (الجيل الذي ولد أفراده في إسرائيل) . وقد أمضى السنوات المبكرة من عمره في معهد ديني عرف بتزمته . وفي حرب يونيو ١٩٦٧ كان الجنرال جونين يتولى قيادة اللواء السابع المدرع ، واشترك في سلسلة من العمليات الحربية عبر سيناء جعلت منه أحد القادة البارزين في القوات الإسرائيلية . وكان معروفا بانضباطه الشديد إلى الحد الذي كان يجعله يسلك في بعض الأحيان أسلوبا جافا في التعامل مع ضباطه ، ولكن الثقة التي كان يبعثها في رجاله كانت تدفعهم إلى أن يتبعوه في المعركة . وكان الجنود يعرفونه باسمه الأصلي جوروديش Gorodisch ، ويعاملونه بمزيج من الكراهية والاحترام .

وعلى خط المواجهة على قناة السويس ، كان الجنرال إبراهام ماندلر المعروف باسم «ألبرت» يتولى القيادة وكان يتمتع بشخصية محبوبة وجذابة ، واشتهر بأنه من أشد القادة انضباطا واتزانا في الجيش الإسرائيلي . لقد كان ألبرت الطويل القامة الأحمر الوجه ذو العينين الزرقاوين النافذتين والذي يناهز الخامسة والأربعين من عمره قد سبق له تولى قيادة اللواء المدرع الذي قام باختراق الدفاعات السورية المنيعة في مرتفعات الجولان في حرب يونيو ١٩٦٧ . ونظرا لأن الأوامر قد صدرت بتعيينه قائدا عاما لسلاح المدرعات ، فقد تقرر أن يحل محله في قيادته في سيناء الجنرال كلمان ماجن يوم الأحد ٧ أكتوبر ، وكان الجنرال ماجن قد وصل حديثا إلى إسرائيل بعد جولة دراسية في بريطانيا .

وكانت الجبهة الإسرائيلية على قناة السويس التي تمتد على مواجهة حوالي ١٦٠ كم مقسمة إلى ثلاثة قطاعات، تمثل المحاور الرئيسة للتقدم، وتتشكل قوتها من مجموعة عمليات (أوجدا) بقيادة الجنرال ألبرت ماندلر وتحت قيادته لواء مشاة وثلاثة ألوية مدرعة.

وكانت الخطة الإسرائيلية شوفاخ يونيم (برج الحمام) قائمة على أساس أن تتولى الألوية المدرعة مسئولية الدفاع مؤقتًا عن المحاور الثلاثة الرئيسة في سيناء إلى حين وصول الفرق الاحتياطية بالطريقة التالية:

لواء العقيد جابي يتولى مسئولية الدفاع عن محور القنطرة - العريش.

لواء العقيد آمنون يتولى مسئولية الدفاع عن محور الإسماعيلية - أبو عجيلة.

لواء العقيد دان يتولى مسئولية الدفاع عن محور السويس - الممران الجبليان متلا والجدي.

وكان الدفاع يتم في نسقين في الأمام واحتياط في الخلف، كما يلي:

- النسق الأول: خط بارليف، وكان يحتله اللواء ١١٦ «القدس». وهو لواء احتياط ضعيف التدريب ومعظم أفراده من مواطني مدينة القدس وكان تعداده حوالي ٥٠٠ مقاتل.

- النسق الثاني: على مسافة ٣ - ٥ كم من النسق الأول، ويتمركز على طرق الاقتراب المهمة والمحاور الرئيسة المؤدية إلى العمق، وتحتله ٣ كتائب مدفوعة إلى الأمام من الألوية المدرعة الثلاثة التي في الاحتياطي. وعند رفع درجة الاستعداد لتلقي الهجوم تندفع الدبابات التي تبلغ جملتها نحو ١٠٠ دبابة إلى الأمام لاحتلال المواقع السابق تجهيزها في الخط الثاني من النسق الأول (حوالي ٣٠٠ - ٥٠٠ متر خلف خط بارليف) لإغلاق الثغرات الموجودة بين الحصون، ولتدعيم الحصون ذاتها بدخول بعض الدبابات إلى داخلها في مرابض معدة لها من قبل.

- الاحتياطي: غرب منطقة الممرات الجبلية على بعد حوالي (٢٥ - ٣٠ كم) شرق القناة، ويتكون من ٣ ألوية مدرعة (عدا ٣ كتائب مدرعة مدفوعة للأمام في النسق الثاني) وتبلغ جملة دباباته حوالي ٢٠٠ دبابة. وعند رفع درجة الاستعداد تندفع الألوية المدرعة الثلاثة التي في الاحتياط إلى الأمام لاحتلال مواقع النسق الثاني استعدادًا لشن الهجمات المضادة التكتيكية على القوات المصرية التي تنجح في عملية عبور القناة.

وفي صباح يوم ٦ أكتوبر، وعقب سلسلة الاجتماعات التي عقدها الجنرال دافيد أليعازر رئيس الأركان مع القيادة السياسية ومع هيئة الأركان العامة في تل أبيب، وصل الجنرال جونين بعد استدعائه من مقر قيادته في الجنوب، وحضر اجتماعا في رئاسة الأركان العامة تلقى فيه تعليمات الجنرال أليعازر التي كانت تقضي بتأهب القوات الإسرائيلية في سيناء استعدادا لتلقي الهجوم المصري المرتقب في الساعة السادسة مساء، وأن تستعد القوات لامتصاص القصف والقيام بعملية الصد. وبعد الهجوم المضاد وانكسار الهجوم المصري تقوم القوات الإسرائيلية بعبور قناة السويس إلى الغرب وإنشاء رأس كوبري وفقا للخطط الموضوعة من قبل.

ومن رئاسة الأركان العامة في تل أبيب، بادر الجنرال جونين بالاتصال هاتفيا بالجنرال ألبرت ماندلر في مقر قيادته بسيناء، وأبلغه أنه قد صدرت الأوامر بتعبئة الاحتياطي، وأن هجوما عربيا على جبهتي القناة والجولان سوف يبدأ في الساعة السادسة مساء، وكانت تعليمات جونين إلى ماندلر تقضي بسرعة إبلاغ جميع الوحدات والمواقع بالاستعداد لامتصاص الضرب، وألا تتحرك الدبابات إلى مواقعها الأمامية إلا في الساعة الخامسة مساء، حتى لا يرى المصريون من وراء سواترهم حركة الدبابات مما يتيح لهم الفرصة لتغيير أوضاع نيران مدفعيتهم، وحتى لا يكون لديهم إنذار بأن القوات الإسرائيلية قد رفعت درجة الاستعداد مع مراعاة الاحتراس من تصعيد الموقف، إذ ربما لا يكون في نية المصريين القتال. واعترض ماندلر على تأخير تحرك الدبابات حتى الساعة الخامسة مساء، إذ إن الخطة الدفاعية «شوفاخ يونيم» كانت تتطلب توافر ساعتين على الأقل لتنفيذها، واقتنع جونين بوجهة نظره، ووافق على أن تتحرك الدبابات للأمام في الساعة الرابعة مساء لاحتلال المواقع المحددة لها وفقا للخطة.

وبناء على الأوامر التي أصدرها الجنرال ماندلر في الساعة الواحدة ظهرا إلى قواته في سيناء، استعدت القوات التي في داخل حصون خط بارليف لامتصاص الضرب، وكان هذا يعني إرسال الأفراد الذين ليسوا في مهام قتالية إلى المؤخرة وارتداء الأفراد الأردية الواقية والخوذات الصلبة وإخلاء العتاد الزائد من الأراضي المكشوفة والاستعداد لتلقي القصف داخل الملاجئ كما كان الحال يجري في أثناء حرب الاستنزاف.

وفي الوقت نفسه، استعدت القوات المدرعة التي في النسق الثاني وفي الاحتياطي للتحرك في الساعة الرابعة مساء لاحتلال مواقعها الأمامية للاشتراك في صد الهجوم المصري المنتظر وللقيام بالهجمات المضادة المحلية. ولكن تحريك الدبابات للأمام لم يتم

تنفيذه في التوقيت المحدد. ففي الساعة الثانية ظهرا سمع الجنرال ماندلر وضباط مركز قيادته فجأة هدير الطائرات، وعندما تطلعوا إلى أعلى شاهدوا طائرات ميج وسوخوى مصرية تهاجم مطار المليز، وأدركوا أن الحرب قد بدأت قبل أربع ساعات من الموعد الذي تم إخطارهم به.

وفي اللحظة التي دخل فيها الجنرال ماندلر إلى المخبأ في قيادته في منطقة بير جفجافا كان الجنرال جونين قد وصل إلى مكتبه في مقر قيادته ببئر السبع، ولم يكن قد عرف بعد أن الحرب قد اندلعت، ولكنه بدافع الحرص والحذر اتصل هاتفيا بالجنرال ماندلر لتعديل أمره السابق. وصاح جونين في الهاتف: «ألبرت.. ينبغي تحريك الدبابات إلى الأمام الآن وعدم الانتظار إلى الساعة الرابعة مساء». ورد عليه ماندلر في الحال ساخرا: «نعم ينبغي فإنهم يقصفون مطار المليز الآن». وأجرى ماندلر اتصالا لاسلكيا على الفور بقادة ألوية الدبابات الثلاثة للإسراع بتحريك دباباتهم إلى الأمام لمواجهة العبور المصري للقناة. وقد أثبتت التحقيقات التي أجريت بعد الحرب لتحديد مسئولية التقصير الذي وقع على الجبهة في سيناء أن الأوامر الصادرة إلى حصون خط بارليف بالتحذير من الهجوم وامتصاص الضرب لم تصل إلى الجميع. فقد أكد أفراد بعض الحصون أنهم لم يتلقوا هذه الأوامر واستمروا في تصرفاتهم اليومية المعتادة، وفوجئوا مفاجأة تامة بالهجوم المصري إلى الحد الذي جعل أحد المهندسين الإسرائيليين «شيمون تال» الذي أرسل لإصلاح تجهيزات إشعال اللهب في القناة يفاجأ بقصف المدفعية ثم برجال الصاعقة المصريين يقفون فوق رأسه حيث وقع في الأسر، كما أن جنود بعض الدشم كانوا خارجها وهم يرتدون المايوهات عند بدء القصف المدفعي المصري.

ولقد كان أكبر الأخطاء التي وقعت على الجانب الإسرائيلي يوم ٦ أكتوبر هو ذلك الأمر الذي أصدره الجنرال جونين إلى الجنرال ماندلر بعدم تحريك الدبابات إلا قبل موعد الهجوم المنتظر بساعتين، وقد استند هذا الأمر على الافتراض بأنه ليس هناك أي احتمال للشك في أن الهجوم سيبدأ في الساعة المحددة بالضبط وفقا للمعلومات التي وردت من المخابرات الإسرائيلية، ومن هنا ارتبطت جميع إجراءات الاستعداد بالساعة السادسة مساء، ولم يحاول أحد من قادة إسرائيل على جميع المستويات الافتراض بأن هذا الموعد قد يكون غير صحيح أو قد قصد به التضليل والخداع. وقد جرى ذلك التصرف من جونين رغم أن الجيش الإسرائيلي سبق له القيام بمناورة عام ١٩٦٩ على مستوى رئاسة الأركان العامة، وقد قدر في هذه المناورة أن أفضل موعد بالنسبة للمصريين لبدء عملية العبور هو

في الفترة ما بين الساعة الثانية والساعة الثالثة بعد الظهر إذ إنها أكثر الأوقات ملاءمة لهذه العملية، لأنها تترك للمصريين عدة ساعات قبل غروب الشمس، وفي نفس الوقت لا تعرضهم مدة طويلة لغارات الطيران الإسرائيلي.

ولقد ترتب على هذا الخطأ التكتيكي الفادح عدم انضمام حوالي ١٠٠ دبابة مسلحة كل منها بمدفع ١٠٥ مم وبرشاشين ثقيلين، وكانت تحتل خط النسق الثاني، إلى قوة اللواء ١١٦ احتياط الضعيف القوة والتسليح، الذي كان يحتل حصون خط بارليف والذي واجه وحده في الساعة العصيبة الحاسمة من مرحلة العبور أقوى قصفة من التمهيد النيراني التي استمرت لمدة ١٥ دقيقة، كما تلقى في نفس الوقت آلافًا من طلقات مدفعية الضرب المباشر من مرابضها الحصينة على الشاطئ الغربي للقناة، ولم تكد المدفعية تنقل قصفها إلى العمق حتى فوجئ أفراد الحصون بمئات من قوارب الاقتحام، وهي تنقل أفراد المشاة المصريين عبر القناة إلى الشاطئ الشرقي لها، ووجد أفراد الحصون الإسرائيليون أنفسهم وسط طوفان من أمواج العبور المصرية المتدفقة. وكان عدم تحريك الدبابات الإسرائيلية إلى مواقعها الأمامية في النسقين الأول والثاني وفقا للخطة الموضوعة من قبل عاملا مهما في هذا النجاح الباهر والسريع الذي صادفته عملية العبور يوم ٦ أكتوبر، وفي تقليل الخسائر المصرية إلى الحد الذي لم يكن أحد يتخيله. وكان عدم تحريك الدبابات الإسرائيلية إلى الأمام يرجع مباشرة إلى الأوامر الصارمة التي أصدرها الجنرال جونين قائد القيادة الجنوبية من مركز قيادته ببئر السبع إلى الجنرال ألبرت ماندلر في سيناء بألا تتحرك الدبابات قبل الساعة الرابعة مساء يوم ٦ أكتوبر.

وقد حمّلت لجنة تقصي الحقائق التي شكلتها الحكومة الإسرائيلية بعد وقف القتال برئاسة القاضي شمعون إجرانات رئيس المحكمة العليا، الجنرال جونين مسئولية التقصير الذي وقع على الجبهة المصرية، وأوصت بإعفائه من منصبه، وعدم إسناد أي منصب قيادي له في الجيش الإسرائيلي. فقد ورد في تقرير اللجنة أنه «في يوم الحرب وفي الأيام التي سبقتها لم يقم بشغل وظيفته كما يجب، كما أنه يتحمل قسطا كبيرا من المسئولية عن الوضع الخطير الذي واجه القوات الإسرائيلية في الحرب في يوم الغفران عندما هاجم العدو المصري المواقع الإسرائيلية».

وعندما أصدر الجنرال باني بيليد قائد السلاح الجوي الإسرائيلي في الساعة الثانية والنصف بعد الظهر أوامره إلى طائراته بمحاولة منع عبور المصريين قناة السويس بأي ثمن، اضطرت كثير من الطائرات التي كانت محملة بالصواريخ استعدادا للقيام بضربة

الإجهاض ضد التحضيرات الهجومية المصرية والسورية بمجرد صدور الأوامر بذلك - إلى إلقاء ذخيرتها في البحر لكي يمكنها القيام بالمهمة الاعتراضية الجديدة التي ألقيت على عاتقها. وكانت المهمة صعبة، فقد تداخل الجنود المصريون بين المواقع الإسرائيلية وأصبح من الصعب التمييز بين الفريقين. وخلال ساعتين فقط خرجت حوالي ٢٠٠ طلعة طيران إلى قناة السويس وإلى الأدبية والزعفرانة على خليج السويس. ونظرا لأن اهتمام الطائرات كان مركزا على عرقلة عملية العبور لذا لم تحاول الطائرات التعامل مع بطاريات الصواريخ سام ٢ وسام ٣ المنتشرة على الجانب الغربي للقناة، وانحصرت إغاراتها على فرق المشاة المصرية الخمس التي كانت تشكيلاتها ووحداتها مستمرة في عبور القناة في إصرار وبدون توقف، وفقد الطيران الإسرائيلي في هذه الطلعات ٥ طائرات سكاي هوك وطائرة فانتوم واحدة.

ولم تستطع طائراته رغم هجماتها المتتابعة تدمير أي معبر من المعابر، التي انهمك المهندسون المصريون في إنشائها بشجاعة نادرة.

دور الدفاع الجوي في مرحلة اقتحام القناة

أدت قوات الدفاع الجوي دوراً رئيسًا في منع الطائرات الإسرائيلية من اكتشاف التحضيرات الهجومية المصرية الضخمة على الجانب الغربي للقناة قبل بدء الهجوم في ٦ أكتوبر عام ٧٣. وكان لإسقاط الصواريخ أرض جو (سام) يوم ١٧ سبتمبر عام ٧١ لأغلى طائرة استطلاع إلكتروني إسرائيلية من طراز «إستراتو كروزو» في سيناء ومصرع جميع ركابها وكانوا نخبة من العلماء والمتخصصين في الحرب الإلكترونية رد فعل عنيف في إسرائيل، وبالإضافة إلى ذلك أدت عمليات نصب كمائن من بطاريات الصواريخ خلال ساعات الظلام على الشاطئ الغربي للقناة وهي التي نجحت في إسقاط عدد كبير من الطائرات الإسرائيلية إلى تمكن قوات الدفاع الجوي من مد سيطرتها على المجال الجوي إلى شرق القناة وحرمان إسرائيل من عمليات الاستطلاع الجوي التي تعد أحسن مصدر للمعلومات، كما ساعد على ردعها عن التفكير في توجيه ضربة إجهاض ضد التحضيرات المصرية للهجوم. إلا أن التحدي الأكبر الذي واجهه الدفاع الجوي المصري عند بدء عملية العبور يوم ٦ أكتوبر كان هو منع الطائرات الإسرائيلية من تدمير الكباري والمعابر التي أخذت وحدات المهندسين العسكريين في إقامتها عبر القناة في القطاعات المحددة لعبور فرق المشاة الخمس بدباباتها ومركباتها وأسلحتها الثقيلة من الغرب إلى

الشرق. إذ إن تدميرها كان يعني فشل العملية بأكملها. وكان من المؤكد أن العدو سيعمل على تركيز معظم مجهوده الجوي في الساعات الأولى من المعركة لمنع إقامة هذه الكباري وتدمير ما يتم إنشاؤه منها. وعلاوة على نظام الدفاع الجوي المتكامل الذي قامت قيادة الدفاع الجوي بإنشائه لتوفير الغطاء الجوي اللازم للأهداف الحيوية على مستوى مصر بأكملها، والذي كان من ضمنه إقامة شبكة الصواريخ الشهيرة على جبهة قناة السويس، وضع اللواء محمد علي فهمي قائد قوات الدفاع الجوي خطة خاصة منفصلة لحماية عملية العبور الضخمة وتغطية أعمال إقامة الكباري والمعابر على طول قناة السويس. وعندما أصدر الجنرال باني بيليد قائد السلاح الجوي الإسرائيلي في الساعة الثانية والنصف بعد الظهر يوم ٦ أكتوبر أوامره إلى طائراته بمحاولة منع عبور المصريين قناة السويس بأي ثمن، جاءت الطائرات الإسرائيلية في التوقيت الذي توقعته قيادة الدفاع الجوي تمامًا. ففي الساعة الثانية وأربعين دقيقة أخذت أسراب الطائرات المعادية من طراز فانتوم وسكاي هوك في أفواج متتابعة في شن هجماتها على ارتفاعات متوسطة ومنخفضة ضد وحدات المهندسين القائمة بإنشاء المعابر على طول القناة وضد القوات المصرية التي عبرت إلى الشاطئ الشرقي أو كانت في طريقها إليه، وتصدت قوات الدفاع الجوي في الحال للطائرات المغيرة على ارتفاعاتها المختلفة مستخدمة صواريخ أرض جو سام ٢ وسام ٣ وسام ٦ (ذاتي الحركة) وصواريخ الكتف سام ٧ (ستريلا) وكذا نيران المدافع المضادة للطائرات من عيار ٢٣ مم ثنائية المواسير ورباعية المواسير (شيلكا) مما أرغم الطائرات الإسرائيلية على الانسحاب في اتجاه الشرق بعد ما منيت به من خسائر دون أن تستطيع تحقيق هدفها، وهو منع أو عرقلة عملية عبور القوات المصرية لقناة السويس. وفي حوالي الساعة الخامسة مساء التقطت أجهزة التنصت المصرية إشارة لاسلكية مفتوحة باللغة العبرية كانت تحمل أوامر الجنرال بيليد قائد القوات الإسرائيلية إلى طياريه بتحاشي الاقتراب من القناة لمسافة تقل عن ١٥ كم شرقًا.

تدفق القوات الاحتياطية على سيناء

في حوالي الساعة الثانية والنصف ظهرا يوم ٦ أكتوبر، انطلقت صفارات الإنذار في تل أبيب وعرف الشعب الإسرائيلي عن يقين أن الحرب قد نشبت. وفي حوالي الساعة الثالثة مساء أذاع متحدث عسكري إسرائيلي على الشعب البيان التالي: «ابتداء من الساعة ١٤٠٠ تهاجم القوات المصرية والسورية سيناء وهضبة الجولان في الجو والبر، وبعد سلسلة من الغارات الجوية على مواقعنا ومعسكرات قواتنا، بدأت القوات المترجلة في

هجوم بري، وقد عبرت قوات مصرية قناة السويس في عدة أماكن، وبدأت قوات سورية في هجوم مدرعات ومشاة على طول الخط في هضبة الجولان. وتعمل قوات جيش الدفاع الإسرائيلي ضد المهاجمين، وتجرى في المنطقتين معارك في الجو والبر». ولم يجزع المواطنون الإسرائيليون من أنباء الحرب، فقد كان الجميع يتوقعون انتصارا عسكريا سهلا على العرب في خلال بضعة أيام كما كان الحال يجرى في كل حروبهم السابقة. وفي الساعة الرابعة مساء التقى موشى ديان وزير الدفاع بالصحفيين وقال لهم: «غدا مساء يصل الاحتياطي إلى الخط. سوف تبدأ الحرب الحقيقية، وسنحول المنطقة إلى مقبرة كبرى لهم». ومن قاعة دار سوكولوف التي شهدت المؤتمرات الصحفية الخاصة بأنباء الانتصارات الإسرائيلية الباهرة في حرب يونيو ٦٧، أعلن ديان مساء ٦ أكتوبر ٧٣ في مؤتمر صحفي: «سوف يدحر جيش الدفاع الإسرائيلي المصريين في سيناء بضربة شديدة، وسوف ينتهي القتال بانتصارنا في الأيام القادمة». ومنذ اللحظة التي بدأ فيها عبور القوات المصرية قناة السويس أصبح واضحا أن الجيش الإسرائيلي يعاني عجزا شديدا في المدفعية، إذ كانت أكثر من نصف بطاريات المدافع موجودة شرق خط المضايق في عمق سيناء، ولم تكن في قدرة البطاريات الأمامية تغطية الأهداف الكثيرة التي تواجهها. وتسبب النقص الكبير في المدفعية والهاونات في زيادة الأعباء الملقاة على عاتق القوات الإسرائيلية الأمامية، وفي صعوبة مهمتها في صد هذا الطوفان الهائل من المشاة المصريين الذين كانوا يتبعون أسلوبا تكتيكيا بارعا، فقد انصرفت قلة منهم إلى مهاجمة الحصون وضرب الحصار حولها، بينما اندفع الباقون بين الثغرات الفاصلة بينها إلى داخل سيناء لتحقيق المهمة المباشرة المكلفين بها وهي إنشاء مناطق رءوس الكباري.

وكان النقص في المدفعية الذي كلف القوات الإسرائيلية ثمنا باهظًا وخاصة في المراحل الأولى من القتال يرجع إلى السياسة الخاطئة التي اتبعتها إسرائيل عقب انتصاراتها السهلة في حربي عامي ٥٦ و ٦٧ بفضل قواتها الجوية وقواتها المدرعة. فقد تركز الاهتمام بهذين السلاحين إلى حد إهمال باقي الأسلحة الأخرى. ومنذ انتهاء حرب يونيو ٦٧ أصبح إلحاح إسرائيل على الولايات المتحدة شديدا من أجل الحصول على أحدث وأسرع أنواع الطائرات والدبابات، كما خصص قسم كبير من الإنتاج المحلي لتحسين الوحدات المدرعة والطائرات التي تملكها إسرائيل، في الوقت الذي أبدى فيه الإسرائيليون اهتماما قليلا بالمدافع، وكادوا يهملون دور المشاة إهمالا تاما.

ولم يكد عبور القوات المصرية القناة يبدأ وتتلقي الدبابات الإسرائيلية أمر الجنرال ماندلر بالتحرك إلى الأمام، حتى اندفعت الدبابات في اتجاه القناة بسرعة فائقة، وكان أفراد أطقمها على ثقة تامة - قياسا على تجاربهم في الحروب السابقة - من أن دباباتهم سوف تكنس المشاة المصريين بسهولة تامة وتشتت شملهم وترغمهم على الفرار، وأنهم سيحصدونهم برشاشاتهم حصدا. ولكن المفاجأة أذهلتهم، فقد ثبت المشاة المصريون في مواقعهم دون أن تروعهم الدبابات كما كان يحدث في الماضي، وعلى العكس أخذوا يطلقون من مسافات قصيرة على الدبابات الإسرائيلية قذائف البازوكا آر بي جي ٧، ومن مسافات أطول صواريخ ساجر (مالوتكا) التى تتكون وحدتها من جنديين اثنين، أحدهما يثبت الصواريخ ويشد الأسلاك ويوصل الصمامات Plugs، والثاني الذي يبعد عنه مسافة قريبة يقوم بتوجيه الصاروخ إلى هدفه بمساعدة جهاز التوجيه. وقد ألحقت هذه الصواريخ بنوعيها بالدبابات الإسرائيلية خسائر فادحة. وقد واجهت الدبابات الإسرائيلية صعابا عديدة في قتال المشاة المصريين بسبب النقص الخطير في عدد المدافع والهاونات. وعلاوة على ذلك كانت رشاشات الدبابات غير مؤثرة عند الاشتباك مع أفراد المشاة المصريين الذين كانوا يطلقون صواريخ المالوتكا على الدبابات من مسافات بعيدة. ولم تكن الدبابات الإسرائيلية مزودة بدانات شديدة الانفجار لكي يمكن إطلاقها ضد أفراد المشاة المصريين وخاصة ضد جماعات اقتناص الدبابات بقصد إسكاتهم. وكانت ذخيرتها مقتصرة على الدانات الخارقة للدروع Armour Piercing المخصصة لقتال المدرعات، وكان من الإسراف الشديد بالطبع استخدامها ضد أفراد المشاة بالإضافة إلى أن تأثيرها فيهم لم يكن مجديا من الناحية العملية. وإزاء الخسائر الجسيمة في الدبابات الإسرائيلية أصدر الجنرال جونين أوامره قبل الغروب يوم ٦ أكتوبر إلى قادة وحدات الدبابات بتجنب الاقتراب من المشاة المصريين، وأن يراعى إطلاق نيران رشاشاتهم عليهم من مسافات بعيدة. وقد أدى التأخير في تقدم الدبابات من مواقعها في الخلف إلى الأمام بسبب أوامر الجنرال جونين - كما سبق أن أوضحنا - إلى استخدامها بأسلوب تكتيكي خاطئ، فبدلا من دخولها كقوة مركزة وكقبضة اليد، وهو الأسلوب الصحيح في استخدام الدبابات، انتشرت القوة، واستخدمت في مجموعات صغيرة ودخلت المعركة في تشكيل سرايا مما ساعد على سرعة تدميرها وسحقها، سواء بواسطة جماعات اقتناص الدبابات التي عبرت إلى الشاطئ الشرقي فور بدء التمهيد النيراني للمدفعية، واحتلت بعض المصاطب المعدة أصلا للدبابات الإسرائيلية، وأمطرتها بصواريخها لمنعها من التدخل في عمليات عبور القوات المصرية، أو بتأثير النيران الكثيفة الدقيقة التصويب التي انهمرت من الدبابات المصرية والمدافع والصواريخ المضادة للدبابات المصرية الرابضة على قمة الساتر الرملي على الضفة الغربية للقناة.

وبعد أن تأكد الجنرال جونين من أن شبكة الاتصالات بين قيادتيه الأمامية والرئيسة تعمل بكفاءة، انتقل من مركز قيادته الرئيسى في بئر السبع إلى مركز قيادته المتقدم في منطقة أم مرجم بالقرب من مطار المليز عند منتصف ليلة ٦/ ٧ أكتوبر. وفور أن تمكنت الفرق المشاة الخمس التي عبرت من إنشاء مناطق رءوس الكباري، كانت حصون خط بارليف قد فقدت تماما قيمتها الدفاعية.

وطوال ليلة ٦/ ٧ أكتوبر انهمكت المجموعات المدرعة التي أخرجتها قادة الألوية في القيام ببعض الهجمات المضادة المحلية ضد رءوس الكباري المصرية، وكذا في عمليات قاسية ومريرة من أجل الوصول إلى بعض حصون خط بارليف. وقد نجحت بعض هذه المجموعات في عمليات الإنقاذ، ولكن بعد أن تكبدت خسائر فادحة، كما نجحت حاميات بعض الحصون في النجاة بأنفسها بمجهوداتها الخاصة والوصول إلى المواقع الإسرائيلية. ولكن بعض الحصون تحت وطأة الهجمات المصرية العنيفة لم تجد أمامها بدا من التسليم ووقع أفرادها أسرى في أيدي القوات المصرية. وفي القطاع الجنوبي دبر العقيد دان قائد اللواء المدرع عملية إخلاء مشتركة لحصن «ليتوف» الذي يقع على الطرف الجنوبي للبحيرة المرة الصغرى تشترك فيها الدبابات والمدفعية، وكان المفترض من رجال الموقع اختراق الحصار تحت هذا الغطاء، ولكن رجال الحصن تاهوا، وبدلا من الاتجاه إلى المكان الذي كانت تنتظرهم فيه وحدة الإنقاذ المدرعة الإسرائيلية اتجهوا إلى الاتجاه المعاكس ووصلوا إلى وحدة مدرعة مصرية وسقطوا جميعا في الأسر.

وكان قادة الألوية المدرعة في أشد حالات التذمر بسبب تكليفهم بواجبين متعارضين في وقت واحد، ولذا أجروا أكثر من مرة اتصالاتهم مع قائدهم الجنرال ألبرت ماندلر راجين منه تقدير الموقف ثانية، وقائلين له: «إما أن ندافع عن الحصون وإما أن نصد الهجوم المصري، إذ لا يمكن لنا القيام بالأمرين معا». وأجابهم ألبرت بأنه لا مفر من تنفيذ المهمتين، وبأنه ليس من صلاحيته إصدار الأوامر بإخلاء الحصون. ولم يكن أحد من كبار القادة الإسرائيليين يجرؤ على إصدار الأمر بإخلائها، إذ إن ذلك كان يعني في نظرهم الانسحاب وترك القتلى والجرحى في صفوف العدو وتحت رحمته مما يخالف أعراف وتقاليد الجيش الإسرائيلي التي درج عليها منذ حرب عام ١٩٤٨. ونتيجة لهذا الموقف العصيب، فقد كل من الألوية المدرعة الثلاثة خلال المعارك نحو ثلثي دباباته. وفي صباح يوم الأحد ٧ أكتوبر كان عدد الدبابات في كل لواء لا يزيد على ٣٠ دبابة من أصل ١٠٠ دبابة بدأ بها القتال في الساعة الثانية بعد ظهر يوم ٦ أكتوبر. وعلاوة على ذلك تم

للقوات المصرية سحق اللواء ١١٦ «القدس» الذي كان يتولى الدفاع عن خط بارليف سحقا تاما.

وقبل ظهر يوم الأحد ٧ أكتوبر، تم وصول قادة الفرق المدرعة الاحتياطية من إسرائيل إلى مقر قيادة الجبهة الجنوبية في سيناء. وبناء على تعليمات الجنرال شموئيل جونين تحولت القطاعات الثلاثة على خط المواجهة من قطاعات ألوية إلى قطاعات فرق، وتولى الجنرال إبراهام أدان قيادة القطاع الشمالي والجنرال أريل شارون قيادة القطاع الأوسط. أما الجنرال ألبرت ماندلر الذي كان يتولى القيادة العامة لقوات سيناء قبل الحرب وفي يومها الأول، فقد تولى قيادة القطاع الجنوبي. وكان الجنرال ماندلر قد صدر الأمر قبل الحرب مباشرة بتعيينه قائداً عاماً لسلاح المدرعات. وجاء الجنرال كلمان ماجن إلى سيناء لكي يستلم منه منصبه يوم ٧ أكتوبر وكأنما كان ماندلر يتوقع مصيره عندما أبدى تشاؤمه لضباط فرقته المدرعة في الحفل الذي أقاموه لتكريمه يوم ٤ أكتوبر، فقد قال لهم: «هذه حفلة وداع، ولكني أعرف أنني لن أغادر سيناء.. سوف تنشب الحرب». وبالفعل صدقت نبوءته فقد نشبت الحرب قبل يوم واحد فقط من تسليمه قيادته إلى الجنرال ماجن، كما أنه لم يغادر سيناء إلا جثة هامدة، فقد صرعته قذيفة مصرية صباح يوم ١٣ أكتوبر عندما كان يستقل مركبة قيادته المدرعة ويقوم باستطلاعه بالقرب من أحد مراكز المراقبة في الخط الأمامي من قطاعه. ومن العجيب أن الجنرال ماجن الذي جاء قبل الحرب لكي يحل محله في قيادة قوات سيناء وصدر الأمر له بالانضمام إلى قيادة القطاع الشمالي بمجرد نشوب الحرب، هو الذي خلف ماندلر بعد مصرعه في قيادة القطاع الجنوبي.

وعلى الرغم من وصول قادة الفرق الاحتياطية إلى الجبهة، فإن الفرق الاحتياطية ذاتها كانت ما تزال متقدمة على جميع الطرق الرئيسة في اتجاه جبهة القتال في سيناء، وقد استغرق وصولها بضعة أيام نظراً لطول المسافة بين مراكز تجميع وحدات الاحتياطي في منطقة بئر السبع بالنقب وبين قناة السويس التي كانت تبلغ حوالي ٢٥٠ كم. ونظراً لخطورة الموقف على جبهة القناة بالنسبة للنجاح المصري الساحق في عملية اقتحام القناة واجتياح خط بارليف، فقد اضطر الجنرال جونين إلى العمل على سرعة وصول قوات الاحتياطي إلى الجبهة. وعندما علم أن بعض الوحدات المدرعة الاحتياطية قد تعطلت في بئر السبع لعدم توافر ناقلات للدبابات Transporters أمر بتحركها إلى الجبهة على جنازير الدبابات مع ما في ذلك من إهدار لساعات عمل محركاتها واستهلاك لجنازيرها وحاجتها إلى كميات كبيرة من الوقود. وكان من الطبيعي حدوث بعض أعطال في الطريق، فتوقفت بعض الدبابات

وسقطت جنازير دبابات أخرى، مما أدى إلى سد محاور التقدم وحدوث تأخير في وصول بعض الوحدات إلى ميدان المعركة، واستمر تدفق قوات الاحتياطي على الجبهة المصرية عدة أيام وامتلأت الطرق في شمال سيناء بآلاف المركبات والدبابات وحاملات الجنود المدرعة، وكذا بالقوافل الإدارية التي كانت تحمل الوقود والذخائر والمؤن.

ولو كانت القيادة المصرية قد خططت من قبل لضرب هذه المركبات الحربية والقوافل الإدارية الإسرائيلية في أثناء اجتيازها الطرق الصحراوية الطويلة المكشوفة بواسطة الطائرات المصرية عند دخولها في مدى عملها لكانت قد أوقعت بها خسائر فادحة خاصة وأن معظم هذه المركبات كانت ملزمة بالسير على الطرق المرصوفة، ولم يكن في مقدرتها الانتشار خارج هذه الطرق لتقليل الخسائر عند مواجهة الهجمات الجوية نظرا لنعومة الرمال وتهايلها في معظم المناطق في شمال سيناء. ولو كان ذلك التخطيط قد تم لتعطّل وصول الوحدات المدرعة الاحتياطية وقوافل الإمدادات والمؤن إلى الجبهة الإسرائيلية في سيناء تعطيلا كان سيؤثر بلا شك على سير المعارك. هذا ولم يحدث أي تدخل مصري لعرقلة وصول قوات الاحتياطي الإسرائيلية إلى جبهة القتال إلا بواسطة رجال الصاعقة المصريين الذين نقلوا إلى عمق سيناء عن طريق طائرات الهيليكوبتر. وكان من ضمن عمليات الصاعقة المهمة عملية قامت بها سرية من الكتيبة ١٨٣ صاعقة، فقد قامت بإعداد كمين على الطريق الشمالي القادم من العريش عند مشارف «رمانة» التي تقع على مسافة حوالي ٣٠ كم من قناة السويس على اعتبار أنها المكان الذي تتم فيه عملية إنزال الدبابات من فوق الناقلات لكي تنطلق الدبابات منه على جنازيرها إلى مواقعها المحددة في الجبهة.

وفي الساعة السابعة صباحًا يوم ٧ أكتوبر، وعندما وصل اللواء المدرع بقيادة العقيد نيتكا Natka التابع للفرقة المدرعة الاحتياطية التي يتولى قيادتها الجنرال أدان إلى رمانة، وبدأ الجنود الإسرائيليون في إنزال الدبابات من فوق الناقلات - انهالت عليهم فجأة نيران البازوكات آر بي جي ٧ وصواريخ المالوتكا من وراء الشجيرات على جانبي الطريق من أفراد الكمين المصري. ووفقا لما ورد في المراجع الإسرائيلية، أصيبت دبابتان وعربة مدرعة وقتل ستة جنود وجرح ١٤. وهاجمت كتيبة المقدم عساف ياجوري المدرعة رجال الصاعقة المصريين واشتبكت معهم في قتال عنيف لمدة تزيد على الساعة في التلال المحيطة بالمنطقة. وداست الدبابات بجنازيرها فوق الكثيرين منهم. وقد نجحت هذه العملية الانتحارية الجريئة التي كلفت رجال الصاعقة ٧٥ شهيداً وعدداً من الجرحى في تعطيل تقدم القوات الاحتياطية الإسرائيلية لبضع ساعات.

ولقد تم وصول قوات الاحتياطي الإسرائيلية على مراحل وبطريقة تدريجية إلى جبهة سيناء بسبب الظروف العديدة في تل أبيب التي أدت إلى تعطيل عملية استدعاء الاحتياطي من جهة، ونظرًا لقرار رئيس الأركان العامة بتوجيه الوحدات الاحتياطية الأولى من القوات المدرعة إلى جبهة الجولان في الشمال على الفور، بسبب خطورة الوضع على الجبهة السورية بالنسبة لقربها الشديد من المراكز ذات الكثافة السكانية من جهة أخرى. وقد بنيت الإستراتيجية الإسرائيلية على أساس أن تتولى وحدات الجيش النظامي عملية الصد ووقف تقدم العدو إلى حين وصول قوات الاحتياطي التي تعتبر القوة الرئيسة في الجيش الإسرائيلي. وفور إتمام وصول القوات المدرعة الإحتياطية، تقوم قيادة الجبهة على الفور بشن هجماتها المضادة على المستوى التعبوي ثم بعد ذلك على المستوى الإستراتيجي إذا تطلب الموقف وفقًا للخطط الموضوعة من قبل. إلا أن هذه السياسة الإستراتيجية المرسومة لم يكن في الإمكان تنفيذها في المرحلة الأولى من حرب أكتوبر، فإن القوات النظامية الوحيدة التي حاولت القيام بعملية الصد ووقف التقدم المصري، وهي ألوية جابي وآمنون ودان المدرعة تحت قيادة الجنرال ماندلر، قد أصيبت بخسائر فادحة، كما أن الوحدات الاحتياطية تأخرت في الوصول إلى جبهة القتال وكان وصولها على مراحل وبطريقة تدريجية، مما أرغم الجنرال جونين على تأخير قيامه بشن الهجوم المضاد التعبوي الذي كانت القيادة المصرية تتوقع حدوثه قبل ظهر يوم ٧ أكتوبر على أكثر تقدير. ونتيجة للوضع المتحرج على الجبهة المصرية، اضطر الجنرال جونين إلى إشراك بعض الألوية المدرعة الاحتياطية التي وصلت إلى الجبهة فى عمليات الصد إلى جانب القوات النظامية بدلا من إتمام حشدها وراء خطوط الدفع المحددة لها من قبل لشن هجماتها المضادة الرئيسة، مما كان له أثر خطير في ذلك الفشل الذريع الذي منيت به جميع الهجمات المضادة التي وجهت على عجل ضد رءوس الكباري المصرية في المرحلة الأولى من الحرب.

ورغم نجاح عملية العبور المصرية هذا النجاح الباهر واجتياح خط بارليف، لم تكن بعض القيادات في الخلف ولا الحكومة الإسرائيلية منتبهة إلى المغزى العسكري الخطير للتوغل المصري شرق قناة السويس ولا لخسائر المدرعات الإسرائيلية الفادحة، وكان هناك وزراء يعتقدون أنه لن تمر أيام إلا ويتم اكتساح القوات المصرية والقذف بها إلى ما وراء القناة.

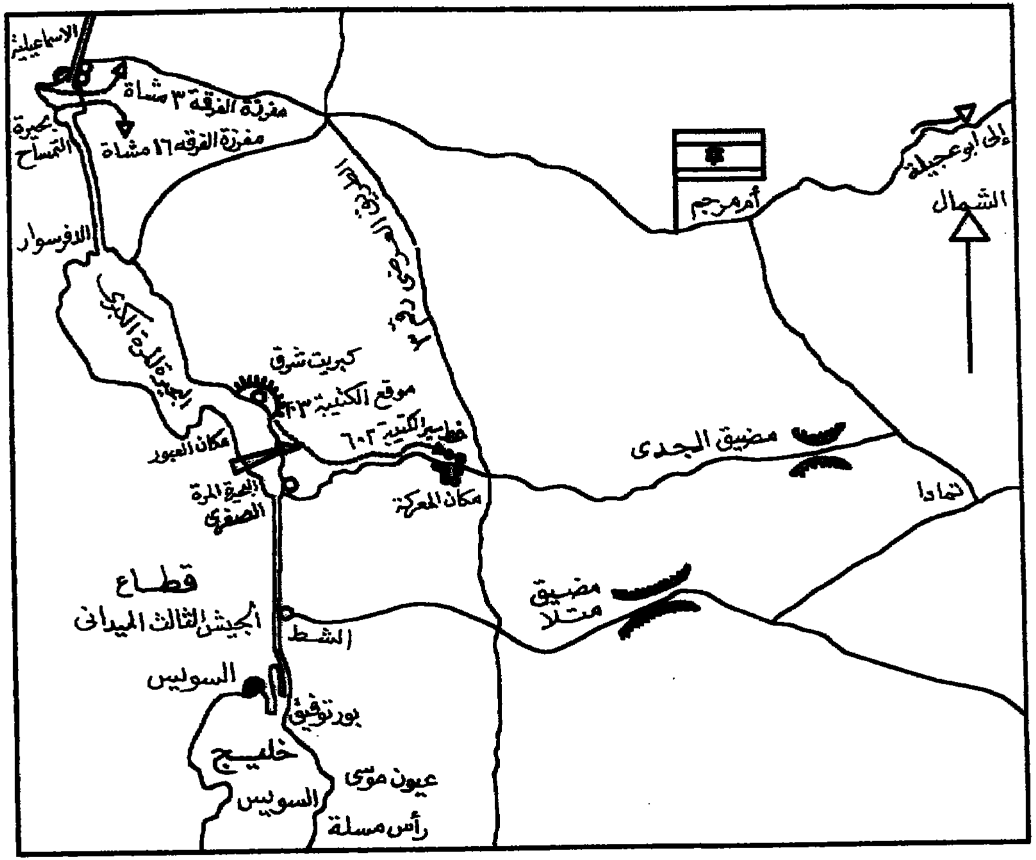
المفارز البرمائية عبر بحيرة التمساح والبحيرات المرة

كان من ضمن التخطيط المرسوم لاقتحام القوات المصرية قناة السويس دفع عدة مفارز من المشاة الميكانيكية البرمائية لعبور بحيرة التمساح والبحيرة المرة الصغرى ضمانا لظهور

عناصر مدرعة ذات جنزير على الشاطئ الشرقي لقناة السويس بعد وقت قصير من بدء العبور لتدعيم وحدات المشاة التي عبرت من جهة وكنوع من المفاجأة للعدو من جهة أخرى، إذ لم يكن من المنتظر ظهور أي دبابات سواء كانت تابعة للفرق الخمس المشاة أو من الألوية المدرعة التي ألحقت بها على الشاطئ الشرقي للقناة قبل سبع ساعات على الأقل من بدء العبور نظرًا للوقت الذي تحتاج إليه وحدات المهندسين لفتح الثغرات في الساتر الترابي ولإقامة كباري الاقتحام الثقيلة التي ستعبر عليها الدبابات.

وفي القطاع المخصص للجيش الثاني تم دفع مفرزتين أماميتين كانتا عبارة عن سريتين مشاة مدعمتين منقولتين في عربات مدرعة برمائية (إحداهما من الفرقة ١٦ مشاة من طراز BMP عبر الطرف الجنوبي لبحيرة التمساح، والأخرى من الفرقة ٢ مشاة من طراز BK عبر الطرف الشمالي للبحيرة). وقد بدأ إبرار المفرزتين عبر البحيرة بمجرد بدء التمهيد النيراني للمدفعية، وتم وصولهما إلى الشاطئ الشرقي خلال نصف ساعة، وحقق ظهورهما في هذا التوقيت المبكر مفاجأة كبرى للعدو مما دفعه في قطاع الفرقة ٢ مشاة إلى إخلاء النقطة القوية على لسان بحيرة التمساح وضم أفرادها إلى قوة النقطة القوية التي كانت تقع عند نمرة ٦ (كان الإسرائيليون يطلقون عليها اسم حصن بوركان).

وفي القطاع المخصص للجيش الثالث، وضع التخطيط على أساس أن يعبر اللواء ١٣٠ المشاة الميكانيكي البرمائي البحيرة المرة الصغرى جنوب «كبريت» بحوالي ٢ كم. وهذا اللواء هو لواء خاص صدر قرار بإنشائه في يناير عام ١٩٧٢ ويتشكل من كتيبتي مشاة ميكانيكيتين (الكتيبة ٦٠٢ والكتيبة ٦٠٣)، وتم تزويده بعدد ٨٠ مركبة مدرعة برمائية (طراز توباز) معدة لنقل المشاة الميكانيكية سواء على البر أو عبر المسطحات المائية. وكانت قوة اللواء الضاربة مكونة من عدد ٢٠ دبابة من طراز ت ٧٦ وعدد من سرايا المقذوفات الصاروخية مالوتكا، بعضها من طراز «فهد» المحمولة فوق عربات مدرعة توباز ذات الجنزير، والآخر من طراز «نمر» المحمولة فوق عربات مدرعة بردم ذات العجل الكاوتش. وكانت المهمة التي كلف اللواء ١٣٠ برمائي بتحقيقها هي أن تعبر مفرزتان منه (كتيبتان مدعمتان) البحيرة المرة الصغرى ساعة س، وبمجرد وصولهما إلى الشاطئ الشرقي للقناة تتقدم مفرزة منهما على الطريق المؤدى إلى مضيق الجدي وتتقدم الأخرى على طريق الشط ـ مضيق متلا للاستيلاء على المدخل الغربي لكل من المضيقين، على أن ترسل كل منهما بعد إجراء عملية التأمين قوة مشاة مترجلة (خارج المضيقين) لمهاجمة كل من مركز الإعاقة والشوشرة للعدو في جبل أم خشيب وبعض الأهداف الحيوية في مطار تمادا.



عبور المفارز البرمائية البحيرات يوم ٦ أكتوبر ١٩٧٣.

وكان الهدف الأساسي من دفع هاتين المفرزتين إلى مضيقي الجدي ومتلا هو أن تتمكنا من تأخير وصول الاحتياطي التعبوي للعدو حتى صباح يوم ٧ أكتوبر، أي بعد ضمان إتمام إقامة المهندسين المصريين للكباري على القناة وعبور الألوية المدرعة الملحقة بالفرق المشاة إلى الشرق واستعداد فرق المشاة الخمس بعد تدعيمها بالدبابات لصد أي هجوم مضاد تعبوي للعدو. ولكن خواص هذا اللواء البرمائي وتسليحه وإمكاناته القتالية لم تكن تتيح له الفرصة لتحقيق واجب العمليات الذي أسند إليه. ويمكن إدراك ذلك بوضوح عند الاطلاع على ما أورده الفريق سعد الشاذلي في مذكراته التي نشرها عن حرب أكتوبر، وكان يتولى منصب رئيس أركان حرب القوات المسلحة في أثناء الحرب، وعلاوة على ذلك كان يشرف إشرافًا شخصيًا مباشرًا على هذا اللواء البرمائي إلى الحد الذي جعله يبقى بنفسه مع عناصر هذا اللواء طوال الليل في المشروع التدريبي الذي أجراه ليلة ١٨/ ١٩ يوليو ١٩٧٣ لاختبار كفاءة هذا اللواء في منطقة (الحمام) غرب الإسكندرية والذي تم فيه عبور اللواء لمسطح مائي في البحر المتوسط لمسافة ٣٠ كم. فلقد ذكر ما يلي بالحرف: «كانت دبابات اللواء ١٣٠ البرمائي هي الدبابة ت ٧٦، وهي تشكل قوة نيران كبيرة ضد قوات العدو ومركز قياداته والمواقع غير الحصينة، ولكن خفة تدريعها وصغر عيار مدفعها يجعلانها ليست ندا لدبابات العدو المتوسطة بأنواعها كلها والتي كانت مسلحة بالمدفع ١٠٥ مم».

وهذه الحقيقة التي أوضحها الفريق سعد الشاذلي في مذكراته بوضوح تجعلنا نتساءل عن السر في إسناد هذه المهمة إلى كتيبتي اللواء المشاة الميكانيكي البرمائي وفقا لما ورد في خطة العمليات ما دامت إمكاناته القتالية كانت قاصرة تماما عن إمكان تنفيذها. إن كلتا الكتيبتين أثناء تحركهما شرقا سواء على الطريق إلى مضيق الجدي أو إلى مضيق متلا كان من المنتظر بصورة حتمية بناء على المعلومات المتوافرة قبل بدء العمليات عن خطة العدو «شوفاخ يونيم» أن تصطدم أثناء تقدمها بكتيبة مدرعة إسرائيلية (من ٣٥ إلى ٤٠ دبابة)، فقد كان معروفا أن الألوية المدرعة التي في الاحتياط والمتمركزة بالقرب من منطقة المضايق سوف تندفع بأقصى سرعة بمجرد بدء عبور القوات المصرية القناة إلى اتجاه الغرب للقيام بهجماتها المضادة التكتيكية على الوحدات المصرية التي نجحت في تثبيت أقدامها على الشاطئ الشرقي، وكان من المعروف أن هناك لواء مدرعا إسرائيليا يتمركز في القطاع الجنوبي (بقيادة العقيد دان) وليس أمامه من طرق يسلكها للوصول إلى الشاطئ الشرقي للقناة سوى طريق الجدي - القناة وطريق، متلا - الشط.

وبإجراء عملية مقارنة القوات ببعضها نجد أنه على كل طريق كان من المحتم أن تواجه كتيبة مشاة ميكانيكية مصرية لا تملك سوى ١٠ دبابات خفيفة التدريع ومسلحة بالمدفع

٧٦م صغير العيار قوة مدرعة إسرائيلية مشكلة من أكثر من ٣٥ دبابة إسرائيلية ثقيلة التدريع ومسلحة بالمدفع ١٠٥م الذي يعتبر من المدافع ذات العيار الكبير. ولم يكن للصواريخ المضادة للدبابات مالوتكا المزودة بها كل كتيبة تأثير فعال ضد الدبابات الإسرائيلية مثلما كان الحال يجرى في القتال بين المشاة المصرية والدبابات الإسرائيلية شرق القناة، والذي كان أفراد المشاة يستطيعون خلاله مفاجأة الدبابات الإسرائيلية على مسافات قريبة ومن وراء سواترهم التي اختفوا وراءها، علاوة على المعاونة التي كانوا يحصلون عليها من مدافع الدبابات ومدافع الضرب المباشر من مصاطبها على الشاطئ الغربي للقناة. أما في معركة متحركة وفي أرض مفتوحة، فلم تكن لصواريخ مالوتكا المحملة على عربات مدرعة إلا مقدرة محدودة لقتال دبابات ذات مدفع أبعد منها مدى بمراحل عديدة.

وهكذا تجمعت كل عوامل الفشل قبل أن تبدأ المعركة، وعلاوة على ذلك فقدت الكتيبة الميكانيكية ٦٠٢ وهي التي عبرت البحيرة أولا لسوء الحظ، جانبا لا يستهان به من قوتها، إذ إن بعض الدبابات ت ٧٦ والعربات المدرعة من طراز توباز وكثيرا من العربات المدرعة من طراز «بردم» الخاصة بالاستطلاع والتي كان بعضها يحمل المقذوفات الصاروخية (مالوتكا) المضادة للدبابات غرزت في البحيرة المرة: فقد اتضح في أثناء العبور أنها ضحلة وموحلة وذات تربة هلامية مما أدى إلى أن تسير العربات المدرعة على جنازيرها عبر البحيرة عدا الممر الملاحي الأصلي لقناة السويس في وسط البحيرة. وفتحت جماعة من المهندسين العسكريين ثغرة في حقل الألغام الذي اكتشف على الشاطئ الشرقي للبحيرة. وعقب اشتباك بالنيران مع العدو من اتجاه حصن كبريت شرق تقدمت الكتيبة ٦٠٢ إلى بداية طريق الجدي وفقا للخطة الموضوعة. ولم تكد تقطع ١٥ كم من الطريق وكان آخر ضوء قد حل - حتى اصطدمت بكتيبة دبابات إسرائيلية من طراز باتون M48. ودارت معركة عنيفة في الظلام استخدمت فيها الدبابات الإسرائيلية أشعة النور المبهر Zenon ونيران مدافعها ١٠٥م. ورغم الشجاعة الفائقة التي أظهرها أفراد المشاة المصريون واستماتتهم في القتال عجزت بالطبع مدافع الدبابات البرمائية من عيار ٧٦م وصواريخ المالوتكا التي يصعب توجيهها في الظلام عن مجابهة هذا العدد الضخم من الدبابات الإسرائيلية التي كانت مدافعها أبعد مدى وأشد تأثيرا. وانتهت المعركة كما كان منتظرا بتدمير دبابات وعربات الكتيبة بعد أن استشهد وأصيب عدد كبير من أفرادها. وواصلت الكتيبة المدرعة الإسرائيلية تقدمها في اتجاه قناة السويس، بينما عاد أفراد الكتيبة الذين نجوا من المعركة مترجلين وعلى دفعات إلى حيث انضموا إلى رأس كوبري الفرقة السابعة

مشاة. وقد صدرت الأوامر لهذه الكتيبة الميكانيكية ٦٠٢ بعد إعادة تنظيمها بالتمركز في مطار كبريت غرب القناة للدفاع عنه ضد أي تسلل للعدو.

أما الكتيبة الثانية من اللواء البرمائي وهي الكتيبة ٦٠٣، فقد كان مصيرها مختلفا عن زميلتها، إذ لم تتح لها الفرصة لحسن الحظ للتقدم على طريق الشط ـ مضيق متلا كما كان مقررا. فلم تكد تعبر البحيرة المرة الصغرى وتصل إلى شاطئها الشرقي في حوالي الرابعة مساء وتتجمع خارج حقل الألغام، حتى دارت معركة عنيفة بينها وبين سرية دبابات إسرائيلية كانت متقدمة من اتجاه كبريت شرق، إلا أن مجموعة صواريخ مضادة للدبابات من الفرقة السابعة مشاة كلفت بمعاونتها في صد هجوم الدبابات، فاضطرت السرية المدرعة الإسرائيلية إلى الانسحاب في اتجاه الشرق بعد أن فقدت دبابتين وثلاث مركبات صاروخية. وأسندت إلى المفرزة البرمائية، بعد أن تم إلغاء مهمتها الأولى وهي التقدم إلى مضيق متلا، مهمة جديدة وهي الاستيلاء على النقطة القوية الإسرائيلية في كبريت شرق (حصن بوتزر كما كان يسميه الإسرائيليون) بالتعاون مع سرية دبابات من اللواء ٢٥ مدرع المستقل (الملحق على الفرقة السابعة مشاة). وقد نجحت الكتيبة الميكانيكية في تحقيق مهمتها وأتمت احتلال وتطهير الموقع الإسرائيلي الحصين يوم ٩ أكتوبر. وعلى أثر ذلك انضمت قيادة اللواء ١٣٠ برمائي إلى الكتيبة الميكانيكية التي تم تمركزها في حصن كبريت شرق.

وعقب نجاح القوات الإسرائيلية في عملية الاختراق بين الجيشين الثاني والثالث في الدفرسوار ليلة ١٦ أكتوبر والعبور إلى غرب القناة، أحاطت القوات الإسرائيلية شرق القناة بموقع الكتيبة الميكانيكية ٦٠٣ في كبريت شرق، وأصبح الموقع المصري مثل جزيرة صغيرة في بحر من القوات الإسرائيلية المحيطة به من كل جانب. وصمد أفراد الموقع في شجاعة وبطولة نادرتين في وجه الهجمات الإسرائيلية العنيفة المتواصلة التي استخدمت فيها الدبابات والمدفعية والصواريخ علاوة على وابل من القصف الجوي المركز. وأصيب خلال الحصار الذي استمر حوالي ١١٤ يوما قائد اللواء، كما استشهد رئيس عمليات اللواء ورئيس الإشارة وقائد الكتيبة الميكانيكية ٦٠٣. ورغم العجز التام في المياه والطعام والوقود والذخيرة تمكن أفراد الموقع المصري من التغلب على كل هذه الصعاب وانتهى الحصار دون أن يستسلم أفراد الموقع، وبقيت قصة الكتيبة ٦٠٣ مشاة ميكانيكية رمزا لصمود وكفاح الجندي المصري.

هذه قصة اللواء ١٣٠ مشاة ميكانيكي برمائي الذي كلف لسوء الحظ بمهمة تفوق كثيرا قدراته القتالية، وصمد رغم ذلك في وجه الظروف الصعبة التي واجهته بشجاعة وبطولة.

والأمر الذي يدعو إلى الدهشة والاستغراب أن الفريق سعد الشاذلي الذي من المفترض أنه أدرى القادة بحكم منصبه كرئيس للأركان خلال حرب أكتوبر بحقيقة ما يدور من وقائع وأحداث على جبهة القتال، سجل في الصفحة ٢٣٧ من مذكراته التي نشرها بالخارج قصة وهمية ليس لها أي سند من الواقع عن عمليات اللواء ١٣٠ مشاة برمائي نذكر منها ما يلي بالحرف:

«في خلال يوم ٧ أكتوبر قامت قواتنا الخاصة التي تعمل في مؤخرة العدو بعدة أعمال نشطة كان لها أثر كبير في إرباك قيادات العدو وتعطيل تحرك احتياطياته نحو الجبهة. قامت عناصر من اللواء ١٣٠ مشاة الأسطول (برمائي) بالتقدم خلال ممر متلا وممر الجدي حيث قامت بمهاجمة مركز رئاسة القطاع الجنوبي ومحطات الرادار والمعسكرات. وقد تقدمت إحدى سرايا اللواء خلال ممر الجدي حتى دخلت إلى مطار تمادا الذي يقع على مسافة حوالي ٨٠ كم شرق القناة».

مناقشة الوضع في سيناء برئاسة الأركان العامة الإسرائيلية

كانت الدبابات التي تبقت من ألوية سيناء الثلاثة التي خاضت معارك يوم ٦ وليلة ٧ أكتوبر، والتي قامت بالهجمات المضادة التكتيكية على المواقع المصرية قد تراجعت عن الخط الأمامي وانتشرت على طريق المدفعية (الطريق العرضي رقم ٢) وهو يقع على بعد ٨ ـ ١٠ كم شرق القناة، وتم إنشاؤه خلال حرب الاستنزاف على طول القناة لكي يتيح الفرصة لبطاريات المدفعية الإسرائيلية لسرعة الانتقال من موقع إلى آخر. وعند ظهر يوم ٧ أكتوبر جرت بين مجموعة القيادة في رئاسة الأركان العامة في تل أبيب مناقشة عاجلة حول الموقف المتدهور على الجبهة المصرية، بعد أن نجح المصريون خلال الليل في إنشاء منطقة وطيدة من رءوس الكباري شرق قناة السويس، وبعد أن فشلت جميع الهجمات المضادة الإسرائيلية المحلية في اختراقها والوصول إلى حصون خط بارليف على شاطئ القناة. ولم يجرؤ أحد من القادة الحاضرين على التفوه بكلمة الانسحاب، وإنما تم التعبير عن المعنى المقصود بأسلوب آخر وهو القيام بعملية إعادة تنظيم جديدة على طول الطريق العرضي الذي يمتد من بالوظة شمالا إلى الطاسة جنوبا بموازاة طريق المدفعية وعلى بعد حوالي ٣٠كم شرق القناة (أطلق عليه المصريون اسم الطريق العرضي رقم ٣). وكانت شكوى الجنرال جونين قد اشتدت بسبب غياب الطيران الإسرائيلي عن سماء الجبهة المصرية. وكانت الطائرات الإسرائيلية في صباح يوم ٧ أكتوبر قد حاولت التغلب على

شبكة الرادار المصرية ومباغتة المطارات المصرية في وسط وشمال الدلتا عن طريق اقترابها على ارتفاعات منخفضة فوق البحر المتوسط على غرار ما حدث في الضربة الجوية يوم ٥ يونيو ١٩٦٧ ، ولكن الطيارين الإسرائيليين فوجئوا بالمقاتلات الاعتراضية من طراز ميج ٢١ في انتظارهم. وعندما حاولت الطائرات التسلل إلى أهدافها على ارتفاعات مختلفة قوبلت بغلالة كثيفة من صواريخ سام أرض جو ونيران المدافع المضادة للطائرات، وتم إسقاط خمس طائرات منها ولاذت الطائرات الباقية بالفرار. ونتيجة لهذا الفشل ولشدة حاجة القوات الإسرائيلية على جبهة الجولان إلى المجهود الجوي، أبلغ الجنرال بيليد قائد القوات الجوية الجنرال جونين بأنه لن يستطيع تقديم أي دعم آخر لقواته بسبب الوضع المتحرج على الجبهة الشمالية وأجابه جونين في قلق «إن لم تأتوا فليس لدي ما أصد به الهجوم». وإزاء إلحاح الجنرال جونين بعد ظهر يوم ٧ أكتوبر في طلب معاونة السلاح الجوي لإنقاذ الموقف على الجبهة المصرية، أصدر الجنرال بيليد أمره بتحويل عدة أسراب من الجبهة السورية إلى الجبهة المصرية، على أن يكون مجهود الطائرات مركزاً ضد الكباري والمعابر التي أقيمت على قناة السويس. ولم تكن هذه الكباري أهدافا سهلة يمكن ضربها، إذ كان المصريون يصعبون مهمة الطيارين الإسرائيليين بإطلاقهم سواتر من الدخان بالقرب من الكباري، علاوة على الكباري الهيكلية الكثيرة التي أقاموها والتي كانت بعض المركبات الخفيفة تقوم بالعبور فوقها لتبدو من الجو كأنها حقيقية. وكان أفراد المهندسين المصريين يستغلون فترات التوقف بين الغارات الجوية ويقومون بإلقاء معديات جديدة إلى الماء لاستبدال الأجزاء التي تلفت من الكباري نتيجة للقصف الجوي. وكانوا يلجئون كذلك إلى حيلة بارعة لتقليل الإصابات في الكباري في الفترات التي تتوقف فيها عملية عبور القوات والمعدات المصرية فوق الكباري عن طريق تقطيع أجزاء كبيرة من الكباري وربطها بموازاة الجانب الشرقي للقناة، مما كان يجعل مهمة تحديد أماكن الكباري وضربها عملية شاقة بالنسبة للطيارين الإسرائيليين، خاصة وأن ذلك التصرف كان يرغم الطائرات الإسرائيلية على أن تبدأ انقضاضها من ناحية غرب القناة المكتظة بمئات من الصواريخ أرض جو سام والمدافع المضادة للطائرات لكي يمكنها إصابة أجزاء الكباري المربوطة في الجانب الشرقي للقناة، مما كان سبباً في تعرضها إلى خسائر جسيمة دون أي جدوى، إذ كان أفراد سلاح المهندسين المصريين لا يلبثون حتى يقوموا بإصلاح الكباري وإعادة تعويمها من جديد بمجرد انتهاء الغارات الجوية الإسرائيلية.

وفي تل أبيب لم يصرح المتحدث العسكري الرسمي الإسرائيلي في البيان الذي أذاعه يوم ٧ أكتوبر بأي نبأ عن اندحار القوات الإسرائيلية على جبهة قناة السويس، وإنما تعمد ذكر النبأ بألفاظ مبهمة، فقال:

«كونت قواتنا المدافعة خطوط دفاع جديدة في مواجهة رءوس الكباري المصرية». وفي سيناء حاول الجنرال ألبرت ماندلر في الأمر اليومي الذي أصدره أن يرفع روح قواته المعنوية بذكر احتمالات النصر في المستقبل، فقال: «أيها الجنود.. لقد أوقفتم محاولات الاقتحام الرئيسية من العدو المصري، وتحققت مهمتنا الأولى وتم وقف العدو عن تقدمه. لقد تلقى خط المواقع الأمامية الضربة الأولى وامتصها وصمد بقوة، وقبل أن يمر يوم سوف تظهر كل عظمة جيش الدفاع الإسرائيلي».



ملحق صور الفصل الثاني

القيادة العامة

المركز ١٠



فريق أول أحمد إسماعيل علي

وزير الحربية والقائد العام للقوات المسلحة.



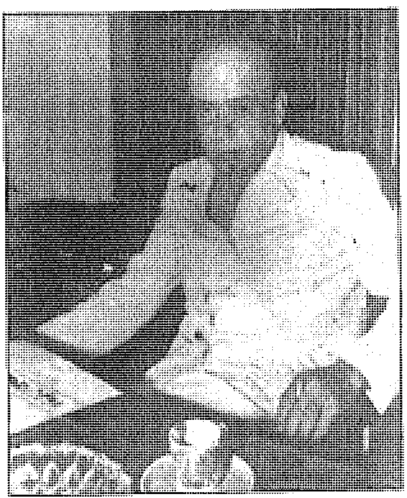
فريق سعد الشاذلي

رئيس أركان حرب القوات المسلحة.



لواء محمد عبد الغني الجمسي

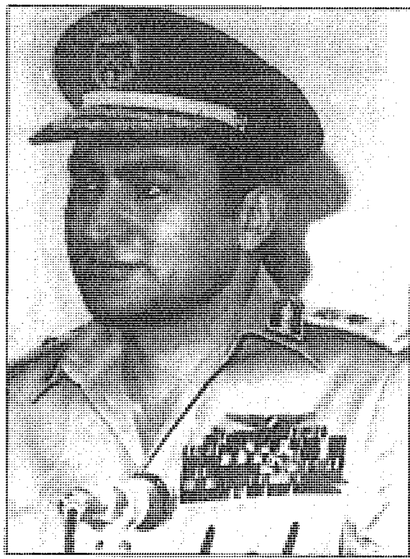
رئيس هيئة العمليات.



لواء فؤاد نصار

مدير المخابرات الحربية.

قادة القوات والأسلحة المقاتلة



لواء طيار محمد حسني مبارك

قائد القوات الجوية .



لواء بحري فؤاد ذكري

قائد القوات البحرية .



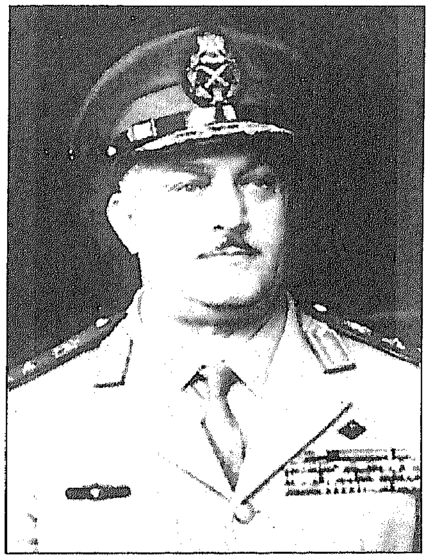
لواء محمد علي فهمي

قائد قوات الدفاع الجوي .



لواء محمد سعيد الماحي

مدير سلاح المدفعية .



لواء كمال حسن علي

مدير سلاح المدرعات.



لواء مهندس جمال محمد علي

مدير سلاح المهندسين.



عميد نبيل شكري

قائد قوات الصاعقة.



عميد محمود عبد الله

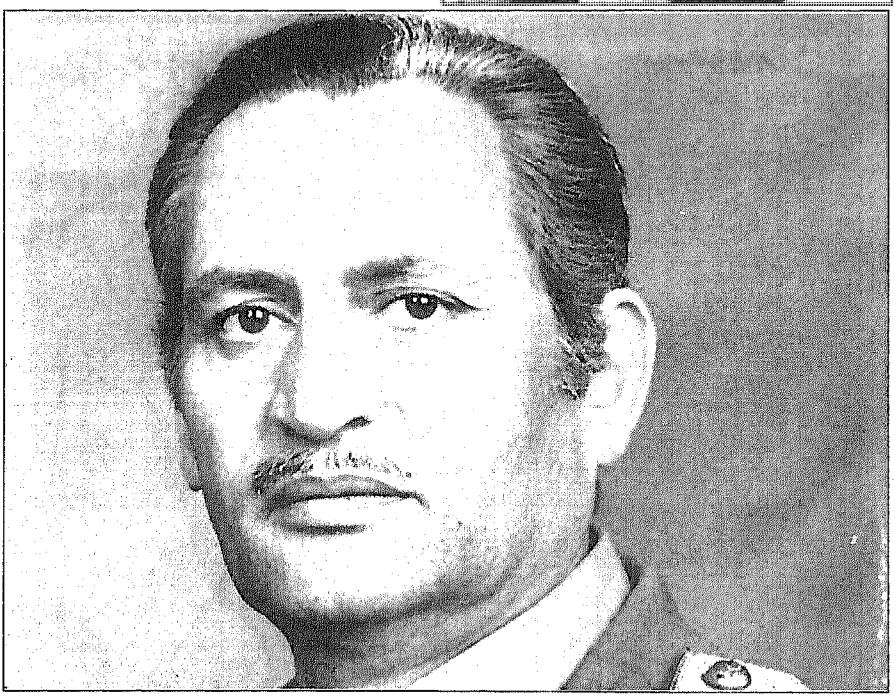
قائد قوات المظلات.

منطقة البحر الأحمر



لواء إبراهيم كامل محمد

قائد منطقة البحر الأحمر.



عميد إبراهيم رشيد

رئيس أركان منطقة البحر الأحمر.

الجيش الثالث



لواء عبد المنعم واصل

قائد الجيش الثالث.



لواء مصطفى شاهين

رئيس أركان الجيش الثالث.



عميد يوسف عفيفي

قائد الفرقة ١٩ مشاة.



عميد أحمد بدوي

قائد الفرقة ٧ مشاة.



عميد محمد عبد العزيز قابيل

قائد الفرقة ٤ المدرعة.



عميد محمد أبو الفتح محرم

قائد الفرقة ٦ مشاة ميكانيكية.



عميد منير شاش

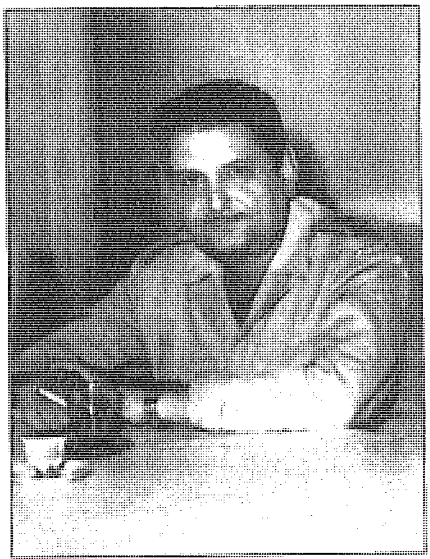
قائد مدفعية الجيش الثالث.

الجيش الثاني



لواء سعد مأمون

قائد الجيش الثاني.



لواء تيسير العقاد

رئيس أركان الجيش الثاني.



عميد عبد رب النبي حافظ

قائد الفرقة ١٦ مشاة.



عميد حسن أبو سعده
قائد الفرقة ٢ مشاة.



عميد فؤاد عزيز غالي
قائد الفرقة ١٨ مشاة.



عميد إبراهيم العرابي
قائد الفرقة ٢١ المدرعة.



عميد محمد عبد الحليم أبو غزالة

قائد مدفعية الجيش الثاني.



عميد أحمد عبود الزمر

قائد الفرقة ٢٣ مشاة ميكانيكية.



لواء عمر خالد حسن

قائد قطاع بورسعيد.



عميد محمد نجاتي فرحات
قائد الفرقة ٣ مشاة ميكانيكية
(احتياطي القيادة العامة).



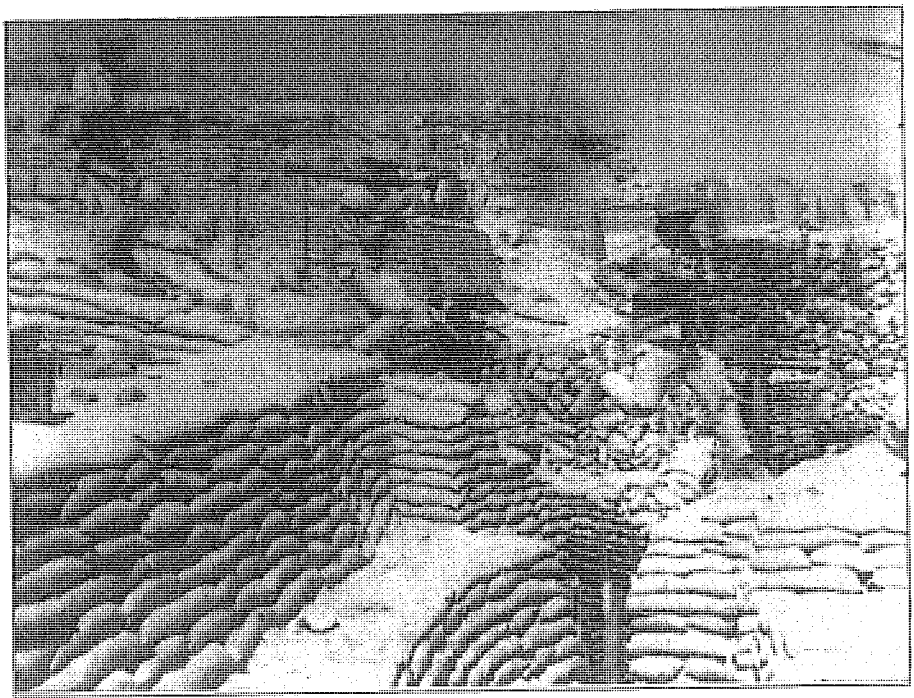
عميد مهندس أحمد حمدي عبد الحميد

نائب مدير سلاح المهندسين.

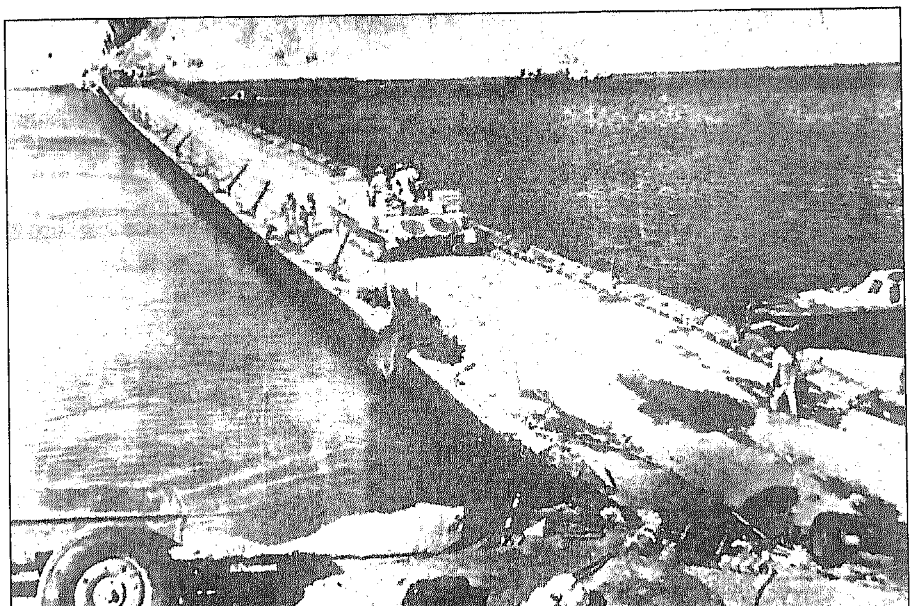


عقيد محمود شعيب

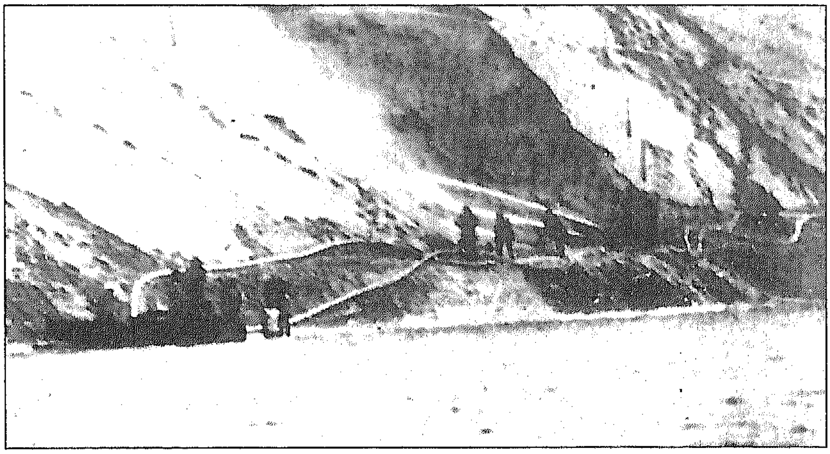
قائد اللواء ١٣٠ مشاة ميكانيكي برمائي.



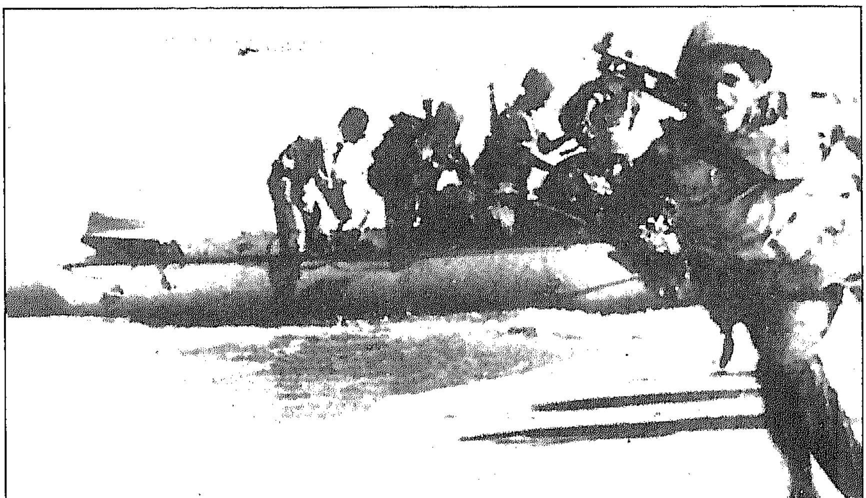
جنود مصريون يقتحمون أحد حصون خط بارليف.



دبابة مصرية تعبر أحد الكباري التي أقيمت على القناة في طريقها إلى الضفة الشرقية.



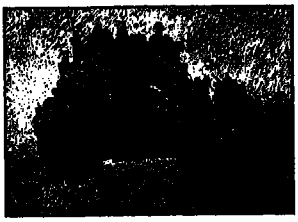
استخدام مدافع المياه لفتح الثغرات في الساتر الترابي على الضفة الشرقية للقناة.



جنود المشاة يقفزون من القوارب بعد الوصول إلى الضفة الشرقية.



أحد الكباري المصرية التي أقيمت على القناة ليلة ٦ / ٧ أكتوبر.



■ الفصل الثالث ■

مرحلة إقامة رءوس الكباري وصد الهجمات المضادة الإسرائيلية

نتيجة لطلعات الاستطلاع الجوي التي قامت بها طائرات الاستطلاع الإسرائيلية صباح الأحد ٧ فبراير ١٩٧٣، اكتشف العدو أن المجهود الرئيسي للقوات المصرية التي عبرت إلى الشاطئ الشرقي للقناة يقع في قطاع الجيش الثاني في المنطقة الواقعة ما بين الدفرسوار جنوبا والفردان شمالا، بالنسبة لوجود أكبر حشد من الدبابات والمدرعات المصرية فيها، ولذا قررت القيادة الإسرائيلية تركيز المجهود الرئيسي لضرباتها المضادة ضد القوات المصرية في هذه المنطقة. وكانت الفرق الثلاث التابعة للجيش الثاني الميداني، وهي الفرق ١٦ و ٢ و ١٨ المشاة، قد أتمت في نهاية يوم ٦ أكتوبر تحقيق مهمتها المباشرة، ونجحت كل منها في إقامة رأس كوبري على الشاطئ الشرقي للقناة بعمق حوالي ٥ كم، وقامت على الفور بأعمال التجهيز الهندسي والتعزيز على الخطوط المكتسبة وتنسيق خطط النيران بمختلف أنواعها.

وفي ليلة ٦/٧ أكتوبر، بدأت الألوية المدرعة الثلاثة الملحقة على فرق المشاة بقطاع الجيش الثاني في العبور بدباباتها وعرباتها المجنزرة على الكباري الثقيلة المخصصة لها للانضمام إلى مناطق رءوس كباري الفرق شرق القناة، وحوالي الساعة السابعة صباحا يوم ٧ أكتوبر تمكنت الألوية المدرعة من إتمام عملية العبور، فانضم اللواء ١٤ مدرع (من الفرقة ٢١ المدرعة) إلى الفرقة ١٦ مشاة في اليمين، واللواء ٢٤ مدرع (من الفرقة ٢٣ مشاة ميكانيكية) إلى الفرقة ٢ مشاة في الوسط، واللواء ١٥ مدرع مستقل إلى الفرقة ١٨ مشاة في اليسار. وفي صباح يوم ٧ أكتوبر، أصدر قائد الجيش الثاني تعليماته بأن تقوم الفرق الثلاث مستغلة ما حققته من نجاح بتطوير الهجوم شرقا لتحقيق المهمة التالية لها، وأن تكون الفرق مستعدة لصد وتدمير أي هجمات مضادة للعدو.

وطوال ليلة ٦/ ٧ أكتوبر، بذلت القوات المدرعة الإسرائيلية جهودا مضنية بناء على تعليمات الجنرال جونين للالتحام بحاميات حصون خط بارليف على طول القناة. ففي القطاع الشمالي أرسل العقيد جابي عدة سرايا مدرعة للاتصال بحصن مفريكيت (شمال جزيرة البلاح) وحصن ميلانو (القنطرة شرق). وبعد معارك دامية مع القوات المصرية طوال الليل، ونظراً لفداحة الخسائر الإسرائيلية، صدر الأمر صباح ٧ أكتوبر بإخلاء حصن مفريكيت. أما حصن ميلانو فقد قام أفراد حامية الحصن وعددهم ٤٠ ضابطا وجنديا بإخلاء الحصن سرا عند منتصف الليل، وقاموا بمغامرة فذة تستحق التسجيل، فقد استغلوا فرصة الظلام الدامس ودخلوا مدينة القنطرة شرق التي كانت قوة من الفرقة ١٨ مشاة قد احتلتها من قبل، وكانوا يأملون ألا يتعرف عليهم المصريون في خضم ضجيج الدبابات والمركبات السائد في المدينة وفي عتمة الشوارع المُظلمة. واصطدم الإسرائيليون في أثناء تقدمهم داخل القنطرة شرق عدة مرات بقوات وكمائن مصرية دون أن تتعرف عليهم. ولكن في إحدى المرات اضطر أحد الجنود الإسرائيليين الذين يعرفون اللغة العربية إلى الرد على إحدى الدوريات المصرية التي صادفتهم للسماح لهم بالمرور، ولكن لهجته غير المصرية كشفتهم فأطلقت عليهم النيران في الحال مما أدى إلى مصرع بعضهم، بينما لاذ الباقون بالفرار. وبعد أن تجمعوا في أحد البيوت الخالية تم لهم عن طريق الاتصال اللاسلكي تحديد نقطة التقاء مع قوة الإنقاذ الإسرائيلية في الشرق. ونجح الذين بقوا على قيد الحياة من أفراد قوة الحصن في التسلل إلى خارج مدينة القنطرة شرق، وعند الفجر تم لقاؤهم بالقوة الإسرائيلية التي كانت في انتظارهم، وهي سرية دبابات باتون من لواء العقيد جابي.

وفي القطاع الأوسط، قام العقيد آمنون بمحاولات يائسة للاتصال بموقع هيزايون (الفردان) وحصن بور كان (نمرة ٦ شرق الإسماعيلية)، وتم إرسال سرية دبابات إلى كل حصن للالتحام بحاميته، وبعد معارك دامية طوال الليل مع قوات من الفرقة ٢ مشاة تم تدمير السريتين المدرعتين الإسرائيليتين وإحكام الحصار حول حصني هيزايون وبور كان.

لماذا اقترح موشي ديان الانسحاب إلى خط المضايق؟

عقب زيارة قام بها موشي ديان لجبهة الجولان في الشمال فجر يوم ٧ أكتوبر، اتجه في طائرة هيليكوبتر إلى سيناء وبرفقته العميد زئيفي أحد مساعدي رئيس الأركان. وقبل هبوط الهيليكوبتر بجوار المركز الأمامي للقيادة الجنوبية في أم مرجم، اتصل به الجنرال جونين قائد القيادة لاسلكيا ونصحه بالعودة من حيث جاء. فلقد وصلت أنباء بأنه يوجد

في المنطقة أفراد من الصاعقة المصريين مختفون في المرتفعات المسيطرة على مركز القيادة، ولكن موشى ديان قرر النزول رغم ذلك وهبطت طائرته في الساعة ١١ والدقيقة الأربعين قبل الظهر، وكان يعاني في قرارة نفسه من أزمة تشاؤم حادة نتيجة لسوء الوضع على الجبهة السورية.

وفي غرفة العمليات بمركز القيادة المتقدم، وبعد استعراض الوضع على جبهة القناة، قال موشى ديان للجنرال جونين: «هذه حرب صعبة وليست اشتباك حدود، يجب الانسحاب إلى خط ثان إلى الجبال والتحصن هناك». وأشار بيده إلى خط الممرات على خريطة العمليات التي كان مرسوما عليها مواقع قوات الطرفين. وعلى أثر ذلك، تم اتصال تليفوني بين موشى ديان والجنرال دافيد أليعازر رئيس الأركان في تل أبيب وسأله ديان: «ماذا تستطيعون تقديمه إلى جونين؟». وكان يقصد بالطبع المعاونة الجوية، وصُدم ديان عندما تلقى رد رئيس الأركان، فقد أجابه بأنه لا توجد إمكانية في ذلك الوقت لزيادة المعاونة الجوية للجبهة الجنوبية إذ إن الطائرات مطلوبة أكثر في الشمال. وأخذ ديان يتحدث مع جونين مرة أخرى عن الانسحاب والتشبث بخطوط أخرى قائلا: «يجب ترك خط المياه والانتقال إلى الطريق العرضي (يقصد الطريق العرضي رقم ٣ ويقع على بعد حوالي ٣٠كم شرق القناة)، وذلك بالمدرعات الباقية وبما سوف يصل بعد ذلك من التشكيلات المدرعة الاحتياطية لكي يمكن ضرب المصريين. ليس هناك ما يمكن أن نقدمه للحصون الأمامية، وعلى الأصحاء أن يحاولوا اجتياز الخطوط، أما الجرحى فلا خيار أمامهم سوى البقاء والوقوع في الأسر». وأكد ديان للجنرال جونين أن ما قاله هو نصيحة على مستوى وزاري، ولكن يجب تنسيق الأمور مع رئيس الأركان.

لكن الجنرال جونين لم يكن رأيه متفقا مع رأي وزير الدفاع في وجوب الانسحاب إلى الطريق العرضي شرقا، فقد كان عزمه قد استقر على عدم مواصلة التراجع وعلى ضرورة التمسك بطريق المدفعية (الطريق العرضي رقم ٢ على بعد حوالي ١٠ كم شرق القناة)، وكان الأمل ما يزال يراوده في إمكان عودة قواته إلى خط المياه. وبناء على نصيحة موشى ديان، أصدر جونين أوامره إلى قادة القطاعات الثلاثة بترك الجرحى في حصون خط بارليف، وأن تحاول حاميات الحصون بعد إخلائها الانضمام إلى القوات الإسرائيلية شرقا. وأوضح لقادة القطاعات عدم احتمال تلقيهم أي معونة من السلاح الجوي بسبب سوء الموقف على جبهة الجولان وأن عليهم الصمود دون معاونة جوية.

وعاد موشى ديان وزير الدفاع من سيناء مباشرة إلى مقر هيئة الأركان العامة في تل

أبيب التي أصبحت بمجرد نشوب الحرب مقر القيادة العليا. وقد وصل إليها حوالي الساعة الثانية والنصف بعد الظهر. وفي غرفة العمليات أخذ ديان يبدي اقتراحه لرئيس الأركان على ضوء الرحلة التي قام بها، فاقترح انسحاب القوات الإسرائيلية للتحصن في خط على المداخل الغربية للمضايق الجبلية (٣٥ـ٤٥كم شرق القناة)، كما اقترح تقليص الخطوط الدفاعية بالانسحاب من خليج السويس وبقاء قوة فقط في شرم الشيخ للاحتفاظ بها.

وتساءل رئيس الأركان: «حتى إذا كان علينا أن نتأهب في خط ثان، لماذا يجب أن نخلي خليج السويس؟». وأوضح رئيس الأركان رأيه في وجوب الصمود على خط دفاعي أمام رأس سدر (على خليج السويس) وليس في شرم الشيخ. ورد ديان قائلا: «ربما لا يكون هناك إخلاء، ولكن يجب أن ندير هناك معركة تعطيلية». وكان وزير الدفاع بالقطع في حالة حادة من التشاؤم بعد زيارتيه المتتاليتين لجبهتي الجولان وسيناء، ولكن الجنرال أليعازر رئيس الأركان كان أقوى منه أعصابا، ولذا لم تصدر عنه أي أوامر إلى القوات الإسرائيلية في سيناء بالانسحاب تنفيذا لنصيحة موشى ديان.

وحضر وزير الدفاع ورئيس الأركان اجتماعا عند رئيسة الوزراء جولدا مائير بعد الظهر واشترك في الاجتماع الذي عقد بمكتبها برئاسة الوزارة نائبها إيجال آلون وإسرائيل جاليلي وزير الدولة. وعرض موشى ديان وجهة نظره بالانسحاب من خط القناة والتمسك بخط دفاعي جديد على مسافة في الشرق لشن الحرب من هناك، ووجوب إخلاء الحصون الأمامية. وطالب موشى جولدا مائير بضرورة بذل أقصى جهد ممكن للحصول على طائرات ودبابات من الولايات المتحدة بأسرع وقت نظرا لتفوق العرب في العدد والسلاح. وقد شرح موشى ديان في مذكراته «قصة حياتي» التي نشرها عقب حرب أكتوبر بعض التفاصيل عن هذا الاجتماع، فذكر أن رئيسة الوزراء والوزيرين آلون وجاليلي صعقوا من الحقيقة الأليمة التي أوضحها، وهي أنه ليس في مقدور القوات الإسرائيلية رد المصريين إلى الجانب الآخر من القناة، فلقد كانوا متأثرين بالتقارير التي سبق أن وصلتهم عن تدمير الطائرات الإسرائيلية للكباري المصرية على القناة مما أوهمهم بأن القوات المصرية شرق القناة أصبحت معزولة عن قواعدها غرب القناة. وشرح لهم موشى ديان أن هذه الكباري ليست بناء متماسكا وإنما هي مجموعة متصلة من معديات خشبية يمكن إصلاحها أو استبدالها في أثناء الليل.

واعترض رئيس الأركان على تقديرات موشى ديان، ورغم أنه وافقه على إعداد خط

ثان بدلا من خط القناة، فإنه أبدى رأيه في وجوب البدء بالهجوم المضاد على الفور. واقترح أن يطير إلى القيادة الأمامية الجنوبية في تلك الليلة لدراسة الموقف. وسأل وزير الدفاع عما إذا كان من سلطته اتخاذ القرار بشن هجوم مضاد على القوات المصرية على الضفة الشرقية للقناة، فأفاده الوزير بالإيجاب. وأبدت رئيسة الوزراء والوزيران ارتياحهم إذ لم يكن في مقدورهم، كما ذكر ديان تحمل التفكير في افتقار إسرائيل إلى القوة لرد العدو إلى حيث كان منذ ٣٠ ساعة مضت.

خطة الهجوم المضاد الإسرائيلي على قطاع الجيش الثاني

في الساعة الثامنة مساء يوم ٧ أكتوبر، وصل الجنرال دافيد أليعازر رئيس الأركان العامة إلى المركز الأمامي للقيادة الجنوبية في أم مرجم بطائرة هيليكوبتر وبرفقته الجنرال إسحق رابين رئيس الأركان العامة في حرب يونيو عام ٦٧، والذي تولى فيما بعد منصب رئيس وزراء إسرائيل. وعلى أثر وصولهما، عقد اجتماع بمقر القيادة الأمامي حضره الجنرال جونين قائد القيادة الجنوبية وثلاثة من القادة هم الجنرال ألبرت ماندلر وإبراهام أدان (برن) وكلمان ماجن. وتأخر الجنرال شارون عن الحضور لمدة ساعتين بسبب خلل أصاب الطائرة الهيليكوبتر التي أرسلت لإحضاره. وخلال الاجتماع وضع الجنرال أليعازر الخطوط الرئيسة لخطة الهجوم المضاد الذي تقرر أن يبدأ صباح يوم الاثنين ٨ أكتوبر على منطقة رءوس الكبارى المصرية شرق القناة. وكانت الخطة تتلخص فيما يلي:

تبدأ فرقة الجنرال إبراهام أدان المدرعة في القطاع الشمالي الهجوم على قطاع الجيش الثاني من القنطرة إلى الجنوب في اتجاه الدفرسوار والبحيرات المرة، وفي نفس الوقت ترابط فرقة الجنرال شارون في قطاعها (القطاع الأوسط) لصد هجمات العدو ووقف تقدمه شرقا ولتكون في نفس الوقت بمثابة احتياطي لفرقة أدان.

إذا نجح هجوم أدان في الشمال تقوم فرقة شارون المدرعة بالهجوم على الجيش الثالث من الدفرسوار إلى الجنوب في اتجاه السويس والطرف الجنوبي للقناة.

في حالة فشل هجوم أدان سيكون على فرقة شارون تعزيز الهجوم، ولذا أمر رئيس الأركان بعدم تحريك فرقة شارون من قطاعها إلا بتصديق منه.

تظل فرقة ألبرت ماندلر المدرعة في قطاعها في الجنوب لوقف تقدم العدو شرقا، ولتكون في نفس الوقت بمثابة احتياطي لفرقة شارون في حالة قيامه بالهجوم على الجيش

الثالث. وترك رئيس الأركان تحديد ساعة «س» للجنرال جونين، وحذره من اقتراب القوات المهاجمة من التلال الترابية الواقعة شرق القناة نظرا لاحتلالها بحشود ضخمة من جنود المشاة المصريين المسلحين بالبازوكات آر بي جي وصواريخ ساجر (مالوتكا).

وطلب الجنرال جونين من رئيس الأركان إذنا بالعبور إلى الضفة الغربية للقناة إذا نجح الهجوم. وقد تردد رئيس الأركان في قبول الفكرة أو رفضها، إذ إن عتاد العبور الإسرائيلي لم يكن معدا، وكان من الممكن فقط وفقا لاقتراح جونين عبور القناة على الكباري المصرية، ولذا رد رئيس الأركان على جونين قائلا: «لتصلوا إلى الكباري أولا، وحينئذ نرى. لست أريد أن يعبر جيش كامل على كوبري واحد، وإذا احتللنا عدة كبار ننقل إليها فصائل من الدبابات. وعلى كل حال يتم عبور القناة فقط بناء على أمر مني، ولا يتحرك شارون إلا بتصديق مني».

وعندما كان رئيس الأركان في طريقه لركوب الطائرة الهيليكوبتر قابل الجنرال شارون الذي كان قد وصل لتوه. وأوضح أليعازر - الذي كانوا يطلقون عليه اسم (دادو) - لشارون أسس خطة الهجوم المضاد في اليوم التالي. وحاول شارون إقناع رئيس الأركان للسماح له بالعبور بفرقته إلى الضفة الغربية في الصباح، ولكن (دادو) يكبح جماحه ويقول له إنه يجب في البداية ضرب رءوس الكباري المصرية قبل التفكير في العبور. وكان موضوع إنقاذ الأفراد المحاصرين في حصون خط بارليف هو الشغل الشاغل للجنرال شارون باعتباره واجبا إنسانيا ملحا. وقد سبق له قبل مجيئه وضع خطة لإنقاذ أفراد الحصون الثلاثة في قطاعه وهي حصون متسميد (الدفرسوار) ولا كيكان (تل سلام) وبوتزر (كبريت شرق)، وقد تحدث بنفسه لا سلكيا مع قادة اثنين منها، أما الحصن الثالث فقد لقي الضباط فيه مصرعهم، ولم يجد شارون أحدا يتصل به بالحصن سوى عامل إشارة من الاحتياط كان يعمل قبل الحرب جرسونا في القدس.

وبادر شارون بطرح خطته على رئيس الأركان لإنقاذ الأفراد المحاصرين، ولكن رئيس الأركان اقترح عليه بحث الموضوع مع الجنرال جونين، وأن يؤجل ذلك انتظارا لما سوف يسفر عنه الهجوم المضاد في الغد. وحاول شارون بحث الموضوع ثانية مع الجنرال جونين، ولكن الحديث معه لم يؤد إلى تغيير رأيه، فقد أوضح جونين لشارون خطورة تنفيذ خطته لإنقاذ الحصون، إذ إن هذه الخطة سوف تكلف الجيش الإسرائيلي ٥٠ دبابة على الأقل، ولكنه كان يأمل في إمكان الوصول إلى بعض الحصون خلال الهجوم المضاد في اليوم التالي.

وحوالي منتصف الليل، توجه موشى ديان مع الجنرال أليعازر عقب عودته إلى تل أبيب إلى غرفة العمليات بمقر رئاسة الأركان. وكان رئيس الأركان يتمتع بروح معنوية عالية وأخذ يشرح لضباط رئاسة الأركان في حضور وزير الدفاع أسس خطة الهجوم المضاد في اليوم التالي الذي كان يأمل أن يكون هو نقطة التحول في الحرب، فقد كان يستهدف منه سحق القوات المدرعة المصرية التي عبرت القناة واتخذت مواقعها على طول الضفة الشرقية لها. وكان أمل القيادة الإسرائيلية كبيرا في نجاح الهجوم المضاد، فقد أرسلت تعزيزات ضخمة من الدبابات إلى الجبهة الجنوبية، وبات من المتوقع أن يكون اليوم التالي هو يوم الدروع المتصارعة.

وفي مقر القيادة الإسرائيلية بسيناء وضع الجنرال جونين عند منتصف الليل خطته التفصيلية للهجوم المضاد التي خصص فيها المهام بدقة للفرق المدرعة التي ستقوم بالهجوم. وقد انتقد الجنرال إبراهام أدان (برن) في الكتاب الذي نشره بعد الحرب باللغة العبرية وأسماه «على ضفتي قناة السويس» الخطة التي وضعها الجنرال جونين، وذكر أنها جاءت مخالفة تماما لخطة رئيس الأركان بالإضافة إلى غموضها وعدم وضوحها. فقد حدد جونين مهمة الفرقة المدرعة التي كان يقودها أدان بأن تتولى تطهير خط القناة في القطاع الشمالي في المنطقة الواقعة ما بين طريق المدفعية شرقا وخط المياه غربا وإنقاذ وتحرير القوات التي داخل حصون خط بارليف في هذه المنطقة وسحب الدبابات التي تعطلت والاستعداد للعبور إلى الضفة الغربية للقناة. وأوضح أدان أن خطة جونين تضمنت أمرين لم يقرهما رئيس الأركان: أولهما تحرير الأراضي حتى خط المياه (رغم تحذيره بعدم اقتراب الدبابات المهاجمة من التلال الترابية الواقعة شرق القناة). والأمر الثاني هو الاستعداد للعبور إلى الضفة الغربية دون تهيئة الظروف المناسبة لذلك. وانتقد الجنرال أدان خلو خطة جونين من تحديد الخط الذي تتوقف عنده القوات الإسرائيلية بعد العبور إلى الضفة الغربية، وكذا عدم ذكر الحدود التي تفصل بين الفرق المدرعة بعضها وبعض.

وفضلا عن ذلك، فقد ذكر الجنرال أدان أن جونين خالف أمر رئيس الأركان من جهة عدم تأخير الهجوم إلى حين إتمام وصول القوات المدرعة الاحتياطية التي كان عدد دباباتها سيرفع من عدد دبابات الجبهة إلى حوالي ٧٠٠ دبابة، إذ إن جونين قرر بدء الهجوم في الصباح رغم أن عدد الدبابات في الفرق المدرعة الاحتياطية الثلاث لم يزد وقتئذ على حوالي ٥٠٠ دبابة مما كان يحقق للدبابات المصرية على الضفة الشرقية للقناة تفوقا كبيرا في العدد.

ورغم مخالفة خطة جونين للخطوط الأساسية التي وضعها رئيس الأركان، فإن الجنرال أليعازر عند وصوله إلى مقر قيادته في تل أبيب في الخامسة والنصف صباح يوم ٨ أكتوبر، وحينما عرض عليه رئيس العمليات برئاسة الأركان خطة الهجوم المضاد التي تلقاها من الجنرال جونين، أقرها وأبلغ جونين بتصديقه عليها. وقد أدى هذا التصرف إلى تعرضه لموجة من النقد العنيف عقب فشل الهجوم المضاد كما سيتضح فيما بعد، رغم أنه ثبت أنه كرر خلال اتصاله بجونين تحذيره له من مغبة الاقتراب بقواته من قناة السويس، كما أبدى له تشاؤمه بشأن إمكان العبور على كبار مصرية إلى الضفة الغربية للقناة. وقد فضل الجنرال جونين إبلاغ خطة الهجوم المضاد التي وضع تفصيلاتها إلى قادة الفرق عن طريق الاتصال بهم لا سلكيا، وقد وجه إليه النقد لاتباعه هذه الوسيلة، إذ لو كان توجه إلى المراكز الأمامية لقيادات الفرق لمناقشة تفاصيل الخطة مع قادتها لأمكنه أن يطلع بنفسه على أوضاع كل فرقة على الطبيعة، ولكان قد أدرك ما في خطته من مخالفة للواقع ومدى استهانته بقوة المصريين، مما جعله يدفع ثمنا باهظا لذلك فيما بعد.

وتلقى الجنرال أدان لا سلكيا واجب فرقته التي كانت مكلفة وفقا للخطة بالهجوم على الجيش الثاني. وكانت مهمتها تتلخص في التقدم من القنطرة جنوبا وتدمير القوات المصرية حتى الدفرسوار، ومن هناك يتم العبور إلى الضفة الغربية للقناة، على أن تقوم الفرقة خلال هجومها بإنقاذ الجنود المحاصرين في حصون هيزايون (الفردان) وبوركان (رقم ٦ شرق الإسماعلية) ومتسميد (الدفرسوار). وحدد جونين مهمة شارون في التقدم جنوبا بفرقته من الدفرسوار في اتجاه السويس ومن موقع حصن نيسان (شرق السويس) يتم العبور إلى الضفة الغربية واحتلال مدينة السويس، ثم الاندفاع غربا إلى مسافة ٢٠ كم من الشاطئ الغربي للقناة.

ويتضح من هذه الخطة التي وضعها جونين، والتي بنيت على أساس عبور فرقتي أدان وشارون قناة السويس وإنشاء رأس كوبري إسرائيلي على الضفة الغربية للقناة إلى عمق ٢٠كم، مقدار جهله بحقيقة الوضع العسكري للقوات المصرية، كما يتضح أيضا مدى سوء الفهم داخل المعسكر الإسرائيلي، إذ كان التفاهم يكاد يكون مفقودا بين رئاسة الأركان وقيادة الجبهة الجنوبية، وكان على أسوأ ما يكون بين القيادة الجنوبية وقادة الفرق المدرعة الثلاث.

مزايا العبور إلى الغرب من قطاع الفردان

كانت المهمة التي خصصت للجنرال إبراهام أدان (برن) قائد القطاع الشمالي تقضي بالهجوم في الصباح بفرقته المدرعة من اتجاه الشمال إلى اتجاه الجنوب بالقرب من الشاطئ الشرقي للقناة، بهدف تدمير القوات المصرية في القطاع ما بين القنطرة شمالا والدفرسوار جنوبا واستغلال النجاح للعبور إلى الضفة الغربية للقناة على الكباري المصرية التي يتم الاستيلاء عليها، على أن تقوم الفرقة خلال هجومها بإنقاذ الحاميات الإسرائيلية المحاصرة في حصون: هيزايون (الفردان) وبوركان (رقم ٦ الإسماعيلية شرق) ومتسميد (الدفرسوار).

وكان نجاح القوات الإسرائيلية في اختراق المواقع الدفاعية على الشاطئ الشرقي للقناة في هذا القطاع يحقق لإسرائيل عدة مكاسب عسكرية بالإضافة إلى مزايا سياسية ودعائية مهمة، فمن الناحية العسكرية، سوف تكون أجناب القوات الإسرائيلية التي سوف تنجح في الوصول إلى الضفة الغربية للقناة مؤمنة بموانع طبيعية عن طريق بحيرة المنزلة في الشمال وترعة الإسماعيلية في الجنوب. كذلك لا يحتاج هذا القطاع إلى قوات كبيرة للتمسك به، إذ لا تزيد مواجهته على ٤٥ كم، هذا في الوقت الذي يصعب فيه على القوات المصرية القيام بهجمات مضادة لاسترداده، نظرا لوجود بعض الأراضي الزراعية والأشجار بداخله، واحتوائه على كثير من الترع والمصارف والقنوات المائية. وعلاوة على ذلك، توجد بالقطاع قاعدتان جويتان مهمتان، هما الصالحية وأبو صوير، وكذا مطار الإسماعيلية. ومن الناحية السياسية، فإن استيلاء إسرائيل على ثلاث من المدن المهمة بالقطاع وهي: الإسماعيلية والقنطرة والصالحية كان كفيلا بأن يحقق لها نصرا سياسيا ودعائيا كبيرا، كما يجعل من السهل عليها عزل مدينة بور سعيد من الجنوب وحصارها تمهيدا للاستيلاء عليها، في الوقت الذي سوف يتم لها السيطرة فيه على مدخل طريقين مهمين للوصول إلى القاهرة، وهما طريق الإسماعلية القاهرة الزراعي (طريق المعاهدة) وطريق الإسماعيلية القاهرة الصحراوي.

كانت الخطة التي وضعها الجنرال إبراهام أدان لشن هجومه المضاد على مواجهة الجيش الثاني صباح يوم ٨ أكتوبر تستهدف تثبيت قوات الفرقة ١٨ مشاة في قطاع القنطرة عن طريق القيام ببعض هجمات ثانوية على مواجهة الفرقة تمهيدا لتوجيه الضربة الرئيسة على رأس كوبري الفرقة الثانية مشاة في قطاع الفردان والجنب الأيسر من الفرقة ١٦ مشاة في منطقة الإسماعيلية شرق.

وكانت مجموعة عمليات أدان في القطاع الشمالي تتكون من ثلاثة ألوية مدرعة، وهي: لواء العقيد جابي، وهولواء من الجيش النظامي كان يعمل في القطاع الشمالي من قبل، واشتبك مع قوات الجيش الثاني طوال يومي ٦ و ٧ أكتوبر في معارك الصد وفي محاولات الالتحام بحصون خط بارليف، مما أنقص كثيرا من قدرته القتالية. ولواء العقيد نيتكا، وهو لواء مدرع احتياط قدم من بئر السبع على الطريق الساحلي العريش - رمانة محمولا فوق ناقلات الدبابات، وقد سبق أن ذكرنا أنه هوجم في صباح يوم ٧ أكتوبر بواسطة قوة من رجال الصاعقة المصريين عند رمانة في أثناء إنزال الدبابات من فوق الناقلات كي تتحرك على جنازيرها إلى ساحة القتال وأصيب ببعض الخسائر. أما لواء العقيد آرييه، فهو أيضا لواء احتياط قدم يوم ٧ أكتوبر من مركز تجمع وحدات الاحتياط في بئر السبع. وفور أن نجح الجنرال أدان في حشد معظم القوات التابعة لمجموعة عملياته في القطاع الشمالي، قام بنشر ألويته المدرعة الثلاثة على الطريق العرضي رقم ٣، فقد كان يتوقع - وفقا لما ورد في كتابه «على ضفتي قناة السويس» الذي نشره بعد الحرب - أن القوات المصرية بعد النجاح الباهر الذي حققته يومي ٦ و ٧ أكتوبر سوف تستغل نجاحها في مواصلة التقدم شرقا للوصول إلى الطريق العرضي رقم ٣ الممتد من بالوظة شمالا إلى الطاسة جنوبا، فقد كان الطريق أمامها ممهدا لتحقيق ذلك الغرض، مما حدا به على أن يقول في الكتاب الذي أصدره: «والويل لنا لو أنهم قد فعلوا ذلك».

وعندما اكتشف الجنرال أدان أن القوات المصرية التي عبرت القناة اقتصرت جهودها في هذه المرحلة على عملية إنشاء وتدعيم مناطق رءوس الكباري تشجع وأمر ألويته المدرعة الثلاثة بالتقدم نحو الغرب في اتجاه الطريق العرضي رقم ٢، استعدادا لبدء عملية الهجوم المضاد. وقد حذت القوات المدرعة في القطاعين الأوسط والجنوبي حذوه بعد أن أمرها قادتها بالتقدم أيضا في اتجاه الغرب للاقتراب من رءوس الكباري المصرية. وفضلا عن منطقة المستنقعات الشمالية التي كانت تشكل مانعا طبيعيا قويا على الجنب الأيمن لفرقة الجنرال أدان، تم تخصيص قوة مدرعة بقيادة الجنرال كلمان ماجن كانت تتكون من كتيبتين مدرعتين وسرية دبابات لتأمين الجنب الأيمن للهجوم المضاد، بينما كان الجنب الأيسر مؤمنا بوجود فرقة الجنرال شارون بالقطاع الأوسط.

وكان المجهود الرئيسي للهجوم المضاد الإسرائيلي موجها نحو قطاع الفرقة ٢ مشاة بالفردان، وكانت هذه المهمة موكولة إلى اللواء المدرع الذي يتولى العقيد جابي قيادته، بعد أن تمت إعادة تنظيمه وتدعيمه على أثر معارك يومي ٦ و ٧ أكتوبر المريرة. ولتحويل أنظار المصريين عن اتجاه المجهود الرئيسي، كلف الجنرال أدان كلا من العقيد نيتكا والعقيد

آريبه بالقيام بهجمات ثانوية في الشمال على مواجهة الفرقة ١٨ مشاة بالقنطرة، وفي الجنوب على مواجهة الفرقة ١٦ مشاة في قطاعها ما بين الدفرسوار والإسماعيلية شرق.

وفي الساعة التاسعة صباح يوم ٨ أكتوبر، قامت قوة مدرعة من لواء نيتكا في الشمال تقدر بحوالي كتيبة دبابات مدعمة بمشاة ميكانيكية بالهجوم على الجنب الأيمن للفرقة ١٨ مشاة، ولكن قائد اللواء الأيمن للفرقة قام بدفع احتياطي اللواء المضاد للدبابات إلى اتجاه الهجوم وقام قائد اللواء ١٥ المدرع المستقل بأوامر من قائد الفرقة ١٨ مشاة بدفع سريتي دبابات لمعاونة اللواء الأيمن للفرقة والذي وقع ضده الهجوم. وبعد قتال عنيف تم صد الهجوم المضاد الإسرائيلي وتدمير عدد من الدبابات المعادية من طراز باتون M. 48 واضطرت القوة المدرعة الإسرائيلية إلى الارتداد شرقا.

وفي حوالي نفس التوقيت، قامت قوة مدرعة من لواء آريبه في الجنوب تقدر بكتيبة مدرعة مدعمة بمشاة ميكانيكية من اتجاه الطاسة بالهجوم على الدفاعات الأمامية على طول مواجهة الفرقة ١٦ مشاة، وبعد قتال عنيف تم تدمير ١٠ دبابات و ٦ عربات مدرعة من طراز M. 113.

هل نجحت قوات أدان المدرعة في العبور إلى غرب القناة؟

كانت تعليمات الجنرال جونين قائد القيادة الجنوبية إلى الجنرال أدان تقضي بأن يسرع بالاتجاه بقواته جنوبا في اتجاه الدفرسوار، وأن يحاول الاستيلاء على كوبري مصري سليم عند الفردان للعبور عليه بقوة مدرعة من فرقته إلى الضفة الغربية للقناة.

وأجابه أدان بأن قوته أصغر من أن تقوم بهذه المهمة، وأنه على استعداد لتنفيذها بشرط معاونته بالطيران والمدفعية. وكان الجنرال أدان قد أمر العقيد جابي في الصباح الباكر بالتقدم بلوائه المدرع من الشمال إلى الجنوب على أقرب مسافة ممكنة من القناة للقيام بالهجوم الرئيسي على قطاع الفردان الإسماعيلية بهدف تحرير موقعي هيزايون (الفردان) وبوركان (رقم ٦ الإسماعيلية شرق). كما أمر العقيد نيتكا بالبقاء بلوائه المدرع أمام قطاع القنطرة للعمل كاحتياطي للفرقة على أن يعيد تنظيم قواته استعدادا للتقدم في اتجاه الجنوب بمجرد صدور الأمر إليه بذلك. وفي الساعة السابعة والنصف صباح يوم ٨ أكتوبر، بدأت مجموعات مدرعة من لواء جابي في الظهور أمام الجنب الأيسر للفرقة ٢ مشاة، والقيام

بعملية مناورة أمام المواجهة لمحاولة اكتشاف أنسب اتجاه للوصول إلى النقطة القوية في الفردان. وعلى أثر اكتشاف قائد الفرقة ٢ مشاة العميد حسن أبو سعدة نوايا العدو، اتخذ قراره بصد وتدمير دبابات العدو القائمة بالهجوم، بإمكانات اللواء الأيسر للفرقة وباحتياطي الفرقة المضاد للدبابات وبمعاونة اللواء ٢٤ المدرع (الملحق على الفرقة ٢ من الفرقة ٢٣ مشاة ميكانيكية الموجودة ضمن احتياطي الجيش الثاني غرب القناة).

وطلب قائد الفرقة من قائد الجيش الثاني اللواء سعد مأمون المعاونة بنيران مجموعة مدفعية الجيش الثاني واحتياطي الجيش المضاد للدبابات رقم ١. وكان يتولى قيادة مدفعية الجيش الثاني وقتئذ العميد محمد عبد الحليم أبو غزالة. وصدق قائد الجيش الثاني على قرار قائد الفرقة ٢ مشاة، على أن يتم استخدام اللواء ٢٤ مدرع فقط في حالة اختراق العدو لرأس كوبري الفرقة، وألا يخرج اللواء المدرع خارج رأس الكوبري إلا بعد الحصول على تصديق منه. وأصدر قائد الجيش الثاني تعليماته بأن يجري الهجوم المضاد على العدو في حالة اختراقه نقطة الاتصال بين الفرقة ٢ مشاة والفرقة ١٦ مشاة بالتنسيق بين اللواء ٢٤ مدرع (الملحق على الفرقة ٢ مشاة) واللواء ١٤ مدرع (الملحق على الفرقة ١٦ مشاة) وبأوامر منه شخصيا. وفي الساعة التاسعة صباحا، بدأ لواء جابي الهجوم في أنساق متتابعة مركزا هجومه على اللواء الأيسر للفرقة ٢ مشاة، وتم الاشتباك معه بسريتي دبابات من اللواء ٢٤ المدرع والاحتياطي المضاد للدبابات لكل من اللواء والفرقة. وتمكنت دبابات معادية من اختراق الخط الدفاعي الأمامي للفرقة في اتجاه حصن الفردان، ولكن تم تدميرها باستخدام القنابل اليدوية المضادة للدبابات من طراز حسام وبي جي ٤٣، وارتدت باقي الدبابات الإسرائيلية في حوالي الساعة الحادية عشرة ظهرا. وقبل الظهر اتصل الجنرال يوري بن آرى نائب قائد القيادة الجنوبية بالجنرال أدان وأبلغه ببيان مهم مفاجئ، وهو أن هناك أدلة تشير إلى بدء انسحاب القوات المصرية، وأن عليه الإسراع بقواته إلى الجنوب وأن يشتبك مع القوات المصرية لتدميرها قبل أن تتمكن من الهرب ثم العبور بسرعة على الكوبري المصري الموجود في الفردان إلى الضفة الغربية للقناة. فطلب الجنرال أدان إمداده بكتيبة مدرعة من فرقة الجنرال شارون لتعزيز لواء جابي، فوعده يورى بن آرى بتلبية مطلبه. واعتقد الجنرال أدان عندما طلب منه العبور بسرعة من الفردان إلى الضفة الغربية واحتلال مواقع هناك أن تعديل الخطة في هذه المرحلة لابد أن يستند إلى عوامل مفاجئة مهمة، ونتيجة لمعلومات مؤكدة وردت من شعبة المخابرات.

وخلال تبادل الرسائل اللاسلكية التي حملت إلى الجنرال أدان أمر العبور على

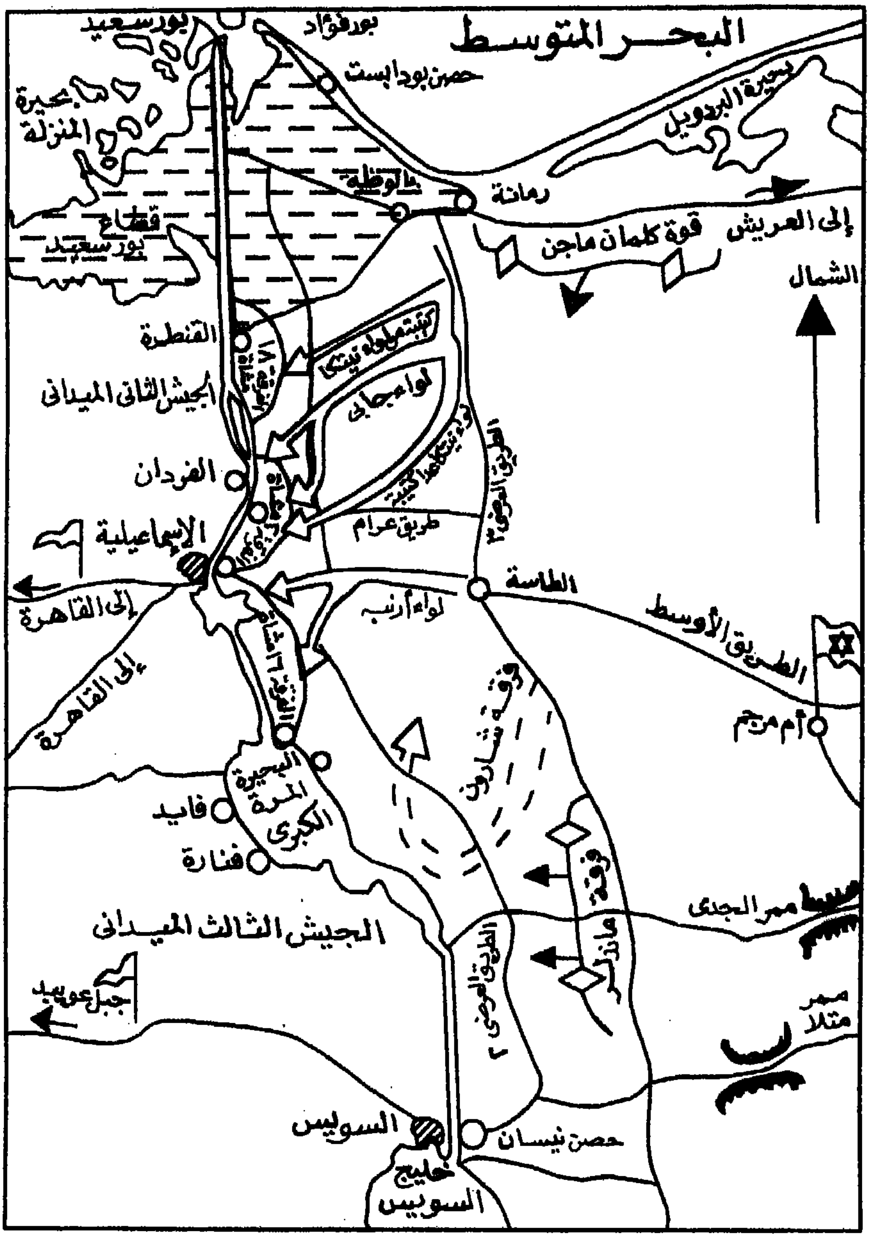
الكوبري المصري بالفردان، كان رقيب في شعبة العمليات برئاسة الأركان العامة في تل أبيب يتسمّع على شبكة الاتصالات اللاسلكية، وخيل إليه من الإشارات المتبادلة أن قوات الجنرال أدان توشك على العبور من فوق كوبري الفردان إلى الضفة الغربية للقناة. وعن طريق هذا الرقيب انتقل النبأ بسرعة من شخص إلى آخر في مقر رئاسة الأركان حتى وصل إلى العميد زئيفى مساعد رئيس الأركان، الذي سارع بالاتصال هاتفيا بالجنرال دافيد أليعازر رئيس الأركان، وكان يحضر وقتئذ جلسة لمجلس الوزراء في قاعة اجتماعاته بمقر رئاسة الوزارة في «الكرياه» بتل أبيب، في الوقت الذي قام فيه إسرائيل لينور السكرتير العسكري لجولدا مائير رئيسة الوزراء بنقل النبأ إليها، مما أشاع جوا من الابتهاج بين الحاضرين في جلسة مجلس الوزراء، ولحسن حظ السلطات الإسرائيلية، لم تتم إذاعة النبأ عن طريق المتحدث العسكري الرسمي للجيش الإسرائيلي، ولكن النبأ وصل بطريقة خاصة إلى العميد جور الملحق العسكري الإسرائيلي في واشنطن الذي أبلغه لبعض المسئولين في البنتاجون، ونجح صحفي واحد وهو مراسل صحيفة الفيجارو الفرنسية في تسريب النبأ خارج البلاد، مما جعله ينشره في باريس إلى حين اتضح بعد ذلك أنه لم يكن له أي أساس من الصحة.

وبعد أن انتهت جلسة مجلس الوزراء، اتضح لرئيس الأركان ولباقي المسئولين في إسرائيل أن الجنرال أدان ليس فقط لم يعبر بقواته وإنما أيضا قد تلقى ضربات شديدة من القوات المصرية. فعندما حاول لواء جابي تعزيز هجومه قبل الظهر بهجمة مضادة بقوة كتيبة مدرعة على الجنب الأيمن للفرقة ٢ مشاة، تمكنت قوات اللواء الأيمن من الفرقة باستخدام نيران المدفعية وأسلحة الضرب المباشر والصواريخ المضادة للدبابات من صد القوات المدرعة الإسرائيلية أمام الحد الأمامي للدفاعات، وأخذت في تدمير الدبابات واحدة وراء الأخرى، كما أصيب قائد الكتيبة في ذراعه، ولذا قرر الانسحاب تاركا حطام دباباته وأشلاء أطقمها، بينما فرت بقية الأطقم، ولم يتبق له من ٢٥ دبابة سوى ٧ دبابات، وقتل ٢٠ فردا من رجاله.

وعلى الرغم من الأمر الذي صدر إلى الجنرال شارون بإرسال كتيبة مدرعة من فرقته لإنقاذ لواء جابي الذي أصيب بخسائر فادحة، فإن شارون رفض إرسال الكتيبة بحجة أن الفرقة سوف يصدر إليها بعد قليل أمرا بالتحرك إلى الجنوب وفقا للخطة الموضوعة، وستكون الفرقة في حاجة إلى هذه الكتيبة. وبالفعل، لم تمض فترة قصيرة حتى أصدر الجنرال جونين ـ تحت تأثير اعتقاده أن خطته الموضوعة تنفذ بنجاح ـ أمرا إلى الجنرال شارون

المتمركز بفرقته في القطاع الأوسط بالتحرك من الشمال إلى الجنوب في اتجاه السويس لتنفيذ المهمة الموكولة إليه، وهي القيام بهجوم مضاد على الجيش الثالث. وقد ارتكب الجنرال شارون عند تحركه بفرقته صوب الجنوب عدة أخطاء تكتيكية: فقد غادر قطاعه دون أن يترك خلفه أي قوات من فرقته لحماية القطاع الأوسط، ولم يطلب من القيادة الجنوبية إرسال أي وحدات أخرى لملء الفراغ الذي سيحدثه تحركه إلى الجنوب، رغم أن القوات المصرية في مواجهته كانت في حالة نشاط مستمر.

وعندما أدرك الجنرال أدان مدى الفشل الذي أصيب به لواء جابي خلال هجومه على الفرقة ٢ مشاة المصرية، أصدر أمره إلى العقيد نيتكا بترك كتيبة مدرعة من لوائه أمام قطاع الفرقة ١٨ مشاة في القنطرة بغرض تثبيتها والتحرك بالكتيبتين الأخريين جنوبا إلى قطاع الفردان لتعزيز لواء جابي، تمهيدا للقيام بهجوم مشترك باللواءين في اتجاه حصن الفردان (هيزايون). وبادر نيتكا بالتحرك في الحال واتجه بكتيبتيه إلى الجنوب حيث احتشدت مدرعاته إلى جانب مدرعات العقيد جابي على طريق المدفعية (الطريق العرضي رقم ٢). وفور وصول نيتكا، اجتمع مع زميله جابي تحت قصف عنيف من نيران المدفعية المصرية، واطلع منه على آخر تطورات الموقف. وقد شكا له جابي من النقص الشديد في معاونة المدفعية الإسرائيلية لقواته وكذا العجز الواضح في المساعدة الجوية. وكان العقيد نيتكا رجلا قصير القامة بطيء الحركات، وعندما كان قائدا لإحدى الكتائب المدرعة في حرب يونيو عام ٦٧ أصيب بجراح بليغة في ساقيه نتيجة إصابة دبابته بدانة مدفع خلال مهاجمته أحد المواقع المصرية في منطقة أم قطف (أبو عجيلة). وقد أجريت له أكثر من عملية جراحية، وأصبح جزء كبير من إحدى ساقيه صناعيا، ورغم ذلك فإن هذه الإصابات لم تحطم روحه المعنوية، ومارس ضغطا على قادته حتى وافقوا على إعادته إلى قيادة مقاتلة رغم ما كان يواجهه من معوقات. وكان يحتاج إلى مساعدة أحد رجاله حتى يصعد أو يهبط من الدبابة، ولكن قوة معنوياته أصبحت حديث الجيش كله، وأصبح يعرف باسم البولدج الآدمي. وفي الساعة الثانية عشرة ظهرا، احتشدت قوة نيتكا (لواء مدرع عدا الكتيبة التي تركت أمام القنطرة)، وجعل محور هجومه الرئيسي الطريق الممهد والمتفرع من الطريق العرضي رقم ٣ إلى الفردان (كان المصريون يطلقون عليه اسم طريق عرام)، وعلى يمينه احتشدت المدرعات الباقية من لواء جابي والتي لم تكن تزيد بعد المعركة التي جرت مع اللواء الأيمن من الفرقة ٢ مشاة على ٢٥ دبابة فقط. وكانت قوات الهجوم المضاد الرئيسي تفتقر إلى قوات المشاة الميكانيكية وإلى المعونة الكافية من المدفعية والطيران.



الهجوم المضاد الإسرائيلي يوم ٨ أكتوبر ١٩٧٣م

نجحت إحدى مجموعات استطلاع الفرقة ٢ مشاة في اكتشاف أن قوة من العدو تقدر بحوالي ٧٥ دبابة متجمعة شرق كثيب العجرمية شمال شرق رأس كوبري الفرقة. وفي الساعة الثانية عشرة ظهرا وعشر دقائق، التقطت الفرقة إشارة لاسلكية باللغة العبرية أرسلها العقيد نيتكا إلى قيادته تفيد باستعداده لبدء الهجوم بأقصى سرعة بعد ٢٠ دقيقة في اتجاه الفردان. ونظرا لضيق الوقت، اتخذ العميد حسن أبو سعدة قائد الفرقة الثانية قرارا سريعا على مسئوليته الشخصية لمواجهة هجوم العدو المنتظر الذي قدر أنه سوف يوجه ضد نقطة الاتصال بين لواءى النسق الأول للفرقة، باعتبار أن هذا الاتجاه هو أقرب الطرق للوصول إلى نقطة الفردان الحصينة (هيزايون) التي كانت لا تزال تقاوم حتى ذلك الوقت، كما أن نجاح الهجوم في هذا الاتجاه كان من المنتظر أن يؤدي إلى قطع رأس كوبري الفرقة إلى جزأين يسهل بعدها تدمير كل جزء منهما على حدة. وكان قرار قائد الفرقة الثانية يعتبر أسلوبا جديدا لتدمير العدو، وهو جذب قواته المدرعة إلى أرض قتل داخل رأس كوبري الفرقة والسماح لها باختراق الموقع الدفاعي الأمامي والتقدم حتى تصل إلى مسافة ٣ كم من القناة. وكانت الخطة مرسومة على أساس تدمير القوات المدرعة التي سوف تتوغل داخل رأس الكوبري عن طريق مواجهتها بلواء النسق الثاني للفرقة (اللواء المشاة الميكانيكي) واللواء ٢٤ المدرع احتياطي الفرقة، وكذا باحتياطي الفرقة المضاد للدبابات واحتياطي الجيش المضاد للدبابات رقم ٢، مع المناورة باحتياطيات ألوية النسق الأول المضادة للدبابات لاحتلال الخطوط الجانبية للمنطقة التي اختيرت وسط رأس كوبري الفرقة لتكون أرض القتل التي سيتم فيها سحق دبابات العدو.

وفي نفس الوقت، كان التخطيط موضوعا لحصار العدو في أرض القتل بإغلاق خط الرجعة عليه بواسطة الكتيبة اليمين التي سيتم اختراقها من لواء النسق الأول الذي على يسار الفرقة لمنع أي دبابة من الخروج من رأس الكوبري. وكان قرار قائد الفرقة ٢ مشاة خطيرا، ولكن المفاجأة فيه كانت مذهلة مما ساعد على النجاح.

وفي الساعة الثانية عشرة والنصف ظهراً، قام لواء نيتكا بالهجوم المضاد وركز هجومه كما كان منتظرا في المسافة بين نقط الاتصال بين لواءي النسق الأول. وقد جرى الهجوم الإسرائيلي في نسقين متتابعين، وتقدمت كتيبة النسق الأول بسرعة عالية تصل إلى حوالي ٤٠ كم في الساعة، وقامت الكتيبة اليمين من لواء اليسار التي وقع عليها ثقل الهجوم بتنفيذ مهمتها وقبول الاختراق في مواقعها الأمامية وجذب العدو في اتجاه أرض القتل،

ثم محاصرته من الخلف ومنع ارتداده نحو الشرق. وبمجرد دخول دبابات لواء نيتكا أرض القتل السابق إعدادها، وبأوامر من قائد الفرقة ٢ مشاة، انطلقت النيران من مدافع دبابات اللواء ٢٤ المدرع ومن جميع الأسلحة والصواريخ من الاحتياطيات المضادة للدبابات التابعة للألوية والفرقة والجيش ومن جميع الاتجاهات صوب دبابات العدو التي قامت بالاختراق. وكان لواء النسق الأول اليسار الذي حدث فيه الاختراق قد دفع كل أطقم اقتناص الدبابات المسلحة بمقذوفات آر بي جي وصواريخ المالوتكا خلف القوات الإسرائيلية التي دخلت رأس الكوبري، مما أحال أرض القتل إلى نوع من الجحيم. وخلال ١٣ دقيقة، تم تدمير معظم دبابات العدو وتم الاستيلاء على ٨ دبابات إسرائيلية سليمة، كما تم أسر المقدم عساف ياجوري قائد كتيبة النسق الأول في لواء نيتكا بواسطة مجموعة من اللواء المشاة الميكانيكي (النسق الثاني للفرقة) بقيادة النقيب يسري عمارة والملازم فتحي بخيت بعد تدمير دبابته ومحاولته الهرب مترجلا في اتجاه الشرق. وعندما انقشعت سحب الدخان التي كانت تغطي سماء المعركة، وجد نيتكا أنه لم يبق سليما من مجموع القوة التي بدأت الهجوم سوى ٤ دبابات بما فيها دبابته. وكان لواء جابي يتقدم على يمين لواء نيتكا، ولكنه توقف بعد قليل بعد أن بدأت دباباته تحترق، وطلب بإلحاح من قائده مساعدة جوية عاجلة، ولكنه لم يتمكن من الحصول عليها رغم طلبها عدة مرات. وإزاء الخسائر الجسيمة التي حاقت بلواءي نيتكا وجابي وتدمير معظم دبابات اللواءين، اضطر الجنرال أدان إلى التصديق على طلبهما بالانسحاب فورا من المعركة والعودة إلى اتجاه الشرق صوب الطريق العرضي رقم ٣ واحتلال المواقع المجهزة في العمق. وانتهت المعركة في الساعة الثانية ظهرا. وبمجرد انتهاء المعركة اتخذ قائد الفرقة الثانية قراره بتطوير الهجوم شرقا لتحقيق المهمة التالية للفرقة.

تحقيق أهداف المرحلة الأولى من الخطة بدر

جاءت نتائج الهجوم المضاد الذي جرى يوم ٨ أكتوبر مخيبة لآمال الإسرائيليين. ففي قطاع الجيش الثاني في الشمال تمكنت الفرقتان ١٨ مشاة في قطاع القنطرة و ١٦ مشاة في قطاع الدفرسوار - الإسماعيلية شرق من صد الهجمات المضادة التي تعرضت لها وحداتهما منذ صباح يوم ٨ أكتوبر، وأوقعت بالمهاجمين خسائر جسيمة. أما في قطاع الفردان فقد تمكنت الفرقة ٢ مشاة من سحق اللواء المدرع الذي كان يتولى قيادته العقيد نيتكا، ومن أسر قائد إحدى كتائبه وهو العقيد عساف ياجوري، وكذا في إلحاق خسائر

فادحة باللواء المدرع الذي كان يقوده العقيد جابي. وإزاء الخسائر الجسيمة التي حاقت بالفرقة المدرعة الإسرائيلية في أثناء قيامها بالهجوم المضاد الرئيسي على فرق المشاة المصرية في قطاع الجيش الثاني، اضطر الجنرال إبراهام أدان (برن) قائد الفرقة إلى إصدار أوامره إلى قادة ألويته المدرعة الثلاثة (العقداء نيتكا وجابي وآرييه) بالانسحاب شرقا صوب الطريق العرضي رقم ٣ واحتلال المواقع المجهزة في العمق. وقد لعبت مدفعية الجيش الثاني دورا بارزا في تشتيت شمل وحدات الهجوم المضاد الإسرائيلي إلى درجة أن مركز قيادة الجنرال أدان المتقدم وقع قبل انتهاء المعركة تحت وابل من نيران المدفعية المصرية فقتل أحد ضباط أركان حربه، واضطر الجنرال أدان إلى القفز من مكانه والابتعاد بمركز قيادته بعيدا عن نيران المدفعية، وقام نائب الجنرال أدان بإخلاء الجرحى بنفسه من مركز القيادة إلى نقطة إسعاف خلفية.

وكان الجنرال جونين قائد القيادة الجنوبية الإسرائيلية قد ارتكب خلال ذلك الهجوم أخطاء تكتيكية جسيمة، كان من أبرزها إصدار الأمر إلى الجنرال شارون المتمركز بفرقته المدرعة في القطاع الأوسط بالتحرك من قطاعه إلى اتجاه السويس في الجنوب للقيام بهجوم مضاد على الجيش الثالث وفقا للخطة الموضوعة من قبل، تحت تأثير اعتقاد خاطئ بأن خطته تنفذ بنجاح. ولو كان الجنرال جونين قد عرف الوضع الحقيقي لقواته في ساحة القتال كما كان واجبه بوصفه قائدا عاما للجبهة الجنوبية لما أصدر هذا الأمر الخاطئ. فلقد كان الموقف يستدعى منه سرعة تحريك فرقة شارون إلى الشمال وليس إلى الجنوب لتدعيم فرقة الجنرال أدان التي كانت ألويته المدرعة تتلقى وقتئذ أقسى الضربات من القوات المصرية، وكانت في أشد الحاجة إلى نجدة قوية لتعزيز هجومها المضاد الذي لم يلبث أن فشل تماما في حوالي الساعة الواحدة ظهرا. وعندما تنبه جونين أخيرا إلى خطورة موقف الجنرال أدان في الشمال، تدارك الخطأ التكتيكي الذي ارتكبه، فأصدر أمرا ثانيا إلى الجنرال شارون الذي كان وقتئذ مندفعا بفرقته نحو الجنوب بوقف تقدمه في اتجاه السويس والعودة ثانية إلى قطاعه والاشتراك في الهجوم على القوات المصرية لمحاولة تدعيم وضع فرقة الجنرال أدان المتدهور في الشمال. ولكن الجنرال شارون أجابه بأنه لم يعد في مقدرة فرقته بعد كل هذه التحركات الطويلة التي قامت بها والتي ضاعت هباء القيام بهجوم مضاد على قوات الجيش الثاني لنجدة الجنرال أدان.

وفي الوقت الذي لحق فيه الفشل بالخطط الإسرائيلية وتوالت فيه الضربات الموجعة على قواتها المدرعة في سيناء، كان يوم الاثنين ٨ أكتوبر يوما ناجحا بالنسبة للقوات

المصرية على جميع المستويات. فعلى أثر صد الهجمات الإسرائيلية المضادة على رءوس الكباري المصرية في القطاع الشمالي على الضفة الشرقية للقناة، صدرت أوامر اللواء سعد مأمون قائد الجيش الثاني إلى قادة الفرق ١٦ و ٢ و ١٨ مشاة بتطوير الهجوم شرقا وتوسيع رءوس كباري الفرق بالتنسيق والتعاون بعضها مع بعض للاستيلاء على الخط العام بعمق ٨ ـ ١٠كم شرق القناة المحدد لها كمهمة تالية وفقا للخطة الموضوعة، مع تدمير وتصفية جميع النقط القوية للعدو في قطاع هذه الفرق والاستعداد لصد وتدمير الهجوم المضاد الرئيسي المنتظر للعدو.

وبناء على تلك الأوامر، أصدر قائد كل فرقة من الفرق المشاة الثلاث أمره إلى لواءي النسق الأول المشاة بتوسيع رأس الكوبري وتأمين دفع لواء النسق الثاني (اللواء المشاة الميكانيكي بكل فرقة) بقصفة نيران لمدة ١٥ دقيقة بواسطة مجموعات مدفعية الألوية ومجموعة مدفعية الفرقة لكي يتم للواء المشاة الميكانيكي تحت غطاء المدفعية اتخاذ وضعه الجديد في المسافة الخالية بين لواءي النسق الأول، ليصبح تشكيل كل فرقة في أثناء تقدمها إلى خط المهمة التالية هو ثلاثة ألوية مشاة في النسق الأول بينما يصبح اللواء المدرع الملحق بالفرقة هو النسق الثاني لها.

ففي قطاع الفرقة الثانية بالفردان أصدر قائد الفرقة العميد حسن أبو سعدة أمره إلى تشكيلات ووحدات الفرقة باستغلال النجاح وتطوير الهجوم شرقا وفقا للخطة الموضوعة للاستيلاء على خط المهمة التالية بالتعاون مع قوات الفرقة ١٦ مشاة على الجنب الأيمن للفرقة مع سرعة تدمير نقطتي العدو القويتين في الفردان (هيزايون) ونمرة ٦ الإسماعيلية شرق (بوركان).

وفي ساعة س (الرابعة مساء)، بدأت قوات الفرقة الثانية في التقدم شرقا بعد قصفة نيران مركزة لمدة ١٥ دقيقة، وتمكنت ألوية النسق الأول الثلاثة من الضغط على بعض سرايا الدبابات الإسرائيلية التي تركها العدو لحماية انسحاب قواته بعد فشل الهجوم المضاد، مما أدى إلى تدمير عدد من هذه الدبابات وإجبار الباقي منها على الانسحاب شرقا. وقد نجح اللواء الأيمن في الفرقة في مفاجأة العدو واقتحام أحد مراكز قياداته الأمامية في تبة الشجرة والاستيلاء عليه بكامل وثائقه وأسلحته ومعداته، وكان الإسرائيليون يطلقون عليه اسم (موقع حموتال) Hamutal. ونظرا لارتفاع هذا الموقع وتحكمه في مدخل الطريق الأوسط (الإسماعيلية شرق ـ الطاسة) وسيطرته على كل المنطقة المحيطة به، فقد اعتبرت القيادة الإسرائيلية أن سقوطه في يد المصريين يعد خسارة تكتيكية

فادحة بالنسبة لها. وفي حوالي الساعة التاسعة مساء نجحت ألوية الفرقة الثلاثة في الاستيلاء على الخط العام تبة الشجرة - بير الهودة بعمق ٨ كم شرق القناة محققة بذلك المهمة التالية للفرقة. وخلال معركة الاستيلاء على خط المهمة التالية نجحت كتيبة من اللواء الأيسر للفرقة الثانية في اقتحام نقطة العدو القوية في الفردان (حصن هيزايون) في قتال متلاحم اتسم بالشراسة والعنف، ورفعت عليه العلم المصري في الساعة الخامسة مساء، وبلغت خسائر حامية الحصن ١٥ قتيلا من بينهم ضابط وتسعة من الأسرى وكمية كبيرة من الأسلحة والمعدات. وفي ليلة ٨/ ٩ أكتوبر قامت قوة مشاة ميكانيكية من اللواء المشاة الميكانيكي بتصفية وتطهير نقطة العدو القوية نمرة ٦ الإسماعيلية شرق (حصن بوركان) تحت إشراف رئيس عمليات الفرقة واستولت على ما فيه من أسلحة ومعدات ووثائق.

وأصدر قائد الفرقة الثانية أمره إلى وحداته لتعزيز خط المهمة التالية وإجراء التجهيزات الهندسية اللازمة وتنسيق خطط النيران استعدادا لصد هجوم العدو المضاد المنتظر. وفي قطاع الفرقة ١٦ مشاة الممتد من الدفرسوار إلى الإسماعيلية شرق وعقب صد الهجمات المضادة التي قام بها لواء العقيد آرييه على مواجهة الفرقة صباح يوم ٨ أكتوبر، أصدر قائد الفرقة العميد عبد رب النبي حافظ أمره في حوالي الساعة الثانية ظهرا بتطوير الهجوم شرقا لتحقيق المهمة التالية للفرقة، مع مهاجمة نقطة العدو القوية في الدفرسوار (حصن متسميد) والاستيلاء عليها، وكان الحصار مضروبا عليها منذ يوم ٦ أكتوبر. وفي ساعة س (الواحدة والنصف ظهرا) بدأت قوات الفرقة ١٦ مشاة في التقدم شرقا بعد قصفة نيران مركزة لمدة ١٥ دقيقة، ودفعت تشكيلات الفرقة مجموعات اقتناص الدبابات إلى الأمام قبل موعد الهجوم لاصطياد دبابات العدو، وكذا دوريات الاستطلاع لملاحقة تحركات قواته المنسحبة في اتجاه الشرق. وقبل الغروب تم لألوية الفرقة الثلاثة الوصول إلى الخط العام كثيب الخيل - أبو وقفة، وقامت بتعزيز مواقعها الدفاعية وتنسيق خطط النيران والاستعداد لصد وتدمير الهجوم المضاد المنتظر للعدو بالتعاون مع الفرقة ٢ مشاة التي على الجنب الأيسر للفرقة. . وخلال عملية تطوير الفرقة ١٦ مشاة لهجومها شرقا، تم لها اكتشاف النقطة ٥٧ وهي نقطة قوية للعدو تقع جنوب غرب موقع الطالية وعلى مسافة ٨ كم شرق القناة.

وقد نجح العدو في القيام بعملية إخفائها وتمويهها إلى الحد الذي جعل عناصر الاستطلاع المدفوعة من تشكيلات الفرقة للأمام تعجز عن اكتشافها، كما لم تظهر بتاتا في

الصور الجوية التي التقطت للمنطقة. وقد بقيت هذه النقطة القوية مخفاة عن أعين القوات المصرية منذ بدء العبور يوم ٦ أكتوبر حتى بدء تطوير الهجوم للفرقة ١٦ مشاة بعد ظهر يوم ٨ أكتوبر، إذ قامت حاميتها بفتح نيرانها على كتيبتي النسق الأول من اللواء الأوسط في تشكيل الفرقة (اللواء المشاة الميكانيكي) بعد أن تجاوزتها الكتيبتان بهدف إحباط الهجوم وقطع خط الرجعة عليهما، ولكن كتيبة المشاة الميكانيكية التي كانت تعمل كنسق ثان للواء الميكانيكي قامت في الحال بالاشتباك مع القوة الإسرائيلية، ونجحت إحدى سراياها في اقتحام النقطة الحصينة والاستيلاء عليها بعد أن دمرت دبابتين وثلاث عربات لوري وعربتين مدرعتين. وبتفتيش النقطة، عثر فيها على خرائط ووثائق مهمة وجهاز ضخم للرؤية الليلية وعدد وافر من الأسلحة والمعدات، كما تم العثور على تكديسات ضخمة من الذخيرة والتعيينات والمياه تكفي حاميتها للقتال لمدة أسبوعين. ونظرا لأهمية هذه النقطة وتحكمها في كل المنطقة المحيطة بها، حاول العدو استردادها بشتى الوسائل مما دعاه إلى أن يشن عليها خمس هجمات مضادة متتالية يومي ٨ و ٩ أكتوبر، ولكنها صدت جميعا بعد أن تكبد العدو خسائر كبيرة.

وخلال عملية تطوير الهجوم، قامت كتيبة من اللواء الأيمن للفرقة ١٦ مشاة بالهجوم على النقطة القوية في الدفرسوار (حصن متسميد)، وهي نقطة قوية التحصين علاوة على أهميتها الحيوية نظرا لوقوعها عند نقطة التقاء قناة السويس مع البحيرة المرة الكبرى، وكانت تتكون من موقعين حصينين تفصلهما مسافة حوالي ٥٠٠ متر، وتوجد في المسافة بينهما نقطة تابعة لهيئة الرقابة الدولية. وقد بدأ هجوم الكتيبة المشاة في الساعة الثامنة مساء. وعندما فشل الهجوم عادت الكتيبة المصرية لتشن هجومها مرة ثانية بعد منتصف الليل، وتمكنت بعد قتال عنيف من الاستيلاء على الموقع الذي في الشمال، وباستخدام الموقع الذي سقط في يدها كقاعدة نيران قامت الكتيبة بالهجوم على الموقع الجنوبي واستولت عليه قبل الفجر، وغنمت كل ما كان في داخل الحصن من أسلحة ومعدات ووثائق ومؤن، وتم لها أسر ٥ ضباط و ٣٢ صفا وعسكريا وثلاثة أفراد من أعضاء هيئة الرقابة الدولية، كما عثرت بداخله على ٢٠ قتيلا.

وفي خارج رأس كوبري الفرقة ١٦ مشاة وإلى الجنوب الشرقي من النقطة القوية بالدفرسوار (متسميد) التي تم الاستيلاء عليها، كانت تقع على الطرف الشمالي الشرقي من البحيرة المرة الكبرى نقطة قوية أطلق عليها المصريون اسم تل سلام (حصن لاكيكان). وقد ثبت من المراجع الإسرائيلية أن حامية الحصن قامت بإخلائه يوم ٨ أكتوبر، واعتلى جميع

أفرادها العربة نصف جنزير الوحيدة التي كانت لديهم وتمكنوا في خلال ساعة من الوصول إلى خطوط الجيش الإسرائيلي. وقد ظل هذا الحصن خاليا بعد أن تركته حاميته الإسرائيلية، إذ لم تكن ضمن مسئولية الفرقة ١٦ مشاة احتلال هذا الموقع الذي كان يقع إلى الشرق من رأس كوبري الفرقة بمسافة تبلغ حوالي ٥كم. وفي الوقت الذي قامت فيه الفرقتان ٢ و ١٦ مشاة بتطوير هجماتهما نحو الشرق، قامت الفرقة ١٨ مشاة بقيادة العميد فؤاد عزيز غالي في قطاعها في أقصى الشمال (منطقة شمال البلاح - القنطرة - الكاب) بتطوير هجومها شرقا بعد دفع لواء النسق الثاني تحت قصف مدفعي مركز لمدة ١٥ دقيقة. ونظرا لعدم اصطدامها في أثناء تقدمها بأي قوات للعدو، فقد نجحت في مساء يوم ٨ أكتوبر في الوصول إلى الخط المحدد لمهمتها النهائية بعمق حوالي ١٠ كم شرق القناة دون التوقف على خطة المهمة التالية، وأخذت في تنظيم الدفاع عن رأس كوبري الفرقة استعداداً لصد وتدمير احتياطيات العدو التعبوية التي كان من المنتظر قيامها بالضربات المضادة.

وفي قطاع الجيش الثالث في الجنوب، أصدر اللواء عبد المنعم واصل قائد الجيش الثالث الميداني أوامره يوم ٨ أكتوبر إلى قائدي الفرقتين ١٩ و ٧ مشاة بعد صد هجمات العدو التكتيكية على فرقتيهما بتطوير هجومهما شرقا للوصول إلى خط المهمة التالية. ونظرا لعدم قيام العدو صباح يوم ٨ أكتوبر بهجمات مضادة رئيسية على رأس كوبري الفرقة ١٩ مشاة، فقط أصدر العميد يوسف عفيفي قائد الفرقة أمره إلى تشكيلات فرقته بالتقدم في اتجاه الشرق لتحقيق المهمة التالية. وحاولت مجموعات من دبابات العدو عرقلة تقدم قوات الفرقة بالقيام بهجمات مضادة على نقط الاتصال بين ألوية النسق الأول، ولكنها باءت جميعا بالفشل بسبب كثافة نيران المدفعية وقيام الطائرات المصرية بمهاجمة مرابض مدفعية العدو بعيدة المدى من عيار ١٧٥م. وكانت النقطة القوية الإسرائيلية شرق نقطة الكوبري «حصن مفزية Mafzeah» قد تم حصارها بقوة من اللواء الأيسر من الفرقة ١٩ مشاة منذ بدء العبور يوم ٦ أكتوبر. ورغم قيام القوة المصرية بمهاجمتها مرتين فإنها لم تتمكن من اقتحامها، وكان السبب الرئيسي لفشل الهجوم هو تعرض القوة المصرية المهاجمة لنيران المدفعية الإسرائيلية البعيدة المدى والطيران بدقة شديدة، مما جعل قائد اللواء الأيسر للفرقة يستنتج أن هناك دون شك نقطة ملاحظة قريبة تدار منها مدفعية وطيران العدو. ونظرا لوجود نقطة رقابة دولية جنوب الحصن الإسرائيلي بمسافة ٢٠٠ متر، فقد كلف قائد اللواء كتيبة مشاة لدفع مجموعة منها لتفتيش نقطة الرقابة الدولية. واكتشفت المجموعة عند دخولها النقطة الدولية وجود ضابط

إسرائيلي برتبة ملازم أول وكان مزودا بجهاز توجيه طائرات وجهاز إرسال لاسلكي لإدارة نيران المدفعية، فقامت القوة بأسره ومعه كل أجهزته. ومنذ تلك اللحظة توقفت نيران مدفعية العدو بعيدة المدى وطيرانه، وأصبح من المتيسر لقواتنا اقتحام حصن مفزية. وعلى ذلك قامت قوة من اللواء الأيسر للفرقة ١٩ مشاة بمهاجمة الحصن الإسرائيلي للمرة الثالثة ونجحت في اقتحامه والاستيلاء عليه في الساعة الثالثة مساء يوم ٨ أكتوبر، وبلغت خسائر العدو ٣٨ قتيلا و ١٥ أسيرا من بينهم ضابط، وتم الاستيلاء على كمية ضخمة من الأسلحة والمعدات. وبعد ظهر ٩ أكتوبر، تمكن اللواء ٢ مشاة ميكانيكي بقيادة العقيد الفاتح كريم من احتلال جبل المر المتحكّم في المنطقة. وعلى أثر ذلك قامت الفرقة ١٩ مشاة بتطوير هجومها شرقا والاستيلاء على الخط العام: جبل أبو غلام وجبل المر واتجاه مضيق متلا بعمق ٨كم شرق القناة، محققة بذلك المهمة التالية للفرقة. وقامت بتعزيز الموقع الدفاعي وتنسيق خطط النيران والاستعداد لصد الهجوم المضاد التعبوي المنتظر من العدو والتعاون مع الجار الأيسر - الفرقة ٧ مشاة - تمهيدا لتحقيق المهمة النهائية والدخول في رأس كوبري الجيش. وفي قطاع الفرقة ٧ مشاة ارتد العدو الذي كان يحتل خط نيران أمام مواجهة اللواء الأيسر للفرقة في أول ضوء يوم ٨ أكتوبر. وفي الساعة الحادية عشرة قبل الظهر تم دفع اللواء المشاة الميكانيكي بين لواءي النسق الأول بعد قصفة نيران مركزة من المدفعية استعداداً لتطوير الهجوم شرقا لتحقيق المهمة التالية للفرقة. وحتى يمكن تأمين تقاطع طريق الشط - مضيق الجدي، وهي المنطقة التي اتخذ منها العدو قاعدة لانطلاق هجماته المضادة على الجانب الأيسر للفرقة نظرا لطبيعتها الحاكمة في المنطقة، أصدر قائد الفرقة السابعة العميد أحمد بدوي أمره إلى قائد اللواء ٢٥ المدرع المستقل الملحق على الفرقة بدفع سرية دبابات لاحتلال منطقة التقاطع والعمل كحرس جنب للفرقة.

وفي الساعة الرابعة مساء، أصدر قائد الفرقة ٧ مشاة أمره إلى ألوية الفرقة للبدء بالتقدم لتطوير الهجوم شرقا، إلا أن العدو لم يلبث أن شن هجمات مضادة قوية على الجنب الأيسر للفرقة، مما عطل عملية الهجوم حتى الساعة السابعة والنصف مساء، ولذا أمر قائد الفرقة بدفع دورية استطلاع خلف خطوط العدو إلى منطقة جوز الجراد شمال طريق مضيق الجدي للتبليغ عن أوضاع ونشاط العدو في مواجهة الفرقة. كما أصدر أوامره بدفع سرية دبابات ومعها فضيلة مشاة ميكانيكية للانضمام إلى الكتيبة ٦٠٣ مشاة ميكانيكية من اللواء ١٣٠ المشاة الميكانيكي البرمائي، والتي توقفت جنوب كبريت شرق بعد عبورها البحيرة المرة الصغرى بعد ظهر يوم ٦ أكتوبر، وعجزت بعد ذلك عن تنفيذ المهمة التي

أسندت إليها وهي التقدم على طريق الشط ـ مضيق متلا ؛ للاستيلاء على مدخله الغربي. وكان هدف قائد الفرقة من حشد هذه القوة هو توجيهها لتدعيم سرية الدبابات التي سبق إرسالها للعمل كحرس جنب عند تقاطع طريقي الشط ـ الجدي، على أن يتم احتلالها الموقع قبل آخر ضوء يوم ٨ أكتوبر. وفي الساعة السابعة والنصف مساء، بدأت تشكيلات الفرقة في التقدم في اتجاه الشرق فاندفع المشاة مترجلين، وخلفهم وعلى مسافة ٢٠٠ متر تقدمت الدبابات تليها ناقلات الجنود المدرعة. وتمكن اللواء الأيمن للفرقة من تحقيق مهمته والوصول إلى خط رأس كوبري الفرقة المحدد بعمق ٨ كم شرق القناة بعد منتصف الليل. ولكن اللواء المشاة الميكانيكي الذي كان في النسق الأول وفي منتصف تشكيل الفرقة تعرض جنبه الأيمن عدة مرات لهجمات مضادة قوية من دبابات العدو، مما عطل تقدمه إلى خط المهمة التالية كما تعطل أيضا تقدم اللواء الأيسر للفرقة بسبب هجمات العدو المضادة، مما دفع قائد الفرقة العميد أحمد بدوي إلى إصدار أمره إلى قائد اللواء ٢٥ المدرع المستقل بدفع كتيبة دبابات للالتفاف حول الجنب الأيسر للعدو وتدميره، إلا أنه نظرا لرداءة الرؤية وعدم الإلمام بطبيعة الأرض عجزت الكتيبة المدرعة عن الوصول إلى الخط المحدد لها، ولكنها نجحت في التحول إلى خط نيران أمام مواجهة العدو وأجبرته بنيران مدافعها على الارتداد شرقا في الساعة السادسة والنصف صباح يوم ٩ أكتوبر.

وفي الساعة الواحدة والربع ظهرا، تمكنت سرية دبابات اللواء المدرع المدعمة بفصيلة مشاة ميكانيكية، وبالتعاون مع الكتيبة ٦٠٣ من اللواء ١٣٠ المشاة الميكانيكي البرمائي من الاستيلاء على النقطة القوية للعدو شرق كبريت (حصن بوتزر) دون قتال، فقد اتضح أن العدو أخلاها مساء يوم ٨ أكتوبر.

وفي الساعة التاسعة مساء يوم ٩ أكتوبر، تم لألوية الفرقة ٧ مشاة احتلال أوضاعها النهائية في رأس كوبري الفرقة وتحقيق المهمة التالية، وبدأت أعمال التجهيز الهندسي وتعزيز الخطوط المكتسبة ورص الألغام أمام الحد الأمامي. وأمر قائد الفرقة بتعليمات من قائد الجيش الثالث بدفع مفرزة على الجنب الأيسر للفرقة مكونة من كتيبة مشاة مدعمة بسرية دبابات لتأمين الجنب الأيسر للجيش وتأمين القوات التي احتلت موقع كبريت.

وعلى أثر وصول فرق المشاة الخمس في قطاعي الجيش الثاني والثالث إلى خط المهمة التالية، انتقلت مراكز القيادة المتقدمة للألوية المشاة إلى محلاتها خلف الأنساق الأولى، كما انتقلت مراكز القيادات الرئيسية للفرق والألوية إلى محلاتها شرق القناة، وفي الوقت نفسه تم عبور باقي مجموعات مدفعية الألوية ومدفعية الفرق واتخذت محلاتها شرق

القناة، وفي ليلة ٨/ ٩ أكتوبر بدأت الأرتال الإدارية في عبور قناة السويس على الكباري تحمل التعيينات والمياه والذخيرة وبخاصة ذخيرة الدبابات والأسلحة المضادة للدبابات والمدفعية التي استهلكت منها كميات كبيرة. وتدفقت حوالي ١٠٠٠ عربة لوري خصصت للجيش الثاني وحوالي ٧٠٠ عربة لوري خصصت للجيش الثالث عبر قناة السويس وهي محملة بأكداس من المؤن والتشوينات ليتم استعاضة ما استهلكته تشكيلات ووحدات الفرق. وقبل أول ضوء يوم ٩ أكتوبر عادت العربات الإدارية قبل الفجر إلى الضفة الغربية بعد أن تم تحميلها بالجرحى المصريين، وكذا بجرحى وأسرى العدو.

عوامل فشل الهجوم المضاد الرئيسي لإسرائيل

انتهى الهجوم المضاد الإسرائيلي يوم ٨ أكتوبر بفشل تام، فقد عجزت القوات المدرعة الإسرائيلية عن اختراق المواقع المصرية في القطاع الشمالي من الجبهة حيث تتمركز قوات الجيش الثاني، وتبددت أحلام الجنرال جونين قائد القيادة الجنوبية في الاستيلاء على بعض الكباري المصرية فوق قناة السويس سليمة لتعبر عليها قواته إلى الضفة الغربية للقناة، وبالتالي لم تحقق القيادة الإسرائيلية أي أهداف تكتيكية أو تعبوية بعد ذلك الهجوم المضاد الفاشل، في الوقت الذي لم تكن فيه القوات المصرية قد استكملت بعد كل وسائلها الدفاعية، وانتهت من تثبيت أقدامها على الشاطئ الشرقي للقناة.

ولقد كان هذا الفشل نتيجة طبيعية لعدة عوامل وأخطاء تكتيكية يمكن إيجازها فيما يلي:

- عند استخدام الدبابات في الهجوم المضاد يوم ٨ أكتوبر، كان المتوقع أن تقوم القيادة الإسرائيلية باستغلال ما تملكه من خفة حركة وحرية في المناورة للقيام بحشد دباباتها في أحد قطاعات الجبهة لتوجيه ضربة مركزة على مواجهة ضيقة، وهو الاستخدام الأمثل للدبابات للحصول على نتائج حاسمة، ولكنها على العكس من ذلك استخدمت فرقها المدرعة في توجيه ضربات متفرقة وعلى مواجهات واسعة، مما ترتب عليه فشل هذه الهجمات جميعا. ولو كان الهجوم المضاد قد تم تركيزه بفرقتي الجنرالين أدان وشارون معا ضد قطاع الفردان مع تدعيمه بمعاونة كافية من المدفعية والطيران، لكان الاحتمال كبيرا في أن تتمكن الفرقتان من اختراق هذا القطاع والوصول إلى خط المياه. وقد خالف الجنرال أدان هو الآخر المبدأ التكتيكي السليم في استخدام الدبابات، فدفع بألويته الثلاثة المدرعة لمهاجمة قطاع الجيش الثاني وهي متفرقة ومبعثرة بدلا من استخدامها في هجمة واحدة مركزة ضد أضعف أجزاء هذا القطاع.

● ظهر لقادة الوحدات المدرعة الإسرائيلية خلال المعارك أن تكتيكات الدبابات التي استخدمت بنجاح خلال حربي ١٩٥٦ و ١٩٦٧م، وهي الاندفاع بأقصى سرعة وسط المواقع المصرية لبث الذعر في صفوف أفرادها وحملهم على الفرار، قد باءت هذه المرة بفشل ذريع. وظهر بوضوح خطأ المفاهيم التي تسربت إلى الفكر العسكري الإسرائيلي نتيجة لتجارب الحربين السابقتين، وهو الاعتقاد بأن القوات المدرعة يمكنها العمل بحرية دون حاجة إلى دعم من المشاة أو معاونة من المدفعية. وبسبب هذا الخطأ دفعت الدبابات الإسرائيلية ثمنا باهظًا وهي تواجه بمفردها آلافا من جنود المشاة المصريين الذي ثبتوا بشجاعة مذهلة وراء سواترهم، وأمطروا الدبابات الإسرائيلية بوابل من قذائف آر بي جي ٧ وساجر (مالوتكا) الخارقة للدروع والقنابل اليدوية المضادة للدبابات ذات الحشوة المجوفة من طراز حسام وبي جي ٤٣ مما أوقع بالدبابات خسائر فادحة.

● كان النقص الواضح في بطاريات المدفعية الإسرائيلية سببًا في ضآلة كمية النيران التي سقطت على المواقع المصرية لتغطية وتدعيم الهجوم الإسرائيلي. وكان من ضمن أسباب ذلك تأخر وصول بطاريات المدفعية الاحتياطية من مركز تجميع الاحتياط ببئر السبع، نظراً لجو الارتباك العام الذي ساد عملية استدعاء الاحتياطي في بادئ الأمر بتأثير المفاجأة الإستراتيجية التي حاقت بإسرائيل، علاوة على أن القيادة الإسرائيلية قامت بدفع معظم القوات الاحتياطية في المرحلة الأولى من الحرب إلى جبهة الجولان، نظراً لخطورة الوضع على الجبهة الشمالية بالنسبة لقربها الشديد من المراكز الإسرائيلية ذات الكثافة السكانية. ونتيجة لهذه العوامل تأخر وصول بطاريات المدفعية التابعة لفرقة الجنرال أدان، مما حمل الجنرال جونين على تخصيص بطاريتين فقط من فرقة شارون لمعاونته في هجومه، وكان ذلك يعني أن معاونة المدفعية للهجوم المضاد الرئيسي كانت غاية في الضعف، وكان ذلك بلا شك من عوامل فشله.

● لم تكن حرب أكتوبر في مرحلتها الأولى حرب حركة كما جرى في حرب يونيو ١٩٦٧م، ولم تكن قتالا بين الدبابات بعضها وبعض، وإنما كانت معركة نيران وقتال ضار بين مدرعات إسرائيلية وقوات مشاة مصرية، اضطرت فيه الدبابات الإسرائيلية إلى الاعتماد على مدافعها الذاتية للدفاع عن نفسها ضد المشاة المصريين الذين أثبتوا تفوقهم عليها بما كانوا يحملونه من صواريخ فتاكة وأسلحة خارقة للدروع. ولو كان برفقة الدبابات الإسرائيلية في المرحلة الأولى من الحرب وحدات كافية من المشاة

الميكانيكية ومن المدافع ذاتية الحركة والهاونات الخفيفة والثقيلة، لكان المشاة المصريون قد تعرضوا لخسائر فادحة.

- كانت المعاونة الجوية لقوات الجنرال أدان في أثناء قيامها بالهجوم المضاد محدودة، ورغم الإلحاح المستمر من قادة الألوية المدرعة في طلب المساعدة الجوية، فإن القيادة الجنوبية عجزت عن توفيرها لهم بالحجم المطلوب، فقد كانت أعنف المعارك مشتعلة وقتئذ على جبهة الجولان بعد أن ألقى السوريون بكل ثقلهم فيها، ودفعوا باحتياطيهم الأخير من القوات المدرعة في المعركة؛ وأصبح الجيش السوري بأكمله على اتصال قتالي مع الجيش الإسرائيلي الذي كانت تشكيلاته الاحتياطية قد تم وصولها إلى ساحة القتال، وبذا أوشكت المعركة الضارية على الوصول إلى نهايتها الحاسمة، مما جعل القيادة الإسرائيلية تعجل بدفع معظم المجهود الجوي الإسرائيلي صوب جبهة الجولان.

تبادل الاتهامات بين جونين وأدان

هناك حكمة قديمة تقول: «للنصر آباء كثيرون بينما الهزيمة يتيمة». وقد ثبتت صحة هذه الحكمة بعد فشل الهجوم المضاد الإسرائيلي يوم ٨ أكتوبر على قطاع الجيش الثاني الميداني. فقد حاول الجنرال جونين إلقاء تبعة الفشل على عاتق الجنرال إبراهام أدان (برن) الذي قامت فرقته المدرعة بالهجوم المضاد، ولكن لجنة تقصي الحقائق التي أمرت الحكومة الإسرائيلية بتشكيلها في أواخر نوفمبر ١٩٧٣م برئاسة القاضي شمعون أجرانات رئيس المحكمة العليا؛ لمعرفة أسباب التقصير الذي وقع في حرب أكتوبر، حمّلت في تقريرها صراحة الجنرال جونين قائد القيادة الجنوبية المسئولية الرئيسية في هزيمة الثامن من أكتوبر، فقد ذكرت في تقريرها: «إن الجنرال جونين لم يُعدّ خطة عمليات مفصلة، ولم يهتم بإرسال خطة العمليات إلى قادة فرقه، ولم يتأكد مَن تجمع قواته واستعدادها على النحو المطلوب للقيام بمهامها. ولم يكلف نفسه عناء الذهاب إلى مسرح العمليات لكي يطلع بنفسه على ما يحدث هناك. وقد اتخذ قرارات حاسمة بتحريك الفرق المدرعة من قطاع لآخر بسرعة، قبل أن يتأكد بشتى الوسائل عما إذا كانت المهام قد أنجزت كما حددها رئيس الأركان العامة له كشرط لتحريك هذه القوات من قطاع لآخر، وقام بتغيير مهام الفرق المدرعة عدة مرات فارضا عليها مهام أخرى دون توعية كل فرقة بأوضاع قواتها وقوات العدو. وعمل بالتدريج على تقليص الهدف والوسيلة التي كلفه بها رئيس الأركان، وذلك بتحمسه للعبور بسرعة دون تهيئة الظروف الضرورية لمثل هذه العملية الخطيرة».

ولقد ثبت أن جونين قد نجح في الحصول على تصديق الجنرال دافيد أليعازر على خططه عن طريق التقارير الخاطئة التي كان يرسلها إليه، والتي صورت لرئيس الأركان وضعا يخالف ما كان واقعا بالفعل. وقد وجه اللوم إلى رئيس الأركان لمنحه جونين التصديق على عبور قواته قناة السويس واحتلال مواقع بالضفة الغربية للقناة، وموافقته على الأمر الذي أصدره للجنرال شارون بالتحرك بفرقته جنوبا في اتجاه السويس للهجوم على الجيش الثالث، بينما كان الموقف يستدعى تحريكه شمالا لنجدة الجنرال أدان وتدعيم هجومه. لكن رئيس الأركان برّر ذلك بأنه قد تخلى عن الحذر الواجب نظرا لأن الجنرال جونين كان يعطيه بتقاريره وبياناته الانطباع بأن كل شيء كان يجري على ما يرام. وقد اعترف الجنرال إبراهام أدان في كتابه «على ضفتي قناة السويس» الذي أصدره باللغة العبرية بعد الحرب، بالأخطاء الشخصية التي ارتكبها خلال الهجوم المضاد الذي قامت به فرقته المدرعة يوم الاثنين ٨ أكتوبر، فقال بصراحة تامة: «كانت أكبر أخطائي هو هجومي في اتجاه القناة. لقد أحسست في الثامن من أكتوبر بضغوطهم عليّ بينما لم يكن يحدث مثل ذلك في الحروب السابقة، ولم يكن أمامي مفر سوى أن أستجيب. لم أعرف أن الخطة المتفق عليها في اليوم السابق قد غيرت، وبينما كنت في حالة من التردد إذا بأوامر يوري بن آري (نائب جونين) تدفع بي للاقتراب بقواتي من القناة. واشترطت لهجومي على القناة ضرورة حصولي على معونة جوية ومساعدة من المدفعية وتدعيمي بكتيبة مدرعة من فرقة شارون. لست أتنصل من مسئولية ما حاق بالفرقة المدرعة التي توليت قيادتها من فشل، فقد كان الأسلوب القتالي للفرقة متخلفا، وكان التنسيق والسيطرة من جانبي على قواتي غير كافيين، وفي الهجوم الثاني لم أنجح في تدعيم لواء نيتكا حتى لا يهاجم العدو بمفرده، وكان قادة ألويتي المدرعة على نفس هذا الحال، فقد كانت سيطرتهم وتنسيقهم بين قواتهم غير كافيين، ولم يكن هناك مبرر ليدفعوا بنا للهجوم على مقربة من القناة في الوقت الذي كان علينا فيه أن ننتشر جنوبًا. لقد كان أساس الفشل أننا هاجمنا وحدنا بلا مشاة وبلا مساعدة سواء من المدفعية أو من الطيران. لقد وعدنا جونين بالمساعدة الجوية ولكن اتضح لنا بعد ذلك أن المساعدة الجوية مبعثرة ومشتتة في كل مكان؛ فمن بين عشرات الطلعات التي قامت بها طائراتنا لمساعدة القوات الأرضية لم تقم إلا بأربع وعشرين طلعة فقط على قطاع الفردان».

وقد سجل الجنرال أدان - بالإضافة إلى اعترافه بأخطائه الشخصية - مسئولية قادة الفرق الآخرين في وقوع الهزيمة، وركز بالذات على دور الجنرال شارون في هزيمة الثامن من

أكتوبر، فقال: «إن قادة الفرق لا يمكن أن ينفضوا عن كاهلهم غبار المسئولية بدعوى أنهم قد تلقوا أوامر. لقد تلقى شارون على سبيل المثال أمرا من جونين بمغادرة قطاعه، لكن تصرفه كقائد عسكري يثير العجب. فقد أصدر لقادة ألويته أوامره بالتحرك في اتجاه الجنوب دون أن يترك أي قوات لحماية القطاع الذي كان يحتله رغم نشاط العدو في مواجهته، مما جعل قطاعه خاليا وكان معرضا للاحتلال بواسطة المصريين. وقبل تحرك شارون بفرقته لم يوضح حقيقة الموقف للجنرال جونين. ولا أستطيع أن أغفل حقيقة مهمة، وهي أن هناك عنصرا حيويا وحاسما من شأنه أن يضعف أو يقوى القوات بميدان القتال، وهو أن تهب القوة لنجدة ومساعدة القوات المجاورة. وإني لأوجه أقسى النقد لشارون لرفضه التنازل عن كتيبة مدرعة لتدعيم قواتي القائمة بالهجوم في قطاع الفردان، وكذلك لرفضه بعد أن تلقى أمر جونين بالعودة إلى قطاعه، الإسراع بتدعيم هجومي والإسراع بتدعيم هجومي والاشتراك معي بفرقته، مما أدى بي إلى الفشل. كذلك من الواجب أن أذكر أن عدم السيطرة والتنسيق قد لوحظا على جميع مستويات القيادة، وتمثل ذلك في أبشع صورة عندما عادت فرقة شارون من الجنوب إلى القطاع الأوسط الذي تركته. لم نعرف إطلاقا أن شارون قد عاد ثانية، مما تسبب في أن وحدات من الفرقتين أطلقت بعضها على بعض النيران اعتقادا منها أنها تطلق النار على العدو».

هذا وقد رد الجنرال أدان في كتابه على الانتقادات العنيفة التي وجهها له الجنرال جونين واتهامه إياه بأنه كان السبب في هزيمة ٨ أكتوبر بقوله: «حاول جونين إلقاء تهمة ما حدث من فشل على شخصي، فادعى أن أوامره كانت منطقية وقابلة للتنفيذ، وأنني لو كنت قد قمت بالهجوم بطريقة مركزة من الشمال إلى الجنوب بدلا من الشرق إلى الغرب، لكنت قد حطمت بذلك الجناح الأيسر للعدو. لقد كان الهجوم بهذه الطريقة منطقيا ما دمنا لا نقترب من منطقة البطاريات والمصاطب غرب القناة، ولكن منذ اللحظة التي ضغط عليّ فيها جونين للاقتراب من خط القناة والعبور من الشرق إلى الغرب لاحتلال مواقع بالضفة الغربية للقناة، اضطررت إلى الهجوم بالطبع من الشرق إلى الغرب، كما أن الهجوم من الشمال إلى الجنوب بالقرب من القناة معناه تعريض جناح قواتي الأيمن للعدو الذي يملك بطاريات مدافع ومصاطب معدة غرب القناة لتطلق منها الدبابات نيرانها، ولكي تنطلق منها الصواريخ المضادة للدبابات سواء ذات المدى القصير أو البعيد، في الوقت الذي تهيئ فيه القناة - بحكم أنها عائق مائي ضخم - وقاية وحماية للعدو من خطر انقضاضي وهجومي عليه. وبالنسبة لادعاد جونين عدم قيامي بحشد القوات وتركيز الهجوم المضاد

فإنه هو شخصيا الذي أدى الدور الرئيسي في ارتكاب هذا الخطأ. فعندما بحثنا في مساء يوم ٧ أكتوبر الاحتمالات المختلفة للهجوم المضاد الذي سنقوم به في اليوم التالي، وتقدم ألبرت ما ندلر باقتراحه بشن هجوم مركز في قطاع ضيق بفرقتين مدرعتين تمهيدا للعبور إلى الضفة الغربية رفض هذا الاقتراح. وما دام جونين قد قرر أن يكون الهجوم المضاد بفرقة واحدة فقط، فلماذا لم يسند هذه المهمة إلى فرقة شارون؟ لقد كانت فرقته منتشرة بالقطاع الأوسط، وكان قد خطط واستعد للعملية من قبل، فلماذا يأتي جونين بفرقة أخرى من مسافة بعيدة للقيام بعمل لم تستعد له؟ وإذا كانت المهمة قد أوكلت رغم هذه الظروف إلى فرقتي، فلماذا أصدر جونين الأمر إلى شارون بالتحرك من قطاعه إلى الجنوب قبل أن أبدأ هجومي الرئيسي، وبذلك كشف قطاعي في الوقت الذي ضغط فيه عليّ للتقدم بقواتي على وجه السرعة إلى الجنوب؟ وفي وجه كل هذه الأخطاء كان من الطبيعي أن ينتهي هجوم فرقتي بالفشل الذريع. لقد خرجنا من الثامن من أكتوبر بدرس مهم مفيد، هو أن من السابق لأوانه التفكير في القيام بهجوم مضاد على القناة والعبور إلى الضفة الغربية. لقد كان الهدف من الهجوم هو ضرورة انتزاع المبادأة بسرعة من أيدي المصريين، وإرباك وإضعاف صفوفهم، ووقف تقدمهم واسترداد أكبر أجزاء ممكنة من الأرض التي أخليناها. ولو كنا قد علمنا بأمر الوقفة التعبوية التي تضمنتها خطة القيادة المصرية عقب النجاح الذي أحرزته قواتها في إنشاء منطقة رءوس الكباري، لكنا قد فضلنا بلا شك الانتظار إلى أن يتم تجميع القوات الاحتياطية وتنظيمها وتزويدها بمعدات العبور، ولكننا للأسف لم نعلم ذلك».

وفي مجال تقييمنا لما وردفي كتاب الجنرال أدان «على ضفتي قناة السويس» بشأن تحليله لأسباب فشل الهجوم المضاد الإسرائيلي يوم ٨ أكتوبر، فإننا نعترف بأنه قد حلل ذلك الفشل من وجهة النظر الإسرائيلية بطريقة موضوعية، وإن كان قد اشتط بعض الشيء - ربما لدوافع شخصية - في نقده اللاذع للجنرال جونين قائد القيادة الجنوبية والجنرال شارون قائد القطاع الأوسط في جبهة سيناء، كما أنه أغفل السبب الرئيسي في فشل الهجوم المضاد، وهو مقدرة وثبات القادة والقوات المصرية التي وقع ضدها هذا الهجوم. ولكن لابد أن نشيد بشجاعة الجنرال أدان الأدبية، فقد كشف بصراحة عن أخطائه الشخصية في قيادة المعركة وأخطاء مرءوسيه من قادة الألوية المدرعة، دون محاولة لإيجاد التبريرات والأعذار، وهو أمر نتمنى لو اتبعه غيره من قادة حرب أكتوبر سواء من الجانب العربي أو الإسرائيلي.

لماذا تعين بارليف ممثلا شخصيا لرئيس الأركان ؟

كان لأنباء فشل الهجوم المضاد يوم ٨ أكتوبر أثر سيئ في نفوس المسئولين الإسرائيليين في تل أبيب، مما حدا بوزير الدفاع موشى ديان ورئيس الأركان الجنرال أليعازر إلى التوجه بطائرة هيليكوبتر إلى مقر القيادة الأمامية للجبهة الجنوبية في أم مرجم بعد منتصف الليل، لعقد اجتماع عاجل مع الجنرال جونين وكبار ضباط القيادة، وكذا قادة الفرق المدرعة الثلاث أدان وشارون وماندلر.

وافتتح جونين المناقشة بعد أن استأذن من وزير الدفاع. وأخذ في سرد الوقائع التي جرت محاولا تبرير الأخطاء التي وقع فيها، ولكنه اعترف في هذه المرة صراحة بوجوب عدم معاودة الهجوم مرة أخرى على القناة، وعدم الاقتراب من حصون خط بارليف التي لا تزال محاصرة، وقرر أن من الخطأ التفكير في عبور قناة السويس في هذه المرحلة، واقترح أن يكون العبور من مكان آخر شمال خليج السويس. وأدلى قادة الفرق الثلاث بآرائهم، فكرر ألبرت ماندلر قائد القطاع الجنوبي - وكان يعد واحدا من أقدر الخبراء في حرب الدبابات - رأيه في وجوب أن يكون الهجوم مركزا في قطاع ضيق وبقوات كبيرة وبسرعة لضمان النجاح في الوصول إلى القناة ومحاولة العبور إلى الضفة الغربية. ولكن شارون قائد القطاع الأوسط اعترض على اعتماد التخطيط الهجومي على احتلال جسور مصرية لما يحيط بهذه العملية من صعاب ومشكلات، وذكر أن الواجب هو أن تعد القيادة الإسرائيلية تجهيزاتها الخاصة لعملية عبور تعتمد فيها على معدات عبور إسرائيلية، أما الجنرال أدان (برن) فقال إن العبور مرتبط بعملية اختراق صعبة وخطيرة، ولذا ينبغي الانتظار لحين استجماع الجيش لقواه، وأكد على ضرورة أن تكون المعركة القادمة معركة أسلحة مشتركة، أي أن تشترك مع الفرق المدرعة عند هجومها المدفعية والمشاة الميكانيكية والسلاح الجوي. ونظرا لأن معدات العبور ثقيلة الوزن ولم يتم اختبار عملية جر أي أجزاء منها من بعيد، فقد اقترح الجنرال أدان ضرورة تجربة جرّ هذه المعدات فوق الرمال وتدريب بعض الوحدات على ذلك.

وبعد أن قام رئيس الأركان في النهاية بتلخيص الآراء التي نوقشت في الاجتماع، حدد الخطة التي ستجري على أساسها العمليات الحربية في المستقبل، فقال: «ليس في مقدرتنا أن نهاجم على جبهتين في وقت واحد، ففي الجبهة الشمالية في الجولان سنواصل هجومنا، بينما في الجبهة الجنوبية في سيناء سننتقل إلى الدفاع. إن مشكلتنا في الجنوب هي منع المصريين من سحقنا ومن تحقيق إنجازات جديدة، ومع ذلك فعلينا أن نستجمع

قوانا استعدادا للانتقال إلى مرحلة الهجوم، وعلينا أن نبتعد عن الاشتباك مع العدو ونتجنب خوض معارك جديدة معه. فإذا ما حاول الاختراق شرقا فينبغي علينا وقفه بأقل قدر من الخسائر، بشرط ألا نمكنه من الوصول إلى الطريق العرضي (الطريق العرضي رقم ٣ على مسافة حوالي ٣٠ كم شرق القناة). علينا أن نستريح في هذه الفترة بقدر الإمكان، وأن نعيد تنظيم وتعزيز قواتنا استعدادا للهجوم، وأن نصلح أكبر قدر من الدبابات المعطوبة. لقد دمرت فرقتا أدان وما ندلر، أما فرقة شارون فهي الوحيدة التي نجت ولم تتكبد خسائر، لذا فإن عليها الاستعداد لعبور القناة خلال بضعة أيام».

وبعد أن انتهى رئيس الأركان من حديثه، أنهى موشى ديان وزير الدفاع الاجتماع بالإدلاء بملاحظات مهمة، وهي أنه يشعر بقلق عميق إزاء الخسائر الكبيرة التي منيت بها إسرائيل، والتي سيكون لها تأثير كبير على مجرى الحرب. فإن كل ما تبقى في الجبهة الجنوبية من دبابات يبلغ حوالي ٤٠٠ دبابة، وليس لدى إسرائيل حاليا مصادر أخرى تعزز بها قواتها، ولذا فإن سياسة ادخار العتاد وإصلاحه التي تقررت تعد أمرا بالغ الأهمية.

وفور عودة وزير الدفاع ورئيس الأركان إلى تل أبيب، عقدا اجتماعًا بغرفة عمليات القيادة العليا. ولأول مرة طرح موشى ديان على نطاق البحث فكرة تعيين قائد جديد للجبهة المصرية بعد أن أثبتت الوقائع الأخيرة أن قيادة الجبهة في سيناء أكبر من قدرات الجنرال جونين، وأنه ينبغي تعيين قائد آخر محله. وبالإضافة إلى ذلك العامل المهم، كانت العلاقات بين جونين وشارون معقدة منذ البداية بسبب أن جونين سبق له الخدمة كقائد فرقة تحت قيادة شارون حينما كان قائدا للقيادة الجنوبية، وفجأة تبدل الوضع، فإذا بجونين يصبح قائدا لشارون الذي تولى قيادة فرقة احتياطية بعد إحالته إلى التقاعد. وهكذا وجد شارون نفسه مرءوسا لمن كان هو قائده قبل أقل من ثلاثة أشهر فقط. ونظرا لأن شارون كان معروفا عنه لدى الجميع أنه شخص مشاكس وعنيد، وقد عجز كبار القادة من قبل عن إخضاعه وترويضه، فقد أصبح إخضاع شارون إحدى مشكلات جونين الرئيسية. وعندما علم جونين أن شارون بعد توليه قيادة القطاع الأوسط قد خالف أوامره وأنه مستمر في دفع وحدات من فرقته في اتجاه القناة لإنقاذ حاميات الحصون الأمامية المحاصرة، طار جونين بطائرة هيليكوبتر إلى مركز قيادة شارون حيث أمره شخصيا بوقف هذه المحاولات التي لا جدوى منها سوى مزيد من الخسائر. وعلى الرغم من أن شارون أبدى له استعداده للاستجابة لتعليماته، فإن جونين لم يلبث أن علم بعد مضي وقت قصير أن شارون يواصل إضاعة الدبابات سدى في الهجمات الفاشلة التي يقوم بها لإنقاذ

حاميات الحصون متحديا بذلك أوامره، وعلى الفور اتصل جونين بالجنرال أليعازر رئيس الأركان وطالبه بضرورة إقصاء شارون عن القيادة.

وإزاء عدم مقدرة جونين على تولي مسئولية القيادة بالكفاءة المطلوبة في هذه الظروف رشح موشى ديان وزير الدفاع الجنرال حاييم بارليف رئيس الأركان العامة السابق ووزير التجارة والصناعة في الحكومة الإسرائيلية وقتئذ لتولي القيادة الجنوبية بدلا من جونين. وعقب اجتماع مجلس الوزراء الإسرائيلي يوم الثلاثاء التاسع من أكتوبر، دعا رئيس الأركان الجنرال بارليف لزيارة القيادة العليا، وشرح له هناك مدى المرارة التي يحس بها من جراء تدهو الموقف في الجنوب، وكيف أن العلاقة بين جونين وشارون قد ساءت إلى درجة تضر بالوضع العسكري هناك. وعرض عليه في نهاية الأمر تولى المسئولية في القيادة الجنوبية. ووافق بارليف بشرط إجراء ترتيبات مُرضية لجونين، والحصول على موافقة رئيسة الوزراء ووزير الدفاع على تعيينه. وتوجه بارليف على أثر ذلك إلى منزله لإعداد ردائه العسكري ومعداته الشخصية، واستدعي من الحمام ليرد على مكالمة من رئيسة الوزراء جولدا مائير التي قامت بتهنئته على قراره، وذكرت له أنها ستعلن ذلك في جلسة مجلس الوزراء المزمع عقدها في تلك الليلة. وبعد قليل اتصل به وزير الدفاع وقال له: «اذهب إلى هناك مباشرة واتخذ ما تراه من قرارات».

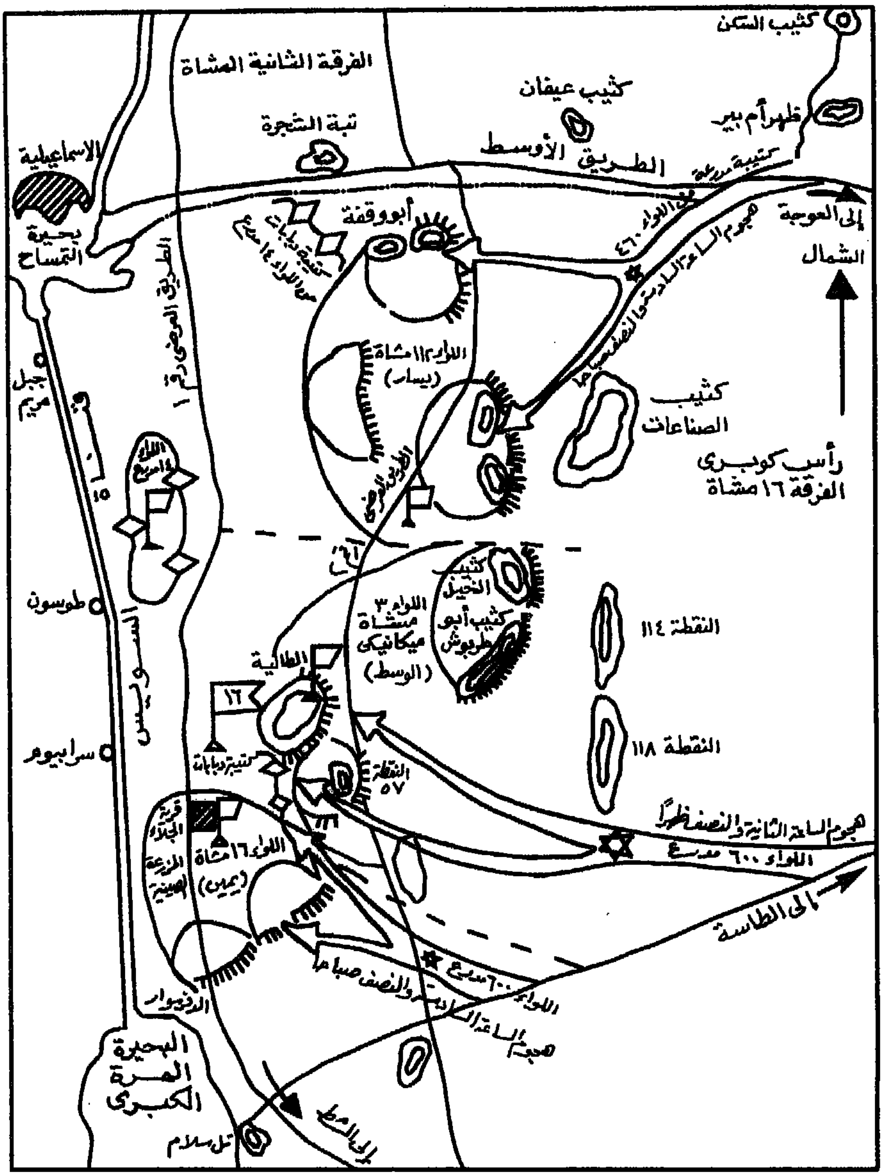
وعندما عاد بارليف إلى مقر القيادة في الساعة العاشرة مساء أخبره أليعازر أن جونين قد غضب لفكرة تعيينه في القيادة الجنوبية، إذ اعتبر ذلك بمثابة عزله من منصبه وإلقاء مسئولية كل ما حدث من فشل على عاتقه هو شخصيا. وأجاب بارليف بأنه ليس على استعداد للعمل كمستشار عسكري لجونين، وأنه لن يتوجه إلى سيناء إلا إذا تم تحديد مركزه بوضوح، وأجرى أليعازر الاتصال بجونين وقال له إنه بينما ترى القيادة أنه لا يستحق التعريض به بشكل علني بعزله عن قيادته، فإن الصالح العام يقتضي تولى الجنرال بارليف القيادة الجنوبية نظرا للأوضاع العسكرية القاسية في سيناء. وعلى أثر ذلك عرض اقتراح جديد وهو تعيين بارليف ممثلا شخصيا لرئيس الأركان في القيادة الجنوبية مع منحه الصلاحيات الكاملة للقيادة. ووافق بارليف على هذه الصيغة شريطة أن يكون واضحا تماما لجونين أنه قائده وليس مستشاره العسكري. وذهب لينام على أريكة بمكتب رئيس الأركان، ولم يلبث أليعازر أن أيقظه بعد ساعات قلائل ليقول له إن الجنرال جونين وافق على هذا الحل المقترح.

وفي صباح الأربعاء ١٠ أكتوبر وصل بارليف إلى مقر القيادة الأمامية الإسرائيلية في

سيناء. وفي غرفة العمليات جمع حوله كبار ضباط القيادة وقال لهم في حضور جونين بلهجته الهادئة البطيئة: «أرسلني رئيس الأركان هنا ممثلا شخصيا له، وأنا كما تعلمون أقدم ضابط بينكم وأعلى رتبة فيكم ولدي خبرة أكثر من أي شخص منكم، لذلك فمنذ هذه اللحظة أنا الذي أصدر الأوامر هنا». وحينما اختلى بارليف بجونين قال له: «ليست لدي أي نية للإضرار بك. لا يزعجني أن دادو (اسم التدليل للجنرال أليعازر رئيس الأركان) الذي كان مرءوسي هو الآن قائدي، وآمل ألا أزعجك بأن أكون قائدك». وبعد هذه المحادثات الصريحة، تم الاتفاق بين بارليف وجونين على أسلوب العمل في القيادة، وهو أن يكون بارليف هو المسئول الأول في القيادة الجنوبية وألا يصدر جونين أي أوامر تؤثر على سير العمليات على الجبهة إلا بعد الرجوع إليه. وقد علق جونين على ذلك فقال في مرارة: «سيكون لدي في الحرب رئيس أركان عامة خصوصي». وقال بعد ذلك لبارليف في تأثر: «إني أخشى أن يضر بي هذا الوضع بعد الحرب».

الهجوم المضاد الإسرائيلي على قطاع الفرقة ١٦ مشاة

من الخطأ الاعتقاد، أن فترة من الهدوء قد سادت جبهة القتال في سيناء في الأيام الخمسة التي تلت فشل الهجوم المضاد التعبوي الذي شنته القوات الإسرائيلية على قطاع الجيش الثاني يوم ٨ أكتوبر ١٩٧٣م إلى حين بدأت مرحلة تطوير الهجوم شرقا بتشكيلات النسق الثاني للجيشين الثاني والثالث يوم ١٤ أكتوبر، إذ إن القتال خلال هذه الفترة لم يهدأ ولم يتوقف على طول الخط العام للجبهة. ورغم اشتباك الفريقين المتحاربين في معارك متصلة طوال هذه المدة فإن كلا منهما كان يرمي من ورائها إلى تحقيق هدف يختلف تماما عن هدف خصمه. فعلى الجانب المصري وفي القطاع الجنوبي كان اللواء عبد المنعم واصل قائد الجيش الثالث يستهدف وصول الفرقتين ١٩ و ٧ مشاة إلى خط المهمة النهائية المحدد لهما في الخطة، ودخولهما معا في رأس كوبري الجيش. وفي القطاع الشمالي كان اللواء سعد مأمون قائد الجيش الثاني يستهدف وصول الفرق ١٦ و ٢ و ١٨ مشاة إلى خط المهمة النهائية المحدد لها في الخطة (١٠ - ١٢ كم شرق القناة)، على أن تدخل الفرقتان ١٦ و ٢ مشاة في رأس كوبري الجيش، بينما تقوم الفرقة ١٨ مشاة في قطاعها الممتد من شمال جزيرة البلاح إلى الكاب بتكوين رأس كوبري خاص بها يبعد عن رأس كوبري الجيش الثاني بمسافة حوالي ٥ كم شمالا. وكان النجاح في تكوين رءوس الكباري الموحدة للجيشين يعني إتمام تحقيق المرحلة الأولى من الخطة الهجومية بدر، والاستعداد لتنفيذ



رسم كروكي يوضح معركة الفرقة ١٦ مشاة يوم ٩ أكتوبر ١٩٧٣م.

المرحلة الثانية من الخطة، وهي تطوير الهجوم شرقا بدفع النسق الثاني للجيشين في اتجاه الطريق العرضي رقم ٣ والمضايق الجبلية.

وعلى الجانب الإسرائيلي، كانت القيادة الجنوبية تقوم بتنفيذ القرار الذي اتخذه الجنرال دافيد أليعازر رئيس الأركان العامة خلال الاجتماع العاجل الذي عقده في مركز القيادة المتقدم في أم مرجم بعد منتصف الليل عقب فشل الهجوم المضاد الرئيسي يوم ٨ أكتوبر، والذي حضره وزير الدفاع وقائد القيادة الجنوبية وقادة الفرق المدرعة الثلاث: أدان وشارون وماندلر، وكان يقضي بانتقال القوات الإسرائيلية في جبهة سيناء إلى الدفاع، إلى حين تصفية الموقف على جبهة الجولان في الشمال بإيقاع الهزيمة بالقوات السورية وإخراج سوريا من الحرب، وعلى أن تتخذ الترتيبات في الجبهة الجنوبية لإعادة تنظيم القوات الإسرائيلية واستعاضة الخسائر وإصلاح العتاد التالف، خصوصا الدبابات بعد معارك الأيام الثلاثة القاسية، وذلك استعداداً لمرحلة الهجوم. وكان أهم ما تضمنته تعليمات رئيس الأركان إلى القيادة الإسرائيلية في سيناء هو العمل على وقف عملية تطوير القوات المصرية لهجومها شرقا ومنعها بكل الوسائل من توسيع وتعميق رءوس الكباري، ومن الوصول إلى الطريق العرضي رقم ٣ (على مسافة حوالي ٣٠ كم شرق القناة). وقد لجأت القيادة الإسرائيلية إلى وسيلتين شديدتي الفعالية لعرقلة عملية تعميق القوات المصرية لرءوس كباريها وتطوير هجومها في اتجاه الشرق:

وكانت أولاهما هي توجيه ضربات مركزة من المدفعية البعيدة المدى والطيران على المواقع المصرية، وإنشاء الستائر المجهزة من الصواريخ المضادة للدبابات SS-II لوقف تقدم القوات المصرية. وكانت الوسيلة الثانية هي قيام القوات المدرعة الإسرائيلية بشن هجمات مضادة على مستوى السرايا والكتائب على المواقع المصرية بقصد تثبيتها في أماكنها ومنعها من تطوير هجومها شرقا. ولكن في يوم الثلاثاء ٩ أكتوبر حدث استثناء وحيد في هذه القاعدة، فقد قام لواء مدرع إسرائيلي بأكمله وهو اللواء رقم ٦٠٠ بهجوم مضاد على مواقع الفرقة ١٦ مشاة التي كان يتولى قيادتها وقتئذ العميد عبد رب النبي حافظ والتي كان قطاعها يمتد من الدفرسوار جنوبا إلى شرق الإسماعيلية شمالا (جنوب الطريق الأوسط مباشرة). وكانت مواجهة الفرقة تمتد على الخط العام النقطة ٥٧ - كثيب الخيل - أبو وقفة (حوالي ١٠ كم شرق القناة). وكان الخط محتلا بثلاثة ألوية مشاة في النسق الأول واللواء ١٤ مدرع (الملحق من الفرقة ٢١ مدرعة) في النسق الثاني. وعلى أثر فشل الهجوم المضاد الإسرائيلي يوم ٨ أكتوبر، قام العدو بتجميع اللواء ٦٠٠ مدرع في منطقتي كثيب السكن

وظهر أم بير شمال الطريق الأوسط على مسافة حوالي ١٦ كم شرق قناة السويس، وقام بدفع وحدات مدرعة ومشاة ميكانيكة أخرى (كتيبة من اللواء المدرع ٤٦٠) في اتجاه الطريق الأوسط (طريق الإسماعيلية شرق ـ الطاسة). وكانت أعمال العدو القتالية يوم ٩ أكتوبر موجهة أساسا ضد الفرقة ١٦ مشاة مع تثبيت قوات الفرقة ٢ مشاة لمنع الفرقتين من تطوير هجومهما شرقا ومنع اتصال قواتهما معا على الطريق الأوسط.

وابتداء من الساعة السادسة والنصف من صباح الثلاثاء ٩ أكتوبر، بدأ العدو بشن هجمات مضادة قوية على مواجهة الفرقة ١٦ مشاة بقوة تقدر بكتيبة مدرعة على اللواء الأيسر للفرقة، وبكتيبتين مدرعتين على لواء المنتصف (اللواء ٣ المشاة الميكانيكي) لاختبار دفاعات الفرقة واكتشاف أضعف أجزائها تمهيدا لتوجيه هجومه المضاد الرئيسي في هذا الاتجاه بهدف اختراق رأس كوبري الفرقة وإحداث خلخلة في نظام الدفاع المصري في القطاع الشمالي من الجبهة. وعلى الرغم من الخسائر الجسيمة التي حاقت بدبابات العدو بسبب صلابة الدفاعات المصرية، فقد واصل القيام بهجماته المضادة على طول مواجهة الفرقة حتى ارتفع عددها إلى أربع هجمات متتالية في خلال ٤ ساعات فقط.

وخشية من قيام العدو بمحاولة اختراق الدفاعات المصرية عند نقطة الاتصال بين الفرقتين ١٦ و ٢ مشاة باعتبارها أضعف أجزاء الخط الدفاعي، بادر اللواء سعد مأمون قائد الجيش الثاني الذي كان يتابع الموقف بدقة بإصدار أوامره في الساعة العاشرة صباحا إلى العميد عبد ربه قائد الفرقة ١٦ مشاة بدفع كتيبة دبابات من اللواء ١٤ مدرع (النسق الثاني للفرقة) لاتخاذ خط صد على يسار تشكيل الفرقة (غرب منطقة أبو وقفة) لمنع أي اختراق للعدو من هذا الاتجاه. وخلال صد الهجمات المضادة على اللواء المشاة الميكانيكي في منتصف مواجهة الفرقة، أصدر قائد اللواء العميد شفيق مترى سدراك أمره إلى قائد كتيبة النسق الأول اليمين بتطوير هجوم الكتيبة شرقا لتتمشى أوضاعها مع الخط العام للفرقة، وأثناء تقدم العميد شفيق في مركبة قيادته المدرعة إلى الأمام في حوالي الساعة العاشرة صباحا أصابت مركبته قذيفة مباشرة من اتجاه النقطة ١١٨ فاستشهد البطل في الحال. وكانت هذه هي الخسارة الثانية التي لحقت بقادة تشكيلات الفرقة ١٦ مشاة قبل مرور أقل من ٢٤ ساعة، ففي اليوم السابق ٨ أكتوبر، وخلال قيام اللواء الأيسر للفرقة بتطوير هجومه شرقا لتحقيق المهمة التالية والوصول إلى الخط العام كثيب الخيل أبو وقفة، وفي أثناء وجود قائد اللواء العقيد أ. ح عادل يسري قبل الغروب على قمة النقطة ١٢١ في منطقة كثيب الخيل لاستطلاع موقف العدو بنفسه في الأمام أصابته قذيفة خارقة للدروع

(سابو) من مدفع دبابة إسرائيلية إصابة مباشرة تسببت في بتر ساقه اليمنى في الحال، وتم إخلاؤه إلى الخلف حيث نقل بعد ذلك إلى المستشفى، وبهذا ضرب القادة الكبار في الفرقة لضباطهم وجنودهم أروع الأمثلة في الشجاعة والفداء.

وفي حوالي الساعة الثانية والنصف ظهراً، قام العدو بهجومه المضاد الرئيسي على لواء المنتصف (اللواء ٣ الميكانيكي) بقوة تقدر بكتيبتين مدرعتين (النسق الأول للواء المدرع الإسرائيلي رقم ٦٠٠) بعد قصف نيراني مركز من المدفعية والطيران على منطقتي النقطة ٥٧ والطالية.

وتمكن العدو تحت ثقل وطأة هجومه المدرع من اختراق دفاعات كتيبة النسق الأول اليمين والاستيلاء على النقطة الحيوية ٥٧، وحاول توسيع اختراقه بالاندفاع في اتجاه الطالية، وهي نقطة حيوية حصينة كانت تحتلها كتيبة النسق الثاني للواء.

وفضلا عن أهمية هذه النقطة من حيث توازن الموقع الدفاعي للواء الميكانيكي، فقد كانت تضم مركز قيادة اللواء، كما كان يقع إلى الغرب منها المركز المتقدم لقيادة الفرقة ١٦ مشاة. وكانت الإجراءات التي اتخذت لمجابهة الاختراق الإسرائيلي حاسمة وسريعة، وقامت كتيبة المشاة الميكانيكية (النسق الثاني) التي كانت تحتل الموقع الدفاعي في الطالية بدور بطولي في صد الاختراق، وكانت جميع مركباتها المدرعة من طراز BMP المسلحة بالصواريخ مالوتكا الخارقة للدروع، مما أوقع بالدبابات الإسرائيلية المهاجمة خسائر فادحة. وخلال معركة الصد أصدر قائد الفرقة ١٦ أوامره إلى كتيبة من اللواء ١٤ مدرع (الملحق من الفرقة ٢١ مدرعة) وإلى كتيبة دبابات الفرقة للاشتراك في صد الاختراق في الوقت الذي أمر بفتح احتياطي الفرقة المضاد للدبابات واحتياطي الجيش المضاد للدبابات رقم ١ على أجناب القوة المدرعة الإسرائيلية التي نجحت في الاختراق. وقامت مجموعة مدفعية اللواء ٣ الميكانيكي ومجموعة مدفعية الفرقة في نفس الوقت بقصف الثغرة التي دخلت منها الدبابات الإسرائيلية قصفا مركزا. وهكذا وقعت القوة المدرعة الإسرائيلية تحت ضرب مركز من نيران المدفعية والصواريخ المضادة للدبابات مما أدى إلى تدمير ٣٨ دبابة من طراز M60 وباتون M48 و ٤ عربات مدرعة من طراز M113، وارتدت الدبابات الإسرائيلية من اتجاه الطالية، ولكنها نجحت في التشبث بالموقع الحيوي في النقطة ٥٧ التي انسحبت منها الكتيبة الأمامية اليمين مما كان يهدد دفاعات الفرقة ١٦ بأخطار جسيمة.

وفي الساعة السادسة والنصف مساء كرر العدو هجومه المضاد الرئيسي للمرة الثانية بقوة تقدر بحوالي ٦٠ دبابة (بقايا كتيبتي النسق الأول للواء المدرع الإسرائيلي ٦٠٠ بعد

تدعيمها بكتيبة النسق الثاني للواء) وكان اتجاه الهجوم المضاد خطيراً، فقد استهدف نقطة الاتصال بين اللواء المشاة الميكانيكي في المنتصف، واللواء الأيمن للفرقة، في الوقت الذي توجد فيه قوة إسرائيلية مدرعة في النقطة ٥٧، مما جعل الفرصة سانحة للدبابات المهاجمة لإحداث اختراق واسع على الجنب الأيمن للفرقة بلغ عمقه حوالي ٣ كم. واتخذ قائد الفرقة ١٦ مشاة عدة إجراءات مهمة وعاجلة لمواجهة أخطر تهديد تعرضت له الفرقة منذ بداية الحرب في ٦ أكتوبر، فأمر قائد اللواء الأيمن للفرقة بدفع كتيبة النسق الثاني للواء التي كانت تحتل مواقعها في منطقة قرية الجلاء (كان الإسرائيليون يطلقون عليها اسم المزرعة الصينية) لإغلاق الثغرة التي كانت موجودة بين لواء المنتصف ولواء اليمين.

وأمر قائد الفرقة بدفع قوة ضاربة لصد الاختراق كانت تتكون من كتيبة النسق الثاني للواء المشاة الميكانيكي (كتيبة العربات المدرعة B.M.P) وكتيبة دبابات الفرقة (بعد تعديل أوضاعها التي كانت عليها منذ صد الاختراق الأول) مع فتح جميع الاحتياطيات المضادة للدبابات التابعة للواءي المنتصف واليمين واحتياطي الفرقة واحتياطي الجيش المضاد للدبابات. وطلب قائد الفرقة من قائد الجيش معاونة الفرقة في صد الاختراق الإسرائيلي بنيران مجموعة مدفعية الجيش الثاني رقم ١ ورقم ٢، وقد اشتركت معها في الضرب مجموعات مدفعية اللواءين ومدفعية الفرقة. وسرعان ما تحولت منطقة اختراق العدو بعد تركيز القصف المدفعي الكثيف والصواريخ المضادة للدبابات عليها إلى قطعة من الجحيم. واضطرت الدبابات الإسرائيلية إلى الارتداد شرقا بعد أن بلغت خسائرها حوالي ٢٠ دبابة، وتم إغلاق ثغرة الاختراق بعد معركة عنيفة خسر فيها اللواء المشاة الميكانيكي المصري خسائر جسيمة. وفي هجوم ليلي صامت ليلة ٩/ ١٠ أكتوبر، تم للواء المشاة الميكانيكي بمعونة الفرقة استعادة النقطة ٥٧ بعد أن اضطرت الدبابات الإسرائيلية إلى إخلائها، وعاد رأس كوبري الفرقة ١٦ مشاة إلى الوضع الذي كان عليه قبل تعرضه للهجمات المضادة الإسرائيلية العنيفة يوم ٩ أكتوبر.

وفي قطاع الفرقة ٢ مشاة أصدر قائدها العميد حسن أبو سعدة قراره بتأمين الجنب الأيمن لفرقته لمنع أي قوات مدرعة إسرائيلية من النفاذ إلى داخل دفاعات الفرقة من خلال نقطة الاتصال بين الفرقتين ٢ و ١٦ مشاة. وكان قراره يتضمن دفع كتيبة مشاة ميكانيكية لاحتلال موقع دفاعي غرب تبة الشجرة في مواجهة الجنوب مع فتح احتياطي الفرقة المضادة للدبابات رقم ٢ في نفس الاتجاه، وكذا تعديل أوضاع كتيبة الدبابات من اللواء ٢٤ مدرع (الملحق على الفرقة) بحيث تشترك في مسئولية تأمين الجنب الأيمن للفرقة. وزيادة

في إجراءات التأمين، أمر قائد الفرقة بسرعة رص حقل ألغام شمال الطريق الأوسط ما بين قناة السويس وتبة الشجرة لإغلاق هذه المواجهة تمامًا.

وقد حاول العدو خلال هجماته على الفرقة ١٦ تثبيت قوات الفرقة ٢ مشاة (الجار الأيسر)، فشن ثلاث هجمات مضادة بقوة سرية مدرعة على اللواء الأيمن للفرقة وهجمتين على اللواء الأيسر لها. وقد صدت جميعا، وخسر العدو ١٤ دبابة وعربة صواريخ مدرعة مضادة للدبابات. وفي الساعة الواحدة ظهرا، أمر العميد حسن أبو سعدة قواته بتطوير الهجوم شرقا مستغلا نجاح تشكيلاته في صد الهجمات المضادة عليها.

وقد جرت عملية تطوير الهجوم بنفس تشكيل القتال السابق (ثلاثة ألوية مشاة في النسق الأول واللواء ٢٤ مدرع في النسق الثاني). ونظرا لتعرض اللواء الأيمن للفرقة لنيران شديدة على أجنابه من مجموعة دبابات إسرائيلية، فقد اضطر إلى التوقف حتى الساعة الرابعة مساء ولكنه واصل تقدمه في إصرار، كما تعرض كل من اللواء المشاة الميكانيكي في منتصف تشكيل الفرقة واللواء الأيسر لها لنيران شديدة من صواريخ مضادة للدبابات أحدثت خسائر كبيرة في اللواء الميكانيكي، خاصة في كتيبة دباباته العضوية. ورغم محاولات العدو المستميتة لعرقلة عملية تطوير الهجوم فقد نجحت تشكيلات الفرقة في الاستيلاء على خط المهمة النهائية في الساعة الحادية عشرة مساء. وكان نجاحها الأكبر مركزا على الجنب الأيمن في مواجهة الطريق الأوسط، فقد نجح اللواء الأيمن في الاستيلاء على كثيب أبو كثيرة ونقطة المثلثات ١٠٠ الذي كان هو اتجاه المجهود الرئيسي للفرقة والجيش، وكان يؤمن في نفس الوقت تحقيق مهمة الفرقة النهائية بإنشاء رأس كوبري جيش موحد مع الفرقة ١٦ مشاة.

لماذا اهتزت أعصاب موشى ديان؟

في ظهيرة التاسع من أكتوبر استعرض الجنرال أليعازر رئيس الأركان العامة الإسرائيلي الوضع العام على جبهة القتال في مؤتمر لرؤساء الهيئات والأفرع برئاسة الأركان.

وقد أوضح رئيس الأركان أن خطة إسرائيل على الجبهة المصرية بعد فشل الهجوم المضاد الإسرائيلي تستهدف تحسين ميزان القوى عن طريق تكبيد القوات المصرية أقصى ما يمكن من الخسائر في الأرواح والأسلحة والمعدات. وبعد التصدي للهجوم المصري الرئيسي الذي كان من المتوقع حدوثه تتوافر عندئذ الإمكانات للقيام بهجوم مضاد قوي لاختراق المواقع المصرية وعبور قناة السويس إلى الضفة الغربية.

وفي الساعة السابعة مساء يوم ٩ أكتوبر التقى موشى ديان وزير الدفاع مع رؤساء تحرير الصحف الإسرائيلية في وزارة الدفاع، حيث أدلى لهم بتقديره للموقف الذي كان يعكس مدى أزمة التشاؤم الحادة التي انتابت موشى ديان على أثر فشل الهجمات المضادة الإسرائيلية الأخيرة على القوات المصرية، فقد ذكر لهم ما يلي: «إن قواتنا في سيناء تنتشر انتشارا دفاعيا وهي تتخذ خطا لاحتواء المصريين حتى يتغير الموقف في الجولان في غضون الأيام القليلة القادمة. لقد أخلي خط بارليف ذو المواقع الحصينة بنظام أحيانا وبغير نظام أحيانا أخرى، ولم يعد هناك خط يمكن أن يلعب أي دور فقد انقطع اتصالنا بحصونه وتخلينا عنه، وهذا يكشف للعالم بأسره حقائق متعددة: الأولى أننا لسنا أقوى من المصريين، والثانية أننا إذا لم نستطع رد المصريين على أعقابهم فإنهم سوف يواصلون حشد قواتهم ودباباتهم على الجانب الشرقي للقناة. والسؤال المهم الآن: ماذا سيحدث بعد ذلك؟ لو شن المصريون هجوما من مواقعهم فسيكون علينا أن نجد خطوطا أقصر وأكثر ملاءمة نستطيع أن نصمد فيها صمودا أفضل، وهذه الخطوط ينبغي أن تكون في مكان ما في المنطقة ما بين قناة السويس وسلسلة الجبال بحيث لا يستطيعون اجتيازها. ونظرا لأن الطريق مفتوح أمام المصريين للتقدم صوب الجنوب إلى أبو رديس في اتجاه شرم الشيخ فإن علينا أن نتساءل عما يمكن أن يحدث لو أنهم حاولوا الاتجاه جنوبا، أين سنوقفهم؟ إننا لا نستطيع أن نعتمد على الطيران وحده للحيلولة دون هجوم المصريين المتجه نحو الجنوب، وحتى إذا أقمنا خطوطا دفاعية جديدة فأنا أشك في أن تستطيع قواتنا التمسك بهذه الخطوط».

وعندما علم رؤساء تحرير الصحف أن موشى ديان سوف يعلن على الشعب الإسرائيلي في حديث تليفزيوني في الساعة التاسعة مساء حقائق الموقف العسكري وسقوط خط بارليف، وقف الصحفيون في حالة ذهول. وقال جرشوم شاكن رئيس تحرير جريدة هاآرتس لموشى ديان: «إذا قلت ما قلته لنا الآن على شاشة التليفزيون هذا المساء فإن ذلك معناه حدوث زلزال في شعور الشعب في إسرائيل وزلزال بالنسبة لليهود وللعرب في خارج إسرائيل». وعقب لقاء ديان مع رؤساء التحرير بفترة وجيزة، تلقت جولدا مائير رئيسة الوزراء تقريرا عما أدلى به وزير الدفاع أمام الصحفيين، وعما يعتزم التحدث به إلى الأمة، واتصل أحد رؤساء التحرير بجولدا هاتفيا واقترح عليها منع الحديث. وطلبت جولدا من موشى ديان عدم الظهور في تلك الليلة على شاشة التليفزيون. وكان الجنرال أهارون ياريف الذي كان يرأس إدارة المخابرات العسكرية في إسرائيل لمدة تسع سنوات وحاز خلال ذلك شهرة واسعة قد استدعي من التقاعد في اليوم

الثاني للحرب لكي يتولى مسئولية الإعلام العسكري عندما اتضح سوء الوضع في جهاز الإعلام. وفي مساء يوم ٩ أكتوبر احتشد جمع غفير من الصحفيين المحليين والأجانب في إحدى قاعات «دار سوكولوف» كي يستمعوا إلى حديث أهارون ياريف الذي ظهر على شاشة التليفزيون الإسرائيلي بدلا من موشى ديان. وكان الحديث ينقل على الفور بواسطة قمر صناعي إلى محطات التليفزيون المهمة في العالم. وعرض أهارون ياريف على المشاهدين بصورة متزنة وبدون الإكثار من التفاصيل الوضع على جبهتي القتال في سيناء والجولان وقال «الوضع ليس سهلا وبسيطا، والحرب من شأنها أن تطول. الجيش الإسرائيلي في وضع صعب، وقد اضطر إلى الانسحاب من خطوط وقف القتال في الجولان وسيناء، ورغم ذلك فلا ينبغي أن نفكر بمفاهيم الخطر بالنسبة لشعب إسرائيل».

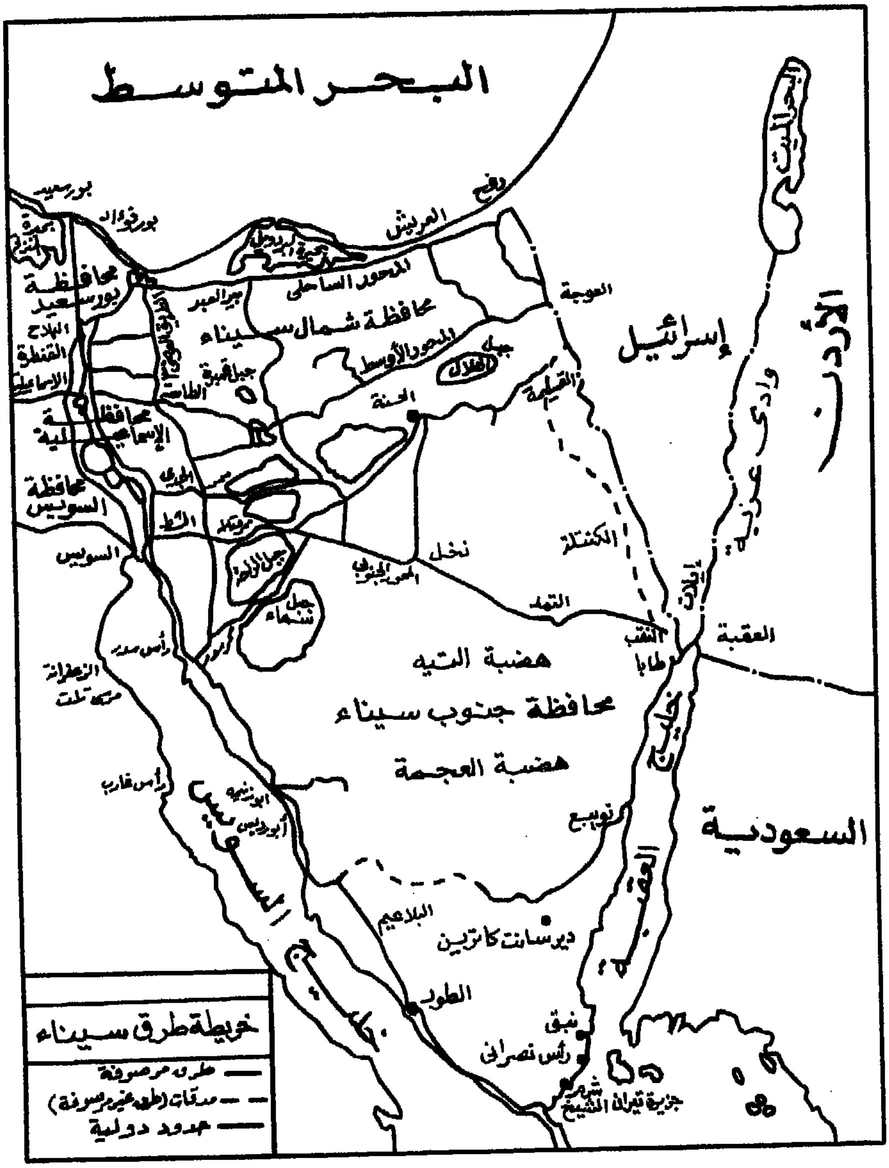
وكانت هذه هي المرة الأولى التي يتلقى فيها الشعب الإسرائيلي أنباء عما يجرى على الجبهة بدون تزييف، ولأول مرة يسمع الشعب بيانا صريحا يدرك منه أن هذه الحرب ليست استمرارا لحرب الأيام الستة وليست حربا خاطفة. وتذكرت الجماهير تصريحات موشى ديان الجوفاء مساء ٦ أكتوبر عند لقائه بالصحفيين عندما قال لهم: «سنحول المنطقة إلى مقبرة كبرى لهم». كما طافت بأذهانهم وقائع المؤتمر الصحفي الذي نقله التليفزيون من دار سوكولوف مساء اليوم السابق فقط «٨ أكتوبر»، واسترجعوا كيف صفق السامعون للجنرال أليعازر رئيس الأركان العامة وهو يصرح في حماسة بأن الجيش الإسرائيلي سيواصل ضرب العدو وتحطيم عظامه. وانتاب أفراد الشعب الشعور بأنهم خدعوا، وأدرك الجميع أن إسرائيل تواجه لأول مرة منذ قيامها حربا مصيرية شرسة، وكان أشد ما أثار حيرة القادة الإسرائيليين في هذه الفترة الحالة التي أضحى عليها موشى ديان منذ نشبت الحرب يوم ٦ أكتوبر، والتي كانت تختلف تماما عن حالته في أثناء حرب ٦٧ التي كان خلالها في قمة ثقته واعتداده بنفسه، وكان يصدر في ذلك الوقت أخطر القرارات العسكرية دون التشاور مع أحد، إلى الحد الذي جعله يصدر أمره إلى الجنرال دافيد أليعازر قائد القيادة الشمالية وقتئذ بناء على رأيه الخاص باقتحام هضبة الجولان دون الرجوع إلى رئيس الوزراء ليفى أشكول، ورغم صدور قرار من مجلس الأمن بوقف إطلاق النار. ولكن موشى ديان في حرب ٧٣ ظهر بصورة الرجل الضعيف المتردد، فقد لوحظ أنه يتجنب إصدار أي قرارات أو تعليمات على المستوى العسكري، وكان يكتفي في كل زياراته للقيادات الأمامية بتقديم نصائحه للقادة في شكل مشورة وزارية غير ملزمة، أي لا تنفذ إلا بعد الرجوع إلى رئيس الأركان العامة.

وخلال اجتماعات القادة في الجبهة، كان موشى ديان يكتفي بدور المستمع والمراقب ويحرص على عدم الإدلاء برأيه. وكان من العجيب أن قائدا محنكا مثل موشى ديان حاز شهرة عسكرية مدوية وتولى من قبل رئاسة الأركان العامة ثم وزارة الدفاع يتنصل بهذه الصورة من مسئوليته لكي يعرض قرارات ميدانية بحتة على جولدا مائير رئيسة الوزراء لكي تتخذ بشأنها قرارات حاسمة تتعلق بمجرى الحرب. ونتيجة لهذه التصرفات من موشى ديان، أصبحت جولدا مائير لا تمنحه التصديق النهائي على الاقتراحات الإستراتيجية والقرارات العسكرية المهمة التي يعرضها عليها إلا بعد الرجوع إلى الوزيرين اللذين كونا معها شبه مجلس دائم لإدارة الحرب، وهما إيجال آلون نائب رئيس الوزراء ويسرائيل جاليلى وزير الدولة، وإلا بعد التشاور في معظم الأحيان مع الجنرال أليعازر رئيس الأركان، ومع ممثله في الجبهة الجنوبية الجنرال حاييم بارليف.

محاور التقدم الرئيسية في سيناء

خلال المؤتمر الصحفي الذي انعقد في وزارة الدفاع بتل أبيب في حوالي الساعة السابعة مساء يوم الثلاثاء ٩ أكتوبر ٧٣، أي في اليوم الرابع من الحرب، وعندما كان موشى ديان يشرح لرؤساء تحرير الصحف الإسرائيلية - كما أسلفنا - الوضع العسكري السيئ على الجبهة المصرية على أثر فشل الهجمات المضادة الإسرائيلية يومي ٨ و ٩ أكتوبر على القوات المصرية، لفت موشى ديان الأنظار لأول مرة إلى الخطر الذي تتعرض له سيناء الجنوبية من احتمال هجوم مصري يوجه ضدها، وقال إن الطريق مفتوح أمام المصريين للتقدم صوب الجنوب إلى أبو رديس في اتجاه شرم الشيخ. والأمر الذي يستلفت النظر أنه بينما كان موشى ديان يتحدث إلى رؤساء تحرير الصحف عن خطر هجوم مصري محتمل على جنوب سيناء، كانت قوة مصرية ميكانيكية قد بدأت تقدمها بالفعل في الساعة العاشرة من صباح نفس اليوم على المحور الجنوبي المتجه إلى شرم الشيخ، وبدأت القوات الإسرائيلية خاصة الطيران في التعامل معها. وقد جرى ذلك قبل انعقاد المؤتمر الصحفي بعدة ساعات، مما يجعلنا نجزم بأن وزير الدفاع الإسرائيلي كان يعلم الحقيقة بلا شك، ولكنه آثر عدم التصريح بها إلى حين وضوح الموقف في ساحة القتال من جهة وحفاظا على الروح المعنوية للصحفيين من جهة أخرى، خاصة بعد أنباء فشل الهجمات المضادة الإسرائيلية الأخيرة.

وتدفعنا محاولة التقدم الجريئة التي جرت على المحور الجنوبي إلى ضرورة عمل دراسة موجزة لمحاور التقدم الرئيسية عبر سيناء من الغرب إلى الشرق استكمالا لفائدة القراء،



محاور التقدم الرئيسية في سيناء

وذلك قبل البدء في سرد الوقائع المتعلقة بتحرك القوة الميكانيكة المصرية على المحور الجنوبي. وعلى الرغم من أن شبه جزيرة سيناء تعتبر مانعا طبيعيا من الناحية العسكرية فإنها كانت منذ فجر التاريخ المعبر الطبيعي لجميع الغزاة الذين قدموا إلى مصر من الشرق، كما أنها كانت معبرا لجميع الحملات الحربية التي خرجت من مصر في اتجاه الشرق منذ عهد الفراعنة حتى عصرنا الحديث.

وتنحصر محاور التقدم الرئيسية لأي قوات مصرية تتجه من الغرب إلى الشرق في خمسة محاور رئيسية هي كما يلي:

المحور الساحلي: يتميز المحور الملاصق لساحل البحر المتوسط بوجود سهل الطينة وبحيرة البردويل اللذين تليهما جنوبا منطقة كثبان رملية تتدرج في الارتفاع من الغرب إلى الشرق، ويخترق هذا المحور طريق أسفلتي يسير بحذاء الساحل، ويربط ما بين القنطرة ورفح، ويبلغ طوله من القنطرة شرق إلى العريش ١٦٠كم ومن العريش إلى رفح ٤٥كم، ويمر ببالوظة ورمانة وقاطية وبئر العبد ومصفق والعريش والشيخ زويد. وتتوافر في هذا المحور بعض الآبار، والأرض بصفة عامة غير صالحة للسير لمعظم الحملات الميكانيكية إلا على الطريق الأسفلتي.

المحور الأوسط: يعتبر المحور الرئيسي للتقدم من الغرب إلى الشرق، وهو عبارة عن هضبة متسعة تغطيها الغرود الرملية في معظم أجزائها، ويقع ما بين السهل الساحلي شمالا والحائط الغربي الجبلي لسيناء جنوبا. ورغم أن الأرض مفتوحة فإن رماله الكثيفة تجعل من الصعب اجتيازه إلا على الطرق والوديان المحدودة به وإلا للمركبات المجنزرة. ويضيق محور التقدم خلاله بعد حوالي ٧٠ كم شرق القناة، حيث ينحصر التقدم فيما بين جبل جديرة في الشمال وجبل سحابة في الجنوب، وإلى الشرق بحوالي ٣٠ كم من هذه المنطقة يقع مضيق الختمية المعروف (حوالي ١٠٠ كم شرق القناة). . ويخترق هذا المحور الطريق الرئيسي في سيناء المعروف باسم الطريق الأوسط، وهو طريق أسفلتي يربط ما بين الإسماعيلية شرق ومدينة العوجة ويمر على الطاسة وبير جفجافا وبئر روض سالم. وعند علامة الكيلو ١٦١ ـ وهي تقاطع الطريق الرئيسي مع الطريق الفرعي القادم من العريش وبير لحفن ـ تنفتح الأرض وتصلح للعمليات الكبرى للدبابات ولتحرك الحملات الميكانيكية. ويسير الطريق بعد ذلك إلى أبو عجيلة قبل أن يصل إلى العوجة. ويبلغ طول الطريق الأوسط حوالي ٢٢٥ كم.

محور الجدي: يبدأ الطريق الأسفلتي على هذا المحور شرق البحيرة المرة الصغرى،

وبعد سيره حوالي ٣٥ كم في الأرض المفتوحة يخترق الحائط الغربي الجبلي لسيناء خلال ممر الجدي الجبلي المعروف، وبعد خروجه ثانية إلى الأرض المفتوحة بحوالي ١٥ كم يلتقي بالطريق العرضي بير تمادا ـ بير جفجافا.

محور متلا: يبدأ الطريق الأسفلتي على هذا المحور عند الشط (شرق السويس) وبعد سيره حوالي ٣٥ كم في الأرض المفتوحة يخترق الحائط الغربي الجبلي لسيناء خلال ممر متلا المعروف وهو ممر جبلي شديد الضيق والوعورة يبلغ طوله ٣١ كم. وعند وصوله إلى الأرض المفتوحة عند صدر الحيطان يتفرع إلى اتجاهين شمالا إلى بير تمادا ومنها إلى الحسنة والقسيمة وجنوبا إلى نخل ومنها إلى التمد ورأس النقب.

محور سدر: يفصل الحائط الغربي الجبلي في شمال سيناء عن الكتلة الجبلية الضخمة لجنوب سيناء وادي سدر، ويبدأ هذا المحور من رأس سدر على خليج السويس (٤٣ كم جنوب الشط) وبعد مسيرة حوالي ٣٠ كم في الأرض المفتوحة في وادي سدر في اتجاه الشمال الشرقي يمر الطريق في ممر ضيق طوله ٣٠ كم يعرف باسم ممر سدر، ويقع بين جبلين هما جبل الراحة في الشمال وجبل سن بشر في الجنوب، وعند وصوله إلى نهاية الممر عند عين سدر تنفتح الأرض وتتفرع منه عدة وديان وطرق ممهدة يمكن الوصول منها إلى اتجاهات صدر الحيطان وبير تمادا في الشمال وإلى نخل في الشرق.

هذا وترجع أهمية رأس سدر التي كانت الهدف الرئيسي الأول للقوة الميكانيكية المصرية المتقدمة على المحور الجنوبي إلى الأسباب الآتية:

١ ـ وقوعها عند بداية أحد المحاور الرئيسية للتقدم من الغرب إلى الشرق، وهو طريق ممر سدر الجبلي الذي يمكن النفاذ منه عبر الكتلة الجبلية إلى الأرض المفتوحة في الشرق، ويمكن التقدم بعد ذلك شمالا والوصول إلى المداخل الشرقية لمضيقي متلا والجدي أو تهديدهما بالتطويق في حالة تطوير الهجوم في هذا الاتجاه.

٢ ـ يلتقي عندها محوران تعبويان مهمان: أولهما الطريق العرضي رقم ٣ الذي يبلغ طوله حوالي ٢٠٠ كم ويبعد حوالي ٣٠ كم شرق القناة، ويبدأ من بالوظة شمالا ويقطع الطريق الأوسط عند الطاسة ثم يقطع طريقي الجدي ومتلا بالقرب من المداخل الغربية للممرين، ثم ينحرف غربا إلى رأس سدر. ولا شك في أنه في حالة وجود قوة مصرية عند الطرف الجنوبي لهذا الطريق فإن ذلك كان يؤدي إلى تهديد خطير للجنب الأيسر للقوات الإسرائيلية التي كانت تتخذ من هذا الطريق محورا رئيسيا لتحركاتها شمالا

وجنوبا على طول الجبهة، وفي نفس الوقت قاعدة لجميع هجماتها المضادة من الشرق إلى الغرب على رءوس الكباري المصرية. أما المحور التعبوي الثاني فهو طريق الشط شرم الشيخ الذي يطلق عليه اسم طريق الطور، وهو يمتد بحذاء الساحل الشرقي لخليج السويس ويبلغ طوله حوالي ٣٢٥كم، ويمر الطريق قبل وصوله إلى رأس سدر بعيون موسى ورأس مسلة، ثم يمر بعد رأس سدر بعدة مدن أهمها أبو زنيمة وأبو رديس والطور ثم شرم الشيخ.

٣ ـ أهمية رأس سدر الاقتصادية حيث توجد بها ثلاث مجموعات من حقول البترول وهي سدر وعسل ومطارمة، علاوة على أنها منطقة عمرانية كبيرة، إذ توجد بها مساكن وملاعب ومستشفى ومحطة للكهرباء ورصيف بحري، كما توجد بها عدة صهاريج ضخمة لتخزين البترول.

عملية اللواء الأول ميكانيكي في اتجاه رأس سدر

كان اللواء الأول مشاة ميكانيكي أحد ألوية الفرقة ٦ مشاة ميكانيكية التي كان يتولى قيادتها العميد محمد أبو الفتح محرم وكانت الفرقة موضوعة في النسق الثاني في قطاع الجيش الثالث الميداني في الجنوب عندما اتخذت القوات المصرية أوضاعها النهائية استعدادا لبدء تنفيذ الخطة الهجومية «بدر» يوم ٦ أكتوبر ١٩٧٣م. وكانت التعليمات التي تلقاها قائد اللواء الأول والتي حددت له مهمته وفقا لما ورد في الخطة الموضوعة تتضمن ما يلي:

- يعبر اللواء الأول ميكانيكي قناة السويس ليلة ٦/ ٧ أكتوبر على معابر الفرقة ١٩ مشاة إلى منطقة انتظار أمامية شرق القناة داخل رأس كوبري الفرقة ١٩ مشاة. وبمجرد إتمام عبور اللواء الأول القناة يخرج من تحت قيادة الفرقة ٦ مشاة ميكانيكية ويصبح تحت القيادة المباشرة لقيادة الجيش الثالث.
- يكون اللواء الأول جاهزا للدفع للاشتباك من خط دفع داخل رأس كوبري الفرقة ١٩ اعتبارا من الساعة الخامسة صباح يوم ٧ أكتوبر بأمر قائد الجيش الثالث بهدف الاستيلاء على الخط العام رأس مسلة جبل أم جردي (١٧ كم جنوب الشط).
- اعتبارا من أول ضوء يوم ٨ أكتوبر يدفع اللواء للاشتباك من منطقة رأس مسلة ـ جبل أم جردي، واعتبارا من هذا التوقيت يخرج اللواء من تحت قيادة الجيش الثالث ويصبح

تحت قيادة منطقة البحر الأحمر العسكرية (كانت قيادة هذه المنطقة تقع على الشاطئ الغربي لخليج السويس الذي يبلغ متوسط اتساعه في الشمال حوالي ٣٥ كم).

- بعد الدفع الثاني للاشتباك تكون مهمة اللواء هي الاستيلاء على منطقة رأس سدر (٢٥ كم جنوب رأس مسلة) ويطور الهجوم بعد ذلك بأوامر قائد منطقة البحر الأحمر العسكرية تبعا للموقف في اتجاه أبو رديس (١٠٠ كم جنوب رأس سدر).

وكان قرار قائد اللواء الذي صدق عليه اللواء إبراهيم كامل قائد منطقة البحر الأحمر العسكرية (نظرا لأن معظم العمليات المنتظرة للواء الأول ستكون تحت قيادته) هو أن يتشكل اللواء مع وحدات الدعم من الأسلحة المشتركة التي وضعت تحت قيادته في ثلاث مجموعات متوازنة، تتكون كل منها من كتيبة مشاة ميكانيكية مدعمة، وعلى أن تتشكل المجموعة الأولى التي ستعمل كمفرزة أمامية للواء من كتيبة المشاة الميكانيكية المزودة بالمركبات المدرعة B.M.P. (المسلحة بقواذف مالوتكا الصاروخية الخارقة للدروع) ومعها وحدات الدعم الخاصة بها. وكذا كتيبة دبابات اللواء الأول ويكون محور تحركها هو الطريق الساحلي (الشط - الطور)، على أن تتبعها على مسافة من ٣ إلى ٥ كم المجموعتان الأخريان، على أن تتولى المجموعة الثالثة مسئولية تأمين الجنب الأيسر للمفرزة الأمامية خلال التحرك، وعند تطوير الهجوم من رأس سدر في اتجاه أبو رديس يتبع اللواء نفس هذا التشكيل..

ولكن هذه الخطة التي تم تدريب وحدات اللواء الأول على تنفيذها قبل الحرب وأبلغت لقادة الوحدات الفرعية وأجريت على أساسها عملية تنظيم التعاون على مختلف المستويات، حالت الظروف دون تنفيذها وفقا للتوقيتات المحددة. فلقد حدث - كما سبق أن ذكرنا عند شرح عملية العبور يوم ٦ أكتوبر - تأخير غير منتظر في إنشاء معابر الجيش الثالث خاصة بالنسبة للفرقة ١٩ مشاة نظرا لصعوبة فتح الممرات في الساتر الترابي شرق القناة في هذا القطاع، مما أدى إلى تأخير المهندسين في إقامة كباري الفرقة ١٩ مشاة إلى الحد الذي حدا باللواء عبد المنعم واصل قائد الجيش الثالث إلى إصدار أوامره بعبور كتائب دبابات الفرقة ١٩ مشاة واللواء ٢٢ مدرع (الملحق على الفرقة) على كباري الفرقة ٧ مشاة (الجار الأيسر للفرقة ١٩) وأدى ذلك التعطيل إلى أن يتأخر عبور اللواء الأول حوالي ٤٨ ساعة، فبدلا من العبور ليلة ٦/ ٧ أكتوبر حسبما ورد في الخطة لم يتمكن اللواء من العبور إلا ليلة ٨/ ٩ أكتوبر..

وعقب إتمام تجمع اللواء الأول في المنطقة الأمامية المحددة له شرق القناة تم تأمين دفعه للاشتباك من خط الدفع المحدد له داخل رأس كوبري الفرقة ١٩ مشاة بنيران كتيبتي مدفعية ميدان من مجموعة مدفعية الفرقة وفقا للخطة الموضوعة وذلك في الساعة العاشرة صباحا يوم ٩ أكتوبر. ولم تمض أكثر من ٧٥ دقيقة على بدء التحرك حتى تمكنت المفرزة الأمامية من تحقيق المهمة المباشرة والاستيلاء على الخط العام الكرنتينة ـ عيون موسى (على مسافة ١٠ كم جنوب الشط). وقد اتضح أن الحامية الإسرائيلية التي كانت متحصنة في النقطة القوية عيون موسى لم تحاول إبداء أي مقاومة جدية، ويبدو أنها قد لاذت بالفرار، فقد كانت تدرك مدى حرج موقفها نتيجة لانعزالها في موقعها عقب نجاح القوات المصرية في عبور القناة وقيامها بإنشاء مناطق رءوس الكباري. وكانت على علم ـ نتيجة لتنصتها على شبكة المواصلات اللاسلكية الإسرائيلية ـ بانهيار خط بارليف وفرار بعض حاميات حصونه وسقوط الباقين أسرى في أيدي القوات المصرية، مما أصاب أفرادها باليأس.

وكانت النقطة الإسرائيلية القوية في عيون موسى تضم ٦ مدافع بعيدة المدى من طراز هاوتزر ١٥٥ م كانت مثبتة على قواعد خرسانية ومخفاة بعناية داخل دشم محصنة، وكانت مصدر تهديد دائم لمدينة السويس ومعامل تكرير البترول بالزيتية، وقد سبق أن اشتركت بنيرانها في تدميرها خلال حرب الاستنزاف. وقد وجدت المفرزة المصرية التي احتلتها جميع محتويات هذه النقطة القوية من مدافع وأسلحة وذخائر ومعدات ومؤن ومهمات شخصية سليمة، وواصلت المفرزة الأمامية تقدمها بعد ذلك في اتجاه الجنوب تتبعها الكتيبتان الخلفيتان. وفي الساعة الواحدة ظهرا نجحت في طرد عناصر للعدو من كثيب العران، وفي الساعة الثالثة بعد الظهر نجحت المفرزة المتقدمة في الاستيلاء على الخط العام جبل أم جردي مقتل المصري (١٧ كم جنوب الشط) محققة بذلك المهمة التالية المحددة لها تحت قيادة الجيش الثالث، ودخلت منذ ذلك التوقيت تحت قيادة منطقة البحر الأحمر العسكرية.

وعندما استأنفت المفرزة الأمامية تقدمها على الطريق الساحلي في اتجاه الجنوب، اصطدمت في الساعة الرابعة والنصف مساء بقوة إسرائيلية تقدر بحوالي سرية دبابات مدعمة بقواذف صاروخية من عيار ١٠٦ م، وبطارية مدفعية كانت تحتل جبل المرازا (على مسافة ٢ كم جنوب جبل أم جردي) وأرغمت المفرزة الأمامية على التوقف نظرا لتحكم القوة الإسرائيلية في محور التقدم، ولم تفلح محاولات المفرزة الأمامية في إزاحة قوة العدو عن موقعه وإخلاء الطريق أمامها لعجز العربات المدرعة B.M.P. عن القيام بالمناورة

والالتفاف على جنب العدو بسبب طبيعة الأرض السبخية علاوة على تدخل طيران العدو. وإزاء هذا الموقف أصدر قائد اللواء أوامره في الساعة الخامسة مساء إلى قائد المفرزة الأمامية، بتعديل أوضاع قوته واحتلال الميول الجانبية لجبل أم جردي شرق الطريق في مواجهة العدو، بينما أصدر أمره إلى الكتيبتين الخلفيتين باحتلال مواقع دفاعية مؤقتة على كثيب العران (على بعد حوالي ٥ كم من المفرزة الأمامية) وأصدر تعليماته بدفع عناصر استطلاع إلى الأمام والجنب الأيسر لاستطلاع مواقع العدو، على أن تستعد وحدات اللواء الأول لاستئناف التقدم في اتجاه الجنوب في أول ضوء في اليوم التالي (١٠ أكتوبر) للوصول إلى رأس سدر.

وقد كان المفترض وفقا لأوامر قائد اللواء الأول أن تتقدم المجموعات الثلاث للواء بنفس ترتيب تحركها السابق في الساعة السادسة صباحا يوم ١٠ أكتوبر في اتجاه رأس سدر التي لم يكن يفصل المفرزة الأمامية عنها سوى ٢٥ كم فقط، ولكن الواقع الذي جرى أن هذه المجموعات بقيت في أماكنها دون أن تتمكن من القيام بأي محاولة للتحرك إلى الأمام لمدة ٤٨ ساعة، أي منذ صدور أمر قائد اللواء إليها بالتوقف بعد ظهر يوم ٩ أكتوبر إلى حين وصول التعليمات القتالية الجديدة إلى قائد اللواء من قيادة الجيش الثالث بعد ظهر يوم ١١ أكتوبر بإلغاء المهمة المسندة إلى اللواء الأول، كما سنرى فيما بعد.

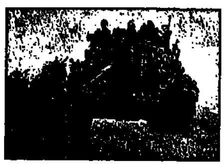
وخلال هذه الفترة الزمنية كانت أهم الأحداث التي جرت على ساحة عمليات اللواء الأول تتلخص فيما يلي:

- لم تتمكن مجموعات اللواء الثلاث من التحرك إلى الأمام في اتجاه رأس سدر، نظرا لتعرضها خلال هذه الفترة لهجمات جوية متواصلة من الطائرات الإسرائيلية التي كانت تقذفها بصواريخ جو أرض سواء نهارا أو ليلا باستخدام المشاعل المضيئة.
- نظرا لضخامة عدد العربات التي كانت تحمل احتياجات اللواء الإدارية ومواد إعاشته لفترة زمنية طويلة باعتبار أن اللواء قوة عمل مستقلة Task Force، فقد أمر قائد اللواء بإرجاع معظم العربات الإدارية إلى الخلف في منطقة الجباسات وإخلاء منطقة الأشجار في عيون موسى من جميع المركبات لوقايتها من الغارات الجوية.
- تسببت عملية عودة الوحدات الإدارية إلى الخلف وتَحَرُّك بعض المركبات المدرعة التي كانت قائمة بعملية إخلاء الجرحى من المفرزة الأمامية إلى مستشفى الميدان في منطقة الشئون الإدارية بالخلف ليلة ٩/ ١٠ أكتوبر، في حدوث بلبلة واضطراب في نفوس

بعض الأفراد وانخفاض في الروح المعنوية، خاصة مع اشتداد وطأة الغارات الجوية وإلقاء المشاعل المضيئة من الجو، مما أدى إلى فقد السيطرة على بعض الوحدات الصغرى، ولكن قائد اللواء وقادة الكتائب استطاعوا إعادة سيطرتهم على المجموعات بسرعة وعادت أوضاع اللواء إلى ما كانت عليه في صباح اليوم التالي.

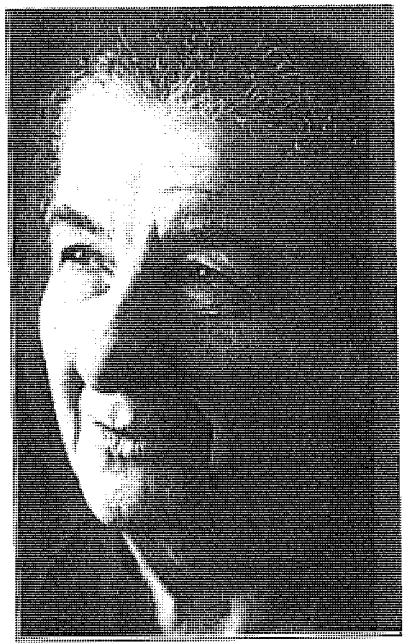
وفي الساعة الثالثة مساء يوم ١٠ أكتوبر وصل إلى قيادة اللواء الأول العميد أ. ح إبراهيم رشيد رئيس مجموعة عمليات البحر الأحمر ومعه ضابط عمليات المجموعة. ووفقا لأوامر القائد العام الفريق أول أحمد إسماعيل التي حملها العقيد أ. ح حسن الزيات صباح يوم ١٠ أكتوبر إلى قيادة الجيش الثالث، تم وضع اللواء الأول مشاة ميكانيكي تحت قيادة مجموعة عمليات البحر الأحمر التي وضعت تحت قيادة الجيش الثالث إلى حين دفع اللواء من الخط جنوب رأس سدر.

ملاحظة: الأحداث التي وقعت على هذا المحور بعد تولي مجموعة عمليات البحر الأحمر مسئولية القيادة سيتم شرحها وتحليلها في الفصل رقم ١٢ الخاص بالعمليات الحربية في منطقة البحر الأحمر.



ملحق صور الفصل الثالث

القيادات الإسرائيلية



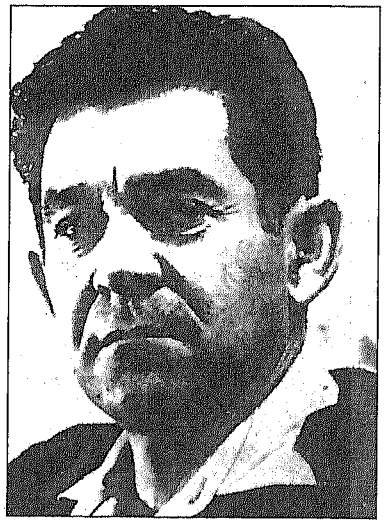
جولدا مائير

رئيسة وزراء إسرائيل.



موشي ديان

وزير الدفاع الإسرائيلي.



الجنرال دافيد أليعازر

رئيس الأركان العامة الإسرائيلي.



الجنرال شموئيل جونين

قائد القيادة الجنوبية.



الجنرال حاييم بارليف

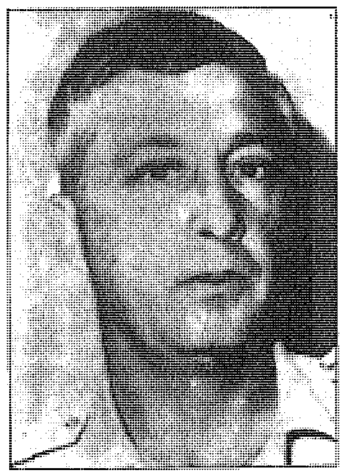
الممثل الشخصي لرئيس الأركان في القيادة الجنوبية.



الجنرال إبراهام أدان (برن)
قائد الفرقة المدرعة (القطاع الشمالي من سيناء).



الجنرال يورى بن آرى
نائب قائد القيادة الجنوبية.

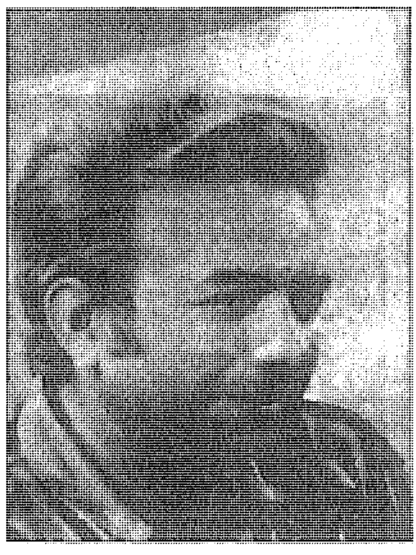


الجنرال أريل شارون
قائد الفرقة المدرعة (القطاع الأوسط من سيناء).



الجنرال ألبرت ماندلر

قائد الفرقة المدرعة (القطاع الجنوبي من سيناء).



الكولونيل عساف ياجوري

تم أسره بعد فشل الهجوم المضاد الإسرائيلي يوم ٨ أكتوبر.

القيادات المصرية



لواء سعد مأمون

قائد الجيش الثاني.



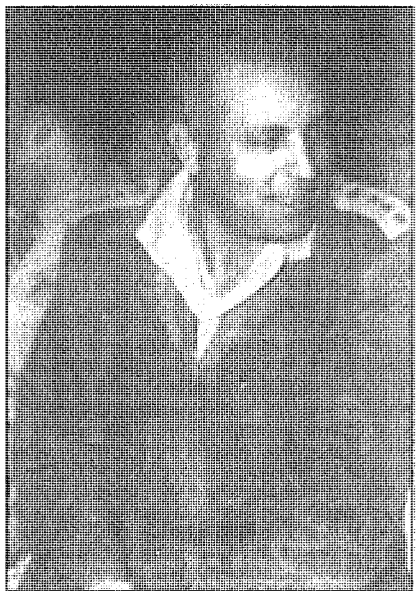
عميد حسن أبو سعده

قائد الفرقة ٢ مشاة.



عميد عبد رب النبي حافظ

قائد الفرقة ١٦ مشاة.



عميد محمد عبد الحليم أبو غزالة

قائد مدفعية الجيش الثاني.



عقيد عادل يسري

قائد اللواء ١١٢ مشاة (الفرقة ١٦ مشاة).



عقيد شفيق مترى سدراك

قائد اللواء ٣ مشاة ميكانيكي (الفرقة ١٦ مشاة).



لواء عبد المنعم واصل

قائد الجيش الثالث.



عميد يوسف عفيفي

قائد الفرقة ١٩ مشاة.



عميد أحمد بدوي

قائد الفرقة ٧ مشاة.



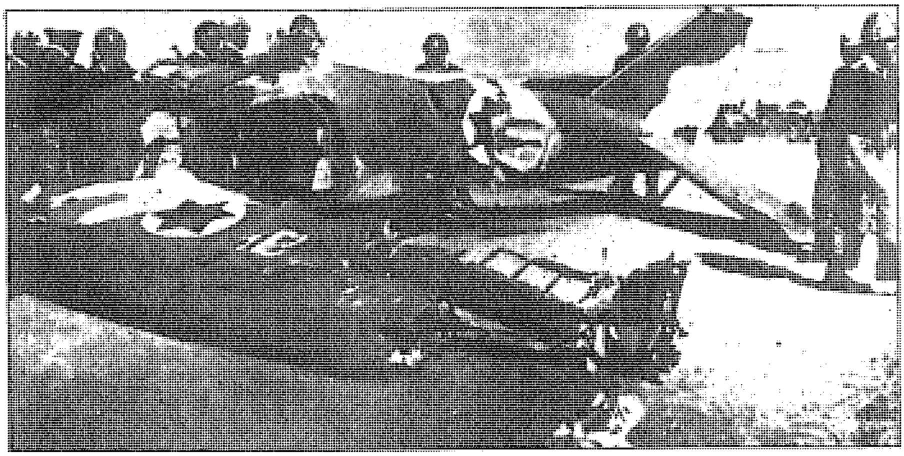
عميد منير شاش

قائد مدفعية الجيش الثاني.

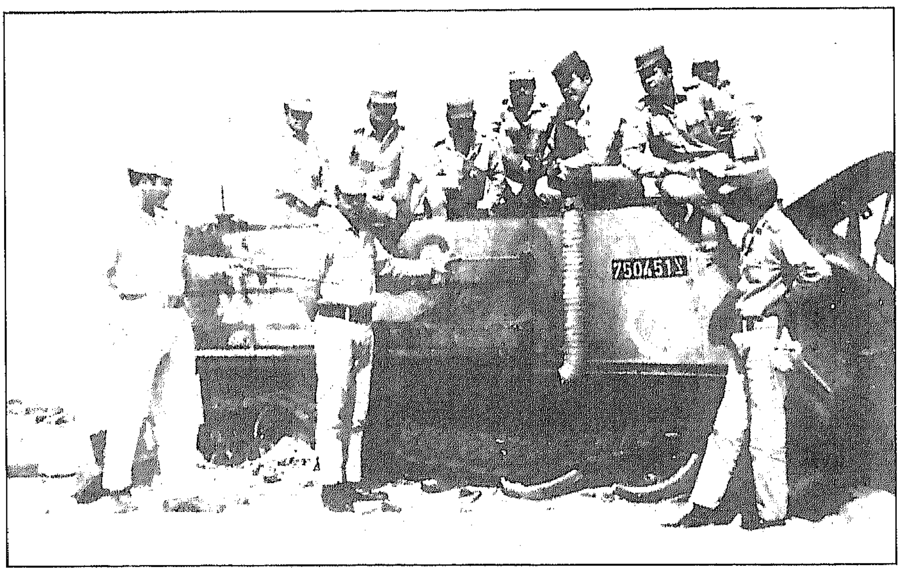


عقيد محمد الفاتح كريم

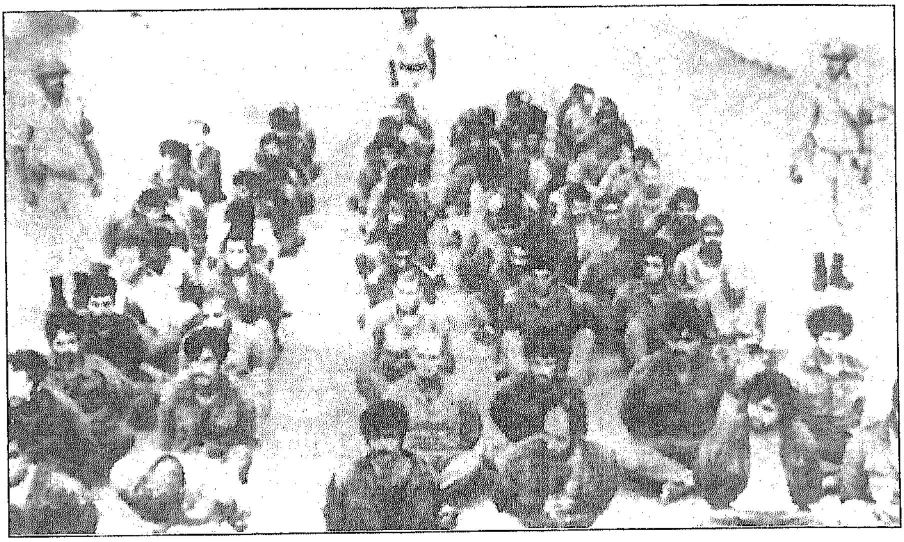
قائد اللواء ٢ مشاة ميكانيكي (الفرقة ٧ مشاة).



حطام طائرة إسرائيلية أسقطتها صواريخ أرض جو سام المصرية.



عربة مجنزرة إسرائيلية من طراز M113 تم تدميرها بقطاع اللواء الرابع (الفرقة ٢ مشاة).





جنود إسرائيليون وقعوا في الأسر بعد فشل الهجوم المضاد الإسرائيلي.



■ الفصـل الرابع ■
كيف صدر القرار بتطوير الهجوم شرقا ؟

في منتصف ليلة ٩/ ١٠ أكتوبر، عقد مجلس الحرب الإسرائيلي اجتماعًا في مكتب رئيسة الوزراء جولدا مائير، وحضر الاجتماع نائبها إيجال آلون ووزير الدفاع موشى ديان ووزير الدولة يسرائيل جاليلى، وكان يمثل القيادة العسكرية في الاجتماع الجنرال دافيد أليعازر رئيس الأركان العامة ونائبه الجنرال تال ورئيس المخابرات العسكرية إلياهو زعيرا وقائد السلاح الجوي الجنرال باني بيليد. وخلال الجلسة التي استغرقت أكثر من ست ساعات دارت مناقشات مثيرة حول موضوع الساعة الذي عقد من أجله الاجتماع، وهو اختيار الجبهة التي سيركز أمامها المجهود الرئيسي للقوات الإسرائيلية في المرحلة المقبلة. وكان الجنرال أليعازر يرى ضرورة تركيز المجهود الرئيسي على الجبهة السورية للاستفادة بميزة المبادأة التي تمكن الجيش الإسرائيلي من استردادها من أيدي السوريين، لتوجيه ضربة قاصمة إلى الجيش السوري، يمكن بها تصفيته كقوة محاربة، مما يؤدي إلى إرغام سوريا على الخروج من الحرب وخاصة بعد الخسائر والضربات العنيفة التي أصابت القوات السورية في معارك مرتفعات الجولان، كما أن وصول طلائع القوات العراقية التي اشتركت في القتال يجعل من الضروري سرعة السيطرة على الموقف في الجبهة السورية قبل وصول القوات الرئيسية العراقية. وأكد الجنرال أليعازر أن توجيه المجهود الرئيسي في هذه الفترة تجاه الجبهة المصرية لا يمكن أن يحسم الحرب، إذ إن المصريين مستحمكون داخل منطقة رءوس الكباري في مواقع دفاعية حصينة، وقد باءت جميع الهجمات المضادة التعبوية التي وجهت ضد قطاع الجيش الثاني يومي ٨ و ٩ أكتوبر بالفشل، مما يدعو إلى وجوب الانتظار إلى حين تصفية الموقف على الجبهة السورية، وعندئذ يتم نقل المجهود الرئيسي إلى الجبهة المصرية في سيناء.

وذكر الجنرال أليعازر أن الهجوم على عمق سوريا لا يستهدف اكتساب أراض جديدة بقدر ما يستهدف تحطيم الجيش السوري، وتقدم المدفعية الإسرائيلية بعيدة المدى مسافة كافية نحو الشمال لتدخل العاصمة دمشق في مرماها، مما يرغم سوريا على وقف الحرب. وكان تركيز الهجوم على سوريا يحقق لإسرائيل غرضا آخر مهما، وهو تحذير الملك حسين حتى لا تراود ذهنه أفكار فتح جبهة ثالثة على حدود الأردن البالغة الطول مع إسرائيل على غرار ما فعله في حرب يونيو ١٩٦٧م، وحتى لا يخضع من جهة أخرى لضغط منظمة التحرير الفلسطينية لإرسال مقاتليها للقيام بعملياتهم الفدائية عبر الحدود الأردنية.

(كان وفد من منظمة التحرير يتألف من أبي داود وصالح رأفت قد قام بالفعل بزيارة عمان ومقابلة زيد الرفاعي رئيس وزراء الأردن يوم ٩ أكتوبر لمحاولة إقناع السلطات الأردنية للسماح للفدائيين الفلسطينيين بالعمل في مجموعات كبيرة ضد إسرائيل من خلال الحدود الأردنية).

ولم يكن الملك حسين في الواقع في حاجة إلى مثل هذا التحذير، فقد كان رأيه قد استقر منذ بداية الحرب على عدم الاشتراك فيها إلا إذا نجح السوريون في احتلال هضبة الجولان، وتمكن المصريون في نفس الوقت من الوصول إلى خط الممرات الجبلية في سيناء.

ولكن الجنرال تال نائب رئيس الأركان العامة كان في الجانب المعارض لرأي رئيسه، فقد كان يرى ضرورة تركيز المجهود الرئيسي على الجبهة المصرية لخطورتها المباشرة على إسرائيل، إذ إن المصريين قادرون على شن الهجوم، بينما القوات السورية مهزومة ولا تستطيع القيام بهجوم جديد. وأكد الجنرال تال أنه على الرغم من صعوبة تحريك أي قوات برية إسرائيلية من الجبهة السورية إلى الجبهة المصرية بهدف زيادة قدراتها الهجومية، فإن القيادة الجنوبية بما لديها من قوات تحت قيادتها وبفضل تحركاتها التكتيكية الواعية يمكنها إنزال ضربة قاصمة بالجيش المصري وتحقيق تحول جذري في ميزان الحرب. وانتهى الاجتماع بتبني رأي رئيس الأركان العامة بعد أن أيده بحماسة كل من موشيه ديان وإيجال آلون ثم جولدا مائير.

ونتيجة لقرار مجلس الحرب بتركيز المجهود الرئيسي ضد سوريا، بدأت القيادة الجوية الإسرائيلية في ضرب أهداف إستراتيجية في أعماق سوريا. فأغارت طائرات الفانتوم الإسرائيلية على أهداف حيوية داخل دمشق، وهاجمت مبنى وزارة الدفاع ومبنى قيادة

القوات الجوية ومحطة الإذاعة السورية. وسقطت بعض القنابل على بعض المباني السكنية المجاورة لهذه الأهداف، كما أصابت بعضها الحي الراقي في «أبو رمانة» حيث تقع منطقة السفارات. كذلك شنت مجموعات أخرى من الطائرات الإسرائيلية هجمات مركزة على محطة توليد الكهرباء الرئيسية في حمص وعلى مصفاة النفط بها، كما تعرضت خزانات النفط في طرطوس لهجمات مماثلة. وكان واضحا من هذه الهجمات الجوية أن إسرائيل تستهدف إنزال أفدح الخسائر بالاقتصاد السوري في محاولة لإجبار سوريا على الخضوع والاستسلام. ومن بين التطورات المثيرة التي وقعت، مهاجمة ٦ طائرات إسرائيلية لمحطة الرادار اللبنانية الواقعة على جبل الباروك داخل الأراضي اللبنانية. وقد تمكنت الطائرات من إلحاق أضرار جسيمة بالمحطة لتحرم سوريا من المعلومات التي كانت تزودها بها. وقد تقدم لبنان بشكوى على أثر ذلك إلى الأمين العام للأمم المتحدة. وفي يوم ١٠ أكتوبر تم انسحاب القوات السورية الرئيسية من هضبة الجولان، وقام رجال المظلات الإسرائيليون بدخول القنيطرة عاصمة الجولان وإعادة احتلالها، وتقدمت القوات الإسرائيلية حتى وصلت إلى خط وقف إطلاق النار السابق بين سوريا وإسرائيل عقب حرب يونيو ١٩٦٧م المعروف باسم الخط الأرجواني Purple Line، وهو الخط الذي بدأت منه القوات السورية الهجوم في ٦ أكتوبر ١٩٧٣م، وبالتالي عاد الوضع إلى ما كان عليه قبل الحرب. وقرر الجنرال أليعازر رئيس الأركان العامة عدم تأجيل الهجوم على سوريا سوى يوم واحد فقط لإكمال الاستعدادات وإعادة التنظيم، على أن يبدأ الهجوم العام يوم ١١ أكتوبر في اتجاه دمشق.

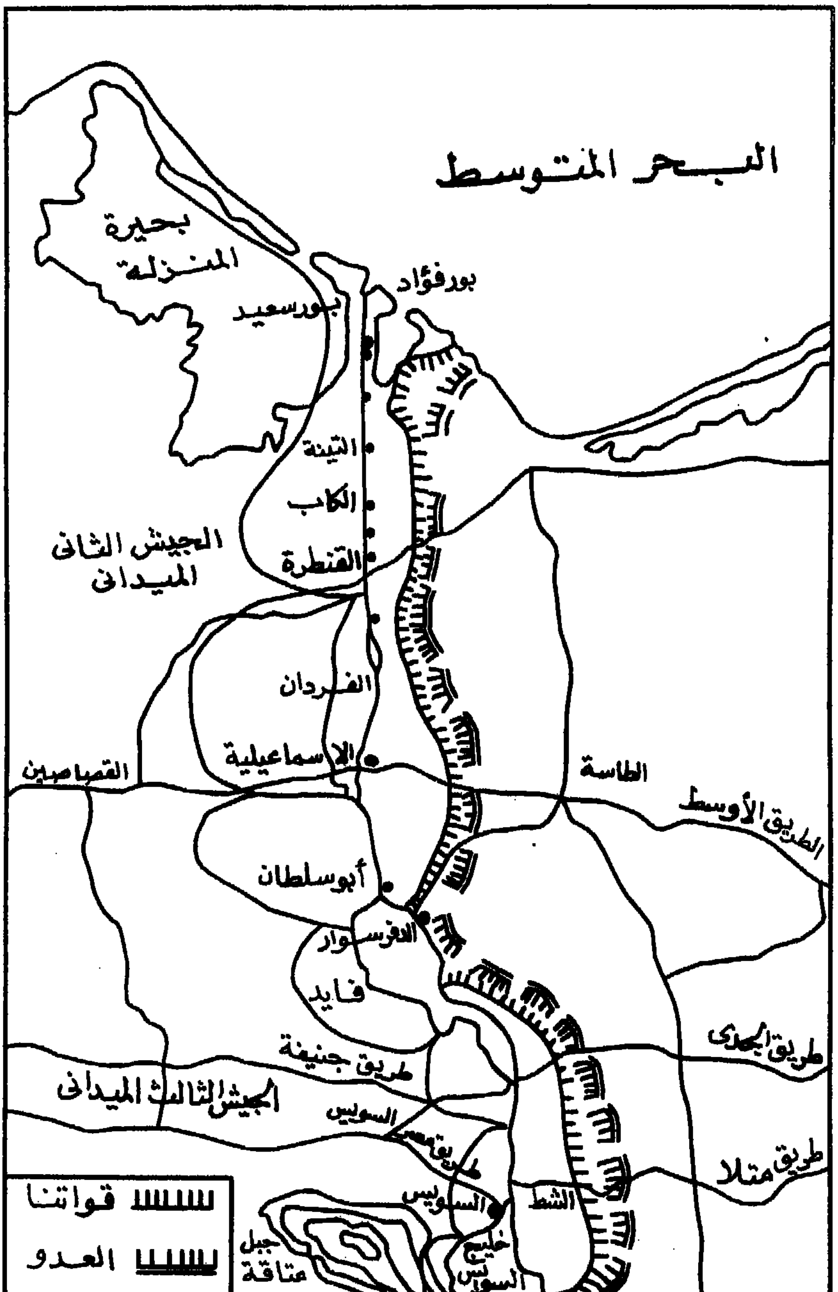
لماذا فكرت إسرائيل في العبور إلى الضفة الغربية؟

في صباح يوم الأربعاء ١٠ من أكتوبر وصل الجنرال حاييم بارليف الذي عهد إليه بتولي القيادة الجنوبية، كما سبق أن ذكرنا إلى المقر الأمامي للقيادة في أم مرجم. وبعد لقاء قصير مع الجنرال شموئيل جونين القائد السابق الذي أصبح يعمل كنائب له منذ وصوله ومع كبار ضباط القيادة، بدأ الجنرال بارليف يمارس قيادته بالفعل، فأخذ في زيارة الفرق المدرعة الثلاث المتمركزة على خط المواجهة في سيناء لمعرفة أوضاعها القتالية على الطبيعة، كما انشغل بمراقبة المعارك التي كانت تدور وتحتدم بين القوات الإسرائيلية والقوات المصرية على طول المواجهة. ولم تكن المعارك الدائرة في هذه الفترة سوى عمليات دفع صغيرة ذات مكاسب محلية محدودة، فلم يكن المصريون يستهدفون من عملياتهم إلا توسيع رءوس الكباري وتعميقها وتعديل بعض أوضاعهم التكتيكية

بالاستيلاء على بعض النقاط الحاكمة في قطاعاتهم، وإتمام السيطرة على طريق المدفعية (الطريق العرضي رقم ٢) على بعد حوالي ١٠ كم شرق القناة. وكانت القوات الإسرائيلية في سيناء تخوض معركة احتواء Containing battle، ولم تكن تستهدف من هجماتها المضادة المحلية سوى منع محاولات التقدم المصرية في اتجاه الطريق العرضي رقم ٣ (على بعد حوالي ٣٠ كم شرق القناة). وكان التقرير الذي قدمه الجنرال جونين عن الموقف للجنرال بارليف عقب وصوله يشير إلى التحسن الكبير الذي طرأ لأول مرة على الوضع العسكري للقوات الإسرائيلية في سيناء على طول الجبهة والذي كان في الإمكان ملاحظته بسهولة. فإن نسبة السحق في تقديره قد تغيرت لصالح الجيش الإسرائيلي، إذ إن الدبابات المصرية أصبحت خسائرها تفوق خسائر الدبابات الإسرائيلية. وعزا جونين هذا التحسن في الوضع العسكري إلى عدة عوامل كان أهمها استكمال وصول معظم القوات الاحتياطية الإسرائيلية، وكذا الكفاءة العالية لوحدات وأطقم صيانة وإصلاح الدبابات التي تمكن أفرادها من إصلاح مئات من الدبابات المعطوبة في وقت قصير. وبالإضافة إلى ذلك استفادة قادة الوحدات الفرعية في الوحدات المدرعة الإسرائيلية من تجاربهم المريرة فى أثناء قتالهم في الأيام الأولى من الحرب ضد أطقم اقتناص الدبابات المصرية، مما دفعهم إلى تغيير أسلوبهم التكتيتكي في التعامل مع أفراد المشاة المصريين لتجنب الخسائر الفادحة التي كانت تلحق بهم.

وعند زيارة الجنرال بارليف لمقر قيادة القطاع الأوسط، أبدى له الجنرال شارون استياءه البالغ من وضع الجمود الذي يسود الجبهة المصرية في الجنوب، بينما تركز المجهود الرئيسي على هضبة الجولان في الشمال. وكان رأي شارون أن ما يتبع هو أسلوب إستراتيجي خاطئ، لأن الوقت ليس في صالح إسرائيل، وما دام المصريون لا يحاولون الضغط بقواتهم شرقا ويكتفون بأعمال الحفر وتحصين مواقعهم الدفاعية، فإن هذا يعني أنهم يهيئون أنفسهم انتظارا لصدور قرار من مجلس الأمن بوقف إطلاق النار ليكونوا وقتئذ في موضع قوة. وإن بقاء الجيش الإسرائيلي في سيناء في حالة ثبات يجعله يفقد الميزات الأساسية التي هيأت له النصر في الحروب السابقة، وهي الاحتفاظ بالمبادأة والقتال المتحرك الذي يعتمد على أسلوب المناورة وخفة حركة القوات المدرعة.

وكان شارون قد وضع خطة تهدف إلى مهاجمة رأس كوبري الجيش الثالث بلواءين مدرعين من فرقته من الشمال إلى الجنوب على أن يكون تقدمهما على الطريق الموازي للبحيرات المرة لتأمين جنبهما الأيمن، ويكون هجومهما بالتنسيق مع قوات الجنرال ألبرت



أوضاع القوات يوم ١٣ أكتوبر ١٩٧٣.

ماندلر المتمركزة في القطاع الجنوبي. وفي اجتماع بمقر القيادة الجنوبية يوم ١١ أكتوبر رأسه الجنرال بارليف، وحضره شارون مع قائدي اللواءين المدرعين اللذين سيقومان بالهجوم، وهما العقيدان آمنون وحاييم، عرض شارون خطته الهجومية ضد قطاع الجيش الثالث، ولكن الجنرال جونين الذي كان حاضرا الاجتماع رفض الخطة وشاركه في الرفض الجنرال بارليف. وكان سر الاعتراض الذي وجه إلى خطة شارون يقوم على أساس أنها عملية باهظة الثمن ضئيلة النتائج، وسوف تؤدي إلى أن يلحق باللواءين المدرعين الإسرائيليين خسائر فادحة. وكانت ذكرى فشل هجوم فرقة الجنرال إبراهام أدان على الجيش الثاني يوم الاثنين ٨ أكتوبر ما زالت ماثلة في الأذهان، عندما اشتعلت عشرات من الدبابات الإسرائيلية بالنار خلال دقائق معدودة. وفي نفس الوقت كانت الحاجة ماسة إلى الاحتفاظ بقوة المدرعات الإسرائيلية قوية وسليمة انتظارا للهجوم المدرع المصري المرتقب الذي كان - وفقا لأسلوب القتال السوفيتي الذي يتبعه المصريون - من المنتظر أن يقع في اليوم السادس أو السابع من الحرب أي يوم ١١ أو ١٢ أكتوبر على أكثر تقدير. وكان من المحتم أن تعقبه معركة دبابات كبرى بين الجانبين.

وعقب وصول بارليف إلى الجبهة الجنوبية بدأ يشعر بالمشكلات الناجمة عن فرض الانضباط على شارون. لقد كان في تقدير موشى ديان والجنرال أليعازر أن المتاعب الكبيرة التي سببها شارون لقائده السابق جونين بسبب حساسية الوضع بينهما سوف تنتهي بمجرد وصول بارليف إلى مقر القيادة الجنوبية، فلقد كان بارليف فيما مضى رئيسا للأركان العامة، وكان شارون أحد قادته المرءوسين، ولذلك كان المفترض أن سلطته القيادية سوف يعترف بها شارون بدون أي اعتراض. ولكن المشكلات لم تلبث أن بدأت وأوجه الخلاف سرعان ما تفاقمت بين الطرفين.

ولم تكن هذه هي المرة الأولى التي اختلف فيها شارون مع بارليف، فقد عارضه من قبل في أسلوب إنشاء خط بارليف، وانتقد بشدة طريقته في محاربة الفدائيين الفلسطينيين. وعندما عين شارون قائدا للقيادة الجنوبية في يناير عام ٧٠ وجه شارون نقده علانية إلى رئيس الأركان العامة أمام رؤساء تحرير الصحف الذين اجتمع بهم بسبب الأسلوب الخاطئ الذي تتبعه القوات الإسرائيلية على جبهة قناة السويس في الرد على حرب الاستنزاف التي شنها المصريون. ولكن الجنرال بارليف لم يستطع أن يكتم سخطه في هذه المرة من تصرفات شارون الهوجاء، ولم يعد يحتمل عدم انضباطه وتحديه

لأوامره، ولذا طلب من رئيس الأركان في ١٢ أكتوبر أي بعد يومين فقط من توليه القيادة إعفاء شارون من منصبه، فأجابه الجنرال أليعازر بأنه سيقوم باستشارة وزير الدفاع. وعندما عرض الأمر على موشى ديان أجاب بأن مثل هذا الإجراء في هذا الوقت سوف يثير مشكلات سياسية، إذ إن شارون عقب إحالته إلى التقاعد أصبح أحد الأعضاء البارزين في حزب الليكود المعارض لحكومة حزب العمل التي كانت تتولى الحكم وقتئذ، ورغم هذه الظروف الحساسة التي أبلغت إلى بارليف، فإنه اضطر مرة أخرى بعد فترة قصيرة إزاء استهانة شارون بأوامره وعدم انقياده إلى أن يقترح رسميا عزل شارون عن قيادته.

هذا ولم تقع أحداث مهمة على مستوى الجبهة الجنوبية يوم ١٠ أكتوبر - وهو اليوم الذي تولى فيه الجنرال بارليف قيادة الجبهة - سوى نجاح قوة تابعة للجنرال كلمان ماجن الذي سبق إلحاقه في القطاع الشمالي تحت قيادة الجنرال أدان (برن) في الالتحام بموقع الحصن الإسرائيلي المحاصر الواقع على ساحل البحر المتوسط جنوب شرق بور فؤاد (حصن بودابست)، وقد اضطرت المدرعات الإسرائيلية في سبيل الوصول إليه إلى الاستعانة بقوة من المظلات لوقوعه في منطقة محصورة بين البحر والمستنقعات، واشتركت القوتان معا في اقتحام الطريق الساحلي عبر المستنقعات حتى نجحتا في الوصول إلى الحصن. وكان هذا الحصن هو الوحيد بين حصون خط بارليف الذي لم يسقط، وصمد في القتال حتى نهاية الحرب بسبب صعوبة الوصول إلى موقعه وشجاعة حاميته وبسالتها. وقد ذكرت المراجع الإسرائيلية أن لقاء قوة ماجن بأفراد حامية الحصن كانت من لحظات السعادة القليلة في الحرب، فقد تبادل الجنود الأحضان والقبلات وقاموا على الفور بإخلاء الجرحى إلى المستشفيات في الخلف عبر الخطوط الإسرائيلية. . وكان هناك حصن آخر لا يزال يقاوم وهو الحصن المقام على لسان بور توفيق في المدخل الجنوبي للقناة. ورغم مناعة موقعه لإحاطة المياه به من جهات ثلاث فقد اضطرت حاميته إلى التسليم كما أسلفنا إلى قوات الفرقة ١٩ مشاة يوم ١٣ أكتوبر عن طريق ممثلي الصليب الأحمر.

ومنذ يوم ١٠ أكتوبر كان القلق قد بدأ يسري لدى القيادة الجنوبية الإسرائيلية من احتمال بقاء القوات المصرية مستحكمة في مواقعها الدفاعية الحصينة داخل مناطق رءوس الكباري، في الوقت الذي لا تتعرض فيه لأي تهديد جدي من جانب الطيران الإسرائيلي المتفوق بسبب دخولها في نطاق شبكة الصواريخ المصرية أرض جو (سام) المنتشرة على الضفة الغربية للقناة والتي كانت تهيئ لها الوقاية التامة من الغارات الجوية الإسرائيلية.

وكان نشاط القوات المصرية في أعمال الحفر وبث حقول الألغام بكثافة حول المواقع الدفاعية مؤشرا له دلالته الواضحة على أن القوات المصرية لا تنوي تنفيذ المرحلة الثانية من خطتها الهجومية، وهي تطوير الهجوم شرقا للوصول إلى خط الممرات الجبلية.

وكان بقاء ٥ فرق مشاة مصرية كاملة متخندقة في مواقعها داخل مناطق رءوس الكباري وهي مدعمة - بعد استنزال خسائر المعارك التي وقعت في الأيام السابقة - بما لا يقل عن ٨٥٠ دبابة (٥ ألوية مدرعة ملحقة على فرق المشاة الخمس علاوة على كتائب دبابات الفرق والألوية المشاة العضوية) معناه أن القوات الإسرائيلية سوف تضطر إلى خوض حرب استنزاف مريرة تنطح خلالها رأسها في الصخر، وتتحطم فيها الدبابات الإسرائيلية أمام صلابة الدفاعات المصرية الحصينة كما جرى في الهجمات المضادة الإسرائيلية يومي ٨ و ٩ أكتوبر التي شنت بطريقة جبهوية من اتجاه الغرب إلى الشرق.

وكانت الطريقة الوحيدة للإخلال بتوازن القوات المصرية والسماح للجيش الإسرائيلي باستعادة ميزتي خفة الحركة والقدرة على المناورة اللتين اشتهر بهما هي عبور القوات الإسرائيلية قناة السويس من الشرق إلى الغرب والعمل على مؤخرة الجيشين الثاني والثالث، وبهذه الوسيلة تنجو إسرائيل من مأزق الحرب الثابتة التي أجبرها المصريون على اتباعها.

هذا، ولم يكن عبور القوات الإسرائيلية قناة السويس من الشرق إلى الغرب فكرة فجائية طرأت على أذهان المسئولين في القيادة الجنوبية فى أثناء الحرب، بل كان هذا الرأي في الواقع عنصرا أساسيا في التخطيط العسكري الإسرائيلي الذي تم وضعه منذ عام ١٩٦٨ للدفاع عن سيناء في مواجهة أي هجوم مصري واسع النطاق عبر قناة السويس. وقد استمر تجهيز وبناء المعدات اللازمة لعملية العبور الإسرائيلية عدة سنوات، وتم اختيار ثلاث مناطق كنقاط صالحة للعبور منها في المستقبل، وهي مناطق القنطرة شرق والدفرسوار (شمال البحيرة المرة الكبرى)، وفي المنطقة التي تقع شمال مدينة السويس. وتعمد الإسرائيليون تخفيف سمك الساتر الرملي على الشاطئ الشرقي للقناة في تلك المناطق، كما وضعت علامات بالطوب الأحمر عند الأمكنة التي ينتظر فتحها في الساتر الرملي استعدادا لدفع معدات العبور من خلالها إلى خط المياه. وعلاوة على ذلك مهدت طرق خاصة لجر الكباري السابقة التجهيز في اتجاه نقاط العبور المنتخبة، وعند كل نقطة منها أعدت ساحة خاصة (Yard)، كانت عبارة عن منطقة ممهدة مساحتها ١٥٠ ياردة في ٧٠٠ ياردة تحيطها حوائط عالية من الرمال بهدف استخدامها لإعداد معدات العبور قبل إنزالها إلى الماء.

وإلى جانب هذه التجهيزات، أجريت التدريبات اللازمة في شكل مشروعات تعبوية على عملية عبور القناة إلى الغرب على المستويات الكبرى بدءا من مستوى قيادات الفرق المدرعة الاحتياطية في سيناء ومستوى القيادة الجنوبية حتى مستوى أفرع رئاسة الأركان العامة في تل أبيب. وقد اتضح أن الجنرال شارون عندما تولى رئاسة القيادة الجنوبية أعد ملفا تفصيليا تم حفظه في هذه القيادة عن عملية العبور إلى الغرب، كما قام بإجراء مناورة لتدريب قواته عليها. وعندما أفاقت القيادة الجنوبية الإسرائيلية من صدمة العبور المصري يوم ٦ أكتوبر التي أفقدتها توازنها، وبدأت تعود إلى تماسكها خاصة بعد تزايد أعداد ما تحت إمرتها من الدبابات بدأت هذه القيادة في الإعداد للعملية الكبرى التي سبق التجهيز لها منذ عدة سنوات بدقة وإتقان، وهي عملية العبور إلى الضفة الغربية للقناة بهدف الإخلال بتوازن القوات المصرية شرق القناة وتهيئة الفرصة أمام القوات المدرعة الإسرائيلية للانتقال من مرحلة الحرب الثابتة شرق القناة التي تشل حركتها إلى مرحلة القتال المتحرك الذي تستغل فيه ميزاتها الأساسية في خفة الحركة والقدرة على المناورة عبر الأراضي المفتوحة غرب القناة. وفي ليلة ٩/ ١٠ أكتوبر أمر الجنرال جونين رئيس مهندسي القيادة الجنوبية باتخاذ الخطوات اللازمة لتجميع أجزاء الجسر السابق التركيب Preconstructed في منطقة قريبة من القناة استعدادا لدفعه إلى الأمام إلى النقطة التي سيتم اختيارها للعبور منها إلى غرب القناة.

سر تأجيل عملية العبور إلى غرب القناة

وفي مساء الخميس ١١ أكتوبر انعقد مؤتمر مهم برئاسة الجنرال حاييم بارليف في المركز الأمامي للقيادة الجنوبية حضره رؤساء أفرع القيادة وقادة الفرق المدرعة للاتفاق على أصلح نقطة يتم من خلالها العبور إلى الضفة الغربية للقناة. ونوقشت خلال المؤتمر عدة اقتراحات كان من ضمنها العبور من أقصى الشمال للاستيلاء على مدينتي بور فؤاد وبور سعيد، كما كان من ضمنها العبور من الطرف الشمالي لخليج السويس للقيام بعملية تشبه الغارة المدرعة البرمائية على الزعفرانة يوم ٩ سبتمبر عام ٦٩، وكان من ضمن الاقتراحات أيضا العبور من منطقة القنطرة شرق. ولكن هذه الاقتراحات رفضت جميعا.

وقد ثبت أن أفضل الاقتراحات التي طرحت خلال الاجتماع كان الاقتراح الذي قدمه الجنرال جونين، وهو أن يتم العبور من منطقة الدفرسوار. وبرغم التحفظات التي أبداها كل من شارون وأدان فقد أصر جونين على رأيه الذي كان يحقق من وجهة نظره وصول القوات الإسرائيلية إلى القناة دون أن تصادف أي مقاومة كبيرة، بينما كان العبور من المناطق

الأخرى المقترحة يتطلب خوض معركة رئيسية والقيام بعملية اختراق للدفاعات المصرية Penetration قبل بدء العبور الفعلي. وانحاز الجنرال بارليف بعد انتهاء المناقشات إلى فكرة العبور عن طريق منطقة الدفرسوار نظراً لما كانت تحققه من مزايا كبيرة، إذ إن الجناح الأيسر للقوات التي ستكلف بالعبور سيكون مؤمنا تماما لوجود ثغرة مقدارها حوالي ٣٥ كم بين رأس كوبري الجيش الثالث ورأس كوبري الجيش الثاني على شاطئ البحيرة المرة خالية من القوات المصرية، كما أن الأرض المواجهة لنقطة العبور على الضفة الغربية للقناة تعتبر أصلح الأراضي للعمليات الحربية بالنسبة لقوات العبور الإسرائيلية بعد وصولها إلى الشاطئ الغربي للقناة، حيث لا توجد أمامها سوى ترعة واحدة فقط للمياه العذبة الممتدة من الإسماعيلية إلى السويس يمكن عبورها بسهولة، كما أن المنطقة في مواجهتها مفتوحة مما يجعلها ملائمة تماما لتحركات القوات المدرعة وقيامها بأعمال المناورة، في حين أن منطقة القنطرة لا تسمح لقوات العبور بهذه المزايا نظراً لوجود عدة قنوات مائية ومناطق زراعية تعترض اتجاه تقدمها مما يجعل تحركات القوات المدرعة مقيدة ومحدودة. وكان توقيت الهجوم يعتمد إلى حد كبير على التحركات المتوقعة للقوات المصرية.

وكانت المشكلة التي واجهت القيادة الجنوبية الإسرائيلية هي: ماذا ينبغي أن يكون تصرفها في حالة إصرار المصريين على البقاء مستحكمين داخل رءوس الكباري الحصينة على الضفة الشرقية للقناة انتظارا لصدور قرار من مجلس الأمن بوقف إطلاق النار وبقاء الأنساق الثانية للجيشين والاحتياطي العام متمركزة في أمكنتها غرب القناة دون أن تفكر القيادة المصرية في الدفع بها لعبور القناة والاندفاع شرقا في اتجاه المضايق. وكان التصرف الوحيد الذي يمكن للقيادة الإسرائيلية عن طريقه إنقاذ الموقف في هذه الحالة هو القيام بعملية عبور للقناة.

ولكن عملية العبور إلى الضفة الغربية سوف تكون بلا شك عملية بالغة الخطورة مع وجود فرقتين مدرعتين (الفرقة الرابعة المدرعة والفرقة ٢١ مدرعة) وفرقتين ميكانيكيتين (الفرقة ٦ والفرقة ٢٣ مشاة ميكانيكية)، وكانت ثلاثة ألوية مدرعة من هذه الفرق الأربع ملحقة على ثلاث فرق مشاة شرق القناة: لواء من الفرقة ٢١ مدرعة ولواء من كل من الفرقتين الميكانيكيتين، ولذا فإن العدد الحقيقي للدبابات غرب القناة لم يكن يتجاوز وقتئذ ٤٠٠ دبابة ولكن كان برفقتها عدد ضخم من العربات المدرعة ذات الجنزير التابعة للفرقتين الميكانيكيتين، وكانت هذه القوات المدرعة متمركزة داخل النطاق التعبوي للجيشين الثاني والثالث على بعد حوالي ٢٠ كم غرب القناة ومحتلة مواقع دفاعية حصينة، ومكلفة

بواجب رئيسي وهو الاكتشاف المبكر لأي قوات للعدو، تتمكن من اختراق المواقع الدفاعية المصرية شرق القناة والاشتباك معها في الحال لتدميرها ومنعها من الوصول إلى أي أهداف حيوية غرب القناة.

ونتيجة لهذا الوضع كان الانطباع السائد بين القادة الإسرائيليين بصفة عامة أنه من الخطورة بمكان على إسرائيل تنفيذ عملية العبور إلى الضفة الغربية في وجود هذا الحشد الضخم من القوات المدرعة والميكانيكية المصرية.

وفي يوم الجمعة ١٢ أكتوبر انتقل الجنرال بارليف بطائرة هيليكوبتر إلى تل أبيب حيث حضر اجتماعًا عسكريا بالقيادة العامة عرض فيه الخطوط الرئيسية لخطة العبور على الجنرال أليعازر رئيس الأركان وعلى كبار معاونيه. وعندما حضر موشى ديان وزير الدفاع الاجتماع لعرض الخطة عليه بناء على طلب رئيس الأركان للحصول على تصديقه، أبدى ديان تشككه في جدوى العملية كلها، وأكد أنها لن تجبر المصريين على طلب وقف إطلاق النار. وعندئذ انبر ى بارليف للدفاع عن الخطة فقال: «هذه هي الخطوة الوحيدة لترجيح الكفة في الحرب، بدون عبور لن يكون هناك وقف إطلاق نار، لأنه ليس هناك أي ضغط على المصريين ولا حتى ضغط سياسي». ورد ديان في حدة: «لتتركوا المسألة السياسية جانبا وعليكم البحث في الموضوع من ناحية عسكرية، هل الخطة قابلة للتنفيذ من هذه الناحية أم لا؟». وترك ديان الاجتماع دون أن يحدد موقفه.

وبناء على طلب الجنرال أليعازر، انعقد مجلس الحرب الذي حضره من أعضاء الحكومة كل من جولدا مائير رئيسة الوزراء وإيجال آلون نائبها وموشى ديان وزير الدفاع ويسرائيل جاليلي وزير الدولة، وقدم مع رئيس الأركان العامة عدد من كبار معاونيه، كما حضر الجنرال بارليف الاجتماع ولكن بصفته قائدا للقيادة الجنوبية وليس بصفته وزيرا في الحكومة. وعرض بارليف خطته لعبور قناة السويس، وشرح بالتفصيل الخطوط الرئيسية لعملية العبور، وثارت مناقشات حادة، فقد كان الحاضرون يناقشون في الواقع عملية من أهم العمليات العسكرية وأكثرها تعقيدا ومن أخطرها في نفس الوقت على إسرائيل من حيث النتائج فيما لو صادفها الفشل. ومن خلال المناقشات، اتضح أن رئيس الأركان وقائد السلاح الجوي الجنرال باني بيليد هما من أشد المتحمسين للخطة وأن موشى ديان مؤيد لها كذلك.

ولكن في نفس الوقت ارتفعت أصوات المعارضين للخطة، فقد حذر أحد كبار القادة

من خطورة عبور مانع مائي في صعوبة قناة السويس، بينما يسيطر العدو على كل جانب من جانبيه. ونصح قائد آخر بوجوب التريث والانتظار إلى حين أن تقوم القوات المدرعة المصرية بهجومها المتوقع، وبعد أن يتم صده، تقوم القوات الإسرائيلية بالهجوم المضاد عبر القناة، وذكر أنه وفقا للعقيدة السوفيتية فإن المتوقع أن يشن المصريون هجوما واسع النطاق بمدرعاتهم ما بين يومي ١١ و ١٢ أكتوبر.

وعندما قويت نغمة المعارضة في المجلس، وازدادت أسئلة الوزراء التي كانت تعكس مدى قلقهم وانزعاجهم لإجراء مثل هذه المغامرة غير مأمونة العواقب، شعر الجنرال بارليف بنوع من الإحباط، فقد أدرك أن الخطة التي بنى عليها كل آماله لاستعادة زمام الموقف واسترداد المبادأة من المصريين لا يمكنه في مثل هذه الظروف الحصول على تصديق مجلس الحرب عليها، ولذا بدأ يطوي أوراقه وخرائطه استعداداً لمغادرة الاجتماع والعودة إلى مقر قيادته.

ولكن القدر تدخل تدخلا عجيبا. فقبل أن ينفض الاجتماع بدقائق اقتحم المجلس أحد ضباط العمليات ليلقي بالنبأ المثير الذي اهتز له جميع الحاضرين. لقد بدأ عبور القوات المدرعة المصرية الذي طال انتظاره، وأخذت وحدات من الفرقتين ٤ و ٢١ المدرعتين في التدفق على الكباري المصرية في طريقها إلي الضفة الشرقية. ونهض بارليف في نشوة ليطلب من مجلس الحرب تأجيل اتخاذ أي قرار إلي حين أن تقوم القيادة الجنوبية بصد الهجوم المصري أولاً، فلقد أعد خطته الجريئة وآن له أن يجنى الثمار.

مصرع الجنرال ألبرت ماندلر

فور وصول الجنرال أليعازر إلى المركز الأمامي للقيادة الجنوبية في أم مرجم صباح السبت ١٣ أكتوبر، استقل طائرته الهيليكوبتر وبرفقته الجنرال بارليف قائد القيادة الجنوبية متجهين إلى الطاسة. وهي مركز القيادة الأمامي للقطاع الأوسط الذي كان يتولى قيادته الجنرال شارون، والتي اختيرت مقرا لاجتماع القادة برئيس الأركان العامة نظرا لموقعها المتوسط في الجبهة. وطار الجنرال جونين بطائرة هيليكوبتر أخرى وبرفقته الجنرال عيزرا وايزمان قائد القوات الجوية الأسبق والرئيس السابق لفرع العمليات برئاسة الأركان العامة، وكان واحدا من القادة البارزين السابقين الذين تم استدعاؤهم من الاحتياط لمعاونة رئيس الأركان فى أثناء الحرب، وجرت محادثة باللاسلكي بين الجنرال جونين فى أثناء

وجوده في الطائرة والجنرال ألبرت ما ندلر قائد المنطقة الجنوبية الذي كان وقتئذ يستقل مركبة قيادته بالقرب من أحد مراكز المراقبة في الخط الأمامي من قطاعه بسبب العمليات التي جرت صباح ذلك اليوم على قطاع الجيش الثالث والتي لم يكن الجنرال ماندلر راضيا على نتائجها. وتم الاتفاق بين جونين وماندلر على اللقاء معا لاستكمال بحث الموضوع في الموقع الذي كان يتحدث منه ماندلر، وكان يقع على أحد المفارق الجانبية للطريق المؤدي إلى ممر الجدي، وذلك عقب انتهاء الاجتماع الذي سيعقده رئيس الأركان العامة في الطاسة. وحدد ماندلر لجونين الاسم الكودي الموجود على الخريطة لمكان لقائهما المنتظر. ووجه جونين سؤالا آخر إلى ماندلر ولكنه لم يتلق جوابا، فقال على الفور لرفيقه في الطائرة الجنرال وايزمان: «لقد حدث شيء لألبرت». فرد عليه وايزمان: «ما هذا الهراء أيها الأحمق؟». ولكن جونين أحس بانقباض مفاجئ، وقال: «ما دام ألبرت لم يرد على سؤالي فهذا يعني شيئا واحدا: أنه مات». وحاول عامل اللاسلكي بالطائرة أن يحصل على إجابة ولكن دون جدوى. وعندما هبطت الطائرة الهيليكوبتر في مقر قيادة شارون بالطاسة كانت تنتظر جونين رسالة من نائبه يخطره فيها بأن الجنرال ألبرت ماندلر قد قتل بقذيفة مصرية.

وكان ألبرت عقب عودته من جولة في قطاعه بطائرة هيليكوبتر قد استقل مركبة قيادته المدرعة، وتقدم إلى أحد مراكز المراقبة في الخط الأمامي، وكانت إحدى وحدات الاستطلاع تقف على مسافة ٥٠٠ متر فأرسلت تحذيرا باللاسلكي بأن مركز المراقبة الذي كانت مركبة القيادة متقدمة نحوه يقع في مرمى المدفعية المصرية. وفى أثناء قيام ألبرت باستطلاع المواقع المصرية بمنظاره المكبر أصابت مركبته قذيفة مصرية من إحدى بطاريات مدفعية الجيش الثالث فقتلت أربعة من ركابها منهم ألبرت ماندلر ورافى أونجر مراسل الإذاعة الإسرائيلية الذي كان قد ألحق بفرقته.

وكان ألبرت ما يزال حيا عندما نقلوه إلى طائرة هيليكوبتر لتطير به إلى المستشفى، ولكنه مات في الطريق، ودخل الجنرال جونين الاجتماع حزينا، وهمس بالنبأ إلى الجنرال أليعازر رئيس الأركان الذي أصدر أمرا في الحال بتعيين كلمان ماجن الذي كان ملحقا على القطاع الشمالي ليتولى قيادة القطاع الجنوبي محل ألبرت ماندلر. وهكذا انتهت قصة ذلك الصبي الذي هرب مع أمه من النمسا عقب الاحتلال النازي ووصل إلى فلسطين قبل نشوب الحرب العالمية الثانية كمهاجر غير شرعي. وكان ألبرت الطويل القامة صاحب العينين الزرقاوين يتميز بشخصية غير عادية، وكان ارتباطه بقادته وجنوده أمرا يثير

الالتفات إليه، وكان ينتمي إلى جيل الجنرالات الإسرائيليين الذين كانوا خلال حرب عام ١٩٤٨م قادة سرايا، وكان ألبرت في أثناء حرب يونيو ١٩٦٧ يتولى قيادة اللواء المدرع الذي اخترق الدفاعات السورية المنيعة في مرتفعات الجولان، وكان المفترض أن يترك منصبه كقائد للقوات الإسرائيلية في سيناء يوم الأحد ٧ أكتوبر ليخلفه كلمان ماجن وذلك بعد تعيين ألبرت قائدا للقوات المدرعة في الجيش الإسرائيلي خلفا للجنرال أبراهام أدان (برن) الذي أحيل إلى التقاعد، واستدعى بعد نشوب الحرب لقيادة فرقة مدرعة احتياطية.

وكان آخر حديث أدلى به ألبرت للصحفيين في مقر قيادته الأمامي قوله: «لقد غيرت هذه الحرب في نظري قيما كثيرة، واشتهرت بأنني ضابط متعنت ومحترف، ولكنني في الأساس ليبرالي. والآن بعد هذا الهجوم المفاجئ الذي قام به المصريون يبدو لي أننا لن نستطيع بعد ذلك أبدا أن نسمح لأنفسنا بركوب مخاطرات من هذا النوع. وسيكون أصعب جانب في هذه الحرب بالنسبة لي هو الذهاب إلى عائلات جنودي الذين قتلوا». ويبدو أن القدر قد وفر عليه هذه المهمة البغيضة إلى نفسه، فقد أصبح بعد ثلاثة أيام فقط من هذا الحديث بين القتلى، وكان موته رمزا لسقوط الخط الدفاعي الإسرائيلي الذي كان مسئولا عنه عندما نشبت الحرب وهو خط بارليف.

وخلال اجتماع رئيس الأركان بالقادة الإسرائيليين في الطاسة، والذي حضره كلمان ماجن بعد استدعائه من مقر قيادته ليتلقى أمر تعيينه رسميا قائدا للفرقة المدرعة في القطاع الجنوبي، أصدر الجنرال أليعازر أوامره بالاستعداد للقيام بعملية عبور قناة السويس ليلة ١٤/١٥ أكتوبر سواء وقع الهجوم المصري أو لم يقع، إذ إن عبور القوات المدرعة المصرية القناة إلى الشرق كان يعني فقد الدفاعات المصرية توازنها غرب القناة مما يجعل الأمل في نجاح عملية العبور من الدفرسوار إلى الغرب كبيرا.

وفي حوالي الساعة الواحدة والنصف من نفس اليوم ١٣ أكتوبر ظهرت طائرة استطلاع فوق منطقة القناة، ولم تكتف بتغطية الجبهة بأكملها بل طارت فوق الدلتا قبل أن تخرج من المجال الجوي المصري. ورغم أنها طارت فوق مناطق مكتظة بصواريخ أرض جو SAM فإن رجال الدفاع الجوي لم يتمكنوا من إسقاطها، ولم تستطع الطائرات المقاتلة الاعتراضية إدراكها، واتضح أنها طائرة تجسس أمريكية من طراز SR71A تطير على ارتفاع ٣٠ كيلو مترا وبسرعة ٣ ماخ (ثلاثة أضعاف سرعة الصوت). وقد ثبت أن هذه الطائرة قد مرت كذلك فوق كل سيناء وإسرائيل وسوريا، أي فوق جميع ميادين القتال في الشمال والجنوب. وقد ورد بالمراجع الإسرائيلية أنه نتيجة لمرور هذه الطائرة فوق الأراضي

الإسرائيلية أطلقت صفارات الإنذار وحاولت الطائرات الاعتراضية اللحاق بها دون جدوى. ومهما كان جانب الصدق في أقوال الإسرائيليين عن هذه الطائرة، فإن الأمر المنطقي أن الولايات المتحدة قد أمدت إسرائيل بكل الصور والمعلومات المتناهية في الدقة التي حصلت عليها هذه الطائرة، وبالتالي أصبحت إسرائيل على علم تام بأوضاع القوات المصرية شرق القناة وغربها على وجه اليقين.

الضغط السوري على مصر لتطوير الهجوم شرقا

كانت مفاجآت كبرى لإسرائيل ظُهر يوم ٦ أكتوبر ٧٣ أن تواجه حربا حقيقية شاملة على جبهتين، كل منهما نائية عن الأخرى: جبهة الجولان في الشمال وجبهة سيناء في الجنوب اللتين تفصل بينهما مسافة حوالي ٥٠٠ كم، مما كان لابد أن يرغمها على توزيع قواتها وتشتيت جهودها ولا يتيح لها الفرصة لعملية نقل قواتها من جبهة إلى أخرى بسهولة وسرعة كما جرى الحال في حرب يونيو ١٩٦٧. وبفضل وجود القيادة الاتحادية للجيشين المصري والسوري، تم لهذه القيادة عن طريق عملية تنظيم التعاون بين القيادتين المصرية والسورية تنسيق خطة هجوم مشتركة على الجبهتين في توقيت واحد، فقد تم توحيد ضربة الطيران بحيث اجتازت حوالي ٢٠٠ طائرة مصرية و ١٠٠ طائرة سورية خطي المواجهة مع إسرائيل على الجبهتين في لحظة واحدة لضرب الأهداف الحيوية في العمق، كما تم توحيد توقيت التمهيد النيراني للمدفعية ليجري تنفيذه بحوالي ٢٠٠٠ مدفع مصري و ١٠٠٠ مدفع سوري في نفس اللحظة.

لقد وضعت الخطة وتمت أعمال التحضير والتنسيق للعملية عن طريق السيطرة الكاملة للقائد العام للقوات الاتحادية الفريق أول أحمد إسماعيل وبالاشتراك مع هيئة عمليات كلا البلدين، فبدأت الحرب في صورة رائعة، وفي توافق وتنسيق كاملين بحيث أثارت الذعر والارتباك في صفوف القوات الإسرائيلية. ولكن تلك البداية المشتركة الناجحة لم تلبث أن تلاشت تدريجيا فور بدء العمليات الهجومية على الجبهتين، فقد حدث انفصام تام بين الجيشين العربيين في الشمال والجنوب، وانفردت قيادة كل جيش بإدارة عملياتها وفقا للمواقف والأحداث التي أخذت تواجهها.

وقد أتاح هذا الوضع الإستراتيجي للجبهتين المصرية والسورية الفرصة للقيادة الإسرائيلية لتحديد أولويات عملها، وجنبها مواجهة أزمة خطيرة على كلتا الجبهتين في وقت واحد. ويرجع السبب الرئيسي في ذلك إلى عدم وجود هيئة قيادة موحدة للجبهتين

لديها سلطة إصدار أوامر العمليات وتعليمات التحرك للقوات على الجبهتين. وعلى الرغم من تشكيل هيئة مشتركة للعمليات في القيادة العامة الاتحادية بالقاهرة كان يرأسها اللواء بهي الدين نوفل، وتضم مصريين وعددا من الضباط السوريين، وكذا وجود عدد من ضباط الاتصال المصريين ضمن هيئة العمليات بالقيادة السورية بدمشق، فإن واقع الأمر أثبت أنه لم يكن لوجود هيئة العمليات بالقيادة الاتحادية أي جدوى، فلم تستطع إجراء أي نوع من التنسيق أو الربط بين الجبهتين في مراحل القتال الفعلية، واقتصر عملها طوال مدة الحرب على القيام فقط بمهمة الاتصال بين الجبهتين عن طريق تبادل الإشارات والرسائل اللاسلكية والانهماك في حل الشفرة وتبليغ المعلومات عن الوضع العسكري على الجبهة السورية إلى الفريق أحمد إسماعيل دون أن تعطى لهذه الهيئة أي فرصة أو إمكانات حقيقية لأداء واجبها الصحيح، وهو تنسيق العمليات وربط الخطط المشتركة بين الجبهتين.

لقد كان الأمر المفترض هو وجود هيئة قيادة موحدة تضم إدارة كاملة للعمليات وأخرى للمخابرات، مما كان يكفل استغلال الأزمة الحادة والارتباك الشديد اللذين واجهتهما القيادة الإسرائيلية خلال الأيام الأولى من المعركة عندما تلقت صدمة الحرب العنيفة على كلتا الجبهتين في وقت واحد. ولو كانت هذه القيادة موجودة بالفعل لاستغلت فرصة تركيز إسرائيل لمجهودها الجوي وقواتها الاحتياطية في الفترة الأولى من الحرب في مواجهة الجبهة السورية للقيام بعملية تطوير ناجحة للهجوم المصري شرقا في اتجاه المضايق الجبلية دون إجراء الوقفة الطويلة التي استمرت حوالي خمسة أيام (من يوم ٩ إلى يوم ١٣ أكتوبر) مما أضاع على القوات المصرية فرصة ثمينة لا يمكن تعويضها للوصول إلى خط الدفاع الطبيعي عن القناة وهو منطقة المضايق الجبلية الإستراتيجية. ولو كان ذلك قد تم لما أمكن للقوات الإسرائيلية القيام بعملية الاختراق التي جرت بعد ذلك في الدفاعات المصرية شرق القناة عند الدفرسوار ليلة ١٥/ ١٦ أكتوبر والتي انتهت بعبورها القناة ووصولها إلى الضفة الغربية لها والقيام بعملياتها على مؤخرة الجيشين الثاني والثالث غرب القناة.

لقد تمكنت إسرائيل من التخلص من الموقف العصيب الذي واجهته في بداية الحرب بتركيز اهتمامها بكل جبهة على حدة واعتبارهما بمثابة جبهتين منفصلتين. وقد كشف موشى ديان وزير الدفاع الإسرائيلي الستار عن وجهة النظر الإسرائيلية هذه بقوله: «إن قواتنا تتخذ أوضاع الدفاع على جبهة القناة وتقيم الخطوط الدفاعية لوقف تقدم المصريين لحين تحول الوضع على جبهة الجولان في الشمال لصالح إسرائيل خلال الأيام القليلة القادمة».

وعلى الرغم من التحالف الوثيق الذي كان قائما بين مصر وسوريا والذي كان في قمة ازدهاره يوم ٦ أكتوبر ٧٣ عندما شنت الدولتان هجوما مشتركا على جبهتي سيناء والجولان. فإن وقائع الحرب لم تلبث أن أخذت تؤثر على العلاقات الوثيقة بين الدولتين الحليفتين، وبدأ التوتر يزداد بين القيادتين المصرية والسورية منذ نشوب الحرب في المجالين العسكري والسياسي، حتى وصل الأمر بينهما في النهاية إلى مرحلة خطيرة من سوء الفهم والشك وتبادل التهم.

ومنذ اليوم الأول من الحرب تولدت بذور الريب والشكوك، فقد استقبل الرئيس الراحل السادات في الثامنة مساء يوم ٦ أكتوبر في قصر الطاهرة السفير السوفيتي فينوجرادوف الذي أخطره بأن الرئيس السوفيتي بريجنيف قد اتصل به هاتفيا وطلب منه أن ينقل إلى الرئيس المصري رسالة شفهية كانت تتضمن فقرتين: أولاهما هي تقديم تهاني الاتحاد السوفيتي إلى السادات على عملية العبور الناجحة والعظيمة لقناة السويس. أما الفقرة الثانية التي أثارت دهشة السادات فهي أن القيادة السياسية السورية ليس لديها مانع من تقديم مشروع قرار إلى مجلس الأمن بوقف إطلاق النار. وأكد السفير السوفيتي للسادات أن قادة الكرملين مهتمون أشد الاهتمام بالخطوة السياسية القادمة التي يراها. وأبدى السادات تعجبه للسفير السوفيتي، وسأله عن المصدر الذي استقت منه موسكو معلوماتها عن المطلب السوري بوقف إطلاق النار، فأكد له أن ذلك جرى في لقاء بين الرئيس السوري حافظ الأسد والسفير السوفيتي في دمشق قبل نشوب الحرب ببضع ساعات فقط. وطلب السادات من فينوجرادوف أن يرجع إلى موسكو لتأكيد معلوماته لأنه لا يصدق أن الرئيس السوري حافظ الأسد قد تقدم بمثل هذا المطلب، وقال إنه يفهم أن يكون اقتراح وقف إطلاق النار صادرا من الولايات المتحدة نظرا لأن المعركة تدور لصالح العرب. وبالنسبة لمصر فإنه من المستحيل التفكير في وقف إطلاق النار، إذ إن هناك خمس فرق مشاة مصرية بدأت تثبت أقدامها على الشاطئ الشرقي للقناة، وفور الانتهاء من إقامة الكباري فإن القوات المدرعة سوف تنضم إليها على الفور. واختتم السادات اللقاء قائلا: «نحن نريد السلام ولكن لا نفكر فيه قبل جلاء آخر جندي إسرائيلي عن سيناء».

وفي يوم الأحد ٧ أكتوبر جرى لقاء آخر بين السادات والسفير السوفيتي أكد فينجرادوف خلال صحة الرسالة التي تلقاها السفير السوفيتي بدمشق من الرئيس السوري، وهي أنه ليس لدى سوريا اعتراض على فكرة وقف إطلاق النار إذا تم تقديم اقتراح إلى مجلس الأمن بشأن ذلك. وفور انتهاء اللقاء أرسل السادات برقية لاسلكية إلى

حافظ الأسد ذكر له فيها أن وقف إطلاق النار الآن ليس في صالح العرب وأنه سيجعل إسرائيل في وضع أقوى مما كانت عليه قبل نشوب الحرب. وأكد له أن من الخطأ التفكير في أن الغرض من الحرب هو اكتساب أراض، إذ إن الغرض ينبغي أن يكون هو استنزاف قوى العدو، ومن أجل تحقيق ذلك يجب أن نكون على استعداد لتحمل أي خسائر تحل بنا. وفي يوم الاثنين ٨ أكتوبر تلقى السادات ردا من حافظ الأسد على برقيته إليه في اليوم السابق، وقد نفى الرئيس السوري في رده أنه طلب من الاتحاد السوفيتي تقديم مشروع قرار إلى مجلس الأمن بوقف إطلاق النار، وأنه في دهشة من هذه المعلومات الخاطئة التي رواها فينوجرادوف، وأوضح الأسد أن المعركة في ساحة الجولان تسير بنجاح وفقا للتخطيط السوري، وقد أصيب العدو بخسائر فادحة، وتمكنت القوات السورية من تحرير أكثر من نصف مرتفعات الجولان، وأن معدل الخسائر السورية يعتبر طبيعيا، ومن المتيسر استعاضته من الاحتياطي السوري. وأكد الرئيس السوري في نهاية برقيته أن أي قرار مهم مثل وقف إطلاق النار لا يمكن التباحث مع أحد بشأنه على الإطلاق إلا بعد الاتفاق بين الدولتين الحليفتين أولا.

ولكن الأيام الأربعة التالية (من ٩ إلى ١٢ أكتوبر) شهدت خلافا عسكريا حادا بين القيادتين المصرية والسورية. فإن القيادة العسكرية السورية اعترضت على بقاء القوات المصرية مستقرة في رءوس الكباري عقب نجاحها في صد الهجمات المضادة الإسرائيلية بسبب التعليمات الصادرة إليها بعمل وقفة تعبوية، وبذا أضاعت فرصة ذهبية للتقدم إلى خط المضايق الجبلية الإستراتيجية في وسط سيناء. وذكر السوريون أن عملية تنظيم التعاون التي أجريت يوم ٧ يونيو ١٩٧٣م في القيادة العامة بالقاهرة للخطة الهجومية جرانيت ٢ المعدلة (الخطة بدر) بين القوات المصرية والسورية والتي اشترك فيها عدد من كبار القادة المصريين والسوريين تحددت فيها الأهداف على أساس وصول القوات المصرية إلى منطقة المضايق الجبلية في سيناء ووصول القوات السورية إلى نهر الأردن وبحيرة طبرية، وبعد تحقيق هذه الأهداف يمكن فقط عمل الوقفة التعبوية، ولكن القيادة المصرية كان من رأيها ضرورة عمل الوقفة التعبوية عقب عبور القناة واقتحام خط بارليف بهدف إعادة التنظيم والاستعداد لملاقاة الهجمات المضادة الإسرائيلية المنتظرة، وبعد انتهاء هذه المرحلة يمكن التقدم بعد ذلك إلى اتجاه المضايق.

هذا، ولم تكن الوقفة التعبوية للقوات المصرية مثار انتقاد السوريين فحسب، فقد عبر المسئولون بالاتحاد السوفيتي عن قلقهم لتوقف الهجوم المصري بعد انتصاره الساحق على

الإسرائيلين وتدمير خط بارليف، وأبدوا تعجبهم لعدم استغلال المصريين لنجاحهم للوصول إلى خط المضايق، وخاصة أن هذا التقدم علاوة على أنه ضرورة حربية ومرحلة تعبوية مهمة من المحتم القيام بها، فإنه في نفس الوقت سيساعد على تخفيف الضغط الواقع على سوريا من جراء تركيز المجهود الرئيسي الإسرائيلي ضدها.

وفي يوم الأربعاء ١٠ أكتوبر كانت آخر القوات الرئيسية السورية قد أتمت انسحابها من مرتفعات الجولان إلى خط وقف إطلاق النار عام ١٩٦٧م الذي بدأت منه الهجوم في ٦ أكتوبر بعد أن تكبدت خسائر فادحة في الأرواح والأسلحة والمعدات، وتأهبت إسرائيل لشن هجوم عام على العمق السوري مما أرغم القيادة السورية على أن تقذف إلى المعركة باحتياطيها الإستراتيجي الأخير، وهو الفرقة الثالثة المدرعة التي كانت تتمركز في شمال دمشق. وفي الساعة الحادية عشرة من صباح الخميس ١١ أكتوبر بدأت القوات الإسرائيلية هجومها العام على عمق سوريا على محورين بعد هجمات جوية عنيفة على القوات السورية، وعندما وصل موشى ديان إلى الجبهة قال لرفائيل إيتان قائد المحور الشمالي: «سيكون هناك طعم لسنواتي الستين إذا رأيتك على تلال دمشق». وفي المساء وصل الطابور المدرع الإسرائيلي على المحور الشمالي إلى حوالي ٤٠ كم من دمشق. ولكن في يوم ١٣ أكتوبر وصل الهجوم الإسرائيلي على سوريا إلى حده الأقصى، فلم يكن في مقدرة الفرق الإسرائيلية المدرعة الثلاث ـ التي قامت بصد الهجوم السوري على الجولان أولا، ثم كلفت رغم خسائرها الفادحة في الأرواح والمعدات بالهجوم العام في اتجاه دمشق ـ أن تواصل التقدم إلى الأمام خطوة واحدة، فإن قواها كانت قد استنفدت تماما، خصوصا أن القوات السورية بعد انسحابها من الجولان عادت إلى مواقعها الحصينة السابقة التجهيز على خط وقف إطلاق النار القديم (الخط الأرجوانى Purple Line) وانضم إليها في الخط الدفاعي تشكيلات من الفرقة الثالثة المدرعة العراقية المزودة بدبابات سنتوريون البريطانية الطراز والتي كانت طلائعها قد وصلت إلى الجبهة يوم ١١ أكتوبر، وكذا اللواء ٤٠ المدرع الأردني المزود بدبابات باتون الأمريكية الطراز. وكان الملك حسين قد استدعى السفير الأمريكي يوم ١١ أكتوبر وأبلغه أنه لا يستطيع الوقوف جانبا دون التدخل في الحرب، ولكنه لن يفتح جبهة جديدة على حدود بلاده مع إسرائيل، وسيكتفي بإرسال اللواء ٤٠ المدرع لمساعدة السوريين، وأرسل الملك حسين رسالة بهذا المعنى أيضا إلى الرئيس الراحل السادات بالقاهرة.

وبهذا يمكن اعتبار أن المعارك الرئيسية على الجبهة السورية قد انتهت مساء يوم ١٣

أكتوبر، وأن الخط الدفاعي الأرجواني عاد كما كان قبل حرب ٦ أكتوبر دون أي تغير، وذلك في الجزأين الأوسط والجنوبي منه، أما في الجزء الشمالي فقد نجحت فرقة رفائيل إيتان في التقدم ١٥ كم شمال الخط القديم مكونة ما عرف وقتئذ باسم جيب سعسع وهى مدينة تقع على مسافة ٤٠ كم من دمشق، وعندما أدرك السوفيت مقدار ما وقع في الجبهة السورية من انهيار، ومدى ما تتعرض له دمشق من أخطار، أذيع تصريح غاضب من الكرملين كان نصه: «لن يستطيع الاتحاد السوفيتي البقاء بدون اكتراث إزاء الأعمال الإجرامية من الجيش الإسرائيلي». وقام دوبرينين السفير السوفيتي في واشنطن بنقل التحذير إلى الدكتور هنري كيسنجر وزير الخارجية الأمريكية، وأبلغه أن الاتحاد السوفيتي لن يتخذ موقف اللامبالاة إزاء تهديد إسرائيل لدمشق، فإذا استمرت إسرائيل في تقدمها فقد تفلت الأمور في النهاية. وعقب هذا التحذير تلقت الإدارة الأمريكية رسالة من موسكو تعبر عن احتجاجها الشديد على ضرب إسرائيل للمدنيين في مصر وسوريا، وعلى ضربها السفن التجارية في الموانئ السورية. وفضلا عن ذلك قرر الاتحاد السوفيتي أن يأخذ على عاتقه حماية ميناءى اللاذقية وطرطوس، وتجمعت في كل منهما سفن صواريخ سوفيتية، ووضعت على أرصفتهما صواريخ أرض جو سام، وامتنع السلاحان البحري والجوي الإسرائيليان منذ ذلك الحين عن القيام بأي هجمات ضد هذين الميناءين.

وعندما لاحظت القيادة السورية أن القوات المصرية - ما تزال رغم وقوع هذه التطورات الخطيرة في سوريا - باقية في أماكنها شرق القناة دون أن تبدو في الأفق أي إشارات تدل على أن من المنتظر صدور الأمر لها بالتحرك شرقا في اتجاه المضايق وفقا للخطة المتفق عليها بين الجيشين. أخذت القيادة السورية بدمشق تمطر هيئة عمليات القيادة الاتحادية بالقاهرة بسيل من البرقيات تستفسر فيها عن الموعد الذي سوف تقوم فيه القوات المصرية بالتقدم للأمام لتخفيف الضغط عن الجبهة السورية. وكان اللواء بهي الدين نوفل رئيس هيئة العمليات الاتحادية المشتركة يشعر بمزيد من الحرج وهو يعرض بين ساعة وأخرى ما تلقاه من هذه البرقيات على الفريق أحمد إسماعيل قائد القيادة الاتحادية. وإزاء هذا الضغط السوري المركز والإلحاح المستمر اضطر الرئيس الراحل السادات إلى الاستجابة لمطالب السوريين، فاتخذ قراره السياسي الخطير بتطوير الهجوم المصري شرقا صباح ١٣ أكتوبر الذي تم تأجيله ٢٤ ساعة ليجرى صباح ١٤ أكتوبر. ومما يؤسف له أن هذا القرار الصحيح قد صدر في موعد خاطئ فأصبح شأنه شأن القرار الخاطئ الذي يصدر في الموعد الصحيح سواء بسواء، وكان له أسوأ النتائج على مجرى الحرب.

كيف صدر القرار السياسي بتطوير الهجوم؟

أوضح الفريق سعد الشاذلي رئيس أركان حرب القوات المسلحة خلال حرب أكتوبر الظروف التي صدر فيها القرار السياسي بتطوير الهجوم، فذكر في الصفحتين ٢٤٥ و ٢٤٦ من مذكراته ما يلي:

«بعد عودتي من الجبهة يوم الخميس ١١ أكتوبر، فاتحني الوزير (الفريق أحمد إسماعيل) في موضوع تطوير هجومنا نحو المضايق، ولكني عارضت الفكرة وأبديت له الأسباب، وبدا لي أنه اقتنع بهذا وأغلق بذلك الموضوع. ولكنه عاد وفاتحني بالموضوع مرة أخرى في صباح اليوم التالي (الجمعة ١٢ أكتوبر) مدعيا هذه المرة أن الهدف من هجومنا هو تخفيف الضغط على الجبهة السورية. عارضت الفكرة على أساس أن هجومنا لن يخفف الضغط على الجبهة السورية، إذ إن لدى العدو ٨ ألوية مدرعة أمامنا، ولن يحتاج إلى سحب قوات إضافية من الجبهة السورية، حيث إن هذه القوات قادرة على صد أي هجوم نقوم به. وليس لدينا دفاع جوي متحرك إلا أعداداً قليلة جدا من سام ٦ لا تكفي لحماية قواتنا. وقواتنا البرية ستقع فريسة للقوات الجوية الإسرائيلية نظرا لتفوقها بمجرد خروجها من تحت مظلة الدفاع الجوي، أي بعد حوالي ١٥ كيلو مترا شرق القناة. إذا نحن قمنا بهذه العملية فإننا سوف ندمر قواتنا دون أن نقدم أي مساعدة لتخفيف الضغط على الجبهة السورية. وحوالي الظهر تطرق الوزير لهذا الموضوع للمرة الثالثة خلال ٢٤ ساعة، وقال هذه المرة: «القرار السياسي يحتم علينا ضرورة تطوير الهجوم نحو المضايق، ويجب أن يبدأ ذلك صباح الغد ١٣ أكتوبر». وبعد الظهر كانت التعليمات الخاصة بتطوير الهجوم قد تم إعدادها، وتحرك اللواء محمد غنيم إلى الجيش الثاني، واللواء طه المجدوب إلى الجيش الثالث حاملين معهما تلك الأوامر إلى قائدي الجيشين. وبمجرد وصول التعليمات كان اللواء سعد مأمون قائد الجيش الثاني يطلبني على الهاتف، وقال بغضب «سيادة الفريق أنا لا أستطيع أن أقوم بتنفيذ التعليمات التي أرسلتموها مع اللواء غنيم». ولم تمض بضع دقائق حتى كان اللواء عبد المنعم واصل قائد الجيش الثالث هو الآخر على الخط الهاتفي وأبدى معارضة شديدة لتلك التعليمات التي وصلته مع اللواء طه المجدوب. وفي محادثتي مع كل من اللواء سعد مأمون واللواء عبد المنعم واصل لم أخف عنهما أنني أنا أيضا قد عارضت هذه التعليمات، ولكني أجبرت عليها.

فاتحت الوزير مرة أخرى في الموضوع، وتقرر استدعاء سعد مأمون وعبد المنعم واصل لحضور مؤتمر بالقيادة في مساء اليوم نفسه.. وفي خلال هذا المؤتمر الذي امتد حتى الساعة

الحادية عشرة مساء كرر كل منا وجهة نظره مرارا وتكراراً، ولكن كان هناك إصرار من الوزير على أن القرار سياسي، ويجب أن نلتزم به، وكل ما أمكن عمله هو تأجيل الهجوم إلى فجر يوم ١٤ بدلا من فجر يوم ١٣ كما كان محددا. لقد كان هذا القرار هو أول غلطة كبيرة ترتكبها القيادة المصرية خلال الحرب. وقد جرتنا هذه الغلطة إلى سلسلة أخرى من الأخطاء التي كان لها أثر كبير على سير الحرب ونتائجها. ولكي نطور هجومنا للشرق مع المحافظة على رءوس الكباري قوية ومؤمنة، كان لا بد لنا من أن ندفع الأنساق الثانية إلى المعركة». انتهت أقوال سعد الشاذلي.

وهكذا أصبح من الواضح - بعد الاطلاع على ما أورده سعد الشاذلي في مذكراته، وهو حقيقة يعلمها معظم قادة حرب أكتوبر - أن قرار تطوير الهجوم شرقا الذي جرى صباح يوم ١٤ أكتوبر كان قرارا سياسيا اتخذه الرئيس الراحل أنور السادات على مسئوليته بوصفه رئيسا للقيادة السياسية في الدولة وقائدا أعلى للقوات المسلحة، مما كان يجعل من مسئوليته واختصاصه رسم الإستراتيجية العليا للدولة، وبالتالي إصدار القرارات السياسية التي تتماشى مع هذه الإستراتيجية. ومهما كان رأي القادة العسكريين في القرارات السياسية التي يصدرها رئيس الدولة، فإن هذا الرأي لا يعدو أن يكون رأيا استشاريا محضا، ويصبح من واجبهم بعد إبداء مشورتهم تنفيذ القرارات السياسية بحذافيرها دون اعتراض مهما كان تقديرهم لعواقبها الوخيمة على قواتهم، وهو الأمر الذي جرى تماماً مساء يوم ١٢ أكتوبر خلال مؤتمر القادة الذي انعقد في المركز ١٠ بالقيادة العامة المصرية بالقاهرة. فلقد أبدى القادة العسكريون اعتراضهم الشديد على القرار السياسي الذي أصدره السادات بتطوير الهجوم شرقا في هذا التوقيت الخاطئ، ولكن الفريق أحمد إسماعيل القائد العام أصر على أن القرار سياسي وعلى القادة العسكريين الالتزام به.

وهذا الخلاف في الرأي الذي كثيرا ما يحدث بين القيادتين السياسية والعسكرية، هو موضوع شائك وخطير، وله أمثلة وسوابق لا حصر لها سواء في التاريخ القديم أو الحديث. وعلى الرغم من أن القادة العسكريين هم الذين يتحملون وحدهم أمام الرأي العام وأمام التاريخ ما ينجم عن القرارات السياسية الخاطئة من عواقب وخيمة أو هزائم منكرة في ساحات القتال، فإن القواعد الإستراتيجية والنظم الدستورية تحتم عليهم الخضوع للقرارات السياسية دون اعتراض، مهما كانت درجة مخالفتها لأصول الفن العسكري، أو أن يطلبوا إعفاءهم من قياداتهم إذا شاءوا، فإن أساس استخدام القوات المسلحة هو أن تكون الأداة المنفذة للسياسة الخارجية للدولة، وما الحرب - وفقا للمفهوم الإستراتيجي - إلا استمرار للعمل السياسي ولكن بصورة أخرى.

ورغم أن التاريخ حافل بالشواهد التاريخية على القرارات السياسية الخاطئة التي أدت إلى هزائم منكرة أو كوارث عسكرية مريرة، فإننا نكتفي هنا بذكر مثال واحد فقط لذلك الموضوع، وقد وقع عليه اختيارنا بحكم أنه ما يزال حيّا في نفوس المصريين، فلقد جرى في مصر ومنذ أقل من عشرين عاما فقط، وما تزال مصر تكتوي بناره حتى اليوم إن لم نقل الأمة العربية بأسرها.

ففي المرحلة التحضيرية التي سبقت حرب يونيو ٦٧ والتي بدأت بحشد القوات المصرية في سيناء يوم ١٥ مايو ٦٧، أصدر الرئيس الراحل جمال عبد الناصر ثلاثة قرارات سياسية خلال هذه الفترة، كانت بلا شك من العوامل الأساسية للهزيمة النكراء التي منيت بها القوات المصرية في حرب يونيو ٦٧. ومن الثابت أن بعض القادة العسكريين قد أبدوا اعتراضهم على هذه القرارات، وحذروا من نتائجها الوخيمة، ولكن القيادة السياسية لم تعر اعتراضهم التفاتا وأصرت على موقفها. ونسرد فيما يلي هذه القرارات السياسية بإيجاز:

١ ـ القرار السياسي بسحب قوة الطوارئ الدولية: بناء على تعليمات القيادة السياسية طلبت الحكومة المصرية من يوثانت السكرتير العام للأمم المتحدة يوم ١٧ مايو ٦٧ سحب قوة الطوارئ الدولية من قطاع غزة وسيناء. وعندما أبدى يوثانت موافقته أعلنت مصر في ١٨ مايو قرار إنهاء وجود هذه القوات على أرضها، وأعقب ذلك إعلان قرار سياسي آخر وهو إغلاق خليج العقبة في وجه السفن الإسرائيلية.

ولم يكن أمام القوات المسلحة لتنفيذ القرار السياسي المفاجئ بالسرعة الواجبة سوى أن تنشئ جسرا جويا بين مطار ألماظة ومنطقة شرم الشيخ، وتحركت عبر هذا الجسر قبل أول ضوء يوم ١٩ مايو وحدة كاملة من رجال المظلات محمولين على طائرات هيليكوبتر، وتحرك في نفس الوقت رتل بري من الدبابات والمدافع تمثل الوحدات الفرعية التي تم سحبها من عدة تشكيلات كبيرة ودمجها معها لتشكيل قوة خاصة على وجه السرعة، مما أضعف هذه التشكيلات بالطبع، وواجه الرتل المتحرك صعابا ضخمة في الوصول إلى هذه المنطقة البعيدة، فتعطلت مئات المركبات على طول الطريق، وقاسى الأفراد الأهوال من سوء الشئون الإدارية، ولم يتم وصول هذه القوة إلا بعد بضعة أيام. ونتيجة لفتح المحور التعبوي الجديد الذي لم تكن القيادة العسكرية قد أعدت له حسابا في خطتها العسكرية من قبل، اضطرت القوات الجوية هي الأخرى إلى بذل مجهودات مضنية ليتسنى لها تمركز سرب مقاتل في الغردقة، حيث لم يكن

المطار مجهزا. كما اضطرت القوات البحرية إلى تحريك أكثر من ست قطع بحرية مختلفة الأنواع من البحر المتوسط إلى البحر الأحمر وخليج العقبة، وازداد بالتالي طول خط المواجهة مع إسرائيل ليصبح ضعف خط المواجهة الأصلي (أصبح ٥٠٠ كم من رفح إلى شرم الشيخ بدلا من ٢٥٠ كم من رفح إلى رأس النقب)، وأدى ذلك كله إلى زيادة الأعباء العسكرية والإدارية على عاتق القوات المصرية في سيناء وإضعاف قدرتها القتالية وتشتيت وحداتها دون أن تجني من فتح هذا المحور الجديد أي فائدة إستراتيجية أو تكتيكية.

٢ ـ قررت القيادة السياسية في مؤتمر عسكري ـ حضره الرئيس الراحل عبد الناصر وتحدث فيه طويلا ـ ضرورة الدفاع عن رفح مذكرا أن التزاماتنا نحو الفلسطينيين والدول العربية تقتضي الدفاع عن هذه المنطقة. وكان هذا القرار مفاجئا للقيادة العسكرية، فقد كان الحد الأمامي للدفاعات المصرية وفقا للخطة الموضوعة منذ عام ١٩٥٧ يمر على بعد بضعة كيلو مترات شرق العريش ويبعد كثيرا عن رفح، ولم يكن الوقت كافيا لدراسة الأرض وإتمام الأعمال الهندسية اللازمة للمواقع الجديدة التي اختيرت بالطبع على وجه السرعة. ولتنفيذ هذا القرار السياسي تم دفع الفرقة ٧ مشاة واللواء ١٤ المدرع إلى منطقة رفح ابتداء من ٢٢ مايو لاحتلال خط دفاعي غير مجهز في شريط ساحلي ليس له أي عمق دفاعي، مما أدى إلى اختراق قوات المحور الشمالي الإسرائيلية للمواقع المصرية في رفح دون أي صعوبة يوم ٥ يونيو ٦٧ رغم ما أبدته هذه القوات من بسالة، وما حاق بها من خسائر فادحة.

٣ ـ كان أخطر القرارات السياسية التي أصدرها الرئيس الراحل عبد الناصر خلال المرحلة التحضيرية، بل كان من العوامل الأساسية في هزيمة يونيو ٦٧ هو ذلك القرار الذي أعلنه في أهم اجتماع عسكري عقد بمكتب المشير عامر يوم الجمعة ٢ يونيو ٦٧ بالطابق السادس من مبنى القيادة العامة بمدينة نصر، والذي شهده من السياسيين أنور السادات وزكريا محيي الدين وحسين الشافعي وعلي صبري، ومن العسكريين الفريق أول محمد فوزي وشمس بدران وزير الحربية وقتئذ، وقادة القوات ورؤساء الأفرع والقادة الميدانيون ومديرو مكتب المشير. ويعتبر هذا الاجتماع نقطة تحول كبرى في مجرى الأحداث التي سبقت الحرب، ويوضح بجلاء الأثر الخطير الذي يحدثه القرار السياسي الخاطئ على سلامة الأوضاع الإستراتيجية للقوات العسكرية. فقد أعلن عبد الناصر خلال الاجتماع بعد تحليل موجز الموقفين السياسي والعسكري أن إستراتيجية مصر قد

تحولت من هجومية إلى إستراتيجية دفاعية، وأن إسرائيل من المحتمل قيامها بعمليات هجومية في خلال يومين أو ثلاثة أيام، أي يوم ٤ أو ٥ يونيو ٦٧، وأن إسرائيل سوف تبدأ هجومها بضربة جوية ضد قواتنا الجوية ودفاعنا الجوي حتى يتم شلها وإخراجها من المعركة، وطلب من القادة العسكريين الاستعداد لتلقي الضربة الأولى واتخاذ ما يلزم لتقليل خسائرها إلى الحد الأدنى حتى يمكننا بعدئذ توجيه ضربة رادعة ضد قوات العدو الجوية. وكان هذا القرار سببا في تدمير سلاح الطيران المصري على الأرض صباح ٥ يونيو في بضع ساعات، وبالتالي في هزيمة حرب يونيو ٦٧ الشائنة.

ولسنا نقصد بذكر ما صدر في المرحلة التحضيرية لحرب يونيو ٦٧ من قرارات سياسية تحميل عبد الناصر وحده مسئولية هزيمة مصر في هذه الحرب، فقد كان المشير عبد الحكيم عامر ضالعا معه في كل ما صدر خلال المرحلة التحضيرية من قرارات سواء عسكرية أو سياسية، ويمكن اعتباره شريكا متضامنا معه في جميع تصرفاته وقراراته بشأن هذه الحرب. ولم يكن المشير عامر في الواقع يمثل القيادة العسكرية بالمعنى الذي نقصده في هذا البحث، فقد كان عمله سياسيا في الدرجة الأولى، وبهذا يمكن أن نعتبر أن عبد الناصر وعبد الحكيم عامر كانا يمثلان معا القيادة السياسية التي أصدرت القرارات المذكورة. وعندما تفرغ المشير عامر بمجرد نشوب الحرب في ٥ يونيو ٦٧ لممارسة القيادة العسكرية الفعلية للقوات المصرية، وأصبح هو المسئول الأول عن إدارتها، أدت قيادته المتسمة بالتسرع والاضطراب واهتزاز الأعصاب إلى انهيار الموقف العسكري على الجبهة المصرية انهيارا لم يكن يخطر لأشد المتفائلين من قادة إسرائيل حتى في أعذب أحلامه.

وبذا يمكن أن نقرر في إنصاف أن القرارات السياسية الخاطئة التي صدرت في المرحلة التحضيرية للحرب، بالإضافة إلى الإدارة العسكرية السيئة والمهتزة الأعصاب للعمليات الحربية، قد أسهمتا معا في وقوع كارثة يونيو ٦٧ التي ليس لها نظير في تاريخ مصر.

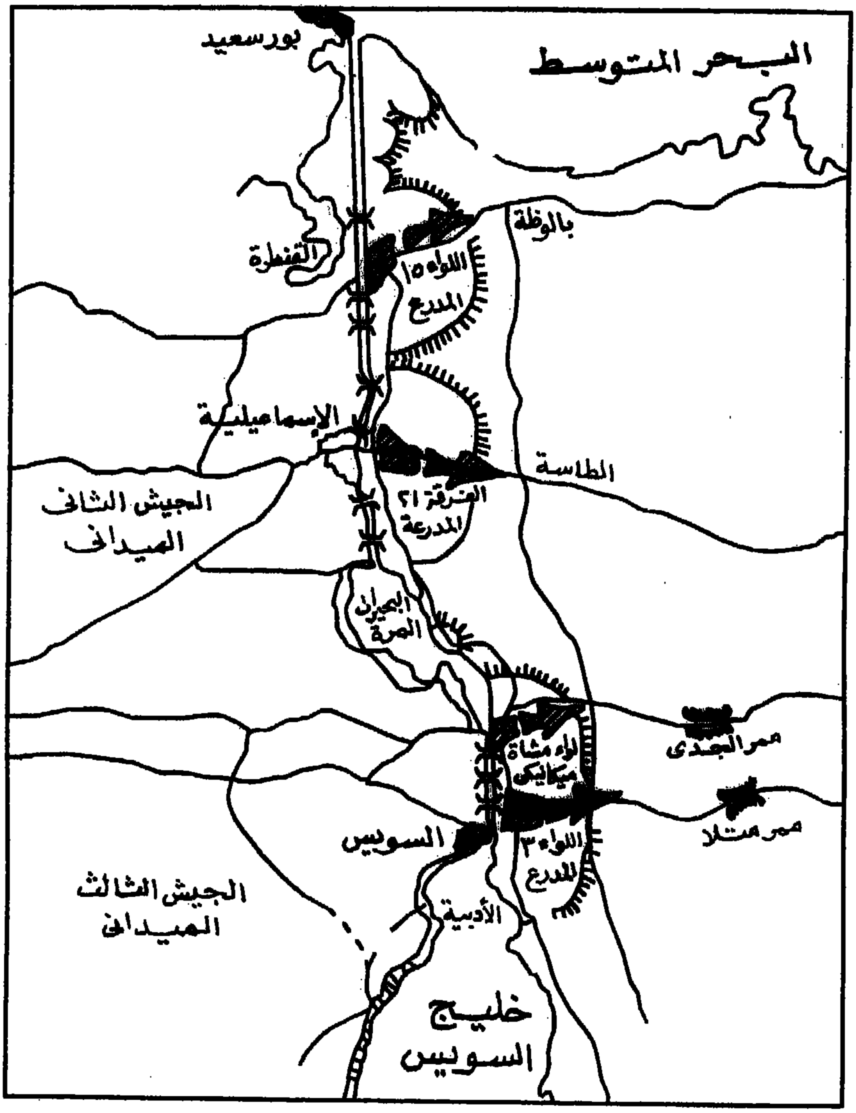
ولعل من المفيد للقراء ونحن نستعرض مواضيع الخلاف التي تحدث أحيانا بين القيادة السياسية والقيادة العسكرية بشأن القرارات الإستراتيجية أن نسجل تلك الواقعة الخطيرة التي جرت فى أثناء الحرب الكورية في بداية الخمسينيات، عندما حاول القائد الأمريكي الشهير دوجلاس ماك آرثر - الذي كان يتولى القيادة العامة للقوات الأمريكية وقوات الأمم

المتحدة في الحرب التي نشبت بين كوريا الجنوبية والشمالية عام ١٩٥٠ ـ أن يتجاهل القيادة السياسية وأن يتبع ما يمليه عليه الموقف العسكري في ميدان القتال. وعلى الرغم من سجله العسكري الحافل بمعاركه الكبرى لتحرير الفلبين خلال الحرب العالمية الثانية، عندما كان قائدا للقوات الأمريكية في الشرق الأقصى، ورغم أنه كان القائد الأمريكي الذي قام باحتلال اليابان عقب إعلان استسلامها في أغسطس ١٩٤٥، فإن الرئيس الأمريكي هاري ترومان لم يتردد في عزله من جميع مناصبه في ١١ إبريل عام ٥١ نظرا لاعتداده بآرائه وتجاهله للقرارات السياسية الصادرة إليه من الرئيس الأمريكي، واختلافه معه بشأن الإستراتيجية الأمريكية الواجب اتباعها تجاه الصين التي كانت تساند كوريا الشمالية وقتئذ بتزويدها بالأسلحة والمعدات، ثم تطور الأمر إلى إمدادها ببعض الوحدات العسكرية المقاتلة لرد الأمريكيين على أعقابهم عند اقترابهم من الحدود الصينية.

الخطة العامة لتطوير الهجوم

كان التعديل الذي تم إدخاله على الخطة الهجومية جرانيت ٢ والذي أدى إلى تسميتها باسم الخطة جرانيت ٢ المعدلة (الخطة بدر بعد ذلك) هو الاستيلاء على خط المضايق الإستراتيجية في سيناء. وكان الغرض من هذا التعديل هو إقناع القيادة السورية بالخطة الهجومية المصرية عند إجراء عملية تنظيم التعاون بين الجيشين المصري والسوري قبل الحرب، إذ لم يكن معقولا أن تستهدف الخطة السورية تحرير مرتفعات الجولان والوصول إلى الخط نهر الأردن ـ الشاطئ الشرقي لبحيرة طبرية على عمق حوالي ٢٥ كم من خط بدء الهجوم، بينما تقتصر الخطة المصرية على ذلك الهدف المتواضع الذي كانت تتضمنه الخطة الأصلية جرانيت ٢ وهو إنشاء منطقة رءوس الكباري على عمق ١٠ ـ ١٢ كم شرق القناة، وتبعا لذلك أصبح يطلق على خطة العبور وإنشاء رءوس الكباري اسم المرحلة الأولى، بينما أطلق على خطة تطوير الهجوم شرقا للاستيلاء على المضايق اسم المرحلة الثانية.

وفي ٧ يونيو ١٩٧٣ جرت في القيادة العامة بمدينة نصر عملية تنظيم التعاون للخطة الهجومية المشتركة بين القوات المصرية والسورية التي حضرها الفريق أحمد إسماعيل قائد القيادة الاتحادية واللواء بهي الدين نوفل رئيس هيئة عمليات القيادة الاتحادية وعدد من كبار القادة المصريين والسوريين، حيث تم تحديد أهداف خطة الهجوم على الجبهتين وتوحيد التوقيتات لضربتي الطيران والمدفعية وساعة س. والأمر الجدير بالملاحظة هو أن المرحلة الأولى من الخطة كانت تناقش خلال عملية تنظيم التعاون على المستويات كافة



الخطة العامة لتطوير الهجوم يوم ١٤ أكتوبر ١٩٧٣

بكل تفصيلاتها الدقيقة، بينما كان يتم المرور على المرحلة الثانية مرورا سريعا. وقد برر الفريق سعد الشاذلي رئيس أركان حرب القوات المسلحة خلال حرب أكتوبر هذه الظاهرة في مذكراته بأنه هو شخصيا لم يكن يتوقع مطلقا أن يطلب من القوات المصرية تنفيذ المرحلة الثانية، وأن هذا كان هو نفس شعور قائدي الجيشين الثاني والثالث.

والأمر الذي يمكن إدراكه بوضوح من تحليلنا لسير الوقائع والأحداث خلال الأيام الأولى من الحرب أن القيادة المصرية بعد نجاحها في تحقيق المرحلة الأولى من الخطة «بدر»، وهي اقتحام قناة السويس وتحطيم خط بارليف وإنشاء منطقة رءوس الكباري على عمق ١٠ ـ ١٢ كم شرق القناة، لم تفكر جديا في تنفيذ المرحلة الثانية من الخطة الهجومية الموضوعة، إذ لو كان هذا الأمر موضع تفكيرها حقا لسارعت باغتنام فرصة تركيز إسرائيل لمجهودها الرئيسي ضد الجبهة السورية في الشمال وفرصة ما صادفه الهجوم المضاد الرئيسي لإسرائيل أمام قوات الجيش الثاني المصري يوم الاثنين ٨ أكتوبر من فشل ذريع، وما منيت به القوات المدرعة الإسرائيلية في سيناء من خسائر فادحة في الدبابات في الأيام الثلاثة الأولى من الحرب، لتقوم بتنفيذ المرحلة الثانية من الخطة «بدر»، ولبادرت بإصدار الأمر لقواتها بالتقدم يوم ٩ أكتوبر على أكثر تقدير في اتجاه الشرق للاستيلاء على خط المضايق الجبلية الإستراتيجية، إذ إن هذا كان أفضل توقيت ممكن لتنفيذ هذه العملية خلال أيام الحرب كلها. أما القرار السياسي الذي صدر بتطوير الهجوم شرقا صباح يوم ١٤ أكتوبر، فعلاوة على ما شابه من خطأ من ناحية التوقيت ـ كما سبق أن أوضحنا، فإن خطة التطوير ذاتها التي أصدرتها القيادة العامة لتنفيذ هذا القرار كانت تختلف تماما عن خطة التطوير الأصلية التي كانت تتضمنها الخطة جرانيت ٢ المعدلة «بدر» والتي أجريت على أساسها عملية تنظيم التعاون على جميع المستويات، والتي أطلق عليها اسم المرحلة الثانية. فإن خطة تطوير الهجوم الأصلية كانت تقضي بتقدم القوات الرئيسية المصرية من منطقة رءوس الكباري شرق القناة مدعمة بالفرق المدرعة والميكانيكية التي في النسق الثاني في غرب القناة في اتجاه الشرق بهدف الاستيلاء على المضايق أي اختراقها والوصول إلى مداخلها الشرقية واتخاذ مواقع دفاعية على الخط العام قلعة الجندي ـ المداخل الشرقية لممرى متلا والجدي ـ بير جفجافا ـ بير العبد، أي تقدم الخط الدفاعي المصري بأكمله من منطقة رءوس الكباري على عمق ١٠ ـ ١٢ كم شرق القناة إلى الخط الحائط الجبلي الغربي لسيناء على عمق ٧٥ ـ ٨٠ كم شرق القناة الذي يعتبر في الواقع خط الدفاع الطبيعي عن مصر.

أما خطة تطوير الهجوم يوم ١٤ أكتوبر فقد كان من المستحيل أن تنفذ كالخطة الأصلية سواء من ناحية الأسلوب أو من ناحية الأهداف المطلوب تحقيقها، فلقد تغيرت الأوضاع الإستراتيجية العامة بعد أن تم تجميد الجبهة السورية وأصبحت إسرائيل تحارب على جبهة واحدة فقط هي الجبهة المصرية مما جعلها تركز ضدها مجهودها الرئيسي بأكمله، وأصبح من الخطورة بمكان تقدم أي قوات كبيرة شرقا إلى مدى أبعد من ١٥ - ٢٠ كم شرق القناة وهو نطاق الوقاية الذي يمكن أن تحققه شبكة الدفاع الجوي حتى لا تصبح هذه القوات فريسة سهلة للطائرات الإسرائيلية، فيتم تدميرها قبل وصولها إلى أهدافها. ولهذه الأسباب بنيت خطة التطوير الجديدة على أساس ثبات رءوس كباري الجيشين الثاني والثالث في أماكنها والاكتفاء بدفع مفارز أمامية، تم تخصيص معظمها من الفرقتين ٤ و ٢١ المدرعتين المتمركزتين في النسق الثاني غرب القناة، لكي تعبر القناة ثم تندفع من خطوط دفع داخل رءوس الكباري للوصول إلى الطريق العرضي رقم ٣ الذي يمر بجوار المداخل الغربية لمضيقي متلا والجدي، ثم يتقاطع مع الطريق الأوسط عند الطاسة ومع الطريق الساحلي عند بالوظة ويقع هذا الطريق على عمق حوالي ٣٠ كم شرق القناة أي أن هناك فرقا بين خطتي التطوير الأصلية والجديدة من ناحية عمق الهجوم لا يقل عن ٤٥ كم.

وكانت الخطة التي رسمت لتطوير الهجوم شرقا اعتبارا من أول ضوء يوم ١٤ أكتوبر تستهدف تدمير حشود العدو على خط المواجهة، وأن يبدأ الهجوم بتمهيد نيراني لمدة ١٥ دقيقة تسبقه ضربة جوية ضد الأهداف المعادية في العمق، وأن يركز المجهود الرئيسي للطيران لوقاية القوات من الجو وتقديم المعاونة المباشرة لها فى أثناء تقدمها، بينما تركز قوات الدفاع الجوي مجهودها الرئيسي لتأمين دفع القوات للاشتباك ووقاية التجميع الرئيسي للقوات. وكانت خطة التطوير تقضي بتقدم ٤ مفارز أمامية (مفرزتان من كل جيش) على المحاور الرئيسية الأربعة التالية:

محور ممر متلا: لواء مدرع من الفرقة ٤ المدرعة (النسق الثاني للجيش الثالث) يتقدم في اتجاه ممر متلا للاستيلاء على المدخل الغربي للممر وتأمينه، وتعاونه بالعمل كمفرزة متقدمة على الجانب الأيمن كتيبة مشاة ميكانيكية من الفرقة ٦ مشاة ميكانيكية (من قوات النسق الثاني بالجيش الثالث)..

محور ممر الجدي: لواء مشاة ميكانيكي من الفرقة ٧ مشاة (الفرقة اليسار من النسق الأول للجيش الثالث) يتقدم شرقا للاستيلاء على تقاطع الطريق العرضي ٣ مع طريق الجدي بالتعاون مع كتيبة من اللواء ٢٥ مدرع مستقل (الملحق على الفرقة ٧ مشاة).

محور الطاسة: الفرقة ٢١ المدرعة (النسق الثاني للجيش الثاني) تتقدم شرقا للاستيلاء على تقاطع الطريق العرضي ٣ مع الطريق الأوسط عند الطاسة.

محور بالوظة: اللواء ١٥ المدرع المستقل (الملحق على الفرقة ١٨ مشاة) يتقدم شرقا للاستيلاء على تقاطع الطريق العرضي ٣ مع الطريق الساحلي عند بالوظة.

معركة الدبابات أمام مضيق متلا

في الساعة العاشرة والنصف مساء يوم ١٢ أكتوبر، صدرت تعليمات قيادة الجيش الثالث بدفع لواء مدرع من الفرقة ٤ المدرعة كمفرزة متقدمة للجيش للاستيلاء على المدخل الغربي لمر متلا وتأمينه، وبادر العميد أ. ح محمد عبد العزيز قابيل قائد الفرقة باستدعاء العقيد أ. ح نور الدين عبد العزيز قائد اللواء ٣ المدرع، وكذا رؤساء الأسلحة المقاتلة والأفرع بالفرقة إلى مركز قيادته، حيث قام بتخصيص المهمة لقائد اللواء.. وقبل أول ضوء يوم ١٣ أكتوبر تحرك اللواء ٣ المدرع من منطقة تمركزه جنوب جبل عويبد مستخدما طريق القاهرة السويس، وبدأت عناصره المتقدمة في الوصول إلى الكوبري رقم ١ وهو المعبر الذي خصص له في قطاع الفرقة ١٩ مشاة. ونظرا لإنشغال الكوبري بعبور وحدة من الدفاع الجوي، لذا لم يستطع اللواء إكمال عبوره إلا في الساعة الواحدة ظهرا، وتم احتشاده في منطقة الانتظار الأمامية المحددة له على طريق الشط ـ عيون موسى. وخلال وجود وحدات اللواء في منطقة الانتظار الأمامية قام العدو بقصف المنطقة بنيران المدفعية بعيدة المدى، وتعرضت الوحدات لبعض الخسائر في الأرواح والمركبات، نظرا لعدم وجود تجهيزات هندسية بالمنطقة. وكان قائد اللواء فى أثناء قيام وحداته بالعبور قد انتهى من إعداد قراره وتم له عرضه على اللواء عبد المنعم واصل قائد الجيش الثالث في الساعة الحادية عشرة صباحا يوم ١٣ أكتوبر في مركز القيادة المتقدم للجيش، حيث حصل على تصديقه عليه. وفور وصول قائد اللواء إلى منطقة الانتظار الأمامية التي تم فيها احتشاد وحدات اللواء المدرع ووحدات الدعم، بدأت على الفور إجراءات تنظيم المعركة، فاصطحب القائد قادة الكتائب ورؤساء الأفرع لاستطلاع الخط الذي سيدفع منه اللواء للاشتباك داخل رأس كوبري الفرقة ١٩ مشاة، وبدأت عناصر مراقبة المرور في فتح محاور التقدم. وفي الساعة السابعة مساء أتم القائد إجراءات تنظيم المعركة.

وفي الوقت الذي كان فيه اللواء المدرع منشغلا طوال يوم ١٣ أكتوبر بعملية العبور

وإجراءات تنظيم المعركة، كانت كتيبة المشاة الميكانيكية من اللواء ١١٣ الميكانيكي التابع للفرقة ٦ مشاة ميكانيكية والمتمركز في منطقة بير عديب على الشاطئ الغربي لخليج السويس جنوب جبل عتاقة قد تم للعميد محمد أبو الفتح محرم قائد الفرقة تخصيص المهمة لقائدها وفقا للتعليمات التي أصدرها قائد الجيش الثالث، وهي أن تعمل الكتيبة كمفرزة متقدمة على الجانب الأيمن للواء المدرع على محور طريق عيون موسى للاستيلاء على منطقة تقاطعه مع الطريق العرضي ٣ وفي ليلة ١٢/ ١٣ أكتوبر قامت الكتيبة المشاة الميكانيكية بالتحرك شمالا من بير عديب على الطريق المؤدي إلى السويس، وفي الساعة العاشرة والنصف صباحا يوم ١٣ أكتوبر بدأت في عبور القناة على أحد معابر الفرقة ١٩ مشاة. وبمجرد إتمام عبورها وضعت تحت قيادة اللواء ٣ المدرع من الفرقة الرابعة المكلف بمهمة التطوير. وبناء على تعليمات قائد الجيش الثالث، وضعت سرية مدرعة من اللواء ٣ المدرع تحت قيادة الكتيبة المشاة الميكانيكية لتدعيمها. واتجهت الكتيبة بعد ذلك جنوبا على طريق الشط الطور شرق خليج السويس إلى منطقة الانتظار الأمامية المخصصة لها في منطقة عيون موسى؛ حيث انضمت إليها وحدات الدعم المخصصة لها. وقام قائد اللواء ٣ المدرع بإصدار تعليمات التعاون وخطة الدفع للاشتباك إلى قائد الكتيبة.

ولتأمين دفع كتيبة المشاة الميكانيكية للاشتباك من الخط المحدد لها في منطقة عيون موسى، قام قائدها بإجراء عملية تنظيم التعاون مع قادة الوحدات المجاورة، وهي اللواء الأيمن من الفرقة ١٩ مشاة واللواء الأول مشاة ميكانيكي من الفرقة ٦ مشاة ميكانيكية المتمركز في منطقة عيون موسى، والذي يعمل كحرس جنب للفرقة ١٩ مشاة (أسندت هذه المهمة إلى اللواء الأول المشاة الميكانيكي بعد ظهر يوم ١١ أكتوبر بعد فشله في الوصول إلى رأس سدر). وفي الساعة الثامنة مساء وصل قائد كتيبة المشاة الميكانيكية إلى مركز قيادة اللواء ٣ المدرع في منطقة الانتظار الأمامية داخل رأس كوبري الفرقة ١٩ مشاة، حيث عرض على قائد اللواء قراره وتم تصديقه عليه، وتمت بين القائدين عملية تنظيم التعاون.

وفي الساعة الحادية عشرة مساء قام العميد أ. ح محمد عبد العزيز قابيل قائد الفرقة ٤ المدرعة بالمرور على اللواء ٣ المدرع في منطقة الانتظار الأمامية، وأشرف على مدى استعداده لتنفيذ المهمة التي كلف بها، واصطحب معه قائد اللواء إلى مركز القيادة المتقدم لقائد الفرقة ١٩ مشاة العميد أ. ح يوسف عفيفي، حيث أجريت عملية تنظيم التعاون بين الفرقة ١٩ مشاة واللواء المدرع. واستمرت الوحدات الفرعية للواء المدرع في إجراءات تنظيم المعركة حتى حوالي الساعة الرابعة صباحا يوم ١٤ أكتوبر.

وللحصول على معلومات عن العدو تم دفع مجموعة استطلاع بأوامر قائد الفرقة السادسة مشاة ميكانيكية، من كتيبة استطلاع الفرقة بعد ظهر يوم ١٣ أكتوبر من منطقة عيون موسى على محور تقدم كتيبة المشاة الميكانيكية، كما تم للواء ٣ المدرع قبل أول ضوء يوم ١٤ أكتوبر دفع مجموعتي استطلاع من اللواء إلى اتجاه خط الدفع.

وفي التوقيت المحدد، بدأت وحدات اللواء ٣ المدرع في التقدم من منطقة الانتظار الأمامية إلى خط الدفع للاشتباك، وقامت وحدات المدفعية بضرب قصفة النيران لمدة ١٥ دقيقة لتأمين دفع اللواء، ولكن القصف المدفعي لم يكن مؤثرًا، إذ تم بطريقة الضرب الحسابي، ولم يوجه ضد أهداف محددة، فقد كانت المعلومات عن أوضاع العدو على خط المواجهة قاصرة للغاية، وكان ذلك أحد العوامل الرئيسية في عدم نجاح عمليات التطوير على طول المواجهة، وعلاوة على ذلك لم يتم تنفيذ طلعة الطيران التي كانت تحت طلب الجيش، وكان من المفترض أن تقوم بها المقاتلات القاذفة.

وساعد على إضعاف قوة اللواء المدرع قبل قيامه بعملية تطوير الهجوم أن بعض وحدات الدعم المهمة التي سبق تخصيصها له لم تصل إليه قبل ساعة الهجوم، مما اضطره إلى تنفيذ عملية التطوير بدونها، وكان من ضمنها سرية مقذوفات موجهة مضادة للدبابات (صواريخ مالوتكا على عربات بردم) وسرية ٥٧ مم مضادة للطائرات ثنائية المواسير ذاتية الحركة وفصيلة مهندسين عسكريين.

وفي الساعة السادسة والنصف صباح يوم ١٤ أكتوبر بدأت وحدات اللواء في عبور خط الدفع من رأس كوبري الفرقة ١٩ مشاة تحت إشراف قائد الفرقة ٤ المدرعة ومجموعة قيادته. وكان من أهم العوامل التي ساعدت اللواء ٣ المدرع على مواصلة التقدم في اتجاه الهدف المحدد له بسرعة، هو المهارة التي اختير بها محور تقدمه إذ تجنب الطريق الرئيسي (الشط - متلا) الذي كان مكتظا بتحصينات العدو وستائره المضادة للدبابات، وبدلا من ذلك قام اللواء المدرع بحركة التفاف من الجنوب على جناح العدو الأيسر من خلال وادي مبعوق ووادي المر، مما أدى إلى تقدمه شرقا إلى أبعد عمق بلغته وحدة مصرية في حرب أكتوبر (حوالي ٢٥ كم شرق القناة)، وتمكن من الوصول إلى مسافة حوالي ٦ كم فقط من المدخل الغربي لمر متلا. وقد اعترفت المراجع الإسرائيلية بأن المفاجأة المصرية الوحيدة في عملية تطوير الهجوم المصري يوم ١٤ أكتوبر، كانت في القطاع الجنوبي أمام فرقة الجنرال كلمان ماجن، حيث قام اللواء المدرع من الفرقة ٤ المدرعة بتطويق عميق عن طريق اختراقه لأحد الوديان الرئيسية في حركة التفاف من الجنوب إلى الشمال الشرقي، وإن ذلك كان

المكان الوحيد الذي نجح فيه المصريون في التوغل شرقا إلى عمق أكثر من ٢٠ كم في الطريق المؤدي إلى ممر متلا .

وكان اللواء ٣ المدرع يتقدم في نسقين واحتياطي . وقد تشكل النسق الأول من كتيبتي دبابات مدعمتين بسريتين مشاة ميكانيكيتين وتشكل النسق الثاني من كتيبة دبابات عدا سرية ، وتشكل الاحتياطي من كتيبة المشاة الميكانيكية للواء عدا سريتين . وفي الساعة الثامنة صباحا اصطدمت كتيبة النسق الأول اليمنى بقوة إسرائيلية مدرعة مشكلة من دبابات ومشاة ميكانيكية ومدعمة بستائر من الصواريخ المضادة للدبابات SS II مما أوقفها عن التقدم ، وقام طيران العدو بقصف جوي مركز على تشكيل قتال اللواء وهاجم بشدة مركبات مراكز القيادة والمدفعية والاحتياطيات . ونتيجة للقصف الجوي انفصل رتل مجموعة مدفعية اللواء عن باقي تشكيل قتال اللواء حيث دمرت بعض جرارات المدافع وغرز بعضها الآخر في رمال وادي المر وعجزت عن ملاحقة الدبابات التي واصلت التقدم للأمام .

وفي نفس الوقت أفادت عناصر استطلاع اللواء أن وحدات مدرعة قوية من العدو تحتل مجموعة من الهيئات الجبلية العالية التي تبعد حوالي ٣ ـ ٤ كم من مدخل ممر متلا ، وكانت تتحكم تماما في طريق اقتراب اللواء المدرع إلى المدخل الغربي للممر . ولم تكد تقترب كتيبتا النسق الأول من هذه الهيئات حتى جوبهتا بنيران مركزة من المدفعية ومن ستائر الصواريخ المضادة للدبابات ، مما أدى منذ اللحظة الأولى للاشتباك إلى تدمير سريتي الحرس الأمامي ومركزي القيادة والمراقبة للكتيبتين ، كما أصيبت باقي دبابات الكتيبتين بخسائر فادحة . وأدت تلك النيران الكثيفة المركزة إلى قوع حالة شديدة من الارتباك في تشكيل القتال لكتيبتي النسق الأول . فقد تكدست الدبابات في منطقة ضيقة وعجزت عن الانتشار لاتخاذ تشكيل المعركة . ورغم شدة النيران وفقد السيطرة على القوات ، نجحت بعض سرايا الدبابات في احتلال خطوط فتح مناسبة واشتبكت بشدة مع قوة العدو ودمرت له نحو ١٣ دبابة .

وكان سوء الحظ الذي أصاب اللواء المدرع بفقده مجموعة مدفعيته فى أثناء تقدمه نتيجة للقصف الجوي عاملا رئيسيا في عدم قدرته على إسكات عناصر العدو المضادة للدبابات والمتحكمة في مدخل المضيق والتي سببت للواء مزيدا من الخسائر . وكان مركز القيادة المتقدم للواء موجودا في الأمام بين كتيبتي النسق الأول وواقعا في مدى أسلحة الضرب المباشر للعدو ، ورغم ذلك أخذ قائد اللواء العقيد أ . ح نور الدين عبد العزيز يتحرك بمركبة قيادته بين

وحداته في شجاعة نادرة حتى أصيبت مركبته بقذيفة مباشرة من أحد مواقع العدو الأمامية، فاستشهد البطل في الحال، وفقد مركز قيادة اللواء المتقدم السيطرة على كتيبتي النسق الأول.

وكان رئيس أركان اللواء الموجود في مركز القيادة الخلفي مع كتيبة النسق الثاني في جهل تام بما يجري في الأمام، نتيجة لتدمير مركبة القيادة ودبابتي قائدي الكتيبتين المدرعتين بالنسق الأول اللتين كانتا مشتبكتين اشتباكا عنيفا مع قوات العدو المتمركزة غرب مدخل ممر متلا. وقام رئيس عمليات اللواء بدفع ضابط اتصال من مركز القيادة المتقدم للواء إلى مركز القيادة الخلفي لإبلاغه بالموقف، ولكي يتولى رئيس أركان اللواء قيادة اللواء بعد استشهاد قائده، ولكن ضابط الاتصال لم يتمكن من الوصول لشدة القصف الجوي المركز للعدو ولوعورة الأرض، واضطر رئيس عمليات اللواء وكان برتبة المقدم إلى تولي القيادة في هذه الظروف العصيبة، وحتى يمكن له إنقاذ الموقف أمر كتيبة النسق الثاني بالتقدم على الجانب الأيسر للواء بهدف المناورة على جانب العدو ومؤخرته حتى يمكن تدميره، ولتخفيف الضغط على قوات النسق الأول المتوقفة بسبب شدة نيران العدو. ولكن كتيبة النسق الثاني لم تتمكن من تحقيق المناورة المطلوبة، فقد تورطت دباباتها في منطقة غرود رملية شديدة الوعورة، مما جعلها عاجزة عن التقدم، وانهالت عليها نيران العدو. وفي نفس الوقت قام العدو بتحريك قوة من دباباته على الجانب الأيمن لتشكيل قتال اللواء مما أوقع كتيبة المشاة الميكانيكية التي تقوم بحماية الجنب تحت تأثير نيران دبابات العدو، فقامت مركباتها بالفتح والاشتباك مع دباباته في الحال.

وحوالي الساعة العاشرة صباحا، ونظرا لعدم وضوح الموقف لمركز قيادة اللواء الخلفي، تقدم رئيس أركان اللواء إلى الأمام بمركز قيادته حيث تم تحقيق الاتصال مع الكتائب المدرعة الثلاث وكتيبة المشاة الميكانيكية التي كانت جميعا متخذة خطوط فتح ومشتبكة في قتال مرير مع دبابات العدو وأسلحته المضادة للدبابات، وأصدر رئيس أركان اللواء الذي تولى قيادة اللواء منذ هذا التوقيت أمره إلى كتائب اللواء بأن تتمسك بالخط الذي وصلت إليه بكل قوة، مع تحسين أوضاع سراياها التي كانت داخلة في مدى نيران دبابات العدو ومقذوفاته الموجهة المضادة للدبابات للحد من تأثير هذه النيران عليها تقليلا للخسائر. ونظراً لأن الجهاز اللاسلكي R 151 المخصص للاتصال بقائد الجيش الثالث كان داخل مركبة القيادة التي كان بها قائد اللواء والتي تم تدميرها، فقد أرسل رئيس الأركان ضابط عمليات من قيادة اللواء ومعه تقرير عن موقف اللواء إلى قيادة الجيش، حيث حدد في التقرير الخط الذي وصل إليه اللواء والذي يبعد حوالي ٦ كم فقط من المدخل الغربي

لمر متلا. كما أوضح في التقرير خسائر اللواء، وطلب من قائد الجيش الثالث تدعيم اللواء بقوة كتيبة مشاة ميكانيكية حتى يتمكن اللواء من تأمين الخط المكتسب باحتلال المشاة الميكانيكية للهيئات الرملية الموجودة شمال وجنوب شرق وادي المر، تمهيدا لقيام الدبابات باستكمال الهجوم والاستيلاء على مدخل ممر متلا بعد طرد قوات العدو المتحكمة في الطريق المتجه إليه أو تدعيم الخط المكتسب وتعزيزه بالمشاة الميكانيكية. وطلب رئيس الأركان كذلك قصف المدخل الغربي لمر متلا بالمدفعية أو بالقوات الجوية.

ونظرا لوجود بعض الدبابات والمركبات المدرعة التي لم تدمر، وكانت غارزة في الغرود الرملية، فقد تم لقيادة اللواء تشكيل أطقم نجدة من بعض الدبابات والعربات المجنزرة حيث قامت بنجدتها وإصلاحها في شجاعة بالغة تحت تأثير نيران العدو المركزة مما أمكن معه تدعيم الكفاءة القتالية للواء. وخلال أعمال النجدة تم العثور على عامل اللاسلكي الذي كان يعمل في مركبة القيادة ومعه الجهاز R 151 سليما، وفي حوالي الساعة الثانية ظهرا وفى أثناء محاولة مركز قيادة اللواء الاتصال بقيادة الجيش الثالث التقط قائد الفرقة ٤ المدرعة النداء وتم تحقيق الاتصال بين رئيس أركان اللواء وقائد الفرقة. وبعد أن استمع قائد الفرقة إلى تقرير عن موقف اللواء أصدر أمره بضرورة تمسك وحدات اللواء بالخط المكتسب دون أي ارتداد للخلف. واستمر قائد اللواء بالنيابة في محاولة تحسين الدفاعات والقيام بأعمال التجهيز الهندسي ودفع قوات لتأمين الأجناب والاحتفاظ باحتياط لمواجهة أي تهديد للعدو، بينما استمر العدو في قصف القطاع الدفاعي للواء بنيران المدفعية والقيام بأعمال الاستطلاع ووصلت إلى خطوط العدو طائرات هيليكوبتر لنقل جرحاه.

وقام قائد الفرقة ٤ المدرعة بإيضاح الموقف لقائد الجيش الثالث، وأخطره بخسائر اللواء التي بلغت حوالي ٦٠ دبابة ت ٥٥و٩ مركبات مدرعة ب.ك وجميع مدافع كتيبة مدفعية الميدان نتيجة للقصف الجوي والستائر الصاروخية المضادة للدبابات SS II، علاوة على استشهاد قائد اللواء ووجود عدد كبير من الشهداء والجرحى في ساحة القتال. هذا في الوقت الذي لا توجد فيه أي قوات من الجيش الثالث يمكن تدعيم اللواء بها، ولا توجد مع اللواء أسلحة مضادة للطائرات توفر له إمكانات الوقاية من الجو، خاصة بعد تقدمه للأمام وخروجه من شبكة الدفاع الجوي. ونظرا لهذه الأوضاع السيئة للواء أصدر قائد الجيش الثالث أمره إلى قائد اللواء ٣ المدرع بالنيابة بالارتداد إلى داخل رأس كوبري الفرقة ١٩ مشاة، وقد تمت عملية الانسحاب ليلة ١٤/ ١٥ أكتوبر، واستغلت وحدات اللواء ساعات الظلام لتفادي نيران العدو، مما جعلها تصل دون أي خسائر إلى رأس كوبري

الفرقة ١٩ مشاة في الساعة الحادية عشرة صباحا يوم ١٥ أكتوبر. وبدأت في الحال عملية حصر الخسائر وإعادة التنظيم لسرعة استعادة الكفاءة القتالية للواء.

وكانت كتيبة المشاة الميكانيكية من الفرقة السادسة قد تم دفعها هي الأخرى من خط الدفع للاشتباك المحدد لها في منطقة عيون موسى في الساعة السادسة والنصف صباحا يوم ١٤ أكتوبر بعد قصفة نيران لمدة ١٥ دقيقة من مجموعة مدفعية اللواء الأول مشاة ميكانيكي لتنفيذ المهمة المسندة إليها، وهي التقدم كمفرزة جنب للواء ٣ المدرع على طريق عيون موسى في اتجاه تقاطعه مع الطريق العرضي ٣. ولم تستطع الكتيبة مواصلة التقدم. فقد اصطدمت بقوة مدرعة من العدو ووقعت تحت تأثير نيران كثيفة من المدفعية ونيران الدبابات ومن المقذوفات الصاروخية المضادة للدبابات في الوقت الذي تعرضت فيه لقصف جوي مركز، مما أدى إلى شدة الارتباك وفقد السيطرة وتفرق رتل الكتيبة في كل اتجاه. ونظرا لانقطاع الاتصال اللاسلكي بن كتيبة المشاة الميكانيكية واللواء ٣ المدرع الذي كان يتحرك على يسارها بسبب استشهاد قائد اللواء وتدمير مركبته كما سبق أن ذكرنا، فقد قام قائد الفرقة ٦ مشاة ميكانيكية الذي كان موجودا في مركز الملاحظة الأمامي في عيون موسى بدفع رئيس عمليات ورئيس إشارة الفرقة إلى قائد الكتيبة في الأمام لإبلاغه بضرورة مواصلة التقدم، وأن يتم جميع اتصالاته اللاسلكية مستقبلا مع قيادة الجيش الثالث مباشرة عن طريق الجهاز اللاسلكي R 151 الموجود في مركبة قيادته، واندفع قائد الكتيبة بجزء من قواته إلى الأمام رغم كثافة نيران العدو للوصول إلى تقاطع الطريق العرضي ٣، كي يحقق المهمة المسندة إلى كتيبته، ولكن باقي الكتيبة انفصل عنه بتأثير القصف الجوي وتمكن العدو من تدمير المركبات المدرعة المتقدمة في اتجاهه، ومن أسر قائد الكتيبة والمجموعة التي كانت ترافقه. وبدأت سرايا الكتيبة في الارتداد على دفعات إلى منطقة عيون موسى، وأمر قائد الفرقة ٦ مشاة ميكانيكية بناء على تعليمات قائد الجيش الثالث بوضع بقايا الكتيبة المشاة الميكانيكية التي انسحبت تحت قيادة اللواء الأول مشاة ميكانيكي في منطقة عيون موسى مع العمل على حصر الخسائر وإعادة التنظيم لاستعادة كفاءة الكتيبة القتالية بأسرع وقت ممكن.

معركة مضيق الجدي التي سبقت موعدها بيوم كامل

كانت القوة المخصصة للقيام بعملية التطوير في القطاع الأيسر للجيش الثالث هي لواء مشاة ميكانيكي من الفرقة ٧ مشاة - التي كان يتولى قيادتها العميد أ. ح أحمد بدوي - يتم

دفعه من رأس كوبري الفرقة للعمل كمفرزة أمامية للجيش في اتجاه ممر الجدي. وكان المفترض أن يبدأ اللواء المشاة الميكانيكي هجومه في نفس التوقيت الذي حددته القيادة العامة بالمركز ١٠ بالقاهرة لجميع المفارز الأمامية على مواجهة الجيشين الثاني والثالث لتطوير الهجوم شرقا وهو الساعة السادسة والنصف صباح يوم ١٤ أكتوبر. ولكن حادثا من الحوادث الفريدة في نوعها جرى بالنسبة لهذا اللواء. فقد قام بعملية تطوير هجومه مبكرا ٢٤ ساعة عن التوقيت الذي بدأت فيه جميع المفارز الأمامية للجيشين الثاني والثالث عمليات تطوير هجومها شرقا، وفيما يلي القصة الحقيقية لهذا الحادث:

سبق أن ذكرنا أنه بعد ظهر يوم ١٢ أكتوبر، تم إعداد التعليمات الخاصة بتطوير الهجوم شرقا بناء على أمر الفريق أحمد إسماعيل في المركز ١٠ بالقاهرة وتحرك اللواء محمد غنيم إلى الجيش الثاني واللواء طه المجدوب إلى الجيش الثالث حاملين معهما تعليمات العمليات لتسليمها إلى اللواء سعد مأمون واللواء عبد المنعم واصل قائدي الجيشين، وكانت تقضي ببدء عملية التطوير في الساعة السادسة والنصف صباح يوم ١٣ أكتوبر. وعندما علم الفريق أحمد إسماعيل القائد العام من الفريق سعد الشاذلي رئيس الأركان بالمعارضة الشديدة التي أبداها قائدا الجيشين لعملية تطوير الهجوم خلال اتصالهما به هاتفيا قرر استدعاءهما لحضور مؤتمر بالقيادة العامة بالمركز ١٠ بالقاهرة في مساء اليوم نفسه. ورغم توجه قائدي الجيشين إلى القاهرة فإن مركز القيادة المتقدم لكل جيش منهما استمر في إعداد التحضيرات اللازمة للمعركة بمجرد تسلمه تعليمات العمليات الواردة من القيادة العامة نظرا لضيق الوقت، على أساس أن عملية تطوير الهجوم ستبدأ وفقا للموعد المحدد في هذه التعليمات في الساعة السادسة والنصف صباح يوم ١٣ أكتوبر، ولذا صدرت في الحال الأوامر الإنذارية إلى المفارز المعينة للعملية وإلى التشكيلات والوحدات الأخرى التي ستقوم بتأمين دفع هذه المفارز من خطوط الدفع المحددة لها وفقا للتعليمات. ولكن في الساعة الحادية عشرة مساء اتصل كل من اللواء سعد مأمون واللواء عبد المنعم واصل من المركز ١٠ بالقاهرة بمركزي قيادتهما في الجبهة وأبلغاهما بتأجيل موعد تنفيذ المهمة لمدة ٢٤ ساعة، أي أن عملية التطوير ستبدأ في الساعة السادسة والنصف صباح يوم ١٤ أكتوبر.

وقامت شعبة العمليات في كل من الجيشين الثاني والثالث بناء على تعليمات قائد الجيشين بإبلاغ جميع التشكيلات والوحدات التابعة للجيش بتأجيل عملية التطوير لمدة ٢٤ ساعة، إلا أن خطأ ما قد جرى فيما يتعلق بإبلاغ قيادة الفرقة ٧ مشاة بقرار التأجيل. فقد

ثبت أن قائد الفرقة ٧ مشاة العميد أ. ح أحمد بدوي أغفلت شعبة عمليات الجيش الثالث - ربما بدافع من السهو أو الخطأ - إخطاره بقرار التأجيل مثل باقي تشكيلات الجيش، وترتب على ذلك أن اللواء ١١ المشاة الميكانيكي من الفرقة ٧ مشاة وفقا للتعليمات السابقة التي صدرت من قبل إلى قيادة الفرقة تم دفعه وحده على طول جبهة القتال في الساعة السادسة والنصف صباح يوم ١٣ أكتوبر لتطوير هجومه شرقا في اتجاه ممر الجدي، ليصبح ذلك الحادث أحد الحوادث العجيبة التي سجلت في تاريخ الحروب.

وكان العميد أ. ح أحمد بدوي قائد الفرقة ٧ مشاة قد استدعى قائد اللواء ١١ المشاة الميكانيكي (لواء المنتصف في النسق الأول من قطاع الفرقة الدفاعي) عند منتصف ليلة ١٢/ ١٣ أكتوبر، حيث قام بتخصيص المهمة له وفقا للتعليمات السابق صدورها إليه. وكانت تتلخص فيما يلي:

١ - يتم دفع اللواء ١١ المشاة الميكانيكي من يسار الموقع الدفاعي للواء داخل رأس كوبري الفرقة للعمل كمفرزة أمامية للاستيلاء على تقاطع طريق الجدي مع الطريق العرضي ٣ وتحددت ساعة س (موعد بدء الهجوم) لدفعه هو وباقي المفارز على مستوى الجبهة لتكون الساعة السادسة والنصف صباح يوم ١٣ أكتوبر على أن تعاون المفرزة بقصفة نيران لمدة ١٥ دقيقة قبل بدء الدفع.

٢ - يتم تدعيم اللواء بكتيبة دبابات الفرقة وبالعناصر اللازمة من مدفعية الميدان والهاون الثقيل (١٢٠ مم) والصواريخ المضادة للدبابات والمضادة للطائرات والمهندسين والاستطلاع والصاعقة.

وفي الساعة الواحدة والنصف صباح يوم ١٣ أكتوبر وصل قائد اللواء إلى مركز قيادته المتقدم، حيث كانت مجموعة الأوامر في انتظاره، وتم له تخصيص المهام لقادة وحداته الفرعية، وكان قراره بشأن تشكيل قتال اللواء يقضي بأن تعين كتيبة النسق الثاني للواء للعمل كمفرزة متقدمة، على أن تدعم بكتيبة دبابات الفرقة وعناصر التدعيم الأخرى اللازمة لها، وتدفع من خط دفع اللواء في ساعة س على أن تتبعها الكتيبتان الخلفيتان بفاصل حوالي من ٣ إلى ٥ كم، ويجرى التحرك بواحدة منهما على يمين طريق الجدي وبالكتيبة الأخرى على يسار الطريق (كانت كتيبة اليمين مزودة بمركبات ب ك المدرعة بينما كانت كتيبة اليسار مزودة بمركبات B.M.P المدرعة)، وإلى الخلف من الكتيبتين تسير

مجموعة مدفعية اللواء التي تتبعها احتياطيات اللواء. وفي الساعة السادسة والنصف صباحا يوم ١٣ أكتوبر عبرت كتيبة المفرزة المتقدمة خط الدفع بعد قصفة نيران لمدة ١٥ دقيقة من مجموعة مدفعية الفرقة بطريقة الضرب الحسابي ولكن دون أن تنضم إليها كتيبة دبابات الفرقة، فقد تأخرت في الوصول بسبب ضيق الوقت الذي كان مخصصا للتحضير للمعركة. ولنفس هذا السبب لم تصل سرية الصواريخ المضادة للدبابات ولا كتيبة المدفعية المضادة للطائرات، مما أدى إلى تحرك تشكيل قتال اللواء بدون هذه الوحدات. وكان قائد اللواء قد قام بدفع كتيبة من الصاعقة في الساعة الخامسة صباحا أي قبل موعد دفع اللواء بساعة ونصف ساعة في اتجاه محور التقدم. وقد نجحت عناصر من الصاعقة في التسلل من خلال مواقع العدو والوصول خلف دفاعاته التي تواجه محور تقدم اللواء، وكانت لها فائدة كبيرة فى أثناء المعركة من ناحية الإبلاغ عن مواقع العدو وتحرك احتياطياته وتأثير نيران مدفعيتنا على مواقعه.

ولم تكد كتيبة المفرزة المتقدمة تتحرك حوالي كيلو متر ونصف شرقا على طريق الجدي حتى أجبرت على التوقف والفتح في تشكيل القتال، نظرا لاصطدامها بقوة من العدو تقدر بسرية دبابات تعاونها نيران المدفعية وستائر من الصواريخ المضادة للدبابات SS II كانت متحصنة في مواقع دفاعية في منطقة تقاطع طريق الجدي مع الطريق العرضي ٢. واشتبكت الكتيبة في الحال مع عناصر العدو بالنيران، وحوالي الساعة الثامنة والنصف صباحا وصلت كتيبة دبابات الفرقة، إلا أنها لم تتمكن من الانضمام إلى تشكيل قتال كتيبة المفرزة المتقدمة نظرا لكثافة الصواريخ المضادة للدبابات التي أطلقت عليها مما أرغمها على التوقف خلف تشكيل قتال الكتيبة بمسافة ١٠٠ متر. وإلى الخلف من كتيبة الدبابات اتخذ مركز قيادة اللواء المتقدم موقعه لمراقبة المعركة، وإزاء التوقف الذي جرى ولتدمير العدو المواجه لتشكيل قتال اللواء، قرر قائد اللواء دفع الكتيبة الخلفية اليسار المزودة بالمركبات المدرعة B.M.P بعد قصفة نيران لمدة ١٥ دقيقة من مجموعة مدفعية اللواء للالتفاف على الجنب الأيسر للعدو وتدميره في مواقعه أو إرغامه على الانسحاب وذلك بالاستفادة من طبيعة الأرض في هذا الاتجاه وباستغلال السرعة التي تتميز بها هذه المركبات (حوالي ٣٠ كم في الساعة). وقد صدق قائد الفرقة على قرار قائد اللواء.

وفي حوالي الساعة الحادية عشرة والنصف صباحا، تم دفع الكتيبة المدرعة B.M.P من أقصى يمين كتيبة المفرزة المتقدمة في اتجاه الجنب الأيسر للعدو واتخذت الكتيبة تشكيل

القتال ولكنها لم تتمكن من التقدم أكثر من ٢ كم ثم توقفت بسبب تركيز العدو نيران مدفعيته وصواريخه المضادة للدبابات على تشكيل قتال هذه الكتيبة . كما قام العدو بتركيز قصفه الجوي على تشكيل قتال اللواء، مما أحدث بالوحدات خسائر كبيرة. وإزاء عجز المركبات المدرعة B.M.P عن التقدم في وجه الستائر المضادة للدبابات، أمر قائد اللواء بإخفاء المركبات المدرعة خلف الثنيات الأرضية والكثبان الرملية ونزول أطقمها منها للعمل كأفراد مشاة عاديين على الأقدام، واستخدام طريقة الضرب بالنيران مع الحركة لمحاولة التقدم إلى مواقع العدو تحت ستر نيران الدبابات والمركبات المدرعة المستترة في الخلف. وكان القرار سببا في نجاح بعض الفصائل في الوصول إلى مسافات قريبة من العدو، إلا أن وحدات اللواء لم تستكمل محاولاتها في التقدم للأمام في اتجاه مواقع العدو، فقد أصدر قائد الفرقة ٧ مشاة في حوالي الساعة الواحدة ظهرا أمرا عن طريق اللاسلكي إلى قائد اللواء بوقف تقدم اللواء والارتداد فورا إلى أوضاعه الأصلية داخل رأس كوبري الفرقة، ولكن قائد اللواء اقترح على قائد الفرقة تأجيل تنفيذ قراره بالارتداد حتى آخر ضوء يوم ١٣ أكتوبر، نظرا لأن وحداته في حالة اشتباك مع العدو، وفي حالة محاولتها التخلص من الاشتباك والارتداد غربا في اتجاه رأس كوبري الفرقة فإن العدو سوف يقوم بمطاردتها ويوقع بوحدات اللواء خسائر فادحة. وقد صدق قائد الفرقة على اقتراح قائد اللواء.

ونتيجة للبحث الدقيق الذي أجريناه بشأن مصرع الجنرال الإسرائيلي ألبرت ماندلر، اتضح لنا أنه خلال المعركة الحامية التي نشبت بين وحدات اللواء ١١ المشاة الميكانيكي والقوات الإسرائيلية التي كانت تسد عليها طريق التقدم إلى اتجاه مضيق الجدي، حدث أن مجموعة مدفعية اللواء أثناء قيامها بقصف مواقع العدو أصابت إحدى قذائفها مركبة القيادة التي كان يستقلها الجنرال ألبرت ماندلر قائد القطاع الجنوبي في سيناء عندما كان يقوم باستطلاع أرض المعركة بمنظاره المكبر من أحد مراكز المراقبة بالخط الأمامي مما أدى إلى مصرع أربعة من ركابها منهم ألبرت ماندلر ورافي أونجر مراسل الإذاعة الإسرائيلية الذي كان قد ألحق بفرقته. وقد سبق أن أوردنا قصة مصرع الجنرال ماندلر في بداية هذا الفصل. وعند آخر ضوء يوم ١٣ أكتوبر وصل اللواء عبد المنعم واصل قائد الجيش الثالث والعميد أ. ح أحمد بدوي قائد الفرقة السابعة المشاة إلى مقر القيادة الأمامي للواء المشاة الميكانيكي. وبعد التداول في الموقف صدر الأمر إلى قائد اللواء بإعادة الوحدات الفرعية

للواء إلى مواقعها الأصلية داخل رأس كوبري الفرقة والاستعداد لتطوير الهجوم شرقا في الساعة السادسة والنصف صباح اليوم التالي ١٤ أكتوبر مع باقي المفارز المتقدمة على طول خط الجبهة لتحقيق نفس المهمة التي سبق تخصيصها للواء صباح يوم ١٣ أكتوبر. وكان السبب في ذلك كما سبق أن ذكرنا يرجع إلى إغفال إخطار قائد الفرقة السابعة بقرار تأجيل التطوير لمدة ٢٤ ساعة.

وقد تقدم قائد اللواء ١١ المشاة الميكانيكي بمطلبين أساسيين إلى قائد الجيش الثالث حتى يمكنه تحقيق المهمة المطلوبة منه بنجاح في اليوم التالي. وكان المطلبان هما:

١ ـ تأجيل موعد دفع اللواء للاشتباك من الساعة السادسة والنصف صباحا إلى الساعة الواحدة ظهرا يوم ١٤ أكتوبر، حتى يمكن في الصباح إعادة ملء المركبات المدرعة بالوقود واستعاضة الذخائر وإعادة تنظيم اللواء بعد المعارك العنيفة التي خاضتها وحداته مع العدو.

٢ ـ دعم اللواء بكتيبة دبابات إضافية من اللواء ٢٥ مدرع مستقل (الملحق على الفرقة ٧ مشاة) ليتم دفعها للاشتباك من الجنب الأيمن للواء في اتجاه تقاطع طريق الجدي مع الطريق العرضي ٢، مع قيامها بحركة التفاف على يسار العدو المتمركز في منطقة تقاطع الطرق وشغله بالنيران، في الوقت الذي يتم فيه دفع اللواء من خط دفعه للاشتباك. ولهذا السبب اقترح قائد اللواء أن يتم دفع كتيبة الدبابات من خط الدفع للاشتباك قبل دفع كتيبة المفرزة الأمامية للواء بحوالي ١٥ دقيقة.

وقد قرر قائد الجيش الثالث التصديق على مطلبي قائد اللواء، كما تقرر تأمين ارتداد وحدات اللواء الأمامية التي كانت ما تزال مشتبكة مع العدو إلى رأس كوبري الفرقة بقصفة نيران من مدفعية اللواء ومدفعية الفرقة. وقد تم للواء الارتداد غربا تحت ستر نيران المدفعية واستعادة أوضاعه الدفاعية في رأس الكوبري حوالي الساعة الثانية صباح يوم ١٤ أكتوبر. وفي الساعة التاسعة صباحا، وأثناء قيام وحدات اللواء بالتجهيز للمعركة أجرى قائد اللواء تأكيد المهام على قادة وحداته الفرعية كما خصص المهمة الجديدة لقائد كتيبة الدبابات التي أرسلت من اللواء ٢٥ مدرع المستقل.

وفي حوالي الساعة الواحدة ظهرا يوم ١٤ أكتوبر تم دفع كتيبة الدبابات من اللواء ٢٥ مدرع المستقل من خط الدفع المحدد لها بعد تأمين دفعها بقصفة نيران من المدفعية لمدة ١٥

دقيقة. وقد أمكن لكتيبة الدبابات التقدم في اتجاه تقاطع الطرق بسرعة كبيرة إلى الحد الذي جعلها تقطع مسافة ٧ كم خلال ١٥ دقيقة حتى أوشكت على تحقيق أهداف هجومها. وكانت الكتيبة قد اشتبكت مع العدو خلال تقدمها ودمرت له حوالي ٥ دبابات. إلا أنه في حوالي الساعة الواحدة والربع ظهرا صدرت الأوامر من قيادة الجيش الثالث بوقف دفع اللواء المشاة الميكانيكي، وكذا انسحاب كتيبة الدبابات التي دفعت من قبل إلى رأس كوبري الفرقة ٧ مشاة، ويبدو أن السبب في ذلك يرجع إلى قرار اتخذته القيادة العامة في المركز ١٠ بالقاهرة بعد إدراكها فشل عملية تطوير الهجوم على المحاور الأخرى. وكانت عملية التطوير على تلك المحاور قد بدأت في الساعة السادسة والنصف صباحا أي قبل أكثر من ٦ ساعات من بدء عملية التطوير على طريق ممر الجدي. وعقب وصول هذه التعليمات من قيادة الفرقة ٧ مشاة إلى قائد اللواء أصدر أوامره إلى وحدات اللواء التي كانت على وشك التحرك في الموعد المحدد للدفع للاشتباك إلى التمسك بمواقعها داخل رأس كوبري الفرقة، وأصدر أمرا عن طريق اللاسلكي إلي قائد كتيبة الدبابات بالارتداد إلى رأس كوبري الفرقة. ونظرا لأن عملية التخلص من الاشتباك مع العدو والارتداد غربا قد تمت فى أثناء النهار، لذلك عاود العدو هجماته العنيفة على مؤخرة كتيبة الدبابات وعلى السرية التي كلفت بستر ارتدادها، كما قام بتركيز نيران مدفعيته عليها مما أدى إلى وقوع خسائر جسيمة بالكتيبة، فقد فقدت ١٣ دبابة وأصيب عدد كبير من أفرادها، كما استشهد قائدها بعد إصابة دبابته بصاروخ مضاد للدبابات، وقد قامت مدفعية الفرقة ٧ مشاة بستر ارتداد كتيبة الدبابات بجميع وسائل النيران المتيسرة بناء على أوامر قائد الفرقة. وحوالي الساعة الرابعة مساء تمكنت الكتيبة من دخول رأس كوبري الفرقة السابعة مشاة.

خطة تطوير الهجوم شرقا في الجيش الثاني

على الرغم من أن عملية تطوير الهجوم شرقا التي جرت في قطاع الجيش الثاني صباح يوم ١٤ أكتوبر ٧٣ كانت تتفق مع عملية التطوير التي جرت في قطاع الجيش الثالث من حيث توقيت الهجوم، ومن جهة عمق الأهداف المطلوب تحقيقها، فإن الاختلاف الوحيد بينهما كان منحصرا في ناحية الحجم، فقد كان حجم القوات التي اشتركت في قطاع الجيش الثاني يفوق كثيرا - خاصة في الدبابات - حجمها في قطاع الجيش الثالث، وكان السبب في ذلك يعود إلى أن المجهود الرئيسي لعملية تطوير الهجوم وفقا للخطة التي وضعتها القيادة العامة كان يقع في نطاق الجيش الثاني.

وكانت خطة التطوير في قطاع الجيش الثاني تتلخص فيما يلي:

* الفرقة ٢١ المدرعة (النسق الثاني للجيش الثاني) يتم دفعها من رأس كوبري الفرقة ١٦ مشاة بمهمة الوصول إلى الخط العام - الطريق العرضي ٣ - والاستيلاء على الطاسة.. ويرجع السبب في تخصيص فرقة مدرعة كاملة للاستيلاء على الطاسة إلى أهمية موقعها الحيوي بالنسبة لخط المواجهة مع إسرائيل. فعلاوة على وقوعها في منطقة تقاطع الطريق الأوسط مع الطريق العرضي ٣، فقد كانت تضم مركز القيادة المتقدم للقطاع الأوسط الذي يتولى قيادته الجنرال أريل شارون، كما كانت منطقة تمركز للاحتياطيات التعبوية الإسرائيلية باعتبارها موقعًا متوسطا بالنسبة لجبهة القتال يمكن منه دفع الوحدات المدرعة والميكانيكية إلى أي قطاع مهدد في الجبهة شمالا أو جنوبا باستخدام الطريق العرضي ٣ وكان الاستيلاء على الطاسة يفتح الطريق على مصراعيه أمام القوات المصرية للتقدم شرقا دون الحاجة إلى اختراق مضايق أو اجتياز أي موانع طبيعية، كما يشكل في نفس الوقت تهديدا خطيرا لمركز القيادة المتقدم للقيادة الجنوبية الإسرائيلية في منطقة أم مرجم التي تبعد حوالي ٤٠ كم فقط شرق الطاسة.

* اللواء ١٥ المدرع المستقل (الملحق على الفرقة ١٨ مشاة بقطاع القنطرة شرق) يتم دفعه من رأس كوبري الفرقة على المحور الشمالي بمهمة الوصول إلى منطقة بالوظة والاستيلاء على تقاطع الطريق الساحلي مع الطريق العرضي ٣.

وكان التوقيت المحدد لبدء عملية تطوير الهجوم شرقا في قطاع الجيش الثاني وفقا لتوجيهات العمليات التي صدرت بعد ظهر يوم ١٢ أكتوبر هو صباح يوم ١٣ أكتوبر. ونظرا لاستدعاء قائد الجيش الثاني إلى القاهرة لحضور المؤتمر الذي عقد بالمركز ١٠ مساء يوم ١٢ أكتوبر والذي رأسه الفريق أول أحمد إسماعيل وحضره أيضا قائد الجيش الثالث، فقد انتقل اللواء تيسير العقاد رئيس أركان الجيش الثاني من مركز القيادة الرئيسي إلى مركز القيادة المتقدم للجيش الثاني كي يتولى القيام بإجراءات تنظيم المعركة، حيث إن الوقت المحدد لبدء عملية تطوير الهجوم، وهو الساعة السادسة والنصف صباح يوم ١٣ أكتوبر لم يكن باقيا على حلوله أكثر من ١٢ ساعة فقط. وأصدر اللواء تيسير العقاد على وجه السرعة أوامر إنذارية بمضمون المهمة إلى قادة التشكيلات التي ستقوم بعملية التطوير في الصباح للبدء في إجراءات التحضير للمعركة، وكذا إلى قادة التشكيلات الأخرى ورؤساء الأسلحة والأفرع بالجيش الثاني للاستعداد لتأمين دفع الفرقة ٢١ المدرعة من رأس كوبري الفرقة ١٦ مشاة واللواء ١٥ المدرع من رأس كوبري الفرقة ١٨ مشاة. ونظرا لأن

اللواء ١٤ مدرع (من ضمن تشكيل الفرقة ٢١ المدرعة) كان ملحقا على الفرقة ١٦ مشاة منذ يوم ٦ أكتوبر، وقد تم عبوره قناة السويس ليلة ٦/ ٧ أكتوبر، وكان متمركزا في هذا الوقت في المنطقة شرق طوسون، فقد صدرت تعليمات عاجلة بأن يقوم اللواء الأول المدرع الذي كان متمركزا ضمن باقي قوات الفرقة في النسق الثاني غرب القناة بعبور قناة السويس ليلة ١٢/ ١٣ أكتوبر على معابر الفرقة ١٦ مشاة على أن يتمركز في منطقة انتظار أمامية شمال غرب قرية الجلاء. وقد تم عبور اللواء الأول ومركز القيادة المتقدم للفرقة ٢١ المدرعة قناة السويس ليلة ١٢/ ١٣ أكتوبر، وأتم اللواء تمركزه في منطقة الانتظار المحددة له حوالي الساعة الثامنة والنصف صباح يوم ١٣ أكتوبر. وفي الساعة الحادية عشرة مساء يوم ١٢ أكتوبر كان اللواء سعد مأمون قد اتصل من المركز ١٠ بالقاهرة عقب انتهاء المؤتمر برئيس أركان الجيش الثاني وأبلغه بأن تنفيذ المهمة قد تأجل لمدة ٢٤ ساعة، أي أن تطوير الهجوم سوف يبدأ في الساعة السادسة والنصف صباح يوم ١٤ أكتوبر. وأمره بنقل مركز قيادة الجيش المتقدم من منطقة أبو صوير إلى المركز التبادلي بالإسماعيلية قبل منتصف الليل، وأن يدعو القادة والرؤساء لحضور مؤتمر بمركز القيادة الجديد في الساعة الثامنة صباح اليوم التالي (السبت ١٣ أكتوبر).

وقد تم عقد المؤتمر بمركز القيادة المتقدم للجيش الثاني بالإسماعيلية برئاسة اللواء سعد مأمون، وقد حضره رئيس أركان الجيش الثاني، وقادة التشكيلات الميدانية، ورؤساء الأسلحة والأفرع الرئيسية بالجيش، وقام رئيس استطلاع الجيش الثاني في بداية المؤتمر بشرح الموقف العام للعدو على مواجهة الجيش الثاني وفقا للمعلومات المتوافرة لديه. وقد تبين أنه يوجد للعدو حوالي ٢٣٠ دبابة على اتصال برءوس كباري الفرق المصرية الثلاث ١٦ و ٢ و ١٨ مشاة، وهي بقايا الألوية المدرعة التي سبق لهذه الفرق صد وتحطيم هجماتها المضادة في الأيام السابقة. وقد قامت مفارز من هذه الدبابات باحتلال خطوط صد تم اختيارها بعناية باستغلال طبيعة الأرض على طرق الاقتراب المحتملة لقواتنا بعد تدعيمها بستائر من الصواريخ المضادة للدبابات SS II، وقد تمكن العدو من حشد لواءين مدرعين ولواء مشاة ميكانيكي كاحتياطي تعبوى أمام مواجهة الجيش الثاني.

وكان التخطيط الذي وضعه العدو عقب اكتشافه نوايانا لتطوير الهجوم شرقا هو الاستعداد لصد القوات المصرية القائمة بالتطوير عن طريق خطوط الصد السابق تجهيزها بالدبابات والمدعمة بالاحتياطيات المدرعة والستائر المضادة للدبابات وبإجراء التعاون مع الطيران الإسرائيلي لمحاولة تدميرها، مع الاحتفاظ باحتياطي تعبوي قوى من القوات

المدرعة والميكانيكية استعدادا لانتزاع المبادأة من القوات المصرية عقب القضاء على عملية تطوير الهجوم، والقيام على الفور بتوجيه ضربة مضادة قوية Counter Blow كي تفقد القوات المصرية توازنها.

وشرح اللواء سعد مأمون للقادة الحاضرين قرار القيادة العامة بتطوير الهجوم شرقا بقصد تخفيف الضغط عن الجبهة السورية، وحدد بشكل عام المهمة التي أوكل إلى الجيش الثاني تحقيقها، وهي الاستيلاء على الخط العام الطاسة بالوظة على الطريق العرضي ٣ والذي يبلغ عمقه حوالي ١٥ كم، وذكر بأن القيادة العامة قررت تخصيص مجهود جوي رئيسي لتأمين دفع وتطوير العملية الهجومية للجيش الثاني. وعلى أثر ذلك قام بتأكيد المهام للقادة التي سبق تخصيصها لهم وفقا للخطة الموضوعة، وحدد الإجراءات التي قرر اتخاذها لتأمين أوضاع رأس كوبري الجيش والقوات القائمة بالتطوير، وكانت تتلخص فيما يلي:

تقوم الفرقة الثانية المشاة بدفع كتيبة مشاة ميكانيكية مدعمة من اللواء الميكانيكي بالفرقة للعمل كمفرزة أمامية والتقدم على محور طريق عرام (الطريق الممتد من الفردان إلى الطريق العرضي٣) بمهمة تأمين الجنب الأيسر للفرقة ٢١ المدرعة أثناء تقدمها شرقا.

تقوم الفرقة ١٨ مشاة بدفع كتيبة مشاة ميكانيكية مدعمة من اللواء الميكانيكي بالفرقة للعمل كمفرزة أمامية والتقدم على محور طريق القنطرة حوض أبو سمارة بمهمة الاستيلاء على تقاطع الطرق في منطقة أبو سمارة، وتأمين الجنب اليمين للواء ١٥ المدرع المستقل في أثناء تقدمه شرقا.

يتم سحب اللواء ٢٤ مدرع (من الفرقة ٢٣ مشاة ميكانيكية والملحق على الفرقة الثانية مشاة منذ بدء الحرب) من تجميع الفرقة الثانية المشاة ليتمركز في منطقة المحطة ٣ شرق الإسماعيلية ليكون احتياطيا في يد قائد الجيش الثاني لصالح رأس كوبري الجيش الثاني الموحد (الفرقة ١٦ والفرقة ٢ مشاة) نظرا لاشتراك اللواء ١٤ المدرع (الذي كان ملحقا على الفرقة ١٦ مشاة) ضمن قوات الفرقة ٢١ المدرعة في عملية التطوير. وعقب انتهاء المؤتمر عرض القادة فكرة قراراتهم على قائد الجيش الثاني للتصديق عليها. وكانت فكرة قرار العميد أ. ح إبراهيم العرابي قائد الفرقة ٢١ المدرعة (المجهود الرئيسي للجيش الثاني في عملية تطوير الهجوم) التي عرضها على قائد الجيش الثاني تتضمن تقدم الفرقة جنوب الطريق الأوسط في اتجاه الطاسة بهدف الاستيلاء عليها. ويكون التقدم في نسقين:

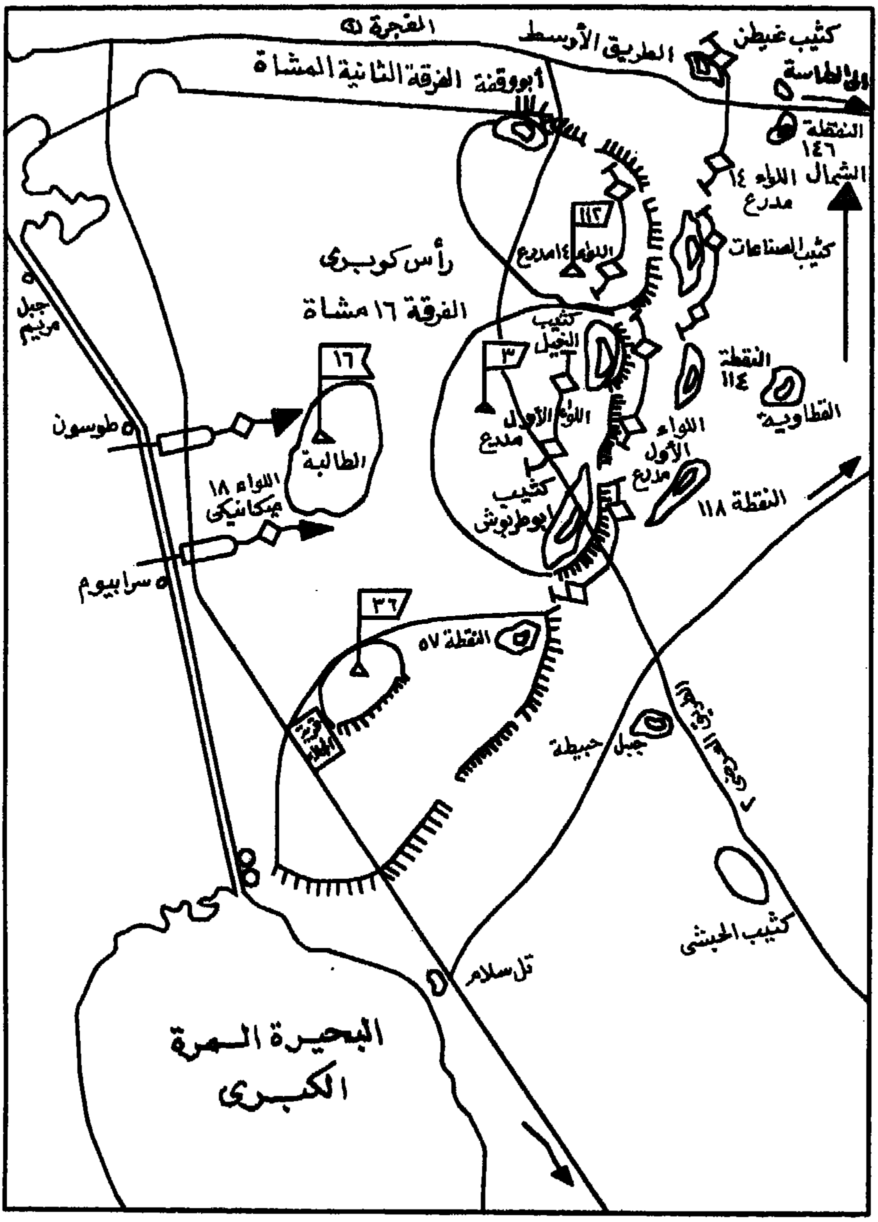
النسق الأول ـ اللواء الأول المدرع في اليمين (المجهود الرئيسي للفرقة) واللواء ١٤ المدرع في اليسار.

النسق الثاني - اللواء ١٨ مشاة ميكانيكي.

وقد صدق اللواء سعد مأمون قائد الجيش الثاني على قرار قائد الفرقة، وبعد أن أجرى قائد الفرقة ٢١ المدرعة استطلاعه بسرعة نظرا لضيق الوقت قام بتخصيص المهمة لقائد كل من اللواء الأول المدرع، واللواء ١٤ المدرع (النسق الأول للفرقة) في الساعة الخامسة مساء في مركز القيادة المتقدم للفرقة ١٦ مشاة. ولم يتيسر للقائدين فسحة كافية من الوقت لإجراء استطلاعهما على الأرض، فقد كان الوقت المتبقي قبل آخر ضوء لا يتجاوز ٣٠ دقيقة. أما قادة الكتائب المدرعة فقد اشتركوا بكتائبهم في المعركة في اليوم التالي دون أن يتسنى لهم أو لقادة سراياهم القيام بأي استطلاع على الأرض مما يخالف جميع القواعد والأصول التكتيكية. ولم يتمكن قائد الفرقة ٢١ المدرعة نظرا لضيق الوقت من تخصيص المهمة لقائد اللواء ١٨ المشاة الميكانيكي (النسق الثاني) إلا في الساعة الرابعة صباحا يوم ١٤ أكتوبر أي قبل ساعتين ونصف الساعة فقط من بدء المعركة. ونظرا لأن مجموعة كبيرة من وحدات الفرقة ٢١ المدرعة كان قد تم تدعيم الفرقة ١٦ مشاة بها منذ بدء العمليات في ٦ أكتوبر أو في الأيام التالية لها، لذلك لم يتيسر الوقت لإصدار أوامر قتال تفصيلية لهذه الوحدات بحكم انتشارها داخل رأس كوبري الفرقة ١٦ مشاة. هذا وقد تم إجراء عملية تنظيم التعاون بين الفرقة ٢١ المدرعة وبين الفرقتين ١٦ و ٢ مشاة لفتح الثغرات في حقول الألغام أمام اللواءين المدرعين، ليمكن دفعهما من خطوط الدفع المحددة لهما في الخطة. كذلك تم تنظيم التعاون مع عناصر الصاعقة التي كان من المقرر دفعها إلى جنوب غرب الطاسة، ولكن الاتصال انقطع مع هذه العناصر منذ لحظة دفعها. وبناء على تعليمات العميد أ. ح إبراهيم العرابي قائد الفرقة ٢١ المدرعة بدأ اللواء ١٨ المشاة الميكانيكي في عبور قناة السويس في حوالي الساعة الرابعة صباحا، ولكن عبوره تأخر بعض الوقت لتعطل أحد الكباري بسبب قصف مدفعية العدو بعيدة المدى. وأخيرا تم للواء بعد إتمام عبوره التمركز في منطقة انتظار أمامية شرق طوسون صباح يوم ١٤ أكتوبر تمهيدا للتحرك شرقا إلى منطقة الطالية استعدادا لدفعه للاشتباك بأمر من قائد الفرقة.

معركة الفرقة ٢١ المدرعة

وفي الساعة السادسة والنصف صباح يوم ١٤ أكتوبر، تم دفع الفرقة ٢١ المدرعة من خط الدفع المحدد لها داخل رأس كوبري الفرقة ١٦ مشاة (اللواء الأول المدرع في اليمين، واللواء ١٤ المدرع في اليسار) وتم تأمين دفعها بضربة جوية في اتجاه المجهود الرئيسي



كروكي يوضح تطوير الهجوم يوم ١٤ أكتوبر ٧٣ (الفرقة ٢١ المدرعة)

(اللواء الأول المدرع) من الساعة السادسة إلى الساعة السادسة والربع صباحا، اشتركت فيه ١٦ كتيبة مدفعية واستهلكت فيه ٤ , ٠ وحدة نارية.

وفي الساعة الثامنة صباحا اصطدمت قوات الفرقة بمقاومة شديدة من مواقع مجهزة للعدو على الخط العام النقطة ١١٨ ـ القطاوية ـ النقطة ١٤٦ جنوب وشمال الطريق الأوسط ـ كثيب عيفان (شمال الطريق الأوسط). وفي نفس الوقت وصلت معلومات تفيد بأن العدو بدأ يحرك احتياطيه المدرع في اتجاه جبل حبيطة على الجانب الأيمن للفرقة ١٦ مشاة. وكان موقف اللواء الأول المدرع بالغ السوء منذ بدء تحركه. فقد تعرض لقصف مركز من مدفعية العدو البعيدة المدى من عيار ١٧٥م، علاوة على نيران كثيفة من الدبابات وستائر الصواريخ المضادة للدبابات «SSII» من النقطة ١١٨ مما أدى إلى استشهاد العقيد أ.ح محمد توفيق أبو شادي قائد اللواء وكذا قائد مدفعية اللواء في أول ١٥ دقيقة من المعركة، وتدمير دبابة قائد كتيبة اليسار وتولى رئيس أركان اللواء مسئولية القيادة. وأدى هذا الموقف بالإضافة إلى شدة وكثافة النيران التي تركزت على وحدات اللواء إلى ضياع السيطرة، خاصة بعد انقطاع الاتصال بين قيادة اللواء وبعض وحداته الفرعية. ونتيجة لذلك فقدت بعض هذه الوحدات اتجاهها، وتحركت نحو الشمال لتفادي المقاومات الشديدة التي أوقفت تقدمها بدلا من الاتجاه نحو الشرق وفقا للخطة الموضوعة، مما أدى إلى التصاق بعض سرايا الدبابات من اللواء الأول المدرع بوحدات اللواء ١٤ المدرع.

وكان موقف اللواء ١٤ المدرع أفضل من موقف اللواء الأول، فقد نجح في تدمير موقع العدو الذي اعترض طريق تقدمه، وتمكن من التقدم حوالي خمسة كيلو مترات أمام الحد الأمامي لرأس كوبري الفرقة ١٦ مشاة، ومن الوصول إلى الخط العام كثيب الصناعات كثيب عيفان، ولكنه أرغم على التوقف أمام نيران الدبابات والستائر المضادة للدبابات التي تركزت على وحداته من موقع العدو الحصين والسابق التجهيز في النقطة ١٤٦ شمال وجنوب الطريق الأوسط..

وفي الساعة الثامنة والنصف صباحا أصيب اللواء سعد مأمون قائد الجيش الثاني الذي كان يتابع موقف الفرقة ٢١ المدرعة من مركز القيادة المتقدم للجيش بنوبة قلبية، وقد بادر بالاتصال باللواء تيسير العقاد رئيس أركان الجيش الذي كان موجودا في الخلف في مركز القيادة الرئيسي للجيش وأبلغه بمرضه، ودعاه للحضور إلى مركز القيادة المتقدم للجيش لتولي القيادة بدلا منه، وانتقل هو إلى غرفة الاستراحة بمركز القيادة حيث أخذ بعض الأطباء في علاجه.

وقد اختلفت الأقوال حول السبب الحقيقي لمرض اللواء سعد مأمون والذي أدى إلى تنحيه عن قيادة الجيش الثاني يوم ١٤ أكتوبر وإلى إخلائه فيما بعد إلى مستشفى المعادي. وقد تطرق الفريق سعد الشاذلي رئيس أركان حرب القوات المسلحة في حرب أكتوبر إلى هذا الموضوع في مذكراته، فأورد في الصفحة ٢٤٧ ما يلي: «لقد كان تأثير أخبار هزيمة قواته (يقصد اللواء سعد مأمون) صباح اليوم ذات أثر كبير عليه فانهار. وكان معاونوه يعتقدون أنه بعد عدة ساعات من النوم سوف يستعيد نشاطه، ولذلك حجبوا هذه المعلومات عن القيادة العامة».

وفي الساعة العاشرة صباحا يوم ١٤ أكتوبر وصل اللواء تيسير العقاد رئيس أركان الجيش الثاني إلى مركز القيادة المتقدم للجيش في الإسماعيلية، وتولى قيادة الجيش اعتبارا من هذا التوقيت. وكانت الفرقة ٢١ مدرعة ما تزال مشتبكة في قتال عنيف مع مقاومات العدو التي أوقفتها عن التقدم. وأصدر قائد الفرقة أمرا إلى اللواء ١٨ المشاة الميكانيكي (النسق الثاني للفرقة) بالتحرك إلى منطقة الطالية، وأن يكون مستعدا للدفع للاشتباك من اتجاه كثيب الخيل يمين اللواء ١٤ المدرع. وكانت فكرة قائد الفرقة ترمي إلى استخدام المشاة المترجلة كي تتعاون مع الدبابات لتدمير مقاومات العدو التي أوقفت تقدم اللواء ١٤ المدرع خاصة في النقطة ١٤٦ بعد توجيه قصفة نيران عليها من الطيران والمدفعية. وقد تمت معاونة هجوم الفرقة ٢١ المدرعة بحشد ضخم من نيران المدفعية اشتركت فيه مجموعة مدفعية الجيش الثاني ومجموعات مدفعية الفرق ٢١ المدرعة و ١٦ مشاة و ٢ مشاة، وتركزت قصفات نيرانها على مواقع العدو التي أوقفت تقدم الفرقة ٢١ المدرعة، وعلى مواقع بطاريات مدفعية العدو في العمق.. وعندما طلب قائد الفرقة مجهودا جويا قامت مدفعية الفرقة المدرعة بضرب ستارة دخان لتحديد الخط الذي وصلت إليه قوات الفرقة لقواتنا الجوية. وقد تم تنفيذ ٣ طلعات طيران لمعاونه الفرقة، وقامت الطائرات بقصف مواقع العدو، ولكن تأثير الضرب كان محدودا بسبب عدم تحقيق اتصال مباشر بين الفرقة والطيران لتحديد الأهداف المطلوب تدميرها.

وكان موقف اللواء الأول المدرع لا يزال سيئا بعد فقد قيادة اللواء السيطرة على بعض وحداته الفرعية نتيجة لاستشهاد قائد اللواء في بداية المعركة وانقطاع الاتصال مع إحدى كتائبه المدرعة بسبب تدمير دبابة قائدها، مما أدى إلى انضمام عناصر منه إلى اللواء ١٤ المدرع، كما أن جانبا من وحداته الفرعية دخلت في رأس كوبري الفرقة ١٦ مشاة. وقد

بذل العميد أ. ح إبراهيم العرابي قائد الفرقة ٢١ المدرعة جهدا كبيرا لاعادة تجميع اللواء الأول المدرع وإحكام السيطرة عليه تمهيدا لاستعادة كفاءته القتالية.

وفي نفس الوقت استمر اللواء ١٤ المدرع يقاتل بعناد من موقعه على الخط كثيب الصناعات - كثيب عيفان ضد المقاومة العنيفة للعدو في النقطة ١٤٦. وقامت الفرقة الثانية المشاة بمعاونة اللواء المدرع وحماية جنبه الأيسر بنيران مدفعيتها وأسلحتها المضادة للدبابات. وعندما شن العدو هجمة مضادة على الجانب الأيمن للواء بسريتي دبابات مدعمتين ببعض المشاة الميكانيكية، تمكن اللواء بالتعاون مع احتياطي الفرقة المضاد للدبابات الذي قام بالفتح على جانبه الأيمن من صد الهجوم المضاد وتدمير ٥ دبابات للعدو. وقد قام العدو طوال يوم ١٤ أكتوبر بتركيز نيران مدفعيته بعيدة المدى من عيار ١٥٥م و ١٧٥م وقصفه الجوي على مواقع ووحدات الفرقة ٢١ المدرعة والفرقة ١٦ مشاة. وعندما حاولت بعض الاحتياطيات المدرعة للعدو القيام بهجوم مضاد من اتجاه كثيب الحبشي من الجنوب على الطريق العرضي ٢ قامت الفرقة ١٦ مشاة بصد هذا الهجوم، وتمكنت من تدمير ٤ دبابات.

وفي الساعة الواحدة والنصف ظهرا أصبح موقف الفرقة ٢١ المدرعة حرجا. فلقد عجز اللواء الأول المدرع عن تطوير أعمال قتاله شرقا وأصيب بخسائر كبيرة، وأصبحت دباباته المتبقية ٦٦ دبابة. بينما تعرض اللواء ١٤ المدرع لهجوم جوي مركز ونيران كثيفة وضرب مباشر من الدبابات والصواريخ المضادة للدبابات SS II، وأصبحت دباباتة المتبقية ٤٤ دبابة أي أن الفرقة فقدت حوالي ٥٠٪ من دباباتها إذا أضفنا إليها دبابات اللواء الميكانيكي الذي لم يشترك في القتال.

وكان اللواء ١٨ المشاة الميكانيكي مستمرا في التجمع في أرتال سرايا في منطقة الطالية استعدادا لدفعه للاشتباك، وقد تعرض أثناء ذلك لقصف جوي ونيران مدفعية مركزة. أما وحدات مدفعية الفرقة فقد كانت ما تزال في محلاتها خلف خط الدفع داخل رأس كوبري الفرقة ١٦ مشاة، وقائمة بتقديم المعونة المطلوبة للوحدات بنيرانها. وكان قرار قائد الفرقة المدرعة هو التمسك بالخط العام كثيب الصناعات كثيب عيفان بقوة اللواء ١٤ المدرع والكتيبة التي انضمت إليه من اللواء الأول المدرع، وإعادة تجميع اللواء الأول المدرع (عدا كتيبة) في المنطقة جنوب كثيب أبو وقفة مع استمرار تمركز اللواء ١٨ المشاة الميكانيكي غرب الطالية، وسرعة استعادة الكفاءة القتالية للفرقة استعدادا لاستئناف التقدم وتحقيق المهمة التي كلفت بها. وقد صدق قائد الجيش بالنيابة على قرار قائد الفرقة حوالي الساعة الثانية

ظهرا. وفي نفس التوقيت قام اللواء تيسير العقاد الذي كان يتولى قيادة الجيش الثاني بالاتصال بالقائد العام الفريق أول أحمد إسماعيل بالمركز ١٠ بالقاهرة وشرح له موقف الفرقة ٢١ المدرعة وقراره الذي أصدره باستمرار الفرقة في تحقيق مهمتها، ولكنه طلب من القائد العام تقديم معاونة جوية للفرقة لمساعدتها في إزاحة مقاومات العدو التي اعترضت طريقها وأوقفتها عن التقدم.

وإزاء الموقف الجديد بعد تمركز معظم وحدات الفرقة ٢١ المدرعة داخل رأس كوبري الفرقة ١٦ مشاة، أصدر اللواء تيسير العقاد أمره باستمرار اللواء ٢٤ المدرع في مكانه الأصلي في رأس كوبري الفرقة ٢ مشاة وألغى القرار السابق بتحركه إلى منطقة المحطة ٣ شرق الاسماعيلية ليكون احتياطيا في يد قائد الجيش لصالح رأس كوبري الجيش الموحد.

وكان الرئيس الراحل السادات قد وصل حوالي الواحدة والنصف ظهرا يوم ١٤ أكتوبر إلى المركز ١٠ بناء على طلب من القائد العام، وأخطره الفريق أول أحمد إسماعيل بعد حضوره إلى مقر القيادة بأن عملية تطوير الهجوم على طول الجبهة لم تصادف نجاحا، وأن القوات المدرعة والميكانيكية التي قامت بعملية التطوير في قطاعي الجيشين الثاني والثالث قد منيت بخسائر كبيرة في الدبابات بلغت حوالي ٢٥٠ دبابة. وأمر الرئيس الراحل السادات الفريق سعد الشاذلي رئيس الأركان بالتحرك في الحال إلى الجبهة لرفع معنويات الضباط والجنود. وفي حوالي الساعة الرابعة مساء وصل الفريق سعد الشاذلي إلى مركز القيادة المتقدم للجيش الثاني، وقام بزيارة اللواء سعد مأمون الذي كان يرقد في الاستراحة وإلى جانبه الطبيب الذي كان يشرف على علاجه. وقد ذكر الفريق سعد الشاذلي في مذكراته أنه عندما أبلغ اللواء سعد مأمون أثناء زيارته له بأنه سيتم إخلاؤه إلى مستشفى المعادي، انزعج كثيرا ورجاه ألا يفعل ذلك مؤكداً أنه يستطيع أن يمارس مسئولياته فوراً، ولكن الطبيب بناء على اتفاق مسبق مع سعد الشاذلي اتصل به هاتفيا صباح اليوم التالي (١٥ أكتوبر) وأخبره بأن حالة سعد مأمون لم تتحسن، ولذا فقد تم إخلاؤه إلى مستشفى القصاصين في بادئ الأمر ثم إلى مستشفى المعادي؛ حيث بقي فيه إلى ما بعد وقف إطلاق النار. وبعد أن غادر الفريق سعد الشاذلي غرفة اللواء سعد مأمون اجتمع مع ضباط قيادة الجيش الثاني وبحث معهم الموقف، كما قام بالاتصال بجميع قادة الفريق وأبلغهم تحيات الرئيس وتشجيعه لهم.

ورغم تحذيرات العميد أ. ح إبراهيم العرابي للفريق سعد الشاذلي بعدم العبور إلى شرق القناة نظرا لهبوط الظلام مما سوف يجعل التحرك ليلا في ميدان المعركة عملية بالغة

الخطورة، فإن الفريق سعد الشاذلي صمم على زيارة الفرقة ٢١ المدرعة نظرا لأنها التشكيل الذي تحمل العبء الأكبر من المعركة صباح هذا اليوم ولكنه عجز عن عبور القناة بعربته، فلقد وجد أحد الكباري مدمرا ووجد الكوبري الآخر مرفوعا من مكانه لتفادي تدميره بواسطة مدفعية العدو التي كانت مستمرة طوال الوقت في عمليات القصف، ولذا فقد اضطر رئيس الأركان إلى العودة مرة أخرى إلى مركز قيادة الجيش فوصله حوالي الساعة الثامنة مساء. وبعد أن اتصل هاتفيا بالعميد إبراهيم العرابي تحرك عائدا إلى القاهرة ووصل المركز ١٠ حوالي الساعة الحادية عشرة مساء؛ حيث أبلغ الموقف إلى الفريق أول أحمد إسماعيل. وحوالي منتصف الليل اتصل به الرئيس الراحل السادات، ولما استفسر منه عن الموقف أعاد على مسامعه كل ما رآه وفعله في تلك الزيارة.

وفي الساعة التاسعة مساء كانت الأوامر قد صدرت من قيادة الجيش الثاني بناء على تعليمات القيادة العامة إلى قائد الفرقة ٢١ المدرعة بتجميع الفرقة داخل رأس كوبري الفرقة ١٦ مشاة قبل أول ضوء يوم ١٥ أكتوبر، وذلك لتدعيم الدفاع عن رأس الكوبري مع استمرار أعمال إعادة تجميع الفرقة واستعادة كفاءتها القتالية في أقرب وقت ممكن.

ورغم الخسائر الجسيمة التي أصيبت بها الفرقة ٢١ المدرعة والمواقف الصعبة التي واجهتها خلال عملية تطوير الهجوم صباح يوم ١٤ أكتوبر، فإن الفرقة قاتلت العدو قتالا مجيدا، وخسرت عددا كبيرا من رجالها ودباباتها. ولكن الظروف غير المواتية والأخطاء التكتيكية التي وقعت وقفت حائلا دون تحقيق الفرقة للمهمة التي تم تكليفها بها.

معركة اللواء ١٥ المدرع المستقل

كانت المهمة التي خصصت للواء ١٥ المدرع المستقل هي أن يدفع كمفرزة أمامية للفرقة على المحور الشمالي بعد تدعيمه بوحدات الدعم اللازمة بمهمة الوصول إلى منطقة بالوظة (تقع في أقصى شمال الطريق العرضي ٣ وعلى بعد ٢٥ كم شرق القناة) والاستيلاء على تقاطع الطريق العرضي ٣ مع الطريق الساحلي الشمالي (طريق القنطرة شرق ـ العريش). ولتأمين تقدم اللواء المدرع، تقرر دفع كتيبة مشاة ميكانيكية من اللواء المشاة الميكانيكي بالفرقة ١٨ مشاة مدعمة بكتيبة دبابات اللواء على محور طريق القنطرة ـ حوض أبو سمارة بمهمة تأمين الجنب الأيمن للواء المدرع.

وفي الساعة العاشرة مساء يوم ١٣ أكتوبر، عرض العقيد أ. ح تحسين شنن قائد اللواء

١٥ المدرع قراره على العميد أ. ح فؤاد عزيز غالي قائد الفرقة ١٨ مشاة، وكان مبنيا على أساس دفع اللواء المدرع في اتجاه بالوظة على ثلاثة محاور تتقدم على كل محور منها كتيبة دبابات مدعمة. وقد تعينت الكتيبة التي تقرر تقدمها على المحور الأوسط (طريق القنطرة العريش الرئيسي) لتكون المفرزة الأمامية للواء، ويتم دفعها للاشتباك من خط الدفع داخل رأس كوبري الفرقة ١٨ مشاة في الساعة السادسة والنصف صباح يوم ١٤ أكتوبر، على أن تتبعها بعد فترة زمنية قدرها ٤٥ دقيقة القوة الرئيسية للواء التي تتكون من كتيبة دبابات مدعمة ومركز قيادة اللواء المتقدم وتتحرك على محور الطريق الأيمن، وكتيبة دبابات مدعمة وتتحرك على محور الطريق الأيسر. وفي الساعة السادسة والنصف صباحا، تم دفع كتيبة المفرزة الأمامية بعد قصفة نيران مدفعية لمدة ١٥ دقيقة، وبعد حوالي ٤٥ دقيقة أبلغ قائد كتيبة المفرزة الأمامية بتعرض كتيبته لنيران مدفعية مركزة، واتضح من استطلاعه للموقف أن العدو يحتل موقعا دفاعيا حصينا يعترض طريق تقدم اللواء نحو الشرق، وكان هذا الموقع يبعد عن الحد الأمامي لدفاعات الفرقة ١٨ مشاة ما بين ٢ إلى ٣ كم، ويمتد من بير البرج جنوبا إلى النقطة القوية رقم ١٧ شمالا. وكانت دفاعات العدو في هذه النقطة القوية شديدة التأثير على عملية تقدم تشكيل اللواء، فقد كانت مجهزة بمرابض للدبابات وستائر من الصواريخ المضادة للدبابات، علاوة على معاونة المدفعية لها، ولم تكن تبعد عن الطريق الساحلي الرئيسي بأكثر من ٢٠٠ متر شمالا، مما جعلها تتحكم في هذا الطريق تحكما تاما. ولم يكن هناك أي أمل في إمكان تحقيق اللواء لمهمته إلا بعد الاستيلاء على هذه النقطة القوية أو إزاحة مقاومة العدو منها.

وحاول قائد كتيبة المفرزة الأمامية بعد توقفها أمام مقاومة العدو مهاجمة النقطة القوية رقم ١٧، بعد أن تم قصفها بنيران مجموعة مدفعية الفرقة لمدة ١٠ دقائق، وذلك بمواجهتها بجزء من قوته مع القيام بحركة التفاف بباقي سراياه، ولكن الهجوم الذي قام به قائد الكتيبة تحت ستر كتيبة المدفعية الملحقة به لم ينجح لشدة النيران المعادية المؤثرة على سراياه. وحاول قائد اللواء المدرع تعزيز هجوم كتيبة المفرزة الأمامية بدفع كتيبة الدبابات التي تتحرك على محور الطريق الأيمن من على الجانب الأيمن للمفرزة الأمامية في الساعة التاسعة صباحا لتواصل التقدم شرقا في اتجاه بالوظة، ولتصبح بعد نجاحها في اجتياز مقاومة العدو هي كتيبة المفرزة الأمامية للواء. ولكن هذه الخطة لم تنجح بدورها نظرا لكثافة نيران مدفعية العدو وصواريخه المضادة للدبابات، مما أرغم كتائب اللواء الثلاث على التوقف تماما.

وقرر قائد اللواء ضرورة اقتحام قوة العدو المتمركزة في النقطة رقم ١٧ لفتح الطريق أمام تشكيل اللواء لتحقيق مهمته، وأبلغ قائد الفرقة قراره الذي كان يقضي بالهجوم على مواقع العدو في هذه النقطة القوية بعد قصفة نيران لمدة ١٠ دقائق من مجموعة مدفعية الفرقة ومجموعة مدفعية اللواء بقوة كتيبتي دبابات في النسق الأول وكتيبة في النسق الثاني. وصدّق قائد الفرقة على قراره. وفي الساعة الحادية عشرة صباحا بدأ الهجوم تحت ستر نيران المدفعية. وبعد ١٠ دقائق أبلغ قائدا كتيبتي النسق الأول بكثافة نيران مدفعية العدو ونيران صواريخه المضادة للدبابات من الأمام ومن الأجناب وعن وقوع خسائر كبيرة في وحدتيهما، مما أدى إلى انتشار سرايا الدبابات لتقليل الخسائر.

وفي حوالي الساعة الحادية عشرة والنصف صباحا أصدر قائد اللواء المدرع أوامره بالتوقف على الخط الذي وصلت إليه الدبابات والتمسك به، وأوقف دفع كتيبة النسق الثاني التي كانت على وشك الدفع للاشتباك لتعزيز كتيبتي النسق الأول وأبلغ قيادة الفرقة ١٨ مشاة بالموقف.

ولم يلبث قائد الفرقة أن أصدر أمره إلى قائد اللواء المدرع بالتمسك بالخط الذي وصلت إليه قواته وتعزيز كتيبتي النسق الأول بتدعيمات من الأسلحة المضادة للدبابات. وفي الساعة السادسة مساء أمر قائد الفرقة - بناء على تعليمات قيادة الجيش الثاني - بإعادة تجميع اللواء في منطقة تمركزه بالقنطرة شرق، وتم التنفيذ بسحب قوات النسق الأول تحت نيران كتيبة النسق الثاني. وعاد اللواء ١٥ المدرع المستقل إلى موقعه الأصلي داخل رأس كوبري الفرقة ١٨ مشاة بعد أن بلغت خسائره نحو ١٨ دبابة ت ٦٢ و ٦ عربات مدرعة ب. ك.

تقييم خطة تطوير الهجوم شرقا

لم يكن في الإمكان نجاح عملية تطوير الهجوم بناء على الخطة التي وضعت أو بإجراءات التنفيذ التي تمت - فلقد أجري الهجوم بالقوات المدرعة بطريقة الهجوم الموزع Piece meal إذ تم التخطيط لدفع ٤ ألوية مدرعة ولواءين مشاة ميكانيكيين على مواجهة طولها حوالي ١٥٠ كم على أربعة محاور منفصلة ليس بينها أي ترابط أو معونة متبادلة. ويكفي أن نذكر أن المحور الشمالي الذي تقدم عليه اللواء ١٥ المدرع المستقل كان يبعد عن محور الطريق الأوسط الذي تقدمت الفرقة ٢١ المدرعة جنوبه في اتجاه الطاسة بمسافة لا تقل عن ٥٠كم، كما أن محور طريق مضيق متلا في أقصى الجنوب الذي تقدم عليه اللواء ٣ المدرع من الفرقة ٤ المدرعة كان يبعد عن الطريق الأوسط بمسافة لا تقل عن ٦٠ كم. هذا

ولم يشترك في القتال الفعلي يوم ١٤ أكتوبر سوى ٤ ألوية مدرعة فقط (لواء على المحور الشمالي ولواءين جنوب الطريق الأوسط ولواء على المحور الجنوبي) إذ لم يجد قائد الفرقة ٢١ المدرعة وكذا قائد الجيش الثاني أي جدوى من دفع اللواء ١٨ المشاة الميكانيكي (النسق الثاني للفرقة) للاشتباك لتعزيز هجوم اللواءين المدرعين بالنسق الأول وفقا للخطة الموضوعة بعد توقفهما تمامًا أمام مقاومات العدو، فإن الفشل وفقا للمبادئ التكتيكية لا ينبغي تعزيزه. كما لم يقم اللواء ١١ المشاة الميكانيكي من الفرقة السابعة مشاة بالهجوم على طريق مضيق الجدي يوم ١٤ أكتوبر، كما كان مقررا بالخطة، فقد اتضح أنه قام بعملية التطوير وحده على طول الجبهة يوم ١٣ أكتوبر حسب التعليمات الأولية التي صدرت بعد ظهر يوم ١٢ أكتوبر بسبب عدم إبلاغ قائد الفرقة ٧ مشاة بتأجيل الهجوم ٢٤ ساعة - عن طريق شعبة العمليات - ولم يكن في الإمكان بعد أن عجز اللواء عن تحقيق هدفه وعاد إلى رأس كوبري الفرقة عند منتصف الليل أن يعاود الهجوم في الساعة السادسة والنصف صباحا وفقا للخطة، ولذلك تأجلت ساعة دفعه إلى الواحدة والربع ظهرا. وقبل أن يحل الموعد كان الأمر بوقف دفعه قد صدر، فظل متمركزا في مواقعه داخل رأس كوبري الفرقة ٧ مشاة.

ولقد وقعت القيادة المصرية في هذا اليوم في نفس الأخطاء التكتيكية التي وقعت فيها القيادة الإسرائيلية من قبل عندما شنت هجومها المضاد الرئيسي على مواجهة الجيش الثاني يوم ٨ أكتوبر من ناحية تجاهل المبادئ السليمة لاستخدام المدرعات والتي تقضي باستخدام القوات المدرعة بطريقة مجمعة مثل قبضة اليد، مما يعني ضرورة حشد تشكيلات ووحدات مدرعة ضخمة على مواجهة ضيقة ليتسنى لها إحداث قوة الصدمة المطلوبة واختراق المواقع الدفاعية للعدو. أما التخطيط لهجوم مدرع على طول جبهة القتال باستخدام ٤ ألوية مدرعة على محاور منفصلة ومتباعدة بعضها عن بعض بحيث لا يمكن إجراء أي تعاون بينها أو تنسيق بين هجماتها، فهذا يعني أن المعركة تعتبر فاشلة من قبل أن تبدأ.

ويبدو أن معظم القادة على مختلف المستويات قبل المعركة لم يكونوا مقتنعين بسلامة الخطة، ولم يكن لديهم الشعور بإمكان تحقيقها للأغراض التي كانت تستهدفها على عكس الشعور الحماسي الجارف الذي كان سائدا يوم ٦ أكتوبر قبل عبور قناة السويس. ويبدو أنهم كانوا يعتبرون العملية مجرد تأدية واجب لإرضاء الرئيس الذي أصدر القرار السياسي. وليس أدل على ذلك من أن بعض الوحدات (اللواء ٣ المدرع من الفرقة ٤

المدرعة واللواء المشاة الميكانيكي من الفرقة ٧ مشاة) تم دفعهما للهجوم دون أن تصلهما بعض وحدات الدعم الحيوية التي لا يمكن الاستغناء عنها، والتي أثر غيابها بلا شك على أعمال قتال هذه الوحدات بحيث عجزت عن تحقيق المهام الموكولة إليها. ويبدو ذلك أيضا في سرعة توقف الوحدات القائمة بالهجوم فور اصطدامها بمواقع دفاعية للعدو وعدم بذل محاولات جدية ومستميتة للتقدم كما كان الحال يجرى عقب اقتحام قناة السويس. كما تتضح هذه الظاهرة بجلاء في امتناع قادة التشكيلات الأعلى عن مساعدة الوحدات الفرعية المتوقفة أمام مقاومات العدو بجميع ما يملكونه من وسائل لضمان مواصلة تقدمها أو على الأقل إصدار الأمر لها بالتمسك بالمواقع التي وصلت إليها. وبدلا من ذلك نجد أن جميع الأوامر التي صدرت بعد ظهر يوم ١٤ أكتوبر للوحدات التي قامت بالتطوير هي ترك مواقعها التي وصلت إليها بعد أن تكبدت خسائر جسيمة، والعودة ثانية إلى رءوس الكباري التي بدأت منها الهجوم مما يخالف كل المبادئ المتفق عليها.

ولا شك في أنه من الأخطاء التكتيكية الجسيمة التي وقعت هو دفع الألوية المدرعة للهجوم بالمواجهة على مواقع سبق إعدادها بتجهيزات هندسية ومجهزة بمرابض للدبابات وبستائر من الصواريخ المضادة للدبابات SS II دون أن تشترك معها في الهجوم قوات من المشاة المترجلة لمعاونتها في الوصول إلى مواقع العدو باستخدام تكتيكات المشاة في الضرب بالنيران مع الحركة للأمام وبدون دعم قوي ومؤثر من المدفعية والطيران لإسكات مقاومة العدو، إذ إن ذلك لم يكن متيسرا بالنسبة لضعف المعلومات عن العدو. وكانت النتيجة كما كان متوقعا خسارة القوات المدرعة المصرية عددا من الدبابات في هجوم يوم ١٤ أكتوبر في بضع ساعات يزيد على كل ما خسرته طوال الأيام الثمانية الأولى من الحرب.

لقد كانت عملية تطوير الهجوم في التوقيت الخاطئ الذي تمت فيه وبالخطة الحربية القاصرة التي وضعت، عملية لم يكن في الإمكان نجاحها بأي صورة من الصور، وقد أجريت رغم معارضة بعض كبار القادة المسئولين، ومنهم قائدا الجيشين الثاني والثالث تنفيذا لقرار سياسي عاطفي لم يراع الاعتبارات العسكرية، وكان هدفه كما أعلن الرئيس الراحل السادات الذي كان المسئول عن إصداره تخفيف الضغط عن سوريا. ومن المؤسف أن هذه العملية الحربية التي خسرت فيها القوات المصرية خسارة كبيرة في الأرواح والأسلحة والمعدات (كانت الخسارة في الدبابات فقط حوالي ٢٥٠ دبابة) والتي تسببت في اهتزاز الروح المعنوية بين أفرادها، لم تحقق الهدف المنشود بالمرة، فلم تسحب إسرائيل

أي جزء من قواتها من جبهة سوريا إلى الجبهة المصرية، وعلى عكس ما جرى في القوات المصرية رفعت نتائج المعركة معنويات الإسرائيليين. وكما ذكر الجنرال هيرزوج في كتابه حرب التكفير: اتصل الجنرال حاييم بارليف قائد القيادة الجنوبية برئيسة الحكومة جولدا مائير عقب المعركة، وقال لها بصوته الهادئ «كان هذا يوما جيدا عادت قواتنا إلى نفسها، وكذلك عاد المصريون أيضا». ولم تكن القوات الإسرائيلية على جبهة سيناء في اليوم التاسع من الحرب في حاجة إلى قوات تأتي لنجدتها من الجبهة السورية، فقد كان متمركزا في الجبهة المصرية وقتئذ ثلاث فرق مدرعة كاملة بقيادة الجنرالات: إبراهام أدان (برن) وأريل شارون وكلمان ماجن، وقد كانت كافية لصد أي هجوم مصري خاصة إذا وضعنا في الاعتبار أن الوقفة التعبوية التي لم يكن لها داع والتي استمرت خمسة أيام على الجبهة المصرية (من يوم ٩ إلى يوم ١٣ أكتوبر) أتاحت الفرصة للقيادة الإسرائيلية الجنوبية لإعداد نفسها وقواتها لدحر أي هجوم مصري محتمل، فقد تم وصول جميع القوات الاحتياطية، وأعيد تنظيم الفرق المدرعة على أسس سليمة، وتم استعاضة وإصلاح جميع الأسلحة والمعدات التالفة والمدمرة، والأهم من ذلك أن الوقت قد أتيح لهذه القيادة والقيادات التي تتبعها لتحصين المواقع الدفاعية التي تواجه رءوس الكباري المصرية بالتجهيزات الهندسية الكافية، وتم تجهيزها بمرابض الدبابات والأسلحة المضادة للدبابات، وأعدت المدفعية خططها وحساباتها لغمر أرض القتل المحصورة بين الحدود الأمامية لرءوس الكباري المصرية وبين المواقع الإسرائيلية بنيران مركزة ومؤثرة من مدافعها الميدانية والبعيدة المدى وهاوناتها الثقيلة.

هذا وقد اتخذت القيادة الإسرائيلية قرارها بتركيز المجهود الرئيسي لإسرائيل على الجبهة المصرية اعتبارا من ١٤ أكتوبر، ليس بسبب عملية تطوير الهجوم، وإنما لأن خطتها في تصفية الجبهة السورية قد تحققت بعد أن تم استقرار هذه الجبهة يوم ١٣ أكتوبر، ولم يكن هذا القرار يعني من الناحية الواقعية نقل قوات برية من الشمال إلى الجنوب، فقد كان ذلك صعبا لاعتبارات عسكرية وإدارية عديدة، علاوة على عدم الحاجة إليه وقتئذ، وإنما كان يعني في المقام الأول نقل المجهود الرئيسي للسلاح الجوي الإسرائيلي إلى الجبهة المصرية.

هذا ويعد يوم ١٤ أكتوبر ١٩٧٣ من الأيام الحاسمة في تاريخ حرب أكتوبر. فقد أمكن للقوات الإسرائيلية عقب القضاء على عملية تطوير الهجوم انتزاع ميزة المبادأة من يد القوات المصرية التي ظلت في حوزتها منذ بداية الحرب. ومما يدل على ذلك أن الجنرال

دافيد أليعازر رئيس الأركان العامة الإسرائيلي أصدر أمره إلى القيادة الجنوبية بعد ظهر يوم ١٤ أكتوبر عقب انتهاء العمليات بالاستعداد فورا لتنفيذ عملية عبور قناة السويس من الشرق إلى الغرب من منطقة الدفرسوار في الليلة التالية (١٥/ ١٦ أكتوبر). كما أنه في الساعة السادسة والنصف من مساء هذا اليوم هبطت في مطار اللد الطائرة الأولى العملاقة من طراز جالاكسي سي ٥ من طائرات الجسر الجوي الأمريكي، فلقد كان الرئيس الأمريكي ريتشارد نيكسون قد أصدر أمره يوم ١٣ أكتوبر بإقامة جسر جوي أمريكي لإمداد إسرائيل بالأسلحة والمعدات الحربية التي تحتاج إليها بصورة علنية ومن قواعد أمريكية. واستطاع الجسر الجوي الأمريكي نقل أكثر من ٨٠٠ طن يوميا من الأسلحة والمعدات والذخائر التي تم نقل معظمها إلي الجبهة الإسرائيلية في سيناء، بعد أن كاد النشاط يتوقف على الجبهة السورية. وبدأت القوات الإسرائيلية في سيناء منذ هذا التوقيت تتلقى سيلا لا ينقطع من الأسلحة والمعدات المتطورة الأمريكية، بحيث أصبحت لا تعاني من أي عجز أو قصور في أي نوع من الأسلحة والمعدات أو الذخائر أو المهمات، بل بدأت في استخدام أسلحة ومعدات جديدة لم يسبق لها استخدامها في المرحلة السابقة من الحرب لعدم وجودها من قبل في حوزة إسرائيل مثل الصواريخ TOW المضادة للدبابات والقنابل والصواريخ التليفزيونية. كما نقلت عبر الجسر الجوي الأمريكي معدات وأجهزة إلكترونية متقدمة، ولذا وصل معها خبراء أمريكيون متخصصون في الإلكترونيات لتدريب الجنود على استخدامها. وبسبب هذه التطورات المفاجئة التي جرت يوم ١٤ أكتوبر حدث تحول خطير في مجرى الأحداث وسير الحرب، وواجهت القوات المصرية في صبر وبطولة وجلد خلال الأيام العشرة التالية من ١٥ أكتوبر حتى صدور قرار مجلس الأمن رقم ٣٤٠ في ٢٤ أكتوبر ٧٣ بإنشاء قوة طوارئ دولية مرحلة صعبة وأوقاتا عصيبة للغاية.

لماذا فشلت الفرقة ٢١ في تحقيق مهمتها ؟

لم يكن قائد الفرقة ٢١ المدرعة العميد أ. ح إبراهيم العرابي يتوقع أن يطلب منه في اليوم التاسع من القتال تطوير الهجوم بفرقته شرقا والاستيلاء على الطاسة، إذ إن معظم وحدات الفرقة كان قد تم سحبها من تحت قيادته منذ يوم ٦ أكتوبر والأيام التالية لتدعيم الفرقة ١٦ مشاة بها. لقد تم سحب اللواء المدرع ١٤ بأكمله وكتيبة دبابات من اللواء المشاة الميكانيكي، وكتائب وسرايا مضادة للدبابات وللطائرات ومدفعية صاروخية. كما وضع في معاونة الفرقة ١٦ مشاة لواء مدفعية الميدان للفرقة ٢١ وكذا كتيبة مدفعية ميدان من اللواء المشاة الميكانيكي.

وعلاوة على وحدات الدعم السابقة التي سحبت من الفرقة كان اللواء ١٨ مشاة ميكانيكي يحتل الموقع الثالث للفرقة ١٦ مشاة غرب القناة، وقد دفع كتيبة مشاة ميكانيكية منه لاحتلال المصاطب غرب القناة وكتيبة أخرى لاحتلال موقع شمال مطار فايد، ولا شك في أن سحب هذه الوحدات من الفرقة ٢١ المدرعة قد أثر على كفاءتها القتالية. ولو كان لدى القيادة العامة نية حقيقية منذ بداية الحرب لتخصيص مهمة تطوير الهجوم شرقا والاستيلاء على الطاسة للفرقة ٢١ المدرعة، لما كانت قد سمحت بسحب أي وحدات فرعية منها لتدعيم فرقة أخرى، ولكانت قد حافظت على بقاء الفرقة المدرعة كاملة بجميع وحداتها على اعتبار أنها القوة الضاربة الأساسية للجيش الثاني الميداني والتي يمكن دفعها إما لتطوير الهجوم شرقا وإما لدرء أي تهديد يقع من جانب العدو ضد الجيش الثاني سواء على الضفة الشرقية أو الضفة الغربية لقناة السويس.

وبالإضافة إلى ذلك كانت هناك عوامل عديدة أخرى أدت إلى عدم نجاح الفرقة في تحقيق المهمة التي خصصت لها، يمكن أن نلخص أهمها فيما يلي:

- كانت المعلومات عن أوضاع العدو سواء على مواجهة هجوم الفرقة أو على مستوى الجبهة وأوضاع احتياطياته القريبة والبعيدة قاصرة وغير دقيقة ويتحمل جهاز المخابرات الحربية بلا شك جانبا كبيرا من هذه المسئولية، إذ إن جلب المعلومات الدقيقة عن العدو سواء عن طريق الاستطلاع الجوي أو الأرضي أو الإلكتروني يعتبر من صميم واجباته. كما أن عناصر الاستطلاع في الجيش الثاني تشترك في جزء من هذا القصور الواضح في معرفة المعلومات الدقيقة عن العدو. وبالإضافة إلى ذلك كان من واجب الفرقة ١٦ مشاة والفرقة ٢١ المدرعة دفع دوريات استطلاع ودوريات قتال مشتركة ليلة الهجوم أمام الحد الأمامي لرأس كوبري الفرقة ١٦ مشاة لجلب معلومات دقيقة عن مواقع العدو القريبة من الدفاعات المصرية قبل بدء هجوم الفرقة ٢١ المدرعة في الصباح.
- كانت مواقع العدو في مواجهة خط الدفع للاشتباك لا تبعد أكثر من ٣ كم من الحد الأمامي لدفاعاتنا، وكانت تقع على سلسلة من المرتفعات ممتدة من جبل حبيطة جنوبا حتى كثيب عيفان شمالا، مما جعلها مسيطرة تماما على خط دفع الفرقة وعلى محور تقدمها نحو الشرق. وقد استغل العدو هذه المرتفعات لتجهيزها هندسيا وتزويدها بمرابض للدبابات وبستائر من الصواريخ المضادة للدبابات، وبذا أصبحت المنطقة المنخفضة الواقعة بين الحد الأمامي لدفاعاتنا وبين مواقع العدو منطقة قتل مثالية ضد

دبابات الفرقة ٢١ المدرعة، وكان واجب قيادة الجيش الثاني تكليف قوات خاصة من الصاعقة والمشاة بمهمة الاستيلاء على هذه المرتفعات في عملية ليلية قبل دفع الفرقة للاشتباك في الصباح. وعلاوة على ذلك أدى قرب مواقع العدو الشديد من دفاعاتنا وسيطرتها بالنيران على خطوط الدفع إلى تعرض الألوية المدرعة لنيران العدو فور دفعها من خطوط الدفع للاشتباك، واضطرارها إلى خوض المعركة مع مواقع العدو جبهويًا، مما أفقدها أهم مميزات القوات المدرعة وهي خفة الحركة والقدرة على المناورة والقيام بحركات الالتفاف والتطويق.

- كان اختيار القيادة العامة توقيت الدفع ليكون الساعة السادسة والنصف صباحا غلطة لا تغتفر. ففي حين تم اختيار الساعة الثانية ظهرا موعدا لبدء الهجوم يوم ٦ أكتوبر حتى تكون الشمس في أعين العدو كان توقيت الهجوم في الساعة السادسة والنصف صباحا يعني أننا سلمنا هذه الميزة للقوات الإسرائيلية باختيارنا، وعرضنا قواتنا في نفس الوقت لمشقة كبرى وهي التقدم والشمس في أعينهم مما جعل من الصعب عليهم أن يحددوا مواقع العدو التي تواجه تقدمهم بدقة، وأدى إلى عدم إمكان التنشين الدقيق لأطقم المدافع من داخل الدبابات لتدمير الأهداف المعادية. وفي نفس الوقت لم يحسب حساب الشابورة الصباحية التي تتكاثف في الأرض المنخفضة شرق القناة في هذا الوقت من السنة والتي تؤدي إلى صعوبة بالغة في المحافظة على الاتجاه.

- كان من السهل على العدو اكتشاف نوايانا لتطوير الهجوم شرقا وإعداد قواته تبعا لذلك لاستقبال الهجوم المنتظر. ولم يكن الأمر يحتاج إلى مهارة خاصة من مخابرات العدو أو من عناصر استطلاعه الأرضية والجوية، فإن الألوية المدرعة والميكانيكية التي تقرر قيامها بالهجوم ووحدات الدعم التي ألحقت عليها وكذا كتائب الصواريخ سام ٢ وسام ٣ التي تقرر دفعها شرق القناة للوقاية الجوية عبرت معظمها قناة السويس ليلة ١٢/ ١٣ أكتوبر من معابر الفرق التي سيجرى دفعها من خلالها، واستكملت الوحدات الأخرى عبورها ليلة ١٣/ ١٤ أكتوبر. وقد اتضح أن طيران العدو تعمد عدم التدخل في عملية عبور هذه القوات بمهاجمتها أو محاولة تدمير الكباري التي تستخدمها إذ إن مصلحة إسرائيل كانت تتفق مع إخلاء الضفة الغربية من القوات المدرعة تمهيدا لتنفيذ عملية عبور القناة إلى الغرب السابق تجهيزها من منطقة الدفرسوار. ولقد سبق أن أوضحنا أن نقطة الخلاف في القيادة الإسرائيلية كانت تنحصر في هل يتم عبور القوات الإسرائيلية قناة السويس لتدمير القوات المدرعة المصرية أو الانتظار حتى تعبر هذه القوات لتدور

المعركة معها شرق القناة؟ وحينما علموا ليلة ١٢/ ١٣ أن قواتنا بدأت العبور قرروا أن تكون المعركة الرئيسية لهم شرق القناة، فتركوا القوات المدرعة المصرية تعبر في سلام ليستدرجوها بعد ذلك إلى مناطق القتل التي أعدوها بعناية.

- لا يمكن من الناحية التكتيكية خوض غمار معركة ناجحة بدون إجراءات تنظيم معركة سليمة. ونظرا لأن القرار بتطوير الهجوم شرقا كان قرارا فجائيا دون سابق تمهيد أو إنذار، فقد كان من المستحيل أن يبدأ الهجوم في الموعد الذي جرى تحديده في بادئ الأمر وهو صباح يوم ١٣ أكتوبر. وعندما نجح قائدا الجيشين الثاني والثالث خلال المؤتمر الذي انعقد في المركز ١٠ مساء يوم ١٢ أكتوبر في تأجيله لمدة ٢٤ ساعة لكي يبدأ صباح يوم ١٤ أكتوبر، كان الوقت لا يزال ضيقا ولم يسمح للقادة على مختلف المستويات بالقيام بإجراءات تنظيم المعركة على الوجه السليم، وترتب على ذلك عدم قيام هؤلاء القادة بإجراء عملية استطلاعهم على الأرض لاتخاذ قرارهم وتخصيص المهام للقادة المرءوسين. وقد كان أمرا موسفا ألا تتاح الفرصة لقائدي اللواءين المدرعين في الفرقة ٢١ المدرعة، بسبب ضيق الوقت، للقيام باستطلاعهما إلا قبل آخر ضوء بنصف ساعة، كما لم يتمكن قادة الكتائب والسرايا المدرعة من رؤية الأرض التي سوف يخترقونها بوحداتهم في صباح اليوم التالي مما حرمهم من ميزة استطلاع مواقع العدوالذي سيواجهونه واختيار أنسب الطرق لتقدم دباباتهم. وقد اضطر قائد الفرقة ٢١ المدرعة إلى تخصيص المهمة لقائد اللواء ١٨ المشاة الميكانيكي في الساعة الرابعة صباحا يوم ١٤ أكتوبر أي قبل ساعتين ونصف الساعة من بدء المعركة، وبالإضافة إلى ذلك لم يتوافر الوقت الكافي لاتخاذ الإجراءات اللازمة لتأمين دفع القوات من خط الدفع للاشتباك مثل تعليم المحاور وخطوط الفتح وتحديد الثغرات في حقول الألغام، خاصة أن خطوط الدفع كانت تبعد حوالي ٧ كم من مناطق الانتظار الأمامية التي تمركزت فيها القوات عقب عبورها قناة السويس. وقد أدى إغفال القيام بهذه الترتيبات الضرورية نظرا لضيق الوقت إلى وقوع بعض الحوادث الفردية المؤسفة كإطلاق بعض الدبابات من الفرقة ٢١ المدرعة نيرانها على مواقع في الحد الأمامي للفرقة ١٦ مشاة اعتقادا منها أنها قد خرجت من رأس كوبري الفرقة وأن المواقع التي أمامها هي مواقع إسرائيلية، وهذا الخطأ يعد من الحوادث الشائعة في الحروب.

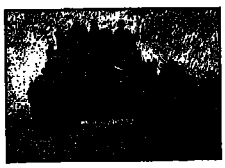
- كان التطوير حسب الخطة الأصلية جرانيت ٢ المعدلة يقضي بدفع الفرقة ٢١ المدرعة والفرقة ١٦ مشاة عدا لواء من رأس كوبري الفرقة ١٦ مشاة جنوب الطريق الأوسط،

وبدفع الفرقة ٢٣ مشاة ميكانيكية والفرقة ٢ مشاة عدا لواء من رأس كوبري الفرقة ٢ مشاة شمال الطريق الأوسط. وبعد أن تم تعديل خطة التطوير في قطاعي الفرقتين ٢ و ١٦ مشاة ليقتصر التطوير على الفرقة ٢١ المدرعة كان من الأفضل إجراء بعض التعديلات على الخطة لكي يتم دفع لواء مدرع شمال الطريق الأوسط ودفع اللواء المدرع الآخر جنوب هذا الطريق، إذ إن هذا الأسلوب يحقق المزايا التالية:

١ - توزيع وحدات الفرقة ٢١ المدرعة على رأس كوبريين (الفرقة ١٦ والفرقة ٢ مشاة) بدلا من تكديس قوات الفرقتين ١٦ مشاة و ٢١ المدرعة في رأس كوبري واحد ضيق، مما جعل ضرب طيران العدو ومدفعيته شديد التأثير وأدى إلى زيادة الخسائر.

٢ - تخفيف الضغط على معابر الفرقة ١٦ مشاة التي تركز عليها عبور أعداد كبيرة من الوحدات والأرتال الإدارية.

٣ - زيادة القدرة على المناورة بالهجوم من اتجاهين مختلفين، وتقليل الخسائر الناشئة من تركيز ضرب الطيران والمدفعية على القوات القائمة بالهجوم من اتجاه واحد.



ملحق صور الفصل الرابع



فريق أول أحمد إسماعيل علي

وزير الحربية والقائد العام للقوات المسلحة.



فريق سعد الدين الشاذلي

رئيس أركان حرب القوات المسلحة.



عميد محمد نبيه السيد

رئيس عمليات الجيش الثالث.



عميد محمد عبد العزيز قابيل

قائد الفرقة ٤ المدرعة.



عقيد نور الدين عبد العزيز

قائد اللواء ٣ المدرع (الفرقة ٤ المدرعة).



عميد محمد أبو الفتح محرم

قائد الفرقة ٦ مشاة ميكانيكية.



عقيد فاروق الصياد

قائد اللواء ١١ مشاة ميكانيكي.



عميد إبراهيم العرابي

قائد الفرقة ٢١ المدرعة.



عقيد السيد توفيق أبو شادي

قائد اللواء الأول المدرع (الفرقة ٢١ المدرعة).



عقيد تحسين شنن

قائد اللواء ١٥ المدرع.



الجنرال يسرائيل تال

نائب رئيس الأركان العامة.



الجنرال حاييم بارليف

الممثل الشخصي لرئيس الأركان في القيادة الجنوبية.



الجنرال ألبرت ماندلر

قائد الفرقة المدرعة بالقطاع الجنوبي من سيناء (قتل في ١٣ أكتوبر ٧٣).



الجنرال كلمان ماجن

تولى قيادة القطاع الجنوبي بعد مصرع الجنرال ماندلر.



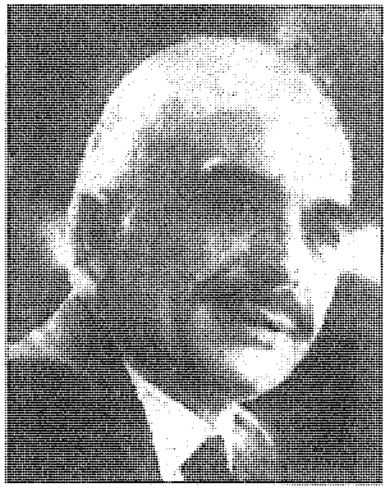
الرئيس محمد أنور السادات

أصدر القرار السياسي بتطوير الهجوم شرقا لتخفيف الضغط عن سوريا.



الرئيس السوري حافظ الأسد

طالب الرئيس السادات بأن تتقدم القوات المصرية إلى خط المضايق لتخفيف الضغط عن سوريا.



الملك حسين ملك الأردن

اشترط لدخول الحرب وصول القوات المصرية إلى خط المضايق ووصول القوات السورية إلى نهر الأردن.



لواء مصطفى طلاس

وزير الدفاع السوري.



لواء بهي الدين نوفل

رئيس عمليات القيادة الاتحادية - يعرض رسالة عاجلة وردت من القيادة السورية تطلب فيها من القيادة المصرية التقدم المصري إلى المضايق لتخفيف الضغط عن سوريا.



الفصل الخامس

العبور الإسرائيلي إلى غرب القناة

كانت الاستعدادات الإسرائيلية لعبور قناة السويس قد بدأت منذ مساء الخميس ١١ أكتوبر. ففي خلال المؤتمر الذي انعقد في المركز المتقدم للقيادة الجنوبية برئاسة الجنرال حاييم بارليف وحضره قادة الفرق المدرعة الثلاث ورؤساء أفرع القيادة، تم الاتفاق على اقتراح الجنرال جونين باختيار منطقة الدفرسوار (مكان دخول قناة السويس إلى البحيرة المرة الكبرى) لتكون مكانا للعبور إلى الضفة الغربية للقناة نظرا لما يحققه هذا الموقع من مزايا عديدة. وفي يوم الجمعة ١٢ أكتوبر وفي الوقت الذي انهمك فيه الجنرال جونين ورؤساء أفرع القيادة الجنوبية في وضع التفصيلات الدقيقة لخطة العبور، انتقل الجنرال حاييم بارليف بطائرة هليكوبتر إلى تل أبيب للحصول على تصديق رئاسة الأركان العامة على الخطوط الرئيسية للخطة. ونظرا لحدوث خلافات في وجهات النظر بين كبار القادة العسكريين ولتردد وزير الدفاع موشى ديان طلب رئيس الأركان دعوة مجلس الحرب للاجتماع. وخلال اجتماع المجلس الذي رأسته جولدا مائير رئيسة الوزراء واجهت خطة العبور معارضة حادة من بعض الوزراء وبعض القادة العسكريين وبخاصة الجنرال تال نائب رئيس الأركان، فقد كانوا يقدرون خطورة القيام بعملية العبور الإسرائيلية إلى الغرب في وجود فرقتين مدرعتين مصريتين وفرقتين مشاة ميكانيكيتين ومجموعات من الصاعقة بمجموع من الدبابات يصل إلى حوالي ٤٠٠ دبابة تتمركز كلها على الضفة الغربية لقناة السويس. وعندما بلغ الحاضرين خلال الاجتماع النبأ المثير وهو بدء عبور القوات المدرعة المصرية إلى شرق القناة تم الاتفاق على تأجيل اتخاذ القرار النهائي إلى حين أن تقوم القيادة الجنوبية بصد الهجوم المصري المنتظر أولا.

وفي يوم السبت ١٢ أكتوبر صدرت أوامر القيادة الجنوبية بتجميع جميع معدات العبور الموجودة في أماكن مختلفة في سيناء في القطاع الأوسط الذي يتولى قيادته الجنرال

شارون، وكلف المهندسون بتركيب أجزاء الجسر الذي سيتم إلقاؤه في قناة السويس عند منطقة العبور ليربط بين الشاطئين، وخصصت كتيبة مدرعة من لواء حاييم (من فرقة شارون) للتدريب على المهمة التي ستقوم بها دباباتها عند إصدار قرار العبور، وهي جر هذا الجسر السابق التركيب من يوكون إلى إتجاه نقطة العبور بالدفرسوار (تقع يوكون في منتصف المسافة بين الطاسة والطريق العرضي ٢).

وعلى أثر فشل المصريين في عملية تطوير الهجوم يوم الأحد ١٤ أكتوبر أصدر الجنرال دافيد أليعازر رئيس الأركان العامة الإسرائيلي أمراً إلى القيادة الجنوبية بالاستعداد لتنفيذ عملية عبور قناة السويس ـ وفقا للخطة الموضوعة ـ ليلة ١٥ / ١٦ أكتوبر. وفي مساء يوم ١٤ أكتوبر، حضر الجنرال أليعازر اجتماعا للحكومة الإسرائيلية في تل أبيب حيث قام بشرح الخطة العامة لعبور القناة إلى الضفة الغربية في منطقة الدفرسوار، وعرض المكاسب الكبيرة التي ستجنيها إسرائيل بعد نجاح العبور من الناحيتين العسكرية والسياسية، وفي نفس الوقت الانهيار المتوقع حدوثه في القوات المصرية شرق القناة عندما يرون القوات الإسرائيلية تعمل على خطوط مؤخرتهم غرب القناة. وانتهى الاجتماع بعد مناقشات طويلة اشترك فيها معظم الوزراء بالتصديق على قرار العبور. وفي الساعة الحادية عشرة مساء يوم ١٤ أكتوبر، عقد اجتماع بغرفة عمليات القيادة الجنوبية برئاسة الجنرال حاييم بارليف حضره الجنرال جونين ونائبه يوري بن آري وقادة الفرق المدرعة الثلاث ورؤساء أفرع القيادة الجنوبية. وكان الغرض من الاجتماع إصدار الأوامر التفصيلية لقادة الفرق لتنفيذ خطة عبور قناة السويس من الشرق إلى الغرب عند منطقة الدفرسوار ليلة ١٥ / ١٦ أكتوبر ٧٣. وقد أطلق على هذه الخطة الاسم العبري Abiray Lev وترجمته الصحيحة باللغة العربية هي (القلب الشجاع). أما الاسم الكودي الغزالة Gazelle الذي اقترن بهذه العملية وأصبح علما عليها فيرجع إلى خطأ في الترجمة من اللغة العبرية إلى الإنجليزية وقع فيه أحد مراسلي وكالات الأنباء الغربية. وشاع هذا الاسم الخاطئ بعد ذلك في كل مكان حتى أصبح يتردد في مؤلفات معظم المؤرخين والمحللين العسكريين.

وكانت الخطوط العامة لخطة العبور الإسرائيلية تتخلص فيما يلي:

- فرقة الجنرال شارون. وكان يطلق عليها اسم مجموعة العمليات رقم ١٤٣، وكانت تتكون من ٣ ألوية مدرعة (٣٠٠ دبابة) بقيادة العقداء آمنون ريشيف وتوفيا رافيف وحاييم آريز. وتم إلحاق لواء مظلات عليها من أجل عملية العبور بقيادة العقيد داني مات. وكان لواء المظلات متمركزا من قبل في الاحتياط عند منطقة ممر متلا ويتبع

القطاع الجنوبي الذي يتولى الجنرال كلمان ماجن قيادته. وقد أسندت إلى فرقة شارون المهام الآتية:

١ ـ إنشاء رأس الكوبري: تقوم الفرقة بإنشاء رأس كوبري على ضفتي قناة السويس ليلة ١٥ / ١٦ أكتوبر في منطقة الدفرسوار، كما أن من واجبها إقامة جسرين على قناة السويس أحدهما سابق التركيب Preconstructed، والثاني من المعديات التي توصل بعضها ببعض، على أن يكون أحدهما على الأقل جاهزا للاستخدام صباح يوم ١٦ أكتوبر. ويجري العبور في ساعة س بواسطة لواء المظلات في قوارب مطاطية منفوخة، وتعبر مع اللواء على معديات متحركة سرية الدبابات التي تم تدعيمه بها، كما تقوم كتيبة مدرعة تابعة للواء حاييم بعبور القناة على معديات متحركة خلف لواء المظلات مباشرة وقبل إنشاء الجسرين الثابتين.

٢ ـ مهمة التأمين شرق القناة: نظراً لأن الجناح الأيسر لرأس الكوبري مؤمَّن بالبحيرة المرة الكبرى لذلك يصير تأمين الجناح الأيمن شرقا لمسافة ٤ كم من خط المياه وشمالا ٤ كم من نقطة العبور عند الدفرسوار، أي حتى المنطقة شمال المزرعة الصينية (قرية الجلاء)، وفي نفس الوقت يتم تطهير المحورين الرئيسيين اللذين ستتحرك عليهما القوات والمعدات المخصصة للعبور وهما:

المحور الأول: محور أكافيش، وهو الذي نطلق عليه نحن طريق الطاسة تل سلام (تل سلام هو إحدى نقاط خط بارليف الحصينة، وكان الإسرائيليون يطلقون عليها اسم لاكيكان)، وتقع على الشاطئ الشرقي للبحيرة المرة الكبرى على بعد حوالي ٦ كم جنوب شرق الدفرسوار، وقد أخلتها حاميتها الإسرائيلية دون قتال مساء يوم ٨ أكتوبر. وتم للواء ١٦ مشاة (لواء الجنب الأيمن للفرقة ١٦ مشاة) دفع دورية استطلاع مساء يوم ١٢ أكتوبر، وقد قامت بتفتيش النقطة فوجدتها خالية وعادت ومعها علم إسرائيلي بعد أن رفعت العلم المصري عليها. ورغم أهمية هذا الموقع الحيوي فلم تصدر أي أوامر باحتلاله لوقوعه في الثغرة التي تركتها القيادة العامة خالية بين الجيشين الثاني والثالث والتي تبلغ نحو ٣٥ كم اعتمادا على تفكير تكتيكي خاطئ، وهو أن المسطح المائي للبحيرات المرة يعتبر مانعا طبيعيا لايمكن للعدو اجتيازه. وقد أعاد الإسرائيليون احتلال النقطة الحصينة في تل سلام يوم ١٥ أكتوبر، واعتمدوا عليها اعتمادا تاما في حماية وتأمين الجناح الأيسر لمعبرهم عند الدفرسوار.

المحور الثاني: محور طرطور وهو طريق قام الإسرائيليون بشقه وتمهيده قبل

الحرب، ويمتد من الطريق العرضي رقم ٢ إلى النقطة الحصينة بالدفرسوار، وهي إحدى حصون خط بارليف (كانت النقطة تتكون من موقعين محصنين على شاطئ القناة بينهما فاصل يبلغ نحو ٥٠٠ متر، وكان الإسرائيليون يطلقون عليها اسم متسميد) وقد قامت باقتحامها والاستيلاء عليها مفرزة اقتحام من إحدى كتائب اللواء ١٦ مشاة في الساعة السادسة صباحا يوم ٩ أكتوبر. وقد أنشئ طريق طرطور خصيصا لتحرك الكباري الضخمة والمعديات إلى نقطة العبور في الدفرسوار باعتبارها إحدى النقاط الملائمة التي تم للقيادة الجنوبية اختيارها قبل الحرب على خط المواجهة مع مصر في حالة التفكير في عبور إسرائيلي إلى غرب القناة. ونظرا لأن قطاع اللواء ١٦ مشاة كان يشرف بالنظر وبالنيران على أجزاء عديدة من محوري أكافيش وطرطور، كما يخترق الجزء الأخير من محور طرطور الدفاعات الأمامية لهذا اللواء لذلك كان أحد الأهداف الرئيسية لخطة تأمين معبر الدفرسوار وتطهير محوري التقدم «أكافيش وطرطور» هو تدمير اللواء ١٦ مشاة واحتلال مواقعه الدفاعية أو على الأقل زحزحته شمالا حوالي خمسة كيلو مترات ليتم إخلاء المنطقة حتى شمال قرية الجلاء من القوات المصرية (حتى المغذى الرئيسي).

مهمة التأمين غرب القناة: يقوم لواء المظلات معززا بكتيبة الدبابات من لواء حاييم بتوسيع رأس الكوبري غرب القناة في اتجاه الغرب حتى ترعة المياه الحلوة (ترعة السويس) كما يقوم بتوسيعه ٤ كم شمال وجنوب نقطة الإنزال حتى يصبح المعبر خارج مرمى الهاونات والصواريخ المضادة للدبابات.

- فرقة الجنرال إبراهام أدان (برن) التي كان يطلق عليها اسم مجموعة العمليات رقم ١٦٢ وكانت تتكون من ٣ ألوية مدرعة (٣٠٠ دبابة). وفي وقت مبكر يوم ١٥ أكتوبر تم سحب هذه الفرقة من منطقة عملها في القطاع الشمالي وتحركت على الطريق العرضي رقم ٣ إلى منطقة تجمع جنوب الطاسة. وعلى أثر تحرك فرقة برن إلى الجنوب وتركها لخطها الدفاعي تولت قوة القطاع الساحلي بقيادة العميد ساسون مسئولية القطاع الشمالي بأكمله، وأصبحت مسئولية خط المواجهة مع القوات المصرية مقسمة ما بين قوة ساسون في الشمال وفرقة كلمان ماجن في الجنوب، وتم ذلك على أثر إسناد مسئولية عملية العبور إلى فرقتي شارون وبرن. وكانت المهمة التي خصصت لفرقة الجنرال إبراهام أدان (برن) هي العبور صباح يوم ١٦ أكتوبر على الجسرين اللذين كلفت فرقة شارون بمهمة تركيبهما على القناة ليلة ١٥ / ١٦

أكتوبر. ووفقا للخطة كان على ألوية الفرقة المدرعة الثلاثة بمجرد الوصول إلى الشاطئ الغربي للقناة القيام باختراق الحاجز الزراعي وتدمير القوات المصرية بالمنطقة الواقعة بين ترعة الإسماعيلية شمالا وقناة السويس شرقا وإلى مدى ٢٠ كم من خط المياه غربا وجبل عتاقة جنوبا، وتطهير الضفة الغربية للقناة والبحيرة المرة. وكان على فرقة برن بعد ذلك تحقيق واجبين أساسيين: أولهما تدمير كتائب الصواريخ المصرية سام المضادة للطائرات في هذه المنطقة لإتاحة الفرصة للطيران الإسرائيلي للحصول على السيطرة الجوية فوق ميدان القتال. وكان الواجب الثاني هو تطوير الهجوم نحو الجنوب بحذاء قناة السويس واحتلال مدينة السويس، وبذا يتم عزل الجيش الثالث الميداني المتمركز شرق القناة عن خطوط مواصلاته تمهيدا لحصاره وتدميره.

- فرقة كلمان ماجن التي كان يطلق عليها اسم مجموعة العمليات رقم ٢٥٢، وتتكون من لواءين مدرعين ولواء مشاة ميكانيكي، وكان واجبها في المرحلة الأولى الاشتراك مع قوة ساسون في الشمال في شن هجمات قوية ومستمرة بالدبابات والمشاة الميكانيكية على طول المواجهة لتثبيت القوات المصرية في مواقعها الدفاعية وشغلها عما يجرى في منطقة الدفرسوار، وبمجرد أن تنجح قوات الجنرال شارون في إقامة الجسرين على القناة وتأمين ممر العبور عند الدفرسوار الذي يبلغ ٤ كم شمالا وجنوبا وشرقا من موضع الجسرين، تحل محل فرقة شارون في المحافظة على سلامة وتأمين المعبر وبقائه مفتوحا إلى الشرق. ووفقا للخطة كان على فرقة شارون بعد إخلائها من مهمتها العبور بعد ذلك إلى الشاطئ الغربي للقناة، والتحرك فى اتجاه الجنوب لحماية مؤخرة فرقة أدان والاشتراك معه في تنفيذ المهام المسندة إلى فرقته.

ولكن خطة العبور التي وضعت بمعرفة القيادة الجنوبية لم يتم تنفيذها وفقا للمهام التي خصصت أو بالمراحل التي حددت. فقد أثبتت الوقائع أن الخطة قد صيغت في جو من التفاؤل المفرط، وعلى افتراض أن كل الأمور سوف تمضي بسهولة ويسر ودون أي عقبات أو صعاب، وأن المقاومة المصرية على الشاطئ الشرقي للقناة ستكون ضعيفة بما يسمح بتأمين منطقة العبور وفتح محوري التقدم (أكافيش وطرطور) وتركيب الجسرين على القناة في المواعيد المحددة، كما أن تطهير الضفة الغربية للقناة من حد ترعة الإسماعيلية شمالا واحتلال مدينة السويس جنوبا لن يتعدى يوم ١٨ أكتوبر. وقد اختلف الأمر تماما عند القيام بالتنفيذ الفعلي للخطة. فكما سوف نرى حدثت تعديلات كبيرة في الخطة وبلغت الصعاب والمشكلات إلى الحد الذي جعل القادة الإسرائيليين المسئولين في مساء يوم ١٦ أكتوبر يفكرون جديا

في إلغاء العملية بأسرها وإصدار الأمر إلى قوات المظلات والمدرعات التي عبرت بالعودة مرة ثانية إلى الشاطئ الشرقي.

خطة شارون للعبور من الدفرسوار

من دراستنا لخطة العبور الإسرائيلي إلى غرب القناة، يتضح لنا أن العبء الرئيسي لعملية العبور قد ألقى على عاتق الجنرال أريل شارون. فقد أسندت إلى فرقته أخطر مهمتين في العملية بأسرها، وهما إقامة رأس كوبري على ضفتي القناة في منطقة الدفرسوار، ثم القيام بمهمة تأمينه سواء على الشاطئ الشرقي للقناة أو على شاطئها الغربي. وكان تأمين الشاطئ الشرقي يستدعي تطهير المحورين الرئيسيين اللذين ستتحرك عليهما القوات والمعدات المخصصة للعبور، وهما محور أكافيش (طريق الطاسة تل سلام) ومحور طرطور، وهو طريق شقه ومهده الإسرائيليون قبل الحرب ليربط بين الطريق العرضي رقم ٢ ونقطتهم الحصينة في الدفرسوار.

وكانت هذه المهمة تستلزم أن تكون المنطقة شمال نقطة الدفرسوار ـ التي تم اختيارها لتكون نقطة العبور إلى الغرب ـ خالية من القوات المصرية إلى مسافة لا تقل عن ٥ كم شمالا لتأمين معبر الدفرسوار من نيران الأسلحة الصغيرة والهاونات والصواريخ المضادة للدبابات. هذا بالإضافة إلى أن مواقع اللواء الأيمن للفرقة ١٦ مشاة كانت تسيطر بالنيران على أجزاء عديدة من محوري التقدم، كما أن الجزء الأخير من طريق طرطور الدفرسوار كان يخترق الدفاعات الأمامية لقطاع اللواء ١٦ مشاة (اللواء اليمين للفرقة ١٦)، ولتحقيق ذلك الغرض اضطرت قوات شارون المدرعة إلى خوض أعنف اشتباكات دموية شهدتها هذه المرحلة من الحرب مع القوات المصرية التي كانت متمركزة في قطاع هذا اللواء، ومع قوات من الفرقة ٢١ المدرعة فيما عرف باسم معركة المزرعة الصينية (قرية الجلاء)، التي اعترف الإسرائيليون بأنها كانت من أشرس المعارك التي خاضوها خلال الحرب، وأن خسائرهم فيها كانت فادحة، كما سيرد بالتفصيل عند شرحنا لهذه المعارك. وعلاوة على مهمة تأمين المعبر شرق القناة كان من واجب شارون أيضا تأمين نقطة الإنزال غرب القناة بتقدم قواته غربا للاستيلاء على المعابر التي على ترعة المياه الحلوة وتوسيع رأس الكوبري ٤ كم شمالا وجنوبا.

وكان الحلم الذي طالما داعب خيال الجنرال شارون منذ بداية الحرب، هو تنفيذ المشروع الذي وضعه منذ كان قائدا للقيادة الجنوبية، وهو عبور القوات الإسرائيلية قناة السويس

إلى الغرب. وقد بذل محاولات عديدة في المرحلة الأولى من الحرب لإقناع رئيس الأركان العامة ووزير الدفاع بتنفيذ هذا المشروع الذي كان يرى أنه الطريق الوحيدة أمام الجيش الإسرائيلي لانتزاع المبادأة من المصريين واستعادة حرية الحركة والقدرة على المناورة بعد أن أصبح مكبلا بأغلال الحرب الثابتة التي فرضها عليه المصريون بعد أن تم تخندقهم واستقرارهم في تحصيناتهم المنيعة داخل رءوس الكباري شرق القناة. وعندما بدأت العجلة تدور للإعداد لخطة العبور وبدأت الجسور والمعديات ومعدات العبور تتجمع في القطاع الأوسط الذي يتولى شارون قيادته بناء على أوامر القيادة الجنوبية يوم ١٣ أكتوبر، أصبح شارون يتطلع في لهفة إلى اللحظة التي ستبدأ فيها عملية العبور التي عقد عليها كل آماله. وفي الاجتماع الذي عقد بمقر القيادة الجنوبية في الساعة الحادية عشرة مساء يوم ١٤ أكتوبر، تلقى الجنرال شارون الأوامر التفصيلية بشأن المهمة التي أسندت إلى فرقته ضمن الخطة العامة للعبور.

وعقب اجتماعه مع مساعديه في مركز قيادته المتقدم في الطاسة، وضع شارون الخطة الخاصة بفرقته، وكانت تتلخص فيما يلي:

١ ـ اللواء المدرع بقيادة توفيا: يقوم في الساعة الخامسة مساء يوم الاثنين ١٥ أكتوبر بهجمات خداعية بكتائبه المدرعة على وسط ويسار رأس كوبري الفرقة ١٦ مشاة لتثبيت المواقع المصرية من جهة، ولجذب انتباه الفرقتين ١٦ مشاة و٢١ المدرعة إلى اتجاه الطريق الأوسط (الطاسة ـ الإسماعيلية شرق) من جهة أخرى. وفي نفس الوقت لتحويل أنظار المصريين عن موقع العبور في الدفرسوار جنوب رأس كوبري الفرقة ١٦ مشاة.

٢ ـ اللواء المدرع بقيادة آمنون: نظرا لضخامة مسئولية هذا اللواء في خطة العبور، فقد تم تعزيزه بكتيبة مدرعة من لواء توفيا وبكتيبتين مشاة ميكانيكيتين لتصبح قوته ٤ كتائب مدرعة و٣ كتائب مشاة ميكانيكية، علاوة على كتيبة استطلاع الفرقة. ويقوم هذا اللواء في الساعة السادسة مساء يوم ١٥ أكتوبر بحركة التفاف جنوب طريق أكافيش (الطاسة تل سلام) عبر التلال الرملية للوصول إلى الحصن المهجور لاكيكان (تل سلام) على شاطئ البحيرة المرة الكبرى وعلى بعد حوالي ٦ كم جنوب شرق الدفرسوار، ويتقدم اللواء بعد ذلك شمالا بحذاء شاطئ البحيرة للاستيلاء على حصن متسميد (الدفرسوار) الذي كان أيضا خاليا من القوات المصرية ويتم التسلل إليه من الثغرة التي بين الحد الأيمن لدفاعات اللواء ١٦ مشاة وبين قناة السويس.

وفور الوصول إلى نقطة العبور في الدفرسوار، تنقسم قوة آمنون إلى ثلاث مجموعات:

- كتيبة مدرعة تتجه نحو الشمال الشرقي على طريق أكافيش لتطهيره من أي قوات مصرية وتأمين هذا الطريق لتقدم لواء المظلات بقيادة داني مات عند تحركه من الطاسة إلى الدفرسوار.

- مجموعة من ٣ كتائب مدرعة بقيادة العقيد آمنون تقوم بتطهير طريق طرطور ومهاجمة الجنب الأيمن للجيش الثاني (اللواء ١٦ مشاة) وإرغامه على الارتداد شمالا لتوسيع ممر العبور والاستيلاء على المزرعة الصينية (قرية الجلاء) وتحويل أنظار القيادات المصرية عن عملية عبور القناة التي تجرى في جنوب رأس كوبري الفرقة ١٦ مشاة.

- مجموعة من ٣ كتائب مشاة ميكانيكية فى عربات نصف جنزير فى الاحتياطي بالقرب من معبر الدفرسوار.

- كتيبة استطلاع الفرقة تتولى تأمين الساحة Yard التي تحيط بمنطقة العبور إلى حين وصول لواء المظلات.

- مجموعة من ٣ كتائب مشاة ميكانيكية في عربات نصف جنزير في الاحتياطي بالقرب من معبر الدفرسوار.

وبعد نجاح لواء آمنون في تحقيق المهام الموكولة إليه، يعبر اللواء إلى الضفة الغربية على الكباري التي سيتم تركيبها ويسلم مهمة تأمين رأس الكوبري شرق القناة إلى لواء توفيا..

٣ ـ اللواء المدرع بقيادة حاييم: تقوم كتيبة مدرعة من هذا اللواء بجر أجزاء الكباري (الكوبري السابق التجهيز وكوبري المعديات) من يوكون إلى الدفرسوار. وعقب عبور لواء المظلات قناة السويس في القوارب المطاطية تعبر خلفه مباشرة إلى الضفة الغربية كتيبة مدرعة من هذا اللواء على معديات متحركة..

٤ ـ لواء المظلات بقيادة العقيد داني مات: يتقدم هذا اللواء وهو معزز بسرية دبابات على طريق أكافيش وتتولى فتح هذا الطريق أمامه كتيبة مدرعة من لواء آمنون. وعند اقترابه من القناة يتحرك غربا خارج الطريق ويتجه إلى حصن متسميد (الدفرسوار)، ويقوم اللواء بعد ذلك بعبور قناة السويس إلى الضفة الغربية في القوارب المطاطية التي ستسلم له..

عبور لواء المظلات إلى الضفة الغربية

كان لواء المظلات متجمعا في الاحتياطي في منطقة ممر متلا التابعة للقطاع الجنوبي من الجبهة، وفي الساعة السادسة صباحا يوم ١٥ أكتوبر استدعى العقيد داني مات قائد اللواء إلى مقر قيادة الجنرال شارون المتقدم في الطاسة حيث تلقى التعليمات الخاصة بعبور لواء المظلات إلى الضفة الغربية للقناة ليلة ١٥ / ١٦ أكتوبر. وكانت النقطة المهمة أن وحدات هذا اللواء وفقا للخطة العامة الإسرائيلية لعبور القناة إلى الغرب أصبحت هي الوحدات الإسرائيلية الأولى التي ستضع أقدامها عقب عبور القناة على الأراضي المصرية. وبعد أن عاد العقيد داني إلى منطقة تمركز اللواء في منطقة ممر متلا، أصدر أمره إلى وحدات اللواء بالاستعداد للتحرك، ثم وضع خطته التفصيلية لتحقيق المهمة التي كلف بها اللواء، وكانت تتلخص فيما يلي:

تتولى سرية استطلاع اللواء وسرية المهندسين تحت قيادة قائد ثاني اللواء المقدم أريك قيادة عملية العبور لإقامة رأس كوبري على الضفة الغربية للقناة، وتعيّن نائب قائد اللواء ليكون قائدا لساحة العبور في الدفرسوار، وهذه الساحة التي تبلغ مساحتها ٧٠٠متر × ١٥٠ مترا سبق إعدادها بأوامر الجنرال شارون، حينما كان قائدا للقيادة الجنوبية، وهي محاطة بجدران رملية للوقاية، وتقع في منتصفها على شاطئ القناة النقطة المحددة للعبور، وكانت داخل الساحة مواقع يمكن اتخاذها قاعدة للنيران لشغل قوات العدو على الشاطئ الآخر للقناة. .

وفور احتلال أول موطئ قدم على الشاطئ الغربي للقناة، تعبر كتيبة من اللواء بقيادة المقدم دان، وتقوم بتوسيع رأس الكوبري في اتجاه الجنوب، بينما تقوم كتيبة أخرى من اللواء بقيادة المقدم زفي بتوسيعه في اتجاه الشمال. وتقوم القوات التي عبرت باحتلال المعابر على ترعة المياه الحلوة (ترعة السويس) التي تقع على بعد حوالي ٢ إلى ٣ كم غرب القناة، ويراعى ألا يقل عرض رأس الكوبري عن ٤ كم في اتجاهي الشمال والجنوب.

وفي الساعة الواحدة ظهرا، عرض العقيد داني مات خطته علي الجنرال شارون الذي صدق عليها. وفي الساعة الواحدة والنصف عاد العقيد داني إلى مقر لوائه وأصدر أوامره إلى قادة وحداته الفرعية بأن تحرك اللواء سيبدأ في الساعة الرابعة والنصف مساء يوم ١٥ أكتوبر. ورغم أن قائد اللواء تم إبلاغه أنه سوف يخصص له ٦٠ قاربا مطاطيا، وسيتم تسليمها له في معسكره في الساعة العاشرة صباحا، فإن هذه القوارب لم تصله حتى وقت تحرك اللواء، كما أن العربات نصف الجنزير التي تقرر تزويد اللواء بها وعددها ٦٠ عربة

للتحرك بها إلى الدفرسوار لم يصل منها سوى ٣٢ عربة فقط. واستخدم العقيد داني وسيلة غير مشروعة لاستكمال العربات المدرعة على أساس المبدأ الذي يقول بأن الغاية تبرر الوسيلة، فقد أرسل أحد قادة السرايا ومعه ٣٠ سائقا إلى منطقة رفديم (الجفجافا) حيث وضعوا أيديهم على ٢٦ عربة نصف جنزير كانت معدة لتسليمها لمندوب إحدى الفرق، واستطاع ضابط المظلات إيهام الضابط المسئول عن تسليم هذه العربات بأنه هو المندوب الذي ينتظره وانطلق مسرعا بالعربات إلى مقر اللواء، وبذا ارتفع عدد العربات نصف جنزير بلواء المظلات إلى ٥٨ عربة. وعلم العقيد داني مات خلال عملية بحثه عن قوارب العبور أن القوارب موجودة على بعد ٥ كم غرب الطاسة، فقد أرسلت بطريق الخطأ إلى هذا المكان بسبب وقوع التباس نتيجة للتشابه في الأسماء الكودية.

وعقب أن أصدر قائد اللواء أوامره إلى قادة وحداته الفرعية بناء على الخطة التي وضعها والتي تم تصديق قائد الفرقة عليها، بدأ تحرك اللواء في الساعة الرابعة والنصف مساء. وعندما واصل اللواء تحركه على الطريق العرضي ٣ في اتجاه الطاسة دخل في ازدحام مرور كبير حتى إنه قطع مسافة ٢٥كم للوصول إلى الطاسة في ساعتين ونصف الساعة. . وانحرف طابور اللواء من الطاسة إلى الغرب على طريق أكافيش المتجه إلى القناة ليتزود بقوارب العبور التي كانت في انتظاره على مسافة ٥كم غرب الطاسة، وكان ازدحام السير في هذه المرحلة أسوأ كثيرا مما سبق معاناته من قبل حتى إن طابور اللواء قطع الكيلو مترات الخمسة في ساعتين، وتم له تسلم القوارب في الساعة التاسعة مساء، رغم أن الأوامر كانت تقضي بتسلمه لها في معسكره في العاشرة صباحا. أي أن التأخير بلغ حوالي ١٢ ساعة.

واضطر قائد اللواء نظرا لنقص العربات نصف جنزير بالنسبة لحجم قواته إلى وضع ٢٥ جنديا في كل عربة منها بالإضافة إلى القارب الذي وضع على ظهرها. واستغل قادة الوحدات الفرعية فرصة بطء السير وكثرة الوقفات بسبب ازدحام المرور لاستكمال الترتيبات اللازمة للعبور ولتوزيع أحزمة النجاة وبعض المعدات الأخرى إلى جنودهم. واضطر العقيد داني مات إلى عمل بعض التعديلات في خطة العبور، فإن سرية استطلاع اللواء التي خصصت لقيادة العبور وكانت متأخرة في الخلف لتحركها في عربات عادية لم تلبث أن غرزت في الرمال، لذا تم تكليف كتيبة المقدم دان للقيام بهذا الواجب. وفي حوالي الساعة العاشرة والنصف مساء وعندما كان لواء المظلات على بعد حوالي ١٠كم من القناة انضمت إليه سرية دبابات من لواء حاييم وتحركت على رأس طابور اللواء.

وتعرض طابور اللواء عند اقترابه من القناة لنيران مدفعية وصواريخ ورشاشات، مما أدى إلى إصابة عدد من الآليات والقوارب، ولم يلبث طابور اللواء الذي كانت تتقدمه قوة الاقتحام أن انحرف عن محور أكافيش بعد منتصف الليل بوقت قصير متجها إلى الغرب نحو موقع ساحة العبور التي كانت على بعد حوالي ٣كم. وعلى الرغم من أن لواء آمنون سبق له عبور هذه المنطقة وأبلغ أنها خالية من القوات المصرية فإن العقيد داني مات زيادة في الحيطة والحذر أمر سرية الدبابات التي ألحقت على اللواء باتخاذ موقع لها عند مفترق طريق طرطور والطريق العرضي رقم ١ (الطريق الموازي للقناة) على مسافة نحو ٨٠٠ متر شمال منطقة العبور لتكون بمثابة حاجز أمام أي تدخل محتمل للقوات المصرية من الشمال أو الشرق. ولكن سرية الدبابات لم تلبث أن دخلت في كمين محكم أعدته قوة من اللواء المصري ١٦ مشاة عند مفترق الطرق، وتم تدمير سرية الدبابات بأكملها دون أن يعلم العقيد داني مات شيئا عن مصيرها التعس.

وعلى أثر وصول اللواء إلى الساحة أقيمت نقاط مراقبة المرور، وفتحت مجموعة القيادة على مدخل الساحة، وكان التخطيط موضوعا على أساس إنشاء نقطتي إبحار: إحداهما خضراء والثانية حمراء وتضاء النقطتان بفوانيس تحمل هذين اللونين على كلا الشاطئين حتى تتجه القوارب من نقطة الإبحار إلى اللون المحدد لها عند نقطة الإنزال. ولكن عندما اقترب الجنود لإنزال القوارب إلى الماء اكتشفوا أن الأرض في شمال الساحة طينية لزجة، لذلك تم تعديل الخطة واستخدمت نقطة إبحار واحدة فقط، ولكن بقية الخطة ظلت على ما هي عليه حيث تقرر إنزال القوة على الشاطئ الغربي في نقطتين وفقا للخطة. وقبل عملية الإبحار مباشرة وبناء على أمر قائد لواء المظلات فتحت جميع وحدات المدفعية التي كانت في معاونة عملية العبور نيرانها وركزت الضرب على منطقة الإنزال على الشاطئ الغربي للقناة المقابلة لمنطقة الإبحار وفي قطاع طوله ٩٠٠ متر وعرضه ٢٠٠ متر.

ولقد قدر ما نزل من القذائف على هذه المنطقة بحوالي ٧٠ طنا. ومن العجيب أن المنطقة التي تركز عليها كل هذا القصف كانت خالية من المصريين. وفي الساعة الواحدة والدقيقة ٣٥ يوم ١٦ أكتوبر، عبرت القناة الموجة الأولى من القوات الإسرائيلية ووضعت أقدامها على الضفة الغربية للقناة. وفور الوصول شق المهندسون الأسلاك الشائكة ولم يجدوا أي ألغام أو كمائن، وأبلغ قائد قوة الاقتحام قائد اللواء عن طريق جهاز اللاسلكي بأن كل شيء على ما يرام، بينما صاح صوت في الجهاز «نحن الآن في إفريقيا». وعبرت مجموعة قيادة اللواء في الساعة الثانية والدقيقة ٤٠، وتوالى عبور وحدات اللواء حتى الساعة الخامسة صباحا حينما انتهت عملية عبور جميع أفراد المظلات. وبدأ الجنود وفقا

للخطة في التحرك على أقدامهم لإتمام عملية تأمين رأس الكوبري غرب القناة إلى مسافة ٤ كم شمالا والاستيلاء على المعابر على ترعة السويس غربا. وفي صباح يوم ١٦ أكتوبر أصبح العقيد داني مات مسيطرا على رأس كوبري امتد من الشاطئ الشمالي للبحيرة المرة الكبرى حتى ٤كم شمالا، وكانت المقاومة التي صادفها تكاد لا تذكر.. ونظرا لأن عملية العبور الإسرائيلي إلى غرب القناة لم تكن قد وصلت بعد إلى علم أحد من المصريين حتى ذلك الحين، فقد تمكنت قوة المظلات الإسرائيلية من إبادة عناصر كثيرة من وحدات مصرية مختلفة، كانت متحركة على طريق القناة بعرباتها في أمان، وتم إطلاق النار عليها قبل أن يتمكن راكبوها من إدراك حقيقة المأساة التي جرت.

وقبيل الصباح وصل عدد من المعديات المتحركة إلى ساحة العبور بالدفرسوار ولم يكن متيسرا إنزالها إلى المياه قبل إزالة الساتر الرملي على القناة، وعندما قامت جرافتان بإزالته انزلقت المعديات إلى المياه وأسرعت الدبابات تحتل أمكنتها فوق المعديات، وبعد دقائق معدودة دارت المحركات واتجهت المعديات بحمولتها إلى الشاطئ الغربي حيث تم إنزال الدبابات، وأخذت عملية عبور الدبابات من لواء حاييم تجرى بانتظام وفقا للخطة الموضوعة. وفي تقرير أبلغه شارون في الصباح باللاسلكي إلى الجنرال بارليف أفاد بأن لواء المظلات بكامل وحداته قد تم عبوره بعد منتصف الليل إلى الضفة الغربية بالقوارب. وتم تعزيزه صباح يوم ١٦ أكتوبر بمجموعة من ٣٠ دبابة عبرت فوق المعديات من لواء حاييم الذي عبر بنفسه على رأس المجموعة. وأفاد شارون أيضا أن العقيد حاييم بدأ الانتشار بدباباته من خلال رأس الكوبري لمهاجمة بطاريات الصواريخ سام المضادة للطائرات على الضفة الغربية.

ولكن المشكلة المعقدة التي أضحت تواجه الجنرال بارليف هي أن رأس الكوبري على الضفة الشرقية لم يكن قد تم تأمينه بعد، كما لم يتم إقامة أي جسر فوق القناة لربط القوة الإسرائيلية المعزولة على الضفة الغربية بقواعدها على الضفة الشرقية، مما كان يهدد عملية العبور إلى الغرب بأفدح الأخطار.

لماذا أوشكت خطة العبور على الفشل؟

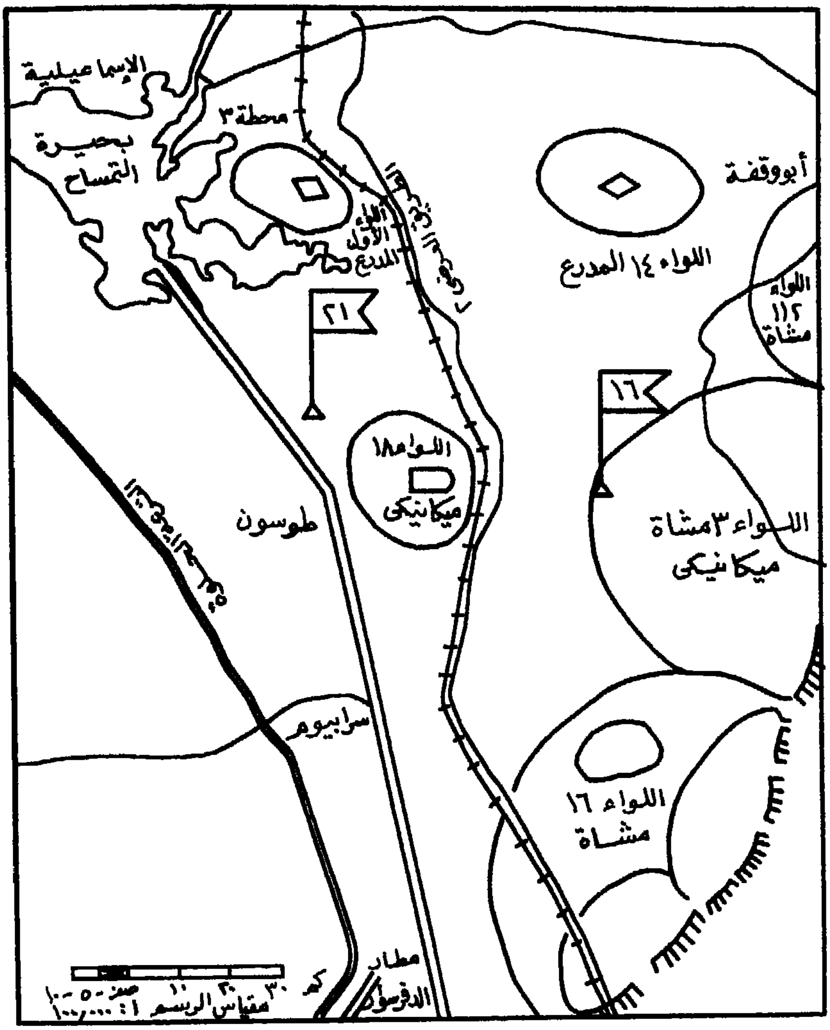
رغم التخطيط الجيد الذي وضعه أريل شارون قائد مجموعة العمليات رقم ١٤٣ لتحقيق المهمة التي أسندت إلى فرقته ضمن الخطة Abiray lev (القلب الشجاع)، والتي كانت تتلخص في إقامة وتأمين رأس كوبري على ضفتي قناة السويس عند نقطة الدفرسوار ليلة ١٥ / ١٦ أكتوبر تمهيدا لعبور فرقة الجنرال إبراهام أدان (برن) صباح يوم

١٦ أكتوبر على الجسرين اللذين كلفت فرقة شارون بمهمة تركيبهما على القناة، فإن خطة شارون أوشكت على الفشل بسبب عاملين رئيسيين:

أولهما: تأخر وصول الكباري ومعدات العبور إلى منطقة المعبر بالدفرسوار، نتيجة لازدحام المرور على محوري التقدم الأساسيين (أكافيش وطرطور) وإغلاق أجزاء منهما لوقوعهما تحت سيطرة القوات المصرية. وكانت الخطة الإسرائيلية الأصلية لعملية العبور للغرب، والتي سبق التخطيط لها قبل الحرب مبنية على أساس أن العبور سيتم تنفيذه أثناء وجود القوات المصرية غرب القناة، أي أن الشاطئ الشرقي للقناة سيكون تحت سيطرة القوات الإسرائيلية، وأن حصون خط بارليف سيتم استخدامها في تأمين عملية العبور، وأن الكباري الثقيلة ومعدات العبور سيجرى تجميعها وتجهيزها على مقربة من طريق لكسيكون (الطريق العرضي رقم ١ الموازي للقناة) بدون أي ضغط أو تدخل من المصريين. ولكن الظروف التي أجريت فيها عملية العبور الفعلية ليلة ١٥ / ١٦ أكتوبر كانت مختلفة تماما عما كان مقدرا في الخطة الأصلية، فلقد أجريت العملية رغم أن كلا الشاطئين الشرقي والغربي للقناة كانا تحت السيطرة التامة للقوات المصرية، كما أن معدات العبور والجسر السابق التركيب Preconstructed وجسر معديات البونتون Ponton bridge وكلها أحمال ثقيلة الوزن كبيرة الحجم تم جرها بالدبابات حوالي ٢٠ كم فوق الرمال وتحت وابل من نيران مدفعية المصريين وهاوناتهم ورشاشاتهم، مما أدى إلى تعطيل وصولها فترة طويلة.

أما العامل الرئيسي الثاني الذي كاد يتسبب في فشل عملية العبور، فهو التعطيل الذي جرى في عمليات تأمين المعبر عند الدفرسوار وتطهير المحورين الرئيسيين للتقدم (أكافيش وطرطور)، والتي كانت تستلزم ضرورة السيطرة على المنطقة الممتدة من نقطة العبور حتى مسافة ٥كم شمالا أي حتى شمال المزرعة الصينية، وكان مقدرا لها أن تتم خلال ليلة ١٥/ ١٦ أكتوبر. وقد أسند شارون هذه المهمة إلى اللواء المدرع بقيادة آمنون بعد أن عززه بكتيبة مدرعة من لواء توفيا وبكتيبتين مشاة ميكانيكيتين لتصبح قوته ٤ كتائب مدرعة و٣ كتائب مشاة ميكانيكية، علاوة على كتيبة استطلاع الفرقة. ورغم تركيز آمنون هجومه بهذه القوة الكبيرة على قطاع اللواء ١٦ مشاة (أقصى الجنب الأيمن للجيش الثاني) والتي كانت مواقعه تدخل ضمن نطاق منطقة التأمين المطلوب إخلاؤها من القوات المصرية، فإن الإسرائيليين فوجئوا بأن القوة التي واجهتهم كانت أكبر مما قدروا، كما أن المقاومة العنيدة التي أبدتها كانت أشد كثيرا مما كانوا يتوقعون.

ونتيجة لهذين العاملين تعثرت خطة العبور الإسرائيلية وانهار الجدول الزمني المحدد



أوضاع قواتنا داخل رأس الكوبري الموحّد يوم ١٥ أكتوبر ١٩٧٣.

لها، وواجه لواء المظلات بقيادة العقيد داني مات الذي عبر قناة السويس ليلة ١٥ / ١٦ أكتوبر في قوارب مطاطية وقتا عصيبا. فقد ظل معزولا بالضفة الغربية للقناة مع ٣٠ دبابة من لواء حاييم عبرت فوق معديات متحركة عن قواعده بالضفة الشرقية لمدة تقرب من ٤٠ ساعة، إذ لم تتم إقامة أي جسر يربط بين شاطئي القناة إلا ليلة ١٧ / ١٨ أكتوبر، كما أن الجنرال حاييم بارليف أصدر أمرًا بعد ظهر يوم ١٦ أكتوبر بعدم عبور أي قوات إسرائيلية أو دبابات إلى الضفة الغربية في قوارب أو على معديات متحركة إلى حين إقامة جسور ثابتة فوق القناة حتى لا يزداد حجم القوة الإسرائيلية الموجودة غرب القناة والمعزولة عن قواعدها في الشرق والمعرضة لخطر الإبادة.

ولو كانت القيادات المصرية على مختلف المستويات قد تنبهت مبكرا إلى طبيعة وأهداف العملية التي كانت تجرى في الدفرسوار، وتم لها اتخاذ التدابير السريعة الواجبة ودفع القوة الكافية لمواجهتها لكان من المتعذر بقاء القوة الإسرائيلية التي عبرت إلى غرب القناة والتي كانت تتكون من لواء مظلات و٣٠ دبابة طوال يومي ١٦ / ١٧ أكتوبر دون أن تتعرض لخطر الإبادة أو الوقوع في الأسر، ولكان من المستحيل على القيادة الإسرائيلية استكمال عملية العبور، وإقامة أي جسر ثابت فوق القناة في حالة سقوط نقطة الإنزال غرب القناة في أيدي المصريين، كما لم يكن في مقدرتها القيام بعد ذلك بعملية عبور أخرى من نقطة جديدة خلاف الدفرسوار بعد زوال عامل المفاجأة. ولكن عامل الحظ تدخل بصورة عجيبة، بالإضافة إلى التقصير الذي وقع من بعض القيادات المصرية. وهكذا نجحت المغامرة الإسرائيلية التي كان من المحتم فشلها، وأضفت القيادة الإسرائيلية على نفسها بسبب ذلك النجاح هالات من العظمة والمجد والقدرة على تحقيق الخوارق والمعجزات، بينما لم تكن العملية في حقيقتها تستحق كل هذه الصفات.

تحويل أنظار المصريين عن منطقة العبور

كان التخطيط الإسرائيلي لعملية العبور يهدف في الدرجة الأولى إلى تحويل أنظار المصريين عما سوف يجرى مساء يوم ١٥ أكتوبر في النقطة الحصينة متسميد (الدفرسوار) التي اختيرت لتكون مكان العبور، وكانت في الماضي أحد حصون خط بارليف. وقد سبق لمفرزة اقتحام من إحدى كتائب اللواء ١٦ مشاة اقتحامها والاستيلاء عليها صباح يوم ٩ أكتوبر. ولتحقيق ذلك الهدف بدأت غارات جوية إسرائيلية مركزة اعتبارا من الساعة الخامسة صباحا يوم ١٥ أكتوبر على رءوس كباري الجيش الثاني، خاصة رأس كوبري الفرقة ٢ مشاة ورأس كوبري الفرقة ١٦ مشاة الذي كان يضم داخله أيضا وحدات الفرقة

٢١ المدرعة. وظلت الغارات الجوية مستمرة حتى قرب آخر ضوء ذلك اليوم. . وقد أدى ذلك القصف الجوي المتواصل إلى تأخير إعادة تجميع الفرقة ٢١ المدرعة كما كان مقررا من قبل، بعد معركة تطوير الهجوم التي اشتركت فيها في اليوم السابق مباشرة، وتكبدت خلالها خسائر كبيرة خاصة في الدبابات.

وتحت ساتر من التمهيد النيراني بالمدفعية هاجم اللواء المدرع بقيادة توفيا وسط ويسار الفرقة ١٦ مشاة من أجل توجيه انتباه الفرقتين ١٦ مشاة و٢١ المدرعة تجاه الشمال نحو الطريق الأوسط (طريق الطاسة ـ الإسماعيلية شرق). وعندما بدأت الهجمات الإسرائيلية تشتد في المساء على الجنب الأيمن للواء ١٦ مشاة ظل المصريون يعتقدون لأكثر من ٢٤ ساعة أن الهدف الإسرائيلي الحقيقي كان طي الجناح الأيمن للجيش الثاني المصري، ولم يخطر على بال أحد أن هذه المعارك الشرسة المتصلة ضد اللواء ١٦ مشاة كان من ضمن أهدافها خداع المصريين عن حقيقة ما يجرى في نقطة العبور بالدفرسوار على الشاطئ الشرقي للقناة، والتي لم تكن تبعد شرقا عن الحد الأيمن لقطاع هذا اللواء بأكثر من ٣كم.

وقد كان خلو النقطتين الحصينتين الدفرسوار وتل سلام من القوات المصرية (كانتا من ضمن حصون خط بارليف التي تم الاستيلاء عليها من قبل) من أهم العوامل التي ساعدت الجنرال شارون على تنفيذ جانب كبير من خطته في سهولة ويسر وبلا صعاب أو مشكلات، فقد أمكن للواء آمنون القيام بحركة التفاف عبر التلال الرملية بعيدا عن المحورين الرئيسيين للتقدم «أكافيش وطرطور»، وأمكنه الوصول إلى حصن لاكيكان (تل سلام) على شاطئ البحيرة المرة الكبرى وعلى بعد ٦ كم جنوب شرق الدفرسوار وإعادة احتلاله، ثم تقدم بعد ذلك شمالا على الطريق الملاصق للبحيرة والذي شقه الإسرائيليون من قبل لربط حصني الدفرسوار وتل سلام، وأطلقوا عليه اسم (طريق نهالا)، وعن طريق الثغرة التي تفصل ما بين شاطئ القناة والحد الأيمن لدفاعات اللواء ١٦ مشاة تم تسرب القوات الإسرائيلية إلى النقطة الحصينة بالدفرسوار حيث قاموا بإعادة احتلالها واستخدموا الساحة التي بجوارها، والتي سبق إعدادها لهذا الغرض منذ كان شارون قائدا للقيادة الجنوبية لتكون المعبر الذي تم عن طريقه عبور لواء المظلات بواسطة القوارب المطاطية، وعبور ٣٠ دبابة من لواء حاييم فوق أطواف عائمة إلى الضفة الغربية كما سبق أن ذكرنا.

وهكذا تم للقوات الإسرائيلية استخدام حصن الدفرسوار ليكون المعبر الرئيسي لقواتهم إلى الغرب، وكذا استخدام حصن تل سلام لحماية وتأمين الجناح الأيسر لمعبرهم عند الدفرسوار دون أن يبذلوا أي جهد أو يشتبكوا في أي قتال لتحقيق ذلك الهدف. ومما يثير

الدهشة بقاء الحصنين الإسرائيليين السابقين من حصون خط بارليف بعد سقوطهما في أيدي المصريين دون احتلالهما بأي قوات أو على الأقل نسفهما وجعلهما غير صالحين للاستخدام، رغم أن التعليمات قد صدرت إلى قادة الفرق المشاة بنسف جميع حصون خط بارليف التي تقع داخل قطاعات فرقهم، وقد تم ذلك خلال المؤتمر الذي عقد في مركز القيادة المتقدم للجيش الثاني بالإسماعيلية صباح يوم ١٣ أكتوبر تنفيذا لأوامر القائد العام الفريق أحمد إسماعيل.

معركة تقاطع الطرق

كان للتقدم السريع للواء آمنون الذي تم في مساء يوم ١٥ أكتوبر دون أن يواجه أي مقاومة أثره في أن تسود موجة من التفاؤل في المركز المتقدم للقيادة الجنوبية والذي كان موجودا به وقتئذ الجنرال دافيد أليعازر رئيس الأركان وموشى ديان وزير الدفاع، خاصة بعد أن أبلغهما شارون بنبأ الاستيلاء على حصني تل سلام والدفرسوار، وأن محور أكافيش قد أصبح مفتوحا للمرور. وفي الوقت الذي كانت فيه كتيبة استطلاع الفرقة التي ألحقها شارون على لواء آمنون تقوم بتأمين ساحة العبور عند الدفرسوار انتظارا لقدوم لواء المظلات بقيادة داني مات (أول قوة إسرائيلية عبرت القناة إلى الغرب كما أوضحنا من قبل)، أرسل آمنون كتيبة مدرعة من قواته إلى طريق أكافيش لتطهيره بعد أن علم أنه قد أغلق ثانية عقب مروره بقواته، بينما تقدم بثلاث كتائب مدرعة وثلاث كتائب مشاة ميكانيكية إلى اتجاه الشمال والشرق لمهاجمة الجنب الأيمن للفرقة ١٦ مشاة (اللواء ١٦ مشاة). وقد أرسل آمنون في بادئ الأمر كتيبتين مدرعتين من حصن لاكيكان (تل سلام) في اتجاه الشمال على طريق لكسيكون (الطريق العرضي رقم ١) ولم تكادا تقتربان من منطقة المفرق (تقاطع طريق طرطور والطريق العرضي ١) الذي يقع في قطاع الكتيبة اليمين من اللواء ١٦ مشاة حتى انهالت على قواته نيران الصواريخ والأسلحة المضادة للدبابات، فتم تدمير ٢٧ دبابة إسرائيلية، ولكن ٧ دبابات تمكنت من اختراق الموقع الأيمن في أقصى الدفاعات على جانبي الطريق العرضي رقم ١. وأمر العقيد أ.ح عبد الحميد عبد السميع قائد اللواء ١٦ مشاة بدفع أعداد كبيرة من أطقم اقتناص الدبابات من كتائب اللواء إلى منطقة قرية الجلاء لتدمير دبابات العدو التي نجحت في اختراق الموقع وتقدمت شمالا في اتجاه القرية، وكذا إغلاق منطقة الاختراق حول الطريق الرئيسي بنيران الأسلحة المضادة للدبابات وتدعيم الكتيبة التي تعرضت للهجوم وهي كتيبة اليمين بسرية من الدبابات، كما وضع مجموعة مدفعية اللواء في معاونتها. تحرك آمنون بباقي قواته تحت ستر الظلام

بحذاء الساتر الرملي للقناة بعيدا عن مرمى نيران دفاعات اللواء ١٦ مشاة. وعندما اندفعت الدبابات الإسرائيلية نحو الشمال وجد آمنون نفسه فجأة في قلب منطقة ضخمة من مئات اللوريات والمركبات والمدافع ومنصات الصواريخ المضادة للطائرات ومحطات الرادار، واتضح أن دبابات آمنون قد دخلت إلى المناطق الإدارية لوحدات اللواء ١٦ مشاة ومرابض مدفعيته، ثم لم تلبث أن اقتربت من مركز القيادة الرئيسي ومنطقة الشئون الإدارية لكل من الفرقة ١٦ مشاة والفرقة ٢١ المدرعة، وكانت المناطق الإدارية ومراكز القيادة الرئيسية موضوعة في هذه المناطق الخلفية على مقربة من القناة على اعتبار أنها آمنة من هجوم العدو الذي كان اتجاه هجومه المتوقع من ناحية الشرق حيث تواجهه أقوى الدفاعات المصرية. ولكن الدبابات الإسرائيلية اقتحمت المناطق الخلفية من الاتجاه غير المنتظر وهو من الجنوب إلى الشمال حيث تكون إجراءات الوقاية والدفاعات في أضعف حالاتها. ولم تلبث النيران أن فتحت من الطرفين من آلاف من الأسلحة من جميع الأنواع وفي جميع الاتجاهات واشتعلت بعض الحرائق في عربات الذخيرة ومنصات الصواريخ أرض جو، وقامت كتيبتان مدرعتان من الفرقة ٢١ المدرعة بشن هجوم مضاد على الدبابات الإسرائيلية وأجبرتها على الارتداد جنوبا بعد أن تكبدت خسائر جسيمة.

وكانت المشكلة التي تواجه آمنون هي ضرورة الاستيلاء على النقطة الحيوية (تقاطع طريق طرطور مع الطريق العرضي رقم ١) حيث إن إجراءات تأمين نقطة العبور وتطهير طريق طرطور كانت متوقفة على ذلك. ونظرا لما أبدته قوات اللواء ١٦ مشاة ووحدات من الفرقة ٢١ المدرعة من شجاعة وبطولة واستماتة في القتال في معركة قرية الجلاء (المزرعة الصينية). فقد آثرت أن أسجل وصف هذه المعركة وفقا لما ورد في المراجع الإسرائيلية حتى لا يتطرق الشك إلى أحد في أن ما نسجله هو نوع من التحيز أو المبالغات. وفيما يلي خلاصة ما ورد بشأن هذه المعركة في المراجع الإسرائيلية:

عند منتصف الليل أمر آمنون المقدم «ناثان» قائد كتيبة مشاة ميكانيكية بعد أن دعمه بسرية دبابات أن يهاجم منطقة تقاطع الطرق. ودفع ناثان سرية الدبابات في الأمام، وعندما أبلغه قائدها بعد بضع دقائق أن الطريق مفتوح أمر ناثان مجموعة عربات نصف جنزير من كتيبته بقيادة «هاليفي» بالوصول إلى التقاطع من الجنب عن طريق حركة التفاف. وأثناء تقدم العربات المدرعة للأمام اتضح أن سرية الدبابات التي سبقتها قد دمرت عن آخرها، وسرعان ما انهالت النيران على العربات المدرعة مما أرغمها على التوقف، وأفاد قائدها هاليفي أنه لا يستطيع التحرك وأنه أصيب بخسائر جسيمة، ونتيجة لذلك حاولت باقي العربات المدرعة بالكتيبة التقدم لمساعدة قوة هاليفي ولكنها لم تلبث أن

ضربت بشدة، وتم غمر المنطقة بنيران مركزة، وفشلت جميع المحاولات للوصول إلى العربات المدرعة المصابة في الأمام ـ واتضح أن كتيبة المشاة الميكانيكية قد وقعت في فخ محكم وأصبحت مكشوفة في العراء تحت وطأة نيران كاسحة من المواقع المصرية التي في قطاع اللواء ١٦ مشاة، وأنها عاجزة عن التحرك إلى أي اتجاه أو إنقاذ العربات المدرعة المعزولة. واضطر ضباط وجنود الكتيبة إلى ترك عرباتهم المدرعة والانبطاح على الأرض محاولين أن يحفروا بأظافرهم مخابئ لهم. واستطاع المقدم ناثان قائد الكتيبة النجاة بنفسه بأعجوبة مع عدد من عرباته المدرعة والخروج من المنطقة المتأججة بالنيران، ولكنها كانت مأساة أليمة بالنسبة له عندما أدرك أن كتيبته قد غدت فلولا مشتتة.

وفي سبيل إنقاذ العربات المدرعة المتورطة في الأمام خصص آمنون سرية دبابات ثانية للتقدم لتخليصها. وتقدمت الدبابات شمالا إلى قرية الجلاء (كان الإسرائيليون يطلقون عليها اسم المزرعة الصينية، نظرا لوجود كتابات على جدرانها باللغة اليابانية كتبت بواسطة خبراء الزراعة اليابانيين الذين كانوا يعملون بالقرية قبل حرب يونيو ٦٧. وقد ظن الإسرائيليون أن هذه الكتابات مدونة باللغة الصينية ولذا أطلقوا عليها اسم المزرعة الصينية، وقد اقترن هذا الاسم بالقرية في جميع مؤلفاتهم التي صدرت عن حرب أكتوبر ٧٣، وحذا حذوهم جميع الكتاب والمؤلفين الأجانب حتى أصبح هذا الاسم علما عليها).

وعندما اقتربت الدبابات الإسرائيلية من القرية، استطاع قادتها رؤية مئات من المشاة المصريين المسلحين بالبازوكات آر بي جي ٧ وصواريخ المالوتكا رابضين في قنوات وحواجز القرية وانقضت الدبابات في جهد خارق للوصول إلى قوة المدرعات المعزولة التي كان أفرادها مشتبكين بالنيران مع المواقع المصرية، ولكن سيلا منهمرا من الصواريخ أخذ يطارد الدبابات الإسرائيلية في كل تحركاتها مما أرغمها على الانسحاب. وأخذ ناثان يناشد رئيسه آمنون عن طريق الاتصال اللاسلكي لكي يعاونه في الوصول إلى قواته المتورطة في الأمام، ووعده آمنون بأنه سيبذل أقصى جهده، ولم يكن ناثان يدري أن آمنون نفسه كان في ذلك الوقت يقاتل في معركة مريرة وأنه يصارع من أجل البقاء ضد القوات المصرية وأن وحداته منيت بخسائر فادحة. ولما أدرك هاليفي اليأس من إمكان وصول أي قوات إسرائيلية لإنقاذه، حمل جرحاه وحاول التسلل بقواته خارج ميدان المعركة تحت ستر جماعتين من مدافع الماكينة، وبينما هم يتحركون ببطء وبعذاب نحو خطوطهم إذا بقوة دبابات مصرية (من الفرقة ٢١ المدرعة) تعترض طريق انسحابهم ولم تلبث أن أبادتهم عن آخرهم». انتهى الوصف الإسرائيلي للمعركة.

ورغم ما حاق بقوة آمنون من خسائر في معركة تقاطع الطرق، فإنه صمم في عناد شديد على ضرورة القيام في الحال بهجوم ثان على منطقة التقاطع، وأمر المقدم بروم قائد كتيبة استطلاع الفرقة الملحقة على لوائه، والتي كانت متمركزة بالقرب من ساحة العبور في الدفرسوار للقيام بعملية التأمين، أن يشن الهجوم بكتيبته على التقاطع. وضمانا للمفاجأة أمره أن يجري الهجوم من اتجاه الغرب نظرا لأن المواقع المصرية كانت تستعد لمواجهة الهجوم من اتجاهي الشرق والجنوب. وقام المقدم بروم بالهجوم بعرباته المدرعة من الدفرسوار على منطقة التقاطع من الغرب، ولكن بروم لم يلبث أن قتل على مسافة ٣٠ مترا من المواقع المصرية وأصيبت قواته بخسائر جسيمة مما أحبط عملية الهجوم، واضطر آمنون إلى أن يصدر أمره إلى قائد ثاني كتيبة الاستطلاع بالانسحاب بالكتيبة إلى الخلف لإعادة التنظيم.

ولم يكف آمنون عن محاولاته العنيدة للاستيلاء على تقاطع الطرق، فأمر المقدم إيتان (قائد ثاني اللواء) بالتقدم على رأس سرية دبابات لمهاجمة منطقة التقاطع من الجنوب، وبدأ الهجوم في الساعة الرابعة صباحا يوم ١٦ أكتوبر، ولكن الهجوم قوبل بمقاومة شديدة وأصيبت ٣ دبابات منها دبابة المقدم إيتان، وفشلت محاولة الهجوم للمرة الثالثة.

كيف فشل شارون في تأمين معبر الدفرسوار؟

أوضحنا في الصفحات السابقة المعارك العنيفة التي خاضها لواء آمنون المدرع (من ضمن تشكيل فرقة الجنرال شارون) ليلة ١٥ / ١٦ أكتوبر لاختراق مواقع كتيبة اليمين من اللواء ١٦ مشاة والاستيلاء على منطقة تقاطع الطرق (طريق طرطور مع طريق العرض رقم ١ الموازي لقناة السويس) والوصول إلى قرية الجلاء (المزرعة الصينية) لتحقيق المهمة المسندة إليه في الخطة، وهي تأمين المعبر عند الدفرسوار بإخلاء المنطقة حتى شمال قرية الجلاء من القوات المصرية، وتطهير محوري التقدم الرئيسيين أكافيش وطرطور لتأمين وصول معدات العبور والجسور التي ستقام فوق القناة للربط بين نقطة العبور في الشرق ونقطة الإنزال في الغرب. ولهذا الغرض شن آمنون ثلاث هجمات عنيفة على منطقة تقاطع الطرق من بعد منتصف الليل حتى فجر يوم ١٦ أكتوبر بالدبابات والمشاة الميكانيكية، ولكن الهجمات الثلاث انتهت بالفشل بعد أن تكبدت قوات الهجوم الإسرائيلية خسائر فادحة في الأفراد والأسلحة والمعدات.

وعند الفجر صعد العقيد آمنون إلى تبة مرتفعة تشرف على أرض المعركة، فوقعت عيناه كما ذكر بعد ذلك على منظر مفزع، فقد كانت الصحراء مغطاة أمامه بأعداد كبيرة من الدبابات والمركبات والمدافع والناقلات المحترقة والمشتعلة. وكذا عشرات من مركبات القيادة وورش الصيانة المتنقلة والمنصات الضخمة لحمل الصواريخ سام ٢ والمطابخ المتنقلة. وكانت أشلاء الجنود الإسرائيليين متناثرة هنا وهناك ولا يفصل بينها وبين المواقع المصرية سوى أمتار قليلة.

وقد زار مراسل صحيفة «نيويورك تايمز» أرض المعركة بعد انتهاء الحرب مباشرة فوصف المشهد المفجع الذي وقع عليه بصره قائلا: «في قطعة صغيرة من الأرض لا تزيد على بضعة آلاف من الأمتار المربعة وجدت ٢٤ دبابة باتون إسرائيلية محروقة تماما، أما الدبابات التي أصيبت بصورة أقل فقد سحبت من المنطقة لإعادة إصلاحها. وكان عدد كبير من الدبابات المصرية المدمرة منتشرا في أرض المعركة. وفي مكان واحد وجدت دبابة باتون إسرائيلية ودبابة (ت ـ ٥٥) مصرية لا يفصل بين مدفعيهما سوى بضعة أمتار».

سقوط موقع تقاطع الطرق

عندما أخذت التقارير قبيل فجر يوم ١٦ أكتوبر تصل إلى القيادة الجنوبية الإسرائيلية تنقل صورة القتال المرير الذي يخوضه لواء آمنون والمصاعب غير المتوقعة التي ظهرت عند البدء في تنفيذ الخطة، سيطر على مركز القيادة المتقدم للقيادة الجنوبية جو من التوتر والقلق، واقترح موشى ديان وزير الدفاع سحب لواء المظلات من نقطة الإنزال بالشاطئ الغربي للقناة وإلغاء العملية بأكملها، مبرراً ذلك بقوله: «لقد حاولنا ولكن محاولاتنا ذهبت أدراج الرياح، ولذا فإني اقترح إلغاء فكرة العبور إذ إن المصريين سوف يذبحون قواتنا على الشاطئ الآخر». فرد الجنرال جونين قائلاً: «لو كنا نعلم مقدمًا أن ذلك سيحدث ما كنا بدأنا عملية العبور، أما الآن وما دمنا قد عبرنا فلنستمر حتى النهاية المريرة».

وقد أيد الجنرال حاييم بارليف رأي جونين، ولم يحاول موشى ديان مناقشتهما، جريا على النهج الذي اتبعه طوال مدة الحرب، وهي تجنب إصدار أوامر مباشرة للتنفيذ.

وحوالي الساعة السادسة صباحا، اتصلت جولدا مائير رئيسة وزراء إسرائيل من تل أبيب هاتفيا بموشى ديان للاستفسار عن الموقف، وأبلغها ديان أن الجسور فوق القناة لم تتم إقامتها بعد. وقد تمكنت القوات المصرية التي شمال المعبر من إغلاق محور التقدم إلى الدفرسوار على الضفة الشرقية للقناة، مما يهدد رأس الكوبري المقام على الضفة الغربية.

وذكر لها أن الأمل كبير في التغلب على هذه المقاومة، ونقل الجسور إلى المعبر وتركيبها

أثناء فترة النهار. أما عن الموقف في الضفة الغربية فقد أبلغ ديان رئيسة الوزراء أن لواء المظلات بقيادة العقيد داني مات قد أتم عبوره إلى نقطة الإنزال غرب القناة دون أي تدخل من القوات المصرية، ولا توجد نوايا لدى القيادة الجنوبية لإعادته إلى الضفة الشرقية حتى لو تأخر تركيب الجسور. وأبدت جولدا مائير خلال حديثها قلقها الشديد من احتمال قيام المصريين بعزل قوات المظلات، وأن هذا الأمر قد أحدث جدلا كبيرا بين الوزراء في أثناء اجتماع الحكومة.

هذا ولم يتخل العقيد آمنون عن محاولة تحقيق المهمة التي أسندت إليه رغم ما حاق بقواته من خسائر فادحة خلال هجماته الثلاث المتتالية. ففي صباح يوم ١٦ أكتوبر قاد آمنون بنفسه هجوما مركزا على منطقة تقاطع الطرق للمرة الرابعة بالكتيبة ٤٠ المدرعة بعد أن ضم إليها مجموعة من الدبابات التي تم إصلاحها أثناء الليل، وأجرى آمنون الهجوم من اتجاهين. ففي الوقت الذي تقدمت فيه الكتيبة ٤٠ المدرعة من اتجاه القناة إلى اتجاه التقاطع أي من الغرب إلى الشرق، قامت سرية من الدبابات بالهجوم من الجنوب إلى الشمال. ومن الاستطلاع الذي أجراه آمنون أثناء النهار، اكتشف أن المصريين قد أقاموا بمنطقة التقاطع حاجزا قويا مضادا للدبابات كان يتكون من دبابات مخندقة في مواقع حصينة وأسلحة وصواريخ مضادة للدبابات علاوة على الألغام التي بثوها على جانبي الطريق، مما أدى إلى انفجار عدد من الدبابات الإسرائيلية أثناء الهجمات السابقة، وكان أفراد المشاة من كتيبة اليمين باللواء ١٦ مشاة المسلحين بالبازوكات آر بي جي ٧ وصواريخ المالوتكا قد انتخبوا مواقعهم بمهارة مستغلين الحواجز الترابية وقنوات الري الجافة في المزرعة الصينية مما أدى إلى فشل جميع الهجمات الإسرائيلية السابقة.

واستفاد آمنون من دروس المعارك السابقة ومن نتائج استطلاعه للمواقع المصرية، فلم يندفع هذه المرة بقواته من اتجاهي الغرب والجنوب نحو منطقة التقاطع حتى لا تحيق الخسائر الفادحة بدباباته، كما جرى في الهجمات السابقة بتأثير النيران الكاسحة المضادة للدبابات التي يطلقها المصريون. ولجأ آمنون هذه المرة إلى طريقة جديدة هي التوقف بقواته بعيدا عن منطقة التقاطع والبدء في معركة استنزاف بطيئة للقضاء بالتدريج على مقاومة القوات المصرية التي تدافع عن هذا الموقع الحيوي والتي كانت قواها قد أنهكت بعد القتال البطولي المجيد الذي خاضته طوال الليل ضد قوات آمنون المدرعة، وكان موقفها قد ساء نتيجة للنقص الفادح في الذخيرة، مما أجبرها في النهاية على الانسحاب من مواقعها. وتقدم آمنون بقواته واستولى على منطقة تقاطع الطرق، واندفع شمالا حيث تمركز في المنطقة التي تقع ما بين المزرعة الصينية (قرية الجلاء) وقناة السويس.

وكان الجنرال شارون قد أرسل مبكرا صباح ١٦ أكتوبر كتيبتين من الدبابات بقيادة المقدمين إمي وعوزى لنجدة آمنون بعد أن علم بالخسائر الجسيمة التي لحقت بقواته ليلة ١٥/ ١٦ أكتوبر، واعتزم آمنون بعد أن تمكن من الاستيلاء على تقاطع الطرق والوصول إلى المزرعة الصينية أن ينجز المهمة التالية الخطيرة التي تم تكليفه بها من قبل، وهي تطهير طريق طرطور، ولذا ترك كتيبة دبابات من لوائه (حوالي ٣٠ دبابة) في المنطقة بين تقاطع الطرق وغرب المزرعة الصينية، وقام بشن هجوم بالكتيبتين المدرعتين اللتين أمده شارون بهما على طريق طرطور في الجزء الذي تسيطر عليه وحدات اللواء ١٦ مشاة. فقامت كتيبة منهما بالهجوم من الشمال الشرقي، بينما شنت الثانية هجومها من اتجاه الغرب، ولكن الهجوم فشل، فقد اصطدم بنيران كثيفة من الدبابات والأسلحة المضادة للدبابات من مواقع كتيبة اليسار من اللواء ١٦ مشاة واضطر آمنون إلى الانسحاب.

وفي صباح ١٦ أكتوبر كان وضع لواء آمنون قد غدا سيئا للغاية، فلم يتبق له سوى ٢٧ دبابة، أي أنه خسر أزيد من ثلثي دباباته خلال معاركه أمام تقاطع الطرق والمزرعة الصينية وتطهير طريق طرطور، كما خسر عددا كبيرا من القتلى، وكانت نسبة عالية من الضباط وقادة الدبابات من بين المصابين، وظل محور طرطور رغم كل الهجمات التي جرت مغلقا. وكان النجاح الوحيد الذي أحرزه آمنون هو استيلاؤه على منطقة تقاطع الطرق ووجود كتيبة مدرعة من لوائه في المنطقة غرب المزرعة الصينية. ونظرا لحاجته الشديدة إلى إعادة تجميع قواته وإعادة الملء لدباباته وتعويض ما فقده من ذخيرة وعتاد، فقد طلب آمنون من قائده شارون التصديق له بسحب باقي لوائه إلى موقع لاكيكان (تل سلام) على شاطئ البحيرات المرة لتجديد كفاءته القتالية.

مهمة فرقة برن في تأمين العبور

في صباح يوم ١٦ أكتوبر أرسل شارون تقريرا إلى الجنرال بارليف يتعلق بالموقف شرق القناة ذكر فيه أن الجسر السابق التركيب Preconstructed قد تحطم في أحد أجزائه في أثناء قيام كتيبة دبابات من لواء حاييم بجره على طريق أكافيش، وأن المهندسين في حاجة إلى بضع ساعات كي يتمكنوا من إصلاحه. وذكر شارون أنه بحاجة إلى قوات إضافية لتحقيق عملية تأمين المعبر شرق القناة نظرا للمقاومة العنيفة التي تبديها القوات المصرية في قطاع اللواء ١٦ مشاة، مما ألحق بقوات آمنون خسائر فادحة في الأفراد والدبابات، وجعلها تعجز عن تحقيق المهمة التي أسندت إليها، وهي اختراق الموقع الدفاعي شمال معبر الدفرسوار وتدميره أو إرغام القوات المدافعة التي تحتله على الانسحاب شمالا لمسافة ٥كم، وإخلاء المنطقة حتى شمال المزرعة الصينية.

وبناء على تقرير شارون، أرسل الجنرال بارليف أمرا إنذاريا إلى فرقة الجنرال إبراهام أدان (برن) التي كانت على أهبة الاستعداد وفقا للخطة للعبور إلى غرب القناة فور إقامة الجسر بأن تستعد لاحتمال دعوتها للمشاركة في فتح الممر المطلوب فتحه في اتجاه القناة إلى جانب فرقة شارون.

وفي هذه الأثناء، نشب نقاش جديد بين شارون والقيادة الجنوبية حول المضي في تنفيذ خطة العبور دون انتظار إقامة الجسور الثابتة، إذ إن السهولة التامة التي عبر بها لواء المظلات قناة السويس، وكذا الكتيبة المدرعة التي لحقت به وعدم اصطدامهما بأي مقاومة تذكر عند نقطة الإنزال، كل ذلك شجع الجنرال شارون على أن يطلب من الجنرال جونين استغلال هذه الفرصة لكي يأمر بعبور فرقة الجنرال برن قناة السويس بدباباتها فوق الأطواف المتحركة في الموعد الذي حدد لها في الخطة وتجاهل المقاومة المصرية في المزرعة الصينية وعلى طريقي أكافيش وطرطور. ولما اعترض الجنرال جونين على هذا الاقتراح، لجأ شارون إلى الجنرال بارليف عسى أن يمكنه عن طريقه التغلب على اعتراض جونين، ولكن بارليف أيد وجهة نظر جونين وأوضح لشارون خطورة تنفيذ اقتراحه، فإن عملية عبور القناة التي تجريها القيادة الجنوبية هي عملية هجوم واسعة النطاق وليست محض إغارة سريعة عبر القناة، ولذا فإن القيام بشن هجوم عبر القناة بفرقتي شارون وبرن - أي بقوة تقرب من حجم فيلق - يضم مئات من الدبابات بدون أن يؤمن له طريق إمدادات فوق جسر ثابت عبر القناة سيكون عملا بعيدا عن الحكمة والمسئولية، إذ إن هذه الدبابات لا بد أن تتوقف عن الحركة في ظرف ٢٤ ساعة بعد نفاد الوقود. وأبدى بارليف كذلك عدم موافقته على عبور الدبابات والأفراد قناة السويس على أطواف متحركة مكشوفة ومعرضة لنيران المدفعية المصرية والطيران. ونظرا للمقاومة العنيدة التي يبديها المصريون في وجه الهجمات الإسرائيلية لتأمين منطقة المعبر في الدفرسوار واستعداداتهم لشن هجمات مضادة على القوات الإسرائيلية في تلك المنطقة، لذا فإن نقل قوة أدان إلى الضفة الغربية سيؤدي إلى عدم وجود قوات إسرائيلية كافية شرق القناة لمواجهة الأعمال القتالية للمصريين. لهذه الأسباب رفض بارليف اقتراح شارون، وقرر أن الواجب الذي ينبغي أن تكلف به فرقة برن هو استكمال تطهير الممر على الشاطئ الشرقي للقناة. وعلى أثر ذلك أصدر الجنرال بارليف أمرا بعد ظهر يوم ١٦ أكتوبر بعدم عبور أي قوات إسرائيلية أو دبابات إلى الضفة الغربية للقناة حتى صدور أوامر أخرى.

وفي الصباح الباكر يوم ١٦ أكتوبر استقل الجنرال جونين طائرة هليكوبتر متوجها إلى

مركز القيادة المتقدم للجنرال برن، وكان يقع على تبة مرتفعة تطل على طريق أكافيش. وقد ذكر الجنرال برن في الكتاب الذي أصدره بعد الحرب باللغة العبرية بعنوان «على ضفتي قناة السويس» أن الجنرال جونين خلال الزيارة التي أجراها له في مركز قيادته المتقدم شكا له من فشل شارون في تنفيذ المهمة المحددة له في الخطة، وقال له بصراحة: «إن شارون قد خيب أملنا. إنني لا أعرف ماذا حدث له في هذه الحرب». ولإنقاذ الموقف أسند جونين مسئولية تحريك جسر المعديات Pontoonbridge إلى فرقة برن، وألقى على العميد دافيد تماري نائب برن مسئولية القيام بهذه المهمة، كما ألقى بمسئولية تحريك الجسر السابق التركيب على عاتق العميد جاكوب نائب الجنرال شارون، وفي نفس الوقت أصدر أمرا إنذاريا إلى الجنرال برن ليكون مستعدا بفرقته عند الظهر لتطهير محوري أكافيش وطرطور وإلقاء جسر المعديات في مياه القناة، وأبلغ ما أصدره من تعليمات إلى الجنرال بارليف في مركز قيادته. وفي منتصف النهار أبلغ جونين شارون بالمهام الجديدة التي تم تخصيصها للفرق، وهي أن تتولى فرقة برن تطهير محوري التقدم أكافيش وطرطور، بينما تتولى فرقة شارون الاستيلاء على المزرعة الصينية والمواقع المصرية شمالها والمجاورة لقناة السويس. ولكن نظراً لاحتياج دبابات شارون على أثر معارك الليلة السابقة إلى القيام بعملية إعادة الملء وتعويض الذخيرة، فقد اتفق مع جونين على أن ينتظر قيام فرقة برن بتطهير محوري التقدم أولا قبل أن تبدأ فرقته بهذه العملية حتى يمكنه شن هجومه على المزرعة الصينية بعد تجديد الكفاءة القتالية لفرقته.

وفي الساعة الرابعة والنصف مساء يوم ١٦ أكتوبر، التقى القادة الثلاثة موشى ديان والجنرال بارليف والجنرال جونين في مركز القيادة المتقدم للقيادة الجنوبية، وأوضح جونين أنه في حالة عدم وصول الجسر الثابت (السابق التركيب) أو جسر المعديات، فلن يكون هناك مفر من الانسحاب من الضفة الغربية للقناة. وفي حالة وصول عدد من المعديات المتحركة فقط، فإنه يمكن في هذه الحالة بقاء القوة التي عبرت إلى الغرب، ولكن لا ينبغي نقل فرقة برن بهذه الوسيلة لكي تنضم إليها، ولكن فور إقامة أي جسر ثابت على القناة فإن على جميع القوات المخصصة للعبور إلى الضفة الغربية أن تبدأ عبورها في الحال.

وكان الجنرال برن متمركزا بفرقته (مجموعة العمليات رقم ١٦٢) جنوب الطاسة على أهبة الاستعداد منذ فجر ١٦ أكتوبر لاستغلال النجاح والعبور على الجسر الذي يتم تركيبه على القناة إلى الضفة الغربية. ولهذا الغرض تقدم إلى الأمام مع مجموعة قيادته المتقدمة مخترقا الرمال بموازاة طريق أكافيش نظرا لأن الطريق نفسه كان مغلقا بالقوافل الضخمة

والمعديات العملاقة وبحر لا آخر له من المركبات . وفي وسط هذا الزحام الشديد كانت تسير قوافل إدارية تحمل الوقود والذخيرة ، وأثناء تقدم برن مر على الجسر المعطوب حيث كانت حوله مجموعة من الضباط المهندسين تقوم بجهد كبير لإصلاحه تحت وابل من نيران المدفعية المصرية . وعندما أدرك برن أن محور أكافيش مغلق تماما أمر قائد المقدمة من لواء جابي بالقيام بحركة التفاف بدباباته عبر الصحراء ليكون جاهزا لعبور القناة عندما يتم تركيب الجسر وفقا للخطة . وعندما علم شارون بوصول هذه الكتيبة الكاملة النشاط والتي لم تجهد في قتال من قبل قام بالاتصال بالجنرال برن وشرح له موقف لواء آمنون السيئ بعد أن أصبحت دباباته خالية من الوقود والذخيرة بسبب المعارك التي خاضها طوال الليل ، وطلب منه وضع هذه الكتيبة تحت قيادته . ووافق برن بدون تردد . وفي الحال أمر شارون قائد الكتيبة بالتوجه إلى المنطقة التي تقع ما بين المزرعة الصينية والقناة لتغيار قوة آمنون ، ولكي يتيح له الفرصة للانسحاب وإعادة التنظيم كما سبق أن طلب منه منذ الصباح .

وفي هذا الوقت نجح العميد دافيد نائب برن والذي أصبح مسئولا عن تحريك جسر المعديات إلى القناة في مهمته ، فقد أمكنه تجميع ٩ معديات كبيرة وهو عدد يكفي لإقامة جسر متصل من المعديات على القناة . وحالما أسندت إلى فرقة الجنرال إبراهام أدان (برن) مسئولية تطهير محوري أكافيش واطرطور التي عجز الجنرال شارون عن القيام بها نظرا للخسائر الفادحة التي لحقت بفرقته والتي بلغت أكثر من ٧٠ دبابة و ٣٠٠ قتيل وعدد كبير من الجرحى خلال الهجمات التي شنت على الجناح الأيمن للجيش الثاني ليلة ١٥ / ١٦ أكتوبر وصباح يوم ١٦ أكتوبر ، لم يلبث الجنرال أدان أن قام بتحريك دباباته عبر التلال لاحتلال سلسلة المواقع الحاكمة التي كان يحتلها لواء توفيا (من تشكيل فرقة شارون) أمام الجنب الأيمن للفرقة ١٦ مشاة . ومن خلال الكثبان الرملية انطلقت الصواريخ القاتلة من المواقع المصرية صوب دبابات برن . ونظرا لعدم وجود قوات من المشاة مع فرقة برن أدرك أن اقتحام المواقع المصرية التي تواجهه سوف تكون عملية باهظة الثمن ، وأنها ستكلفه عددا كبيرا من دباباته . ولكن في الساعة الثانية بعد الظهر أبلغت القيادة الجنوبية الجنرال برن بأنه سيتم إمداده على الفور بقوة من المظلات كانت قد وصلت في هذا التوقيت منقولة بالطائرات الهليكوبتر من منطقة رأس سدر على خليج السويس . وانتظر الجنرال برن وصول هذه القوة باقي النهار ولكن دون جدوى ، وأخيرا وصلت القوة بعد حلول الظلام وكانت بقيادة العقيد عوزي .

معركة اللواء المصري ١٦ مشاة

عندما اقتربت الساعة من العاشرة مساء يوم ١٦ أكتوبر قدم العقيد عوزي مائيري نفسه إلى الجنرال برن، وذكر له أن لواء المظلات الذي يتولى قيادته قد تم وصوله وأنه جاهز، لتنفيذ أي عملية تسند إليه. وشرح برن الموقف باختصار للعقيد عوزي، وبعد مناقشة قصيرة أعد قائد المظلات خطته لتحقيق المهمة التي كلف بها، وهي التحرك في اتجاه القناة بقواته لتطهير محوري التقدم أكافيش وطرطور. وفي الساعة الحادية عشرة والنصف مساء بدأ المظليون تحركهم على الطريقين، وفي مقدمتهم كتيبة المقدم إيزاك، وعندما قطعت كتيبة المقدمة حوالي ثلث الطريق ووصلت إلى أضيق منطقة يتقارب فيها طريقا أكافيش وطرطور، ولا يزيد عرضها على كيلو مترين، فوجئت الكتيبة بسيل منهمر من نيران المدفعية ونيران مدافع الماكينة انصبت عليها من مواقع كتيبة اليسار في قطاع اللواء ١٦ مشاة التي كانت تواجه هذه المنطقة والتي تمتد دفاعاتها في العمق إلى اتجاه قرية الجلاء (المزرعة الصينية). واكتشف المظليون أن أكثر من عشرة رشاشات جرينوف في مواقع حصينة تغمر المنطقة التي كانوا يجتازونها بطوفان من النيران، وكان موقف المظليين حرجا فقد زجوا بأنفسهم في عملية تطهير محوري التقدم دون استطلاع سابق للمواقع المصرية أو معرفة معلومات كافية عنها، كما تقدموا على الطريقين بمفردهم دون أن تشترك معهم أي وحدات مدرعة لفتح الطريق أمامهم، ولم يكن في إمكانهم الحصول على معاونة المدفعية نظرا لأن عمليتهم كانت ليلية، وكان من الصعب تحديد موقعهم خلال الظلام.

ولم يكن أمام كتيبة إيزاك خيار سوى الانقضاض على مواقع الرشاشات لإسكاتها وإزاحة المصريين عن مواقعهم. واندفعت سرية ياكي وتلتها سرية مارجال نحو المواقع المصرية، ووقعت اشتباكات دموية وصل فيها المظليون إلى بعد أمتار قليلة من المواقع المصرية. ونظرا لأن المصريين كانوا في مواقع حصينة، ولم يكونوا في حاجة إلى الخروج من مواقعهم لملاقاة المظليين المتقدمين في العراء، فقد تبعثرت عشرات من جثث الإسرائيليين الممزقة على طول خط الدفاعات المصرية، وانتشرت سرايا المظلات في المنطقة يحاول أفرادها التقدم للأمام دون جدوى، فقد كانت نيران المصريين كاسحة بحيث لقى معظم قادة السرايا وقادة الفصائل مصارعهم، وأصيب الكثيرون إصابات بالغة. وعندما أصدر الجنرال برن إزاء سوء الموقف أمره إلى قوة المظلات بترك طريق طرطور الملاصق للدفاعات المصرية والتركيز على تطهير أكافيش، اكتشف المظليون أنهم عاجزون عن ترك مواقعهم أو القيام بأي نوع من الحركة أو المناورة، فقد أرغمتهم شدة النيران المصرية على الالتصاق بالأرض دون حراك.

وعندما بلغت الساعة الثالثة صباحا وأوشك الفجر على الطلوع، أدرك الجنرال برن أنه إذا لم يستطع خلال فترة الظلام القليلة المتبقية على طلوع النهار دفع جسر معديات البونتون إلى ساحة العبور بالدفرسوار، فإن ذلك معناه مرور يوم آخر دون إقامة أي جسر عبر القناة، وبالتالي عدم عبور أي قوات إسرائيلية جديدة إلى غرب القناة، مما لا بد أن يعرض قوة شارون المحدودة التي عبرت إلى الغرب إلى خطر التدمير الكامل. وفي الوقت الذي انغرز فيه المظليون في مواقعهم بين طريقي أكافيش وطرطور أمام الجنب الأيمن للفرقة ١٦ مشاة، أجرى الجنرال برن محاولة جديدة لدفع جسر المعديات إلى خط المياه، فأرسل سرية استطلاع في عربات مدرعة نصف جنزير لاستطلاع طريق أكافيش المتجه إلى القناة وتحديد موقع المقاومة المصرية التي تغلق الطريق.

وقبل الساعة الثالثة والنصف صباحا تلقى برن رسالة باللاسلكي من قائد سرية الاستطلاع بأنه قد تم له الوصول إلى ساحة العبور بالدفرسوار دون أن تعترضه أي مقاومة على طول الطريق. واتضح للجنرال برن أن قوة المظلات رغم ما حاق بها من خسائر فادحة، ورغم ما كانت تعانيه في ذلك الوقت من متاعب وأهوال بسبب موقفها المتحرج قد قدمت خدمة جليلة إلى عملية العبور. فإن المواقع المصرية شمال محوري التقدم التي كانت تسيطر على طريق أكافيش بالنيران انشغلت تماما عن التحركات التي كانت تجرى على هذا الطريق بعد أن تركز كل انتباهها إلى المعركة الضارية التي كانت محتدمة وقتئذ بين القوات المصرية وقوات المظلات الإسرائيلية على طريق طرطور.

وانتهز الجنرال برن الفرصة وأصدر أمره إلى العميد دافيد تماري لكي يتحرك بأسرع ما يمكن على طريق أكافيش بجسر معديات البونتون. وتمكن العميد دافيد بدفع بعض الجرارات الثقيلة أمام قافلته من إزالة الدبابات والمركبات المحترقة والمعطلة التي كانت تعرقل التحرك، مما أدى إلى إخلاء الطريق. وتقدمت قافلة معديات البونتون دون تعطيل على طريق أكافيش حتى وصلت إلى حصن لاكيكان (تل سلام) على البحيرة المرة الكبرى، وواصلت التحرك بعد ذلك شمالا على طريق ناهالا بحذاء شاطئ البحيرة حتى وصلت إلى ساحة العبور بالدفرسوار. وحوالي الساعة السادسة صباحا يوم ١٧ أكتوبر قام المهندسون التابعون لفرقة شارون بدفع أول معدية بونتون إلى مياه قناة السويس تمهيداً لدفع باقي المعديات التي سيتكون من توصيلها بعضها ببعض أول جسر معديات بونتون عبر القناة التي يبلغ اتساعها في هذه المنطقة حوالي ١٨٠ مترا.

وعندما أشرقت الشمس، أصبح واضحا لدي المظليين أنه لا يمكنهم الاستيلاء على

المواقع المصرية التي تواجههم، وشعر قائدهم العقيد عوزى أن قواته قد استنفدت كل طاقاتها، وأنه ينبغي معاونته في إخلاء جرحاه الذين يملئون أرض المعركة والتصديق على أن تستبدال بقوته قوة أخرى ليتسنى له إعادة تنظيم وحداته الممزقة، وعلى أثر اتصال برن بالجنرال جونين رفض جونين طلب عوزى بسحب قوة المظلات، ولم يوافق إلا على إخلاء الجرحى فقط. وعندما قام الجنرال بارليف بزيارة الجنرال برن واكتشف حقيقة موقف قوة المظلات صدق على سحبهم إلى الخلف لإعادة التنظيم، وتم تخصيص كتيبة مدرعة لإنقاذ رجال المظلات المنبطحين على الرمال أمام المواقع المصرية. ولم يستطع «أهود» قائد الكتيبة المدرعة تحديد مكان قوة المظليين بدقة، ولذا قام قائدهم بإطلاق قنبلة دخان أحمر ليهديهم إلى مكانه، واتضح أن هذا التصرف كان سلاحا ذا حدين فقد تمكن المصريون بدورهم من أن يحددوا بدقة موقع المظليين وصبت عليهم المدفعية المصرية وابلا من قذائفها، مما أحدث بهم خسائر جديدة. وبدأت الدبابات الإسرائيلية في الانقضاض على المواقع المصرية، وخلال دقيقتين اشتعلت النيران في ثلاث دبابات إسرائيلية بفعل الصواريخ المصرية المضادة للدبابات. ورغم النيران الكاسحة المصرية ظل المظليون صامدين في المعركة التي استمرت منذ منتصف الليل لمدة ١٤ ساعة متوالية. واتضح أن من المتعذر تخليص رجال المظلات وخروجهم مكشوفين من المعركة، ولذا تمت الاستعانة بالعربات المدرعة التي اندفعت تحت وابل من النيران وقامت بإخلاء الجرحى.

وأخيرا أمكن أن تستبدل بقوة المظلات المتورطة كتيبة من لواء توفيا المدرع وسحبهم إلى الخلف تحت ستر نيران الدبابات. وبلغت خسائر قوة المظلات ٧٠ قتيلا و١٠٠ جريح فضلا عما فقدته من الأسلحة والمعدات. واعترف العقيد عوزى قائد المظلات أن هذه المعركة هي أقسى ما خاضته قواته من معارك طوال مدة الحرب. وقد وصف موشى ديان في مذكراته قصة لقائه مع العقيد عوزى مائيري قائد قوة المظلات يوم ٢١ أكتوبر بعد انتهاء المعركة بأيام، فقال: «كنت أعرف عوزى جيدا منذ كان مديرا لمكتب رئيس الأركان في عهد بارليف، وكنت أعرف أنه فقد كثيرا من رجاله في المعركة، ولكني لم أكن أتوقع أن أراه على هذه الصورة من الاكتئاب. كان وجهه يحمل سيماء حزن يفوق الوصف، وتحدثنا عن معركته لفتح مدخل الطريق إلى القناة. وقال حاييم بارليف الذي كان معي إن عوزى قد تكبد خسائر فادحة ولكنه فتح الطريق. وظل عوزى متمسكا برأيه، فأصر على أنه لم يفتح الطريق وإنما فتحته الدبابات، وقال: «كنت أود القول بأن وحدتي فتحت الطريق، ولكن هذا لم يحدث، ولقد خسرنا ٧٠ رجلا لأننا تسرعنا جدا في البدء بالمعركة قبل أن نحصل على معلومات سليمة عن دفاعات العدو».

أول رد فعل مصري للعبور الإسرائيلي

عندما صدرت الأوامر بتطوير الهجوم شرقا ودفع الفرقة ٢١ المدرعة صباح يوم ١٤ أكتوبر من رأس كوبري الفرقة ١٦ مشاة لم يعد موجودًا بالضفة الغربية للقناة في قطاع الجيش الثاني أي تشكيلات مقاتلة لسحق أي اختراق يقوم به العدو سوى اللواء ١٠ مشاة ميكانيكي بقيادة العقيد أ.ح محمود نمَّر (من احتياطي القيادة العامة) وكان مسئولا عن تأمين الضفة الغربية للقناة في قطاع القنطرة، والفرقة ٢٣ مشاة ميكانيكية (عدا اللواء ٢٤ المدرع الملحق على الفرقة ٢ مشاة) بقيادة العميد أ.ح أحمد عبود الزمر وكانت متمركزة غرب القناة في النطاق الدفاعي الثاني للجيش الثاني الميداني شمال ترعة الإسماعيلية. ولتحقيق نوع من التوازن في النطاق الدفاعي الثاني أصدر اللواء سعد مأمون قائد الجيش الثاني أمره بتحرك اللواء ١١٦ مشاة ميكانيكي من الفرقة ٢٣ مشاة ميكانيكية إلى تقاطع عثمان أحمد عثمان (تقاطع طريق الإسماعيلية القاهرة الصحراوي مع طريق القصاصين أبو سلطان)، وقد أطلق عليه هذا الاسم لوجود استراحة خاصة بعثمان أحمد عثمان بالقرب منه، ويقع على بعد حوالي ٣٠ كم غرب القناة. وقد تم تمركز اللواء في منطقة التقاطع في الساعة الواحدة ظهرا يوم ١٣ أكتوبر وكلف بمهمة القيام بهجوم مضاد لصد أي اختراق للعدو جنوب ترعة الإسماعيلية حتى خط الحدود مع الجيش الثالث في الجنوب.

وتم تخصيص سرية مشاة مدعمة من اللواء ١١٦ مشاة ميكانيكي للعمل ضد قوات الإبرار الجوي المعادي. وقام هذا اللواء بدفع كتيبة مشاة ميكانيكية قامت باحتلال تقاطع طريق (أبو سلطان مع طريق المعاهدة) الموازي للقناة في الساعة الثانية بعد الظهر يوم ١٤ أكتوبر، ويقع هذا التقاطع على مسافة حوالي ٥كم غرب البحيرة المرة الكبرى ومطار الدفرسوار. وكان الشاطئ الغربي للبحيرة المرة الكبرى محتلا من الدفرسوار شمالا حتى فايد جنوبا بكتيبة مشاة كويتية، ومن فايد حتى خط الحدود مع الجيش الثالث بكتيبة الحراسة رقم ١٠ وهما كتيبتان ضعيفتا التسليح والتدريب. وكانت المجموعة رقم ١٢٩ صاعقة متمركزة في مطار (أبو صوير) وكتيبة هاون ثقيل وسرية كشف راداري متمركزتين في مطار الدفرسوار الذي لم يكن يستخدم لأغراض الطيران. وكانت مجموعة مدفعية الجيش رقم ١ تحتل مرابضها جنوب ترعة الإسماعيلية بينما احتلت مجموعة مدفعية الجيش رقم ٢ مرابضها شمال الترعة، وكان يتولى قيادتهما العميد أ.ح محمد عبد الحليم أبو غزالة قائد مدفعية الجيش الثاني. أما كتائب الصواريخ سام ٢ وسام ٣ المضادة

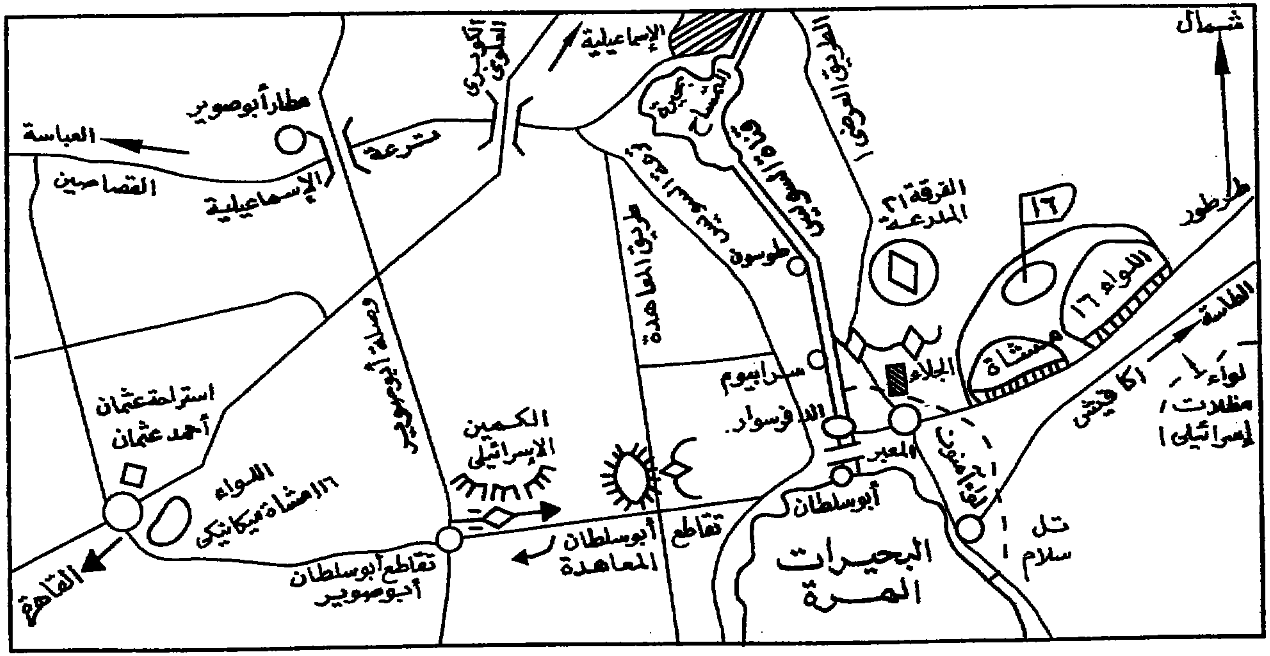
للطائرات فكانت منتشرة في مواقعها على بعد حوالي ١٠ ـ ١٥ كم غرب القناة لتقديم الحماية اللازمة من الجو للقوات المصرية شرق وغرب القناة.

هذا ولم تصل أي معلومات إلى أي قيادة من القيادات المصرية عن عملية عبور لواء المظلات الإسرائيلي غربا إلى الدفرسوار بقيادة العقيد داني مات التي بدأت حوالي الساعة الواحدة والنصف صباحا يوم ١٦ أكتوبر بواسطة القوارب المطاطية والتي انتهت في الساعة الخامسة صباحا إلا في الساعة السابعة صباحا. فقد أبلغ قائد كتيبة الكشف الراداري مركز القيادة الرئيسي للجيش الثاني أن قائد السرية التابعة له في مطار الدفرسوار أبلغه عن وجود بعض الدبابات الإسرائيلية مع قوة من المظليين، وكان يطلب التصديق على تدمير جهاز الكشف الراداري الذي يتولى تشغيله حتى لا يقع في يد العدو. وعلى الفور أمر رئيس أركان الجيش الثاني بإرسال دورية استطلاع في عربتين مدرعتين من كتيبة المشاة الميكانيكية المتمركزة في منطقة تقاطع طريق أبو سلطان مع طريق المعاهدة، لاستطلاع قوة العدو في مطار الدفرسوار الذي لم يكن يبعد عن مكان التقاطع بأكثر من ٥كم شرقا، ولكن الدورية بسبب عدم قيامها بإجراءات الوقاية اللازمة وقعت في كمين وتم تدميرها على مدخل مطار الدفرسوار، وتمكن أحد الجرحى من أفرادها من تبليغ رئاسته بالموقف حوالي الساعة التاسعة والنصف صباحا.

وفي حوالي العاشرة صباحا يوم ١٦ أكتوبر، وصل أول بلاغ عن وجود قوات إسرائيلية غرب القناة إلى مركز القيادة المتقدم للجيش الثاني بمعسكر الجلاء بالإسماعيلية، فقد أبلغ فرع استطلاع الجيش الثاني أن سرية الهاون الثقيل بمطار الدفرسوار أبلغت عن وجود ٥ دبابات برمائية إسرائيلية في المطار. وفي الساعة العاشرة والنصف صباحا أبلغ رئيس فرع المياه عن إبرار جوي معاد، وأن العدو تمكن من الاستيلاء على الكوبري البيلي على ترعة السويس (حوالي ٢كم غرب القناة) الذي يمتد فوقه طريق أبو سلطان إلى تقاطع عثمان.

وفي الساعة الحادية عشرة صباحا، صدرت أوامر قيادة الجيش الثاني إلي كتيبة المشاة الميكانيكية المتمركزة عند تقاطع (طريق أبو سلطان ـ طريق المعاهدة) بدفع سرية مشاة ميكانيكية مدعمة بفصيلة دبابات إلى مطار الدفرسوار لتدمير قوة العدو بالمطار والتي قدرت وقتئذ بحوالي ٥ دبابات، ولكن هذه السرية لم تلبث أن انقطع اتصالها مع قيادتها واتضح أنها عجزت عن تحقيق مهمتها.

وقبيل الظهر قام العدو بأول عملية هجومية عميقة في اتجاه الغرب، فبينما قامت قوة منه تقدر بحوالي ١٣ دبابة وبعض عربات نصف جنزير ومقذوفات موجهة



الموقف العام يوم ١٦ أكتوبر ١٩٧٣.

صاروخية SS 11 بمحاصرة موقع كتيبة المشاة الميكانيكية عند تقاطع (أبو سلطان ـ طريق المعاهدة) القريب من الدفرسوار، اندفع رتل من قواته يقدر بحوالي ٨ دبابات و٤ عربات نصف جنزير في اتجاه الغرب مخترقا الأرض الصحراوية شمال وصلة أبو سلطان في اتجاه تقاطع عثمان أحمد عثمان.

وفي الساعة الثانية عشرة ظهرا اتخذ اللواء تيسير العقاد الذي تولى قيادة الجيش الثاني بعد مرض اللواء سعد مأمون صباح يوم ١٤ أكتوبر قراره بتدمير الرتل المتقدم للعدو في اتجاه العمق، فكلف قائد اللواء ١١٦ مشاة المتمركز في منطقة تقاطع عثمان بالتحرك شرقا بمجموعة قتال تتكون من كتيبة مشاة ميكانيكية مدعمة بفصيلة دبابات وفصيلة مدافع اقتحام SU.100 وكتيبة مدفعية ميدان وسرية ٣٧م مضادة للطائرات بمهمة تدمير العدو المتقدم في اتجاه تقاطع عثمان. ونتيجة لتحرك مجموعة القتال على الطريق الأسفلت المتجه من تقاطع عثمان إلى اتجاه القناة دون دفع عناصر استطلاع في مقدمة القوة وتعيين حرس جنب لوقاية الأجناب ولعدم وجود دراية سابقة لهذه القوة بالأرض، وقعت مجموعة القتال بأسرها في كمين محكم نصبه العدو عند تقاطع وصلة أبو سلطان مع الطريق القادم شمالا من أبو صوير (على بعد ١٥ كم شرق تقاطع عثمان) مستغلا التجهيزات الهندسية السابقة للفرقة ١٦ مشاة في هذا التقاطع قبل عبورها إلى شرق القناة. وانتهت المعركة باستشهاد قائد اللواء ١١٦ مشاة ميكانيكي العقيد أ. ح حسين رضوان وتدمير ١٥ عربة مدرعة ب ك ومعظم الدبابات ومدافع الاقتحام، واحتلت القوات المتبقية بعد المعركة موقعا دفاعيا على بعد ٦كم غرب منطقة التقاطع التي دارت فيها المعركة. أما الهجوم الذي شنته الدبابات الإسرائيلية على كتيبة المشاة الميكانيكية عند تقاطع أبو سلطان ـ طريق المعاهدة عقب القيام بحصارها، فقد انتهى باختراق دفاعات الكتيبة وتشتت أفرادها وفقدها لقدرتها القتالية.

وعلى مستوى القيادة العامة بالمركز ١٠ بالقاهرة وصلت المعلومات الأولى من قيادة الجيش الثاني عن عبور العدو إلى الغرب صباح يوم ١٦ أكتوبر، وكانت المعلومات مقتضبة ولا تثير أي قلق أو انزعاج، إذ كان البلاغ يقول: «نجحت جماعات صغيرة من العدو في العبور إلى الضفة الغربية، ويقوم الجيش الثاني باتخاذ الإجراءات اللازمة للقضاء عليها».
ولكن في خلال نهار يوم ١٦ أكتوبر بدأت المعلومات تصل إلى المركز ١٠ بأن عددا من كتائب الصواريخ سام قد هوجمت بواسطة دبابات العدو وكانت بعض هذه الكتائب تقع على عمق حوالي ١٥ كم غرب القناة. وكانت الدبابات الإسرائيلية تظهر فجأة بقوة ٥-٧

دبابات بالقرب من أحد مواقع الصواريخ، ثم تشتبك مع الموقع من مسافة حوالي ٢كم، فتقوم بتدميره أو إسكاته، ثم تنسحب فجأة لتظهر في مكان آخر وهكذا. ولم تكن كتائب الصواريخ سام لديها الأسلحة الأرضية التي ترد بها على مثل هذا الهجوم، وبالتالي فإن دبابات العدو كانت تنسحب بعد تنفيذ المهمة دون أن تلحق بها أي خسائر.

كيف ضللت القيادات المصرية عن حقيقة العبور الإسرائيلي؟

كانت البلاغات التي انهمرت على قيادة الجيش الثاني في صباح يوم ١٦ أكتوبر ١٩٧٣ والتي اتسمت بعدم الدقة والتضارب، تشير إلى أن عددا محدودا من الدبابات الإسرائيلية قد عبر إلى الضفة الغربية للقناة. وكان البلاغ الذي كان من المفترض أن تعوّل قيادة الجيش عليه لصدوره عن الفرع المسئول عن جمع المعلومات عن العدو وهو فرع الاستطلاع بالجيش يشير بدوره إلى وجود خمس دبابات إسرائيلية برمائية في مطار الدفرسوار. وحدث في هذا الوقت الذي كان يوجد فيه بمنطقة الدفرسوار غرب القناة لواء مظلات إسرائيلي كامل وحوالي ٣٠ دبابة وعدد من العربات المدرعة نصف جنزير.

وكان القصور الشديد في أسلوب الاستطلاع والعجز الواضح في الحصول على المعلومات الصحيحة عن العدو الذي يعد من صميم عمل جهاز المخابرات الحربية في الميدان وكذا أفرع الاستطلاع في قيادة الجيش الثاني والتشكيلات التابعة له، سببا في تضليل القيادات المحلية في قطاع الجيش الثاني، ثم على مستوى القيادة العامة في القاهرة عن حقيقة الأعمال القتالية التي كان يجريها العدو وقتئذ، مما جعل الانطباع يسود بين هذه القيادات بأن الدبابات الإسرائيلية التي شوهدت والتي تم التبليغ عنها ليست سوى إغارة إسرائيلية جريئة قصد منها إحداث أكبر قدر من البلبلة والإزعاج في صفوف القوات المصرية في هذه المنطقة كنوع من أنواع الحرب النفسية، وأن القوة الإسرائيلية المغيرة لن تلبث أن تعود أدراجها إلى الضفة الشرقية قبل أن تتعرض لخطر الإبادة أو الأسر.

ونتيجة للتهوين المستمر من جانب القيادات المحلية بشأن حجم ومهمة القوة الإسرائيلية المغيرة، لم يخطر على بال أحد في قيادة الجيش الثاني أو القيادة العامة بالقاهرة أن ما يجرى من وراء ظهورهم في الدفرسوار هو عملية حربية واسعة النطاق لإقامة رأس كوبري على ضفتي القناة، وأنه لن يمر سوى وقت قصير حتى تعبر من خلال معبر الدفرسوار ثلاث فرق مدرعة إسرائيلية كاملة إلى الضفة الغربية للقناة.

ومن الثابت أن المعلومات عن وجود دبابات إسرائيلية في منطقة الدفرسوار غرب القناة

قد وصلت من قيادة الجيش الثاني إلى القيادة العامة المركز ١٠ بالقاهرة في صباح يوم ١٦ أكتوبر. ورغم أن البلاغات كانت مطمئنة ولا تثير أي ازعاج على اعتبار أن القيادات المحلية قادرة على القضاء على هذه القوة الصغيرة للعدو، فإن اللواء ٢٣ المدرع (من الفرقة ٣ مشاة ميكانيكية باحتياطي القيادة العامة) والذي كان متمركزا بالقاهرة تلقى أمرا إنذاريا من هيئة العمليات برفع درجة استعداده وأن يكون جاهزا للتحرك إلى قطاع الجيش الثاني بالقناة في ظرف ساعة من صدور الأمر إليه.

والأمر الذي يثير التساؤل هو أنه رغم وصول التبليغات عن وجود قوة إسرائيلية غرب القناة إلى القيادة العامة ورغم استنفار اللواء ٢٣ المدرع للاستعداد للتحرك، فإن أكبر مسئولين عن الحرب في مصر ـ وهما رئيس الجمهورية والقائد العام للقوات المسلحة ـ لم يتم إبلاغهما على الفور بذلك النبأ المثير. فقد ثبت من أقوال الرئيس الراحل السادات والفريق أول أحمد إسماعيل أنهما حضرا جلسة مجلس الشعب التي عقدت ظهر يوم ١٦ أكتوبر والتي ألقى خلالها السادات خطابه الشهير الذي أعلن فيه شروط مصر لوقف إطلاق النار دون أن تصلهما قبل حضور الجلسة أي معلومات عن وجود دبابات إسرائيلية غرب قناة السويس.

وفي حديث صحفي للفريق أول أحمد إسماعيل مع الأستاذ محمد حسنين هيكل رئيس تحرير الأهرام في ذلك الوقت وكان تاريخ الحديث هو ١٨ نوفمبر ٧٣، أكد أحمد إسماعيل أنه لم تصله شخصيا أي معلومات عن عبور العدو إلى غرب القناة إلا بعد عودته من مجلس الشعب. وكانت المعلومات التي وجدها في انتظاره ـ كما ورد في حديثه ـ تشير إلى تسلل أعداد صغيرة من الدبابات البرمائية الإسرائيلية إلى غرب القناة، وكان تقدير القيادات المحلية أن القضاءعليها بسرعة أمر ممكن. وعدّد الفريق أول إسماعيل ضمن حديثه أسباب اهتزاز الصورة أمامه خلال عملية العبور الإسرائيلي إلى غرب القناة. وكان من ضمن هذه الأسباب التي ذكرها، أن خللا في وصول المعلومات قد جرى نتيجة لتبادل في المسئوليات في بعض القيادات نظرا لظروف طارئة ـ وكان القائد يعني بلا شك ذلك التغيير المؤثر الذي جرى في قيادة الجيش الثاني.

تعيين عبد المنعم خليل قائدا للجيش الثاني

عندما بدأت عملية تطوير الهجوم شرقا في الساعة السادسة والنصف صباحا يوم ١٤ أكتوبر وأثناء وجود اللواء سعد مأمون قائد الجيش الثاني في مركز قيادته المتقدم لمتابعة موقف قواته أصيب في الساعة الثامنة والنصف صباحا بنوبة قلبية مفاجئة أعجزته عن

الاستمرار في القيادة وتم نقله إلى ملجأ الاستراحة بمركز القيادة حيث أخذ بعض الأطباء في علاجه. وبعد أن أمضى يومين تحت العلاج تم إخلاؤه إلى مستشفى القصاصين ومنه إلى مستشفى المعادي. وفور تنحى اللواء سعد مأمون عن القيادة، جرى الاتصال باللواء تيسير العقاد رئيس أركان الجيش في مركز القيادة الرئيسي بالخلف، فقام على الفور بالانتقال إلى مركز القيادة المتقدم بالإسماعيلية. ووفقا للقاعدة المتبعة في مثل هذه الأحوال تولى اللواء تيسير في الساعة العاشرة صباح يوم ١٤ أكتوبر مسئولية قيادة الجيش الثاني. ولا شك في أن مرض اللواء سعد مأمون وابتعاده عن قيادة الجيش الثاني في هذه المرحلة الحرجة من مراحل الحرب يعد خسارة كبيرة لحقت بالجيش الثاني وأثرت تأثيرا ملموسا في مجرى الأحداث على طول الجبهة المصرية، فإن الخبرات والتجارب التي اكتسبها خلال قيادته الناجحة لهذا الجيش سواء في أثناء إعداده للقتال أو خلال مراحل الحرب لم يكن من السهل تعويضها. وقد قام الجيش الثاني تحت قيادته بتنفيذ جمع المهام التي أوكلت إليه وفقا للخطة الموضوعة «بدر» تنفيذا سليما، كما تلقت القوات الإسرائيلية التي قامت بهجماتها المضادة العنيفة على طول مواجهة الجيش وخاصة خلال يومي ٨ و ٩ أكتوبر هزائم منكرة.

هذا، وقد كان المفترض وفقا لما جرى عليه العرف والنظم المعمول بها وما اتبع بالفعل في الحالات المماثلة أن يستمر رئيس أركان الجيش في تولي مسئولية القيادة (سواء كان هو اللواء تيسير العقاد أو أي شخص غيره) إذ إن القاعدة التي كانت متبعة عند اختيار أي رئيس للأركان سواء لوحدة أو لتشكيل أن يراعى أن يكون صالحا لتولي منصب قائد الوحدة أو التشكيل عند حدوث أي طارئ يمنع القائد الأصلي من استمراره في القيادة كأن يستشهد مثلا في ساحة القتال أو يصاب بجراح أو بمرض. وإذا كان مدى صلاحية رئيس الأركان لتولي القيادة تقاس بهذه الدقة عند اختيار أي ضابط لشغل منصب رئيس الأركان في الوحدات والتشكيلات، فمن باب أولى أن يكون هذا المعيار الدقيق قد تم تطبيقه عند اختيار رئيس الأركان لأكبر تشكيل ميداني في القوات المسلحة المصرية، وهو الجيش الثاني الميداني، وبالتالي يكون تعيين اللواء تيسير العقاد رئيسا لأركان هذا الجيش يعني أنه ـ من وجهة نظر القيادة العامة ـ لديه الصلاحية والمؤهلات لتولي منصب قائد الجيش الثاني في حالة تنحي اللواء سعد مأمون عن قيادته كما جرى يوم ١٤ أكتوبر بسبب المرض الذي أصابه.

ولكن الذي جرى كان أمرا مختلفا تماما عما كان متوقعا؛ ففي الساعة الثانية عشرة

والنصف ظهراً يوم ١٦ أكتوبر تم استدعاء اللواء عبد المنعم خليل قائد المنطقة المركزية بالقاهرة إلى القيادة العامة المركز ١٠ لمقابلة الفريق سعد الشاذلي رئيس الأركان الذي عهد إليه بمسئولية قيادة الجيش الثاني، وطلب منه التوجه إلى مركز القيادة المتقدم للجيش في الإسماعيلية ليتولى القيادة على الفور. وعندما طلب اللواء عبد المنعم معلومات عن أوضاع قواتنا أحاله الفريق سعد الشاذلي إلى اللواء محمد غنيم نائب رئيس هيئة العمليات الذي أوضح له على الخريطة فكرة عامة عن أوضاع الجيشين الثاني والثالث. أما عن آخر تطورات الموقف بالنسبة للعدو فلم تزد المعلومات التي تلقاها سواء من الفريق الشاذلي أو من اللواءغنيم على أن ٧ دبابات إسرائيلية قد عبرت القناة عند الدفرسوار، وأن عناصر من الصاعقة من الجيش الثاني مشتبكة معها وتمكنت من تدمير بعضها، وأن الموقف بصفة عامة غير واضح حتى الآن.

ونظرا لأن الفريق سعد الشاذلي كان يتعجل رحيل اللواء عبد المنعم خليل إلى القناة بإلحاح واضح، فقد استقل اللواء عبد المنعم عربة جيب واتجه إلى مركز القيادة المتقدم للجيش الثاني بالإسماعيلية حيث وصله في الساعة الرابعة مساء. وفي مركز القيادة التقى اللواء عبد المنعم خليل مع اللواء تيسير العقاد رئيس الأركان والذي كان يتولى قيادة الجيش بالنيابة، كما قام بزيارة اللواء سعد مأمون الذي كان لا يزال راقدا في ملجأ الاستراحة ولكن الأطباء قاموا بنقله إلى مستشفى القصاصين بعد وصول اللواء عبد المنعم ومنه إلى مستشفى المعادي.

وفي الساعة الرابعة والنصف مساء اتصل القائد العام الفريق أول أحمد إسماعيل باللواء عبد المنعم خليل هاتفيا عقب عودته من جلسة مجلس الشعب وسأله عن الموقف، فأجابه أنه وصل فقط إلى قيادته منذ نصف ساعة وأنه لا يزال منهمكا في دراسة الموقف. فتمنى له أحمد إسماعيل التوفيق واستحثه على ضرورة تدمير الدبابات الإسرائيلية التي تسللت إلى الدفرسوار هذه الليلة. وعلى أثر ذلك بدأ قائد الجيش الثاني الجديد في الاتصال هاتفيا بقادة التشكيلات الذين تحت قيادته لإبلاغهم بتوليه قيادة الجيش ولمعرفة أوضاع وحداتهم وأوضاع العدو الذي يواجههم، وطلب من فرعي العمليات والاستطلاع موافاته بآخر معلومات لديهم عن القوة الإسرائيلية التي عبرت إلى غرب القناة.

هذا وقد كان من أهم الأسباب التي دعت القيادة العامة إلى اختيار اللواء عبد المنعم خليل لتولي قيادة الجيش الثاني هو أنه سبق له قيادة هذا الجيش مدة تقرب من ثلاث سنوات، كان من بينها فترة حرب الاستنزاف التي أبلى فيها الجيش تحت قيادته بلاء حسنا،

ولكنه كان قد سلم قيادة الجيش الثاني في ٥ يناير ١٩٧٢ إلى اللواء سعد مأمون أي أنه ابتعد عن هذا الجيش حوالي ٢١ شهرا.

ورغم اعترافنا بكفاءة اللواء عبد المنعم خليل وقدراته العسكرية والذهنية، ورغم اقتناعنا بصفاته الشخصية ومؤهلاته التي جعلت منه قائدا ناجحا ومحبوبا في مختلف القيادات التي تولاها، فإن تعيينه قائدا للجيش الثاني بهذه الطريقة المفاجئة وإرساله رأسا من القاهرة إلى ميدان القتال ليتولى قيادة الجيش في أخطر مرحلة من مراحل الحرب دون أن يكون له اتصال سابق بمجرى العمليات في ساحة القتال أو يكون على دراسة بالموقف المتدهور الذي بات عليه أن يواجهه هو خطأ كبير بلا شك، وفيه إجحاف باللواء عبد المنعم خليل وتاريخه، لأنه لا يعني سوى أنه قد أرسل ليواجه الفشل الذي لم يرض أحد من القادة الكبار بالمركز ١٠ أن يواجهه.

إن القائد الذي كان من المفترض تعيينه في هذه القيادة الميدانية الكبرى في مثل تلك الظروف كان لا بد أن يتوافر فيه شرطان أساسيان أولهما: أن يكون من المتصلين منذ بداية الحرب بسير العمليات على طول الجبهة وعلى دراية تامة بأوضاع قواتنا وقوات العدو، بحيث لا يحتاج إلى تلقين من أحد عند تعيينه ليبسط له الخريطة ويشرح له الموقف، أو يحتاج إلى إجراء اتصالات مع قادة التشكيلات الذين تحت قيادته ليعرف منهم حقيقة الأوضاع في قطاعاتهم عند وصوله إلى مركز قيادته، وهو الأمر الذي اضطر اللواء عبد المنعم خليل مرغما إلى اتباعه. أما الشرط الثاني والذي كان يتعلق بالوضع العسكري الذي كان قد تدهور في قطاع الجيش الثاني بهذه الصورة الخطيرة، فقد كان من الضروري إزاء هذه الحالة اختيار قائد له ثقله ووزنه في المركز ١٠ بالقيادة العامة حتى يمكن للقائد العام منحه التفويض الكامل لممارسة سلطاته هناك بحيث يكون من حقه ومن ضمن صلاحياته اتخاذ القرارات الفورية على الطبيعة وبما يتلاءم مع الموقف الذي يواجهه دون الرجوع إلى المركز ١٠ لإبلاغهم بكل موقف جديد يطرأ أمامه وبالقرار الذي اتخذه للحصول على التصديق اللازم مما يضيع الوقت سدى. فإذا طبقنا هذين الشرطين على القادة الموجودين وقتئذ وجدنا أنهما لا ينطبقان إلا على واحد من اثنين: إما الفريق سعد الشاذلي رئيس الأركان، وإما اللواء عبد الغني الجمسي رئيس هيئة العمليات.

ويحق لنا الآن بعد مرور هذه السنوات أن نطرح هذا السؤال المهم على القادة العسكريين المصريين السابقين والحاليين: أيهما كان أفضل وأجدى لمصر: أن يبقى الشاذلي والجمسي في المركز ١٠ يتلقيان الإشارات اللاسلكية ويتناقشان أمام الخرائط وينظران إلى الأسهم التي تدل على تحركات العدو وتحركات قواتنا، أو أن يذهب أحدهما إلى مركز

القيادة المتقدم ليقود بنفسه المعركة الضارية التي كانت تدور رحاها وقتئذ، والتي كان يتوقف عليها مصير مصر ومستقبل الحرب؟! إن معركة العبور الإسرائيلي إلى الدفرسوار تعتبر بلا شك نقطة التحول Turning Point بالنسبة لحرب أكتوبر ٧٣ ولم تكن هناك معارك أخرى سواها على طول الجبهة. وكانت تلك الحقيقة تستدعي أن تحشد القيادة العامة كل ما لديها من خبرات وقدرات قيادية، وليس ما لديها من قوات فقط، في سبيل إنقاذ الموقف. وكان الأمر يستدعي بلا شك إما وجود القائد العام بنفسه لقيادة هذه المعركة المصيرية، وإما أن يرسل على الأقل ممثلا شخصيا له يمنحه كل صلاحياته ليحل محله في هذه المهمة. ولم يكن غياب الشاذلي أو الجمسي عن المركز ١٠ سيؤدي إلى أي قصور أو ارتباك في العمل، فقد كان في إمكان الحاضر منهما أن يتولى بالإضافة إلى عمله اختصاص زميله الغائب الذي أرسل إلى الميدان ليتولى القيادة.

وليس هذا الأمر بدعة لم يسبق حدوثها من قبل في تاريخ الحروب، فلقد جرى موقف مماثل في تاريخ معاصر، وذلك في حرب الصحراء الغربية أثناء الحرب العالمية الثانية. فحينما ألحق القائد الألماني الشهير الفيلد مارشال إروين روميل هزيمة ساحقة بقوات الجنرال البريطاني ريتشي في معركة الغزالة التي انسحب على أثرها الجيش البريطاني نحو الحدود المصرية في حالة عارمة من الفوضى والارتباك، في الوقت الذي تقدم فيه روميل بقواته في برقة على الطريق الساحلي في اتجاه الإسكندرية، وواجهت بريطانيا أخطر محنة صادفتها في الشرق الأوسط، قام الفيلد مارشال كلود أوكنلك Claude Auchin-leck القائد العام للقوات البريطانية في الشرق الأوسط بعزل الجنرال ريتشي عن قيادته في ٢٥ يونيو ١٩٤٢، وتوجه هو بنفسه إلى ميدان القتال حيث تولى قيادة الجيش الثامن وأمكنه وقف القوات الألمانية عند خط العلمين. ولم يجد الجنرال أوكنلك غضاضة وهو القائد العام لجميع الجيوش البريطانية في الشرق الأوسط في أن يتولى بنفسه قيادة أحد الجيوش الميدانية التابعة له في سبيل إنقاذ بلاده من محنتها.

خطاب السادات في مجلس الشعب

كانت الحكومة الأمريكية على يقين من أن إسرائيل في خلال ٤٨ ساعة فقط من بدء القتال في ٦ أكتوبر ٧٣ سوف تتمكن من استعادة المبادأة وهزيمة القوات المصرية والسورية، لذا حاول الدكتور هنري كيسنجر وزير الخارجية الأمريكية ـ دون جدوى ـ إقناع الاتحاد السوفيتي ومصر بتأييد قرار يصدره مجلس الأمن بوقف إطلاق النار وعودة القوات المتحاربة إلى خطوط ما قبل ٦ أكتوبر.

وعندما أرسل كيسنجر إلى حافظ إسماعيل في ٩ أكتوبر رسالة يستفسر منه فيها عن الخطوة القادمة لمصر، رد عليه حافظ إسماعيل مستشار الرئيس لشئون الأمن القومي يوم ١٠ أكتوبر أن شروط مصر لتسوية الموقف تتحدد في خمس نقاط:

١ - وقف إطلاق النار وانسحاب إسرائيل إلى خطوط ما قبل ٥ يونيو ٦٧ تحت إشراف الأمم المتحدة.

٢ - حرية الملاحة في مضايق تيران وضمانها بتواجد الأمم المتحدة في شرم الشيخ لفترة محددة.

٣ - إنهاء حالة الحرب مع إتمام الانسحاب الإسرائيلي.

٤ - حق تقرير المصير لسكان قطاع غزة.

٥ - عقد مؤتمر سلام تحت إشراف الأمم المتحدة خلال فترة محددة من إنهاء الحرب.

وعندما استمرت الانتصارات المصرية وفشل الهجوم المضاد الإسرائيلي، غيّر كيسنجر موقفه وتبنى الدعوة إلى قرار جديد يصدره مجلس الأمن بوقف القتال على الخطوط الحالية. وأوعزت الولايات المتحدة إلى إدوارد هيث رئيس وزراء بريطانيا بعرض هذا الاقتراح على مصر فأرسل مضمونه بالفعل إلى السادات في رسالة أبلغها له سير فيليب آدمز السفير البريطاني بالقاهرة في لقاء تم بينهما في الساعة الخامسة من صباح يوم ١٣ أكتوبر.

لكن السادات رفض الاقتراح وذكر أنه سيطلب من الصين الشعبية استخدام حق (الفيتو) إذا قامت القوتان العظميان بتقديمه إلى مجلس الأمن.

ومع فشل تطوير الهجوم المصري يوم ١٤ أكتوبر وبداية الهجوم المضاد الإسرائيلي على الجبهة المصرية ابتداء من ١٥ أكتوبر، رأى السادات أن الموقف يستدعي وجوب البحث عن حل سياسي. لذا اعتزم إلقاء خطاب أمام مجلس الشعب ظهر يوم ١٦ أكتوبر، وكان القصد الحقيقي منه أن يعلن على العالم خطته لإحلال السلام في الشرق الأوسط.

وقد ذكر السادات في ذلك الخطاب استعداد مصر لقبول وقف إطلاق النار في حالة قبول إسرائيل الانسحاب إلى خطوط ما قبل ٥ يونيو ٦٧ تحت إشراف دولي. وأعلن السادات أنه فور إتمام هذا الانسحاب فإن مصر مستعدة لحضور مؤتمر دولي للسلام تعقده الأمم المتحدة وأنه سوف يبذل قصارى جهده لإقناع القادة العرب المعنيين وممثلي الشعب

الفلسطيني للمشاركة في المؤتمر. وأكد السادات أن مصر تنوي البدء فورا في أعمال تطهير قناة السويس لكي يمكن فتحها للملاحة الدولية.

ونظرا لأن جولدا مائير رئيسة وزراء إسرائيل كان من المقرر أن تلقي خطابا لها أمام الكنيست في نفس الوقت المحدد للسادات لإلقاء خطابه أمام مجلس الشعب، لذلك قررت جولدا تأجيل خطابها إلى الساعة الرابعة مساء لكي يمكنها سماع خطاب السادات والرد عليه. وعندما ألقت جولدا مائير خطابها كان أهم ما أثار التفات العالم بأسره وقتئذ ما ذكرته من أن القوات الإسرائيلية تقاتل الآن شرق وغرب القناة. وكانت هذه الفقرة من الخطاب مفاجأة مذهلة للسادات، لذا بادر إلى الاتصال هاتفيا بالقائد العام الفريق أول أحمد إسماعيل الذي أبلغه أنه علم الآن فقط عند رجوعه من مجلس الشعب إلى مركز القيادة بأن ٧ دبابات إسرائيلية قد نجحت في العبور إلى غرب القناة وأن القيادة المحلية هناك سوف تتولى تدميرها في الحال. وكانت هذه البلاغات الخاطئة المضللة التي أرسلت إلى القيادة العامة هي نقطة البداية للخطأ الجسيم الذي تم ارتكابه في حرب أكتوبر ٧٣، وكانت هي المقدمة المؤسفة للمأساة التي جرت بعد ذلك.

محادثات كوسيجين والسادات

على أثر انتهاء الرئيس الراحل السادات من إلقاء خطابه أمام مجلس الشعب تلقى رسالة لاسلكية من الرئيس السوري حافظ الأسد كانت تعكس بوضوح بداية التصدع في صرح العلاقات الوثيقة بين الدولتين الحليفتين سواء في الناحية العسكرية أو السياسية، فقد بعث حافظ الأسد يقول: «لقد كنت أفضل بينما نحن ما نزال في منتصف المعركة أن أطلع على المقترحات التي أعلنتموها من جانبكم أمام مجلس الشعب قبل أن تذاع على الملأ. لست أريد أن أحذو حذو الآخرين باتخاذي موقف التأييد أو المعارضة لهذه القرارات. ولكني أشعر أن كلا منا له الحق في معرفة أفكار وأهداف الآخر قبل سماعها عن طريق الإذاعة. لا أشعر بالسعادة وأنا أكتب هذه الكلمات، ولكني لا أريد أن أخفي عنكم أيا من آرائي وأفكاري منذ اشتبكنا جنبا إلى جنب في معركة حياة أو موت».

وأجاب السادات على الفور على الرسالة قائلا: «الأخ حافظ. إن المقترحات التي أعلنتها بالأمس كانت ترتكز أساسا على السياسة التي اتفقنا عليها معا. ولم يكن بها أي جديد يدعو إلى التشاور ما دامت تشترط الانسحاب الإسرائيلي وحقوق الشعب الفلسطيني. لقد اضطررت إلى التعجيل بهذا الخطاب عندما علمت أن جولدا مائير على

وشك توجيه خطاب إلى الكنيست الإسرائيلي. ونظرا لاقتناعي بضرورة مضينا في المعركتين العسكرية والسياسية جنبا إلى جنب، لذا رأيت أنه يمكننا بإعلان هذه المقترحات التحرك إلى الأمام، علما بأنه ليس هناك أي مجال للمناورة في الصيغة التي اقترحتها. إذا استجد أي أمر جديد فلا بد لنا بالطبع من التشاور معا، وأنا أشعر بسعادة كبيرة لأن مشاعركم لم تتغير نحوي».

وفي الساعة الخامسة مساء من نفس اليوم ١٦ أكتوبر، وصل رئيس الوزراء السوفيتي كوسيجين إلى القاهرة، وبدأت على الفور محادثاته مع السادات. كان السوفيت يريدون وقف إطلاق النار على الخطوط الحالية، وكانوا على اتفاق تام في ذلك الأمر مع الولايات المتحدة. وقد أوضح كوسيجين للسادات أن الحرب في الشرق الأوسط وصلت إلى مفترق الطرق، وأن العرب غير قادرين على تحقيق مكاسب أخرى، وأنه من المتوقع الآن أن يبدأ انحدارهم، فقد فشلت عملية تطوير الهجوم المصري نحو الشرق يوم ١٤ أكتوبر، كما انسحبت القوات السورية من هضبة الجولان، وأصبحت دمشق داخل مرمى المدافع الإسرائيلية، وأن المعركة حاليًا مع معدل خسائرها المرتفع في الأسلحة والمعدات تعتبر خطيرة.

وقد استمرت محادثات كوسيجين مع السادات طوال اليومين التاليين، وكان يقضي اليوم كله في السفارة السوفيتية ويقابل السادات في المساء، ومن المرجح أن كوسيجين لم تكن لديه أي معلومات عن العبور الإسرائيلي لقناة السويس عندما غادر موسكو، ولكن الأنباء التي وصلته بعد ذلك خلال زيارته للقاهرة أدت إلى ازدياد ضغطه على السادات من أجل قبوله لقرار يصدره مجلس الأمن بوقف إطلاق النار على الخطوط الحالية.

وعندما أوضح له السادات أن ما جرى هو محض إغارة إسرائيلية محدودة بقصد إحداث التأثير النفسي، عرض عليه كوسيجين مساء يوم ١٨ أكتوبر صورا تم للأقمار الصناعية السوفيتية التقاطها، وأرسلت على وجه السرعة من موسكو إلى القاهرة، وكانت تظهر بوضوح رأس الكوبري الإسرائيلي على ضفتي القناة. وحاول كوسيجين إقناع السادات بوجوب التساهل وعدم التمسك بالشرط الذي أعلنه في خطابه، وهو ضرورة إعلان إسرائيل موافقتها على مبدأ الانسحاب إلى خطوط ما قبل ٥ يونيو ٦٧ قبل أن تعلن مصر قبولها لقرار وقف إطلاق النار. ورغم أن الموقف المتحرج غرب القناة جعل السادات أميل إلى التساهل، فإنه كان يخشى من التأثير النفسي في الشعب المصري في حالة تنازله عن هذا الشرط، كما كان يخشى من التأثير السياسي السيئ في الدول العربية الأخرى

وبخاصة حليفته سوريا. وهكذا لم تصل محادثات السادات وكوسيجين إلى حل نهائي، وقفل الرئيس السوفيتي عائدا إلى بلاده يوم ١٩ أكتوبر.

أوضاع القوات المصرية داخل رأس الكوبري الموحد

واجهت وحدات الفرقة ٢١ المدرعة ـ بعد عملية تطوير الهجوم شرقا يوم ١٤ أكتوبر التي انتهت بالفشل ـ أعباء جسيمة، فقد صدرت تعليمات قيادة الجيش الثاني إلى قيادة الفرقة بوجوب إعادة تجميع وحداتها داخل رأس كوبري الفرقة ١٦ مشاة قبل انتهاء يوم ١٥ أكتوبر.

ورغم خسارة الفرقة ٢١ المدرعة حوالي ٥٠٪ من دباباتها التي اشتركت في عملية تطوير الهجوم فقد واصلت وحدات الفرقة عملية إعادة التجميع وفقا للمهام التي خصصها لها العميد أ.ح إبراهيم العرابي قائد الفرقة طوال يوم ١٥ أكتوبر في وجه قصف جوي مركز من العدو ونيران مدفعية بعيدة المدى عيار ١٥٥م و١٧٥م، وأمكن لألوية الفرقة الثلاثة التمركز في المناطق المخصصة لها كما يلي:

اللواء الأول المدرع (٦٦ دبابة) تمركز في منطقة محطة ٣ (الإسماعيلية شرق) استعدادا لصد أي اختراق، اللواء ١٤ المدرع (٣٩ دبابة) تمركز في منطقة غرب أبو وقفة لتدعيم دفاعات لواء اليسار من الفرقة ١٦ مشاة، اللواء ١٨ مشاة ميكانيكي (٣١ دبابة) وضع تحت قيادة الفرقة ١٦ مشاة وتمركز في منطقة شرق طوسون استعدادا للقيام بالهجوم المضاد لحماية الجنب الأيمن للفرقة ١٦ مشاة.

وفي ليلة ١٥ / ١٦ أكتوبر ـ كما أسلفنا ـ نجحت بعض الدبابات الإسرائيلية في اختراق الموقع اليمين للواء ١٦ مشاة، وتقدمت شمالا في اتجاه قرية الجلاء (المزرعة الصينية) كما اندفعت الدبابات الإسرائيلية من لواء آمنون المدرع التابع لفرقة الجنرال شارون إلى مناطق الشئون الإدارية للفرقتين ١٦ مشاة و٢١ المدرعة بعد أن تحركت بحذاء الساتر الرملي للقناة بعيدا عن مرمى نيران دفاعات اللواء ١٦ مشاة (الجنب الأيمن للفرقة ١٦ مشاة) واقتربت من مركز القيادة الرئيسي لكل من الفرقتين ١٦ مشاة و٢١ المدرعة. وفي مواجهة هذا الهجوم تم دفع كتيبة دبابات عدا سرية من اللواء ١٨ مشاة ميكانيكي وكتيبة دبابات من اللواء ١٤ المدرع لحصر دبابات العدو في ثغرة الاختراق ومنعه من توسيعها. وقامت الكتيبتان بشن هجوم مضاد وأجبرت الدبابات الإسرائيلية على الارتداد جنوبا بعد أن كبدتها خسائر جسيمة.

وكانت الخطة التي صدقت قيادة الجيش الثاني على تنفيذها لمنع العدو من توسيع اختراقه شمالا هي تحريك اللواء ١٨ مشاة ميكانيكي من منطقة تمركزه شرق طوسون لاحتلال خط دفاعي خلف قطاع اللواء ١٦ مشاة شمال قرية الجلاء (بدون كتيبة الدبابات)، فقد تم وضع هذه الكتيبة تحت تصرف قائد الفرقة ١٦ مشاة للعمل كاحتياطي عام للفرقة، وفي نفس الوقت تحريك اللواء الأول المدرع من منطقة تمركزه في المحطة ٣ (الإسماعيلية شرق) لاحتلال الخط شمال المغذي الرئيسي (بمحاذاة موقع اللواء ١٨ مشاة ميكانيكي بين الطريق العرضي رقم ١ وقناة السويس). وقد اشتبك اللواء الأول المدرع فور وصوله مع مجموعات من الدبابات من اللواء المدرع الإسرائيلي بقيادة آمنون وهي التي نجحت في الوصول إلى قرية الجلاء، ودمر منها حوالي ١٥ دبابة وبعض العربات المدرعة نصف جنزير.

وفي الساعة الواحدة ظهرا، تم تنفيذ طلعة طيران مصرية قوية على قرية الجلاء وأحدثت خسائر كبيرة بالدبابات الإسرائيلية، وفي الساعة الثانية ظهرا حاول العدو تطويق اللواء الأول المدرع بالالتفاف بكتيبة دبابات على جنبه الأيسر، ولكن اللواء الأول تمكن من تدمير ١٠ دبابات منها وأجبر الباقي على الانسحاب جنوبا. واستمر القصف العنيف من الجو ومن المدفعية الإسرائيلية بعيدة المدى على وحدات الفرقة ٢١ المدرعة، وتركزت بوجه خاص على اللواء الأول المدرع. وبلغت خسائر العدو خلال قتاله مع الفرقة ٢١ المدرعة طوال يوم ١٦ أكتوبر حوالي ٥٠ دبابة وعربة مدرعة نصف جنزير مع أسر دبابتين سليمتين.

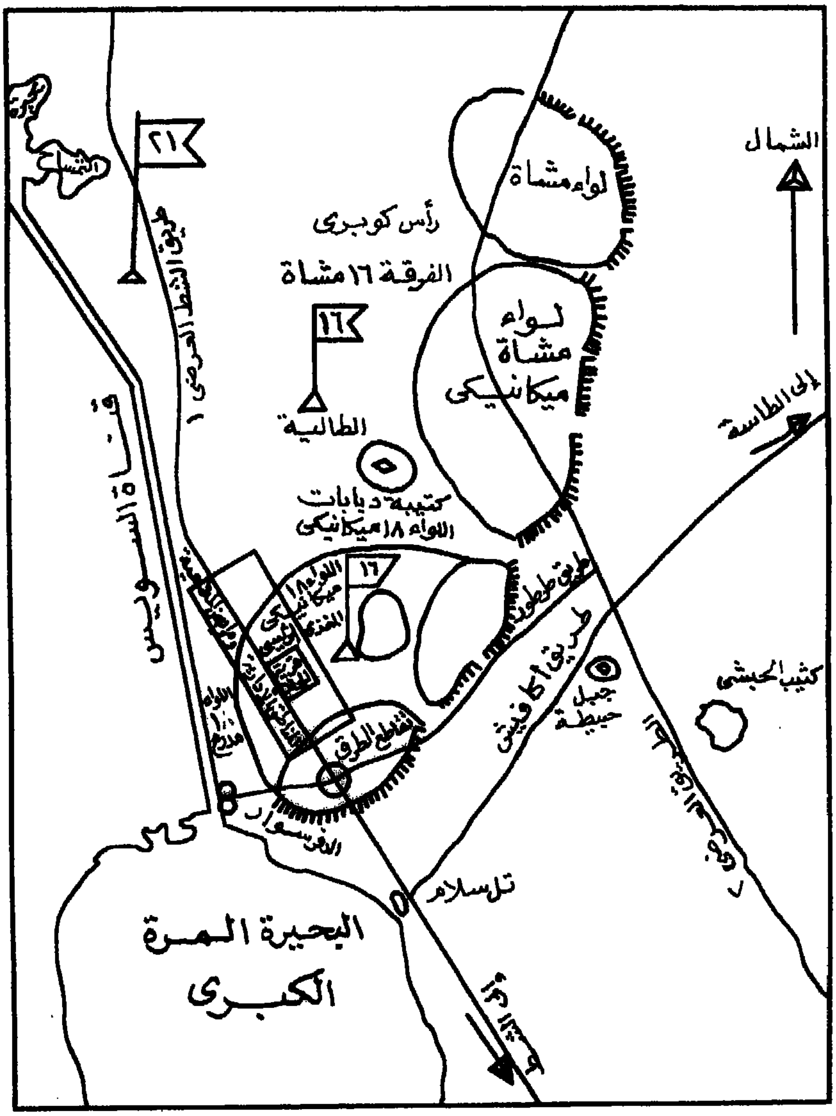
وعلى الرغم من الخسائر الكبيرة التي تكبدها العدو، فقد واصل هجماته على الجنب الأيمن للفرقة ١٦ مشاة في موجات متوالية من الدبابات تحت ستر غطاء جوي قوي لتعزيز قواته التي نجحت في الاختراق. وقد بلغ عدد الدبابات الإسرائيلية التي تمركزت غرب قرية الجلاء حوالي ٣٠ دبابة وساعدها على الاختفاء استغلالها لطبيعة الأرض والمباني والترع والمصارف الجافة التي كانت موجودة داخل القرية.

وحوالي الساعة الثالثة والنصف مساء صدر قرار من القيادة العامة المركز ١٠ إلى قيادة الجيش الثاني بضرورة استعادة الموقف على الجنب الأيمن للفرقة ١٦ مشاة وتصفية قوة العدو التي قامت بالاختراق.

ولضمان توحيد القيادة وإحكام السيطرة على رأس كوبري الفرقة ١٦ مشاة الذي كان يضم الفرقتين ١٦ مشاة و٢١ المدرعة معا، أصدر اللواء تيسير العقاد قائد الجيش الثاني

بالنيابة أمرًا بأن يتولى العميد أ. ح عبد رب النبي حافظ قيادة جميع القوات داخل رأس الكوبري باعتباره القائد الأقدم. كما أصدر تعليمات قتال إلى الفرقتين ١٦ مشاة و٢١ المدرعة كانت تقضي بقيام الفرقة ٢١ المدرعة باستغلال ضربة الطيران والتمهيد النيراني للمدفعية لمدة ١٠ دقائق لتدمير العدو الذي قام بالاختراق وتمركز في قرية الجلاء ومنعه من الانسحاب جنوبا مع استمرار تماسك وثبات رأس كوبري الفرقة ١٦ مشاة واستعادة الأوضاع إلى ما كانت عليه على جنبها الأيمن وكان ذلك تنفيذا لقرار القيادة العامة.

وفي الساعة الرابعة مساء، وصل من القاهرة اللواء عبد المنعم خليل إلى مركز القيادة المتقدم للجيش الثاني بالإسماعيلية حيث تولى مسئولية القيادة. وعلى أثر ذلك تم إلغاء الأمر السابق بتولي العميد أ. ح عبد رب النبي قائد الفرقة ١٦ مشاة مسئولية قيادة جميع قوات رأس الكوبري، ودُعيَ قائدا الفرقتين ١٦ مشاة و٢١ المدرعة لحضور مؤتمر لتنظيم التعاون بين الفرقتين في الساعة الثامنة مساء بمركز القيادة المتقدم للفرقة ٢١ المدرعة برئاسة اللواء تيسير العقاد رئيس أركان الجيش الثاني، ولكن اللواء تيسير العقاد لم يتمكن من الحضور إلى مكان المؤتمر إلا في حوالي الساعة العاشرة مساء بسبب سحب جميع معابر الفرقة ١٦ مشاة شمالا في اتجاه الإسماعيلية لتعرضها للضرب الأرضي المباشر من قوة العدو الموجودة شرق القناة عند نقطة العبور في الدفرسوار، وكذا للقصف الجوي المركز بعد نجاح دبابات العدو التي عبرت إلى غرب القناة في إسكات وتدمير عدد من كتائب الصواريخ سام ٢ وسام ٣، مما أدى إلى حدوث ثغرة في شبكة الدفاع الجوي المصري، وهو الأمر الذي أتاح لطائرات العدو فرصة القيام بغاراتها الجوية على الكباري والمعابر والقوات الأرضية شرق وغرب القناة، وأصبح العبور الخاص بالفرقتين ١٦ مشاة و٢١ المدرعة محصورا في كباري ومعابر الفرقة ٢ مشاة المتمركزة شمالا في قطاع الفردان مع استخدامها ليلا فقط نظرا لنشاط طائرات العدو أثناء النهار. ولهذا السبب قام اللواء تيسير بعبور القناة بواسطة معدية برمائية سوفيتية الصنع من طراز PTS من إحدى نقاط العبور في قطاع الفرقة ٢ مشاة. وخلال مؤتمر تنظيم التعاون الذي عقده اللواء تيسير بمركز القيادة المتقدم للفرقة ٢١ المدرعة وحضره العميد عبد رب النبي والعميد إبراهيم العرابي، اتضح من دراسة أوضاع الفرقتين عدم إمكان الفرقة ٢١ المدرعة وحدها ـ نظرا للمعارك العنيفة التي خاضتها وحدات الفرقة ونظرا للخسائر الجسيمة التي منيت بها منذ يوم ١٤ حتى يوم ١٦ أكتوبر ـ القيام بالهجوم المضاد لإغلاق ثغرة الاختراق وتدمير الدبابات الموجودة في قرية الجلاء واستعادة الموقف على الجانب الأيمن للفرقة ١٦ مشاة، وفقا لتعليمات القتال التي صدرت عن قيادة الجيش الثاني في الساعة الرابعة مساء تنفيذا لقرار القيادة العامة (المركز ١٠).



كروكي

معركة المزرعة الصينية يوم ١٦ أكتوبر.

وقبل انتهاء المؤتمر فوجئ القادة الحاضرون بأن العميد إبراهيم العرابي قائد الفرقة ٢١ المدرعة مطلوب على جهاز الاتصال اللاسلكي للتخاطب مع القيادة العامة المركز ١٠ بالقاهرة، ودار حديث بينه وبين القائد العام الفريق أول أحمد إسماعيل الذي أخذ يؤكد فيه ضرورة قيام الفرقة ٢١ المدرعة بإغلاق ثغرة الاختراق وتدمير العدو الموجود داخلها واستعادة الموقف إلى ما كان عليه من قبل. ثم طلب منه محادثة الرئيس الراحل السادات الذي كان موجوداً وقتئذ بالمركز (١٠). ودار حديث قصير بين السادات وعرابي انتهى بعبارة مؤثرة حينما اختتم السادات حديثه قائلا: «شرف مصر يا عرابي».

ونظرا لأن اللواء تيسير العقاد وصل إلى شرق القناة في عربة جيب ولم يكن معه سوى ضابط إشارة مع جهاز R 151 وجندي واحد للحراسة ولم يزود بأي طاقم للقيادة أو أي وسائل للاتصال؛ فقد اضطر كل من قائدي الفرقتين ١٦ و٢١ المدرعة إلى أن يعرض عليه أن يبقى معه في مركز قيادته حتى يمكنه إدارة أي عمليات في المستقبل باستخدام الإمكانات المتاحة لديه، ولكن اللواء تيسير فضل البقاء في مركز القيادة المتقدم للعميد إبراهيم العرابي قائد الفرقة ٢١ المدرعة.

مؤتمر كيشوف KISHUF الإسرائيلي

عندما كانت المعركة بين لواء المظلات الإسرائيلي بقيادة العقيد عوزى مائيري واللواء ١٦ مشاة محتدمة ليلة ١٦ / ١٧ أكتوبر، أمر الجنرال إبراهام أدان (برن) قائدي لواءيه المدرعين (العقيدين نيتكا وجابي) بالتحرك وتطهير محوري أكافيش وطرطور. وعندما لاحظ برن أن لواء توفيا (من ضمن تشكيل فرقة شارون) منتشر بدباباته أمام مواجهة الفرقة ١٦ مشاة دون القيام بأي أعمال قتالية فعالة، في الوقت الذي كان فيه اللواءان التابعان لفرقته مشتبكين في قتال عنيف لفتح محوري التقدم؛ فقد طلب من الجنرال جونين التصديق على وضع اللواء المدرع بقيادة العقيد توفيا تحت قيادته إلى حين الانتهاء من مهمته. ووافق جونين في الحال.

وهكذا أخذ برن يضغط على قوات الفرقة ١٦ مشاة المتمركزة في مجال الممر الإسرائيلي ضغطا متزايدا بثلاثة ألوية مدرعة من الشرق إلى الغرب، وتمكنت إحدى وحدات دباباته من إخلاء قوة المظلات المتورطة والتي كانت تقاتل ضد اللواء ١٦ مشاة من مواقعها حوالي الساعة الحادية عشرة صباحا يوم ١٧ أكتوبر.

وفي نفس هذا اليوم عند الظهر، وصل موشى ديان وزير الدفاع الإسرائيلي إلى مركز

القيادة المتقدم للجنرال برن على أحد التلال بالقرب من موقع كيشوف (جنوب تقاطع طريق أكافيش مع الطريق العرضي رقم ٢). ووصل على أثره مباشرة الجنرال حاييم بارليف، وبعد قليل هبطت طائرة هليكوبتر نزل منها الجنرال دافيد أليعازر رئيس الأركان وبرفقته يوري بن آري نائب الجنرال جونين. وأخيرا وصل الجنرال شارون في عربة نصف جنزير وكان معصوب الرأس بسبب إصابة جبهته بجروح بسيطة من شظايا قذيفة مصرية. وعقد القادة الحاضرون مجلس حرب بعد أن جلسوا جميعا في دائرة على التل وأمامهم الخرائط. وكان للخسائر الفادحة والضغط المصري المستمر والقصف الجوي والمدفعي تأثيره في ظهور التوتر والقلق على الحاضرين، يضاف إلى ذلك أن العلاقات الشخصية لم تكن تتميز بطابع الانسجام خاصة بين أليعازر وبارليف من جانب وشارون من جانب آخر. كان شارون مقتنعا بأنهم متعصبون ضده ولا يثقون بآرائه بالنسبة للمعركة، وكان رؤساؤه دائمي الشكوى من تجاهله المستمر لأوامرهم ومن أنه يستلهم في كل تصرفاته دوافع شخصية، وهي تسليط الأضواء على شخصه وعلى الإنجازات التي حققها وحده، وأنه يخرج على المبادئ الأولية للنظام العسكري بالاتصال تليفونيا بأصدقائه وبالشخصيات السياسية في تل أبيب من مقر قيادته في إفريقيا (التعبير الذي أطلقه شارون على الضفة الغربية للقناة)، كما كان يقحم هؤلاء الأصدقاء بطريقة غير قانونية في الشئون العسكرية. وكان شارون الذي سبق له مرة أخرى في الصباح الباكر المجادلة بإلحاح مع رؤسائه في ضرورة عبور دبابات فرقة الجنرال برن على أطواف عائمة عبر القناة، قد حضر إلى هذا المؤتمر ليعرض اقتراحا آخر يحقق له مزيدا من الشهرة والمجد.

كان اقتراح شارون أن تقوم قوات الجنرال أدان (برن) بغيار قواته المتمركزة في رأس الكوبري على ضفتي القناة، وبذا يمكن لفرقة شارون استكمال عبور القناة واستغلال النجاح غرب القناة بالاندفاع جنوبا خلف الجيش الثالث المصري. ولكن برن اعترض بشدة على ذلك الاقتراح، وذكر أن وحداته قد ظلت تقاتل طوال ٣٠ ساعة متواصلة لتحقيق الأهداف التي أسندت مسئولية تنفيذها من قبل إلى شارون ولم يتمكن من تحقيقها، وأن هذا الاقتراح ليس إلا محاولة من شارون لاكتساب كل ما يمكنه من الشرف والمجد. وقبل أن تمتد المناقشة بين شارون وبرن، تدخل الجنرال أليعازر رئيس الأركان وحسم الموقف. وكان رأيه أن التخطيط للعملية «القلب الشجاع» قد تم بحكمة وبراعة، وعلى الرغم من حدوث بعض التعطيل في التنفيذ فإنه لا يوجد أي سبب يدعو إلى إجراء أي تغييرات في الخطة الأساسية. لذا ينبغي أن يستكمل شارون عملياته للتمسك برأس

الكوبري وتأمين الممر المؤدى إليه. وعندئذ تعبر فرقة برن من خلاله إلى غرب القناة لاستغلال النجاح في اتجاه الجنوب، وعلى أثر ذلك تتسلم فرقة الجنرال كلمان ماجن رأس الكوبري وتلحق فرقة شارون بفرقة برن.

وبناء على إلحاح شارون في ضرورة تعزيز كتيبة الدبابات من لواء حاييم (٣٠ دبابة) التي عبرت إلى غرب القناة على أطواف عائمة فجر يوم ١٦ أكتوبر نظرا لتعرضها لبعض الخسائر، وافق الجنرال بارليف على عبور بعض دبابات إضافية على أطواف عائمة أيضا لتصل قوة حاييم إلى لواء مدرع كامل، على ألا يتم عبور أي دبابات أخرى إلا بعد إقامة الجسور الثابتة عبر القناة. وحوالي الساعة الواحدة ظهرا كف القادة في المؤتمر عن النقاش بعد أن تركز اهتمامهم صوب ما يجرى في الجنوب. وكانت رسالة من الجنرال كلمان ماجن قائد القطاع الجنوبي قد وصلتهم عند بدء المؤتمر بأن نقاط استطلاعه قد سجلت تحركا لرتل مدرع مصري على مقربة من الشاطئ الشرقي للبحيرة المرة الكبرى في طريقه إلى الشمال. وقبل انتهاء المؤتمر تلقوا رسالة أخرى من العقيد آمنون الذي كان لا يزال منهمكا في إعادة تنظيم لوائه المدرع وفي إصلاح دباباته المعطوبة بالقرب من حصن لاكيكان (تل سلام) بأن عاصفة ضخمة من الغبار تهب عليه من اتجاه الجنوب وتدل على اقتراب الرتل المدرع المصري الذي قام الجيش الثالث بدفعه إلى الشمال. ولم يلبث الاستطلاع الجوي أن أكد أن هذا الرتل هو لواء مدرع يتكون من حوالي ١٠٠ دبابة ت ٦٢. وترك الجنرال أدان (برن) المؤتمر وبرفقته مركز قيادته المتقدم متجها نحو الجنوب ليقود المعركة بنفسه ضد هذا اللواء الذي اتضح أنه اللواء ٢٥ المدرع المستقل والذي كان ملحقا على الفرقة ٧ مشاة من قوات الجيش الثالث.



ملحق صور الفصل الخامس



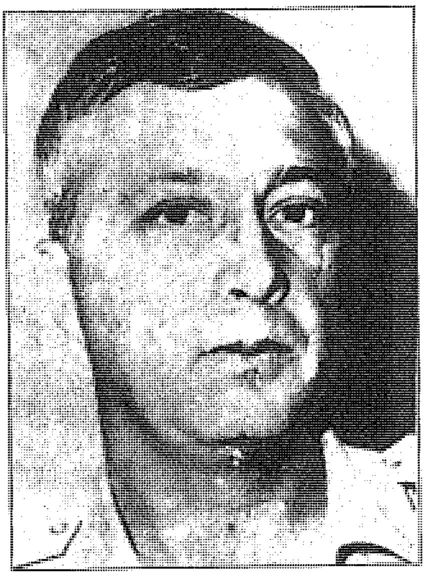
الجنرال حاييم بارليف

وضع الخطة العامة لعملية العبور الإسرائيلي إلى غرب القناة.



الجنرال شموئيل جونين

وضع الخطة التفصيلية لعملية العبور الإسرائيلي إلى غرب القناة.



الجنرال أريل شارون

أسندت إلى فرقته مهمة إنشاء وتأمين رأس كوبري على ضفتي قناة السويس بمنطقة الدفرسوار ليلة ١٥ / ١٦ أكتوبر.



الجنرال كلمان ماجن

أسندت إلى فرقته مهمة تأمين رأس الكوبري الإسرائيلي بالدفرسوار لإخلاء فرقة شارون كي تعبر إلى غرب القناة.



الجنرال إبراهام أدان

أسندت إلى فرقته مهمة العبور إلى غرب القناة والزحف جنوبا لاحتلال مدينة السويس.



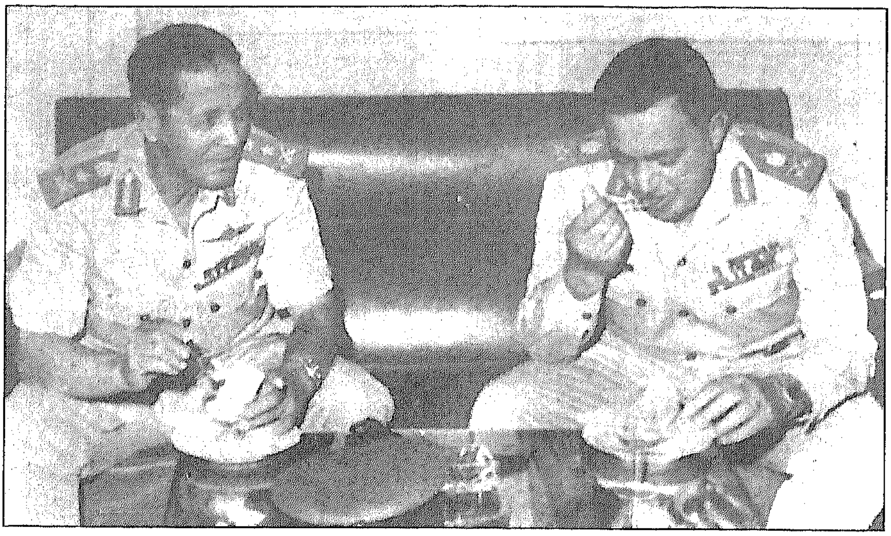
الرئيس أنور السادات

ألقى خطابا في مجلس الشعب يوم ١٦ أكتوبر أعلن فيه شروط مصر لوقف إطلاق النار.



الفريق أول أحمد إسماعيل

لم تصله معلومات عن العبور الإسرائيلي إلى غرب القناة إلا بعد عودته من جلسة مجلس الشعب.



الفريق سعد الشاذلي

استدعى اللواء عبد المنعم خليل ظهر يوم ١٦ أكتوبر إلى المركز ١٠ وعهد إليه بمسئولية قيادة الجيش الثاني.



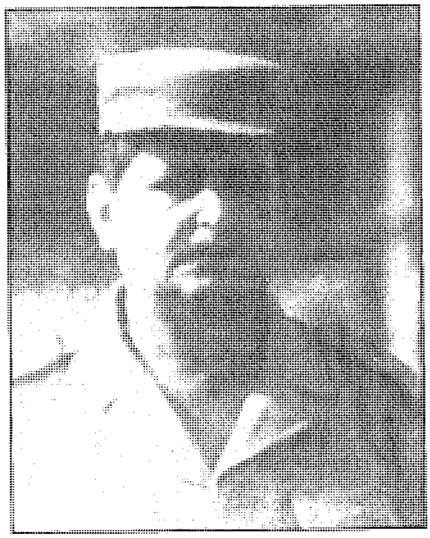
اللواء سعد مأمون

أصيب بنوبة قلبية في الساعة الثامنة والنصف صباح يوم ١٤ أكتوبر وتم إخلاؤه بعد ذلك إلى المستشفى.



اللواء عبد المنعم خليل

تولى قيادة الجيش الثاني اعتبارا من الساعة الرابعة مساء يوم ١٦ أكتوبر.



اللواء تيسير العقاد

تولى قيادة الجيش الثاني بالنيابة من صباح يوم ١٤ أكتوبر حتى مساء يوم ١٦ أكتوبر.



العقيد عبد الحميد عبد السميع

قائد اللواء ١٦ مشاة (الجنب الأيمن للفرقة ١٦ مشاة) تركزت ضد مواقع اللواء جميع الهجمات الإسرائيلية اعتبارا من ليلة ١٥ / ١٦ أكتوبر.



العقيد حسين رضوان

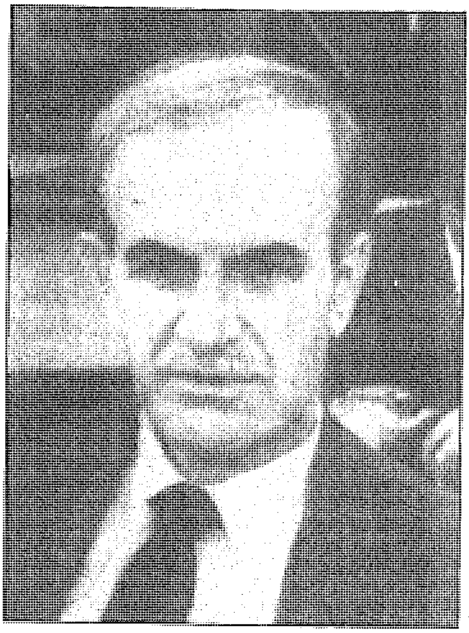
قائد اللواء ١١٦ مشاة

وقعت قوته في كمين إسرائيلي يوم ١٦ أكتوبر.



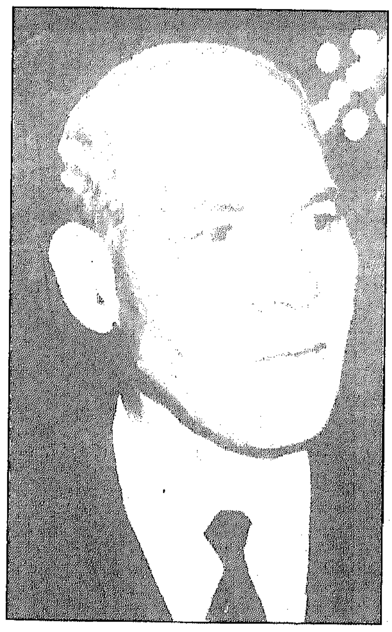
العقيد محمود أمين نمرّ

قائد اللواء ١٠ مشاة ميكانيكي من الفرقة ٣ مشاة ميكانيكية (احتياطي القيادة العامة).



الرئيس السوري حافظ الأسد

بعث يعاتب الرئيس السادات لعدم إخطاره بمضمون خطابه الذي ألقاه على مجلس الشعب قبل إلقائه.



حافظ إسماعيل

مستشار الرئيس السادات لشئون الأمن القومي.



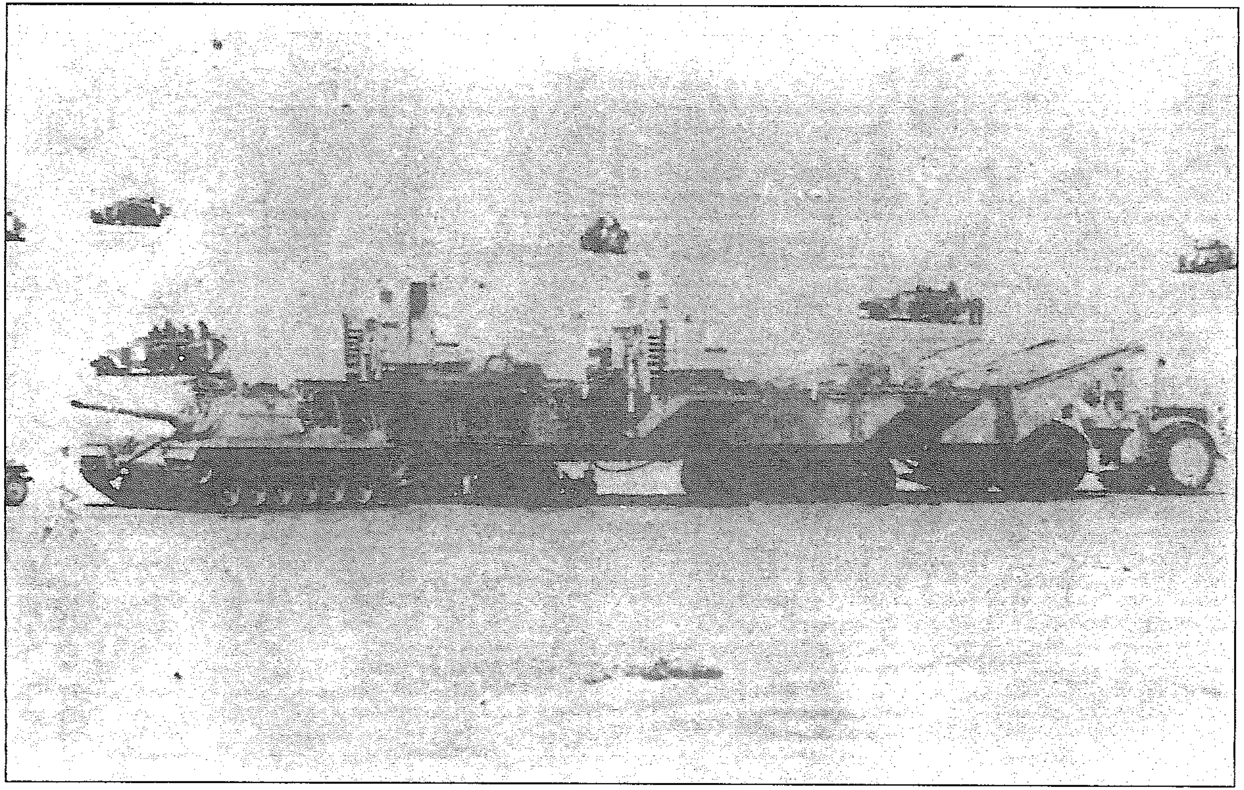
المهندس عثمان أحمد عثمان

أطلق اسمه على تقاطع طريق الإسماعيلية القاهرة الصحراوي مع طريق القصاصين أبو سلطان لوجود استراحة خاصة به بالقرب منه.



أليكسي كوسيجين

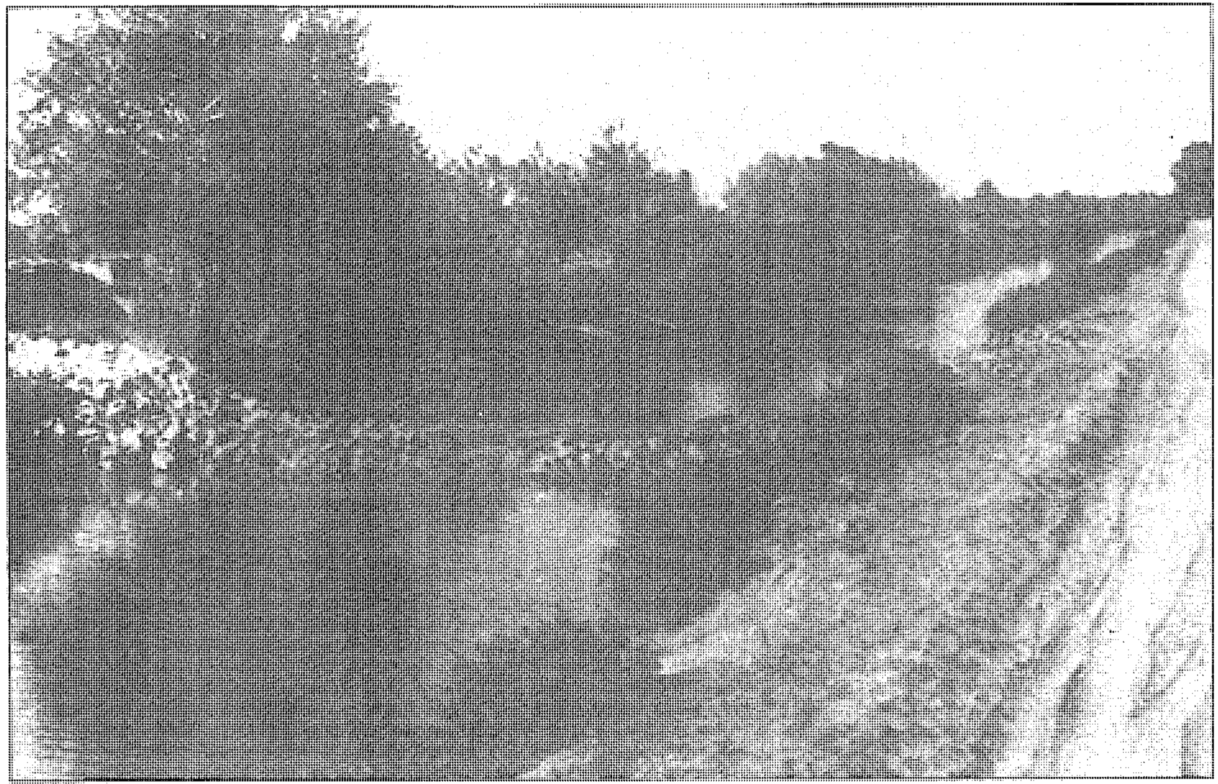
رئيس الوزراء السوفيتي حضر إلى القاهرة مساء يوم ١٦ أكتوبر.



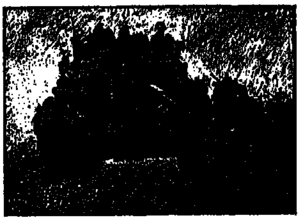
الدبابات الإسرائيلية تجر معديات البونتون في طريقها إلى ساحة العبور بالدفرسوار لإقامة
كوبري معديات البونتون.



ازدحام طريق أكافيش بالدبابات والعربات المدمرة والمعطلة.



استغلت أول قوة إسرائيلية عبرت القناة مناطق الأشجار والمزروعات بجوار ترعة المياه الحلوة (ترعة السويس) للاختفاء من الاستطلاع الأرضي والجوي.



■ الفصـل السادس ■
المحاولات المصرية لتدمير ثغرة الدفرسوار

مع توالي الهجمات الإسرائيلية العنيفة بالقوات المدرعة على الجنب الأيمن للفرقة ١٦ مشاة منذ ليلة ١٥ / ١٦ أكتوبر، أدركت القيادة العامة المصرية أن القوات الإسرائيلية تقوم بمجهود خارق وبدون اكتراث للخسائر الفادحة التي أصيبت بها، لفتح ممر من الشرق إلى الغرب حتى منطقة الدفرسوار شمال البحيرة المرة الكبرى، ولكنها لم تكن تتخيل أنه بينما كان القتال محتدما بهذه الشدة والشراسة بين القوات المصرية والقوات الإسرائيلية في منطقة الممر، يمكن للقيادة الإسرائيلية أن تخاطر بإلقاء قوة كبيرة عبر القناة إلى الضفة الغربية دون أن تنشئ لها في البداية طريقا مؤمنا لتلقي الإمدادات عبر جسور ثابتة بين الشاطئين. وهذا ما دعا القيادة المصرية إلى تركيز جهودها في بادئ الأمر لمحاولة تدمير الممر الإسرائيلي على الضفة الشرقية للقناة عن طريق إغلاق ثغرة الاختراق التي وقعت على الجنب الأيمن للفرقة ١٦ مشاة (الجناح الأيمن للجيش الثاني) ثم إبادة أو أسر القوة الإسرائيلية التي كانت متمركزة وقتئذ داخل هذه الثغرة.

ولهذا السبب لم تبذل القيادة المصرية الاهتمام الذي كان ينبغي بذله لتدمير القوة الإسرائيلية التي عبرت إلى غرب القناة والتي كان من السهل في بداية الأمر إبادتها أو أسرها، اعتقادا منها بأن الهدف من إرسال هذه القوة هو القيام بسلسلة من الإغارات الجريئة لإحداث التأثير النفسي في القوات المصرية وصولا إلى خفض روحها المعنوية، وكذا العمل ضد مواقع الصواريخ المصرية غرب القناة بهدف تدميرها أو إسكاتها لفتح ثغرة في نظام الدفاع الجوي المصري بعد أن عجزت الطائرات الإسرائيلية عن تحقيق ذلك الغرض، مما سوف يتيح للطيران الإسرائيلي الحصول على التفوق الجوي فوق أرض المعركة.

وساعد على رسوخ هذا الاعتقاد، المعلومات الخاطئة التي كانت تصل إلى قيادة الجيش

الثاني وإلى المركز ١٠ بالقاهرة، والتي كانت تبعث على الاطمئنان والتهوين من قوة العدو غرب القناة، مما كان يكشف بوضوح عن مدى القصور في وسائل جمع المعلومات وأعمال الاستطلاع التي كانت من صميم مسئولية المخابرات الحربية في الميدان وأفرع الاستطلاع بالجيش الثاني وتشكيلاته الميدانية. وعلاوة على ذلك، نجحت قوة المظلات وكتيبة الدبابات الإسرائيليتين في تفادي رصدهما من أي استطلاع جوي عن طريق الاختفاء في الحزام الأخضر بين قناة السويس وترعة المياه الحلوة الموازية لها (ترعة السويس) كما اختبأت معظم الدبابات الإسرائيلية في هناجر مطار الدفرسوار المهجور.

الخطة المصرية لتدمير ثغرة الاختراق من شرق القناة

خلال المؤتمر الذي عقده الفريق أول أحمد إسماعيل القائد العام بالمركز ١٠ بعد ظهر يوم ١٦ أكتوبر على أثر عودته من جلسة مجلس الشعب، والذي حضره رئيس الأركان ورئيس هيئة العمليات ورؤساء أفرع القيادة العامة، صدر القرار بتدمير ثغرة الاختراق عن طريق توجيه ضربة قوية ضد العدو في منطقة الاختراق بالدفرسوار شرق القناة. وكان التخطيط أن يقوم اللواء ٢٥ المدرع المستقل الملحق على الفرقة ٧ مشاة (من تشكيل الجيش الثالث) بتوجيه ضربة من الجنوب إلى الشمال شرق البحيرة المرة الكبرى لكي يلتقي بهجوم الفرقة ٢١ المدرعة التي تقرر أن تقوم بتوجيه ضربتها من مواقعها شرق القناة على الجنب الأيمن لرأس كوبري الفرقة ١٦ مشاة (شمال قرية الجلاء، والمغذى الرئيسي) في اتجاه الجنوب بهدف إغلاق ثغرة الاختراق عند الدفرسوار وتدمير قوة العدو الموجودة داخلها مع تمسك الفرقة ١٦ مشاة بمواقعها الدفاعية في رأس الكوبري، وفي نفس الوقت يقوم اللواء ١١٦ مشاة ميكانيكي غرب القناة بتوجيه ضربة ثانوية من الغرب إلى الشرق لتدمير قوة العدو التي عبرت إلى غرب القناة.

ونظرا لأن التوقيت المحدد لتنفيذ هذه الخطة كان في بادئ الأمر ليلة ١٦ / ١٧ أكتوبر، فقد قام اللواء تيسير العقاد قائد الجيش الثاني بالنيابة ظهر يوم ١٦ أكتوبر بإصدار تعليمات قتال كانت تتضمن المهام التي خصصتها القيادة العامة للفرقتين ١٦ مشاة و٢١ المدرعة، وفقا للأوامر التي وصلت إلى قيادة الجيش الثاني. وفي قطاع الجيش الثالث وفي نفس التوقيت، قام رئيس عمليات هذا الجيش العميد أ.ح نبيه السيد بتخصيص المهمة للعميد أ.ح أحمد حلمي بدوي قائد اللواء ٢٥ المدرع المستقل في مركز القيادة المتقدم للفرقة السابعة المشاة بحضور العميد أ. ح أحمد بدوي قائد الفرقة، على أن يبدأ تحرك اللواء عند آخر ضوء يوم

١٦ أكتوبر. ونظرا للاعتراض الشديد الذي أبداه قائد الفرقة ٧ مشاة على سحب اللواء ٢٥ المدرع من تحت قيادته على اعتبار أن ذلك سوف يؤثر في التوازن الدفاعي لرأس كوبري الفرقة، فقد أمر اللواء عبد المنعم واصل قائد الجيش الثالث بوضع كتيبة دبابات من اللواء ٣ المدرع (من الفرقة ٤ المدرعة) الذي كان يعمل كاحتياطي لقائد الجيش الثالث لتكون تحت قيادة الفرقة ٧ مشاة.

وعلى الرغم من أن الخطة التي وضعتها القيادة العامة لتصفية ثغرة الاختراق عند الدفرسوار كانت تبدو سليمة من الناحية النظرية، فإن مجرى الأحداث أثبت أنها كانت خطة خاطئة وغير واقعية. وكان أهم خطأ فيها هو دفع اللواء ٢٥ المدرع المستقل على الضفة الشرقية للقناة. بينما كان القرار السليم يقضي بعبوره من شرق القناة إلى الشاطئ الغربي خلال الليل على أن يقوم صباح يوم ١٧ أكتوبر بعد إتمام تجمعه بتوجيه ضربته من الجنوب إلى الشمال على الضفة الغربية للقناة.

وقد ثبت أن فكرة دفع اللواء ٢٥ المدرع المستقل على الضفة الشرقية للقناة قد لقيت معارضة شديدة وأحدثت انقساما حادا بين القادة داخل المركز ١٠ إلى الحد الذي أدى إلى دعوة الرئيس الراحل السادات للحضور بنفسه إلى المركز ١٠ لإبداء رأيه في هذا الخلاف، وعند حضوره بعد ساعات قليلة لم يلبث أن أيد قرار القائد العام وثار ثورة عنيفة في وجه القادة الذين طلبوا عبور اللواء المدرع إلى الغرب لدفعه من هذا الاتجاه، وأمر بعدم سحب أي قوات من الشرق إلى الغرب أو مناقشة هذه الفكرة على الإطلاق. وكان اللواء عبدالمنعم واصل قائد الجيش الثالث قد سبق له الاتصال برئيس الأركان وأبلغه أنه يفضل سحب اللواء المدرع من الشرق ليقوم بتوجيه ضربته ضد الثغرة من الغرب وأن قائد اللواء ٢٥ المدرع يشاركه هذا الرأى، ولكن هذه الآراء لم يعد لها أي تأثير بالطبع بعد تدخل رئيس الجمهورية شخصيا في الأمر وتأييده لقرار دفع اللواء على الضفة الشرقية للقناة.

عيوب خطة دفع اللواء المدرع من الشرق

لا شك في أن فكرة دفع اللواء ٢٥ المدرع من الجنوب إلى الشمال شرق القناة على الطريق العرضي ١ (طريق الشط) الموازي للبحيرات المرة ليقوم بضربة قوية بالاشتراك مع الفرقة ٢١ المدرعة المدفوعة من الشمال إلى الجنوب لتدمير العدو عند نقطة التقائهما في منطقة الدفرسوار كانت خطة محكمة وبديعة، ولكن على الخريطة فقط. أما من الناحية الواقعية وفي ظل الظروف التي كانت موجودة وقتئذ فقد كانت خطة فاشلة قبل أن يبدأ تنفيذها للأسباب الآتية:

- المسافة التي من المفترض أن يقطعها اللواء المدرع من موقعه برأس كوبري الفرقة ٧ مشاة للوصول إلى أرض المعركة في الدفرسوار كانت تتجاوز ٣٠كم، وكان العدو مسيطرا عليها تماما مما كان من المحتم معه الاصطدام بعدة مقاومات للعدو ونشوب عدة معارك تعطيلية أثناء تحرك رتل اللواء المدرع، الأمر الذي سوف يؤدي إلى تعطيل التحرك ووقوع الخسائر.

- سيكون رتل اللواء المدرع محصورا طوال التحرك في مجرى أشبه بالمضيق لوجود شاطئ البحيرة المرة على يساره الذي تمتد بمحاذاته حقول ألغام متصلة وقديمة العهد. ونظرا لأن طبيعة الأرض شرق القناة تتدرج في الارتفاع كلما اتجهنا شرقا لذلك فإن من المنتظر قيام العدو باحتلال سلسلة المرتفعات والهيئات الحاكمة التي تقع شرق خط تحرك اللواء المدرع والسيطرة عليه بالنيران. وبانحصار رتل اللواء في مثل هذا المجرى الضيق يكون اللواء المدرع قد فقد أهم خصائص القوات المدرعة وهي خفة الحركة والقدرة على المناورة والقيام بحركات الالتفاف والتطويق، وأصبح مرغما على خوض معاركه مع قوات العدو بطريقة جبهوية.

- عدم إمكان اللواء المدرع الاستفادة بمعاونة مدفعية الجيش الثالث إلا لمسافة محدودة (حتى مع استخدام المدفعية المتوسطة من عيار ١٣٠م)، وبعد ذلك يصبح اللواء خارج مرمى مدفعية هذا الجيش، كما أنه كان من الصعب الاستفادة بمعاونة مدفعية الجيش الثاني المتمركزة على الضفة الغربية للقناة نظرا لبعد المرمى بسبب وجود البحيرة المرة الكبرى التي يبلغ متوسط عرضها ١٤كم من جهة ولعدم إجراء أي تنسيق أو تنظيم تعاون مسبق لهذه العملية مع الجيش الثاني من جهة أخرى.

- تعرض رتل اللواء المدرع طوال التحرك لهجمات العدو الجوية، خصوصا الطيران المنخفض، ولم تكن في مقدرة الأسلحة المضادة للطائرات التقليدية المرافقة للواء وهي المدافع ٥٧ م ثنائي المواسير (ذح) والرشاشات ١٤,٥ م المحملة على لوريات تقديم الوقاية المطلوبة للواء. وعلاوة على ذلك، فقد كان من المنتظر تعرض رتل اللواء لنيران مدفعيه العدو البعيدة المدى من عيار ١٥٥ م و ١٧٥ م؛ وبالإضافة إلى ما ينتظر أن تحدثه الغارات الجوية ونيران المدفعية من خسائر في الأفراد والأسلحة والمعدات، فإنها سوف تتسبب بلا شك في ارتباك وتعطيل تحرك وحدات اللواء.

- نظرا لضيق الوقت لم يكن متيسرا إجراء عملية تنظيم التعاون بين اللواء ٢٥ المدرع

والفرقة ٢١ المدرعة، رغم ما لهذه العملية من أهمية حيوية في مثل هذه الظروف، ونظرا لأن اللقاء المنتظر بين الفرقة المدرعة من الجيش الثاني واللواء المدرع من الجيش الثالث لم يسبقه إجراء أي تدريب أو تنسيق عليه من قبل، فقد كان من الواجب منعا لوقوع أي حوادث بينهما بطريق الخطأ إجراء أي قدر من تنظيم التعاون أو الاتصال المباشر بين الطرفين لتحديد خطوط التقابل وخطوط وقف النيران وإشارات التعارف، وكذا تنظيم شبكة التعاون بينهما لضمان تأمين وسائل الاتصال.

● ثبت أن اللواء ٢٥ المدرع لم تكن لديه قبل خروجه أي معلومات عن العدو الذي كان من المنتظر أن يواجهه بعد هذا التحرك الطويل الشاق لمسافة من المفترض أن تزيد على ٣٠كم، فقد كانت قيادة الجيش الثالث لا يوجد لديها بالطبع أي معلومات عن العدو المتمركز في ثغرة الاختراق في قطاع الجيش الثاني، ولم تكن لدي القيادة العامة بالقاهرة صورة واضحة ودقيقة عن أوضاع العدو شرق وغرب القناة بسبب القصور الشديد في أعمال الاستطلاع، مما أدى إلى عدم إبلاغ قيادة الجيش الثالث بالمعلومات التي كان من الواجب إفادة اللواء ٢٥ المدرع بها قبل تحركه. وكانت النتيجة أن اللواء المدرع عندما اقترب من أرض المعركة وجد في انتظاره مجموعة العمليات رقم ١٦٢ التي كان يتولى قيادتها الجنرال إبراهام أدان (برن) والتي كانت تتكون من ثلاثة ألوية مدرعة، أي أن نسبة تفوق العدو على قوات اللواء ٢٥ المدرع كانت (٣ : ١).

● إن الفرقة ٢١ المدرعة التي كان من المفترض وفقا للخطة الموضوعة أن تلتقي مع اللواء ٢٥ المدرع المستقل عند منطقة الدفرسوار لم يكن من المنتظر وصولها إلى هذه المنطقة ولا لقاؤها مع هذا اللواءالمدرع بأي حال من الأحوال. فإن العبرة عند تحديد حجم أي قوة بالنسبة للمهمة المخصصة لها أن يجري هذا التحديد حسب قدراتها الحقيقية، وليس حسب حجمها التنظيمي. ولذا فعندما يصل عدد دبابات الفرقة ٢١ المدرعة مساء يوم ١٦ أكتوبر إلى حوالي ١٠٠ دبابة فينبغي تقدير حجم هذه الفرقة بأنها في حجم لواء مدرع فقط، وعندما تخصص لها مهمة فمن الواجب أن تتناسب هذه المهمة مع قدراتها الحقيقية أي مع قدرات لواء مدرع. لقد فقدت الفرقة ٢١ المدرعة منذ معركتها في تطوير الهجوم شرقا يوم ١٤ أكتوبر ثم معاركها العنيفة يومي ١٥ و ١٦ أكتوبر ضد دبابات العدو في قرية الجلاء، وفي صد الهجمات المضادة على الجناح الأيمن للجيش الثاني حوالي ١٥٠ دبابة، هذا علاوة على الخسائر

الأخرى التي حاقت بها نتيجة للقصف المكثف من المدفعية والطيران بسبب تمركزها مع الفرقة ١٦ مشاة في رأس كوبري واحد ضيق مما جعل قصف العدو الجوي والمدفعي شديد التأثير . . وكانت قوات العدو التي من المنتظر أن تواجه الفرقة ٢١ المدرعة عند تحركها لتنفيذ الخطة الموضوعة والتقدم جنوبا على طول القناة لكي يتم لقاؤها مع اللواء ٢٥ المدرع القادم من الجنوب عند منطقة الدفرسوار ، هي مجموعة العمليات رقم ١٤٣ بقيادة الجنرال شارون ، وكانت تتكون من ثلاثة ألوية مدرعة ولواء مظلات . ونظرا لعبور لواء المظلات وكتيبة مدرعة من لواء حاييم إلى الضفة الغربية للقناة ليلة ١٥ / ١٦ أكتوبر فقد كانت القوة المنتظرة أن تواجهها الفرقة ٢١ المدرعة في منطقة ثغرة الاختراق عند الدفرسوار لا تقل عن ٢٠٠ دبابة إسرائيلية ، أي أن نسبة تفوق العدو على قوات الفرقة ٢١ المدرعة كانت ٢ إلى ١ . ومما تجدر ملاحظته أن خسائر الوحدات المدرعة الإسرائيلية في معاركها كانت تعوض على الفور إما بإصلاح الدبابات المعطوبة في الميدان بواسطة ورش الصيانة ذات الكفاءة العالية ، وإما بوصول دبابات جديدة بفضل الجسر الجوي الأمريكي الذي بدأت شحناته تتدفق على إسرائيل اعتبارا من ١٤ أكتوبر ٧٣ .

- كان من ضمن شحنات الأسلحة التي أرسلتها الولايات المتحدة إلى إسرائيل عبر الجسر الجوي الأمريكي عدد ٢٠٠٠ صاروخ Tow الذي يوجه ويعمل على تتبع الهدف بواسطة السلك . وهذه الصواريخ تعتبر الجيل الثاني للصواريخ الفرنسية الصنع SS 10 و SS 11 بعد إدخال التحسينات عليها ، ولذا فهي أكثر دقة وتأثيرا في الدبابات من الصواريخ الفرنسية ، وكذا من الصواريخ السوفيتية الصنع Saggers (المالوتكا) التي تم للمشاة المصريين استخدامها بكفاءة تامة ضد الدبابات الإسرائيلية في المرحلة الأولى من الحرب ، وأوقعوا بها خسائر فادحة . ولقد أنكرت المصادر الرسمية الإسرائيلية ما تردد عن استخدام القوات الإسرائيلية للصاروخ Tow خلال المرحلة الأخيرة من الحرب ، وأكدت أن هذا الصاروخ لم يصل إلى أيدي القوات الإسرائيلية قبل وقف إطلاق النار في ٢٤ أكتوبر ٧٣ . إلا أنه باستقصاء حقيقة هذا الموضوع في مختلف المراجع الأجنبية بما فيها المراجع الأمريكية يمكن الجزم بأن الصاروخ Tow والأطقم التي دربت الإسرائيليين على استخدامه وصلت إلى إسرائيل اعتبارا من يوم ١٤ أكتوبر ، ولذا فليس من المحتمل أن تكون هذه الصواريخ الفتاكة قد استخدمت ضد الدبابات المصرية يوم تطوير الهجوم شرقا في ١٤ أكتوبر ،

ولكنها استخدمت بالتأكيد يوم ١٧ أكتوبر ضد وحدات الفرقة ٢١ المدرعة وضد اللواء ٢٥ المدرع مما تسبب في ارتفاع نسبة الخسائر فيهما، كما جرى استخدامها بعد ذلك في جميع المعارك على ضفتي قناة السويس ضد الدبابات المصرية منذ هذا التاريخ لحين وقف إطلاق النار.

ماذا كان الحل الأفضل للقضاء على ثغرة الدفرسوار

لو كان اللواء ٢٥ المدرع قد اتبع في دفعه الحل الأفضل وهو عبوره القناة ليلة ١٦ / ١٧ أكتوبر خلال ساعات الظلام على معابر الفرقة ٧ مشاة، ثم دفعه في أول ضوء يوم ١٧ أكتوبر في اتجاه الدفرسوار على الجانب الغربي للقناة على محور طريق المعاهدة، لكانت قد تحققت له المزايا التالية:

١ - المسافة التي كان اللواء سيقطعها اللواء من الجنوب إلى الشمال كانت كلها تحت سيطرة القوات المصرية مما كان كفيلا بعدم حدوث أي تعطيل له أثناء التحرك. وعلى العكس كانت القوات المصرية غرب القناة ستقوم بتوفير المعاونة والحماية التي يحتاج إليها أثناء تحركه بشتى أنواعها.

٢ - تعتبر الأرض غرب القناة بطبيعتها الزراعية والصحراوية أرضا صالحة لقتال الدبابات، نظرا لوجود الأشجار والمباني في بعض أجزائها مما يسمح باستتار الدبابات خلال الهجمات الجوية عند الاصطدام بأي مقاومات للعدو، كما أن وجود معظم الهيئات الأرضية المرتفعة غرب خط تحرك اللواء (جبال الشلوفة وجنيفة والجوزة الحمراء وشبراويت والشهابي) كان يهيئ لرتل اللواء الوقاية من الجنب الأيسر عن طريق القوة التي كان سيدفعها للعمل كحرس جنب في هذا الاتجاه والتي كان في مقدرتها عن طريق احتلال هذه الهيئات المرتفعة على التوالي على طول طريق التقدم، السيطرة التامة على التحركات على طريق المعاهدة ومنع أي حركات التفاف أو تطويق من جانب دبابات العدو - التي عبرت إلى غرب القناة - ضد رتل اللواء. هذا في الوقت الذي كان فيه الجنب الأيمن للواء مؤمنا لوجود قناة السويس والبحيرة المرة.

٣ - كان من المتيسر للواء الاستفادة بمعاونة مدفعية الجيش الثالث، ثم بمعاونة مدفعية الجيش الثاني حال خروجه من حدود الجيش الثالث، لأن معظم مجموعات مدفعية الجيشين كانت متمركزة غرب القناة، ولم يكن هناك فاصل متسع مثل

المسطح المائي للبحيرة المرة الكبرى يجعل رتل اللواء بعيدا عن مرمى مدفعية الجيش الثاني.

٤ ـ ضمان الوقاية الكافية من الهجمات الجوية نظرا لتحرك اللواء تحت مظلة الدفاع الجوي سام غرب القناة، وكان من الصعب على مدفعية العدو بعيدة المدى على الضفة الشرقية للبحيرة المرة قصف رتل اللواء بنيرانها قصفا مؤثرا لبعد المرمى من جهة ولصعوبة عملية مراقبة النيران من جهة أخرى.

٥ ـ كان العدو المنتظر مقابلته في منطقة الدفرسوار نهار يوم ١٧ أكتوبر غرب القناة عبارة عن لواء مظلات و٣٠ دبابة وبعض العربات المدرعة نصف جنزير، وكان في مقدرة اللواء ٢٥ المدرع بدباباته من طراز ت ٦٢ ذات المدفع من عيار ١١٥م التغلب على الدبابات الإسرائيلية ذات المدفع من عيار ١٠٥م، وكان في مقدرة المدفع ١١٥م بالدبابة المصرية إطلاق دانات شديدة الانفجار إلى مسافة ٣,٥كم ودانات خارقة للدروع بمختلف أنواعها إلى مسافة حوالي ٢كم مما كان كفيلا بإحداث خسائر فادحة في القوة الإسرائيلية غرب القناة (سواء المدرعات أو رجال المظلات).

٦ ـ كان القضاء على الثغرة الإسرائيلية يقتضي توجيه ضربة قوية مركزة تشرف عليها قيادة واحدة لضمان إحكام القيادة والسيطرة، وكان هذا لا يتأتى إلا بتوافر عاملين:

● تحقيق قوة الصدمة، وذلك بهجوم مشترك من لواءين مدرعين في وقت واحد ضد قوة العدو في الدفرسوار غرب القناة، وكان أحد اللواءين هو اللواء ٢٥ المدرع القادم من الجنوب، أما اللواء الآخر فقد كان المفترض أن يكون اللواء ٢٣ المدرع (من الفرقة ٣ مشاة ميكانيكية باحتياطي القيادة العامة بالقاهرة) وكان هذا اللواء قد تم وصوله وفقا لتعليمات القيادة العامة إلى تقاطع عثمان أحمد عثمان (تقاطع طريق الإسماعيلية القاهرة الصحراوي مع طريق القصاصين أبو سلطان) في الساعة التاسعة مساء يوم ١٦ أكتوبر. وكان التقاطع يقع على بعد حوالي ٣٠كم غرب القناة، وكان من السهل تنسيق هجوم هذا اللواء من الغرب على منطقة الدفرسوار ليتم في وقت واحد مع هجوم اللواء ٢٥ المدرع من الجنوب قبل أن يحل ظهر يوم ١٧ أكتوبر.

● تحقيق وحدة القيادة والسيطرة بوضع اللواء ٢٥ المدرع تحت قيادة الجيش الثاني حال دخوله إلى حدود هذا الجيش، وبالتالي تتولى قيادة الجيش الثاني الإشراف على جميع إجراءات المعركة للواءين ٢٣ و٢٥ المدرعين وتنظيم التعاون بينهما وتوفير المعونة اللازمة لهما من المدفعية والطيران وتنظيم شبكة التعاون لضمان تأمين وسائل الاتصال بينهما، وكذا للاتصال مع قيادة الجيش الثاني ثم الإشراف على إدارة معركة القضاء على الثغرة إشرافا مباشرا.

٧ـ بعد إتمام القضاء على الثغرة غرب القناة كما كان المنتظر، لم يكن في مقدرة القيادة الإسرائيلية إقامة أي جسور إسرائيلية عبر القناة، وبالتالي إلغاء عملية القلب الشجاع وخطة العبور إلى الغرب إلغاء تاما. ولم يكن في إمكان القوات الإسرائيلية المتجمعة في الثغرة الضيقة شرق القناة وكانت تقدر بحوالي فرقتين مدرعتين (فرقة شارون وفرقة برن) البقاء في هذا المكان الضيق المحدود زمنا طويلا، وإلا ساء موقفهما من الوجهة التكتيكية، ولم يكن في مقدرة القيادة الإسرائيلية في حالة فشل عملية القلب الشجاع القيام بأي عمليات حربية أخرى سوى العودة إلى أسلوبها القديم الذي ثبت فشله من قبل وهو القيام بالهجمات المضادة على رءوس الكباري المصرية. وكان هذا الموقف الخطير من الوجهة الإستراتيجية لا بد أن يرغم إسرائيل على سرعة الضغط على الولايات المتحدة من أجل صدور قرار من مجلس الأمن بوقف إطلاق النار على الفور. وشتان بين قرار كان سوف يصدر في ظل هذه الأوضاع العسكرية السيئة المتحرجة بالنسبة لإسرائيل، والقرار الذي صدر في ٢٢ أكتوبر في وجود ثلاث فرق مدرعة إسرائيلية كاملة غرب قناة السويس.

هل كلف اللواء ٢٥ المدرع بمهمة انتحارية؟

كانت وحدات اللواء ٢٥ المدرع تحتل موقعا دفاعيا على الجنب الأيسر من الحد الأمامي لدفاعات الفرقة ٧ مشاة. وعند ظهر يوم ١٦ أكتوبر تلقى العميد أ.ح أحمد حلمي بدوي قائد اللواء تعليمات قيادة الجيش الثالث بالمهمة التي خصصت للوائه، وهي التحرك شمالا على طول الشاطئ الشرقي للبحيرة المرة للالتقاء بالفرقة ٢١ المدرعة، ليقوما معا بتدمير ثغرة العدو في منطقة الدفرسوار. ونظرا لضيق الوقت، لم يتمكن قائد اللواء من إصدار تعليمات القتال وتعليمات تنظيم التعاون إلى مجموعة الأوامر إلا على الخرائط في

مركز قيادته المتقدم. وفي الموعد المحدد للتحرك وهو آخر ضوء يوم ١٦ أكتوبر بدأ رتل اللواء في التحرك شمالا في تشكيل القتال من خلال الثغرات في حقول الألغام التي قام لواء المشاة اليسار بالفرقة ٧ مشاة بفتحها: وقبل أن تصل سرية الحرس الأمامي من كتيبة المقدمة إلى نقطة كبريت شرق (حصن بوتزر الإسرائيلي السابق) تلقى قائد اللواء أمرا من قائد الفرقة السابعة بتوقف اللواء الذي لم يكن قد خرج منه من رأس كوبري الفرقة سوى كتيبة المقدمة فقط، وعودة جميع الوحدات إلى مواقعها السابقة، على أن يكون اللواء على استعداد للتحرك في خلال ساعة من صدور الأمر إليه بذلك. وأمر قائد اللواء وحداته التي سبق أن أخلت مواقعها وانتظمت في تشكيل القتال بالعودة ثانية لاحتلال تجهيزاتها الهندسية. ونظرا لأن هذه العملية تمت خلال الظلام، لم يتمكن قائد اللواء من إخطار قائد الفرقة بإتمامها إلا في الساعة الثانية صباحا يوم ١٧ أكتوبر. وفي الساعة الرابعة صباحا اتصل قائد الفرقة ٧ مشاة بقائد اللواء المدرع ليخطره بأن التعليمات قد صدرت بتحرك اللواء في أول ضوء يوم ١٧ أكتوبر لتحقيق المهمة التي سبق تخصيصها له.

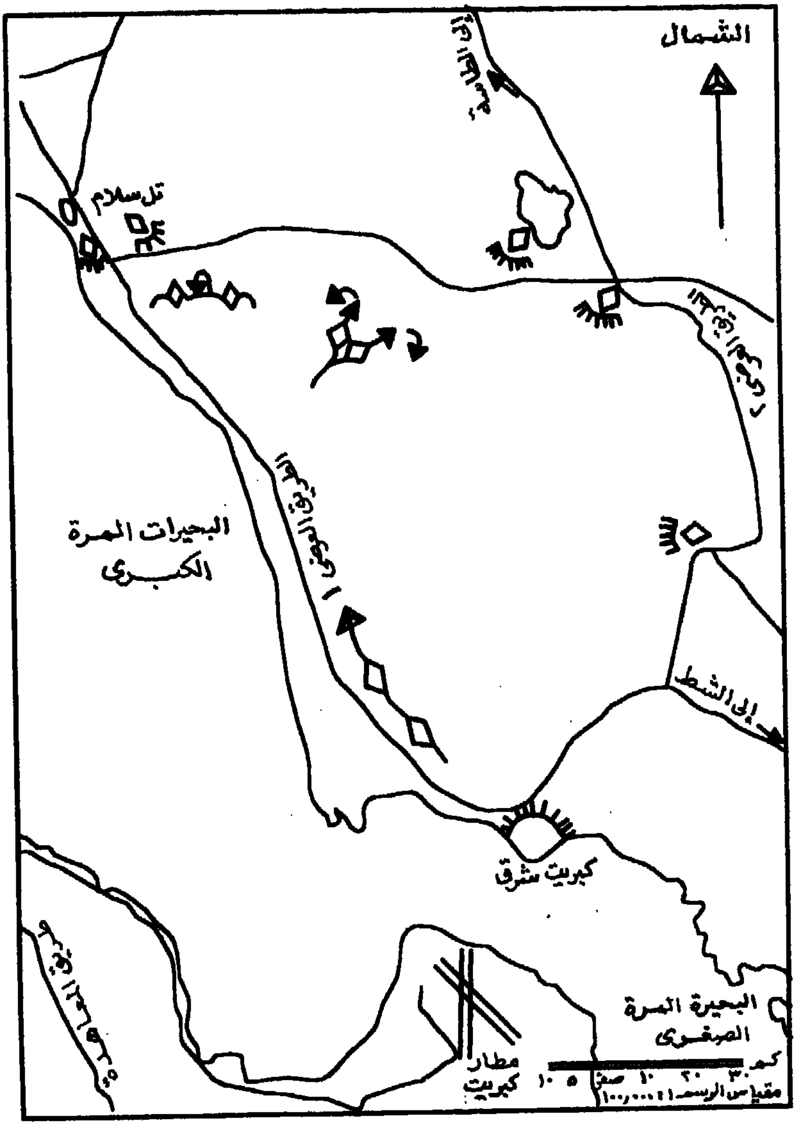
والأمر الذي يثير الدهشة هو سر ذلك التضارب في الأوامر بهذه الصورة الغريبة، وفي خلال ساعات قليلة محدودة. وقد أدى ذلك بالطبع إلى هذه التحركات الكثيرة التي أجرتها وحدات اللواء بدون داع أو مبرر، مما أصاب الضباط والجنود بإرهاق وعناء شديدين، وحرمهم من أن ينالوا كفايتهم من النوم ليلة المعركة ليكونوا على أتم استعداد لها في الصباح. وعلى الرغم من أن عملية تحرك اللواء من مواقعه في آخر ضوء يوم ١٦ أكتوبر، ثم صدور الأمر إليه بعد أقل من ساعتين بالتوقف، ثم بالعودة ثانية لاحتلال مواقعه السابقة، لم تسجل في أي مرجع من المراجع العربية أو الأجنبية، وبالتالي لم يقدم أحد من الكتاب أو المؤرخين تعليلا مقنعا لها، على الرغم من ذلك يمكن التوصل إلى سرها إذا استخدمنا أسلوب التحليل المنطقي. فقد سبق أن سجلنا ذلك الخلاف الحاد الذي جرى بين القادة في المركز ١٠ بعد ظهر يوم ١٦ أكتوبر على أثر عودة الفريق أول أحمد إسماعيل من جلسة مجلس الشعب وإخطاره بعبور بعض الدبابات الإسرائيلية إلى غرب القناة، وكان سبب الخلاف كما ذكرنا يرجع إلى اختلاف رأي القادة بشأن الاتجاه الذي يدفع منه اللواء ٢٥ المدرع، وهل الأفضل أن يكون من شرق القناة أو من غربها؟ وكان الأمر الطبيعي هو صدور التعليمات بإرجاء دفع اللواء مؤقتا وتأجيل تنفيذ الخطة الموضوعة من قبل لتصفية الثغرة من شرق القناة إلى حين التوصل إلى رأي نهائي في هذا الموضوع. ونظرا للبطء الروتيني الذي كان ملحوظا في نظام سير المعلومات والأوامر بين القيادة

العامة وقيادة الجيش الثالث، الذي سبق أن سجلنا من قبل بعض شواهده، لذا لم يصل أمر القيادة العامة بتأجيل تحرك اللواء ٢٥ المدرع الذي أبلغ لقيادة الفرقة السابعة عن طريق قيادة الجيش الثالث إلا متأخرا عن موعده، وبعد أن كان اللواء المدرع قد انتظمت وحداته في تشكيل القتال، بل خرجت من رأس كوبري الفرقة ٧ مشاة بالفعل كتيبة المقدمة ومركز القيادة المتقدم للواء. وكان ذلك هو السبب في حدوث هذا الارتباك الذي جرى واضطرار قائد الفرقة السابعة إلى إصدار أمره بتوقف اللواء وعودة وحداته إلى مواقعها الأصلية. وعندما تم حسم الخلاف على أثر استدعاء الرئيس الراحل السادات إلى المركز ١٠ واستقر الرأي نهائيا على تنفيذ الخطة الموضوعة من قبل دون أي تعديل، صدر الأمر عند منتصف الليل من القيادة العامة بتحرك اللواء المدرع في أول ضوء يوم ١٧ أكتوبر.

ونظرا لأن اللواء عبد المنعم واصل قائد الجيش الثالث كان من رأيه دفع اللواء ٢٥ المدرع من اتجاه غرب القناة، وقد أبلغ هذا الرأي هاتفيا لرئيس الأركان في المركز ١٠، وقد ازداد الموقف تعقيدا من وجهة نظره بعد إخلاء وحدات اللواء مواقعها والانتظام في تشكيل القتال ثم إلغاء أمر التحرك وعودة الوحدات إلى مواقعها الأصلية قبيل الفجر دون أن ينال الأفراد أي قسط من الراحة أو النوم، فقد رأى اللواء عبد المنعم واصل أن يبذل محاولة أخيرة لمنع تحرك اللواء صباح يوم ١٧ أكتوبر.

وقد سجل الفريق سعد الشاذلي رئيس الأركان وقتئذ هذه المحاولة في الصفحة ٢٥٤ من الباب السابع في مذكراته، فقال: «وحوالي منتصف الليل أويت إلى فراشي، ولكن ضابط العمليات المناوب أيقظني في الساعة الثالثة صباحا وأخبرني أن اللواء عبد المنعم واصل يطلب محادثتي بصفة عاجلة. أخبرني واصل بأن اللواء المدرع ٢٥ لن يستطيع التحرك في هذا اليوم (١٧ أكتوبر) لأسباب فنية. كان واضحا أن اللواء عبد المنعم واصل وقائد اللواء المدرع ٢٥ يتوقعان وقوع كارثة بالنسبة لهذا اللواء، وأنهما يريدان خلق المشكلات التي قد تؤدي إلى منع قيامه بهذه العملية الانتحارية. لقد كنت أشعر في قرارة نفسي بصدق وإحساس كل كلمة يقولها واصل، ولكن مسئوليتي في ذلك الوقت كانت تحتم عليّ أن أعارض عبد المنعم واصل. كمبدإ عام يمكن للقادة أن يختلفوا عند إبداء وجهة نظرهم قبل اتخاذ القرار، أما بعد اتخاذه فيجب أن يعمل كل منهم قدر طاقته لتنفيذه، سواء أكان يتفق مع وجهة نظره أم لا.

وقد تم اتخاذ القرار ولا سبيل إلى التراجع عنه الآن. وبعد حديث طويل مع عبد المنعم



خريطة معركة اللواء ٢٥ المدرع يوم ١٧ أكتوبر ١٩٧٣.

واصل، قال لي بيأس شديد: «لا حول ولا قوة إلا بالله. سوف أقوم بتنفيذ هذه الأوامر ولكني أقولها مسبقا: سوف يدمر هذا اللواء».

معركة اللواء ٢٥ المدرع

في الساعة السادسة والنصف صباح يوم ١٧ أكتوبر، بدأ تحرك رتل اللواء ٢٥ المدرع من منطقة تقاطع الطريق العرضي ١ مع طريق ممر الجدي، وعلى رأس الرتل المدرع تحركت كتيبة المقدمة المدعمة بعناصر من المدفعية والمشاة الميكانيكية والدفاع الجوي والمهندسين ودفعت أمامها سرية الحرس الأمامي. وخلف كتيبة المقدمة مباشرة سار مركز قيادة اللواء المتقدم وبرفقته الاحتياطي المضاد للدبابات واحتياطي المهندسين وضابط الملاحظة الأمامي من مجموعة مدفعية الجيش الثالث التي كانت تحتل مرابضها شرق القناة. وبعد فاصل من كتيبة المقدمة تحركت القوة الأساسية للواء يتقدمها مركز القيادة الرئيسي، وكانت تتكون من كتيبتي دبابات مدعمتين. وخلف القوة الأساسية كانت تسير كتيبة مدفعية اللواء (عدا السرية الملحقة على كتيبة المقدمة)، وكان يتبعها مباشرة حرس المؤخرة. وفي ذيل الرتل المدرع كانت تتحرك لوريات النسق الأول الإداري للواء التي تحمل الذخيرة والوقود وبعض عربات الإسعاف.

وقامت قيادة اللواء باتخاذ الإجراءات اللازمة لتأمين الأجناب بتخصيص سرية دبابات من القوة الأساسية للعمل كحرس جنب من الناحية اليمنى على أن تتحرك بوثبات على الهيئات الأرضية المرتفعة على يمين محور التحرك لصد أي هجمات مضادة من هذا الاتجاه، كما تم تخصيص فصيلة دبابات من حرس المؤخرة للعمل كحرس جنب من الناحية اليسرى في حالة ظهور أي تهديد من اتجاه البحيرة المرة الكبرى. ولكي يمكن الحصول على معلومات عن العدو دفعت سرية استطلاع اللواء عدة دوريات في عرباتها المدرعة إلى أقصى الأمام وعلى الأجناب خارج رتل اللواء.

وفي أثناء تقدم تشكيل قتال اللواء في اتجاه الشمال على طول الشاطئ الشرقي للبحيرة المرة الكبرى، اصطدم ببعض مقاومات للعدو اعترضت طريقه من الأمام، ومن الجنب اليمين بقصد تعطيل تحركه، ولكنه استطاع التغلب عليها وواصل تقدمه دون أن يخسر سوى بضع دبابات من مجموع دباباته التي كان يبلغ عددها ٧٥ دبابة من طراز ت ٦٢.

ومنذ بداية تحرك اللواء المدرع، تركزت عليه أنظار الإسرائيليين. فقد أرسل الجنرال

كلمان ماجن قائد القطاع الجنوبي رسالة إلى القادة المجتمعين في مركز القيادة المتقدم للجنرال إبراهام أدان (برن) بالقرب من موقع كيشوف، وهم وزير الدفاع ورئيس الأركان العامة والجنرال حاييم بارليف، أخطرهم فيها بتحرك رتل مدرع مصري على مقربة من الشاطئ الشرقي للبحيرة المرة في طريقه إلى الشمال، وسرعان ما تأكدت هذه المعلومات عن طريق الاستطلاع الجوي. وفي حوالي الساعة الواحدة ظهرا تلقى القادة الثلاثة رسالة أخرى من العقيد آمنون قائد لواء مدرع في تشكيل فرقة الجنرال شارون، والذي كان منهمكا في إعادة تنظيم لوائه وفي إصلاح دباباته المعطوبة بالقرب من حصن لاكيكان (تل سلام) بعد المعارك العنيفة التي خاضها على الجنب الأيمن للفرقة ١٦ مشاة، بأن عاصفة ضخمة من الغبار تهب عليه من اتجاه الجنوب، وتدل على اقتراب الرتل المدرع المصري. ولم يلبث الجنرال أدان أن ترك المؤتمر وبرفقته أفراد مركز قيادته المتقدم متجها نحو الجنوب ليقود المعركة بنفسه ضد اللواء المدرع المصري.

وقبل أن يغادر المؤتمر، طلب الجنرال أدان من الجنرال حاييم بارليف أن يعود اللواء المدرع بقيادة العقيد آرييه للعمل تحت قيادته، وكان هذا اللواء ضمن تشكيل فرقته ولكن تم سحبه ليعمل كاحتياطي عام في يد قائد المنطقة الجنوبية. واستجاب بارليف على الفور لمطلب أدان.

ونظرا لأن ثلاثة ألوية مدرعة بقيادة العقداء توفيا ونيتكا وجابي كانت مشتبكة في ذلك الوقت في معارك عنيفة مع وحدات الفرقتين ١٦ مشاة و٢١ المدرعة لفتح محوري أكافيش وطرطور ولإتمام الاستيلاء على المزرعة الصينية (قرية الجلاء)، فقد أصدر الجنرال أدان تعليماته إلى العقيد نيتكا بترك كتيبة من لوائه المدرع للاشتراك في عمليات لواءي جابي وتوفيا على أن يقوم بتخليص نفسه من المعركة بكتيبتين مدرعتين من لوائه ليتبعه إلى ساحة المعركة المقبلة. وفي الوقت الذي كان فيه الجنرال أدان مندفعا بأقصى سرعة نحو الجنوب على الطريق العرضي ٢ (طريق المدفعية) وقد سار خلفه العقيد نيتكا على رأس كتيبتيه المدرعتين، استمع إلى صوت العقيد آمنون وهو يستغيث في جهازه اللاسلكي طالبا النجدة، فقد اقترب اللواء المدرع المصري من موقعه بجوار البحيرة المرة ولم يكن بحوزته وقتئذ سوى ٣٠ دبابة فقط صالحة للقتال.

وكان اللواء ٢٥ المدرع قد لقى كثيرا من المشاق والأخطار أثناء تقدمه، فقد تعرض لقصف عنيف من المدفعية بعيدة المدى من عيار ١٥٥م و١٧٥م، وقد ثبت أن هذه المدفعية

كانت من مجموعات مدفعية القطاع الجنوبي الذي يتولى قيادته الجنرال ماجن، وقد اشتركت أيضا فيما بعد في معاونة الدبابات الإسرائيلية أثناء المعركة الرئيسية ضد اللواء المدرع المصري. وفي نفس الوقت واصلت الطائرات الإسرائيلية هجماتها الجوية ضد دباباته ومركباته على ارتفاعات متوسطة ومنخفضة. ونتيجة للقنابل العنقودية التي قذفتها هذه الطائرات أصيبت معظم عجلات الجرارات التي تجر المدافع من عيار ١٢٢م هاوتزر والمصنوعة من الكاوتشوك بشظايا البلي، وأدى تمزقها إلى تعذر فتح تشكيل قتال مجموعة مدفعية اللواء، وبالتالي إلى حرمان اللواء المدرع من أي معونة من المدفعية خلال معركته الرئيسية، فقد خرج قبل ذلك من مدى معونة مجموعة مدفعية الجيش الثالث الفرعية رقم ٢ بعد أن أصبح خارج مرمى مدافعها من عيار ١٣٠م.

وأعد الجنرال أدان مصيدة محكمة للواء ٢٥ المدرع مستغلا تفوق عدد دباباته وصواريخه ومعاونة المدفعية والطيران لعملياته، فجهز الكمائن للإحاطة به من الجهات الثلاث الشمالية والشرقية والجنوبية، وكانت البحيرة المرة الكبري تستكمل ضلع الكمين من الناحية الغربية. وفي الوقت الذي كان فيه لواء آمنون يواجه بدباباته وصواريخه اللواء المدرع المصري من الأمام عند حصن لاكيكان (تل سلام) وقد وضع ٤ دبابات على الطريق جنوب الحصن لوقاية قواته، أمر الجنرال أدان العقيد نيتكا بوضع ستارة قوية مضادة للدبابات من لوائه في منطقة كثيب الحبشي (على بعد حوالي ٧كم شرق تل سلام) بحيث تمتد الستارة في اتجاه الجنوب وفي مواجهة البحيرة المرة الكبرى على الجنب الأيمن للواء المدرع المصري، كما أصدر أمره إلى العقيد آرييه الذي كان في الاحتياط في منطقة الطاسة بأن يتحرك بلوائه على وجه السرعة عبر الوصلة المؤدية من الطريق العرضي ٣ إلى الطريق العرضي ٢، ثم القيام بحركة التفاف في اتجاه الجنوب الشرقي لاحتلال عدة مواقع خلف محور تقدم اللواء المدرع حتى يقطع على المصريين خط الرجعة في حالة محاولتهم الإرتداد إلى قطاع الجيش الثالث أو الدخول إلى حصن بوتزر (كبريت شرق). وكان اللواء ٢٥ المدرع لا يزال حتى ذلك الوقت يسير في تشكيل منضم، وقد ذكر الإسرائيليون أن الرؤية كانت شديدة الوضوح مما جعل اللواء المصري هدفا مثاليا.

وعند بدء عبور دبابات كتيبة المقدمة المصارف الجافة على مسافة حوالي ٢كم جنوب الخط كثيب الحبشي - تل سلام، تعرضت دبابات الكتيبة لسيل منهمر من نيران مدافع الدبابات والمقذوفات الصاروخية من الأمام من اتجاه تل سلام، ومن الجنب الأيمن من اتجاه كثيب الحبشي، فسارع تشكيل قتال اللواء إلى الفتح استعدادا للاشتباك مع قوات العدو

التي طوقـتـه من الأمـام ومن الجنب الأيمن. وبذلت المحـاولة الأولى من اللواء المدرع لاختراق الستارة المضادة للدبابات من الجنب الأيسر في اتجاه تل سلام، فدفعت كتيبة المقدمة سرية الحرس الأمامي، ثم قامت بدفع السرية التي تتبعها، ولكن المحاولة فشلت نظرا لفداحة الخسائر مما أجبر الكتيبة على التوقف. وإزاء سوء الموقف طلب قائد اللواء من قيادة الجيش الثالث بإشارة لاسلكية تدعيمه بمعونة جوية وبمعاونة عاجلة من المدفعية وأن يسمح له بالتوقف لتقوم وحداته بتعزيز الأرض المكتسبة، ولكن قيادة الجيش أجابته بعدم التوقف بتاتا وبوجوب مواصلة تقدمه في اتجاه رأس كوبري الفرقة ١٦ مشاة (كانت وحدات اللواء لا تزال على بعد حوالي ٨كم من رأس كوبري هذه الفرقة).

ورأى قائد اللواء بعد أن فشلت المحاولة لاختراق ستارة العدو من ناحية اليسار من جهة البحيرة المرة، أن يقوم بمحاولة جديدة للالتفاف على موقع الستارة من ناحية اليمين من جهة كثيب الحبشي، فأصدر قراره بأن تتمسك كتيبة المقدمة بالمواقع التي وصلت إليها مع تحسين أوضاعها وأن تعمل كقاعدة نيران ضد ستارة العدو التي تواجهها، بينما تقوم الكتيبة الأمامية من القوة الأساسية بحركة الالتفاف على جنب الستارة في منطقة كثيب الحبشي بهدف الوصول إلى مؤخرة العدو، أملا في الالتقاء بأي وحدة من وحدات الفرقة ٢١ المدرعة التي كان من المفترض وفقا للخطة الموضوعة أن تتقدم من موقعها شمال قرية الجلاء في اتجاه الجنوب ليتم اللقاء بينها وبين اللواء ٢٥ المدرع.

ونتيجة لكثافة نيران مدافع الدبابات والمقذوفات الصاروخية من اتجاه موقع كثيب الحبشي، وهو هيئة أرضية مرتفعة تسيطر على كل المنطقة التي حولها، بالإضافة إلي شدة قصف المدفعية واستمرار الهجمات الجوية، فشلت كتيبة الدبابات المصرية في محاولتها لتطويق العدو خاصة أن هجومها لم يدعم بأي معاونة من المدفعية أو الطيران ما عدا طلعة جوية من طائرتين من طراز ميج ١٧ قامتا بقذف مواقع العدو في كثيب الحبشي بالصواريخ قبل آخر ضوء. وعندما فشلت المحاولة من اليمين اندفعت بعض الدبابات من الكتيبة الثانية من القوة الأساسية في اتجاه البحيرة المرة للهجوم على تل سلام من اليسار، ولكنها تورطت في حقل الألغام الممتد بمحاذاة البحيرة المرة وأصيب معظمها. وإزاء تحرج الموقف وتفاقم نسبة الخسائر، أرسل قائد اللواء إشارة لاسلكية مكررا طلبه من قيادة الجيش الثالث بالسماح له بالتوقف لتعزيز الأرض المكتسبة أو التصديق له بالارتداد بالقوة المتبقية من اللواء إلى حصن كبريت شرق، إلا أن قيادة الجيش أكدت تعليماتها السابقة بوجوب التقدم بأي ثمن إلى رأس كوبري الفرقة ١٦ مشاة. ولم تلبث نيران الدبابات والمقذوفات

الصاروخية من الستائر الإسرائيلية المضادة للدبابات أن دمرت دبابات مركز القيادة المتقدم للواء ٢٥ المدرع وكذا مركبة القيادة في المركز الرئيسي، كما أشعلت النيران في عدد كبير من الدبابات المصرية. ولم يجد قائد اللواء وسيلة للاتصال بقيادة الجيش الثالث إلا عن طريق جهاز لاسلكي احتياطي بعربة جيب عثر عليها في مركز القيادة الرئيسي، فأبلغ قيادة الجيش بالموقف وباستحالة التقدم. وقامت الدبابات المتبقية من اللواء بالاستتار خلف بعض سواتر الترعة الجافة وبدأت عملية التراشق بالنيران بينها وبين مواقع الستائر الإسرائيلية المضادة للدبابات حتى حلول الظلام. وأصدر قائد اللواء ٢٥ المدرع أمره بارتداد القوة المتبقية من دبابات ومركبات اللواء إلى حصن كبريت شرق تحت ستر الظلام. ولسوء الحظ خسر اللواء بعض دباباته السليمة أثناء العودة لتورطها في حقل الألغام الذي كان يحيط بالحصن.

وهكذا انتهت معركة اللواء ٢٥ المدرع بهذه النهاية المفجعة بعد أن زج به داخل هذه المصيدة المهلكة التي حرمته من فرصة استخدام خصائصه كلواء مدرع من ناحيتي خفة الحركة والقدرة على المناورة. كما حرمته من الاستفادة من تفوق مدافعه من عيار ١١٥م من جهة بعد المرمى على مدافع الدبابات الإسرائيلية من عيار ١٠٥م، إذ لم تتح له الفرصة مطلقا للاشتباك مع الدبابات الإسرائيلية وجها لوجه في معركة دبابات، فقد ثبت أن معظم الخسائر في الدبابات المصرية كانت بفعل المقذوفات الصاروخية الموجهة ومن مدافع الدبابات المستترة داخل مرابضها ضمن الستائر المضادة للدبابات. ورغم الظروف السيئة التي قاتل فيها اللواء ٢٥ المدرع، فإن المراجع الإسرائيلية والأجنبية اعترفت بأن معظم دباباته قد قاتلت بشجاعة ومهارة، وأنه لم تكن هناك أي فرصة أمام هذا اللواء للنجاح بسبب تفوق الدبابات الإسرائيلية عليه تفوقا ساحقا من ناحية العدد ومن جهة القدرة على المناورة، علاوة على العدد الضخم من الصواريخ الفتاكة التي كانت تدعمها ومن المعاونة الفعالة لها من المدفعية والطيران، في الوقت الذي كان فيه اللواء المدرع المصري يقاتل بعيدا ومعزولا عن أي قوات مصرية ومحروما من أي دعم مؤثر سواء من المدفعية أو الطيران.

وقد قدرت المصادر الإسرائيلية خسائر اللواء المدرع بعدد ٨٦ دبابة ت ٦٢ من أصل ٩٦ دبابة ادعت أن اللواء بدأ بها تحركه، وأن الدبابات العشر الباقية هي التي تمكنت من العودة إلى حصن بوتزر (كبريت شرق) علاوة على فقد اللواء لكل المركبات المدرعة الخاصة بكتيبة المشاة الميكانيكية التي هي من ضمن التشكيل العضوي للواء، وكذا كل عربات قافلته الإدارية، كما ادعت أن الخسائر الإسرائيلية في هذه المعركة اقتصرت على ٤ دبابات

فقط تم تدميرها بسبب تورطها في حقل الألغام الذي كان يحيط بحصن بوتزر أثناء مطاردتها للدبابات المصرية.

والحقيقة، أن اللواء ٢٥ المدرع لم يتجاوز عدد دباباته عند تحركه ٧٥ دبابة، فقد خسر عددا من دباباته خلال معاركه السابقة خاصة في عملية تطوير الهجوم يوم ١٤ أكتوبر أثناء معاونة إحدى كتائبه للواء ١١ مشاة ميكانيكي من الفرقة ٧ مشاة، كما كانت إحدى سراياه المدرعة داخل النطاق الدفاعي لحصن كبريت شرق، ولم تتم له استعاضة الدبابات التي فقدها كما كان الحال يجري في الوحدات المدرعة الإسرائيلية خاصة بعد تدفق شحنات الجسر الجوي الأمريكي. وقد ثبت أن ١٠ دبابات استطاعت الوصول إلى حصن كبريت شرق، فيكون مجمل خسائر اللواء حوالي ٦٥ دبابة ت ٦٢ كما وصلت إلى الحصن ٧ مركبات مدرعة (ب ك) و١٨٠ ضابطا وجنديا من كتيبة المشاة الميكانيكية التي كانت موزعة كوحدات دعم على كتائب الدبابات. وكانت هذه الخسائر الفادحة هي النتيجة الطبيعية للخطة الموضوعة الخاطئة بدفع اللواء ٢٥ المدرع من ناحية شرق القناة وليس من ناحية الغرب.

علاقة القيادة السياسية بالقيادة العسكرية

سبق أن أوضحنا في الفصل الرابع من هذا الكتاب مسئولية رئيس الدولة في رسم الإستراتيجية العليا للدولة وحقه في إصدار القرارات السياسية التي تستهدف تنفيذ هذه الإستراتيجية. وأكدنا أن واجب القيادة العسكرية هو تنفيذ هذه القرارات دون أي اعتراض، إذ إن أساس استخدام القوات المسلحة هو أن تكون الأداة المنفذة للسياسة الخارجية للدولة.

ولكن حق رئيس الدولة في هذا المجال ينبغي أن يكون محصورا في إطار معين وأن يقتصر دوره على رسم الإستراتيجية العليا فقط دون التدخل في تفصيلات الخطط الحربية التي يتحقق عن طريقها تنفيذ هذه الإستراتيجية، إذ إن ذلك الأمر هو من مسئولية واختصاص القيادة العسكرية؛ فقد يكون رئيس الدولة رجلا مدنيا وليس لديه أي إلمام بالشئون العسكرية. وعلى فرض أن رئيس الدولة رجل عسكري، فليس من المحتم أن تكون لديه الثقافة العسكرية التي تؤهله للتدخل في الخطط الحربية التي تضعها هيئة العمليات التي تعمل تحت الإشراف المباشر لرئيس الأركان أو القائد العام، والتي تتشكل كما جرت العادة من ضباط على أعلى مستوى من الثقافة والكفاءة والخبرة العسكرية.

ولقد مارس الرئيس الراحل السادات بالفعل مسئولياته كرئيس للدولة داخل هذه الحدود التي فصلناها ممارسة سليمة في الفترة التي سبقت حرب أكتوبر مباشرة. فقد أرسل في بادئ الأمر التوجيه السياسي والعسكري في أول أكتوبر ٧٣ إلى الفريق أول أحمد إسماعيل وزير الحربية والقائد العام للقوات المسلحة.

ولم يلبث السادات أن ألحق بهذا التوجيه توجيها إستراتيجيا آخر إلى الفريق أول أحمد إسماعيل في ٥ أكتوبر ١٩٧٣.

وكان هذا التوجيه يحدد المهام التي قرر رئيس الجمهورية تكليف القوات المسلحة بتنفيذها، وكانت تتحدد في ثلاث مهام رئيسية هي:

١ - إزالة الجمود العسكري الحالي بكسر وقف إطلاق النار اعتبارا من يوم ٦ أكتوبر ٧٣.

٢ - تكبيد العدو أكبر خسائر ممكنة في الأفراد والأسلحة والمعدات.

٣ - العمل على تحرير الأرض المحتلة على مراحل متتالية حسب نمو وتطور إمكانات وقدرات القوات المسلحة.

ومن تحليل هذا التوجيه الإستراتيجي يتضح لنا أن رئيس الجمهورية لم يحدد للقائد العام سوى الأهداف الإستراتيجية المطلوب تحقيقها بواسطة القوات المسلحة المصرية والتي كانت تتماشى مع إستراتيجية مصر التي سبق للرئيس شرحها في التوجيه العسكري والسياسي الصادر منه في أول أكتوبر ٧٣ إلى القائد العام، أي أن الرئيس لم يتدخل مطلقا في تحديد الخطط الحربية التي يتم بها تحقيق هذه الأهداف، بل ترك ذلك الأمر - كما هو الواجب - للقيادة العسكرية، إذ إنها هي الجهة الوحيدة التي من اختصاصها ترجمة الأهداف الإستراتيجية إلى خطط حربية وإعداد القوات المسلحة لتنفيذ هذه الخطط، ثم إدارة المعارك الحربية على جبهة القتال مستهدفة من ذلك كله تحقيق الأهداف الإستراتيجية التي حددها لها رئيس الدولة.

وهذه التفرقة بين مسئوليات رئيس الدولة باعتباره قمة القيادة السياسية ومسئوليات القيادة العسكرية يمكن اعتبارها معيارا للتفرقة بين الإستراتيجية التي يمكن تعريفها بأنها فن القيادة العامة في الحرب بأجمعها، وبين التكتيك الحربي الذي يمكن تعريفه بأنه فن القيادة في ميدان المعركة. ولا تعني هذه التفرقة في المسئوليات أن هناك خطا فاصلا أو حاجزا قائما بين الإستراتيجية والتكتيك الحربي بحيث لا يمكن اجتيازه. فمن المعروف أن

الإستراتيجية العليا للدولة لا يمكن لرئيس الدولة أن يرسمها وحده، بل لا بد من أن يسهم معه في رسمها مجموعة من المستشارين والخبراء المتخصصين في الشئون العسكرية والسياسية والاقتصادية. ورغم أن مسئولية الرئيس تتحدد في رسم الإستراتيجية العليا للدولة وليس من اختصاصه التدخل في وضع الخطط الحربية، إذ إن ذلك من مسئولية واختصاص القيادة العسكرية إلا أن ذلك لا يعني ابتعاده كلية عن الشئون الحربية، سواء أثناء المرحلة التحضيرية التي تسبق الحرب أو خلال مرحلة سير المعارك عندما تنشب الحرب بالفعل، فإن رئيس الدولة من واجبه أن يدلي بآرائه وأن يقدم نصائحه للقيادة العسكرية للاستفادة من حصيلة تجاربه ومن بُعد أفقه الإستراتيجي والسياسي. كما أنه مطلوب منه أن يشعر القيادات العسكرية بمشاركته المادية والمعنوية لهم أثناء المرحلة التحضيرية للحرب، وذلك بحضور بعض الاجتماعات المهمة للقادة العسكريين وحضور بعض المناورات والبيانات العملية والقيام بزيارات لبعض التشكيلات والوحدات الميدانية، وغير ذلك من أوجه الأنشطة العسكرية ذات الأهمية الخاصة.

أما خلال مرحلة الحرب، فإن الرئيس مطلوب منه زيارة مقر القيادة العامة من حين لآخر للاطلاع على آخر تطورات الموقف على الجبهة، وكذا القيام ببعض الزيارات الميدانية لمراكز القيادة المتقدمة لبعض التشكيلات في ميدان القتال كوسيلة لرفع الروح المعنوية للقادة وللقوات على الجبهة، وإشعارهم بمدى مشاركة الدولة لهم وتقديرها لجهودهم. ولكن ذلك كله ينبغي أن يجري داخل إطار معين وفي حدود مرسومة وبشرط ألا يزج الرئيس بنفسه في خطط العمليات وألا يتورط ـ خاصة إذا كان الرئيس رجلا عسكريا ـ تحت تأثير نزعاته الكامنة وخدمته العسكرية السابقة إلى الحد الذي يجعله يصدر بنفسه أو يشترك مع القادة العسكريين في إصدار قرارات تكتيكية خاصة بالمعارك الدائرة، إذ إن ذلك معناه تدخل القيادة السياسية في أعمال القيادة العسكرية، وهو أمر ـ وفقا لدروس التاريخ وعبره ـ ذو عواقب خطيرة على مجرى الحروب ونتائجها.

وأبرز مثال على ذلك في التاريخ الحديث ما جرى في الحرب العالمية الثانية. ففي الوقت الذي كان فيه رئيس الوزراء البريطاني الشهير ونستون تشرشل والرئيس الأمريكي فرانكلين روزفلت يقتصر دورهما على رسم الخطط الإستراتيجية لمعسكر الحلفاء تاركين إدارة القتال وقيادة المعارك لقادتهم العسكريين الأفذاذ أمثال أيزنهاور ومونتجمري وألكسندر وبرادلي وباتون وماك آرثر وغيرهم، كان الدكتاتور الألماني هتلر العديم الخبرة والكفاءة العسكرية يتدخل في أعمال القيادات العسكرية الألمانية ويجبرها على تنفيذ

خطط حربية خاطئة رغم أنها كانت تضم نخبة من أمهر وأعظم القادة العسكريين أمثال فون روندشتد وإروين روميل وجودريان وغيرهم، مما أدى إلى شل هذه القيادات وعجزها عن تنفيذ مخططاتها، وكانت الحصيلة النهائية هي انتصار الحلفاء ودمار ألمانيا وخسارتها للحرب.

وقد كان واضحا منذ اليوم الأول من حرب أكتوبر أن الرئيس السادات يتوق إلى ممارسة القيادة العسكرية إلى جانب ممارسته للقيادة السياسية. والدليل الأكبر على ذلك هو ارتداؤه الزي العسكري بصفة دائمة طوال مدة الحرب، وظهوره به في جميع الزيارات والاجتماعات والمناسبات العامة حتى في خلال لقائه مع السياسيين والسفراء الأجانب. وموضوع شغف السادات بارتداء الزي العسكري هو موضوع سابق على حرب أكتوبر، وقد بدأ في الظهور منذ أن تولى السادات مسئولية الحكم في أكتوبر عام ٧٠، وهو أمر يعود بلا شك إلى عوامل نفسية مترسبة في أعماقه منذ مطلع شبابه وبداية خدمته العسكرية، حينما كان شديد الانبهار بالعسكرية الألمانية. ولم يكد يتولى مقاليد الحكم حتى برزت هذه النزعات المكبوتة على السطح، وأصبح واضحا شغفه الشديد بالزي العسكري إلى الحد الذي جعله يرتدي في مناسبات مختلفة الزي الخاص بالجيش وبالبحرية وبالطيران. وبلغ زهوه بالزي العسكري الفخم الذي ابتكره هو شخصيا للقائد الأعلى للقوات المسلحة، والذي كان يشبه كثيرا زي القادة الألمان، الحد الذي جعل صورته بهذا الزي هي الصورة الرسمية في الدولة التي تعلق على جدران المكاتب والأماكن العامة.

ومن الطبيعي بعد أن اقتنع السادات في أعماق نفسه بصفته القيادية أن يتجه إلى تحقيق حلمه الكبير وأمنية شبابه حينما كان ضابطا حديث الرتبة، وهو الحلم الذي يراود عادة خيال كل ضابط عند تخرجه في الكلية الحربية، ألا وهو أن يجد نفسه يوما ما على رأس القوات المسلحة وأن يتولى قيادتها العامة أثناء الحرب. ولهذا السبب حضر السادات قبل ساعة الصفر يوم ٦ أكتوبر إلى مقر القيادة العامة المركز ١٠ في عربة جيب عسكرية وبرفقته الفريق أول أحمد إسماعيل وتوجها إلى غرفة العمليات حيث جلس السادات في موضع القيادة في المنتصف وعلى يمينه القائد العام، وعلى يساره رئيس الأركان، وأمامهم خريطة ضخمة للعمليات كان موضحا عليها أوضاع قواتنا وأوضاع قوات العدو. وظل السادات يتابع وصول البلاغات التي أخذت تبعث بها القيادات الميدانية عن عملية عبور قواتنا إلى الضفة الشرقية للقناة لمدة ٦ ساعات متواصلة، ويتلقى في نفس الوقت تقارير قادة

الأسلحة عن عمليات قواتهم في معاونة التشكيلات الميدانية، إلى أن اضطر في الساعة الثامنة مساء إلى مغادرة غرفة العلميات للتوجه إلى قصر الطاهرة عندما علم أن السفير السوفيتي فينوجرادوف يرغب في لقائه. وقد ذكر السادات في كتابه «البحث عن الذات» أنه قد انتقل إلى قصر الطاهرة يوم الخميس ٤ أكتوبر بعد أن تم تجهيزه بأحدث أجهزة الاتصال ليكون مركز قيادة لإدارة الحرب.

وتبدو تسلط نزعة القيادة العسكرية على تفكير السادات بشكل يثير الدهشة من واقعة رواها الصحفي المعروف محمد حسنين هيكل الذي كان خلال فترة الحرب يكاد يلازم السادات معظم الأوقات، عن لقاء تم بين الرئيس وبين السفير السوفيتي فينوجرادوف بعد ظهر يوم ٩ أكتوبر. فقد ذكر في الصفحة ٢١٩ من كتابه «الطريق إلى رمضان» طبعة لندن الإنجليزية عام ٧٥ ما يلي: «ويبدو أن آخر الموضوعات التي تحدث عنها السفير السوفيتي مع الرئيس كان سؤالا وجهه إليه عن الغرض السياسي الذي يريد تحقيقه عن طريق القتال. فقد كان السوفيت دائمي التفكير في التحرك التالي المنتظر لمصر. وعندئذ نظر الرئيس إلى السفير وقال له وهو عابس الوجه: أنت الآن تتحدث مع القائد الأعلى للقوات المسلحة. أعتبر أنني لم أستمع إليك. إذا كنت تريد أن تتحدث عن الموقف السياسي فاذهب وتحدث مع الدكتور محمود فوزي».

وهذه الواقعة الغريبة تدل بجلاء على حقيقة المشاعر الكامنة في أعماق السادات خاصة في هذه المرحلة من الحرب التي كانت حافلة بالمجد والانتصارات الحربية، وهي عدم اهتمامه بإبراز دوره كرئيس للقيادة السياسية، في الوقت الذي تركز فيه اهتمامه للظهور على الملأ - خاصة أمام السوفيت الذين تولى طرد خبرائهم ومستشاريهم العسكريين من مصر في يوليو ٧٢ - بأنه على رأس القيادة العسكرية التي حققت معجزة العبور وتحطيم خط بارليف وأنزلت الهزائم بالإسرائيليين.

والأمر الذي يمكن ملاحظته من تصرفات السادات في المركز ١٠، أنه في خلال المرحلة الأولى من الحرب وهي فترة الانتصارات المجيدة لمصر وإلحاق الهزائم المنكرة بالقوات الإسرائيلية لم يكن لديه الدافع الذي يحفزه على التدخل في شئون العمليات الحربية، ولذا كانت زياراته لمقر القيادة العامة تتسم بالبشاشة وهدوء الأعصاب وتشجيع القادة.

ولكن هذا المنظر لم يلبث أن تحول إلى النقيض منذ أن أصدر السادات قراره السياسي بتطوير الهجوم شرقا يوم ١٤ أكتوبر لتخفيف الضغط عن الجبهة السورية. فعلى أثر فشل عملية التطوير التي تكبدت فيها القوات المصرية خسائر فادحة، وعلى أثر قيام الإسرائيليين

بعملية عبور القناة إلى الضفة الغربية ليلة ١٥ / ١٦ أكتوبر عند الدفرسوار وما تبع ذلك من تدهور الموقف العسكري، بدأت أعصاب السادات في الانفلات بعد إحساسه بمسئوليته الشخصية عن تردي الوضع العسكري بهذه الصورة نتيجة لقراره السياسي الخاطئ بتطوير الهجوم الذي أدى إلى انتقال الاحتياطي التعبوي إلى الضفة الشرقية للقناة. وفي سبيل إنقاذ الموقف قام السادات بمحاولات مستميتة لاستعادة الأوضاع العسكرية إلى ما كانت عليه قبل حدوث ثغرة الاختراق على الجناح الأيمن للجيش الثاني وقبل العبور الإسرائيلي إلى غرب القناة. وكانت هذه المحاولات سببا في تدخل السادات بشكل سافر في أعمال القيادة العامة، وأدت إلى تورطه بشكل متزايد في تحمل مسئولية القرارات التكتيكية التي كانت تصدر وقتئذ من المركز ١٠ إلى التشكيلات الميدانية بهدف تدمير ثغرة الاختراق عند الدفرسوار. ووصل التورط إلى حد أن السادات أخذ في الاتصال لاسلكيا بنفسه ببعض قادة الفرق في الميدان بقصد تقوية روحهم المعنوية أحيانا، كما حدث عندما اتصل بالعميد أ.ح إبراهيم العرابي قائد الفرقة ٢١ المدرعة ليقول له في تأثر «شرف مصر يا عرابي»، وأحيانا أخرى لإصدار توجيهات شفهية كما حدث عندما اتصل بالعميد أ.ح محمد عبدالعزيز قابيل قائد الفرقة الرابعة المدرعة ليقول له «ثبت الإسرائيليين ولا تجعلهم يتمكنون من التوسع، وإياك أن تشتبك معهم إلى أن تصلك الإمدادات».

ولقد خلق السادات في المركز ١٠ في المرحلة الأخيرة من الحرب ـ بأعصابه الثائرة وعباراته الحادة ـ جوا من الرهبة، مما جعل بعض القادة يؤثرون السكوت وعدم الإفصاح عن وجهة نظرهم الحقيقية إزاء المواقف التي تواجهها بعض التشكيلات والوحدات في الميدان واقتراح الحلول السليمة لها خشية التعرض لحدة غضبه.

وهناك واقعتان تكشفان بوضوح عن الجو الذي كان سائدا في المركز ١٠ في المرحلة الأخيرة من الحرب. فعلى أثر فشل إحدى الوحدات في تحقيق المهمة التي اشترك السادات مع القائد العام في تخصيصها لهذه الوحدة، وبرغم أن المهمة كانت خاطئة ومن المستحيل تنفيذها فإن السادات لم يلبث أن اشتعل غضبه بمجرد سماعه بأنباء هذا الفشل وأصدر أمره في الحال بتجريد (العميد) قائد الوحدة من رتبته وعزله من قيادته رغم أنه كان من أكفإ وأشجع القادة، واضطر القائد العام إلى التدخل لتهدئة الموقف وطالب الرئيس بأن يترك له علاج الموضوع.

أما الواقعة الثانية فقد أوردها الفريق سعد الشاذلي رئيس الأركان وقتئذ في الصفحة ٢٥٣ من الباب السابع من مذكراته، وقد حدثت مساء يوم ١٦ أكتوبر عندما عارضه القائد

العام في اقتراحه بسحب بعض القوات من الشرق لتوجيه الضربة ضد العدو من الغرب، فقد ذكر ما يلي: «وبعد ساعات قليلة، وصل الرئيس إلى المركز ١٠ وفكرت في أن أستعين برئيس الجمهورية لكي ينقض قرار القائد العام، وأن يوافق على وجهة نظري فيما يتعلق بسحب بعض القوات من الشرق، وأن نقوم بتوجيه ضربتنا الرئيسية ضد الثغرة من الغرب. شرحت اقتراحاتي، ولكن الرئيس لم يمهلني لكي أتمها، وثار ثورة عارمة وفقد أعصابه وأخذ يصرخ في وجهي بعصبية: أنا لا أريد أن أسمع منك مرة ثانية هذه الاقتراحات الخاصة بسحب القوات من الشرق. إذا أثرت هذا الموضوع مرة أخرى فإني سوف أحاكمك».

العلاقة بين أحمد إسماعيل والشاذلي

أثرت العلاقة الشخصية السيئة بين أحمد إسماعيل وسعد الشاذلي على مجرى الأحداث في حرب أكتوبر ٧٣ تأثيرا بالغا، فقد كان الاثنان لا يطيق أحدهما الآخر. وتمتد جذور الكراهية بين الرجلين إلى عام ١٩٦٠، حينما تصادف وجودهما في وقت واحد في ليوبولدفيل عاصمة الكونغو: العقيد سعد الشاذلي قائد الكتيبة المصرية التي كانت ضمن قوات الأمم المتحدة في الكونغو والعميد أحمد إسماعيل رئيس البعثة العسكرية المصرية لدراسة وسائل النهوض بجيش الكونغو. وعندما حاول العميد فرض سلطته على العقيد بحكم الأقدمية رفض الشاذلي ذلك رفضا باتا لعدم وجود أي صلات في العمل بين المهمتين، وتبادل الاثنان الكلمات الخشنة حتى كادا يشتبكان بالأيدي. وفي ١٠ مارس ٦٩ عين الرئيس الراحل عبد الناصر اللواء أحمد إسماعيل رئيسا للأركان بعد استشهاد الفريق عبد المنعم رياض، وفي الحال توجه العميد سعد الشاذلي إلى مكتب الفريق أول محمد فوزي وزير الحربية وقدم استقالته وتوجه إلى منزله حيث بقي ثلاثة أيام بعيدا عن عمله. ولكن الرئيس تدخل في الموضوع وأرسل زوج ابنته أشرف مروان إلى منزل الشاذلي حيث أقنعه بالعودة إلى عمله بعد أن أكد له وعد الرئيس بعدم احتكاك أحمد إسماعيل به. وبالفعل لم تطأ قدم أحمد إسماعيل طوال الشهور الستة التي قضاها رئيسا للأركان قاعدة أنشاص التي كان يعمل بها سعد الشاذلي قائدا للقوات الخاصة (الصاعقة والمظلات). وفي يوم ١٠ سبتمبر ٦٩ أحال عبد الناصر اللواء أحمد إسماعيل على التقاعد على أثر عملية الإغارة البرمائية الإسرائيلية على الزعفرانة على خليج السويس. وفي ليلة ١٥ مايو ١٩٧١ وعلى أثر تصفية الرئيس الراحل السادات لمجموعة مراكز القوى استعان الرئيس في وقت واحد بالغريمين لتدعيم مركزه وتثبيت حكمه، فأسند إلى سعد

الشاذلي منصب رئيس الأركان خلفا للفريق محمد صادق الذي عينه السادات في تلك الليلة وزيراً للحربية وقائدا عاما للقوات المسلحة بعد الإطاحة بالفريق أول محمد فوزي، كما تم له استدعاء اللواء أحمد إسماعيل من التقاعد حيث أسند إليه منصب مدير المخابرات العامة. ورغم أنه لم يكن هناك احتكاك مباشر في العمل بين مدير المخابرات العامة ورئيس الأركان فإن العلاقة بين الرجلين ظلت على حالها من حيث البرودة والكراهية المتبادلة.

وفي ٢٦ أكتوبر ٧٢ نفذ السادات تدبيره بإقالة الفريق أول محمد صادق، وقام بتعيين الفريق أحمد إسماعيل وزيرا للحربية وقائدا عاما للقوات المسلحة. وقبل تعيين أحمد إسماعيل في هذا المنصب ببضع ساعات عرض السادات الأمر الذي انتواه على سعد الشاذلي، وكانت مفاجأة سيئة بالنسبة له، فروى للرئيس التاريخ الطويل للخلافات بينهما منذ عام ١٩٦٠ في الكونغو وما تتسم به علاقتهما من فتور وبرودة مما يجعل التعاون بينهما شبه مستحيل. ولكن الرئيس أكد له أن العلاقة بينهما ستكون حسنة وأفضل كثيرا من العلاقة السابقة بينه وبين محمد صادق.

وذكر الشاذلي في مذكراته أنه فكر وقتئذ في الاستقالة، ولكن عاملين منعاه من ذلك، أولهما: أن استقالته سوف تفسر على أنها تضامن مع الفريق محمد صادق بعد إقالة الرئيس له. والعامل الثاني: أن البعض قد يفسر استقالته بأنه لا يريد دخول الحرب في حين أن الحقيقة هي عكس ذلك..

وهكذا وجد الغريمان نفسيهما فجأة في مقر قيادة واحد وفي مكتبين متجاورين بعد أن أجبرتهما الظروف على ضرورة التعاون المتبادل والاشتراك معا في قيادة القوات المسلحة في فترة من أحرج الفترات التي مرت عليها في تاريخها، وهي فترة استكمال التحضيرات للمعركة الهجومية التي كان الفريق سعد الشاذلي للحقيقة والتاريخ قد بذل جهدا مضنيا وعملا شاقا متواصلا في سبيل إعداد القوات المسلحة لهذه المعركة المصيرية منذ أن تولى منصب رئيس الأركان.

ورغم التحسن الذي جرى في الظاهر في العلاقات بين أحمد إسماعيل وسعد الشاذلي، فإن الكراهية العميقة بين الرجلين ظلت على حالها. ولم يكن ذلك في صالح القوات المسلحة المصرية بالطبع، إذ كيف يمكن أن تسير الأمور سيرا طبيعيا في المركز ١٠ في الوقت الذي يوجد فيه هذا الانشقاق بين القائدين اللذين يتوليان أخطر منصبين في الحرب وهما القائد العام ورئيس الأركان. ولا جدال في أن جانبا من غضب السادات

وثورته الجامحة على سعد الشاذلي في المرحلة الأخيرة من الحرب إلى حد تهديده بالمحاكمة العسكرية حتى انتهى الأمر بعزله من منصبه كان يرجع إلى جهود أحمد إسماعيل في إيغار صدر السادات ضده عن طريق النقد اللاذع لتصرفاته والشكوى من عدم انصياعه لأوامره وآرائه.

وكان أحمد إسماعيل من جهة أخرى شديد الولاء والإخلاص للسادات، ولا يمكن أن يفكر في معارضته أو الوقوف في وجه آرائه، فقد كان السادات هو صاحب الفضل الأول عليه بعد أن أطاح به عبد الناصر في ١٠ سبتمبر ٦٩ وأيقن وقتئذ أن حياته العملية قد انتهت ولم يبق أمامه سوى البقاء في ظلال النسيان حتى يوافيه أجله.

وكان ذلك الشعور بالولاء المطلق للسادات بالإضافة إلى الدرس القاسي الذي تلقاه من عبد الناصر حين أقاله من منصبه بسبب الإغارة الإسرائيلية على الزعفرانة فيه التفسير النفسي الواضح للنهج الذي انتهجه أحمد إسماعيل في المركز ١٠ وفي الأسلوب الذي اتبعه في القيادة طوال مدة الحرب، وهو الحرص على عدم إغضاب السادات مما جعله يتمادى في تدخله في الشئون العسكرية، وفي خطط العمليات بشكل لا يتفق إطلاقا مع الهيبة الواجبة للقيادة العامة وفي احترام اختصاصاتها. هذا إلى جانب الترحيب الشخصي من أحمد إسماعيل باشتراك الرئيس معه في إصدار القرارات العسكرية ذات الحساسية الخاصة والخطورة ضمانا لعدم تحمله المسئولية في حالة الفشل، إذ إن القرار في هذه الحالة هو قرار الرئيس، ومن ذا الذي يجرؤ على أن يوجه إلى القائد العام حينئذ اللوم أو المؤاخذة أو يطالب بتقديمه للمساءلة والحساب؟

كيف استخدمت الفرقة ٢١ المدرعة بأسلوب تكتيكي خاطئ؟

كان أحد العيوب الرئيسية للخطة التي وضعتها القيادة العامة المصرية لتدمير ثغرة الاختراق شرق القناة في منطقة الدفرسوار أنها خصصت للفرقة ٢١ المدرعة مهمة التقدم يوم ١٧ أكتوبر من مواقعها شمال قرية الجلاء، والمغذي الرئيسي في اتجاه الجنوب كي تلتقي مع اللواء ٢٥ المدرع المستقل الذي تقرر دفعه من قطاع الجيش الثالث من الجنوب إلى الشمال. وعندما تلتقي القوتان عند منطقة الدفرسوار - شرق القناة - يتم حصار العدو داخل ثغرة الاختراق وتدميره. ولم يكن في مقدرة الفرقة ٢١ المدرعة تحقيق المهمة التي أسندت إليها بأي حال من الأحوال، فإن العبرة - كما سبق أن أوضحنا عند تحديد حجم أي قوة بالنسبة للمهمة المخصصة لها - أن يجري هذا التحديد حسب قدراتها الحقيقية

وليس حسب حجمها التنظيمي، على أن يوضع أيضا في الاعتبار قوة العدو التي ينتظر مواجهتها عند تنفيذ المهمة.

ونظرا لأن القدرات الحقيقية للفرقة ٢١ المدرعة بعد المعارك العنيفة التي خاضتها منذ عملية تطوير الهجوم يوم ١٤ أكتوبر إلى حين تكليفها بهذه المهمة الجديدة لم تكن تزيد على قدرة لواء مدرع فقط، لذلك لم تتمكن أي وحدة من وحدات الفرقة ٢١ المدرعة من الالتقاء مع اللواء ٢٥ المدرع للاشتراك معه في تحقيق المهمة التي كلفت بها القوتان. وكان ذلك من ضمن العوامل الرئيسية التي أدت إلى تدمير هذا اللواء المدرع جنوب الخط كثيب الحبشي - تل سلام بعد معركة غير متكافئة وصفتها بعض المراجع الأجنبية بأنها كانت معركة دبابات كلاسيكية يحلم بها كل قائد.

وبعد فشل الفرقة ٢١ المدرعة في تحقيق المهمة التي خصصت لها في عملية تطوير الهجوم شرقًا يوم ١٤ أكتوبر والتي خسرت خلالها نحو ٥٠٪ من الدبابات التي اشتركت بها في المعركة، لم تسنح الفرصة لقائدها العميد أ. ح إبراهيم العرابي للقيام بعملية إعادة تجميع وحدات فرقته والقيام بأعمال الإصلاح السريعة للمعدات المعطوبة بالطريقة السليمة، وبعيدا عن ضغط العدو لكي يمكنه تجديد الكفاءة القتالية للفرقة. فقد أمضت وحدات الفرقة طوال يوم ١٥ أكتوبر تحت قصف جوي مركز من العدو ونيران مدفعية بعيدة المدى من عيار ١٥٥مم و١٧٥مم. وزاد من خسائر الفرقة وشل من قدرتها على الانتشار لتجنب خسائر القصف الجوي والمدفعي حشرها مع الفرقة ١٦ مشاة في رأس كوبري واحد ضيق مما جعل الموقف يزداد صعوبة وتعقيداً.

وعلاوة على الموقف السيئ الذي واجهته الفرقة طوال يوم ١٥ أكتوبر، والذي كان سببًا في عرقلة عملية إعادة تجميع وحداتها، فإن وضعها لم يلبث أن ازداد تحرجًا بعد أن قررت القيادة الإسرائيلية البدء في تنفيذ خطتها (القلب الشجاع) اعتباراً من ليلة ١٥ / ١٦ أكتوبر لإقامة رأس كوبري على ضفتي قناة السويس عند الدفرسوار، إذ أصبح رأس كوبري الفرقة ١٦ مشاة الذي يضم الفرقة ٢١ المدرعة هدفا لهجوم عنيف ومتواصل من القوات المدرعة الإسرائيلية لاختراق الجنب الأيمن للفرقة ١٦ مشاة بقصد تأمين ساحة العبور عند الدفرسوار (الحصن الإسرائيلي السابق متسميد) وتوسيع الاختراق شمالا إلى مسافة حوالي ٥كم أي حتى شمال قرية الجلاء والمغذي الرئيسي، وتطهير محوري التقدم أكافيش وطرطور اللذين ستتحرك عليهما القوات والمعدات المخصصة للعبور، وكانا يمران أمام مواجهة اللواء ١٦ مشاة (الجنب الأيمن للفرقة ١٦ مشاة) بل كان محور طرطور يخترق المواقع الأمامية لهذا اللواء. وكان تحقيق أهداف خطة العبور الإسرائيلية إلى غرب القناة

يعني تدمير اللواء ١٦ مشاة واحتلال مواقعه الدفاعية، أو على الأقل زحزحته شمالاً حوالي ٥كم ليتم إخلاء المنطقة من ساحة العبور بالدفرسوار حتى شمال قرية الجلاء والمغذي الرئيسي من القوات المصرية. وكانت الهجمات الإسرائيلية المركزة على الجنب الأيمن للفرقة ١٦ مشاة التي انتهت باختراق الموقع الدفاعي للواء ١٦ مشاة ووصول الدبابات الإسرائيلية إلى قرية الجلاء سببًا في تكليف وحدات الفرقة ٢١ المدرعة قبل أن يتسنى لها إتمام عملية إعادة التجميع بشن هجمات مضادة على قوات العدو في ثغرة الاختراق ومحاولة طرد دبابات العدو من قرية الجلاء.

ونظرا للأوضاع المتحرجة على الجنب الأيمن للفرقة ١٦ مشاة اضطرت قيادة الجيش الثاني إلى استخدام وحدات الفرقة ٢١ المدرعة بأسلوب يخالف المبادئ التكتيكية السليمة في استخدام المدرعات، إذ تم دفع الفرقة للهجوم المضاد بأسلوب الهجوم الموزع Piece meal، فتبعثرت كتائبها المدرعة في شتى الاتجاهات وتوزعت جهودها على مختلف الجبهات، مما أدى في النهاية إلى تفتيتها وفقدانها لقوتها الضاربة.

ورغم ما حاق بالفرقة ٢١ المدرعة من خسائر بلغت أكثر من ١٥٠ دبابة فإن المهمة الرئيسية التي اعتادت قيادة الجيش الثاني تكليفها بها منذ العبور الإسرائيلي إلى غرب القناة تنفيذاً لتعليمات القيادة العامة المركز ١٠ كانت دائما هي استعادة الموقف إلى ما كان عليه في الجناح الأيمن للجيش الثاني. وكان من المحتمل نجاح الفرقة ٢١ المدرعة في أداء هذه المهمة الصعبة، رغم ما واجهته من ظروف قاسية لو أتيحت لها الفرصة لاستعاضة خسائرها في الدبابات، وتم لها تسلم دبابات جديدة لتعود مرة أخرى إلى حجمها التنظيمي الكامل، كما كان الحال يجري في الوحدات المدرعة الإسرائيلية خاصة بعد تدفق شحنات الجسر الجوي الأمريكي، ولكن ذلك الأمر لم يكن من المتيسر تحقيقه نظراً لعدم توافر دبابات احتياطية في مخازن القوات المسلحة المصرية، كما أن الدبابات السوفيتية التي أرسلت عن طريق الجسر البحري السوفيتي، والبالغ عددها ٤٠٠ دبابة من طراز ت ٥٥ وت ٦٢ تم شحنها كلها عن طريق البحر من ميناء أوديسا على البحر الأسود إلى ميناء اللاذقية السوري، نظرا للخسائر الثقيلة التي تكبدتها القوات السورية أثناء هجومها على مرتفعات الجولان، مما لم يتح الفرصة لوصول أي شحنات من الدبابات السوفيتية الجديدة إلى مصر.

العمليات الحربية شرق القناة يوم ١٧ أكتوبر

في مساء يوم ١٦ أكتوبر ٧٣ كانت أوضاع وحدات الفرقة ٢١ المدرعة كما يلي:

اللواء الأول المدرع: شمال منطقة المغذي الرئيسي ما بين الطريق العرضي (١) وقناة السويس.

اللواء ١٤ المدرع: شرق الطالية لحماية نقطة الاتصال بين اللواء ١٦ مشاة (لواء اليمين) واللواء ٣ مشاة ميكانيكي (لواء المنتصف).

اللواء ١٨ مشاة ميكانيكي: في أوضاع دفاعية شمال قرية الجلاء بدون كتيبة الدبابات التي هي من ضمن التنظيم العضوي للواء بعد تخصيصها للعمل كاحتياط تحت تصرف قائد الفرقة ١٦ مشاة.

وكان العدو لا يزال يهاجم الجنب الأيمن للفرقة ١٦ مشاة لاستكمال فتح محوري أكافيش وطرطور، وتوسيع ثغرة الاختراق عند الدفرسوار. وكانت القيادة الجنوبية الإسرائيلية قد كلفت الجنرال إبراهام أدان (برن) بتحقيق هذه المهمة بعد فشل الجنرال شارون في إنجازها، ولذا أخذ يشن هجماته على رأس كوبري الفرقة ١٦ مشاة بلواءين مدرعين من تشكيل فرقته (لواء العقيد نيتكا ولواء العقيد جابي) بالإضافة إلى اللواء المدرع بقيادة العقيد توفيا (من تشكيل فرقة شارون، ووضع تحت قيادة أدان لتحقيق المهمة التي كلف بها). وكان جسر المعديات Pontoon Bridge قد أمكن للعميد دافيد تمارى نائب الجنرال أدان تحريكه حوالي الساعة الرابعة صباح يوم ١٧ أكتوبر على طريق أكافيش، ووصل إلى ساحة العبور في الدفرسوار حوالي الساعة السادسة صباحا من نفس اليوم. ولهذا تركزت جهود الإسرائيليين في فتح طريق طرطور حتى يمكن للعميد جاكي نائب شارون تحريك الجسر السابق التركيب Preconstructed على هذا الطريق إلى ساحة العبور بالدفرسوار ليتم إقامة الجسرين بين شاطئي القناة وفقا للخطة الموضوعة، بعد ذلك التأخير غير المتوقع الذي جرى والذي كاد يتسبب في إلغاء عملية القلب الشجاع (Abiray Lev).

وفي حوالي الساعة الرابعة صباح يوم ١٧ أكتوبر صدرت توجيهات العمليات من المركز ١٠ بالقاهرة إلى قيادة الجيش الثاني، وكانت تتضمن أن العدو قد حشد حوالي ٥٠ دبابة مدعمة بعناصر صاروخية مضادة للدبابات في المنطقة من كبريت شرق حتى الدفرسوار، وأنه يقوم بمهاجمة رأس كوبري الفرقة ١٦ مشاة بعدد ٨٠ دبابة، وأن قرار القيادة العامة هو أن يقوم الجيش الثاني بهجوم مضاد لاستعادة الموقف إلى ما كان عليه في رأس كوبري الفرقة ١٦ مشاة. وتحددت الساعة السابعة صباح يوم ١٧ أكتوبر موعدا للاستعداد للتحرك. وكان قرار القيادة العامة يتضمن دفع اللواء ٢٥ المدرع اعتبارا من أول ضوء يوم ١٧ أكتوبر من قطاع الجيش الثالث إلى الشمال لمعاونة الجيش الثاني في تدمير

العدو المخترق. وركز القرار على ضرورة بذل عناية خاصة إلى تعارف القوات وتمييزها وتأمين قتال القوات ضد ستائر العدو المضادة للدبابات، واحتياطي العدو المضاد للدبابات الطائر (المقصود طائرات الهليكوبتر المجهزة بالصواريخ المضادة للدبابات التي تطلق من الجو). واعتبارا من الساعة الخامسة صباحا يوم ١٧ أكتوبر ركز العدو ضربه الجوي ونيران مدفعيته على مواقع اللواءين الأول المدرع و١٨ المشاة الميكانيكي، وتسبب هذا القصف المركز في وقوع بعض الخسائر.

وحوالي الساعة السابعة صباحا صدرت تعليمات قيادة الجيش الثاني بدفع اللواء الأول المدرع لتدمير العدو شرق الدفرسوار وتأمين الجنب الأيمن للفرقة ١٦ مشاة، وكانت المهمة التي خصصها قائد الفرقة ٢١ المدرعة لقائد اللواء الأول تقضي بأن يقوم اللواء المدرع بعد ضربة طيران وقصفة نيران مدفعية لمدة ١٥ دقيقة تنتهي في الساعة الثامنة والربع صباحا بمهاجمة العدو في المنطقة جنوب شرق قرية الجلاء وتدميره والاستيلاء على النقطة القوية في الدفرسوار، بالتعاون مع عناصر المظلات المصرية التي تحتل الضفة الغربية للقناة والوصول إلى الخط على امتداد طريق الدفرسوار وتأمينه، ويكون اللواء الأول المدرع على استعداد للاتصال باللواء ٢٥ المدرع الذي عبر خط كبريت في الساعة السابعة صباحا من خلال شبكة التعاون رقم ١٤٥.

وهكذا اتضح أن الفرقة ٢١ المدرعة لم يكن في مقدرتها دفع أي قوة مدرعة إلى الجنوب للالتقاء مع اللواء ٢٥ المدرع سوى بقايا اللواء الأول المدرع الذي لم يكن عدد دباباته يزيد على ٥٣ دبابة، فقد كانت وحدات الفرقة الأخرى مكلفة بمهام أخرى حيوية لا يمكنها التخلي عنها حتى لا يفقد رأس كوبري الفرقة ١٦ مشاة توازنه الدفاعي.

وفي الساعة الثامنة والربع صباح يوم ١٧ أكتوبر، وبعد القصف الجوي والمدفعي الذي جرى لمدة ١٥ دقيقة وفقا للخطة الموضوعة، قامت دبابات اللواء الأول المدرع بتوجيه ضربة مضادة من موقعها شمال المغذي الرئيسي إلى اتجاه الدفرسوار جنوبا. ورغم الظروف القاسية التي كان يواجهها اللواء الأول المدرع فقد تمكنت دباباته من تدمير العدو في المنطقة جنوب المغذي الرئيسي وغرب قرية الجلاء، ومن الوصول إلى نقطة الدفرسوار القوية الشمالية واحتلالها حوالي الساعة التاسعة صباحا، ولكنها اضطرت إلى الارتداد شمالا تحت ضغط العدو والضرب الجوي المركز ونيران المدفعية بعيدة المدى، وعادت الدبابات المتبقية من اللواء الأول التي لم يتجاوز عددها ٣٣ دبابة بعد إصابة ٢٠ دبابة في المعركة إلى مواقعها على خط المغذي الرئيسي، واستمرت تقاتل العدو الذي واصلت دباباته الضغط

عليها بشدة، واستطاع العدو الوصول إلى مسافة كيلو متر واحد فقط جنوب خط المغذي الرئيسي، واستمر القتال محتدما بين دبابات اللواء الأول والدبابات الإسرائيلية حتى الساعة التاسعة مساء حينما تمكن اللواء الأول من اتخاذ الأوضاع الدفاعية الملائمة.

وحوالي الساعة الثانية بعد ظهر يوم ١٧ أكتوبر صدرت التعليمات بتعيين اللواء تيسير العقاد رئيس أركان الجيش الثاني قائدا لرأس الكوبري الموحد من الفرقتين ١٦ مشاة و٢١ المدرعة. ونظرا لعدم تزويده بأي طاقم قيادة أو أي وسائل للاتصال بقيادة الجيش الثاني أو بالتشكيلات التي كلف بقيادتها، إذ كان كل ما خصص له هو عربة جيب وضابط إشارة مع جهاز R151 وجندي حراسة، فقد اضطر اللواء تيسير إلى البقاء بمركز القيادة المتقدم للفرقة ٢١ المدرعة كي يمارس قيادته واتصالاته عن طريق دبابة القيادة المخصصة للعميد أ.ح إبراهيم العرابي قائد الفرقة ٢١ المدرعة.

وحوالي الساعة الخامسة مساء يوم ١٧ أكتوبر، طرحت في قيادة الجيش الثاني فكرة صدقت عليها القيادة العامة لمنع العدو من توسيع ثغرة الاختراق، وهي إغراق المنطقة - شمال قرية الجلاء والمغذي الرئيسي - بالمياه عن طريق إطلاق المياه إلى مواسير الضخ الممتدة من غرب القناة إلى شرقها. وكانت توجد ست مواسير ضخمة تمتد عبر قاع قناة السويس لنقل المياه من الترعة الحلوة الموازية للقناة (ترعة السويس) إلى شرق القناة لتصب في الترعة التي تم حفرها شمال قرية الجلاء ويطلق على هذا النظام اسم المغذي الرئيسي. والغرض من نقل مياه النيل إلى ترعة الجلاء ري الأرض المستصلحة في نطاق القرية. وعقب هزيمة حرب يونيو ٦٧، واستيلاء القوات الإسرائيلية على سيناء أوقفت السلطات المصرية بالطبع ضخ المياه من الضفة الغربية مما أدى إلى جفاف الترعة. وكانت قيادة الجيش الثاني تستهدف ضخ المياه بغزارة عبر المواسير لإغراق الأراضي شمال قرية الجلاء لتكون مانعًا ضد الدبابات، وهي فكرة وجيهة لجأت إليها كثير من الدول في الحروب. ورغم دفع مفرزة موانع متحركة من المهندسين العسكريين إلى محطة الضخ غرب القناة لإطلاق المياه، فإن العملية لم يتم تنفيذها لأسباب فنية كانت ترجع بلا شك إلى التلف الذي أصاب محركات الضخ بسبب توقفها عن العمل لأكثر من ست سنوات.

وفي الساعة الخامسة مساء تم تكليف اللواء ١٨ المشاة الميكانيكي الذي كان يتخذ أوضاعا دفاعية شمال قرية الجلاء بتصفية العدو الموجود في القرية بواسطة إحدى كتائبه والقيام بعملية تأمينها. ولكن هجوم الكتيبة لم يلبث أن باء بالفشل وتكبدت الكتيبة خسائر جسيمة أدت إلى صدور الأوامر بسحبها من موقعها لإعادة تجميعها جنوب كوبري

سرابيوم. واستمر باقي اللواء ١٨ مشاة الميكانيكي في الدفاع على الخط شمال مدق السواحل ـ قناة السويس بعد تدعيمه بعدد ١٠ دبابات من اللواء ١٤ المدرع.

وإزاء النقص الشديد في دبابات الفرقة ٢١ المدرعة، أمر اللواء تيسير العقاد قائد رأس الكوبري الموحد بتحرك كتيبة دبابات من اللواء ٢٤ المدرع (الملحق على الفرقة ٢ مشاة منذ بداية الحرب من الفرقة ٢٣ مشاة ميكانيكية) إلى منطقة رأس كوبري الفرقة ١٦ مشاة على أن توضع تحت قيادة الفرقة ٢١ المدرعة، وعند تحرك كتيبة الدبابات من مكان تمركز اللواء ٢٤ المدرع (الإسماعيلية شرق) على الطريق العرضي رقم ١ (طريق الشط). وقبيل وصول الكتيبة إلى رأس كوبري الفرقة ١٦ مشاة انقض عليها طيران العدو محاولا تدميرها، ولكن حسن تصرف قائد الكتيبة أنقذها من الدمار، فقد أمر باستدارة دبابات الكتيبة صوب الشرق وسرعة انتشارها، ولهذا لم تلحق بها أي خسائر.

تقلص رأس كوبري الفرقة ١٦ مشاة

تعرض رأس كوبري الفرقة ١٦ مشاة منذ ليلة ١٥ / ١٦ أكتوبر التي بدأ خلالها الإسرائيليون عملية عبورهم إلى غرب القناة لهجمات عنيفة متواصلة على طول المواجهة مع ضرب جوي مركز ونيران كثيفة من المدفعية بعيدة المدى من عيار ١٥٥م و ١٧٥م مما ألحق بوحدات الفرقة خسائر كبيرة. هذا وقد ركز الجنرال شارون ـ الذي كلفت فرقته بإنشاء رأس الكوبري عند الدفرسوار وتأمينه ـ هجماته على مواقع اللواء ١٦ مشاة (الجنب الأيمن للفرقة ١٦ مشاة) مستهدفا اختراق مواقع هذا اللواء وتدميره لتأمين ساحة العبور من الشمال. وبعد قتال عنيف ومتواصل دار بين اللواء المدرع الذي يقوده العقيد آمنون وبين كتيبة اليمين في اللواء أصيب فيه الإسرائيليون بخسائر جسيمة سقط أخيرا في صباح ١٦ أكتوبر موقع تقاطع الطرق (الطريق العرضي رقم ١ مع طريق طرطور)، واندفع آمنون بدباباته شمالا حيث احتل المنطقة ما بين المزرعة الصينية (قرية الجلاء) وقناة السويس، وفي ليلة ١٧ أكتوبر هاجم لواء المظلات بقيادة العقيد عوزى مائيري الذي تم نقله جوا بطائرات الهليكوبتر من رأس سدر على خليج السويس موقع الكتيبة اليسار من اللواء ١٦ مشاة، واستمر القتال محتدما طوال الليل. ونظرا للخسائر الفادحة التي لحقت بالمظليين الإسرائيليين لم يتيسير سحبهم إلى الخلف إلا تحت ستر نيران كتيبة من الدبابات قامت بعد سحب جنود المظلات بشن هجماتها على موقع الكتيبة المصرية مما أدى إلى تعرضها لخسائر كبيرة.

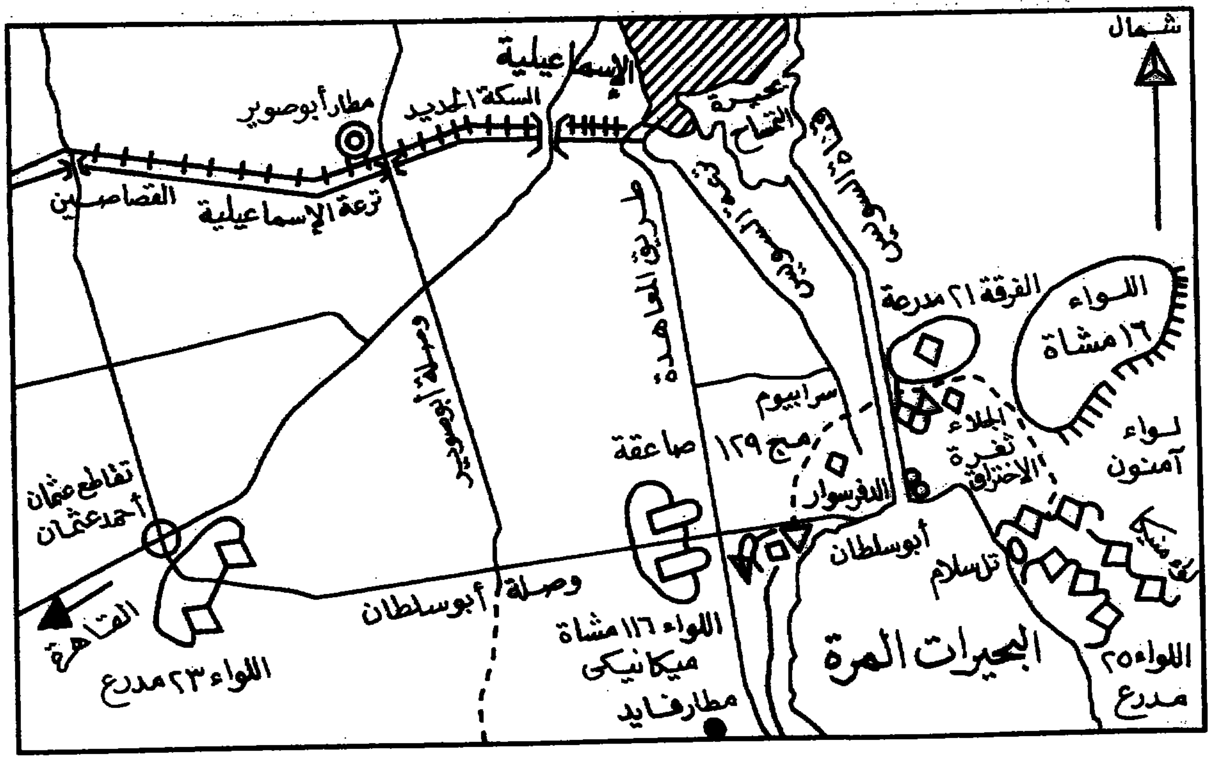
ولقد ساعد على تثبيت دبابات العدو بقرية الجلاء، رغم الهجمات المضادة التي

وجهت ضدها، استغلال العدو لطبيعة الأرض والمباني في قرية الجلاء، وكذا المصارف والترع الجافة وعربات الأرتال الإدارية المدمرة أو التي تركها سائقوها أثناء الضرب الجوي الإسرائيلي. وكانت طبيعة الأرض الرملية المتهايلة سببا في سوء حالة التجهيز لوقاية القوات المصرية في هذا القطاع، خاصة من الغارات الجوية التي اشتدت بعد عبور القوات الإسرائيلية إلى غرب القناة، نتيجة للثغرة التي حدثت في شبكة الدفاع الجوي غرب القناة عقب مهاجمة الدبابات الإسرائيلية لمواقع الصواريخ سام على الضفة الغربية للقناة. وفي الساعة الخامسة والنصف مساء يوم ١٧ أكتوبر كان موقف اللواء ١٦ مشاة قد ساء إلى درجة خطيرة، فقد تم تدمير مجموعة مدفعية اللواء، وكذا معظم الدبابات والأسلحة والصواريخ المضادة للدبابات الموجودة في وحدات اللواء وارتفع معدل الخسائر بدرجة عالية، كما ساء موقف الذخيرة بشكل ينذر بالخطر.

ونتيجة لتعرض وحدات اللواء ومركز قيادته ومنطقته الإدارية لهجوم عنيف من دبابات العدو، في الوقت الذي اشتد فيه الضرب الجوي وازدادت كثافة نيران المدفعية وأصبح اللواء عاجزا عن الاحتفاظ بمواقعه، أرسلت قيادة الفرقة ١٦ مشاة إشارة لاسلكية إلى قائد اللواء ١٦ مشاة بتعديل أوضاعه وتجميع العناصر المتبقية من اللواء على خط المبنى المنعزل والانضمام إلى المواقع الدفاعية التي يحتلها اللواء ١٨ المشاة الميكانيكي من الفرقة ٢١ المدرعة شمال قرية الجلاء لتعزيز الخط الدفاعي. وبإخلاء اللواء ١٦ مشاة مواقعه الدفاعية حقق العدو غرضه في توسيع ثغرة الاختراق شمالا لتأمين معبر الدفرسوار. وفي نفس الوقت اضطر قائد الفرقة ١٦ مشاة إلى تعديل أوضاع وحداته الدفاعية، بعد أن تقلص رأس كوبري الفرقة وتمكن العدو من فتح طريقي أكافيش وطرطور واحتلال المزرعة الصينية (قرية الجلاء) التي تكبد الطرفان في معاركها أفدح الخسائر.

مهاجمة مواقع الصواريخ المصرية (سام) غرب القناة

في الساعة الرابعة مساء يوم ١٦ أكتوبر وصل اللواء عبد المنعم خليل من القاهرة إلى مركز القيادة المتقدم للجيش الثاني في الإسماعيلية بعد تعيينه قائدا لهذا الجيش خلفا للواء سعد مأمون الذي كان قد أصيب في الساعة الثامنة والنصف صباح يوم ١٤ أكتوبر بنوبة قلبية مفاجئة أعجزته عن الاستمرار في القيادة. وعلى أثر وصول اللواء عبد المنعم قام الأطباء بنقل اللواء سعد مأمون إلى مستشفي القصاصين ومنه إلى مستشفى المعادي، وبدأ اللواء عبد المنعم خليل يمارس قيادته على الجيش الثاني في مرحلة تعد من أصعب المراحل التي مرت عليه منذ بداية الحرب في ٦ أكتوبر ٧٣.



مسرح العمليات يوم ١٧ أكتوبر ١٩٧٣.

وحتى صباح يوم ١٧ أكتوبر لم يكن العدو قد نجح في إقامة أي جسر ثابت عبر قناة السويس في منطقة الدفرسوار كما كان مقرراً في الخطة الموضوعة، ولهذا السبب ظلت قوة الجنرال شارون ـ التي عبرت إلى غرب القناة باستخدام القوارب المطاطية ومعديات البونتون المتحركة ـ معزولة عن قواعدها شرق القناة لمدة تقرب من ٤٠ ساعة، وكانت القوة المذكورة تتكون من لواء مشاة من المظلات بقيادة العقيد داني مات و ٣٠ دبابة من اللواء المدرع بقيادة العقيد حاييم ومجموعة من العربات المدرعة. وقد رفض الجنرال حاييم بارليف الممثل الشخصي لرئيس الأركان العامة في القيادة الجنوبية ـ رغم إلحاح الجنرال شارون ـ التصديق بعبور أي إمدادات لتعزيز هذه القوة إلا بعد إقامة جسور ثابتة عبر القناة خشية تعرض القوة الإسرائيلية غرب القناة لخطر الإبادة أو الوقوع في الأسر.

وكانت القوة الإسرائيلية التي عبرت إلى غرب القناة على الرغم من صغر حجمها قد أثارت كثيرا من عوامل القلق والارتباك بين القيادات والقوات المصرية الموجودة غرب القناة، بسبب الأسلوب الجيد الذي اتبعته لإخفاء أفرادها وأسلحتها عن الاستطلاع الجوي والاستطلاع الأرضي باستغلال المباني والأشجار وهناجر مطار الدفرسوار المهجور، مما جعل المعلومات التي تنقلها عناصر الاستطلاع إلى القيادات المحلية تتسم بالتضارب وعدم الدقة والميل إلى التهوين من حجم وقوة العدو. .

وكان رأس الكوبري الإسرائيلي غرب القناة في مرحلته الأولى وقبل إقامة الجسور الثابتة عبر القناة، يمتد من مرسى أبو سلطان على البحيرة المرة الكبرى جنوبا حتى قرب سرابيوم شمالا (حوالي ٨كم) ومن قناة السويس شرقا حتى الترعة الحلوة غربا (حوالي من ٢ إلى ٣كم). وكان أفراد لواء المظلات نظرا لمسئوليتهم عن حماية رأس الكوبري غرب القناة، قد قاموا باحتلال الهيئات والأهداف المهمة في المنطقة وتحصنوا داخل الخنادق التي حفروها واحتلوا بعض المصاطب المصرية السابقة الممتدة على الساتر الترابي المحاذي للقناة مما شكل تهديدا خطيرا للقوات المصرية الموجودة شرق القناة. ولتدعيم قوة المظلات، أمر الجنرال شارون ببقاء ٧ دبابات داخل رأس الكوبري، أما باقي الدبابات فقد استخدمت في قتالها أسلوبا يشبه إلى حد كبير أسلوب حرب العصابات، فقد كانت تعمل في مفارز صغيرة (من ٣ إلى ٥ دبابات) مدعمة بالمشاة الميكانيكية في العربات المدرعة نصف جنزير وبالعناصر الصاروخية المضادة للدبابات. وكانت هذه المفارز تتقدم غربا إلى العمق مستغلة المباني والمناطق المزروعة لسهولة الاختفاء، وتقوم بمهاجمة مواقع كتائب الصواريخ المصرية سام ٢ وسام ٣ المضادة للطائرات. وكانت الدبابات الإسرائيلية تظهر

فجأة بالقرب من أحد مواقع الصواريخ ثم تشتبك مع الموقع من مسافة حوالي (١,٥ - ٢كم) فتقوم بتدميره أو إسكاته ثم تنسحب فجأة لتظهر في مكان آخر وهكذا. ولم تكن كتائب الصواريخ سام لديها الأسلحة الأرضية التي ترد بها على مثل هذا الهجوم. وقبل حلول الظلام تعود المفارز المدرعة الإسرائيلية إلى قواعدها في رأس الكوبري للمبيت وإعادة الملء. وكان العدو يستهدف من هذه الإغارات المتواصلة على كتائب الصواريخ سام تصفية وسائل الدفاع الجوي في قطاع عريض غرب القناة، لتأمين ممر للطائرات الإسرائيلية لتستطيع النفاذ منه بحرية إلى الضفة الغربية للقناة لتقديم المعاونة الجوية للقوات الأرضية أثناء قيامها بعملياتها ضد القوات المصرية.

وخلال ليلة ١٦ / ١٧ أكتوبر، تمكن العدو من إعادة تجميع قواته في رأس الكوبري غرب القناة في مناطق الدفرسوار - مرسى أبو سلطان - معسكر قادش (شمال مطار الدفرسوار) - سرابيوم، ونجحت قواته في إبعاد القوات المصرية التي دفعت للضغط عليه وفي احتلال المصاطب المصرية في منطقة الدفرسوار غرب القناة.

العمليات الحربية غرب القناة يوم ١٧ أكتوبر

كانت أوضاع القوات المصرية في قطاع الجيش الثاني التي خصصت للهجوم على رأس الكوبري الإسرائيلي غرب القناة صباح يوم ١٧ أكتوبر كما يلي:

اللواء ١١٦ مشاة ميكانيكي: أحد وحدات الفرقة ٢٣ مشاة ميكانيكية التي كان يتولى قيادتها العميد أحمد عبود الزمر. كان متمركزا قبل العبور الإسرائيلي في منطقة تقاطع عثمان أحمد عثمان (٣٠كم غرب القناة)، وفي يوم ١٦ أكتوبر أصيب هذا اللواء بخسائر فادحة، فقد هاجمت دبابات العدو إحدى كتائبه التي كانت تحتل موقعا دفاعيا عند تقاطع أبو سلطان - طريق المعاهدة واخترقت دفاعاتها وشتتت أفرادها. وعندما تقدم قائد اللواء من تقاطع عثمان شرقا على وصلة أبو سلطان على رأس مجموعة قتال مكونة من كتيبة مشاة ميكانيكية مدعمة، بمهمة تدمير العدو المتقدم في اتجاه التقاطع وقعت المجموعة بأسرها في كمين محكم نصبه العدو عند تقاطع وصلة أبو سلطان مع الطريق القادم شمالا من أبو صوير (على بعد ١٥كم شرق تقاطع عثمان)، وانتهت المعركة باستشهاد قائد اللواء وتدمير جانب كبير من دبابات وعربات اللواء المدرعة ومدافع الاقتحام، واحتلت القوات المتبقية بعد المعركة موقعا دفاعيا على بعد حوالي ٦كم غرب منطقة التقاطع التي دارت فيها المعركة.

وفي صباح يوم ١٧ أكتوبر أصدر قائد الجيش الثاني أمره بأن تتحرك كتيبة المشاة

الميكانيكية المتبقية من اللواء ١١٦، والمتمركزة في تقاطع عثمان شرقا على وصلة أبو سلطان، وتنضم إليها خلال التحرك بقايا الكتيبتين اللتين سبق للعدو تدميرهما في اليوم السابق، وأن يقوم رئيس أركان اللواء الذي تولى القيادة بعد استشهاد القائد، بإعادة تجميع وحدات اللواء واحتلال الموقع الثالث (موقع دفاعي غرب تقاطع وصلة أبو سلطان مع طريق المعاهدة) ويقع على بعد حوالي ٥كم من مطار الدفرسوار والبحيرة المرة الكبرى بمهمة منع العدو من التقدم غربا. وقد تم تدعيم اللواء ١١٦ بعدد ١٤ دبابة من ضمن ٢٠ دبابة وصلت الجيش الثاني من القاهرة لسد الخسائر.

المجموعة ١٢٩ صاعقة: كانت المجموعة بقيادة العقيد أ.ح علي هيكل متمركزة منذ بداية الحرب في مطار أبو صوير (من ضمن احتياطي الجيش الثاني) وفي يوم ١٦ أكتوبر وبعد وصول معلومات إلى قيادة الجيش الثاني بتسلل عدد من الدبابات الإسرائيلية إلى غرب القناة، وبناء على المهمة التي تلقاها قائد المجموعة تم إرسال الكتيبة ٧٣ صاعقة (عدا سرية) إلى منطقة تجمع في عين غصين (على الترعة الحلوة وعلى بعد حوالي ١٢كم جنوب نفيشة) ـ وكانت المهمة التي حددها العقيد أ.ح علي هيكل لقائد الكتيبة هي التقدم جنوبا في اتجاه الدفرسوار وأبو سلطان لتدمير ٧ دبابات إسرائيلية نجحت في التسلل إلى الضفة الغربية للقناة.

ووفقا للمهمة، تقدمت سرية صاعقة من عين غصين بعد ظهر يوم ١٦ أكتوبر على المدق الترابي شرق الترعة الحلوة في اتجاه الدفرسوار، وعندما اقتربت من الناحية الشمالية لمطار الدفرسوار فوجئت بمقاومة قوية من المظليين الإسرائيليين الذين كانوا مختفين في المطار، واستمر الاشتباك طول الليل. ونظرا لعجز السرية عن التقدم ولشدة حاجتها إلى الذخيرة صدر لها الأمر من قيادة المجموعة صباح يوم ١٧ أكتوبر بالانسحاب إلى سرابيوم حيث احتلت موقعا دفاعيا تم تدعيمه بفصيلة صاعقة أخرى أرسلها قائد المجموعة.

وكانت السرية الأخرى من الكتيبة ٧٣ صاعقة قد تقدمت من عين غصين على المدقات غرب الترعة الحلوة في اتجاه معسكرات أبو سلطان ومحطة السكة الحديد للوصول إلى شاطئ البحيرة المرة الشمالي جنوب الدفرسوار، وقد تمكنت فصيلة منها من التسلل إلى شاطئ البحيرة المرة، ولكن العدو تمكن من اكتشاف السرية صباح يوم ١٧ أكتوبر وهاجمتها الدبابات الإسرائيلية هجوما عنيفا من مواقعها جنوب غرب مطار الدفرسوار. ورغم الخسائر الكبيرة التي تكبدتها السرية خاصة في الضباط فقد تمكنت من تدمير ٥

دبابات وعربات مجنزرة إسرائيلية، ورغم تلقي السرية أمرا من قيادة المجموعة بالانسحاب إلى معسكرات أبو سلطان فقد عجزت السرية عن التنفيذ نظرا لكثافة نيران العدو واضطرت إلى التشبث بمواقعها، مما دعا قائد المجموعة إلى أن يطلب من مدفعية الجيش الثاني قصف المنطقة التي يحتلها العدو في أبو سلطان بأكملها بالنيران بما فيها سرية الصاعقة المصرية.

الكتيبة ٨٥ مظلات: كانت الكتيبة متمركزة ضمن وحدات اللواء ١٨٢ مظلات في صحراء بلبيس، وكان اللواء ١٨٢ مظلات جاهزا بمعداته وأجهزته وعلى استعداد كامل لنقله جوا وإسقاطه في أي منطقة وفقا لتعليمات القيادة العامة. ولكن عقب تحرج الموقف على الضفة الغربية للقناة بعد العبور الإسرائيلي إلى الدفرسوار استقر رأي القيادة على استخدام اللواء ١٨٢ مظلات كلواء مشاة عادي، وكان هذا الاستخدام يعد بلا شك خسارة كبيرة من ناحية فقد لواء المظلات لميزته الأساسية علاوة على أنه يختلف من ناحية تدريبه وتسليحه عن الألوية المشاة. وفي الساعة الثانية بعد ظهر يوم ١٦ أكتوبر تلقى المقدم عاطف منصف قائد الكتيبة ٨٥ مظلات من العقيد إسماعيل عزمي قائد اللواء ١٨٢ مظلات أمرا بالتحرك بالعربات إلى منطقة تقاطع عثمان أحمد عثمان حيث قد تقرر وضعه تحت قيادة الفرقة ٢٣ مشاة ميكانيكية. وفي الساعة السابعة مساء وعلى أثر وصول الكتيبة ٨٥ مظلات إلى منطقة التقاطع، قام العميد أ.ح أحمد عبود الزمر قائد الفرقة ٢٣ مشاة ميكانيكية بتكليف الكتيبة ٨٥ مظلات بالهجوم على دبابات العدو التي عبرت إلى الضفة الغربية في منطقة الدفرسوار وتدميرها والقيام بعد ذلك باحتلال وتأمين مرسى أبو سلطان والنقطتين القويتين بمطار الدفرسوار. وتم تدعيم الكتيبة ٨٥ مظلات بكتيبة مدرعة من اللواء ٢٣ المدرع. وفي أول ضوء يوم ١٧ أكتوبر تحركت الكتيبة ٨٥ شرقا إلى تقاطع طريق المعاهدة مع وصلة أبو سلطان وتم تنظيم التعاون بين قائد الكتيبة والعقيد صلاح طه أركان حرب اللواء ١١٦ الميكانيكي الذي أسندت إليه قيادة اللواء عقب استشهاد قائده يوم ١٦ أكتوبر.

وفي الساعة الرابعة بعد الظهر يوم ١٧ أكتوبر بدأت الكتيبة ٨٥ مظلات في تنفيذ مهمتها بالتقدم على محورين:

المحور الثانوي - تقدمت عليه سرية مظلات مدعمة بسرية دبابات من الكتيبة المدرعة (من اللواء ٢٣ مشاة ميكانيكي) في اتجاه مرسى أبو سلطان بمهمة تدمير قوات العدو والاستيلاء على مرسى أبو سلطان وتأمينه. وعندما وصلت سرية المظلات المدعمة بسرية

الدبابات إلى الكوبري الحجري على ترعة السويس الحلوة وقعت القوة في كمين إسرائيلي وتم تدميرها واستشهد معظم ضباطها.

المحور الرئيسي - تقدمت عليه الكتيبة ٨٥ مظلات (عدا سرية) مدعمة بالكتيبة المدرعة عدا سرية (من اللواء ٢٣ مشاة ميكانيكي) بقيادة المقدم عاطف منصف، من تقاطع طريق المعاهدة مع وصلة سرابيوم في اتجاه مطار الدفرسوار (بزاوية ١٣٥ درجة) بمهمة تدمير قوات العدو والاستيلاء على مطار الدفرسوار وتأمينه واحتلال النقطتين القويتين به. وقد انفصلت كتيبة الدبابات (عدا سرية) عن قوة الكتيبة ٨٥ مظلات (عدا سرية) نظرا لتعذر تحرك الدبابات مع أفراد المظلات المترجلين لعدم ملاءمة الأرض لها بسبب وجود عدة موانع تعترض طريق تقدمها. ولهذا السبب تحركت كتيبة الدبابات شرقا في اتجاه القناة لكي تتقدم جنوبا بعد ذلك على الطريق الموازي لقناة السويس. وتم التنسيق بين قائد الكتيبة ٨٥ مظلات وقائد كتيبة الدبابات على أسلوب التعاون بين الكتيبتين عند الاقتراب من مطار الدفرسوار للقيام بالهجوم معا في عملية مشتركة على قوة العدو بالمطار.

ولكن هذه العملية لم يقيض لها النجاح، فقد وقعت كتيبة الدبابات في كمين إسرائيلي قرب محطة سرابيوم حيث تم تدميرها. أما الكتيبة ٨٥ مظلات (عدا سرية)، فقد قامت بالعملية وحدها بدون معاونة الدبابات - نظرا لتدمير الكتيبة المدرعة - واشتبكت مع مجموعة من دبابات وعربات العدو المدرعة كانت متمركزة في المنطقة الشجرية الكثيفة المحيطة بمطار الدفرسوار. ورغم قيام وحدات من مدفعية الجيش الثاني بمعاونة العملية الهجومية فإنه إزاء تفوق العدو أصيبت الكتيبة ٨٥ مظلات (عدا سرية) بخسائر فادحة. وبسبب تكاثف الظلام شرد وغرق في ترعة السويس الحلوة بعض أفرادها وارتد قائد الكتيبة مع الأفراد المتبقين معه إلى اتجاه تقاطع طريق المعاهدة مع وصلة أبو سلطان فجر يوم ١٨ أكتوبر، وكان بمنطقة التقاطع مركز القيادة المتقدم للفرقة ٢٣ مشاة ميكانيكية. وفي الساعة السادسة مساء يوم ١٨ أكتوبر أعيد تمركز الكتيبة ٨٥ مظلات بمعسكرات إنشاص لتجديد كفاءتها القتالية.

اللواء ٢٣ مدرع: من الفرقة ٣ مشاة ميكانيكية التي كانت ضمن الاحتياطي الإستراتيجي للقيادة العامة. صدرت الأوامر من هيئة العمليات بالمركز ١٠ بتحركه من منطقة تمركزه بالقاهرة إلى تقاطع عثمان أحمد عثمان ليحتل الموقع الذي كان يحتله اللواء ١١٦ مشاة ميكانيكي قبل دفعه شرقا. وبناء على تعليمات العميد أ. ح محمد نجاتي فرحات قائد الفرقة بدأ اللواء ٢٣ المدرع تحركه على طريق القاهرة الإسماعيلية الصحراوي

حوالي الساعة الثانية مساء يوم ١٦ أكتوبر على جنازير الدبابات، وتم وصوله إلى منطقة التقاطع حوالي الساعة التاسعة مساء يوم ١٦ أكتوبر، ووضع بمجرد وصوله تحت قيادة الجيش الثاني. وصدر أمر قائد الجيش الثاني صباح ١٧ أكتوبر بتخصيص كتيبة مدرعة من اللواء ٢٣ المدرع للاشتراك مع الكتيبة ٨٥ مظلات في التحرك من تقاطع عثمان إلى تقاطع طريق المعاهدة مع وصلة سرابيوم، ومن هذه المنطقة يتم هجوم كتيبة المظلات على قوات العدو بمنطقة الدفرسوار بمعاونة الكتيبة المدرعة.

كما أصدر قائد الجيش الثاني، أمره بأن يكون اللواء ٢٣ المدرع (عدا كتيبة) مستعدا للقيام بهجوم مضاد على قوات العدو في اتجاهي الدفرسوار ومرسى أبو سلطان، على أن يقوم اللواء المدرع في الحال بدفع عناصر استطلاع إلى المنطقة التي سيجرى تحركه خلالها منعًا للمفاجأة. وأبلغ قائد اللواء المدرع بأنه سيوضع عند دفعه تحت قيادة الفرقة ٢٣ مشاة ميكانيكية.

الخطة التي وضعت لتصفية الثغرة غرب القناة

في صباح يوم ١٧ أكتوبر اتصل اللواء عبد المنعم خليل قائد الجيش الثاني بالعميد أ.ح أحمد عبود الزمر قائد الفرقة ٢٣ مشاة ميكانيكية وأبلغه أنه بناء على تعليمات القيادة العامة قد تم تكليفه بمهمة تصفية قوة العدو التي عبرت إلى غرب القناة، وتقرر وضع الوحدات الموجودة في قطاع الجيش الثاني جنوب ترعة الإسماعيلية تحت قيادته، ومن أجل ذلك عليه نقل مركز القيادة المتقدم للفرقة ٢٣ مشاة ميكانيكية من شمال ترعة الإسماعيلية إلى جنوبها.

ونظرا لورود بلاغ إلى قيادة الجيش الثاني عن تقدم قوة العدو جنوبا في اتجاه فايد، لذا طلب قائد الجيش الثاني من هيئة العمليات بالقيادة العامة المركز ١٠ تكليف قيادة الجيش الثالث بإرسال دورية من الكتيبة الفلسطينية التي تتولى حراسة شاطئ البحيرة المرة من حدود الجيش الثاني شمالا حتى نهاية البحيرة جنوبا، للتعامل مع قوة العدو. كما طلب أن يبقى اللواء ١١٦ مشاة ميكانيكي في أوضاعه الدفاعية غرب تقاطع طريق المعاهدة مع وصلة أبو سلطان (شمال وجنوب الوصلة) لمنع تقدم العدو إلى الغرب أو الشمال.

وحتى الساعة التاسعة صباحا يوم ١٧ أكتوبر لم تتمكن القوات المصرية من تحقيق المهام التي حددتها لها قيادة الجيش الثاني، فقد ظل العدو محتلا مطار الدفرسوار، ولم تتمكن الكتيبة ٧٣ صاعقة من دخوله أو الوصول إلى مرسى أبو سلطان.

وعلاوة على قوة العدو المتمركزة في الدفرسوار ومرسى أبو سلطان حاولت مفرزة صغيرة من دباباته التسلل خارج منطقة الدفرسوار على وصلة أبو سلطان وعبور الكوبري الحجري على الترعة الحلوة، واتجهت مفرزة ثانية إلى محطة سكة حديد أبو سلطان، بينما اتجهت مفرزة ثالثة إلى معسكر (زكريا) الكائن شمال المحطة وحاولت مفرزة رابعة الاتجاه شمالا إلى سرابيوم.

ونظرا لأن الوحدات المصرية حتى الساعة الثانية بعد ظهر يوم ١٧ أكتوبر لم تكن قد تمكنت بعد من تحقيق المهام التي كلفت بها ولم تتم تصفية ثغرة الاختراق غرب القناة، فقد أصدرت هيئة العمليات بالقيادة العامة المركز ١٠ تعليمات عمليات إلى قيادة الجيش الثاني كانت تتضمن المهام التالية:

١ ـ تدمير دبابات العدو الفردية التي تسللت إلى الضفة الغربية.

٢ ـ القيام بحصر دبابات العدو المتجمعة في منطقتي الدفرسوار ومرسى أبو سلطان غرب القناة ثم تدميرها.

٣ ـ يقوم اللواء ٢٣ المدرع بدفع مجموعة استطلاع في اتجاه الشرق استعداداً للقيام بهجوم مضاد على قوات العدو في الدفرسوار.

٤ ـ يتم تأمين شواطئ البحيرات المرة بالألغام الشاطئية.

٥ ـ يجرى احتلال المصاطب على الضفة الغربية لمعاونة عمليات القوات على الضفة الشرقية.

وبادر قائد الجيش الثاني بإصدار تعليماته في الساعة الثالثة مساء يوم ١٧ أكتوبر إلى قائد الفرقة ٢٣ مشاة ميكانيكية الذي أصبح مسئولا عن جميع عمليات تصفية رأس الكوبري الإسرائيلي في الدفرسوار غرب القناة وحدد له المهام التالية:

- الكتيبة ٨٥ مظلات: تقوم الكتيبة (عدا سرية) بالاشتراك مع الكتيبة المدرعة عدا سرية (من اللواء ٢٣ المدرع) والكتيبة ٧٣ صاعقة (من المجموعة ١٢٩ صاعقة) بتنفيذ المهام السابق تخصيصها لهذه الوحدات، وتقوم بالهجوم المضاد على قوات العدو في المنطقة ما بين مرسى أبو سلطان جنوبا حتى سرابيوم شمالا.
- اللواء ٢٣ المدرع (عدا كتيبة) يكون مستعدا للقيام بهجوم مضاد في اتجاه الدفرسوار

ويدفع فورا عناصر لاستطلاع تحركات العدو في المنطقة التي سيجرى دفعه منها وتحركه خلالها.

- بمجرد تصفية العدو في منطقة الدفرسوار يتم تأمين الساتر الترابي واحتلال المصاطب والسيطرة على جميع محاور التقدم الفرعية في اتجاه الغرب مع التركيز على تأمين منطقتي الدفرسوار وجبل مريم.
- يقوم المهندسون العسكريون برص الألغام الشاطئية في منطقة من جنوب الدفرسوار حتى فايد وفي ثغرات الصيادين على البحيرة المرة.

وفي حوالي الساعة الخامسة مساء يوم ١٧ أكتوبر، أصدرت القيادة العامة المركز ١٠ قرارها بدفع اللواء ٢٣ المدرع (عدا كتيبة) من الفرقة ٣ مشاة ميكانيكية في الساعة السادسة والنصف صباحا يوم ١٨ أكتوبر، للقيام بالهجوم المضاد المخطط من قبل على قوات العدو في منطقة الدفرسوار غرب القناة على أن يجري الهجوم بأسرع ما يمكن وبدون توقف مع تجنب الاشتباك بأي مقاومات وتقبل الخسائر من الكمائن، وخصصت للواء مهمة تدمير قوات العدو في منطقة الدفرسوار واحتلال المصاطب إلى مسافة ٥كم شمال الدفرسوار واستخدام المصاطب غرب القناة لتدمير القوات الإسرائيلية على الضفة الشرقية للقناة ومنع أي قوات للعدو من العبور غربا. وهكذا صدر القرار أخيرا بدفع اللواء ٢٣ المدرع للقيام بالهجوم المضاد صباح يوم ١٨ أكتوبر لتدمير قوات العدو في الدفرسوار.

الأخطاء التكتيكية في عملية تصفية الثغرة

رغم صغر حجم قوات العدو التي عبرت إلى غرب القناة في منطقة الدفرسوار والتي كانت تتكون من لواء مشاة من المظلات وعدد ٣٠ دبابة، ورغم بقائها لمدة تقرب من ٤٠ ساعة معزولة عن قواعدها شرق القناة وبدون أي تعزيزات إضافية لقوتها بناء على تعليمات الجنرال حاييم بارليف انتظارا لإقامة الجسور الثابتة عبر القناة، ورغم أن القيادة العامة خصصت لعملية الهجوم المضاد على رأس الكوبري الإسرائيلي قوات مصرية كانت تتفوق بشكل واضح على قوات العدو من حيث الحجم والتسليح، فإن عملية تصفية الثغرة الإسرائيلية باءت بالفشل لمخالفة الأسلوب الذي تم لتصفيتها للمبادئ التكتيكية السليمة. ويتضح ذلك مما يلي:

١ ـ تم دفع الوحدات المصرية لمهاجمة رأس الكوبري الإسرائيلي بطريقة الهجوم الموزع Piece meal، فكلفت بالهجوم على قوات العدو وحدات فرعية صغيرة

الحجم ضعيفة التسليح مما أدى إلى فشل هجماتها جميعا إذ لم تستطع أي قوة منها إحداث قوة الصدمة المطلوبة للقضاء على العدو.

٢ ـ لو تم تجميع الوحدات التي كانت موجودة في المنطقة جنوب ترعة الإسماعيلية يوم ١٧ أكتوبر وهي اللواء ٢٣ مدرع ـ اللواء ١١٦ مشاة ميكانيكي ـ الكتيبة ٨٥ مظلات ـ الكتيبة ٧٣ صاعقة، في عملية هجوم واحدة منسقة على رأس الكوبري الإسرائيلي غرب القناة لكان هناك قدر معقول من الأمل في النجاح. أما تفتيتها وبعثرتها بالأسلوب الذي اتبع فقد جعل ذلك كلا منها فريسة سهلة أمام العدو.

٣ ـ كان الأمر الذي يدعو إلي العجب هو احتجاز اللواء ٢٣ المدرع في منطقة تقاطع (عثمان أحمد عثمان) لمدة تبلغ نحو ٣٦ ساعة دون أن يكلف بأي مهمة قتالية، وكان كل ما تلقاه قائده هو سلسلة من الأوامر المتكررة بالاستعداد للهجوم على الدفرسوار، وإصدار التعليمات له بدفع عناصر استطلاعه في اتجاه الشرق منعا لتعرضه للمفاجأة. وكان من الخطأ بلا شك سحب كتيبة مدرعة من تشكيل هذا اللواء لتتحرك إلى تقاطع وصلة سرابيوم ـ طريق المعاهدة للتعاون مع الكتيبة ٨٥ مظلات في عملية هجومية ضد العدو، فقد كان من الواجب الاحتفاظ بقوة اللواء بأكملها مجمعة، إذ إنه كان القوة المدرعة الوحيدة التي تحت قيادة الجيش الثاني غرب القناة، والتي كان في إمكانها إحداث قوة الصدمة ضد قوة العدو في الدفرسوار.

٤ ـ عندما صدر الأمر أخيرا إلى اللواء ٢٣ المدرع بالهجوم في الساعة السادسة والنصف صباح يوم ١٨ أكتوبر بعد ذلك التأخير الذي جرى دون أي مبرر، لعب سوء الحظ دورا كبيرا لإفشال مهمته، فقد كان جسر معديات البونتون الإسرائيلي قد تمت إقامته عبر القناة عند الدفرسوار بعد ظهر يوم ١٧ أكتوبر، وفي خلال ليلة ١٧ / ١٨ أكتوبر عبر الجنرال إبراهام أدان (برن) القناة إلى الضفة الغربية على رأس فرقته، وانتهى عبور الفرقة المدرعة الساعة الرابعة صباحا يوم ١٨ أكتوبر، ولذا فعندما قام اللواء ٢٣ المدرع (عدا كتيبة) بهجومه صباح يوم ١٨ أكتوبر لم يكن في مواجهته داخل رأس الكوبري الإسرائيلي قوة تقل عن ٣٠ دبابة كما كان الحال يوم ١٧ أكتوبر وإنما كان في مواجهته فرقة مدرعة تتكون من لواءين مدرعين قوتهما ٢٠٠ دبابة، علاوة على قوة الدبابات التي كانت موجودة قبل إقامة الجسر، ولذا باء هجومه كما كان منتظرا بالفشل التام.

كان الجنرال إبراهام أدان قائد مجموعة العمليات رقم ١٦٢ قد انتهز فرصة انشغال وحدات اللواء ١٦ مشاة (الجنب الأيمن للفرقة ١٦ مشاة) في قتالها العنيف ليلة ١٦ / ١٧ أكتوبر ضد لواء المظلات الإسرائيلي بقيادة العقيد عوزى مائيري والذي تم إحضاره بطائرات الهليكوبتر من رأس سدر على خليج السويس كي يرسل سرية استطلاع على طريق أكافيش لاختبار قوة المقاومة المصرية على هذا الطريق. وفي الساعة الثالثة والنصف صباح يوم ١٧ أكتوبر تلقى الجنرال أدان إشارة لاسلكية من قائد سرية الاستطلاع.. بأنه تمكن من اجتياز طريق أكافيش ووصلت سريته بسلام إلى ساحة العبور بالدفرسوار دون أن تصادفه أي مقاومة، ورغم وجود قوة مصرية شمال الطريق فإن انتباهها كان مشدودا إلى المعركة العنيفة التي كانت ناشبة وقتئذ ضد المظليين على طريق طرطور وإلى القتال الدائر في المزرعة الصينية (قرية الجلاء). وأمر الجنرال أدان في الحال نائبه العميد دافيد تماري بالتحرك على الفور بأجزاء جسر المعديات Pontoon Bridge على طريق أكافيش، في الوقت الذي كان فيه الجسر السابق التركيب معطلاً على طريق طرطور في انتظار نتيجة القتال الدائر على هذا الطريق. وتمكن العميد دافيد تماري بدفع بعض الجرارات الثقيلة أمام قافلة معدياته من إزالة حطام الدبابات والمركبات المدمرة والمعطلة التي كانت تعرقل التحرك مما أدى إلى إخلاء الطريق، ونتيجة لذلك تقدمت قافلة معديات البونتون دون تعطيل على طريق أكافيش حتى وصلت إلى حصن لاكيكان (تل سلام) على شاطئ البحيرة المرة الكبرى، وواصلت التحرك بعد ذلك شمالا على طريق ناهالا بحذاء شاطئ البحيرة، وعندما بدأت أنوار الفجر في الظهور أخذت أجزاء جسر المعديات يتوالى وصولها ببطء إلى ساحة العبور بالدفرسوار.

وحوالي الساعة السادسة صباح يوم ١٧ أكتوبر قام المهندسون التابعون لفرقة شارون بدفع أول معدية بونتون إلى مياه القناة تمهيدا لدفع باقي المعديات عبر قناة السويس التي يبلغ اتساعها في هذه المنطقة حوالي ١٨٠ مترا.

وفي الساعة الحادية عشرة صباحا وصل العميد جاكي نائب الجنرال شارون إلى ساحة العبور، وأصبحت تحت قيادته جميع القوات الموجودة في هذه المنطقة. وقبل الساعة الرابعة مساء يوم ١٧ أكتوبر تم ربط المعدية الأخيرة من سلسلة معديات الجسر، وأصبح جسر المعديات جاهزا في انتظار وصول فرقة الجنرال أدان التي كانت منهمكة في ذلك التوقيت في عملية إعادة التنظيم، وكانت دباباته تقوم بإعادة الملء وتعويض الذخيرة بالقرب من موقع كيشوف الذي كان الجنرال أدان قد فتح فيه في اليوم السابق مركز قيادته

الأمامي والذي انعقد بالقرب منه صباح يوم ١٧ أكتوبر مؤتمر كيشوف الذي حضره وزير الدفاع ورئيس الأركان والجنرال بارليف وكل من الجنرال شارون والجنرال أدان.

عبور فرقة برن إلى غرب القناة

كانت مدفعية الجيش الثاني المصري من بعد ظهر يوم ١٦ أكتوبر قد أخذت في إطلاق نيرانها بشدة في الاتجاه العام لرأس الكوبري الإسرائيلي حيث لم يكن المهندسون الإسرائيليون قد تمكنوا بعد من إقامة أي جسر عبر قناة السويس. وقبيل الغروب يوم ١٦ أكتوبر شنت طائرات الميج ١٧ المصرية هجوما مركزا على قوات رأس الكوبري الإسرائيلي، وسرعان ما نشبت معركة جوية عنيفة بين الطائرات المصرية والطائرات الإسرائيلية فوق القناة، أعلن كل طرف بعدها أنه دمر للطرف الآخر ١٠ طائرات. وفي صباح يوم ١٧ أكتوبر وبعد أن أخذ المهندسون التابعون لفرقة الجنرال شارون في مد جسر المعديات من ساحة العبور في الدفرسوار إلى الشاطئ الغربي للقناة. فطن المصريون إلى خطورة العملية التي يدبرها الإسرائيليون وبدأت على أثر ذلك مدفعية الجيش الثاني في قصف رأس الكوبري على ضفتي القناة قصفا عنيفا، فأصيب مركز قيادة العقيد داني مات قائد لواء المظلات الذي عبر إلى غرب القناة ليلة ١٥ / ١٦ أكتوبر إصابة مباشرة وجرح نائبه وعشرات من رجاله وتم إخلاؤهم إلى الضفة الشرقية للقناة. وسرعان ما انهالت دانات المدفعية وقذائفها الصاروخية على الضفة الشرقية للقناة، وثبت للإسرائيليين أن المدفعية المصرية نجحت في تحديد مكان ساحة العبور وفي رصد جسر المعديات فوجهت إليهما نيران عشرات من بطاريات المدفعية من كل الأعيرة والأنواع. ومنذ صباح ١٧ أكتوبر حتى نهاية الحرب لم يتوقف القصف المدفعي المصري على الإطلاق.

وعلى الرغم من كثافة نيران المدفعية استمر المهندسون الإسرائيليون في إقامة جسر المعديات عبر القناة وكانوا يقومون بإخلاء الأفراد المصابين إلى الخلف وتغيير المعديات التي تدمر بمعديات غيرها. وكان عدد من الجرافات يقوم بإزالة الساتر الرملي على شاطئ القناة وتسوية الأرض في موضع الجسر، وكانت الأطواف العائمة والقوارب المطاطية تنطلق ذهابا وإيابا بين شاطئي القناة حاملة الأفراد والعتاد للمعاونة في إقامة أول جسر إسرائيلي في الدفرسوار عبر قناة السويس.

وفي أثناء إقامة جسر المعديات قامت الطائرات الإسرائيلية بأعداد ضخمة بغارات عنيفة على الجنب الأيمن للفرقة ١٦ مشاة ووحدات الفرقة ٢١ المدرعة شمال فرية الجلاء

والمغذي الرئيسي لمنع أي وحدات مصرية من التدخل في أعمال إقامة جسر المعديات الإسرائيلي.

وكان الجنرال إبراهام أدان (برن) عقب انتهاء معركته مع اللواء ٢٥ المدرع المصري قد قفل عائدا بوحداته المدرعة إلى منطقة كيشوف للقيام بعملية إعادة التنظيم. وقبيل الغروب استمع برن في شبكة الاتصال بدبابة القيادة التي كان يستقلها إلى صوت الجنرال شارون وهو يردد دون انقطاع «أين برن؟» كل شيء جاهز للعبور، لماذا يتسبب برن في تعطيل كل شيء؟» ورغم ما انتاب الجنرال برن من غضب فإنه قام على الفور بالاتصال بالجنرال جونين وأخطره أنه يقوم بإعادة تموين وحداته بالوقود والذخيرة وأنه سيكون على استعداد لعبور الجسر المقام على القناة عقب حلول الظلام مباشرة، وطلب غيار قواته التي ما زالت تعمل تحت قيادة شارون والتي ما تزال مشتبكة في القتال مع القوات المصرية على الجناح الأيمن للجيش الثاني وفي المزرعة الصينية. وكانت هذه القوات تتكون من اللواء المدرع بقيادة العقيد جابي وكتيبة مدرعة من لواء العقيد نيتكا، ولم يتم إعادة هذه الوحدات إلى فرقة الجنرال أدان إلا متأخرا مساء يوم ١٧ أكتوبر.

وفي الساعة التاسعة مساء يوم ١٧ أكتوبر تحركت فرقة الجنرال برن من منطقة كيشوف على طريق أكافيش وكان برن مع مركز قيادته الأمامي في المقدمة وكان يتبعه لواء العقيد نيتكا ثم لواء العقيد جابي وكان المنتظر أن يلحق به لواء العقيد آرييه قبل بدء العبور ليستكمل الجنرال برن وحدات فرقته.

وفي الساعة العاشرة مساء وصل طابور فرقة الجنرال برن المقيد الإضاءة إلى جسر المعديات الذي تمت إقامته عبر القناة بين النقطتين القويتين لحصن الدفرسوار (الحصن الإسرائيلي السابق متسميد). وفي هذا الوقت تلقى الجنرال أدان (برن) رسالة لاسلكية من الجنرال جونين يخطره فيها بأن اللواء المدرع بقيادة العقيد آرييه تم سحبه من تحت قيادته ليصبح الاحتياطي العام للقيادة الجنوبية. ويتضح من هذا العمل مدى حرص قائد القيادة الجنوبية الإسرائيلية على أن يظل محتفظا بصفة دائمة باحتياطي عام تحت قيادته المباشرة تحسبا للطوارئ. وكان اللواء المدرع بقيادة العقيد توفيا التابع لتشكيل فرقة شارون والذي كان قد وضع مؤقتا تحت قيادة برن أثناء عملية تطهير محوري أكافيش وطرطور.. قد أعيد إلى قيادة شارون عندما تأهبت فرقة برن للعبور إلى غرب القناة، لذلك نقصت قوة الجنرال برن إلى حوالي ٢٠٠ دبابة فقط وأصبح مجموعة أفراد فرقته لا يتجاوز تسعة آلاف من الضباط والجنود.

وفور الوصول إلى جسر المعديات اندفعت الدبابات لعبور القناة إلى الغرب وفي مقدمتها دبابة الجنرال برن الذي أخذ يصيح في ابتهاج في جهاز اللاسلكي «عبرت إلى أفريقيا . . عبرت إلى إفريقيا» بينما أخرج أحد رجاله زجاجة من الخمر وشرب نخبا احتفالا بهذه المناسبة وأخذت الزجاجة تتنقل من رجل إلى آخر . وكان العقيد حاييم قائد اللواء المدرع التابع لفرقة شارون والذي سبق عبوره على رأس ٣٠ دبابة من لوائه إلى غرب القناة صباح يوم ١٦ أكتوبر في انتظار فرقة برن على الشاطئ الغربي للقناة لقيادتهم إلى المنطقة التي تم تحديدها لتجميع الفرقة في مطار الدفرسوار . وعندما وصل الجنرال برن بدبابة قيادته إلى الشاطئ الغربي للقناة قابله العقيد حاييم بأشد مظاهر الترحيب بعد أن ظل وحده بدباباته الثلاثين مع لواء المظلات حوالي ٤٠ ساعة دون أن تلحق بهم أي قوات إضافية . وعندما وقف برن على الشاطئ الغربي لمشاهدة عبور فرقته التي لم يصل منها بعد دبابته سوى دبابتين فقط ، لاحظ لجزعه الشديد أن العبور قد توقف ، فقد انهالت قذائف المدفعية المصرية من وحدات مدفعية الجيش الثاني في غلالات كثيفة على جسر المعديات وساحتي الإبحار شرق القناة والإبرار غربها في أشد عمليات قصف حدثت منذ بداية الحرب ، مما اضطر معه الجنرال أدان ومجموعة قيادته إلى الاحتماء في الحفر وجدران المباني لتجنب النيران التي كانت تنهمر عليهم في تركيز شديد .

واكتشف المهندسون العسكريون الذين اندفعوا نحو الجسر من الشاطئ ـ بعضهم على الأقدام والبعض الآخر في قوارب ـ للاطمئنان إلى سلامته ، أن إحدي قذائف المدفعية المصرية قد فتحت فجوة في الجسر مما كان يعني تعطيل عبور فرقة الجنرال برن . وكان الموقف حرجا فقد احتشد في ساحة العبور وفي الطرق المؤدية إليها طابور طويل من الدبابات والمركبات المحملة بالإمدادات والذخيرة ولم تكن قافلة معديات البونتون الاحتياطية قد وصلت بعد . إذ كانت لا تزال معطلة على طريق أكافيش في زحمة السير الهائلة التي احتشدت عليه .

وبناء على نصيحة العميد جاكي نائب شارون والمسئول عن إقامة وتأمين الجسور أصدر الجنرال برن أوامره بالاستمرار في نقل الدبابات إلى الشاطئ الغربي فوق المعديات المتحركة ريثما تتم عملية إصلاح الجسر التي كان من المنتظر أن تستغرق بضع ساعات . وخلال تحرك المعديات من شرق القناة إلى غربها وهي تحمل الدبابات تلقت معدية منها وهي في منتصف القناة إصابة مباشرة من المدفعية المصرية فغرقت الدبابتان اللتان على سطحها واستطاع ثلاثة أفراد فقط من طاقميها القفز إلى الخارج والنجاة بأنفسهم بينما غرق الباقون .

وفي الوقت الذي اجتاحت فيه الجنرال برن عوامل القلق بسبب هذه الظروف العصيبة التي واجهت عبور فرقته . . لمعت فكرة ذكية في ذهن أحد الضباط المهندسين لإمكان إصلاح الجسر بسرعة، فقد أمر دبابة معدة لمد الجسور من طراز باتون من دبابات العقيد حاييم بالصعود إلى الجسر، وعند المكان الذي فتحت فيه الفجوة توقفت الدبابة ومدت فوق جسر المعديات الجسر المعدني القابل للانطواء المتصل بالدبابة وبذلك تم سد الفجوة وأصبح الجسر جاهزا لاستئناف عبور دبابات الجنرال برن. وبحلول الساعة الرابعة صباحا يوم ١٨ أكتوبر كانت جميع وحدات فرقة برن قد وصلت سالمة إلى رأس الكوبري غرب القناة والذي كان يمتد بين قناة السويس وترعة المياه الحلوة الموازية للقناة (ترعة السويس). وهكذا أصبح للعدو صباح يوم ١٨ أكتوبر غرب القناة فرقتان مدرعتان كانت إحداهما بقيادة الجنرال شارون وتتكون من لواء المظلات بقيادة العقيد داني مات واللواء المدرع بقيادة حاييم (بعد أن تم لباقي دبابات اللواء العبور إلى الغرب واللحاق بمجموعة الدبابات الثلاثين التي عبرت صباح يوم ١٦ أكتوبر) وكانت الفرقة الأخرى بقيادة الجنرال إبراهام أدان (برن) وتتكون من لواءين مدرعين بقيادة العقيدين نيتكا وجابي.

زيارة ديان لقيادة شارون غرب القناة

عند ظهر يوم ١٧ أكتوبر وعقب انتهاء مؤتمر كيشوف الذي عقد بمركز القيادة الأمامي للجنرال برن الذي غادر المؤتمر مع مجموعة قيادته وتوجه جنوبا لقيادة المعركة ضد اللواء ٢٥ المدرع. اصطحب الجنرال شارون معه موشى ديان وزير الدفاع إلى ساحة العبور حيث عبرا قناة السويس معا على ظهر إحدى معديات البونتون المتحركة وتوجها إلى مقر القيادة المتقدم للجنرال شارون على الضفة الغربية للقناة.

وقد وصف موشى ديان هذه الزيارة التي كانت أول زيارة له إلى الضفة الغربية للقناة في مذكراته فقال: «طلب مني إيريك (اسم التدليل لشارون) بعد عبورنا القناة أن نصعد إلى ظهر عربة مدرعة، ولكني فضلت أن أقطع جزءا من الطريق سيرا على الأقدام. وكان رجال المظلات يرقدون على المنحدرات الترابية وهم محملون بالمعدات الشخصية وكانوا مجهدين وعيونهم نصف مغمضة. بينما في أقصى الغرب في عمق أرض العدو كانت تقف عدة دبابات، أخبرني إيريك أنه ترك سبع دبابات مع العقيد داني مات (قائد لواء المظلات) للدفاع عن رأس الكوبري بينما تقف باقي الدبابات التي يزيد عددها على العشرين دبابة على الجبهة الأمامية. وأنهم في اليوم السابق (١٦ أكتوبر)

وأثناء العمليات على الضفة الغربيـة أعطبوا ٢٠ دبابة مصرية ودمروا بطاريتين من صواريخ الدفاع الجوي سام».

وخلال زيارة موشى ديان لمقر قيادة شارون اقترح عليه خطة جديدة لتوسيع ثغرة الاختراق أشد تأثيرا من وجهة نظره من العمليات العميقة الواسعة النطاق التي رسمت لتطويق القوات المصرية. وذكر ديان أن الحل الأفضل هو طي الجناح الأيمن للجيش الثاني المصري شرق القناة وعن طريق الاندفاع شمالا في عمليتين متوازيتين شرق وغرب القناة ومن خلال المعاونة المتبادلة بين القوات الإسرائيلية على كلا الشاطئين، يمكن لكل قوة منهما على الشاطئ إحداث تهديد خطير لجنب القوات المصرية على الشاطئ الآخر للقناة مما يؤدي إلى تطهير الشاطئين وتوسيع ثغرة الاختراق.

وحول هذه النقطة بالذات انفجر نقاش حاد وعنيف بين الجنرال شارون والجنرال جونين، فقد طلب شارون عبور لواء آمنون المدرع التابع لفرقته إلى الضفة الغربية للقناة في الوقت الذي كان يصر فيه الجنرال جونين على ضرورة بقائه على الضفة الشرقية ودفعه شمالا في اتجاه الطالية (في منتصف رأس كوبري الفرقة ١٦ مشاة)، بهدف توسيع ثغرة الاختراق. والتجأ شارون إلى الجنرال حاييم بارليف (الممثل الشخصي لرئيس الأركان العامة في القيادة الجنوبية) فاستجاب لطلبه وأمر بعبور لواء آمنون إلى الغرب. ونظرا لأن شارون أصبح ـ ومعظم فرقته بعد عبور لواء آمنون ـ موجودا على الضفة الغربية للقناة، فقد ذهب ثانية إلى بارليف مقترحا تغيير الخطة الموضوعة من قبل، وبدلا من أن تتجه فرقته جنوبا وإلى الغرب من فرقة برن بحذاء القناة كان اقتراح شارون يقضي بأن يبقى في موقعه لتوسيع رأس الكوبري بهدف الاندفاع شمالا بعد ذلك في اتجاه الإسماعيلية. ووافق بارليف، واستدعى جونين لإبلاغه بالتغيير الذي جرى في الخطة، وبدلا من أن تكون فرقة كلمان ماجن مسئولة عن تأمين رأس الكوبري بعد تسلمها هذه المهمة من فرقة شارون كما كان مقررا في الخطة، أصبحت مهمتها الاندفاع جنوبا غرب فرقة برن في اتجاه السويس، وأصبح من واجب شارون البقاء بفرقته في رأس الكوبري في موقعه الحالي للاندفاع شمالا بعد ذلك إلى الإسماعيلية. ووافق جونين في الحال على هذا التعديل في الخطة، موضحا لبارليف أن الحياة ستكون أسهل كثيرا بالنسبة له عندما يتولى قيادة فرقتي برن وماجن بدلا من فرقة شارون، إذ إنه سوف يتعامل مع قادة يشعر بأنهم يتعاونون معه، وأن تحفظاتهم ـ إن وجدت ـ لن يكون لها طابع شخصي. ورحب جونين بأن يكون الاندفاع الإسرائيلي نحو الجنوب على شكل مروحة: برن إلى اليسار وماجن إلى اليمين ومن

خلفه، وبذا يزداد العمق أثناء التقدم كما يتم خلق قاعدة وطيدة للمقاومة في حالة حدوث أي تعثر على الجبهة.

وقبل عبور لواء آمنون إلى الضفة الغربية للقناة، أمره الجنرال شارون بمهاجمة المزرعة الصينية (قرية الجلاء) من الخلف، وكانت قوات اللواء ١٦ مشاة ووحدات الفرقة ٢١ المدرعة قد استنزفت في المعارك المريرة القاسية التي دارت رحاها داخل القرية، ولذا لم تلبث المزرعة الصينية أن سقطت في يد القوات الإسرائيلية. وانكشفت أمام أنظار الإسرائيليين صورة لمنطقة دفاعية على مستوى عال من التنظيم كانت تضم في أرجائها مواقع عديدة مهجورة لأسلحة ومدافع وصواريخ ساجر (مالوتكا) المضادة للدبابات والتي كانت منتشرة بكثافة في المنطقة بأكملها. وبعد سقوط المزرعة الصينية، واصل آمنون الضغط لتوسيع رأس الكوبري شرق القناة إلى مسافة حوالي ٥كم شمالا.

زيارة ديان للمزرعة الصينية

وبعد الظهر، وصل موشى ديان إلى أرض المعركة برفقة الجنرال شارون، وقد وصف موشي ديان في مذكراته هذه الزيارة التي قام بها للمزرعة الصينية فقال: «لم أستطع إخفاء مشاعري عند مشاهدتي لها، فقد كانت مئات من العربات العسكرية المهشمة والمحترقة متناثرة في كل مكان وبعضها ما زال يتصاعد منه الدخان، كما كانت هناك دبابات إسرائيلية ودبابات مصرية لا يبعد بعضها عن بعض سوى بضع ياردات، وكانت هناك أيضا عربات نقل إمدادات مهجورة فاجأتها الغارات الجوية وقذائف المدفعية، وكانت بين الأسلحة والمعدات المحطمة بطاريات سام ٢ وسام ٣، وكان وسط كل بطارية منصة ثابتة لإطلاق الصواريخ وحولها عربات محملة بالصواريخ بعضها سليم لم يمس وبعضها مدمر. ومع اقترابنا من كل دبابة كان الأمل يراودني في ألا أجد علامة الجيش الإسرائيلي عليها، وانقبض قلبي فقد كان هناك كثير من الدبابات الإسرائيلية. ومع أن مناظر الحرب أو المعركة لم تكن غريبة بالنسبة لي، فإنني لم أشاهد على الإطلاق مثل ذلك المنظر لا على الطبيعة ولا في اللوحات ولا في أفظع الأفلام السينمائية الحربية. لقد كان أمامنا ميدان شاسع لمذبحة أليمة يمتد إلى أبعد ما تستطيع العين الوصول إليه. كانت الدبابات والمركبات والعربات المدرعة والمدافع وعربات نقل الذخيرة المعطلة والمقلوبة والمحترقة دليلا مروعا على المعركة الرهيبة التي دارت هنا».

وعندما شاهد آمنون مدى تأثر موشى ديان وارتجافه بسبب آثار هذه المعركة الوحشية

قـال لـه : «انظـر إلـى وادي الموت هذا» . . وتمتم ديان بدهشـة قـائـلا : «مـاذا فـعـل رجالك هنا؟» .

إقامة الجسر السابق التركيب

في الصباح الباكر يوم ١٨ أكتوبر، أمر الجنرال شارون نائبه العميد جاكـي الـذي أصبح المسئول الأول عن عملية إقامة جميع الجسور عبر القناة بإحضار الجسـر السابـق التركيب Preconstructed إلى الأمام. وكان هذا الجسر قد ظل معطلا منذ الليلة الأولى للعبور (ليلة ١٥ / ١٦ أكتوبر) بعد أن غرزت بعض أجزائه على طريق طرطور على بعد حوالي ١٨كم شرق القناة، ولم يكن من المتيسر جره إلى اتجاه ساحة العبور في الدفرسوار إلا بعد أن يتم للقوات الإسرائيلية فتح طريق طرطور الذي كان الجزء الأخير منه يخترق مواقع اللواء ١٦ مشاة (الجنب الأيمن للفرقة ١٦ مشاة). ونظرا لنجاح قوات الجنرال أدان في تحقيق المهمة التي أسندت إليها قبل عبورها إلى الضفة الغربية، وهي فتح طريقي أكافيش وطرطور والاشتراك مع قوات الجنرال شارون في الاستيلاء على المزرعة الصينية (قرية الجلاء)، لذلك أصبحت الفرصة متاحة لإحضار الجسر المعطل على طريق طرطور، والعمل على إقامته على وجه السرعة عبر القناة عند الدفرسوار بجوار جسر معديات البونتون، ليكون هناك جسران ثابتان فوق القناة وفقا للخطة الأصلية (القلب الشجاع)، إذ كان من الخطر عبور فيلق مدرع (فرقتي شارون وأدان) إلى الضفة الغربية مع الاعتماد على جسر واحد فقط للربط بين ضفتي القناة.

وبناء على تعليمات شارون، بدأ الجسر السابق التركيب والبالغ طوله حوالي ١٨٠ مترا في التحرك غربا في اتجاه ساحة العبور صباح يوم ١٨ أكتوبر على طريق طرطور، وكانت تجره مجموعة مكونة من ١٢ دبابة إسرائيلية، كان الجسر متصلا بها بواسطة حبال سلكية سميكة، وكان ينزلق ببطء على الرمال فوق أسطوانات تدور حول نفسها ومثبتة به من أسفل. ولم تكن عملية الجر سهلة، فقد كانت حبال الجر التي تربط الدبابات بالجسر ينقطع بعضها أثناء التحرك فتضطر القافلة إلى التوقف لإصلاحها، علاوة على الضرب المركز من المدفعية المصرية التي كانت تطلق نيرانها من رأس كوبري الفرقة ١٦ مشاة شرق القناة مما كان يعرقل سير القافلة، وقد تسبب في وقوع خسائر عديدة في الأفراد والمعدات.

وكانت ثلاثة جرارات ثقيلة تتقدم القافلة لإزالة أي عوائق بما فيها حطام الدبابات والمركبات المدمرة أو المعطلة لتدفع بها خارج الطريق. وعلى رأس قافلة الجسر سارت عربة

جيب كان يستقلها المقدم جوني تان رئيس المهندسين العسكريين الذي كلفه العميد جاكي بمهمة إحضار الجسر إلى القناة وإقامته في موضعه المحدد، وإلى جواره جلس مساعده إسحق بن دوف.

ونظرا لأن طريق طرطور كان مليئا بالألغام، فقد أسندت مهمة تطهيره إلى مجموعة المهندسين العسكريين من خبراء المفرقعات، ولم تكن العملية سهلة، فقد كانت القافلة تتحرك تحت قصف متواصل من المدفعية المصرية مما جعل خبراء المفرقعات ـ منعا لتعطيل السير ـ يخاطرون برفع الألغام دون اتخاذ إجراءات الوقاية اللازمة لتأمينها كي يضعوها على جانبي الطريق وهي حية، أي بدون استخراج المفجر منها لإبطال مفعولها.

واجتاز أفراد الدبابات والمهندسون الإسرائيليون المنطقة الأخيرة من الطريق التي كانت تخترق مواقع اللواء المصري ١٦ مشاة السابقة قبل أن تضطر وحدات اللواء إلى إخلائها والانسحاب شمالا تحت ضغط العدو. وكانت آثار المعارك الشرسة التي دارت بين الطرفين واضحة للعيان، ففي كل جزء من الطريق كانت جثث المصريين والإسرائيليين مطروحة على الأرض جنبا إلى جنب، وقد تناثرت بجوارها حطام الدبابات والمركبات والأسلحة المصرية والإسرائيلية مما جعل المنطقة أشبه بواد للموت أو بمقبرة رهيبة للحرب.

وعلى الرغم من أن قوات الجنرال أدان قد تمكنت من فتح الطريق وإزاحة المقاومات المصرية فإن العميد جاكي خصص وحدة من الدبابات وأخرى من الأسلحة المضادة للطائرات لمرافقة الجسر وتأمينه أثناء التحرك. وقد عانى أفراد أطقم هذه الدبابات عناء بالغا بسبب اضطرارهم إلى التحرك ببطء بمعدل جر أجزاء الجسر، كما أن ذلك جعلهم هدفا سهلا للكمائن المصرية من أطقم اقتناص الدبابات.

ووصل الجسر بعد مشقة وعناء إلى تقاطع طريق طرطور مع طريق لكسيكون (الطريق العرضي رقم ١) الموازي للقناة، وتعرضت القافلة عند وصولها إلى التقاطع لغارة جوية عنيفة قامت بها مجموعة من طائرات الميج المصرية مما أجبرها على التوقف ومحاولة الانتشار للوقاية من هجوم الطائرات. وكلفت هذه الغارة الإسرائيليين ثمنا باهظا. فقد قتل خلالها المقدم جوني تان رئيس المهندسين العسكريين، وكان يعد من أمهر الخبراء العسكريين الإسرائيليين في إقامة الجسور علاوة على درايته التامة بأحوال منطقة العبور، إذ كان يعرف كل شبر فيها. وأدرك العميد جاكي بعد مصرعه مدى الورطة التي أصبح يواجهها، إذ إن أي خطوة خاطئة يمكن أن تؤدي إلى فشل عملية إقامة الجسر بأكملها. ولم

يكن أمامه من حل سوى أن يفحص بنفسه مدى قوة تحمل التربة من منطقة التقاطع إلى ساحة العبور، وامتطى العميد جاكي دبابة قائد كتيبة الدبابات التي كانت تحمي القافلة وبرفقته عربة مدرعة نصف جنزير وتحرك من التقاطع في اتجاه ساحة العبور وهو يفحص بدقة تامة مدى صلابة الأرض حتى يمكن للجسر الثقيل أن يتبع خط سيره دون أن يغرز في الرمال. وأخيرا نجحت التجربة ووصل الجسر السابق التركيب إلى ساحة العبور بالدفرسوار قبل آخر ضوء يوم ١٨ أكتوبر. وعند منتصف الليل انتهى المهندسون العسكريون من إقامة الجسر بين شاطئي القناة في موضع يقع على بعد حوالي ٢٠٠ متر فقط شمال موضع جسر المعديات البونتون. وبعد أن فتح الجسر للعبور أصبح لإسرائيل جسران ثابتان فوق قناة السويس. وفي يوم ١٩ أكتوبر تمت إقامة جسر ثالث من معديات البونتون شمال الجسر الثاني. وكانت الجسور الثلاثة مقامة في مساحة طولية تبلغ نحو ٥٠٠ متر من القناة بهدف تركيز الدفاع عنها سواء ضد غارات الطائرات المصرية أو ضد عمليات التسلل تحت الماء من الضفادع البشرية المصرية. وكانت ساحة العبور بالدفرسوار التي أصبحت مزدحمة بالأفراد ومعدات الجسور والدبابات والمركبات تتولى قوة العميد جاكي إدارتها وتشغيلها، وكانت هذه القوة مشكلة من كتائب المهندسين العسكريين لإقامة الجسور وإصلاحها وصيانتها ووحدات مضادة للطائرات لحمايتها من الغارات الجوية ومراكز طبية لإخلاء الجرحى والمصابين القادمين من غرب القناة إلى مستشفيات الميدان.

الخطة التي وضعت لتصفية ثغرة الاختراق شرق وغرب القناة

عندما أدركت القيادة المصرية حقيقة العملية الكبرى التي تجرى على ضفتي قناة السويس، وأمكنها رصد منطقة الجسور فوق القناة وكذا ساحة العبور على الضفة الشرقية وساحة الإبرار عند الدفرسوار على الضفة الغربية، تعرضت كل هذه المواقع لنيران مركزة متواصلة من وحدات مدفعية الجيش الثاني شرق وغرب القناة. وكان القصف مؤثرا إلى الحد الذي أدى إلى مقتل ٤١ ضابطا وجنديا من قوة جاكي في ليلة واحدة فقط، وبلغ عدد القتلى في نهاية المرحلة في ساحة العبور وحدها وفقا للإحصائيات الرسمية الإسرائيلية أكثر من ١٠٠ قتيل، هذا بخلاف المئات من الجرحى والمصابين.

وكانت الخطة المصرية التي وضعت لتصفية ثغرة الاختراق الإسرائيلية شرق القناة وغربها يوم ١٨ أكتوبر تقضي بقيام اللواء ٢٣ المدرع (من الفرقة ٣ مشاة ميكانيكية) بهجوم مضاد على قوات العدو الموجودة داخل رأس الكوبري الإسرائيلي في منطقة الدفرسوار

غرب قناة السويس بمعاونة اللواء ١١٦ مشاة ميكانيكي واللواء ١٨٢ مظلات، وفي نفس الوقت تقوم وحدات من الفرقتين ١٦ مشاة و٢١ المدرعة بهجوم مضاد على قرية الجلاء (المزرعة الصينية) والنقطة القوية في الدفرسوار شرق القناة لمحاولة إغلاق الطريق المؤدي إلى ساحة العبور الإسرائيلية واستعادة الأوضاع إلى ما كانت عليه في رأس كوبري الفرقة ١٦ مشاة (الجناح الأيمن للجيش الثاني).

وفي ليلة ١٧ / ١٨ أكتوبر، قام اللواء تيسير العقاد قائد رأس الكوبري الموحد الذي كان يضم الفرقتين ١٦ مشاة بقيادة العميد أ.ح عبد رب النبي حافظ و٢١ المدرعة بقيادة العميد أ.ح إبراهيم العرابي بتنظيم التعاون لعملية الهجوم المضاد، وفقا لقرار اللواء عبد المنعم خليل قائد الجيش الثاني، وقد تم ذلك في مركز القيادة المتقدم للفرقة ٢١ المدرعة بحضور قائدي الفرقتين المشاة والمدرعة وكذا قادة الوحدات التي ستشترك في عملية الهجوم المضاد.

وكان الموقف العام للعدو ولقواتنا كما يلي:

العدو: يدافع جنوب خط المغذي الرئيسي بحوالي كيلو متر وتقدر قوته بأكثر من ٥٠ دبابة مدعمة بعناصر مشاة ميكانيكية وبكتيبتين مضادتين للدبابات، علاوة على عدة نقط قوية في قريتي الجلاء ومنطقة الدفرسوار (شرق القناة).

قواتنا: كان العدد المتبقي من دبابات الفرقة ٢١ المدرعة بعد المعارك التي خاضتها منذ تطوير الهجوم يوم ١٤ أكتوبر لا يزيد على ٤٠ دبابة. ولهذا صدرت الأوامر بتحرك كتيبة من اللواء ٢٤ المدرع (من الفرقة ٢٣ مشاة ميكانيكية وملحق على الفرقة ٢ مشاة منذ بداية الحرب) لكي تنضم من مكان تمركز اللواء بالإسماعيلية شرق على قوات الهجوم المضاد وكانت قوتها ٢١ دبابة، هذا بالإضافة إلى كتيبة دبابات الفرقة ١٦ مشاة التي كانت قوتها حوالي ٢٠ دبابة مما يجعل جملة الدبابات المخصصة للهجوم المضاد نحو ٨٠ دبابة.

وتحددت الساعة الثانية عشرة ظهرا يوم ١٨ أكتوبر موعدا لبدء الهجوم، وذلك لعدم توافر المجهود الجوي الذي سيخصص لمعاونة العملية قبل ذلك التوقيت.

وقبل ساعة س (موعد بدء الهجوم) تعرض رأس الكوبري الموحد لهجمات متواصلة من طائرات العدو وإلى قصف عنيف من مدفعيته بعيدة المدى من عيار ١٥٥م و١٧٥م، مما أدى إلى إرباك التحضيرات الهجومية لقواتنا، وتسبب في وقوع كثير من الخسائر إلى الحد الذي اضطر معه قائد رأس الكوبري الموحد إلى تأخير ساعة س. وكان من بين الذين أصيبوا العميد أ.ح عبد رب النبي حافظ قائد الفرقة ١٦ مشاة الذي أصيب بشظية في

فخذه من إحدى دانات المدفعية أثناء وجوده في مركز الملاحظة الأمامي للفرقة شرق الطالية، وتم إخلاؤه إلى مستشفي المعادي وتولى قيادة الفرقة من بعده العميد أنور حب الرمان رئيس أركان الفرقة ١٦ مشاة.

وكانت خطة الهجوم المضاد تقضي بقيام كتيبة مشاة ميكانيكية من اللواء ١٨ مشاة ميكانيكي بمهاجمة قرية الجلاء وتدمير العدو فيها واتخاذ مواقع دفاعية جنوبها مع الاستعداد لصد أي هجمات مضادة للعدو.

وكان على اللواء الأول المدرع مهاجمة العدو غرب قرية الجلاء في القطاع المحصور ما بين الطريق العرضي رقم ١ وقناة السويس وتدمير العدو في مواجهته وتطوير الهجوم معتمدا على المشاة الميكانيكية للوصول إلى النقطة القوية الشمالية في الدفرسوار والاستيلاء عليها. وكان الأمل معقودا على نجاح القوات المصرية التي ستقوم بالهجوم المضاد غرب القناة، لتدمير العدو والاستيلاء على المصاطب الممتدة على الساتر الترابي المحاذي للشاطئ الغربي للقناة والتي يمكنها في هذه الحالة معاونة قوات الهجوم المضاد شرق القناة وتهديد جنب العدو شرق القناة تهديدا مباشرا.

وعند بدء الهجوم، لم تتمكن كتيبة المشاة الميكانيكية من اللواء ١٨ مشاة ميكانيكي المكلفة بمهاجمة قرية الجلاء من تنفيذ مهمتها، نظرا لشدة الضرب الجوي المركز عليها، فتم ارتدادها إلى الخلف وانضمت إلى باقي وحدات اللواء للدفاع عن الخط الممتد شمال قرية الجلاء.

وأثناء تقدم اللواء الأول المدرع لتنفيذ المهمة المسندة إليه، اشتبك مع حشد كبير من دبابات العدو قامت بمهاجمته من الشرق والجنوب وأمكنه تدمير ١٣ دبابة إسرائيلية ولكن موقفه ازداد سوءا لقيام بعض دبابات العدو الموجودة على الشاطئ الغربي للقناة بإطلاق نيران مدافعها عليه عبر القناة وتهديد جنبه الأيمن. ونتيجة لكثافة نيران العدو اضطر إلى الارتداد للخلف بعد أن أصبح عدد دباباته المتبقية ٩ دبابات فقط.

وإزاء شدة ضغط العدو على الجنب الأيمن لرأس الكوبري الموحد وقلة عدد الدبابات، أصدر قائد الجيش الثاني أمره إلى قائد اللواء ٢٤ المدرع الذي كان متمركزا بمنطقة الإسماعيلية شرق والذي سبق له إرسال كتيبة من وحداته للانضمام إلى قوة الهجوم المضاد، بأن يقوم بالتحرك بباقي اللواء إلى منطقة شمال غرب الطالية، وأثناء تقدم اللواء ٢٤ المدرع في اتجاه الطالية تعرض لقصف مركز من طيران ومدفعية العدو، ولكنه تمكن من

الوصول إلى رأس الكوبري الموحد، واشترك مع باقي عناصر الفرقة ٢١ المدرعة في صد دبابات العدو التي هاجمت الجنب الأيمن للفرقة ١٦ مشاة بقوة. ورغم ما أبدته هذه القوات من شجاعة وعناد وما تكبده العدو من خسائر فادحة، فإن قوات العدو واصلت تقدمها شمالا من قرية الجلاء في اتجاه مدق السواحل شمال المغذي الرئيسي، وأصبح الخط الذي تحتله وحدات الفرقة ٢١ المدرعة بعد انسحابها يتحاذى تقريبا مع سرابيوم على الضفة الغربية للقناة.

وهكذا تحولت مهمة القوات التي كانت مخصصة للهجوم المضاد إلى مهمة أخرى وهي صد اختراق العدو. وكان جانب كبير من هذا التحول في الخطة يرجع إلى فشل القوات التي قامت في الصباح بالهجوم المضاد على رأس كوبري العدو غرب القناة في مهمتها، وبالتالي احتفاظ العدو بسيطرته على المصاطب المصرية السابقة غرب القناة من مصطبة الدفرسوار جنوبا حتى مصطبة الضخ شمالا، مما جعل الجنب الأيمن للفرقة ٢١ المدرعة واقعا تحت تهديده المباشر.

وبعد ظهر يوم ١٨ أكتوبر، أبلغت القيادة العامة المركز ١٠ العميد أ. ح إبراهيم العرابي قائد الفرقة ٢١ المدرعة بأن الصور الجوية التي التقطت للمنطقة شرق الدفرسوار وجنوب المغذي الرئيسي توضح أن وحدات الفرقة ٢١ المدرعة قد دمرت عددا كبيرا من دبابات العدو. وقد ساعدت هذه الإشارة اللاسلكية على رفع الروح المعنوية في الفرقة بعد الخسائر الجسيمة التي تكبدتها في الأرواح والأسلحة والمعدات. وحوالي الساعة الرابعة مساء أرسل اللواء عبد المنعم خليل قائد الجيش الثاني تقرير موقف مطولا ضمن إشارات لاسلكية إلى القائد العام الفريق أول أحمد إسماعيل، كان القسم الأول منه عبارة عن شرح للموقف غرب القناة. أما القسم الثاني والأخير منه فكان عبارة عن شرح للموقف شرق القناة. وكان أهم ما تضمنه القسم الخاص بشرق القناة أن العدو قام بالاختراق حتى الضخ (المغذي الرئيسي) وزاد اختراقه حتى مدق السواحل، ولكن رغم هذا فإن الموقف ليس سيئا، وقد قاتلت الفرق صباحا (الفرقة ٢١ المدرعة والفرقة ١٦ مشاة) ودمرت بعض دبابات العدو. وورد في التقرير أن ضرب الطيران المصري كانت آثاره جيدة. وفيما يتعلق باللواء ٢٤ المدرع (المتمركز بمنطقة الإسماعيلية شرق على الضفة الشرقية للقناة) فقد تقدم من أعلى إلى أسفل. وتعرض للضرب من الطيران الإسرائيلي. وأورد التقرير أن اللواءين المشاة الباقيين في الفرقة ١٦ مشاة (بعد إخلاء اللواء ١٦ لمواقعه من قبل تحت ضغط العدو) متماسكان في مواقعهما داخل رأس الكوبري، وطلب اللواء عبد المنعم في تقريره عودة

اللواء تيسير العقاد إلى مركز القيادة المتقدم للجيش الثاني بالإسماعيلية، وأن يتولى العميد أ. ح إبراهيم العرابي قيادة رأس الكوبري الموحد. وأوضح قائد الجيش الثاني في إيجاز خطته لليوم التالي (١٩ أكتوبر)، فذكر أنه سيطلب من العميد أ. ح إبراهيم العرابي بعد توليه قيادة رأس الكوبري الموحد تنظيم الموقف شرق القناة وتثبيت العدو والقضاء عليه في أول ضوء في اليوم التالي. وستقوم بمعاونته من غرب القناة وحدات من اللواء ١٨٢ مظلات بعد احتلالها للمصاطب. وأوضح اللواء عبد المنعم في ختام تقريره أن مدفعية الجيش الثاني تواصل الضرب على رأس الكوبري الإسرائيلي بنيران إزعاج بصفة مستمرة، كما طلب من القائد العام إمداده بقواذف صاروخية موجهة مضادة للدبابات (مالوتكا) لشدة الحاجة إليها في تكوين أطقم اقتناص دبابات.

أزمة قيادة رأس الكوبري الموحد

في الساعة الخامسة مساء يوم ١٨ أكتوبر، وصل الفريق سعد الشاذلي إلى مركز القيادة المتقدم للجيش الثاني بالإسماعيلية بعد أن أمره الرئيس الراحل السادات بعد ظهر ذلك اليوم بالتحرك فورا من مركز القيادة العامة المركز ١٠ بالقاهرة إلى الجيش الثاني، لكي يعمل على رفع الروح المعنوية وليبذل ما يستطيع لمنع تدهور الموقف. وفور وصول الفريق الشاذلي إلى مقر القيادة أخطر اللواء عبد المنعم خليل بأن أي قرارات أو أوامر لا بد أن تصدر منه شخصيا. وبدأ الشاذلي في دراسة الموقف واستمع إلى تقارير عاجلة من قائد الجيش وقادة ورؤساء أفرع القيادة وسجل موقف الكفاءة القتالية للتشكيلات. وكانت أول أزمة صادفت الفريق الشاذلي بعد وصوله هي أزمة القيادة في رأس الكوبري الموحد شرق القناة الذي كان يضم الفرقتين ١٦ مشاة و٢١ المدرعة، والتي ثارت فور صدور القرار بعودة اللواء تيسير العقاد الذي كان يتولى قيادة رأس الكوبري الموحد إلى قيادة الجيش الثاني غرب القناة.

وكان سبب الأزمة يرجع إلى موضوع الأقدمية، وهو موضوع شائك وشديد الحساسية بالنسبة للعسكريين، إذ لا يمكن لأحد منهم - على خلاف ما يجرى في السلك المدني - أن يقبل أن يرأسه شخص أحدث منه في الرتبة أو في الأقدمية في حالة تساوي الرتب.

وكان اللواء عبد المنعم خليل في رسالته اللاسلكية التي بعث بها إلى القائد العام في الساعة الرابعة مساء يوم ١٨ أكتوبر قد طلب عودة اللواء تيسير العقاد إلى مقر قيادة الجيش الثاني وأن يتولى العميد أ. ح إبراهيم العرابي قيادة رأس الكوبري الموحد. وكانت أوضاع

القوات داخل رأس الكوبري هي التي دفعت قائد الجيش الثاني إلى اتخاذ هذا القرار، فقد تقلص رأس كوبري الفرقة ١٦ مشاة ـ من جهة ـ بعد إخلاء اللواء ١٦ مشاة (الجنب الأيمن للفرقة ١٦ مشاة) لمواقعه إخلاء تاما وارتداده شمالا حيث انضم على اللواء ١٨ مشاة ميكانيكي (من الفرقة ٢١ المدرعة) في مواقعه الدفاعية شمال قرية الجلاء. ومن جهة أخرى أصبحت الفرقة ٢١ المدرعة ـ رغم ما حاق بها من خسائر جسيمة ـ هي المسئولة عن صد هجمات العدو من مواقعه في قرية الجلاء، ومنعه من توسيع ثغرة اختراقه شمالا، وعلاوة على ذلك كان عليها مسئولية وقاية الجنب الأيمن للفرقة ١٦ مشاة بعد إخلاء اللواء ١٦ مشاة لمواقعه.

لكن قيادة العميد أ.ح إبراهيم العرابي لرأس الكوبري الموحد أوجدت أزمة كان لابد من حلها، فإن العميد العرابي كان أحدث من جهة الأقدمية من العميد أنور حب الرمان رئيس أركان الفرقة ١٦ مشاة الذي تولى قيادتها بالنيابة بعد إصابة قائدها يوم ١٨ أكتوبر وإخلائه إلى القاهرة، وكذا من العميد أ.ح بكير محمد بكير مساعد قائد الفرقة ١٦ مشاة. ولحل هذه الأزمة اضطر الفريق سعد الشاذلي إلى التدخل شخصيا لإزالة الخلاف بين قائدي الفرقتين، فأرسل إشارة لاسلكية إلى العميد أنور حب الرمان ناشده فيها أن يترك عرابي يتولى القيادة وأن يضع نفسه تحت قيادته لأن الأمر الآن أصبح يتعلق بشرف مصر. كما أرسل إلى العميد أ.ح إبراهيم العرابي إشارة لاسلكية قال له فيها: «يجب يا عرابي أن تتولى قيادة رأس الكوبري بصرف النظر عن أقدمية حب الرمان أو بكير. وأنا قلت لحب الرمان إنك ستتولى القيادة».

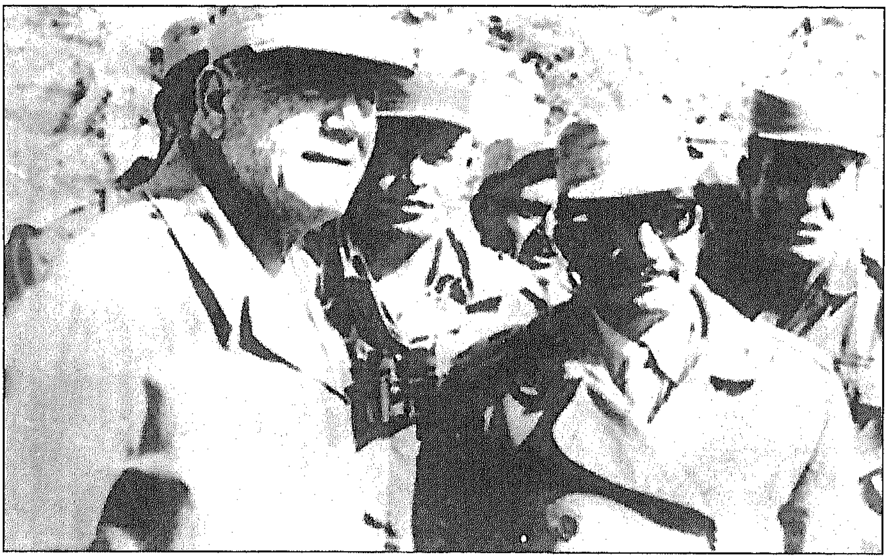


ملحق صور الفصل السادس



الرئيس محمد أنور السادات

ابتكر زيا خاصا للقائد الأعلى للقوات المسلحة.



فريق أول أحمد إسماعيل

وضع خلال المؤتمر الذي عقد بالمركز ١٠
بعد ظهر يوم ١٦ أكتوبر خطة تدمير ثغرة الاختراق الإسرائيلية من شرق القناة.



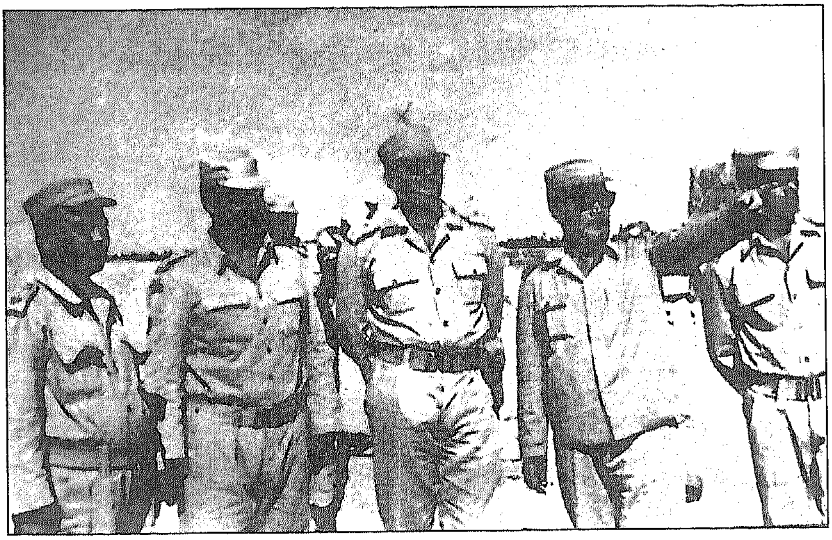
لواء عبد المنعم واصل

كان يرى دفع اللواء ٢٥ المدرع لتدمير ثغرة الاختراق الإسرائيلية من غرب القناة.



عميد أحمد بدوي سيد أحمد

اعترض على سحب اللواء ٢٥ المدرع من تحت قيادته، لأن ذلك سوف يؤثر على توازن رأس كوبري الفرقة ٧ مشاة.



عميد محمد نبيه السيد

رئيس عمليات الجيش الثالث، قام بتخصيص المهمة بعد ظهر ١٦ أكتوبر لقائد اللواء ٢٥ المدرع في مركز القيادة المتقدم للفرقة ٧ مشاة.



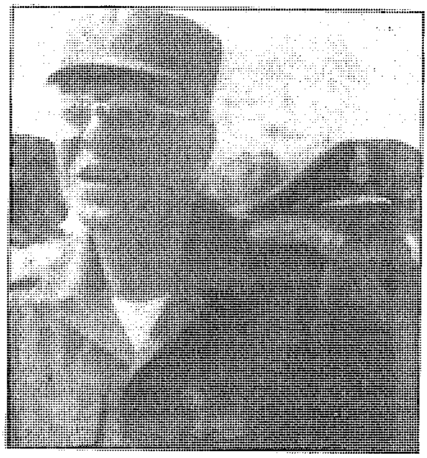
عميد أحمد حلمي بدوي

قائد اللواء ٢٥ المدرع المستقل.



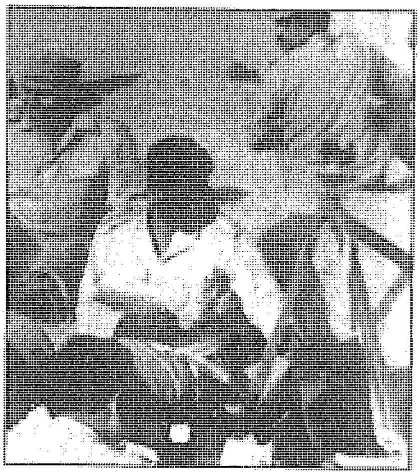
الفريق سعد الشاذلي

أثّر الخلاف بينه وبين الفريق أول أحمد إسماعيل القائد العام على سير العمل بالمركز ١٠.



عميد إبراهيم العرابي

نظرا للمعارك العنيفة والخسائر التي واجهتها الفرقة ٢١ المدرعة منذ يوم ١٤ أكتوبر، لم تتمكن أي وحدة من الفرقة من الالتقاء باللواء ٢٥ المدرع لتحقيق المهمة المشتركة بينهما.



عميد عبد رب النبي حافظ

أصدر أمره إلى قائد اللواء ١٦ مشاة بتعديل أوضاعه والانضمام إلى المواقع الدفاعية شمال قرية الجلاء.



عقيد علي هيكل

قائد المجموعة ١٢٩ صاعقة.



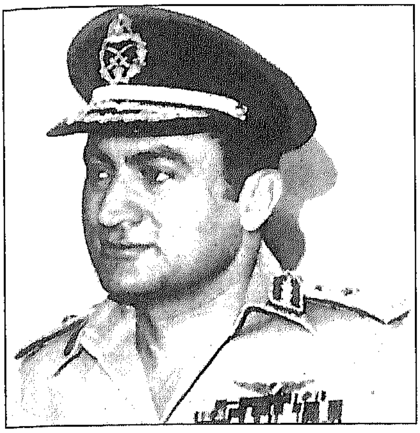
عميد أحمد عبود الزمر

قائد الفرقة ٢٣ مشاة ميكانيكية أسندت إليه القيادة العامة صباح يوم ١٧ أكتوبر مهمة تصفية الثغرة غرب القناة.



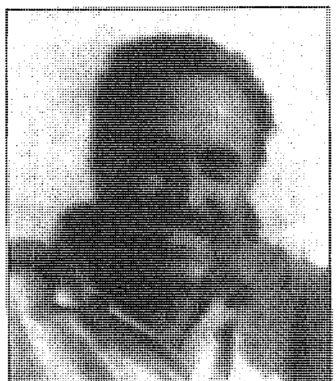
مقدم عاطف منصف

قائد الكتيبة ٨٥ مظلات.



لواء طيار محمد حسني مبارك

شنت طائرات الميج المصرية هجمات ضارية على القوافل الإسرائيلية التي تحمل معديات العبور أثناء تحركها مما عطل إقامة الكباري على القناة.



عميد أنور حب الرمان

رئيس أركان الفرقة ١٦ مشاة الذي تولى قيادتها بعد إصابة قائدها يوم ١٨ أكتوبر وإخلائه إلى القاهرة.



عميد محمد عبد الحليم أبو غزالة

قامت مدفعية الجيش الثاني بقصف رأس الكوبري الإسرائيلي على ضفتي القناة قصفا عنيفا بصفة مستمرة، مما ألحق بالإسرائيليين خسائر فادحة.



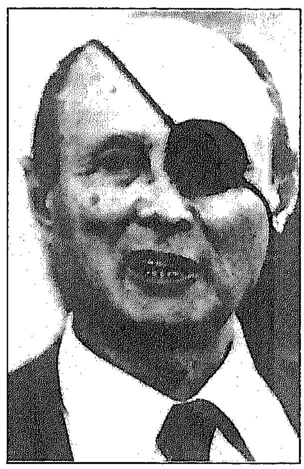
الجنرال أريل شارون

أخذ يردد في شبكة الاتصال اللاسلكية: «أين برن؟ كل شيء جاهز للعبور. لماذا يتسبب برن في تعطيل كل شيء؟».



الجنرال إبراهام أدان (برن)

أخذ يصيح في جهاز اللاسلكي أثناء عبوره القناة إلى الغرب ليلة ١٧ / ١٨ أكتوبر «عبرت إلى إفريقيا».



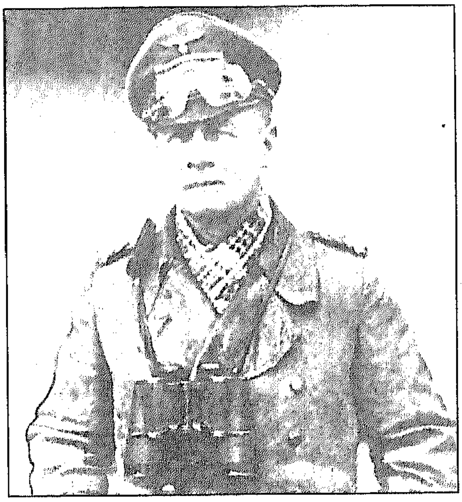
موشى ديان

قال بعد تفقده للمزرعة الصينية التي دارت فيها أشرس المعارك: «لم أشاهد في حياتي أفظع من هذا المنظر لا على الطبيعة ولا في الأفلام السينمائية».



ونستون تشرشل

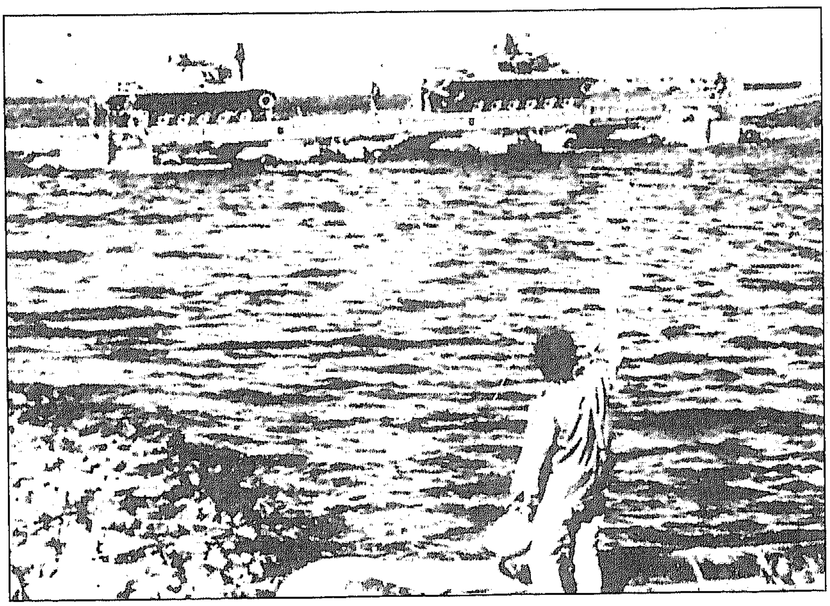
رئيس وزراء بريطانيا خلال الحرب العالمية الثانية.



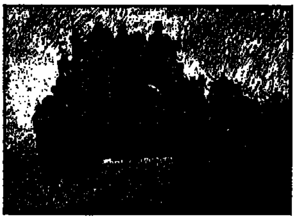
الفيلد مارشال إروين روميل
(ثعلب الصحراء)
أحد القادة الألمان الأفذاذ خلال الحرب العالمية الثانية.



الدكتاتور الألماني أدولف هتلر
قاد ألمانيا خلال الحرب العالمية الثانية إلى الدمار.



دبابات إسرائيلية من فرقة الجنرال إبراهام أدان تعبر جسر معديات البونتون في طريقها إلى الضفة الغربية للقناة.



■ الفصل السابع ■
العمليات الإسرائيلية الرئيسية غرب قناة السويس

كانت الخطة التي وضعتها القيادة العامة المصرية بالاشتراك مع قيادة الجيش الثاني لتصفية ثغرة الاحتراق الإسرائيلية يوم ١٨ أكتوبر تقضي بصفة عامة بما يلي:

على الضفة الشرقية للقناة: تقوم وحدات من الفرقة ١٦ مشاة والفرقة٢١ المدرعة بهجوم مضاد على قرية الجلاء (المزرعة الصينية) والنقطة القوية في الدفرسوار (الحصن الإسرائيلي السابق متسميد) لمحاولة إغلاق الطريق المؤدي إلى ساحة العبور الإسرائيلية واستعادة الأوضاع إلى ما كانت عليه في رأس كوبري الفرقة ١٦ مشاه (الجناح الأيمن للجيش الثاني).

على الضفة الغربية للقناة: يقوم اللواء ٢٣ المدرع (عدا كتيبة) من الفرقة ٣ مشاة ميكانيكية (الاحتياط الإستراتجي للقيادة العامة) بهجوم مضاد على العدو في منطقة الدفرسوار في أول ضوء يوم ١٨ أكتوبر بمهمة تدميره واحتلال المصاطب إلى مسافة ٥ كم شمال الدفرسوار. ويقوم اللواء١١٦ مشاة مكانيكي بمهمة تأمين اللواء ٢٣ المدرع عند دفعه للاشتباك ومنع العدو من التقدم غربا، وفي الوقت نفسه يقوم اللواء ١٨٢ مظلات بالاستيلاء على المصاطب غرب القناة، من الشمال إلى الجنوب من جبل مريم شمالا حتى مصطبة الضخ جنوبا على أن تستخدم المصاطب بعد الاستيلاء عليها لتدمير القوات الإسرائيلية على الضفة الشرقية للقناة ومعاونة وحدات الفرقتين ١٦ مشاه و٢١ المدرعة في تحقيق المهام الموكولة إليها، وكذا منع العدو من العبور إلى الضفة الغربية للقناة.

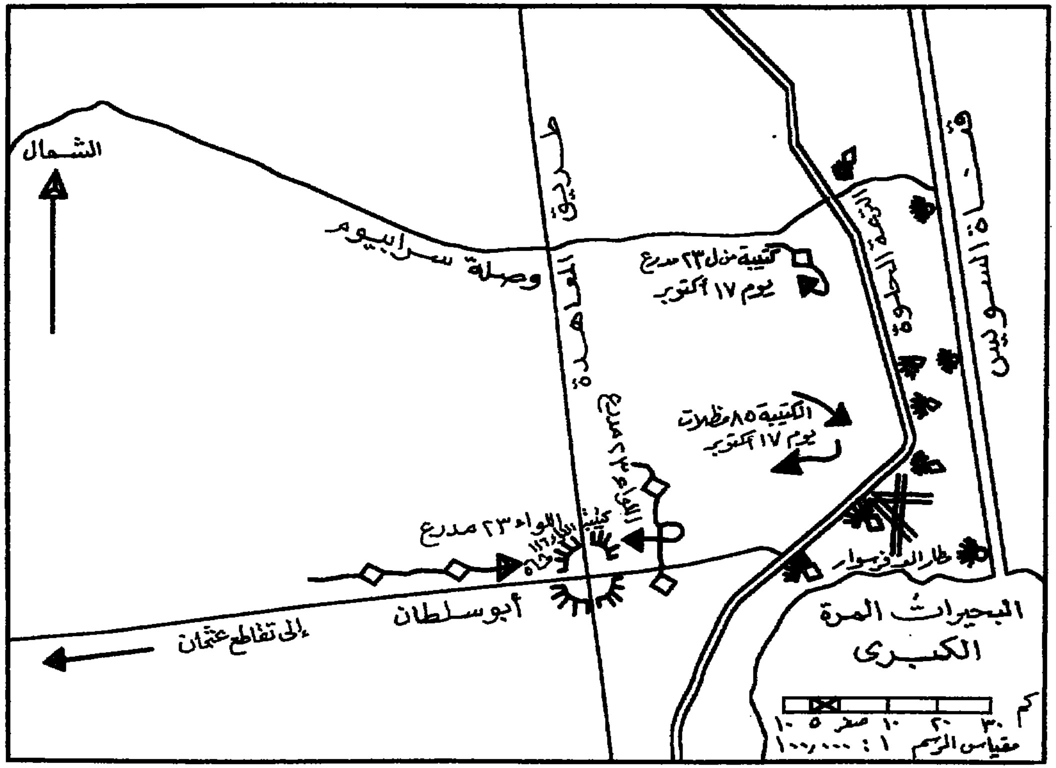
معركة اللواء ٢٣ المدرع

كانت التعليمات الخاصة بالهجوم المضاد تقضي بتأمين دفع اللواء ٢٣ المدرع بضربة

طيران لمدة ١٠ دقائق تعقبها قصفة نيران من مدفعية الفرقة ٢٣ مشاة ميكانيكية من الساعة السادسة والثلث إلى الساعة السادسة والنصف عند وصول وحدات اللواء إلى خط الدفع للاشتباك.

ونظراً لتكاثف الضباب في الوقت المحدد لبدء الهجوم، اضطر قائد الجيش الثاني إلى إصدار أمره بتأخير ساعة س (ساعة بدء الهجوم) لتكون الساعة السابعة بدلا من الساعة السادسة والنصف صباحا، حتى يتمكن الطيران من التمهيد للهجوم حسب الخطة الموضوعة. واتصل اللواء محمد عبد الغني الجمسي رئيس هيئة العمليات في المركز ١٠ باللواء عبد المنعم خليل قائد الجيش الثاني قبل ساعة س وأبلغه أن الطيران جاهز لتوجيه ضربته، ولكن الضباب يمنع خروجه، ولذا ينبغي أن تبدأ المدفعية في قصف نيرانها قبل الهجوم على أن يخرج الطيران عند انقشاع الضباب. وفي الساعة السابعة صباحا وبعد تمهيد نيراني بالمدفعية لمدة ١٠ دقائق، عبرت وحدات اللواء ٢٣ المدرع (عدا كتيبة) خط الدفع للاشتباك في نسق واحد كان يتكون من كتيبة دبابات في اليمين وكتيبة دبابات (عدا سرية) في المنتصف وكتيبة المشاة الميكانيكية في اليسار، وتشكل الاحتياطي من سرية دبابات من كتيبة الدبابات في المنتصف. ومما تجدر ملاحظته أن اللواء المدرع علاوة على سحب كتيبة دبابات منه يوم ١٧ أكتوبر قد سحبت منه أيضا كتيبة مدفعيته، وبذا تم هجومه بدون معاونتها.

وقد مر تشكيل قتال اللواء ٢٣ المدرع قبل وصوله إلى خط الدفع للاشتباك من خلال المواقع الدفاعية للواء ١١٦ مشاة ميكانيكي الذي كان يحتل موقعا رئيسيا غرب منطقة تقاطع طريق المعاهدة مع وصلة أبو سلطان بكتيبة مشاة ميكانيكية مدعمة (عدا سرية) وفصيلة دبابات. وفي نفس هذه المنطقة كان يقع مركز القيادة المتقدم للواء ١١٦ مشاة، وإلى الغرب منه بقليل اختار العميد أ.ح أحمد عبود الزمر موقع القيادة المتقدم للفرقة ٢٣ مشاة ميكانيكية بعد نقله يوم ١٧ أكتوبر من مكانه الأصلي شمال ترعة الإسماعيلية إلى الموقع الجديد، على أثر إسناد القيادة العامة إليه مهمة تصفية ثغرة الاختراق غرب القناة، ووضع جميع القوات جنوب ترعة الإسماعيلية تحت قيادته. وعلى مسافة ٧ كم شمال تقاطع طريقي المعاهدة ـ أبوسلطان كان يقع تقاطع طريق المعاهدة مع وصلة سرابيوم، وكان اللواء ١١٦ مشاة ميكانيكي يحتل موقعا دفاعيا بسرية مشاة ميكانيكية وفصيلة دبابات غرب التقاطع لحماية الجانب الأيسر للواء٢٣ المدرع في أثناء قيامه بهجومه المضاد على منطقة الدفرسوار.



معركة اللواء ٢٣ المدرع يوم ١٨ أكتوبر ١٩٧٣.

وفي الوقت الذي كان فيه اللواء ٢٣ المدرع قد أتم الفتح في تشكيل القتال استعدادا لبدء الهجوم المضاد، كان الجنرال إبراهام أدان (برن) بعد أن تم له عبور قناة السويس بفرقته المدرعة في الساعة الرابعة صباحا، قد تقدم في أول ضوء يوم ١٨ أكتوبر بلواءيه المدرعين بقيادة العقيدين نيتكا وجابي من منطقة الإبرار بالدفرسوار فى اتجاه الغرب حتى وصل إلى شاطئ الترعة الحلوة الموازية لقناة السويس (ترعة السويس). وعندما حاولت بعض المفارز من الدبابات الإسرائيلية التقدم عبر الترعة الحلوة غربا للقيام بالاستطلاع تعرضت لقذائف صاروخية مضادة للدبابات من بعض الكمائن المصرية المختبئة في الأشجار والمزروعات، فأمر الجنرال أدان سحب المفارز الإسرائيلية المتقدمة، وأن تقوم المدفعية الإسرائيلية بقصفة نيران مركزة على المواقع المصرية التي على مواجهته استعدادا لشن هجومه باللواءين المدرعين الذين قاما بالفتح فى تشكيل القتال: لواء نيتكا في اليمين ولواء جابي في اليسار.

وانهمرت نيران المدفعية الإسرائيلية التي اشتركت فى قصفها بطاريات من عيار ١٥٥م و١٧٥م بعيدة المدى من مواقعها على الضفة الشرقية للقناة، على تشكيل قتال اللواء ٢٣ المدرع ومواقع اللواء ١١٦ مشاة ميكانيكي ومراكز القيادات المتقدمة ونقط ملاحظة المدفعية المصرية، مما سبب لها جميعا أضرارا جسيمة. وفي أثناء قصف المدفعية الإسرائيلية، قامت الطائرات الإسرائيلية بهجمات عنيفة على الوحدات الفرعية للواء ٢٣ المدرع مما أربك تشكيل قتال اللواء، وجعل قائد الجيش الثاني يطلب من هيئة العمليات بالمركز ١٠ خروج طلعة طيران لتوفير الحماية الجوية للواء المصري المدرع.

وفي أثناء تقدم تشكيل قتال اللواء ٢٣ المدرع شرق طريق المعاهدة، كانت عناصر من اللواء المدرع الإسرائيلي بقيادة العقيد جابي قد اتخذت من بعض النقط التي احتلتها غرب ترعة السويس مواقع حصينة ومخفاة بعناية للستائر المضادة للدبابات التي كانت تتكون من الصواريخ المضادة للدبابات الموجهة من طراز SS11,TOW و من الدبابات التي استترت داخل المرابض للضرب من وضع Hull down position.

ونظرا لأن المنطقة شرق طريق المعاهدة كانت خالية تماما من أي سواتر أو أماكن تصلح للاختفاء، ونظرا للقصور الواضح في أعمال الاستطلاع على كل المستويات، مما جعل اللواء ٢٣ المدرع يقوم بهجومه المضاد دون أن تكون لديه أي معلومات صحيحة عن العدو، فقد فوجئت وحدات اللواء ٢٣ المدرع الفرعية فور دخولها أرض القتال بسيل منهمر من نيران مدافع الدبابات والمقذوفات الصاروخية الموجهة من الستائر الإسرائيلية

المضادة للدبابات من المواجهة وعلى الأجناب. ولم يتمكن احتياطي اللواء من التدخل في المعركة بسبب تشكيله الضعيف. وقد حاولت وحدات مدفعية الجيش الثاني إنقاذ الموقف بضرب ستارة من الدخان أمام تشكيل قتال اللواء، وبقصف غلالات من نيرانها على مواقع العدو، ولكن ذلك كله لم يستطع تغيير مجرى المعركة.

وفي التقرير الذي بعث به قائد الجيش الثاني إلى القيادة العامة المركز ١٠ ضمن إشارة لاسلكية في الساعة الرابعة والنصف مساء يوم ١٨ أكتوبر، سجل اللواء عبد المنعم خليل أن اللواء ٢٣ المدرع بقيادة العقيد أ. ح حسن عبد الحميد قد قاتل بشجاعة ودمر للعدو عدداً كبيراً من الدبابات، وأن قائد اللواء أصيب في المعركة. وذكر في نهاية تقريره أن اللواء المدرع لم يبق منه سوى حوالي ٨ دبابات، وقد انضمت بعد انتهاء المعركة إلى القوة التي تحت قيادة العميد أ. ح أحمد عبود الزمر عند تقاطع طريقي المعاهدة ـ أبو سلطان، وأن مجموعة خاصة من رئاسة الفرقة ٢٣ مشاة ميكانيكية تقوم بإعادة الدبابات التي شردت غربا من اللواء ٢٣ المدرع لتجميعها في منطقة التقاطع التي يقع فيها مركز القيادة المتقدم للعميد الزمر.

وكان اللواء الإسرائيلي المدرع بقيادة العقيد نيتكا الذي يقع في اليمين من تشكيل قتال فرقة الجنرال أدان قد تقدم في اتجاه الغرب بعد تحضيرات المدفعية في الصباح على وصلة سرابيوم. وعند اكتشافه للموقع الدفاعي المصري الضعيف القوة والتحصين غرب تقاطع طريق المعاهدة مع وصلة سرابيوم (الموقع الثانوي للواء ١١٦ مشاة ميكانيكي)، قامت الدبابات الإسرائيلية باقتحام الموقع وشتتت شمل سرية المشاة الميكانيكية المدعمة التي كانت تحتله. (كان الإسرائيليون يطلقون على التل الموجود قرب التقاطع الاسم الكودي Arel). واتجه العقيد نيتكا بعد ذلك بدباباته جنوبا على محور طرق المعاهدة، وعندما اقترب من منطقة تقاطع طريقي المعاهدة ـ أبو سلطان حيث يقع الموقع الدفاعي الرئيسي الذي كانت تحتله كتيبة مشاة ميكانيكية مدعمة (عدا سرية) من اللواء ١١٦ مشاة ميكانيكي (كان الإسرائيليون يطلقون على نقطة المثلثات الموجودة شمال غرب التقاطع الاسم الكودي Tsach)، وقعت دباباته تحت نيران قوية مركزة، فانحرفت في اتجاه الغرب متجنبا الهجوم على الموقع المصري. وأصبح اللواء ١١٦ مشاة بعد ظهر يوم ١٨ أكتوبر مكونا من الناحية التنظيمية من كتيبة مشاة ميكانيكية واحدة (عدا سرية)، وكانت تحتل الموقع الدفاعي غرب منطقة التقاطع وبجوارها مركز القيادة المتقدم للواء ١١٦ مشاة ميكانيكي، وكذا مركز القيادة المتقدم للفرقة ٢٣ مشاة ميكانيكية الذي كان يوجد بداخله

العميد أ.ح أحمد عبود الزمر قائد الفرقة. وعلاوة على ذلك كان يوجد بمنطقة التقاطع ما أمكن تجميعه من بقايا دبابات اللواء ٢٣ المدرع الذي فقد بعد انتهاء المعركة ظهر يوم ١٨ أكتوبر مقدرته القتالية، وفقد بذلك الاحتياطي الإستراتيجي للقيادة العامة (الفرقة ٣ مشاة ميكانيكية) العنصر المدرع داخل تشكيل الفرقة.

عمليات اللواء ١٨٢ مظلات

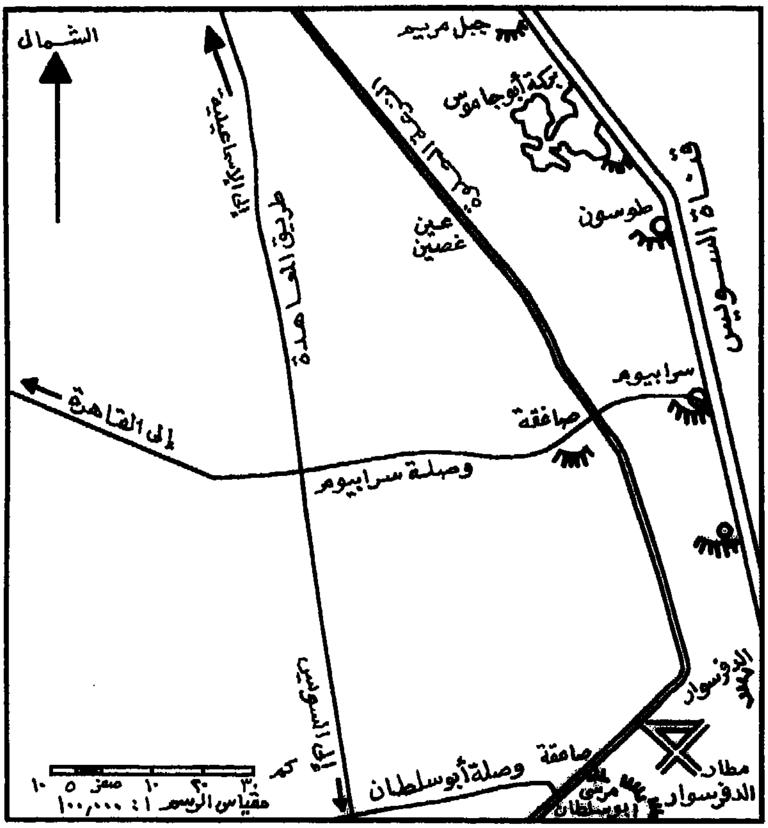
عند منتصف ليلة ١٧/ ١٨ أكتوبر وصل العقيد إسماعيل عزمي قائد اللواء ١٨٢ مظلات على رأس الكتيبتين ٨١و٨٩ مظلات إلى نفيشة. وفي الدقيقة ١٥ من صباح يوم ١٨ أكتوبر أرسل اللواء عبد المنعم خليل قائد الجيش الثاني رسالة لاسلكية مطولة إلى العقيد إسماعيل عزمي شرح له فيها أوضاع العدو شرق القناة وغربها وأوضاع قواتنا، كما حدد له فيها المهام التي أسندت إلى اللواء ١٨٢ مظلات، وكان أهم ما تضمنته هذه الرسالة بالنسبة للوضع في غرب القناة ما يلي:

العدو: تمكن العدو من الاختراق واحتل النقطة القوية بالدفرسوار وله عناصر في النقطة القوية بالضخ (النقط القوية كانت عبارة عن المصاطب المصرية الممتدة على الساتر الترابي المحاذي للقناة) ـ من المحتمل تقدم العدو شمالا على طريق القناة بغرض احتلال المصاطب السابقة لقواتنا للضرب على قواتنا في الشرق، وكذا التحرك شمالا على الطريق الموازي للترعة الحلوة في اتجاه سرابيوم وعين غصين. أو التحرك جنوبا في اتجاه معسكر قادش ومنطقة أبو سلطان.

قواتنا: في منطقة الدفرسوار غير معروف أماكن قواتنا بالضبط، ولكن قد تكون شمال غرب مطار الدفرسوار الكتيبة ٨٥ مظلات (عدا سرية). قواتنا في منطقة تقاطع طريقي المعاهدة ـ أبو سلطان: قيادة ووحدات اللواء ١١٦ مشاة مكانيكي ومعها قيادة متقدمة من الفرقة ٢٣ مشاة ميكانيكية بقيادة العميد الزمر. في تقاطع طريقي المعاهدة ـ سرابيوم كتيبة دبابات من اللواء ٢٣ المدرع.

مهمة لواء المظلات:

١ ـ تأمين المصاطب على الضفة الغربية للقناة من الشمال إلى الجنوب (جبل مريم ـ



عمليات اللواء ١٨٢ مظلات والمجموعة ١٢٩ صاعقة.

حنيدق ـ طوسون ـ سرابيوم ـ الضخ ـ الدفرسوار) ومنع العدو من احتلالها ومعاونة قواتنا في الضفة الشرقية للقناة.

٢ ـ منع العدو من توسيع اختراقه في منطقة الدفرسوار وتطهير هذه المنطقة من قوات العدو.

٣ ـ الاستعداد لتكوين مجموعات اقتناص دبابات لتدمير العدو فى رأس الكوبري.

٤ ـ تأمين المعابر الموجودة في سرابيوم، ومنع العدو من الوصول إليها وصده وتدميره.

٥ ـ السيطرة على المنطقة ما بين جنوب الإسماعيلية إلى منطقة مطار الدفرسوار شرقًا حتى الطريق الموازي للترعة الحلوة غربًا والتركيز على التقاطعات والمدقات والهيئات الحاكمة والمخاضات.

توزيع المهام على القوات:

الكتيبة ٨٩ مظلات: في اليسار تتحرك من نفيشة إلى طريق القناة في مجموعات سرايا. الكتيبة (عدا سرية) تحتل مصاطب: جبل مريم ـ حنيدق ـ طوسون ـ سرابيوم ـ الضخ وتضرب من مصطبة الضخ على مصطبة الدفرسوار حتى يتم تطهيرها واحتلالها. السرية المتبقية من الكتبة تحتل المصاطب فى منطقة سرابيوم مع تأمين الكوبري البيلي بها، ويراعى دفع عناصر استطلاع قبل العملية لاستطلاع المنطقة.

الكتيبة ٨١ مظلات: في اليمين تتحرك من نفيشة جنوبا إلى عين غصين على الترعة الحلوة وتبقى للعمل كاحتياط لمعاونة الكتيبة ٨٩ مظلات للقضاء على العدو في حالة حدوث أي تعطيل. وعقب الانتهاء من تطهير المنطقة تحتل بسرية مشاة حنيدق، وبسرية ثانية جبل مريم، بينما تؤمن بالسرية الثالثة طريق عين غصين. وبعد إتمام تطهير الدفرسوار يتخذ لواء المظلات أوضاعه للدفاع عن المنطقة مع تخصيص قوة منه في الاحتياط.

وفى صباح يوم ١٨ أكتوبر، كان لواء المظلات قد تمكن من تنفيذ معظم المهام التي أوكلت إليه فى الساعات الأولى للصباح. فقد احتلت الكتيبة ٨٩ مظلات جميع المصاطب على الشاطئ الغربي من جبل مريم شمالا حتى مصطبة الضخ جنوبا، وأصبح في إمكان العناصر التي احتلت مصطبة الضخ رؤية جسر المعديات البونتون الإسرائيلي الذي أقامه العدو عبر القناة عند الدفرسوار في اليوم السابق، مما أدى إلى تصحيح النيران

التي كانت تطلقها المدفعية على مكان الجسر. ومنذ ذلك التوقيت أخذت مدفعية الجيش الثاني تصب على الجسر نيرانها في أحكام ودون هوادة طوال الليل وكذا نهار اليوم التالي. وعندما تنبه العدو إلى دقة تصويب نيران المدفعية نتيجةلاحتلال المصريين مصطبة الضخ قام بهجوم مضاد بدباباته واحتل المصطبة. ونتيجة لتفتيت قوة الكتيبة ٨٩ مظلات وتوزيع أفرادها على كل المصاطب من جبل مريم شمالا حتى مصطبة الضخ جنوبا «٥ مصاطب»، فقد فشل الهجوم المضاد الذ ي شنته القوات المتبقية على مصطبة الضخ بغرض استعادتها من العدو ثلاث مرات متوالية نظراً لضعف تلك القوة القائمة بالهجوم، وكان الأفضل توزيع قوات صغيرة على المصاطب الشمالية البعيدة عن العدو والاحتفاظ بالقوة الرئيسية للكتيبة للاستيلاء على مصطبتي الضخ والدفرسوار بالنسبة لقربهما من منطقة الإبرار وأهميتها القصوى بالنسبة للعدو وقواتنا.

أما الكتيبة ٨١ مظلات، فقد تحركت من نفيشة إلى عين غصين وتقدمت جنوبا على الطريق الموازي للترعة الحلوة وتوقفت فور وصولها إلى سرابيوم حيث قامت بعملية تأمين المعابر والكوبري البيلي التي أسندت إليها، وكان الأفضل استمرارها في التقدم جنوبا حتى خط الضخ لحماية الجنب الأيمن للكتيبة ٨٩ مظلات ولمعاونتها بجزء من قوتها في استعادة مصطبة الضخ على الشاطئ الغربي للقناة.

عمليات المجموعة ١٢٩ صاعقة: كانت أوضاع الكتيبة ٧٣ صاعقة بعد معاركها مع العدوفي منطقتي مطار الدفرسوار ومعسكرات أبو سلطان يوم ١٧ أكتوبر كما يلي:

- سرية صاعقة ـ متمركزة فى سرابيوم بعد أن أصدر لها العقيد أ.ح علي هيكل قائد المجموعة أمره بالانسحاب من شمال مطار الدفرسوار إلى سرابيوم حيث احتلت موقعا دفاعيا تم تدعيمه بفصيلة صاعقة مرة أخرى أرسلها قائد المجموعة.

وقد اشتبكت سرية الصاعقة والفصيلة الموجودتان في سرابيوم يوم ١٨ أكتوبر فى قتال مرير مع كتيبة مظلات إسرائيلية من لواء مظلات العقيد داني مات كانت تتقدم شمالا على الطريق الموازي للترعة الحلوة في اتجاه سرابيوم. وقد أورد الجنرال حاييم هيرزوج فى الصفحتين ٢٣٩و ٢٤٠ من كتابه حرب التكفير طبعة لندن الإنجليزية عام ١٩٧٥ وصفا دقيقا لهذه المعركة نوجزه فيما يلي:

«لقد بدأ الهجوم على الضفة الغربية يتطور الآن إلى مرحلة جادة، فإن المظليين التابعين لداني مات الذين أسسوا رأس الكوبري، ولم يواجهوا منذ البداية أي تحديات، قاموا الآن

بصد عدة هجمات مضادة شنها رجال الصاعقة المصريون الذين دخلوا المعركة. وفي يوم ١٨ أكتوبر تحركت كتيبة مظلات بقيادة المقدم دان شمالا ما بين الترعة الحلوة وخط السكة الحديد في اتجاه سرابيوم على الطريق المؤدي إلى الإسماعيلية. ومرت القوة بموقع مصري حصين، ولم تلبث أن وجدت نفسها في ظروف صعبة للغاية، فقد انعزل قائد الكتيبة مع ١٣ فردا عن القوة الرئيسية التي كان يقودها قائد ثاني الكتيبة. وتحت ستار الحشائش الكثيفة في تلك المنطقة اقترب منه عشرات من المصريين من ثلاثة اتجاهات حتى مسافة من ٥ إلى ١٠ أمتار. جمع أفراد القوة الإسرائيلية أنفسهم في بيت ذي طابق واحد، وعلى بعد خمسة أمتار تجمع المصريون في بيت من طابقين وأخذوا يطلقون عليهم من أعلى وابلا من النيران والقنابل اليدوية وقذائف البازوكا مهددين القوة بأكملها بالإبادة.

ولأربع ساعات ظلت المعركة مستمرة، وكان النقيب كادموني (الذي أصبح بعد الحرب أحد أعضاء المعارضة البارزين) يقف وحده في ركن في الجانب الشمالي من البيت، وقد تمكن من إيقاف المصريين المتقدمين نحوه بواسطة النيران والقنابل اليدوية. ووصلت شاحنتان مليئتان بالجنود إلى المنطقة وتحركتا إلى الركن الذي كان يقف فيه، ولكن قبل أن يتسنى إنزال الجنود منهما استطاع أن يدمرهما بسلاحه المضاد للدبابات. وجلب المصريون بعد ذلك بعض المدافع والأسلحة المضادة للدبابات، وأطلقوا نيرانا مؤثرة على القوة الإسرائيلية من مسافة حوالي ١٠٠ متر. ولكن النجدة كانت في الطريق ودخلت المعركة قوتا إنقاذ (واحدة تحت قيادة قائد ثاني اللواء، وكان أفرادها يتحركون على خط السكة الحديدية، والثانية كان أفرادها يتحركون من اتجاه قناة السويس تحت قيادة المقدم زفي). وبعد قتال مرير وسط الحشائش الكثيفة وحدائق المانجو استطاعت قوة الإنقاذ الالتحام بالقوة المحاصرة التي كانت معزولة طوال اليوم، وبلغت الخسائر الإسرائيلية ١١ قتيلا و٢٧ جريحا. وعندما حل الظلام انسحبت الوحدة بأكملها». انتهى وصف هيرزوج.

- سرية صاعقة ـ كانت متشبثة بمواقعها بجوار معسكرات أبو سلطان. ورغم التعليمات الصادرة من العقيد أ. ح علي هيكل قائد المجموعة بالانسحاب إلى معسكرات أبو سلطان فقد عجزت السرية عن التنفيذ نظرا لكثافة نيران العدو، مما دعا قائد المجموعة إلى أن يطلب من مدفعية الجيش الثاني قصف المنطقة التي يحتلها العدو في أبو سلطان بأكملها بالنيران بما فيها سرية الصاعقة المصرية.

وفي صباح يوم ١٨ أكتوبر، نشب قتال متلاحم شديد الشراسة بين المظليين الإسرائيلين ورجال الصاعقة المصريين، استشهد خلاله رئيس استطلاع المجموعة وأصيب رئيس أركانها بإصابات جسيمة، وتكبد العدو كذلك خسائر كبيرة.

وفي ليلة ١٨/ ١٩ أكتوبر وتحت ستر الظلام، انسحب ما تبقى من قوات الصاعقة في سرابيوم وأبو سلطان بأوامر قائد المجموعة إلى منطقة تمركز المجموعة في أبو صوير لإعادة التجميع. وبلغت خسائر الصاعقة في هذه المعارك ١١ ضابطا و٧٤ من الرتب الأخرى ما بين شهيد وجريح. والدرس الذي يمكن الاستفادة به من هذه المعركة هو أن الأسلوب الصحيح لاستخدام الصاعقة هو أسلوب الإغارة وعمل الكمائن دون التمسك بالأرض لمدة طويلة حيث إن تسليح وحدات الصاعقة لا يتلاءم مع التمسك بالمواقع الدفاعية والاحتفاظ بالأرض.

أوضاع القوات المصرية جنوب ترعة الإسماعيلية

نتيجة للمعارك العنيفة التي دارت رحاها بين قوات الجيش الثاني الميداني وبين قوات الجنرال إبراهام أدان (برن) صباح يوم ١٨ أكتوبر غرب القناة في القطاع جنوب ترعة الإسماعيلية، بدأ الموقف على الجبهة المصرية يتدهور بصورة خطيرة وبسرعة مذهلة، فقد تلقت القوات التي قامت بالهجوم المضاد على قوات العدو فى الدفرسوار ضربات شديدة مما أفقد معظمها مقدرته القتالية، ووصل الأمر إلى حد أن الجيش الثاني لم يعد لديه بعد ظهر يوم ١٨ أكتوبر أي قوة مدرعة غرب القناة جنوب ترعة الإسماعيلية.

ولتدارك الموقف الخطير، أصدرت القيادة العامة تعليماتها إلى اللواء عبد المنعم واصل قائد الجيش الثالث بتكليف العميد أ.ح محمد عبد العزيز قابيل قائد الفرقة ٤ المدرعة والذي كانت فرقته منذ بدء العمليات الحربية في ٦ أكتوبر ٧٣ مسئولة عن تأمين النطاق التعبوي للجيش الثالث بالتوجه إلى منطقة عثمان أحمد عثمان، إذ إنه قد أصبح مسئولا أمام القيادة العامة عن تأمين النطاق التعبوي للجيشين الثاني والثالث معًا (كانت المواجهة حوالي ٧٠ كم). وعندما طلب قائد الفرقة الرابعة بعض الاستيضاحات عن مهمته من قائد الجيش الثالث، طلب منه الاتصال رأسا بالقائد العام. ولا شك في أن تكليف قائد الفرقة ٤ المدرعة بالتوجه إلى تقاطع عثمان أحمد عثمان بدون أن تعطى له أي معلومات أو

إيضاحات أو توجيهات محددة عن طبيعة المهمة الجديدة التي أسندت إليه ، أو عن الوسيلة التي يمكنه بها تنفيذها على هذه المواجهة الواسعة ، رغم أنه لم يكن متيسرا في يده وقتئذ سوى لواء مدرع واحد فقط ، هو دليل واضح على مدى الارتباك الذي كان موجودا داخل المركز ١٠ في هذه الفترة .

وكان موقف القوات التي اشتركت في الهجمات المضادة ضد العدو في منطقة الدفرسوار غرب القناة جنوب ترعة الإسماعيلية في الفترة من ١٦ إلى ١٨ أكتوبر كما يلي :

الفرقة ٢٣ مشاة ميكانيكية: الاحتياطي التعبوي للجيش الثاني بقيادة العميد أ . ح أحمد عبود الزمر أصبحت قواتها جنوب ترعة الإسماعيلية عبارة عن كتيبة مشاة ميكانيكية واحدة (عدا سرية) ، وهي من تشكيل اللواء ١١٦ مشاة ميكانيكي بعد أن تمكن العدو من تدمير كتيبتي مشاة ميكانيكيتين من كتائبه . وكانت الكتيبة الباقية تحتل موقعا دفاعيا غرب منطقة تقاطع طريق المعاهدة مع وصلة أبو سلطان وبجوارها مركز القيادة المتقدم للواء ١١٦ مشاة ميكانيكي وكذا مركز القيادة المتقدم للفرقة ٢٣ مشاة ميكانيكية .

اللواء ٢٣ المدرع: القوة المدرعة الوحيدة في تشكيل الفرقة ٣ مشاة ميكانيكية (الاحتياطي الإستراتيجي للقيادة العامة) . وبناء على تعليمات المركز ١٠ دفع اللواء المدرع من القاهرة حيث تمركز في تقاطع عثمان أحمد عثمان حوالي الساعة التاسعة مساء يوم ١٦ أكتوبر ، وقد تم تكليف كتيبة مدرعة من اللواء بالانتقال إلى تقاطع طريق المعاهدة مع وصلة سرابيوم وبالتعاون مع الكتيبة ٨٥ مظلات تقوم الكتيبة المدرعة بالهجوم المضاد في الساعة الرابعة مساء يوم ١٧ أكتوبر على قوات العدو في منطقة الدفرسوار . وقد وقعت الكتيبة المدرعة في أثناء تقدمها في كمين إسرائيلي ، وانتهت المعركة بتدميرها . وفي صباح يوم ١٨ أكتوبر قام اللواء ٢٣ المدرع (عدا كتيبة) بالهجوم المضاد الرئيسي على قوات العدو في منطقة الدفرسوار ، ولكن الهجوم فشل بعد اصطدام وحدات اللواء بالستائر الإسرائيلية المضادة للدبابات ، وخسر اللواء معظم دباباته . وقد صدر الأمر بإعادة تجميع اللواء ٢٣ المدرع لاستعادة كفاءته القتالية في المنطقة غرب تقاطع طريق الإسماعيلية الصحراوي مع وصلة أبو صوير .

اللواء ١٨٢ مظلات: الكتيبة ٨٥ مظلات ـ كانت مهمتها أن تقوم إحدى سراياها يوم ١٧

أكتوبر بالاستيلاء على مرسى أبو سلطان وتأمينه، بينما تقوم باقي الكتيبة بالتعاون مع كتيبة مدرعة من اللواء ٢٣ المدرع بالهجوم المضاد من تقاطع طريقي المعاهدة ـ سرابيوم على قوات العدو في مطار الدفرسوار لتدميرها والاستيلاء على المطار وتأمينه واستعادة النقط القوية التي استولى عليها العدو. ورغم نجاح سرية من الكتيبة فى دخول مطار الدفرسوار، فإن الكتيبة إزاء شدة ضغط العدو اضطرت إلى الارتداد ـ بعد أن بلغت خسائرها ١١٠ أفراد ما بين شهيد ومفقود ـ إلى تقاطع طريق المعاهدة مع وصلة أبو سلطان فجر يوم ١٨ أكتوبر. وفي الساعة السادسة مساء يوم ١٨ أكتوبر تم انتقال الكتيبة إلى معسكر أنشاص لاستعادة كفاءتها القتالية.

الكتيبة ٨٩ مظلات: نجحت في تحقيق المهمة التي كلفت بها، وهي احتلال المصاطب المصرية غرب القناة لكنها فشلت في الاحتفاظ بمصطبة الضخ رغم قيامها بالهجوم المضاد لاستعادتها ثلاث مرات، كما لم تتمكن من الاقتراب من مصطبة الدفرسوار التي كان العدو يحتلها منذ قيامه بالعبور ليلة ١٥/ ١٦ أكتوبر، وكانت سرية من الكتيبة تقوم بتأمين الكوبري البيلي في سرابيوم.

الكتيبة ٨١ مظلات: متمركزة في سرابيوم جنوب محطة سكة الحديد بعد أن قامت بتأمين الطريق للترعة من عين غصين إلى سرابيوم.

المجموعة ١٢٩ صاعقة: اشتبكت سريتان منها مع كتيبة مظلات إسرائيلية عند سرابيوم على طريق الإسماعيلية يوم ١٨ أكتوبر، واضطرت الكتيبة الإسرائيلية إلى الانسحاب تحت ستر الظلام بعد أن تكبدت خسائر فادحة. أما الكتيبة ٧٣ صاعقة (عدا سرية) التي كانت متمسكة بمواقعها في المنطقة شرق معسكر أبو سلطان فقد اضطرت إلى الانسحاب تحت ضغط العدو.

وصدرت التعليمات من قائد المجموعة بانسحاب وحداته إلى أبو صوير لاستعادة كفاءتها القتالية.

كان هذا هو الموقف العام لقوات الجيش الثاني غرب القناة جنوب ترعة الإسماعيلية عندما وصل الفريق سعد الشاذلي رئيس الأركان إلى مركز القيادة المتقدم للجيش الثاني بالإسماعيلية في الساعة الخامسة مساء يوم ١٨ أكتوبر. وقد ذكر الفريق الشاذلي في مذكراته أن الرئيس الراحل السادات وصل حوالي الساعة الثانية ظهراً يوم ١٨ أكتوبر إلى المركز ١٠ بالقاهرة، واستمع إلى تقرير عن الموقف من الفريق أول أحمد إسماعيل القائد

العام. وبعد ذلك طلب من الفريق الشاذلي أن يتحرك إلى الجيش الثاني لكي يعمل على رفع الروح المعنوية بين أفراده، وأن يبذل ما يستطيع لمنع تدهور الموقف. وبعد وصول الفريق الشاذلي بقليل استمع إلى قرار اللواء عبد المنعم خليل وكان يتلخص فيما يلي:

١ ـ يسحب اللواء ١٥ المدرع من الضفة الشرقية إلى الضفة الغربية (كان تحت قيادة الفرقة ١٨ مشاة في قطاع القنطرة شرق)، ويتمركز في المنطقة شمال ترعة الإسماعيلية ويعمل كاحتياطي للجيش الثاني.

٢ ـ يقوم اللواء ١٨٢ مظلات بالدفاع النشط على الضفة الغربية جنوب ترعة الإسماعيلية، ويقوم أيضًا بتأمين مؤخرة الفرقتين ٢١ المدرعة و١٦ مشاة في مواقعهما بالضفة الشرقية.

٣ ـ تقوم الفرقتان ٢١ المدرعة و١٦ المشاة بالضغط جنوبا في محاولة لإعادة إغلاق الطريق الإسرائيلي المؤدي إلى الدفرسوار (طريق طرطور).

٤ ـ تتمسك الفرقتان ٢ مشاة و ١٨ مشاة بمواقعها شرق القناة.

٥ ـ تقوم مدفعية الجيش الثاني بتركيز نيرانها على منطقة الدفرسوار.

٦ ـ تقوم وحدات الصاعقة بأعمال الإغارة على قوات العدو المتمركزة في منطقة الدفرسوار.

وكان أشد ما أثار القلق في قيادة الجيش الثاني تلك البلاغات المتوالية التي أخذت تتلقاها منذ صباح ١٨ أكتوبر عن تسرب أعداد كبيرة من الدبابات الإسرائيلية في عمق الدفاعات المصرية غرب القناة، وقيامها بمهاجمة المواقع الخلفية والوحدات الإدارية وقواعد الصواريخ أرض جو (سام).

وقد اتضحت خلال هذه المرحلة خطورة عدم نشر المعلومات الحقيقية عن العدو على الوحدات والوحدات الفرعية، فقد ثبت أن كثيرا من الوحدات غرب القناة لم يكن لديها علم عن اختراق العدو وعبور قواته إلى الضفة الغربية للقناة. لقد كانت الوحدات الإدارية ووحدات الدفاع الجوي ومراكز القيادات تفاجأ بظهور دبابات تطلق النار عليها دون أن تدري هويتها، وفي الوقت الذي تكتشف فيه حقيقتها تكون هذه الوحدات قد تم تدميرها أو أسرها. وقد تعرضت كذلك بعض الأرتال والمركبات الفردية التي تتحرك على

الطرق وبعض الأفراد لحوادث أليمة عندما كانت تظهر أمامهم فجأة وبدون أي توقع قوات إسرائيلية تقوم بإطلاق نيرانها عليهم، مما أدى إلى مصرع وأسر المئات من الأفراد وتدمير عدد كبير من المركبات.

ومما زاد الموقف سوءًا الضعف الواضح في وسائل الدفاع المضاد للدبابات. فقد تم قبل بدء القتال سحب وحدات الصواريخ المضادة للدبابات (المالوتكا) من التشكيلات التي لن تقوم بالعبور لتدعيم التشكيلات المكلفة به ولذلك كانت هناك كتيبتا مالوتكا شرق القناة، واحدة منهما تخص الفرقة ٢٣ مشاة ميكانيكية والأخرى تخص اللواء ١٨٢ مظلات. وكان من المفترض بعد إتمام العبور واستكمال إقامة رءوس كباري الفرقة شرق القناة أن تعود الكتيبتان إلى وحدتيهما في غرب القناة، ولكن ذلك الأمر لم يحدث وبقيت الكتيبتان شرق القناة. وقد ذكر الفريق الشاذلي في مذكراته أنه من أجل تقوية الدفاع المضاد للدبابات غرب القناة، اتفق سرا مع اللواء سعيد الماحي قائد المدفعية على سحب هاتين الكتيبتين دون علم الرئيس الراحل السادات والفريق أول أحمد إسماعيل حيث كانا يعارضان في سحب أي سلاح من الشرق. ورغم معارضة بعض قادة فرق المشاة التي دعمت بهذه الصواريخ، فقد أصر الفريق الشاذلي على سحبها، وتم بالفعل سحب الجزء الأكبر منها يوم ١٨ أكتوبر.

عبور ثلاث فرق مدرعة إسرائيلية إلى غرب القناة

في خلال ليلة ١٧/ ١٨ أكتوبر عبر الجنرال إبراهام أدان (برن) قائد مجموعة العمليات رقم ١٦٢ قناة السويس على رأس لواءين مدرعين بقيادة العقيدين نيتكا وجابي. وكان الجنرال جونين قائد القيادة الجنوبية الإسرائيلية قد أمر بسحب اللواء المدرع بقيادة العقيد آرييه من تشكيل مجموعة عمليات الجنرال أدان ليكون احتياطيا عاما للقيادة الجنوبية. وفي مساء يوم ١٨ أكتوبر وعقب العمليات الحربية التي قام بها الجنرال أدان على الضفة الغربية للقناة، وفي تقرير الموقف الذي بعث به إلى الجنرال جونين لاسلكيا طالبه بإعادة لواء آرييه تحت قيادته ليتسنى له القيام باختراق ناجح نحو الجنوب في اليوم التالي، ووافق جونين على هذا الطلب. وفي فجر يوم ١٩ أكتوبر أكمل لواء آرييه عبوره إلى الغرب وأصبح تشكيل الجنرال أدان يضم ألويته المدرعة الثلاثة.

وفي يوم ١٨ أكتوبر كانت مجموعة عمليات الجنرال شارون رقم ١٤٣ غرب القناة تتكون من لواء مشاة مظلات بقيادة العقيد داني مات ولواء مدرع بقيادة العقيد حاييم، وفي يوم ١٩ أكتوبر صدر الأمر إلى العقيد آمنون بالعبور إلى الغرب بلوائه المدرع، وكان هذا اللواء يقوم بعملياته في الضفة الشرقية ضد وحدات الفرقتين ١٦ مشاة و٢١ المدرعة لتوسيع ثغرة الاختراق شمالا. وقد ترك العقيد آمنون كتيبة مدرعة من لوائه على الضفة الشرقية لمعاونة القوات التي كانت قائمة بمهاجمة الجنب الأيمن لرأس كوبري الفرقة ١٦ مشاة.

وبعبور لواء آمنون إلى الضفة الغربية استكمل الجنرال شارون يوم ١٩ أكتوبر مجموعة عملياته التي أصبحت تتكون من لواءين مدرعين ولواء مشاة مظلات. وفي ليلة ١٨/ ١٩ أكتوبر عبر الجنرال كلمان ماجن قائد مجموعة العمليات رقم٢٥٢ قناة السويس، وكانت المجموعة تتكون من لواءين مدرعين بقيادة العقيدين دان شمرون وباروم ولواء مشاة ميكانيكي بقيادة العقيد بنتشاس.

وبإتمام عبور مجموعات العمليات الثلاث، أصبح لإسرائيل غرب القناة يوم ١٩ أكتوبر سبعة ألوية مدرعة ولواء مشاة مظلات ولواء مشاة ميكانيكي. وكانت مجموعة عمليات شارون تضغط في اتجاه مؤخرة الجيش الثاني جنوب ترعة الإسماعيلية، بينما تضغط مجموعتا عمليات أدان وماجن في اتجاه مؤخرة الجيش الثالث.

موقف الجيش الثاني غرب القناة

١ ـ شمال ترعة الإسماعيلية ـ كان يوجد اللواء ١٠ مشاة ميكانيكي (من الفرقة ٣ مشاة ميكانيكية الاحتياطي الإستراتيجي للقيادة العامة) في القطاع غرب القنطرة، كما كان يوجد اللواء ١١٨ مشاة ميكانيكي (من الفرقة ٢٣ مشاة ميكانيكية) الذي صدرت له الأوامر من قيادة الجيش الثاني باحتلال مواقع على طول ترعة الإسماعيلية لمنع قوات العدو من العبور شمالا إلى الإسماعيلية.

٢ ـ جنوب ترعة الإسماعيلية ـ كان يوجد اللواء ١٨٢ مظلات المكون من ثلاث كتائب بعد انضمام الكتيبة ٨٥ مظلات إليه اعتبارا من الساعة التاسعة صباحا يوم ١٩ أكتوبر (بعد أن قدمت من معسكر إنشاص عقب الانتهاء من عملية إعادة تجميعها)، وكانت توجد كذلك المجموعة ١٢٩ صاعقة التي تتكون من كتيبتين من الصاعقة. أما اللواء ٢٣

المدرع (من الفرقة ٣ مشاة ميكانيكية) واللواء ١١٦ مشاة ميكانيكي (من الفرقة ٢٣ مشاة ميكانيكية) فقد كانا في مرحلة إعادة التجميع بعد الخسائر الفادحة التي حاقت بهما خلال المعارك العنيفة مع قوات العدو فى الفترة من ١٦ إلى ١٩ أكتوبر.

موقف الجيش الثالث غرب القناة

بعد صدور أمر القيادة العامة بعودة اللواء الثالث المدرع من شرق القناة إلى منطقة الجفرا شمال طريق القاهرة السويس الرئيسي مساء يوم ١٩ أكتوبر لإعادة تجميعه واستعادة كفاءته القتالية، أصبحت الفرقة الرابعة المدرعة مكونة من لواءين مدرعين ولواء مشاة ميكانيكي. وقد أسندت إلى الفرقة الرابعة المدرعة اعتباراً من يوم ١٨ أكتوبر مسئولية الدفاع عن النطاق التعبوي للجيشين الثاني والثالث معًا (من ترعة الإسماعيلية شمالا حتى جبل عتاقة جنوبا) وهي مواجهة لا تقل عن ٧٠ كم، وأصبحت الفرقة الرابعة المدرعة تعمل بأوامر القيادة العامة.

مقارنة القوات المدرعة (بعضها ببعض)

كان للعدو غرب القناة ٧ ألوية مدرعة (٣ في فرقة أدان و٢ في فرقة شارون و٢ في فرقةكلمان ماجن)، بينما لم يكن للقوات المصرية غرب القناة سوى لواءين مدرعين في الفرقة الرابعة المدرعة. وبمقارنة القوات بعضها ببعض يتضح أن العدو كان يتفوق على قواتنا غرب القناة بنسبة ٧ إلى ٢ أي أكثر من الضعف.

أي الجيشين مهدد بالتطويق؟

لم تكن هناك خطورة كبيرة من إمكان العدو تطويق الجيش الثاني نظرا لوجود ترعة الإسماعيلية، وهي مانع مائي كبير يمتد من الغرب إلى الشرق ويحتاج عبورها إلى تجهيزات خاصة ومعدات عبور عديدة، علاوة على أن الأرض غرب القناة في قطاع الجيش الثاني زراعية ومليئة بالأشجار والمزروعات وقنوات الري المتشابكة مما لا تسمح بسرعة تقدم المدرعات. وبالإضافة إلى طبيعة الأرض التي في صالح القوات المدافعة، فإن القوات المصرية في قطاع الجيش الثاني غرب القناة كانت كافية لصد هجوم فرقة

الجنرال شارون التي كانت مهمتها التقدم شمالا من رأس الكوبري في الدفرسوار في اتجاه الإسماعيلية. ففي مواجهة اللواءين المدرعين ولواء مشاة المظلات التي تتكون منها فرقة شارون، كان لدي الجيش الثاني لواءان مشاة ميكانيكيان (اللواء ١٠ مشاة ميكانيكي واللواء ١١٨ مشاة ميكانيكي) واللواء ١٨٢ مظلات والمجموعة ١٢٩ صاعقة، وهي قوة تقرب في حجمها وقدراتها من فرقة كاملة مختلطة. ونظرا لأن المهاجم ينبغي ألا تقل نسبة تفوقه على المدافع من ٢ إلى ١ إذا ما أراد ضمان النجاح، لذلك لم تكن في مقدرة الجنرال شارون الوصول بفرقته إلى الإسماعيلية. وعلى الرغم من احتلال اللواء ١١٨ مشاة ميكانيكي مواقع دفاعية حصينة على طول ترعة الإسماعيلية، فقد كانت جميع الجسور المقامة عليها معدة للنسف بمجرد اقتراب قوات شارون منها، وذلك بواسطة المهندسين العسكريين التابعين للجيش الثاني وفقا للتعليمات التي تلقوها من اللواء عبد المنعم خليل قائد الجيش.

لكن الخطورة الحقيقية كانت كامنة في قطاع الجيش الثالث في الجنوب، إذ إن الأرض غرب القناة في هذا القطاع تعتبر أرضا مثالية لاستخدام المدرعات. فمعظمها أرض صحراوية شاسعة مما يتيح الفرصة لوحدات المدرعات لاستغلال كل خصائصها المميزة من خفة حركة ومقدرة على المناورة، والقيام بحركات الالتفاف والتطويق وسهولة التسرب بين المواقع الدفاعية، كما كان في إمكانها سرعة الاندفاع إلى أهدافها بعد تفادي المواقع القوية التي قد تعرقل تقدمها.

ونظرا لوجود عدد من الهيئات المرتفعة المتحكمة في المناطق التي حولها، فقد بادر العدو باحتلال أهم هذه الهيئات قبل أن يسبقه المصريون في ذلك وفي مقدمتها جبل جنيفة. وعلاوة على ذلك استفاد العدو فائدة كبرى من وجود بعض أراضي الهبوط في هذا القطاع ومن وجود مطاري الدفرسوار وفايد. فعلى أثر استيلائه عليهما تم استخدامه لهما في نقل المؤن والمعدات والإمدادات جوا (بطائرات الهيليكوبتر) إلى القوات الإسرائيلية بالضفة الغربية وكذا في إخلاء الجرحى والمصابين إلى مستشفى الميدان شرق القناة.

ونتيجة للإغارات المستمرة التي قامت بها الدبابات الإسرائيلية منذ اليوم الأول لعبورها قناة السويس على مواقع الصواريخ المصرية أرض جو SAM التي كانت منتشرة في العمق على مسافة من ١٥ إلى ٢٠ كم غرب القناة، نجح العدو في تدمير وإسكات

عدد كبير منها، وأصبح في إمكان القوات الجوية الإسرائيلية، ولأول مرة منذ بدء القتال، تقديم المعاونة الجوية المباشرة للقوات البرية في أثناء قيامها بعمليات هجومية ضد القوات المصرية.

هذا ولم تكن نتيجة مقارنة القوات المدرعة بعضها ببعض في قطاع الجيش الثالث غرب القناة في مصلحة القوات المصرية. فقد كان العدو يملك فرقتين مدرعتين (فرقة أدان وفرقة ماجن) يضم تشكيلهما ٥ ألوية مدرعة (٣ ألوية في فرقة أدان ولواءين في فرقة ماجن) في مقابل فرقة مدرعة مصرية واحدة وهي الفرقة ٤ المدرعة بقيادة العميد أ.ح عبد العزيز قابيل. ونظرا لأن هذه الفرقة قد أسندت إليها مسئولية تأمين النطاق التعبوي للجيشين الثاني والثالث معا على مواجهة لا تقل عن ٧٠ كم لذلك فإن حساب قوتها في الدبابات ينبغي أن يوزع على أساس ٥٠٪ من قوة الفرقة لقطاع كل من الجيشين الثاني والثالث. ولما كانت الفرقة تضم لواءين مدرعين لذا فإن ما يخص قطاع الجيش الثالث منهما هو لواء مدرع واحد. وبهذا الحساب تكون نسبة تفوق الدبابات الإسرائيلية إلى الدبابات المصرية في هذا القطاع هي نسبة ٥ إلى ١. وهذه الحقائق التي أوضحناها عن موقف العدو المتفوق في قطاع الجيش الثالث غرب القناة تكشف لنا الستار عن سر ذلك الاندفاع السريع الذي قامت به القوات المدرعة الإسرائيلية في اتجاه الجنوب، وعن سر تطلعها إلى حصار الجيش الثالث، وعن سر محاولتها الفاشلة لاحتلال مدينة السويس.

الفرصة الضائعة لتصفية ثغرة الدفرسوار

بعد أن فشل الهجوم المضاد الذي شنه اللواء ٢٣ المدرع (من الفرقة ٣ مشاة ميكانيكية) على قوات العدو في منطقة الدفرسوار يوم ١٨ أكتوبر لتصفية ثغرة الاختراق، وبعد أن اقتحمت دبابات الجنرال إبراهام أدان الدفاعات المصرية غرب ترعة السويس، لم يبق أي موقع دفاعي مصري جنوب ترعة الإسماعيلية متماسكا سوى الموقع الدفاعي الرئيسي للواء١١٦ مشاة ميكانيكي غرب تقاطع طريق المعاهدة مع وصلة أبو سلطان الذي كانت تحتله كتيبة المشاة الميكانيكية الوحيدة التي بقيت من وحدات اللواء ١١٦ مشاة ميكانيكي، ومعها بعض الدبابات من بقايا اللواء ٢٣ المدرع.

وقد اضطر العقيد نيتكا قائد اللواء المدرع اليمين في تشكيل قتال فرقة الجنرال أدان إلى تفادي هذا الموقع عندما كان يتقدم بدباباته في اتجاه الغرب عند ظهر يوم ١٨ أكتوبر نظرا

لقوة تحصينه. وإلى جوار الموقع الدفاعي، كان يوجد مركز القيادة المتقدم الذي كان بداخله قائد اللواء ١١٦ مشاة ميكانيكي بالنيابة بعد استشهاد قائده في معارك يوم ١٦ أكتوبر، وكذا العميد أ.ح أحمد عبود الزمر قائد الفرقة٢٣ مشاة ميكانيكية. ومنذ صباح يوم ١٩ أكتوبر، قامت مدرعات العدو بشغل هذا الموقع الدفاعي على طول المواجهة. وفي الساعة التاسعة صباحا قام العدو بمهاجمة منطقة مرابض لواء مدفعية الفرقة ٢٣ مشاة ميكانيكية الذي كان يقع غرب الموقع الدفاعي ببضعة كيلو مترات بقوة حوالي كتيبة دبابات مدعمة بالمشاة الميكانيكية، واشتبكت وحدات المدفعية مع الدبابات الإسرائيلية وجها لوجه في معركة عنيفة استغرقت حوالي ثلاث ساعات استخدمت فيها مدفعية الميدان أسلوب الرمي المباشر ضد دبابات العدو.. ورغم ما تكبده العدو من خسائر جسيمة، فقد انتهت المعركة بتدمير لواء مدفعية الفرقة بعد قتال شرس. وإزاء قيام قوة كبيرة من دبابات العدو بالالتفاف على الجنب الأيسر للموقع الدفاعي الرئيسي ارتدت بعض قوات هذا الموقع إلى منطقة تقاطع عثمان أحمد عثمان. وقد بعث قائد الفرقة بآخر رسالة لاسلكية إلى الفريق سعد الشاذلي الذي كان موجودا وقتئذ في مركز القيادة المتقدم للجيش الثاني بالإسماعيلية وذلك في الساعة الواحدة ظهرا، وكانت رسالة موجزة ذكر له فيها أن العدو يهاجم موقع السرية اليسار من الكتيبة وأنه متجه إلى مركز قيادته. وعلى أثر ذلك مباشرة انقطعت جميع الاتصالات بين قيادة الفرقة وقيادة الجيش الثاني، واعتبر قائد الفرقة منذ ذلك الحين في عداد المفقودين. وقد اتضح بعد ذلك أن العميد أ.ح أحمد عبود الزمر قائد الفرقة ٢٣ مشاة ميكانيكية ظل صامدا في مركز قيادته المتقدم في شجاعة وثبات حتى النهاية، ولم يفكرفي مغادرة موقعه للنجاة بحياته رغم أن الموقف كان ميئوسا منه. وعندما اقتحمت الدبابات الإسرائيلية مركز قيادته خر شهيدا تحت جنازيرها، فضرب بذلك أروع الأمثال في البطولة والإيمان والفداء.

وكانت الفرقة ٤ المدرعة بقيادة العميد أ.ح محمد عبد العزيز قابيل مسئولة منذ بداية الحرب في ٦ أكتوبر ٧٣ عن تأمين النطاق التعبوي للجيش الثالث الميداني. وفي يوم ١٧ أكتوير كانت أوضاع الفرقة كما يلي:

- قيادة الفرقة واللواء الثاني المدرع في منطقة الجفرا جنوب جبل عوييد.

- اللواء الثالث المدرع (عدا كتيبة) شرق القناة في منطقة تقع بين رءوس كباري الفرقتين ١٩ مشاة، و٧ مشاة ويعمل كاحتياطي في يد قائد الجيش.

- الكتيبة المدرعة الباقية من اللواء تحت قيادة الفرقة ٧ مشاة بدلا من اللواء ٢٥ المدرع المستقل الذي دفع شمالا في اتجاه الجيش الثاني في أول ضوء يوم ١٧ أكتوبر لتصفية ثغرة الاختراق شرق القناة، وتم تدميره جنوب الخط كثيب الحبشي - تل سلام.

- اللواء ٦ مشاة ميكانيكي يقوم بتأمين النطاق المتوسط للجيش الثالث في منطقة الكليو متر ١٠٩ طريق القاهرة - السويس.

- لواء مدفعية الفرقة يعمل في معاونة الفرقة ٧ مشاة شرق القناة.

وكانت أول رسالة معلومات بشأن عملية العبور الإسرائيلي إلى غرب القناة قد وردت من الجيش الثالث إلى قيادة الفرقة في الساعة الحادية عشرة صباحا يوم ١٧ أكتوبر، وكانت تفيد بأن للعدو دبابات غرب القناة تصل إلى ٣٠ دبابة مع عناصر من المظلات في منطقة الدفرسوار. وأصدرت قيادة الجيش الثالث تعليماتها بدفع كتيبة مشاة ميكانيكية مدعمة من اللواء ٦ مشاة ميكانيكي إلى جبل جنيفة ومنطقة كسفريت بمهمة حماية الجنب الأيسر للجيش الثالث، ومنع العدو من التقدم جنوبا على طريق المعاهدة. وقد تم تنفيذ ذلك في الساعة الثامنة مساء يوم ١٧ أكتوبر. وفي الساعة الحادية عشرة مساء يوم ١٧ أكتوبر، وبناء على تعليمات القيادة العامة، صدرت الأوامر من قيادة الجيش الثالث بأن يكون اللواء الثاني المدرع على أهبة الاستعداد للقيام بهجوم مضاد في اتجاه الدفرسوار لتدمير قوات العدو بثغرة الاختراق غرب القناة. وأصدر قائد الفرقة ٤ المدرعة أمره إلى قائد اللواء الثاني المدرع بالاستعداد للتحرك بدون أرتال إدارية في اتجاه الشمال الشرقي على المدقات الممتدة من جبل أم كثيب إلى تقاطع طريق المعاهدة مع وصلة أبو سلطان، وأن خط الدفع للاشتباك سيكون على مسافة ٥ كم جنوب غرب هذا التقاطع، وخصص له مهمة اللواء، وهي تدمير العدو في منطقة أبو سلطان - الدفرسوار، وتأمين المعابر في المنطقة ما بين شمال البحيرات المرة حتى الدفرسوار.

وأمر قائد الفرقة بدفع مفرزة قيادة من اللواء لتحقيق الاتصال مع قيادة اللواء ١١٦ مشاة ميكانيكي لمعرفة آخر المعلومات عن العدو في المنطقة التي سيشن عليها الهجوم المضاد. وفي الساعة الثالثة صباح يوم ١٨ أكتوبر تم اتصال مفرزة القيادة برئيس أركان اللواء ٢٣ المدرع الذي كان موجوداً وقتئذ في مركز القيادة المتقدم للواء ١١٦ مشاة ميكانيكي عند تقاطع طريقي المعاهدة - أبو سلطان، وقد أبلغ مفرزة القيادة أن اللواء ٢٣ المدرع هو الذي كلف بتنفيذ هذه المهمة، وعندما علم قائد الفرقة الرابعة بذلك أجرى الاتصال بقيادة الجيش

الثالث فأفادت بأن المركز ١٠ قام بإلغاء المهمة بالنسبة للواء الثاني المدرع، وأن اللواء ٢٣ المدرع هو الذي سيقوم بعملية الهجوم المضاد. ومما لا شك فيه أن الفرصة كانت متاحة أمام القيادة العامة المصرية حتى يوم ١٧ أكتوبر للقضاء قضاء تاما على قوات العدو في منطقة الدفرسوار، فقد كان الواجب أن تسارع القيادة العامة - إذ إن الحرب علاوة على أنها صراع بين إرادتين فهي أيضا سباق زمني على اقتناص الفرص بين قيادتين - إلي تجميع قوة مدرعة كافية من لواءين مدرعين يوم ١٧ أكتوبر لتوجيه ضربة قوية مركزة ضد قوات العدو في الدفرسوار مما يحقق قوة الصدمة، على أن تكون تحت الإشراف المباشر لقيادة واحدة لضمان حسن التنسيق وإحكام القيادة والسيطرة. وكان هذا من المتيسر تحقيقه باتباع أحد الحلين الآتيين:

إما عبور اللواء ٢٥ المدرع المستقل الملحق على الفرقة ٧ مشاة قناة السويس من الشرق إلى الغرب خلال ساعات الظلام ليلة ١٦/ ١٧ أكتوبر، ثم دفعه في أول ضوء يوم ١٧ أكتوبر في اتجاه الشمال على الجانب الغربي للقناة للاشتراك مع اللواء ٢٣ المدرع الذي سيتم دفعه من تقاطع عثمان أحمد عثمان من الغرب إلى الشرق، في هجمة واحدة منسقة ضد قوات العدو في الدفرسوار. (تم دفع اللواء ٢٥ المدرع المستقل صباح ١٧ أكتوبر على الشاطئ الشرقي للقناة والبحيرة المرة لتصفية ثغرة الاختراق من الشرق، وتم تدميره جنوب الخط كثيب الحبش - تل سلام).

وإما اشتراك اللواء ٢ المدرع المتمركز غرب القناة في منطقة الجفرا جنوب جبل عويبد في هجمة واحدة منسقة مع اللواء٢٣ المدرع المتمركز في منطقة تقاطع عثمان ضد قوات العدو في الدفرسوار. على أن يتم تأمين عملية دفع اللواءين المدرعين سواء في الحالة الأولى أو الثانية بجميع الإمكانات المتيسرة من مدفعية وطيران ودفاع جوي علي مستوى القيادة العامة بالتعاون مع قيادة الجيش الثاني.

ولو تمت إحدى هاتين العمليتين لكان النجاح محققا للأسباب الآتية:

١ - تنفيذ الضربة بقوة في وقت مبكر - يوم ١٧ أكتوبر - قبل الانتهاء من إقامة الجسور الثابتة عبر قناة السويس، وقبل تدفق الألوية المدرعة الإسرائيلية إلى الضفة الغربية. ولم يكن داخل رأس الكوبري الإسرائيلي في منطقة الدفرسوار حتى يوم ١٧ أكتوبر سوى حوالي ٢٥ دبابة (بعد الخسائر التي لحقت بقوة الدبابات التي عبرت) ولواء مشاة من المظلات لا يتجاوز عدد أفراده ٢٠٠٠ من الضباط والجنود.

٢ ـ تنفيذ الضربة بقوة مدرعة كبيرة (حوالي ٢٠٠ دبابة) خاصة أن مرتب اللواءين ٢ المدرع و٢٣ المدرع من الدبابات كان كاملا لعدم اشتراكهما حتى اليوم المحدد للعملية في أي معارك حربية، وبذا فإن نسبة تفوق الدبابات المصرية على الدبابات الإسرائيلية كانت ستبلغ حوالي ١٠ إلى ١ مما كان كفيلا بتحقيق قوة الصدمة بل اقتلاع رأس الكوبري الإسرائيلي في منطقة الدفرسوار اقتلاعًا تاما.

٣ ـ كان في الإمكان حشد عدد ضخم من وحدات مدفعية الجيش الثاني (شرق وغرب القناة) لعمل التمهيد النيراني لهذه العملية الكبرى قبل بدء الهجوم، مما كان كفيلا بتدمير وإسكات معظم مصادر النيران الإسرائيلية في منطقة الدفرسوار.

ومما يؤسف له أن القيادة العامة أهدرت هذه الفرصة الثمينة، ولم تحقق قوة الصدمة التي كانت ستنتج بحكم اشتراك لواءين مدرعين في عملية هجوم مضاد واحدة، فقد قام اللواء ٢٥ المدرع بهجومه المضاد وحده يوم ١٧ أكتوبر شرق القناة، بينما قام اللواء ٢٣ المدرع بهجومه المضاد وحده يوم ١٨ أكتوبر غرب القناة، وكانت النتيجة فشل اللواءين المدرعين وتكبدهما خسائر فادحة مما أفقدهما قدرتهما القتالية. ولو كان اللواءان قد اشتركا في هجمة واحدة منسقة على العدو غرب القناة لكانت نتيجة الهجوم قد تغيرت بالطبع، وربما كان قد تغير وجه التاريخ.

ولا شك في أن جانبًا كبيرًا من هذه الأخطاء التكتيكية التي وقعت فيها القيادة العامة يرجع إلى القصور الشديد في أعمال الاستطلاع على جميع المستويات، إذ لم يعد في إمكان القيادات العليا معرفة المعلومات الحقيقية عن قوات العدو التي عبرت إلى الغرب وعن مناطق تمركزها، كما كانت القيادات الأعلى في جهل تام بكل تفاصيل عمليات إقامة الجسور الإسرائيلية عبر القناة وبحقيقة حجم ونوعية القوات التي تقوم بالعبور إلى الضفة الغربية.

هذا، ويعتبر الهجوم المضاد الذي قام به اللواء ٢٣ المدرع صباح ١٨ أكتوبر على قوات العدو في منطقة الدفرسوار والذي باء بالفشل هو آخر هجوم مضاد يتم على مستوى اللواء، إذ لم تشن بعد ذلك اليوم أي هجمات مضادة على القوات المدرعة الإسرائيلية التي تدفقت على الضفة الغربية إلا على مستوى كتائب مدرعة أو مشاة ميكانيكيية أو على مستوى سرايا مدرعة أو مشاة ميكانيكية، وكانت هذه الهجمات تعتبر من الوجهة

التكتيكية هجمات مضادة محلية Local Counter Attacks ، ولم يكن الغرض منها إلا مجرد صد القوات المدرعة الإسرائيلية ووقف تقدمها ، ولم تكن تستهدف ـ كما كان الحال بالنسبة للهجمات المضادة الرئيسية Main Counter Attacks ـ تدمير قوات العدو وتصفية رأس الكوبري الإسرائيلي .

وقد كان من المفترض بعد أن فشلت الهجمات المضادة الرئيسية على مستوى الجيوش أن تقوم القيادة العامة بالضربة المضادة ضد العدو Counter blow وفقا للمبادئ التكتيكية السليمة ، ولكن القيادة العامة لم تكن لديها القوات التي تكفي لشن مثل هذه الضربة المضادة ، فقد قامت بتوزيع جزء مهم من احتياطيها الإستراتيجي اعتقادا منها بأنها لن تضطر إلى استخدام هذا الاحتياطي الإستراتيجي طوال مدة الحرب . ونتيجة لهذا الاعتقاد تسببت في تشتيت شمل التشكيل الرئيسي في الاحتياطي الإستراتيجي للقيادة العامة ، وهو الفرقة ٣ مشاة ميكانيكية التي كان يتولى قيادتها العميد أ.ح محمد نجاتي فرحات ، فقامت بسحب اللواء ١٠ مشاة ميكانيكي منذ بداية الحرب ووضعته تحت قيادة الجيش الثاني الذي جعله في الاحتياطي غرب القناة في منطقة القنطرة . وفي يوم ١٦ أكتوبر وفي إثر وصول أنباء العبور الإسرائيلي إلى غرب القناة إلى المركز ١٠ ، صدرت الأوامر بتحرك اللواء ٢٣ المدرع إلى وصلة عثمان أحمد عثمان ووضعه تحت قيادة الجيش الثاني . وفي صباح يوم ١٨ أكتوبر قام هذا اللواء بالهجوم المضاد على قوات العدو في الدفرسوار الذي ذكرنا تفاصيله من قبل ، ونتيجة لفشل الهجوم المضاد وفداحة خسائر اللواء صدر الأمر بإعادة تجميعه لاستعادة كفاءته القتالية .

وانتهى الأمر بأن أصبح الاحتياطي الإستراتيجي في يد القيادة العامة عبارة عن اللواء المشاة الميكانيكي المتبقي في الفرقة ٣ مشاة ميكانيكية ، بالإضافة إلى اللواء المدرع بالحرس الجمهوري .

إجراءات الفرقة الرابعة المدرعة لتأمين النطاق التعبوي باكمله

على أثر تلقي العميد أ.ح محمد عبد العزيز قابيل قائد الفرقة ٤ المدرعة مهمته الجديدة ظهر يوم ١٨ أكتوبر التي أسندت إليه بموجبها مسئولية تأمين النطاق التعبوي للجيشين الثاني والثالث معا (على مواجهة حوالى ٧٠ كم) ، وبعد تقدير سريع للموقف أصدر قائد الفرقة التعليمات التالية :

١ ـ لتأمين النطاق التعبوي للجيش الثاني يتم دفع كتيبة مدرعة مدعمة من اللواء الثاني المدرع على أن يرافقها مركز القيادة المتقدم للواء للسيطرة عليها.

٢ ـ لتأمين النطاق التعبوي للجيش الثالث يتولى رئيس أركان الفرقة أعمال السيطرة على هذا النطاق، ويوضع تحت قيادته اللواء ٢ المدرع (عدا كتيبة).

٣ ـ تقوم كتيبة استطلاع الفرقة بدفع عناصر استطلاع للحصول على معلومات عن العدو.

٤ ـ يتم فتح مركز قيادة إضافي للفرقة على مسافة ٣ كم جنوب تقاطع عثمان أحمد عثمان ليمكن لقائد الفرقة السيطرة على القوات في هذا الاتجاه على أن يتم تشكيل ثلاث مجموعات عمل بمركز القيادة الإضافي كما يلي:

أ ـ مجموعة قيادة بقيادة قائد الفرقة لقيادة قوات الفرقة في النطاق التعبوي للجيش الثاني.

ب ـ مجموعة سيطرة للسيطرة على الوحدات المرتدة من قواتنا وخاصة ليلا، ويتولى قيادتها قائد اللواء ٢ المدرع.

جـ ـ مجموعة سيطرة لاستقبال قوات وعناصر الدعم التي دفعت من القيادة العامة وكانت تتكون من ٧٠ طاقما RPG و١٤ دبابة من المنشآت التعليمية وعدد وافر من الألغام من إدارة المهندسين العسكريين ويتولى قيادتها مساعد قائد الفرقة.

وفي الساعة الحادية عشرة والنصف صباح يوم ١٨ أكتوبر، تحرك قائد الفرقة على رأس مركز قيادته المتقدم إلى منطقة تقاطع عثمان على محور طريق الإسماعيلية. وتبعته بعد ٢٠ دقيقة مجموعة قتال مكونة من كتيبة دبابات مدعمة تحت قيادة قائد اللواء ٢ المدرع حيث لحقت به في منطقة التقاطع. وفي الساعة الثانية والنصف بعد الظهر قام قائد الفرقة بعد الانتهاء من استطلاعه بتخصيص المهام لقادة المرءوسين على الأرض وتم احتلال الكتيبة المدرعة للخط العام شمال شرق جبل الجربة ـ وصلة القصاصين. ونظرا لوجود بعض تحركات للعدو في اتجاه الجنوب الغربي وفي اتجاه قواعد الصواريخ أرض جو S A M، أمر قائد الفرقة بتحريك كتيبة مدعمة أخرى من اللواء ٢ المدرع لتحتل منطقة غرب جبل أم كثيب، بمهمة تدمير أرتال العدو التي تحاول أن تتفادى مواقع الكتيبة الأولى والعمل على عرقلة تقدم مدرعات العدو ومنعها من تدمير قواعد الصواريخ. وفي الساعة الثالثة مساء

يوم ١٨ أكتوبر وبناء على تعليمات القيادة العامة، عاد لواء مدفعية الفرقة (عدا كتيبة) من مواقعه شرق القناة إلى منطقة الجفرا لاستعادة كفاءته القتالية.

وفي صباح يوم ١٩ أكتوبر أمر قائد الفرقة بتعديل أوضاع الكتيبة المدرعة التي احتلت منطقة غرب جبل أم كثيب لتحتل الخط العام ما بين الجربة وأم كثيب، على أن تكون مستعدة في مواقعها لتدمير أي قوات إسرائيلية تحاول الالتفاف على الجانب الأيمن للخط الدفاعي. كما أمر لواء مدفعية الفرقة بأن تقوم إحدى كتائبه بالفتح في منطقة الجربة لمعاونة أعمال هذه الكتيبة المدرعة. وفي ظهر يوم ١٩ أكتوبر، صدرت التعليمات إلى قائد اللواء ٦ مشاة ميكانيكي بأن يدفع كتيبة دبابات اللواء (عدا سرية) ومعها سرية مشاة ميكانيكية وأربعة أطقم اقتناص دبابات وكتيبة مدفعية ميدان إلى منطقة تقاطع طريق القاهرة السويس الشمالي مع وادي أبو طلح لتأمين هذه المنطقة الحيوية والاستعداد للقيام بالهجمات المضادة لتدمير أي دبابات للعدو تتسرب في اتجاه الجنوب. وقامت الكتيبة المدرعة والقوات الملحقة بها بتنفيذ مهمتها واحتلت منطقة التقاطع.

وفي الساعة الثامنةمساء يوم ١٩ أكتوبر، وبناء على تعليمات القيادة العامة، أمر قائد الجيش الثالث بعودة اللواء ٣ المدرع من مواقعه شرق القناة إلى منطقة الجفرا لإعادة تجميعه واستعادة كفاءته القتالية. وفي مساء يوم ١٩ أكتوبر وعلى أثر حديث هاتفي من القائد العام بالمركز ١٠ مع قائد الجيش الثالث، تمت إفادة قائد الفرقة بأن إعادة تجميع وحدات الفرقة تجري لصالح عملية هجومية على مستوى الفرقة، وعلى قائدها أن يستعد لذلك. وفي الساعة الثانية عشرة ظهر يوم ٢٠ أكتوبر وصل ضابط اتصال من القيادة العامة إلى مركز القيادة المتقدم للفرقة، لتفهم موقف الفرقة من حيث أوضاعها ومدى كفاءتها القتالية. وأعطى لقائد الفرقة فكرة عامة عن المهمة المقبلة، وطلب قائد الفرقة مهلة ٤٨ ساعة على الأقل حتى يتمكن من إعادة تجميع وحدات الفرقة لرفع كفاءتها القتالية.

وكانت المهمة التي خصصت للفرقة هي أن تقوم الفرقة ٤ المدرعة بالضربة المضادة Counter blow من الخط أم كثيب ـ وادي العشرة في اتجاه الدفرسوار، بمهمة تدميرالعدو الذي عبر إلى غرب القناة واستعادة الأوضاع إلى ما كانت عليه، على أن يتم استعداد الفرقة في الساعة السادسة مساء يوم ٢٠ أكتوبر. وكانت فكرة قرار قائد الفرقة هي أن يتقدم بلواءين مدرعين كنسق أول مستغلا نيران المدفعية والطيران لتدمير العدو الذي نجح في الاختراق والاستيلاء على الخط شمال جبل الشهابي ـ تقاطع وصلة أبو سلطان ـ أبو صوير كمهمة مباشرة وبدفع النسق الثاني للفرقة في المنطقة المزروعة

وبالتعاون مع نسق أول الفرقة يتم تدمير بقايا العدو والاستيلاء على الضفة الغربية والاتصال بالقوات المصرية في الشرق كمهمة تالية.

تشكيل المعركة: في نسقين واحتياطي النسق الأول اللواء ٢ المدرع في اليمين ولواء الحرس الجمهوري المدرع في اليسار، والنسق الثاني اللواء ٦ مشاة ميكانيكي والاحتياطي اللواء ٣ المدرع مع تركيز المجهود الرئيسي على الجانب الأيمن. وفي يوم ٢١ أكتوبر صدرت أوامر القيادة العامة بإلغاء المهمة.

ولا شك في أن القيادة العامة كانت على صواب عندما أدركت الخطأ الفادح الذي كادت ترتكبه، فقامت بإلغاء المهمة التي تم تخصيصها للفرقة الرابعة المدرعة يوم ٢٠ أكتوبر، وهي القيام بضربة مضادة Counter blow لتصفية رأس الكوبرى الإسرائيلي وتدمير العدو والاستيلاء عل الضفة الغربية، إذ إن وقت هذه الضربة المضادة كان قد فات، كما أن تكليف الفرقة ٤ المدرعة بهذه المهمة في مواجهة الفرق المدرعة الإسرائيلية الثلاث التي كانت تقوم بعملياتها وقتئذ غرب القناة معناه دفع هذه الفرقة إلى مهمة انتحارية كانت ستنتهي حتما بتدميرها. ويكفي أن الفرقة ٤ المدرعة كانت ستقوم بضربة مضادة بثلاثة ألوية مدرعة (بعد إضافة لواء الحرس الجمهوري) ضد سبعة ألوية مدرعة إسرائيلية، أي أن نسبة تفوق الدبابات الإسرائيلية كانت تبلغ أكثر من الضعف.

لماذا ألغي هجوم الفرقة ٢١ المدرعة على الضفة الشرقية؟

عقب ارتداد القوات المصرية إلى الشمال بعد فشل الهجوم المضاد، أصبح الخط الذي تحتله الفرقة ٢١ المدرعة يتحاذى مع سرابيوم على الضفة الغربية للقناة، ويمتد شرقا ليلتقي مع الحد الأمامي للواء ٣ المشاة الميكانيكي، وهو لواء المنتصف في رأس كوبري الفرقة ١٦ مشاة بعد إخلاء لواء اليمين (اللواء ١٦ مشاة) لمواقعه تحت ضغط العدو.

وإزاء شدة ضغط العدو على رأس الكوبري الموحد الذي كان يتكون من الفرقتين ١٦ مشاة و ٢١ المدرعة، ونظرا لقلة عدد الدبابات بعد الخسائر الجسيمة التي تكبدتها الفرقة ٢١ المدرعة أصدر قائد الجيش الثانى أمره إلى قائد قوات اللواء ٢٤ المدرع، من الفرقة ٢٣ مشاة ميكانيكية، بالتحرك إلى رأس الكوبري الموحد. (كان موضوعا تحت قيادة الفرقة ٢ مشاة منذ بداية الحرب ثم صدرت له التعليمات يوم ١٧ أكتوبر بالتمركز في منطقة الإسماعيلية شرق)

وفي حوالي الساعة الحادية عشرة صباح يوم ١٩ أكتوبر، أبلغ العميد أ.ح إبراهيم العرابي قائد الفرقة ٢١ المدرعة الفريق سعد الشاذلي رئيس الأركان الذي كان موجودا في مركز القيادة المتقدم للجيش الثاني بالإسماعيلية منذ مساء اليوم السابق بأن عناصر الاستطلاع تؤكد أن رتلين للعدو يتحركان من الشرق إلى الغرب، ويتكون كل منهما من حوالي ١٠٠ دبابة مدعمة ببعض المشاة الميكانيكية، وتحلق فوقهما طائرات هيليكوبتر. وعلاوة على ذلك يوجد للعدو حوالي ٣٠ دبابة في منطقة الدفرسوار بينما توجد له في قرية الجلاء حوالي كتيبة دبابات مدعمة بصواريخ موجهة SS11 وأن الطائرات الإسرائيلية تواصل هجماتها على رأس الكوبري منذ الساعة الثامنة صباحا. وأصدر الفريق الشاذلي تعليماته إلى العميد العرابي بضرورة رص الألغام بكثافة أمام الحد الأمامي لدفاعات الفرقة ٢١ المدرعة لمنع العدو من توسيع ثغرة الاختراق شمالا، وأبلغه أن قوات من المظلات بقيادة العقيد إسماعيل عزمي تحتل المصاطب على الضفة الغربية (من سرابيوم إلى جبل مريم شمالا) مما يجعل جنبه الأيمن مؤمنا.

وفي الساعة الثانية عشرة ظهرا هاجمت الدبابات الإسرائيلية موقع إحدى كتائب اللواء ١٨ مشاة ميكانيكي (من تشكيل الفرقة ٢١ المدرعة)، وقامت الكتيبة بصب وابل من نيرانها على قوات العدو فدمرت له ٤ دبابات و٣ عربات نصف جنزير وخسرت الكتيبة ٣ دبابات بالإضافة إلى خسائرها في الأفراد والمعدات. وعلى أثر ذلك توقفت هجمات العدو وبدأت الطائرات الإسرائيلية في قصف المواقع الدفاعية داخل رأس الكوبري الموحد قصفا مركزا.

ونظرا لتدهور الموقف على الضفة الغربية جنوب ترعة الإسماعيلية بعد فقد اللواء ٢٣ المدرع (من الفرقة ٣ مشاة ميكانيكية) واللواء ١١٦ مشاة ميكانيكي (من الفرقة ٢٣ مشاة ميكانيكية) مقدرتهما القتالية. لذا قرر الفريق سعد الشاذلي ـ الذي كان يتولى في هذه الفترة مسئولية القيادة في الجيش الثاني ـ استعادة التوازن على مستوى الجبهة عن طريق القيام بعملية هجومية على الضفة الشرقية للقناة بغرض تقليص ثغرة الاختراق الإسرائيلية بعد أن فشلت المحاولات السابقة في تصفيتها والقضاء عليها. ولتحقيق ذلك الهدف، بعث برسالة لاسلكية موجزة إلى العميد العرابي كان نصها «يا عرابي.. اقتحم قرية الجلاء بأي خسائر». وتنفيذا لتعليمات رئيس الأركان وضع العميد العرابي خطته لمهاجمة القرية بكل ما يستطيع حشده من الدبابات دون الإخلال باتزان دفاعات الكوبري الموحد الذي كان يتولى قيادته. وكانت الخطة مبنية على أساس الهجوم بنسقين: النسق الأول ـ اللواء

٢٤ المدرع (٤٢ دبابة) ويقوم بالهجوم من اتجاهين: الأول بقوة اللواء (عدا كتيبة) من مواقعه شمال المغذي الرئيسي في اتجاه الدفرسوار يمين الطريق العرضي رقم ١، والاتجاه الثاني بقوة الكتيبة الباقية من موقعها شمال غرب الطالية في اتجاه قرية الجلاء. وكانت مهمة اللواء ٢٤ المدرع هي تدمير قوات العدو وتأمين منطقة قرية الجلاء. النسق الثاني: اللواء الأول المدرع (١٤ دبابة) وكانت مهمته تأمين الجنب الأيمن للواء ٢٤ المدرع في أثناء الهجوم بالتعاون مع عناصر المظلات التي ستقوم بمهمة التأمين من المصاطب التي تحتلها غرب القناة.

وتحددت الساعة الرابعة مساء موعدا لبدء الهجوم على أن تسبقها ضربة طيران وقصفة نيران مركزة من مدفعية الفرقة ٢١ المدرعة، على أن تستمر المدفعية في معاونة الهجوم باستخدام الغلالات المتقدمة والتجمعات تحت الطلب. وعندما اطلع الفريق الشاذلي على خطة الهجوم، قدر أن جملة الدبابات التي خصصت لهذه العملية وهي ٥٦ دبابة لا تكفي لتحقيق النجاح، ولذا طلب من العميد العرابي سحب كل الدبابات المتبقية برأس الكوبري وكان عددها حوالي ٢٥ دبابة لإشراكها في عملية الهجوم حتى لو أدى الأمر إلى تقليص رأس الكوبري الموحد. واعترض العميد العرابي على ذلك الرأي، إذ إن سحب الدبابات وترك المشاة وحدها في المواقع الدفاعية لابد أن يؤدي إلى اهتزاز الدفاعات وتعريض رأس الكوبري لخطر اختراق العدو خاصة من ناحية الجنب الأيمن، فقد كان هدف العدو منذ اليوم الأول لعبور قواته إلى الغرب هو توسيع ثغرة الاختراق شمالا إلى أقصى ما يستطيع لضمان تأمين ساحة العبور عند الدفرسوار. ورغم إلحاح الفريق الشاذلي لتنفيذ فكرته، فإن العميد العرابي ظل مصرا على موقفه، وأرسل وجهة نظره إلى الفريق الشاذلي ضمن رسالة لاسلكية كان نصها كما يلي: «تقليص رأس الكوبري معناه سقوطه كلية».

ولكن الهجوم المرتقب على الضفة الشرقية الذي دار من أجله كل هذا الجدال لم يتم بالمرة، لأسباب تتعلق بالوضع على الضفة الغربية. فقد أصبح الوضع العسكري على كل ضفة ـ منذ العبور الإسرائيلي ليلة ١٥/ ١٦ أكتوبر إلى غرب القناة ـ يؤثر في الضفة الأخرى تأثيرا مباشرا. ولقد ساء الوضع على الضفة الغربية جنوب ترعة الإسماعيلية نتيجة لهجمات الدبابات الإسرائيلية على وحدات اللواء ١٨٢ مظلات، مما أدى إلى سقوط موقع سرابيوم الحيوي في يد القوات الإسرائيلية. وتبعا لذلك أصدر الفريق سعد الشاذلي تعليماته إلى العقيد إسماعيل عزمي قائد اللواء ١٨٢ مظلات بالارتداد بوحداته شمالا إلى طوسون على أن يتمسك بالخط طوسون ـ جامع سرابيوم.

وأثر هذا الموقف بالطبع في مخطط الهجوم على الضفة الشرقية، ولذا اتصل الفريق سعد الشاذلي بالعميد العرابي حوالي الساعة الثالثة والدقيقة الأربعين مساء ـ أي قبل الموعد الذي كان محددا لبدء الهجوم بعشرين دقيقة فقط ـ وأصدر له تعليماته بإلغاء عملية الهجوم حيث لم تعد لها ضرورة. وفي نفس الوقت أمره بالتمسك بالخط الحالي للفرقة ٢١ المدرعة (خط سرابيوم)، وحثه على التركيز على تجهيز الدفاعات ورص الألغام. وبادر العميد العرابي إلى الاتصال بقادة وحداته لإبلاغهم بتعليمات إلغاء الهجوم وبضرورة تحصين الدفاعات.

غير أن مفاجأة غير متوقعة كانت في انتظار العميد العرابي. فلم تمض سوى ساعة واحدة فقط من تلقيه الأمر بإلغاء الهجوم، حتى اتصل به الفريق الشاذلي ثانية ليبلغه أن الرئيس الراحل السادات يطلب ضرورة القيام بعملية الهجوم التي سبق إلغاؤها. وأجابه العميد العرابي بأن مفرزة المهندسين قد انتهت من رص الألغام أمام مواجهة دفاعات الفرقة وفقا للتعليمات الصادرة، كما أن الوقت الذي سيستغرقه التجهيز لعملية الهجوم سوف يحولها إلى عملية ليلية بعد أن اقترب موعد الغروب. ونظرا لأن العدو لديه التفوق في العمليات الليلية، إذ إن الدبابات الإسرائيلية مزودة بالمعدات المتطورة الخاصة بالقتال الليلي، لذا فإن من المنتظر تدمير الدبابات المصرية في حالة إجراء الهجوم ليلا مما يعني بقاء رأس الكوبري الموحد بدون دبابات وتعريضه بالتالي لخطر الاختراق. ويبدو أن الفريق الشاذلي قد اقتنع بوجهة نظر العميد العرابي إلى الحد الذي جعله يبعث بعد حوالي عشر دقائق فقط من انتهاء حواره معه بإشارة لاسلكية إلى اللواء محمد عبد الغني الجمسي رئيس هيئة العمليات بالمركز ١٠ ورد فيها ما يلي: «عرابي جنبه مهدد، ولو قام بأي هجوم فسيضرب من جميع الجهات. الدنيا ليِّلت والظروف لا تسمح بالهجوم حتى ولا باكر نقدر. عشان تعرف موقف عرابي فإن عدد الدبابات في رأس كوبري الفرقة ١٦ مشاة والفرقة ٢١ المدرعة يبلغ ٨٠ دبابة، يدوبك يستطيع التمسك برأس الكوبري».

ولاشك في أن رسالة الشاذلي اللاسلكية إلى الجمسي تكشف لنا عن أمرين على أقصى درجة من الأهمية.

أولهما، مقدار الكارثة التي كان من المنتظر أن تحل برأس الكوبري الموحد في حالة تنفيذ عملية الهجوم سواء تمت العملية نهارا أو ليلا، فإن الشاذلي قد اعترف بنفسه بأن الدبابات الموجودة برأس الكوبري الموحد الذي يضم الفرقة ١٦ مشاة والفرقة ٢١ المدرعة

وعددها ٨٠ دبابة تكفي بالكاد للتمسك برأس الكوبري، فكيف تتم المغامرة إذن بإخلائه من قواته المدرعة للقيام بهجوم في وجه عدو لديه التفوق الساحق في الدبابات؟! (يمكن التأكد من ذلك من مراجعة معلومات عناصر الاستطلاع التي أبلغها العرابي للشاذلي في الصباح). وعلاوة على ذلك لديه التفوق الجوي على أرض المعركة خاصة بعد تدمير الدبابات الإسرائيلية غرب القناة لعدد كبير من قواعد الصواريخ أرض جو (سام)، مما أدى إلى اهتزاز شبكة الدفاع الجوي المصري على الضفة الغربية. إن القيام بالهجوم ـ الذي تم إلغاؤه لحسن الحظ ـ في مثل هذه الظروف كان سيؤدي إلى تدمير الدبابات القائمة بالهجوم وإتاحة الفرصة بالتالي للدبابات الإسرائيلية لتحقيق الأمل الذي كان يراود أحلام القيادة الإسرائيلية منذ بداية عملية العبور إلى غرب القناة، وهو اختراق وتدمير رأس الكوبري الموحد وتوسيع ثغرة الاختراق شمالا حتي الطريق الأوسط (طريق الإسماعيلية شرق ـ الطاسة) وتهديد الجنب الأيمن للفرقة ٢ مشاة التي تحتل قطاع الفردان.

أما الأمر الثاني، فهو مدى الخطورة التي كادت تنجم نتيجة لتدخل القيادة السياسية ـ ممثلة في الرئيس الراحل السادات ـ في قرارات القيادة العسكرية. وقد سبق أن شرحنا ذلك الموضوع بالتفصيل.

وفي حوالي الساعة الخامسة مساء، اتصل الفريق الشاذلي بالعميد العرابي ودار بينهما الحوار التالي:

الشاذلي: إسماعيل عزمي (قوة المظلات) ارتد من سرابيوم إلى طوسون. ارتد بجنبك الأيمن إلى طوسون عشان يبقى كتفك اليمين في كتف إسماعيل عزمي لأن عزمي عليه ضغط كبير ورجع طوسون.

العرابي: معنى ذلك الانسحاب بدون ضغط من العدو.

واضطر العميد العرابي إلى إصدار تعليماته بارتداد وحدات الفرقة ٢١ المدرعة من خط سرابيوم إلى طوسون، وتمكن العدو بالتالي من توسيع ثغرة اختراقه شمالا حتى طوسون دون أي قتال (حوالي ٥كم).

عمليات الجنرال أدان على الضفة الغربية

في صباح يوم ١٨ أكتوبر تمكن اللواء المدرع بقيادة العقيد جابي من تدمير معظم دبابات اللواء ٢٣ المدرع (من الفرقة ٣ مشاة ميكانيكية الاحتياطي الإستراتيجي للقيادة

العامة) الذي كان متقدما من الغرب إلى الشرق على محور وصلة أبو سلطان للقيام بهجوم مضاد على القوات الإسرائيلية في منطقة الدفرسوار. وفي يمين تشكيل فرقة أدان تقدم اللواء المدرع بقيادة العقيد نيتكا في اتجاه الغرب على وصلة سرابيوم، وتمكن من اجتياح الموقع المصري الضعيف القوة والتحصين غرب تقاطع طريق المعاهدة مع وصلة سرابيوم، ثم اتجه بدباباته جنوبا على محور طريق المعاهدة، وتفادى في طريق الموقع الذي كانت تحتله الكتيبة المشاة الميكانيكية من تشكيل اللواء ١١٦ مشاة ميكانيكي غرب تقاطع طريق المعاهدة مع وصلة أبو سلطان.

وعلى أثر وصول لواء نيتكا إلى الأرض المفتوحة، وعندما كان لواء جابي لا يزال مشتبكا مع القوات المصرية في منطقة المزروعات والأشجار، تلقى الجنرال أدان قائد الفرقة المدرعة رسالة لاسلكية من الجنرال جونين قائد القيادة الجنوبية يأمره فيها بتوجيه بعض وحداته للقيام بإغارات على مواقع الصواريخ المصرية أرض جو (سام) في العمق. وأصدر الجنرال أدان أمره على الفور إلى العقيد نيتكا وجابي كي يوجه كل منهما كتيبة مدرعة من لوائه للقيام بهذه الإغارة التي كانت في نظر القيادة الإسرائيلية مهمة عاجلة وحيوية، بعد أن تكبد الطيران الإسرائيلي بسبب وجود شبكة الدفاع الجوي المصرية غرب القناة خسائر فادحة في المرحلة الأولى من الحرب.

وتقدمت الكتيبة المدرعة التي أرسلها نيتكا على شكل مروحة إلى عمق حوالي ٢٠ كم غرب القناة ودمرت قاعدتي صواريخ أرض جو، وعادت إلى تشكيل اللواء بعد أن أوشك وقودها على النفاد، بينما اندفعت الكتيبة التي أرسلها جابي في اتجاه الجنوب إلى مسافة ١٠ كم، واشتبكت في طريقها مع بعض الدبابات المصرية وتمكنت من تدمير إحدى قواعد الصواريخ المصرية. وقد نجحت إغارات الدبابات الإسرائيلية على قواعد الصواريخ المصرية أرض جو (سام) في تحقيق هدفها، فمنذ صباح اليوم التالي تمكن الجنرال أدان من القيام بهجوم شامل في اتجاه الغرب والجنوب مدعما بالمعونة المباشرة من الطيران الإسرائيلي.

وخلال يوم ١٨ أكتوبر بذل الطيران المصري جهدا كبيرا لضرب رأس الكوبري الإسرائيلي غرب القناة، وتركزت هجماته على جسر معديات البونتون شمال البحيرة المرة الكبرى. وقامت ثلاث موجات من طائرات الميج بهجمات متعاقبة على الجسر الإسرائيلي وعلى بعض الجسور فوق ترعة السويس التي استولى عليها الإسرائيليون. وقد دارت خلال ذلك معارك جوية عنيفة اشتبكت فيها طائرات الميج ٢١ المقاتلة القاذفة المصرية مع

طائرات الميراج وفانتوم F4 الإسرائيلية في الجو وسقطت أعداد كبيرة من طائرات الطرفين. وقد ذكرت المصادر الإسرائيلية أن ٥ طائرات هيليكوبتر مصرية على ارتفاع منخفض قامت بهجمة انتحارية على الجسر الإسرائيلي فوق القناة، وألقت عليه براميل معبأة بالنابالم. ورغم أن معظم هذه الطائرات قد أسقطت إلا أنها كانت المرة الوحيدة خلال الحرب التي استخدمت فيها طائرات الهيليكوبتر في اشتباك قتالي مباشر.

وفي مساء يوم ١٨ أكتوبر، أرسل الجنرال أدان تقرير موقف عن طريق اللاسلكي إلى الجنرال جونين قائد القيادة الجنوبية كان يتضمن نتائج العمليات التي قامت بها وحداته على الضفة الغربية للقناة. ونظرا لأنه كان يتطلع للقيام باختراق ناجح في اتجاه الجنوب اعتبارا من ١٩ أكتوبر، فقد طلب من رئيسه أن يرسل إليه اللواء المدرع بقيادة العقيد آرييه (من تشكيل فرقة أدان) والذي كان جونين محتفظا به على الضفة الشرقية للعمل كاحتياطي عام للقيادة الجنوبية. ووافق الجنرال جونين على مطلبه دون اعتراض. وفي الصباح الباكر يوم ١٩ أكتوبر كان لواء العقيد آرييه قد أتم عبوره إلى غرب القناة، واستكمل الجنرال أدان بوصوله تشكيل فرقته وأصبح تحت قيادته ما يزيد على ٢٥٠ دبابة صالحة للقتال.

واعتبارا من صباح يوم ١٩ أكتوبر، وباندفاع فرقة الجنرال أدان نحو الجنوب في اتجاه السويس، أصبحت قواته تواجه لأول مرة قوات من الجيش الثالث كانت مكونة بصفة أساسية من وحدات من الفرقة ٤ المدرعة التي كان يتولى قيادتها العميد أ.ح محمد عبد العزيز قابيل ومن الفرقة ٦ مشاة ميكانيكية التي كان يتولى قيادتها العميد أبو الفتح محرم، وهما الفرقتان اللتان كانتا مخصصتين وفقا للخطة الموضوعة لتأمين النطاق التعبوي للجيش الثالث، ولكن القيادة العامة قامت بتوزيع وحدات الفرقتين توزيعا سيئا، مما أدى إلى إضعافهما وبالتالي إلى إضعاف الاحتياطي التعبوي للجيش الثالث بصورة خطيرة، كما سنشرح بالتفصيل فيما بعد.

وفي صباح يوم ١٩ أكتوبر قام الجنرال أدان بالتقدم في اتجاه الغرب والجنوب بلواءين مدرعين في النسق الأول (لواء نيتكا ولواء جابي) ولواء آرييه المدرع في الاحتياطي، وقد سارت عمليات ألوية الجنرال أدان على الضفة الغربية كما يلي:

لواء نيتكا: اندفع في اتجاه الغرب شمال وصلة أبوسلطان (كان الإسرائيليون يطلقون عليها الاسم الكودي Sacranut) للوصول إلى الهيئات المرتفعة شمال شرق تقاطع

وصلتي أبو سلطان ـ أبو صوير (كان الإسرائيليون يطلقون عليها الاسم الكودي Makt-sera) واشتبك في طريقه مع لواء مدفعية الميدان من تشكيل الفرقة٢٣ مشاة ميكانيكية الذي كانت مرابضه تقع غرب الموقع الدفاعي المصري عند تقاطع طريقي المعاهدة ـ أبو سلطان الذي كانت تحتله الكتيبة المتبقية من اللواء ١١٦ مشاة ميكانيكي . وبعد معركة استمرت حوالي ثلاث ساعات ، ورغم الخسائر التي تكبدتها الدبابات الإسرائيلية ، انتهت المعركة بتدمير لواء المدفعية وارتداد بقاياه إلى تقاطع عثمان أحمد عثمان . وانحرف لواء نيتكا بعد ذلك جنوبا على وصلة أبو صوير المتجهة إلى طريق مصر السويس ، ولم يلبث أن اصطدم بمقاومة عنيفة عند تقاطع وصلة أبو صوير مع طريق فايد القادم من اتجاه البحيرة المرة الكبرى . وكانت كتيبة من اللواء الثاني المدرع (من الفرقة ٤ المدرعة) تحتل موقعا دفاعيا قويا عند وادي العشرة ووادي أبو طلح في المرتفعات الحاكمة شمال غرب التقاطع (كان الإسرائيليون يطلقون عليها الاسم الكودي Miznefet) . وإزاء قوة الموقع المصري طلب نيتكا النجدة من قائده الجنرال أدان فوجه إليه كتيبة مدرعة من لواء العقيد آرييه (لواء الاحتياطي) ، وقامت هذه الكتيبة بتثبيت المقاومة المصرية بينما انحرف نيتكا بلوائه المدرع في اتجاه الشرق وتقدم على محور طريق فايد ـ البحيرة المرة (كان الإسرائيليون يطلقون عليه الاسم الكودي Vitamin) . وخلال التقدم طوى نيتكا المقاومات المصرية المبعثرة التي اعترضت طريقه ، وتمكن من الاستيلاء على أرض الهبوط التي تقع شمال مطار فايد .

لواء جابي: تقدم في اتجاه الغرب جنوب وصلة أبو سلطان وتفادى في طريقه كتيبة المشاة الميكانكية من اللواء ١١٦ مشاة ميكانيكي التي كانت ما تزال تحتل الموقع الدفاعي غرب تقاطع طريقي المعاهدة أبو سلطان ، ولم يلبث أن انحرف إلى اتجاه الجنوب الشرقي . وعندما اقترب من أحد مواقع صواريخ أرض جو (سام) المصرية أطلق عليه الموقع صاروخا على خط مرور مسطح (لأول مرة خلال الحرب) ، وطار الصاروخ فوق القوة المتقدمة ووقع بعيدا في الخلف على بعد حوالى نصف كيلو متر فقط من مركز القيادة المتقدم للجنرال إبراهام أدان . وتقدمت الكتيبة المدرعة الأمامية من لواء جابي من الشمال إلى الجنوب بحذاء قناة السويس على محور طريق المعاهدة (كان الإسرائيليون يطلقون عليه الاسم الكودي Havit) في اتجاه فايد ، ولكنها سرعان ما صدت أمام مقاومة مصرية قوية كانت تدافع عن مطار فايد ومدينة فايد .

لواء آرييه: بعد عبوره قناة السويس صباح يوم ١٩ أكتوبر أمر الجنرال أدان بوضعه في الاحتياطي وأسند إليه مهمة تأمين الجنب الأيسر ومؤخرة وحدات الفرقة .

وأصدر الجنرال أدان بعد ظهر يوم ١٩ أكتوبر أمره إلى لواءي نيتكا وآرييه بالقيام بحركة التفاف من ناحية اليمين والتقدم إلى جبل جنيفة لاحتلاله وتنظيم الدفاع عنه قبل أن تسنح الفرصة للقوات المصرية للوصول إليه. وتقدم اللواءان المدرعان في اتجاه جبل جنيفة على محورين منفصلين، ودمرا في طريقهما عدة مواقع صواريخ أرض جو (سام) كانت موجودة علي امتداد السفوح الغربية لجبل جنيفة.

فرقة كلمان ماجن: كانت فرقة الجنرال كلمان ماجن تتشكل من لواءين مدرعين بقيادة العقيدين دان وباروم واللواء مشاة ميكانيكي بقيادة العقيد بنتشاس، وقد تم عبورها القناة ليلة ١٨/ ١٩ أكتوبر إلى الضفة الغربية. وكانت المهمة التي خصصها الجنرال جونين للفرقة اعتبارا من صباح يوم ١٩ أكتوبر هي تطهير جيوب المقاومة المصرية التي خلفتها فرقة أدان وراءها في أثناء اندفاعها السريع في اتجاه الجنوب.

أهداف الفرق المدرعة الإسرائيلية غرب القناة

في صباح يوم ١٩ أكتوبر أصبحت القوات الإسرائيلية غرب القناة تتكون من ثلاث فرق مدرعة، هي فرقة الجنرال أريل شارون وفرقة الجنرال أدان وفرقة الجنرال كلمان ماجن، وقد واصلت هذه الفرق عملياتها لتحقيق أهدافها وفقا للخطة الموضوعة على محورين رئيسين:

المحور الشمالي: محور الإسماعيلية، وكانت تعمل عليه فرقة الجنرال شارون وحدوده الجنوبية وصلة أبو سلطان، واتجاه تقدمه شمالا بمحاذاة قناة السويس على طريق المعاهدة وعلى مواجهة من بحيرة التمساح شرقا إلى نفيشة غربا. وكان هدف شارون هو عبور ترعة الإسماعيلية والاستيلاء على مدينة الإسماعيلية. وكانت القوات المصرية الوحيدة التي تواجه فرقة شارون على هذا المحور جنوب ترعة الإسماعيلية، عبارة عن اللواء ١٨٢ مظلات بقيادة العقيد إسماعيل عزمي، وكتيبتين من الصاعقة. وسوف نقوم بشرح المعارك التي وقعت على المحور الشمالي بعد الانتهاء من دراسة المعارك والأحداث الخطيرة التي جرت على المحور الجنوبي.

المحور الجنوبي: محور السويس وكانت تعمل عليه فرقتا الجنرال أدان والجنرال ماجن، وحدوده الشمالية وصلة أبو سلطان، وكانت فرقة الجنرال أدان التي تتكون من ثلاثة ألوية مدرعة، تعتبر المجهود الرئيسي على هذا المحور، وكان اتجاه تقدمها من الشمال إلى

الجنوب على طريق المعاهدة غرب الشاطئ الغربي للبحيرات المرة. وكان هدفها النهائي هو الاستيلاء على مدينة السويس التي كان من المنتظر أن يحدث سقوطها دويا هائلا على المستوى العالمي، ويؤدي في نفس الوقت إلى استكمال حلقة الحصار حول الجيش الثالث الميداني.

وكانت فرقة الجنرال ماجن تتحرك عبر الأرض المفتوحة Cross Country في اتجاه الغرب والجنوب لحماية الجنب الأيمن ومؤخرة فرقة أدان. وكان هدفها النهائي هو قطع طريق القاهرة السويس الشمالي (طريق ١٢) ثم طريق القاهرة السويس الرئيسي، وبذا يتم عزل مدينة السويس والجيش الثالث عن طريق إمداداتهما مع القاهرة. وكان يواجه قوات هذا المحور وحدات من الفرقة ٦ مشاة ميكانيكية بقيادة العميد أ. ح محمد أبو الفتح محرم، ومن الفرقة ٤ المدرعة بقيادة العميد أ. ح محمد عبد العزيز قابيل.

كيف تشتت الاحتياطي التعبوي للجيش الثالث

كانت قوات الجيش الثالث غرب القناة التي يتشكل منها الاحتياطي التعبوي للجيش، تتكون من الفرقتين ٦ مشاة ميكانيكية و٤ المدرعة. وكان المفترض وفقا للأساليب التكتيكية السليمة أن تكون وحدات هاتين الفرقتين مجمعة ومركزة استعدادا لشن أي هجوم مضاد رئيسي Main Counter Attack على مستوى الجيش لصد أي اختراق للعدو للدفاعات المصرية شرق القناة . ولكن القيادة العامة أغفلت المبادئ التكتيكية الأساسية في استخدام الاحتياطيات التعبوية على مستوى الجيوش. وبدلا من الاحتفاظ بالوحدات الفرعية للفرق المدرعة والمشاة الميكانيكية غرب القناة مجمعة تحت سيطرة قادتها لإتاحة الفرصة لقائدي الجيشين الثاني والثالث للقيام بهجوم مضاد رئيسي على مستوى الجيش لتدمير أي قوة للعدو تنجح في اختراق الدفاعات المصرية شرق القناة والعبور إلى الغرب، كما جرى ليلة ١٥ / ١٦ أكتوبر التي عبرت خلالها قوة إسرائيلية إلى غرب القناة عند الدفرسوار، نجد أن القيادة العامة قد قامت بتوزيع وبعثرة وحدات الاحتياطي التعبوي شرق القناة وغربها. ووصل الأمر إلى حد أن قائد الفرقة ٦ مشاة ميكانيكية وجد نفسه منذ صباح يوم ٩ أكتوبر في مركز قيادة الفرقة في منطقة الجفرا جنوب جبل عويبد بمفرده فيما عدا بعض العناصر من قيادة الفرقة، دون أن يكون تحت قيادته أي وحدة من وحدات فرقته. وهذا التصرف من القيادة العامة بالإضافة إلى توزيعها لمعظم وحدات الاحتياطي الإستراتيجي المتمركز تحت يدها في القاهرة، والمفترض أن يكون على استعداد للقيام بالضربة المضادة

في حالة فشل الهجمات المضادة الرئيسية على مستوى الجيوش Counter Blow، هو دليل واضح على أن القيادة العامة لم تكن تتوقع إطلاقا قيام العدو بعملية اختراق للدفاعات المصرية شرق القناة، ثم القيام بعملية عبور إلى الغرب لإقامة رأس كوبري على الضفة الغربية للقناة، وهو أمر يتنافي تماما مع بعد النظر المطلوب توافره في المسئولين بالقيادة.

ولبيان مدى تشتت قوات الاحتياطي التعبوي نكتفي بالنسبة للعمليات في هذه المرحلة بدراسة أوضاع الفرقتين ٦ مشاة ميكانيكية و ٤ المدرعة اللتين كان يتشكل منهما الاحتياطي التعبوي للجيش الثالث:

الفرقة ٦ مشاة ميكانيكية: كانت تتشكل أساسا من اللواء ٢٢ المدرع واللواء الأول مشاة ميكانيكي واللواء ١١٣ مشاة ميكانيكي ولواء مدفعية الفرقة. ونتيجة لتوزيع جميع وحدات الفرقة ووضعها تحت قيادات أخرى، أصبح قائد الفرقة قائدا بلا فرقة، وأصبحت الفرقة غير موجودة من الناحية الواقعية، وتحولت بالفعل إلى ألوية مستقلة، وبذا ضاع الهدف الأساسي من تشكيلها بهذا التنظيم، وفقدت مميزاتها كفرقة مشاة ميكانيكية. وكانت وحدات الفرقة موزعة بالطريقة التالية:

- اللواء ٢٢ المدرع: رغم أنه القوة الضاربة الرئيسية في الفرقة، فقد وضع منذ بداية الحرب تحت قيادة الفرقة ١٩ مشاة، وعبر معها إلى شرق القناة حيث اتخذ مواقعه في رأس كوبري الفرقة.
- اللواء الأول مشاة ميكانيكي: كلف بعملية الهجوم على رأس سدر على الشاطئ الشرقي لخليج السويس، وعبر القناة ليلة ٨/٩ أكتوبر. وعلى أثر فشله في مهمته صدرت الأوامر بوضعه تحت قيادة الفرقة ١٩ مشاة بمهمة تأمين منطقتي عيون موسى ورأس مسلة.
- اللواء ١١٣ مشاة ميكانيكي: كان يحتل بكتيبتين قطاعا دفاعيا في منطقة بير عديب غرب خليج السويس، ويعمل بأوامر من قيادة الجيش الثالث. وكانت الكتيبة المشاة الميكانيكية الباقية من اللواء متمركزة عند مدخل وادي حجول من الناحية الشمالية عند علامة الكيلو متر ٨٥ على طريق القاهرة السويس.
- لواء مدفعية الفرقة: كان يشكل مجموعة مدفعية اللواء الأول مشاة ميكانيكي وكان في مواقعه شرق القناة في رأس كوبري الفرقة ١٩ مشاة.

الفرقة ٤ المدرعة : كانت تتشكل أساسا من اللواءين المدرعين الثاني والثالث واللواء ٦ مشاة ميكانيكي ولواء مدفعية الفرقة . ورغم أن الفرقة المدرعة هي القوة الضاربة في الاحتياطي التعبوي للجيش وهي مجهوده الرئيسي Main Effort في أي هجوم مضاد على مستوى الجيش، فإن قائد الفرقة في مركز قيادته بمنطقة الجفرا لم يكن تحت قيادته اعتبارا من ١٣ أكتوبر سوى اللواء الثاني المدرع، وكانت باقي وحدات الفرقة موزعة شرق القناة وغربها . وعندما أدركت القيادة العامة مدى تدهور الموقف غرب القناة في الوقت الذي لم يكن متوافرا في يدها أي احتياطي تعبوي أو إستراتيجي على مستوى الجبهة، خططت لاستخدام الفرقة ٤ المدرعة كاحتياطي إستراتيجي بعد تدعيمها باللواء المدرع بالحرس الجمهوري (الاحتياطي الأخير لديها) وذلك للقيام بالضربة المضادة . وعندما اتضح لها أنه لا يوجد تحت يد قائد الفرقة سوى لواء مدرع واحد بدأت في تحريك وحدات الفرقة الموزعة ما بين شرق القناة والنطاق المتوسط للعودة على وجه السرعة إلى منطقة تجمع بالجفرا بجوار قيادة الفرقة، وأرسلت ظهر يوم ٢٠ أكتوبر ضابط اتصال إلى قائد الفرقة لتفهم موقفها من حيث أوضاعها وكفاءتها القتالية . ولم تكن في مقدرة العميد أ.ح محمد عبد العزيز قابيل قائد الفرقة ٤ المدرعة أن يغامر باستخدام وحداته العائدة إليه في ضربة مضادة على مستوى القيادة العامة، ويتوقف عليها مستقبل الحرب، دون أن يقوم أولا بعملية إعادة تجميعها لرفع كفاءتها القتالية، ولذا طلب من القيادة العامة إعطاءه مهلة ٤٨ ساعة على الأقل . وكان عدم استعداد الفرقة للقيام بالضربة المضادة على الفور بسبب سوء توزيع وحداتها في المرحلة السابقة سببا في إلغاء عملية الضربة المضادة يوم ٢١ أكتوبر علاوة على أن أوان هذه الضربة المضادة كان قد فات .

هذا وقد كانت أوضاع الفرقة ٤ المدرعة يوم ١٩ أكتوبر كما يلي :

- قيادة الفرقة واللواء الثاني المدرع في منطقة الجفرا .
- اللواء الثالث المدرع (عدا كتيبة): شرق القناة ويعمل كاحتياطي في يد قائد الجيش الثالث . والكتيبة المدرعة الباقية من اللواء تحت قيادة الفرقة ٧ مشاة .
- اللواء ٦ مشاة ميكانيكي . . يقوم بتأمين النطاق المتوسط للجيش في منطقة الكيلو متر ١٠٩ طريق القاهرة السويس، ويعمل بأوامر من قيادة الجيش الثالث .
- لواء مدفعية الفرقة . . يعمل في معاونة الفرقة ٧ مشاة، ويحتل مواقعه شرق القناة داخل رأس كوبري الفرقة .

وعندما أدركت القيادة العامة استحالة قيام قائد الجيش الثالث بأي هجوم مضاد رئيسي على مستوى الجيش لتدمير القوات المدرعة الإسرائيلية التي أخذت تندفع داخل نطاقه التعبوي، بسبب عدم وجود الاحتياطي الذي يمكن له دفعه في هذه العملية، أصدرت يوم ١٩ أكتوبر تعليماتها العاجلة إلى قيادة الجيش الثالث بسحب معظم وحدات الفرقتين ٦ مشاة ميكانيكية و٤ المدرعة من مواقعها شرق القناة للعودة إلى غرب القناة لتوضع تحت قيادة الفرقتين. ورغم سحب هذه الوحدات من الشرق إلى الغرب، لم يكن في مقدرة قائدي الفرقتين القيام بأي هجمات مضادة رئيسية ضد العدو، فقد كان من المتعذر القيام بعملية إعادة التجميع كي تستعيد الوحدات كفاءتها القتالية بينما القوات المدرعة الإسرائيلية تشق طريقها بسرعة واندفاع داخل النطاق التعبوي. وكانت الفرقة ٦ مشاة ميكانيكية تنقصها قوتها الضاربة، فقد ظل اللواء ٢٢ المدرع باقيا في مواقعه شرق القناة، كما أن قائد الفرقة ٤ المدرعة كان متمركزا في الشمال عند تقاطع عثمان أحمد عثمان بعيدا عن منطقة الجفرا، وتحت قيادته وحدات اللواء الثاني المدرع (عدا كتيبة) في مواقعها الدفاعية بعد أن عهدت إليه القيادة العامة ظهر يوم ١٨ أكتوبر بمسئولية تأمين النطاق التعبوي للجيشين الثاني والثالث معا، مما جعل الأمر يقتصر على القيام بهجمات مضادة، محلية Local Counter Attacks بوحدات لاتزيد على كتيبة مدرعة أو مشاة ميكانيكية مدعمة وأصبح الغرض مقتصرا على صد العدو وإيقافه أو تعطيله، وليس بالطبع تدميره والقضاء عليه.

وعلاوة على ذلك، كان بعض ضباط العمليات من قيادة الجيش الثالث يصدرون التعليمات إلى القوات العائدة من شرق القناة وهي على المعابر لتوجيهها مباشرة إلى أماكنها الجديدة، ويخصصون لها في نفس الوقت المهام القتالية دون أن تعلم قيادات الفرق شيئا عن أوضاع ومهام وحداتها الفرعية العائدة من شرق القناة، مما أدى إلى إضعاف القيادة والسيطرة بشكل واضح. وأدت السرعة والعجلة التي اتسمت بها عملية تجميع الوحدات للهجوم المضاد وتخصيص المهام لها، إلى اختلاط الوحدات وعدم تجانسها، وكذا إلى تداخل القيادات وتشابك القطاعات بحيث أصبح من الصعب تحديد المسئوليات.

وقد صدرت التعليمات بتجميع الوحدات للقيام بالهجوم المضاد كما يلي:

الفرقة ٦ مشاة ميكانيكية: تحرك اللواء ١١٣ مشاة ميكانيكي (عدا كتيبة) من قطاع بير عديب ليلة ١٩/ ٢٠ أكتوبر للقيام بغيار اللواء ٦ مشاة ميكانيكي من الفرقة ٤ المدرعة ليعود

اللواء السادس الميكانيكي إلى منطقة الجفرا، وبذا أصبح اللواء ١١٣ مشاة ميكانيكي مسئولا عن تأمين الموقع المتوسط عند علامة الكيلو متر ١٠٩ طريق القاهرة السويس. وفي الساعة السابعة مساء يوم ٢٠ أكتوبر صدرت التعليمات بأن يقوم اللواء ١١٣ مشاة ميكانيكي (عدا كتيبة) بعد تدعيمه بكتيبة مدرعة من الفرقة ٤ المدرعة بالهجوم على مرتفعات جبل جنيفة ووادي سد الجاموس ليلا، على أن تعمل المشاة في مجموعات صغيرة مترجلة أمام الدبابات لكي تتشبث بالأرض ولتأمينها من الصواريخ المضادة للدبابات. وفي يوم ٢٠ أكتوبر عبر اللواء الأول مشاة ميكانيكي إلى غرب القناة، وقد كلفت كتيبة مشاة ميكانيكية من اللواء مدعمة بكتيبة دبابات اللواء بالاستيلاء على التبة الزلطية، وكلفت كتيبة مشاة ميكانيكية بتأمين تقاطع طريق جنيفة مع طريق القاهرة السويس الشمالي بينما تحتل كتيبة المشاة الميكانيكية المتبقية خط صد ما بين طريق القناة وطريق المعاهدة جنوب معسكر حبيب الله، وعندما تدهورت الأوضاع في قطاع الفرقة ٦ مشاة ميكانيكية صدرت التعليمات إلى قائد اللواء ٢٢ المدرع (من الفرقة السادسة الميكانيكية) بأن يتحرك على رأس كتيبة مدرعة من لوائه ويقوم بالعبور إلى غرب القناة في أول ضوء يوم ٢٢ أكتوبر للانضمام إلى قطاع اللواء ١١٣ مشاة ميكانيكي للقيام بعملية هجوم مضاد في اتجاه جبل غرة.

الفرقة ٤ المدرعة: في مساء يوم ١٩ أكتوبر صدرت تعليمات القيادة العامة بإعادة وحدات الفرقة ٤ المدرعة التي على الضفة الشرقية وفي النطاق المتوسط إلى منطقة الجفرا لإعادة تجميعها استعدادا لعملية الضربة المضادة. وبناء على هذه التعليمات بدأ اللواء ٣ المدرع في التحرك في أول ضوء يوم ٢٠ أكتوبر لعبور القناة إلى الغرب. وفي أثناء عودته إلى منطقة الجفرا صدرت التعليمات بسحب كتيبة مدرعة من اللواء لتدعيم اللواء١١٣ مشاة ميكانيكي (من الفرقة السادسة الميكانيكية) في عملية هجوم على جبل جنيفة. وكان اللواء ٦ مشاة ميكانيكي (من الفرقة ٤ المدرعة) قد أرسل يوم ١٧ أكتوبر بناء على تعليمات قيادة الجيش الثالث كتيبة مشاة ميكانيكية من اللواء إلى منطقة كسفريت لحماية الجنب الأيسر للجيش ومنع العدو من التقدم على طريق المعاهدة.

وعندما عاد اللواء ٦ مشاة مكانيكي (عدا كتية) إلى منطقة الجفرا بعد أن قام اللواء ١١٣ مشاة ميكانيكي بغياره في الموقع المتوسط، وبعد إلغاء عملية الضربة المضادة، صدرت التعليمات من قيادة الجيش الثالث إلى اللواء ٦ مشاة ميكانكي بالتحرك مع كتيبة الدبابات المتبقية من اللواء الثاني المدرع بالجفرا بمهمة تدمير دبابات العدو التي تحاول التسلل بين

ثغرات مواقعنا الدفاعية مستهدفة تدمير مواقع الصواريخ المصرية أرض جو سام S A M وكذا الدبابات التي تحاول الاستيلاء على المرتفعات للسيطرة على قواتنا في منطقة جبل القط ـ الحافة البيضاء ـ جبل أم كثيب بالتعاون مع اللواء ١١٣ (من الفرقة ٦ المشاة الميكانيكية) المكلف بالهجوم المضاد إلى الشرق من قطاع اللواء السادس الميكانيكي (من الفرقة ٤ المدرعة).

المعارك الحربية غرب القناة قبل وقف إطلاق النار

أولا ـ فرقة الجنرال إبراهام أدان: تقدمت وحدات الفرقة في اتجاه الجنوب وفقا للطريقة التالية:

- لواء جابي: تقدم اللواء المدرع بقيادة العقيد جابي في اتجاه الجنوب بحذاء الشاطئ الغربي للبحيرات المرة على طريق المعاهدة بقوته الأساسية، ونظرا للمقاومات المصرية العديدة التي اعترضت طريق تقدمه أمده الجنرال أدان بالإمدادات التي تلقاها من القيادة الجنوبية، وكانت عبارة عن كتيبة من المشاة وأخرى من المهندسين العسكريين. وبهذه القوة الإضافية واصل اللواء المدرع تقدمه في اتجاه فايد التي كانت تعتبر من أهم الأهداف العسكرية على هذا المحور، إذ كان يوجد بها مطار فايد ومنطقة ضخمة من معسكرات الجيش المصري ومدينة فايد نفسها التي كان يقطنها عدد من المدنيين. وقد نجحت القوة المصرية التي تدافع عن فايد بقيادة العقيد حسين حسني الذي عهد إليه الفريق سعد الشاذلي بمسئولية القيادة، في وقف تقدم قوات جابي طوال النهار يوم ١٩ أكتوبر. ولكن في الساعة السابعة مساء نجح العقيد جابي في إزاحة المقاومة المصرية التي كانت تدافع عن مطار فايد والتي قامت بنسف منشآته قبل انسحابها إلى الجنوب. وقد أبلغ الفريق الشاذلي الذي كان متواجدا في مركز القيادة المتقدم للجيش الثاني بالإسماعيلية القيادة العامة المركز ١٠ أن قوات فايد انسحبت تحت ضغط العدو في الساعة العاشرة صباح يوم ٢٠ أكتوبر.

ويلاحظ أن المقاومات المصرية التي اعترضت تقدم لواء جابى غرب البحيرات المرة خلال هذه الفترة، كانت عبارة عن مجموعات ضعيفة من الوحدات الإدارية أو مؤخرات الوحدات المصرية الموجودة على الضفة الشرقية، وكذا بعض المجموعات الخاصة التي شكلها مكتب المخابرات الحربية في فايد وزودت بأسلحة وصواريخ

مضادة للدبابات مثل مجموعتي السباعي والمنيسي، علاوة على فلول القوات الفلسطينية والكويتية التي كانت مكلفة منذ بدء الحرب بحماية الشاطئ الغربي للبحيرات المرة وانسحبت إلى الجنوب بعد العبور الإسرائيلي إلى غرب القناة.

وبسقوط مطار فايد في يد لواء جابي، أتيحت الفرصة للإسرائيلين لإنشاء رأس كوبري جوي على الضفة الغربية للقناة، وأصبح في إمكان القيادة الجنوبية الإسرائيلية تزويد قواتها على الضفة الغربية بالمؤن والإمدادات العاجلة بطائرات الهيليكوبتر وكذا إخلاء الجرحى بسرعة إلى الضفة الشرقية.

- لواء نيتكا ولواء آرييه: في الوقت الذي كان فيه لواء جابي متقدما في اتجاه الجنوب على محور طريق المعاهدة، قام اللواءان المدرعان بقيادة العقيدين نيتكا وآرييه وفقا لتعليمات الجنرال أدان بعد ظهر يوم ١٩ أكتوبر بحركة التفاف من ناحية الغرب إلى الجنوب في اتجاه جبل جنيفة، واستولت قواتهما في طريقها إليه على جبل شبراويت والجوزة الحمراء. وقد تمكنت العناصر الأمامية من لواءي نيتكا وآرييه من الوصول إلى مرتفعات جبل جنيفة صباح يوم ٢٠ أكتوبر. وكان لهذا تأثير كبير في مجرى العمليات في القطاع الساحلي، نظرا لأهمية هذا الجبل من الناحية التكتيكية بحكم إشرافه وتحكمه في جميع الطرق والهيئات الأرضية الموجودة في هذا القطاع وامتداده إلى مسافات بعيدة من جهتي الشرق والجنوب. وكان واجب القيادة المصرية أن تسبق القوات الإسرائيلية في الاستيلاء على هذا الهدف الحيوي بدلا من التأخير الذي جرى والذي أدى إلى تكليف اللواء ١١٣ (من الفرقة ٦ مشاة ميكانيكية) وكتيبة من اللواء ٣ المدرع (من الفرقة ٤ المدرعة) بالهجوم فجر يوم ٢١ أكتوبر للاستيلاء على جبل جنيفة. ورغم الخسائر التي تكبدتها القوات المصرية فإنها لم تتمكن من تحقيق هدفها.

وقبل فجر يوم ٢٢ أكتوبر تلقى الجنرال أدان رسالة لاسلكية من الجنرال جونين ذكر له فيها أنه سيكون هناك وقف لإطلاق النار بعد الساعة السادسة مساء من نفس اليوم. وقد حفز هذا النبأ الجنرال أدان كي يبذل أقصى جهوده ليتم اجتياز الشاطئ الغربي للبحيرات المرة بأسرع ما يمكن للوصول إلى المجرى الأصلي للقناة جنوب البحيرات والذي يفصله عن مدينة السويس حوالي ٢٣ كم، وهو الهدف الذي كان الجنرال أدان يتطلع للوصول إليه قبل وقف إطلاق النار.

وفي سبيل تحقيق هذا الهدف الكبير قام الجنرال أدان بتجميع ألويته الثلاثة، واندفع في

اتجاه الجنوب مستخدما تكتيك الانقضاض السريع بالدبابات Charge لحمل القوات المصرية التي تعترض طريق تقدمه على الهروب من مواقعها الدفاعية بسبب الرعب الذي يحدثه انقضاض الدبابات . ورغم أن هذه الطريقة نجحت نجاحًا باهرا خلال حرب يونيو ٦٧ ، فإنها سببت كارثة مروعة للإسرائيليين خاصة عند استخدامها في المرحلة الأولى من حرب أكتوبر ، وأدت إلى خسائر فادحة في الدبابات الإسرائيلية نتيجة لصمود قوات المشاة المصرية أمام الدبابات الإسرائيلية واستخدامها للصواريخ المالوتكا والقواذف RPG 7 من مسافات قصيرة .

وطبقا لتعليمات الجنرال أدان تقدمت الألوية المدرعة الثلاثة جابي في اليمين ونيتكا في المنتصف وآربيه في اليسار ، وقامت الفرقة بهجومها الشامل على مواجهة واسعة في اتجاه الجنوب . واستخدمت الدبابات الإسرائيلية تكتيك الانقضاض ، واندفعت صوب المواقع المصرية بأقصى سرعة ممكنة متفادية مناطق المقاومة الكبيرة لضمان سرعة التقدم ، ولكن تكتيك الانقضاض لم يصادف النجاح الذي أحرزه في حرب ٦٧ ، فقد اصطدمت الدبابات الإسرائيلية بمقاومات مصرية شرسة مما أبطأ سرعة تقدمها نحو الجنوب بشكل واضح . ولم تستطيع الوحدات المصرية الضعيفة التسليح والتحصين خلال هذه المرحلة أن تقوم بأكثر من تعطيل عملية التقدم المدرع الإسرائيلي في اتجاه الجنوب ، فقد كان العدو يتفوق عليها تفوقا هائلا في عدد الدبابات ، علاوة على المعاونة الجوية المباشرة التي كان يستخدمها لتدمير أي مقاومات تعترض طريق تقدمه ، مما أدى إلى تدمير وحدات مصرية بأكملها .

ورغم كل مافي حوزة الجنرال أدان من إمكانات التفوق ، فإنه لم يستطع الوصول إلى مجرى قناة السويس جنوب البحيرات المرة عندما حل توقيت وقف إطلاق النار في الساعة السادسة والدقيقة الثانية والخمسين مساء يوم ٢٢ أكتوبر .

ثانيا ـ فرقة الجنرال كلمان ماجن: اندفعت وحداتها صباح يوم ٢٠ أكتوبر في اتجاه الغرب والجنوب بعد أن استولت في اليوم السابق على تقاطع طريق المعاهدة مع وصلة أبو سلطان (الاسم الكودي Tsach لدى الإسرائيلين) وتقاطع وصلتي أبو صوير ـ أبو سلطان (الاسم الكودي Maktsera لدى الإسرائيلين) ووصل اللواء المدرع بقيادة العقيد دان شمرون وهو لواء اليمين في الفرقة إلى مسافة من ٢٠ إلى ٢٥ كم غرب البحيرات المرة . وتقدمت قوات الجنرال ماجن في اتجاه الجنوب الشرقي عن طريق المدقات وعبر الأرض المفتوحة

CrossCountry ، واستولت على جبل غرة وهو موقع حيوي يسيطر سيطرة تامة على طريق القاهرة السويس الشمالي ويبعد عنه بأقل من كيلو مترين ، ويعرف هذا الطريق باسم طريق ١٢ (الاسم الكودي لدى الإسرائيليين هو Asor). كما استولت على وادي سد الجاموس الذي له مدخلان من الجنوب يقودان إلى جبل جنيفة شرقا وجبل غرة غربا، وتقدمت قوة مدرعة من فرقة ماجن واستولت على التبة الزلطية التي لا تبعد أكثر من ٥كم من تقاطع وصلة جنيفة مع طريق القاهرة السويس الرئيسي (الاسم الكودي للطريق لدى الإسرائيليين Sarag) وذلك عند علامة الكيلو متر ١٠٥ .

قرار مجلس الأمن رقم ٣٣٨ بوقف إطلاق النار

في حوالي الساعة السابعة صباحا يوم ٢٢ أكتوبر بتوقيت القاهرة ، أصدر مجلس الأمن القرار رقم ٣٣٨ بوقف إطلاق النار ، وكان القرار يتضمن الفقرات الثلاث التالية :

أولا : دعوة جميع الأطراف المشتركة في القتال الحالي إلى وقف إطلاق النار ، وإلى إنهاء كل نشاط عسكري فورا ، على أن يتم ذلك في وقت لا يتجاوز ١٢ ساعة من صدور هذا القرار وذلك في المواقع التي تحتلها هذه الأطراف الآن .

ثانيًا : دعوة الأطراف المعنية إلى البدء فورا بعد وقف إطلاق النار في تنفيذ قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ بجميع أجزائه .

ثالثًا : البدء في مفاوضات فورية بين الأطراف المعنية في الوقت الذي يتم فيه وقف إطلاق النار تحت إشراف مناسب ، بغية تحقيق سلام دائم وعادل في الشرق الأوسط .

وكان القرار رقم ٣٣٨ الذي أصدره مجلس الأمن هو ثمرة اتصالات سياسية مهمة ، بدأت منذ الأسبوع الثاني من الحرب بين الرئيس السوفيتي ليونيد بريجنيف في موسكو والرئيس الأمريكي ريتشارد نيكسون في واشنطن ، وكان محور الاتصال بينهما أناتولي دوبرينين السفير السوفيتي في الولايات المتحدة ووزير الخارجية الأمريكي المتعصب لإسرائيل هنري كيسنجر . وبناء على دعوة عاجلة من بريجنيف سافر هنري كيسنجر إلى موسكو يوم ٢٠ أكتوبر وبدأت المحادثات بينه وبين الرئيس السوفيتي بريجنيف صباح يوم ٢١ أكتوبر والتي انتهت بمشروع القرار السوفيتي الأمريكي المشترك الذي وافق عليه مجلس الأمن وصدر صباح يوم ٢٢ أكتوبر باسم القرار رقم ٣٣٨ .

وفي تل أبيب دعت جولدا مائير رئيسة الحكومة مساء يوم ٢١ أكتوبر إلى اجتماع لمجلس الوزراء، حيث عرضت رسالة الرئيس الأمريكي نيكسون التي طلب فيها الموافقة على مشروع القرار السوفيتي الأمريكي الذي سيصدره مجلس الأمن والذي أرفقه برسالته. وخلال الاجتماع الذي انعقد عند منتصف الليل تمت الموافقة بالإجماع على مشروع القرار. وبمجرد أن أذيع القرار صباح يوم ٢٢ أكتوبر أعلنت إسرائيل على الفور موافقتها عليه.

وفي القاهرة عقد الرئيس السادات عدة اجتماعات مع السفير السوفيتي بالقاهرة فلاديمير فينوجرادوف. وفي يوم ٢١ أكتوبر قدم السفير السوفيتي رسالة مطولة من الرئيس السوفيتي بريجنيف عرض فيها تفاصيل مباحثاته مع كيسنجر في موسكو وأرفق بالرسالة مشروع القرار السوفيتي الأمريكي الذي سيصدره مجلس الأمن، ودعا السادات إلى الموافقةعليه. وفي نشرة أنباء الساعة الثانية والنصف ظهر يوم ٢٢ أكتوبر أعلنت إذاعة القاهرة موافقة الرئيس السادات على وقف إطلاق النار وفقا للقرار ٣٣٨ الصادر عن مجلس الأمن. وأرسل الفريق أول أحمد إسماعيل وزير الحربية والقائد العام للقوات المسلحة بيانا إلى جميع تشكيلات القوات المسلحة أورد فيه الأمر الذي أصدره الرئيس السادات بوصفه القائد الأعلى للقوات المسلحة بوقف إطلاق النار في الساعة السادسة والدقيقة الثانية والخمسين مساء يوم ٢٢ أكتوبر إذا التزم العدو بوقف إطلاق النار في هذا الموعد.

وقبل وقف إطلاق النار ببضع دقائق وبناء على أمر من الرئيس الراحل السادات أطلقت القوات المصرية قذيفتين من الصواريخ بعيدة المدى سكود R17 E على العدو في منطقة الدفرسوار.

وعندما أصبح قرار وقف إطلاق النار نافذ المفعول مساء يوم ٢٢ أكتوبر كانت فرقتا الجنرالين أدان وماجن اللتان في القطاع الجنوبي للعمليات الإسرائيلية غرب القناة، قد احتلتا منطقة تمتد من وصلة أبو سلطان شمالا على امتداد حوالى ٢٠ كم غرب البحيرات المرة غربا والخط من الجزء الجنوبي من شاطئ البحيرة المرة الصغرى إلى تقاطع وصلة جنيفة مع طريق القاهرة السويس الشمالي (طريق ١٢) وامتداد الطريق بعد ذلك إلى الغرب. وكانت هناك قوة مدرعة صغيرة تابعة لفرقة ماجن تهدد بنيرانها من المرتفعات شمال علامة الكيلو متر ١٠٥ المرور على طريق القاهرة السويس الرئيسي.

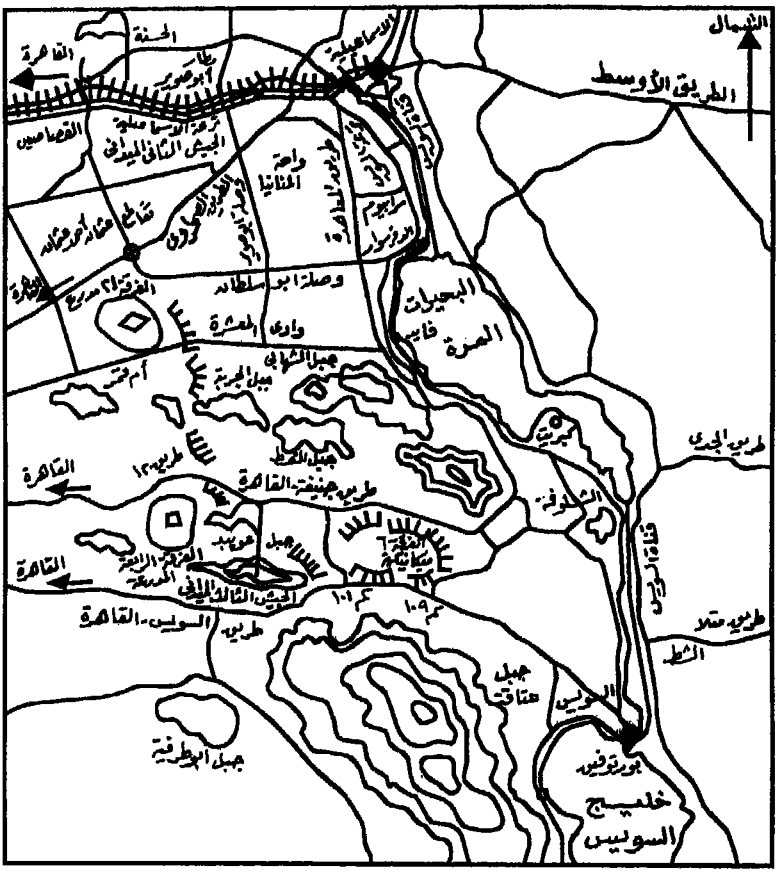
ولكن القوات الإسرائيلية لم تكن تسيطر سيطرة كاملة على المنطقة المستولى عليها، فقد كان ما يزال بداخلها وحدات مصرية تفادتها القوات المدرعة الإسرائيلية خلال اندفاعها السريع نحو الجنوب. وبسبب تداخل القوات المصرية والإسرائيلية في هذه المنطقة أصبح كل من الطرفين يهدد خطوط مواصلات الطرف الآخر.

وكان الإسرائيليون قد أصيبوا بخيبة أمل شديدة عقب حلول وقف إطلاق النار، فعلى الرغم من اندفاعهم المدرع نحو الجنوب والمعاونة الجوية المباشرة التي يقدمها السلاح الجوي الإسرائيلي لتدمير المقاومات المصرية التي تعترض طريق تقدمهم، وعلى الرغم من تفاديهم المقاومات المصرية الكبيرة في أثناء زحفهم، فإنهم لم ينجحوا في الوصول إلى بداية المجرى الرئيسي للقناة جنوب البحيرة المرة الصغرى والذي يقع على بعد حوالي ٢٥ كم شمال مدينة السويس، أي أن خطتهم لعزل مدينة السويس وحصار الجيش الثالث التي كانوا يستهدفون من ورائها التفاوض مع مصر من مركز قوة عقب وقف إطلاق النار بقصد إملاء شروطهم قد باءت كلها بالفشل. وتبدو هذه النوايا المبيتة بوضوح في مذكرات موشي ديان وزير الدفاع والتي قال فيها: «في الساعات الأولى من ٢٢ أكتوبر ألححت على الجنرال بارليف بضرورة الاستيلاء على جبل عتاقة في المنطقة الواقعة غرب خليج السويس، فمن شأن ذلك منحنا سيطرة عسكرية كاملة على المنطقة الممتدة من الإسماعيلية إلى خليج السويس، ومن شأنه أيضا إحباط أي احتمال للالتفاف حول القوات الإسرائيلبة غرب القناة».

الاندفاع الإسرائيلي نحو الجنوب في ظل وقف إطلاق النار

لم تكن هناك أدنى صعوبة أمام الإسرائيلين لتحقيق أهدافهم المبيتة، فقد كان من السهل عليهم إيجاد التبرير الذي يتيح لهم الفرصة لاستئناف عملياتهم الحربية وهو الإدعاء بأن قوات الجيش الثالث قد انتهكت قرار وقف إطلاق النار وأنها تطلق على قواتهم النيران. وقد تلقى كل من الجنرالين أدان وماجن توجيها من القيادة الجنوبية مساء يوم ٢٢ أكتوبر بمراعاة وقف إطلاق النار إذا التزم به المصريون، أما إذا لم يحترموه فإن عليهما استكمال المهام المسندة إليهما.

وكان واضحا من أسلوب التوجيه أن القيادة الجنوبية قد منحتهما التصديق المطلوب، وأضاءت أمامهما الضوء الأخضر للاندفاع بقواتهما جنوبا لاستكمال المهمة التي كانا يتلهفان على تحقيقها، وهي تطويق الجيش الثالث وعزل مدينة السويس، فإن التوجيه لم



مسرح العمليات جنوب ترعة الإسماعيلية من ١٨ إلى ٢٤ أكتوبر ١٩٧٣.

يمنحهما حق الرد على النيران المصرية بالمثل في حالة إطلاقها على قواتهما وهو الأمر المعتاد في مثل هذه المواقف، وإنما كان يدعوهما إلى استكمال المهام المسندة إليهما، والبون شاسع بالطبع بين الحالتين.

ونظرا لأن الإسرائيليين لم يكن في نيتهم إطلاقا وقف القتال قبل تحقيق الأهداف التي رسموها، لذلك تم التنسيق بين الجنرالين أدان وماجن ليلة ٢٢/ ٢٣ أكتوبر على الخطة التي سيجرى تنفيذها اعتبارا من صباح يوم ٢٣ أكتوبر. وتم اتفاقهما على أن تتقدم فرقة أدان جنوبا على طريقي القناة والمعاهدة بهدف عزل السويس وذلك عن طريق قطع الاتصال بين السويس والقاهرة غربا وبينها وبين الطريق المؤدي إلى خليج السويس جنوبا. ولإعطاء عمق كاف لعملية التطويق كان على الجنرال ماجن التقدم بفرقته على يمين فرقة أدان والمرور من خلال الجزء الغربي من قطاع هذه الفرقة بهدف الوصول إلى ميناء الأدبية الذي يقع على بعد حوالي ١٥ كيلو متر جنوب مدينة السويس. وفي ليلة ٢٢/ ٢٣ أكتوبر وبعد أن ادعت إسرائيل أن القوات المصرية انتهكت قرار وقف إطلاق النار، بدأت عمليات فرقتي أدان وماجن في اتجاه الجنوب كما يلي:

فرقة الجنرال أدان: كان الجنرال أدان حريصا على تأمين خطوط مواصلاته في أثناء اندفاع قواته جنوبا في اتجاه السويس. ونظرا لتداخل بعض جيوب المقاومة المصرية مع قواته بطريقة تهدد زحفه إلي الجنوب، فقد أصدر تعليماته بسرعة القيام بتطهير طريق المعاهدة والمنطقة المزروعة المحيطة به من القوات المصرية، وذلك في القطاع بين فايد والشلوفة (كان طوله يبلغ ٣٥ كم). وخلال الليل تسلم الجنرال أدان إمدادات من المشاة أرسلت إليه في الأغلب من الجبهة السورية التي كان القتال الفعلي قد توقف فيها منذ أكثر من أسبوع، وقد تم نقلها بواسطة طائرات الهيليكوبتر وعربات الأوتوبيس. وعن طريق دمج الإمدادات الجديدة مع الكتيبتين السابق وصولهما إليه يوم ٢٠ أكتوبر، أمكن للجنرال أدان تشكيل لواء مشاة يضم خمس كتائب كان يتحرك بوسائل نقل متعددة منها العربات المدرعة نصف جنزير وحاملات الجنود المدرعة، و عربات الأوتوبيس. وأسند أدان قيادة هذا اللواء إلى قائد ثاني الفرقة الجنرال دوفيك تماري، وبذا أصبحت فرقة أدان مشكلة من ثلاثة ألوية مدرعة ولواء مشاة خفيف الحركة. وخلال ليلة ٢٢/ ٢٣ تمكنت كتيبة المهندسين التابعة لفرقة أدان من تطهير طريق القناة (الاسم الكودي Test لدى الإسرائيليين) حتى موقع كبريت جنوبًا. واعتزم أدان ضرورة استكمال تطهير باقي الشاطئ الغربي للبحيرات المرة حتى الشلوفة جنوبا حتى يسهل عليه الاندفاع بمعظم قواته في اتجاه السويس.

وفي فجر يوم ٢٣ أكتوبر بدأت فرقة الجنرال أدان بألويتها الأربعة في استكمال عملية تطهير الشاطئ الغربي للبحيرات المرة. ونظرا لصعوبة الأرض وتماسك المقاومات المصرية، أصبح معدل التحرك بطيئا في جميع قطاعات الألوية. وخوفا من صدور قرار ثان من مجلس الأمن بتثبيت وقف إطلاق النار قبل أن تتمكن قواته من عزل مدينة السويس، فقد أسند الجنرال أدان مهمة استكمال عملية التطهير إلى لواءي نيتكا ودوفيك تمارى واندفع بلواءيه المدرعين الآخرين في اتجاه الجنوب واضعا لواء جابي في اليمين غرب طريق المعاهدة (الاسم الكودي Havit لدى الإسرائيليين) ولواء آرييه في اليسار بموازاة قناة السويس.

وعن طريق تفادي المقاومات الكبيرة التي كانت تعترض طريق التقدم وباستخدام تكتيك الانقضاض السريع بالدبابات، نجح اللواءان المدرعان في شق طريقهما للأمام بسرعة من خلال المواقع والمعسكرات المصرية التي كان معظمها يتكون من وحدات الشئون الإدارية ووحدات من الجيش الإقليمي ومؤخرات الوحدات التي على الضفة الشرقية للقناة ومعسكرات النقاهة، مما أتاح الفرصة للقوات الإسرائيلية للاستيلاء في هذه المرحلة على كميات كبيرة من الأسلحة والمعدات والمخازن وآلاف من الأسرى كان بينهم عدد كبير من المدنيين. وعند حلول الظلام، وبعد قتال عنيف على طول محور التقدم وصل اللواءان المدرعان إلى ضواحي مدينة السويس من الغرب عند تقاطع طريق المعاهدة مع طريق القاهرة السويس الرئيسي. ووضع العقيد جابي قائد اللواء المدرع الذي في اليمين قوة صغيرة من دباباته غرب السويس مباشرة وعلى مدخل الطريق الرئيسي المؤدي إلى القاهرة لعزلها عن الغرب، بينما تقدمت كتيبة مدرعة من لوائه على طول خليج السويس، حيث استولت على معامل تكرير البترول القديمة بالزيتية على بعد حوالي ٥كم جنوب غرب السويس، وبذا تم عزل مدينة السويس عن الطريق الذي يؤدي إلى الخليج.

فرقة الجنرال ماجن: تحركت فرقة ماجن من الشمال إلى الجنوب في قطاع عملياته غرب فرقة الجنرال أدان وتمكنت قواته الأساسية من الوصول إلى طريق القاهرة السويس والانضمام إلى عناصره المتقدمة التي كانت تحتل بعض المواقع الحاكمة شمال الطريق. وبعد أن ترك ماجن وحدة صغيرة من الدبابات في النقطة التي ذاعت شهرتها بعد ذلك وهي علامة الكيلو متر ١٠١ على طريق القاهرة السويس بهدف تأمين الجناح الأيمن لفرقته من أي هجمات مضادة من اتجاه القاهرة تحرك ماجن بقواته في اتجاه الشرق على محور طريق القاهرة السويس، وكان عدد دبابات لواءيه المدرعين قد هبط من ١٨٠ دبابة إلى حوالي

٥٠ دبابة فقط ، نتيجة للخسائر التي تكبدها أمام المقاومات المصرية الشرسة التي واجهت تقدم قواته عقب عبور فرقته إلى الضفة الغربية ليلة ١٨/ ١٩ أكتوبر وخلال تقدمها من منطقة الدفرسوار حتى وصلت إلى طريق القاهرة السويس يوم ٢٣ أكتوبر بعد قرار وقف إطلاق النار .

وقبيل الغروب عبرت دبابات ماجن من خلال لواء جابي وهو اللواء الأيمن لفرقة أدان واتجهت عبر الأرض المفتوحة Cross Country إلى السفوح الشمالية الشرقية لجبل عتاقة بعد أن أضاءت دباباته كشافاتها ، حيث تم الاتصال بين قوات ماجن وقوة إسرائيلية منقولة جوا تمكنت من احتلال السفوح الشمالية الشرقية لجبل عتاقة الذي يشرف على كل المنطقة حتى مدينة السويس وخليج السويس . وقد تمكنت هذه القوة من الاستيلاء على محطة إنذار إلكترونية كانت موجودة فوق الجبل . وواصلت عناصر فرقة ماجن الأمامية تقدمها في اتجاه الجنوب الشرقي حتى وصلت إلى مصنع الأسمدة الكيمياوية القديم على خليج السويس وعلى بعد حوالي ٣ كم إلى الجنوب من منطقة الزيتية .

وكلف الجنرال ماجن العقيد دان شمرون قائد اللواء المدرع الذي كان في أقصى اليمين من قواته والذي هبط عدد دباباته من حوالي ٩٠ دبابة إلى ١٧ دبابة فقط بسبب الخسائر الفادحة التي لحقت به خلال المعارك العنيفة التي خاضها مع الوحدات المصرية . كلفه بالتقدم إلى ميناء الأدبية الذي يقع على خليج السويس وعلى مسافة حوالى ١٥ كم جنوب مدينة السويس . وانطلق دان شمرون بدباباته التي أضاءت كل كشافاتها وكأنها في طابور عرض ليلي ، ولم يكن أحد من المصريين يتصور أن ذلك الرتل من الدبابات الذي يسير بشكل قطار فردي على طريق الأسفلت هو رتل دبابات إسرائيلية إذ إن الدبابات لم تكن تطلق النار على أحد ولا أحد يطلق عليها النار .

وفوجئت الحامية البحرية المصرية في ميناء الأدبية بدخول الدبابات الإسرائيلية عليها عند منتصف الليل ، فنشبت معركة قصيرة غير متكافئة بين رجال البحرية ودبابات العدو ، وتمكنت بعض اللنشات السريعة من الهرب من الميناء . وفي الصباح تم للإسرائيليين تطهير الميناء من مراكز المقاومة المصرية وتمكنوا من أسر عدد كبير من أفراد الحامية البحرية وبعض السفن الراسية في الميناء ، كما دخلت إلى الميناء بعض لنشات الصواريخ الإسرائيلية ، وبذا تم قطع طريق الإمداد البحري الذي كان يربط السويس بالخليج وأصبحت المدينة منذ منتصف ليلة ٢٣/ ٢٤ أكتوبر معزولة تماما عن الأراضي المصرية غرب القناة .

ونظرا لأن الجنرال جونين كان في شدة القلق خشية أن تتعرض العناصر المدرعة

الصغيرة الحجم التي تركها الجنرال ماجن لإغلاق الطريق الرئيسي بين السويس والقاهرة لهجوم مضاد مصري من اتجاه الغرب، أصدر قائد القيادة الجنوبية أوامره إلى الجنرال ماجن بترك حامية صغيرة في الأدبية والعودة ثانية بقواته الأساسية إلى طريق القاهرة السويس. وعندما وصلت دبابات ماجن إلى النقطة الإسرائيلية عند علامة الكيلو متر ١٠١ اتجهت غربا في اتجاه القاهرة لمحاولة كسب بضعة كيلو مترات أخرى من الطريق لتأمين الجنب الأيمن للفرقة، ولكنها اصطدمت بعد ثمانية كيلو مترات بموقع مصري حصين كانت تحتله عناصر مدرعة من اللواء الثالث التابع للفرقة ٤ المدرعة ودارت معركة عنيفة طوال الليل انتهت بارتداد الدبابات الإسرائيلية وعدولها عن مواصلة التقدم في اتجاه الغرب.

التحركات المصرية بعد انتهاك إسرائيل لوقف إطلاق النار

عند حلول موعد وقف إطلاق النار في مساء يوم ٢٢ أكتوبر كانت الفرقة الرابعة المدرعة التي أسندت القيادة العامة إلى قائدها مهمة تأمين النطاق التعبوي للجيش الثاني والثالث قد احتلت وحداتها خطا على بعد ٥كم شرق الخط العام تقاطع عثمان أحمد عثمان ـ وادي أبو طلح ـ جبل أم كثيب ـ الحافة البيضاء ـ مشاش البحارة ـ جبل عويبد (على مواجهة حوالى ٧٠ كم)، وفي الساعة الحادية عشرة صباح يوم ٢٣ أكتوبر صدرت التعليمات من القيادة العامة عن طريق قيادة الجيش الثاني إلى العميد أ.ح إبراهيم العرابي بأن يتحرك بقيادة الفرقة ٢١ المدرعة فقط من موقعه شرق القناة إلى تقاطع عثمان أحمد عثمان، ليتسلم مسئولية تأمين النطاق التعبوي للجيش الثاني من العميد أ.ح محمد عبد العزيز قابيل قائد الفرقة ٤ المدرعة الذي تقرر عودته ليتولى مسئولية تأمين قطاعه الأصلي بالجيش الثالث كما كان الحال من قبل. ووضع تحت قيادة العميد العرابي اللواء ٢٣ المدرع الجاري استكماله وكتيبة دبابات من اللواء ٢ المدرع (من الفرقة ٤ المدرعة) وكتيبة مظلات وكتيبة استطلاع وكتيبة مهندسين من الفرقة ٢٣ مشاة ميكانيكية. وفي الساعة الثالثة ظهرا تولى العميد العرابي مسئولية قيادته الجديدة غرب القناة على مواجهة حوالي ٣٥ كم، ولكن العدو لم يكن له أي نشاط يذكر على هذه المواجهة.

وفي قطاع الجيش الثالث غرب القناة وبعد انتهاك الإسرائيلين لقرار وقف إطلاق النار، حاول اللواء عبد المنعم واصل قائد الجيش الثالث تأمين طريق القاهرة السويس الرئيسي الذي كانت المواقع الإسرائيلية شمال الطريق تهدد المرور عليه، فأصدر تعليماته

في الساعة الثانية صباح يوم ٢٣ أكتوبر إلى قائد الفرقة ٦ مشاة ميكانيكية بأن يقوم اللواء ١١٣ مشاة ميكانيكي (عدا كتيبة) وتحت قيادته كتيبة الدبابات التابعة للواء ٢٢ المدرع، في أول ضوء يوم ٢٣ أكتوبر باسترداد مرتفعات جبل جنيفة والمدخل الشرقي لوادي سد الجاموس، وأن تقوم كتيبة مشاة ميكانيكية من اللواء الأول مشاة ميكانيكي مدعمة بكتيبة صاعقة باسترداد التبة الزلطية، وأن يشكل اللواء الأول الميكانيكي قوة مدرعة لتدمير دبابات العدو الموجودة شمال علامة الكيلو متر ١٠٥ على طريق القاهرة السويس، بينما تدفع العناصر المتبقية من اللواءإلى السويس لتأمين مداخلها. ولكن هذه المهام لم يكن في الإمكان تنفيذها لضآلة القوات التي تبقت بعد المعارك العنيفة التي خاضتها وحدات الفرقة ٦ مشاة ميكانيكية في الأيام الثلاثة السابقة ضد قوات العدو المدرعة، التي كانت تتفوق عليها تفوقا ساحقا من حيث عدد الدبابات وقوة النيران، والتي كان الطيران الإسرائيلي يقوم بتدمير أي مقاومات تعترض طريق تقدمها. وقد بلغ تآكل الوحدات المصرية إلى الحد الذي جعل قائد الفرقة ٦ مشاة ميكانيكية يذهب بنفسه ومعه رئيس عمليات الفرقة لمرافقة القوة الصغيرة التي أمكن تدبيرها من اللواء الأول مشاة ميكانيكي، لفتح طريق القاهرة السويس عند علامة الكيلو متر ١٠٥ والتي كانت تتكون من ٦ دبابات وعربتين مالوتكا ضد الدبابات من طراز نمر أي مجرد فصيلة مدرعة.

وكان أخطر الأحداث التي وقعت في قطاع الجيش الثالث غرب القناة يوم ٢٣ أكتوبر هو اقتحام دبابات العدو لمركز القيادة المتقدم للجيش الثالث. وكان مركز القيادة الذي يقع شمال غرب السويس قد تعرض منذ صباح يوم ٢٣ أكتوبر لغارات جوية عنيفة استمرت طوال اليوم، مما أدى إلى تهدم بعض أجزائه علاوة على التهديد الذي كان معرضا له نتيجة للمعلومات التي وردت عن تقدم الدبابات الإسرائيلية من الشمال في اتجاه السويس.

وعندما أبلغ قائد الجيش الثالث القيادة العامة المركز ١٠ بالموقف المتحرج الذي أصبح يواجهه، أصدر الفريق أول أحمد إسماعيل أمره بانتقال مركز القيادة المتقدم للجيش إلى مركز القيادة الرئيسي في الخلف جنوب جبل عويبد وإلغاء مركز القيادة المتقدم، وأن تشكل مجموعة قيادة للانتقال إلى الضفة الشرقية للقناة لقيادة الفرقتين ٧ و١٩ مشاة. وقد أمر اللواء عبد المنعم واصل قائد الجيش الثالث بتشكيل مجموعة القيادة برئاسة اللواء مصطفى شاهين رئيس أركان الجيش الثالث ومعه بعض الضباط من شعبة عمليات الجيش للانتقال إلى الضفة الشرقية كي يتولى قيادة الفرقتين تنفيذا لتعليمات القائد العام، ولكن مجموعة القيادة لم يتيسر لها الانتقال إلى الضفة الشرقية كما كان المفترض. وعند غروب

شمس يوم ٢٣ أكتوبر وفي أثناء تقدم اللواء المدرع بقيادة العقيد جابي من فرقة أدان في اتجاه الجنوب، اقتحمت دباباته مركز القيادة المتقدم للجيش الثالث وكان قائد الجيش وقتئذ داخل الملجأ المشيد تحت الأرض وبرفقته مساعده ورئيس شعبة العمليات وكذا قائد الفرقة ٦ مشاة ميكانيكية الذي كان قد استدعي للحضور إلى مركز القيادة بالإضافة إلى بعض الضباط من شعبة العمليات ومن قيادة الفرقة. ورغم وقوع خسائر جسيمة بين أفراد مركز القيادة المتقدم للجيش الذين كانوا خارج الملجأ وتهدم معظم أجزائه بفعل نيران الدبابات الإسرائيلية المقتحمة، فقد نجا جميع الذين كانوا داخل الملجأ بأعجوبة إذ مرت الدبابات الإسرائيلية على أمتار قليلة منهم دون أن تكتشفهم بسبب الظلام. واضطر قائد الجيش الثالث إلى إخلاء مركز قيادته الأمامي على الفور، وانتقل معه بعض ضباط قيادته إلى مركز القيادة الرئيسي جنوب جبل عويبد.



ملحق صور الفصل السابع



فريق سعد الشاذلي

تولى قيادة الجيش الثاني من بعد ظهر يوم ١٨ حتى ظهر يوم ٢٠ أكتوبر (حوالي ٤٤ ساعة).



لواء عبد المنعم خليل

أمر بتأخير ساعة بدء هجوم اللواء ٢٣ المدرع لتكون السابعة صباحا يوم ١٨ أكتوبر نظرا لتكاثف الضباب.



لوء محمد عبد الغني الجمسي

اتصل بقائد الجيش الثاني قبل هجوم اللواء ٢٣ المدرع وأبلغه أن الضباب عطل خروج الطيران لتوجيه ضربته.



عميد حسن عبد الحميد

قائد اللواء ٢٣ المدرع (من الفرقة ٣ مشاة ميكانيكية احتياطي القيادة العامة).



عميد محمد عبد العزيز قابيل

قائد الفرقة ٤ المدرعة أسندت إليه القيادة العامة يوم ١٨ أكتوبر مسئولية تأمين النطاق التعبوي للجيش الثاني والثالث معا.



عميد محمد أبو الفتح محرم

نتيجة لتوزيع جميع وحدات الفرقة ٦ مشاة ميكانيكية ووضعها تحت قيادات أخرى أصبح قائدا للفرقة بلا وحدات.



عميد أحمد عبود الزمر

ثبت في بطولة بمركز قيادة الفرقة المتقدم ولم ينسحب حتى خرّ شهيدا تحت جنازير الدبابات الإسرائيلية.



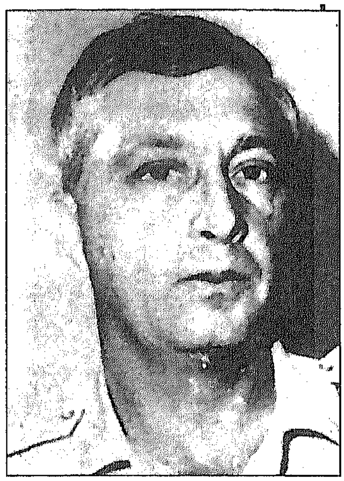
عقيد إسماعيل عزمي

قائد اللواء ١٨٢ مظلات أسند إليه قائد الجيش الثاني مهمة تأمين المصاطب عل الضفة الغربية ومنع العدو من توسيع اختراقه.



لواء طيار محمد حسني مبارك

اشتبكت الطائرات المصرية مع الطائرات الإسرائيلية في معارك جوية عنيفة يوم ١٨ أكتوبر في أثناء قيام الطائرات المصرية بضرب الكباري الإسرائيلية المقامة على القناة.



الجنرال أريل شارون

استكمل يوم ١٩ أكتوبر عملياته غرب القناة.



الجنرال كلمان ماجن

عبر بفرقته إلى الضفة الغربية للقناة ليلة ١٨/١٩ أكتوبر.



الجنرال إبراهام أدان

عبر بفرقته إلى الضفة الغربية للقناة ليلة ١٧/١٨ أكتوبر.



الزعيم السوفيتي ليونيد بريجنيف

وجه دعوة إلى كيسنجر للحضور إلى موسكو للاتفاق على مشروع قرار بوقف إطلاق النار.



الرئيس الأمريكي ريتشارد نيكسون

أرسل وزير خارجته إلى موسكو يوم ٢٠ أكتوبر للتباحث مع بريجنيف بشأن إعداد مشروع قرار مشترك بوقف إطلاق النار.



هنري كيسنجر وزير الخارجة الأمريكي

سافر إلى موسكو يوم ٢٠ أكتوبر وتم اتفاقه مع بريجنيف على مشروع القرار الذي أصدره مجلس الأمن يوم ٢٢ أكتوبر (القرار رقم ٣٣٨).



أناتولي دوبرينين

السفير السوفيتي بواشنطن.



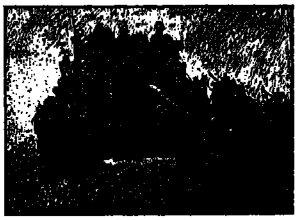
فلاديمير فينوجرادوف

قدم إلى الرئيس السادات ٢١ أكتوبر مشروع القرار الأمريكي السوفيتي الذي أصدره مجلس الأمن في اليوم التالي.



جولدا مائير رئيسة وزراء إسرائيل

أعلنت باسم الحكومة الإسرائيلية موافقتها على القرار رقم ٣٣٨ فور إذاعته.



■ الفصل الثامن ■

المحاولات الإسرائيلية للاستيلاء على مدينة السويس

في فجر يوم ٢٣ أكتوبر انتهكت إسرائيل قرار مجلس الأمن رقم ٣٣٨ الصادر في ٢٢ أكتوبر ٧٣ بوقف إطلاق النار، فقد تقدمت الفرقتان المدرعتان بقيادة الجنرالين إبراهام أدان وكلمان بموافقة القيادة الجنوبية الإسرائيلية، جنوبا في اتجاه السويس، وأصبح من الواضح أن إسرائيل مصممة على تحقيق أهدافها التي لم تتمكن من تحقيقها قبل وقف إطلاق النار، بسبب المقاومة المصرية الباسلة، وهي عزل مدينة السويس وإحكام الحصار حول الجيش الثالث الميداني شرق القناة، لاستخدام ذلك كورقة رابحة في يدها للمساومة بها خلال المحادثات التي كان من المنتظر عقدها بينها وبين مصر وفقا لقرار مجلس الأمن رقم ٣٣٨.

وفي الساعة التاسعة والنصف صباحا يوم ٢٣ أكتوبر بتوقيت شرق الولايات المتحدة، اتصل كورت فالدهايم السكرتير العام للأمم المتحدة من نيويورك بوزير الخارجية الأمريكية هنري كيسنجر في واشنطن هاتفيا، وأخطره أن مصر تقدمت بشكوى رسمية عن الخرق الإسرائيلي لوقف إطلاق النار، وأنه يقترح إيفاد قوة طوارئ دولية لمراقبة وقف إطلاق النار.

قرار مجلس الأمن رقم ٣٣٩ في ٢٣ أكتوبر ١٩٧٣

نظرا لأن السفير السوفيتي أناتولي دوبرينين كان لا يزال في موسكو عقب حضوره محادثات الرئيس بريجينيف وكسنجر يوم ٢١ أكتوبر في العاصمة السوفيتية، فقد بادر كيسنجر عقب حديث فالدهايم معه إلى الاتصال بالقائم بالأعمال السوفيتي في واشنطن،

وقدم له اقتراحا لينقله إلى موسكو، وهو أن يجتمع مجلس الأمن كي يكلف السكرتير العام فالدهايم بإصدار نداء إلى الأطراف المعنية بضرورة الالتزام بوقف إطلاق النار وفقا لقرار المجلس رقم ٣٣٨.

وكان هنري كيسنجر الشديد التعصب لإسرائيل بحكم ديانته اليهودية، قد استغل منصبه كوزير خارجية الولايات المتحدة لتقديم مساعدات ضخمة لإسرائيل منذ بداية الحرب في شتى المجالات. وأثناء محادثاته مع بريجنيف خلال رحلته إلى موسكو من أجل وقف إطلاق النار، تعمد إضاعة الوقت وتأخير اجتماع مجلس الأمن لكي يعطي مهلة إضافية لإسرائيل عسى أن تسجل قواتها مزيدا من التقدم في جبهة القتال.

وخلال وجوده في موسكو أبرقت إليه جولدا مائير رئيسة وزراء إسرائيل تطلب منه القدوم إلى إسرائيل قبل عودته إلى واشنطن، وعلى الفور غير كيسنجر من مسار رحلته كلها لكي يستجيب لطلب رئيسة وزراء إسرائيل، ووصل إلى مطار بن جوريون في الساعة الواحدة ظهر يوم ٢٢ أكتوبر أي بعد صدور قرار مجلس الأمن رقم ٣٣٨ بست ساعات.

وقبل أن يغادر كيسنجر إسرائيل، كان موعد سريان وقف إطلاق النار قد حل، وقد سجل كيسنجر في مذكراته ما يثبت تماما أنه قد استغل منصبه لكي يعطي إسرائيل ضوءا أخضر لكي تخرق وقف إطلاق النار، فقد ذكر بالحرف: «في إسرائيل ولكي أحظى بمساندتهم فإنني أشرت لهم أنني سوف أتفهم الأمر إذا أفلتت ساعات قليلة من سريان وقف إطلاق النار، وستفلت هذه الساعات بينما أكون عائدا بطائرتي إلى واشنطن». وعلى ذلك لم يكن اقتراح كيسنجر للقائم بالأعمال السوفيتي بتكليف مجلس الأمن لفالدهايم بإصدار نداء إلى الأطراف المعنية للالتزام بوقف إطلاق النار.. سوى حلقة جديدة من سلسلة إضاعة الوقت التي أحكم كيسنجر تدبيرها لمنح القوات الإسرائيلية الفرصة التي تتوق إليها لتحقيق أهدافها.

ولكن كيسنجر في غمرة مناوراته الملتوية نسى أن زعماء الكرملين في موسكو كانوا يدركون جيدا حقيقة أهدافه ومراميه في سبيل خدمة إسرائيل، ولذا أدركته الدهشة حينما نقل إليه القائم بالأعمال السوفيتي مذكرة عاجلة موجهة إليه من الرئيس السوفيتي بريجنيف، إذ إن ذلك الإجراء لم يسبق حدوثه من قبل، فإن بريجنيف وفقا للأعراف الدبلوماسية لا يوجه رسائله إلا إلى الرئيس الأمريكي نيكسون. وفهم كيسنجر على الفور

أن الرئيس السوفيتي يريد أن يلفت نظره بهذه الرسالة المباشرة المرسلة إليه . . إلى أنه يدرك جيدا حقيقة الدور الذي يلعبه في الخفاء لكي يخدم إسرائيل . وسجل بريجنيف في رسالته أن القوات الإسرائيلية تتحرك جنوبا بمحاذاة الضفة الغربية لقناة السويس، وأن هذه الأعمال الإسرائيلية غير مقبولة وتمثل خداعا وتحايلا فاضحا، ولذا فهو يقترح اجتماعا عاجلا لمجلس الأمن ظهرا لإعادة تأكيد وقف إطلاق النار ،وإصدار الأمر للقوات الإسرائيلية بالعودة إلى المواقع التي كانت عليها لحظة صدور القرار رقم ٣٣٨ في اليوم السابق.

وفور تلقي كيسنجر رسالة بريجنيف، سارع بالاتصال بالسفير الإسرائيلي في واشنطن سيمحا دينتز لإبلاغه بهذا التطور. وخلال دقائق معدودات كانت جولدا مائير رئيسة وزراء إسرائيل على سماعة الهاتف تطلب كيسنجر من تل أبيب . وأخبرها كيسنجر بأن الولايات المتحدة لن تتمكن من الاعتراض على مشروع قرار يتقدم به الاتحاد السوفيتي إلى مجلس الأمن لعودة القوات المتحاربة إلى خط ٢٢ أكتوبر وفقا لقرار رقم ٣٣٨ الذي اشتركت الولايات المتحدة نفسها في صياغته وتقديمه. وعندما لاحظ كيسنجر قلقها أخذ يهدئ من روعها فقال لها وفقا لما ورد في مذكراته بالحرف: « إنني أقترح عليك أن تنسحب قوات إسرائيل في هذه الحالة مئات قليلة من الياردات من أي مواقع تكون قد وصلت إليها الآن، ثم تقف وتقول إن هذا هو خط ٢٢ أكتوبر». وأضاف كيسنجر متهكما لرئيسة وزراء إسرائيل: «كيف يمكن لأي شخص أن يعرف على الإطلاق أين كان يوجد خط ٢٢ أكتوبر في الصحراء؟».

وهكذا أعطى كيسنجر الضوء الأخضر الجديد لإسرائيل لكي تمضي قواتها في عملياتها الحربية منتهكة قرار وقف إطلاق النار دون خوف من العقاب، إذ إن الحل بسيط فيما لو تأزمت الأمور، هو أن تنسحب قوات إسرائيل بضع مئات من الياردات وتقول: هذا هو خط ٢٢ أكتوبر.

لقد كان هنري كيسنجر هو وزير خارجية إحدى القوتين العظميين، ويمكنها أن تعرف بسهولة بوسائلها المتطورة في الاستطلاع الجوي أين كان يوجد خط ٢٢ أكتوبر على وجه التحديد، وكان كيسنجر بالذات قد تسلم قبل مغادرته إسرائيل تقريرا عسكريا إسرائيليا كان يحدد خط ٢٢ أكتوبر، ومع ذلك فهو نفسه الذي يقول لرئيسة وزراء إسرائيل متهكما . . إن أحدا لا يعرف مطلقا أين كان يوجد خط ٢٢ أكتوبر. وقد سجل كيسنجر في

مذكراته أنه في محاولة لكسب الوقت اتصل بالقائم بالأعمال السوفيتي في حوالي الساعة الحادية عشرة والنصف . . لكي يخبره أن الولايات المتحدة لا تمانع في دعوة مجلس الأمن للانعقاد ظهرا ، ولكنها لن تكون على استعداد للتصويت إلا فيما بعد ، كما أنها لا توافق على انسحاب إسرائيل إلى خط ٢٢ أكتوبر .

وفي حوالي الساعة الثانية عشرة والنصف ظهرا ـ أي في خلال ساعة واحدة فقط من رسالة كيسنجر إلى موسكو ـ وردت رسالة من بريجنيف في هذه المرة إلى الرئيس الأمريكي نيكسون . وكانت رسالة الرئيس السوفيتي شديدة اللهجة . فقد أشار في رسالته إلى أن الاتحاد السوفيتي ، يرى أن خرق إطلاق النار هذه المرة هو خيانة في ظل ضمان كل من الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي ، لذلك فهو يطلب اتخاذ أكثر الإجراءات فعالية بصفة مشتركة وبدون أي تأخير لفرض وقف إطلاق النار .

ونظرا لأن نيكسون لم يكن مشتركا مع وزير خارجيته في مناوراته المشبوهة لمساندة إسرائيل في استمرار خرقها وقف إطلاق النار ـ إذ إن ذلك لم يكن في صالح الولايات المتحدة ـ فقد بعث برده إلى بريجنيف الذي أقر فيه بالمسئولية الكاملة للولايات المتحدة عن التزام إسرائيل بوقف إطلاق النار ، وموافقته على ضرورة إعادة إسرائيل إلى خط ٢٢ أكتوبر . واضطر كيسنجر إلى إبلاغ القائم بالأعمال السوفيتي برسالة نيكسون إلى بريجنيف ، التي كانت تتناقض مع ماسبق أن أبلغه لموسكو من عدم موافقة الولايات المتحدة على الانسحاب إلى خط ٢٢ أكتوبر .

وعندما علم القادة السوفيت أن القوات المدرعة الإسرائيلية غرب القناة تندفع إلى الجنوب في سرعة خاطفة دون اكتراث بوقف إطلاق النار في محاولة لعزل السويس ومحاصرة الجيش المصري الثالث شرق القناة ، اتخذ بريجنيف خطوة أشد عنفا مما سبق . فبعث برسالة جديدة إلى الرئيس نيكسون ، أصبحت هي الرسالة الثانية خلال أقل من ساعتين ، يطلب فيها دعوة مجلس الأمن للانعقاد في الحال لفرض وقف إطلاق النار وإعادة القوات الإسرائيلية إلى خط ٢٢ أكتوبر دون أي تأخير . وبعد هذا الموقف المتشدد من السوفيت ، اضطر كيسنجر إلى تغيير موقفه كما يبدو بوضوح في مذكراته ، فقد ذكر أن اعتبارات أخرى قد طرأت على الموقف ، فلم تكن للولايات المتحدة مصلحة في رؤية السادات يتم تدميره عن طريق انهيار وقف إطلاق النار الذي كانت الولايات المتحدة نفسها شريكة في الإشراف عليه ، وأنه في حالة سقوط السادات فإن المرجح أن يحل قائد

راديكالي يميل إلى السوفيت، وسوف تقوم الأسلحة السوفيتية في وقت قياسي بإعادة تشكيل ما يعادل قوات الجيش الثالث، ولابد في هذه الحالة من نشوب حرب أخرى بين مصر وإسرائيل إن عاجلا أو آجلا.

وإزاء هذه التطورات، تم إبلاغ بريجنيف في الخامسة والربع مساء بأن واشنطن توافق على التقدم بمشروع أمريكي سوفيتي مشترك إلى مجلس الأمن لتثبيت وقف إطلاق النار ومطالبة القوات المتحاربة بالعودة إلى خط ٢٢ أكتوبر. وبناء على ذلك اجتمع مجلس الأمن مساء يوم ٢٣ أكتوبر، وعندما تقدم جون سكالي مندوب الولايات المتحدة بالمشروع الأمريكي أعلن المندوب السوفيتي جاكوب مالك تأييده للمشروع، وطالب بالاقتراع عليه في الحال فأحرز ١٤ صوتا لامتناع الصين عن التصويت، وصدر بذلك القرار الذي عرف باسم قرار مجلس الأمن رقم ٣٣٩، وكان نصه كما يلي: «إن مجلس الأمن إذ يشير إلى قراره رقم ٣٣٨ الصادر بتاريخ ٢٢ أكتوبر ٧٣:

أولا - يؤكد قراره المتعلق بوقف جميع أنواع إطلاق النار وجميع الأنشطة العسكرية فورا، ويحث على أن تعود قوات الجانبين إلى المواقع التي كانت تحتلها عند نفاذ قرار وقف إطلاق النار.

ثانيا - يطلب من السكرتير العام اتخاذ الإجراءات اللازمة لإرسال مراقبين من الأمم المتحدة فورا لمراقبة الالتزام بوقف إطلاق النار بين قوات إسرائيل وقوات جمهورية مصر العربية مستخدما لهذه الغاية أفراد الأمم المتحدة الموجودين حاليا في الشرق الأوسط، وفي المقام الأول الموجودين في القاهرة».

الإصرار الإسرائيلي على خرق وقف إطلاق النار

عند منتصف ليلة ٢٣/ ٢٤ أكتوبر كانت القوات الإسرائيلية التي اندفعت في اتجاه الجنوب منذ فجر ٢٣ أكتوبر قد أكملت في ظل وقف إطلاق النار حلقة الحصار حول مدينة السويس، فقد تم لها قطع طريق السويس القاهرة من ناحية الغرب، والطريقين اللذين يؤديان إلى الإسماعيلية من ناحية الشمال، وهما طريق القناة وطريق المعاهدة، كما تم لها قطع الطريق البري الذي يربط السويس بميناء الأدبية وخليج السويس من ناحية الجنوب، وبوصول بعض القطع البحرية الإسرائيلية صباح يوم ٢٤ أكتوبر إلى ميناء الأدبية تم قطع الطريق البحري الذي يربط السويس بالخليج والبحر الأحمر.

وفي نفس الوقت الذي تم فيه عزل السويس عن العالم الخارجي، نجح العدو في إحكام حصاره للجيش الثالث الميداني شرق القناة، وكان هذا الجيش يتشكل من فرقتين ٧ مشاة و١٩ مشاة وقوامهما حوالي ٤٠,٠٠٠ ضابط وجندي ونحو ٢٥٠ دبابة. وعلاوة على ذلك أصبحت هذه القوات كلها هي ومدينة السويس خارج نطاق شبكة الدفاع الجوي SAM فقد كان الجيب الإسرائيلي الممتد من جنوب ترعة الإسماعيلية شمالا حتى ميناء الأدبية جنوبا يفصل بين كتائب الصواريخ المصرية أرض جو في الغرب ووحدات الجيش الثالث ومدينة السويس في الشرق مما أتاح الفرصة للطائرات الإسرائيلية للقيام بهجماتها العنيفة المركزة على السويس وعلى قوات الجيش الثالث دون أي فرصة لردع الطائرات الإسرائيلية المغيرة. هذا ولم تكن لدى القيادة العامة المصرية وقتئذ أي قوات احتياطية غرب القناة سواء على المستوى التعبوى أو الإستراتيجي للقيا م بهجوم مضاد رئيسي أو للقيام بضربة مضادة يمكن عن طريقهما إنهاء عزلة السويس وفك الحصار عن وحدات الجيش الثالث شرق القناة.

وبتعليمات من السكرتير العام للأمم المتحدة زار الجنرال الفنلندي إنزيو سيلاسفو قائد قوات الطوارئ الدولية في قبرص كلا من القاهرة وتل أبيب عقب صدور قرار مجلس الأمن رقم ٣٣٩ في ٢٣ أكتوبر، وتم الاتفاق بينه وبين المسئولين في القيادتين المصرية والإسرائيلية على أن تلتزم قوات الطرفين بالموعد الثاني لوقف إطلاق النار وفقا لقرار مجلس الأمن رقم ٣٣٩ وهو الساعة السابعة صباحا يوم ٢٤ أكتوبر.

ورغم إعلان إسرائيل قبولها لهذا الموعد الجديد لوقف إطلاق النار، فإن عملياتها الحربية ضد الجيش الثالث وضد مدينة السويس استمرت طوال المدة من ٢٤ إلى ٢٧ أكتوبر. فقد كان الإسرائيليون يأملون أن تستسلم خلال هذه الفترة تحت ضغطهم الشديد قوات الجيش الثالث المحاصرة، وأن ينجحوا في اقتحام مدينة السويس قبل وصول قوات الأمم المتحدة. ولو قدر لهم أن يحققوا ما كانوا يهدفون إليه لكانت مصر قد واجهت كارثة عسكرية من أسوإ الكوارث في تاريخها.

ولا شك في أن من أهم العوامل التي شجعت القيادة الإسرائيلية على الاستمرار في محاولاتها لحصار وتدمير الجيش الثالث والاستيلاء على مدينة السويس، تلك المساعدات الأمريكية الجبارة عبر الجسر الجوي الأمريكي التي أخذت تتدفق على إسرائيل منذ يوم ١٤ أكتوبر لتزويدها بأحدث الأسلحة والمعدات المتطورة في محاولة لقلب ميزان الموقف

العسكري بعد النجاح الساحق الذي أحرزته القوات المصرية في المرحلة الأولى من الحرب. وكان الالتزام الأمريكي بضمان أمن وسلامة إسرائيل الذي يمثل خطا إستراتيجيا رئيسيا في السياسة الأمريكية بمنطقة الشرق الأوسط، هو العامل الأول الذي شجع إسرائيل على مواصلة عملياتها الحربية غرب القناة على الرغم من صدور قرارين من مجلس الأمن بوقف إطلاق النار، وهما القراران رقما: ٣٣٨ في ٢٢ أكتوبر، و٣٣٩ في ٢٣ أكتوبر، اللذان أعلنت إسرائيل نفسها موافقتها عليهما.

وقبل مهاجمة مدينة السويس، وبعد إحكام الحصار حولها، كان هدف القيادة الإسرائيلية هو القضاء على بقايا وحدات الفرقة ٦ مشاة ميكانيكية التي اشتركت في المعارك التعطيلية العنيفة ضد قوات الجنرال إبراهام أدان المتقدمة على المحور الساحلي الموازي للبحيرات المرة والقناة، مما أدى في النهاية إلى تداخلها بين القوات الإسرائيلية.

وفي مساء يوم ٢٣ أكتوبر كانت بقايا الوحدات الفرعية للفرقة السادسة الميكانيكية متمركزة في بعض المواقع الدفاعية التي احتلتها على عجل في المنطقة المحصورة ما بين طريق القاهرة ـ السويس الشمالي (طريق ١٢) وطريق القاهرة ـ السويس الرئيسي. وكانت وصلة جنيفة التي تتقاطع مع الطريق الشمالي على مسافة ٦ كم جنوب معسكر حبيب الله وتتقاطع مع الطريق الرئيسي عند علامة الكيلو متر ١٠٩، تحد هذه المنطقة من الشرق. وكانت قوات الفرقة السادسة الميكانيكية في وضع تكتيكي خطير بسبب إحاطة قوات العدو بها من الجوانب الأربعة: من الشرق في منطقة عجرود ومدخل السويس، ومن الغرب في منطقة الكيلو متر ١٠١ طريق القاهرة السويس، ومن الشمال في مرتفعات جبل جنيفة وجبل غرة والتبة الزلطية، ومن الجنوب جبل عتاقة، وكان القضاء عليها يعتبر مسألة وقت لا غير. ورغم ذلك فإن القيادة الإسرائيليةكانت تهدف إلى سرعة تطهير جميع الهيئات الحاكمة والمرتفعات شمال طريق القاهرة ـ السويس حتى علامة الكيلو متر ١٠١ غربا من القوات المصرية، حتى يمكنها القيام بعملياتها ضد مدينة السويس دون احتمال أي تدخل من جانب القوات المصرية التي كانت لا تزال في الغرب.

وبناء على تعليمات قائد الجيش الثالث الذي انتقل منذ مساء ٢٣ أكتوبر إلى مركز قيادته الرئيسي في جنوب جبل عويبد بعد اقتحام الدبابات الإسرائيلية لمركز قيادته المتقدم شمال غرب السويس، كان العميد أ.ح أبو الفتح محرم قائد الفرقة ٦ مشاة ميكانيكية موجودا عند علامة الكيلو متر ١٠٩ طريق القاهرة ـ السويس في الساعة السابعة صباحا يوم ٢٤ أكتوبر بعد أن أصبح القرار الثاني لوقف إطلاق النار نافذ المفعول، انتظارا لوصول

المراقبين الدوليين الذين وعد الجنرال سيلاسفو بإرسالهم في هذا التوقيت لإرشادهم إلى مناطق التجمعات المصرية داخل المنطقة التي احتلتها إسرائيل عقب القرار الأول لوقف إطلاق النار لإمكان تنفيذ قرار مجلس الأمن رقم ٣٣٩ بإعادة القوات الإسرائيلية إلى خط ٢٢ أكتوبر.

ولكن مفاجأة قاسية كانت في انتظار العميد أبو الفتح. فبدلا من قدوم المراقبين الدوليين، قدمت إلى المنطقة الدفاعية التي تحتلها وحدات فرقته الطائرات الإسرائيلية لتقوم بهجماتها المدمرة، وتلاها قصف عنيف مركز من المدفعية الإسرائيلية، واتضح أن إعلان إسرائيل قبولها لوقف إطلاق النار كان في المرتين ستارا خادعا لتقوم من ورائه بعملياتها.

وقبل الظهر تقدمت الدبابات الإسرائيلية إلى الموقع الدفاعي شمال تقاطع الكيلو متر ١٠٩ الذي كانت تحتله بقايا وحدات من اللواء الأول مشاة ميكانيكي من اتجاهي الشرق والغرب على طول طريق القاهرة السويس الرئيسي، وتحت قصف عنيف من المدفعية وعن طريق المعاونة المباشرة للطيران، اخترقت الدبابات الإسرائيلية الموقع الدفاعي في حوالي الساعة الثالثة والنصف مساء. وتحولت الدبابات الإسرائيلية بعد ذلك شمالا، وتحت ستر هجمات جوية مركزة وقصف مدفعي كثيف قامت الدبابات الإسرائيلية باختراق الموقع الدفاعي لبقايا وحدات اللواء ١١٣ مشاة ميكانيكي في الساعة الخامسة مساء، وبذا تم تدمير وحدات الفرقة ٦ مشاة ميكانيكية غرب القناة بعد معارك شرسة، وسقطت جميع المواقع المصرية شمال طريق القاهرة السويس حتى علامة الكيلو متر ١٠١ غربا.

وكان الجنرال إبراهام أدان قائد الفرقة المدرعة الإسرائيلية التي تحاصر السويس قد تلقى رسالة لاسلكية من الجنرال جونين قائد القيادة الجنوبية في الساعة الثانية صباحا يوم ٢٤ أكتوبر يسأله فيها إذا كان في مقدرته احتلال السويس في خلال ساعتين ونصف الساعة، وهي الفترة بين طلوع الفجر في الساعة الرابعة والنصف، وموعد السريان الثاني لوقف إطلاق النار في الساعة السابعة صباحا. وعندما رد الجنرال أدان بأن هذا يتوقف على عدد المصريين المقاتلين بالمدينة ومدى تصميمهم على القتال، وأنه يستطيع الاستيلاء على جزء من المدينة على أسوإ الفروض، فتردد جونين قليلا ثم قال: «حسنا إذا كانت بئر السبع فتقدم على الفور، وإذا كانت ستالينجراد فلا تدخلها». وبكلمات أخرى كان جونين يعني أنه إذا كان في الإمكان الاستيلاء على السويس بنفس السهولة التي تم بها استيلاء

الإسرائيليين على مدينة بئر السبع في ٢٠ من أكتوبر ١٩٤٨ فإنه يوافق على الهجوم، ولكن إذا كان أدان سيلقى مقاومة مثل تلك التي صادفها الجنرال الألماني فون باولوس عند محاولة اقتحام مدينة ستالينجراد السوفيتية عام ١٩٤٢ فينبغي عليه العدول عن المحاولة. وعقب هذا الحوار مباشرة أصدر الجنرال أدان أمرا إلى قواته بالهجوم على مدينة السويس في صباح يوم ٢٤ أكتوبر وفقا للخطة التالية:

لواء جابي: يتم دخوله السويس من اتجاهين: من اتجاه الغرب على محور طريق القاهرة السويس، ومن اتجاه الجنوب الغربي على محور طريق الزيتية السويس، وتندفع القوتان إلى وسط المدينة.

لواء آرييه - يدخل السويس من اتجاهين: اتجاه الشمال (طريق الجناين) ومن اتجاه الشمال الغربي، على أن يكون مجهوده الرئيسي على اليمين بموازاة طريق القاهرة السويس، وكانت تتبع لواء آرييه كتيبة من المظليين بقيادة المقدم يوسي. وكان على قوات آرييه الالتقاء بقوات جابي عند وسط المدينة. ولتأمين المدينة عقب اقتحامها بالدبابات الإسرائيلية، تم تخصيص كتيبتي مشاة من لواء دوفيك تماري لكي تتبع الدبابات على طريق القاهرة - السويس للقيام بعملية التطهير. وكانت الخطة تقضي بأن يتم معاونة هجوم لواءي جابي وآرييه بقصف مدفعي كثيف، وأن تتبعه في الحال ضربة جوية مركزة ضد مراكز المقاومة داخل السويس. وكان على لواء نيتكا ولواء دوفيك تماري (عدا كتيبتين) أن يواصلا عملية تطهير الحزام الأخضر بين الشلوفة والسويس.

وكان الإسرائيليون على ثقة بأن قواتهم المدرعة لن تلبث أن تقتحم السويس دون أي مقاومة، وأن علمهم سوف يخفق عاليا على مبنى المحافظة خلال بضع ساعات من بدء الهجوم، إذ إن السويس - حسب معلوماتهم - كانت خالية من القوات العسكرية إلا من بعض الجنود الشاردين الذين التجأوا إليها عقب المعارك الأخيرة، وكانت روحهم المعنوية بالطبع ضعيفة. ولذا اعتقد الجنرال أدان أنه سيتوج زحفه الناجح غرب القناة بدخول السويس التي سيكون لسقوطها دوي سياسي هائل على المستوى العالمي، مما سيحقق له شهرة واسعة ومجدا ذائع الصيت. وكان على يقين بأن دخولها سيكون صورة مماثلة لدخول بئر السبع خلا حرب عام ١٩٤٨. ولم يكن يخطر على بال الجنرال أدان أن مدينة الأشباح كما كانت عناصر استطلاعه تسميها قد تحولت بفضل تلاحم الجيش مع الشعب إلى قلعة حصينة، وأن قواته المدرعة ستواجه ستالينجراد أخرى.

وكانت السويس ـ من وجهة النظر العسكرية ـ بعيدة تماما عن خطر التعرض لأي غزو إسرائيلي بعد أن نجحت القوات المصرية ذلك النجاح الساحق يوم ٦ أكتوبر، وتمكنت من عبور قناة السويس، واجتياح خط بارليف وإنشاء منطقة حصينة من رؤوس الكباري شرق القناة تكسرت أمام صلابتها وقوتها جميع الهجمات الإسرائيلية المضادة. ونتيجة لهذا الوضع لم تتخذ بشأن الدفاع عن المدينة أي تدابير عسكرية شاملة، فلم توضع خطة مرسومة لمواجهة أي غزو محتمل، ولم تخصص قوات كافية للدفاع عن مرافق المدينة ومنشآتها المهمة، ولم يعين قائد عسكري للسويس إلا بعد أن تعرضت فعلا للغزو. فقد صدر الأمر بتعيين المستشار العسكري للمحافظة قائدا عسكريا لها مساء ٢٣ أكتوبر. ورغم كل الظروف الصعبة التي واجهتها السويس عندما وجدت جيش الغزاة يحيط بها من كل جانب، استطاع شعبها الباسل بأسلحته البدائية وبفضل التحامه بقواته المسلحة أن يصد تلك الجحافل المدرعة الفتاكة التي انطلقت يوم ٢٤ أكتوبر تخترق شوارع المدينة.

الموقف في السويس قبل الهجوم الإسرائيلي

كان معظم سكان مدينة السويس قد تم تهجيرهم إلى خارج المحافظة منذ أن بدأت معارك حرب الاستنزاف عام ١٩٦٨، ولذا لم يكن داخل المدينة عند نشوب حرب أكتوبر ٧٣ سوى عدد قليل لا يتجاوز خمسة آلاف فرد كان معظمهم من الجهاز الحكومي ورجال الشرطة والدفاع المدني وموظفي وعمال شركات البترول والسماد بالزيتية.

ونتيجة للعبور الإسرائيلي إلى غرب القناة ليلة ١٥/ ١٦ أكتوبر وتقدم الجنرال إبراهام أدان على رأس فرقته المدرعة يوم ١٩ أكتوبر في اتجاه الجنوب على محور طريق المعاهدة بدأت السويس تستقبل أعدادا غفيرة من مواطني القطاع الريفي في محافظة الإسماعيلية، ثم محافظة السويس في الفترة من ١٩ إلى ٢٣ أكتوبر الذين قدموا مشيا على الأقدام هربا من زحف المدرعات وقصف الطيران الإسرائيلي. وتمكنت السلطات المسئولة في السويس من ترحيل بعضهم إلى القاهرة، كما قامت بإيواء الباقين في المساكن الخالية بالسويس وتدبير وسائل إعاشتهم. وخلال يومي ٢٢ و٢٣ أكتوبر، وفدت مجموعات كبيرة من أفراد القوات المسلحة إلى السويس بلغ مجموعهم حوالي ٥,٠٠٠ ضابط وجندي كان معظمهم من بقايا الوحدات الإدارية ومؤخرات الوحدات التي عبرت إلى شرق القناة، وكذا بقايا بعض وحدات الجيش الثالث التي كانت تشكل جانبا من احتياطيه التعبوي غرب القناة والتي سبق لها خوض معارك تعطيلية عنيفة ضد القوات المدرعة الإسرائيلية.

وعندما أصبح قرار وقف إطلاق النار نافذ المفعول في الساعة السادسة والدقيقة الثانية والخمسين مساء يوم ٢٢ أكتوبر واستمرت القوات الإسرائيلية في زحفها نحو الجنوب غير مكترثة بالقرار رقم ٣٣٨ الصادر من مجلس الأمن حتى تمكنت في ظل وقف إطلاق النار من إغلاق جميع الطرق المؤدية إلى الشمال والغرب والجنوب، لذا اضطرت تلك المجموعات العسكرية المصرية إلى اللجوء إلى مدينة السويس تجنبا للوقوع في الأسر، وكان أفرادها مسلحين بالأسلحة الخفيفة فقط من بنادق آلية ورشاشات. وقد سبب وصولهم إلى السويس فجأة ارتباكا لدى المسئولين في المدينة، ولكن الجهود الصادقة التي بذلت ذللت جميع المشكلات وأمكن تدبير أماكن إقامتهم في المساكن الخالية خاصة في حي الأربعين، وكذا توفير وسائل إعاشتهم. وكان وصول هؤلاء العسكريين من حسن حظ السويس، فقد أدوا دورا مهما في الدفاع عن المدينة.

وجاء يوم ٢٣ أكتوبر ليحمل في طياته إلى السويس أسوأ النذر، فقد قامت الطائرات الإسرائيلية ظهر ذلك اليوم بغارات وحشية على شركة النصر للأسمدة، مما أشعل الحرائق في كثير من أقسامها وأصاب القصف الجوي أيضا مبنى الثلاجة الرئيسية على طريق عتاقة، وأصيبت مناطق عديدة في الأدبية بأضرار جسيمة، كما أصيبت نقطة مرور العوايد ومحطة بنزين شركة مصر للبترول على مدخل السويس من ناحية طريق القاهرة السويس.

ولم تكتف القوات الإسرائيلية بالحصار البري الذي ضربته على السويس بقطع كل الطرق المؤدية إليها، ولا بالحصار البحري بقطع الطريق المائي المؤدي إلى الخليج والبحر الأحمر، بل عمدت إلى توجيه أقسى أساليب الحرب النفسية ضد سكانها وبغير شفقة أو رحمة بقصد ترويعهم والضغط على أعصابهم لحملهم على التسليم. ولهذا تم لها قطع ترعة السويس المتفرعة من ترعة الإسماعيلية والتي تغذي المدينة بالمياه الحلوة، كما دمرت شبكة الضغط العالي التي تحمل التيار الكهربائي من القاهرة إلى السويس، وقطعت بعد ذلك أسلاك الهاتف التي تربط المدينة بالعالم الخارجي. وكانت القيادة الإسرائيلية على يقين بأن أهل السويس سوف يقابلون دباباتها ومدرعاتها بالأعلام البيضاء حال ظهورها في الشوارع بعد أن أصبحوا في هذه الظروف المعيشية التي لا يمكن لبشر أن يتحملها، فلا مياه ولا طعام ولا كهرباء ولا معدات طبية أو أدوية للمرضى والمصابين، ولا اتصالات هاتفية مع الخارج.

وفضلا عن ذلك ركزت مدفعيتها قصفها العنيف على أحيائها السكنية، وانطلقت طائراتها تملأ سماء المدينة لتصب على مرافقها ومنشآتها الحيوية وابلا من صواريخها لتشعل في المدينة النار والدمار، وليخر تحت قصفها المدمر مئات من الشهداء وآلاف من الجرحى، حتى ضاق المستشفى العام بالجرحى والمصابين، وأصبحوا لفرط الازدحام يوضعون على الأرض في طرقات المستشفى، وكان الهدف من هذه الحرب النفسية الشرسة هو إقناع الجميع في السويس بأنه لا جدوى من المقاومة، وأن الحل الوحيد للخلاص من كل متاعبهم هو الاستسلام للغزاة.

كيف استعدت السويس للمعركة؟

كان أول نبأ رسمي يصل إلى بدوي الخولي محافظ السويس وقتئذ عن التحركات الإسرائيلية حول المدينة هو التبليغ الهاتفي الذي تم له تلقيه عن طريق العقيد فتحي عباس مدير مخابرات جنوب القناة في الساعة الخامسة والنصف مساء يوم ٢٣ أكتوبر. فقد أبلغه أن الدبابات الإسرائيلية وصلت إلى منطقة شركات البترول بالزيتية وأنها في طريقها إلى منطقة الأدبية. وبناء على دعوة المحافظ انعقد مؤتمر عسكري بالمحافظة في الساعة السادسة مساء رأسه المحافظ وحضره اللواء محيي خفاجي مدير أمن السويس والعميد عادل إسلام المستشار العسكري للمحافظة والعميد كمال السنهوري قائد محطة السويس العسكرية وقائد كتيبة الدفاع الإقليمي، لبحث إجراءات الدفاع عن المدينة وتأمين مداخلها والاستعانة في ذلك بالقوات العسكرية التي قدمت أخيرا إلى المدينة وقوات الدفاع الشعبي. ورغم الظروف العصيبة التي كانت تواجه السويس، كان الأمل ما يزال قويا في قهر العدوان الذي أوشك أن يطبق على المدينة. فلقد كان من بين مواطنيها فتية آمنوا بربهم ووطنهم وصمموا على الدفاع عن مدينتهم الخالدة حتى آخر رمق في حياتهم. وكانت قوات الدفاع الشعبي تتكون من منظمتين، إحداهما تدعى منظمة سيناء، وقد تكونت عقب حرب يونيو ٦٧ وانضم إليها عدد من أبناء السويس وتلقوا تدريبا خاصا عن طريق مكتب المخابرات الحربية في السويس للقيام ببعض العمليات الحربية خلف خطوط العدو. أما المنظمة الثانية، فتدعى فرق حماية الشعب، وقد أنشئت تحت إشراف لجنة الدفاع الشعبي بالتنظيم السياسي بالسويس وقتئذ للقيام بأعمال الدفاع والحراسات في حالات الطوارئ.

وبناء على تعليمات المستشار العسكري للمحافظة، اجتمع ظهر يوم ٢١ أكتوبر في

مدرسة أحمد عرابي نحو ١٥٠ فردا من فرق حماية الشعب، وتم لمندوب المستشار العسكري اختيار ٥٠ فردا منهم، وتم تسليحهم بالبنادق، على أن يبقى الباقون كاحتياطي تحت الطلب، وقسم هؤلاء إلى مجموعتين تتناوبان الحراسة في منطقة المثلث عند مدخل المدينة بهدف الحراسة والعمل كنقطة إنذار للإبلاغ عن تحركات العدو. وفي مساء يوم ٢٣ أكتوبر وعقب حصار المدينة، كلف العقيد فتحي عباس مدير مخابرات جنوب القناة بعض شباب منظمة سيناء بواجبات دفاعية وزودهم ببعض البنادق والرشاشات ووزعهم في أماكن مختلفة داخل المدينة بعد أن أبقى بعضهم كاحتياطي في يده تحسبا للطوارئ.

وكانت هناك مجموعة من الأبطال الذين ينتمون لمنظمة سيناء لم يهدأ لهم بال ولم يغمض لهم جفن طوال ليلة ٢٣/ ٢٤ أكتوبر. فقد خططوا لعمل عدة كمائن على مدخل السويس لملاقاة العدو. ولكن نظرا لضعف إمكاناتهم، فقد اتفقوا على الاكتفاء بعمل كمين عند ميدان الأربعين وآخر عند مزلقان الشهداء. وكانت المشكلة الرئيسية التي واجهتهم هي البحث عن السلاح المؤثر ضد الدبابات من المدى القصير والذي يصلح لقتال الشوارع وهو القاذف RPG 7. وهداهم التفكير إلى التوجه إلى مخزن السلاح بالطابق الأرضي بالمستشفى العام الذي تحفظ فيه أسلحة الجنود الجرحى والشهداء عسى أن يجدوا داخله بغيتهم. وكان من ضمنهم البطلان الشهيدان إبراهيم سليمان وأحمد أبو هاشم. وعندما اعترضهم المخزنجي خوفا على عهدته فتحوا المخزن عنوة، وكانت فرحتهم الكبرى حينما عثروا على قاذف RPG 7 وثلاث قذائف. وكان هذا القاذف في يد الشهيد إبراهيم سليمان على موعد مع القدر كما سنرى فيما بعد.

وكان العميد أ.ح يوسف عفيفي يتولى قيادة الفرقة ١٩ مشاة التي كانت تحتل مساحة كبيرة من رأس كوبري الجيش الثالث شرق القناة، وكان قطاع الفرقة يمتد مباشرة بجوار السويس. وعندما أدرك العميد أ.ح يوسف عفيفي الخطر الذي باتت تتعرض له السويس قرر بمبادرة شخصية منه ضرورة الدفاع عن المدينة التي ارتبطت بها فرقته بأوثق الروابط منذ سنوات طويلة حتى لا تسقط في يد العدو.. وفي يوم ٢٣ أكتوبر، أرسل قائد الفرقة سرية مقذوفات موجهة ضد الدبابات بقيادة المقدم حسام عمارة لصد العدو على طريق المعاهدة. وقد قامت السرية بالاشتباك مع دبابات العدو عند الشلوفة ودمر أفرادها له أكثر من تسع دبابات، وعندما نفدت ذخيرتهم أمرهم قائد الفرقة بالتوجه إلى السويس صباح ٢٤ أكتوبر عبر كفر أحمد عبده، وأن يشتركوا في الدفاع عنها باستخدام القواذف RPG 7 التي بالسرية حتى يعاد إمدادهم بالصواريخ اللازمة. وبالإضافة إلى هذه السرية، أرسل قائد

الفرقة إلى السويس صباح يوم المعركة طاقم اقتناص دبابات بقيادة الملازم أول عبد الرحيم السيد من اللواء السابع مشاة بعد تزويده بقواذف (آر بي جى ٧) وقنابل يدوية مضادة للدبابات .

وعلى الرغم من أن الدفاع عن السويس كان خارج مهمة الفرقة القتالية ، فقد تم للفرقة ١٩ مشاة احتلال السواتر الترابية على ضفتي القناة ، وتم توجيه بعض مواسير مدافع الميدان لتغطية بعض القطاعات الحيوية غرب القناة ، كما دفع مركز ملاحظة للمدفعية على الساتر الترابي غرب القناة لإدارة نيران المدفعية .

واستعدت الشرطة بأقسامها ووحداتها للمعركة ، وأصبحت غرفة عمليات الدفاع المدني بميدان الأربعين مقرا لأعمال قيادة الدفاع الشعبي . وبذلت أجهزة الإطفاء والإنقاذ جهودا جبارة خلال الغارات الجوية ، كما فتحت الشرطة مخازن السلاح لإمداد المتطوعين بالأسلحة والذخائر . وعندما نجح العدو يوم ٢٣ أكتوبر في قطع الاتصالات السلكية مع القاهرة ، أصبحت الشبكة اللاسلكية الخاصة بشرطة النجدة هي حلقة الاتصال الوحيدة بين السويس والقاهرة . وكان الرائد محمد رفعت شتا يتولى قيادة هذه الوحدة اللاسلكية ، ويعاونه الملازم أول عبد الرحمن غنيمة ضابط الاتصال وتحت قيادته ٢٧ ضابط صف وعسكريا . وكان قيام الوحدة اللاسلكية بعملها في هذه الظروف الصعبة فيه مخاطرة كبرى ويدل على شجاعة عظيمة ، فقد كان مقرها في مكان منعزل غرب السويس ويقع على طريق ناصر الذي يصل بين مدخل السويس عند منطقة المثلث وبين الطريق الرئيسي المؤدي إلى الزيتية . وقد مرت عبر هذا الطريق في المساء الدبابات الإسرائيلية وهي في طريقها إلى ميناء الأدبية مما جعل الطريق عرضة لمرور المدرعات والعربات الإسرائيلية عليه في جميع الأوقات ، في الوقت الذي لا يوجد فيه لدى قوة الدورية أي تسليح سوى طبنجتين للدفاع الشخصي .

ملحمة السويس الخالدة يوم ٢٤ أكتوبر ١٩٧٣

لم تنم المدينة الباسلة وظل جميع أبنائها ساهرين طوال الليل في انتظار وصول الأعداء . وعندما نادي المؤذن لصلاة الفجر اكتظت المساجد بالناس . وفي مسجد الشهداء بجوار مبنى المحافظة ، أم المصلين الشيخ حافظ سلامة رئيس جمعية الهداية الإسلامية . وعقب الصلاة ألقى المحافظ بدوي الخولي كلمة قصيرة أوضح فيها للناس أن العدو يستعد

لدخول السويس، وطالبهم بالهدوء وضبط الأعصاب، وأن يسهم كل فرد بما يستطيعه، واختتم كلمته بالهتاف «الله أكبر»، وارتفع الدعاء من أعماق القلوب إلى السماء.

وابتداء من الساعة السادسة صباحا بدأت الطائرات الإسرائيلية في قصف أحياء السويس لمدة ثلاث ساعات متواصلة في موجات متلاحقة وبشدة لم يسبق لها مثيل. وكان الغرض هو تحطيم أي مراكز للمقاومة داخل المدينة والقضاء على أي تصميم على القتال لدى أهل السويس.

وتنبه أفراد المقاومة إلى ظاهرة مهمة، وهي أن الطائرات في أثناء هجماتها الشرسة تتجنب إصابة الشوارع الرئيسية في المدينة والتي تمثل امتداد المحاور الثلاثة التي اعتزم العدو التقدم عليها بمدرعاته وهي:

محور المثلث: وهو المدخل الغربي من ناحية الطريق الرئيسي القادم من القاهرة إلى السويس، وامتداده هو شارع الجيش إلى ميدان الأربعين.

محور الجناين: وهو المدخل الشمالي من ناحية طريق القناة القادم من الإسماعيلية، ويمر وسط مساحات شاسعة من حدائق الفاكهة ويعبر على الكوبري الذي فوق الهويس ويتجه جنوبا إلى شارع مصطفى كامل ومنه إلى ميدان الأربعين.

محور الزيتية: وهو المدخل الجنوبي من ناحية طريق الأدبية وعتاقة، ويمتد بحذاء خليج السويس حتى الطريق المؤدي إلى بور توفيق.

وجاءت أولى طلائع الغزاة عندما قامت كتيبة مدرعة من لواء العقيد آرييه بالتقدم على محور الجناين في الشمال في حوالي الساعة التاسعة والنصف صباح يوم ٢٤ أكتوبر. وعندما حاولت سرية المقدمة عبور الكوبري الذي فوق الهويس للوصول إلى شارع مصطفى كامل، تصدى لها كمين قوى من رجال القوات المسلحة وأطلق صواريخه المضادة للدبابات فأصيبت الدبابة الأولى وتعطلت فوق الكوبري الضيق مما أدى إلى استدارة باقي الدبابات إلى الخلف حيث تجمعت في منطقة جبلاية هاشم شمال غرب الهويس، ولم تقم هذه الكتيبة بأي محاولات أخرى للتقدم من هذا المحور.

وفي حوالي الساعة العاشرة صباحا، قامت كتيبة مدرعة من لواء العقيد جابي بالتحرك من منطقة الزيتية، واجتازت ببطء الطريق المحاذي للخليج حتى وصلت إلى منطقة المحافظة دون أن يتعرض لها أحد، وانتشرت في عدة مجموعات ما بين قصر الثقافة وغرفة عمليات المحافظة وميدان الخضر وفندق بلير، وسيطرت الدبابات من

أمكنتها على شارع الكورنيش وشارع سعد زغلول ووقفت دبابة على ناصية فندق بلير انتظارا لرتل الدبابات الذي سيتقدم على محور المثلث ويخترق بعد ذلك طريق الجيش .

وفي حوالي الساعة العاشرة والدقيقة الخمسين صباحا ، وبعد النجاح الذي حققته الكتيبة المدرعة التي سيطرت على منطقة المحافظة دون أي مقاومة تقدمت على محور المثلث كتيبة مدرعة من لواء العقيد آريبه مدعمة بكتيبة مظلات بقيادة المقدم يوسي في عربات مدرعة نصف جنزير في ثلاث موجات كل موجة كانت تتكون من ٨ دبابات وكل دبابة منها تتبعها عربة مدرعة ، وكانت هذه القوة هي التي اختيرت لتكون المجهود الرئيسي Main Effort للهجوم على السويس . وعبرت القوة المدرعة منطقة المثلث ، وأخذت تجتاز طريق الجيش في ثبات وتؤدة ، وقد بلغت ثقة الإسرائيليين بعدم تجرؤ أحد من أهل المدينة على مقاومتهم إلى الحد الذي جعل قادة الدبابات يقفون جميعا ليطلوا من أبراج دباباتهم المفتوحة للفرجة على الشوارع التي يمرون من خلالها . ووصلت الموجة الأولى إلى ميدان الأربعين دون أن تصطدم بأي مقاومة . وأطلق محمود عواد من طاقم الكمين الأول من منظمة سيناء قذيفتين من قاذفه الصاروخي آر بي جى على الدبابة الأولى فأصابتها القذيفة الأولى بإصابة سطحية ، بينما طاشت القذيفة الثانية . وأسرع الكمين الثاني الذي كان يتكون طاقمه من أفراد منظمة سيناء أيضا ليأخذ موقعه عند سينما رويال ، وأمسك البطل إبراهيم سليمان بالقاذف آر بي جى ٧ ، وجلس القرفصاء بجوار المخبأ الذي كان يقع بين سينما رويال وسينما مصر ، وطلب من زميله محمد سرحان أن يعد له القذيفة . وعندما أصبحت الدبابة الأولى التي تتقدم الرتل المدرع على بعد حوالي ١٢ مترا من موقعه صوّب إبراهيم سليمان القاذف بدقة نحوها وضغط على الزناد لتنطلق القذيفة وتستقر أسفل برج الدبابة التي اختل توازنها وتوقفت ومالت ماسورة مدفعها إلى الأرض .

وانتقل إبراهيم سليمان الذي كاد يطير فرحا إلى الجانب الآخر من المخبأ ليطلق القذيفة الثانية على العربة التي كانت تتبع الدبابة والتي كان يستقلها أفراد المظليين فاشتعلت فيها النار . وكانت هذه اللحظات القصيرة هي نقطة التحول في المعركة . ففي الوقت الذي توقفت فيه مدرعات الموجة الأولى أمام قسم شرطة الأربعين بتأثير المفاجأة ، خرجت آلاف حاشدة من الجنود والمواطنين إلى الميدان والشوارع المحيطة بقسم الشرطة وهم يهتفون في حماسة «الله أكبر . . الله أكبر» . وأخذوا في إطلاق نيران بنادقهم ورشاشاتهم على أطقم الدبابات ، بينما ألقى البعض بقنابله اليدوية داخل أبراج الدبابات التي أخذت تنفجر ويشتعل بعضها بالنار حتى تحولت المنطقة إلى قطعة من الجحيم .

ولم يلبث الإسرائيليون أن قفزوا من الدبابات والعربات المدرعة، وهم في حالة عارمة من الذعر والارتباك، وأسرعوا في مجموعات يحتمون ببعض المباني المجاورة لقسم الشرطة. وحاول بعضهم الدخول إلى سينما رويال ولكنهم ضربوا عند مدخل السينما، ونجحت مجموعة إسرائيلية تتكون من حوالي ٢٥ فردا في دخول قسم شرطة الأربعين واستطاعوا بنيران رشاشاتهم السيطرة على القسم الذي كان يتكون من طابقين وتحيطه سواتر عالية مبنية بالطوب الأحمر، وكان في داخله عدد من ضباط الشرطة والجنود. وتمكن خمسة جنود إسرائيلين من الصعود إلى أسطح بعض العمارات وأخذوا في إطلاق نيران رشاشاتهم على المواطنين.

وعندما أبصرت دبابات الموجتين الثانية والثالثة ما لحق بمدرعات الموجة الأولى من فتك وتدمير، حاولت الاستدارة إلى الخلف في ارتباك شديد للعودة إلى منطقة المثلث. ونظرا لضيق الشارع اصطدمت بعضها بالبعض وحطم بعضها سور السكة الحديدية الممتد بحذاء الشارع. وكانت أربع دبابات قد تسللت خلف مسجد سيدي الأربعين من ناحية المثلث، فتصدى لها كمين من الفرقة ١٩ مشاة بقيادة المقدم حسام عمارة كان مرابطا على شريط السكة الحديدية وأطلق عليها صواريخه وأجبرها على العودة.

وأثناء عودة دبابات الموجتين الثانية والثالثة عبر طريق الجيش للخروج من المدينة، خرجت حشود ضخمة من الجنود والمواطنين من البيوت المهدمة على طول الشارع، وأخذوا يطلقون نيران بنادقهم ورشاشاتهم ويقذفون الدبابات بالقنابل اليدوية وزجاجات المولوتوف الحارقة وهي تفر أمامهم كالفئران المذعورة.

وقد اعترف الجنرال هيرزوج - رئيس دولة إسرائيل الأسبق - في كتابه حرب التكفير أن الكتيبة المدرعة التي دخلت السويس من ناحية المثلث وكان عدد دباباتها ٢٤ دبابة قد قتل أو جرح عشرون قائد دبابة من قادتها الأربعة والعشرين.

وكان الأمر الذي يدعو إلى الدهشة أن الكتيبة المدرعة المتمركزة في منطقة المحافظة لم تحاول التدخل مطلقا في معركة قسم الأربعين وظلت في أماكنها. وقد حاولت خمس دبابات منها التقدم على طريق بور توفيق، ولكن الدبابة الأولى اصطدمت بلغم مضاد للدبابات فقطع جنزيرها وتوقفت الدبابات الأربع الأخرى، وعادت إلى موقعها بمنطقة المحافظة بعد أن سحبت الدبابة المعطلة. وأثناء المعركة كلف المحافظ الملازم أول عبد الرحيم السيد من الفرقة ١٩ مشاة بالتوجه إلى دبابات العدو التي تحاصر المحافظة.

ولكن الكتيبة المدرعة في منطقة المحافظة لم تلبث أن انسحبت فور حلول الظلام، وعادت إلى الزيتية متبعة نفس الطريق الذي تقدمت عليه في الصباح.

معركة قسم شرطة الأربعين

ضربت جموع حاشدة الحصار حول قسم شرطة الأربعين الذي احتلته مجموعة كبيرة من المظليين الإسرائيليين. وكانت كتيبة مدرعة من لواء العقيد جابي قد سبق لها دخول المدينة عن طريق محور الزيتية، وتقدمت بحذاء شاطئ خليج السويس حتى وصلت إلى منطقة المحافظة دون أن تصادفها أي مقاومة. ومما يثير الدهشة أن هذه الكتيبة التي تمكنت دباباتها من السيطرة على المنطقة التي تضم قصر الثقافة وغرفة عمليات المحافظة وميدان الخضر وفندق بلير وكذا على شارعي الكورنيش وسعد زغلول لم تحاول التدخل مطلقا في المعركة التي دارت رحاها في ميدان الأربعين، ولم تبذل كذلك أدنى محاولة لإنقاذ القوة الإسرائيلية المحاصرة في قسم الشرطة رغم أن المسافة التي كانت تفصل بين إحدى دباباتها التي وقفت عند ناصية فندق بلير وقسم شرطة الأربعين، لم تتجاوز بضع مئات من الأمتار.

وقد بذلت محاولتان بطوليتان من جانب رجال الشرطة لاقتحام قسم الأربعين وإنقاذ الضباط والجنود الموجودين داخله من قبضة الإسرائيليين. وقاد المحاولة الأولى الرائد نبيل شرف على رأس قوة من جنود قسم شرطة السويس ومن جنود وحدة قوات الأمن. وقاد المحاولة الثانية النقيب عاصم حمودة على رأس قوة من جنود قسم شرطة السويس وبعض جنود قسم شرطة الأربعين. ولكن المحاولتين لم يصادفهما النجاح، واستشهد الضابطان ومعهما ستة من ضباط الصف والجنود.

وانتاب اليأس أفراد القوة الإسرائيلية بعد أن وجدوا أن جماهير الشعب تحيط بقسم الشرطة الذي تحصنوا داخله من كل جانب.

ولذا بعثوا بأحد جنود الشرطة المأسورين في الداخل ليعرض على قيادة المقاومة المصرية التي تحاصر القسم استعدادهم للتسليم بشرط المحافظة على حياتهم.

والتقى الشرطي عند خروجه بأحد أبناء منظمة سيناء وهو محمد سرحان، وعندما علم بما يطلبه الإسرائيليون اصطحبه إلى مقر مدير مخابرات جنوب القناة العقيد فتحي عباس، وكان مدير المخابرات قد نقل مكتبه بأفراده وبكل ما يحويه من أوراق ووثائق

ومستندات في حوالي الساعة الخامسة والنصف مساء يوم ٢٣ أكتوبر، من مقره بشركة النصر لتصنيع البترول بالزيتية إلى إحدى الغرف بمستشفى السويس العام عندما أخذت الدبابات الإسرائيلية تمر على الطريق أمام مقر الشركة. وعندما التقى العقيد فتحي عباس بالشرطي الذي أحضره إليه محمد سرحان قبل ظهر يوم ٢٤ أكتوبر وعلم منه بالعرض الإسرائيلي للتسليم رحب على الفور بذلك العرض لما كان يمكن أن يحققه من فائدة كبرى لأهل السويس ولمكتب المخابرات. وطلب من محمد سرحان أن يرافق الشرطي إلى داخل قسم الأربعين ليتباحث مع قائد القوة الإسرائيلية في شروط التسليم. ولكن هذا الموضوع لم يتيسر إتمامه، فقد كان القتال محتدما بشدة حول قسم الشرطة وإطلاق الرصاص لا ينقطع، ولم يكن هناك قائد للمعركة بحيث يمكنه السيطرة على الجموع المحتشدة لكي تكف عن إطلاق النار ريثما تجرى محادثات التسليم. واهتزت أعصاب الشرطي العجوز ورفض في إصرار العودة ثانية إلى قبضة الإسرائيليين. وهكذا باءت محاولة التسليم بالفشل.

وفي حوالي الساعة الرابعة مساء قررت مجموعة من أبطال المقاومة الشعبية وهم: إبراهيم سليمان وأشرف عبد الدايم وفايز أمين وإبراهيم يوسف اقتحام قسم شرطة الأربعين. والتف إبراهيم سليمان خلف القسم وأخذ في تسلق السور الخلفي وهو يحمل رشاشه في يده لكي يفاجئ الأعداء بالداخل، ولمحه قناص إسرائيلي كان مختفيا في الطابق الثاني من المبنى فأطلق عليه نيران رشاشه عندما وصل إلى أعلى السور. وسقط أعظم أبطال معركة السويس شهيدا بعد أن أدى واجبه. وكانت قذيفته التي أطلقها في الصباح على الدبابة الإسرائيلية القائدة هي نقطة التحول التاريخية في معركة السويس. وظل جثمان الشهيد معلقا على سور القسم حتى فجر اليوم التالي، وفوجئ الذين حملوه أن ابتسامة مشرقة كانت مرتسمة على وجهه. وفي الوقت الذي سقط فيه الشهيد إبراهيم سليمان على السور الخلفي للقسم، سقط الشهيدان أشرف عبد الدايم وفايز أمين على المدخل الأمامي للقسم عندما كانا يحاولان اقتحامه من الأمام، فقد انهالت عليهما الطلقات من القناصة الإسرائيليين بالطابق الثاني.

ونظرا لأن خمسة جنود إسرائيلين كانوا قد صعدوا إلى سطح عمارة مجاورة لقسم الشرطة وأخذوا في استخدام نيرانهم في القنص، لذا صعد إليهم بعض الجنود ورجال المقاومة الشعبية وتمكنوا من الفتك بهم بعد معركة ضارية استخدمت فيها النيران والأسلحة البيضاء والأيدي.

ورغم أن أهل السويس كانوا صائمين في هذا اليوم من شهر رمضان المبارك. . فإن أحدا لم يحس بالجوع أو العطش، ولم يهتم بتناول طعام أو شراب إلا النذر اليسير، فقد كانت المعركة ضد الأعداء هي محور اهتمام جميع المواطنين، وعندما سرت في المدينة أنباء النصر خرج أهل السويس جميعا إلى الشوارع يهللون ويكبرون ويشهدون في فخر واعتزاز مدرعات العدو المحطمة التي تناثرت على طول شارع الأربعين، وكان عددها حوالي ١٥ دبابة وعربة مدرعة نصف جنزير. وخشية أن يفكر الإسرائيليون في سحبها، قام محمود عواد من أبطال المقاومة الشعبية بسكب كميات من البنزين عليها عند منتصف الليل وأشعل فيها النار.

أين كان قادة السويس في أثناء المعركة؟

في حوالى الساعة التاسعة والنصف صباحا يوم ٢٤ أكتوبر، غادر بدوي الخولي محافظ السويس واللواء محيي خفاجي مدير الأمن غرفة عمليات المحافظة بعد أن وصلهما تحذير من العقيد فتحي عباس مدير مخابرات جنوب القناة بوجوب ترك غرفة العمليات لأن الدبابات الإسرائيلية على بعد سبعمائة متر فقط من هذه الغرفة مما يجعلهم في مرمى الأسلحة الصغيرة للعدو.

وعندما وصل الاثنان إلى شارع أحمد عرابي، اتجها إلى محل مصطفى محمد علي الذي يقع في حارة شميس التي كانت مكتظة وتئتذ بالجنود المصريين. وبدأ المحافظ يتصل من مكانه الجديد هاتفيا بغرفة الدفاع المدني ومدير التموين ووابور المياه ومحطة الكهرباء للاطمئنان على سلامة الموقف. واتضح له أن المياه والكهرباء مقطوعتان عن المدينة، وأن النار مشتعلة في أماكن عديدة. وعندما اتصل المحافظ بعلاء الخولي مدير التموين أبلغه أن العدو قد سيطر على مخازن الدقيق الموجودة خارج السويس، أما مخزن الدقيق الرئيسي داخل المدينة في عمارة كلوماكس الذي كان يحوي ٢٥٠٠ جوال فقد اشتعلت فيه النار نتيجة للقصف الجوي العنيف. وطلب المحافظ من مدير التموين الاستعانة بعدد من المواطنين اللاجئين إلى مسجد الشهداء للمعونة في إطفاء الحريق، كما طلب من مدير الأمن الذي كان برفقته إصدار أمره إلى رجال المطافئ والدفاع المدني للاشتراك مع هؤلاء المواطنين في إطفاء الحريق وإنقاذ الدقيق. وأجرى المحافظ عدة اتصالات هاتفية أخرى مع الإسعاف وغرفة الدفاع المدني لمعرفة بيان الشهداء والجرحى الذين سقطوا نتيجة للغارات

الجوية. وطلب المحافظ بعد ذلك نقل الهاتف من المحل الذي كان بداخله إلى أحد المنازل المجاورة الذي قرر الانتقال إليه وبرفقته مدير الأمن. ونظرا لأن بعض جنود القوات المسلحة عرفوا مكان المحافظ وطلبوا منه ذخيرة لسلاحهم، فقد أجرى المحافظ اتصالا هاتفيا بالعميد عادل إسلام المستشار العسكري للمحافظة الذي صدر قرار من القيادة العامة بالقاهرة في مساء اليوم السابق بتعيينه قائدا عسكريا لقوات السويس وكان موجودا وقتئذ بغرفة عمليات المحافظة، وأخطره المحافظ بمكانه وأعطاه رقم الهاتف الذي يتحدث منه، وطلب منه إرسال الذخيرة إلى الجنود الذين طلبوها. وقد أوضح العميد عادل بأنه لا يوجد لديه سوى ذخيرة أسلحة صغيرة للبنادق والرشاشات، وهي موجودة في أحد المخازن بمديرية الأمن، ولكن لا يوجد لديه أية ذخيرة للأسلحة المضادة للدبابات، إذ إن هذه الأسلحة ليست ضمن تسليح الدفاع الشعبي.

وفي حوالي الساعة الثانية عشرة والنصف ظهرا غادر العميد عادل إسلام ومعه ضابطان من ضباط الدفاع الشعبي برتبة النقيب غرفة عمليات المحافظة للإشراف على سير المعركة بالمدينة، خاصة بعد أن علم أن الدفاع عن المدينة قد تحول إلى مقاومة شعبية. ونظرا لأن الدبابات والعربات المدرعة الإسرائيلية كانت تحيط بغرفة العمليات من كل جانب، وكانت رشاشاتها تطلق نيرانها على المباني والشوارع، فقد استغرق وصول العميد عادل إسلام من غرفة العمليات إلى مبنى المحافظة ومنه إلى مسجد الشهداء حوالي ساعتين. ولم يتمكن العميد عادل من مغادرة المسجد نظرا لكثافة النيران التي كان الإسرائيليون يطلقونها في كل أرجاء المنطقة. ولذا اتخذ من الدور الثاني من المسجد مركزا مؤقتا لقيادته. وفي داخل المسجد التقى العميد عادل ونقيب الشرطة حسن أسامة الذي أخبره أنه يقوم بمعاونة الحاج حافظ سلامة رئيس جمعية الهداية الإسلامية وإمام مسجد الشهداء في توزيع السلاح على المتطوعين الذين يريدون مقاتلة العدو ممن لهم خبرة سابقة باستخدام السلاح. وقام النقيب حسن أسامة بتعريف العميد عادل إسلام بالحاج حافظ سلامة، وكان هذا التعارف يجري بينهما لأول مرة.

هذا وقد قام المحافظ بدوي الخولي بالاتصال ظهر يوم ٢٤ أكتوبر بعد انتهاء معركة ميدان الأربعين بالرائد شرطة محمد رفعت شتا قائد الوحدة اللاسلكية، وطلب منه إبلاغ القاهرة بأنباء المعركة وبتحطيم ١٣ دبابة وعربة مجنزرة للعدو. وعلى أثر إرسال الوحدة اللاسلكية هذه الأنباء إلى القاهرة، صدر البيان العسكري رقم ٥٩ في الساعة الرابعة مساء يوم ٢٤ أكتوبر الذي يتضمن أنباء معركة السويس. وقام المحافظ الذي كان يتسمى أثناء

اتصالاته الهاتفية باسم عبد الهادي كوسيلة لتضليل العدو بالاتصال مرتين بعد ذلك بالرائد رفعت شتا لكي يبلغ المسئولين في القاهرة بحاجته إلى تموين طبي ودماء محفوظة للمستشفى، ثم حاجته إلى أسلحة مضادة للدبابات آر بي جي ٧ لتوزيعها على المواطنين.

كيف وصف الإسرائيليون معركة السويس؟

تعرضت الكتب والمراجع الإسرائيلية التي صدرت عن حرب عيد الغفران (حرب أكتوبر ٧٣) لمعركة يوم ٢٤ أكتوبر بالسويس، وأوردت عنها كثيرا من المعلومات المهمة والوصف الدقيق. ورغم ما بها من اختلافات بالنسبة لبعض التفاصيل، فإنها تتفق جميعها على أمر واحد هو أن معركة السويس يوم ٢٤ أكتوبر كانت آخر المعارك الكبرى في حرب أكتوبر ٧٣، وأن محاولة اقتحام المدينة في ذلك اليوم كانت خطيئة مميتة كلفت إسرائيل ثمنا غاليا. وفيما يلي الخط الأساسي لسير المعركة كما استخلصته من مختلف المراجع الإسرائيلية بعد استبعادي للأحداث التي وجدت حولها خلافا جوهريا بين المؤلفين، مما يجعل قيمتها التاريخية ضعيفة.

في صباح يوم ٢٤ أكتوبر تحركت وحدة مدرعة من لواء جابي عن طريق مصافي البترول (طريق الزيتية) إلى جنوب السويس، بينما تقدم اللواء المدرع بقيادة العقيد آرييه على طريق القاهرة السويس الرئيسي مستوليا في طريقه على معسكرات الجيش في ضواحي المدينة (معسكر قيادة محطة السويس العسكرية). وكانت تتبعه كتيبة من المظليين بقيادة العقيد يوسي أحضرت بطائرات الهيليكوبتر. وبينما كانت الدبابات تخترق الشارع الرئيسي أطلقت عليها النيران من كل الأبنية. وخلال دقائق قتل أو جرح عشرون قائد دبابة من قادتها الأربعة والعشرين بسبب وقوفهم مكشوفين في أبراج الدبابات المفتوحة. كما وقع المظليون في العربات المدرعة تحت النيران، وعندما أصيبت بعض عرباتهم قفزوا خارجها والتجئوا إلى الأبنية المجاورة وأخذوا يدافعون عن أنفسهم من داخلها. وكان ضمن العربات المدرعة التي أصيبت عربة كانت تحمل جماعة مخابرات اللواء، وقد اندفع ركابها التسعة إلى أحد المباني المجاورة، وكانت هذه آخر مرة يشاهدون فيها على قيد الحياة. ولم تكن القوات الإسرائيلية مهيأة نفسيا لمثل هذا الوضع، ولم يكن في مقدرتهم معرفة المصادر التي تأتي منها نيران المصريين، كما كان من المتعذر طلب معاونة المدفعية أو الطيران لأن مواقع القوات الإسرائيلية كانت متداخلة مع المصريين في وسط المدينة.

والتجأت جماعة من المظليين على رأسهم المقدم يوسي إلى مبنى قوي التحصين كان يتكون من طابقين اتضح أنه قسم للشرطة (قسم شرطة الأربعين) واندفعوا إلى داخل غرف المبنى لتطهيره، وبعد اشتباك قصير أصيب جنديان من رجال الشرطة بجراح وتم أسر ثمانية أفراد من رجال الشرطة بينهم بعض الضباط، وأمكن تطهير الطابق الثاني في خلال عشر دقائق فقط.

وواصل المصريون في الخارج إطلاق النار على القوة الإسرائيلية التي في داخل القسم حتى تطايرت أجزاء من الجدران. وحاولت عدة مجموعات من الجنود المصريين والمواطنين القيام بهجوم مضاد لاسترداد مبنى قسم الشرطة، ولكن جميع هجماتهم باءت بالفشل بعد مصرع عدد منهم.

وكان بعض الجنود الذين لم يستطيعوا الاحتماء بالمباني بسبب إصابتهم بجراح قد تمددوا في الشارع وتصاعد أنينهم وتعالت صرخاتهم وهم يصيحون: أماه أريد أن أعيش. ولكن صرخاتهم ضاعت وسط أزيز الرصاص وأصوات الانفجارات المدوية. وبحث المظليون عن منفذ في مبنى الشرطة للتخلص من الحصار دون جدوى، وحاولت دبابتان الحضور لمساعدتهم ولكن انهمار الرصاص بكثرة جعل رجال الدبابتين يمرون بمبني الشرطة بسرعة، وبعد أن وصلوا إلى المفرق عادوا بسرعة كما جاءوا تحت النيران الشديدة. وأصدر الجنرال أدان قائد الفرقة المدرعة التي تحاصر السويس أمرا إلى قواته بالانسحاب في الحال من المدينة حتى لا يزداد حجم الكارثة. وتمكن العقيد جابي من سحب دباباته التي دخلت المدينة من ناحية الطريق الجنوبي الساحلي (طريق الزيتية) تحت ستر الظلام ووصلت دباباته إلى منطقة المصافي (شركات البترول) في المساء.

وكانت مجموعة من قوة المظلات محتمية داخل أحد المباني بجوار قسم الشرطة، وعند حلول الظلام تمكنت هذه المجموعة من التسلل من المبنى بعد أن حملت أفرادها الجرحى في الوسط وأرسلت قوة إلى الأمام وأخرى إلى الخلف لتأمينها من المفاجأة، وبعد حوالي ساعتين من التقدم البطيء نجحت المجموعة في الخروج من المدينة. وكانت المشكلة العويصة لدى الجنرال أدان هي كيفية إخراج القوة الكبيرة التي في داخل قسم الشرطة والتي تحاصرها الجماهير من كل ناحيه. ونظرا لأن قائد المظلات المقدم يوسي الذي حوصر مع هذه القوة كان في حالة إغماء معظم الوقت لإصابته بجراح بليغة، فقد تولى قيادة القوة النقيب دافيد دودو. ودار حوار عن طريق اللاسلكي بين الجنرال أدان قائد الفرقة المدرعة

والنقيب دودو الذي كان مترددا في اتباع نصيحة قائدة بوجوب مغادرة مبنى قسم الشرطة تحت ستر الظلام، فقد كان دودو يرى أن مغادرة المبنى وبرفقته ذلك العدد الكبير من الجرحى من خلال ذلك الحصار الذي يحيط به من كل جانب لا يعني سوى تعرض قوته للفناء. وطلب دودو ضرورة إرسال قوة ضاربة من الدبابات والعربات المدرعة في الصباح التالي لتتولى إنقاذهم وإخراجهم من المدينة بالقوة مع التفكير أيضا في المعاونة الجوية.

وحدث أمر عجيب للغاية، فخلال الاتصالات اللاسلكية التي كانت تدور بين الجنرال أدان والنقيب دودو، فوجئ الاثنان بأن الجنرال جونين قائد القيادة الجنوبية الذي كان معهما على نفس التردد بالشبكة اللاسلكية ـ يتدخل بنفسه في الحوار الدائر بينهما. وعلى الرغم من طبيعة الجنرال جونين الصارمة وطريقته الحادة في النقاش مما جعل جميع مرءوسيه يخشونه، فقد تحدث مع الضابط الصغير دودو بهدوء ولطف مما أثار دهشة مساعديه الذين كانوا بجواره وقتئذ في مركز قيادته المتقدم. وطلب الجنرال جونين من دودو أن يصف له المبنى الذي كان موجودا فيه وكذا المباني المجاورة. ورد الضابط بأنه موجود في مبنى قسم للشرطة يقع بجوار مفترق للطرق وأخذ يصف له المباني المجاورة التي تحيط بمبنى القسم. وأثناء وصف الضابط الصغير للمبنى وللمعالم الأرضية التي حوله ركز الجنرال جونين اهتمامه في صورة جوية ذات مقياس كبير لمدينة السويس كانت معلقة على حائط مركز القيادة، وسأل جونين الضابط «هل المبنى في تقاطع طرق وشكله مربع وبه فتحة في السقف؟» وعندما رد عليه الضابط بالإيجاب قال جونين: «وجدت المبنى.. انتظر».

وأجرى الجنرال جونين بعد ذلك مشاوراته مع الجنرال أدان ومع رئيس فرع مخابرات القيادة الجنوبية ومع ضابط اتصال السلاح الجوي، ورأوا جميعا بعد النقاش أن أفضل طريقة لإنقاذ القوة المحاصرة في قسم الشرطة هي أن تغادر القوة المبنى ليلا في هدوء تام تحت ستر الظلام. وأخذ الجنرال جونين يرشد الضابط لاسلكيا إلى الطريق الذي سوف يسلكه في الخروج بناء على فحصه الدقيق للصورة الجوية التي أمامه وقال له: «سجل عندك: ستجتاز ٢٠٠ متر إلى الجنوب إلى نهاية البلوك الثالث من مفترق الطرق. بعد ذلك ٢٥٠ مترا إلى الغرب على طول الزقاق، وقبل نهاية الشارع هناك زقاق آخر اتجه إليه وواصل السير ٢٠٠ متر أخرى إلى الشمال، ستصل إلى شريط سكة حديد وإلى ترعة مياه وكوبري، ومن هناك مباشرة إلى مفترق الطرق الذي في أيدينا». وأكد جونين للضابط أنه

سيظل محافظا على الاتصال به لاسلكيا أثناء تحركه حتى يتم خروجه من المدينة بسلام. واسترد النقيب دودو عن طريق هذا الاهتمام الشخصي من قائد مسرح العمليات ثقته بنفسه وبقيادته. وفي حوالي الثانية صباحا غادرت القوة الإسرائيلية مبنى قسم الشرطة في هدوء، وكان أفراد القوة يحملون زملاءهم الجرحى على ظهورهم. واتبع النقيب دودو إرشادات الجنرال جونين التي كانت تصله بانتظام عن طريق جهاز اللاسلكي. وفي الساعة الرابعة صباحا قبل بزوغ الفجر وصلت القوة إلى مفترق الطرق الذي في يد الجيش الإسرائيلي حيث كانت تنتظرهم عربات الإسعاف لإخلاء الجرحى. . وأسدل الستار على الخطيئة المميتة وهي دخول السويس والتي كلفت إسرائيل ٨٠ قتيلا تم تسلم كثير من جثثهم من المصريين بعد فض الاشتباك عن طريق الصليب الأحمر.

هل وافق المحافظ على تسليم السويس؟

على الرغم من انقضاء الكثير من السنوات على تقديم الإسرائيلين إنذارهم إلى بدوي الخولي محافظ السويس بتسليم المدينة في خلال نصف ساعة، وإلا تقوم الطائرات الإسرائيلية بتدميرها، فإن موقف المحافظ من الإنذار الإسرائيلي ما زال يثير الكثير من التساؤلات، ويسبب عددا من أوجه الجدل والنقاش، خاصة بين مواطني السويس.

ونظرا لما يفرضه علينا واجب العدل والإنصاف وما تقتضيه الأمانة التاريخية من وجوب إظهار الحقائق والكشف عما خفي من الأسرار، فقد قمنا بإجراء دراسة دقيقة لهذا الموضوع، وكان اعتمادنا في المقام الأول على الوثائق والمستندات الرسمية التي سجلت هذه الفترة بدقة وأمانة، ثم على شهادات بعض المسئولين السابقين الذين عايشوا أحداث تلك الفترة في السويس، وكانوا بحكم وظائفهم المهمة مطلعين على معظم الخفايا والأسرار، مع حرصنا على إخضاع كل آرائنا وتقديراتنا لحكم العقل والمنطق، والبعد عن التحيز والهوى. ونأمل بعد هذا البحث الموضوعي الذي أجريناه أن نكون قد نجحنا في التوصل إلى الحقائق التي يتوق القراء - دون شك - إلى معرفتها، وأن نكون قد أجبنا إجابات شافية عن التساؤلات المطروحة على بساط البحث، وأخيرا - وهو الأمر المهم الذي نتوخاه دائما - أن نكون قد أرضينا ضميرنا.

في الساعة التاسعة من صباح يوم ٢٥ أكتوبر اتصل سعد الهاكع، المدير المنوب بشركة السويس لتصنيع البترول بالزيتية، بالمقدم فتحي غنيم رئيس قسم الدفاع المدني والحريق في

مقره بغرفة الدفاع المدني بميدان الأربعين، وأنبأه أن الدبابات الإسرائيلية قد وصلت إلى مقر الشركة، وأنه مضطر للتسليم ومعه ٣٠٠ عامل وموظف من الشركة ومن هيئة قناة السويس. وبعد مرور حوالي ٢٥ دقيقة، وكان المحافظ ومدير الأمن قد وصلا إلى غرفة الدفاع المدني ، أعاد سعد الهاكع الاتصال بالغرفة. وعندما رد عليه المقدم فتحي أخبره أن قائد القوة الإسرائيلية التي احتلت مقر الشركة يريد التحدث مع المحافظ أو مدير الأمن، وتناول المحافظ السماعة وقال لسعد الهاكع: إن المحافظ غير موجود. وعندما سأله عن القائد العسكري قال إنه غير موجود هو الآخر. وعندئذ أخذ السماعة من سعد الهاكع ضابط إسرائيلي وسأل: أين المحافظ؟ وكان يتحدث باللغة العربية بلهجة شامية، فأجابه بدوي الخولي: المحافظ غير موجود، فطلب منه إبلاغ المحافظ بأنه مطلوب منه تسليم المدينة في خلال نصف ساعة، وأن على المحافظ الحضور هو ومدير الأمن والقائد العسكري للسويس في سيارة عليها علم أبيض، وبصحبتهم جميع المدنيين في المدينة إلى الإستاد الرياضي (يقع جنوب السويس، وعلى مدخل طريق الزيتية بجوار شركة النصر للبترول)، ويتعهد الإسرائيليون بتأمينهم والمحافظة على حياتهم، وإذا لم يتم ذلك في خلال نصف ساعة فسوف تضرب المدينة بالطيران، وسيتعرض كل سكانها للإبادة. وعندما أبطأ المحافظ في الإجابة على حديث الضابط الإسرائيلي أخذ يصيح بصوت عال في الهاتف: «رد يا زلة ليش ما بترد يا زلة؟» (كلمة زلة في اللهجة الشامية تعنى يا رجل). وأوضح الضابط الإسرائيلي في نهاية إنذاره أنهم على اطلاع تام بأحوال المدينة، فليست بها مياه ولا كهرباء، ولا أحد لديه السيطرة على الجنود بداخلها، والدقيق قد اشتعلت فيه النار، ولذا فلا مفر من التسليم. رد عليه المحافظ قائلا: «المحافظ مش حيسلم البلد، وأنا لست مسئولا عن هذا الموضوع. وعلى كل حال الصليب الأحمر وصل». ورد الضابط الإسرائيلي قائلا: «ما فيه صليب أحمر، أنت بتغشني». واستطرد المحافظ قائلا: «وحتى هيئة الأمم وصلت الآن». وبادر بوضع سماعة الهاتف.

واتصل المحافظ في الحال هاتفيا بالعميد عادل إسلام القائد العسكري للسويس الذي كان منذ ظهر اليوم السابق قد انتقل من غرفة عمليات المحافظة إلى مسجد الشهداء، واتخذ من الطابق الثاني للمسجد - حيث مقر جمعية الهداية الإسلامية التي يرأسها الشيخ حافظ سلامة - مركزا مؤقتا لقيادته، وقال له المحافظ: «اليهود طلبوا مني التسليم وأنذروني بضرب السويس إن لم نسلم في خلال نصف ساعة، ما رأيك كقائد عسكري؟» ورد عليه عادل إسلام قائلا: «أعطني فرصة للتفكير».

واتصل المحافظ هاتفيا بعد ذلك بالرائد شرطة محمد رفعت شتا قائد الوحدة اللاسلكية التي أصبحت بعد قطع الإسرائيليين الخطوط الهاتفية بين السويس والخارج يوم ٢٣ أكتوبر، هي حلقة الاتصال الوحيدة بين السويس والقاهرة. وطلب المحافظ من الرائد شتا إبلاغ الرسالة التالية إلى المسئولين بالقاهرة: «اليهود أنذروني بالتسليم في ظرف نصف ساعة، وإلا فسنضرب بالطيران. ليس عندي مياه ولا ذخيرة ولا أسيطر على أي قوات ودقيقي يحترق. أوامركم».

وبعد مرور عشر دقائق أعاد المحافظ الاتصال بالعميد عادل إسلام، وسأله عن رأيه، فقال: «أنا لم أقرر بعد». فرد عليه المحافظ قائلا في شيء من الحدّة: «قرارك مش قرار نهائي، والقرار قراري أنا لأني المسئول عن هذا البلد. أنا عاوز أعرف قرارك وموقفك، ورأيك في التسليم مجرد رأي استشاري». وأجاب عادل إسلام قائلا: «أنا حاخد رأي الموجودين معي والمستشارين بتوعي». فسأله المحافظ: «ومين هم المستشارين بتوعك؟» ورد عادل إسلام: «الحاج حافظ سلامة». وانفعل المحافظ وقال في غضب: «إيه قيمة رأي الشيخ حافظ في هذا الموضوع؟ أنت اتجننت يا عادل؟ أنا عاوز رأيك العسكري». فرد عادل إسلام قائلا: «رأيي هو اللي تشوفه سيادتك». وأنهى المحافظ ذلك الحوار الساخن بقوله: «عموما عندما أتخذ قراري النهائي حقابلك أو تقابلني واحنا في انتظار قرار القاهرة».

ولم يكد المحافظ ينتهي من محادثته مع القائد العسكري، حتى دق جرس الهاتف ووجد الضابط الإسرائيلي على السماعة للمرة الثانية، وكان يستعجل رد المحافظ، وأجابه بدوي الخولي قائلا: «أنتم كنتم هنا بالأمس، ويمكن أن تجربوا الحضور مرة أخرى، والمحافظ غير موجود». وبعد أن وضع السماعة قال: «مفيش طريقة لقطع الخط التليفوني ده؟» واتصل اللواء محيي خفاجي مدير الأمن برئيس السنترال على الفور، وطلب منه قطع الخط التليفوني المباشر بين شركة السويس لتصنيع البترول وغرفة الدفاع المدني. وبالفعل تم فصل الخط وانقطعت اتصالات الإسرائيليين المباشرة مع المحافظ.

وكان الرائد رفعت شتا بمجرد تلقيه رسالة المحافظ قد قام بإبلاغها في الحال عن طريق اللاسلكي إلى العميد محمد النبوي إسماعيل مدير مكتب ممدوح سالم نائب رئيس الوزراء ووزير الداخلية وقتئذ. وبعد مرور حوالي ٢٠ دقيقة تلقى الرائد شتا رد القاهرة على رسالة محافظ السويس، والتي تم عرضها دون شك على الرئيس الراحل السادات.

ونظرا لأهمية رسالة القاهرة فقد قام العميد النبوي إسماعيل بإبلاغها بنفسه إلى الرائد رفعت شتا، وطلب منه بعد أن تلقاها أن يعيد تلاوتها عليه للتأكد من أنه قد استقبلها صحيحة. وكان نص الرد كما يلي: «لا تسليم بمعرفة المحافظ. يتم الدفاع عن السويس، وعلى المحافظ ومدير الأمن الانضمام إلى المقاومة الشعبية». وعندما أبلغ الرائد شتا نص رسالة القاهرة إلى المحافظ في الساعة التاسعة والدقيقة الخامسة والخمسين قال له المحافظ: «خلاص حننضم للمقاومة الشعبية ونموت شهداء». وعندما علم اللواء محيي خفاجي مدير الأمن بمضمون الرد قال: «قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا». وبمجرد وصول رد القاهرة بعدم التسليم طلب المحافظ العميد عادل إسلام وقال له: «القاهرة ردت يا عادل. لا تسليم». وأجاب عادل: «أنا كنت حطلب سيادتك الآن لأقول لك نفس هذا الكلام».

ونظرا لأن أنباء اتصالات الإسرائيلين بالمحافظ وتقديمهم إليه إنذارا بالتسليم قد انتشرت بين كثير من المواطنين، وأحدثت بين المواطنين بلبلة شديدة، لذا طلب المحافظ من المقدم فتحي غنيم أن يتجول بسيارة في شوارع المدينة وأن يذيع على الناس بمكبر للصوت أن المحافظ قد رفض الإنذار الإسرائيلي بتسليم السويس، وأن المدينة ستقاوم، وعلى كل فرد أن يتخذ لنفسه ساترا خشية أن ينفذ الإسرائيليون تهديدهم بضرب المدينة بالطيران. وقبيل الظهر، وبعد أن تأكد المحافظ من أن الإسرائيليين لم ينفذوا تهديدهم خرج مع مدير الأمن من غرفة الدفاع المدني، وعند مرورهما في ميدان الأربعين وجدا المقدم فتحي غنيم راكبا سيارة شرطة وبرفقته صبحي السيد عضو الاتحاد الاشتراكي، وهما يذيعان على الناس ما طلبه المحافظ. ونظرا لأن المحافظ كان يريد إذاعة رفضه إنذار التسليم على أوسع نطاق، ولم يكن هناك مكبر آخر للصوت سوى الموجود في مسجد الشهداء، لذلك اتصل المحافظ شخصيا بالشيخ حافظ سلامة وطلب منه أن يذيع على المصلين في المسجد بعد صلاة الظهر أن المحافظ رفض الإنذار الإسرائيلي بتسليم السويس، وأن ينصح الناس بعدم التجمع خوفا من الغارات الجوية. وقد ذكر المحافظ أنه علم من بعض المصلين أن الشيخ حافظ سلامة قد أذاع على المصلين ما طلبه منه.

هذا ولم يكن الإنذار الإسرائيلي للمحافظ صباح يوم ٢٥ أكتوبر بتدمير السويس بالطيران إذا لم يتم تسليمها في ظرف نصف ساعة إنذارا حقيقيا، ولم يكن في الواقع سوى خدعة خبيثة من أحد القادة الإسرائيليين المحليين، أراد على ما يبدو استغلال الموقف

السيء الذي أصبحت عليه المدينة لكي يقوم بمحاولة من جانبه لترويع المحافظ ومعاونيه، عسى أن يخيفهم التهديد بتدمير المدينة بالطيران فيخضعوا لإنذاره ويأتوا إلى الإستاد الرياضي وهم يحملون الأعلام البيضاء، مما سوف يكسبه مجدا شخصيا كبيرا. ولم يكن المحافظ ولا أحد من معاونيه داخل السويس يدري شيئا عما كان يدور في العالم وقتئذ من أحداث جسام، فقد تلبد الموقف الدولي بالغيوم منذ الليلة السابقة، ووصل التوتر بين الدولتين العظميين إلى حد احتمال المواجهة النووية بينهما بسبب الصراع المشتعل في الشرق الأوسط.

فعلى أثر استمرار إسرائيل في خرق وقف إطلاق النار وتحدي قراري مجلس الأمن رقمي ٣٣٨و٣٣٩ الصادرين في ٢٢ و٢٣أكتوبر، وبعد أن أتمت قواتها المدرعة إحكام حلقة الحصار حول الجيش الثالث لحمله على الاستسلام، وبعد أن أطبقت هذه القوات على مدينة السويس يوم ٢٤ أكتوبر حتى تسقط المدينة في قبضتهم، أذاعت القاهرة بعد ظهر يوم ٢٤ أكتوبر أن الحكومة المصرية تقدمت رسميا إلى مجلس الأمن بطلب إرسال قوات أمريكية وسوفيتية إلى منطقة السويس.

وفي الساعة التاسعة والدقيقة الخامسة والثلاثين بتوقيت واشنطن وردت رسالة عاجلة من الرئيس السوفيتي بريجنيف إلى الرئيس الأمريكي نيكسون تتضمن موافقة الاتحاد السوفييتي على طلب مصر بإرسال قوات عسكرية أمريكية وسوفيتية إلى الشرق الأوسط لوقف العدوان الإسرائيلي. وهدد بريجنيف في نهاية مذكرته بأنه في حالة إحجام الولايات المتحدة عن إرسال قواتها، فإن الاتحاد السوفيتي قد يضطر إلى العمل منفردا. وبعد عرض الأمر على الرئيس نيكسون بادر كيسنجر وزير الخارجية الأمريكية إلى شرح الموقف الخطير للسفير الإسرائيلي في واشنطن سيمحا دينتز، ثم دعا إلى اجتماع عاجل لمجلس الأمن القومي في غرفة الخرائط بالبيت الأبيض. وفي الساعة الحادية عشرة إلا الثلث ليلا بتوقيت واشنطن، عقد الاجتماع الذي حضره إلى جانب كيسنجر كل من شليزنجر وزير الدفاع وكولبي مدير وكالة المخابرات المركزية والأدميرال مورر رئيس الهيئة المشتركة لرؤساء الأركان وألكسندر هيج كبير موظفي البيت الأبيض، وعدد آخر من كبار المسئولين المدنيين والعسكريين. وتم الاتفاق على الرد على المذكرة السوفيتية بعمل أمريكي حاسم. وفي أثناء الاجتماع الطارئ في البيت الأبيض وردت معلومات جديدة بأن ثماني طائرات نقل سوفيتية عملاقة أنتينوف ٢٢ أصبحت مستعدة للإقلاع من بوادابست إلى

مصر خلال ساعات قليلة، وقدرت المخابرات الأمريكية أن السوفيت أصبحوا قادرين الآن على نقل خمسة آلاف جندي بالجو إلى مصر يوميا.

وإزاء خطورة ومغزى هذه الإجراءات السوفيتية تم إصدار الأمر إلى الفرقة ٨٢ الأمريكية المحمولة جوا بالاستعداد للتحرك وتحريك عدد إضافي من حاملات الطائرات لتنضم إلى الأسطول الأمريكي السادس في البحر المتوسط، وأخيرا ـ وكان هذا هو أهم ما شغل العالم ـ إعلان حالة التأهب في جميع القواعد العسكرية الأمريكية في العالم. وهكذا في فجر يوم الخميس ٢٥ أكتوبر تم تصعيد الموقف بين الدولتين العظميين حتى وصل إلى حافة المواجهة النووية، بسبب الأعمال العدوانية الإسرائيلية غرب القناة عقب قراري وقف إطلاق النار. ولم يكن في مقدرة إسرائيل بالطبع بعد أن بلغتها كل هذه التطورات الخطيرة، أن تغامر يوم ٢٥ أكتوبر وسط تلك الأنباء المثيرة عن احتمال نشوب حرب عالمية نووية بسبب تصرفاتها، بالقيام بأي عمل عسكري على نطاق واسع ضد مدينة السويس. ولم تكن القيادة السياسية الإسرائيلية من الحماقة وقصر النظر بحيث تسمح للقيادة العسكرية بأن تقوم بمحاولة جديدة لاقتحام السويس بمدرعاتها مرة أخرى أو بتدمير المدينة بطائراتها، فإن مثل هذا العمل الاستفزازي قد يكون هو المبرر الذي يتذرع به الاتحاد السوفيتي لإرسال قواته المحمولة جوا إلى ساحة القتال بالشرق الأوسط. ولا شك في أن أي تصرف إسرائيلي غير محسوب كان سيؤدي إلى انفجار الموقف، وبالتالي إلى إثارة غضب الولايات المتحدة على إسرائيل.

ومن السهل بعد معرفة حقيقة الأوضاع الدولية فجر ٢٥ أكتوبر أن ندرك أن ذلك الإنذار الإسرائيلي لم يكن إلا عملية قصد بها التهويش، إذ إن مدة الإنذار التي حددت بنصف ساعة كان من المستحيل من الناحية المنطقية إتمام تسليم المدينة خلالها وفقا للطريقة المطلوبة، وهي تجميع كل المدنيين في الإستاد الرياضي خارج المدينة، وعلى رأسهم المحافظ ومدير الأمن والقائد العسكري. كما أن عدم تنفيذ التهديد الإسرائيلي الذي كان يتضمنه الإنذار، وهو قصف المدينة بالطيران في حالة عدم التسليم، يدل بجلاء على أن هذا الإنذار لم يكن إنذارا جديا.

وفضلا عن ذلك، اتضح أن ضابطا إسرائيليا آخر من الذين احتلوا مبنى شركة السويس لتصنيع البترول أمسك بدليل التليفون وراح يجرب الاتصال بأرقام بعض كبار المسئولين

في مديرية الأمن عن طريق سعد الهاكع أيضا . وكان ضمن الذين تحدث معهم المقدم أمين الحسيني مفتش مباحث أمن الدولة الذي تهرب منه وأعطاه رقم اللواء محمد حمزة عميرة نائب مدير الأمن . وقد ثبت أن الضابط الإسرائيلي اتصل باللواء حمزة عميرة في الساعة الرابعة مساء ، وتحدث معه باللغة الإنجليزية وطلب منه إبلاغ المحافظ بإنذار إسرائيلي جديد ، وهو تسليم المدينة في ظرف ربع ساعة وإلا فسوف يتم تدميرها بالطائرات . ولا يمكن من الناحية المنطقية أن تكون هذه السلسلة من الإنذارات الوهمية تدبيرا منظما بمعرفة القيادة السياسية الإسرائيلية أو العسكرية ، ولذا فإنها في غالب الأمر لم تكن سوى اجتهادات وتصرفات شخصية قام بها بعض القادة المحليين من تلقاء أنفسهم ، أو ربما تكون على أحسن الفروض أسلوبا من أساليب الحرب النفسية بهدف الاستيلاء على السويس بغير قتال ، نظرا لأن الموقف الدولي لم يكن يسمح للقيادة الإسرائيلية بمعاودة الهجوم على السويس مرة أخرى .

لماذا نحي المحافظ من منصبه؟

بعد أن عرضنا على القراء بدقة وأمانة تسلسل الأحداث التي جرت في السويس صباح يوم ٢٥ أكتوبر ٧٣ ، وأوردنا نقلا عن المصادر الرسمية نص الاتصالات التي أجراها بدوي الخولي محافظ السويس بعد تلقيه الإنذار الإسرائيلي في الساعة التاسعة والنصف صباح ذلك اليوم ، سواء كانت هذه الاتصالات داخل السويس أو مع القاهرة ، فإننا نخرج بنتيجة واحدة مؤكدة لا مجال فيها للاجتهاد أو المكابرة وهي أن المحافظ لم يبدر منه أي تصرف يدل على قبوله تسليم السويس للإسرائيليين تنفيذا للإنذار الذي تلقاه .

والأمر الوحيد الذي تنبغي مناقشته بعد خروجنا بهذه النتيجة هو تقييم الأسلوب الذي اتبعه المحافظ للوصول إلى القرار السليم الذي ينبغي اتخاذه في هذا الموقف .

ومن اطلاعنا على الوثائق الرسمية وعلى أقوال المسئولين الذين شهدوا هذا الموقف ، نجد أن المحافظ قد أجرى بعد تلقيه الإنذار الإسرائيلي اتصالين رئيسيين ، أولهما مع القائد العسكري للسويس ، والثاني مع المسئولين بالقاهرة .

ولا شك في أن اتصاله بالقائد العسكري للسويس هو تصرف طبيعي ومنطقي ، لأن الإنذار الموجه إلى المحافظ هو إنذار عسكري في المقام الأول ، وقد تم توجيهه إليه بواسطة قائد عسكري إسرائيلي ، ولذا فإن القرار برفضه أو قبوله لابد أن يشترك فيه اشتراكا فعليا

القائد العسكري المصري المسئول عن الدفاع عن السويس، والذي لديه المعلومات الصحيحة عن مدى مقدرة الدفاع الجوي المصري في مواجهة الطائرات الإسرائيلية في حالة تنفيذ الإسرائيليين تهديدهم وإرسال طائراتهم لتدمير السويس في حالة رفض الإنذار.

كذلك كان اتصال المحافظ بالمسئولين في القاهرة أمرا محتما، إذ لا يملك المحافظ أن يتخذ بمفرده قرارا مصيريا تاريخيا تتوقف عليه حياة أو موت ما يقرب من عشرين ألف مواطن، وبقاء أو دمار مدينة بأكملها تضم مساكن ومنشآت ومرافق بمئات الملايين من الجنيهات. وعلاوة على ذلك، فإن القيادة السياسية في القاهرة هي الجهة الوحيدة التي كان لديها المعلومات الصحيحة عن الموقف الدولي ونتائج الاتصالات المصرية مع الدولتين العظميين، الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي. ولا شك في أن القيادة السياسية عندما بعثت برسالتها إلى المحافظ بعدم التسليم رغم تأكدها من عدم وجود أي وسائل في المدينة للإعاشة وعدم توافر أي إمكانات جدية للدفاع عنها، إنما استندت في إصدار هذا القرار إلى الحقائق التي كانت تعرفها عن المواجهة الخطيرة التي كانت قائمة وقتئذ بين القوتين العظميين، والتي كانت تهدد باندلاع حرب عالمية نووية، مما جعلها على يقين من أن الموقف الدولي لا يسمح لإسرائيل بتنفيذ إنذارها ومحاولة تدمير السويس بطائراتها.

ومن الطريف أن بعض الذين هاجموا محافظ السويس على موقفه من الإنذار الإسرائيلي، عندما عجزوا عن تسجيل أي أخطاء ارتكبها من ناحية تصرفاته، لم يجدوا أمامهم وسيلة سوى الزعم بأن رأيه الشخصي كان هو قبول الإنذار وتسليم السويس، ولاشك في أن هذا المعيار فيه إجحاف كبير، إذ إن الإنسان وفقا للشرائع والقوانين لا يمكن أن يحاسب أو يساءل على ما يدور في رأسه من آراء وأفكار، إذ إن العبرة إنما تكون بالأعمال والتصرفات المادية الملموسة. وقد رد بدوي الخولي ردا مقنعا على الذين هاجموه بهذا المعيار خلال المؤتمر المشترك للمجلسين التنفيذي والشعبي الذي عقد بديوان عام المحافظة يوم ٥ مارس ٧٤ فقال: «وإذا افترضنا جدلا أن رأيي كان أن نسلم البلد، لكن القاهرة عندما لجأت إليها قالت لا تسليم للبلد، ولم أسلم البلد بناء على هذه التعليمات. إذن فأنا لم أسلم البلد فعلا. ولكن هذا لم يحدث، وأردت أن أشرك القاهرة معي في القرار حتى لا أتهم أنني قصرت في تسليم البلد إذا حدث أن القاهرة رأت اتخاذ هذا الموقف حماية للمواطنين».

وعلى الرغم من سلامة موقف بدوى الخولي وصحة تصرفاته كمحافظ للسويس إزاء

الإنذار الإسرائيلي الذي تلقاه صباح يوم ٢٥ أكتوبر ٧٣، وهو الأمر الذي وضح لنا بجلاء بعد هذه الدراسة الموضوعية التي أجريناها دون أي تحيز أو هوى، فمن المؤسف أن نقرر أن حملة التشهير والافتراء التي وجهت ضده من بعض المغرضين والحاقدين قد تكللت في النهاية بالنجاح، وتمت إحالته على التقاعد في ١٦ إبريل ٧٤، أي بعد أقل من ثلاثة شهور على انتهاء عزلة السويس وإعادة طرق الاتصال إليها يوم ٢٨ يناير ٧٤ بعد اتفاقية فض الاشتباك الأولى.

وإذا ما أردنا اكتشاف سر تلك الحملة الظالمة التي تعرض لها بدوي الخولي بهذه القوة والشراسة، فمن الواجب أن نتذكر الظروف العصيبة التي كانت المدينة تعيش فيها والضغط العصبي الذي كان يعمل في ظله كل الرجال المسئولين عنها، وفي مقدمتهم المحافظ خلال فترة الحصار التي امتدت إلى مائة يوم كاملة. لقد كان تسيير الأمور وإدارة شئون الحكم في مدينة محاصرة تحيط بها القوات الإسرائيلية من كل جانب، عملية من أشق العمليات، خاصة إذا تذكرنا أن المدينة كان يقطنها حوالي عشرين ألف مواطن معظمهم من الوافدين والشاردين ومن مختلف الطوائف والفئات، ما بين مدنيين وعسكريين وما بين عمال وفلاحين وتجار وحرفيين وموظفين. ولم تكن ظروف الحياة داخل السويس عادية كغيرها من المدن، فمعظم السكان بلا عمل، والفراغ بالطبع أكبر مفسدة، ومواد التموين والسلع لا تباع ولا تشترى، بل ترسل من القاهرة عن طريق قوة الطوارئ الدولية لتوزع على المواطنين وفق مقادير مقررة، ولا مجال في المدينة لسمر أو تسلية أوترويح عن النفس مما يشد الأعصاب. كل هذه الظروف الشائكة كانت تتطلب تشددا وحزما في التعامل مع الناس، إذ إن انفلات الزمام كان معناه الفوضى الشاملة مما لابد أن يؤدي إلى سلسلة من الجرائم وانتشار عمليات السلب والنهب، خاصة مع وجود هذا العدد الضخم من الأسلحة وهذه الكميات الكبيرة من الذخيرة، سواء مع الجنود أو المواطنين. ومن الطبيعي أن يتعرض المحافظ الذي أحكم سيطرته على المدينة طوال فترة الحصار، وحافظ بالتعاون مع جهاز الشرطة الذي كان يرأسه مدير الأمن اللواء محيي خفاجي على الأمن والنظام والانضباط داخلها بشدة وصرامة، إلى حملات مريرة من الكراهية والحقد من كل من أساء إليهم من الأهالي بسبب تشدده وحزمه. ولم يكن أمام هؤلاء الحاقدين أو أولئك الذين حاولوا تسجيل بطولات زائفة عن أعمال وهمية قاموا بها في أثناء المعركة وخلال الحصار سوى أن يصوبوا سهام حقدهم صوب المحافظ.

ولكن الحقيقة مهما غابت فإن الله لابد أن يظهرها، ولابد للتاريخ من أن يسجل الحقائق كاملة مهما زيف المزيفون وزور المزورون وخادع المخادعون . .

إعلان حالة التأهب في القوات الأمريكية

في الساعة الحادية عشرة والدقيقة الخامسة والثلاثين مساء يوم ٢٤ أكتوبر، تم تسلم الأدميرال موررر رئيس الهيئة المشتركة لرؤساء الأركان أمر التأهب القتالي للقوات الأمريكية من شليزنجر وزير الدفاع، وعلى الفور قام بإبلاغه إلى القيادات والوحدات الفرعية في جميع أنحاء العالم. وكان نص الأمر كما يلي: «إلى جميع القيادات، ترفع درجة الاستعداد القتالي إلى الدرجة رقم ٣». وكان الاستثناء المهم الوحيد في أمر الاستعداد للقتال هو طائرات التموين بالوقود في الجو التابعة للقيادة الجوية الإستراتيجية (S A C) فقد كلفت بالاستمرار في خدمة قاذفات القنابل الثقيلة من طراز ب ٥٢ لإعادة تزويدها بالوقود في نقطة لقاء محددة بوسط المحيط الأطلنطي، وكانت تلك الطائرات تقوم بهذه المهمة لخدمة طائرات الجسر الجوي من الولايات المتحدة إلى إسرائيل.

وعند منتصف الليل، وصل الأمر الإنذاري الذي أرسله الأدميرال موررر إلى القاعدة الجوية في «بلفو» بولاية نبراسكا حيث المركز العصبي الرئيسي للقيادة الجوية الإستراتيجية في جميع أنحاء العالم. وفي الحال، تم إيقاظ مئات من أفراد القوات الجوية وأعضاء القيادة الجوية الإستراتيجية من ضباط أركان حرب العمليات، وتم استدعاؤهم إلى مركز القيادة في مبنى من سبعة طوابق، أربعة منها تحت الأرض. وتقاطر الضباط في الشرفات بينما أخذت أجهزة الكمبيوتر تصب سيلا من المعلومات عن حالة الطقس والأهداف المحتملة، وكذلك عن حالة الاستعداد التي وضع فيها أفراد القيادة الجوية الإستراتيجية والبالغ عددهم ١٦٢,٠٠٠ فرد في جميع أنحاء العالم.

أما قاذفات القنابل التابعة للقيادة الجوية الإستراتيجية والمنتشرة حول العالم، فقد وضعت على المدارج، بينما كان الطيارون على أهبة الاستعداد للإقلاع بمجرد صدور الأمر بذلك. وقد أمرت ستون قاذفة قنابل من طراز ب ٥٢ بالعودة من قاعدتها في «جوام» إلى الولايات المتحدة.

وفي الساعة الواحدة والنصف صباح يوم ٢٥ أكتوبر، عاد شليزنجر وزير الدفاع

الأمريكي إلى البنتاجون حيث أعطى المزيد من الأوامر لدعم الموقف بشأن حالة الاستعداد القتالي، فتم إرسال حاملة الطائرات «جون كيندي» بحمولتها من قاذفات القنابل من طراز سكاي هوك من شرق المحيط الأطلنطي إلى البحر المتوسط، كما أخطرت الفرقة ٨٢ المحمولة جوا (١٥,٠٠٠ رجل) بمقرها في «فورت براج» بولاية نورث كارولينا، وهي الفرقة المعروفة باسم قوة التدخل السريع بأن تكون جاهزة للتحرك قبل الساعة السادسة صباحا.

وفي الساعة الثانية صباحا، تم إبلاغ أعضاء حلف شمالي الأطلنطي (NATO) بأمر الاستعداد الأمريكي للقتال. وفي الساعة الثانية والنصف صباحا أنهي كيسنجر مسودة رد الرئيس نيكسون على مذكرة الرئيس السوفيتي بريجنيف. وكان مضمون الرد أن الولايات المتحدة لا يمكنها أن تتسامح إزاء قيام الاتحاد السوفيتي بعمل منفرد في الشرق الأوسط، وأن أي محاولة لإدخال قوات إلى منطقة النزاع سوف تؤدي إلى الإضرار بقضية السلام العالمي؛ ولكن الولايات المتحدة مستعدة بل وراغبة في المشاركة في قوة مراقبة حقيقية تابعة للأمم المتحدة لضمان وقف إطلاق النار. ولم يتضمن الرد الأمريكي أي إشارة إلى الأمر الإنذاري الذي صدر بوضع القوات الأمريكية على أهبة الاستعداد، وذلك لأنه افترض أن السوفييت لابد أن يكونوا قد علموا بذلك فعلا عن طريق وسائل مخابراتهم الإلكترونية وأقمارهم الصناعية.

وفي الساعة الثالثة صباحا، استكمل شليزنجر والأدميرال مورر جميع التفاصيل الخاصة بالأمر الإنذاري، وعاد هنرى كيسنجر وزير الخارجية إلى البيت الأبيض حيث أبلغ الرئيس نيكسون بالتدابير التي تم اتخاذها. وصدق نيكسون في الحال على هذه الإجراءات بوصفه القائد الأعلى للقوات المسلحة الأمريكية.

قرار مجلس الأمن رقم ٣٤٠

وفي صباح يوم ٢٥ أكتوبر، اجتمع مجلس الأمن وسط تلك الأنباء الرهيبة عن توقع حدوث المواجهة بين القوتين العظميين بسبب الصراع المحتدم بينهما بشأن أزمة الشرق الأوسط. وكان هذا ما دفع أعضاء المجلس إلى سرعة اتخاذ الإجراءات العاجلة أملا في تهدئة الموقف القابل للانفجار، وللتوصل إلى وقف حقيقي لإطلاق النار في الشرق الأوسط. وتقدمت ثماني دول وهي الهند وإندونيسا ويوغسلافيا وغينيا وكينيا والسودان

وبنما وبيرو بمشروع قرار ينص على إنشاء قوة طوارئ دولية مع استبعاد قوات الدول الخمس دائمة العضوية في المجلس (الولايات المتحدة ـ الاتحاد السوفيتي ـ الصين ـ بريطانيا ـ فرنسا). ولم يلبث مجلس الأمن أن وافق على مشروع القرار المقدم إليه، وأصدر في نفس اليوم قراره رقم ٣٤٠ بموافقة ١٤ دولة وامتناع الصين عن التصويت بإنشاء قوة طوارئ دولية وتفويض السكرتير العام للأمم المتحدة سلطة إيفادها على الفور إلى منطقة النزاع بالشرق الأوسط، على أن يقدم تقريرا خلال ٢٤ ساعة عن الإجراءات التي اتخذت لهذا الغرض.

وفي ليلة ٢٥/ ٢٦ أكتوبر، أصدر مجلس الأمن أمرا رسميا بتشكيل قوة الطوارئ الدولية على أن تتكون من سبعة آلاف رجل، وأن تسند قيادتها إلى الجنرال الفنلندي إنزيو سيلاسفو الذي كان يتولى قيادة قوة الطوارئ الدولية في قبرص. وبصفة عاجلة تقرر سحب ٩٠٠ ضابط وجندي من قوات الطوارئ الدولية العاملة في قبرص وتحريكها فورا إلى جبهة السويس. وكانت هذه المجموعة تتكون من مفارز تابعة لقوات من النمسا وفنلندا وأيرلندا والسويد. وقدرت تكاليف تشكيل هذه القوة بثلاثين مليون دولار للأشهر الستة الأولى، وقرر الاتحاد السوفيتي الذي كان يقاطع من قبل الإسهام في نفقات قوات الطوارئ الدولية المشاركة في هذه المرة بدفع حصته في تكاليف إنشائها. كما تقرر أن تشترك قوات من غانا وبنما وبيرو ونيبال وإندونيسيا في قوة الطوارئ، فضلا عن الدول الأربع السابق ذكرها، والتي تشترك قواتها في القوة الدولية العاملة في قبرص. وكان رأي مجلس الأمن في البداية عدم إشراك دول أعضاء في حلفي وارسو والأطلنطي، ولكنه عاد وسمح لكل من بولندا عضو حلف وارسو وكندا عضو حلف الأطلنطي بالاشتراك في القوة.

الوضع العسكري في السويس

رغم فشل الإسرائيليين في اقتحام السويس يوم ٢٤ أكتوبر، فإنه كان من المحتمل أن يعاودوا هجومهم في أي وقت، ولذا وضع العميد عادل إسلام القائد العسكري للسويس خطة تأمين جديدة لإغلاق مداخل السويس التي كان ينتظر تقدمهم عن طريقها، وقسم المدينة إلى أربعة قطاعات، وعين لكل قطاع قائدا مسئولا عن الدفاع عنه، وكذا ضابط اتصال من ضباط الدفاع الشعبي ليكون أداة الاتصال بين قيادة القطاع وقيادة السويس.

وحرص العميد عادل على تغيير مركز قيادته بصفة مستمرة، ليمنع تعرضه للهجوم من جانب أي متسللين أو عملاء، ولذا انتقل من مسجد الشهداء إلى ورشة مياه هيئة القناة ثم إلى مؤسسة الأدوية، خاصة في الأيام الحرجة مابين يوم ٢٤ أكتوبر حتى وصول قوات الطوارئ الدولية يوم ٢٨ أكتوبر. وكان العميد ا.ح يوسف عفيفي قائد الفرقة ١٩ مشاة قد أرسل يوم ٢٥ أكتوبر حوالي ١٢ طاقم اقتناص دبابات تسلح كل منها بالقاذف RPG 7، وكان من بينهم من هم أصلا من أبناء السويس الذين أبدوا رغبتهم في الدفاع عن مدينتهم، واختار لقيادتهم الرائد علي رضا والنقيب فوزي شاكر والملازم أول أحمد مصطفى مراد.

وقد انتقلت هذه الأطقم باللنشات من شرق القناة إلى السويس، وتم وضعها في مواقع حاكمة على مدخل المدينة لصد أي هجمات للعدو وتدمير دباباته. وفضلا عن هذه الأطقم كانت هناك سرية «شمل» مضادة للدبابات من الفرقة ١٩ مشاة بقيادة المقدم حسام عمارة، وهي التي اشتركت في القتال ضد دبابات العدو يوم ٢٤ أكتوبر، وبقيت في المدينة منذ ذلك الوقت للدفاع عنها.

وبعد أن أتمت أطقم الفرقة ١٩ مشاة المضادة للدبابات احتلال مواقعها وفقا للخطة الموضوعة لتأمين السويس، أرسل العميد أ.ح يوسف عفيفي خطابا إلى المحافظ بدوي الخولي، أكد له فيه أن الفرقة ١٩ مشاة قامت بجميع إجراءات حماية وتأمين مداخل المدينة والمراكز المهمة بها. هذا وقد قام العميد يوسف عفيفي بكل هذه الإجراءات الفعالة للدفاع عن السويس بمبادرة شخصية منه، إذ لم تكن هذه المهمة داخلة ضمن مهمة فرقته.

هذا، ولم يحاول الإسرائيليون بعد فشل هجومهم يوم ٢٤ أكتوبر على السويس شن أي هجوم على المدينة بصفة جدية، وكانت كل عملياتهم بمثابة مناوشات لقصد اكتساب مزيد من الأراضي، إذ إن الموقف الدولي المتأزم الذي سبق أن شرحنا أبعاده بالتفصيل لم يكن يسمح لهم بتكرار محاولتهم مرة أخرى، خاصة بعد صدور قرار مجلس الأمن رقم ٣٤٠ يوم ٢٥ أكتوبر ٧٣ بإنشاء قوة طوارئ دولية للإشراف على تنفيذ قرارات مجلس الأمن الثلاثة ٣٣٨ و٣٣٩ و٣٤٠ بوقف إطلاق النار وانسحاب قوات الطرفين إلى المواقع التي كانت تحتلها في الساعة السادسة والدقيقة الثانية والخمسين مساء يوم ٢٢ أكتوبر بتوقيت شرق البحر المتوسط.

وعند ظهر يوم ٢٨ أكتوبر، وصلت طلائع قوة الطوارئ الدولية إلى السويس، وتوجه قائد القوة إلى مبنى المحافظة حيث تم عقد اجتماع بينه وبين بدوي الخولي محافظ السويس، وقد حضر هذا الاجتماع اللواء محيي خفاجي مدير الأمن والعميد عادل إسلام القائد العسكري والعقيد فتحي عباس مدير مخابرات جنوب القناة.

وعقب الاجتماع، بدأ قائد قوة الطوارئ الدولية في توزيع دوريات من جنوده على قطاعات المدينة، وتحركت كل دورية في عربة جيب عليها علم الأمم المتحدة وبرفقتها ضابط مصري لإرشادها إلى المواقع المصرية، ليتيسر لها تحديد الخط الذي يفصل بين المواقع المصرية والمواقع الإسرائيلية كي تتمركز فيه النقاط الثابتة للأمم المتحدة. وقد استغلت القوات الإسرائيلية هذه العملية للتقدم من أماكنها واكتساب أراض جديدة، فقامت بدفع دبابة إلى نقطة الهويس واحتلت منطقة كفر جودة وعمارتين من مباني منطقة المثلث، كما تمكنت من التقدم واحتلال استراحة الري على طريق الزيتيات. وقد تجاهل مراقبو الأمم المتحدة هذه الانتهاكات الإسرائيلية الصارخة رغم أنها جرت على مشهد منهم ورغم احتجاج الضباط المصريين، وكان ردهم أنهم يحددون المواقع وفقا للقوات التي تحتلها بالفعل، وألحوا على المصريين بعدم إطلاق النار وبضرورة ضبط الأعصاب.

وفي يوم ٣٠ أكتوبر اتصل المحافظ بقائد الجيش الثالث وطلب منه إرسال أحد القادة الذين يتميزون بقوة الشخصية والحزم إلى السويس ليمكنه السيطرة على العدد الكبير من العسكريين الذين توافدوا على المدينة يومي ٢٢و٢٣ أكتوبر من وحدات مختلفة دون وجود أي قيادة عسكرية تسيطر عليهم. وفي يوم ٣١ أكتوبر أرسل قائد الجيش الثالث العميد أ.ح محمد أمين الكنزي مساعد قائد الفرقة ٧ مشاة إلى السويس وبرفقته فصيلة من الشرطة العسكرية. وتم تسلم العميد ا.ح محمد الكنزي قيادة السويس العسكرية من العميد عادل إسلام في أول نوفمبر ٧٣، وانضمت منذ هذا اليوم قيادة الدفاع الشعبي بأفرادها وأسلحتها ومعداتها إلى قيادة السويس العسكرية.

وقد تمكن العميد الكنزي بفضل جهوده الصادقة وعمله الدائب وإخلاصه من فرض النظام والانضباط على آلاف الجنود الذين كانت المدينة تموج بهم. وبعد أن أعيد تنظيمهم وتسليحهم ضمن وحدات منظمة، تم استخدام بعض هذه الوحدات لتعزيز الدفاع عن السويس، واشتركت الوحدات جميعا في البرامج التدريبية التي أشرف على تنفيذها العميد الكنزي هو ومعاونوه، والتي كان الغرض منها رفع كفاءة هؤلاء الجنود القتالية من

جهة وحتى لا يقعوا فريسة للفراغ القاتل طوال مدة الحصار من جهة أخرى مما يؤدي إلى انحرافهم. وفضلا عن ذلك، تم تشكيل وحدة من الشرطة العسكرية تولى قيادتها العقيد إسماعيل أمين، وخصص مبنى مدرسة الست آمنة الإعدادية للبنات ليكون مقرا لها، وقد أسهمت هذه الوحدة في فرض الأمن والنظام داخل السويس.

هذا وقد ظلت وسائل الاتصال اللاسلكية بين السويس والقاهرة تعمل بدقة وكفاءة عن طريق وحدة الدورية اللاسلكية التي كان يتولى قيادتها الرائد شرطة محمد رفعت شتا منذ أن انقطعت جميع وسائل الاتصال الهاتفية بين السويس والخارج يوم ٢٣ أكتوبر. ولكن هذه الوسيلة الوحيدة للاتصال لم تلبث أن انقطعت يوم ٢٦ أكتوبر، فقد تمكن العدو من الاستيلاء على مبنى الوحدة الذي كان يقع في مكان منعزل خارج المدينة على طريق ناصر مابين منطقة المثلث وطريق الزيتيات، وقام بأسر الرائد رفعت شتا والملازم أول عبد الرحمن غنيمة و١٨ صف ضابط وجنديا وعاملا مدنيا بعد أن قاموا بأداء واجبهم بشجاعة وإخلاص في أحرج الفترات في الوقت الذي كانت فيه دبابات العدو على بعد أمتار قليلة منهم.

ولكن الاتصال اللاسلكي مع القاهرة لم يلبث أن أعيد مرة أخرى يوم ٣٠ أكتوبر. فقد تم توجيه طاقم اتصال لاسلكي تابع للمخابرات الحربية بأمر رئاسة الجهاز إلى مدينة السويس، وكان واحدا من الأطقم التي تعمل في أعمال الاستطلاع خلف خطوط العدو في سيناء، وقد انضم فور وصوله على مكتب مخابرات جنوب القناة في السويس. وكان العقيد فتحي عباس عقب وصول قوة الطوارئ الدولية إلى السويس قد عاد هو وأفراد مكتبه إلى المبنى الأصلي الذي كانت المخابرات تشغله من قبل، وهو مبنى مكون من خمسة طوابق ويقع في مواجهة مبنى المحافظة. وقد أمر العقيد فتحي بوضع طاقم الاتصال اللاسلكي الذي كان يتكون من ضابط وفردين في إحدى غرف المبنى، وأصبح هذا الطاقم هو حلقة الاتصال الرئيسية بين المحافظة والمسئولين في القاهرة، علاوة على عمله العادي وهو تحقيق الاتصال بين مكتب المخابرات في السويس ورئاسة الجهاز في القاهرة.

وفي نفس الوقت، أرسل العميد أ.ح يوسف عفيفي محطة لاسلكية من الفرقة ١٩ مشاة تم تخصيص غرفة لها في الطابق الخامس من مبنى المخابرات، وقد تركز عمل هذه المحطة في إجراء الاتصالات بين أهالي السويس وأسرهم الموجودة خارجها مما كان له أثر كبير في رفع الروح المعنوية بين المواطنين.

السويس تحت وطأة الحصار

أصبحت السويس منذ يوم ٢٣ أكتوبر لأول مرة عبر تاريخها الطويل تحت وطأة الحصار. فقد أحاطت بها القوات الإسرائيلية من كل جانب، بل احتلت ضاحيتها الصناعية الشهيرة التي تقع في جنوبها الغربي وهي منطقة الزيتيات، حيث مقر شركة الأسمدة ومجموعة من أهم شركات البترول. وكان احتمال فتح الطرق التي تربطها بالخارج أمرا في علم الغيب، بينما كان الأمر الأكثر احتمالا هو ظهور الدبابات الإسرائيلية في شوارعها الرئيسية إذا ما فكرت القيادة الإسرائيلية في إعادة الكرة وإرسال قواتها مرة أخرى.

وفور وصول قوات الطوارئ الدولية يوم ٢٨ أكتوبر وسريان وقف حقيقي لإطلاق النار، بدأت السويس تمارس حياتها كدولة مستقلة لا تعتمد إلا على مرافقها الخاصة ومواردها الذاتية. وأصدر المحافظ أمره بصفته الحاكم العسكري باعتبار السويس منطقة عسكرية، وتوالى منذ ذلك الوقت صدور الأوامر العسكرية التي أسهمت كثيرا في استقرار الحياة وانتظامها في المدينة. كما أمر المحافظ بتشكيل محكمة عسكرية لمحاكمة مرتكبي الجرائم والمنحرفين والمتلاعبين بأقوات الشعب. وقد انقسمت فترة الحصار إلى مرحلتين رئيسيتين: المرحلة الأولى من ٢٣ أكتوبر حتى ١٤ نوفمبر ٧٣، وهي فترة شديدة الحرج إذ كانت المدينة تعتمد خلالها في الإعاشة على مواردها الذاتية الضئيلة دون تلقى أي مساعدات من الخارج. أما المرحلة الثانية فتبدأ من ١٥ نوفمبر ٧٣، وهو موعد بدء وصول الإمدادات من القاهرة عن طريق قوة الطوارئ الدولية على أثر توقيع اتفاقية النقاط الست بين مصر وإسرائيل في ١١ نوفمبر٧٣، واستمرت هذه المرحلة حتى يوم ٢٨ يناير ٧٤ وهو موعد فتح الطرق ثانية بين السويس والخارج على أثر توقيع اتفاقية فض الاشتباك الأولى في ١٨ يناير ٧٤ بين مصر وإسرائيل في المحادثات التي عرفت باسم محادثات الكيلو متر ١٠١.

وكانت أكبر مشكلة واجهتها السويس خلال فترة الحصار هي مشكلة المياه. فقد وضعت القوات الإسرائيلية يدها بعد استيلائها على منطقة الزيتيات على صهاريج تخزين المياه الاحتياطية الخاصة بالمدينة والموجودة داخل مباني شركة الأسمدة والصناعات الكيمياوية وشركة النصر للبترول. وفي يوم ٢٨ أكتوبر أقام العدو سدا ترابيا على الترعة الحلوة عند جبلاية السيد هاشم بالقرب من الهويس على بعد كيلو متر واحد من محطة

هيئة قناة السويس التي تمد المدينة بالمياه، مما أدى إلى انخفاض منسوب المياه في الجزء المتبقي من الترعة والموجود داخل المدينة. وعلى أثر الاجتماع الذي عقده المحافظ مع مدير الأمن والمسئولين عن المياه في المدينة، تقرر سحب المياه المتبقية في الترعة فورا وتخزينها بخزانات وأحواض محطة مياه هيئة قناة السويس لضمان عدم قيام العدو بحرمان المدينة منها. وبتعليمات من اللواء محيي خفاجي مدير الأمن، أشرف المقدم فتحي غنيم رئيس قسم الدفاع المدني والحريق على تنفيذ العملية المطلوبة باستخدام ٧ ماكينات إطفاء من وحدة الحريق. وبلغت كمية المياه التي تم تخزينها في محطة المياه ١٤,٠٠٠ متر مكعب من المياه العكرة، وقد قام الفنيون في المحطة بتطهيرها وصدرت التعليمات بنقل ٤٠٠ متر مكعب من هذه الكمية إلى خزانات شركة جركو بحي الأربعين لتكون بمثابة احتياطي يتم استخدامه في حالة قيام العدو بضرب محطة المياه.

وكانت الخطة التي وضعت لمواجهة النقص الحاد في المياه هي وقف ضخ المياه نهائيا في شبكة المدينة، وتخصيص كمية المياه المخزونة كلها لتزويد الجيش الثالث شرق القناة بمعدل ٥٠ مترا مكعبا يوميا لكل من الفرقتين ٧و١٩ مشاة، وكذا تزويد المخابز يوميا بخمسة أمتار مكعبة والمستشفى بثلاثة أمتار مكعبة، على أن تتولى عربات القوات المسلحة نقل الكميات المخصصة لها وتقوم سيارات الإطفاء بنقل المياه المخصصة للمخابز وللمستشفى. وألقيت على عاتق الأهالي مهمة البحث عن الآبار القديمة التي كان سكان السويس يستخدمونها منذ حوالي قرن قبل وصول مياه النيل عن طريق ترعة الإسماعيلية. وقد نجح الأهالي بفضل إرشادات بعض المواطنين المسنين في العثور على عدد من الآبار القديمة، كان أهمها بئر سيدي الغريب الذي أثبتت التحاليل أن مياهه صالحة للشرب، وبلغ معدل تصريفه ١٢٠ لترا في الساعة. واستخدمت مياه البحر المالحة في أعمال النظافة وطرد مخلفات دورات المياه من الأماكن العامة، وكان نقلها يتم باستخدام البغال توفيرا للوقود.

و كان المتبقي من رصيد الدقيق ١٤٠٠ جوال لا تكفي إلا لاستهلاك شهر واحد فقط بمعدل رغيفين للفرد يوميا. ومن أجل توفير الخبز لقوات الجيش الثالث شرق القناة أصدر المحافظ أمرا سريا إلى علاء الخولي مدير التموين ـ الذي أدى دورا بارزا أثناء الحصار ـ بتخفيض وزن الرغيف وبصرف رغيف واحد للفرد يومي السبت والثلاثاء من كل أسبوع بحجة عمل صيانة في المخابز ومحطة المياه. وتحمل المواطنون هذا القرار رغم علم معظمهم بالغرض الحقيقي من إصداره، فقد كانو على استعداد لأي تضحية في سبيل معونة قواتهم المسلحة التي تذود عن مدينتهم وتدافع عن شرف وطنهم. وكانت مشكلة

الكهرباء من أهم المشاكل التي واجهتها المدينة، فقد قام العدو يوم ٢٣ أكتوبر بتدمير شبكة الضغط العالي التي تحمل التيار الكهربي من القاهرة إلى السويس. ولم يبق إلا عدد من محطات الطوارئ التي كان أغلبها يحتاج إلى إصلاح، فلم يكن يجرى تشغيلها في الماضي إلا في حالات نادرة عند انقطاع تيار الضغط العالي لفترة محدودة، ولكن تشغيلها بعد انقطاع تيار الضغط العالي القادم من القاهرة أصبح ضرورة حتمية لتشغيل غرفة العمليات وأجهزة التعقيم وثلاجات حفظ الدم بالمستشفى، وكذا لتشغيل المخابز والمعاجن الكهربائية والطلمبات في محطات الوقود وورش الأهالي. وقد تم وضع نظام لتشغيل محطات الطوارئ بعد إصلاحها لمدة ١٦ ساعة يوميا. وهكذا ظلت أنوار السويس مضاءة تثير لدى العدو عوامل الحيرة والتعجب.

وواجه المستشفى العام بالسويس موقفا عصيبا في المرحلة الأولى من الحصار، فقد أصبح المستشفى الذي كان أقصى سعته لا تزيد على ٣٠٠ سرير يضم مايزيد على ١٤٠٠ فرد من الجرحى والمصابين نتيجة للعمليات الحربية والغارات الجوية، وكانوا يحتاجون إلى إجراء عمليات جراحية لهم وكذا إلى عمليات نقل دم وعلاج من الجروح والحروق والكسور وغير ذلك من صنوف العلاج.

ونتيجة لشدة الازدحام أصبح معظم المصابين يرقدون على الأرض ويملأون طرقات المستشفى، وكان لجهود الأطباء وهيئة التمريض فضل كبير في عدم حدوث حالات تسمم أو عدوى وبائية بين المرضى والجرحى، خصوصا أن المستشفى أصبح مقرا دائما لأعداد غفيرة من المواطنين الذين وجدوا في المستشفى ملاذا يعطيهم نوعا من الأمان خلال الغارات الجوية.

وصول قوة الطوارئ الدولية إلى السويس

وفقا لقرار مجلس الأمن رقم ٣٤٠ الصادر في ٢٥ أكتوبر ١٩٧٣، بدأت قوات الطوارئ الدولية يتوالى وصولها إلى السويس منذ يوم ٢٨ أكتوبر. وكانت المفارز الأولى التي تم نقلها بصفة عاجلة من قوات الطوارئ الدولية العاملة في قبرص إلى جبهة السويس تابعة لقوات من النمسا وفنلندا وأيرلندة والسويد.

وبدأت القوة الدولية بمجرد وصولها في إنشاء نقاط ثابتة لها على الخط الفاصل بين المواقع المصرية والمواقع الإسرائيلية على مدخل المدينة.

وكانت أحرج المراحل التي مرت على السويس خلال الحصار هي المرحلة من ٢٣ أكتوبر حتى ١٤ نوفمبر ١٩٧٣ (٢٣ يوما)، فقد أمضت المدينة الأيام الخمسة الأولى منها تحت وطأة التهديد الإسرائيلي بغزوها، وتعرضت لقصف كثيف متواصل من طيران العدو ومدفعيته. وخلال هذه المرحلة الحرجة كانت السويس تعتمد في إعاشة سكانها من المدنيين والعسكريين الذين بلغ عددهم حوالي ٢٠,٠٠٠ مواطن على مواردها الذاتية الضئيلة، مما جعل سكانها يعانون ويلات الجوع والعطش.

وفي فجر يوم ٢٥ أكتوبر، وبعد التأكد من خلو المدينة من قوات العدو، بدأ رجال الدفاع المدني والإنقاذ في نقل المصابين والشهداء من الأمكنة التي سقطوا فيها بشوارع المدينة إلى المستشفى العام. وفي يوم ٣٠ أكتوبر قام متطوعون من الأهالي بنقل جثث الشهداء التي كانت محفوظة في المستشفى العام إلى مقبرة الشهداء بالروض، حيث تم دفنهم في مشهد مهيب اشتركت فيه جميع فئات الشعب.

أما جثث الإسرائيليين التي عجز العدو ـ وفقا لعادته ـ عن سحبها معه أثناء ارتداد قواته عن السويس عقب معركة ٢٤ أكتوبر، فقد أمر المحافظ بدفنها في جبانة السويس حرصا على الصحة العامة، وتم ذلك بمعرفة رجال الدفاع المدني تحت إشراف العميد أحمد العروسي مساعد مدير الأمن. وقد نقلت الجثث من الشوارع إلى حيث دفنت في مقبرة جماعية بالجبانة. وخلال محادثات الكيلو متر ١٠١ على طريق القاهرة السويس التي بدأت فجر يوم ٢٨ أكتوبر، طالبت إسرائيل بأن تستعيد ٣٣ جثة، وهو عدد ضباطها وجنودها المفقودين داخل السويس، خلال معركة ٢٤ أكتوبر. وتنفيذا لتعليمات القاهرة، نقلت جثث الإسرائيليين من الجبانة إلى مستشفى الحميات لتجهيزها للتسليم إلى الصليب الأحمر. وخلال يومي ٦ و٧ نوفمبر تم تسليم ١٨ جثة إلى مندوبي الصليب الأحمر في مستشفى الحميات، لتسليمها إلى السلطات الإسرائيلية، وظل مصير الأفراد المفقودين الباقين مجهولا حتى يومنا هذا.

وصول الإمدادات إلى السويس

كان لتوقيع اتفاقية النقاط الست بين مصر وإسرائيل في محادثات الكيلو متر ١٠١ يوم ١١ نوفمبر ١٩٧٣ أثر كبير في تحسين أحوال أهالي السويس بشكل واضح. فقد كانت النقطة الثالثة من نقاطها الست المعروفة تنص على مايلي: «تتلقى مدينة السويس إمدادات يومية من الأطعمة والمياه والأدوية، ويتم إخلاء جميع المدنيين الجرحى من مدينة

السويس». وتبعا لذلك فقد تم إخلاء جميع الجرحى والمصابين من المستشفى، وجرى ترحيلهم إلى القاهرة على دفعتين: الدفعة الأولى يوم ١٧ نوفمبر وكان عددهم ١٤٠٠ فرد، والدفعة الثانية يوم ٢٣ نوفمبر وكان عددهم ٢٨٠ فردا، وأصبح المستشفى منذ ذلك الحين خاليا إلا من بعض الحالات البسيطة. وتنفيذا لما ورد بالاتفاقية، أبلغت القاهرة محافظ السويس يوم ١٤ نوفمبر أن الإمدادات من الأطعمة والمياه والأدوية سوف تصل إلى السويس يوميا اعتبارا من يوم ١٥ نوفمبر.

وقد وضع الإسرائيليون من أجل إيصال هذه الإمدادات إلى المدينة نظاما شاقا، سبب إجهادا كبيرا لمواطني السويس، وذلك من فرط خشيتهم من وصول مواد عسكرية ضمن قوافل الإمدادات إلى أهل المدينة.

ووصل حرصهم إلى الحد الذي جعلهم يمنعون دخول الوقود والزيوت وحجارة البطاريات وزجاجات الكولونيا، وإلى قيامهم بفتح بعض صفائح الجبن وتفتيش أقفصة البرتقال.

وكان نظام تسلم الإمدادات، يقضي بأن تتوقف السيارات القادمة من القاهرة وعددها ٣٥ سيارة نقل حمولة ١٠ أطنان في المتوسط، على مسافة قريبة من السويس، وبعد أن يتركها سائقوها المصريون، يتولى قيادتها سائقون من قوات الطوارئ الدولية حتى نقطة المثلث على مدخل السويس.

وفي الجهة المقابلة من النقطة تقف ٣٥ سيارة نقل قادمة من السويس، ومع كل سيارة فردان بخلاف السائق للتفريغ والتحميل. ويترجل هؤلاء الأفراد وعددهم ٧٠ فردا من السيارات، ويجتازون الحاجز الذي في نقطة المثلث، ويدخلون إلى المنطقة التي يحتلها العدو برفقة رجال من قوة الطوارئ الدولية، ويقوم الأفراد بعد ذلك بتفريغ حمولة سيارات النقل على الأرض بجوار هذه السيارات، التي لا تلبث أن تغادر نقطة المثلث عائدة في اتجاه القاهرة، ليتسلمها سائقوها المصريون في مكان نزولهم السابق على الطريق ليواصلوا رحلة العودة بها إلى العاصمة. وعلى أثر ذلك تدخل سيارات النقل القادمة من السويس، وتجتاز الحاجز عند نقطة المثلث وتقف بنفس النظام الذي كانت تتبعه سيارات القاهرة ويقوم الأفراد المصريون بتحميلها من الحمولات الموضوعة على الأرض. وبعد انتهاء عمليةالتحميل تعود السيارات إلى السويس، حيث يتم تفريغها إلى المخازن التي حددتها المحافظة، تحت حراسة قوية من رجال الشرطة.

وقد وضع المقدم فتحي غنيم رئيس قسم الدفاع المدني والحريق ـ بتعليمات من اللواء محيي خفاجي مدير الأمن ـ نظاما يكفل اشتراك جميع أبناء المدينة الأصحاء في عملية التفريغ والتحميل التي تجرى يوميا عند نقطة المثلث بصفة دورية، على أن يتولى جنود الإطفاء ومتطوعو الدفاع المدني ـ وحدهم ـ القيام بعملية تفريغ المؤن من السيارات داخل السويس ونقلها إلى المخازن التي حددتها المحافظة. وأصدر المحافظ من أجل السيطرة على عملية التسلم والتخزين أمرا عسكريا بتشكيل لجنة كانت تضم ممثلين عن القوات المسلحة والشرطة ومديرية التموين والاتحاد الاشتراكي.

ونظرا لأن المياه كانت متوافرة بالمدينة بعد الإجراءات التي اتخذها المحافظ ومعاونوه، فقد طلب المحافظ من القاهرة عدم إرسال عربات فناطيس مياه، وكان ذلك عقب وصول عشر عربات فناطيس مياه، ضمن قافلة الإمدادات التي وصلت السويس يوم ١٨ نوفمبر.

وعلى الرغم من وصول كميات ضخمة من المواد التموينية من القاهرة قدرت في نهاية مدة الحصار بما لا يقل عن ٣٥ ألف طن، فإن المحافظ بدوي الخولي ظل متمسكا بقراره، الذي تم فيه تحديد المقدار الذي يصرف لكل فرد بالمدينة من المواد التموينية مجانا بدون مقابل على أساس أن هذا المقدار يكفي لإعاشة الفرد دون إسراف.

ونظرا لأن هذا التحديد في الصرف نتج عنه امتلاء جميع المخازن التابعة للمحافظة وعددها ٣٧ مخزنا بمواد التموين، فقد اقترح علاء الخولي مدير التموين على المحافظ يوم ٤ يناير ٧٤ الاتصال بالقاهرة لإيقاف شحن المواد التموينية إلى السويس، ولكن المحافظ رفض هذا الاقتراح، فقد كان يخشى تجدد القتال مرة أخرى وامتناع وصول أي إمدادات إلى المدينة، وكان هدفه ضرورة إبقاء احتياطي كبير دائم من المواد التموينية داخل المدينة تحسبا للطوارئ.

وقد أدت هذه السياسة التموينية بالحذر التي اتبعها المحافظ إلى توجيه انتقادات شديدة إليه خاصة من الاتحاد الاشتراكي بالسويس، بدعوى أنه كان يقتر على المواطنين في صرف مواد التموين، ويبيع لهم بعض الأصناف بالنقد، بينما كانت مخازن المحافظة ممتلئة على سعتها بالمواد التموينية المرسلة من القاهرة. وقد رد المحافظ بدوي الخولي فيما بعد على هذا الانتقاد الموجه إليه خلال المؤتمر المشترك لأعضاء المجلسين التنفيذي والشعبي الذي عقد بديوان عام المحافظة يوم ٥ مارس ١٩٧٤، فقال: «لي تعقيب بسيط على عملية صرف التعيينات. فعلا كان هناك مواطنون طلبوا مني صرف بعض المواد ولم أوافق على ذلك لأن هناك إشارات وصلتني من القاهرة تطلب اعتبار التعيينات الموجودة عندي

احتياطيا وينبغي الحفاظ عليها. وهذه الإشارات موجودة ومحفوظة وهي سرية، ويستطيع أي فرد منكم الاطلاع عليها.

لقد وضعت رقابة على بعض الأصناف التي ترد إلينا بكميات قليلة، وقيدت توزيعها في الشهرين الأخيرين. وعندما زادت، وافقت على توزيعها بالنقد لمن يريد أن يشتري. أما بالنسبة للكميات التي كانت تصرف للأفراد وهل كانت وافية أو غير وافية فأنا كنت أعتبر أنها كانت وافية، وبعض الناس خرجوا من المدينة (بعد انتهاء الحصار) ومعهم كثير من التعيينات. واللجنة التي كانت تقرر هذه الكميات مشكلة مني ومن قائد قوات المدينة ومدير الأمن ومدير التموين، وكنا نقدر احتياجات المواطنين. وهذه وجهات نظر. ولم نكن نعلم ماذا يحدث مستقبلا فكان لابد من الحفاظ على هذه المواد. وكنت مسيطرا على صرف المياه لتكفي المواطنين وقوات المدينة، وقوات الجيش الثالث. ولقد سئلت من مواطنين كثيرين، هل سيادتك تعطي المياه للجيش؟ وكنت أقول: نعم، لأنه كان يلزم في هذا الوقت أن أعطي للجيش المياه».

وكان من أطرف أنباء الحصار إنشاء مؤسسة عامة للنقل البطيء، تتبعها جميع وسائل النقل البطيء في المدينة من عربات الكارو والحنطور وعربات اليد ودراجات النقل (التريسكل)، وذلك للتغلب على أزمة الوقود.

وقد أصدر المحافظ من أجل تنظيم هذه المؤسسة التي تكون لها جهاز خاص بالمحافظة خمسة أوامر عسكرية، كان من بينها الأمر المتعلق بتحديد التسعيرة الخاصة بكل وسيلة نقل منها، وكذا تحديد كمية التبن المخصصة للخيول والحمير والبغال التي تجر العربات.

وفي يوم ٢٨ يناير، انتهى حصار المدينة الباسلة عمليا، حينما تم انسحاب القوات الإسرائيلية من جميع مواقعها حول المدينة. وأعيد فتح جميع الطرق التي تربط السويس بالخارج، كما أعيدت الاتصالات الهاتفية التي كانت مقطوعة بينها وبين سائر مدن الجمهورية. وقد تم ذلك نتيجة لتوقيع اتفاقية فض الاشتباك الأولى في ١٨ يناير ١٩٧٤ بين مصر وإسرائيل. وفي يوم ٢٩ يناير التقى موكب مواطني السويس القادمين من القاهرة مع أولئك الأبطال الصامدين في السويس، وكان لقاء تاريخيا تميز بالعناق والقبلات، وامتزجت فيه دموع الفرح بلقاء الأحباء مع دموع الأسى على فراق الشهداء، ووقف الجميع خاشعين، وهم يرددون قوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ (آل عمران ـ آية ١٦٩).

بسم الله الرحمن الرحيم

جمهورية مصر العربية
محافظة السويس
مكتب المحافظ

الاستاذ الكبير المؤرخ العسكرى الاديب اللواء أ ح جمال حماد

تحية اعزاز وتقديـــر •

وبعد •• فكم سعدنا بزيارتكم لمحافظة السويس وحضـــور احتفالاتنا بعيد السويس القومى الثالث عشر (٢٤ اكتوبر ١٩٨٦) ذكرى ملحمة البطولة الرائعة التى صنعتها مدينة السويس الباسلـــة بالتعاون مع القوات المسلحة المظفرة ورجال الشرطة المخلصـين •

لقد كانت الندوة التاريخية العسكرية الرائعة التى تفضلــتم بالمحاضرة فيها والحوار الواعى المفتوح مع شعب السويس، اضافـــة فكرية جليلة وممتعة لعيد السويس القومى تركت فى نفوس شعـــب السويس وابناء مصر صدى جميلا واعطت للبرنامج جماهيرية نعتز بهـــا ظهرت من ردود الفعل اليومية للمواطنين التى وردت لى من مختلـف محافظات الجمهوريـــة •

تحية لكم – استاذنا الفاضل – مع اطيب تمنياتنا بـــدوام النجاح والتوفيق لخدمة الوطن العزيـــز •

وتقبلوا خالص تحياتى ...

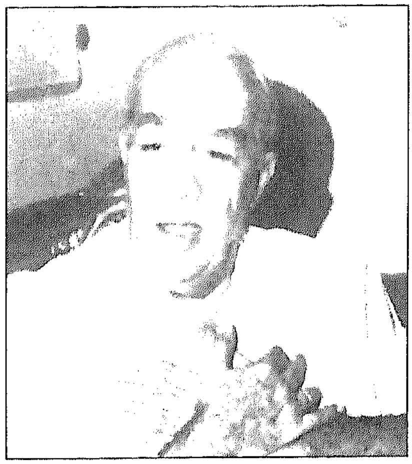
١٩٨٦/١٢/١

محافظ السويس

[توقيع]

لواء أ ح احمد تحسين شنن

ملحق صور الفصل الثامن



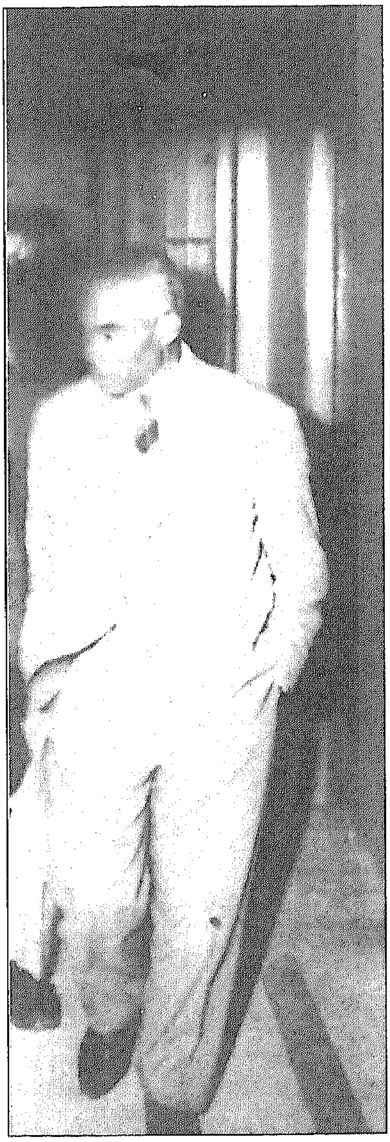
بدوي الخولي

محافظ السويس.



عقيد فتحي عباس

مدير مكتب مخابرات جنوب القناة.



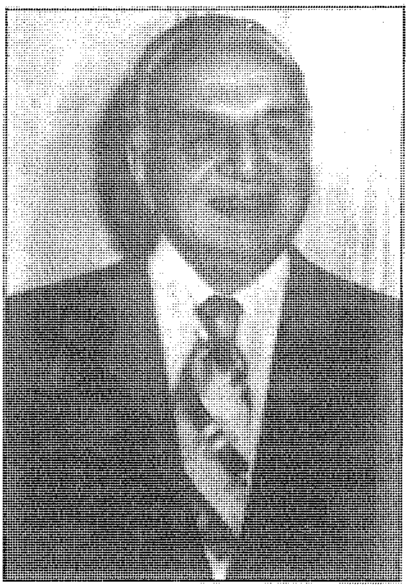
لواء محيي خفاجي

مدير أمن السويس.



عميد عادل إسلام

القائد العسكري للسويس.



ممدوح سالم

نائب رئيس الوزراء ووزير الداخلية.



مقدم محمد رفعت شتا

قائد شرطة النجدة بالسويس.



عميد محمد النبوي إسماعيل

مدير مكتب نائب رئيس الوزراء ووزير الداخلية.



عميد أحمد بدوي سيد أحمد

تولى قيادة الجيش الثالث شرق القناة (قوات بدر) اعتبارا من ٢٢ أكتوبر.



عميد يوسف عفيفي

قائد الفرقة ١٩ مشاة. اشتركت عناصر من فرقته في صد الهجوم الإسرائيلي على السويس.



جلسة أمام مبنى المحافظة بعد وصول قوات الطوارئ الدولية إلى السويس يوم ٢٨ أكتوبر، ويظهر فيها المحافظ ومدير الأمن والعميد أحمد بدوي قائد الجيش الثالث والعقيد فتحي عباس وقائد قوة الطوارئ الدولية.



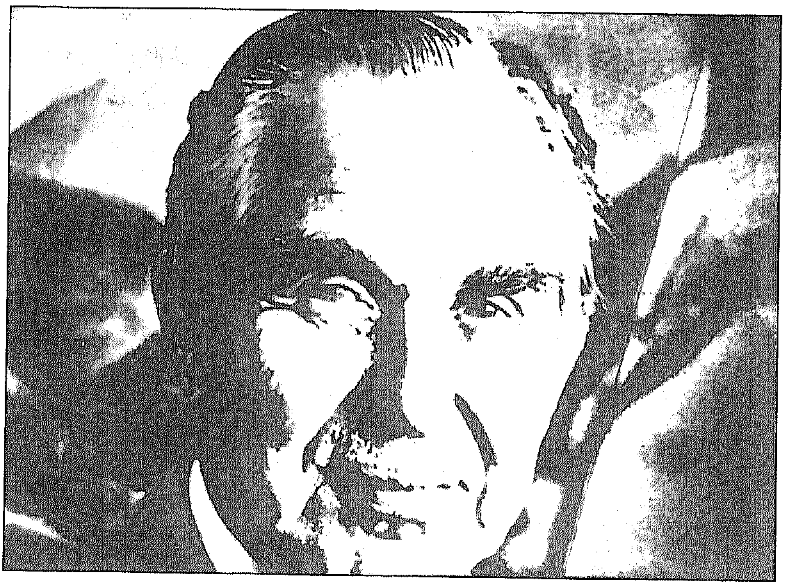
الجنرال شموئيل جونين

قائد القيادة الجنوبية.



الجنرال إبراهام أدان (برن)

قائد الفرقة المدرعة التي حاولت وحداته اقتحام



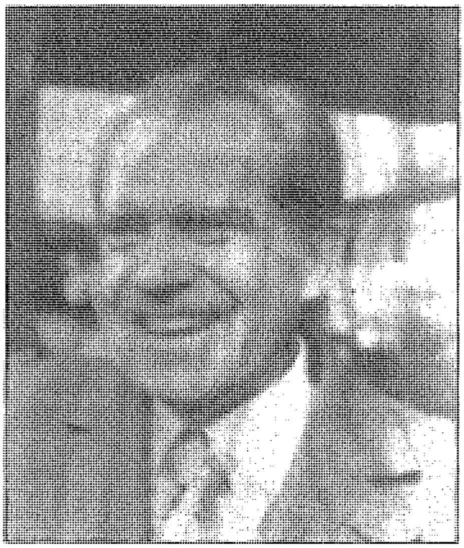
الجنرال حاييم هيرزوج رئيس دولة إسرائيل الأسبق

وصف في كتابه «حرب التكفير» معركة السويس.



زئيف شيف المحرر العسكري لجريدة هاآرتس الإسرائيلية

وصف في كتابه «زلزال في أكتوبر» معركة السويس.



الرئيس الأمريكي نيكسون

أمر بإعلان حالة التأهب في جميع القواعد العسكرية الأمريكية في العالم.



الزعيم السوفيتي ليونيد بريجنيف

هدد بإرسال قوات سوفيتية إلى منطقة النزاع في الشرق الأوسط لإرغام إسرائيل على وقف إطلاق النار.



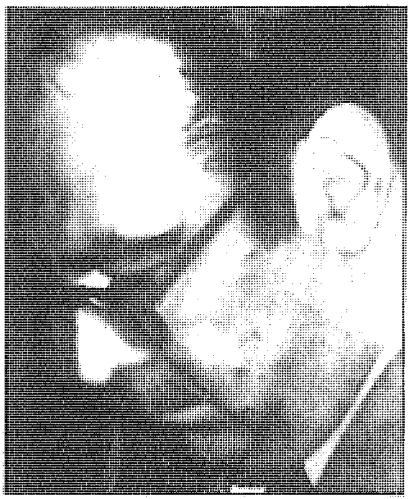
هنري كيسنجر وزير الخارجية الأمريكي

رأس أخطر اجتماع لمجلس الأمن القومي الأمريكي الذي تقرر بعده إعلان حالة التأهب في القوات الأمريكية.



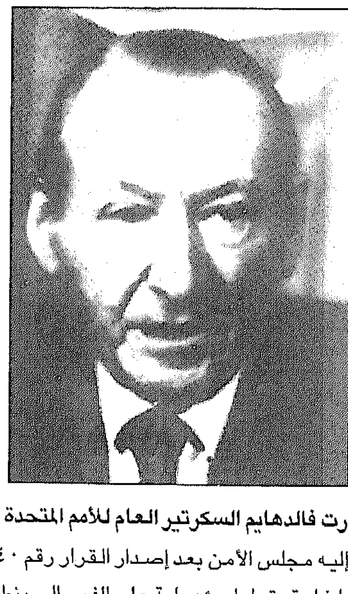
أناتولي دوبرينين السفير السوفيتي بواشنطن

سلم كيسنجر المذكرة الخطيرة التي بعث بها بريجنيف إلى نيكسون بشأن اعتزام الاتحاد السوفيتي إرسال قواته إلى الشرق الأوسط.



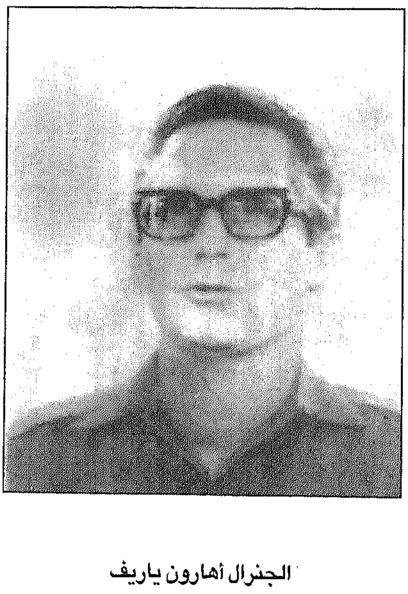
سيمحا دينتز السفير الإسرائيلي بواشنطن

استدعاه كيسنجر وشرح له الأزمة الحادة بين القوتين العظميين بسبب إصرار إسرائيل على تحدي قرارات مجلس الأمن.



كورت فالدهايم السكرتير العام للأمم المتحدة

أسند إليه مجلس الأمن بعد إصدار القرار رقم ٣٤٠ سلطة إيفاد قوة طوارئ دولية على الفور إلى منطقة النزاع في الشرق الأوسط.



الجنرال أهارون ياريف

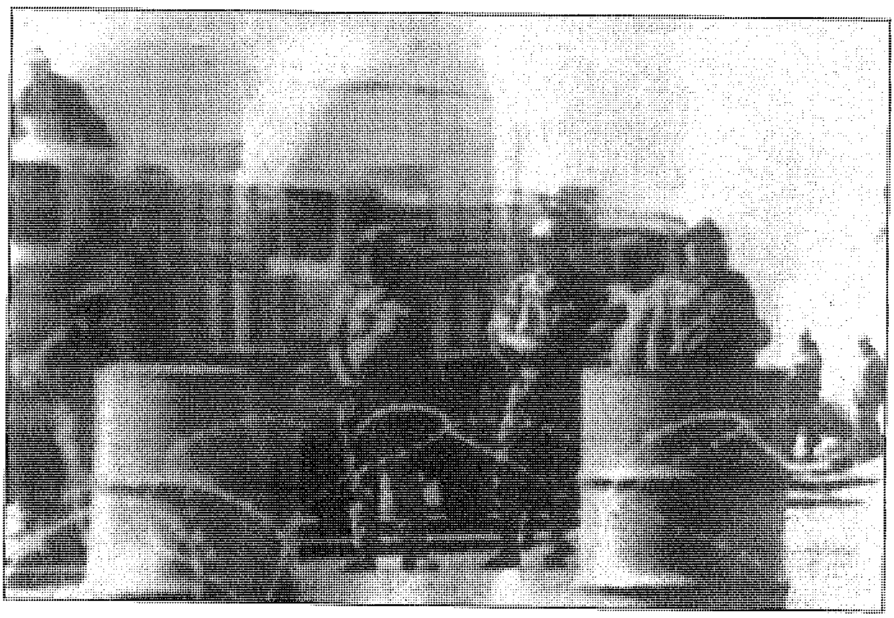
رأس الوفد الإسرائيلي في محادثات الكيلومتر ١٠١.



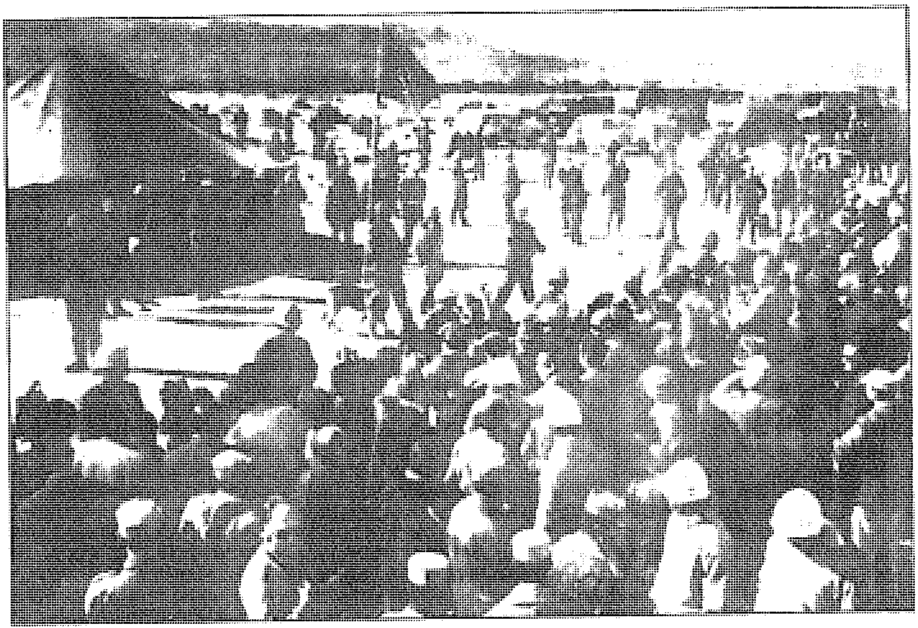
آثار القصف الجوي الوحشي على مدينة السويس.



دبابة إسرائيلية محطمة في أحد شوارع السويس بعد المعركة.



قوات الأمم المتحدة على طريق القاهرة السويس عند الكيلو متر ١٠١.



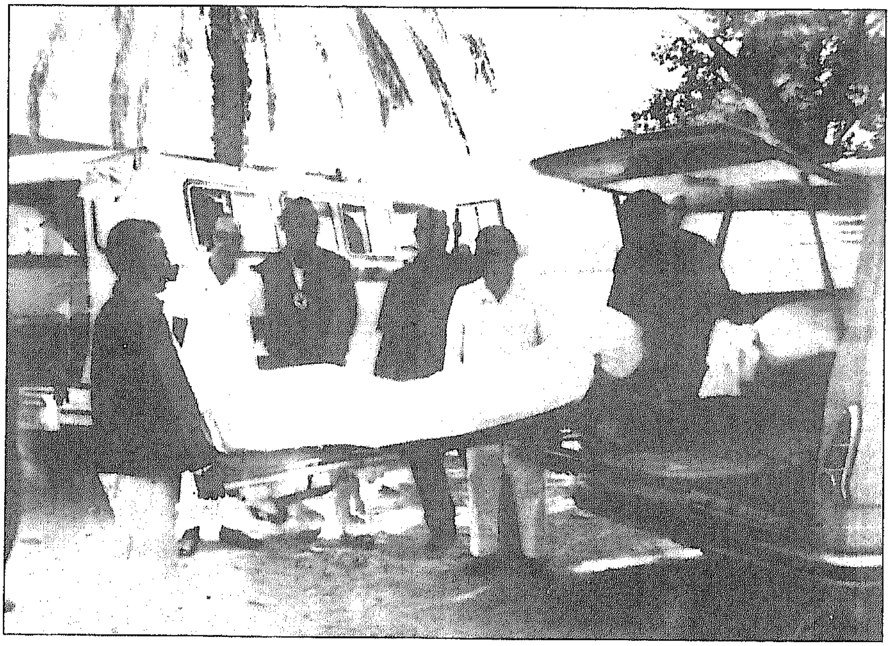
الخيمة التابعة للأمم المتحدة التي عقدت فيها محادثات الكيلو متر ١٠١.



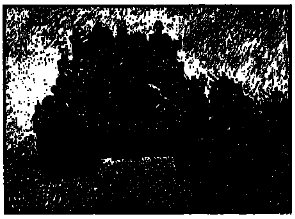
إحدى الجلسات للوفدين المصري والإسرائيلي في محادثات الكيلو متر ١٠١.



نعوش القتلى الإسرائيليين في معركة السويس في أثناء إعدادها للنقل إلى إسرائيل.



رجال الصليب الأحمر يتسلمون جثث الإسرائيليين بعد معركة السويس.



الفصل التاسع

محاولات شارون للاستيلاء على مدينة الإسماعيلية

كان العدو في صباح يوم ١٩ أكتوبر ٧٣ قد أصبح له غرب قناة السويس ـ كما أسلفنا ـ ثلاث فرق مدرعة تضم سبعة ألوية مدرعة ولواء مشاة مظلات، ولواء مشاة ميكانيكي، وهي فرقة الجنرال إبراهام أدان (٣ ألوية مدرعة)، وفرقة الجنرال أريل شارون (٢ لواء مدرع ولواء مظلات) وفرقة الجنرال كلمان ماجن (٢ لواء مدرع ولواء مشاة ميكانيكي). وقد واصلت هذه الفرق عملياتها لتحقيق أهدافها وفقا للخطة الموضوعة على محورين رئيسيين:

الموقف العسكري على محور الإسماعيلية

المحور الجنوبي: محور السويس، وكانت تعمل عليه فرقتا الجنرال أدان والجنرال ماجن، وحدوده الشمالية وصلة أبو سلطان، وقد سبق لنا شرح العمليات الحربية التي جرت على هذا المحور بالتفصيل.

المحور الشمالي: محور الإسماعيلية، وكانت تعمل عليه فرقة الجنرال شارون وحدوده الجنوبية وصلة أبو سلطان، واتجاه تقدمه شمالا بمحاذاة قناة السويس على طريق المعاهدة، وعلى مواجهة من بحيرة التمساح شرقا إلى نفيشة غربا، وكان هدف شارون هو عبور ترعة الإسماعيلية والاستيلاء على مدينة الإسماعيلية. وكانت القوات المصرية الوحيدة التي تواجه فرقة شارون على هذا المحور جنوب ترعة الإسماعيلية عبارة عن اللواء ١٨٢ مظلات بقيادة العقيد إسماعيل عزمي وكتيبتين من المجموعة ١٢٩ صاعقة بقيادة العقيد علي هيكل.

ونظرا لوجود حوالي ٦٥٠ دبابة إسرائيلية غرب القناة، بخلاف المشاة الميكانيكية التي تستخدم العربات المدرعة ذات النصف جنزير في تحركاتها، فقد أخذت الدبابات

الإسرائيلية في الانتشار في الأراضي المزروعة والصحراوية في مجموعات كبيرة مهددة الدفاعات المصرية التي في الأمام وفي العمق بأفدح الأخطار. وفي الساعة التاسعة والدقيقة الخامسة والعشرين صباح يوم ١٩ أكتوبر بعث الفريق سعد الشاذلي رئيس أركان حرب القوات المسلحة والذي كان قد وصل إلى مركز القيادة المتقدم للجيش الثاني في الساعة الخامسة مساء في اليوم السابق (كما أسلفنا) ببرقية لاسلكية إلى الفريق أول أحمد إسماعيل القائد العام بالمركز ١٠ بالقاهرة ذكر له فيها ما يلي: «العدو ينتشر في مجموعات داخل المنطقة من ٤٠ إلى ٥٠ دبابة في فايد وسرابيوم. قواته تعيث في الأرض فسادا».

وكان ظهور هذا العدد الضخم من الدبابات غرب القناة على أثر عبور الفرق المدرعة الإسرائيلية الثلاث إلى الغرب سببًا في أن تخطر على ذهن الفريق سعد الشاذلي فكرة جريئة تكاد تكون أقرب إلى الخيال، وهي انتهاز فرصة خلو الضفة الشرقية للقناة من معظم القوات المدرعة الإسرائيلية لتقوم إحدى الفرق المصرية البعيدة عن الاشتباكات الدائرة، وهي الفرقة ١٨ مشاة في قطاع القنطرة شرق بالهجوم على المواقع الإسرائيلية التي في مواجهتها، كوسيلة لتخفيف الضغط الإسرائيلي الذي كان مركزا وقتئذ على الضفة الغربية للقناة. وتبدو هذه الفكرة بوضوح من خلال الإشارة اللاسلكية التي بعث بها الفريق الشاذلي إلى العميد أ.ح عبد القوي محجوب رئيس أركان الفرقة ١٨ مشاة في الساعة الثانية عشرة ظهر يوم ١٩ أكتوبر، والتي كان نصها كما يلي: «العدو بقوة كبيرة في الغرب ويتقدم في اتجاهات مختلفة. قم بجس نبض العدو، ويمكن أن تقوموا أنتم بهجوم على العدو. ادرس الموقف مع فؤاد (المقصود العميد أ.ح فؤاد عزيز غالي قائد الفرقة) وأعطني القرار في ظرف ١٠ دقائق». وتدل هذه الإشارة اللاسلكية بوضوح على مدى ما كان الفريق الشاذلي يعانيه في تلك الفترة من بلبلة واضطراب، بسبب الموقف العسكري الذي كان يزداد تحرجًا على الضفة الغربية للقناة، فإن جس نبض العدو ودراسة مثل هذا الاقتراح الخطير بواسطة قائد الفرقة، ورئيس أركانها، لا يمكن أن يتما في ١٠ دقائق كما جاء في الإشارة. كما أن عدم ورود رد مسجل لهذه الإشارة من الفرقة ١٨ مشاة في سجل إشارات الجيش الثاني إنما يدل على أن قيادة الفرقة لم تأخذ هذا الاقتراح على محمل جدي.

هذا ولم تكن الدفاعات الإسرائيلية شرق القناة خالية من القوات بسبب عبور الفرق المدرعة الثلاث إلى غرب القناة، فإن القيادة الجنوبية الإسرائيلية كانت قد أعدت من قبل ما يعادل فرقتين من القوات الاحتياطية لاحتلال المواقع الإسرائيلية شرق القناة التي تواجه رءوس الكباري المصرية، وكان التعديل الوحيد الذي أجرته لعلاج النقص الذي جرى في

حجم قواتها، هو تقسيم جبهة القتال إلى منطقتين بدلا من ثلاث مناطق كما كان الوضع قبل العبور الإسرائيلي إلى غرب القناة، وكانت المنطقة الشمالية تمتد مسئوليتها من البحر المتوسط شمالاً إلى الطريق الأوسط جنوبا (طريق الإسماعيلية شرق ـ الطاسة) وكان العميد ساسون يتولى قيادتها، أما المنطقة الجنوبية فقد كانت مسئولة عن المنطقة من الطريق الأوسط شمالا إلى الشط جنوبا، وكان العميد جرانيت يسرائيل يتولى قيادتها ولكنه لم يمكث طويلا، فقد منحته القيادة إجازة عقب مصرع ولده على جبهة الجولان للبقاء مع أسرته في فترة الحداد، وتسلم منه القيادة حتى نهاية الحرب العميد مناحم بيرون.

وفي صباح يوم ١٩ أكتوبر كان موقف وحدات اللواء ١٨٢ مظلات على الضفة الغربية للقناة كما يلي:

الكتيبة ٨٩ مظلات: كانت تحتل المصاطب المصرية التي تمتد على الشاطئ الغربي للقناة ما بين ثغرة الاختراق الإسرائيلية وترعة الإسماعيلية، وهي: سرابيوم وطوسون والشيخ حنيدق وجبل مريم.

الكتيبة ٨١ مظلات: كانت تؤمن طريق عين غصين وسرابيوم الموازي لخط السكة الحديدية، وتحتل موقعا جنوب محطة سكة حديد سرابيوم.

الكتيبة ٨٥ مظلات: كانت في طريقها من إنشاص إلى الإسماعيلية ليتلقى قائدها المهمة من قائد الجيش الثاني بعد إعادة تجميعها في معسكرات إنشاص يوم ١٨ أكتوبر.

وكان العقيد داني مات قائد المظلات الإسرائيلي الذي كان متمركزا في منطقة الدفرسوار قد أرسل كتيبة من لوائه شمالا وفقا لتعليمات الجنرال شارون قائد الفرقة بهدف الاستيلاء على سرابيوم يوم ١٨ أكتوبر، ولكنها فشلت في الوصول إلى سرابيوم نظرا للمقاومة العنيدة التي واجهتها من رجال الصاعقة المصريين. (من المجموعة ١٢٩ صاعقة كما أسلفنا). وعلى أثر عبور اللواء المدرع بقيادة العقيد آمنون (من فرقة شارون) إلى غرب القناة يوم ١٩ أكتوبر بعد ترك كتيبة مدرعة من لوائه على الضفة الشرقية، تشجع شارون وأمر قائد لواء المظلات بتكرار المحاولة والتقدم بقواته عبر الأرض المزروعة، للاستيلاء على سرابيوم. ولكن قوة المظلات الإسرائيلية اصطدمت بالموقع الحصين الذي كانت تحتله الكتيبة ٨١ مظلات المصرية جنوب سرابيوم، مما أدى إلى فشل هجومها للمرة الثانية.

وعندما علم الجنرال شارون بفشل هجوم قوة مظلات داني مات، أرسل في الحال قوة مدرعة من لواء آمنون لتدعيمها (حوالي ٣٠ دبابة مدعمة بالمشاة الميكانيكية). وعن طريق

حركة التفاف حول موقع سرابيوم تمكنت الدبابات الإسرائيلية من اختراق الموقع المصري حوالي الساعة الثانية بعد الظهر، واستمر ضغط العدو على الكتيبة (٨١) مظلات، مما اضطرها لنسف الكوبري القائم على الترعة الحلوة والارتداد شمالا، وتمكنت الدبابات الإسرائيلية بالتعاون مع قوة المظلات من الاستيلاء على موقع سرابيوم الحيوي. وقد ذكر الإسرائيليون أن الموقع كان يضم محطة إنصات لاسلكية كبيرة. وعلى أثر المعركة أصدر الفريق سعد الشاذلي أمره إلى العقيد إسماعيل عزمي قائد اللواء ١٨٢ مظلات بالارتداد بوحداته تحت السيطرة شمالا إلى موقع طوسون على أن يتمسك بالخط طوسون ـ جامع سرابيوم. وخشية من عبور المدرعات الإسرائيلية ترعة الإسماعيلية والوصول إلى مدينة الإسماعيلية، صدرت الأوامر إلى اللواء ١١٨ مشاة ميكانيكي (القوة الباقية من الفرقة ٢٣ مشاة ميكانيكية شمال ترعة الإسماعيلية) بأن يحتل خطا دفاعيا بمحاذاة الشاطئ الشمالي لترعة الإسماعيلية على الطريق الزراعي وعلى المواجهة من نفيشة شرقا إلى مطار أبو صوير غربا، مع تركيز الدفاع على جميع المعابر على الترعة خاصة الكوبري العلوي، على أن يتخذ قائد اللواء الإجراءات اللازمة مع المهندسين العسكريين لنسف جميع الكباري والمعابر على الترعة في حالة حدوث أي محاولة من العدو لعبورها.

وقد أدى عجز قواتنا عن حصر العدو في منطقة الدفرسوار غرب القناة إلى تمكن قواته المدرعة من الانتشار شمالا وجنوبا، حتى استطاعت قوة مدرعة من لواء آمنون بالتعاون مع قوة من المظلات إجبار اللواء ١٨٢ مظلات على الارتداد شمالا من الخط سرابيوم إلى الخط طوسون، كما سبق أن ذكرنا. ونظرا لتأثير الوضع العسكري في كل ضفة على الوضع في الضفة الأخرى، فقد أمر الفريق الشاذلي العميد إبراهيم العرابي قائد الفرقة ٢١ المدرعة بأن يرتد بفرقته شمالا من الخط المحاذى لسرابيوم إلى الخط المحاذي لطوسون على الضفة الشرقية، ليكون كتفه في كتف العقيد إسماعيل عزمي كما أوضح له. واضطر العميد العرابي تنفيذا للأوامر إلى الارتداد بفرقته شمالا حوالي ٥ كيلو مترات، بدون أن يقع عليه أي ضغط من العدو، وبهذا نجح العدو في تحقيق الهدف الذي سبق تحديده في خطة العبور الإسرائيلية الأصلية، وهو تأمين ساحة العبور في الدفرسوار والجسور الثلاثة المقامة عندها عبر القناة، من نيران المدفعية والهاونات ومدافع الدبابات، ومدافع الضرب المباشر من كلتا ضفتي القناة، ليستمر تدفق القوات والإمدادات إلى الضفة الغربية في أمان وسلام.

وقد وقع خلال يوم ١٩ أكتوبر أيضا حادث مؤسف قوبل بالأسى والوجوم من الجميع وعلى مختلف المستويات. فلقد أرسلت القيادة العامة مجموعة خاصة من المخابرات

الحربية بقيادة العقيد إبراهيم الرفاعي صباح ذلك اليوم إلى قيادة الجيش الثاني، وأصدر الفريق سعد الشاذلي تعليماته إلى العقيد الرفاعي بأن يعمل بمجموعته على محور طريق المعاهدة في القطاع من نفيشة شمالا حتى تقاطع وصلة سرابيوم مع طريق المعاهدة جنوبا، بهدف القيام بأعمال الإغارات والكمائن ضد دبابات العدو. وتحددت الساعة التاسعة صباحا للتحرك من نفيشة. ووفقا للإشارات اللاسلكية المسجلة بقيادة الجيش الثاني، أبلغ العقيد الرفاعي الفريق الشاذلي في الساعة الواحدة إلا الربع ظهرا بوجود دبابات للعدو على محور تقدمه، وأنه سيحاول الاشتباك معها. وفي الساعة الواحدة والنصف ظهرا، استشهد العقيد إبراهيم الرفاعي بعد إصابته بطلقة من مدفع إحدى الدبابات الإسرائيلية، وكان ذلك في منطقة الأشجار بالمنايف (جنوب ترعة المنايف)، بعد أن خاض مع مجموعته معركة مجيدة ضد دبابات العدو. وخسرت القوات المسلحة بفقده واحدا من أعظم أبطالها ومن أشجع مقاتليها.

عمليات المظلات والصاعقة المصرية جنوب ترعة الإسماعيلية

كان تأمين ثغرة الاختراق الإسرائيلية شرق القناة أهم ما يثير اهتمام القيادة الجنوبية الإسرائيلية، إذ لو نجح المصريون في إغلاق هذه الثغرة لأصبحت القوات الإسرائيلية التي عبرت إلى غرب القناة معزولة تماما عن طريق إمداداتها وقواعدها شرق القناة، ولأصبح في مقدرة القوات المصرية غرب القناة حصارها والقضاء عليها. هذا ولم تحاول القيادة العامة المصرية القيام بهذه المحاولة إلا مرة واحدة. ففي يوم ١٧ أكتوبر كلفت الفرقة ٢١ المدرعة بالتقدم من موقعها في رأس الكوبري الموحد (الجناح الأيمن للجيش الثاني) إلى اتجاه الجنوب بمحاذاة القناة لتلتقي باللواء ٢٥ المدرع المستقل الذي كلف في نفس الوقت بالتقدم من موقعه في رأس كوبري الفرقة ٧ مشاة (الجناح الأيسر للجيش الثالث) إلى اتجاه الشمال بمحاذاة الشاطئ الشرقي للبحيرة المرة الكبرى. وكان التقاء القوتين المدرعتين في مكان اللقاء المحدد، وهو منطقة الدفرسوار، يعني إغلاق ثغرة الاختراق عند المنبع، وعزل القوات الإسرائيلية التي عبرت إلى الضفة الغربية للقناة.

ولكن هذه المحاولة الجريئة لم يقيض لها النجاح لسوء الحظ بسبب أخطاء في التخطيط وفي تنظيم التعاون وفي وقاية القوات القائمة بالعملية، سواء في أثناء التحرك أو في أثناء المعركة، وكانت كلها من مسئوليات القيادة العامة، فضلا عن الأخطاء التكتيكية الأخرى، التي وقعت فيها بعض القيادات القائمة بتنفيذ العملية. وكانت النتيجة هي فشل

المحاولة فلم تتمكن وحدات الفرقة ٢١ المدرعة من الوصول إلى الدفرسوار، كما تم تدمير اللواء ٢٥ المدرع المستقل جنوب الخط (كثيب الحبشي - تل سلام) على مسافة حوالي ٧ كيلو مترات من الدفرسوار.

ولم تكن ثغرة الاختراق في حاجة إلى توسعة من ناحية الجنوب بغرض تأمين ساحة العبور في الدفرسوار، إذ كانت المنطقة من الدفرسوار حتى حد الجناح الأيسر للجيش الثالث وطولها حوالي ٣٥ كيلو مترا تعد منطقة خالية من القوات المصرية على اعتبار أن المسطح المائي للبحيرات المرة يعد مانعا طبيعيا لا يمكن اجتيازه. وكان هذا التفكير الخاطئ هو أحد العوامل التي أدت إلى حدوث ثغرة الاختراق عند الدفرسوار شرق القناة، كما سبق أن شرحنا بالتفصيل. ولكن الوضع بالنسبة للناحية الشمالية من الدفرسوار كان مختلفا إذ كان الجناح الأيمن للجيش الثاني (رأس الكوبري الموحد للفرقتين ١٦ مشاة و٢١ المدرعة) يهدد ساحة العبور بالدفرسوار تهديدا مباشرا في بداية عملية العبور الإسرائيلي إلى غرب القناة ليلة (١٥ / ١٦) أكتوبر. ومع تطور العمليات الحربية في هذا القطاع على أثر الهجمات المدرعة العنيفة التي قامت بها وحدات من فرقة الجنرال شارون ضد اللواء ١٦ مشاة (الجنب الأيمن للفرقة ١٦ مشاة) وضد وحدات الفرقة ٢١ المدرعة في منطقة قرية الجلاء (المزرعة الصينية) والمغذي الرئيسي بمعاونة المدفعية البعيدة المدى من عيار (١٥٥)م و(١٧٥)م، وهجمات الطيران المركزة على المواقع المصرية، اضطرت القوات المصرية إلى الارتداد شمالا حتى خط سرابيوم.

وفي يوم ١٩ أكتوبر وعقب ارتداد اللواء ١٨٢ مظلات غرب القناة إلى الخط طوسون، أصدر الفريق سعد الشاذلي أمره إلى العميد أ.ح إبراهيم العرابي بالارتداد بالفرقة ٢١ المدرعة من الخط سرابيوم إلى الخط طوسون (حوالي ٥ كيلو مترات)، وبذا اتسعت ثغرة الاختراق الإسرائيلية شرق القناة وأصبحت حوالي (١٠ كيلو مترات) شمال الدفرسوار. ولكن القيادة الجنوبية الإسرائيلية كانت مصممة على الوصول بالحد الشمالي للثغرة إلى الشاطئ الجنوبي لبحيرة التمساح (حوالي ١٥كم شمال الدفرسوار)، بغرض تأمين ثغرة الاختراق والجسور الثلاثة المقامة عبر القناة تأمينا تاما، وضمان استمرار تدفق القوات والإمدادات إلى الضفة الغربية للقناة دون أي توقف أو تدخل من الجانب المصري.

ولتحقيق هذا الهدف، أصدرت القيادة الجنوبية الإسرائيلية أوامرها إلى الجنرال شارون بترك لواءين مدرعين من فرقته (لواء آمنون ولواء توفيا) شرق القناة، وعدم عبورهما إلى الضفة الغربية مع باقي وحداته، وذلك لمهاجمة رأس الكوبري الموحد المصري الممتد في

المنطقة ما بين سرابيوم جنوبا (قبل الارتداد إلى طوسون)، حتى شاطئ بحيرة التمساح والطريق الأوسط (طريق الإسماعيلية شرق ـ الطاسة)، شمالا. وكان الإسرائيليون يطلقون على هذه المنطقة الدفاعية الحصينة اسم ميسوري Missouri. ولكن شارون لم يكن يريد أن يستنزف قواته، ولا أن يزج بها في قتال عنيف شرق القناة لا يرى له أهمية أو ضرورة. وكان يتوق إلى تحقيق الأمل البراق الذي يحقق له شهرة مدوية ومجدا ذائع الصيت، وهو الاستيلاء على مدينة الإسماعيلية، ولذا بذل جهدا كبيرا لإقناع الجنرال بارليف الممثل الشخصي لرئيس الأركان في القيادة الجنوبية، بأن المقاومة المصرية داخل رأس الكوبري الموحد شرق القناة، أضحت من الضعف إلى الحد الذي يجعل لواء توفيا المدرع قادرا وحده على تحقيق الهدف المطلوب. وفي يوم ١٩ أكتوبر صدق الجنرال بارليف على عبور لواء آمنون المدرع (عدا كتيبة) إلى الضفة الغربية للقناة، للانضمام إلى فرقة شارون. وبذا أصبحت قوات شارون شرق القناة تتكون من اللواء المدرع بقيادة العقيد توفيا وكتيبة مدرعة من لواء آمنون.

وفي يوم ١٩ أكتوبر ١٩٧٣ زار الجنرال دافيد أليعازر رئيس الأركان العامة الإسرائيلي مركز القيادة المتقدم للجنرال شارون بمنطقة الدفرسوار بعد أن عبر القناة بطائرة هليكوبتر لتفقد أحوال قواته والاطلاع على خططه المستقبلية، وكانت هذه هي المرة الأولى التي يعبر فيها الجنرال أليعازر قناة السويس إلى الغرب منذ أقيم رأس الكوبري الإسرائيلي غرب القناة. وكان حديث شارون له مركزا بصفة خاصة على الهدف الذي يسعى لتحقيقه على وجه السرعة، وهو الاستيلاء على مدينة الإسماعيلية، على اعتبار أن سقوطها سيكون له تأثير كبير في مجرى الحرب وكذا في تضييق الخناق على تشكيلات الجيش الثاني شرق القناة، إذ إن معظم الطرق الرئيسية التي تستخدم لنقل الإمدادات إلى هذه التشكيلات من القاهرة وشرق الدلتا سوف يتم قطعها عقب سقوط الإسماعيلية. وفي نهاية اللقاء قال شارون لرئيسه دادو (اسم التدليل للجنرال أليعازر): «هذه حرب رهيبة لم يكن لها شيء مشابه من قبل. إن حرب الأيام الستة لم تكن إلا معركة واحدة فقط». وحلقت الطائرة الهيليكوبتر عائدة برئيس الأركان الإسرائيلي إلى الشرق، ولم يتنبه الطيار إلى أنه انحرف عن مساره ودخل في مجال الجيش الثالث المصري في سيناء إلا حينما أطلقت على طائرته نيران الرشاشات وأصيب جهازها الهيدروليكي، ولكنه نجح في الهروب بطائرته والعودة إلى الخطوط الإسرائيلية.

وقدم موشى ديان وزير الدفاع هو الآخر في نفس اليوم لزيارة شارون في مركز قيادته غرب القناة، وأمر ديان قائد الطائرة الهيليكوبتر التي يستقلها بالهبوط بجوار ساحة العبور

شرق القناة شمال البحيرة المرة الكبرى، خشية هبوط الطائرة داخل الخطوط المصرية، بعد أن لاحظ عجز الطيار عن تمييز المكان المحدد لهبوطه.

ولم يكد يعبر إلى الغرب بعربة جيب ويتحرك شمالا على طريق القناة، حتى وقعت المنطقة تحت قصف عنيف من المدفعية المصرية، مما أرغم ديان على التوقف والاستتار مع مرافقيه داخل بعض الحفر على جانب الطريق، بعد أن رأى أمامه عشرات من العربات المحترقة على طول الطريق. وعندما أدركه اليأس من إمكان إتمام الزيارة، قفل عائدا إلى شرق القناة في إحدى السيارات التي وجدها مصادفة، والتي مرقت به بين انفجارات القنابل المنهمرة، مما جعله يقرر في مذكراته أنه نجا بحياته في هذه المرة بأعجوبة.

موقف اللواء ١٨٢ مظلات

كان الأمر الصادر من قيادة الجيش الثاني إلى العقيد إسماعيل عزمي قائد اللواء ١٨٢ مظلات بعد ظهر يوم ١٩ أكتوبر ينص على قيام اللواء بتأمين المنطقة التي تقع بين قناة السويس شرقا والترعة الحلوة (ترعة السويس) غربا. وذلك في القطاع ما بين طوسون جنوبا إلى عين غصين، ثم إلى نفيشة شمالا، وعلى أن تقوم وحدات من اللواء باحتلال النقطتين القويتين عند الشيخ حنيدق وجبل مريم، على الشاطئ الغربي للقناة. وكانت نقطة حنيدق محتلة في ذلك الوقت، بفصيلة مشاة ميكانيكية وفصيلة دبابات، ونقطة جبل مريم، محتلة بسرية مشاة ميكانيكية (عدا فصيلة) وفصيلة دبابات، وكلها من وحدات اللواء ١١٨ مشاة ميكانيكي. وكان موقف وحدات اللواء ١٨٢ مظلات كما يلي:

الكتيبة ٨٩ مظلات: في فجر يوم ٢٠ أكتوبر أفاد العقيد إسماعيل عزمي قيادة الجيش الثاني بأن العدو يهاجم موقع الكتيبة ٨٩ مظلات في طوسون بقوة مدرعة تتكون من دبابات ومشاة ميكانيكية، وطلب في الساعة السابعة صباحا التصديق له بنسف الجسر الشرقي لترعة السويس لإدخال المياه على المزروعات وإغراق المنطقة بالمياه، لكي يمنع تقدم قوات العدو المدرعة. ولكن اللواء عبد المنعم خليل قائد الجيش الثاني أصدر له أمرا قاطعا بعدم نسف جسر الترعة، حتى لا يمنع مياه الشرب عن مدينة السويس في الجنوب، وعن كل القرى الواقعة بين طوسون والسويس، إذ إن الترعة هي مصدر الشرب الوحيد لسكان هذه المنطقة الواسعة. وبدلا من إغراق الأرض بالمياه، أمره قائد الجيش الثاني برص الألغام بكثافة على طريق تقدم العدو.

ولكن العقيد إسماعيل عزمي إزاء تحرج الموقف قام بنسف الجسر الشرقي للترعة وأغرق المنطقة بالمياه، مما جعلها تتحول إلى بركة ضخمة من الوحل وجعل الدبابات الإسرائيلية تغوص فيها إلى أبراجها. وأدى هذا إلى استخدام مشاة المظلات التابعة للواء العقيد داني مات في التقدم، وكذا المشاة الميكانيكية بعد الترجل من عرباتهم المدرعة. وفي الساعة الحادية عشرة إلا الربع أبلغ العقيد إسماعيل عزمي قائد الجيش، أن موقع الكتيبة ٨٩ مظلات في طوسون على القناة محاصر بقوات العدو، وأن الموقع يتعرض لقصف عنيف من المدفعية والطيران، وأن الخسائر جسيمة ولم يبق من الكتيبة وفقا لتبليغ قائدها سوى ١٢٠ فردا فقط. ومع بداية يوم ٢١ أكتوبر أفاد قائد اللواء مركز قيادة الجيش الثاني أن الاتصال مع الكتيبة ٨٩ مظلات في طوسون مقطوع نظرا للقصف الجوي والمدفعي المركز عليها. وخلال هذا اليوم تمكنت القوة المتبقية من الكتيبة من الارتداد شمالا في اتجاه الإسماعيلية. وقد ترتب على مخالفة العقيد إسماعيل عزمي قائد اللواء ١٨٢ مظلات لأمر قائد الجيش الثاني بعدم نسف الجسر الشرقي للترعة؛ تنحية العقيد عزمي عن قيادته بعد صدور القرار بوقف إطلاق النار... ففي يوم ٢٥ أكتوبر تسلم العقيد عبد الرحمن بهجت قيادة اللواء ١٨٢ مظلات.

الكتيبة ٨١ مظلات: كانت الكتيبة تحتل موقعا دفاعيا في عين غصين يوم ٢٠ أكتوبر، بعد اضطرارها إلى الارتداد من موقعها الحصين جنوب محطة سكة حديد سرابيوم في اليوم السابق تحت ضغط الدبابات الإسرائيلية إلي الموقع الجديد في عين غصين الذي يقع على مسافة حوالي ٥ كيلو مترات شمال سرابيوم، على الطريق الترابي الموازي لترعة السويس. وفي يوم ٢٠ أكتوبر واصلت دبابات العدو ومشاته الميكانيكية ضغطها شمالا، وتمكنت بعد ظهر ذلك اليوم من الاستيلاء على عين غصين، واضطرت بقايا الكتيبة ٨١ مظلات إلى مواصلة ارتدادها شمالا في اتجاه نفيشة.

الكتيبة ٨٥ مظلات: على أثر قيام قائد الكتيبة بعملية إعادة تجميعها في معسكرات أنشاص يوم ١٨ أكتوبر لاستعادة كفاءتها القتالية، أصدر العميد أ.ح محمود عبد الله قائد المظلات أمره إلى قائد الكتيبة بالتحرك صباح اليوم التالي إلى الإسماعيلية. وفي الساعة التاسعة صباح يوم ١٩ أكتوبر وصلت الكتيبة إلى معكسر الجلاء بالإسماعيلية. وفي مساء اليوم نفسه تسلم قائد الكتيبة ٨٥ مظلات المهمة من قائد الجيش الثاني، وهي قيام الكتيبة باحتلال وتأمين الأهداف التالية:

- جبل مريم بقوة سرية مدعمة - تبة الشيخ حنيدق بقوة الكتيبة (عدا سريتين) - محطة طوسون بقوة سرية مدعمة. مع العمل على منع العدو من التقدم شمالا في اتجاه الإسماعيلية. وخلال الاستطلاع الذي قام به قائد الكتيبة ظهر يوم ٢٠ أكتوبر، اتضح له أن موقع طوسون من المتعذر الوصول إليه لوقوعه تحت قصف عنيف من المدفعية والطيران. وقبل آخر ضوء يوم ٢٠ أكتوبر ثبت أن العدو تمكن من احتلال محطة طوسون، ولذا قام قائد الكتيبة ٨٥ مظلات بتعديل أوضاع كتيبته على أساس احتلال جبل مريم بقوة الكتيبة (عدا سرية) وتبة الشيخ حنيدق بسرية مدعمة وتم ذلك ليلة (٢٠ / ٢١) أكتوبر. وتنفيذا للتعليمات الصادرة من قيادة الجيش الثاني في الساعة العاشرة إلا الربع مساء، تمت إعادة سرية المشاة الميكانيكية وفصيلتي الدبابات التابعة للواء ١١٨ مشاة ميكانيكي والتي كانت تحتل موقعي جبل مريم وحنيدق من قبل إلى وحدتهما الأصلية قبل أول ضوء يوم ٢١ أكتوبر، لصدور التعليمات بإعادة تجميع اللواء ١١٨ المشاة الميكانيكي.

وتعزيزا لقوة الكتيبة ٨٥ مظلات، تم تدعيمها صباح يوم ٢١ أكتوبر بكتيبة الهاون ١٢٠م، التي من ضمن تنظيم اللواء ١٨٢ مظلات (١٨ مدفع هاون) مما أدى إلى زيادة قوة نيران كتيبة المظلات بصورة مؤثرة. ولكن العدو الذي انطلقت دباباته ومشاته الميكانيكية بسرعة نحو الشمال لاجتياح الدفاعات المصرية بهدف الوصول إلى ترعة الإسماعيلية قبل صدور القرار بوقف إطلاق النار، قام بمهاجمة تبة الشيخ حنيدق عند أول ضوء يوم ٢١ أكتوبر في ظل معونة قوية من المدفعية والطيران، وتمكن بعد معركة عنيفة من اختراق موقع سرية المظلات، التي تدافع عن التبة وارتدت بقايا السرية نحو الشمال.

وأصبحت دفاعات اللواء ١٨٢ مظلات يوم ٢١ أكتوبر مقصورة على موقع جبل مريم الذي تحتله الكتيبة ٨٥ مظلات (عدا سرية). وصدرت الأوامر إلى قائد اللواء بإعادة تجميع الكتيبتين (٨١ و٨٩) مظلات على وجه السرعة في الإستاد الرياضي بالإسماعيلية لاستعادة كفاءتهما القتالية، على أن يتم التمسك بموقع جبل مريم إلى آخر طلقة وآخر رجل، فلقد أصبح هو الموقع الأخير على قناة السويس قبل الوصول إلى الإسماعيلية مباشرة.

موقف مجموعات الصاعقة

المجموعة ١٢٩ صاعقة: في صباح يوم ١٩ أكتوبر صدر الأمر إلى العقيد أ.ح علي هيكل بالانسحاب بمجموعته من منطقة العمليات جنوب ترعة الإسماعيلية إلى منطقة أبو صوير

شمال الترعة، للقيام بعملية إعادة التجميع واستعادة الكفاءة القتالية، وذلك عقب الخسائر الجسيمة التي حاقت بوحدات المجموعة خلال المعارك التعطيلية العنيفة التي خاضتها ضد القوات الإسرائيلية من (١٦ إلى ١٨) أكتوبر في مناطق أبو سلطان والدفرسوار وسرابيوم.

وفي مساء يوم ١٩ أكتوبر تلقى العقيد هيكل قائد المجموعة من قيادة الجيش الثاني مهمة جديدة لمجموعته، وهي الدفاع جنوب ترعة الإسماعيلية عن القطاع من الكوبري العلوي (خارج) إلى قرية المحسمة. وفي يوم ٢٠ أكتوبر، قرر العقيد هيكل إنشاء ثلاث قواعد جنوب الترعة لتغطية القطاع المحدد من كتائب المجموعة الثلاث، لتنطلق منها المجموعات المقاتلة للقيام بالإغارات وعمل الكمائن وفقا لتكتيكات الصاعقة. وكانت هذه القواعد كما يلي:

القاعدة الأولى: جنوب غرب الكوبري العلوي، وتعمل في اتجاه واحة المنايف.

القاعدة الثانية: جنوب أبو صوير، وتعمل في اتجاه تقاطع وصلة أبو صوير مع طريق الإسماعيلية الصحراوي.

القاعدة الثالثة: جنوب المحسمة، وتعمل في اتجاه طريق الإسماعيلية القاهرة الصحراوي.

المجموعة ١٣٩ صاعقة: كانت تتكون من ٤ كتائب صاعقة بقيادة العقيد أ.ح أسامة إبراهيم، وكانت تتمركز في منطقة تجمع غرب القاهرة من ضمن الاحتياطي الإستراتيجي للقيادة العامة، وفي يوم ٦ أكتوبر تم إبرار كتيبة منها خلف مضيق الجدي بواسطة طائرات الهليكوبتر بمهمة تعطيل احتياطات العدو. وفي يوم ١٠ أكتوبر أرسلت كتيبة أخرى منها إلى بورسعيد للاشتراك في مهاجمة أحد حصون خط بارليف (حصن بودابست) الذي يقع جنوب شرق بورفؤاد. وفي يوم ١٨ أكتوبر تلقى العقيد أسامة قائد المجموعة مهمة حددتها له القيادة العامة وقام بتلقينها له العميد أ.ح نبيل شكري قائد قوات الصاعقة. وكانت المهمة تقضي بتحركه بالكتيبتين اللتين تحت قيادته صباح يوم ١٩ أكتوبر على طريق القاهرة ـ الإسماعيلية الزراعي، وقبل الإسماعيلية بحوالي ٣ كيلو مترات تنحرف المجموعة جنوبا لتعبر ترعة الإسماعيلية على كوبري نفيشة وتتقدم بعد ذلك على الطريق الزراعي الموازي للترعة الحلوة (ترعة السويس) في اتجاه البحيرة المرة الكبرى، بهدف الهجوم على قوات العدو في منطقة الدفرسوار، وتدميره والاستيلاء على النقطة القوية في الدفرسوار، ثم تأمينها بالتعاون مع قوات الجيش الثاني. وقبل تحرك المجموعة، ألحق

عليها جماعة من الضفادع البشرية من قوات البحرية كانت تتكون من ٣ ضباط و١٣ ضابط صف وجنديا مزودة بكمية من الألغام البحرية لاستخدامها في نسف الجسور الإسرائيلية المقامة فوق القناة في منطقة الدفرسوار.

وفي أثناء تحرك المجموعة في طريقها إلى هدفها، وصلت قيادة الجيش الثاني إشارة لاسلكية من فرع العمليات بقيادة الصاعقة ورد فيها ما يلي: «يرجى إخطار قيادة الجيش الثاني بأنه ستصل قيادة المجموعة ١٣٩ صاعقة وكتيبتان إلى منطقة نفيشة ثم تتجه جنوبا في اتجاه البحيرة المرة الكبرى لتنفيذ مهام قتالية. يرجى إخطار وحدات الجيش الثاني بالمنطقة». وقد أثارت هذه الإشارة جوا من القلق في قيادة الجيش الثاني بسبب تكليف مجموعة صاعقة قادمة من القاهرة رأسا بتنفيذ مهمة قتالية في اتجاه البحيرة المرة الكبرى التي يحتل العدو كل المواقع حول شاطئها الغربي، دون إشراك قيادة الجيش الثاني في التخطيط أو التنفيذ مما ينطوي على أخطار جسيمة؛ ونظراً لذلك أصدر اللواء عبد المنعم خليل أوامره بأن توقف الشرطة العسكرية رتل عربات المجموعة ١٣٩ صاعقة عند أبو صوير في منطقة انتظار وأن يحضر قائد المجموعة إلى قيادة الجيش الثاني بالإسماعيلية لمقابلته.

المهمة المستحيلة التي كلفت المجموعة ١٣٩ صاعقة بتنفيذها

في مساء يوم ١٩ أكتوبر حضر العقيد أسامة إبراهيم ـ وفقا للتعليمات ـ إلى قيادة الجيش الثاني بالإسماعيلية حيث قابل اللواء عبد المنعم خليل، وحضر اللقاء الفريق سعد الشاذلي رئيس الأركان الذي كان لا يزال موجودا بقيادة الجيش منذ حضوره بعد ظهر يوم ١٨ أكتوبر. وعندما أوضح لهما العقيد أسامة حقيقة المهمة التي تم تكليفه بها، ظهرت عليهما بوضوح مظاهر الدهشة والاستغراب. وكان سر دهشتهما يرجع إلى أن المجموعة ١٣٩ صاعقة قد كلفت هي وجماعة الضفادع البشرية بمهمة من المستحيل تنفيذها. إذ كيف يمكن لمجموعة الصاعقة التي تتحرك بواسطة عربات النقل الكبيرة، والتي لا يدخل في تسليحها أي عنصر مدرع ويقتصر تسليحها على الأسلحة الخفيفة التي تتلاءم مع خفة الحركة المطلوبة في عملياتها، أن تشق طريقها داخل خطوط العدو لتصل إلى الدفرسوار، رغم أن العدو قد سيطر على المنطقة من طوسون إلى الدفرسوار سيطرة تامة (حوالي ١٢ كيلو متراً) وملأ المنطقة بدباباته ومشاته الميكانيكية وكتائب مظلاته؟

لقد أصبحت المنطقة من طوسون إلى الدفرسوار خالية من القوات المصرية بعد انسحاب اللواء ١٨٢ مظلات من سرابيوم إلى طوسون تحت ضغط العدو، وبعد انسحاب

المجموعة ١٢٩ صاعقة من منطقة العمليات مع العدو إلى منطقة أبو صوير شمال ترعة الإسماعيلية للقيام بعملية إعادة التجميع، فكيف يتسنى لمجموعة الصاعقة القادمة من القاهرة الوصول وحدها إلى مواقع العدو في الدفرسوار في ظل هذه الظروف؟ وما الوسائل التي لديها لتدميره؟ وعلاوة على ذلك، كان الطريق الذي تحدد لتحرك المجموعة شرق ترعة السويس عبارة عن مدق ترابي ضيق ومحصور من الجانبين. فعلى يمين التقدم تقع ترعة السويس بينما تقع على يسار التقدم المزارع وحدائق الفاكهة التي تنخفض عن الطريق بضعة أمتار، مما يجعل المناورة بالعربات متعذرة، ويعرض رتل عربات المجموعة بالتالي إلي الوقوع في كمائن العدو وتحمل خسائر جسيمة في الأرواح والمعدات. ومما يزيد من صعوبة العملية، أن قائد وضباط المجموعة لم يكن لديهم فكرة سابقة عن الأرض التي سيعملون عليها رغم أن تحركهم سوف يكون في الظلام.

كذلك، لم تكن المعلومات التي أعطيت لقائد المجموعة عن العدو في أثناء تلقيه المهمة في القاهرة صحيحة. فلم تكن قوة العدو في المنطقة التي سيعمل خلالها عبارة عن سرية قد تصل إلى كتيبة مدرعة كما قيل له، بل كانت عبارة عن فرقة مدرعة يتولى قيادتها الجنرال شارون، وتتكون من لواء مشاة مظلات ولواءين مدرعين.

وكان موقف جماعة الضفادع البشرية أسوأ حالا من موقف مجموعة الصاعقة، فقد كان تحرك العربات التي تحمل الألغام البحرية الثقيلة داخل خطوط العدو للوصول بها إلى الدفرسوار، لتقوم الجماعة بعد ذلك بنسف الكباري الإسرائيلية، هي عملية أقرب إلى الخيال، لذا ظل العقيد بحري خليفة في الإسماعيلية مع جماعته بعد أن أبلغ قيادته باستحالة تنفيذ العملية.

لقد كان الأوفق والأسلم بلا شك أن تأمر القيادة العامة في القاهرة بوضع المجموعة ١٣٩ صاعقة فور وصولها إلى الإسماعيلية تحت قيادة الجيش الثاني لتتولى هذه القيادة بمعرفتها استخدام المجموعة في العمليات التي تتلاءم مع قدراتها والتي تتفق في نفس الوقت مع الأوضاع العسكرية الواقعية لقواتنا وقوات العدو.

ونظرا لهذه الظروف، أصدر اللواء عبد المنعم خليل أمره إلى العقيد أسامة بعدم تنفيذ المهمة المكلف بها، والتوجه بمجموعته إلى جزيرة الفرسان بالإسماعيلية استعدادا لتنفيذ المهام الجديدة التي ستسند إليه وفقا لقدراته، وبما يتفق مع الهدف الذي كان مكلفا بتحقيقه. وحرصا على إطاعة أوامر قيادة الصاعقة، أبلغ العقيد أسامة قيادته بالقاهرة بإشارة لاسلكية بإلغاء مهمته بناء على تعليمات قائد الجيش الثاني. وسرعان ما جاء الرد

بأسرع مما كان متوقعا، فقد استدعى العقيد أسامة إلى قيادة الجيش حوالي منتصف الليل ليطلع على رد القاهرة، الذي كان نصه: «أسامة يقوم بتنفيذ مهمته الليلة». ويتضح من مدلول تلك الإشارات المتبادلة مدى الصراع الذي كان دائرا بين القيادتين في القاهرة والإسماعيلية، حول تبعية المجموعة ١٣٩ صاعقة، وهل توضع تحت قيادة الجيش الثاني أم تستمر تابعة للقيادة العامة المركز (١٠) باعتبارها من وحدات الاحتياطي الإستراتيجي للقيادة العامة.

وقبل آخر ضوء يوم ٢٠ أكتوبر، تحركت المجموعة ١٣٩ صاعقة، بعد أن تأكدت تبعيتها للقيادة العامة من جزيرة الفرسان على الطريق الترابي الضيق، شرق ترعة السويس في مجموعتين، كل منهما تتكون من كتيبة صاعقة، بينما تحركت قيادة المجموعة في المنتصف. وللحصول على معلومات عن العدو دفع قائد المجموعة أمام رتل عرباته ٤ دوريات قتال مترجلة، كانت كل منها تتكون من ضابط و١٥ فردا في اتجاهات مختلفة. وفي نفس الوقت دفعت كل من الكتيبتين كوسيلة لتأمين التحرك مقدمة تتكون من سرية مشاة، وتحركت السريتان على مسافة قصيرة أمام رتل المجموعة. . إحداهما على الطريق الذي على يمين الترعة، والثانية على الطريق الذي على يسارها. وعند وصول القوة الأساسية لمجموعة الصاعقة إلى قرية أبو عطوة (على مسافة ٤ كيلو مترات جنوب شرق نفيشة) ظهرت أمامها على الطريق بعض الجماعات المرتدة من الجنوب إلى الشمال، واتضح أنهم أفراد من الكتيبتين (٨١ و٨٩ من اللواء ١٨٢ مظلات) الذين كانوا يحتلون طوسون وعين غصين، وارتدوا تحت ضغط العدو. ولم يعد من دوريات الصاعقة الأربع التي دفعت مترجلة في اتجاه العدو سوى ضابط واحد و٨ أفراد فقط، واعتبر الباقون مفقودين.

ولم تكد عربات المجموعة ١٣٩ صاعقة تقترب من عين غصين، حتى وقعت في كمين محكم أعده العدو شمال القرية، واشتبكت سريتا المقدمة مع الكمين اشتباكا عنيفا، بعد تدمير بعض عرباتها وإصابة بعض أفرادها. وتوقف رتل المجموعة على أثر ذلك. وقفز الجنود من العربات وهرولوا إلى الحدائق والمزارع لاتخاذ سواتر تقيهم نيران العدو الكثيفة، واضطرت المجموعة إلى الارتداد للخلف حتى وصلت على مقربة من قرية أبو عطوة. وكانت الصعوبة الكبرى التي واجهها العقيد أسامة، هي إعادة العربات إلى الخلف بالنسبة لضيق الطريق وانحصاره بين الترعة من جهة والحدائق المنخفضة عن مستواه من الجهة الأخرى.

وإزاء خطورة الموقف طلب العقيد أسامة معونة المدفعية، ولكن نظرا لتداخل العدو في شبكته اللاسلكية ومخاطبة بعض الإسرائيليين له باللغة العربية، انهمرت نيران المدفعية الإسرائيلية على مواقع مجموعة الصاعقة بدقة وتركيز شديدين. ورغم شدة القصف المدفعي الإسرائيلي، كانت الخسائر قليلة بسبب كثافة أشجار المانجو التي كانت تحد من انتشار الشظايا. وفي هذا الوقت، أجرى العقيد هيكل قائد المجموعة ١٢٩ صاعقة، والذي كان على اتصال بالشبكة اللاسلكية للمجموعة، وكان موجودا بمركز قيادة الجيش الثاني للقيام بأعمال الاتصال، أجرى اتصالا بالعقيد أسامة وطلب منه الحضور في الحال إلى قيادة الجيش نظرا لتغير المهمة المكلف بها. وعندما وصل العقيد أسامة إلى قيادة الجيش حوالي الساعة الثانية صباح يوم ٢١ أكتوبر، علم أن اللواء عبد المنعم خليل نجح في إقناع المسئولين بالقيادة العامة، بعد حديث طويل عن طريق الهاتف بوضع المجموعة ١٣٩ صاعقة تحت قيادة الجيش الثاني لاستخدامها في الدفاع عن الإسماعيلية، التي أضحت قوات شارون على أبوابها بعد استيلائها على طوسون وعين غصين، بدلا من تدمير المجموعة هباء، وهي تحاول تنفيذ مهمة مستحيلة. وكانت المهمة الجديدة التي تلقاها العقيد أسامة في قيادة الجيش هي الاشتراك في الدفاع عن الإسماعيلية، في القطاع ما بين نفيشة وأبو عطوة اللتين تقرر أن توضع كتيبة صاعقة في كل منهما. وعاد قائد المجموعة ١٣٩ صاعقة إلى مجموعته جنوب أبو عطوة، وقبل أول ضوء يوم ٢١ أكتوبر كانت المجموعة قد تعدلت أوضاعها وفقا للمهمة الجديدة.

زحف شارون إلى الإسماعيلية

لم يكد يوم ٢٠ أكتوبر ٧٣ يحل، حتى بدأ الجنرال أريل شارون قائد مجموعة العمليات رقم ١٤٣ التي كانت تعمل على المحور الشمالي - بعد العبور الإسرائيلي إلى غرب القناة - في إدارة معركته الأخيرة في اتجاه الإسماعيلية بعد أن أبلغته القيادة الجنوبية بأن قرار وقف إطلاق النار على وشك الصدور. ومنذ الصباح الباكر بدأت الطائرات الإسرائيلية تشن هجمات عنيفة على مدن الإسماعيلية وبورسعيد وبورفؤاد. وقد تركز القصف الجوي بصفة خاصة على مواقع الصواريخ أرض - جو سام والأسلحة المضادة للطائرات بهدف تدميرها أو إسكاتها، وكذا على أمكنة تجمع القوات ومنها معسكر الجلاء بالإسماعيلية ومنطقة جبل مريم (على طريق القناة وجنوب بحيرة التمساح مباشرة) والكباري المقامة على الترعة الحلوة (ترعة السويس). وقامت الطائرات بإلقاء القنابل الزمنية وقنابل النابالم لإحداث الحرائق وبث الذعر في نفوس الأفراد.

وقد أصابت بعض القنابل جسر الترعة الحلوة في منطقة رأس العش (على بعد ١٥ كيلو متراً جنوب بورسعيد) مما أدى إلى تدفق مياه الترعة الحلوة إلى قناة السويس. ولتدارك الموقف أصدر اللواء أ. ح عبد المنعم خليل قائد الجيش الثاني أمره إلى رئيس مهندسي الجيش بإغلاق مياه الترعة الحلوة عند نقطة التحكم في القنطرة، لإنزال مستوى مياه الترعة ريثما يتم إصلاح الجسر المعطوب عند رأس العش لكي يمكن إعادة فتح المياه ثانية إلى مدينة بورسعيد.

وطلب قائد قطاع بورسعيد ـ وقتئذ ـ اللواء سعد الدين صبري من قيادة الجيش الثاني دعمه بوحدات دفاع جوي بدلا من كتائب الصواريخ التي دمرت، كما طلب معاونة جوية عاجلة لتخفيف الضغط عن قطاعه. وكانت حدود قطاع بورسعيد تمتد من الشمال بحذاء البحر المتوسط من بورفؤاد شرقا حتى دمياط ورأس البر غربا، كما تمتد من الجنوب من التينة شرقا (على بعد ٢٥ كيلو مترا جنوب بورسعيد) حتى صان الحجر بمحافظة الشرقية غربًا، وكان القطاع يضم ضمن حدوده بحيرة المنزلة. ونظرا لأن قيادة الجيش الثاني لم تكن لديها أي قدرات أو إمكانات لإمداد قطاع بورسعيد بالقوات أو معاونته بالنيران أو بمجهود جوي، فقد طلب قائد الجيش الثاني إخراج هذا القطاع من تحت قيادته وأن يتبع القيادة العامة مباشرة حتى يمكنها تزويده بما يطلبه من إمدادات ومعونات. ولكن القيادة لم يكن في مقدرتها وقتئذ ـ نظرا للظروف العصيبة التي كانت تواجهها ـ الاستجابة إلى هذا المطلب.

وعندما عبر لواء آمنون إلى الضفة الغربية للقناة يوم ١٩ أكتوبر أصبحت مجموعة عمليات شارون غرب القناة تتكون من لواءين مدرعين (لواء آمنون ولواء حاييم) ولواء مشاة مظلات بقيادة العقيد داني مات. وكان أقصى تقدم لقوات شارون على المحور الشمالي هو وصوله إلى منطقة طوسون يوم ٢٠ أكتوبر على بعد حوالي ١٢ كيلو مترا جنوب الإسماعيلية.

وفي صباح يوم ٢١ أكتوبر، قامت مفرزة من دباباته ومشاته الميكانيكية، بمهاجمة تبة الشيخ حنيدق على بعد حوالي كيلو متر ونصف شمال طوسون، واستولت عليها قبل آخر ضوء من نفس اليوم، واضطرت سرية المظلات من الكتيبة (٨٥) مظلات التي كانت تدافع عنها إلى الارتداد في اتجاه الشمال.

وكان شارون منذ بلغته الأنباء بقرب صدور القرار بوقف إطلاق النار، قد دفع بكل ما تحت قيادته من قوات في اتجاه الشمال، عاقدا عزمه على سرعة الوصول إلى ترعة الإسماعيلية وعبورها، لكي يتمكن بعد ذلك من تحقيق الأمل الذي أخذ يراوده في

أحلامه منذ عبور قواته إلى الضفة الغربية للقناة، وهو الاستيلاء على مدينة الإسماعيلية وبالتالي قطع طرق الإمدادات الرئيسية القادمة من القاهرة وشرق الدلتا إلى قوات الجيش الثاني شرق القناة.

وكان شارون على يقين من أن سقوط الإسماعيلية سيحدث دويا سياسيا كبيرا على المستوى العالمي، مما سوف يكسبه شهرة واسعة ومجدا عسكريا مرموقا.

ولكن آمال شارون وأحلامه لم تلبث أن تبددت أمام عاملين حيويين: أولهما طبيعة أرض المنطقة التي تقدمت عليها قواته من خط طوسون جنوبا إلى ترعة الإسماعيلية شمالا. وكان العامل الثاني هو شدة وعنف المقاومة، التي أبدتها القوات المصرية على خط ترعة الإسماعيلية، فقد أجبرت قواته على التوقف جنوب الترعة، دون أن تتمكن من عبورها إلى ضفتها الشمالية.

وتعتبر الأرض في القطاع الشمالي جنوب ترعة الإسماعيلية بوجه عام أرضا زراعية، إذ تضم في معظم أرجائها خاصة على ضفتي كل من ترعة الإسماعيلية والترعة الحلوة (ترعة السويس) كثيرا من المصارف وقنوات الري والقرى الصغيرة والعزب، علاوة على بعض حقول المزروعات وعدد كبير من الحدائق المليئة بالأشجار المثمرة وبخاصة أشجار المانجو والبرتقال، مما كان يجعلها غير صالحة لاستخدام المدرعات والمركبات. ويوجد ضمن هذا القطاع مانعان مائيان رئيسيان هما ترعة الإسماعيلية التي تتفرع من نهر النيل عند القاهرة وتمتد في اتجاه الشمال الشرقي بموازاة فرع دمياط، وعند التل الكبير تتجه الترعة باستقامة من الغرب إلى الشرق حتى تنتهي في بحيرة التمساح جنوب مدينة الإسماعيلية. والمانع المائي الثاني هو ترعة السويس التي تتفرع من ترعة الإسماعيلية على بعد بضعة كيلو مترات جنوب غرب مدينة الإسماعيلية وتمتد إلى الجنوب غرب القناة والبحيرات المرة إلى مدينة السويس. ويحتاج عبور الترعتين بواسطة الدبابات والمركبات إلى استخدام الكباري المقامة عليها أو إقامة جسور عسكرية في حالة نسف الكباري أو تدميرها. وإلى جانب هذين المانعين الكبيرين توجد عشرات من الترع والمصارف وقنوات الري الصغيرة، ولكنها لا تشكل عوائق حقيقية للمركبات بأنواعها، إذ يمكن عبورها عند المخاضات أو ردم أجزاء منها بالأحجار.

ونظرا لطبيعة هذا القطاع الزراعي الريفي، فإن تقدم المدرعات والمركبات يصبح مقيدا بضرورة استخدام الطرق الأربعة التي تخترقه والتي نوضحها فيما يلي:

طريق القناة: وهو طريق أسفلتي يمتد بمحاذاة القناة مباشرة. ويصعب استخدام

المدرعات والمركبات لهذا الطريق في المسافة ما بين تبة الشيخ حنيدق في الجنوب وجبل مريم في الشمال (حوالي ٤ كيلو مترات) إذ يقع الطريق خلالها بين مسطحين مائيين، هما قناة السويس في الشرق ومجموعة من البرك والمستنقعات في الغرب (بركة أبو جاموس والبركة الحلوة) مما لا يترك مجالا للمدرعات والمركبات للتحرك خارج الطريق بحرية أو الانتشار على أي جنب من الأجناب. وبعد وصول الطريق إلى جبل مريم، يدور بمحاذاة الطرف الغربي لبحيرة التمساح، ثم يعبر ترعة الإسماعيلية على كوبري أبو جاموس (كوبري الجلاء)، الذي يقع في مواجهته مباشرة مدخل معسكر الجلاء الخاص بالقوات المسلحة، والذي يقع في الجانب الغربي من مدينة الإسماعيلية.

طريق ترعة السويس: وهو طريق ترابي يمتد شرق ترعة السويس مباشرة من الجنوب إلى الشمال، وهو يصلح لسير المدرعات والمركبات. وعلى مسافة حوالي ثلاثة كيلو مترات جنوب ترعة الإسماعيلية يغير الطريق الترابي مساره بحذاء الترعة الحلوة ليتجه إلى الشمال الشرقي، حيث يخترق قرية أبو عطوة ثم يلتقي بطريق القناة الأسفلتي غرب بحيرة التمساح ويتحد معه. وبعد حوالي كيلو متر ونصف شمالا يتم عبوره ترعة الإسماعيلية على كوبري أبو جاموس. وإلى الغرب من ترعة السويس مباشرة يمتد جسر السكة الحديدية الذي يسير فوقه الخط الحديدي القادم من السويس ويعبر ترعة الإسماعيلية فوق كوبري حديدي خاص بعبور القطارات فقط.

طريق المعاهدة: وهو طريق أسفلتي درجة أولى يمتد من السويس إلى الإسماعيلية، ويسير بموازاة القناة والبحيرات المرة على بعد يتراوح بين (كيلو مترين و ٨ كيلو مترات). والأرض على جانبيه بوجه عام صحراوية، وتصلح لاستخدام المدرعات فيما عدا الجزء الشمالي الذي يقع ما بين مصرف المحسمة جنوبا وترعة الإسماعيلية شمالا، إذ يضم هذا الجزء بعض المزروعات وأشجار الفواكه وعددا من العزب والقرى الصغيرة. ويخترق هذا الطريق قرية نفيشة (على بعد حوالي ٣ كيلو مترات جنوب غرب الإسماعيلية) ويعبر ترعة الإسماعيلية على كوبري نفيشة ليستكمل سيره شرقا إلى مدينة الإسماعيلية.

الطريق الصحراوي: وهو طريق درجة أولى يبدأ من القاهرة حتى الإسماعيلية، ويمتد في اتجاه الشمال الشرقي إلى الشرق من ترعة الإسماعيلية، ويلتقي هذا الطريق مع الوصلة القادمة من اتجاه الشرق من بلدة أبو سلطان عند تقاطع عثمان أحمد عثمان ثم بالوصلة القادمة من اتجاه الشمال من بلدة أبو صوير عند تقاطع أبو صوير. ويعبر بعد ذلك ترعة المنايف على كوبري حجري. وعلى بعد حوالي كيلو مترين جنوب ترعة الإسماعيلية

يتغير اتجاه الطريق ويسير باستقامة من الجنوب إلى الشمال. وقبل وصول الطريق إلى ترعة الإسماعيلية بحوالي كيلو متر، تتفرع منه وصلة تمتد شرقا بموازاة الترعة حتى نفيشة، ويمكن العبور من هناك على كوبري نفيشة والوصول بعدئذ إلى الإسماعيلية. أما الطريق الأصلي فيتم عبوره ترعة الإسماعيلية على الكوبري العلوي (على بعد حوالي ٥ كيلو مترات غرب الإسماعيلية) وهو كوبري حديدي مرتفع وذو ميل لطيف بحيث يمكن للمدرعات والمركبات عبوره بسهولة، وبعد عبور الكوبري العلوي يدور الطريق الصحراوي حوالي ربع دائرة في اتجاه الشمال الشرقي بعيداً عن مدينة الإسماعيلية بحوالي ثلاثة كيلو مترات ونصف، حيث يلتقي بطريق المعاهدة القادم من الإسماعيلية، ويتحد الطريقان بعد ذلك في طريق واحد يتجه بموازاة القناة إلى القنطرة غرب ومنها إلى بورسعيد. ومعظم الأرض على جانبي هذا الطريق صحراوية وصالحة لسير المدرعات.

ونتيجة لطبيعة الأرض في القطاع الشمالي الذي كانت تتقدم خلاله قوات شارون، اضطرت هذه القوات إلى أن تتحرك في زحفها على محورين رئيسيين هما: الطريق الترابي شرق الترعة الحلوة (ترعة السويس) وطريق المعاهدة، باعتبارهما أصلح الطرق لتقدم مدرعاتها ومركباتها وأقصرها من حيث المسافة إلى مدينة الإسماعيلية. ولم يتم استخدام طريق القناة نظرا لتعذر تحرك المدرعات والمركبات عليه شمالا من بعد تبة الشيخ حنيدق كما سبق أن أوضحنا، وكذا لم يستخدم الطريق الصحراوي كمحور رئيسي للتقدم نظرا للتهديد الذي كان يسببه وجود قوات مصرية كبيرة كانت تقوم بعملية إعادة التجميع في منطقتي عثمان أحمد عثمان ووصلة الملاك على مؤخرة أي قوات إسرائيلية تتقدم على هذا الطريق في اتجاه ترعة الإسماعيلية. وعلاوة على ذلك، اكتشف العدو أن أقوى دفاع مضاد للدبابات على طول الترعة، كان مركزا عند الكوبري العلوي. وعلى الرغم من أن الهجوم الرئيسي كان على محورين، فإن شارون قام بدفع مفارز قوية على جميع الطرق على طول المواجهة ما بين قناة السويس شرقا والكوبري العلوي غربا (حوالي ١٠ كيلو مترات).

كيف دافع الجيش الثاني عن الإسماعيلية؟

نظم اللواء أ.ح عبد المنعم خليل قائد الجيش الثاني الدفاع عن مدينة الإسماعيلية رغم الظروف الحرجة التي كانت تواجه قواتنا غرب القناة تنظيما جيدا. وكان الهدف الأول الذي ركز عليه اهتمامه هو منع العدو من عبور ترعة الإسماعيلية حتى لا ينجح في تطويق المدينة تمهيداً لاقتحامها.

وقد قامت قوات الجيش الثاني التي اشتركت في تنفيذ خطة الدفاع عن الإسماعيلية بدور مشرف، وتمكنت من صد قوات العدو جنوب ترعة الإسماعيلية، ولم تستطع أي قوة إسرائيلية عبور الترعة إلى الشمال في أي جزء من أجزائها.

وقد كان موقف قوات الجيش الثاني التي اشتركت في معركة الإسماعيلية كما يلي:

- المدفعية: قامت مدفعية الجيش الثاني التي كان يتولى قيادتها العميد أ.ح محمد عبد الحليم أبو غزالة بدور رئيسي في صد العدو ومنعه من عبور ترعة الإسماعيلية والاستيلاء على المدينة. وكان قائد مدفعية الجيش قد أصدر أمره يوم ٢٠ أكتوبر إلى جميع كتائب مجموعة مدفعية الجيش رقم ١ التي كانت قد احتلت مرابض تبادلية جنوب ترعة الإسماعيلية فور حدوث العبور الإسرائيلي إلى غرب القناة، بالانتقال إلي الضفة الشمالية للترعة بعد أن أصبح من الخطر بقاؤها في أمكنتها بعد قيام شارون بالزحف بقواته في اتجاه الشمال. وقد نجحت قيادة مدفعية الجيش في إعادة تجميع هذه الكتائب شمال الترعة وفي سرعة احتلالها لمرابضها الجديدة وفي دفع نقاط الملاحظة إلى الحد الأمامي بكفاءة، رغم الغارات الجوية المتواصلة ورغم القصف المدفعي الإسرائيلي العنيف، خاصة بعد أن تم انتقال وحدات مدفعية إسرائيلية بعيدة المدى من عيار (١٥٥م) إلى الضفة الغربية للقناة. وبانضمام كتائب مجموعتي مدفعية الجيش رقمي (١و ٢) معا والتي بلغت نحو ١٠ كتائب مدفعية، أصبح لدي مدفعية الجيش الثاني شمال ترعة الإسماعيلية قوة نيران ضخمة.

وفضلا عن ذلك، أمكن لقائد مدفعية الجيش الثاني استخدام نيران مجموعتي مدفعية الفرقتين ١٦ مشاة و٢١ المدرعة من الضفة الشرقية للقناة والتي بلغت نحو ٨ كتائب مدفعية، مما جعل في مقدرته استخدام نيران من ١٢ إلى ١٦ كتيبة مدفعية في القصفة الواحدة (حوالي ٢٨٠ مدفعا). وقد قام العميد أبو غزالة بوضع التخطيط النيراني للمعركة وحشد نيران المدفعية على أهداف وتجمعات قوات العدو القائمة بالهجوم. ونظرا لنجاح قيادة مدفعية الجيش سواء في السيطرة على الوحدات والوحدات الفرعية، أو في تحقيق مركزية النيران على أعلى مستوى، فقد أمكنها القيام بتنفيذ مهام نيرانية عديدة (حشود نيران وتجمعات)، مستخدمة وحدات المدفعية على كلا الشاطئين. كما قامت بتخطيط مهام نيرانية على طرق اقتراب العدو ومراكز رئاساته ومناطق حشد دباباته خاصة في منطقتي سرابيوم وعين غصين، مما كبد العدو خسائر فادحة في أثناء محاولته التقدم شمالا في اتجاه ترعة الإسماعيلية. وقد اعترف القادة الإسرائيليون بأن الحشود الضخمة للمدفعية

وقـوة نيـرانهـا كـان لهـمـا تأثيـر رئيسي في فـشل هجـوم قـوات الجنرال شـارون على الإسماعيلية .

وعلاوة على ذلك ، قام قـائد مدفعية الجيش الثاني بتنظيم الدفاع المضـاد للدبابات عن الكباري المهـمة ومحاور التقدم على ترعة الإسماعيلية ، فقام بتنسيق مواقع النيران لثمانية قـواذف صاروخـية ضـد الدبابات (مـالوتكا) للدفـاع عن الكوبري العلوي، وكـذا مـواقع النيـران لستـة قـواذف صـاروخـيـة (مـالوتكـا على عـربات بردم) للدفـاع عن كـوبري أبو جاموس ، لمنع العدو من العبور في هذا الاتجاه الذي يؤدي إلى معسكر الجلاء وإلى مقر قيادة الجيش الثاني الميداني .

وقد وضعت خطة الدفاع ضد الدبابات على أساس ضرب دبابات العدو على مسافات بعيـدة ومنعـهـا من الاقـتراب من ترعـة الإسـمـاعـيليـة ، وفي نفس الوقت تعطيل تقـدم احتياطيات العدو المدرعة من العمق .

● اللواء ١١٨ مشاة ميكانيكي : من الفرقة ٢٣ مشـاة ميكانيكية وكانت كتائبه الثلاث موزعة كما يلي :

أ ـ كتيبة وضعت منذ بداية الحرب تحت قيادة الفرقة (٢) مشاة في قطاع الفردان .

ب ـ كتيبة خصصت لحماية المعابر على قناة السويس من شمال الإسماعيلية حتى البلاح .

ج ـ كتيبة خصصت للدفاع عن مدينة الإسماعيلية ومعسكر الجلاء .

د ـ قيادة اللواء في منطقة معسكر زكريا شمال شرق الإسماعيلية .

وقد تم تكليف قـائد كتيبـة دبابات اللواء بإشـراك بعض دباباته في عـملية الدفـاع عن الكباري على ترعة الإسماعيلية بالتنسيق مع مدفعية الجيش الثاني التي أسندت إليها هذه المهمة .

وقد خصصت سرية مشاة ميكانيكية (عدا فصيلة) وفصيلة دبابات للعمل كاحتياطي في يد قائد اللواء ، كما وضعت فصيلة مشاة ميكانيكية مدعمة بعنصر مضـاد للدبابات جنوب كوبري نفيشة في منطقة المزروعات للقيام بأعمال الكمائن .

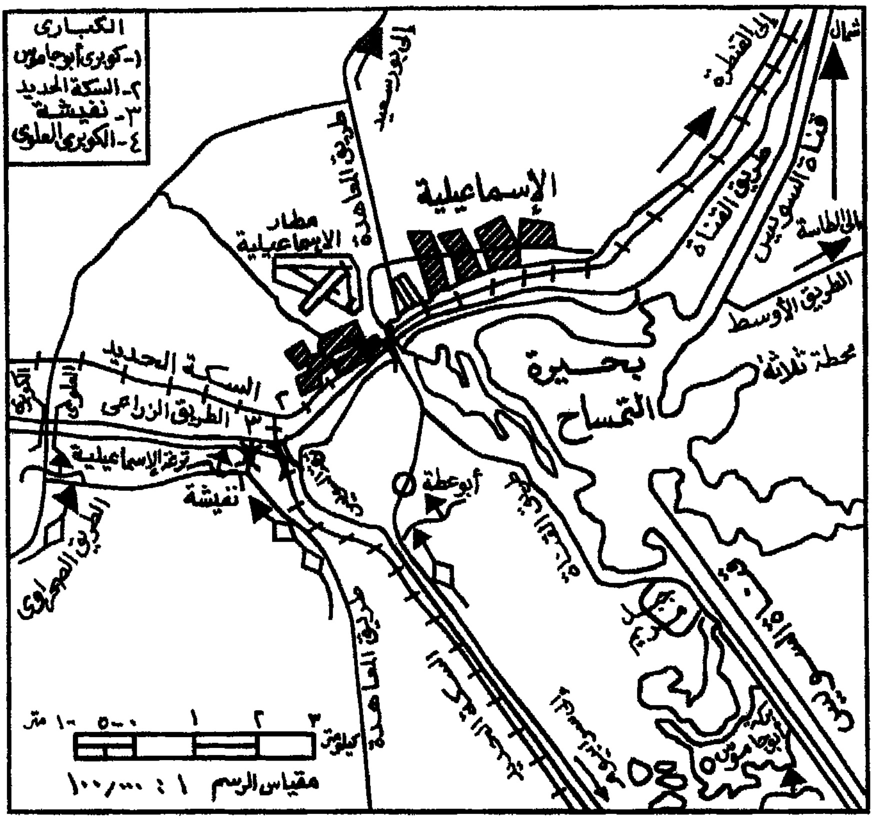
● اللواء ١٨٢ مظلات : أصدر قائد الجيش الثاني أمره بإعادة تجميع الكتيبتين ٨١ و ٨٩ مظلات في الإستاد الرياضي بالإسماعيلية لاستعادة كفاءتهما القتالية بعد ارتدادهما

من طوسون وعين غصين، كما أسند إلى قائد الكتيبة ٨٥ مظلات قبل آخر ضوء يوم ٢٠ أكتوبر مهمة احتلال جبل مريم بقوة الكتيبة (عدا سرية) وتبة الشيخ حنيدق بسرية مظلات مدعمة. ولكن سرية حنيدق لم تلبث أن انسحبت من مواقعها قبل آخر ضوء يوم ٢١ أكتوبر تحت ضغط العدو. وتعزيزا لقوة الكتيبة ٨٥ مظلات تم تدعيمها صباح ٢١ أكتوبر بكتيبة هاون ١٢٠م (من تشكيل اللواء ١٨٢ مظلات)، مما أدى إلى زيادة قوة نيران الكتيبة ٨٥ بشكل مؤثر، وأصبح جبل مريم هو الموقع الوحيد الذي توجد فيه وحدة مظلات، وفي الساعة العاشرة والدقيقة الخامسة والأربعين صباح يوم ٢١ أكتوبر أرسل قائد الجيش الثاني إلى قائد اللواء ١٨٢ مظلات، إشارة لاسلكية كان نصها كما يلي: «تمسك بجبل مريم لآخر طلقة وآخر رجل». وفي الواقع أن جبل مريم هو مفتاح مدينة الإسماعيلية لإشرافه التام عليها وتحكمه الكامل في المنطقة المحيطة به. ولذا أصدر قائد الجيش الثاني تعليماته بتلغيم المدقات الموصلة إليه من اتجاهي الضباعية وعين غصين، ووضع الكمائن على طرق الاقتراب، وتكوين احتياطي من اللواء لاسترداد موقع جبل مريم في حالة سقوطه.

- المجموعة (١٣٩) صاعقة: كانت تتكون من كتيبتي صاعقة بقيادة العقيد أ.ح أسامة إبراهيم، أرسلت من القاهرة إلى الإسماعيلية مساء يوم ١٩ أكتوبر بمهمة القيام بأعمال الإغارة والكمائن على قوات العدو وطرده واحتلال مواقعنا بمنطقة الدفرسوار. ونتيجة لفشل المجموعة في أداء مهمتها ووقوعها في كمين بسبب التفوق الساحق للعدو عليها في منطقة عملها، صدرت التعليمات من المركز (١٠) بوضع المجموعة تحت قيادة الجيش الثاني، وتم تمركز كتيبة منها في منطقة أبو عطوة والكتيبة الأخرى (عدا سرية) في منطقة نفيشة والسرية الباقية في الاحتياطي. وكانت المهمة التي خصصت لوحدات المجموعة هي القيام بأعمال الكمائن على طول المواجهة المخصصة لها جنوب ترعة الإسماعيلية من شمال غرب جبل مريم، حتى منطقة المزروعات شرق واحة المنايف، وكانت أعقد مشكلة واجهتها المجموعة هي تدفق أعداد غفيرة من المزارعين الهاربين أمام الزحف الإسرائيلي على الطريق الترابي شرق الترعة بحيواناتهم وأثاث منازلهم وحوائجهم مما كاد يسد الطريق.

معركة الإسماعيلية

في ليلة ٢١ / ٢٢ أكتوبر، أخذت وحدات مدفعية الجيش الثاني تقوم بقصفات إزعاج على مواقع العدو طوال الليل. وفي الصباح قامت الطائرات الإسرائيلية بهجمات جوية



معركة الإسماعيلية ٢٠ ــ ٢٢ أكتوبر ١٩٧٣.

عنيفة على مواقع قواتنا، وركزت قصفها على معسكر الجلاء وجبل مريم وأبو عطوة ونفيشة، وتمكنت من تدمير كوبري أبو جاموس. وقد أرسل قائد الجيش الثاني في الساعة الثامنة والدقيقة الخامسة والخمسين صباح يوم ٢٢ أكتوبر إلى القائد العام بالمركز (١٠) إشارة لاسلكية أخطره فيها أن قائد الفرقة ٨ دفاع جوي أبلغه بعدم وجود أي كتيبة صواريخ (أرض - جو) سام جاهزة للعمل في قطاع الجيش الثاني. وقد حاول العدو التقدم بمفارز مدرعة (دبابات ومشاة ميكانيكية) على طريق المعاهدة في اتجاه كوبري نفيشة وعلى الطريق الصحراوي في اتجاه الكوبري العلوي. ولكن المقذوفات الصاروخية المضادة للدبابات (مالوتكا) اشتبكت معها وأجبرتها على الانسحاب.

وفي حوالي الساعة العاشرة صباحا يوم ٢٢ أكتوبر جدد العدو محاولته للتقدم في اتجاه ترعة الإسماعيلية، وكان تحركه على محورين هما طريق ترعة السويس الحلوة وطريق المعاهدة. ولكي يتمكن من إزاحة قوات الصاعقة التي اعترضت طريق تقدمه، قام بقصف مواقعها بالمدفعية والهاونات ومدافع الدبابات، كما قامت طائراته بضرب مواقعها ضربا مركزا. ونظرا لضيق الطريق فقد تحركت في المقدمة قوات العدو المترجلة من المظلات وعناصر الاستطلاع، بينما كان يتبعها ببطء طابور من الدبابات والعربات المدرعة نصف جنزير بسبب عجزه عن الفتح والانتشار.

وحوالي الظهر، اشتبكت مقدمة قوات العدو مع عناصر استطلاع الصاعقة في الأمام، وتم تدمير دبابتين وعربة مجنزرة إسرائيلية. وفي الساعة الواحدة ظهرا تقدمت قوة من المظلات تقدر بسرية مشاة في اتجاه (أبو عطوة) على محور ترعة السويس الحلوة، ونظرا لعدم قيامها جيدا باستطلاع الأرض ومعرفة أوضاع قواتنا، فقد فوجئت بنيران الأسلحة الصغيرة تنهمر عليها من كل جانب مما ألحق بها خسائر تزيد على ٥٠ فرداً. وعلى أثر ذلك توقف هجوم العدو، واستمر العدو في قصف منطقة أبو عطوة بالمدفعية والهاونات بتركيز شديد.

وفي نفس التوقيت وعلى محور نفيشة، تقدمت قوة تقدر بسرية دبابات وسرية مشاة ميكانيكية، تحت ستر غطاء جوي من الطائرات التي قامت بقصف منطقة نفيشة وتدمير كوبري نفيشة على ترعة الإسماعيلية. وتمكنت كتيبة الصاعقة في نفيشة رغم القصف الجوي من إيقاف تقدم العدو. وكان مجموع خسائر العدو على محور نفيشة ٣ دبابات وعربتين مدرعتين نصف جنزير وعددا كبيرا من الأفراد، بينما بلغت خسائر كتيبة الصاعقة المصرية في نفيشة ٢٤ شهيداً (منهم ٤ ضباط) و٤٢ جريحا (منهم ٣ ضباط).

وعندما خيم الظلام وحل موعد سريان وقف إطلاق النار في الساعة السادسة والدقيقة الثانية والخمسين مساء يوم ٢٢ أكتوبر، ونظرا لوجود جرحى إسرائيليين كثيرين على أرض المعركة لم يتم سحبهم بعد، ولم يكن في الإمكان القيام بمعركة أخرى خاسرة من أجل إنقاذ الجرحى، لذا طلب شارون إمداده بعدد من طائرات الهليكوبتر لمساعدة رجاله في عمليات الإنقاذ. ولكن الجنرال بارليف لم يوافق على مطلبه، فقد كانت الليلة مظلمة وكان من الصعب على الطائرات الهبوط بالقرب من ميدان المعركة منعًا لإصابتها. ولذا أمر شارون رجاله بضرورة الاعتماد على أنفسهم، واستمرت عمليات الإنقاذ أكثر من أربع ساعات إلى أن تم إخلاء معظم القتلى والجرحى من أرض المعركة. وعندما بزغ الفجر وجد رجال المظلات الإسرائيليين أنفسهم على بعد حوالي ٢٠ مترا فقط من مواقع رجال الصاعقة المصريين.



جمهورية مصر العربية
هيئة قناة السويس
مكتب رئيس الهيئة والعضو المنتدب

٥٠٩
٨٧/٢/١٨

السيد الأستاذ / جمـــال حمـــاد
مجلة أكتوبر ١١١٩ كورنيش النيل ـــ القاهـــرة

تحية طيبة .. وبعد

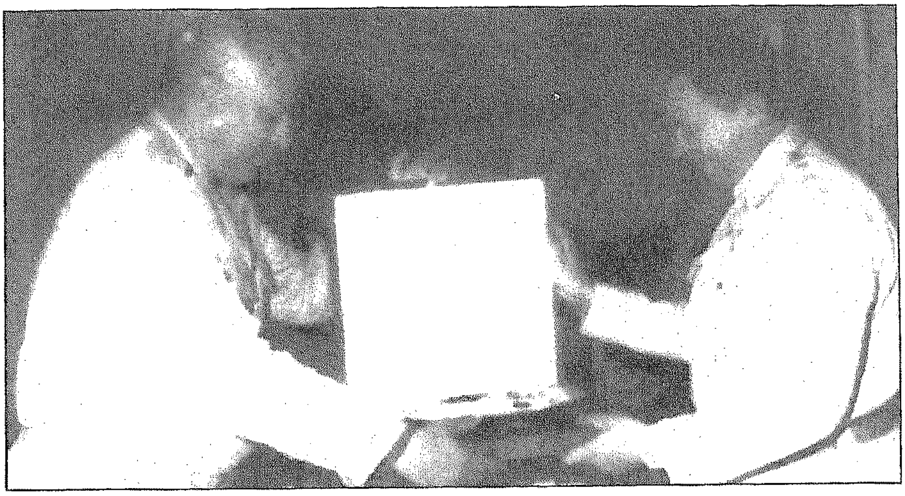
بمزيد من التقدير والامتنـــان طالعنا بمجلة أكتوبر العدد ٥٣٨ الصادر بتاريخ ١٩٨٧/٢/١٥ مقالتكم الخاصة بابراز الدور الوطنى الـذى أسهمت به هيئة قناة السويس فى خدمة المجهود الحربى على مستـــوى الجبهة خلال الفترة التحضيرية لحرب أكتوبر ١٩٧٣ مما كان له أبلـغ الأثـر فى نفوسنا جميعـــا .

وانه ليسعدنى وأسرة هيئة قناة السويس أن نتقدم لسيادتكم بالشكر العميق . ونكرر العهد بأن يبذل انسان قناة السويس كل امكانياتـــه فى كل الأوقات حتى تكون القناة مصدر الخير والرخـــاء لمصـــر والعالـــم أجمـــع .

وتفضلوا بقبول فائق الاحـــترام ...

رئيس هيئـــة قناة السويـــس
مهندس
١٨/٢/٨٧
(محمـــد عـــزت عادل)

ملحق صور الفصل التاسع



لواء عبد المنعم خليل

ركز اهتمامه في منع العدو من عبور ترعة الإسماعيلية حتى لا ينجح في تطويق مدينة الإسماعيلية.

عميد محمد عبد الحليم أبو غزالة

قامت مدفعية الجيش الثاني بدور رئيسي في صد العدو ومنعه من عبور ترعة الإسماعيلية والاستيلاء على المدينة.



عميد محمود عبد الله

قائد قوات المظلات. قام بتفقد موقع جبل مريم الذي تحتله الكتيبة ٨٥ مظلات وأمر الكتيبة بالدفاع لآخر طلقة وآخر رجل.



عميد نبيل شكري

قائد قوات الصاعقة. اشتركت مجموعتان من قواته في الدفاع عن الإسماعيلية، المجموعة ١٢٩ والمجموعة ١٣٩.



عقيد إسماعيل عزمي

قام بإعادة تجميع الكتيبتين ٨١ و ٨٩ مظلات في الإستاد الرياضي بالإسماعيلية.



عقيد أسامة إبراهيم

قائد المجموعة ١٣٩ صاعقة. أسندت إليه القيادة العامة أداء مهمة مستحيلة، وعقب فشله في تحقيقها اشتركت مجموعته في الدفاع عن الإسماعيلية.



عقيد علي هيكل

قائد المجموعة ١٢٩ صاعقة، أصبح مسئولا عن الدفاع جنوب ترعة الإسماعيلية عن القطاع من الكوبري العلوي إلى قرية المحسمة.



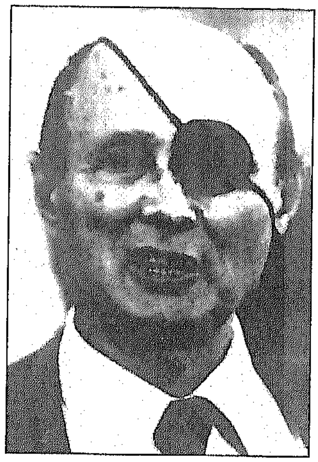
مقدم عاطف منصف

قائد الكتيبة ٨٥ مظلات - صدرت له الأوامر بالدفاع عن موقع جبل مريم لآخر طلقة وآخر رجل.



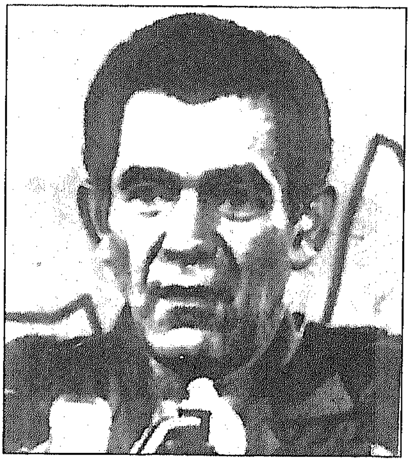
عقيد إبراهيم الرفاعي

قائد مجموعة المخابرات الخاصة - اشتبك مع دبابات إسرائيلية وأصيب بطلقة دبابة واستشهد يوم ١٩ أكتوبر عند المنايف جنوب ترعة الإسماعيلية.



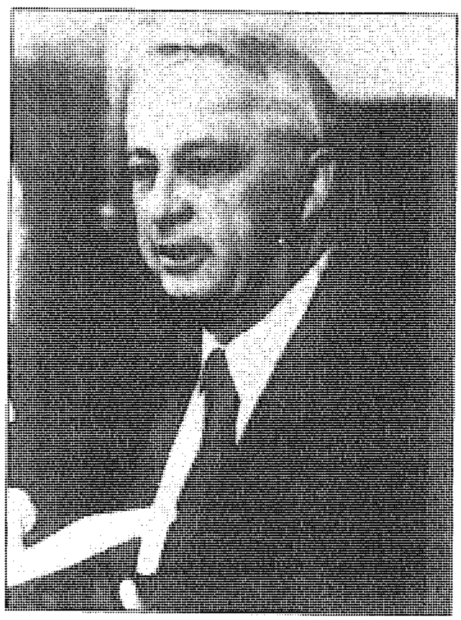
موشى ديان وزير الدفاع الإسرائيلي

حاول زيارة قطاع شارون غرب القناة يوم ١٩ أكتوبر، ولكنه وقع تحت قصف مدفعية الجيش الثاني مما أرغمه على العودة وقال إنه نجا بحياته بأعجوبة.



الجنرال دافيد أليعازر

زار مركز قيادة شارون غرب القناة يوم ١٩ أكتوبر، وفي أثناء عودته انحرفت به الطائرة الهيليكوبتر عن مسارها ودخلت في مجال الجيش الثالث وأطلقت عليها نيران الرشاشات.



أريل شارون

كان يحلم بالاستيلاء على مدينة الإسماعيلية ولكن محاولاته باءت كلها بالفشل.



جمع جثث القتلى الإسرائيليين بعد معركة الإسماعيلية.



الفصل العاشر

لماذا وقع الخلاف بين الرئيس السادات والفريق سعد الشاذلي

إن تمسك جهاز القيادة العامة المصرية بالبقاء داخل المركز (١٠) بالقاهرة طوال مدة حرب أكتوبر ١٩٧٣ دون أن يغادره أحد من أفراد الجهاز، إلا في مهام خاصة، ولفترات محدودة هو موضوع مهم بلا شك يستحق الدراسة والبحث. فلقد جرت العادة أن تنتقل أجهزة القيادة التي تتولى إدارة الحروب، حال تقدم مجرى العمليات، إلى مراكز قيادة متقدمة على مسافة قريبة من الجبهة ليمكنها الإشراف المباشر على سير المعارك وتحركات القوات في ميدان القتال. وقد رأينا كيف انتقلت القيادة الجنوبية الإسرائيلية التي كانت تتولى إدارة الحرب على الجبهة المصرية في سيناء، من مركز قيادتها الرئيسي في بئر السبع إلى مركز قيادتها المتقدم في منطقة أم مرجم بجوار مطار المليز في سيناء، عند منتصف ليلة ٦ / ٧ أكتوبر، أي بعد بدء العبور المصري إلى شرق القناة بما لا يزيد على عشر ساعات فقط.

تمسك المركز ١٠ بالبقاء داخل القاهرة

لقد كان من الضروري لضمان فعالية القيادة العامة وسرعة انتقال المعلومات وتقارير الموقف إليها، وتهيئة الفرصة أمامها لاتخاذ القرارات الحاسمة وإصدار الأوامر السريعة في الوقت المناسب ورفع الروح المعنوية للقوات، أن تنتقل القيادة العامة من مركزها الرئيسي في المركز (١٠) بالقاهرة، إلى مركز قيادة متقدم قريب من جبهة القتال. وقد كان هناك بالفعل مركز قيادة متقدم خلف منطقة القناة، سبق إنشاؤه قبل الحرب لهذا الغرض، وتم إعداده بكل التجهيزات الهندسية ووسائل الاتصال اللازمة، ولكن القيادة العامة المصرية لأسباب غير مفهومة، صرفت النظر عن فكرة الانتقال إليه، رغم أن هذا الانتقال كان

ضرورة حربية حيوية، خاصة بعد نجاح المرحلة الأولى من الخطة بدر التي انتهت بإقامة منطقة رءوس الكباري على الشاطئ الشرقي لقناة السويس، على عمق من ١٠ إلى ١٢ كيلو متراً.

وكان الإشراف على عملية تطوير الهجوم المصري إلى الشرق التي جرت يوم ١٤ أكتوبر ١٩٧٣ والتصدي لعملية عبور القوات الإسرائيلية إلى غرب القناة التي بدأت ليلة ١٥ / ١٦ أكتوبر ١٩٧٣ يستلزمان بلا جدال وجود جهاز القيادة العامة في مركز القيادة المتقدم القريب من جبهة القتال، للإشراف المباشر على المعارك التي دارت رحاها في هذه المرحلة العصيبة من مراحل الحرب.

إن العيب الخطير في إدارة المعركة، والذي ظهر بوضوح خلال المرحلة الأخيرة من الحرب يرجع إلى أن الإيقاع (الرتم) السريع الذي طرأ على المعركة نتيجة لتحولها من عمليات دفاعية ثابتة أمام مناطق رءوس الكباري المصرية شرق القناة، إلى عمليات تصادمية متحركة على أثر عبور القوات المدرعة الإسرائيلية إلى غرب القناة، كان يستلزم من الجانب المصري درجة عالية من السرعة في إبلاغ المعلومات واتخاذ القرارات وإصدار الأوامر وتحريك القوات. ولكن ذلك الأمر لم يتم بالدرجة المطلوبة لعوامل كثيرة، كان أهمها بلا شك هو انعزال القيادة العامة في القاهرة إلى حد بعيد عن مجرى الأحداث في ميدان القتال، واعتمادها في قيادتها على القنوات الروتينية المعتادة التي تبدأ بتصعيد المعلومات من المستويات الأدنى إلى المستويات الأعلى والتي تستغرق في العادة وقتا طويلا. وعندما تصل هذه المعلومات إلى المركز (١٠) بالقاهرة تبدأ مرحلة أخرى جديدة، وهي تسجيل هذه المعلومات على خرائط الموقف التي تعقبها مناقشة آخر أوضاع قواتنا وقوات العدو تمهيدا لاتخاذ القرار لمواجهة الموقف الجديد، لكي تتولى هيئة العمليات بعد ذلك إصدار أوامر القتال. وبنفس الطريقة التي تم بها تصعيد المعلومات إلى أعلى، يجرى نزول الأوامر بطريقة عكسية عبر القنوات الروتينية المعتادة من المستويات الأعلى إلى المستويات الأدنى. ونظرا لأن المعركة ـ خاصة في الحرب المتحركة ـ لا تنتظر هذا النمط الروتيني البطيء في سير إجراءات المعركة، فقد كان الأمر الذي يحدث في معظم الأحيان أنه عندما تصل المهمة إلى الوحدة التي ستكلف بالتنفيذ يكون الموقف قد تغير تماما، بحيث تصبح المهمة غير ذات جدوى أو من المتعذر تنفيذها أو أن أوانها قد فات.

ولعل من المفيد في هذا المجال أن نختار نموذجا واقعيا لواحد من أعظم القادة الذين

ظهروا في الحرب العالمية الثانية، وهو القائد الألماني الشهير الفيلد مارشال إروين روميل، باعتبار أن ميدان القتال الذي دارت عليه معاركه في شمال إفريقيا يشبه إلى حد كبير ميدان القتال الذي دارت عليه حرب أكتوبر ألا وهو الصحراء، لنرى الطريقة الفذة التي أدار بها معاركه وأحرز عن طريقها انتصاراته، حتى أطلق عليه عن جدارة اسم «ثعلب الصحراء»؛ لكي نخرج من تلك المقارنة بالدروس المستخلصة والعبر المستفادة.

لقد كان روميل أول من شبّه حرب الصحراء بالحرب البحرية، ولذا أدلى بحكمته المأثورة: «لا يوجد في التاريخ أدميرال أحرز انتصارا في معركة بحرية، وهو قابع في قاعدته البحرية على الشاطئ». ولهذا لم يكن روميل يقود قواته من مركز قيادة رئيسي في الخلف، أو حتى من مركز قيادة متقدم بالقرب من الجبهة، بل كان يتولى قيادة قواته المدرعة والميكانيكية من داخل مركبة قيادته التي تتحرك مع قواته. وكان يصدر أوامره التي كانت تتميز بالإيجاز والدقة والوضوح بنفسه، إلى قادة وحداته في ميدان القتال عن طريق اللاسلكي شفويا وباللغة العادية، أي بدون استخدام الشفرة ضمانا لسرعة التنفيذ، وذلك عندما يرى أن العدو لن يتيسر له الوقت الكافي للانتفاع بها في حالة التقاطها نظرا لتحركات قواته المستمرة السريعة. ولكنه سرعان ما كان يؤكد أوامره الشفوية برسائل كتابية قصيرة حال أن يسمح له الوقت بذلك. لقد كان العامل الرئيسي في انتصارات روميل في حرب الصحراء، أنه لم يكن ينتظر معلومات لكي تصل إليه عبر قنوات القيادة المعتادة، بل كان يذهب بنفسه ليرى الموقف على الطبيعة، سواء بطائرته أو على متن دبابته أو عربته المدرعة، وأحيانا كثيرة على قدميه. ولهذا تمكن روميل من تحويل عمليات استطلاعه الكبيرة في إبريل عام ١٩٤١ وفي يناير عام ١٩٤٢ إلى هجمات مضادة ناجحة ضد القوات البريطانية انتهت في كلتا المرتين بانسحاب الجيش الثامن البريطاني من برقة.

لقد انتقد المحلل الحربي البريطاني الشهير الكابتن ليدل هارت الفيلد مارشال روميل، لتهوره في ميدان القتال واندفاعه أكثر من اللازم إلى الأمام، ولبعد الصلة أحيانا كثيرة بينه وبين مركز قيادته. ورغم أن هذا النقد ينطوي على جانب من الحقيقة، فإن ليدل هارت نفسه عاد بعد ذلك واعترف بأن روميل كانت لديه حاسة عجيبة، تجعله يظهر فجأة في الأمكنة الحيوية وفي المواقف الخطيرة، لإعطاء قوة دافعة لقواته، وإصدار القرارات السريعة في اللحظات الحاسمة والتي يتغير عن طريقها مجرى المعركة لمصلحة قواته.

تقييم زيارات الشاذلي للجبهة

قام الفريق سعد الشاذلي بزيارة ميدانية لمركز القيادة المتقدم للجيش الثاني بالإسماعيلية، بعد ظهر يوم ١٨ أكتوبر بناء على طلب من الرئيس الراحل السادات على أثر وصوله إلى المركز (١٠) واستماعه إلى تقرير عن الموقف من الفريق أول أحمد إسماعيل، وكان الغرض من الزيارة ـ كما سجل الفريق الشاذلي في مذكراته ـ هو العمل على رفع الروح المعنوية، ومنع تدهور الموقف.

ولم تكن هذه هي الزيارة الأولى، فلقد سبق للفريق الشاذلي القيام قبلها بثلاث زيارات ميدانية لجبهة القتال في الأيام ٨ و ١١ و ١٤ أكتوبر، ولكنها كانت زيارات قصيرة لم يتجاوز كل منها بضع ساعات من النهار، وكان يعود بعدها في المساء إلى المركز ١٠ بالقاهرة. ورغم أن هذه الزيارات كانت لها بعض الفائدة من الناحية المعنوية، فإنه لم يكن لها أي تأثير على مجرى العمليات الحربية، فإن الساعات المعدودة التي كان يقضيها الفريق الشاذلي في الجبهة، لم تكن تتيح له الفرصة لدراسة الموقف العسكري على الطبيعة، أو لتفقد القوات في مواقعها. ولم يتمكن ـ على سبيل المثال ـ في الزيارة التي تمت يوم ١٤ أكتوبر لمركز قيادة الجيش الثاني في الساعة الرابعة مساء بعد فشل عملية تطوير الهجوم أن يفعل شيئا لرفع معنويات الجنود، والذي كان هو الغرض الأساسي من الزيارة، ووفقا لما سجله هو نفسه في مذكراته، ولم تهيىء له الساعات القليلة التي أمضاها في مركز قيادة الجيش الثاني سوى أن يزور اللواء سعد مأمون قائد الجيش الثاني في غرفته بعد أن علم بمرضه، ثم أن يجتمع مع ضباط قيادة الجيش في مركز القيادة ليبحث معهم الموقف، وأخيرا أن يقوم بالاتصال بجميع قادة الفرق لإبلاغهم بتحيات الرئيس وتشجيعه لهم.

وخلال الزيارة الأخيرة التي بدأت يوم ١٨ أكتوبر لمركز قيادة الجيش الثاني في الساعة الخامسة مساء والتي كانت أطول زياراته للجبهة، لم يبارح الفريق الشاذلي مكانه في مقر القيادة إلى أي جهة بالخارج منذ وصوله حتى قفل عائدا إلى المركز (١٠) بالقاهرة. ورغم أن الهدف الأساسي الذي أرسله الرئيس من أجله إلى الجبهة كما ورد في مذكراته، كان منع تدهور الموقف، فإنه لم يتمكن من تحقيق هذا الهدف على الإطلاق، بل ظل الوضع مستمرا في التدهور دون أن يكون في مقدرته التدخل من أجل إنقاذ الموقف. وكان التغيير الوحيد الذي استجد على الموقف هو أن اللواء أ. ح عبد المنعم خليل قائد الجيش الثاني اضطر إزاء وجود رئيس أركان حرب القوات المسلحة في مقر قيادته، إلى أن يتخلى له

مؤقتا عن زمام القيادة، وأن يجلس بجواره يتأمله في صمت وهو يمارس مسئوليات القيادة بدلا منه، مستعينا بنفس معاونيه وأجهزة قيادته، مستخدما نفس وسائل اتصالاته السلكية واللاسلكية، دون أن يستطيع إضافة أي إضافات جديدة مثمرة أو القيام بأي عمل من شأنه إحداث التغيير المطلوب في الموقف العسكري المتدهور. ولم يكن في وسع الفريق الشاذلي في واقع الأمر إجراء أي تغييرات جوهرية في الموقف، إذ لم يكن لديه التفويض اللازم لاتخاذ أي قرارات إستراتيجية تغير من طبيعة الأوضاع العسكرية على مستوى الجبهة، ولم تكن سلطاته في الحقيقة خلال فترة وجوده في مركز قيادة الجيش الثاني تتجاوز كثيرا تلك السلطات التي كانت في يد اللواء أ.ح عبد المنعم خليل قائد هذا الجيش.

والأمر الذي يثير الدهشة أن يقع خلاف بشأن الموعد الذي عاد فيه الفريق الشاذلي من قيادة الجيش الثاني إلى المركز (١٠) بالقاهرة. فعلى الرغم من أن الفريق الشاذلي نفسه قد سجل في الصفحة ٢٦٤ من مذكراته أنه عاد إلى «المركز ١٠» في مساء يوم ١٩ أكتوبر بعد أن أمضى حوالي ٢٤ ساعة مع الجيش الثاني، وعلى الرغم من أن الرئيس الراحل السادات أيد صحة هذا الموعد عندما ذكر في الصفحة ٢٧٣ من كتابه «البحث عن الذات»، أن الفريق الشاذلي عاد منهارا من الجبهة يوم ١٩ أكتوبر، فإن الحقيقة والواقع يؤكدان أن سعد الشاذلي عاد من الجبهة يوم ٢٠ أكتوبر وليس يوم ١٩ أكتوبر، أي أن زيارته الأخيرة للجبهة قد استغرقت ٤٤ ساعة، وليست ٢٤ ساعة كما ورد في مذكراته. وفضلا عن شهادة اللواء أ.ح عبد المنعم خليل قائد الجيش الثاني واللواء أ.ح تيسير العقاد رئيس أركانه، اللذين أكدا أن موعد عودة الشاذلي إلى القاهرة كان يوم ٢٠ أكتوبر، فإنه ثابت من سجل إشارات الجيش الثاني أن الفريق الشاذلي أرسل عدة إشارات لاسلكية باسمه من مقر قيادة هذا الجيش إلى بعض قادة التشكيلات والوحدات الخاصة (الصاعقة والمظلات) في صباح يوم ٢٠ أكتوبر، كما أنه في الساعة الواحدة وخمس دقائق ظهر هذا اليوم أرسل إشارة لاسلكية باسمه إلى الفريق أول أحمد إسماعيل في المركز (١٠) بالقاهرة، بدأها بالعبارة التالية: «عن إذنك أحضر لأعرض على سيادتكم الموقف».

ونظرا لأن الإشارة اللاسلكية أرسلت في حوالي الساعة الواحدة ظهرا، فإنه يمكننا أن نقرر عن ثقة أن الفريق الشاذلي قد وصل بعد انتهاء زيارته الأخيرة للجبهة إلى المركز (١٠) بالقاهرة في حوالي الساعة الرابعة مساء يوم ٢٠ أكتوبر.

التراشق بالتهم بين السادات والشاذلي

كان للأزمة العنيفة التي نشبت بين الرئيس السادات والفريق الشاذلي في المرحلة الأخيرة من حرب أكتوبر، والتي انتهت بإقالة الفريق الشاذلي من منصبه رسميا كرئيس للأركان مساء يوم ١٢ ديسمبر ١٩٧٣، بعد حوالى ستة أسابيع من انتهاء العمليات الحربية وسريان وقف إطلاق النار، وقع بالغ الأثر سواء داخل مصر أو الخارج. وقد زاد من حدة الموقف أن كلا من الرئيس الراحل السادات في كتابه «البحث عن الذات»، والفريق الشاذلي في مذكراته عن حرب أكتوبر، قد وجه للآخر سيلا من الانتقادات اللاذعة والاتهامات الخطيرة بصورة لم يسبق لها مثيل، وهو الأمر الذي أثار ضجة كبرى وبلبلة شديدة في نفوس الناس، وجعلهم في حيرة بسبب هذا التراشق الحاد بالتهم بين رجلين يعدان من أبرز الشخصيات التي أدت دورا حيويا في حرب أكتوبر ١٩٧٣.

واستكمالا لدراستنا المطولة والموضوعية عن حرب أكتوبر، رأينا أن نتصدى لبحث هذا الموضوع ــ رغم ما قد يكون في ذلك من حساسية وحرج ـ إيمانا منا بأن الحقائق ينبغي أن تتكشف أمام القراء بصراحة ووضوح، وأن التاريخ يجب أن يسجل بصدق وأمانة، مهما كلفنا ذلك من عنت وعناء.

ماذا قال السادات؟

سجل الرئيس الراحل في كتابه «البحث عن الذات» في الصفحة (٢٧٣) مايلي بالحرف:

«في يوم ١٦ أكتوبر أرسلت رئيس الأركان الجنرال سعد الشاذلي للتعامل مع الثغرة، وكان من السهل جدا التعامل معها في ذلك اليوم، فقد كان السباق فيها للزمن. ولو أنه نفذ ما طلبته منه أنا والفريق أحمد إسماعيل، وفي التوقيت الذي حددته له فأحاط شاطئ البحيرة المرة بسد يسجنهم داخلها ويوقفهم في مكانهم، لأصبح من السهل القضاء عليهم. وكان في إمكانه أن ينتهي من العملية كلها بعد وصوله بساعات، ولكنه أضاع الليلة بأكملها في جمع المعلومات وإنشاء قيادة له ينافس بها قيادة غريمه الجنرال إسماعيل. وكانت قوات الصاعقة قد تقدمت إلى الدفرسوار ووصلت فعلا إلى نقطة النزول، واعترف الإسرائيليون بشراسة قتال قوات الصاعقة والقوات الخاصة. ولكن الشاذلي أعطاهم الأمر بالانسحاب إلى أن يجمع المعلومات، وكانت النتيجة أن توسع اليهود في الثغرة.

وفي يوم ١٩ أكتوبر عاد الشاذلي منهارا، وقال لابد أن نسحب قواتنا في شرق القناة لأن الغرب مهدد. وكان هذا ـ لو تم ـ هو ما يريده الإسرائيليون. فطلب مني أحمد إسماعيل في منتصف ليلة (١٩ / ٢٠) أكتوبر أن أذهب إلى القيادة حتى أتخذ قرارا مهما بوصفي القائد الأعلى للقوات المسلحة. ذهبت إلى القيادة واستعرضت الموقف، فوجدت أن لنا خمس فرق كاملة في شرق القناة، وعندنا ١٢٠٠ دبابة في الشرق أيضا، أما في الغرب فعندنا فرقة مدرعة تواجه قوات إسرائيل وفي القاهرة فرقة يمكن سحبها، هذا غير الحرس الجمهوري الخاص بي والذي أدخلته الحرب وقاتل قتالا مجيدا وعاد كاملا بكل دباباته.

بعدما اتضح الموقف لي جمعت القادة كلهم، وكان معي الفريق أحمد إسماعيل القائد العام للقوات المسلحة والفريق الجمسي مدير العمليات والفريق حسني مبارك والفريق محمد علي فهمي قائد سلاح الصواريخ، وكانوا جميعا من رأيي، وهو أنه لم يحدث شيء يستدعي القلق فأعطيت الأمر الذي أعتبره أهم من قرار ٦ أكتوبر، بألا ينسحب جندي واحد ولا بندقية واحدة ولا أي شيء على الإطلاق من شرق القناة، وأنه علينا أن نتعامل مع الغرب حسب الأوضاع الموجودة. ثم بدأت أتصل بنفسي مع الفرقة المدرعة في الغرب، وكان يقودها ضابط اسمه قابيل، وهو بطل من أبطال أكتوبر، وقلت له: ثبت الإسرائيليين ولا تجعلهم يتمكنون من التوسع، وإياك أن تشتبك معهم إلى أن تصلك الإمدادات. في هذه الليلة أعطيت تعليماتي لأحمد إسماعيل بعزل الشاذلي من رئاسة الأركان، على ألا يعلن هذا القرار على القوات، حتى لا يحدث رد فعل عندنا أو عند الإسرائيليين. وفي نفس الليلة استدعيت الجمسي وعينته رئيسًا للأركان».

ماذا قال سعد الشاذلي؟

سجل الفريق الشاذلي في الباب السابع من مذكراته موقفه من اتهامات السادات له (التي سبق لنا ذكرها)، وذلك في الصفحات من (٢٦٤ إلى ٢٦٩). ونظرا لأنها تضم كثيرا من التفصيلات العسكرية الفنية التي لا تهم القراء، لذا سوف نستخلص منها الفقرات التي تتضمن رد الشاذلي على الاتهامات الموجهة إليه، وكذا تلك التي يشرح فيها وجهة نظره، وهي كما يلي:

«عدت إلى المركز (١٠) مساء يوم ١٩ أكتوبر بعد أن قضيت حوالي ٢٤ ساعة مع

الجيش الثاني. كان من الواضح أن توزيع قواتنا لا يتمشى مطلقا مع متطلبات المعركة. إن مسئولية كل قائد هو أن يحشد قواته وإمكاناته في المعركة، لا أن يترك جزءا من قواته يقاتل تحت ظروف سيئة بينما تقف باقي القوات موقف المتفرج واللامبالاة. لقد أصبحت خطة العدو واضحة وضوح الشمس. إنه يهدف إلى تطويق الجيش الثاني والجيش الثالث، إنه يقوم بتوسيع الثغرة في منطقة الدفرسوار كل يوم، ويجب ألا ننتظر المعجزات من قواتنا التي تقاتل غرب القناة. إن لواء مظليا مصريا يخوض معركة مريرة (يقصد اللواء ١٨٢ مظلات) ضد فرقة مدرعة من لواءين مدرعين ولواء مظلى إسرائيلي (يقصد فرقة شارون) قد يستطيع المقاومة لمدة «٣ ـ ٤» أيام أخرى، ولكن لا يمكن أن تستمر مقاومته إلى الأبد. كان جدول مقارنة القوات بيننا وبين العدو يصرخ بالانتقاد. إن نظرة واحدة من رجل مدني لا يفهم في الشئون العسكرية لكفيلة بأن تقنعه بأن هذا التوزيع خاطئ، وأنه إذا لم يتم إصلاحه فورا فقد تحدث الكارثة، ومع ذلك فإني لم أستطع أن أقنع لا وزير الحربية ولا الرئيس السادات بتعديل هذه الأوضاع.

بحثت الموقف مع أحمد إسماعيل، وقلت له: إذا لم نعد توزيع قواتنا لمقابلة التهديد القائم، فقد تحدث كارثة في خلال ثلاثة أيام أو أربعة. إن العدو يستطيع أن يدفع بفرقة مدرعة جديدة هذه الليلة إلى الغرب دون أن يكون هناك أي خطورة على موقعه في الشرق. ليس هناك خطورة كبيرة من إمكان تطويق الجيش الثاني نظرا لوجود ترعة الإسماعيلية، واللواء ١٥ المدرع شمال الترعة، ووجود لواء المظلات الذي يمكنه أن يقاتل لمدة «٣ ـ ٤» أيام أخرى، ولكن الخطورة الكبرى تقع في الجنوب بالنسبة للجيش الثالث. إن الأرض مناسبة لعمل المدرعات، وقد أصبح في إمكان العدو أن يستخدم قواته الجوية ضد قواتنا البرية اليوم، ولأول مرة منذ بدء القتال. إذا قام العدو بنقل فرقة مدرعة أخرى إلى الغرب، فسوف يصبح له في القطاع الجنوبي غرب القناة فرقتان مدرعتان تدعمهما القوات الجوية مقابل فرقة مدرعة واحدة من جانبنا. ولهذا الموقف يجب أن نسحب ٤ ألوية مدرعة من الشرق لمقابلة التهديد في الغرب، في خلال الأربع والعشرين ساعة التالية، ولن يؤثر ذلك في سلامة خطوطنا ومواقعنا في الشرق، وسوف يزيد من قدرتنا على مقابلة تهديد العدو لنا في الغرب.

وبعد أن فشلت في إقناع الوزير بوجهة نظري، أفضيت لبعض مساعديّ بأنه إذا لم نسحب جزءا من قواتنا من الشرق إلي الغرب، فسوف تقع كارثة لا يعلم أبعادها إلا الله.

وهنا اقترح عليّ اللواء سعيد الماحي قائد المدفعية، أن أدعو الرئيس وأشرح الموقف. لم أتحمس أول الأمر لهذا الاقتراح، لأني أعرف وجهة نظر الرئيس السادات منذ الخلاف الذي وقع بيني وبينه في غرفة العمليات يوم ١٦ أكتوبر، ولاعتقادي بأن أحمد إسماعيل وهو رجل عسكري قبل أن يكون سياسيا، ما كان ليقبل مثل هذا الموقف، لولا أنه تحت ضغط سياسي.

وبعد أن فكرت قليلا، قررت أن استدعاء السادات وشرح الموقف أمامه، سوف يضعه أمام مسئوليته التاريخية. وذهبت إلى أحمد إسماعيل في غرفته وقلت له: إن الموقف خطير ويجب أن يحضر الرئيس للاستماع إلى وجهة نظر القادة. لم أخرج من عند الوزير إلا بعد أن وعدني بأنه سيتصل به فوراً.

اتفقت مع الوزير على أن يحضر هذا اللقاء مع الرئيس كل من: أحمد إسماعيل، سعد الشاذلي، محمد علي فهمي، حسني مبارك، عبد الغني الجمسي، سعيد الماحي، فؤاد نصار. وصل رئيس الجمهورية ومعه المهندس عبد الفتاح عبد الله وزير شئون رئاسة الجمهورية إلى المركز ١٠ حوالي الساعة العاشرة والنصف مساء يوم ١٩، وتوجه فورا إلى غرفة أحمد إسماعيل، حيث بقي معه ما يقرب من ساعة، بينما كنت أنا مجتمعًا مع باقي الأعضاء في غرفة المؤتمرات الملاصقة لغرفة العمليات، نتبادل وجهات النظر حول الموقف. وفي النهاية دخل علينا الرئيس ومعه أحمد إسماعيل وعبد الفتاح عبد الله. طلب الرئيس الكلمة من المجتمعين واحدا بعد الآخر، وقد قام كل منهم بشرح موقف القوات بأمانة تامة. وبعد أن استمع إليهم جميعا لم يطلب مني الكلمة، وعلق قائلا: «لن نقوم بسحب أي جندي من الشرق». لم أتكلم ولم أعلق. غمزني المهندس عبد الفتاح عبد الله وهمس في أذني: «قل شيئًا»، ولكني تجاهلت نصيحته. ماذا أتكلم وقد اتخذ الرئيس القرار ولا يريد أن يسمعني، إنني أريد أن أسحب ٤ ألوية مدرعة من الشرق، وهو يعارض سحب جندي واحد. إنه لم يتخذ هذا القرار عن جهل بل عن معرفة تامة بالموقف. إنه لا يستطيع أن يدعي بعد ذلك بأنه كان يعتقد أن العدو لديه ٧ دبابات في الغرب. إنه يعرف الحقائق كلها، وهذا هو قراره.

يدعي السادات في مذكراته بأنني عدت من الجبهة منهاراً يوم ١٩ أكتوبر، وأنني طالبت «بسحب قواتنا في شرق القناة، لأن الغرب مهدد». ويؤسفني بأن أقول إن هذا

كذب رخيص. لقد كنا تسعة أشخاص مات واحد وما زال الثمانية الآخرون أحياء، وإني أتحدى إذا كان أحد من هؤلاء الأحياء يستطيع أن يشهد بصدق ما يدعيه السادات. لقد طالبت حقا بسحب جزء من قواتنا من الشرق إلى الغرب، وكانت مطالبتي بهذه العملية يوم ١٩ أكتوبر هي خامس محاولة لإنقاذ الموقف. إن شرف القوات المسلحة المصرية وتاريخها الرائع الذي كتبته بدمائها في أكتوبر ١٩٧٣ يتطلبان منا أن نحدد من هو المسئول الحقيقي عن حدوث الثغرة، ولماذا لم تدمر في حينها؟ ومن هو المسئول الحقيقي عن حصار الجيش الثالث؟ إن حصار الجيش الثالث جريمة لا تغتفر، وإني أتهم السادات بأنه هو المسئول الأول عنها. لقد رفض السادات وقف إطلاق النار عندما كنا في موقف قوة، وطلب وقف إطلاق النار عندما أصبحنا في موقف ضعف. لقد كان اقتراحي الخاص بسحب ٤ ألوية مدرعة من الشرق ليلة ١٩ / ٢٠ أكتوبر هو الفرصة الأخيرة لإنقاذ الشرف العسكري المصري. لقد فقدنا المبادرة نهائيا بعد ذلك وحتى نهاية الحرب».

وهكذا يتضح لنا من أقوال الرئيس الراحل السادات والفريق الشاذلي، أن كلا منهما يتهم الآخر بصراحة تامة بأن تصرفاته خلال الحرب تجعله هو المسئول الأول عن الثغرة، وما تمخضت عنه بعد ذلك من أحداث خطيرة أثرت تأثيرا بالغًا في سير القتال ومجرى الحرب. وفي الصفحات التالية ـ بمشيئة الله ـ سنقوم بتحليل ودراسة تلك الأقوال التي ذكرت ومناقشتها بطريقة علمية وموضوعية لكي نصل في النهاية للحقيقة الكاملة التي يتطلع الجميع لمعرفتها.

أقوال السادات في الميزان

قبل أن نمضي في بحث وتحليل العوامل التي تسببت في الأزمة العنيفة التي نشبت بين الرئيس الراحل السادات والفريق سعد الشاذلي في المرحلة الأخيرة من حرب أكتوبر، والتي كان من أبرز آثارها تلك الانتقادات اللاذعة والاتهامات الخطيرة التي وجهها كل منهما للآخر في مذكراته، والتي سبق أن أوردنا بعضًا منها، يهمنا أن نسجل أن أحد العوامل الرئيسية في نشوب هذه الأزمة وتصعيدها يرجع إلى العلاقة الشخصية السيئة بين الفريق أول أحمد إسماعيل وزير الحربية والقائد العام للقوات المسلحة خلال حرب أكتوبر والفريق سعد الشاذلي رئيس أركان حرب القوات المسلحة وقتئذ، وقد سبق لنا شرح أسبابها في الفصل السادس من هذا الكتاب. إن هذه العلاقة السيئة وتلك الكراهية

العميقة المتبادلة بين الطرفين، والتي تمتد جذورها إلى عام ١٩٦٠، حينما تصادف وجودهما معا في ليوبولد فيل عاصمة الكونغو، قد أثرت بلا جدال في جو العمل في المركز (١٠)، ولم تكن قط في مصلحة القوات المسلحة. إذ كيف يمكن أن تسير الأمور سيرا طبيعيا في مقر القيادة العامة، في الوقت الذي يوجد فيه هذا الانشقاق الخطير بين القائدين اللذين يتوليان أخطر منصبين في الحرب، وهما القائد العام ورئيس الأركان؟

ومن تتبع سلسلة المصادمات التي وقعت بين أحمد إسماعيل والشاذلي في المركز (١٠) ـ خاصة في المرحلة الأخيرة من الحرب ـ نجد أنها قد انعكست بدرجة مؤثرة على العلاقات بين الرئيس الراحل السادات والفريق سعد الشاذلي. فكلما وقع خلاف حاد في الرأي بين القائد العام ورئيس الأركان بشأن إدارة الحرب، كان السادات لا يلبث عند استدعائه للحضور إلى المركز ١٠ أن ينحاز في الحال إلى رأي القائد العام، وأن يهاجم في حدة وعنف رأي رئيس الأركان، حتى اعتقد الشاذلي في النهاية ـ كما أوضح في مذكراته ـ أن آراء أحمد إسماعيل التي كان يتمسك بها، والتي كانت تتسبب في إثارة أوجه الخلاف بينهما، لم تكن في واقع الأمر سوى آراء السادات نفسه.

وليس هناك من شك في أن أحمد إسماعيل كان شديد الولاء والإخلاص للسادات، ولا يمكن أن يفكر في معارضته أو الوقوف في وجه آرائه. فقد كان السادات هو صاحب الفضل الأول عليه بعد أن أطاح به عبد الناصر وأحاله على التقاعد في ١٠ سبتمبر عام ١٩٦٩ على أثر الإغارة البرمائية الإسرائيلية على الزعفرانة على خليج السويس. ومن الواضح أن أحمد إسماعيل كان ينتهج خلال الحرب الأسلوب الذي يتمشى مع سياسة السادات، وأن الرجلين كانا على اتفاق تام بشأن الطريقة التي تدار بها الحرب، وكانا شريكين في جميع القرارات الحيوية التي تم اتخاذها في أثناء المراحل المختلفة للحرب، ولهذا السبب كان أحمد إسماعيل لا يتزحزح عن موقفه حتى عندما يواجه بمعارضة شديدة من القادة لأي قرار من قراراته، مهما كانت درجة وجاهة رأيهم أو قوة حجتهم، كما جرى مثلا عندما تم اتخاذ القرار بشأن تطوير الهجوم في اتجاه المضايق يوم ١٤ أكتوبر ١٩٧٣. فعندما أبدى الفريق الشاذلي واللواء سعد مأمون قائد الجيش الثاني واللواء عبد المنعم واصل قائد الجيش الثالث معارضتهم الشديدة لهذا القرار، وأوضحوا عواقبه الضارة الخطيرة، لم يستطع أحمد إسماعيل إقناعهم بضرورة تنفيذه، إلا بعد أن صرح لهم بأن هذا القرار هو قرار سياسي يهدف إلى تخفيف الضغط عن سوريا، ولذا ينبغي الالتزام به دون نقاش أو جدال.

وفي إبريل عام ١٩٧٤ وقبل شهر واحد من سفر الفريق الشاذلي إلى لندن لتسلم مهام منصبه الجديد كسفير لمصر في بريطانيا، بعد أن تمت تنحيته عن منصبه كرئيس للأركان منذ أربعة أشهر سابقة، أدلى الرئيس الراحل السادات بحديث صحفي إلى الأستاذ سليم اللوزي رئيس تحرير مجلة الحوادث اللبنانية وقتئذ، ورد في سياقه أنه أمر الشاذلي يوم ١٦ أكتوبر بالتوجه إلى الإسماعيلية للتعامل مع الثغرة، وأنه قال له قبل تحركه: «عليك أن تكون بعد ساعة ونصف في الإسماعيلية وتضرب طوقًا حول الدفرسوار، بحيث تترك اليهود يدخلون إلى هذه المنطقة ولكن لا يخرجون منها. بعدها تصبح القوة الإسرائيلية كلها في يدي». وفي إبريل عام ١٩٧٨، وكان الشاذلي يعمل وقتئذ سفيرا لمصر في البرتغال بعد نقله من لندن، أصدر السادات كتابه الشهير: «البحث عن الذات» الذي كان من ضمن ما ورد فيه بشأن موضوع الثغرة ما يلي:

«في يوم ١٦ أكتوبر أرسلت الجنرال سعد الشاذلي للتعامل مع الثغرة وكان من السهل جدا التعامل معها في ذلك اليوم، فقد كان السباق فيها للزمن. ولو أنه نفذ ما طلبته منه أنا والفريق أول أحمد إسماعيل، وفي التوقيت الذي حددته له فأحاط شاطئ البحيرة المرة بسد يسجنهم داخلها، ويوقفهم في مكانهم، لأصبح من السهل القضاء عليهم. وكان في إمكانه أن ينتهي من العملية كلها بعد وصوله بساعات، ولكنه أضاع الليلة بأكملها في جمع المعلومات وإنشاء قيادة له لينافس بها قيادة غريمه الجنرال إسماعيل. وكانت قوات الصاعقة قد تقدمت إلى الدفرسوار، ووصلت فعلا إلى نقطة النزول، واعترف الإسرائيليون بشراسة قتال قوات الصاعقة والقوات الخاصة. ولكن الشاذلي أعطاهم الأمر بالانسحاب إلى أن يجمع المعلومات، وكانت النتيجة أن توسع اليهود في الثغرة». انتهت أقوال السادات.

ولكي يكون تحليلنا للانتقادات والتهم التي وجهها السادات للشاذلي مجديا - سواء تلك التي وجهها في كتابه «البحث عن الذات» أو في أحاديثه الصحفية - رأينا تقسيم هذا البحث إلى أربعة أقسام كما يلي:

١ - متى توجه الشاذلي إلى الإسماعيلية؟

٢ - ماذا كانت تعليمات السادات للتعامل مع الثغرة؟

٣ - هل أنشأ الشاذلي قيادة في الإسماعيلية؟

٤ - هل أمر الشاذلي قوات الصاعقة بالانسحاب؟

١ ـ متى توجه الشاذلي إلى الإسماعيلية؟

من الواضح أن الرئيس الراحل السادات كان حريصا على أن يسجل في كل أحاديثه الصحفية التي نشرت، وفي مذكراته التي صدرت، أنه قد أرسل الشاذلي إلى الإسماعيلية يوم ١٦ أكتوبر. ولهذا التاريخ أهمية كبرى، فهو أول يوم تتمركز فيه القوة الإسرائيلية في منطقة الدفرسوار غرب القناة، بعد أن تم لها العبور من الشرق إلى الغرب ليلة ١٥ / ١٦ أكتوبر. وبصرف النظر عن شهادات القادة وسجلات الحرب التي تثبت كلها أن الشاذلي لم يغادر القاهرة إلى الإسماعيلية يوم ١٦ أكتوبر، فإن الأمر الذي نستطيع أن نؤكده، هو أن السادات نفسه كان يعلم علم اليقين أن الشاذلي كان موجودا في هذا اليوم، بمقر القيادة العامة بالقاهرة، ليس فقط لأن الرئيس قد زار المركز ١٠ في مساء يوم ١٦ أكتوبر، والتقى بالطبع مع الفريق الشاذلي رئيس الأركان، بل أيضا لأن صداما عنيفا قد وقع بينهما في تلك الليلة في غرفة العمليات بالمركز ١٠ شهده عدد من القادة وضباط العمليات، وعلا فيه صوت الرئيس إلى الحد الذي جعل الضباط الذين هم خارج غرفة العمليات في دهشة مما يسمعونه. ولذا فإن إصرار السادات على أنه أرسل الشاذلي للتعامل مع الثغرة يوم ١٦ أكتوبر ـ رغم علمه بالحقيقة ـ ليس له سوى معنى واحد؛ هو أنه أراد تحميل الشاذلي مسئولية توسيع الإسرائيليين للثغرة، وكذا مسئولية الفشل في تصفيتها رغم سهولة هذه العملية في ذلك التوقيت.

هذا، ولم يكن الخلاف الذي أدى إلى الصدام الذي جرى في المركز ١٠ قد نشب في الأصل بين السادات والشاذلي، بل إنه في البداية كان خلافا في وجهات النظر بين أحمد إسماعيل والشاذلي. وكان موضوع الخلاف هو اتجاه الضربة التي ستوجه ضد ثغرة الاختراق بالدفرسوار صباح اليوم التالي ١٧ أكتوبر. ففي حين كان رأي الشاذلي أن يوجه الهجوم الرئيسي ضد الثغرة من غرب القناة لإغلاقها عند المصب، وذلك بلواءين مدرعين يسحبان من قطاع الجيش الثالث شرق القناة، ويتجهان صوبها من الجنوب إلى الشمال، كان رأي أحمد إسماعيل أن يوجه الهجوم الرئيسي ضدها من شرق القناة لإغلاقها عند المنبع، وذلك بواسطة اللواء ٢٥ المدرع المستقل الذي يتقدم من الجنوب إلى الشمال، كي يلتقي عند الدفرسوار مع الفرقة ٢١ المدرعة التي تتقدم من الشمال إلى الجنوب. ورغم محاولات الشاذلي لإقناع أحمد إسماعيل بفكرته، فقد رفضها رفضًا باتًا إذ كان مصرًا على عدم سحب أي قوات من الشرق إلى الغرب.

وفي مساء يوم ١٦ أكتوبر وصل السادات إلى المركز (١٠)، وفكر الشاذلي ـ كما سجل

في مذكراته ـ في الاستعانة به لكي ينقض قرار أحمد إسماعيل ويوافق على فكرته هو. ولم يكد يعرض عليه مقترحاته حتى ثار في وجهه ثورة عارمة، وفقد أعصابه وأخذ يصرخ بعصبية: «أنا لا أريد أن أسمع منك مرة ثانية هذه الاقتراحات الخاصة بسحب القوات من الشرق. إذا أثرت هذا الموضوع مرة أخرى فإني سوف أحاكمك». وهكذا صدرت التعليمات الخاصة بالعملية الهجومية يوم ١٧ أكتوبر وفقا للقرار الذي اتخذه القائد العام والرئيس السادات لإغلاق ثغرة الاختراق من الشرق. ولكن هذه العملية لم يقيض لها النجاح، فلم تتمكن وحدات الفرقة ٢١ المدرعة من الوصول إلى الدفرسوار، كما تم تدمير اللواء ٢٥ المدرع المستقل جنوب الخط (كثيب الحبشي ـ تل سلام) على مسافة حوالي ٧ كيلو مترات من الدفرسوار، أي أن عملية تصفية الثغرة يوم ١٧ أكتوبر باءت بالفشل.

٢ ـ ماذا كانت تعليمات السادات للتعامل مع الثغرة؟

في حين أصر السادات على أن الشاذلي وصل إلى الإسماعيلية يوم ١٦ أكتوبر، فإن الحقيقة الثابتة التي أيدها القادة الذين حضروا الشاذلي أثناء وجوده بمقر قيادة الجيش الثاني، والتي تدعمها الوثائق والمستندات الرسمية، هي أنه وصل إلى مركز القيادة المتقدم للجيش الثاني بالإسماعيلية في الساعة الخامسة مساء يوم ١٨ أكتوبر. وعندما التقى مع اللواء أ.ح عبد المنعم خليل قائد الجيش الثاني عقب وصوله قال له: «الرئيس السادات طلب مني الحضور إلى الجيش الثاني وتولي المسئولية». ولم يجد اللواء عبد المنعم مناصًا من أن يتخلى له مؤقتًا عن زمام القيادة، وأن يجلس بجواره في ملجأ القيادة لمعاونته في مهمته. وعندما التقى الشاذلي بالرؤساء وقادة أفرع قيادة الجيش الثاني، أخطرهم أنه تولى مسئولية القيادة، وأن جميع القرارات والأوامر والتعليمات لا تصدر إلا عنه، وأن جميع الاتصالات سواء مع القيادة العامة المركز ١٠ أو مع قادة التشكيلات لا تتم إلا بواسطته شخصيًا.

وعندما نقوم بدراسة المهمة التي ذكر السادات أنه قام بتخصيصها للشاذلي للتعامل مع الثغرة، والتي كانت تارة تقضي بأن يحيط شاطئ البحيرة المرة بسد يسجن الإسرائيليين داخله، كما دون في كتابه «البحث عن الذات»، وتارة أخرى تنص على أن يضرب طوقا حول الدفرسوار، بحيث يدخل فيه اليهود ولا يخرجون منه، كما ورد في حديثه لمجلة «الحوادث»، نجد أن السادات قد زج بنفسه بهذه الأقوال في قضايا تكتيكية وفنية ليست من اختصاص القيادة السياسية، وأعطى الفرصة للشاذلي لكي يعلق على كلامه هذا تعليقا

قاسيا ومليئا بالسخرية والتهكم. فقد ذكر في الصفحة (٢٩٧) من مذكراته ما يلي: «ليس لدي تعليق على هذا الكلام، سوى أن أقول إنه كلام مصاطب قد تحكيه جدة عجوز لطفل ريفي لتساعده على النعاس، كما كانت جدة الرئيس تحكي له وهو طفل قصة زهران. ليس هكذا تدار الحرب، وليس هكذا تخصص المهام العسكرية. إني أخجل ويخجل معي كل مثقف أن ينسب إلى رئيس جمهورية مصر هذا الكلام».

ولقد سبق أن أوضحنا في الفصل السادس من هذا الكتاب أن مسئولية رئيس الدولة تقتصر على رسم الإستراتيجية العليا للدولة، ولذا فليس من اختصاصه التدخل في وضع الخطط الحربية، إذ إن ذلك من مسئولية واختصاص القيادة العسكرية. وحذرنا من خطورة أن يتورط رئيس الدولة - خاصة إذا كان الرئيس رجلا عسكريا - إلى الحد الذي يجعله يصدر بنفسه قرارات تكتيكية تتعلق بالمعارك الدائرة، إذ إن ذلك معناه تدخل القيادة السياسية في أعمال القيادة العسكرية، وهو أمر - وفقا لدروس التاريخ وعبره - ذو عواقب خطيرة على مجرى الحروب ونتائجها.

ولا نستطيع في هذا المجال أن نحمل السادات وحده مسئولية التدخل في القرارات العسكرية في المركز (١٠)، أو أن نوجه إليه اللوم بمفرده، بل إن اللوم ينبغي أن يوجه أولا إلى الفريق أول أحمد إسماعيل القائد العام وإلى الفريق سعد الشاذلي رئيس الأركان، فهما المسئولان الحقيقيان عن الزج بالرئيس في القرارات والخطط العسكرية، بعد أن جعلا منه - وهو القائد السياسي الذي كان يفتقر إلى بعض ما لديهما من خبرة فنية وثقافة عسكرية متميزة - حكما يفصل بينهما في أدق التفاصيل المتعلقة بالعمليات الحربية، وفي أهم القضايا التكتيكية. وكان ذلك كله بسبب الخلافات الشخصية التي طحنتهما تحت وطأتها في المرحلة الأخيرة من الحرب، والتي أفسدت جو العمل في المركز (١٠) بلا جدال. وليس أدل على ذلك من اعتراف الشاذلي نفسه في مذكراته حين روى أنه عقب اختلافه مع أحمد إسماعيل يوم ١٦ أكتوبر بشأن اتجاه ضربة الهجوم ضد ثغرة الاختراق، ولم يكد يعرف أن الرئيس وصل إلى المركز ١٠، حتى بادر إلى عرض مقترحاته عليه، مؤملا أن يتبنى الرئيس فكرته وينقض قرار أحمد إسماعيل، وكانت النتيجة هي أن الرئيس ثار في وجهه ثورة عنيفة وبذا لا يلومنّ إلا نفسه.

والآن، وبعد أن ثبت لنا بالدليل القاطع أن الفريق الشاذلي قد وصل إلى مقر قيادة الجيش الثاني بالإسماعيلية في الساعة الخامسة مساء يوم ١٨ أكتوبر وليس يوم ١٦، يصبح ما زعمه السادات من أنه كان في إمكانه أن ينتهي من العملية كلها بعد وصوله بساعات

ضربا من الخيال. إذ إن الوضع العسكري في قطاع الجيش الثاني جنوب ترعة الإسماعيلية في التوقيت الذي وصل فيه الشاذلي إلى قيادة هذا الجيش بالإسماعيلية لم يكن يتيح الفرصة لأي قائد عسكري مهما بلغت درجة براعته وعبقريته، أن ينتهي من عملية تصفية الثغرة بعد وصوله بساعات، بل ولا بعد ذلك بعدة أيام، فقد أصبح وضع القوات الإسرائيلية غرب القناة مساء يوم ١٨ أكتوبر على درجة عالية من القوة، فقد تمت في اليوم السابق إقامة جسر معديات البونتون بين شاطئي القناة وأوشك المهندسون العسكريون الإسرائيليون على الانتهاء من إقامة الجسر السابق التركيب على بعد حوالي ٢٠٠ متر شمال جسر المعديات. وعلى الضفة الغربية للقناة جنوب ترعة الإسماعيلية أصبحت تتمركز فرقتان مدرعتان إسرائيليتان، هما فرقة الجنرال أريل شارون وفرقة الجنرال إبراهام أدان، وتمكنت عناصر مدرعة منهما من التوغل في عمق الدفاعات المصرية وتدمير وإسكات عدد من كتائب الصواريخ أرض - جو سام المصرية، مما أدى إلى فتح ممر للطائرات الإسرائيلية للنفاذ إلى الضفة الغربية لتقديم المعاونة المباشرة للقوات البرية. وقد جرى ذلك في الوقت الذي لم يعد فيه للجيش الثاني أي قوة مدرعة في قطاعه غرب القناة جنوب ترعة الإسماعيلية، إذ إن القوة المدرعة الوحيدة التي كانت في هذا القطاع، وهي اللواء ٢٣ المدرع (من الفرقة ٣ مشاة ميكانيكية الاحتياطي الإستيراتيجي للقيادة العامة) الذي تم إرساله من منطقة تمركزه بالقاهرة إلى تقاطع عثمان أحمد عثمان في الساعة التاسعة مساء يوم ١٦ أكتوبر، لم يصدر له الأمر بالهجوم لتدمير العدو في منطقة الدفرسوار إلا صباح يوم ١٨ أكتوبر، أي بعد أن انتهى الإسرائيليون من إقامة جسر معديات البونتون، وبعد أن تم عبور الفرقة المدرعة بقيادة الجنرال إبراهام أدان إلى الغرب. وكانت النتيجة هي تدمير اللواء ٢٣ المدرع ظهر يوم ١٨ أكتوبر، وصدور الأمر بإعادة تجميعه لاستعادة كفاءته القتالية في المنطقة غرب تقاطع طريق الإسماعيلية الصحراوي مع وصلة أبو صوير.

٣ - هل أنشأ الشاذلي قيادة في الإسماعيلية؟

ورد ضمن أقوال السادات أن الشاذلي أضاع ليلة وصوله بأكملها في جمع المعلومات، وإنشاء قيادة له ينافس بها قيادة غريمه الجنرال إسماعيل. ولا شك في أننا نستبعد أن الشاذلي أو أي قائد آخر لديه الكفاءة لقيادة جيش ميداني يضيع ليلة بأكملها في جمع معلومات، إذ إن هذه العملية لا يمكن أن تستغرق أكثر من ساعتين على أكثر تقدير، ولها أسلوب أكاديمي مدروس يعرفه القادة على مختلف المستويات. ولم يكن الشاذلي بحكم

منصبه كرئيس للأركان يحتاج لزمن يذكر، لكي يعرف حقيقة الموقف وأوضاع قوات العدو وقواتنا في قطاع الجيش الثاني، فقد كان على دراية كبيرة بحقيقة الموقف والأوضاع العسكرية على مستوى الجبهة بأكملها، بحكم كونه رئيس الأركان والرجل الثاني في المركز (١٠)، أي أن من المؤكد أن تصب عنده جميع المعلومات وتقارير الموقف الواردة من مختلف المصادر والقيادات. أما القول بأنه أنشأ بعد وصوله إلى الإسماعيلية قيادة له، فهذا بلا شك أمر يدعو إلى العجب الشديد، إذ إنه من الثابت أن الشاذلي قد حضر إلى الإسماعيلية بعربة جيب عسكرية، ولم يكن برفقته سوى سكرتيره العسكري المقدم مظهر عيسى، وسائق سيارته وجندي حراسة من الشرطة العسكرية، ولم يمكث بالإسماعيلية إلا ٤٤ ساعة على وجه التحديد، فكيف ومتى استطاع إنشاء مركز القيادة الجديد؟ وكيف يتيسر له أن يقيم مركزا للقيادة ينافس به المركز (١٠) بالقاهرة الذي سخرت لإنشائه أفضل إمكانات القوات المسلحة في وقت السلم من تجهيزات هندسية وملاجئ متسعة تحت الأرض، زودت بكل ما يحتاج إليه جهاز القيادة من وسائل الاتصال وحاجة العمل وسبل الراحة؟ وهل من المعقول التفكير في إنشاء مركز جديد للقيادة بينما المعارك محتدمة والغارات الجوية على أشدها ومدينة الإسماعيلية ذاتها مهددة بالغزو، بعد أن أصبحت قوات العدو على أبوابها؟

إن هذا الزعم بالطبع ليس له أساس من الصحة. ومن الثابت أن الشاذلي بعد وصوله اتخذ مكانه في ملجأ القيادة تحت الأرض، بجوار اللواء أ.ح عبد المنعم خليل قائد الجيش الثاني، وأخذ يمارس مسئوليات القيادة بدلا منه مستعينا بنفس معاونيه وأجهزة قيادته، مستخدما نفس وسائل اتصالاته السلكية اللاسلكية. ولم يبارح مركز القيادة المتقدم للجيش الثاني إلا عندما توجه إلى القاهرة. وقبل مغادرته مركز القيادة اتصل هاتفيا بالفريق أول أحمد إسماعيل بالمركز (١٠) بالقاهرة في الساعة الواحدة وخمس دقائق طالبا منه الإذن بنزوله لعرض الموقف عليه. وفي الساعة الواحدة والربع ظهرا، طلب من اللواء عبد المنعم خليل الحضور إليه في الاستراحة المجاورة للملجأ، وفوجئ اللواء عبد المنعم بتأهب الشاذلي للعودة إلى القاهرة، فلم يسبق ذلك أي مقدمات ووجده باسطا خريطة الموقف أمامه. وعندما رآه قال له: «ما رأيك؟ الموقف خطير جدا وأنا نازل أقابل الرئيس لأطلعه على الموقف عشان يشوف حل لوقف إطلاق النار». وفي الساعة الواحدة والدقيقة العشرين ظهرا غادر الشاذلي مقر القيادة بالإسماعيلية متوجها إلى المركز ١٠ بالقاهرة.

بقيت نقطة مهمة أخيرة في هذه الفقرة، وهي اعتراف السادات ضمن حديثه بأن الشاذلي كان يريد منافسة غريمه أحمد إسماعيل، وهو اعتراف خطير للغاية، إذ كيف يسمح القائد الأعلى للقوات المسلحة لغريمين ـ أحدهما يشغل منصب القائد العام والثاني يشغل منصب رئيس الأركان ـ بالعمل معا في مقر قيادة واحد لإدارة حرب كانت بالنسبة لمصر معركة حياة أو موت؟ إن جهاز القيادة العامة الذي يدير الحرب ينبغي أن يكون جهازا متجانسا تسوده المحبة والألفة ويغمره الوفاق والرغبة الحقيقية في التعاون، لا أن يكون ميدانا للخلافات والصراعات وتصفية الحسابات القديمة.

٤ ـ هل أمر الشاذلي قوات الصاعقة بالانسحاب؟

ورد ضمن أقوال السادات أن قوات الصاعقة قد تقدمت إلى الدفرسوار ووصلت فعلا إلى نقطة النزول، واعترف الإسرائيليون بشراسة قتال قوات الصاعقة والقوات الخاصة ولكن الشاذلي أمرهم بالانسحاب إلى أن يجمع المعلومات، وكانت النتيجة أن توسع اليهود في الثغرة. ويتضح من هذه الأقوال أن السادات لم يهدف منها إلا تحميل الشاذلي مسئولية توسيع الإسرائيليين لثغرة الاختراق في الدفرسوار، فهو حسب روايته الذي أعطى أمرا بانسحاب قوات الصاعقة التي تمكنت من الوصول إلى نقطة النزول الإسرائيلية على القناة، وقاتلت العدو بشراسة دون أي سبب يدعوه لذلك إلا حجة عجيبة وهي جمع المعلومات. ولا يمكن أن نتخيل أن قائدا ـ مهما بلغت درجة جهله وغبائه ـ يأمر قواته بالانسحاب بعد أن وصلت إلى هدفها الحيوي في قلب العدو بدعوى أنه يريد جمع معلومات عن هذا العدو؛ إذ إن الاتصال القتالي مع العدو ـ وفقا للمبادئ التكتيكية الأولية ـ هو في حد ذاته من أهم الوسائل للحصول على المعلومات عن العدو.

أما حقيقة ما جرى من أحداث بالنسبة لمعركة الصاعقة، فهي أن العقيد أ.ح علي هيكل قائد المجموعة ١٢٩ صاعقة (من ضمن احتياطي الجيش الثاني) وكانت تتمركز في مطار أبو صوير، بناء على المهمة التي تلقاها صباح يوم ١٦ أكتوبر من قيادة الجيش الثاني، أرسل الكتيبة ٧٣ صاعقة (عدا سرية) إلى منطقة تجمع في عين غصين (على الترعة الحلوة وعلى بعد حوالي ١٢ كيلو مترا جنوب نفيشة)، وكانت المهمة التي حددها لقائد الكتيبة هي التقدم جنوبا في اتجاه الدفرسوار وأبو سلطان لتدمير ٧ دبابات إسرائيلية نجحت في التسلل إلى الضفة الغربية للقناة.

ووفقا للمهمة، تقدمت سرية صاعقة من عين غصين على المدق الترابي شرق الترعة

الحلوة في اتجاه الدفرسوار، وعندما اقتربت من الناحية الشمالية لمطار الدفرسوار فوجئت بمقاومة قوية من المظليين الإسرائيليين الذين كانوا مختفين في المطار، واستمر الاشتباك طول الليل. ونظرا لعجز السرية عن التقدم ولشدة حاجتها إلى الذخيرة، صدر لها الأمر من قيادة المجموعة صباح يوم ١٧ أكتوبر بالانسحاب إلى سرابيوم حيث احتلت موقعا دفاعيا تم تدعيمه بفصيلة صاعقة أخرى أرسلها قائد المجموعة. وقد تقدمت في نفس اليوم كتيبة مظلات إسرائيلية من لواء العقيد داني مات من الدفرسوار في اتجاه الشمال، بين الترعة الحلوة وخط السكة الحديدية، وعندما اقتربت من سرابيوم دارت معركة عنيفة بينها وبين رجال الصاعقة المصريين استمرت طوال أربع ساعات وبلغت الخسائر الإسرائيلية ١٠ دبابات وعربات مجنزرة فضلا عن ١١ قتيلا و٢٧ جريحا. وفي ليلة ١٧ / ١٨ أكتوبر، صدر الأمر من قيادة المجموعة إلى السرية بالانسحاب إلى أبو صوير لإعادة تجميعها.

وكانت السرية الأخرى من الكتيبة ٧٣ صاعقة قد تقدمت من عين غصين على المدقات غرب الترعة الحلوة، في اتجاه معسكرات أبو سلطان ومحطة السكة الحديدية للوصول إلى شاطئ البحيرة المرة الشمالي جنوب الدفرسوار. وقد تمكنت فصيلة منها من التسلل إلى شاطئ البحيرة المرة، ولكن العدو تمكن من اكتشاف السرية صباح يوم ١٧ أكتوبر وهاجمتها الدبابات الإسرائيلية هجوما عنيفا من مواقعها جنوب غرب مطار الدفرسوار. ورغم الخسائر الكبيرة التي تكبدتها السرية، خاصة في الضباط، فقد تمكنت من تدمير ٥ دبابات وعربات مجنزرة إسرائيلية. ورغم تلقي السرية أمرا من قيادة المجموعة بالانسحاب إلى معسكرات أبو سلطان، فقد عجزت السرية عن التنفيذ نظرا لكثافة نيران العدو، واضطرت إلى التشبث بمواقعها، مما دعا قائد المجموعة إلى أن يطلب من مدفعية الجيش الثاني قصف المنطقة التي يحتلها العدو في أبو سلطان بأكملها بالنيران بما فيها سرية الصاعقة المصرية.

وفي صباح يوم ١٨ أكتوبر، نشب قتال متلاحم شديد الشراسة بين المظليين الإسرائيليين ورجال الصاعقة المصريين استشهد خلاله رئيس استطلاع المجموعة، وأصيب رئيس أركانها بإصابات جسيمة وتكبد العدو كذلك خسائر كبيرة. وفي ليلة ١٨ / ١٩ أكتوبر وتحت ستر الظلام انسحب ما تبقى من السرية بأوامر قيادة المجموعة من أبو سلطان إلى أبو صوير لإعادة التجميع. وبلغت خسائر الصاعقة في هذه المعارك ١١ ضابطا و٧٤ من رتب أخرى.

وهكذا يتضح لنا أن أقوال السادات بشأن معركة الصاعقة في الدفرسوار، ليست سوى

ادعاءات لا سند لها من الواقع، ولا يقصد منها كما سبق أن أوضحنا سوى تحميل سعد الشاذلي وحده مسئولية ما جرى من أخطاء في التعامل مع الثغرة، إذ إن معركة قوات الصاعقة مع العدو كانت قد انتهت قبل أن يصل الشاذلي إلى الإسماعيلية.

متى تم عزل الشاذلي من منصب رئيس الأركان؟

يمكن القول بأن الأحداث التي جرت بالمركز (١٠) ليلة ٢٠ / ٢١ أكتوبر، كانت هي الحد الفاصل في العلاقات الطبيعية، التي كانت سائدة من قبل بين الرئيس الراحل السادات والفريق سعد الشاذلي بوصفه رئيسا للأركان. ففي هذه الليلة بلغت الأزمة بينهما ذروتها، وغدت بعدها الصلات ـ سواء الرسمية أو الشخصية ـ بين الطرفين شبه مقطوعة. وقد عبر السادات عن مدى ما أصاب مشاعره من تحول، وما أحس به وقتئذ من سخط على رئيس أركانه، فذكر في الصفحة (٢٧٣) من كتابه «البحث عن الذات» ما يلي بالحرف:

«في هذه الليلة أعطيت تعليماتي لأحمد إسماعيل بعزل الشاذلي من رئاسة الأركان، على ألا يعلن هذا القرار على القوات حتى لا يحدث رد فعل عندنا أو عند الإسرائيليين، وفي نفس الليلة استدعيت الجمسي وعينته رئيسا للأركان».

وفي الواقع أن هذا القول يفتقر إلى الدقة والصدق، إذ إن الشاذلي لم يعزل من منصبه يوم ٢١ أكتوبر، بل استمر يمارس مسئوليات منصبه كرئيس للأركان حتى يوم ١٢ ديسمبر عام ١٩٧٣. والدليل على ذلك حضوره اجتماعين للمجلس الأعلى للقوات المسلحة يومي ٢٥ أكتوبر و٢١ نوفمبر ١٩٧٣، واستمراره في العمل في مكتبه بالمركز (١٠). والتغيير الوحيد الذي جد على الموقف أنه انطوى على نفسه داخل مكتبه، وأصبح لا يتدخل في شئون العمل بالقيادة إلا إذا طلب منه ذلك. وقد نفى الشاذلي ما ذكره السادات عن عزله من منصبه يوم ٢١ أكتوبر، فسجل في الصفحة ٢٩٥ من مذكراته ما يلي بالحرف:

« لو أن السادات قال بدلا من ذلك إنني نويت أن أعزله لكان أقرب إلى الصدق منه إلى الكذب، لأن العزل معناه ألا يمارس الشخص أي عمل بعد عزله، ولكن الحقيقة كانت غير ذلك. فقد مكثت أمارس عملي حتى يوم ١٢ ديسمبر». ومن الثابت أن السادات عقب الأزمة التي وقعت في المركز ١٠ عقب عودة الشاذلي مساء يوم ٢٠ أكتوبر من قيادة الجيش بالإسماعيلية وطلب سحب بعض القوات من شرق القناة إلى غربها لمواجهة

التهديد الإسرائيلي، لم يكف عن مهاجمة الشاذلي وانتقاد تصرفاته خلال الحرب سواء في مجالسه الخاصة أو في بعض أحاديثه الصحفية، حتى عندما كان الشاذلي لا يزال من الناحية الرسمية رئيسا للأركان.

وكانت أحاديثه وتلميحاته فيما بعد الحرب، تدل بما لا يقبل الشك أنه يريد تحميله شخصيا مسئولية التعامل الخاطئ مع ثغرة الاختراق الإسرائيلية في الدفرسوار. وليس أدل على ذلك من حرصه الدائم على أن يسجل في كل أحاديثه الصحفية التي نشرت، وفي خطبه الرسمية التي أذيعت، وفي مذكراته التي صدرت، أنه قد أرسل الشاذلي إلى الإسماعيلية يوم ١٦ أكتوبر للتعامل مع الثغرة، رغم أنه كان يعلم علم اليقين أن الشاذلي كان في هذا اليوم في القاهرة، وأنه لم يتوجه إلى الإسماعيلية سوى يوم ١٨ أكتوبر، ولكن غرضه الخفي من ذلك كان أن يثبت أن الشاذلي بسبب تصرفاته الخاطئة قد مكن الإسرائيليين من توسيع الثغرة، وأن يحمله وحده مسئولية الفشل في تصفيتها يوم ١٦ أكتوبر رغم سهولة هذه العملية في ذلك التوقيت.

ونود في هذه المناسبة أن نوضح للقراء أن القوة الإسرائيلية التي عبرت من شرق القناة إلى الضفة الغربية ليلة ١٥/ ١٦ أكتوبر، كانت قوة ضعيفة تتكون من لواء مشاة من المظلات بقيادة العقيد داني مات و(٣٠) دبابة وبعض العربات المدرعة ذات نصف الجنزير من اللواء المدرع بقيادة العقيد حاييم، وكلها تابعة للفرقة المدرعة بقيادة الجنرال أريل شارون. وكان القضاء عليها وتصفيتها عملية سهلة في بادئ الأمر، فقد ظلت القوة الإسرائيلية غرب القناة معزولة عن قواعدها شرق القناة ما يقرب من ٤٠ ساعة، وبدون أي تعزيزات إضافية لقوتها بناء على تعليمات الجنرال حاييم بارليف، انتظاراً لإقامة الجسور الثابتة عبر القناة. ونظرا لسوء الموقف التكتيكي لهذه القوة، فكر بعض القادة الإسرائيليين المسئولين عدة مرات في سحبها وإعادتها ثانية إلى الضفة الشرقية للقناة، خوفا عليها من الإبادة.

ولا يعني نفينا لوجود الفريق الشاذلي في مقر قيادة الجيش الثاني بالإسماعيلية يوم ١٦ أكتوبر - تصحيحا للتاريخ - أننا نقصد إثبات أنه لم يكن من ضمن المسئولين عن التعامل الخاطئ مع ثغرة الاختراق الإسرائيلية، التي اتسعت بسبب أخطاء القيادات المصرية، واستفحلت إلى الدرجة التي لم تكن تخطر على بال أحد من القادة الإسرائيليين، حتى في أكثر أحلامهم تفاؤلا وأشدها جنونا. إن الشاذلي وغيره من القادة سواء في مقر قيادة الجيش الثاني بالإسماعيلية أو في بعض التشكيلات والوحدات التابعة لقيادته، أو في مقر

القيادة العامة بالمركز ١٠ بالقاهرة، مسئولون بحكم مراكزهم القيادية عن نجاح هذه المغامرة الإسرائيلية المتهورة هذا النجاح المذهل، بينما لو كان قد تم التعامل معها بطريقة سليمة ووفقا للمبادئ التكتيكية الصحيحة لكان من المؤكد فشلها.

ماذا بيت السادات للشاذلي؟

لم تمض سوى أربعة أيام فقط على الصدام الذي وقع في المركز (١٠) ليلة ٢٠/ ٢١ أكتوبر، حتى وقع صدام آخر عنيف بين الفريق الشاذلي والفريق أول أحمد إسماعيل. فقد اجتمع المجلس الأعلى للقوات المسلحة برئاسة أحمد إسماعيل يوم ٢٥ أكتوبر لأول مرة منذ نشوب الحرب، وكان الموضوع الرئيسي الذي جرت مناقشته في الاجتماع، هو بحث إمكانية فتح محور طريق السويس، ليكون طريقا لإمداد فرقتي النسق الأول للجيش الثالث المحاصرتين شرق القناة (الفرقة ١٩ مشاة بقيادة العميد أ.ح يوسف عفيفي، والفرقة ٧ مشاة بقيادة العميد أ. ح أحمد بدوي) علاوة على السكان المقيمين بمدينة السويس. ونظرا لعدم إمكان الوصول إلى حل عملي، فقد انفض الاجتماع على أساس إجراء الدراسات اللازمة بطريقة عاجلة، إذ إن حصار الجيش الثالث ومدينة السويس، كانا أخطر أزمة تواجهها القيادتان السياسية والعسكرية عقب إيقاف القتال.

وفي الساعاة الحادية عشرة صباح يوم ٢٦ أكتوبر، حضر العميد أ.ح عبد العزيز قابيل قائد الفرقة ٤ المدرعة إلى المركز ١٠ يعرض نتيجة دراسته. وكانت النتيجة التي انتهى إليها العميد قابيل في تقريره، هي استحالة فتح الطريق لعدم توافر الوحدات الكافية، والتي تستلزمها هذه العملية، نظرا لأنها تحتاج إلى تأمين منطقة مقدارها ٥ كيلو مترات جنوب وشمال هذا الطريق، إذ كلما استولت قوات الفرقة على هيئة أرضية تسيطر على منطقة لابد من تسليمها إلى قوات أخرى لكي تحتلها وتسيطر عليها، وهو الأمر الذي يحتاج إلى تخصيص فرقة مشاة كاملة إلى جانب الفرقة ٤ المدرعة لكي تقوم بالسيطرة على هذه الهيئات الأرضية حتى قناة السويس. وعندما شعر العميد قابيل بأن الفربق أحمد إسماعيل لا يبدو عليه الاقتناع بما ورد في الدراسة التي تضمنها تقريره، قال له في انفعال: «إنني وضباط وجنود الفرقة جميعا مستعدون للقيام بهذه العملية الانتحارية، ولكني لا أعتقد أننا سننجح في فتح الطريق إلى القوات المحاصرة بعد ذلك كله. وإذا دمرت هذه الفرقة فسيكون الطريق مفتوحا أمام العدو إلى القاهرة».

وعندما أدرك أحمد إسماعيل حقيقة الوضع، خطرت له فكرة أشد في غرابتها وأصعب في تنفيذها من الفكرة الأولى وهي أن تتولى الفرقة ٤ المدرعة حماية أرتال إدارية تتحرك من القاهرة إلى الجيش الثالث عبر المسالك والدروب الثانوية غير المطروقة. وكانت الفكرة الجديدة لا يمكن تنفيذها من الناحية الواقعية، إذ إن إمدادات القوات المحاصرة لمدة يوم واحد ـ وفقا للكميات التي قدرت ـ تحتاج إلى ١٠٠ عربة مجنزرة على الأقل ليمكنها التحرك عبر الأراضي المفتوحة الوعرة ومجاري السيول، التي لابد أن تمر في النهاية خلال المناطق التي يسيطر عليها العدو غرب القناة. ونظرا للتفوق الجوي الإسرائيلي، فقد كان من المنتظر اكتشاف هذه التحركات، وتدمير الأرتال الإدارية والدبابات التي تتولى حمايتها.

ورغم اعتراض الشاذلي على هذه الفكرة التي اقترحها القائد العام، والتي اعتبرها من وجهة نظره مغامرة من المؤكد فشلها، ولن تؤدي إلا إلى تدمير الفرقة ٤ المدرعة، فإن أحمد إسماعيل لم يكتف بالإصرار على تنفيذ فكرته، بل طلب من الشاذلي أن يصدر أمرا كتابيا إلى قائد الفرقة بتنفيذ هذه المهمة. وعندما رفض الشاذلي إصدار مثل هذا الأمر، رد عليه أحمد إسماعيل بغضب: «أنا لا أفهم ما تريد بالضبط؟ هل تريد لهؤلاء الرجال المحاصرين أن يستسلموا؟». وأجابه الشاذلي على الفور: «أنا لا أريد ذلك بالطبع، ولكن في الوقت نفسه لا أريد أن نفقد الفرقة الرابعة المدرعة دون أن يحدث أي تغيير في الموقف». فرد أحمد إسماعيل في تحد: «إذا لم توقع على الأمر للفرقة الرابعة لتنفيذ هذه المهمة، فسوف أقوم بإخطار الرئيس بذلك»، وأجابه الشاذلي في هدوء: «يمكنك أن تفعل ذلك بكل تأكيد». ولم يجد أحمد إسماعيل مناصا من أن يوقع الأمر بنفسه ومن أن يسلمه إلى العميد قابيل.

ومن حسن الحظ أن هذه المهمة الانتحارية قد تم إلغاؤها بسبب الاقتناع أخيرا باستحالة تنفيذها من جهة، ولأن الدولتين العظميين من جهة أخرى تدخلتا في هذا الموضوع تدخلا مباشرا، وقامتا بالضغط على إسرائيل حتى اضطرت أخيرا إلى الإذعان. وفي ١١ نوفمبر ٧٣ وعقب توقيع اتفاقية النقاط الست بين مصر وإسرائيل في محادثات الكيلو متر ١٠١، تقرر السماح لقوافل الإمدادات التي لا تحمل مواد عسكرية بالوصول إلى الجيش الثالث شرق القناة، وإلى مدينة السويس.

وفضلا عن هذا الصدام الذي جرى بين الشاذلي وأحمد إسماعيل، بدأ السادات قبل

أن يمر شهر واحد على وقف إطلاق النار في الكشف عن نواياه المبيتة تجاه الشاذلي، وهي محاولة تحميله وحده مسئولية التعامل الخاطئ مع ثغرة الاختراق، مما أدى إلى حصار الجيش الثالث ومدينة السويس. وقد سجل الشاذلي وفي الصفحة٢٩٣ من مذكراته ما يثبت هذا الرأي فقال:

«في يوم ٢١ نوفمبر ٧٣ وأثناء اجتماع المجلس الأعلى للقوات المسلحة برئاسة السادات، وخلال الاجتماع وبطريقة عفوية، قال الرئيس وهو يستعرض أحداث الحرب «إنها ليلة واحدة هي السبب في المشكلات كلها التي حدثت. تلك هي ليلة ١٨/ ١٩ أكتوبر. لو أننا عملنا بحسم وقوة خلال تلك الليلة لقضينا على الثغرة. إنها تلك الليلة التي كنت فيها يا سعد في الجيش الثاني». لقد فهمت بسرعة ماذا يقصد الرئيس من وراء هذا، وتعجبت لماذا يختار هذه الليلة بالذات. تدخلت بسرعة قائلا: «سيادة الرئيس لقد بذل رجال الجيش الثاني أقصى ما يمكن عمله خلال تلك الليلة». فرد قائلا: «بعد أن تنتهي الحرب سوف نقوم بتحقيق لتحديد المسئولية عن عملية اختراق الدفرسوار». فقلت له بصوت لم أستطع أن أخفي ما فيه من ثقة وتحد: «فعلا يجب أن نحدد من هو المسئول!!». وبعد أن انتهى الاجتماع رافقته أنا والوزير إلى عربته كما هي العادة.

وبعد أن غادر الرئيس مبنى القيادة، وفي أثناء عودتنا إلى الداخل، قال لي الوزير: «كيف تخاطب الرئيس بهذا الشكل؟ ولماذا تأخذ كلام الرئيس على أنه اتهام لك؟ هل أنت قائد الجيش الثاني؟ إذا كانت هناك مسئولية فهي مسئولية الجيش الثاني». قلت له: «إن مجرد وجودي في الجيش الثاني يجعلني مسئولا عن كل ما يقوم به الجيش من أعمال. لقد وافقت وشاركت في كل قرار اتخذ في الجيش، خلال الأربع والعشرين ساعة التي عشتها معه».

وبعد أن انفض الاجتماع، استدعيت اللواء عبد المنعم خليل قائد الجيش الثاني، وقلت له: يا عبد المنعم إني أشم رائحة الخيانة والغدر. يبدو أنهم يبحثون عن شخص يلقون عليه أوزار أخطائهم كلها. كن حذرا وحافظ على وثائق الجيش حتى لا يقوم أحد بسرقتها أو تزويرها». انتهت أقوال الشاذلي.

لماذا الإصرار على تزوير التاريخ؟

إن السر الغامض الذي ما زال ينتظر من يكشف عنه الستار حتى اليوم، هو اتفاق السادات في كتابه«البحث عن الذات» والشاذلي في «مذكراته» على أن الشاذلي عاد من

الإسماعيلية مساء يوم ١٩ أكتوبر ٧٣ على الرغم من أن كليهما على يقين من أن عودته كانت مساء يوم ٢٠ أكتوبر. ولا يمكن بالطبع أن تكون المصادفة وحدها قد لعبت دورها في هذا الخطأ المتعمد من الطرفين. ولذا فإن الأمر المنطقي أن كلا منهما كان يرمي من وراء ذلك التغيير المقصود إلى هدف خفي يحقق له مزية معينة يعلمها وحده على سبيل اليقين. ورغم أن الخطأ في تغيير التاريخ كان واحدا بالنسبة للطرفين، إلا أنه من المؤكد أن الهدفين بالنسبة لهما مختلفان. إن الفريق الشاذلي الذي اشتهر بالدقة والنظام، لا يمكن أن نصدق أن الأمر قد اختلط عليه، فلم يعد يعرف إن كان قد أمضى في الإسماعيلية ليلة أو ليلتين، ولم يعد يدري إن كان قد تولى قيادة الجيش الثاني لمدة ٢٤ ساعة، أو لمدة ٤٤ ساعة خاصة في ظل الوقائع الخطيرة والأحداث المريرة، التي وقعت خلال توليه مسئولية قيادة هذا الجيش، والتي بالتأكيد سوف تظل محفورة في ذاكرته إلى آخر يوم في حياته.

ومادام قد سجل في مذكراته التاريخ الصحيح لذهابه إلى الإسماعيلية، وهو يوم ١٨ أكتوبر، فلماذا يخطئ يا ترى في تسجيل التاريخ الصحيح لعودته؟ ومن المعروف أن الشاذلي كان من عادته ـ خاصة أيام الحرب ـ أن يحمل معه مفكرة صغيرة يسجل فيها أهم ما يصادفه من أحداث، وما يجريه من اتصالات ولقاءات، وما يقوم به من خواطر وأفكار، لكي يستعين بها بعد ذلك في تدوين مذكراته الخاصة. وقد ثبت بالفعل أنه دون هذه المذكرات، لأنه أصدرها بعد حرب أكتوبر بحوالي سبع سنوات في كتاب عن طريق إحدى دور النشر العربية، وذلك في باريس عام ١٩٨٠.

وقد اعترف الشاذلي في الصفحة ٢٨٦ من مذكراته بأنه في يوم ١٢ ديسمبر ٧٣، ونظرا للشكوك التي كانت تساوره عما يدور حوله، أخذ معه قبل أن يغادر المركز ١٠ كل أوراقه المهمة ومذكراته الخاصة، ونقلها إلى منزله. وقد اتضح له بعد ذلك أن شكوكه كانت في محلها. فقد استدعاه أحمد إسماعيل في تلك الليلة إلى مكتبه بالوزارة، وأبلغه قرار رئيس الجمهورية بتنحيته عن منصب رئيس الأركان، وتعيينه سفيرا بوزارة الخارجية. وعبر الشاذلي عن ابتهاجه عندما ذهب إلى مكتبه بالمركز (١٠) بعد بضعة أيام، ليجمع ما تبقى من أوراقه التي لم يكن لها في نظره أي أهمية، فاكتشف أنه قد تم الاستيلاء عليها. وبهذا الاعتراف لا يستطيع الشاذلي الادعاء بأنه أخطأ في تحديد موعد عودته من الإسماعيلية، لأن مذكراته الشخصية أو أوراقه قد اختفت.

إن سجلات الحرب ووثائقها، وشهادات القادة الذين حضروا مع الشاذلي في أثناء وجوده بمقر قيادة الجيش الثاني بالإسماعيلية، تجمع على أنه غادر الإسماعيلية حوالي

الساعة الواحدة والنصف بعد ظهر يوم ٢٠ أكتوبر، فلماذا إذن هذا الإصرار من الشاذلي على أنه غادرها يوم ١٩ أكتوبر؟ هل يكون السر في ذلك أنه أراد أن يقلل ما استطاع من الفترة الزمنية التي تولى خلالها مسئولية قيادة الجيش الثاني، ويقلل تبعا لذلك من حجم المسئولية التاريخية التي يتحملها عن الأحداث التي جرت في أثناء وجوده، لتصبح ٢٤ ساعة فقط بدلا من ٤٤ ساعة؟ إن الشاذلي كما رأينا عندما قال له أحمد إسماعيل، عقب انتهاء الاجتماع الذي عقده المجلس الأعلى للقوات المسلحة يوم ٢١ نوفمبر: «لماذا تأخذ كلام الرئيس على أنه اتهام لك؟ هل أنت قائد الجيش الثاني؟ إذا كانت هناك مسئولية فهي مسئولية الجيش الثاني»، قد رد عليه قائلا: «إن مجرد وجودي في الجيش الثاني يجعلني مسئولا عن كل ما يقوم به الجيش من أعمال، لقد وافقت وشاركت في كل قرار اتخذ في الجيش خلال الأربع والعشرين ساعة التي عشتها بينهم».

إن الحقيقة التي تثبتها سجلات الحرب بالجيش الثاني، هي أن الفريق الشاذلي حالما وصل إلى مركز القيادة المتقدم للجيش الثاني بالإسماعيلية في الساعة الخامسة مساء يوم ١٨ أكتوبر، قال لقائد الجيش اللواء أ.ح عبد المنعم خليل: «الرئيس السادات طلب مني الحضور إلى الجيش الثاني وتولى المسئولية». وفي الحال تخلى اللواء عبد المنعم عن زمام القيادة وجلس بجواره في ملجأ القيادة لمعاونته في مهمته. ومن مراجعة سجل إشارات ومكالمات الجيش الثاني، في المدة من ١٨ إلى ٢٠ أكتوبر، يتضح لنا أن الشاذلي كان هو القائد الفعلي للجيش خلال هذه المدة، وبذا لايكون ـ كما ذكر لأحمد إسماعيل ـ قد وافق وشارك فقط في القرارات التي اتخذت في أثناء وجوده، بل الصواب أنه هو وحده الذي أصدر الأوامر والتعليمات واتخذ القرارات ليس فقط خلال الأربع والعشرين ساعة التي عاشها بالجيش الثاني، بل خلال الأربع والأربعين ساعة التي عاشها هناك.

ومن العجيب أن الأحداث المثيرة التي جرت في المركز(١٠) عقب عودة الشاذلي من الإسماعيلية مساء يوم ٢٠ أكتوبر، قد أصر الرئيس الراحل السادات هو الآخر على تغيير موعدها، فسجل في كتابه «البحث عن الذات» أنها وقعت مساء يوم ١٩ أكتوبر. ولسنا في حاجة إلى أن نعيد سرد هذه الأحداث مرة أخرى، فقد سبق لنا نشر تفاصيلها نقلا عن أقوال السادات والشاذلي. إن فقرة واحدة هي التي يهمنا أن نعيد نشرها من أقوال السادات، إذ ربما تكشف لنا السر الذي نريد التوصل إليه بشأن هذه الظاهرة العجيبة التي شهدناها.. ظاهرة تغيير التواريخ وتبديل المواعيد. يقول السادات في هذه الفقرة ما يلي: «بعد ما اتضح لي الموقف جمعت القادة كلهم، وكان معي الفريق أحمد اسماعيل

القائد العام والفريق الجمسي قائد العمليات والفريق حسني مبارك والفريق محمد علي فهمي قائد سلاح الصواريخ، وكانوا جميعا من رأيي، وهو أنه لم يحدث شيء يستدعي القلق، فأعطيت الأمر الذي أعتبره أهم من قرار ٦ أكتوبر بألا ينسحب جندي واحد ولا بندقية واحدة ولا أي شيء على الإطلاق من شرق القناة، وأنه علينا أن نتعامل مع الغرب حسب الأوضاع الموجودة». إن السر في التغيير الذي أجراه السادات في موعد عودة الشاذلي من الإسماعيلية، ليست له أي علاقة بشخص الشاذلي نفسه، وإنما يتعلق بالأحداث التي جرت في المركز (١٠) بعد وصول الشاذلي من الإسماعيلية، والتي يهم السادات لغرض في نفسه، أن يسجل أنها جرت في ساعة متأخرة من يوم ١٩ أكتوبر.

إن عبارة واحدة فقط في هذه الفقرة هي التي تكشف لنا الستار عن ذلك اللغز الغامض، الذي نتلهف جميعا للوصول إلى مكنون سره. هذه العبارة هي أن الأمر الذي أعطاه السادات بعد اجتماعه والقادة في المركز (١٠) بألا ينسحب جندي واحد ولا بندقية واحدة من شرق القناة، وأن نتعامل مع الغرب حسب الأوضاع الموجودة، كان من وجهة نظره أهم من قرار الحرب في ٦ أكتوبر. ولا شك في أن من يعلم مدى الفخار الذي يشعر به السادات بسبب إصداره قرار الحرب في ٦ أكتوبر، والذي يعتبر بلا شك أشجع قرار كان يمكن لأي رئيس مصري أن يتخذه، يمكن أن يدرك على الفور مقدار الفخر والاعتزاز الذي كان السادات يشعر بهما نحو قراره، بعدم سحب جندي واحد ولا بندقية واحدة من شرق القناة.

وبسبب هذا القرار الشجاع الذي اعتبره السادات أهم وأعظم من قرار الحرب في ٦ أكتوبر، اهتم السادات بالطبع أشد الاهتمام بألا يشوب هذا القرار أي شائبة تقلل من عظمته، أو تضعف من أهميته، أو تنقص من مقداره. إن صدوره يوم ١٩ أكتوبر يحقق له بلا شك كل هذه المعاني السامية، ويسجل للسادات في التاريخ مجدا ثانيا بعد المجد الأول، الذي ناله عن جدارة بقرار الحرب في ٦ أكتوبر. أما إذا ذكرت الحقيقة وعرف الناس أن هذا القرار صدر في ليلة ٢٠/ ٢١ أكتوبر، فالأمر عندئذ يختلف، فلسوف يخبو المجد وسوف تتضاءل العظمة، إذ إن ذلك يعنى أن السادات قد اتخذ هذا القرار، وهو يعلم أن الدكتور هنري كيسنجر وزير الخارجية الأمريكي موجود في هذا الوقت في موسكو. لقد سافر كيسنجر صباح يوم ٢٠ أكتوبر بالطائرة من واشنطن إلى العاصمة السوفيتية، بناء على طلب وجهه الرئيس السوفيتي بريجنيف إلى الرئيس الأمريكي ريتشارد نيكسون يوم ١٩ أكتوبر، لكي يرسل وزير خارجيته إلى موسكو. وقد

وافق نيكسون على هذا الطلب، وأرسل كيسنجر في اليوم التالي لكي يلتقي بالرئيس السوفيتي. وأبلغ السفير السوفيتي بالقاهرة الرئيس السادات يوم ٢٠ أكتوبر بأمر المحادثات التي يجريها بريجنيف وكيسنجر في موسكو، للاتفاق على مشروع أمريكي سوفيتي مشترك بوقف إطلاق النار لتقديمه بصورة عاجلة إلى مجلس الأمن لإصداره. وقد اجتمع مجلس الأمن بالفعل مساء يوم ٢١ أكتوبر، وأصدر القرار رقم ٣٣٨ في الساعة السابعة من صباح يوم ٢٢ أكتوبر بتوقيت شرق البحر المتوسط بوقف إطلاق النار في الساعة السادسة والدقيقة الثانية والخمسين من مساء نفس اليوم.

وقد سجل السادات في الصفحتين ٢٧٤ و٢٧٥ من كتابه «البحث عن الذات» الخطوات المهمة التي اتخذها بعد اجتماعه مع القادة، وعقب عودته من المركز (١٠) إلى قصر الطاهرة، فقال ما يلي: «في هذه الليلة اتخذت القرار بوقف إطلاق النار، فقد كان لي عشرة أيام أحارب فيها أمريكا وحدي. في يوم ١٩ أكتوبر بعد اجتماعي بالقادة، عدت إلى قصر الطاهرة وبدأت في الحال تنفيذ قراري. طلبت منهم أن يستدعوا لي السفير السوفيتي، وإلى أن حضر كتبت برقية إلى الرئيس الأسد قلت فيها إنني قبلت وقلبي ينزف دما وقف إطلاق النار، لأني مستعد أن أحارب إسرائيل مهما طال الوقت، لكنني غير مستعد على الإطلاق لمحاربة أمريكا، كما أني لا أسمح بأن تدمر قواتي المسلحة مرة أخرى، أو أن يدمر شعبنا ومنشآته. وفي آخر البرقية قلت له: إنني مسئول عن هذا القرار يحاسبني عليه الشعب في مصر وتحاسبني عليه أمتنا العربية.

وجاء السفير السوفيتي فقلت له: «لقد قبلت وقف إطلاق النار على الخطوط الحالية». واستأنفت حديثي مع السفير وقلت له: «الدولتان العظميان يجب أن تضمنا وقف إطلاق النار، والتنفيذ الفوري للقرار٢٤٢».

إن العبارات التي تضمنتها الفقرة السابقة لا تدع مجالا للشك في استحالة وقوعها يوم ١٩ أكتوبر كما سجل السادات، إذ إن قرار وقف إطلاق النار ليس قرارا داخليا محليا لا يحتاج اتخاذه إلا لأمر يصدره السادات، كما يفهم من قوله أنه اتخذ القرار وبدأ في تنفيذه في الحال، إذ إن مثل هذا القرار يرتبط بالموقف الدولي وبموقف القوتين العظميين، وبمدى استعداد إسرائيل للخضوع للقرار. ولم يكن أمرا منطقيا أن يتعجل السادات ويرسل برقية إلى شريكه في الحرب الرئيس السوري حافظ الأسد - قبل وصول السفير السوفيتي - ليخطر الرئيس الأسد بقبوله وقف إطلاق النار إلا وهو على ثقة كاملة بأن مجلس الأمن يوشك أن

يصدر قراره بوقف إطلاق النار، وأن إسرائيل سوف تتقبل هذا القرار، وإلا ماذا كان سيصبح موقفه أمام الرئيس السوري لو أرسل البرقية ثم فشلت مساعيه من أجل وقف إطلاق النار؟

إن العبارة التي قالها السادات للسفير السوفيتي تفسر الموقف بوضوح. فقد قال له حال وصوله إنه قبل وقف إطلاق النار على الخطوط الحالية وعلى القوتين العظميين ضمان ذلك. ولا تعني هذه العبارة سوى أن السادات يوافق على عرض سبق تقديمه إليه على مشروع مشترك اتفقت عليه الدولتان العظميان لوقف إطلاق النار. إن هذه الأحداث كلها لا يمكن وقوعها إلا بعد وصول كيسنجر إلى موسكو، وما دام كيسنجر لم يصل بطائرته إلى موسكو إلا مساء يوم ٢٠ أكتوبر، فتكون كل الأحداث التي جرت في المركز (١٠) ثم في قصر الطاهرة قد جرت ليلة ٢٠/ ٢١ أكتوبر على وجه اليقين.

ما القوات التي طالب الشاذلي بسحبها؟

كانت نقطة الخلاف الأساسية التي تسببت في الأزمة الحادة التي تفجرت بين الرئيس الراحل السادات، والفريق سعد الشاذلي، رئيس الأركان ليلة ٢٠/ ٢١ أكتوبر، هي الاقتراح الذي تقدم به الشاذلي إلى القائد العام الفريق أول أحمد إسماعيل عقب عودته من الإسماعيلية مساء يوم ٢٠ أكتوبر عندما اجتمعا معا في المركز (١٠) لبحث الموقف المتدهور غرب القناة، وكان مضمونه هو سحب بعض القوات من شرق القناة إلى الغرب لمواجهة التهديد الإسرائيلي غرب القناة.

إن هذا الخلاف الحاد الذي جرى في المركز (١٠) لم يكن في واقع الأمر سوى صراع بين وجهتي نظر مختلفتين: إحداهما وجهة نظر عسكرية كان يمثلها الفريق الشاذلي، وكان هدفها التعامل مع الموقف من منظور عسكري بحت، وهو سرعة تكوين احتياطي غرب القناة للقيام بهجوم مضاد عاجل على قوات العدو المدرعة غرب القناة لتدميرها، وبهذا تتم تصفية ثغرة الاختراق الإسرائيلية أو على أسوإ الفروض حصرها وتضييق نطاقها.

وكانت الثانية وجهة نظر سياسية كان يمثلها الرئيس الراحل السادات، وكان هدفها التعامل مع الموقف من منظور سياسي بحت، وهو ضرورة بقاء كل جندي وكل سلاح تم عبوره إلى شرق القناة في مكانه - مهما حدث غرب القناة - لتكون القوات المصرية شرق القناة بمثابة ورقة رابحة في يد المفاوض المصري خلال المفاوضات السياسية الوشيكة

الوقوع، لحل مشكلة الشرق الأوسط، وفقا للوعود الأمريكية التي تلقاها الرئيس. . وكانت هذه النظرية تتماشى تماما مع المقولة المأثورة عن الرئيس، والتي كان يرددها دائما أمام القادة المصريين خلال اجتماعاته معهم قبل الحرب، وهي أنه لو أمكنهم عبور القناة والسيطرة ولو على متر واحد فقط شرقها، لأمكنه تحريك الموقف الذي تجمد وحل القضية سياسيا.

ومما يؤسف له أن هذا الخلاف بين وجهتي النظر تحول من محض خلاف عادي بين رأيين، كان كل منهما يعتقد أنه على صواب إلى عداء شخصي عنيف، انقلب في آخر الأمر إلى تراشق حاد بالتهم بشكل لم يسبق له مثيل. وتبعا لذلك، حاول السادات في جميع خطبه التي أذيعت وأحاديثه التي نشرت عن حرب أكتوبر، اتهام الشاذلي بأنه كان يريد سحب جميع القوات المصرية التي في شرق القناة إلى الغرب. ويبدو هذا بوضوح في الصفحة ٢٧٣ من كتابه «البحث عن الذات»، فقد ذكر فيها ما يلي بالحرف:

«في يوم ١٩ أكتوبر (التاريخ الصحيح هو ٢٠ أكتوبر، كما أثبتنا ذلك بالدليل القاطع في الصفحات السابقة) عاد الشاذلي منهاراً، وقال لابد أن نسحب قواتنا في شرق القناة لأن الغرب مهدد، وكان هذا لو تم هو مايريده الإسرائيليون». وقد نفي الشاذلي هذا الاتهام نفيا باتا، فذكر في الصفحة ٢٦٨ من مذكراته ما يلي بالحرف: «يدعي السادات في مذكراته أنني عدت من الجبهة منهارا يوم ١٩ أكتوبر، وأنني طالبت بسحب قواتنا في شرق القناة لأن الغرب مهدد، ويؤسفني أن أقول إن هذا ادعاء رخيص. لقد كنا تسعة أشخاص (يقصد السادات، وأحمد إسماعيل، وعبد الفتاح عبد الله، وسعد الشاذلي، ومحمد علي فهمي، وحسني مبارك، وعبد الغني الجمسي، وسعيد الماحي، وفؤاد نصار) مات واحد (كان يقصد المرحوم أحمد إسماعيل، ولكن مات أيضا عقب نشر مذكرات الشاذلي عام ١٩٨٠ الرئيس الراحل السادات والمرحوم عبد الفتاح عبد الله وزير شئون رئاسة الجمهورية وقتئذ والذي حضر الاجتماع برفقة السادات)، وإني أتحدى إذا كان أحد من هؤلاء الأحياء يستطيع أن يشهد بصدق ما يدعيه السادات. لقد طالبت حقا بسحب جزء من قواتنا في الشرق إلى الغرب».

ولقد حدد الشاذلي بدقة ووضوح القوات التي كان يطالب بسحبها من شرق القناة إلى الغرب في فقرتين من مذكراته، فقال في الصفحة ٢٦٦ ما يلي: «كان من رأيي أن سحب هذه الألوية المدرعة الأربعة من الشرق في خلال الأربع والعشرين ساعة التالية، لن يؤثر

في سلامة خطوطنا و مواقعنا في الشرق، وسوف يزيد من قدرتنا على مقابلة تهديد العدو لنا في الغرب» . وعاد في الصفحة ٢٩٧ من مذكراته فحدد بأسلوب أكثر دقة الألوية الأربعة التي يقصدها فقال : «لو أن السادات وافق على اقتراحي بسحب هذه الألوية الأربعة ـ ثلاثة من الجيش الثاني بالشرق وواحد من الجيش الثالث في الشرق ـ في ليلة ١٩/ ٢٠ أكتوبر، لظهر أثر ذلك في القتال صباح يوم ٢١ أكتوبر، ولكان في إمكاننا ضرب الثغرة يوم ٢١ و ٢٢ أكتوبر، وفي أسوإ الظروف يمكن تضييقها . ولو حدث وتوقف القتال وتلك الألوية الأربعة حول الثغرة ، لما استطاع العدو أن ينتهك وقف إطلاق النار يوم ٢٣ أكتوبر، ولو انتهكه لكنا قادرين على صده وتدميره. إن مسئولية حصار الجيش الثالث يوم ٢٣ أكتوبر تقع أولا وأخيرا على الرئيس السادات، وهو يحاول أن يهرب منها، ولكن هيهات هيهات» .

وإذا ما ناقشنا الأقوال التي سردناها آنفا والتي أوردها السادات والشاذلي في مذكراتهما، فسوف نكتشف على الفور مدى ما ألحقته العداوة والخصومة الشخصية المتبادلة بينهما من أضرار بالغة بالطرفين. فلقد تبارى كل منهما في أن يكيل للآخر سيلا من التهم والانتقادات المريرة عن تصرفاته في أثناء حرب أكتوبر، خاصة في المرحلة الأخيرة منها عقب حدوث ثغرة الاختراق في الدفرسوار وبعد العبور الإسرائيلي إلى الضفة الغربية للقناة. ولا شك في أن بعض هذه التهم باطلة من أساسها ولا سند لها من الواقع، وليست إلا محض افتراءات ظالمة. فليس من المعقول أن يطالب الشاذلي رغم ما يتمتع به من خبرة فنية وثقافة عسكرية متميزة بسحب جميع القوات المصرية من مواقعها الحصينة في شرق القناة إلى الغرب ليلقى بها في العراء على الضفة الغربية للقناة كي تصبح صيدا سهلا لا تلبث أن تفتك به القوات المدرعة الإسرائيلية، وكي تغدو فريسة سائغة للطيران الإسرائيلي الذي كان يملأ سماء المنطقة وقتئذ فيتم له تدميرها وتشتيت شملها. إن أي فرد ـ سواء كان مدنيا أو عسكريا ـ لديه أي قدر من التفكير المنطقي، لا بد أن يدرك أن سحب القوات المصرية بأكملها (من أفراد ودبابات وعربات وذخائر وأسلحة ومعدات) من شرق القناة، في ظل الظروف العسكرية المتحرجة وقتئذ، وفي ظل السيطرة الجوية الإسرائيلية، كان لا يعني إلا تعريض هذه القوات لخطر الانهيار التام، وتحويل عملية سحبها من الشرق إلى الغرب إلى حالة عارمة من الذعر والفوضى، مما لابد أن ينتهي بهزيمة شائنة أثقل وطأة وأشد هولا من هزيمة يونيو ١٩٦٧ .

وفي نفس الوقت، فإننا نرى أنه من الظلم والإجحاف أيضا أن يلقي الشاذلي بمسئولية

حصار الجيش الثالث على عاتق السادات وحده ، وأن يعتبره المسئول الأول والأخير عنها كما ورد في أقواله . ولا شك في أن السادات باعتباره ممثلا للقيادة السياسية ، يتحمل جانبا من هذه المسئولية ، ولكن لا يمكن بالطبع إعفاء القيادة العسكرية من مسئوليتها الجسيمة ، إذ إنها هي التي كانت تخطط وتدير العمليات الحربية ، وتتخذ القرارات وتصدر الأوامر والتعليمات للقيادات والتشكيلات .

بقي أن نناقش الاقتراح الذي تقدم به الشاذلي عقب عودته من الاسماعلية يوم ٢٠ أكتوبر ، والذي كان سببا في إثارة تلك الأزمة الحادة التي نشبت في المركز (١٠) ، والتي انتهت بتنحيته عن رئاسة الأركان . إن الشاذلي وفقا لما ورد في مذكراته اقترح سحب أربعة ألوية مدرعة من شرق القناة إلى الغرب ، لمواجهة القوات المدرعة الإسرائيلية ، التي اندفعت من ثغرة الاختراق بالدفرسوار واتجهت شمالا على محور الإسماعيلية وجنوبا على محور السويس . إن فكرة سحب بعض الألوية المدرعة من شرق القناة إلى الغرب من الوجهة التكتيكية هي فكرة سليمة بلا شك من حيث المبدأ ـ بصرف النظر عن إمكان تحقيقها من الناحية الواقعية أو تعذر تنفيذ ذلك ـ إذ إنها أسلوب من أساليب استخدام القوات المدرعة ومحاولة لاستغلال خصائصها الأساسية ، وهي خفة الحركة والقدرة على المناورة . ولا يمكن أن نعتبر أن سحبها إلى الغرب يعد انسحابا ، ما دام ذلك سوف يتم تحت السيطرة الكاملة ودون تدخل من العدو .

لقد كان أحد العوامل الرئيسية في الاعتراض على اقتراح الشاذلي هو الخشية من أن يتحول السحب إلى انسحاب مذعور ، بسبب ما سوف تحدثه عملية السحب من خفض في الروح المعنوية لدى القوات الأخرى ، واحتمال إساءة فهم الغرض منها ، مما قد يدفع باقي القوات إلى محاكاتها ، ومحاولة العبور بالتالي إلى الغرب ، وهو الأمر الذي لابد أن يؤدي في النهاية إلى الفوضى والانهيار . لكن هذا الاعتراض مردود عليه ، فلقد تم بالفعل سحب بعض الوحدات من قطاع الجيش الثالث من الشرق إلى الغرب لتقاتل ضد العدو غرب القناة مع تشكيلاتها الأصلية ، ورغم ذلك لم يحدث أي انهيار أو فوضى بالنسبة لباقي القوات ، لأن عملية السحب تمت بنظام وتحت السيطرة . لقد عبر اللواء الأول مشاة ميكانيكي الذي كان متمركزا في قطاع الفرقة ١٩ مشاة إلى غرب القناة صباح يوم ٢٠ أكتوبر للانضمام إلى تشكيله الأصلي (الفرقة ٦ مشاة ميكانيكية) ، وفي يومي ١٩ و٢٠ أكتوبر عبر أيضا اللواء الثالث المدرع الذي كان يعمل كاحتياطي في يد قائد الجيش الثالث شرق القناة إلى الغرب للانضمام إلى تشكيله الأصلي(الفرقة ٤ المدرعة) ، كما عبرت يوم

٢٢ أكتوبر كتيبة مدرعة من اللواء ٢٢ المدرع الذي كان تحت قيادة الفرقة ١٩ مشاة إلى الغرب للانضمام إلى تشكيلها الأصلي(الفرقة ٦ مشاة ميكانيكية)، فهل بعد ذلك يحتاج الأمر إلى دليل أو إلى شرح أو بيان؟

ولقد اتضح أن القيادة الجنوبية الإسرائيلية قد لجأت هي الأخرى إلى نفس الأسلوب، الذي كان يقترحه الشاذلي، وهو سحب بعض القوات من ضفة القناة إلى الضفة الأخرى. ومن العجيب أن ذلك الأمر قد جرى في نفس التوقيت تقريبا، أي بعد حدوث ثغرة الاختراق والعبور الإسرائيلي إلى غرب القناة، وإن كان الاختلاف الوحيد بالطبع هو اتجاه سحب القوات، فقد كان بالنسبة للقيادة الإسرائيلية من غرب القناة إلى الشرق، ففي يوم ٢٠ أكتوبر أصدر الجنرال جونين قائد القيادة الجنوبية الإسرائيلية أمره إلى الجنرال أريل شارون قائد الفرقة المدرعة، التي كانت تعمل غرب القناة على محور الإسماعيلية بأن يسحب أحد ألويته المدرعة (لواء آمنون) من غرب القناة وأن يعبر هذا اللواء المدرع إلى الشرق، للاشتراك في الهجوم الذي سيوجه ضد رأس كوبري الفرقة ١٦ مشاة المصرية، بهدف توسيع ثغرة الاختراق شمالا حتى الطريق الأوسط (طريق الإسماعيلية شرق الطاسة).

موقف الألوية المدرعة في رأس الكوبري الموحد

عندما قامت الفرقة ١٦ مشاة (الجناح الأيمن للجيش الثاني) بقيادة العميد أ. ح عبد رب النبي حافظ بعبور قناة السويس يوم ٦ أكتوبر، كان من ضمن الوحدات الموضوعة تحت قيادتها اللواء ١٤ المدرع (أحد اللواءين المدرعين بالفرقة ٢١ المدرعة واللواء الآخر هو اللواء الأول المدرع). وكانت الفرقة ٢١ المدرعة بقيادة العميد أ.ح إبراهيم العرابي متمركزة غرب القناة جنوب ترعة الإسماعيلية، وتعمل كنسق ثان للجيش الثاني الميداني. وفي ليلة ٦/ ٧ أكتوبر، عبر اللواء ١٤ المدرع قناة السويس واحتل موقعه شرق القناة شمال سرابيوم داخل رأس كوبري الفرقة ١٦ مشاة الذي يمتد من الدفرسوار جنوبا حتى الطريق الأوسط (طريق الإسماعيلية شرق ـ الطاسة) شمالا.

وفي ليلة ١٢/ ١٣ أكتوبر عبر اللواء الأول المدرع القناة إلى رأس كوبري الفرقة ١٦ مشاة، بعد أن صدرت أوامر القيادة العامة بدفع الفرقة ٢١ المدرعة صباح يوم ١٤ أكتوبر لتطوير الهجوم شرقا على محور الطريق الأوسط للوصول إلى الطاسة، وتم اشتراك اللواءين الأول و١٤ المدرعين في عملية تطوير الهجوم كنسق أول للفرقة ٢١ المدرعة.

وعلى أثر فشل عملية التطوير بعد أن فقد اللواءان المدرعان حوالى ٥٠٪ من دباباتهما، أصدرت قيادة الجيش الثاني أوامرها مساء يوم ١٤ أكتوبر بعودة وحدات الفرقة ٢١ المدرعة إلى رأس كوبرى الفرقة ١٦ مشاة، لتدعيم الدفاع عن رأس الكوبري والقيام بعملية إعادة التجميع كي يمكن للفرقة استعادة كفاءتها القتالية. وأصدر العميد أ.ح إبراهيم العرابي أمره بتمركز اللواء الأول المدرع (أصبح عدد دباباته ٦٦ دبابة) في منطقة محطة ٣ الإسماعيلية شرق، بواجب صد الاختراق وتمركز اللوء ١٤ المدرع (أصبح عدد دباباته ٣٩ دبابة) في منطقة غرب أبو وقفة بواجب تدعيم لواء اليسار من الفرقة ١٦ مشاة.

ونظرا لأن العدو كان قد خطط للقيام بعملية عبور القناة ليلة ١٥/ ١٦ أكتوبر من منطقة الدفرسوار إلى الضفة الغربية، فقد تعرضت قوات الفرقتين ١٦ مشاة و٢١ المدرعة داخل رأس الكوبري الذي أصبح يطلق عليه اسم رأس الكوبري الموحد لقصف عنيف من مدفعية الميدان والمدفعية بعيدة المدى من عيار(١٥٥م و١٧٥م) ولغارات جوية مركزة طوال يوم ١٥ أكتوبر منذ الساعة الخامسة صباحا حتى آخر ضوء. وزاد من حجم الخسائر في الأفراد والأسلحة والمعدات، تكدس الفرقتين (المشاة والمدرعة) في رأس كوبر واحد ضيق. وكانت ساحة العبور الإسرائيلية شرق القناة عند الدفرسوار تقع على مسافة قريبة من الجنب الأيمن لرأس الكوبري الموحد حيث توجد المواقع الدفاعية للواء ١٦ مشاة من الفرقة ١٦ مشاة، ولذا كان ضمن الخطة الإسرائيلية تركيز الهجمات على مواقع اللواء ١٦ مشاة، لتدميره أو إرغامه على الانسحاب وإخلاء مواقعه بهدف تأمين ساحة العبور وتوسيع ثغرة الاختراق حتى شمال قرية الجلاء والمغذى الرئيسي.

وبعد معارك عنيفة نجح العدو في تنفيذ خطته، فقد تمكنت الدبابات الإسرائيلية من اختراق موقع اللواء ١٦ مشاة واحتلال قرية الجلاء (المزرعة الصينية) وفشلت الهجمات المضادة التي اشتركت فيها وحدات من الفرقتين ١٦ مشاة و٢١ المدرعة في استرداد قرية الجلاء. ونتيجة لاشتداد الهجمات والقصف الجوي والمدفعي على اللواء ١٦ مشاة، اضطر هذا اللواء إلى إخلاء مواقعه ليلة ١٧/ ١٨ أكتوبر، والانضمام إلى الخط الدفاعي عند المغذى الرئيسي الذي احتلته وحدات الفرقة ٢١ المدرعة شمال قرية الجلاء، مما أدى إلى تقلص رأس الكوبري الموحد واضطرار قائده العميد أ.ح عبد رب النبي حافظ إلى تعديل الأوضاع الدفاعية داخله.

وفي فجر يوم ١٧ أكتوبر وبناء على تعليمات القيادة العامة، أصدرت قيادة الجيش

الثاني أمرها بدفع اللواء الأول المدرع من الشمال إلى الجنوب بموازاة القناة للالتقاء في منطقة الدفرسوار باللواء ٢٥ المدرع المستقل الذي صدرت الأوامر بدفعه من قطاع الجيش الثالث من الجنوب إلى الشمال شرق البحيرة المرة الكبرى ، بهدف إغلاق ثغرة الاختراق عند الدفرسوار وتدمير قوة العدو الموجودة داخلها . ولكن هذه الخطة لم يقيض لها النجاح ، فقد فشل اللواء الأول المدرع في الوصول إلى منطقة الدفرسوار ، واضطر إلى الارتداد تحت ضغط العدو إلى موقعه الأصلي شمال المغذى الرئيسي ، أما اللواء ٢٥ المدرع القادم من قطاع الجيش الثالث فقد تم تدميره جنوب الخط (كثيب الحبشي - تل سلام) .

وفي يوم ١٨ أكتوبر ، وضعت القيادة العامة المركز (١٠) بالاشتراك مع قيادة الجيش الثاني ، خطة لتصفية ثغرة الاختراق على كلتا الضفتين الشرقية والغربية للقناة في وقت واحد . وكانت الخطة شرق القناة تقضى بقيام وحدات من الفرقة ١٦ مشاة والفرقة ٢١ المدرعة بهجوم مضاد على قرية الجلاء (المزرعة الصينية) والنقطة القوية في الدفرسوار ، لمحاولة إغلاق الطريق المؤدي إلى ساحة العبور الإسرائيلية واستعادة الأوضاع إلى ما كانت عليه في رأس كوبري الفرقة ١٦ مشاة (الجناح الأيمن للجيش الثاني) .

ولكن الهجوم المضاد الذي كان الأمل معقودا عليه باء بالفشل ، نظرا لعنف الهجمات الجوية الإسرائيلية وكثافة نيران مدفعية الميدان والمدفعية بعيدة المدى ، ووجود حشد كبير من دبابات العدو في قرية الجلاء . وعلاوة على ذلك ، أدى فشل الهجوم المضاد غرب القناة إلى قيام بعض الدبابات الإسرائيلية باحتلال عدد من المصاطب المصرية السابقة غربي القناة ، وأخذت في إطلاق نيران مدافعها عبر القناة على القوات المصرية القائمة بالهجوم المضاد شرق القناة . وإزاء فشل الهجوم المضاد ، اضطرت قوات الفرقتين ١٦ مشاة و٢١ المدرعة إلى الارتداد شمالا ، وأصبح الخط الذي تحتله الفرقة ٢١ المدرعة يتحاذى مع سرابيوم على الضفة الغربية للقناة ويمتد شرقا ليلتقي مع الحد الأمامي للواء ٣ مشاة ميكانيكي (لواء المنتصف بالفرقة ١٦ مشاة) ، بعد إخلاء لواء اليمين (اللواء ١٦ مشاة) لمواقعه كما سبق أن ذكرنا . ونتيجة للمعارك العنيفة المتواصلة التي خاضها اللواءان الأول و١٤ المدرعان لمدة خمسة أيام متتالية (منذ بدء عملية تطوير الهجوم في ١٤ أكتوبر حتى شن الهجوم المضاد في ١٨ أكتوبر) أصيب اللواءان بخسائر فادحة بلغت أكثر من ٨٥٪ من دباباتهما مما جعلهما يفقدان كفاءتهما القتالية .

وقد سجل العميد العرابي قائد الفرقة ٢١ المدرعة في التقرير الذي بعث به عن موقف

فرقته إلى الفريق سعد الشاذلي رئيس الأركان عقب وصوله في الساعة الخامسة مساء يوم ١٨ أكتوبر إلى مركز القيادة المتقدم للجيش الثاني بالإسماعيلية أن عدد دبابات اللواء الأول المدرع ١٦ دبابة، وعـدد دبابات اللواء ١٤ المدرع ١٤ دبابة. وقـد أثار وضع رأس الكوبري الموحد الذي تولى قيادته العميد أ.ح إبراهيم العرابي قائد الفرقة ٢١ المدرعة بعد إصابة العميد أ.ح عبد رب النبي حافظ قائد الفرقة ١٦ مشاة يوم ١٨ أكتوبر وإخلائه إلى القاهرة، بواعث القلق في قيادة الجيش الثاني، بعـد فقد لواءي الفرقة ٢١ المدرعة مقدرتهما القتالية بسبب خسائرهما الجسيمة في الدبابات. ولذا أصدر اللواء أ.ح عبد المنعم خليل قائد الجيش الثاني أمره إلى اللواء ٢٤ المدرع (من الفرقة ٢٣ مشاة ميكانيكة) والذي كان متمركزا في ذلك الوقت في منطقة الإسماعيلية شرق كاحتياطي في يد قائد الجيش الثاني شرق القناة، بالتحرك في الحال إلى رأس الكوبري الموحد، لضمان بقاء رأس الكوبري قوياومتماسكا وعلى استعداد لصد أي هجمات مضادة للعدو. وبهذه التعليمات الجديدة، أصبحت ثلاثة ألوية مدرعة (١و١٤و٢٤) متمركزة داخل رأس الكوبرى الموحد بينما خلا رأس كوبري الفرقة ٢ مشاة بقطاع الفردان من أي لواء مدرع، ولم يبق من الألوية المدرعة التابعة للجيش الثانى خارج نطاق رأس الكوبرى الموحد سوى اللواء ١٥ المدرع المستقل الذي كان متمركزا داخل رأس كوبرى الفرقة ١٨ مشاة التي كان يتولى قيادتها العميد أ.ح فؤاد عزيز غالي في قطاع القنطرة شرق (الجناح الأيسر للجيش الثاني).

هل كان يمكن سحب أي لواء من رأس الكوبري الموحد؟

كانت الفرقة ٢٣ مشاة ميكانيكية بقيادة العميد أ.ح أحمد عبود الزمر متمركزة غرب القناة شمال ترعة الإسماعيلية، وتعمل كاحتياطي للجيش الثاني الميداني. وكان اللواء ٢٤ المدرع الذي من ضمن تشكيلها قد وضع تحت قيادة الفرقة ٢ مشاة بقيادة العميد أ.ح حسن أبو سعده في قطاع الفردان.

وقام اللواء ٢٤ المدرع بعبور القناة ليلة ٦/ ٧ أكتوبر واتخذ أوضاعه داخل رأس كوبرى الفرقة ٢ مشاة كنسق ثان لها.

وعقب العبور الإسرائيلي إلى غرب القناة من منطقة الدفرسوار واشتداد الهجمات الإسرائيلية على رأس الكوبرى الموحد لتوسيع ثغرة الاختراق في اتجاه الشمال أمر اللواء أ.ح عبد المنعم خليل بتحرك اللواء ٢٤ المدرع جنوبا من موقعه برأس كوبرى الفرقة ٢

مشاة إلى منطقة الإسماعيلية شرق للعمل كاحتياطي في يد قائد الجيش شرق القناة لدفعه في اتجاه رأس الكوبري الموحد جنوبا أو في اتجاه قطاع الفرقة ٢ مشاة شمالا للقيام بصد أي اختراق في حالة وقوعه أو للقيام بالهجمات المضادة في أي من الاتجاهين. وفي يوم ١٧ أكتوبر صدر أمر قيادة الجيش الثاني بتحرك كتيبة مدرعة من اللواء ٢٤ المدرع إلى رأس الكوبري الموحد، على أن توضع تحت قيادة الفرقة ٢١ المدرعة. ونظرا لاشتداد ضغط العدو على الجنب الأيمن لرأس الكوبري الموحد بعد فشل عملية الهجوم المضاد يوم ١٨ أكتوبر أصدر قائد الجيش الثاني أمره إلى قائد اللواء ٢٤ المدرع الذي كان متمركزا في منطقة الإسماعيلية شرق بأن يقوم بالتحرك بباقي اللواء إلى منطقة شمال غرب الطالية (داخل رأس الكوبري الموحد) ليكون على استعداد للهجوم المضاد لتدمير العدو الذي ينجح في اختراق رأس الكوبري واستعادة الأوضاع الدفاعية إلى ما كانت عليه.

ورغم وجود ثلاثة ألوية مدرعة داخل رأس الكوبري الموحد، فإن اللواء المدرع الوحيد، الذي يمكن مناقشة إمكان سحبه (وقت هذه المعارك) من شرق القناة إلى الغرب أو ضرورة بقائه في مكانه هو اللواء ٢٤ المدرع (من الفرقة ٢٣ مشاة ميكانيكية) إذ إن اللواءين الأول و١٤ المدرعين (من الفرقة ٢١ المدرعة) قد اتضح لنا نتيجة الدراسة الدقيقة لموقفهما أنه ينبغي إخراجهما من دائرة البحث والمناقشة التي نجريها حول سحب ألوية مدرعة من الشرق إلى الغرب، بعد أن فقدا كفاءتهما القتالية بسبب الخسائر الفادحة التي حاقت بهما بحيث أصبح عدد دبابات اللواءين معا لا يتجاوز ٣٠ دبابة. وقد بدأت قيادة الجيش الثاني بالتدريج في إرسال أفراد اللواءين المدرعين (بدون دبابات) إلى غرب القناة للانضمام إلى قيادة الفرقة٢١ المدرعة التي صدرت الأوامر يوم ٢١ أكتوبر بتمركزها عند تقاطع عثمان أحمد عثمان للقيام بعملية إعادة التجميع وإعادة تسليح الفرقة بالدبابات والأسلحة والمعدات الجديدة لاستعادة كفاءتهما القتالية.

ويتضح لنا بعد استبعاد اللواءين الأول و١٤ المدرعين من حساباتنا أن الاحتياطي المدرع الوحيد الذي ظل باقيا داخل رأس كوبري الفرقة ١٦ مشاة هو اللواء ٢٤ المدرع. وكان الموقف التكتيكي للفرقة ١٦ مشاة قد غدا على درجة بالغة من الخطورة، بعد أن أصبحت الفرقة مكونة من لواءين فقط عقب اضطرار اللواء ١٦ مشاة (الجنب الأيمن للفرقة) إلى إخلاء مواقعه ليلة ١٧/ ١٨ أكتوبر تحت ضغط العدو. وفي الواقع أنه لولا وجود اللواء ٢٤ المدرع بدباباته (٦٧دبابة) داخل رأس كوبري الفرقة ١٦مشاة، لسقط رأس الكوبري في يد العدو، وهو الهدف الذي كان يتطلع الجنرال جونين قائد القيادة

الجنوبية الإسرائيلية إلى تحقيقة في تلهف وتصميم شديدين إلى الحد الذي جعله يصدر أمره يوم ٢٠ أكتوبر إلى الجنرال شارون غرب القناة بتحريك أحد ألويته المدرعة (لواء آمنون) ليعبر القناة من الغرب إلى الشرق ـ كما سبق أن ذكرنا ـ للاشتراك في الهجمات المركزة التي تشنها القوات الإسرائيلية بمعاونة المدفعية والطيران على رأس كوبري الفرقة ١٦ مشاة (كان الإسرائيليون يطلقون عليه الاسم الكودي ميسوري). وقد أثبتت الحوادث أهمية وجود اللواء ٢٤ المدرع، فقد قام العدو في الساعة الخامسة مساء يوم ٢١ أكتوبر بهجوم مضاد بقوة كتيبتين من الدبابات وتمكن من اختراق الموقع الدفاعي والوصول إلى الطالية (إحدى النقاط الحيوية بالموقع، وكان مركز قيادة الفرقة ١٦ مشاة يقع بجوارها)، ولكن الفرقتين ١٦ مشاة و ٢١ المدرعة ودبابات اللواء ٢٤ المدرع أمكنها القيام بهجوم مضاد قوي، واستردت الطالية وأجبرت العدو على الانسحاب بعد أن دمرت له ٣٠ دبابة وعربة نصف جنزير، وتم أسر ١٢ ضابط صف وجنديا من اللواء ٦٠٠ المدرع الإسرائيلي.

وفضلا عن الأهمية الحيوية لوجود اللواء ٢٤ المدرع في قطاع رأس كوبري الفرقة ١٦ مشاة كما أوضحنا، فقد كان من المتعذر من الناحية الواقعية إمكان سحب هذا اللواء وعبوره قناة السويس من الشرق إلى الغرب، إذ إن قيادة الجيش الثاني فور بدء العبور الإسرائيلي إلى غرب القناة أصدرت أمرها بفك جميع الكباري والمعابر الخاصة بالفرقة ١٦ مشاة، وكانت كلها جنوب بحيرة التمساح وأن يتم تشوينها في البحيرة حتى لا يدمرها العدو بالضرب عليها من المواقع التي أصبح يحتلها على كلا الشاطئين، وخشية من أن تراوده فكرة استخدامها لكي تعبر عليها قواته إلى الضفة الغربية.

وهكذا يتضح لنا نتيجة لهذه الدراسة الموضوعية التي أجريناها لموقف الألوية المدرعة الثلاثة التي كانت متمركزة شرق القناة داخل رأس الكوبري الموحد التابع للجيش الثاني، أنه لم يكن في الإمكان سحب أي لواء مدرع منها إلى غرب القناة، في حين أن الشاذلي كما ورد في مذكراته، كان يطالب بسحب ثلاثة ألوية مدرعة من الجيش الثاني. وهذه النتيجة هي التي كان من المفترض أن يتوصل إليها أحمد إسماعيل وسعد الشاذلي، فيما لو كانا قد نَحّيَا جانبا عوامل الخلاف والفرقة بينهما، واتبعا أسلوب البحث العلمي والدراسة الموضوعية عند النظر في الاقتراح الذي تقدم به الشاذلي عقب عودته من الإسماعيلية مساء يوم ٢٠ أكتوبر.

سؤال إلى الشاذلي: أين الألوية المدرعة التي كان يمكن سحبها إلى الغرب؟

أوضحنا فيما سبق موقف الألوية المدرعة الثلاثة، التي كانت متمركزة شرق القناة داخل رأس الكوبري الموحد التابع للجيش الثاني، والذي كان يقع شمال ثغرة الاختراق الإسرائيلية بالدفرسوار مباشرة. وهذه الألوية هي اللواء الأول واللواء ١٤ المدرعان(من الفرقة ٢١ المدرعة) واللواء ٢٤ المدرع (من الفرقة ٢٣ مشاة ميكانيكية). وقد توصلنا نتيجة للدراسة الدقيقة التي أجريناها أنه لم يكن في الإمكان سحب أي لواء مدرع منها إلى غرب القناة.

وسوف نستكمل هنا دراستنا لموقف اللواء المدرع الباقي بالجيش الثاني شرق القناة، وهو اللواء ١٥ المدرع المستقل الذي كان متمركزا في قطاع الفرقة ١٨ مشاة بالقنطرة شرق، وكذا موقف الألوية المدرعة الثلاثة بالجيش الثالث شرق القناة، وبهذا نكون قد أتممنا دراسة الألوية المدرعة السبعة التي كانت متمركزة شرق القناة في سيناء على طول خط المواجهة مع القوات الإسرائيلية.

إن غرضنا الأساسي من إجراء هذه الدراسة، هو الإجابة بطريقة علمية وبأسلوب موضوعي عن السؤال المهم الذي ظل بلا إجابة لمدة تزيد على ١٥ عاما، وهو: هل كان ممكنا من الناحية الواقعية تنفيذ الاقتراح الذي تقدم به الفريق سعد الشاذلي رئيس الأركان إلى الفريق أول أحمد إسماعيل القائد العام في مساء يوم ٢٠ أكتوبر بمقر القيادة العامة المركز ١٠ عقب عودته من الإسماعيلية، وهو سحب ثلاثة ألوية مدرعة من الجيش الثاني، ولواء مدرع من الجيش الثالث من شرق القناة إلى الغرب لضرب الثغرة؟ وسوف نقوم فيما يلي بدراسة موقف هذه الألوية المدرعة:

أولا ـ موقف اللواء ١٥ المدرع المستقل

كان اللواء ١٥ المدوع الذي يتولى قيادته العقيد أ.ح تحسين شنن موضوعا تحت قيادة الفرقة ١٨ مشاة، التي عبرت القناة يوم ٦ أكتوبر ٧٣، ونجحت في إقامة رأس كوبري على الضفة الشرقية للقناة في قطاع القنطرة شوق. وقام اللواء ١٥ المدرع بعبور القناة خلال يوم ٧ أكتوبر وليلة ٧/ ٨ أكتوبر على معابر الفرقة، وتم تمركزه في منطقة القنطرة شرق بمهمة تدعيم رأس كوبري الفرقة وتدمير الهجمات المضادة للاحتياطي التعبوي للعدو بالتعاون مع وحدات الفرقة.

وفي الساعة السادسة والنصف صباح يوم ١٤ أكتوبر، اشترك اللواء ١٥ المدرع في عملية تطوير الهجوم شرقا التي قامت بالتخطيط لها القيادة العامة (المركز ١٠) على طول المواجهة. وكانت الأوامر تقضي بدفع اللواء ١٥ المدرع ووحدات دعمه كمفرزة أمامية للفرقة ١٨ مشاة على المحور الشمالي بمهمة الوصول إلى منطقة بالوظة. وعلى أثر فشل الهجوم أمر قائد الفرقة ١٨ مشاة في الساعة السادسة مساء يوم ١٤ أكتوبر بعودة اللواء ١٥ المدرع إلى منطقة تمركزه داخل رأس كوبرى الفرقة، للقيام بعملية إعادة التجميع لاستعادة كفاءته القتالية، وكانت خسائره قد بلغت منذ بدء القتال حتى ذلك الحين حوالي ٣٠ دبابة من طراز (ت ٦٢).

وعندما وصل اللواء أ.ح عبد المنعم خليل إلى مركز القيادة المتقدم للجيش الثاني بالإسماعيلية في الساعة الرابعة مساء يوم ١٦ أكتوبر لتولي قيادته، اتضح له عقب دراسة الموقف أن قائد الجيش الثاني لا يملك أي احتياطي مدرع في يده غرب القناة لاستخدامه في صد الاختراق والقيام بالهجمات المضادة، بسبب دفع الفرقة ٢١ المدرعة التي كانت مخصصة لهذا الغرض إلى شرق القناة، للقيام بعملية تطوير الهجوم شرقا يوم ١٤ أكتوبر في اتجاه الطاسة، واستبقائها بعد فشل الهجوم في رأس كوبري الفرقة ١٦ مشاة شرق القناة دون إعادتها إلى موقعها الأصلي غرب القناة. وبعد أن قام اللواء عبد المنعم بتقدير الموقف على ضوء الحقائق والمعلومات التي كانت لديه، اتخذ قرارا بسحب اللواء ١٥ المدرع المستقل من رأس كوبري الفرقة ١٨ مشاة بالقنطرة شرق إلى غرب القناة، على أن يتمركز في المنطقة شمال مطار أبو صوير للعمل كاحتياطي للجيش الثاني شمال ترعة الإسماعيلية. وفي يوم ١٧ أكتوبر، اتصل اللواء عبد المنعم خليل بالعميد أ.ح فؤاد عزيز غالي قائد الفرقة ١٨ مشاة حيث أبلغه بقراره، وطلب منه إصدار أمر إنذاري إلى اللواء ١٥ المدرع للاستعداد للتحرك إلى موقعه الجديد فور صدور الأمر إليه بذلك.

ولكن الأمر الإنذاري لم يصل قط إلى العقيد تحسين شنن قائد اللواء ١٥ المدرع، فإن قائد الفرقة لم يكن راضيا عن سحب هذا اللواء من قطاع فرقته، ولعبت الاتصالات المباشرة التي كانت تدور بين قادة التشكيلات والمسئولين في المركز (١٠) من وراء الستار دورها. وقبل أن يتسنى للواء عبد المنعم الاتصال بالمركز (١٠) للحصول على التصديق على قراره، كان الفريق أول أحمد إسماعيل هو الذي يطلبه هاتفيا من المركز (١٠) ليبلغه أنه ألغى قراره بسحب اللواء ١٥ المدرع من قطاع الفرقة ١٨ مشاة، وليصدر له تعليماته

القاطعة بعدم سحب أي قوات من الشرق إلى الغرب، وفي نفس الوقت ليسمعه تحذيراته بعد أن أكد له أن هذه هي أوامر الرئيس.

وإزاء الموقف الخطير الذي كان يواجهه الجيش الثاني غرب القناة، والذي أوضحه اللواء عبد المنعم بسبب عدم وجود أي احتياطي مدرع في يد قائد الجيش، وعده القائد العام بإرسال كتيبة مدرعة من اللواء المدرع بالحرس الجمهوري الذي كان يتولى قيادته العقيد مصطفى صادق للعمل كاحتياطي للجيش الثاني.

وفي يوم ١٨ أكتوبر، وصلت كتيبة الحرس المدرعة بالفعل إلى منطقة المحسمة، ولكن قبل أن تمر ٢٤ ساعة على وصولها تم سحبها من قطاع الجيش الثاني. واتضح أن القيادة العامة قد قامت بتحريكها إلى قطاع الجيش الثالث في الجنوب حيث كانت الخطة قد رسمت وقتئذ لإعداد الفرقة الرابعة المدرعة بعد تدعيمها بلواء الحرس الجمهوري المدرع، للقيام بالضربة المضادة لتصفية الثغرة والقضاء عل قوات العدو التي عبرت إلى غرب القناة. ولكن هذه الخطة لم تلبث أن ألغيت يوم ٢١ أكتوبر.

ونتيجة للدراسة التي أجريناها عن الألوية المدرعة الأربعة بالجيش الثاني شرق القناة يتضح لنا أن اللواء ١٥ المدرع المستقل كان هو اللواء الوحيد من هذه الألوية المدرعة الأربعة، الذي كان في الإمكان مناقشة اقتراح سحبه إلى غرب القناة للأسباب الآتية:

١ ـ كان رأس كوبري الفرقة ١٨ مشاة قويا متماسكا وأبعد القطاعات عن المعارك الحربية التي كانت دائرة وقتئذ بعد حدوث الثغرة، ولم يكن سحب اللواء ١٥ المدرع إلى الغرب سيؤثر على توازن دفاعات هذه الفرقة، إذ إن كتائب الدبابات الثلاث التابعة لألوية المشاة مضافا إليها كتيبة دبابات الفرقة كانت تضم ٨٢ دبابة(وفقا لتقرير قائد الفرقة ١٨ مشاة إلى الفريق الشاذلي يوم ١٨ أكتوبر). وهذا العدد من الدبابات بالإضافة إلى العدد الضخم من الأسلحة المضادة للدبابات الموزعة في وحدات الفرقة كان يكفي تماما لصد أي هجمات مضادة للعدو. وليس أدل على ذلك من أن الفرقة ٢ مشاة (الجار الأيمن للفرقة ١٨ مشاة) والتي كانت في نفس ظروفها تقريبا ظل موقفها قويا وسليما رغم سحب اللواء ٢٤ المدرع من قطاعها ونزوله جنوبا إلى رأس الكوبري الموحد الذي كان يواجه تهديدا خطيرا من العدو.

٢ ـ كان اللواء ١٥ المدرع من أقوى الألوية المدرعة تسليحا (دباباته من طراز ت ٦٢ ذات

المدفع عيار ١١٥ م)، ومن أفضلها تدريبا. وقد سبق له التمركز عدة سنوات قبل الحرب كاحتياطي للجيش الثاني مما جعل أفراده على دراية كبيرة بالأرض والمهام التي يكلف بها الاحتياطي، وقد سبق اشتراكهم في كثير من المناورات والمشروعات التدريبية.

٣ـ لم يكن هناك اتصال قتالي وقتئذ بين وحدات الفرقة ١٨ مشاة والعدو، مما كان يجعل من السهل سحب اللواء ١٥ المدرع من شرق القناة، ولم تكن هناك مشكلات من ناحية عبور القناة لأن معابر الفرقة ١٨ مشاة على القناة كانت سليمة.

ولا شك أن القرار الذي سبق أن اتخذه اللواء عبد المنعم خليل قائد الجيش الثاني يوم ١٧ أكتوبر بسحب اللواء ١٥ المدرع من الشرق إلى الغرب، والتمركز في المنطقة شمال مطار أبوصوير للعمل كاحتياطي عام للجيش الثاني غرب القناة، كان قرارا تكتيكيا سليما وكان من الواجب تنفيذه.

ويبدو أن الفريق الشاذلي لم يكن يعلم أن القائد العام الفريق أول أحمد إسماعيل قد ألغى ذلك القرار الذي اتخذه اللواء عبد المنعم، وكان يعتقد أن اللواء ١٥ المدرع موجود غرب القناة. فقد ورد في الصفحة ٢٥٦ من مذكراته في أثناء عرضه لموقف الجيش الثاني مساء يوم ١٩ أكتوبر ما يلي: «في الغرب وشمال ترعة الإسماعيلية يوجد لواء مدرع!!». ولم يكن بالإمكان تنفيذ اقتراح الشاذلي بدفع هذا اللواء في اتجاه الثغرة، إذ إن ذلك كان يعني عبوره ترعة الإسماعيلية عقب عبور قناة السويس، والتقدم جنوبا في اتجاه الدفرسوار ليواجه وحده فرقة الجنرال شارون التي كانت تتفوق عليه بنسبة ٣ إلى ١، وكذا تعرض اللواء لصواريخ الستائر المضادة للدبابات الفتاكة (من طراز TOW التي جلبها الجسر الجوي الأمريكي، ومن طراز SS 11، خاصة أن الأرض مليئة بالأشجار والمزروعات مما يساعد على عمل الكمائن، فضلا عن التفوق الجوي الذي كان يحرزه العدو فوق أرض المعركة مما كان كفيلا بتعريض اللواء ١٥ المدرع لنفس المصير التعس الذي لقيه اللواء ٢٣ المدرع يوم ١٨ أكتوبر حينما انتهى هجومه على منطقة الدفرسوار غرب القناة بتدميره.

ثانيا ـ موقف الألوية المدرعة بالجيش الثالث

كان رأس كوبري الجيش الثالث شرق القناة يضم ثلاثة ألوية مدرعة هي اللواء ٢٢ المدرع واللواء ٢٥ المدرع المستقل واللواء الثالث المدرع. ونظرا لأن الفريق سعد الشاذلي

اقترح ليلة ٢٠/ ٢١ أكتوبر لإمكان ضرب الثغرة سحب لواء مدرع منها ـ وفقا لما ورد في الصفحة ٢٩٧ من مذكراته ـ لذلك فسوف نعرض فيما يلي بإيجاز موقف هذه الألوية الثلاثة حتى يمكن لنا بعد ذلك إصدار الحكم الصحيح على مدى إمكان تنفيذ هذا الاقتراح وقتئذ من الناحية الواقعية :

اللواء ٢٢ المدرع: من ضمن تشكيل الفرقة ٦ مشاة ميكانيكية ، وكان يتولى قيادته العقيد أ . ح مصطفى حسن وضع منذ بداية الحرب تحت قيادة الفرقة ١٩ مشاة ، وتم عبوره قناة السويس ليلة ٧/ ٨ أكتوبر على معابر الفرقة .

واتخذ موقعه داخل رأس كوبري الفرقة ١٩ بمهمة الاشتراك معها في صد أي هجمات مضادة للعدو من اتجاهي رأس سدر وممر متلا . وفي نفس الوقت كان اللواء ٢٢ المدرع مكلفا من قيادة الجيش الثالث بالعمل خلال هذه المرحلة كاحتياطي في يد قائد الجيش شرق القناة .

وعقب حدوث ثغرة الاختراق الإسرائيلية في الدفرسوار والعبور الإسرائيلي إلى غرب القناة ، تقدمت الفرقة المدرعة بقيادة الجنرال إبراهام أدان (برن) اعتبارا من يوم ١٩ أكتوبر في اتجاه الجنوب ، على محور طريق المعاهدة غرب الشاطئ الغربي للبحيرات المرة بهدف الوصول إلى مدينة السويس . وكانت الفرقة المدرعة التي يقودها أدان تضم ثلاثة ألوية مدرعة وتعتبر المجهود الرئيسي على المحور الجنوبي ، وإلى الغرب منها كانت تتقدم فرقة مدرعة أخرى بقيادة الجنرال كلمان ماجن عبر الأرض المفتوحة Cross Country في اتجاه الغرب والجنوب ، لحماية الجنب الأيمن ومؤخرة أدان ، وكان هدفها النهائي هو قطع طريق القاهرة السويس ليتم عزل مدينة السويس والجيش الثالث .

وكانت تواجه قوات الجنرال أدان ، الفرقة ٦ مشاة ميكانيكية بقيادة العميد أ . ح أبو الفتح محرم (من الاحتياطي التعبوي للجيش الثالث) . ونظرا لتدهور الأوضاع في قطاع الفرقة السادسة الميكانيكية لعدم وجود قوتها الضاربة ضمن تشكيلها ، وهي اللواء ٢٢ المدرع الذي كان متمركزا منذ بداية الحرب في قطاع الفرقة ١٩ مشاة شرق القناة ، لذلك أصدر اللواء عبد المنعم واصل قائد الجيش الثالث أمره بسحب كتيبة دبابات من اللواء ٢٢ المدرع وعبورها القناة إلى الغرب في أول ضوء يوم ٢٢ أكتوبر . وقد وقع حادث مؤسف خلال عبور الكتيبة إلى غرب القناة ، فقد استشهد قائد اللواء ٢٢ المدرع العقيد أ . ح مصطفى حسن هو و رئيس عمليات اللواء في أثناء إشرافهما على عملية عبور دبابات الكتيبة إلى الغرب . ونظرا لعدم العثور على جثتيهما منذ ذلك الحين فقد اعتبرا في عداد

المفقودين، وربما يكون السبب في فقدهما هو إصابة مركبتهما بقنبلة مباشرة زنة ١٠٠٠ رطل أو بصاروخ من إحدى الطائرات فدمرت المركبة تدميراً تاما بحيث اختفت معالمها، وربما يكون السبب هو سقوط مركبتهما في القناة واختفاؤها في القاع. أما كتيبة الدبابات فقد خاضت حال عبورها معارك عنيفة وتعرضت دباباتها لهجمات جوية مركزة، ونتيجة لذلك خسرت معظم دباباتها وفقدت بالتالي كفاءتها القتالية، وإن كانت قد نجحت مع باقي وحدات الفرقة ٦ مشاة ميكانيكية في تعطيل تقدم قوات العدو المدرعة لمدة تقرب من ٤٨ ساعة.

اللواء ٢٥ المدرع المستقل: كان يتولى قيادته العميد أ.ح أحمد حلمي بدوي، ومن ضمن وحدات احتياطي القيادة العامة بالمنطقة المركزية. تحرك اللواء يوم ٣٠ سبتمبر في شكل مشروع تدريبي، وتم تمركزه يوم ٢ أكتوبر في منطقة الموقع المتوسط، شمال علامة الكيلو متر ١٠٩ في منطقة وصلة جنيفة على طريق القاهرة السويس. وقد وضع تحت قيادة الفرقة ٧ مشاة، وتم عبوره القناة يومي ٧و٨ أكتوبر على معابر الفرقة، واتخذ أوضاعه الدفاعية داخل رأس الكوبري بمهمة الاشتراك مع وحدات الفرقة ٧ مشاة في صد الهجمات المضادة التي كان ينتظر أن يقوم بها الاحتياطي التعبوي للعدو.

وقد اشتركت سرية مدرعة من اللواء ٢٥ المدرع في تأمين الجنب الأيسر للفرقة بالاستيلاء على منطقة تقاطع الطريق العرضي رقم ١ مع طريق الجدي يوم ٨ أكتوبر. وفي الساعة الواحدة والربع ظهرا يوم ٩ أكتوبر، تمكنت الكتيبة ٦٠٣ مشاة ميكانيكية (من اللواء ١٣٠ البرمائي)مدعمة بسرية دبابات من اللواء ٢٥ المدرع من الاستيلاء على النقطة القوية للعدو «كبريت شرق» التي تقع على البحيرة المرة الصغرى (حصن بوتزر الإسرائيلي من حصون بارليف).

وفي الساعة السادسة والنصف صباح يوم ١٧ أكتوبر، وبناء على تعليمات القيادة العامة تم دفع اللواء ٢٥ المدرع من الجنب الأيسر لقطاع الفرقة ٧ مشاة ليتقدم من الجنوب إلى الشمال شرق البحيرة المرة الكبرى، كي يلتقي في منطقة الدفرسوار بوحدات الفرقة ٢١ المدرعة التي صدرت أوامر الجيش الثاني بدفعها من الشمال إلى الجنوب على طول القناة بهدف إغلاق ثغرة الاختراق عند الدفرسوار وتدمير قوة العدو الموجودة داخلها. ولكن هذه الخطة لم يقيض لها النجاح، فقد فشل اللواء الأول المدرع (من الفرقة ٢١المدرعة) في الوصول إلى منطقة الدفرسوار، واضطر إلى الارتداد شمالا تحت ضغط العدو إلى موقعه الأصلي شمال قرية الجلاء.

وأعد الجنرال إبراهام أدان مصيدة محكمة للواء ٢٥ المدرع، فقد أحاطت به ألويته المدرعة الثلاثة من ثلاث جهات (من الأمام والخلف والجنب الأيمن) في الوقت الذي كانت فيه البحيرة المرة الكبرى على يساره لتكمل حوله حلقة الحصار. ودارت معركة غير متكافئة جنوب الخط (كثيب الحبشي - تل سلام) خسر فيها اللواء ٢٥ المدرع حوالي ٦٥ دبابة طراز (ت ٦٢)، ولم تتمكن سوى عشر دبابات فقط من النجاة واللجوء إلى الموقع المصري في «كبريت شرق» حيث احتمت داخله.

وبعد ظهر ١٩ أكتوبر وصل اللواء أ.ح مصطفى شاهين رئيس أركان الجيش الثالث إلى موقع كبريت شرق، وطلب من العقيد محمود شعيب قائد اللواء ١٣٠ مشاة ميكانيكي برمائي الذي كان يتولى قيادة الموقع إعادة سرية الدبابات (التابعة للواء ٢٥ المدرع) والتي سبق تدعيم الكتيبة ٦٠٣ مشاة ميكانيكية (التابعة للواء البرمائي) بها يوم ٩ أكتوبر، على أن تبقى في الموقع الدبابات العشر التي التجأت إليه، لاستخدامها كمدافع مضادة للدبابات نظرا لسوء حالتها وعجز بعض جنازيرها عن الحركة.

وبهذا أصبحت القوة المدرعة الاحتياطية الوحيدة برأس كوبري الفرقة السابعة هي سرية الدبابات من طراز (ت٦٢) التي عادت من موقع كبريت شرق.

اللواء ٣ المدرع: من ضمن تشكيل الفرقة ٤ المدرعة، وكان يتولى قيادته العقيد أ.ح نور الدين عبد العزيز، وكانت مهمة الفرقة هي تأمين النطاق التعبوي للجيش الثالث غرب القناة. وفي عملية تطوير الهجوم شرقا يوم ١٤ أكتوبر، أسندت إلى اللواء ٣ المدرع مهمة تدمير العدو غرب ممر متلا والاستيلاء على المدخل الغربي للممر وتأمينه. وتنفيذاً للمهمة عبر اللواء قناة السويس صباح يوم ١٣ أكتوبر إلى منطقة انتظار أمامية شرق القناة. وفي الساعة السادسة والنصف صباح يوم ١٤ أكتوبر، بدأ اللواء ٣ المدرع عملية تطوير الهجوم شرقا في اتجاه ممر متلا. ورغم أن اللواءالمدرع تمكن من الوصول إلى خط يبعد حوالي ٦ كيلو مترات من المدخل الغربي للمر، فإنه تكبد خلال عملية الهجوم خسائر فادحة بلغت حوالي ٦٠ دبابة (طراز ت ٥٥)و٩ مركبات مدرعة (ب ك) وجميع المدافع الموجودة في كتيبة مدفعية الميدان، كما استشهد في المعركة العقيد أح نور الدين عبد العزيز قائد اللواء. وأصدر قائد الجيش الثالث أمره إلى رئيس عمليات اللواء الذي تولى قيادة اللواء بالنيابة بالارتداد إلى داخل رأس كوبري الفرقة ١٩ مشاة.

وعلى أثر دفع اللواء ٢٥ المدرع المستقل (احتياطي الفرقة السابعة) يوم ١٧ أكتوبر في

اتجاه الدفرسوار كما سبق أن ذكرنا، صدرت الأوامر بتحرك كتيبة مدرعة من اللواء ٣ المدرع إلى رأس كوبري الفرقة ٧ مشاة لتحل محل اللواء ٢٥ المدرع. وفي يوم ١٩ أكتوبر، وعندما قررت القيادة العامة إعداد الفرقة ٤ المدرعة بعد تدعيمها باللواء المدرع من الحرس الجمهوري للقيام بالضربة المضادة، صدرت الأوامر إلى قائد الجيش الثالث بتجميع كل وحدات الفرقة الرابعة في منطقة الجفرا استعدادا لهذه العملية. وتنفيذا لتعليمات القيادة، أصدر قائد الجيش الثالث أمره بسحب اللواء ٣ المدرع من شرق القناة وعبوره إلى منطقة الجفرا. وخلال يومي ١٩و٢٠ أكتوبر تم سحب اللواء الثالث (عدا كتيبة) من رأس كوبري الفرقة ١٩ مشاة ثم سحبت كتيبة الدبابات التابعة للواء من رأس كوبري الفرقة ٧ مشاة (كان ذلك هو السبب في طلب تحريك سرية دبابات من كبريت شرق يوم ١٩ أكتوبر إلى قطاع الفرقة ٧ مشاة لتحل محل كتيبة الدبابات من اللواء ٣ المدرع التي سحبت).

هل كان يمكن سحب لواء مدرع من الجيش الثالث؟

قبل الإجابة عن هذا السؤال المهم، ينبغي أن نضع في اعتبارنا حقيقتين: أولاهما، أن الفريق الشاذلي قد تقدم باقتراحه بسحبه ثلاثة ألوية مدرعة من الجيش الثاني ولواء مدرع من الجيش الثالث ليلة ٢٠/ ٢١ أكتوبر، أي أن بدء التنفيذ لم يكن متيسرا قبل صباح ٢١ أكتوبر. والحقيقة الثانية هي أن الوحدات المدرعة المصرية لم تسنح لها الفرصة لتعويض الدبابات التي خسرتها في المعارك حتى تعود مرة أخرى إلى حجمها التنظيمي الكامل، كما كان الحال يجري في القوات المدرعة الإسرائيلية خاصة بعد تدفق شحنات الجسر الجوي الأمريكي عليها، إذ إن مخازن القوات المسلحة المصرية لم تكن تحوي دبابات احتياطية، كما أن السوفيت لم يمدوا مصر خلال الحرب عن طريق الجسر البحري السوفيتي بأي دبابات لتعويض خسائرها الثقيلة في الدبابات، وكان هذا الموقف سببا في مهاجمة الرئيس الراحل السادات للاتحاد السوفيتي عقب انتهاء الحرب.

ومن واقع الدراسة الدقيقة التي أجريناها لموقف الألوية المدرعة الثلاثة التي كانت متمركزة في قطاع الجيش الثالث يمكن أن نخرج بالنتائج التالية:

١ـ نظرا لأن اللواء ٣ المدرع قد تم سحبه بالفعل بأوامر القيادة العامة من شرق القناة إلى الغرب يومي ١٩و ٢٠ أكتوبر وانضم إلى تشكيله الأصلي (الفرقة ٤ المدرعة) في منطقة الجفرا، وقد تم ذلك قبل تقدم الشاذلي باقتراحه، لذلك ينبغي استبعاد هذا اللواء من حساباتنا.

٢ـ لا يمكن من الناحية الواقعية اعتبار اللواء ٢٥ المدرع المستقل وحدة مدرعة مقاتلة قائمة بذاتها عقب معركة يوم ١٧ أكتوبر جنوب الخط كثيب الحبشي ـ تل سلام، فقد خسر معظم دباباته وفقد بالتالي كفاءته القتالية ولم يعد موجودا منه داخل رأس كوبري الجيش الثالث سوى سرية دبابات فقط.

٣ـ اللواء المدرع الوحيد الذي ينبغي مناقشة موقفه هو اللواء ٢٢ المدرع (من الفرقة ٦ مشاة ميكانيكية) وكان متمركزا منذ بداية الحرب في رأس كوبري الفرقة ١٩ مشاة وكان هو أقل الألوية المدرعة من جهة عدد الخسائر في دباباته، ولذا ظلت كفاءته القتالية عالية. ولم يكن أمرا منطقيا سحب هذا اللواء من الشرق إلى الغرب للأسباب الاتية:

أ ـ كان هذا اللواء الاحتياطي الوحيد في يد قائد الجيش الثالث شرق القناة لصد الاختراق والقيام بالهجمات المضادة.

ب ـ بعد تدمير اللواء ٢٥ المدرع يوم ١٧ أكتوبر، وبعد سحب اللواء ٣ المدرع من الشرق إلى الغرب يومي ١٩ و٢٠ أكتوبر، أصبح اللواء ٢٢ المدرع هو القوة المدرعة الوحيدة المتبقية في رأس كوبري الجيش الثالث شرق القناة الذي كان يضم الفرقتين ١٩ و٧ مشاة ووحدات دعمهما. ولا شك أن سحبه كان سيؤدي إلى فقد رأس كوبري الجيش لتوازنه الدفاعي.

جـ ـ في حالة عبور اللواء ٢٢ المدرع قناة السويس إلى الغرب يوم ٢١ أكتوبر، فإن القوة الإسرائيلية التي كان ينتظر أن يواجهها هي الفرقة المدرعة بقيادة الجنرال أدان التي كانت تتقدم على محور طريق المعاهدة في اتجاه السويس والتي كانت تتكون وقتئذ من ثلاثة ألوية مدرعة (تشكيلها الأصلي) وكتيبتين من المشاة تم إمداد الجنرال أدان بهما يوم ٢٠ أكتوبر أي أن نسبة التفوق كانت أكثر من (٣ إلى ١) لصالح الإسرائيليين. وفضلا عن ذلك، كان الطيران الاسرائيلي يقدم المعاونة المباشرة للقوات البرية بإزالة وتدمير كل المقاومات التي تعترض طريق تقدمها. وقد تم ذلك عقب إسكات وتدمير معظم كتائب الصواريخ المصرية أرض جو سام غرب القناة جنوب ترعة الإسماعيلية.

د ـ رغم شدة حرج موقف الفرقة ٦ مشاة ميكانيكية بسبب عدم انضمام اللواء ٢٢ المدرع التابع لها، والذي يعتبر قوتها الضاربة، فإن قائد الجيش الثالث لم يوافق على سحب أي عنصر من اللواء ٢٢ المدرع، إلا في آخر وقت ـ يوم ٢٢ أكتوبر ـ واقتصر السحب على كتيبة مدرعة واحدة فقط. ونظرا للتفوق الإسرائيلي الكبير على الضفة

الغربية، فقد تم تدمير هذه الكتيبة في ظرف ٤٨ ساعة، وهو مؤشر خطير يوضح لنا ماذا كان ينتظر أن يحدث للواء ٢٢ المدرع في حالة عبوره كاملا إلى الغرب.

٤ـ الخلاصة التي نخرج بها نتيجة لهذه الدراسة الدقيقة الموضوعية لموقف الألوية المدرعة في قطاع الجيش الثالث شرق القناة، أنه لم يكن هناك مجال لسحب أي لواء مدرع في هذا القطاع من الشرق إلى الغرب.

وتبعا لذلك، يمكننا أن نقرر عن ثقة وإيمان ـ على ضوء الحقائق التي عرفناها عن الموقف ـ أن اقتراح الفريق الشاذلي وإن كان سليما من الناحية التكتيكية فإنه لم يكن من المتيسر تنفيذه من الناحية الواقعية. ولو كان النقاش قد جرى بينه وبين الفريق أول أحمد إسماعيل بهذه الطريقة الموضوعية، وبهذا التسلسل المنطقي، لما كان قد وقع بينهما أي خلاف بالمرة، لأن الحقائق العلمية لا مجال فيها للخلاف أو النزاع. أما الخلافات الشخصية فهي التي تطيح بكل بحث أو دراسة وتطغى على كل علم أو منطق.

التمهيد لإعادة تجميع الفرقة ٢١ المدرعة

في يوم ٢٠ أكتوبر قامت الطائرات الإسرائيلية بغارات جوية مركزة على مناطق رءوس الكباري شرق قناة السويس، وبدأ العدو في استخدام قنابل النابالم لإحداث الحرائق وبث الذعر في نفوس الأفراد. وقد تمكنت الصواريخ والأسلحة المضادة للطائرات من إسقاط طائرتين للعدو في قطاع الفرقة ١٨ مشاة بالقنطرة شرق، مما أدى إلى ارتفاع الروح المعنوية بين القوات، خاصة في الظروف العصبية التي كانت سائدة وقتئذ.

وفي حوالي الساعة التاسعة والنصف مساء يوم ٢٠ أكتوبر، أبلغ اللواء أ.ح عبد المنعم خليل القيادة العامة (المركز ١٠) القرار الذي اتخذه داخل رأس الكوبري الموحد شرق القناة الذي كان يضم وقتئذ الفرقتين ١٦ مشاة و٢١ المدرعة واللواء ٢٤ المدرع، وذلك تنفيذا لتعليمات القيادة العامة.

وكان القرار يقضي بأن يتولى العميد أنور حب الرمان قائد الفرقة ١٦ مشاة قيادة رأس الكوبري مع دعم قيادته ببعض العناصر من وحدات القيادة والسيطرة من الفرقة ٢١ المدرعة وأن ينتقل العميد أ.ح إبراهيم العرابي قائد الفرقة ٢١ المدرعة مع مركز قيادته على ليلتين إلى منطقة وصلة الملاك التي تقع في النطاق الدفاعي الثاني جنوب ترعة الإسماعيلية وغرب تقاطع عثمان أحمد عثمان (منطقة تمركز الفرقة ٢١ المدرعة قبل بدء العمليات

الحربية في ٦ أكتوبر)، وأن ينتقل معه أفراد اللواء الأول المدرع بعد تسليم ما تبقى من دباباتهم إلى اللواء ١٨ مشاة ميكانيكي واللواء ٢٤ المدرع. وكان هدف القيادة العامة من هذه العملية جمع شمل الوحدات وتوحيد القيادة في رأس الكوبري الموحد شرق القناة من جهة، والتمهيد لإعادة تجميع الفرقة ٢١ المدرعة في منطقة تمركزها الأصلية، حتى يمكن بعد ذلك تزويد وحداتها بالدبابات والأسلحة والمعدات الجديدة، لتستعيد كفاءتها القتالية من جهة أخرى. وفي نفس الوقت أسندت إلى العميد العرابي مهمة قيادة الوحدات، التي يعاد تجميعها في المنطقة وهي اللواء ٢٣ المدرع (من الفرقة ٣ مشاة ميكانيكية) وبعض الوحدات الفرعية الأخرى، بهدف حصر العدو جنوب ترعة الإسماعيلية ومنع انتشار قواته في اتجاهي الغرب والشمال. وكان قرار إعادة التنظيم يشمل أيضا وضع باقي وحدات الفرقة ٢١ المدرعة في رأس الكوبري الموحد تحت قيادة الفرقة ١٦ مشاة.

استرداد الطالية وارتداد الهجوم الإسرائيلي

في مساء يوم ١٩ أكتوبر، أصدر الفريق الشاذلي رئيس الأركان أمرا إلى العميد أ.ح إبراهيم العرابي - كما سبق أن ذكرنا - بالارتداد بقواته من خط سرابيوم إلى خط طوسون (حوالي ٥ كيلو مترات شمالا)، حتى تتحاذى مواقعه شرق القناة مع الخط الذي ارتدت إليه غرب القناة وحدات اللواء ١٨٢ مظلات بقيادة العقيد إسماعيل عزمي، وقد برر الفريق الشاذلي تلك العملية بقوله للعميد العرابي: «عشان يبقى كتفك اليمين في كتف إسماعيل عزمي». وفي يوم ٢٠ أكتوبر قام العميد العرابي قائد الفرقة ٢١ المدرعة بسحب قواته من سرابيوم إلى طوسون دون أن يقع عليه أي ضغط من جانب العدو تنفيذا لأمر رئيس الأركان. ونظرا لأن العميد أنور حب الرمان قائد الفرقة ١٦ مشاة لم يخطره أحد بهذا الانسحاب، فقد أصبح الجنب اليمين للفرقة ١٦ مشاة يشكل بروزا في الخط الدفاعي، ونقطة ضعف رأس الكوبري سرعان ما استغلها العدو في مهاجمة الجنب الأيمن للفرقة ١٦ مشاة بسرية من دباباته، ولكن الفرقة ١٦ لم تلبث أن قامت بهجوم مضاد تمكنت فيه من طرد وتدمير دبابات العدو التي حاولت التسلل إلى داخل دفاعاتها، وتم علاج الموقف بقيام الفرقة ١٦ مشاة بتعديل أوضاعها الدفاعية لتتمشى مع الأوضاع الجديدة للفرقة ٢١ المدرعة.

وفي محادثة هاتفية جرت في الساعة الواحدة والدقيقة الخامسة والأربعين من صباح

يوم ٢١ أكتوبر، بين قائد الجيش الثاني بالإسماعيلية والقائد العام بالمركز ١٠ بالقاهرة، أبلغ اللواء عبد المنعم خليل الفريق أول أحمد إسماعيل بالواقعة التي جرت في رأس الكوبري الموحد في اليوم السابق، وأبدى القائد العام استغرابه وسأل اللواء عبد المنعم: «هو عرابي وحب الرمان زعلانين من بعض؟». وأجابه اللواء عبد المنعم: «لا يا فندم هم مش زعلانين من بعض ولا حاجة». ويبدو أن الفريق أول أحمد إسماعيل ظن أن ما جرى من عدم إخطار قائد الفرقة ١٦ مشاة بانسحاب بعض وحدات من الفرقة ٢١ المدرعة من سرابيوم إلى الخط طوسون، كان يرجع إلى الحساسية التي نشأت بين قيادتي الفرقتين نتيجة لتولي العميد أ. ح إبراهيم العرابي قيادة رأس الكوبري الموحد رغم أنه كان أحدث من جهة الأقدمية من العميد أنور حب الرمان الذي تولى قيادة الفرقة ١٦ مشاة بعد إصابة قائدها وإخلائه إلى القاهرة.

وبناء على أوامر قائد الجيش الثاني الجديدة، أصدرت قيادة رأس الكوبري الموحد التعليمات التالية:

١ ـ الفرقة ١٦ مشاة: تقوم بتأمين نقط الاتصال بينها وبين الفرقة ٢ مشاة (الجار الأيسر) وتنظيم التعاون معها، ويعاد تجميع اللواء ١٦ مشاة في منطقة التل الكبير لاستعادة كفاءته القتالية.

٢ ـ اللواء ١٨ مشاة ميكانيكي (من الفرقة ٢١ المدرعة): يقوم بإتمام تجهيز قطاعه الدفاعي وإعداد خطط النيران لصد وتدمير هجمات العدو من اتجاه جبل حبيطة وقرية الجلاء، وعليه السيطرة على الساتر الترابي شرق القناة في منطقة طوسون.

٣ ـ اللواء ٢٤ المدرع (الاحتياطي): يتمركز في منطقة شمال الطالية، ويكون على استعداد لصد الاختراق والقيام بالهجمات المضادة لتدمير أي قوات للعدو تنجح في اختراق رأس الكوبري، واستعادة الأوضاع الدفاعية إلى ما كانت عليه.

وفي حوالي الساعة الرابعة مساء يوم ٢١ أكتوبر، قام العدو بالهجوم على الجنب الأيمن للفرقة ١٦ مشاة بكتيبتين من الدبابات، ونجح في اختراق الموقع الدفاعي والوصول إلى الطالية، ولكن الفرقة ١٦ مشاة ووحدات من الفرقة ٢١ المدرعة ودبابات اللواء ٢٤ المدرع قامت بهجوم مضاد قوي أسفر عن استرداد الطالية وانسحاب العدو بعد أن دمرت له ١٤ دبابة و١٦ عربة مدرعة نصف جنزير، كما تم أسر ١٢ فردا من أطقم الدبابات كان من بينهم ضابط. وفي الساعة السادسة مساء عاود العدو هجومه على الجنب الأيسر للفرقة

بقوة ٣٠ دبابة ولكنه أجبر على الانسحاب بعد أن دمرت له ٤ دبابات، وحوالي الساعة الثامنة والنصف مساء يوم ٢١ أكتوبر وصلت برقية تهنئة من الفريق أول أحمد إسماعيل إلى العميد حب الرمان وإلى العميد العرابي كان نصها كما يلي:

«إن البسالة والشجاعة التي تتسم بها أعمال الفرقة ١٦ مشاة والفرقة ٢١ المدرعة تعتبر المثل الذي تحتذي به القوات المسلحة في معركتنا المصيرية.

تهنئتي القلبية للقادة والضباط والجنود على هذا الصمود الرائع والروح القتالية العالية والنصر لكم بإذن الله».

أزمة جونين وشارون في القيادة الجنوبية

من المصادفات التي تدعو إلى التعجب أنه في الوقت الذي تفجر فيه الخلاف بين الفريق أول أحمد إسماعيل القائد العام للقوات المسلحة المصرية والفريق سعد الشاذلي رئيس الأركان في مقر القيادة العامة (المركز ١٠) ليلة ٢٠/ ٢١ أكتوبر بشأن الاقتراح الذي تقدم به الشاذلي لسحب بعض الألوية المدرعة من شرق القناة إلى الغرب، نشبت في القيادة الجنوبية الإسرائيلية أزمة حادة بين الجنرال شموئيل جونين قائد القيادة الجنوبية والجنرال أريل شارون (أريك) قائد مجموعة العمليات رقم ١٤٣. وكان التوقيت الذي وقعت فيه الأزمة وأسباب الخلاف بين القائدين الإسرائيليين تكاد تتشابه كثيرا مع ظروف الأزمة التي وقعت في القيادة العامة المصرية. فقد نشب الخلاف بينهما يوم ٢١ أكتوبر، وكان سببه يرجع إلى الأمر الذي أصدره الجنرال جونين إلى شارون بسحب قوة مدرعة من قواته غرب القناة للعبور إلى شرق القناة لتدعيم القوات التي تقوم بمهاجمة رأس كوبري الفرقة ١٦ مشاة بهدف توسيع ثغرة الاختراق بالدفرسوار شرق القناة.

والأمر الذي يبعث على الدهشة أن تطورات أزمة الخلاف بين جونين وشارون تشابهت إلى حد بعيد، مع تطورات أزمة الخلاف بين أحمد إسماعيل والشاذلي. فقد استعان الجنرال شارون بوزير الدفاع موشي ديان لكي يؤيده في موقفه وينقض الأمر الذي أصدره جونين، بسحب القوة المدرعة من الغرب إلى الشرق، مثلما استعان الفريق أول أحمد إسماعيل بالرئيس الراحل السادات، لكي يدعم موقفه ويؤيد وجهة نظره في عدم سحب أي قوات مدرعة من شرق القناة إلى الغرب. وكما انتهت الأزمة في القيادة العامة المصرية بعزل الفريق الشاذلي من منصبه بعد فترة قصيرة من صدامه مع القائد العام، وتولى اللواء

عبد الغني الجمسي رئيس هيئة العمليات منصب رئيس الأركان، انتهت الأزمة في القيادة الجنوبية الإسرائيلية أيضا بعزل الجنرال جونين عن منصبه بعد فترة قصيرة من صدامه مع شارون، وتولي الجنرال يسرائيل تال نائب رئيس الأركان العامة منصب قائد القيادة الجنوبية. وسوف نسرد فيما يلي أهم الأحداث التي جرت يوم ٢١ أكتوبر على الجانب الإسرائيلي، والتي انتهت بوقوع أزمة الخلاف بين جونين وشارورن التي أشرنا إليها.

في فجر يوم ٢١ أكتوبر، وهو اليوم السادس عشر للقتال، اتصل الجنرال دافيد أليعازر رئيس الأركان العامة من تل أبيب هاتفيا بالجنرال جونين وأبلغه أن إسرائيل سوف تقبل قرار مجلس الأمن بوقف إطلاق النار الذي ينتظر أن يصدر في اليوم التالي، بعد أن اتفق كيسنجر وزير الخارجية الأمريكي مع القادة السوفيت في موسكو على مشروع أمريكي سوفيتي مشترك لوقف إطلاق النار. ونظرا لأن القيادة العامة الإسرائيلية كان يهمها تنفيذ المخطط الذي وضعته بشأن أوضاع قواتها غرب القناة قبل أن يصبح قرار وقف إطلاق النار ساري المفعول، فقد تقرر عقد اجتماع عاجل بمقر القيادة الجنوبية صباح يوم ٢١ أكتوبر لبحث الموقف. وفي غرفة العمليات بمقر القيادة المتقدم في (أم مرجم)، حضر الاجتماع موشى ديان وزير الدفاع والجنرال دافيد أليعازر رئيس الأركان العامة والجنرال حاييم بارليف الممثل الشخصي لرئيس الأركان في القيادة الجنوبية والجنرال جونين قائد القيادة الجنوبية، وتولى الجنرال بارليف إدارة الجلسة.

واتضح من مجرى النقاش أن هناك وجهتي نظر مختلفتين، فيما يتعلق بتركيز المجهود الرئيسي للقوات الإسرائيلية خلال الفترة القصيرة المقبلة. فإن أليعازر رئيس الأركان ومعه بارليف وجونين كانوا يرون وجوب تركيز المجهود الرئيسي في اتجاه الجنوب للوصول إلى السويس وحصار الجيش الثالث، حيث إن احتمالات النجاح في الجنوب أرجح كثيرا منها في الشمال، ولذا أبدوا معارضتهم لمحاولة الاستيلاء على الإسماعيلية وحصار الجيش الثاني، إذ إن الأرض الزراعية في الشمال يصعب فيها استخدام الدبابات مما يعرقل تحقيق الأهداف المطلوبة في الزمن الباقي على عكس الأرض الصحراوية في الجنوب، والتي تعتبر أرضا مثالية لاستخدام الدبابات، وبالتالي يمكن تحقيق الأمل الكبير الذي تتطلع إليه إسرائيل، وهو الاستيلاء على السويس وفرض الحصار على الجيش الثالث لحمله على الاستسلام. وكان موشى ديان وزير الدفاع، هو الوحيد الذي شجع الاتجاه إلى الشمال صوب الإسماعيلية لما للمدينة من أهمية سياسية كبرى، فضلا عن التأثير المعنوي الخطير الذي سيحدثه حصار الجيش الثاني الذي يعتبر أكبر تشكيل ميداني في القوات المصرية.

وانتهى مؤتمر القادة الذي حضره عدد من قادة أفرع القيادة الجنوبية وكبار ضباط العمليات بتبني وجهة النظر الأولى، وهي تركيز المجهود الرئيسي في اتجاه الجنوب صوب مدينة السويس.

ونتيجة للقرار الذي اتخذه مؤتمر القادة بأن يكون محور الهجوم الإسرائيلي على الإسماعيلية في الشمال محورا ثانويا، تركزت أنظار القيادة الجنوبية الإسرائيلية على الفور نحو شرق القناة حيث كان يقع رأس كوبري الفرقة ١٦ مشاة شمال ثغرة الاختراق مباشرة. وكان حده الشمالي يصل إلى جنوب الطريق الأوسط الذي كان يعتبر الحد الفاصل بينه وبين رأس كوبري الفرقة٢ مشاة المتمركزة في قطاع الفردان. وكان احتلال رأس كوبري الفرقة ١٦ مشاة (الاسم الكودي ميسوري لدى الإسرائيليين) أحد عناصر الخطة الإسرائيلية الأساسية لعبور القوات الإسرائيلية إلى غرب القناة، وكانوا يستهدفون من وراء ذلك تأمين ساحة العبور بالدفرسوار. وقد تمكن اللواء ١٦ مشاة (الجنب الأيمن لرأس الكوبري) من قطع طريقي التقدم من الشرق إلى ساحة العبور (طريقي أكافيش وطرطور)بنيران المدفعية والرشاشات والأسلحة المضادة للدبابات، مما أدى إلى تأخير إقامة الكباري وفقا للخطة الموضوعة أكثر من ٣٦ ساعة.

ولم تتمكن القوات الإسرائيلية من إقامة الكباري إلا عقب الاستيلاء على قرية الجلاء (المزرعة الصينية)، بعد أن خاضت معارك عنيفة مع اللواء ١٦ مشاة ووحدات من الفرقة ٢١ المدرعة، وبعد أن نجحت في زحزحة رأس الكوبري شرق القناة إلى مسافة حوالي ٥ كيلو مترات في اتجاه الشمال. وكان الجنرال أليعازر رئيس الأركان لفرط اهتمامه بهذا الأمر، يضغط على بارليف وجونين ضغطا مستمرا، وكان السؤال الذي اعتاد أن يوجهه إليهما هو «لماذا لا تحتلون ميسوري؟». ونتيجة لتصميم القيادة الإسرائيلية على ضرورة سقوط هذا الموقع تركزت عليه الهجمات الجوية بعد العبور الإسرائيلي إلى غرب القناة بشكل لم يسبق له مثيل، وألقي على موقع (ميسوري) من القنابل والصواريخ أكثر مما ألقي على أي تشكيل مصري آخر على طول الجبهة، وأصبحت الأرض داخل رأس الكوبري مليئة بالحفر نتيجة لسقوط القنابل والصواريخ، ولكن الوحدات المصرية الباسلة داخل رأس الكوبري ظلت متمسكة بمواقعها ومصممة على البقاء فيها حتى النهاية.

هذا ولم يكن شارون يبدى اهتماما كبيرا برأس الكوبري المصري شرق القناة (ميسوري)، فقد كان على يقين من أن الضرب الجوي والقصف المدفعي المركزين عليه، سوف يرغمان الوحدات المصرية التي في داخله على إخلائه في وقت قريب، كما أن

اللواء المدرع بقيادة العقيد توفيا (التابع لفرقة شارون) والذي تركه خلفه شرق القناة، كان قادرا من وجهة نظره على اقتحام هذا الموقع بمعاونة المدفعية والطيران. وكان اهتمام شارون كله مركزا غرب القناة في اتجاه الشمال صوب الإسماعيلية التي كان يقود الزحف عليها بعزم وتصميم شديدين بجميع الوحدات التابعة لمجموعة عملياته غرب القناة، وهي اللواء المدرع بقيادة العقيد حاييم واللواء المدرع بقيادة العقيد آمنون ولواء مشاة المظلات بقيادة العقيد داني مات.

وكان شارون في لهفة منقطعة النظير من أجل تحقيق الأمل الذي أخذ يراوده منذ عبوره إلى غرب القناة، وهو اقتحام مدينة الإسماعيلية ليختتم عملياته الحربية في حرب أكتوبر بنصر فريد يحقق له شهرة مدوية ومجدا ذائع الصيت، ولا يترك الفرصة لقرينه الجنرال أدان للتفوق عليه إذا ما نجحت عملياته في اتجاه السويس. ولكن مفاجأة قاسية كانت في انتظاره. فقد تلقى في حوالي الساعة العاشرة صباح يوم ٢١ أكتوبر أمرا صريحا من الجنرال جونين قائد القيادة الجنوبية، بوقف التقدم في الغرب ونقل قوة مدرعة من لواء آمنون أو من لواء حاييم إلى الشرق لمهاجمة (ميسوري) التي ينبغي احتلالها بأقرب فرصة ممكنة، وأبلغه أن السلاح الجوي سيقوم بالتمهيد للهجوم بقصف الموقف المصري قصفا مركزا.

ولكن شارون لم يكن يرى في الهجوم على رأس الكوبري المصري شرق القناة وإيقاف التقدم غرب القناة أي منطق عسكري سليم، ولذا فبدلا من قيامه بالهجوم على ميسوري وفقا لتعليمات جونين، طلبه هاتفيا حيث دار بينهما الحوار التالي:

شارون: بدلا من بذل الجهد في ميسوري يجب التقدم إلى الشمال مباشرة لقطع طريق الإمدادات عن القوات المصرية شرق القناة. إني أفضل الاتجاه إلى الشمال بدلا من الشرق.

جونين: اسمع نحن نريد ميسوري، إنها في الأهمية الأولى بالنسبة لنا، لقد تلقت هجمات جوية أكثر مما جرى في الحرب كلها.

شارون: ربما ولكني أعتقد أن الهجوم على ميسوري خطأ، من الأفضل الاتجاه شمالا وعزل الإسماعيلية وقطع الطرق المؤدية إليها وليس الاتجاه شرقا.

جونين: إن الأوامر هي الاتجاه إلى ميسوري وعدم الاتجاه شمالا.

شارون: إننا نقوم بتنفيذ الأوامر. حقا إن الأمر ليس منطقيا ولكننا سوف ننفذه.

جونين: إذا كنت تريد أن تعترض، فإن حاييم بارليف سيكون عندك في خلال نصف ساعة.

وفي أثناء هذا النقاش كان وزير الدفاع موشى ديان موجودا في غرفة العمليات بالقيادة الجنوبية ولكنه لم يتدخل في الموضوع. وانتقل الجنرال بارليف بعد قليل إلى مقر قيادة شارون على الضفة الغربية، وحاول شارون إقناع بارليف بأن الهجوم على ميسوري يشبه ضرب الرأس في الحائط، بينما الإسماعيلية هي هدف مهم وسوف يؤدي حصارها إلى صدمة نفسية هائلة بالنسبة للقوات المصرية. ورغم أن بارليف وافق شارون على مدى أهمية حصار الإسماعيلية، فإنه أوضح له أن وقف إطلاق النار أوشك أن يحل، ومن الخطر بقاء ساحة العبور شرق القناة مهددة بهذه الصورة من التشكيل المصري الذي يجاورها، علاوة على التهديد الذي أوجدته وحدات هذا التشكيل على القوات الإسرائيلية غرب القناة، بإطلاقهم عليها سيلا من نيرانهم المؤثرة عبر القناة من وراء الساتر الترابي الموجود على الشاطئ الشرقي.

لماذا طلب جونين عزل شارون؟

في حوالي الساعة الرابعة مساء يوم ٢١ أكتوبر - كما أسلفنا - قام لواء مدرع من تشكيل فرقة شارون الذي أبقاه شرق القناة (بقيادة العقيد توفيا) بالهجوم على قطاع الفرقة ١٦ مشاة (ميسوري) بكتيبتي دبابات في النسق الأول على الجنب الأيمن للفرقة. وتمكنت الدبابات الإسرائيلية من اختراق الموقع المصري والوصول إلى الطالية (بجوار مركز قيادة الفرقة ١٦ مشاة)، ولكن القوات المصرية داخل رأس الكوبري قامت بهجوم مضاد قوي واستردت الطالية، وأجبرت الدبابات الإسرائيلية على الانسحاب بعد أن دمرت عددا كبيرا منها، وبقيت ١٤ دبابة إسرائيلية مصابة في أرض المعركة وكان بداخل بعضها أفراد طاقمها دون أن يتمكن أحد من تخليصهم، ولذا وقع في الأسر ١٢ فردا كان بينهم أحد الضباط.

وتلقت القيادة الجنوبية نبأ الفشل بخيبة أمل شديدة، وصمم الجنرال جونين على معاودة الهجوم، بعد أن يقوم شارون بنقل قسم من قواته من غرب القناة إلى الشرق لتعزيز القوة المهاجمة. وحاول جونين الاتصال هاتفيا بشارون لإصدار تعليماته إليه ولكن شارون كان يتهرب منه منتحلا شتى الحجج والأعذار. وعندما تم الاتصال بينهما عند منتصف الليل دار حوار طويل بينهما نوجزه فيما يلي:

جونين: عليك بتعزيز لواء توفيا استعدادا للهجوم.

شارون: ليس عندي ما أعزز به.

جونين: عززه بكتيبة من لواء آمنون أو حاييم.

شارون: لا، بأي حال من الأحوال.

جونين: هل تعلم أن هذا معناه عدم تنفيذ أوامر؟

شارون: وحياتك سيبك من الحاجات دي.

جونين: أنا آمرك. عزز.

شارون: ليس عندي ما أعزز به.

وأنهى جونين المكالمة غاضبا، وتوجه إلى بارليف قائلا: «أنت ممثل رئيس الأركان. إن شارون يرفض تنفيذ الأوامر وإذا هاجمت القوة ميسوري مرة أخري بدون تعزيز فسوف تفشل ثانية». وعندما قام الجنرال بارليف بالاتصال بشارون، أبلغه أنه قد أرسل ٥ دبابات لعبور القناة إلى الشرق لتعزيز قوة الهجوم. ونظرا للعلاقة الوثيقة التي كانت تربط شارون بوزير الدفاع موشى ديان، لذا بادر شارون بالاتصال هاتفيا بالوزير في تل أبيب وشرح له موقفه والأمر الذي صدر إليه بنقل قوات من فرقته إلى الشرق مما يعطل تقدمه نحو الإسماعيلية، وشكا له من معاملة رؤسائه السيئة له في القيادة الجنوبية. وأجرى موشى ديان على الفور اتصالا بالجنرال أليعازر رئيس الأركان وأوضح له وجهة نظر شارون التي كان يؤيدها بدوره، وهي أن الهجوم على ميسوري ليس إلا مغامرة انتحارية وأنه تصرف خاطئ لا يخضع لقواعد المنطق ولا للمبادئ التكتيكية السليمة، إذ إنه لا جدوى من ورائه من ناحية تقدم العمليات الحربية في الوقت الذي يعطل فيه زحف شارون الناجح في اتجاه الإسماعيلية. ولم يلبث رئيس الأركان أن اقتنع برأي وزير الدفاع، ووافق على اقتراحه بإلغاء الأمر الذي صدر بالهجوم على ميسوري. وفي فجر يوم ٢٢ أكتوبر اتصل الجنرال يسرائيل تال نائب رئيس الأركان هاتفيا بالجنرال جونين وأبلغه بأمر وزير الدفاع بإلغاء الهجوم على ميسوري.

ولم يكن جونين قد عرف بعد أن إلغاء أمر الهجوم قد صدر بموافقة رئيس الأركان العامة، ولذا بادر بالاتصال بالجنرال أليعازر طالبا عزل شارون من منصبه بسبب رفضه تنفيذ الأوامر، وأبلغه أن الجنرال بارليف يؤيده في هذا الطلب. وكانت هذه هي المرة الثانية التي طالب فيها جونين بعزل شارون، فقد سبق أن تقدم بهذا الطلب في ٩ أكتوبر عندما تحدى شارون أوامره وواصل إضاعة الدبابات سدى في هجمات فاشلة لإنقاذ بعض

حصون خط بارليف مما تسبب في تدمير أكثر من ٢٠ دبابة. والواقع أن الجنرال شارون كان يعد إحدى المشكلات الرئيسية في القيادة الجنوبية، فقد كانت الثقة مفقودة بينه وبين رؤسائه أليعازر وبارليف وجونين. وبينما كان شارون يتهمهم بالتعصب ضده وعدم إعطائه الفرصة لتنفيذ آرائه وخططه الجريئة منعا لظهوره وذيوع شهرته.. كانوا هم من جانبهم يؤكدون أنه يتمرد دائما على أوامرهم، وأنه يستلهم في أعماله دوافع شخصية وهي تسليط الأضواء على شخصه، وأنه يخرج في معظم تصرفاته على المبادئ الأساسية للنظام العسكري بالإدلاء بالأحاديث والتصريحات لرجال الصحافة، والاتصال هاتفيا بأصدقائه وبالشخصيات السياسية في تل أبيب لإقحامهم في الشئون العسكرية.

وفي صباح يوم ٢٢ أكتوبر، زار موشي ديان وزير الدفاع مقر القيادة الجنوبية ولم يكن الجنرال بارليف حاضرا بسبب وجوده في تل أبيب لمقابلة جولدا مائير رئيسة الوزراء. ووجه الوزير عبارات جافة وتلميحات قاسية إلى الجنرال جونين دلت بوضوح على مدى تبنيه لوجهة نظر شارون وتأييده لموقفه، فقد أكد أن الهجوم على ميسوري يعد انتحارا، وأنه يوجد في القيادة الجنوبية من يقاومون كل مقترحات شارون رغم وجاهتها. وشرح للحاضرين وجهة نظره التي كان مصرا على التمسك بها، وهي أن حصار الإسماعيلية والجيش الثاني أهم من حصار السويس والجيش الثالث.

وبادر جونين بالرد عليه، فأوضح له أن احتلال الإسماعيلية وعزل الجيش الثاني يعتبران حربا جديدة، بينما حصار الجيش الثالث قد أوشك على الانتهاء. وعدد جونين المصاعب التي تواجه التقدم نحو الإسماعيلية وهي عبور مانعين مائيين (ترعة السويس وترعة الإسماعيلية) واجتياز أراض مليئة بالمستنقعات والكثبان الرملية والمزروعات والأشجار مما يعرقل تقدم الدبابات، في الوقت الذي توجد فيه في قطاع الجيش الثاني شمال ترعة الإسماعيلية بطاريات صواريخ أرض جو سام بأعداد كبيرة، وكذا وحدات قوية من المدفعية. وعلاوة على ذلك ذكر جونين أن العزل التام للجيش الثاني أمر من المستحيل تحقيقه، إذ إن في إمكانه أن يتلقى الإمدادات والمؤن من الشمال من اتجاه بور سعيد. ولم يظهر على ديان الاقتناع بوجهة نظر جونين التي كانت تتعارض مع رأيه تماما، ولذا انصرف غاضبا من مقر القيادة. وكانت هذه هي المرة الأخيرة التي زار فيها ديان مقر القيادة الجنوبية في وجود الجنرال جونين، فقد تم عزله بعد فترة قصيرة وحل محله الجنرال يسرائيل تال نائب رئيس الأركان العامة.

ملحق صور الفصل العاشر



الرئيس محمد أنور السادات

رئيس الجمهورية والقائد الأعلى للقوات المسلحة.



فريق أول أحمد إسماعيل

وزير الدفاع والقائد العام للقوات المسلحة.



فريق سعد الشاذلي

رئيس أركان حرب القوات المسلحة.



لواء طيار محمد حسني مبارك
قائد القوات الجوية.



لواء محمد على فهمي
قائد قوات الدفاع الجوي.



لواء محمد عبد الغني الجمسي
رئيس هيئة العمليات.



لواء محمد سعيد الماحي
مدير سلاح المدفعية.



لواء ابراهيم فؤاد نصار

مدير المخابرات الحربية.



مهندس عبد الفتاح عبد الله

وزير شئون رئاسة الجمهورية.



عميد محمد عبد العزيز قابيل

قائد الفرقة ٤ المدرعة



عقيد مصطفى حسن

قائد اللواء ٢٢ المدرع (فرقة ٦ مشاة ميكانيكية).



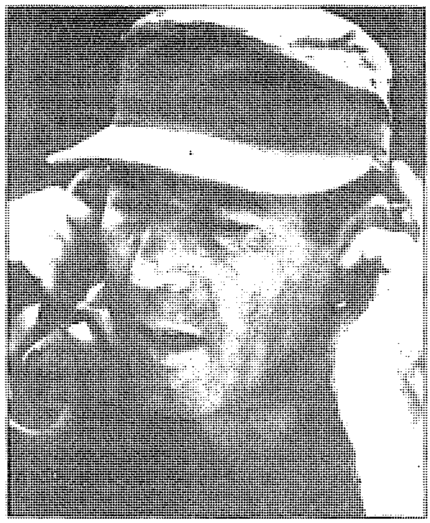
الجنرال شموئيل جونين

قائد القيادة الجنوبية.



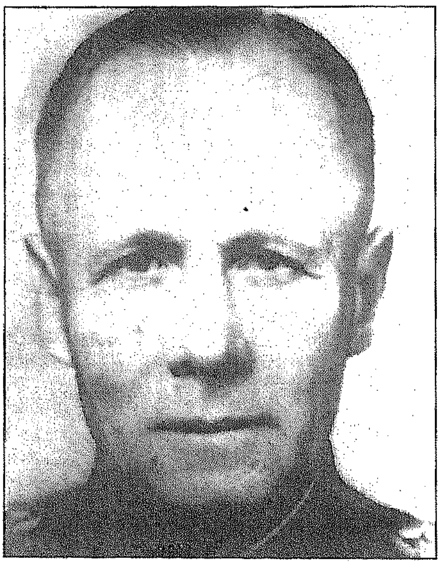
الجنرال أريل شارون

قائد مجموعة العمليات رقم ١٤٣.



الجنرال يسرائيل تال

نائب رئيس الأركان العامة.



الفيلد مارشال إروين روميل

ثعلب الصحراء.



■ الفصل الحادي عشر ■
العمليات الحربية في قطاع بورسعيد

كان قطاع بور سعيد خلال حرب أكتوبر يعتبر من حيث الواقع قطاعا منفصلا عن باقي قطاعات الجبهة. ورغم تبعيته من الناحية الرسمية لقيادة الجيش الثاني فإنها تبعية كادت تكون اسمية بحكم موقعه وطبيعة تكوينه، إذ إن القطاع يشكل جزيرة دفاعية يحيط بها الماء من جميع الجهات، فمن الشمال يحد القطاع البحر المتوسط، ومن الشرق والجنوب منطقة الملاحات، ومن الغرب والجنوب بحيرة المنزلة.

ويمتد القطاع شرقا لمسافة ١١ كيلو مترا شرق بور فؤاد، وغربا بامتداد الطريق الساحلي (طريق دمياط) حتى عزبة البرج. وتخترق القطاع قناة السويس من مدخلها الشمالي وتمتد جنوبا حتى منطقة التينة، ويطلق على المنطقة ما بين بور سعيد وبور فؤاد شمالا حتى التينة جنوبا اسم «رقبة الإوزة».

وتقع بحيرة المنزلة في الحد الغربي للقطاع، ومساحتها ٧٥٠ فدانا، ولا يفصلها عن البحر المتوسط سوى شريط ضيق من الأرض توجد به فتحة واحدة تصل ما بين البحر المتوسط والبحيرة في منطقة الجميل غرب بور سعيد مباشرة، وقد أقيم كوبري على هذه الفتحة وأنشئ طريق يربط بين بور سعيد ودمياط ويبلغ طوله ٧٥ كيلو مترا. وتكاد الحافة الشرقية لبحيرة المنزلة تلامس قناة السويس في المنطقة ما بين بور سعيد ورأس العش، ثم يبدأ ساحل البحيرة في التباعد عن قناة السويس في اتجاه الجنوب الغربي. وتكثر ببحيرة المنزلة الجزر التي يعيش بها بعض الصيادين وكانت تستغل لتمركز نقاط الإنذار ونقاط المراقبة بالبصر التابعة لحرس السواحل (أصبح يسمى حرس الحدود حاليا). ومياهها على وجه العموم ضحلة وتخترقها قناتان ملاحيتان: الأولى بين بور سعيد والمطرية (قرية تابعة لمحافظة الدقهلية)، والثانية بين المطرية ودمياط. والسواحل الجنوبية والشرقية لبحيرة

المنزلة تكاد تكون غير محددة المعالم نظرا لانتشار المناطق السبخية المنخفضة التي تغمرها المياه وقت هبوب الرياح أو أثناء المد العالي.

وتعتبر المنطقة التي تضم بور سعيد وبور فؤاد هي المركز الرئيسي للقطاع من جهتي الموقع والأهمية. ولا تتصل هذه المنطقة بما يحيط بها من أراض إلا عن طريق الكباري بحكم إحاطة المياه بها من كل ناحية، فتتصل بور فؤاد بلسان رمانة شرقها عن طريق كوبري القطع، وتتصل بالمنطقة جنوبها عن طريق كوبري قناة الملح، وتتصل بور سعيد بالجنوب عن طريق كوبريين عند الرسوة وبالغرب عن طريق كوبريين عند أشتوم الجميل (أحدهما كوبري بيلي). ويتضح من ذلك مدى سهولة عزل منطقتي بور سعيد وبور فؤاد في حالة ضرب هذه الكباري. وكان هذا يحتم ضرورة وجود كبار تبادلية عائمة ومخاضات لاستخدامها في حالة تدمير الكباري. ولكن بفضل هذا الوضع، اكتسبت منطقتا بور سعيد وبور فؤاد موقعا حربيا حصينا نظرا لإحاطتهما بالموانع الطبيعية المائية من كل جانب، وهي: البحر المتوسط من الشمال وقناة السويس التي تمتد بين بور فؤاد شرقا وبور سعيد غربا ويبلغ اتساعها (٢٠٠) متر عند مبنى الحجر الصحي (على بعد ٧ كم جنوب بور فؤاد)، ثم تتسع كلما اتجهنا شمالا حتى تصل إلى أكثر من ٤٠٠ متر عند مدخلها الشمالي من جهة البحر. وتعتبر المسطحات المائية وهي الملاحات شرقا وبحيرة المنزلة غربا موانع طبيعية حول القطاع.

ونظرا لوجود قناة السويس والقنوات المائية العديدة داخل القطاع، فقد استلزم الأمر توفير تجهيزات ووسائل للعبور لتحقيق سرعة المناورة والقدرة على عمليات الإمداد والإخلاء بين وحدات القطاع.

وقد ظهرت صعوبة في عملية الدفاع عن القطاع بسبب خلوه من الهيئات الأرضية الحاكمة من جهة، وبسبب ارتفاع منسوب المياه الجوفية مما يتعذر معه القيام بأعمال الحفر من جهة أخرى. ولذا استلزم الأمر إقامة النقاط القوية للدفاع عن المواقع الحيوية فوق الأرض بواسطة تجهيزات هندسية مجلوبة من خارج القطاع. وقد اقتضت طبيعة المواجهات الواسعة والمسافات الكبيرة بالقطاع أن يعتمد الدفاع بصفة أساسية على عدد من النقاط القوية الموزعة على طول المواجهة بقوة سرايا أو فصائل مع تأمين الفواصل بين هذه النقاط بأعمال الدوريات والكمائن ونقاط الملاحظة، وكذا بالنيران والموانع، مع الاحتفاظ باحتياطيات قوية خفيفة الحركة ومدعمة بعناصر مجنزرة للقيام بالهجمات المضادة بسرعة

وبقوة صدمة عالية في اتجاه المواقع المهددة. كما وزعت نيران المدفعية والدفاع الجوي لتغطية مواقع التجميع الرئيسي للقطاع (منطقتي بور سعيد وبور فؤاد).

ونتيجة لاحتمال عزل الأطراف الخارجية بالقطاعات الفرعية، تم توفير احتياطيات محلية لكل قطاع فرعي وكذا تزويده بالاحتياجات الإدارية اللازمة لتحقيق الاكتفاء الذاتي الإداري بكل موقع.

كما أن احتمال عزل المدينة بضرب الكباري حولها في أي وقت جعل من الضروري وجود تكديسات من كل الاحتياجات العسكرية والإدارية بداخلها بكميات كافية، وكذا ضرورة زيادة مستوى الخدمات الطبية والفنية سواء بدفع أقسام متقدمة من ورش الجيش أوبتعبئة المستشفيات المدنية أو بتزويد بحيرة المنزلة وميناء بور سعيد ببعض اللنشات للقيام عند الضرورة بأعمال الإمداد والإخلاء. وقد استلزم ذلك الوضع أيضا ضرورة أن تكون مصادر الإمداد والإخلاء قريبة ما أمكن من بور سعيد، ولذا كانت مدينة دمياط وقرية المطرية مناسبتين تماما لهذا الغرض.

الأعمال التحضيرية السابقة على الهجوم

على أثر انتهاء حرب يونيو ١٩٦٧، استطاع العدو احتلال شبه جزيرة سيناءبأكملها عدا جزء صغير من الأرض شرق وجنوب مدينة بور فؤاد تمركزت فيه وحدات صغيرة من الصاعقة. وفي أول يوليو ١٩٦٧، حاول العدو التقدم من القنطرة شرق إلى بور فؤاد شمالا بسرية دبابات مدعمة بقوة من المشاة والمهندسين وبمعاونة سرب طائرات مقاتلة قاذفة، فاشتبكت معه قوة الصاعقة المتمركزة في منطقة الكيلو متر ١٤ شرق القناة. وكانت هذه هي أول مواجهة بين القوات الإسرائيلية والمصرية عقب معارك حرب يونيو ٦٧. وقد توقف العدو ست ساعات أمام الموقع ولم يتمكن من اقتحامه، ودمرت له ثلاث دبابات وقتل بعض أفراده. وبناء على أوامر القيادة، ارتدت قوة الصاعقة إلى موقع دفاعي أفضل عند منطقة الكيلو متر ١٠ رأس العش، وتم إيقاف العدو أمام هذه المنطقة نهائيا. ولم يجرؤ العدو بعد ذلك على محاولة إزالة هذا الموقع، بل أصبح هذا الموقع بفضل صمود مقاتليه هو القدم الوحيدة لمصر في سيناء. ونتيجة لمعركة رأس العش، وحفاظا على مدينتي بور سعيد وبور فؤاد تم دفع اللواء ١٤ المدرع لتدعيم الدفاع عن المدينتين، وصدرت الأوامر بالدفاع عنهما إلى آخر طلقة وآخر رجل، وقدتم سحب اللواء ١٤ من قطاع بور سعيد فيما بعد.

ومنذ أول سبتمبر ١٩٦٧، تم تدعيم القطاع بعناصر متكاملة من الأسلحة المشتركة. وعلى ضوء التجميع الجديد بدأ تنفيذ خطة التجهيز الهندسي والإعداد للمعركة المنتظرة، وامتدت مسئولية القطاع لتشمل مدينة دمياط وبحيرة المنزلة بأكملها. واعتبارا من سبتمبر ١٩٦٩ تولى قيادة القطاع اللواء عمر خالد حسن كامل الذي بذل جهدا دائبا من أجل إنجاز الأعمال المطلوبة لإعداد القطاع للحرب والتي كان من أهمها تدريب القوات على أعمال العبور ومهاجمة النقاط القوية في ميادين تدريب تشبه مناطق العمليات المنتظرة، وكذا القيام باستكمال الإنشاءات والتجهيزات الهندسية اللازمة في القطاع خاصة في منطقة قطاع بور فؤاد ومنطقة الكيلو متر ١٠ شرق (رأس العش) ومنطقة جنوب بور سعيد. وعلاوة على ذلك، تمت أعمال التجهيز الهندسي لكل عناصر الدفاع الجوي سواء لكتائب المواسير أو لكتائب الصواريخ (أرض ـ جو) سام. وكان من أهم الأعمال الهندسية التي أجريت أيضا، تأمين شاطئ مدينتي بور سعيد وبور فؤاد ضد الإبرار البحري وتجهيز مركز قيادة رئيسي للقطاع وآخر تبادلي، وكذا تجهيز مركز قيادة مشترك محصن للدفاع الجوي علاوة على مركزين تبادليين.

وكان قطاع بور سعيد مقسما إلى أربعة قطاعات فرعية، هي: قطاع بور فؤاد، ويتمركز فيه اللواء ١٣٥ مشاة مستقل وأسلحة دعمه بقيادة العميد أ.ح محمد صلاح الدين عبد الحليم. وقطاع بور سعيد، ويتمركز فيه اللواء ٣٠ مشاة وأسلحة دعمه بقيادة العقيد أ.ح مصطفى جودت العباسي. وقطاع طريق بور سعيد دمياط، وتتمركز فيه الكتيبة ١٤ حرس السواحل. وقطاع المنزلة، وتتمركز فيه الكتيبة ١٥ حرس السواحل. وبناء على تعليمات عمليات الجيش الثاني الصادرة في مارس ٧٣، والتي نظمت عملية إعادة التجميع لتشكيلات ووحدات الجيش الثاني، والتي كانت تتضمن إعادة تجميع وحدات قطاع بور سعيد على ثلاث ليال، تمت عملية إعادة التجميع الداخلية في كل من قطاعي بور فؤاد وبور سعيد الفرعيين لاحتلال المنطقة الابتدائية للهجوم، وفقا لقراري قائدي اللواءين ٣٠ مشاة مستقل و١٣٥ مشاة مستقل اللذين سبق التصديق عليهما. كما تم احتلال مراكز القيادة المتقدمة الخاصة بالقطاع وبالقطاعات الفرعية. وبنهاية هذه المرحلة، أصبحت وحدات القطاع بأكملها مستعدة لتنفيذ المهمة المخصصة لها من أوضاعها في المنطقة الابتدائية وفقا لقرار قائد القطاع المصدق عليه من قائد الجيش الثاني. وكانت المهمة المخصصة للقطاع تشتمل على شقين هما:

أ ـ تدمير قوات العدو على الضفة الشرقية للقناة في مواجهة القطاع، مع مهاجمة

وتدمير وتصفية نقاط العدو القوية الثلاث في الكيلو متر ١٩ والكيلو متر ١٠ وشرق بور فؤاد والتمسك بالمناطق المستولى عليها وتنظيم الدفاع، مع الاستعداد لصد وتدمير احتياطيات العدو التي تحاول نجدة النقاط القوية.

ب ـ تنظيم الدفاع وتأمين الساحل حتى قطاع بور فؤاد ضد الإبرار البحري والجوي المعادي وضد مدفعية العدو، مع تأمين الضفة الشرقية للقناة في منطقة (رقبة الإوزة) بالقوات وبالوسائل الأخرى.

دور هيئة قناة السويس في خدمة المجهود الحربي

يقتضينا واجب الإنصاف والأمانة التاريخية أن نسجل الدور الوطني المشرف الذي أسهمت به هيئة قناة السويس في خدمة المجهود الحربي على مستوى الجبهة، مما كان له أثره الكبير في إحراز النصر.

لقد حرص المهندس مشهور أحمد مشهور رئيس هيئة قناة السويس أن يضع كل إمكانات الهيئة: من ورش ومعدات ومنشآت وخبرات فنية في خدمة القوات المسلحة، سواء خلال حرب الاستنزاف، أو في خلال المرحلة التحضيرية لحرب أكتوبر ٧٣. فاشتركت الهيئة في إقامة الدفاعات والتحصينات والمصاطب على طول الضفة الغربية للقناة من بور سعيد شمالا حتى السويس جنوبا. ومن أجل تهيئة الفرصة أمام وحدات الجيشين الثاني والثالث غرب القناة للقيام بأعمال الاستطلاع بكفاءة ومقدرة، أعدت الهيئة محطات الإشارة الموزعة على طول القناة (عددها ١٢ محطة) وكانت تستخدم قبل إغلاق القناة في أغراض عبور السفن لكي توجد بها عناصر الاستطلاع التابعة لهذه الوحدات، للحصول على المعلومات المطلوبة عن قوات العدو علي الضفة الشرقية للقناة، والاستفادة بشبكة الاتصالات الممتازة بين المحطات وبينها وبين رئاستها في مقر رئاسة الهيئة بالإسماعيلية، للربط بين عناصر الاستطلاع وبينها وبين قيادتها. كما تم كذلك وضع عناصر استطلاع أخرى داخل السفن المحجوزة في مجرى القناة وفي البحيرات، للعمل كنقاط ملاحظة متقدمة، لمراقبة أعمال وتحركات العدو عن كثب.

ومن أجل الإعداد لعمليات العبور، قامت ورش الهيئة بتصنيع عدد من البراطيم (وفقا للتصميم السوفيتي) وإمداد سلاح المهندسين بها لسد النقص الموجود في عدد البراطيم اللازمة لكباري الاقتحام التي استخدمت في عبور المركبات والمعدات الثقيلة إلى الشاطئ

الشرقي للقناة، عند نشوب القتال. وفضلا عن ذلك، قامت ورش الهيئة بتصنيع عدد من البراطيم العائمة للتغلب على الميول الحادة لأجناب القناة بتوفير ميول مناسبة على شاطئ القناة، كي تسمح للمركبات البرمائية بالنزول إلى مياه القناة والخروج منها بسهولة إلى الشاطئ الآخر. وقد ظلت محطات المياه التابعة للهيئة في بور سعيد والإسماعيلية والسويس من بعد حرب يونيو ٦٧ مستمرة في العمل بكل طاقتها وإمكاناتها لإمداد القوات المسلحة ومواطني مدن القناة بالمياه العذبة، رغم تعرض العاملين بها للغارات الجوية المدمرة، وقصف المدفعية العنيف، مما أدى إلى استشهاد بعضهم.

وفي قطاع بور سعيد، بذلت هيئة القناة جهودا جبارة لخدمة المجهود الحربي. ونظرا للأهمية الكبرى للكباري بالنسبة لمدينتي بور سعيد وبور فؤاد، حيث إنها الوسيلة الوحيدة للاتصال البري بينهما وبين الطرق الممتدة إليهما من الخارج، فقد قامت ورش الهيئة بتشغيل نطاقات معدنية، تم وضعها حول الحوامل والأعمدة التي تحمل هذه الكباري من جميع النواحي عند قواعدها في المياه، لحمايتها من الألغام والمفرقعات العائمة التي قد يحاول العدو تعويمها في اتجاه الكباري بقصد نسفها وتدميرها. وقد تولى مهندسو وعمال الهيئة تشغيل المعديات لنقل الأفراد والمعدات عبر القناة بين مدينتي بور سعيد وبور فؤاد دون توقف، رغم غارات الطيران وقصف المدفعية، وقد استشهد عدد منهم في أثناء قيامهم بأداء واجبهم.

وعندما عجزت هذه المعديات عن نقل المعدات الحربية الثقيلة من بور سعيد إلى بور فؤاد، نظرا لأنها كانت تزيد على حمولتها، تولت الأوناش الضخمة التابعة لهيئة القناة هذه المهمة الحيوية، فقامت بنقل الدبابات والمدفعية المتوسطة ومدفعية الميدان إلى منطقة بور فؤاد قبل التوقيت المحدد لبدء الهجوم.

وقد أسهمت الترسانة البحرية في بور سعيد في معاونة القوات المسلحة بالقطاع بكل ما لديها من إمكانات ومعدات وخبرات فنية. فقامت بعملية إصلاح وصيانة الأسلحة والمعدات وتصنيع قطع الغيار الخاصة بأجهزة الاتصال، سواء الهاتفية أو اللاسلكية. كما قامت بأعمال الصيانة والإصلاح للقطع البحرية الراسية في ميناء بور سعيد، وبعض القطع البحرية التي كانت تحضر خصيصا من الإسكندرية، ليتم إصلاحها في الترسانة البحرية في بور سعيد. وعلاوة على ذلك، قام مهندسو وعمال الترسانة البحرية بتصنيع الأسلحة والمعدات الهيكلية، وتجهيزها بالطريقة السليمة في مواقع الوحدات، في مختلف أرجاء القطاع كوسيلة من وسائل خداع طيران العدو وعناصر استطلاعه. وعندما

تعرض كوبري الرسوة الذي يربط بور سعيد بالطريق البري في الجنوب لقصف جوي مركز عام ١٩٧٠ مما أدى إلى إلحاق تلفيات جسيمة به وتعطيله عن العمل، قام طاقم من الترسانة البحرية في بور سعيد بإصلاحه وإعادته للعمل في زمن قياسي، ضمانا لاستمرار التحركات العسكرية بين بور سعيد والمنطقة الواقعة في جنوبها.

وقبل نشوب الحرب مباشرة، أمر المهندس مشهور أحمد مشهور رئيس هيئة قناة السويس بتعبئة كل إمكانات الهيئة من أفراد ومعدات وورش ومعديات وأوناش وأحواض سفن ومستشفيات، استعدادا للمعركة الفاصلة المقبلة، ووضع كل ما تملكه الهيئة من طاقات وموارد سواء بشرية أو فنية تحت تصرف القيادة العسكرية. وبهذا ضربت هيئة قناة السويس برئيسها ومهندسيها وعمالها أروع الأمثلة في تدعيم المجهود الحربي، ومساندة القوات المسلحة، مما يجعلهم يستحقون جميعا تقدير الوطن.

التخطيط للعملية الهجومية

أوضاع العدو على مواجهة قطاع بور سعيد: كان العدو أمام قطاع بور سعيد يدافع بنظام النقط القوية على الحد الأمامي للدفاعات، مع احتفاظه باحتياطيات تكتيكية قريبة على مستوى الكتيبة واللواء. وكانت النقط القوية التي تواجه القطاع عبارة عن ثلاث نقط قوية كما يلي:

١ ـ النقطة القوية عند الكيلو متر ١٠ شرق القناة (الاسم الكودي لدى الاسرائيليين أوركال Orkal من حصون خط بارليف)، وكانت محتلة بقوة سرية مشاة وفصيلة دبابات وبعض أسلحة الدعم، وكانت تضم ٩ ملاجئ، ويحيط بها حقل ألغام وأسلاك مختلط بعمق حوالي ١٥٠ مترا.

٢ ـ النقطة القوية عند الكيلو متر ١٩ شرق القناة (الاسم الكودي لدى الإسرائيليين لاهتزانيت Lahtzanit من حصون خط بارليف)، وكانت محتلة بقوة فصيلة مشاة وفصيلة دبابات وبعض أسلحة الدعم، وكانت تضم ٧ ملاجئ، ويحيط بها حقل ألغام وأسلاك مختلط بعمق ٦٠٠ متر.

٣ ـ النقطة القوية عند قطع رمانة شرق بور فؤاد (الاسم الكودي لدى الإسرائيليين بودابست Budapest من حصون خط بارليف)، وكانت محتلة بقوة سرية مشاة

وفصيلتين من الدبابات، وكانت تضم ٩ ملاجئ، ويحيط بها حقل ألغام وأسلاك مختلط بعمق ٦٠٠ متر.

وكانت احتياطات العدو التكتيكية متمركزة في الخلف في مناطق تل الحير ورمانة ورابعة وقاطية، وكانت عبارة عن كتيبة مشاة وسرية دبابات.

طرق الاقتراب المفتوحة لقواتنا في اتجاه العدو: كانت طرق الاقتراب المفتوحة أمام قواتنا في مواجهة القطاع شرق القناة محصورة في طريقين هما:

١ ـ طريق لسان رمانة ـ وهو طريق أسفلتي عرضه حوالي خمسة أمتار، ويمتد من بور فؤاد شرقا بحذاء البحر مخترقا سهل الطينة إلى مسافة ٤٠ كيلو مترا، حيث ينحرف في اتجاه الجنوب الشرقي إلى رمانة (على بعد حوالى ٥ كيلو مترات جنوب الشاطئ). ورغم أن المياه تغطي الطريق في بعض الأمكنة، فإنه صالح لسير المدرعات والمركبات.

٢ ـ مدق الكيلو متر ١٩، ويبدأ من الكيلو متر ١٩ شرق القناة ويمتد باستقامة تقريبا من الغرب إلى الشرق مخترقا سهل الطينة إلى مسافة حوالي ٢٥ كم، حيث يلتقي بوصلة بالوظة التي تمتد من بالوظة جنوبا إلى طريق لسان رمانة شمالا. والمدق ضيق، ولا يسمح بتحرك المركبات خارجه بسبب وجود المياه والمستنقعات.

خطة الهجوم على النقطة القوية عند الكيلو متر ١٩: كانت المهمة المخصصة للواء ٣٠ مشاة مستقل وأسلحة دعمه، هي مهاجمة النقطة القوية في الكيلو متر ١٩ وتدمير قوة العدو البشرية وأسلحته ومعداته والاستيلاء عليها كمهمة مباشرة، ثم تأمين تقاطع المدقات الشرقي كمهمة تالية، مع الدفاع عن قطاع بورسعيد الفرعي لمنع العدو من الاستيلاء على مدينة بور سعيد.

وقد تم لقائد اللواء ٣٠ مشاة مستقل العقيد أ.ح مصطفى العباسي تخصيص المهام لوحداته الفرعية كما يلي:

١ ـ كتيبة مشاة، ومعها أسلحة الدعم تقتحم بجزء من قوتها قناة السويس في المنطقة من الكيلو متر ٢٠,٥٠٠ إلى الكيلو متر ١٧,٥٠٠، في ثلاثة معابر، وتعزل النقطة القوية للعدو في الكيلو متر ١٩ من الجنوب والشرق والشمال، وعلى أثر ذلك تقتحم باقي القوة النقطة القوية من المواجهة والأجناب، وتدمر قوة العدو البشرية وأسلحته ومعداته وتستولي على النقطة.

٢ ـ كتيبة مشاة ومعها أسلحة الدعم تدافع عن منطقة جنوب بور سعيد حتى بحيرة المنزلة، لمنع العدو من عبور قناة السويس وتطوير هجومه شمالا في اتجاه بور سعيد، وفي الوقت نفسه تعاون هجوم عناصر اللواء ١٣٥ مشاة مستقل من الضفة الغربية للقناة بنيران أسلحة الضرب المباشر.

٣ ـ كتيبة مشاة (عدا سرية)، ومعها سرية دبابات تدافع عن المنطقة الدفاعية بين حاجز الأمواج الغربي ومزرعة المجاري لمنع العدو من الإبرار البحري والاختراق إلى داخل بور سعيد. والسرية الباقية تعمل كاحتياطي للواء للقيام بالهجمات المضادة وصد الاختراق.

٤ ـ سرية صاعقة (عدا فصيلة) من الكتيبة ٢٠٣ صاعقة تقتحم قناة السويس عند الكيلو ٢٠,٥٠٠، وتندفع بسرعة على المدق الشرقي للاستيلاء على منطقة تقاطع المدقات (على بعد حوالي ٨كيلو مترات شرق القناة)، وتدمير أي عناصر معادية بمنطقة التقاطع، ومنع أي احتياطيات للعدو من التقدم من العمق في اتجاه القناة.

معركة الكيلو متر ١٩ (حصن لا هتزانيت)

في الساعة الثانية إلا خمس دقائق ظهر يوم ٦ أكتوبر، تم عبور مجموعة استطلاع خلف الخطوط بقيادة مساعد رئيس استطلاع اللواء ٣٠ مشاة سباحة جنوب النقطة القوية من معبر الكيلو متر ٢١، وقامت بفرد حبلي عبور لتسهيل عبور باقي القوات على نفس المعبر. وفي الساعة الثانية وخمس دقائق، بدأ التمهيد النيراني على نقطة العدو القوية في الكيلو متر ١٩ بنيران سرية اللواء المضادة للدبابات (عيار٨٥مم) فقط، نظرا لأن الممر الجوي للضربة الجوية كان يمر فوق هذه المنطقة، ولذا منع ضرب أي مدفعية ذات خط مرور عال. وفي الساعة الثانية والربع بدأت المجموعات المعينة لعزل النقطة من الجنوب والشرق والشمال ومفرزة الصاعقة (سرية عدا فصيلة) من الكتيبة ٢٠٣ صاعقة في عبور القناة بالقوارب على المعبرين عند الكيلو متر ٢١ والكيلو متر١٧,٥٠٠، وتمكنت من الوصول إلى الساتر الترابي على الشاطئ الشرقي للقناة بعد عشر دقائق. وبدأت في جذب نيران العدو في اتجاه الجنوب والشمال محققة الهدف في إخفاء اتجاه الهجوم الرئيسي على النقطة. وفي الساعة الثانية والدقيقة الخامسة والأربعين، وصلت المجموعة المعينةلعزل النقطة من الشرق إلى المصطبة المعدة من قبل بواسطة العدو، ورفعت العلم المصري عليها،

مما كان له تأثير بالغ في خفض الروح المعنوية للعدو بالنقطة القوية. وعقب ذلك مباشرة، وصلت مفرزة الصاعقة إلى المصطبة أيضا.

وحاول العدو خلال ذلك نجدة قواته في النقطة القوية بدفع احتياطي دبابات كان مكونا من ٨دبابات باتون (M48)، فاصطدمت بقوة العزل الشرقية عند المصطبة وتم تدمير إحداها على مسافة ٣٠٠ متر ـ ونجحت دبابة في اختراق الموقع واتجهت على المدق شمالا في اتجاه النقطة القوية عند الكيلو متر ١٠ (حصن أوركال) ولكنها أصيبت بقذيفة من مجموعة العزل الشمالية أوقفتها في محلها عند الكيلو متر ١٤ ، وارتدت باقي دبابات العدو شرقا في اتجاه بالوظة. وفي الساعة الثانية والدقيقة الخمسين نجحت مدافع ب ١٠ وأسلحة الضرب المباشر في فتح ثغرة في موانع أسلاك العدو في مواجهة النقطة وفي تدمير بعض الأهداف المهمة، ومنها التلسكوب الرئيسي بمركز ملاحظة النقطة القوى التحصين.

وفي هذه اللحظة، بدأت مجموعات الاقتحام بالمواجهة في عبور القناة في الوقت الذي قامت فيه عناصر من المهندسين بفتح الثغرات في مواقع الحصن بطوربيد، البنجالور تحت وابل من نيران العدو وقنابله اليدوية مما أدى إلى إصابة بعض الأفراد. وعلى أثر فتح الثغرات، تدفقت مجموعات الاقتحام التي عبرت القناة إلى داخل الخنادق.

وفي الساعة الثالثة والدقيقة الخامسة بعد ظهر ٦ أكتوبر تم الاستيلاء على القسم الجنوبي من النقطة ورفع العلم المصري على برج الملاحظة، ولكن قوة من العدو كانت لا تزال تقاوم في القسم الشمالي من النقطة.

وفي الساعة الثالثة والدقيقة العاشرة، اندفعت مجموعات الاقتحام إلى الشمال وأتمت الاستيلاء على القسم الشمالي من النقطة. وفي خلال خمس عشرة دقيقة، تمت السيطرة الكاملة على النقطة من جميع الجهات، وانضمت مجموعات العزل القريبة إلى داخل النقطة، وتم قطع الخطوط الهاتفية والأسلاك الكهربائية الموصلة إلى النقطة، كما تم تدمير المولد الكهربائي وتأمين مداخل النقطة ومخارجها. وفي الساعة الثالثة والنصف، تم إبلاغ قيادة القطاع بالاستيلاء الكامل على النقطة والقبض على الأسرى.

وقد ثبت من سجلات الحرب، أن النقطة القوية عند الكيلو متر ١٩ (حصن لاهتزانيت الإسرائيلي) كانت أول حصون خط بارليف التي سقطت في أيدي القوات المصرية على طول الجبهة بأكملها.

وقد ورد في المصادر الإسرائيلية عن معركة هذا الحصن ما يلي: «مع بدء العبور، وصل

تقرير من هذا الحصن (جنوب رأس العش) في القطاع الشمالي بأن الجنود المصريين يهاجمونه. وتصاعدت أصوات القتال من جهاز الاتصال، وتصاعد صوت جندي الإشارة عدة مرات، وفي حوالي الساعة الرابعة مساء سكت صوت الجندي نهائيا ولم يعرف أحد ماذا حدث هناك».

وعلى أثر الاستيلاء على الحصن بدأت عملية تطهير الملاجئ باستخدام قاذفات اللهب ووقع فرد جريح في الأسر، وأمكن الاستفادة منه في إخراج باقي أفراد العدو المذعورين داخل الملجأ الثاني.

وقد حاول العدو استعادة الموقف عن طريق دفع احتياطيه المحلي من الدبابات على محور بالوظة في اتجاه النقطة القوية، ولكن مجموعة الصاعقة من الكتيبة ٢٠٣ صاعقة نجحت في تدمير دبابتين شرق المصطبة فارتدت باقي الدبابات شرقا.

كما حاولت جماعة دبابات وعربة مدرعة نصف جنزير مهاجمة مجموعة العزل الجنوبية، ولكنها ارتدت على أعقابها جنوبا في اتجاه التينة بعد أن دمرت لها إحدى دباباتها.

وفي الساعة الرابعة مساء، انضمت مجموعتان لاقتناص الدبابات بقيادة مساعد رئيس استطلاع اللواء إلى مجموعة الصاعقة، وأصدر إليهم العقيد أ. ح مصطفى العباسي قائد اللواء أمره بتطوير الهجوم شرقا في اتجاه تقاطع الطرق على مسافة حوالي ٨ كيلو مترات شرق القناة.

وفي الساعة الخامسة مساء، قام طيران العدو بمهاجمة النقطة القوية بعد أن تأكد من سقوطها، كما ركز ضربه على مركز ملاحظة اللواء عند الكيلو متر ١٧,٥ والنقطة القوية لقواتنا غرب القناة عند الكيلو متر ١٠٤، وقد نجحت فصيلة صواريخ سام ٧ عند الكيلو متر ١٧ في إسقاط طائرة ميراج للعدو. وخلال الفترة من الساعة السادسة حتى الساعة السابعة مساء تم استكمال تطهير الدشم وتفتيش الملاجئ بواسطة مجموعات الاقتحام المدعمة بعناصر من المهندسين العسكريين وأطقم قاذفات لهب خفيفة. وبعد التأكد من خلو النقطة من قوات العدو، تم ترحيل الأسرى وكان عددهم ٢٦ أسيرا إلى مكتب مخابرات بور سعيد.

وفي الساعة الثامنة مساء، انتقل مركز ملاحظة اللواء ٣٠ مشاة مستقل إلى شرق القناة

في منطقة الكيلو متر ١٧ شمال النقطة القوية، وقامت مدفعية العدو بقصف النقطة قصفا مركزا، وكانت جملة خسائر اللواء ٣٠ مشاة، منذ بداية العملية حتى الساعة الثامنة مساء ٢٣ شهيدا (منهم ضابط واحد) و٧ جرحى(منهم ضابطان)، كما كانت جملة خسائر العدو في هذه المعركة ٦٠ قتيلا و٢٦ أسيرا.

وفي الساعة التاسعة والنصف مساء، أبلغ قائد مجموعة اقتناص الدبابات والصاعقة عن تقدم رتل مدرع للعدو من اتجاه بالوظة، فتم الضرب عليه بواسطة نيران دبابتين من طراز GS من مصطبة عند الكيلو متر ١٩ غرب القناة، فاضطرت الدبابات الإسرائيلية إلى الارتداد شرقا.

واستمرت مجموعات اقتناص الدبابات والصاعقة في التقدم شرقا حتى تم لها الوصول إلى منطقة تقاطع الطرق على بعد ٨ كيلو مترات شرق القناة، دون أي مقاومة، وقامت بتنظيم الدفاع عنها، وأمر قائد اللواء بدفع دوريات لتأمين طرق الاقتراب جنوبا وشمالا وشرقا، وتنظيم الدفاع عن الأرض المكتسبة.

سر النجاح الباهر لمعركة الكيلو متر (١٩)

كان سقوط النقطة القوية الإسرائيلية عند الكيلو متر ١٩ (الحصن الإسرائيلي لاهتزانيت) في الساعة الثالثة والنصف مساء يوم ٦ أكتوبر في أيدي قوات اللواء ٣٠ مشاة مستقل، أي بعد حوالي ساعة واحدة فقط من بدء مرحلة العمليات لاقتحام هذا الحصن، يعد زمنا قياسيا على مستوى الجبهة بأكملها، ومثالا ناجحا للتخطيط الجيد والتنفيذ السليم للخطة الموضوعة. واستكمالا لدراستنا لهذه المعركة، سوف نوضح أهم العوامل التي أدت إلى نجاحها بهذه الصورة الفريدة في نوعها، وذلك في النقاط التالية:

١ ـ عزل الحصن الإسرائيلي من جميع الجهات قبل بدء الهجوم الرئيسي ضده. وقد تم ذلك بوصول مجموعات القطع إلى مواقعها المحددة في الشمال والجنوب والشرق بنجاح، مما أتاح الفرصة لكتيبة المشاة المخصصة كقوة اقتحام رئيسية بتنفيذ مهمتها وفقا للخطة الموضوعة دون تدخل من أي قوة إسرائيلية من احتياطي العدو في العمق، علاوة على انهيار معنويات حامية الحصن عقب اكتشافها أن الحصن محاصر من جميع الجهات.

٢ ـ السرعة التي أمكن بها لمجموعة القطع الشرقية الوصول إلى المصطبة التي أعدها العدو من قبل كخط صد ورفع العلم المصري عليها ـ قبل بدء الهجوم الرئيسي على الحصن ـ رغم وقوعها في منطقة سبخية محدودة المحاور، وذلك بسبب توافر اللياقة وقوة التحمل لدى أفراد المجموعة.

٣ ـ الإصرار على تنفيذ المهمة مهما كانت التضحيات. وقد أدى اندفاع القادة الصغار من الضباط أمام أفراد وحداتهم الفرعية إلى تقوية عزيمتهم ومضاعفة جهدهم، وفي نفس الوقت إلى إحكام سيطرة القادة على جنودهم.

٤ ـ استخدام قاذفات اللهب الفردية بجرأة، وإطلاق قذفات اللهب على مداخل الدشم والملاجئ أدى إلى بعث الرعب في نفوس الإسرائيليين في الداخل ودفعهم إلى سرعة التسليم.

٥ ـ قطع جميع وسائل الاتصال بين الحصن وقياداته في العمق عن طريق قطع الأسلاك الكهربائية والخطوط السلكية للأجهزة الهاتفية وهوائيات الأجهزة اللاسلكية، مما أدى إلى إحساس أفراد الحصن بالعزلة، وبث في نفوسهم اليأس من إمكان وصول أي نجدات إليهم، وبالتالي انهيار الروح المعنوية.

٦ ـ كان لتدمير جهاز التلسكوب الرئيسي في الحصن الذي يكشف جميع تحركات القوات المصرية على الضفة الغربية، بواسطةأسلحة الضرب المباشر في اللحظات الأولى من المعركة، أثره الواضح في تمكن قوة الاقتحام من عبور القناة على مواجهة الحصن من غرب القناة إلى الشرق دون أي تدخل من العدو.

٧ ـ أثبتت الأسلحة الخفيفة المضادة للدبابات وبخاصة القاذف (آر بي جي ـ ٧) أنها من أقوى الأسلحة وأشدها فعالية وفتكا ضد دبابات العدو على المسافات القريبة، خاصة إذا كانت تستخدم بواسطة أفراد يتصفون بالجرأة وقوة الإيمان.

هذا، وفي الوقت الذي كانت فيه معركة الكيلو متر ١٩ دائرة على أشدها بين كتيبة مشاة من اللواء ٣٠ مشاة مستقل وحامية الحصن الإسرائيلي، كان اللواء ١٣٥ مشاة مستقل وأسلحة دعمه بقيادة العميد أ.ح محمد صلاح الدين عبد الحليم والمتمركز في القطاع الفرعي بور فؤاد، يقوم بتنفيذ المهمة التي تم إسنادها إليه، وهي الهجوم على النقطة القوية الإسرائيلية عند الكيلو متر ١٠ شرق القناة (الاسم الكودي لدى الإسرائيليين

أوركال Orkal من حصون خط بارليف)، وفي نفس الوقت الهجوم على النقطة القوية الإسرائلية شرق بور فؤاد على طريق لسان رمانة (الاسم الكودي لدى الإسرائيليين بودا بست Budapest من حصون خط بارليف)، وذلك بالتعاون مع القوات البحرية والقوات الجوية وقوات الدفاع الجوي مع تأمين قطاع بور فؤاد الفرعي ضد أي عمليات إبرار سواء من ناحية البحر أو الجو.

وكانت الخطة التي وضعت تقضي باستغلال ضربة الطيران التي كان من ضمن أهدافها قصف حصن بودابست شرق بور فؤاد، وكذا التمهيد النيراني للمدفعية الذي كان محددا له ٥٣ دقيقة، لمهاجمة النقطتين القويتين الإسرائيليتين عند الكيلو متر ١٠ وعلى طريق لسان رمانة شرق مدينة بور فؤاد في توقيت واحد وفقا للطريقة التالية:

١ - تقوم كتيبة مدعمة من اللواء ١٣٥ مشاة مستقل بمهاجمة النقطة القوية شرق بور فؤاد (حصن بودابست) من اتجاه الغرب، بالاشتراك مع إبرار بحري بقوة سرية صاعقة (من المجموعة ١٢٨ صاعقة) يتم إبرارها بحرا في المنطقة التي تبعد كيلو مترا واحدا شرق موقع العدو، وتقوم بالهجوم على الحصن الإسرائيلي من اتجاه الشرق، في عملية منسقة بين القوتين تحت ستر نيران المدفعية بهدف تدمير قوة العدو البشرية وأسلحته ومعداته والاستيلاء على الحصن الإسرائيلي، مع الاستعداد لصد وتدمير احتياطيات العدو التي تحاول نجدة الحصن أو استرداده.

٢ - في نفس التوقيت، تقوم كتيبة مدعمة أخرى من اللواء ١٣٥ مشاة، بمهاجمة نقطة العدو القوية عند الكيلو متر ١٠ (حصن أوركال) من اتجاهي الشمال والغرب بهدف تدمير قوة العدو البشرية وأسلحته ومعداته والاستيلاء على الحصن الإسرائيلي، مع الاستعداد لصد وتدمير احتياطيات العدو التي تحاول نجدة الحصن أو استرداده.

يتم الاستيلاء على النقطتين القويتين قبل أول ضوء يوم ٧ أكتوبر، ويكون اللواء ١٣٥ مشاة مستقل مسئولا عن تأمين المنطقة من كوبري البيلي شرق قطع مدينة بور فؤاد حتى الكيلو متر ١٤ شرق القناة، ويكون اللواء ١٣٥ مشاة مستعدا بعد ذلك لتطوير الهجوم على الشريط الساحلي في اتجاه رمانة بقوة كتيبة مشاة مدعمة بأوامر من قائد الجيش الثاني بعد وقفة تعبوية أو بدون وقفة تعبوية. وتم تخصيص فوج مدفعية متوسطة من عيار ١٣٠ مم لمعاونة اللواء ١٣٥ مشاة في العمليات التي أسند إليه تنفيذها.

معركة الكيلو متر ١٠ حصن أوركال

كان الحصن الإسرائيلي وفقا لما ورد في المصادر الإسرائيلية عبارة عن منطقة دفاعية كبيرة تتكون من ثلاثة حصون، هي أوركال (أ، ب، ج) . وعندما نشب القتال يوم ٦ أكتوبر ٧٣، كانت ترابط في أوركال قوة قوامها ٢٠ جنديا تحت قيادة النقيب جاد سوميخ Gad Somekh الذي كان يتولى قيادة قوات الحصن بقطاعاته الثلاثة. وكان معه في أوركال أ الملازم عيزرا Ezra. وفي أوركال ب كان يرابط ٦ من الجنود تحت قيادة الملازم دافيد أبو درهام David Abu Dirham، وكان يرابط في أوركال ج ١٨ جنديا تحت قيادة الملازم ديسبرج Desberg . وفي الساعة الثانية مساء يوم كيبور (٦ أكتوبر) قصفت الطائرات المصرية الموقع وركزت المدفعية المصرية غلالاتها عليه، فهرع الجنود الإسرائيليون يستترون داخل الملاجئ. وعلى الجانب المصري وفي أثناء التمهيد النيراني للمدفعية ووفقا للخطة الموضوعة، تم عبور مفرزة من جنود الصاعقة للقناة إلى الشاطئ الشرقي حيث قامت بعزل الحصن الإسرائيلي عند الكيلو متر ١١ (من اتجاه الجنوب).

ومن قطاع بور فؤاد في الشمال، قامت قوات المجهود الرئيسي (كتيبة مشاة عدا سرية من اللواء ١٣٥ مشاة) بالهجوم بالطريق البري في اتجاه الجنوب وفقا للخطة الموضوعة، وكانت تتقدمها بضع دبابات (مجهزة بدقاقات لتفجير الألغام). ولكن الهجوم لم يلبث أن توقف عقب تدمير دبابتين دقاقتين على أثر غرز الدبابات في الأرض السبخية قبل الوصول إلى حقل الألغام الممتد شمال الحصن الإسرائيلي والذي كان عمقه حوالي ١٥٠ مترا. وفي الوقت نفسه، قامت السرية الباقية من الكتيبة (عدا فصيلة)، والتي كانت قد أخذت موقعها على الشاطئ الغربي للقناة في مواجهة الحصن لمهاجمته من الناحية الغربية بعبور القناة، ولكنها إزاء كثافة نيران العدو لم تتمكن من الوصول إلا إلى الساتر الترابي على حافة المياه حيث توقفت. ولم تستطع الفصيلة الباقية من السرية (الاحتياطي) العبور خلف الفصيلتين الأماميتين، بسبب شدة قصف مدفعية العدو على المعابر، مما أدى إلى أن يجرف التيار قوارب الاقتحام المعدة لعبور الفصيلة في اتجاه الجنوب. وبذلك أصبحت الفصيلتان اللتان عبرتا من الغرب شبه معزولتين على الساتر الترابي بالضفة الشرقية. . ورغم توقف كتيبة اللواء ١٣٥ مشاة شمال الحصن أمام حقل الألغام، وتوقف فصيلتي المشاة التابعتين لها على الساتر الترابي غرب الحصن بعد عبورها القناة، فإن القوة المصرية ـ رغم تثبيتها في مكانها ـ اشتبكت بالنيران من اتجاهي الشمال والغرب مع القوة الإسرائيلية

التي كانت تواجهها، في (أوركال أ وأوركال ب) اشتباكا عنيفا مما ألحق بالإسرائيلين خسائر كبيرة. وحرصا على تحريك الموقف وتعزيز القوة الدافعة للهجوم، أصدر قائد قطاع بور سعيد اللواء عمر خالد تعليماته إلى العقيد أ. ح مصطفى العباسي قائد اللواء ٣٠ مشاة مستقل، بأن يدفع سرية من الكتيبة التابعة له، والتي كانت متمركزة في الاحتياطي جنوب بور سعيد عند الكيلو متر ١١ غرب القناة، بالعبور إلى الشاطئ الشرقي لمهاجمة القطاع الجنوبي من الحصن الإسرائيلي. وفي الساعة الرابعة مساء، يوم ٦ أكتوبر قامت السرية المشاة (من اللواء ٣٠ مشاة مستقل) بعبور القناة في قوارب اقتحام من جنوب الحصن الإسرائيلي. وعلى أثر وصولها إلى الشاطئ الشرقي للقناة، اندفعت صوب القطاع الجنوبي من الحصن (أوركال ج)، وخلال اختراقها للخنادق المحيطة بالموقع دار بين الجنود المصريين المهاجمين والجنود الإسرائيليين المدافعين قتال عنيف متلاحم انتهى بدخول المصريين إلى الحصن الجنوبي (أوركال ج) في حوالي الساعة السادسة مساء، وتمكن أفراد السرية المصرية من تطهير ملجأين للعدو ومن العثور على تعليمات شفرة العدو ومفاتيح الشفرة المستخدمة في الحصن الإسرائيلي، وتم تسليمها إلى مكتب المخابرات الحربية في بور سعيد في الساعة التاسعة مساء من نفس اليوم. وفي الساعة التاسعة والنصف مساء، قامت فصيلة المشاة التي تخلفت عن العبور مع سريتها بعد ظهر يوم ٦ أكتوبر (من كتيبة اللواء ١٣٥ مشاة) بسبب جرف التيار لقوارب الاقتحام، بالعبور إلى الشاطئ الشرقي للقناة حيث انضمت إلى باقي السرية في موقعها على الساتر الترابي بالضفة الشرقية غرب الحصن الإسرائيلي.

وقد سجلت المراجع الإسرائيلية قصة سقوط موقع (أوركال ج) في أيدي المصريين. ونذكر فيما يلي خلاصة لما ورد بشأنها: «هبط الظلام وأبلغ أوركال أ (الموقع الشمالي من الحصن) أن موقفه أصبح حرجا. وبعد أن سلم الملازم أبو درهام قيادة موقع (أوركال ب) إلى الرقيب آرييه (أحد المظليين السابقين) اتخذ أبو درهام طريقه إلى (أوركال أ) على ضوء بطارية يد. وعندما دخل الحصن، وجد مواقع النيران خالية ووجد الجنود في حالة انهيار. وعندما تفقد أرجاء الحصن، عثر على قائد الحصن النقيب جاد سوميخ قتيلا في أحد المواقع والملازم عيزرا قتيلا في موقع آخر. بادر أبو درهام إلى السيطرة على زمام الموقف، وأدرك أن الجنود في حالة يأس بسبب مصرع ضباطهم. وبعد إعادة تنظيم قوة الموقع (أ) وتسلم زمام القيادة، أجرى أبو درهام اتصاله بقائد موقع (أوركال ج) الملازم ديسبرج، وأبلغه هذا الضابط أن المصريين قد اخترقوا منطقة الحصن بالفعل، وأن قتالا متلاحما يدور

في الخنادق. وفي صباح الأحد شاهد أبو درهام من بعيد جنودا إسرائيليين يحملون علما أبيض، فأدرك أن حصن(أوركال ج) قد سقط نهائيا في أيدي المصريين».

وعند منتصف ليلة ٦/ ٧ أكتوبر، قرر قائد قطاع بور سعيد اللواء عمر خالد دفع جزء من احتياطيه (سرية من الكتيبة ٢٠٣ صاعقة) التي كانت ترابط غرب بور سعيد على طريق دمياط، للمعاونة في الاستيلاء على القطاعين الباقيين في الحصن الإسرائيلي، نظرا لتوقف كتيبة اللواء ١٣٥ مشاة (عدا سرية) أمام حقل الألغام شمال الحصن واليأس من إمكان اشتراكها في المعركة. وقد توجه المقدم أ.ح فاروق محمد الحفني رئيس عمليات القطاع بناء على تعليمات قائد القطاع إلى موقع كتيبة الصاعقة على طريق دمياط، حيث تم له إحضار سرية الصاعقة التي تقرر دفعها للاشتراك في مهاجمة الحصن. وبعد أن تلقى قائد سرية الصاعقة مهمته، وأجرى استطلاعه، قامت السرية بعبور القناة في الساعة الرابعة صباح يوم ٧ أكتوبر من جنوب القطاع ج حيث انضمت إلى قوة سرية المشاة (من اللواء ٣٠ مشاة مستقل) التي كانت تقوم وقتئذ بعملية تطهير القطاع ج من الحصن من بقايا قوات العدو. وفي الساعة السابعة والنصف من صباح يوم ٧ أكتوبر، أكملت السريتان تطهير باقى الملاجىء، وتم خلال ذلك قتل ستة أفراد من العدو وأسر فردين أحدهما طبيب، وقد قام قائد السرية من اللواء ٣٠ مشاة بتسليمهما إلى قائد اللواء ١٣٥ مشاة غرب القناة.

فشل الإسرائيليين في محاولة الهروب

في حوالي الساعة الثامنة من صباح يوم ٧ أكتوبر، بدأت السرية المشاة من اللواء ٣٠ مشاة بالاشتراك مع سرية الصاعقة في مهاجمة القطاع ب من اتجاه الجنوب، ونجحت السريتان في الاستيلاء على أحد الملاجىء في هذا القطاع حيث وقع جندي إسرائيلي في الأسر. وبعد قتال عنيف متلاحم، تمكنت السريتان في الساعة العاشرة صباحا من اقتحام ملجأ آخر في القطاع ب ومن قتل ثلاثة أفراد و أسر فردين آخرين للعدو. وكان اللواء عمر خالد قائد القطاع قد أصدر أمره في حوالي الساعة الثامنة والنصف صباحا إلى كل من العميد أ.ح صلاح عبد الحليم قائد اللواء ١٣٥ مشاة مستقل والعقيد أ.ح مصطفى العباسي قائد اللواء ٣٠ مشاة، للانتقال على الفور إلى الكيلو متر ١٠ للإشراف بشخصيهما على قواتهما بهدف سرعة الاستيلاء على القطاعين (ب وأ) بعد ذلك التأخير الذي جرى عن الموعد المحدد في الخطة.

وفي الساعة الحادية عشرة صباح يوم ٧ أكتوبر، وعند موقع الكيلو متر ١٠ غرب القناة، تم لقاء بين قائد اللواء ٣٠ مشاة وقائد اللواء ١٣٥ مشاة وقائد الكتيبة ٢٠٣ صاعقة وقائد كتيبة مدفعية الميدان (التابعة للواء ٣٠ مشاة). وبعد أن عرض قائد اللواء ١٣٥ مشاة آخر تطورات الموقف وعن فقده الاتصال مع قواته شرق القناة، وبعد أن انتقل القادة إلى نقطة الملاحظة للتعرف على أوضاع القوات على الأرض، تم صدور القرارات التالية:

١ - دفع سرية المشاة (من اللواء ١٣٥ مشاة) التي كانت لا تزال راقدة على الساتر الترابي شرق القناة خارج الحصن منذ عبورها في اليوم السابق، للتحرك من مكانها والانضمام إلى قوة سريتي المشاة والصاعقة جنوب القطاع ب للاشتراك معهما في مهاجمته وتطهيره. ونظرا لعدم وجود أي اتصال بين قائد اللواء ١٣٥ مشاة وهذه السرية، فقد قام نقيب من سرية المشاة (من اللواء ٣٠ مشاة) بناء على تعليمات قائده بالانتقال بقارب من الضفة الشرقية جنوب الحصن إلى موقع سرية المشاة (من اللواء ١٣٥) الراقدة على الساتر الترابي على الضفة الشرقية غرب الحصن، لإبلاغ قائد هذه السرية بالقرار الجديد للانضمام بسريته إلى قوات الاقتحام جنوب الحصن ب.

٢ - دفع عناصر من قاذفات اللهب (من اللواء ٣٠ مشاة) في قاربين للتحرك بجوار الشاطئ الشرقي للقناة من الكيلو متر ١٩ شرق القناة (نظرا لسقوط حصن لاهتزانيت في أيدي قوات اللواء ٣٠ مشاة في اليوم السابق) إلى الكيلو متر ١٠ شرق القناة لتدعيم قوة الاقتحام التي تهاجم القطاع ب.

٣ - تركيز نيران كتيبة مدفعية الميدان التابعة للواء ٣٠ مشاة على القطاع أ بالحصن لإسكات قوة العدو بداخله منعا لتدخلها في عملية اقتحام القطاع ب.

وفي الساعة الواحدة ظهرا يوم ٧ أكتوبر دارت معركة عنيفة داخل القطاع ب، وتم أسر ثلاثة أفراد من العدو. وفي الساعة الثالثة بعد الظهر أبلغ قائد اللواء ٣٠ مشاة قائد قطاع بور سعيد، بإتمام الاستيلاء على القطاع ب وانضمام باقي أفراد العدو بهذا القطاع إلى القطاع أ في الشمال لمحاولة الهروب إلى خارج الحصن. وبعد الاطمئنان إلى سلامة الموقف والتأكد من أن العدو يعد عدته لمحاولة الفرار في اتجاه الجنوب، أمر قائد القطاع قائد اللواء ٣٠ مشاة بالعودة إلى مركز ملاحظة اللواء في الكيلو متر ١٧ شرق القناة.

وفي الساعة الثالثة والنصف بعد الظهر، عبر قائد اللواء ١٣٥ مشاة ومعه قائد الكتيبة ٢٠٣ صاعقة القناة للسيطرة على قوات الاقتحام في الشرق. ونظرا لأن بقايا أفراد العدو

المتجمعين في القطاع أ كانوا يجهلون أن الحصن الإسرائيلي (لاهتزانيت) عند الكيلو متر ١٩ قد سقط في أيدي المصريين في اليوم السابق، فقد بذلوا محاولة فاشلة لمحاولة الهرب في اتجاه هذا الحصن في الجنوب، وتكدسوا جميعا فوق دبابتين وعربة نصف جنزير، واندفعوا وهم يطلقون نيران رشاشاتهم إلى الطريق المؤدي إلى الحصن الإسرائيلي في الجنوب عند الكيلو متر ١٩ . ولكنهم لم يسيروا طويلا، حتى اصطدموا في الساعة الرابعة والدقيقة العاشرة مساء بمجموعة القطع الشمالية التابعة للواء ٣٠ مشاة شمال حصن لاهتزانيت، فتم تدمير دبابة وعربة نصف جنزير. ورغم أن الدبابة الأخرى تمكنت من الإفلات والاندفاع في يأس إلى جنوب الحصن فإن مجموعة القطع الجنوبية التي كانت ترابط جنوب حصن لاهتزانيت تمكنت من تدميرها. وبلغ عدد القتلى من الجنود الإسرائيليين الهاربين ١٨ فردا، وتم أسر ٤ أفراد من طاقم إحدى الدبابتين. وفي الساعة الرابعة والدقيقة الخامسة والأربعين يوم ٧ أكتوبر تم رفع العلم المصري فوق حصن «أوركال، وتم الاستيلاء على قطاعاته الثلاثة (أ وب وج).

لماذا لم يسقط الحصن الإسرائيلي «بودابست» شرق بور فؤاد؟

كانت المهمة التي أسندت إلى اللواء ١٣٥ مشاة مستقل وأسلحة دعمه بقيادة العميد أ. ح صلاح الدين عبد الحليم والمتمركز في القطاع الفرعي بور فؤاد، تقضي باستغلال ضربة الطيران والتمهيد النيراني للمدفعية، لمهاجمة النقطتين الإسرائيليتين القويتين عند الكيلو متر ١٠ (حصن أوركال) وعلى طريق لسان رمانة شرق بور فؤاد (حصن بودابست) في توقيت واحد. وكانت الخطة التي وضعت للهجوم على النقطة القوية شرق بور فؤاد (حصن بودابست Budapest) تقضي بقيام كتيبة مدعمة من اللواء ١٣٥ مشاة بمهاجمة الحصن الإسرائيلي من اتجاه الغرب، بالاشتراك مع إبرار بحري بقوة سرية صاعقة (من المجموعة ١٢٨ صاعقة) يتم إبرارها بحرا في منطقة تبعد بضعة كيلو مترات شرق موقع العدو، وتقوم بالهجوم على الحصن الإسرائيلي من اتجاه الشرق في عملية منسقة بين القوتين، تحت ستر نيران المدفعية بهدف تدمير قوة العدو البشرية وأسلحته ومعداته، والاستيلاء على الحصن الإسرائيلي مع الاستعداد، لصد وتدمير احتياطات العدو التي تحاول نجدة الحصن أو استرداده.

وقد كانت القيادة الإسرائيلية تعطي اهتماما بالغا بحصن بودابست باعتباره مفتاح الطريق الساحلي بور فواد ـ العريش، ولذا أولت الحصن عناية غير عادية، سواء من ناحية

التجهيز الهندسي، أو من ناحية الموانع القوية التي أحاطته بها من كل جانب، أو من ناحية الأسلحة والمعدات التي زودته بها. هذا بالإضافة إلى إجراءات التأمين والنجدة عن طريق القوات البرية والجوية في حالة تعرض الحصن لأي هجمات ضده. وقد ساعدت طبيعة الأرض على زيادة مناعة الحصن. ففي شماله مباشرة يقع البحر المتوسط، وإلى الجنوب منه تقع ملاحات بور فؤاد الشاسعة، أما الشريط الساحلي الذي يقع عليه الحصن، فهو عبارة عن شريط ضيق من الأرض يصل في أعرض أجزائه إلى ١٧٠ مترا، ومن المستحيل القيام بأي مناورة خارجه بالمركبات أو الدبابات. ولذا فإن طرق الاقتراب المتاحة للوصول إليه عن غير طريق الشريط الساحلي، إما أن تكون بواسطة عناصر مترجلة تخوض في الملاحات للوصول إليه من الجنوب، ولكن يعيب هذا الطريق أن القوة المتقدمة عليه يتسم عملها بالبطء الشديد، والتعرض الكامل لأنواع النيران المختلفة من البر والجو، وإما عن طريق استخدام القوارب للقيام بعملية إبرار بحري للوصول إلى الحصن من الشمال أو إلى منطقة قريبة منه، ولكن يعيب هذه الوسيلة الاضطرار إلى الخضوع لحالة البحر، والحاجة إلى عدد كاف من القوارب ذات مواصفات خاصة من حيث نوعها وحمولتها، علاوة على تعرضها لقطع العدو البحرية خاصة لنشات الصواريخ، أو لطيرانه مما قد يؤدي إلى إغراقها.

ولمعاونة عملية الهجوم على حصن بودابست، أصدر اللواء أ.ح سعد مأمون قائد الجيش الثاني أمره بتدعيم القوة المخصصة للهجوم على الحصن بالوحدات والمعدات الآتية:

أ- عدد ٦ دقاقات لتفجير الألغام لتركيبها على الدبابات ت ٣٤ الموجودة باللواء ١٣٥ مشاة، بعد تجهيزها بالأذرع الخاصة بذلك بورشة مدرعات القطاع لاستخدامها في فتح الثغرات في حقل الألغام غرب الحصن الإسرائيلي، والذي يبلغ عمقه ٦٠٠ متر.

ب- ٨ عربات مدرعة برمائية.

ج- سرية هاون ٢٤٠ مم.

د- سرية صاعقة (من المجموعة ١٢٨ صاعقة)، ليتم إبرارها بحرا في مجموعتين شرق الحصن الإسرائيلي (إحداهما مجموعة قطع تبر على مسافة ٤ كيلو مترات شرق النقطة لعزلها من جهة الشرق، والثانية مجموعة هجوم تبر شرق النقطة بمسافة كيلو متر ونصف لمهاجمتها من ناحية الشرق لمعاونة الهجوم الرئيسي من غرب النقطة). وكان

المفترض أن تدعم قيادة الجيش الثاني القطاع بعدد ٢٤ قاربا مطاطيا من طراز زودياك لنقل سرية الصاعقة إلى أمكنتها المحددة، ولكن ذلك العدد لم يلبث أن خفض ليصبح ١٠ قوارب فقط. وقبل بدء العمليات يوم ٦ أكتوبر بثلاثة أيام أفادت قيادة الجيش الثاني قائد القطاع بعدم توافر أي قوارب لديها، وأن عليه تدبير هذا الأمر بمعرفته، واضطر قائد القطاع اللواء عمر خالد إلى استئجار قاربي صيد كبيرين (بلنص صيد) لنقل مجموعة الإبرار من ميناء بور سعيد إلى منطقة عملها التي تبعد ٤ كيلومترات شرق حصن بودابست. وتعدلت الخطة تبعا لذلك، إذ اقتصر عمل قوة الإبرار البحري على مجرد عزل النقطة من الشرق، وتم إلغاء الجزء الخاص بإبرار مجموعة الهجوم على مسافة كيلو متر ونصف لمهاجمة الحصن من الشرق لمعاونة الهجوم الرئيسي من الغرب.

المحاولة الأولى لاقتحام حصن بودابست

في الساعة الثانية من بعد ظهر يوم ٦ أكتوبر ٧٣، قام أكثر من ٢٠٠ طائرة مصرية من المقاتلات والمقاتلات القاذفة بعبور قناة السويس في اتجاه الشرق على ارتفاع منخفض لتنفيذ الضربة الجوية المركزة في عمق سيناء، واشتركت في هذه الضربة الجوية بعض القاذفات التكتيكية (إل ٢٨) وركزت قصفها على حصن بودابست الإسرائيلي شرق مدينة بور فؤاد. وقد اتضح أن بعض القنابل قد سقطت داخل الحصن، بينما سقط البعض الآخر خارجه. وفي الساعة الثانية وخمس دقائق، بدأ التمهيد النيراني للمدفعية في قطاع بور سعيد وفقا للخطة الموضوعة في أربع قصفات، استغرقت ٥٣ دقيقة عن طريق الرمي المباشر وغير المباشر على نقط العدو الحصينة واحتياطياته القريبة ومرابض مدفعياته ومراكز قياداته.

وفي أثناء فترة التمهيد النيراني للمدفعية وتنفيذا للخطة الموضوعة بدأت سرية الصاعقة في الإبحار من ميناء بور سعيد في قاربي صيد (بلنص) للوصول إلى المكان المحدد لها والذي يقع على مسافة ٤ كيلو مترات شرق حصن بودابست للقيام بمهمة عزل الحصن من الشرق، ومنع قوات العدو المدرعة من الوصول إليه لنجدته.

وفي التوقيت المحدد وعلى الشريط الساحلي، بدأ تحرك مجموعة الكتيبة المشاة من اللواء ١٣٥ مشاة مستقل وعناصر دعمها من مواقعها شرق بور فؤاد في اتجاه الحصن الإسرائيلي في الشرق. وكان ترتيب السير كما يلي: في المقدمة سارت ثلاث من الدبابات

الدقاقة المخصصة لفتح الثغرات في حقل الألغام تتبعها عناصر فتح الثغرات من أفراد المهندسين العسكريين، ثم عناصر قاعدة النيران المتقدمة، وأخيرا سرية مشاة من النسق الأول للكتيبة في عربات مدرعة برمائية مدعمة ببعض الدبابات من طراز ت ٣٤. وفور وصول الدبابات الدقاقة إلى حقل الألغام غرب الحصن، بدأت حامية الحصن في تركيز النيران عليها، مما أدى إلى تدميرها وتعطيلها بأكملها وتبعا لذلك توقفت جميع العناصر خلفها.

وبناءعلى قرار العميد أ.ح صلاح عبد الحليم قائد اللواء بدأت محاولة فتح الثغرة بالطريقة التبادلية، أي عن طريق عناصر المهندسين العسكريين، ولكن هذه المحاولة لم تستمر طويلا، فقد ظهرت في نفس الوقت طائرات العدو التي كانت تطير على ارتفاع منخفض والتي ركزت قذائفها على الدبابات والعربات المدرعة البرمائية، وأخذت في إطلاق نيران رشاشاتها على جميع القوات المتقدمة على الشريط الساحلي بين بداية حقل ألغام العدو والموقع الأول لقواتنا شرق بور فؤاد، والذي كان عرضه حوالي (١٧٠) مترا وطوله حوالي كيلو مترين. واستمر القصف الجوي في موجات متتالية لفترة تزيد على ساعتين ونصف الساعة دون أن تقابل الطائرات الإسرائيلية بأي مقاومة مما أدى إلى تدمير جميع الدبابات المشتركة في العملية، وكذا خمس عربات مدرعة برمائية، فضلا عن الخسائر الكبيرة في الأفراد. وقد اشتركت حامية الحصن الإسرائيلي مع الطائرات في إطلاق نيرانها من مواقعها الحصينة على القوة المصرية المتقدمة، مما شل فعاليتها وأفقدها قدرتها على الحركة والمناورة، وتبعا لذلك توقف الهجوم تماما من هذا الاتجاه وبدأت العناصر التي قامت بالهجوم في الارتداد غربا إلى مواقعنا شرق بور فؤاد تحت ضغط العدو.

وكانت قوة الصاعقة المنقولة في قاربي صيد (بلنص) قد نجحت في الوصول إلى المكان المحدد لها على مسافة ٤ كيلو مترات شرق الحصن الإسرائيلي دون أن تتلقى أي هجمات من طيران العدو أثناء إبحارها في اتجاه الشرق نظرا لأنها كانت تستخدم قاربي صيد مدنيين. وقد استمرت مجوعة الإبرار البحري (سرية الصاعقة) في محلها لمدة أربعة أيام وأمكنها أسر ٦ أفراد من العدو وإلحاق خسائر بدباباته وآلياته المرسلة لنجدة الحصن، وبذا حققت مهمتها في عزل الحصن من جهة الشرق بنجاح.

وأصدر قائد اللواء ١٣٥ مشاة مستقل أوامره إلى قائد مجموعة الكتيبة المشاة التي كانت قائمة بالهجوم بالتمسك بموقعه الدفاعي شرق بور فؤاد بعد ارتداده والعمل على استعادة

توازنه الدفاعي على الفور، وصد أي هجمات مضادة للعدو. ونظرا لفشل المحاولة الأولى في الاستيلاء على الحصن، فقد تم تحديد يوم ٨ أكتوبر لتنفيذ محاولة ثانية للهجوم عليه، وأخذ المقدم أ. ح على المزاحي قائد الكتيبة المشاة التي قامت بالمحاولة الأولى في إعادة تجميع كتيبته وعناصر دعمها وفقا لتعليمات العميد أ. ح صلاح عبد الحليم قائد اللواء ١٣٥ مشاة استعدادا لتكرار المحاولة، وتم للقطاع استئجار قاربي صيد (بلنص) لنقل عناصر من مجموعة الكتيبة المشاة إلى شرق الحصن، ولكن العدو قام بتركيز القصف الجوي ليلة ٧/ ٨ أكتوبر على مدينتي بور سعيد وبور فؤاد، خاصة الترسانة البحرية في بور فؤاد، التي كانت ترسو فيها قوارب الصيد. ونتيجة للخسائر التي حدثت، طلب قائد القطاع اللواء عمر خالد تأجيل المحاولة الثانية إلى موعد يحدد فيما بعد، وصدق اللواء أ. ح سعد مأمون قائد الجيش الثاني على هذا المطلب، انتظارا لإمداد قطاع بور سعيد بوسائل إبرار بحرية عن طريق القوات المسلحة. ونظرا لأن مجموعة القطع (سرية الصاعقة) التي تم إبرارها على بعد ٤ كيلو مترات شرق حصن بودابست تعرضت خلال الأيام الأربعة التي قضتها في موقعها لقصف عنيف من الطائرات ومدافع الدبابات، مما كبدها خسائر جسيمة في الأفراد والمعدات، فقد أصدر قائد القطاع أوامره بعودتها إلى الموقع الدفاعي شرق بور فؤاد.

التخطيط للقيام بالمحاولة الثانية ضد الحصن

سنحت الفرصة لقيادة قطاع بور سعيد للقيام بمحاولة ثانية لاقتحام الحصن الإسرائيلي على أثر تدعيم القطاع بالكتيبة ١٠٣ صاعقة (من المجموعة ١٣٩ صاعقة) التي وصلت من القاهرة يوم ١١ أكتوبر، وكذا بعد وصول عشرة قوارب فيبر جلاس جديدة وصلت من الإسكندرية يوم ١٤ أكتوبر، ولكن كان عيبها الرئيسي هو إرسالها إلى قطاع بور سعيد دون إجراء الصيانة اللازمة لها ودون تليين محركاتها.

وكانت الخطة التي وضعها العميد أ. ح صلاح عبد الحليم قائد اللواء ١٣٥ مشاة تتلخص في مهاجمة الحصن الإسرائيلي على النحو التالي:

١ ـ عزل الحصن عن طريق إمداداته ونجداته من الشرق باحتلال سرية صاعقة من الكتيبة ١٠٣ صاعقة مدعمة بفصيلة مقذوفات صاروخية مضادة للدبابات (مالوتكا) موقعا على بعد حوالي ٤ كيلو مترات شرق الحصن الإسرائيلي.

٢ ـ هجوم رئيسي تقوم به سرية من الكتيبة ١٠٣ صاعقة، وسرية من الكتيبة المشاة من اللواء ١٣٥ مشاة من اتجاه الشرق كنسق أول مع وجود سرية صاعقة في الاحتياطي خلفهما.

٣ ـ هجوم ثانوي تقوم به عناصر من كتيبة المشاة من اللواء ١٣٥ مشاة من اتجاه الغرب، مع بقاء سرية مشاة من نفس الكتيبة في الموقع الدفاعي شرق بور فؤاد في الاحتياطي.

٤ ـ إبرار بحري تقوم به قيادة الكتيبة المشاة من اللواء ١٣٥ على رأس سرية مشاة مدعمة (عدا فصيلة) بهدف النزول من البحر على الحصن الإسرائيلي مباشرة.

الأسس التي بنيت عليها خطة الهجوم

كانت الأسس التي بنيت عليها خطة الهجوم كالتالي:

١ ـ ضرورة توافر حماية جوية بالنسبة لقوة الهجوم لمنع طيران العدو من التدخل أثناء مهاجمة الحصن خاصة بالنسبة لقوة الهجوم الرئيسي شرق الحصن لبعدها عن وسائل الدفاع الجوي الخاصة بالقطاع حتى لا يتكرر ما حدث يوم ٦ أكتوبر أثناء المحاولة الأولى.

٢ ـ تعديل خطة الهجوم على الحصن لتكون من أكثر من اتجاه (من الغرب والشرق ومن الشمال عن طريق البحر) لكي يمكن استغلال نجاح أي اتجاه بدفع الاحتياطيات نحوه.

٣ ـ قيام عناصر الهجوم بسير اقتراب ليلي إلى المواقع الابتدائية للهجوم حتى يمكن تحقيق المفاجأة وتلافي تأثير طيران العدو.

٤ ـ عزل الحصن من الشرق على مسافة ٤ كيلو مترات لمنع دبابات العدو ومشاته من نجدته.

٥ ـ تخصيص احتياطي (سرية على الأقل) في كلا اتجاهي الهجوم (شرق وغرب الحصن) لتعزيز الهجوم واستغلال النجاح.

٦ ـ استخدام نفس قوة الهجوم التي قامت بالمحاولة الأولى لسابق خبرتها بهذه المهمة (ما عدا الدبابات والعربات المدرعة الخمس التي سبق تحطيمها أثناء هذه المحاولة).

٧ ـ القيام بتمهيد نيراني لمدة ٣٠ دقيقة بالمدفعية قبل اقتحام النقطة.

٨ ـ تحددت ساعة س (أي ساعة الهجوم على الحصن من الاتجاهات الثلاثة) لتكون الرابعة صباحا يوم ١٥ أكتوبر.

هذا، وقد قام العميد أ. ح صلاح عبد الحليم قائد اللواء ١٣٥ مشاة بعرض قرار الهجوم على اللواء عمر خالد قائد القطاع صباح يوم ١٣ أكتوبر، وبعد مناقشته تم التصديق عليه وأرسلت صورة منه إلى قيادة الجيش الثاني. وتم استغلال الفترة من ليلة ١٢/ ١٣ إلى يوم ١٤ أكتوبر في قيام عناصر الهجوم ـ خاصة الكتيبة ١٠٣ صاعقة التي قدمت من القاهرة يوم ١١ أكتوبر ـ باستطلاع المنطقة وطرق الاقتراب إليها خلال الملاحات، وذلك عن طريق إرسال دوريات استطلاع وعمل كمائن وإجراء المراقبة بالنظر بالإضافة إلى دراسة الصور الجوية المتيسرة عن الحصن الإسرائيلي والموانع المحيطة به.

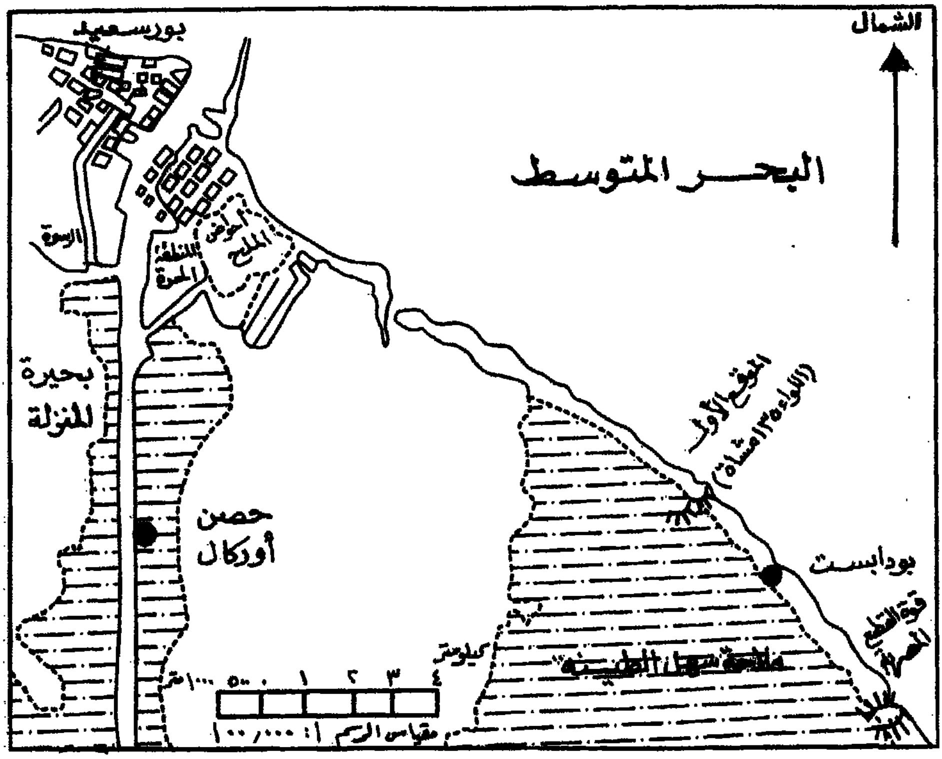
وقام قائد اللواء ١٣٥ مشاة وقادة وحداته الفرعية خلال يومي ١٣/ ١٤ أكتوبر باستكمال جميع إجراءات تنظيم المعركة وإعداد القوات للعملية الهجومية. وبحلول آخر ضوء يوم ١٤ أكتوبر كانت جميع العناصر جاهزة لتنفيذ المهمة، واستعدت الوحدات الفرعية لاتخاذ محلاتها في المواقع الابتدائية للهجوم.

وفي الساعة السابعة يوم ١٤ أكتوبر، بدأت تحركات عناصر تشكيل القتال من بور فؤاد لاتخاذ أوضاعها للهجوم خلال فترة الظلام على النحو التالي:

١ ـ قوة الهجوم الثانوي: تحركت إلى الموقع الأول لقواتنا شرق بور فؤاد، واتخذت أوضاعها تماما.

٢ ـ قوة الهجوم الرئيسي: تحركت من مواقعنا شرق بور فؤاد تحت قيادة قائد الكتيبة ١٠٣ صاعقة في أربع مجموعات على مراحل من خلال ملاحات بور فؤاد، ووصلت إلى محلاتها المحددة شرق النقطة، بعد سير اقتراب شاق نتيجة لطبيعة التربة الرخوة في الملاحات ودرجة تركيز الملح في مياهها، فقد كان من المحتم أن يسير أفراد القوة حفاة الأقدام حتى يمكنهم الخوض في هذه الملاحات.

٣ ـ قوة الإبرار البحري: بدأ إبحارها من ميناء بور سعيد في الساعة الثالثة صباحا يوم ١٥ أكتوبر تحت قيادة قائد الكتيبة المشاة القائمة بالهجوم، ووصلت في الساعة الرابعة والنصف صباحا متأخرة حوالي نصف الساعة عن موعدها بسبب سوء حالة البحر (بحر ٤)، ونتيجة لذلك تم إبرارها غرب الحصن بحوالي كيلو متر واحد بدلا من إبرارها على الحصن الإسرائيلي مباشرة وفقا للخطة.



معركة حصن بودابست ١٥ أكتوبر ١٩٧٣.

٤ ـ اعتبارا من آخر يوم ١٤ أكتوبر بدأ قصف الحصن طوال الليل وفقا لبرنامج إزعاج اشتركت فيه مدفعية القطاع بكل الأعيرة وصواريخ كاتيوشا من أحد اللنشات التابع للقاعدة البحرية ببور سعيد.

معركة حصن بودا بست

في الساعة الثالثة والنصف صباح يوم ١٥ أكتوبر بدأ التمهيد النيراني للمدفعية لمدة نصف ساعة، وقد اشتركت فيه مدفعية اللواء ١٣٥ مشاة وكتيبة مدفعية متوسطة. وفي الساعة الرابعة صباحا بدأت عملية اقتحام الحصن الإسرائيلي (بودابست) وفقا للخطة الموضوعة. فمن الغرب بدأت قوة الهجوم الثانوي في فتح نيرانها على الحصن لجذب انتباه حاميته وتحويل نيرانها إلى اتجاه الغرب. ومن الشرق بدأت قوة الهجوم الرئيسي في التقدم على الساحل في اتجاه الغرب، وفي مقدمتها سرية الصاعقة. وبعد اقتراب مفاجئ من الحصن، تمكنت عناصر من سرية الصاعقة من الدخول إلى ساحته وعلى رأسها قائد السرية، واشتبكت في الحال مع حاميته. ونظرا لنزول قوة الإبرار البحري غرب الحصن بسبب سوء حالة البحر، فقد انضمت إلى قوة الهجوم الثانوي، وبدأت القوة المشتركة تتقدم على الساحل للوصول إلى شمال النقطة من جهة البحر، ولكنها لم تلبث أن تعرضت لنيران كثيفة من اتجاه الحصن مما ألحق بها خسائر كبيرة وسقط قائد الكتيبة المشاة المقدم أ.ح علي المزاحي شهيدابعد أن أبدى شجاعة عظيمة وبطولة نادرة. وعلى الرغم من غزارة النيران المنهمرة من الحصن في جميع الاتجاهات، فقد نجحت عناصر من قوة الهجوم الرئيسي القادمة من الشرق في الولوج إلى الداخل في وجه سيل من نيران العدو فأصيب قائد سرية الصاعقة الذي كان أول من اقتحم الحصن بعدة طلقات، إلا أنه ظل مسيطرا على السرية أثناء اقتحامها. كما نجحت بعض العناصر من قوة الهجوم الثانوي في الوصول إلى الساتر الترابي من ناحية الشمال. ودار قتال عنيف بين العناصر المتقدمة المصرية وحامية الحصن. وأبلغ قائد الحصن الإسرائيلي قائد القطاع الشمالي للعدو عن طريق إشارة لا سلكية تم التقاطها بتحرج موقفه نظرا لنجاح بعض عناصر الهجوم المصرية في اقتحام الحصن، وطلب منه سرعة إمداده بالنجدات خاصة السلاح الجوي. ورغم النجاح المبدئي الذي حققته بعض العناصر المصرية من قوات الهجوم الرئيسي والثانوي، والذي كان من المفترض أن يتلوه تدفق باقي القوات خلفها إلى داخل الحصن، فإن الموقف

لم يلبث أن تغير إلى النقيض بعد قليل. فقد بدأ ضوء الفجر في الظهور، وبدأ تدفق طيران العدو لنجدة حامية الحصن، وقامت طلعة مكونة من طائرتين من طراز فانتوم بإلقاء قنابلها على قوات الهجوم الثانوي غرب الحصن، ولم تلبث أن انقضت عليها وهي تطلق سيلا من نيران رشاشاتها.

أما قوات الهجوم الرئيسي شرق الحصن، فقد تعرضت لهجمات عنيفة من الجو استخدم فيها العدو عددا من طائرات الهيليكوبتر مما أوقف تقدمها. واشتبكت قوة القطع المكونة من سرية من الصاعقة مدعمة بفصيلة مقذوفات صاروخية(مالوتكا) من موقعها على بعد أربعة كيلو مترات شرق الحصن مع سريتين من الدبابات الإسرائيلية التي تقدمت من الشرق لنجدة الحصن اشتباكا حاميا أدى إلى وقوع خسائر فادحة في الطرفين، فقد استشهد قائد سرية الصاعقة وقادة الفصائل، كما أصيب عدد كبير من الأفراد نتيجة لعدم وجود أي سواتر في هذه المنطقة، ولكن تم لسرية الصاعقة تدمير حوالي ٢٠ دبابة وعربة مدرعة نصف جنزير إسرائيلية، كما أصيب عدد كبير من أفراد العدو.

واستمرت المعركة محتدمة بين عناصر الهجوم المصرية التي كانت تحاول التقدم نحو الحصن من الشرق والشمال والغرب، والتي كان بعضها قد نجح بالفعل في الوصول إلى ساحته الداخلية، وحامية الحصن التي كانت تطلق على المصريين من داخل مرابضها ودشمها الحصينة سيلا من النيران المؤثرة، مما أدى إلى توقف محاولات الهجوم على الحصن، وبالتالي إلى توقف تدفق عناصرنا إلى داخله.

ونتيجة لتركيز هجمات العدو الجوية ونيران دباباته، تمكنت قوة العدو المدرعة القادمة من الشرق من إزاحة قوة القطع(سرية الصاعقة) شرق الحصن من مواقعها والتقدم نحو الحصن ضاغطة في طريقها على قوة الهجوم الرئيسي أيضا، مما أجبر جميع القوات المصرية شرق الحصن على الارتداد جنوبا في اتجاه ملاحات بور فؤاد للوصول إلى مواقعنا الدفاعية شرق المدينة. ولعرقلة ارتداد قواتنا عبر الملاحات، قامت ٤ طائرات إسرائيلية من طراز سكاي هوك بإلقاء كبسولات ضباب في الملاحات مما أدى إلى عدم وضوح الرؤية وإصابة عدد كبير من الأفراد نتيجة لتعثرهم أثناء السير.

ونظرا لتدهور الموقف وفشل الهجوم، أجرت قيادة القطاع اتصالا هاتفيا مع الفريق سعد الشاذلي بالمركز ١٠ بالقاهرة تم خلاله إيضاح الموقف له والتمسك بضرورة قيام المظلة

الجوية المصدق عليها من قبل لحماية قواتنا، والتي لم تصل إلى أرض المعركة في الموعد المحدد لها أثناء الهجوم، مما أدى إلى فشل العملية. وفي حوالي الساعة الثامنة صباح يوم ١٥ أكتوبر، قامت طلعة جوية مصرية مكونة من طائرتين من طراز سوخوي بالتوجه إلي ميدان القتال، وعندما وصلت فوق الحصن الإسرائيلي أسقط الدفاع الجوي للعدو إحداهما، وعادت الأخرى إلى قاعدتها دون أن يؤدي قدومهما إلى أي تغيير في الموقف. وعقب الفشل النهائي للهجوم تعرضت مواقعنا الدفاعية شرق بور فؤاد للقصف الجوي. وطلب قائد القطاع من قائد اللواء ١٣٥ مشاة التمسك بهذه المواقع حتى النهاية وتدمير أي قوات مدرعة للعدو تحاول الاقتراب منها. وطوال يوم ١٥ أكتوبر استمرت عودة الأفراد عن طريق الخوض في الملاحات في الجنوب للانضمام إلى مواقعنا الدفاعية شرق بور فؤاد حيث بدأت عملية إعادة التجميع وحصر الخسائر. وقد قامت مجموعة المدفعية خلال سير المعركة بتقديم المعاونة المستمرة لقواتنا ثم في ستر ارتدادها في اتجاه بور فؤاد، وكذا تدمير أي محاولة لدبابات العدو للتقدم نحو مواقعنا الدفاعية شرق بور فؤاد.

هذا، ولم تحاو ل قيادة قطاع بور سعيد إعادة الكرة والهجوم مرة أخرى على حصن بودابست بعد معركة يوم ١٥ أكتوبر، ولذا ظل هذا الحصن هو الحصن الوحيد من حصون خط بارليف الذي لم يسقط في أيدي القوات المصرية حتى نهاية الحرب.



ملحق صور الفصل الحادي عشر



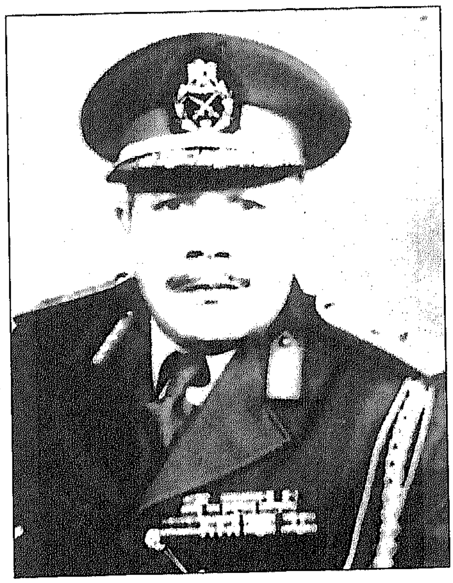
لواء عمر خالد حسن كامل

قائد قطاع بور سعيد.



عميد محمد صلاح الدين عبد الحليم

قائد اللواء ١٣٥ مشاة مستقل.



عميد مصطفى جودت العباسي

قائد اللواء ٣٠ مشاة مستقل.



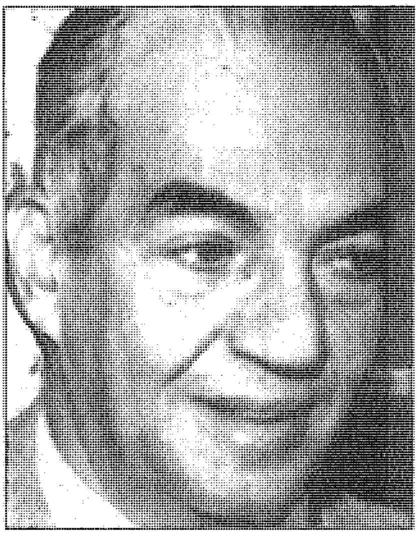
لواء سعد مأمون

قائد الجيش الثاني.



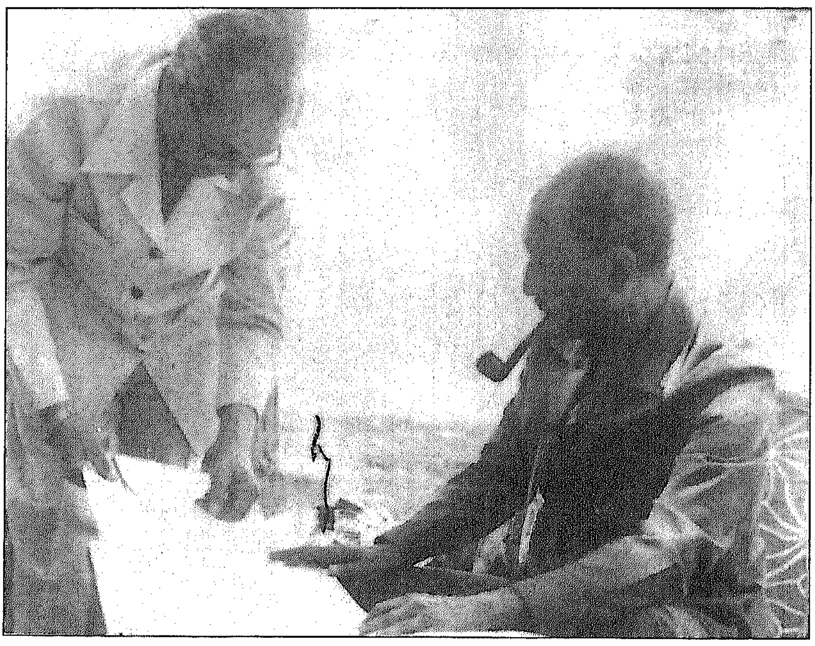
عقيد أسامة إبراهيم

قائد المجموعة ١٣٩ صاعقة.



مهندس مشهور أحمد مشهور

رئيس هيئة قناة السويس.



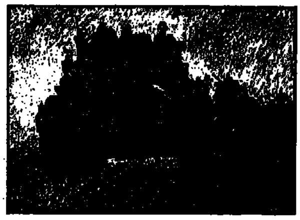
الرئيس السادات مع المهندس مشهور أحمد مشهور

رئيس هيئة قناة السويس.



المهندس مشهور أحمد مشهور

في حفل اعادة إفتتاح قناة السويس للملاحة بعد حرب أكتوبر ١٩٧٣.



■ الفصــل الثـاني عشر ■

العمليات الحربية فى منطقة البحر الأحمر

أطلق اسم محافظة البحر الأحمر على تلك الرقعة الشاسعة من الصحراء الشرقية التي تمتد من أبو الدرج شمالا عند الكيلو متر ١١٠ جنوب السويس حتى الحدود المصرية السودانية جنوبا عند خط عرض ٢٢ درجة شمالا، ومن ساحل البحر الأحمر شرقا حتى وادي النيل غربا. ويبلغ طول المحافظة من الشمال إلى الجنوب حوالي ١٠٨٠ كم، ويتراوح عرضها بين ١٨٠ كم و٣٠٠ كم. وقد بقي هذا الجزء من الوطن منطقة شبه مغلقة تخضع لنظام تصاريح الدخول تحت إشراف سلاح الحدود، حتى صدر القانون رقم ٨٨ لسنة ١٩٦١ باعتبارها منطقة مفتوحة تحت اسم محافظة البحر الأحمر، وتطبيق نظام الإدارة المحلية بها. وفي سبتمبر عام ١٩٦٨ تم إنشاء منطقة عسكرية بها لأول مرة، وأصبحت الغردقة عاصمة المحافظة مقرا لقيادة المنطقة العسكرية. وقد تولى قيادة المنطقة منذ إنشائها حتى حرب أكتوبر ١٩٧٣ خمسة من القادة هم اللواءات: صالح أمين وبهي الدين نوفل وسعد الشاذلي ومحيي إبراهيم وإبراهيم كامل محمد.

وكانت منطقة البحر الأحمر بحكم حجمها وموقعها قبل حرب أكتوبر ١٩٧٣ تعد أكبر المناطق العسكرية في مصر من حيث المساحة واتساع المواجهة، وإن كانت تعد في نفس الوقت أضعفها من حيث حجم القوات المتمركزة بها. وكانت مواجهتها تمتد من بير عديب شمالا على خليج السويس حتى بير أبو الغصون جنوبا على البحر الأحمر (حوالى ٨٠٠كم)، بينما يمتد عمقها غربا في اتجاه وادي النيل بمتوسط حوالي ١٠٠ كم. وبالنسبة لاتساع المنطقة، تم تقسيمها إلى خمسة قطاعات فرعية هي: القطاع الشمالي - قطاع رأس غارب - القطاع الأوسط - قطاع سفاجا - قطاع وادي قنا. وفضلا عن هذه القطاعات، كانت جزيرة شدوان التي تقع على المدخل الجنوبي لخليج السويس وعلى

مسافة حوالي ٣٥ كم من الساحل تعتبر نقطة دفاعية قوية. والمنطقة تعتبر شبه جرداء، إذ إن معظم أراضيها صحراوية جبلية، وتمتد سلاسل الجبال بمحاذاة ساحل البحر الأحمر مبتعدة عنه في بعض المناطق ومقتربة منه في مناطق أخرى. وتوجد قرب الساحل مناطق منبسطة تصلح لعمليات الإبرار البحري المعادي ولعمليات الإبرار الجوي أو لإسقاط قوات من المظلات. وتكثر المناطق الصخرية في المنطقة مما جعل من الصعب إعداد تجهيزات هندسية أو إنشاء تحصينات دفاعية بالقرب من الشاطئ إلا باستخدام المواد الناسفة.

وتتميز المنطقة بقلة مصادر المياه وندرة الإنتاج الزراعي واعتمادها في سد احتياجاتها على ما يجلب إليها من وادي النيل. وكانت هناك صعوبة في ذلك الأمر، نظرا لقلة الطرق العرضية التي تربط محافظة البحر الأحمر بوادي النيل، وعدم وجود خط سكة حديدية بينهما. هذا، وتحتل المحافظة مركزا متميزا بين محافظات الجمهورية في إنتاج البترول، وتوجد أهم الآبار في رأس غارب ورأس بكر وعامر وكريم وشقير والغردقة. وقد ألقى ذلك عبئا على القيادة العسكرية لمنطقة البحر الأحمر للمحافظة على هذه الثروة القومية وتأمين مناطق آبار البترول ضمانا لاستمرار الإنتاج الذي يمثل أهمية اقتصادية كبرى للبلاد.

ويوجد في خليج السويس داخل المنطقة كثير من الجزر التي تختلف بعضها عن بعض من جهة مساحتها ومن حيث بعدها عن الشاطئ، وأهمها شدوان والجفتون (شمال شرق الغردقة) ولكنها جميعا تتميز بطبيعتها الصخرية المتكلسة، مما يجعل من الصعب تجهيزها هندسيا والدفاع عنها بكفاءة، ولذا ينبغي تكديس احتياجاتها في داخلها لتحقيق اكتفائها الذاتي من مياه وتعيينات وذخيرة. ويوجد بالمنطقة عدة موانئ تجارية أهمها رأس غارب والغردقة وسفاجا والقصير ومرسى علم وبرنيس.

المهام التي أسندت لمنطقة البحر الأحمر

نظرا للاتساع الكبير لمواجهة المنطقة مع صعوبة توافر القوات لكي تتمركز في جميع المناطق الحيوية المهددة، فقد تطلب الأمر أن يكون أسلوب الدفاع عن المنطقة مرتكزا على الأسس التالية:

١ ـ تركيز الدفاع على الأهداف الحيوية، مع قبول مبدأ ترك ثغرات كبيرة خالية بين الجزر الدفاعية.

٢ ـ الاحتفاظ باحتياطيات خفيفة الحركة لدفعها في اتجاه أي قوات للعدو تنجح في الاختراق أو في التسلل بين الجزر الدفاعية بهدف القضاء عليها.

٣ ـ تهيئة الظروف لسرعة دفع الاحتياطيات باختيار أنسب الطرق وتوفير وسائل النقل المناسبة، سواء كانت برية أو جوية، لضمان وصول القوات في الوقت المناسب إلى الأماكن المهددة.

٤ ـ ضرورة توافر وسائل اتصال مستمرة لتحقيق السيطرة على القوات.

٥ ـ رفع مستوى الاكتفاء الذاتي من تعيينات ومياه وذخيرة وأدوات مهندسين عسكريين واحتياجات طبية.

٦ ـ إيجاد نظام دفاع جوي متكامل في المنطقة، عن طريق توافر وسائل الإنذار المختلفة من نقاط مراقبة ومحطات رادار على أبعاد مناسبة، ضمانا لعدم وجود ثغرات غير مغطاة بالكشف الراداري. وكذا بتمركز قوات دفاع جوي ذات قدرات عالية (مدافع مضادة للطائرات وصواريخ أرض جو سام) لسرعة التعامل مع الطائرات المغيرة.

وعندما وضعت هيئة العمليات بالقيادة العامة المصرية الخطة جرانيت ٢ المعدلة (الخطة بدر فيما بعد) التي كانت تقضي باقتحام خمس فرق مشاة قناة السويس على مواجهة حوالي ١٦٠ كم من بور سعيد شمالا إلى السويس جنوبا واجتياح خط بارليف وإنشاء منطقة من رءوس الكباري على عمق (١٠ ـ ١٢) كم شرق القناة، تركز الاهتمام أيضا على منطقة سيناء الجنوبية، إذ إن الشاطئ الشرقي لخليج السويس الذي يمتد حوالي ٣٠٠ كم من منطقة الشط شمالا حتى ميناء الطور جنوبا يعتبر امتدادا لجبهة الهجوم المصرية على قناة السويس. وكان من الضروري التخطيط للقيام بعمليات حربية على هذا الجزء المهم من مسرح العمليات، لحماية الجناح الأيمن للقوات المصرية شرق القناة، ولتخفيف الضغط عن رءوس الكباري المصرية في الشرق، بجذب احتياطيات العدو جنوبا في اتجاه لم يكن مخططا له من قبل.

ومن أجل تحقيق تلك الأهداف حددت تعليمات العمليات الصادرة في مارس ١٩٧٣ لمنطقة البحر الأحمر العسكرية المهام التالية:

١ ـ مع بدء اقتحام قناة السويس، تكون قوات منطقة البحر الأحمر العسكرية بالتعاون مع القاعدة البحرية في سفاجا وقوات الدفاع الجوي والقوات الجوية مستعدة لتنفيذ المهام الدفاعية في خليج السويس وساحل البحر الأحمر، وتأمين الأهداف الحيوية بالمنطقة ضد أعمال الإبرار البحري والجوي المعادية.

٢ ـ تقوم المنطقة اعتبارا من الليلة الأولى للهجوم المصري بالتعاون مع القوات البحرية والقوات الجوية بعمليات إبرار بحري وجوي بقوة كتيبتي صاعقة على الشاطىء الشرقي للخليج في مناطق شراتيب ـ أبو رديس ـ أبو زنيمة، بمهمة تدمير أهداف العدو الحيوية، وقطع خطوط مواصلاته في هذه المناطق وعرقلة تقدم احتياطياته وتأمين المضايق في جنوب سيناء، بهدف تحقيق السيطرة على الساحل الشرقي لخليج السويس ما بين أبورديس ورأس سدر.

٣ ـ يدفع اللواء الأول مشاة ميكانيكي من الفرقة ٦ مشاة ميكانيكية من تجميع الجيش الثالث الميداني، من منطقة الشط في اتجاه منطقة رأس مسلة للاستيلاء عليها، ثم يطور الهجوم في اتجاه أبو رديس لتحقيق السيطرة على الساحل الشرقي لخليج السويس، بالتعاون مع وحدات الصاعقة التي تم إبرارها من قبل في جنوب سيناء، ويقوم بالاستيلاء على أبو رديس كمهمة مباشرة (على أن يوضع تحت قيادة منطقة البحر الأحمر العسكرية بمجرد دفعه من رأس مسلة).

ويخصص للمجهود القتالي للإبرار البحري والجوي لوحدات الصاعقة: ٣٠ قاربا (زودياك) و ١٢ طلعة طائرة هيليكوبتر (مي ٨)على مرتين.

٤ ـ بعد وقفة تعبوية، تطور قوات منطقة البحر الأحمر العسكرية (اللواء الأول مشاة ميكانيكي بالتعاون مع قوات الصاعقة والقوات البحرية) هجومها جنوبا من أبو رديس على امتداد ساحل خليج السويس في اتجاه الطور وتستولي على منطقة الطور كمهمة نهائية، وتتحول القوات بعد ذلك للدفاع عنها، مع استمرار تأمين الساحل الشرقي لخليج السويس.

٥ ـ تسيطر قيادة منطقة البحر الأحمر العسكرية على تنفيذ العملية جرانيت ٢ المعدلة بإنشاء مركز قيادة مشترك يدفع في مكان متقدم وفقا لقرار قائد المنطقة، ويشكل بقيادة رئيس أركان المنطقة ويضم مجموعة عمليات بحرية ومجموعة عمليات من الصاعقة وضابط اتصال جوي، بمهمة السيطرة على الأعمال الدفاعية في المنطقة وتنفيذ عمليات الإبرار

الجوي والبحري على الشاطئ الشرقي لخليج السويس، ثم العبور خلف اللواء الأول مشاة ميكانيكي على الضفة الشرقية للقناة لقيادة عملياته من توقيت دفعه للاشتباك.

الأعمال التحضيرية للعملية الهجومية

● وصف سيناء الجنوبية :

كانت المنطقة المحددة لعمليات قوات منطقة البحر الأحمر العسكرية هي سيناء الجنوبية، وهي منطقة على شكل مثلث رأسه في الجنوب عند رأس محمد الذي يلتقي عنده الشاطئ الغربي لخليج العقبة مع الشاطئ الشرقي لخليج السويس. وتقع قاعدة المثلث في الشمال عند الحد الجنوبي لسيناء الوسطى، وضلع المثلث الغربي هو خليج السويس بينما ضلعه الشرقي هو خليج العقبة.

وتنقسم سيناء الجنوبية إلى ثلاثة أقسام:

١ ـ منطقة ساحل خليج السويس: ويحدها من الغرب الساحل الشرقي لخليج السويس، ومن الشرق الحد الغربي لجبال جنوب سيناء ويمتد فيها بحذاء البحر طريق أسفلتي يصل ما بين الشط في الشمال وشرم الشيخ في الجنوب ويبلغ طوله حوالي ٣٢٥ كيلو مترا، ويمر على مواقع عديدة منها عيون موسى ورأس سدر وأبو رديس والطور. ويمتد الطريق من الطور إلى شرم الشيخ خلال جبال سيناء فى أقصى الجنوب عبر وادي خشبي، وهو ممر ضيق طوله حوالي ١٠ كيلو مترات محصور بين الجبال من ناحيتي الشمال والجنوب، ولذا يعتبر من الممرات التي تتحدد داخلها التحركات. وتختلف هذه المنطقة طبوغرافيا في أجزائها المختلفة. فهي تارة عريضة ومستوية وتارة أخرى تزدحم بالهيئات الجبلية المتناثرة، مما يجعل سير الحملات الميكانيكية محدوداً بالطريق الأسفلتي. وتقع أهم حقول البترول في سيناء الجنوبية في هذه المنطقة، وهي البلاعيم بري والبلاعيم بحري وأبو رديس وسدر وعسل ومطارمة وفيران.

٢ ـ منطقة ساحل خليج العقبة: ويبدأ هذا الساحل من رأس محمد في الجنوب، ويمتد شمالا حتى بئر طابا، وتختلف طبيعة هذا الساحل من الناحية الطبوغرافية عن ساحل خليج السويس، إذ إن الأرض المنبسطة على خليج العقبة محدودة، وتوجد الخلجان والمراسي بصورة واضحة في هذا الساحل، ومن أشهرها مرسى بريكة وشرم الشيخ

وشرم المية ومرسى العاط ومرسى الدحيلة عند رأس نصراني، وتصب في هذه المراسي والخلجان بعض الوديان القادمة من جبال سيناء. وأهم المدن والمواقع: شرم الشيخ ورأس نصراني ودهب وواسط ونويبع وطابا.

٣ـ المنطقة الجبلية: تنتشر في هذه المنطقة أعلى قمم الجبال في سيناء بأسرها، ويطلق عليها اسم طور سيناء، وهي من أكثر أماكن سيناء والعالم وعورة، وتتألف من عدة قمم جبلية يبلغ عددها حوالي ١٥ قمة، من أشهرها جبل موسى، ويبلغ ارتفاعه ٢٢٨٥ مترا فوق سطح البحر، وجبل المناجاة ويبلغ ارتفاعه حوالي ١٨٥٤ مترا فوق سطح البحر، وجبل سانت كاترين ويبلغ ارتفاع قمته ٢٦٣٧ مترا فوق سطح البحر، وهي بذلك تعتبر أعلى قمة في سيناء.

الأعمال التحضيرية:

كانت القوات التي وضعت تحت قيادة منطقة البحر الأحمر العسكرية تتشكل من: لواءين من المشاة (مستقلين)، والمجموعة ١٣٢ صاعقة، ولواءي دفاع جوي، و٣ كتائب سيارات حدود، و٣ كتائب أمن وحراسة، وكتيبة دبابات مستقلة. ودعمت المنطقة قبل العمليات بالمجموعة ١٣٦ صاعقة للقيام بعمليات الإبرار البحري والجوي على الشاطئ الشرقي لخليج السويس.

وكان التحضير لعمليات الإبرار البحري والجوي في جنوب سيناء مهمة شاقة ومعقدة، فقد كانت تختلف عن أي عمليات أخري لقوات الصاعقة على طول الجبهة. ففضلا عن أنها كانت عمليات منفصلة وبعيدة عن قواتنا التي يفصلها عنها مانع مائي كبير هو خليج السويس الذي يتراوح عرضه ما بين ٢٥ و ٥٠ كيلو مترا فإنها كانت ستتم على مسرح عمليات يتميز بطبيعته الصعبة وجباله الوعرة وظروفه المعيشية القاسية، ولذا تطلب الأمر الكثير من الدراسة والعديد من التجهيزات.

وقد بدأت قيادة منطقة البحر الأحمر فور تلقيها تعليمات هيئة العمليات في مارس ١٩٧٣ في دراسة العملية المطلوب تنفيذها دراسة دقيقة، لمعرفة أفضل الوسائل والطرق لعبور وحدات الصاعقة خليج السويس والإبرار على شاطئه الشرقي. فبالنسبة للإبرار الجوي تم تحديد مناطق إقلاع الطائرات على الشاطئ الغربي للخليج. وعلى ضوء الدراسة الدقيقة للصور الجوية والخرائط ذات المقياس الكبير وتقارير الاستطلاع والمعلومات، تم

اختيـار الأراضي الصالحة لنزول الطائرات على الجانب الشرقي لخليج السـويس وتحديد خطوط سير طائرات الهيليكوبتر بما يحقق لها أكبر قدر من الأمان في أثناء تنفيذ مهامها دون التعرض للكشف الراداري أو نيران العدو . وبالنسبة للإبرار البحري ، قامت قيادة المنطقة بالتعاون مع العميد أ . ح جمعة إبراهيم قائد القاعدة البحرية بتحديد مناطق الإبحار لقواتنا على الشاطئ الغربي للخليج ، واختيار مناطق الإبرار البحري على شاطئه الشرقي وكذا تحديد خطوط سير القوارب البحرية عبر الخليج .

وفضلا عن ذلك ، أجريت الدراسات لمناطق التحميل بالنسبة لقواتنا وتحديد توقيتات الإقلاع والإبحار حتى تكون القوات فوق أهدافها في التوقيتات المحددة لها .

ونظرا لأن مركز القيادة المشترك تقرر أن يكون مقره في منطقة مرسى ثلمت ، فقد بدأ تجهيزه هندسيا بإنشاء الحفر والملاجئ وأغطية الرأس ونقاط الملء ، وتم الانتهاء من هذه التجهيزات الهندسية في ١١ سبتمبر ١٩٧٣ . وفي نفس الوقت ، قام رئيس الإشارة بالمنطقة بتأمين مواصلات السيطرة بمركز القيادة عن طريق إنشاء شبكة للاتصالات السلكية واللاسلكية بين المركز وقيادة المنطقة وقيادات القطاعات الفرعية التي بها مناطق الإقلاع والإبحار وقيادة مجموعة الصاعقة .

ووفقا لتعليمات قيادة المنطقة ، تم تجهيز مناطق الإبحار بالتجهيزات الهندسية لوقاية الأفراد والقوارب عند احتلالها ، وتأمين المواصلات سلكيا ولا سلكيا بين مناطق الإبحار والمناطق الابتدائية للتجميع ومع مركز القيادة المشترك في ثلمت . وصدرت التعليمات في ٢٧ سبتمبر ١٩٧٣ بتأمين مناطق الإبحار والإقلاع كما يلي :

١ ـ القطاع الشمالي:

منطقة الإقلاع الجوي بالتليمات ـ تؤمن بقوة تتشكل من سرية مشاة وسرية مضادة للطائرات وسرية مدفعية ميدان .

منطقة الإبحار بمرسى ثلمت ـ تؤمن بقوة تتشكل من سرية مشاة وسرية مضادة للطائرات وكتيبة مدفعية ميدان (عدا سرية) .

٢ ـ قطاع رأس غارب:

منطقة الإبحار في رأس روحمي ـ تؤمن بقوة سرية صاعقة (من المجموعة ١٣٢ صاعقة) وسرية مضادة للطائرات وسرية هاون ٨٢ مم .

وفي يوم ٢٩ سبتمبر ١٩٧٣، وصلت المجموعة ١٣٦ صاعقة بقيادة العقيد أ. ح كمال عطية، حيث تمركزت في منطقة التليمات بالقطاع الشمالي للمنطقة.

هذا وقد تشكلت مجموعة العمليات لإدارة مركز القيادة المشترك بقيادة العميد أ. ح إبراهيم رشيد رئيس أركان منطقة البحر الأحمر، وانضمت إليها مجموعة عمليات من المجموعة ١٣٦ صاعقة بقيادة العقيد أ. ح كمال عطية ومجموعة عمليات بحرية بقيادة العميد أ. ح علي غانم رئيس أركان القاعدة البحرية في سفاجا ومعه ٩ ضباط و ٦٠ ضابط صف وجنديا، كما انضم إليها ضابط اتصال من القوات الجوية. وتم تدريب قيادة مجموعة العمليات على الفتح والانتقال خلال الفترة من ٢٥ سبتمبر حتى ٣٠ سبتمبر ١٩٧٣.

و قد كان نجاح عمليات الإبرار البحري والجوي متوقفا بصفة أساسية على عنصر المفاجأة، لذا كان من الضروري مراعاة السرية الكاملة في أثناء مرحلة التحضيرات. وكان ذلك يستلزم مراعاة عدم استخدام الأجهزة اللاسلكية في الاتصالات. ونظرا لأن مواقع العناصر المشتركة في العملية، كمناطق تجميع وسائل الإبحار ومناطق الإبحار ومطار الإقلاع، كانت تفصلها بعضها عن بعض مسافات بعيدة تزيد أحيانا على ٥٠ كم، ولم يكن من السهل تدبير وسائل الاتصالات المباشرة عن طريق الهاتف لعدم توافر الخطوط السلكية، لذا أصدر قائد مجموعة العمليات إلى رئيس الإشارة بالمجموعة للاستفادة بخطوط الهاتف الهوائية المدنية لتحقيق الاتصال بين مختلف العناصر المشتركة في العمليات. وقد أمكن تحقيق ذلك بصورة جيدة قبل نهاية يوم ٥ أكتوبر.

التحول للعمليات الهجومية

● إجراءات تنظيم المعركة:

طبقا لتعليمات العمليات الصادرة في ٢٦ سبتمبر ١٩٧٣، تم رفع درجة الاستعداد لقوات المنطقة إلى الحالة الزائدة في الساعة الثامنة صباح يوم ٢٨ سبتمبر، وإلى الحالة الكاملة يوم أول أكتوبر. وتم إجراء عملية تنظيم المعركة لمستوى الكتيبة حتى يوم ٣٠ سبتمبر، ولمستوى السرية والفصيلة يومي ١ و٢ أكتوبر. وبدأ العمل بإشارات السيطرة والتعاون والتعارف والإنذار اعتبارا من الدقيقة الأولى يوم ٥ أكتوبر. وتم تمركز الوحدات المخصصة لتأمين نقط الإبحار والإقلاع اعتبارا من الساعة الخامسة صباحا يوم ٦ أكتوبر.

وفي يوم ٣ أكتوبر وصل من الإسكندرية عدد ٢٢ قاربا مطاطيا من طراز (زودياك)، و٤ قوارب من طراز (برترام) إلى القطاع الشمالي، وتم دفع ١١ قاربا (زودياك) وقاربين (برترام) من سفاجا إلى قطاع رأس غارب في نفس اليوم استعدادا لعمليات الإبرار البحري.

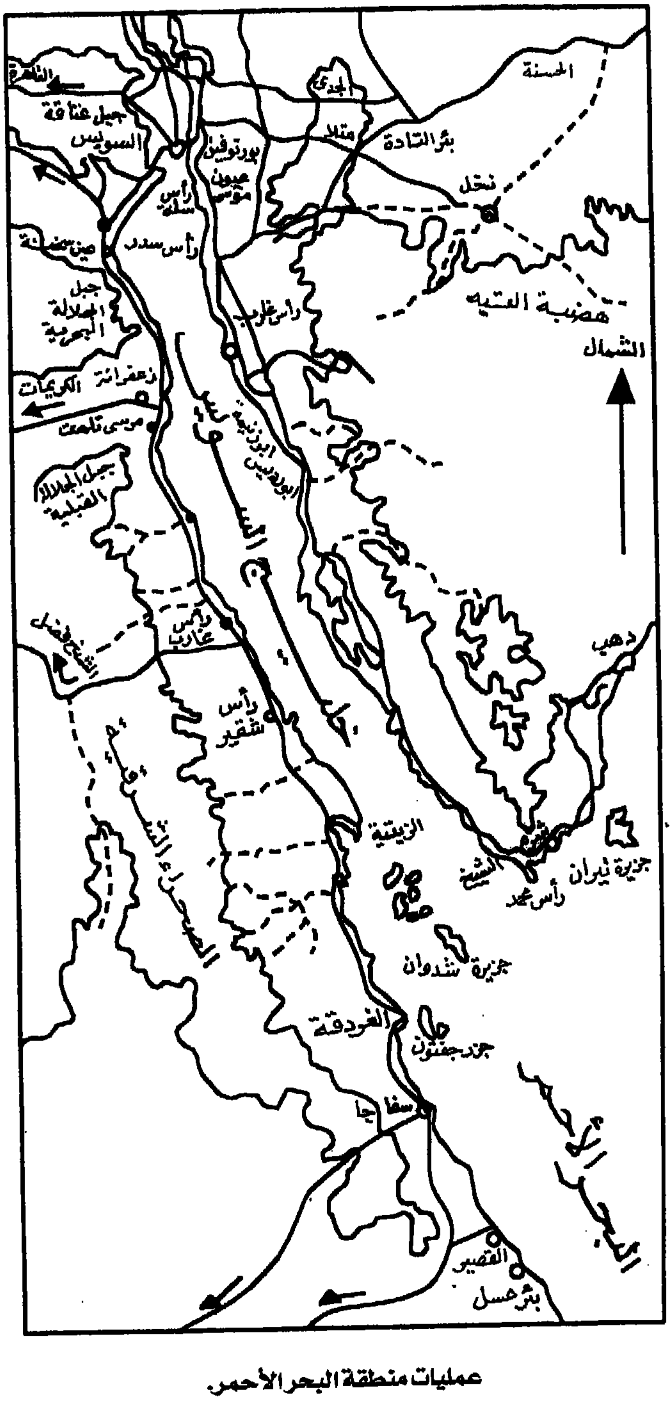
وخلال يومي ٤و٥ أكتوبر تم انتقال مجموعة عمليات البحر إلى مركز القيادة المشترك في رأس ثلمت في مجموعات، وتقع رأس ثلمت على بعد حوالى ٧ كم جنوب الزعفرانة. أما مركز القيادة المشترك، فكان يقع في المنطقة الجبلية التي تبعد عن مرسى ثلمت البحرى حوالى ٣ كيلو مترات غربا. وقد تم تجهيز مركز القيادة في سرية تامة مما جعل العدو عاجزا عن اكتشاف موقعه حتى نهاية الحرب.

ولتحقيق التأمين الإداري، تم تكديس جميع أصناف الاحتياجات من وقود وتعيينات ومياه في المواعيد المحددة قبل بدء العمليات الحربية. وقد دفعت جميع كميات الذخيرة ومواد المهندسين العسكريين المطلوبة لفترة العمليات بالكامل، وتم ذلك أيام ٤ و ٥ و٦ أكتوبر، وتم تشوينها وتوزيعها في مناطق مختلفة لتوفير الإخفاء والوقاية، مع الاستفادة ببعض التجهيزات الهندسية التي كانت موجودة من قبل.

وفور وصول مجموعة العمليات إلى مركز القيادة المشترك في رأس ثلمت، قام العميد أ.ح إبراهيم رشيد قائد المجموعة بعمل التلقين لخطة الإبرار البحري والجوي لقادة مجموعات الأسلحة، وتم إجراء عملية تنظيم التعاون لجميع مراحل المعركة بما في ذلك إمداد القوات بعد إبرارها على الشاطئ الشرقي لخليج السويس في مختلف الظروف. وفي الساعة الرابعة مساء يوم ٥ أكتوبر أرسل اللواء إبراهيم كامل قائد المنطقة إلى قائد مجموعة العمليات في رأس ثلمت، ضابط اتصال ومعه مظروف سري للغاية سجل بداخله ساعة س التي تحددت للقوات المسلحة لبدء العمليات الهجومية يوم ٦ أكتوبر ١٩٧٣. وأصدر قائد مجموعة العمليات، بعد أن تم تحديد ساعة س، أوامره النهائية لقادة المجموعات المشتركة محددا التوقيتات النهائية للإبرار البحري والجوي ومناطق الإقلاع للطائرات الهيليكوبتر ومناطق الإبحار للقوارب.

● **عمليات الإبرار البحرى والجوي:**

كانت الخطة الموضوعة لإبرار كتيبتي الصاعقة (من المجموعة ١٣٦ صاعقة) على



عمليات منطقة البحر الأحمر.

الشاطئ الشرقي لخليج السويس، تقضي بنقل سريتين عن طريق الإبرار الجوي و٤ سرايا عن طريق الإبرار البحري، وفقا للنظام التالي:

١ ـ الإبرار الجوي: يتم نقل سرية صاعقة مدعمة بفصيلة مضادة للدبابات وجماعة سام ٧ بواسطة سبع طائرات هيليكوبتر (مى ٨) من مطار التليمات ليلة ٦/ ٧ أكتوبر، بحيث تكون في الساعة الخامسة والربع مساء فوق منتصف الخليج، على أن تكون منطقة الإبرار شمال أبو رديس. ويتم نقل سرية الصاعقة الأخرى والمدعمة بفصيلة مضادة للدبابات بواسطة ٥ طائرات هيليكوبتر من نفس المطار وفي نفس الليلة، على أن يحدد توقيت الإقلاع بمعرفة مجموعة العمليات، على أن تكون منطقة الإبرار شرق وادي فيران.

٢ ـ الإبرار البحرى: يتم نقل ٤ سرايا صاعقة كما يلي:

أ ـ سرية صاعقة من منطقة رأس روحمي ليلة ٦/ ٧ أكتوبر بواسطة ١١ قاربا (زودياك) وقاربين(برترام) للحراسة إلى منطقة شمال رأس شراتيب (وتبلغ المسافة حوالي ٣٣ كيلو مترا).

ب ـ سرية صاعقة من مرسى ثلمت ليلة ٦/ ٧ أكتوبر بواسطة ١١ قاربا (زودياك) وقارب (برترام) للحراسة إلى منطقة جنوب أبو زنيمة (وتبلغ المسافة حوالي ٤٠ كم)، ويتم تدعيم السرية بواسطة فصيلة مضادة للدبابات تنقل إلى المنطقة ليلة ٧/ ٨ أكتوبر بواسطة ٦ قوارب (زودياك) وقارب (برترام) للحراسة.

جـ ـ سرية صاعقة من مرسى ثلمت ليلة ٦/ ٧ أكتوبر بواسطة ١١ قاربا (زودياك) وقارب (برترام)للحراسة إلى منطقة جنوب رأس ملعب (جبل حمام فرعون)، وتبلغ المسافة حوالي ٢٥ كيلو مترا.

د ـ سرية صاعقة من مرسى ثلمت ليلة ٧/ ٨ أكتوبر بواسطة ١١ قاربا (زودياك) وقارب (برترام) للحراسة إلى منطقة شمال رأس ملعب (رأس لجيَّة) وتبلغ المسافة حوالي ٢٣ كيلو مترا.

٣ ـ عمليات الإبرار التي تمت:

أ ـ تم تنفيذ الإبرار الجوي لسرية صاعقة في الساعة الخامسة والربع مساء من مطار التليمات إلى منطقة شمال أبو رديس بقوة ٥ طائرات هيليكوبتر (مي ٨)، كما تم إبرار فصيلة

استطلاع إلى منطقة رأس شراتيب بقوة طائرة هيليكوبتر واحدة. وعادت ٥ طائرات هيليكوبتر. و أفاد قائد الوحدة الجوية أن الإبرار الجوي في منطقة أبو رديس تم تحت ضغط العدو مما يصعب معه القيام بالرحلة الثانية إلى نفس المنطقة. وفي الساعة السابعة والدقيقة الخامسة والأربعين مساء تم تنفيذ الإبرار الجوي للسرية الأخرى إلى منطقة رأس شراتيب بقوة ٥ طائرات هيليكوبتر.

ب ـ في آخر ضوء يوم ٦ أكتوبر لم يتيسر تنفيذ عملية الإبرار البحري لسرايا الصاعقة الأربع التي كان من المقرر القيام بها لعدم صلاحية معظم القوارب المطاطية (زودياك) رغم المحاولات المتكررة للتغلب على أعطالها الفنية، مما استدعى أن يقترح قائد مجموعة العمليات استبدال وسيلة الإبرار لتكون جوية بالهيليكوبتر، وقد صدق قائد المنطقة وهيئة العمليات على هذا الاقتراح. وقد تطلب ذلك تعديل أماكن الإبرار الأصلية لتتناسب مع الإبرار الجوي، كما تم تعديل جداول التحميل وأماكن تمركز وحدات الصاعقة (بالتنسيق مع العقيد أ.ح كمال عطية قائد المجموعة ١٣٦ صاعقة).

وفي الساعة الثامنة والدقيقة الأربعين مساء يوم ٨ أكتوبر، قامت ٨ طائرات هيليكوبتر بإبرار سرية صاعقة في المنطقة جنوب أبوزنيمة. وفي الساعة الثامنة والنصف مساء من نفس اليوم قامت طائرتا هيليكوبتر برحلة إمداد جوي لوحدات الصاعقة برأس شراتيب وأبو رديس. وقبل منتصف الليل بخمس دقائق، تم إبرار سرية صاعقة في منطقة شمال لجية بعدد ٦ طائرات هيليكوبتر، وبذلك تم إبرار أربع سرايا صاعقة وبعض فصائل المعاونة جوا بنجاح بعد أن اقتصر الإبرار على النقل بطائرات الهيليكوبتر فقط. وكانت خسائرنا في جميع عمليات الإبرار طائرتي هيليكوبتر، إحداهما سقطت يوم ٦ أكتوبر والثانية يوم ٨ أكتوبر، وكان ذلك بعد تمام تنفيذها لعملية الإبرار.

تطور العمليات على محور عيون موسى أبو رديس

كان التخطيط الذي وضعته القيادة العامة بشأن العمليات الحربية التي ستجرى تحت قيادة منطقة البحر الأحمر العسكرية في منطقة سيناء يتلخص فيما يلي:

١ ـ إبرار كتيبتي صاعقة من المجموعة ١٣٦ صاعقة ليلة ٦/ ٧ أكتوبر على الشاطئ الشرقي لخليج السويس في مناطق شراتيب ـ أبو رديس ـ أبو زنيمة، بمهمة تدمير أهداف

العدو الحيوية وقطع خطوط مواصلاته في هذه المناطق وعرقلة تقدم احتياطياته وتأمين المضايق في جنوب سيناء، بهدف تحقيق السيطرة على الساحل الشرقي لخليج السويس ما بين رأس سدر وأبو رديس.

٢ ـ بعد عبور اللواء الأول مشاة ميكانيكي من الفرقة ٦ مشاة ميكانيكية قناة السويس ليلة ٦/ ٧ أكتوبر، يوضع تحت قيادة الجيش الثالث ويكون جاهزا للدفع للاشتباك اعتبارا من الساعة الخامسة صباح يوم ٧ أكتوبر بهدف الاستيلاء على رأس مسلة (على بعد ١٧ كم جنوب الشط). واعتبارا من أول ضوء يوم ٨ أكتوبر، يدفع اللواء للاشتباك من منطقة رأس مسلة (على أن يخرج اعتبارا من هذا التوقيت من تحت قيادة الجيش الثالث ويوضع تحت قيادة منطقة البحر الأحمر العسكرية).

وتكون مهمته تطوير الهجوم في اتجاه أبو رديس لتحقيق السيطرة على الساحل الشرقي لخليج السويس، بالتعاون مع وحدات الصاعقة التي تم إبرارها من قبل في جنوب سيناء، ويقوم بالاستيلاء علي أبو رديس كمهمة مباشرة. وبعد وقفة تعبوية يتم تطوير الهجوم بالتعاون مع قوات الصاعقة والبحرية للاستيلاء على منطقة الطور كمهمة نهائية.

٣ ـ تسيطر قيادة منطقة البحر الأحمر العسكرية على تنفيذ العملية جرانيت ٢ المعدلة بإنشاء مركز قيادة مشترك تديره مجموعة عمليات، وقد تشكلت مجموعة العمليات بقيادة العميد أ. ح إبراهيم رشيد رئيس أركان المنطقة، وانضمت إليها مجموعة عمليات بحرية بقيادة العميد أ. ح على غانم ومجموعة عمليات من الصاعقة بقيادة العقيد أ. ح كمال عطية وضابط اتصال جوي، بمهمة تنفيذ عمليات الإبرار الجوي والبحري على الشاطئ الشرقي لخليج السويس. وفور إتمام ذلك تعبر مجموعة العمليات قناة السويس إلى الضفة الشرقية لقيادة عمليات اللواء الأول مشاة ميكانيكي من توقيت دفعه للاشتباك من رأس مسلة.

هذا، ولم يتم تنفيذ عمليات الإبرار البحري والجوي على الشاطئ الشرقي لخليج السويس وفقا للخطة الموضوعة، التي كانت تقضي بنقل سريتين من الصاعقة عن طريق الإبرار الجوي و٤ سرايا صاعقة عن طريق الإبرار البحري، نظرا لإلغاء عملية الإبرار البحري كلية بسبب عدم صلاحية معظم القوارب المطاطية (زودياك)، مما أدى إلى استبدال وسيلة الإبرار لتكون جوية بالهيليكوبتر. وتبعا لذلك لم يتيسر الإبرار الجوي إلا لعدد ٤ سرايا صاعقة فقط. ففي ليلة ٦/ ٧ أكتوبر تم إبرار سريتين وفصيلة استطلاع في منطقة رأس

شراتيب، وفي ليلة ٨/ ٩ أكتوبر تم إبرار سريتين إحداهما في المنطقة جنوب أبو زنيمة، والثانية في منطقة شمال الجية. وفي الساعة الثامنة والنصف مساء يوم ٨ أكتوبر قامت طائرتا هيليكوبتر برحلة إمداد جوي لوحدات الصاعقة برأس شراتيب وأبو رديس.

انتقال مجموعة العمليات إلى قطاع الجيش الثالث

كان من المقرر وفقا للخطة الموضوعة أن يعبر اللواء الأول مشاة ميكانيكي قناة السويس ليلة ٦/ ٧ أكتوبر، ولكن نظرا للتأخير الذي حدث في إقامة كباري الفرقة ١٩ مشاة ـ التي كان من المقرر عبور اللواء الأول عليها ـ بسبب صعوبة فتح الممرات في الساتر الترابي شرق القناة في هذا القطاع، فقد أدى ذلك إلى أن يتأخر عبور اللواء الأول حوالي ٤٨ ساعة، ولذا لم يتمكن من العبور إلا ليلة ٨/ ٩ أكتوبر. وفي الساعة العاشرة صباحا يوم ٩ أكتوبر تم دفع اللواء الأول مشاة ميكانيكي من خط الدفع المحدد له داخل رأس كوبري الفرقة ١٩ مشاة، ولم تمض أكثر من ٧٥ دقيقة على بدء التحرك حتى تمكنت المفرزة الأمامية (كانت تتكون من كتيبة مشاة ميكانيكية مزودة بمركبات مدرعة BMP وكتيبة دبابات اللواء)من الاستيلاء على الموقع الإسرائيلي الحصين في عيون موسى (على بعد حوالي ١٠ كيلو مترات جنوب الشط) بدون قتال. فقد لاذت الحامية الإسرائيلية بالفرار عندما شعرت باقتراب اللواء المصري بسبب انهيار الروح المعنوية لأفرادها عقب علمهم بسقوط خط بارليف وأن موقعهم أصبح منعزلا. وكان الموقع الإسرائيلي في عيون موسى يضم ٦ مدافع بعيدة المدى من طراز هاوتزر ١٥٥ مم مثبتة على قواعد خرسانية، وكانت مصدر تهديد دائما لمدينة السويس خلال حرب الاستنزاف. وواصلت المفرزة الأمامية تقدمها جنوبا في اتجاه رأس سدر تتبعها الكتيبتان الخلفيتان. وفي الساعة الرابعة والنصف مساء اصطدمت المفرزة الأمامية بقوة إسرائيلية تقدر بحوالي سرية دبابات مدعمة بمقذوفات صاروخية من عيار ١٠٦ مم وبطارية مدفعية كانت تحتل جبل المرازا (على بعد حوالي ٧ كم جنوب عيون موسى). وأرغمت المفرزة الأمامية على التوقف نظرا لتحكم القوة الإسرائيلية في محور التقدم، وتوقف بالتالي تشكيل اللواء الأول عن التقدم، واحتلت قيادة اللواء والكتيبتان الخلفيتان مواقع على مقربة من منطقة عيون موسى.

ورغم أنه كان من المفترض وفقا للخطة الموضوعة ألا يوضع اللواء الأول تحت قيادة منطقة البحر الأحمر العسكرية إلا بعد دفعه للاشتباك من خط الدفع المحدد جنوب رأس

مسلة، فإن سوء أوضاع اللواء من الناحيتين التكتيكية والمعنوية بسبب تعرضه للقصف الجوي دفع القيادة العامة إلى إصدار تعليماتها إلى قيادة منطقة البحر الأحمر إلى سرعة إرسال مجموعة العمليات التي كان من ضمن مهامها وفقا للخطة الموضوعة، العبور خلف اللواء الأول مشاة ميكانيكي إلى الضفة الشرقية للقناة لقيادة عملياته في اتجاه أبورديس (تفاصيل المرحلة الأولى مذكورة بالفصل الثالث). وفي حوالي الساعة الثانية من بعد ظهر يوم ٩ أكتوبر، أصدر اللواء إبراهيم كامل قائد منطقة البحر الأحمر أمره إلى العميد أ.ح إبراهيم رشيد قائد مجموعة العمليات بالاستعداد للتحرك إلى قطاع الجيش الثالث.

وفي الساعة الثالثة والنصف مساء بدأ تحرك المجموعة بعد أن انفصلت عنها مجموعتا البحرية والصاعقة، ووصلت المجموعة إلى مكان تمركزها في منطقة الكيلو متر ٩٨ طريق القاهرة السويس في الساعة الثامنة مساء يوم ٩ أكتوبر، وكانت تتشكل من قائد المجموعة ومساعده المقدم أ.ح محمد يوسف ضابط العمليات وضابط إشارة وضابط استطلاع وضابط إمداد وتموين، وكانت تستخدم أثناء تحركها ٥ عربات ركوب و٥ عربات لاسلكي. وفي الساعة الرابعة صباحا يوم ١٠ أكتوبر، تم اتصال الفريق الشاذلي رئيس الأركان بقائد مجموعة العمليات هاتفيا في قيادة الجيش الثالث، وأبلغه أن مندوبا من هيئة العمليات في الطريق إليه ومعه تعليمات خاصة بمهمة اللواء الأول مشاة ميكانيكي، كما سيقوم بتلقينه بعض النصائح الشفوية المهمة لوضعها في الاعتبار عند تنفيذ مهمة اللواء. وفي الساعة السابعة والدقيقة الخمسين صباح يوم ١٠ أكتوبر، وصل مندوب هيئة العمليات العقيد أ.ح حسن الزيات إلى مركز القيادة الرئيسي للجيش الثالث، وأبلغ قائد مجموعة العمليات أن أوامر القائد العام الفريق أول أحمد إسماعيل تنص على ما يلي:

١ ـ تتم مهمة اللواء الأول مشاة ميكانيكي بمجموعات قتال بعد آخر ضوء يوم ١٠ أكتوبر من الخط جنوب رأس مسلة في اتجاه رأس سدر والمدخل الغربي لمضيق سدر، ويجري الاتصال مع قوة الصاعقة التي تم إبرارها في المضيق.

٢ ـ يتم الاستيلاء على هذه المناطق قبل أول ضوء يوم ١١ أكتوبر.

٣ ـ يؤمن الجيش الثالث دفع اللواء الأول مشاة ميكانيكي وفقا لما هو مسجل في الخطة.

٤ ـ يوضع اللواء الأول مشاة ميكانيكي تحت قيادة مجموعة عمليات البحر الأحمر

التي توضع بدورها تحت قيادة الجيش الثالث، حتى إعادة دفع اللواء من الخط جنوب رأس سدر.

وأضاف العقيد أ. ح حسن الزيات أن الفريق الشاذلي ينصح بأن تتم الأعمال القتالية للواء أثناء الليل وبالمجموعات. وقد أراد قائد مجموعة عمليات البحر الأحمر أن يستوضح من مندوب هيئة العمليات عن المهمة التي يمكن أن تؤديها مجموعته في أثناء المرحلة التي تسبق دفع اللواء من رأس سدر؛ إذ لا توجد قوات أخرى خلاف اللواء الأول تحت قيادة المجموعة، في الوقت الذي توجد فيه قيادة كاملة للواء بجميع أفرعها، ولكن العقيد الزيات لم يستطع توضيح سر هذه التركيبة العجيبة. . . (أي وضع قيادة مجموعة ليس لديها سوى إمكانات محدودة فوق قيادة لواء لديها كل إمكانات القيادة والسيطرة) وكان كل ما أمكن له تبريره هو أنها ناحية معنوية نظرا لتولد شعور لدى القيادة العامة بضعف الروح المعنوية في هذا اللواء وعدم وجود الإصرار لديه لتحقيق المهمة.

وفي الساعة التاسعة والدقيقة الخامسة والأربعين، قابل قائد مجموعة العمليات اللواء عبد المنعم واصل في مركز قيادته المتقدم، وحضر معه المقابلة العقيد أ. ح حسن الزيات الذي أبلغ اللواء واصل أوامر القائد العام، وكانت تعليمات قائد الجيش الثالث لقائد مجموعة العمليات ما يلي:

١ ـ يتم عبور مجموعة العمليات إلى شرق القناة يوم ١٠ أكتوبر.

٢ ـ تعطى أسبقية لعبور المجموعة على أحد معابر الجيش الثالث بعد عبور ذخيرة وحدات النسق الأول.

٣ ـ يقوم رئيس إشارة الجيش بتسليم المجموعة ـ قبل التحرك ـ جميع البيانات الخاصة بالاتصال اللاسلكي.

وعند الظهر تحرك قائد المجموعة ومعه المقدم أ. ح محمد يوسف ضابط عمليات المجموعة وتم عبورهما القناة في عربة لاسلكي وحدهما نظرا لازدحام المعابر، وذلك لضمان سرعة الوصول إلى اللواء الأول مشاة ميكانيكي، وقد تعرضت العربة للقصف الشديد من المدفعية الإسرائيلية في منطقة المعابر، ثم بعد ذلك في منطقة اللواء السابع مشاة من الفرقة ١٩ مشاة.

وفي الساعة الثانية مساء، وصل العميد أ. ح إبراهيم رشيد قائد المجموعة إلى المنطقة

الخلفية للواء الأول، والتقى هناك بالعقيد ماجد دنيا رئيس أركان اللواء، الذي كان متجها للخلف، وقال إنه في طريقه لمقابلة قائد الجيش الثالث لتوضيح موقف اللواء الأول من حيث حجم الخسائر والحالة المعنوية السيئة التي غدا عليها نتيجة للقصف الجوي المعادي. ولم يوافق قائد المجموعة على هذا الإجراء من رئيس أركان اللواء، وأمره بالعودة معه إلى قيادة اللواء. وفي الساعة الثالثة مساء، وصل قائد المجموعة ومعه رئيس الأركان إلى قيادة اللواء، وقام فور وصوله بإبلاغ العميد أ.ح صلاح زكي قائد اللواء بالمهمة المسندة إلى لوائه وفقا لتعليمات القيادة العامة التي نقلها إليه مندوب هيئة العمليات.

وبعد أن قام قائد اللواء باستيضاح مهمته، عرض موقف اللواء على قائد مجموعة العمليات وكان يتلخص فيما يلي:

١ ـ كفاءة اللواء القتالية لا تسمح بتنفيذ المهمة المحددة له أو أي جانب منها، بسبب انخفاض الروح المعنوية ونقص عناصر رئسية في اللواء نتيجة للقصف الجوي يومي ٩ و١٠ أكتوبر.

٢ ـ أصبحت سيطرته على اللواء محدودة نتيجة فقدان الاتصال ببعض الوحدات، وبسبب وجود نسبة من الشاردين في الوحدات الفرعية المختلفة وعدم إمكان قادة وحداته السيطرة على هؤلاء.

٣ ـ عدم انضمام بعض العناصر الإدارية إليه مما يؤثر على كفاءة اللواء القتالية خاصة موقف الذخيرة.

٤ ـ عدم توافر معلومات دقيقة وتفصيلية عن العدو على محور تقدمه.

وبعد انتهاء قائد اللواء من عرض موقفه، أصدر العميد أ.ح إبراهيم رشيد لقائد اللواء التعليمات التالية:

١ ـ يتم حصر الخسائر بدقة فورا بواسطة قادة الوحدات الفرعية.

٢ ـ يقوم اللواء ليلة ١٠/ ١١ أكتوبر بعملية هجوم بمجموعة قتال على منطقة رأس مسلة، بهدف رفع الروح المعنوية لوحدات اللواء وبث روح الثقة في قدرتها على القتال وتقليل تعرض قوات اللواء للغارات الجوية، إذ إن حدوث اتصال قريب مع قوات العدو سوف يمنع الطيران الإسرائيلي من شن هجماته على اللواء. على أن يتم تطوير الهجوم في الليلة التالية لتحقيق المهمة المحددة للواء.

٣ ـ تخصص العناصر اللازمة من جميع وحدات اللواء لجمع الشاردين خلال ليلة ١٠/ ١١ أكتوبر .

٤ ـ إعادة تمركز الوحدات الفرعية للواء ، وتعديل أوضاعه على الفور بصورة يمكن معها مقابلة أي تهديد من جانب العدو .

٥ ـ تدبير وسائل اتصال سلكية عن طريق الهاتف مع الوحدات الفرعية لتحقيق السيطرة .

٦ ـ دفع مجموعة استطلاع ليلة ١٠ / ١١ أكتوبر إلى منطقة رأس سدر للحصول على معلومات عن العدو .

وفي الساعة الخامسة والدقيقة العاشرة مساء يوم ١٠ أكتوبر ، بعث العميد أ . ح إبراهيم رشيد بإشارة إلى اللواء عبد المنعم واصل قائد الجيش الثالث حملها المقدم عبد القادر الحماحمي ضابط الاتصال بقيادة الجيش الثالث لتجنب إرسالها لاسلكيا خشية التقاطها بواسطة العدو . وكان نص الإشارة كما يلي وفقا للسجلات الرسمية :

موقف اللواء كالآتي :

تعرض اللواء لقصف جوي شديد أمس واليوم ، وأوضح قائد اللواء أن نسبة خسائره : دبابات ٥٠٪ عربات توباز ٢٠٪ مدفعية مضادة للطائرات سرية ونصف ـ أفراد ٢٥٪ ـ معدات مهندسين ومعدات كيميائية وسرية مقذوفات موجهة وسرية مضادة للدبابات ذاتية الحركة ٩٠٪ ـ الروح المعنوية منخفضة . يطلب قائد اللواء دعمه بالدبابات وتعويض سرية المقذوفات الموجهة ودفع مطالبه الإدارية سريعا ، وكذا دعم باقي العناصر . اقترح تأجيل عملية اللواء لحين استعادة معنوياته والتي تتطلب الآتي :

١ ـ محاولة الحد من النشاط الجوي للعدو فوق منطقة اللواء بأي صورة .

٢ ـ تدعيم اللواء ببعض العناصر التي حدثت بها خسائر كبيرة .

٣ ـ توضيح أي مهام لأي قوات أخرى مجاورة أو خلف هذا اللواء للقضاء على الشعور بالعمل على محور منفصل .

٤ ـ يكون اتصال قيادة الجيش بقيادة المجموعة عن طريق مواصلات اللواء ، نظرا لعدم انضمام باقي رتل المجموعة في العبور لازدحام المعابر » .

وفي الساعة الثالثة صباحا يوم ١١ أكتوبر حضر إلى منطقة تمركز اللواء الأول ضابط

اتصال من قيادة الجيش الثالث الميداني، ومعه إشارة إلى مجموعة عمليات البحر الأحمر كانت تتضمن ما يلي:

١ - يتمركز اللواء الأول بمنطقة عيون موسى، ويبقى بهذه المنطقة حتى تتم إعادة تجميعه وتنظيمه.

٢ - يتم استكمال اللواء وتعويض الخسائر بالتنسيق مع الأفرع المختلفة بقيادة الجيش الثالث.

٣ - ينظم الدفاع عن منطقة التمركز مع الاهتمام بأعمال الحفر والإخفاء والتمويه.

٤ - يتم الاهتمام برفع معنويات الجنود.

٥ - يتم تحقيق الاتصال مع قيادة الجيش الثالث مع الإفادة بتقرير تفصيلي.

سر الإشارة التي أثارت الانزعاج في المركز ١٠

اتضح من مجرى الأحداث وما تم الكشف عنه بعد الحرب، أن الإشارة التي بعث بها قائد مجموعة عمليات البحر الأحمر إلى اللواء عبد المنعم واصل والتي حملها المقدم عبد القادر الحماحمي ضابط الاتصال بقيادة الجيش الثالث في حوالي الساعة الخامسة مساء يوم ١٠ أكتوبر، والتي دون فيها خسائر اللواء الأول مشاة ميكانيكي واختتمها باقتراحه بتأجيل عملية اللواء لحين استعادة معنوياته - اتضح أن هذه الإشارة قد أثارت جوا من القلق والانزعاج في القيادة العامة المركز ١٠ بصورة لم تكن متوقعة على الإطلاق. ويبدو حقيقة ما جرى داخل المركز ١٠ نتيجة لهذه الإشارة بوضوح مما أورده الفريق سعد الشاذلي في الصفحة ٢٤٣ من مذكراته حيث قال: «في خلال يوم ١٠ أكتوبر قامت عناصر من لواء المشاة الأول بالتقدم جنوبا واحتلت مواقع عيون موسى. وفي خلال ليلة ١٠/ ١١ أكتوبر تلقينا إشارة خطيرة أثارت القلق والانزعاج. كانت الإشارة تقول: «لقد فقد لواء المشاة الأول ٩٠٪ من رجاله وأسلحته ومعداته». كانت المعلومات التي تصل إلينا من الجيش الثالث ومن الفرقة ١٩ مشاة تدل على فقدان الاتصال تماما بين اللواء الأول والقيادات جميعها، وبالتالي فلا أحد يعرف على وجه التحديد ماذا حدث لهذا اللواء. أرسلت ضابط اتصال برتبة كبيرة إلى الجبهة بمهمة جمع الحقائق عن هذا اللواء».

ومن تحليل ما أورده الشاذلي عن هذا الموضوع، تتضح الحقائق التالية:

١ ـ الإشارة التي وصلت إلى المركز ١٠ ليلة ١٠/ ١١ أكتوبر، والتي وصفت بأنها خطيرة، والتي جاء فيها أن اللواء المشاة الأول فقد ٩٠٪ من رجاله وأسلحته ومعداته، تضمنت بلا شك معلومات غير صحيحة، ويمكن التأكد من ذلك من مراجعة نص الإشارة المرسلة من قائد مجموعة العمليات إلى قائد الجيش الثالث والتي سبق لنا تسجيلها.

٢ ـ من العجيب أن يذكر الشاذلي أن المعلومات التي كانت تصلهم في المركز ١٠ من الجيش الثالث ومن الفرقة ١٩ مشاة تدل على فقدان الاتصال تماما بين اللواء الأول والقيادات جميعها، إذ إن الثابت أن الاتصال بين قيادة اللواء الأول وقيادة الجيش الثالث كان قويا ومستمرا، سواء قبل وصول مجموعة عمليات البحر الأحمر أم بعد وصولها. وقد أرسل قائد اللواء عدة إشارات لاسلكية إلى قيادة الجيش الثالث، حتى إن إحداها وصلت في الساعة الثامنة والنصف صباح يوم ١٠ أكتوبر، في أثناء وجود قائد مجموعة العمليات ومندوب هيئة العمليات (العقيد أ. ح حسن الزيات) في مركز القيادة الرئيسي للجيش الثالث، وكانت تفيد أن اللواء يتعرض لقصف جوي شديد.

٣ ـ استمر الاتصال بنفس الكفاءة بين مجموعة عمليات البحر الأحمر وقيادة الجيش الثالث بعد وصول قائد المجموعة إلى منطقة تمركز اللواء، وإن كانت وسيلة الاتصال قد اقتصرت في تبادل الإشارات على وسيلة تعد أضمن الوسائل من جهة الحفاظ على السرية، وهي استخدام ضباط الاتصال لتسليم الإشارات باليد. ومن واقع سجلات الحرب، يتضح أن قائد مجموعة البحر الأحمر العميد أ. ح إبراهيم رشيد قد تبادل هو واللواء عبد المنعم واصل قائد الجيش الثالث ٤ إشارات خلال يومي ١٠/ ١١ أكتوبر عن طريق ضباط الاتصال. فقد أرسل قائد مجموعة العمليات في الساعة الخامسة والدقيقة العاشرة مساء يوم ١٠ أكتوبر إلى قائد الجيش الثالث إشارة حملها المقدم عبد القادر الحماحمي ضابط الاتصال بالجيش الثالث، كما أرسل إليه إشارة أخرى في الساعة العاشرة صباح يوم ١١ أكتوبر حملها ضابط اتصال من مجموعة العمليات. وفي المقابل، أرسل اللواء عبد المنعم واصل إلى العميد أ. ح إبراهيم رشيد إشارتين يوم ١١ أكتوبر كانت الأولى في الساعة الثالثة صباحا، وكانت تتضمن قراره بشأن مهمة اللواء الأول وقد أحضرها إلى قيادة اللواء ضابط اتصال من الجيش الثالث، أما الثانية فقد كانت في الساعة الثانية بعد الظهر، وكانت تتضمن تعليمات قائد الجيش الثالث إلى قائد مجموعة العمليات، وقد أحضرها إلى قيادة اللواء المقدم عبد القادر

الحماحمي ضابط الاتصال بالجيش الثالث. فكيف يقال بعد ذلك إن الاتصال كان مفقودا تماما بين اللواء الأول والقيادات جميعها؟!

٤ ـ من تحليل الإشارتين المتبادلتين بين مجموعة العمليات وقيادة الجيش الثالث ليلة ١٠/ ١١ أكتوبر بالذات، وهي الليلة التي ذكر الشاذلي أنهم تلقوا خلالها في المركز ١٠ الإشارة الخطيرة التي أثارت القلق والانزعاج، يتضح لنا أمران على أبلغ جانب من الأهمية: أولهما، أنه على أثر إرسال قيادة مجموعة العمليات الإشارة التي سجلت فيها خسائر اللواء الأول إلى قيادة الجيش الثالث، ردت قيادة الجيش بإشارة كانت تتضمن القرار الذي اتخذه قائد الجيش الثالث. ومن مراجعة هذا القرار الذي سبق لنا ذكره يتضح أن هذا القرار لا ينم عن أي قلق أو انزعاج، ولا يدل على أن أي بلبلة قد حدثت في قيادة الجيش الثالث نتيجة للإشارة التي تضمنت خسائر اللواء، بل كان القرار في الواقع منطقيا ويواجه الموقف السيئ الذي غدا عليه اللواءبالإجراءات التكتيكية السليمة. أما الأمر الثاني، فهو السرعة التي تم بها الرد على إشارة قائد مجموعة العمليات، إذ إن الفرق الزمني بين الموعد المسجل لإشارة قائد المجموعة وهو الساعة الخامسة مساء يوم ١٠ أكتوبر والموعد المسجل لرد قائد الجيش الثالث وهو الساعة الثالثة صباحا يوم ١١ أكتوبر وهو عشر ساعات يعتبر وقتا قصيرا بالنسبة لظروف العمليات، خاصة إذا أنقصنا منه كما هو الواجب زمن الرحلة التي سيستغرقها ضابطا الاتصال للوصول من عيون موسى إلى مركز قيادة الجيش وبالعكس، وهو الأمر الذي يدل على مدى اهتمام قيادة الجيش الثالث بالرد على الإشارة.

٥ ـ المسافة بين الحد الأيمن للفرقة ١٩ مشاة ومنطقة عيون موسى لا تزيد على ٨كم يمكن قطعها بالطبع في وقت يحسب بالدقائق، فهل يمكن أن يقال إن الاتصال قد فقد تماما بين اللواء الأول والقيادات جميعها في الوقت الذي كان يمكن فيه إرسال أي مسئول من قيادة الفرقة ١٩ مشاة إلى منطقة تمركز اللواء ليعود بعد ساعة على أكثر تقدير بجميع المعلومات المطلوبة، هذا على فرض أن جميع وسائل الاتصال قد انقطعت حقيقة.

٦ ـ إذا سلمنا بأن إشارة خطيرة قد وصلت إلى المركز ١٠ ليلة ١٠/ ١١ أكتوبر تحمل هذه الأنباء المزعجة عن اللواء الأول، فهل كان من الأفضل إرسال ضابط برتبة كبيرة من المركز ١٠ مثل اللواء العدوي ناصف ليقطع المسافة من القاهرة إلى عيون موسى في

حوالي ١٢ ساعة كما جرى بالفعل، أو أن السرعة الواجبة من أجل الوصول إلى الحقيقة كانت تقتضي أن يسند إلى أحد كبار المسئولين بالجيش الثالث مهمة الذهاب فورا إلى موقع اللواء وتحرى حقيقة الأمر في بضع ساعات على الأكثر، (كان يمكن على سبيل المثال إسناد هذه المهمة إلى اللواء أ.ح عبد الغفار حجازي مساعد قائد الجيش الثالث، إذا كان لابد من إرسال ضابط كبير بمثل هذه الرتبة)، وكان هو أقدر بالطبع بحكم موقعه على تفهم الموقف وسرعة جلب المعلومات المطلوبة.

والأمر الذي يسترعي الالتفات أن الفريق الشاذلي لم يذكر في مذكراته المصدر الذي تلقى منه المركز ١٠ هذه الإشارة الخطيرة، ولا شك في أنه من المستبعد أن تكون قيادة الجيش الثالث التي كانت مسئولة عن عملية اللواء الأول هي مصدر هذه الإشارة، إذ إن جميع تصرفاتها واتصالاتها وقراراتها بشأن اللواء الأول تتناقض تماما مع المعلومات التي أوردها الشاذلي في مذكراته.

وفي الساعة العاشرة صباحا يوم ١١ أكتوبر، أرسل قائد مجموعة العمليات إلى قيادة الجيش الثالث تقريرا تضمن الخسائر الحقيقية التي حاقت باللواء الأول الميكانيكي نتيجة للقصف الجوي، وقد اتضح منه أن التأثير المعنوي لهذا القصف فاق التأثير المادي بمراحل، وهو الأمر الذي يرتبط بالمستوى التدريبي للواء ومدى نجاح عملية تطعيمه للمعركة.

وفي الساعة الواحدة ظهرا يوم ١١ أكتوبر، وصل اللواء العدوي ناصف إلى منطقة تمركز اللواء مندوبا عن المركز ١٠ وبرفقته العميد أ.ح أبو الفتح محرم قائد الفرقة ٦ مشاة ميكانيكية الذي يتبعه اللواء الأول. وقد استفسر اللواء العدوي من قائد اللواء عن سر توقفه عن التقدم في الليلتين السابقتين وعدم استغلاله لساعات الظلام لمواصلة التحرك وتحقيق المهمة المحددة للواء، وأكد له قائد اللواء أن سبب توقفه يعود إلى شدة القصف الجوي للعدو وعدم وجود دفاع جوي فعال ضمن وحداته وعدم تخصيص مجهود جوي لمعاونته.

وفي الساعة الثانية بعد الظهر وخلال وجود مندوب القيادة العامة وقائد الفرقة ٦ مشاة ميكانيكية، وصل المقدم عبد القادر الحماحمي ضابط الاتصال بالجيش الثالث يحمل تعليمات قتال جديدة صادرة من القيادة العامة بالقاهرة كانت تنص على إلغاء مهمة اللواء الأول في الاستيلاء على رأس سدر، ووضعه تحت قيادة العميد أ.ح يوسف عفيفي قائد الفرقة ١٩ مشاة، ووضع مجموعة عمليات البحر الأحمر تحت قيادة

الجيش الثالث، وأن يتم نسف المدافع الهاوتزر (٦ مدافع) الموجودة بالنقطة القوية بعيون موسى نظرا لوصول معلومات تفيد بأن منطقة تمركز اللواء مهددة بهجوم لواء مدرع إسرائيلي ينتظر وصوله خلال من ساعتين إلى ثلاث ساعات. وقد ثبت فيما بعد أن هذه المعلومات لا سند لها من الواقع.

وفي الساعة الرابعة مساء يوم ١١ أكتوبر، غادر مندوب القيادة العامة وقائد الفرقة ٦ مشاة ميكانيكية ومجموعة عمليات البحر الأحمر منطقة عيون موسى، وانضمت مجموعة العمليات إلى المركز الرئيسي لقيادة الجيش الثالث في الساعة الثامنة مساء. وفي الساعة العاشرة صباحا يوم ١٢ أكتوبر، تم إبلاغ قائد المجموعة بأن التعليمات قد صدرت من الفريق سعد الشاذلي رئيس الأركان بانضمام مجموعة عمليات البحر الأحمر إلى قيادتها الأصلية. وفي الساعة الحادية عشرة صباحا يوم ١٣ أكتوبر عادت مجموعة العمليات مرة أخرى إلى مركز القيادة المشتركة في رأس ثلمت.

لماذا فشلت عملية السيطرة على خليج السويس؟

على الرغم من التحضيرات الجيدة التي أجرتها قيادة منطقة البحر الأحمر بالغردقة وقيادة العمليات في رأس ثلمت، لتنفيذ المهام التي أسندت إليها في الخطة جرانيت ٢ المعدلة، وفقا للتعليمات الصادرة من هيئة العمليات الحربية في مارس ٧٣، فإن النتائج التي تم إدراكها كانت مخيبة للآمال. لقد كانت المهمة الأساسية التي تضمنتها الخطة الموضوعة تقضي بالقيام بعملية حربية منسقة في سيناء الجنوبية يشترك فيها اللواء الأول مشاة ميكانيكي (من الفرقة ٦ مشاة ميكانيكية) وكتيبتان من المجموعة ١٣٦ صاعقة، وهدفها المباشر الاستيلاء على أبو رديس (على مسافة ١٤٠ كيلو مترا جنوب الشط) وهدفها النهائي السيطرة على الساحل الشرقي لخليج السويس الذي يبلغ طوله حوالي ٣٠٠ كيلو متر.

وكان تنفيذ هذه المهمة يحقق غرضين رئيسيين: أولهما عسكري، وهو حماية الجناح الأيمن للقوات المصرية شرق القناة وتخفيف الضغط عن رءوس الكباري التي أقامتها عقب عبورها القناة، عن طريق جذب احتياطيات العدو جنوبا في اتجاه لم يكن ضمن تخطيطه من قبل. وثانيهما اقتصادي وهو الاستيلاء على مناطق آبار البترول الغنية الواقعة على الساحل الشرقي لخليج السويس، وهي البلاعيم بري والبلاعيم بحري وأبو رديس

وسدر وعسل ومطارمة وفيران، وبذا تستعيد مصرهذه الثروة التي فقدتها عقب حرب يونيو ٦٧، ويحرم العدو منها، مما يؤدي إلى خسارته اقتصاديا والتأثير على قدراته العسكرية.

وكان التخطيط لهذه العملية يقوم على أنه في الوقت الذي يدفع فيه اللواء الأول مشاة ميكانيكي للاشتباك من خط الدفع المحدد له في قطاع الفرقة ١٩ مشاة (الجناح الأيمن للجيش الثالث) اعتبارا من الساعة الخامسة صباح يوم ٧ أكتوبر للتقدم جنوبا على الطريق الساحلي في اتجاه أبورديس، تكون كتيبتان من المجموعة ١٣٦ صاعقة التي كان يتولى قيادتها العقيد أ.ح كمال عطية قد تم إبرارهما بحرا وجوا ليلة ٦/٧ أكتوبر على الشاطئ الشرقي لخليج السويس في مناطق شراتيب ـ أبو رديس ـ أبو زنيمة (على مواجهة حوالي ٥٠ كم) لتدمير الأهداف الحيوية للعدو في هذه المناطق، وقطع خطوط مواصلاته وعرقلة احتياطياته وتأمين المضايق. وكان الهدف الأساسي من عمليات الصاعقة هو تمهيد الطريق لتقدم اللواء الأول المشاة الميكانيكي الذي كان يتولى قيادته العميد أ.ح صلاح زكي، كي يتمكن من تحقيق مهمته المباشرة وهي الاستيلاء على أبورديس بنجاح. ولكن هذه العملية المشتركة ذات الأهداف بعيدة المدى فشلت منذ بدايتها لأخطاء يتعلق بعضها بالتخطيط، ويتعلق البعض الآخر بالتنفيذ، وكانت النتيجة أن اللواء الأول مشاة ميكانيكي لم ينجح في التقدم لأبعد من منطقة عيون موسى (على مسافة حوالي ١٠ كم جنوب الشط) كما أن كتيبتي الصاعقة لم يتم إبرار سوى ٤ سرايا منهما فقط على الساحل الشرقي لخليج السويس بسبب إلغاء الإبرار البحري كلية لاستحالة تنفيذه، واقتصار العملية على الإبرار الجوي بطائرات الهيليكوبتر (مي ٨) وكانت المهمة المسندة لقوات الصاعقة في جنوب سيناء مبنية على أساس قدرتها الذاتية على البقاء في المواقع التي أسندت إليها مهمة احتلالها لمدة تتراوح بين (٤٨و٧٢) ساعة فقط، وهي الفترة التي يسمح لها تسليحها وما يتزود به أفرادها من مؤن على الصمود في أماكنها إلى أن يلحق بها ـ وفقا للخطة الموضوعة ـ اللواء الأول المشاة الميكانيكي، وإلا تعرضت القوة لخطر الإبادة أو الوقوع في الأسر. ونظرا لتوقف اللواء الأول في منطقة عيون موسى، فقد واجهت قوة الصاعقة في الجنوب موقفا من أشد المواقف صعوبة، نظرا لعدم إعداد هيئة العمليات خطة تبادلية مرسومة من قبل لالتقاط أفراد هذه القوة في حالة عجز اللواء الأول المشاة الميكانيكي عن الوصول إليهم، كي يمكن إعادتهم ثانية إلى قواعدهم على الجانب الغربي للخليج، ونتيجة لذلك الموقف، تعرضت قوة الصاعقة في سيناء الجنوبية لأخطار فادحة، فقد تم للعدو إبادة وأسر

قسم منها، ونجح قسم آخر في الوصول إلى رأس كوبري الجيش الثالث بعد أن اضطر أفراده إلى السير على الأقدام في اتجاه الشمال لمسافة تزيد على ١٢٠ كيلو مترا، وسط أرض شديدة الوعورة وجبال شاهقة، مع حرصهم على الاختفاء نهارا والتحرك خلال الليل فقط خشية انكشافهم للعدو عن طريق استطلاعه الجوي. واضطرت مجموعة ثالثة على رأسها النقيب عبد الحميد خليفة والملازم أول مجدي شحاته إلى الاندماج مع الأهالي من بدو سيناء الجنوبية، وظلوا يعيشون معهم حوالي ستة أشهر إلى أن تمكنوا من الالتحاق مرة أخرى بقواتنا.

الدروس المستفادة من عملية الإبرار البحري

تم إلغاء عملية الإبرار عن طريق البحر التي كانت تقضى بإبرار سرية صاعقة من منطقة رأس روحمي و٣ سرايا صاعقة من مرسى رأس ثلمت ليلة ٦/ ٧ أكتوبر، بعد أن اتضح أن عدد القوارب الصالحة للاستخدام لا يزيد على خمسة قوارب من بين ٣٣ قاربا (من طراز زودياك وطراز د. ل. ك.) التي كانت مخصصة لعملية الإبرار البحري. وعلى أثر إجراء تقدير سريع للموقف اقترحت مجموعة عمليات البحر الأحمر استبدال وسيلة الإبرار البحري لتكون جوية بالهيليكوبتر، وقد صدق قائد المنطقة وهيئة العمليات على هذا الاقتراح. وقد تطلب ذلك تعديل أماكن الإبرار الأصلية لتتناسب مع الإبرار الجوي، كما تم تعديل جداول التحميل وأماكن تمركز وحدات الصاعقة.

ولقد ثبت نتيجة لمعاينة اللجنة الفنية التي شكلتها قيادة القاعدة البحرية بمنطقة البحر الأحمر عقب وقف إطلاق النار أن تلك القوارب مصممة للعمل في بحر لا يزيد على بحر ٢، وأن جميع الأعطال التي وقعت كانت نتيجة لاختلاط ماء البحر بالبنزين مما أدى إلى توقف المحركات، وهذا يحدث غالبا عندما تزيد قوة البحر على البحر ٢ حيث يغطى الماء في هذه الحالة الجزء الخلفي من القارب بأكمله. ولا شك أنه كان خطأ جسيما منذ البداية أن تخطط هيئة العمليات لاستخدام مثل هذه القوارب المطاطية في عمليات الإبرار البحرى عبر خليج السويس لمسافات تتراوح بين ٢٥ و٤٠ كيلو مترا، إذ إنها لا تصلح، نظرا لمعدل استهلاكها العالي في الوقود.. إلا لمسافات قصيرة، وفي مستوى بحر لا يزيد على بحر ٢. وكان من الواجب إجراء هذه المعاينات الفنية لمعرفة حقيقة خواصها وقدراتها قبل اشتراكها في العمليات الفعلية، حتى لا تتعطل عملية الإبرار البحري عند البدء في

تنفيذها كما جرى، وهو الأمر الذي ترتب عليه إلغاء عملية الإبرار البحري التي كان سيقوم بها ٤ سرايا صاعقة في آخر الأمر لكي يتم إبرارهم جوا. وبذا أضيفت أعباء جديدة لم تكن موجودة من قبل على طائرات الهيليكوبتر التي كانت طلعاتها مخصصة لإبرار سريتين من الصاعقة جوا فقط. وأدى ذلك إلى اقتصار عملية إبرار قوات الصاعقة على الساحل الشرقي للخليج على ٤ سرايا فقط بدلا من ٦ سرايا، وهو أقصى ما كان في مقدرة المسئولين عن الإبرار الجوي تنفيذه في الظروف الصعبة التي كانوا يواجهونها وقتئذ، بسبب الخسائر في الطائرات من جهة، وبعد انكشاف العملية للعدو واتخاذه الإجراءات المضادة لإحباطها من جهة أخرى.

وقد اتضح أن العدو كان يستخدم أيضا قوارب مطاطية من طراز زودياك للقيام ببعض عملياته الهجومية على الساحل المصري (الساحل الغربي للخليج)، ولكنه كان يستخدم أسلوبا يكفل له النجاح، وهو تحميل هذه القوارب على سفن إنزال صغيرة أو زوارق متوسطة إلى أقرب مسافة ممكنة من الهدف وخارج مدى كشف قواتنا، بحيث يتم إنزال القوارب والأفراد في المياه لتنفيذ مهامها، وعقب إتمام التنفيذ تعود القوارب مرة أخرى إلى السفن والزوارق التي أنزلتها. وكان هذا الأسلوب يحقق المحافظة على الكفاءة القتالية للأفراد وعلى استمرار نشاطهم بعدم إبحارهم لمسافة طويلة (تبلغ أحيانا ٤٠ كم) في قوارب مطاطية صغيرة، معرضين لتقلبات البحر الشديدة، وفي نفس الوقت يؤدي إلى تقليل مسافة الإبحار بالنسبة للقوارب منعا لحدوث الأعطال.

ومن الأمور المهمة التي ينبغي مراعاتها في عمليات الإبرار البحري، ضرورة توافر الحماية الذاتية للسفن والقوارب التي تستخدم في هذه العمليات ضد أي تدخل للعدو، سواء من ناحية البحر أو الجو، وذلك في أثناء إبحارها وابتعادها عن شواطئنا على أن يكون ذلك بصورة فعالة وبأسلحة يمكنها التصدي لهجمات العدو، إذ إنه بدون توافر هذه الحماية، فإن القضاء على قوة الإبرار البحري وهي مازالت في الطريق يصبح أمرا مؤكدا، وبالتالي تنهار الخطة الموضوعة للعمليات على الشاطئ الآخر. وقد ثبت أنه بمجرد اكتشاف العدو لاستعداد منطقة البحر الأحمر لعمليات الإبرار البحري ازداد نشاطه البحري بصورة ملحوظة عن طريق استخدامه للزوارق الحربية المسلحة من طراز الدبور.

كما أن من الواجب الحصول على معلومات دقيقة قبل تنفيذ عملية الإبرار عن أوضاع العدو وحجمه ونشاطه في منطقة الإبرار، حيث إن قصور المعلومات عن العدو قد يؤدي إلى تدخل العدو لإفشال عملية الإبرار قبل أو أثناء القيام بها، أو كشف المنطقة التي يتم

فيها الإبرار بعد وقت قصير من تنفيذها، وبذا تتاح له الفرصة للقضاء عليها. . وقد حدثت أمثلة واقعية توضح أهمية ذلك الأمر في كل من أبو رديس وأبو زنيمة، إذ سارع العدو بحشد قواته على الساحل الشرقي للخليج في هذه المناطق فور أن اكتشف استعداداتنا للإبرار البحري. ولولا أن هذا الإبرار قد تم إلغاؤه في آخر لحظة نظرا لتعطل القوارب، لما كان قد صادف النجاح، ولكانت قوات الصاعقة قد اصطدمت بمقاومة عنيفة من العدو الذي كان مستعدا لملاقاتهم على الشاطئ مباشرة. وهكذا لعب الحظ دوره، وأدى تعطل القوارب إلى نجاة قوة الإبرار البحري من مصير مجهول وعدو متربص كان ينتظر أفرادها على الشاطئ للقضاء عليهم.

الدروس المستفادة من عملية الإبرار الجوي

ثبت نجاح وسائل الإبرار الجوي التي تمكنت من إبرار ٤ سريا صاعقة في المناطق التي حددت لها على الساحل الشرقي لخليج السويس ليلة ٦/ ٧ أكتوبر ومساء يوم ٨ أكتوبر، وهي مناطق أبو رديس وشراتيب وأبو زنيمة وجبل لجية. ويرجع سر نجاح الإبرار الجوي إلى العوامل الآتية:

١ ـ اتساع المواجهة (حوالي ٥٠ كم) مما ساعد على اختيار الأماكن المناسبة لإتمام عمليات الإبرار وانتخاب طرق الاقتراب الآمنة.

٢ ـ عدم تعرض أفراد الصاعقة أثناء نقلهم بطائرات الهيليكوبتر للضغطين النفسي والجسماني اللذين يتعرض لهما أولئك الذين يجرى إبرارهم عن طريق البحر باستخدام القوارب المطاطية الصغيرة، والذين يقطعون مسافات بين ٢٥ و ٤٠ كيلو مترا عبر الخليج وسط تقلبات البحر الشديدة وأمواجه الهائجة.

٣ ـ تنفيذ المهام بنجاح في الوقت المحدد نظرا لضعف فرصة العدو في التدخل ضد طائرات الهيليكوبتر التي كانت تطير في ساعات الظلام وعلى ارتفاعات قريبة من سطح البحر.

٤ ـ تركيز العدو معظم قواته البرية على الشاطئ الشرقي للخليج توقعا لعمليات الإبرار البحري، مما أتاح الفرصة لطائرات الهيليكوبتر لإنزال حمولتها في الأماكن المنتخبة في العمق بسلام.

٥ ـ شجاعة طياري الهيليكوبتر وارتفاع مستوى تدريبهم، فقد تمكنوا رغم المخاطر التي تعرضوا لها في طلعاتهم الأولى بسبب محاولات العدو لاعتراضهم وبحكم طبيعة سيناء المليئة بالقمم الشاهقة، من تكرار طلعاتهم الجوية عدة مرات بإصرار وعزيمة، ولم يمنعهم سقوط طائرتين من طائراتهم من الاستمرار في تأدية مهمتهم.

وعلى الرغم من الحجم المحدود الذي تم إبراره من قوات المجموعة ١٣٦ صاعقة في سيناء الجنوبية والذي لم يكن يزيد عدده على ٥٠٠ ضابط وجندي، فقد كان لوجود هذه القوة في تلك المنطقة أثر كبير في إزعاج العدو وخفض الروح المعنوية لجنوده. لقد كانت قيادة سيناء الجنوبية مسندة إلى الجنرال أشعيا هوجافيش الذي استدعى من الاحتياطي عند بدء الحرب في ٦ أكتوبر، وهو أحد القادة الإسرائيليين البارزين، فقد كان يتولى قيادة القيادة الجنوبية خلال حرب يونيو ٦٧، وهو الذي قامت قواته باحتلال شبه جزيرة سيناء بأكملها.

وعندما تولى قيادته الجديدة في جنوب سيناء في حرب أكتوبر ٧٣، لم يكن موضوعا تحت قيادته سوى لواء مظلات بقيادة العقيد عوزي مائيري وكتيبة مدرعة وبعض وحدات من المدفعية والمقذوفات الصاروخية المضادة للدبابات. وكان اعتماد الإسرائيليين على صد العمليات المصرية في سيناء الجنوبية مركزا على السلاح الجوي الإسرائيلي، لعدم إمكانهم سحب أي قوات كبيرة من الميدان الرئيسي للقتال في شمال سيناء.

ورغم حجم قوات الصاعقة المصرية الصغير وتسليحها المحدود، فقد قامت بفضل شجاعة أفرادها وارتفاع مستوى تدريبهم، بتنفيذ معظم العمليات التي أسند إليها تنفيذها، وهي تدمير بعض الأهداف الحيوية للعدو ونصب الكمائن لقواته وبث الألغام على طرق التقدم. ونتيجة لنشاط عمليات الصاعقة وانتشار أفرادها على مواجهة واسعة بين الوديان والجبال، أصبح من الصعب على العدو العثور على معظمهم. هذا، وقد قامت القيادة الإسرائيلية في سيناء الجنوبية خشية تنفيذ عمليات إبرار مصرية على نطاق واسع باتخاذ الإجراءات الوقائية الآتية:

١ ـ نقل عدد كبير من الطائرات المقاتلة القاذفة إلى مطار رأس نصراني، واستخدام مطاري أبو رديس والطور لهبوط طائرات النقل الفرنسية الصنع من طراز «نور أطلس». وقد قامت هذه الطائرات بنقل بعض القوات الاحتياطية من شمال سيناء إلى جنوبها لتدعيم القوات الإسرائيلية بها.

٢ ـ القيام بعملية إبرار بطائرات الهيليكوبتر لقوة إسرائيلية على مدخل وادي فيران شرق أبو رديس .

٣ ـ تأمين الساحل الشرقي لخليج السويس ضد الإبرار البحري المصري عن طريق خروج عدة دوريات بحرية بزوارق الدبور وبزوارق برترام للقيام بأعمال الاستطلاع البحري .

٤ ـ محاولة القضاء على قوات الصاعقة التي تم إبرارها جوا عن طريق تحرك مجموعات من الدبابات تحلق فوقها طائرات الهيليكوبتر لإرشادها إلى أماكنهم ، وفي نفس الوقت إرسال الدوريات الإسرائيلية لتفتيش الأماكن التي يشتبه في وجود قوات مصرية بها ونصب الكمائن على طرق الاقتراب المحتمل تحركهم عليها .

٥ ـ قيام الطائرات الإسرائيلية بأعمال الاستطلاع بصفة مستمرة لاكتشاف أي عمليات إبرار جديدة عن طريق البحر أو الجو ولتحديد الأماكن التي سبق إبرار قوات مصرية بها .

ورغم كل هذه الإجراءات الشاملة التي اتخذها العدو لمقاومة أي عمليات يقوم بها رجال الصاعقة ، فقد استطاع هؤلاء ـ بجلدهم وقدرتهم الخارقة على تحمل المشاق ـ تنفيذ عدة عمليات ناجحة ضد العدو ، كان من أهمها تدمير وحدة مدرعة إسرائيلية في أثناء تحركها على طريق الطور ـ رأس سدر ، كما تمكنوا من تدمير سيارة أوتوبيس كانت تحمل عددا من العسكريين كان من ضمنهم مجموعة من الطيارين والفنيين في طريقهم إلى إحدى القواعد الجوية . وقد أجبرت عمليات الصاعقة القيادة الإسرائيلية على إضاءة منطقة الساحل الشرقي للخليج معظم ساعات الليل بالمشاعل التي تسقطها الطائرات ، كما لجأت هذه القيادة إلى إمداد وحداتها المتمركزة على الساحل الشرقي للخليج بواسطة السفن والزوارق البحرية تجنبا لتحرك الأرتال الإدارية على الطرق البرية خشية وقوعها في الكمائن أو التعرض لخطر الألغام .

سر فشل عملية اللواء الأول مشاة ميكانيكي

رغم ما صرح به موشى ديان في المؤتمر الصحفي الذي عقده في مساء يوم ٩ أكتوبر في تل أبيب من أن الطريق مفتوح أمام المصريين إلى جنوب سيناء ، فإن اللواء الأول

مشاة ميكانيكي الذي أوكلت إليه مهمة التقدم إلى أبو رديس كمهمة مباشرة تمهيدا للسيطرة على الشاطئ الشرقي لخليج السويس بأكمله، لم يتمكن من التقدم لأبعد من منطقة عيون موسى (على بعد ١٠ كم من الشط). وكان الفشل في هذه العملية يرجع إلى أخطاء بعضها يتعلق بالتخطيط الذي تسأل عنه هيئة العمليات، والبعض الآخر يتعلق بإدارة المعركة الذي تسأل عنه قيادة اللواء الأول. وسوف نوجز فيما يلي أهم العوامل التي أدت إلى فشل العملية:

أولا: تسبب وضع اللواء الأول تحت ثلاث قيادات متتالية في عملية واحدة خلال فترة قصيرة ـ وفقا للخطة التي كان من المفترض تنفيذها ـ وهي قيادة الفرقة ٦ مشاة ميكانيكية (تشكيله الأصلي) أثناء المرحلة التحضيرية للعملية، ثم قيادة الجيش الثالث ـ فور عبوره قناة السويس حتى الاستيلاء على رأس مسلة ـ جبل جردي، وأخيرا قيادة منطقة البحر الأحمر العسكرية من الخط(١٠ كيلو مترات جنوب رأس مسلة) في اتجاه رأس سدر حتى تحقيق مهمته المباشرة بالاستيلاء على أبورديس ـ تسبب ذلك في شيوع المسئولية وعدم شعور أي قيادة منها بمسئوليتها الحقيقية تجاه هذا اللواء. كما أدى تكليف اللواء بالتعاون مع عدة جهات إلى أن يجري قائد اللواء عملية تنظيم التعاون مع سبع جهات مختلفة قبل تنفيذ العملية، وهو أمر يدعو إلى تشتيت الجهد، ولا يجوز اتباعه بالنسبة لتشكيل على هذا المستوى.

ثانيا: كان من الواجب عندما حدث التأخير في جدول التوقيتات المحددة للواء الأول لمدة ٤٨ ساعة، بسبب تأخير إقامة كباري الفرقة ١٩ مشاة التي كان مقررا عبوره عليها، أن تبادر هيئة العمليات بالقيادة العامة إلى إجراء تعديلات جوهرية في الخطة بما يتناسب مع الموقف الجديد، سواء فيما يتعلق بموعد وطريقة دفع اللواء الأول للاشتباك، أو بمواعيد إبرار وحدات الصاعقة من المجموعة ١٣٦ صاعقة على الشاطئ الشرقي لخليج السويس، إذ إن المواعيد كلها كانت محددة بالخطة على اعتبار أنها عملية مشتركة ومنسقة بين اللواء الأول ووحدات الصاعقة. وقد سبق إجراء عملية تنظيم التعاون بينهما على هذا الأساس، فكيف يسمح بإبرار وحدات الصاعقة في موعدها، بينما لم يكن في الإمكان دفع اللواء الأول للاشتباك إلا بعد حوالي ٤٨ ساعة من موعده الأصلي؟ لقد كلف ذلك الخطأ وحدات الصاعقة ثمنا غاليا كما سبق أن أوضحنا.

ثالثا: عندما تكلف قوة عمل مستقلة Task Force بمهمة قتالية على محور منفصل،

فمن الواجب تزويد هذه القوة بكل الإمكانات القتالية التي تكفل لها النجاح، ولذا فقد كان خطأ جسيما في التخطيط الذي وضعته هيئة العمليات تكليف مجموعة لواء مشاة ميكانيكي بالتحرك لمسافة تزيد على ١٤٠ كم (من الشط إلى أبو رديس) في أرض مفتوحة وهي معرضة لاقتناصها في العراء بواسطة طائرات العدو الحديثة والمزودة بأفضل المعدات والأجهزة الفنية المتطورة، دون تزويد هذا اللواء بالعناصر التي تكفل له الوقاية من الجو أثناء التحرك، عن طريق نظام دفاع جوي فعال تشترك فيه وحدات كافية من صواريخ أرض جو سام ٦ مع طلعات طيران تخصصها القيادة العامة في توقيتات تتلاءم مع تحركات مجموعات هذا اللواء بعد حساب عامل الوقت والمسافة. أما الاعتماد في الدفاع الجوي في مثل موقف هذا اللواء على المدافع التقليدية التي كان اللواء مزودا بها، من عيار ٣٧م و٥٧م ثنائي المواسير (ذاتي الحركة)، فإن ذلك يعتبر أمرا غير مجد على الإطلاق، وقد أدى بالفعل إلى توقف اللواء الأول تماما وعجزه عن التحرك فور خروجه من نطاق شبكة الصواريخ المصرية المضادة للطائرات غرب القناة.

رابعا: من الصعب أن يدرك أحد حتى الآن سر ذلك التخطيط العجيب الذي رسمته هيئة العمليات، والذي كان يقضي بوضع اللواء الأول تحت قيادة منطقة البحر الأحمر فور دفعه للاشتباك من جنوب رأس مسلة. ولا شك أن هذا القرار قد جانبه التوفيق للأسباب الآتية:

١ ـ الفاصل المائي بين خط دفع اللواء الأول للاشتباك ومركز قيادة منطقة البحر الأحمر في الغردقة يزيد على ٣٠٠ كم، وهو عبارة عن طول خليج السويس بأكمله، فكيف يمكن أن يقتنع أحد بجدوى وضع اللواء تحت هذه القيادة؟

٢ ـ لم تكن لمنطقة البحر الأحمر أي علاقة سابقة باللواء الأول. فلا هي قد أشرفت على تدريبه لتنفيذ مهمته، ولا هي أسهمت في إعداده وتجهيزه للمعركة في المرحلة التحضيرية، فكيف يمكنها أن تتولى قيادته بكفاءة وهي تجهل كل شيء عنه؟

٣ ـ إن العبرة في وضع وحدة أو تشكيل تحت قيادة أعلى في عملية هجومية هي أن تكون القيادة الأعلى لديها الإمكانات للقيادة والسيطرة من جهة، ومن جهة أخرى وهي الأهم أن يكون تحت يدها الاحتياطي الذي يمكنها دفعه إلى المعركة إذا توقف الهجوم، لإمكان تحريك الموقف وتطوير العملية الهجومية بنجاح. فإذا طبقنا هذا

على قيادة منطقة البحر الأحمر نجد أنها بالنسبة لوضع اللواء في رأس مسلة كانت تفتقد الأمرين معا.

٤ - إن الوسيلة التي اتبعت للتغلب على حالة الانفصال الكامل بين قيادة منطقة البحر الأحمر واللواء الأول عندما يوضع تحت قيادتها، كانت وسيلة لا تمت إلى المنطق أو إلى الأساليب التكتيكية بصلة، وهي إرسال مجموعة صغيرة من الضباط بقيادة العميد أ.ح إبراهيم رشيد مزودة ببعض الأجهزة اللاسلكية تحت اسم مجموعة عمليات منطقة البحر الأحمر كي تتولى إدارة عمليات اللواء. وقد وصل العميد رشيد إلى قيادة اللواء الأول بعد ظهر يوم ١٠ أكتوبر في عربة جيب وحده وبرفقته أحد ضباط المجموعة - بسبب ازدحام المعابر على القناة - ليتولى بمفرده وبدون أي أجهزة للقيادة والسيطرة مسئولية القيادة فوق قيادة اللواء الأول التي كانت قيادة كاملة بجميع أفرعها وأجهزتها، مما جعل قيادته بالطبع عبارة عن قيادة شكلية ونوعا من البيروقراطية وحلقة اتصال إضافية لا معنى لها بين قيادة اللواء الأول وقيادة الجيش الثالث. . . .

٥ - ليس أدل على مدى مجافاة التخطيط الأصلي الذي وضع لإدارة المعركة للصواب - وهو وضع اللواء الأول تحت قيادة منطقة البحر الأحمر - من أن المركز ١٠ قد تنبه في آخر لحظة لهذا الخطأ، فبادر الفريق الشاذلي بالاتصال هاتفيا بالعميد رشيد في الساعة الرابعة صباحا يوم ١٠ أكتوبر في قيادة الجيش الثالث ليبلغه أن العقيد أ.ح حسن الزيات (مندوب هيئة العمليات) في الطريق إليه ومعه تعليمات خاصة بمهمة اللواء الأول.

وعندما وصل العقيد الزيات، أبلغ قائد مجموعة عمليات منطقة البحر الأحمر أن مجموعته قد وضعت تحت قيادة الجيش الثالث. وكان هذا التعديل خطوة بلا شك في سبيل إصلاح التخطيط السابق الخاطئ. ولكن يبقى السؤال الذي لا نعرف له جوابا، وهو: ما الداعي لوضع اللواء الأول تحت قيادة مجموعة عمليات البحر الأحمر، التي توضع بدورها تحت قيادة الجيش الثالث؟ لماذا لم يوضع هذا اللواء تحت قيادة الجيش الثالث مباشرة أو تحت قيادة طاقم عمليات من هذا الجيش إلى حين تحقيق اللواء الأول لمهمته المباشرة على الأقل، وهي الاستيلاء على أبورديس التي كان من المفترض أن تجري عندها وقفة تعبوية؟

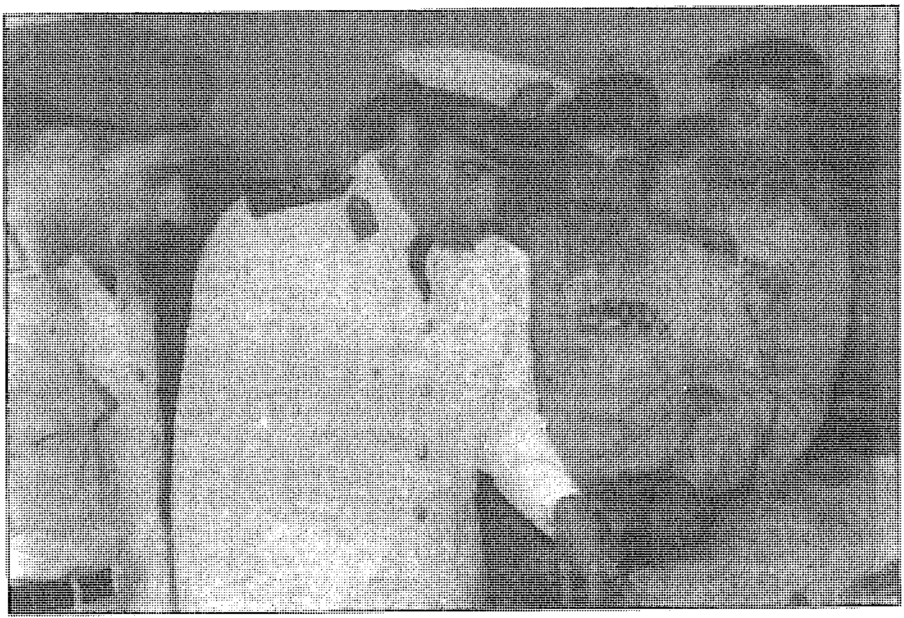
خامسا: وقع قائد اللواء الأول في عدة أخطاء تكتيكية، فقد كاد يفقد زمام القيادة والسيطرة على بعض وحداته الفرعية الصغرى ليلة ٩/ ١٠ أكتوبر، نظرا للاضطراب الذي

جرى وأدى إلى شرود بعضها بسبب عودة بعض المركبات المدرعة من المفرزة الأمامية للواء وعربات الشئون الإدارية إلى الخلف، كما أنه لم يحاول استغلال ساعات الظلام لتعديل أوضاع الوحدات الفرعية للواء بصورة يمكن معها مواجهة أي تهديد من جانب العدو. ولا شك في أنه قد جانبه التوفيق في قراره بتأجيل التقدم (٤٨) ساعة بحجة رفع كفاءة القوات عقب القصف الجوي، إذ إن بقاء قواته في مواقعها لتتعرض نهارين متتاليين للقصف الجوي من طائرات العدو أدى إلى عكس المقصود من قراره، فقد ازدادت بالطبع نسبة خسائرها علاوة على زيادة انخفاض الروح المعنوية بين أفرادها.

لقد كان اقتراب قواته إلى أقصى ما يمكن من قوات العدو كفيلا بتقليل حدة القصف الجوي ضد قواته، لأن طائرات العدو في هذه الحالة كانت ستخشى أن يصيب الضرب قواتها أيضا، كما أن هذا الاقتراب من قوات العدو كان أدق وأسرع وسيلة للحصول على معلومات عن العدو. وما دام قائد اللواء كان يشكو من عدم حصوله على أي معلومات عن العدو على محور هجوم اللواء قبل دفعه للاشتباك من أي قيادة، فقد كان واجبه تغطية هذا النقص الذي أثر بشدة على مجرى المعركة بإرسال دوريات استطلاع من وحدات اللواء، كي تزوده بالمعلومات الصحيحة عن العدو الذي يواجهه. وفضلا عن ذلك، ثبت من كشف خسائر اللواء بعد حصرها بدقة أن التأثير المعنوي الذي أحدثه قصف الطيران الإسرائيلي على وحدات اللواء كان يفوق التأثير المادي بمراحل.



ملحق صور الفصل الثاني عشر



لواء إبراهيم كامل محمد

قائد منطقة البحر الأحمر.



عميد إبراهيم رشيد

رئيس أركان منطقة البحر الأحمر وقائد مجموعة العمليات.



عميد يوسف عفيفي

قائد الفرقة ١٩ مشاة.



عميد محمد أبو الفتح محرم

قائد الفرقة ٦ مشاة ميكانيكية.



عقيد كمال عطية

قائد المجموعة ١٣٦ صاعقة.



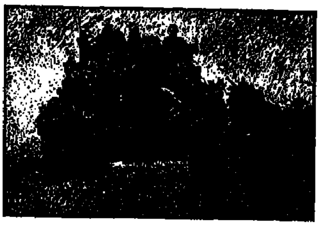
لواء عبد المنعم واصل

قائد الجيش الثالث.



لواء محمد عبد الغني الجمسي

رئيس هيئة العمليات.



■ الفصل الثالث عشر ■

من وقائع الصاعقة المصرية المجيدة خلال حرب أكتوبر

إن وحدات الصاعقة Commando في جميع جيوش العالم هي وحدات ذات طبيعة خاصة، إذ إن المهام التي تسند إليها تتطلب كفاءات ومهارات عالية. ونظرا لخفة تسليحها وإمكاناتها النيرانية المحدودة، فإن نجاح عملياتها يعتمد أساسا على كفاءة العنصر البشري وقوة تحمله للمشاق وسرعة استعداده للقتال. ولا تستخدم قوات الصاعقة غالبا ـ بالنسبة لخصائصها ـ إلا في العمليات ذات الطابع الهجومي، إذ إنه ليس لديها المقدرة على احتلال مواقع دفاعية لمدة طويلة، كما أنها أكفأ الوحدات من حيث قدرتها على العمل على جميع أنواع الأراضي وفي أشق وأصعب الظروف، وكذا يمكن إبرارها بسهولة عن طريق البحر أو الجو.

وقد تكونت قوات الصاعقة الأولى في منطقة «أبو عجيلة» بالقرب من الحدود المصرية الشرقية في سيناء. وكان أول اختبار لقدراتها أثناء العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦، فقد كان رجال الصاعقة يشقون طريقهم في بحيرة المنزلة بقوارب الصيد الصغيرة ليصلوا إلى قلب بور سعيد الباسلة لتأدية دورهم إلى جانب شعبها في دحر العدوان. وعلى أثر انتهاء حرب يونيو ١٩٦٧ تمكن العدو من احتلال شبه جزيرة سيناء بأكملها ما عدا منطقة صغيرة من الأرض شرق وجنوب مدينة بور فؤاد تمركزت فيها سرية من الصاعقة (عدا فصيلة) من الكتيبة ٤٣ صاعقة التي كان يتولى قيادتها وقتئذ الرائد السيد الشرقاوي. وفي أول يوليو عام ١٩٦٧، حاول العدو التقدم من القنطرة شرق إلى بور فؤاد شمالا على الطريق الموازي للقناة بسرية دبابات مدعمة بقوة من المشاة والمهندسين، وبمعاونة سرب طائرات مقاتلة قاذفة، فاشتبكت معه قوة الصاعقة المتمركزة عند رأس العش في منطقة الكيلو متر ١٤ شرق القناة. وكانت هذه أول مواجهة بين القوات الإسرائيلية والمصرية منذ معارك يونيو ١٩٦٧.

وقد أرغم العدو على التوقف ست ساعات أمام الموقع ولم يتمكن من اقتحامه، ودمرت له ثلاث دبابات وثلاث عربات نصف جنزير خلاف خسائره في الرجال. ولم يجرؤ العدو بعد ذلك على محاولة إزالة هذا الموقع الذي أصبح بفضل صمود مقاتليه هو القدم الوحيدة لمصر في سيناء، وارتفعت نتيجة لمعركة رأس العش الروح المعنوية في القوات المسلحة بأسرها.

وقد قامت قوات الصاعقة التي كان يتولى قيادتها العميد أ.ح نبيل شكري بعمليات ناجحة عديدة في حرب أكتوبر ١٩٧٣، وسجل رجالها بطولات فذة سبق لنا ذكر بعضها في فصول سابقة، ولذا سنكتفي في هذا الفصل بإبراز ثلاث عمليات كبيرة قامت بها الصاعقة خلال هذه الحرب: الأولى في قطاع الجيش الثاني، والثانية في قطاع الجيش الثالث، والثالثة في منطقة سيناء الجنوبية.

كمائن الصاعقة تحاصر القنطرة شرق

تقع مدينة القنطرة شرق على منطقة مسطحة من الرمال الثابتة، وتحدها من الشمال منطقة سهل الطينة وهي أرض منخفضة سبخية ممتلئة بالمياه، ويحدها من الجنوب منطقة رملية مسطحة تمتد جنوبا لمسافة تصل إلى ١٠ كم، وهي صالحة لسير جميع أنواع المركبات، ويحدها من الغرب قناة السويس ومن الشرق منطقة صحراوية مفتوحة بها هضاب رملية صغيرة.. وتتحكم هذه المنطقة في ملتقى طرق أهمها الطريق الشمالي الساحلي من القنطرة شرق إلى العريش، والطريق الموازي لقناة السويس من القنطرة شرق إلى بور فؤاد. وكانت هذه المنطقة شديدة الأهمية بالنسبة لإسرائيل، نظرا لسيطرتها على مدخل الاتجاه التعبوى الشمالى وباعتبارها إحدى المدن الرئيسية في منطقة سيناء. ولذا قامت بإنشاء ٤ نقاط قوية على قناة السويس إلى الغرب منها لحمايتها (حصون دوريا وكيتوبا وميلانو ومفريكيت من حصون خط بارليف)، وكان العدو يحتفظ باحتياطيات تكتيكية مدرعة قوية خارج المدينة بعيدا عن النقاط القوية بمسافة تتراوح بين ٥ و٨ كيلومترات، لشن الهجمات المضادة لتعزيز هذه النقاط في حالة تهديدها مع تدعيمها ببعض بطاريات من المدفعية لقصف أي قوات مهاجمة بالنيران.

ووفقا للخطة الموضوعة، أسندت إلى الكتيبة ٢٥٦ صاعقة (عدا سرية) من المجموعة ١٢٩ صاعقة التي كان يتولى قيادتها العقيد أ.ح علي هيكل والموضوعة تحت قيادة الجيش الثاني مهمة اقتحام قناة السويس من قطاعين شمال وجنوب «القنطرة شرق» ساعة س يوم ٦ أكتوبر، بهدف حصار المدينة ومنع احتياطيات العدو من التدخل في معركة اللواء ٩٠

مشاة من الفرقة ١٨ مشاة عند هجومه على النقاط القوية والاستيلاء على مدينة القنطرة شرق. على أن تقوم كتيبة الصاعقة بمنع قوات العدو المتمركزة في المدينة من الانسحاب، والاشتراك في تطهير المدينة بعد الانتهاء من تنفيذ مهمة الكمائن.

وكان القرار الذي وضعه قائد كتيبة الصاعقة يقضي بعبور سرية من الكتيبة قناة السويس على الجانب الأيسر للواء ٩٠ مشاة، وتتقدم سيرا على الأقدام بأقصى معدل حيث تقوم بتنظيم كمين قطع عند تقاطع الطريق الشمالي مع عزبة الصفيح، وأن تقوم السرية الثانية، ومعها قيادة الكتيبة بعبور القناة على الجانب الأيمن للواء ٩٠ مشاة، وتتقدم سيرا على الأقدام بأقصى معدل حيث تقوم بتنظيم كمائن قطع على التقاطع الجنوبي وعلى المدق الموازي له خارج المدينة. وفي الساعة الثانية وخمس دقائق بعد ظهر يوم ٦ أكتوبر وفور بدء التمهيد النيراني للمدفعية، قامت السريتان بعبور القناة شمال وجنوب مدينة القنطرة شرق. وفي الساعة الثانية والنصف أصبحت كمائن رجال الصاعقة جاهزة للاشتباك وفقا للتخطيط الموضوع. وبعد خمس دقائق، لاحظت السرية التي في شمال المدينة تقدم قوة مدرعة إسرائيلية من الاحتياطيات التكتيكية المتمركزة خارج المدينة، بهدف دعم النقاط القوية التي كانت تهاجمها وقتئذ مفارز من اللواء ٩٠ مشاة. وفي الساعة الثانية والدقيقة الخمسين اشتبك كمين الصاعقة مع احتياطي العدو بمجرد وصوله إلى منطقة عمله، وتمكنت قوة الكمين في خلال دقائق من تدمير ٤ دبابات ومركبة مدرعة نصف جنزير، مما أدى إلى وقف تقدم العدو وارتداده. وعند آخر ضوء يوم ٦ أكتوبر، حاول العدو تحت ستر قصف عنيف من مدفعيته دفع احتياطياته التكتيكية لنجدة نقاطه القوية على شاطئ القناة، ولكن سرية الصاعقة في الشمال وأطقم اقتناص دبابات اللواء ٩٠ مشاة تمسكت بمواقعها. ونتيجة للقصف المضاد لمدفعيتنا، تم إيقاف هجوم العدو المضاد وأمضت سرية الصاعقة ليلة ٦/ ٧ أكتوبر في تحسين أوضاعها وزيادة الأعمال الهندسية في مواقعها. وعند أول ضوء يوم ٧ أكتوبر، حاولت إحدى دبابات العدو الهاربة من إحدى النقاط القوية المرور على الطريق الشمالي بجوار كمين الصاعقة، ولكن الكمين لم يلبث أن دمرها. ونتيجة لنجاح كتائب اللواء ٩٠ مشاة في اقتحام النقطتين القويتين الشماليتين وإجبار العدو على الفرار، كلفت سرية الصاعقة يوم ٧ أكتوبر بالتقدم في مجموعات قتال لتطهير عزبة الصفيح من العدو. وعندما حاول بعض جنود العدو الالتجاء إلى المباني، قام جنود الصاعقة بمطاردتهم وتطهير المنطقة منهم تماما.

أما سرية الصاعقة التي تمركزت عند التقاطع الجنوبي للمدينة، فقد استمرت كمائنها في محلاتها حتى صدرت إليها الأوامر من قيادة الفرقة ١٨ مشاة في الساعة الخامسة والنصف مساء يوم ٦ أكتوبر، بدفع فصيلتين منها لمهاجمة النقطة القوية رقم ٣ من الخلف نظرا لعدم سقوطها بعد.

وفي الساعة السادسة مساء، اندفعت الفصيلتان في اتجاه النقطة القوية وقامت باقتحامها من الخلف. مما أجبر القوة الإسرائيلية على تغيير مواجهة الدفاع، وتبعا لذلك أمكن لقوات المشاة التي كانت تهاجمها من الأمام سرعة اقتحام النقطة واحتلالها وتدمير قوة العدو بها. وعقب سقوط النقاط القوية، حاولت فلول العدو الفرار من مدينة القنطرة شرق. وفي الساعة التاسعة مساء يوم ٦ أكتوبر كلفت سرية الصاعقة بتنظيم عدة كمائن لاصطياد قوات العدو ومنع انسحابها. وفي ليلة ٦/ ٧ أكتوبر ظهرت مجموعة من قوات العدو كان عددها حوالي ٣٠ فردا يحاولون التسلل من المدينة سيرا على الأقدام، وعندما اقتربوا من الكمين أطلق عليهم نيرانه فسقط ٦ أفراد قتلى، ولجأ الباقون إلى منطقة المباني القريبة.

وفي أول ضوء يوم ٧ أكتوبر، قامت سرية الصاعقة بالإغارة على منطقة المباني وتمكنت من تدمير قوة العدو بها وأسر ٨ أفراد. وفي أول ضوء يوم ٨ أكتوبر تمكنت قوات الفرقة ١٨ مشاة المدعمة برجال الكتيبة ٢٥٦ صاعقة من السيطرة التامة على مدينة القنطرة شرق، وإتمام الاستيلاء على النقاط الأربع القوية للعدو. ولا شك في أن استخدام وحدات الصاعقة في تنظيم أعمال الكمائن على الطرق الرئيسية لمنع وصول احتياطيات العدو إلى النقاط القوية والمواقع الحصينة للعدو يعد استخداما صحيحا لقوات الصاعقة، ولذا نجحت الكتيبة ٢٥٦ صاعقة نجاحا كبيرا في تحقيق المهمة المسندة إليها.

اقتحام حصن لسان بور توفيق

يعتبر لسان بور توفيق الممتد من الشاطئ الشرقي للقناة بمثابة برزخ داخل خليج السويس، إذ تحيطه المياه من ثلاث جهات، ويصل طوله إلى كيلو مترين ويتراوح عرضه ما بين ٥٠ و ٣٠٠متر. وطبيعة اللسان صخرية مما يصعب معه رسو القوارب المطاطية عليه. ويمتد على اللسان من جهة الغرب المدخل الجنوبي لقناة السويس الذي يبلغ عرضه حوالي من ٣٠٠ إلى ٤٠٠ متر وهو أقصى عرض للقناة، كما يشرف اللسان في الجنوب على خليج السويس.

وقد أقام الإسرائيليون حصنا منيعا من حصون خط بارليف عند منتصف اللسان في مواجهة بور توفيق وأطلقوا عليه اسم حصن كواي، وكانوا يستغلونه بحكم موقعه المشرف لإدارة نيران مدفعية الميدان والمدفعية بعيدة المدى لقصف المناطق المصرية الحيوية على الضفة الغربية للقناة، وهي مناطق بور توفيق والسويس ومعامل البترول بالزيتية والقاعدة البحرية بميناء الأدبية، وللإشراف بالملاحظة على منطقة بعيدة ممتدة تشمل خليج السويس حتى منطقة السادات خاصة باستخدام الوسائل البصرية.

وكان العدو قد خصص للدفاع عن موقع لسان بور توفيق حوالي سرية مظلات، ودعمها بفصيلة دبابات كانت تتمركز خارج النقطة القوية علاوة على فصيلتي دبابات كانتا تتمركزان خارج اللسان كاحتياطي تكتيكي للموقع. وكانت تكديسات الذخائر والطعام والمياه داخل النقطة القوية تكفي حاجة الموقع للقتال أكثر من ١٥ يوما تحت ظرف الحصار.

ووفقا للخطة الموضوعة أسندت إلى الكتيبة ٤٣ صاعقة من المجموعة ١٢٧ صاعقة الموضوعة تحت قيادة الجيش الثالث والتي كانت يتولى قيادتها العقيد أ.ح فؤاد بسيوني، مهمة الإغارة على موقع لسان بور توفيق واحتلال اللسان، بهدف معاونة أعمال قتال الفرقة ١٩ مشاة التي كانت تعمل على الجنب الأيمن للجيش الثالث الميداني. وفي الساعة الثانية وخمس دقائق بعد ظهر يوم ٦ أكتوبر ١٩٧٣، بدأ التمهيد النيراني للمدفعية، ولم يتم قصف موقع اللسان كما كان مخططا، ولكن أسلحة الضرب المباشر بدأت في إطلاق نيرانها وتم فتح ثغرتين في موقع العدو. وعند بدء القصف قام العدو بدفع ٥ دبابات من احتياطيه التكتيكي خارج الموقع إلى داخل اللسان، ولم تتمكن أسلحة الضرب المباشر على الضفة الغربية من إصابتها نظرا لتحركها خلف الساتر الترابي، وفي نفس الوقت قامت مدفعية العدو بقصف بور توفيق قصفا مركزا. وفي حوالي الساعة السادسة والنصف مساء يوم ٦ أكتوبر وتحت ستر نيران المدفعية وأسلحة الضرب المباشر، بدأت مجموعات الكمائن من الكتيبة ٤٣ صاعقة في عبور القناة بعدد ٩ قوارب مطاطية، ورغم نيران العدو الكثيفة تمكنت هذه المجموعات من الوصول إلى الساتر الترابي وإصابة دبابتين للعدو، وقامت بعمل كمائن القطع خارج وداخل اللسان، وكذا رص حقلين مضادين للدبابات لمنع الدخول والخروج من اللسان.

وفي الساعة السادسة والدقيقة الأربعين مساء يوم ٦ أكتوبر، دفع قائد الكتيبة ٤٣ سرية الصاعقة المخصصة لمهاجمة النقطة القوية الرئيسية، ورغم النيران المركزة التي

انهمرت عليها أثناء عبور القناة مما أدى إلى استشهاد قائد السرية وبعض أفرادها، فقد تمكنت السرية من الوصول إلى الساتر الترابي ونجحت إحدى فصائلها في مهاجمة واحتلال الجزء الجنوبي للنقطة القوية وتدمير العدو بها. وقام العدو بشن هجوم مضاد على هذه الفصيلة مرتين. . إحداهما في أول ضوء والثانية في آخر ضوء يوم ٧ أكتوبر، ولكن المحاولتين باءتا بالفشل وظلت الفصيلة متمسكة بموقعها. وحاول قائد كتيبة الصاعقة استغلال نجاح هذه الفصيلة فقام بدفع فصيلتين لتعزيزها. وتحت ستر قصف نيراني مركز في الساعة السابعة مساء يوم ٧ أكتوبر قامت الفصائل الثلاث بمهاجمة النقطة القوية الرئيسية من اتجاه الجنوب، ولكنها عجزت عن اقتحامها فقرر قائد الكتيبة سحبها إلى الضفة الغربية لإعادة تجميعها.

وعند منتصف ليلة ٧/ ٨ أكتوبر قررقائد الكتيبة ٤٣ صاعقة تنفيذ عملية الهجوم مرة أخرى بقوة سرية جديدة كاملة بوحدات دعمها. وقامت سرية الصاعقة بعبور القناة بقواربها في سكون مستغلة ساعات الظلام وبدون أي ستر من نيران المدفعية، وفور وصولها إلى الشاطئ الشرقي اندفعت لمهاجمة النقطة القوية ولكن نظرا لقوة تحصينها لم تتمكن من اقتحامها. وأصدر قائد الكتيبة أمره بضرب الحصار حول الموقع وعزله تماما عن العالم الخارجي، وقرر عدم إعادة شن الهجمات ضده حفاظا على أسلحته وأرواح جنوده، إذ إن حامية الموقع عقب هذا الحصار المحكم لا مفر أمامها سوى التسليم. وحاولت طائرات العدو كسر هذا الحصار، فقامت بعض الطائرات من طراز فانتوم في الساعة العاشرة مساء وعند منتصف الليل يوم ٩ أكتوبر بشن هجمات جوية عنيفة على كمائن القطع عند مدخل اللسان، لإجبارها على التخلي عن مواقعها حتى يمكن إرسال تعزيزات إلى الموقع، ولكن مجموعات القطع ظلت متمسكة بمواقعها رغم ما حاق بها من خسائر.

وكان قائد الحصن الإسرائيلي الملازم أول شلومو أردينست قد أدرك منذ الليلة الأولى أن الحصن محاصر من جميع الجهات، ولكنه لم يكن لديه أي شك في أن قوات الجيش الإسرائيلي ستأتي سريعا لنجدته وترفع الحصار المصري عنه. ولكن بعد مرور بضعة أيام تحرج الوضع داخل الحصن، فقد أخذت الذخيرة في التناقص ونفد المورفين والأمصال والضمادات، وراح الجرحى يتلوون من آلامهم. وفي اليوم الخامس وصلت إلى الحصن رسالة لاسلكية من القيادة الجنوبية الإسرائيلية كان نصها: «إذا لم نستطع خلال ٢٤ ساعة إرسال التعزيزات إليكم يمكنكم الاستسلام». وكان داخل الحصن ٤٢ جنديا منهم ٥ قتلى و٢٠ جريحا أحدهم مصاب بجروح خطيرة. وفي الساعة الحادية عشرة والنصف صباحا

يوم ١٣ أكتوبر، تم استسلام الموقع عن طريق الصليب الأحمر الدولي ورفع العلم المصري عليه، ووقع في الأسر ٣٧ فردا منهم ٥ ضباط.

وقد كانت عملية الإغارة على الحصن الإسرائيلي «كواي» على لسان بور توفيق والاستيلاء عليه، من أروع العمليات التي قامت بها وحدات الصاعقة خلال حرب أكتوبر ١٩٧٣ رغم الخسائر الجسيمة التي منيت بها الكتيبة ٤٣ صاعقة. ولا شك في أن من أهم الدروس التي يمكن الخروج بها من هذه العملية.. أنه يجب عند التخطيط لاستخدام وحدات الصاعقة، أن تراعى إمكاناتها وقدراتها النيرانية المحدودة، فلا تكلف بمهمة الإغارة على النقاط القوية للعدو ومواقعه الحصينة مثل المهمة التي كلفت بها الكتيبة ٤٣ صاعقة، بل ينبغي أن يقتصر عملها على معاونة قوات المشاة في الاستيلاء عليها بتنظيم أعمال الكمائن على مداخل ومخارج هذه النقاط لمنع احتياطيات العدو من التقدم إليها لنجدتها، ولمنع أفراد هذه النقاط بعد سقوطها من التسلل والانسحاب منها، وبذا تتهيأ الفرص أمام قوات المشاة لتنفيذ المهام المسندة إليهم في الاستيلاء على هذه النقاط الحصينة.

كمائن الصاعقة لعرقلة تقدم احتياطيات العدو

في الساعة الرابعة والدقيقة الأربعين مساء يوم ٦ أكتوبر، قامت الكتيبة ١٨٣ صاعقة (عدا سرية) من المجموعة ١٣٩ صاعقة التي كان يتولى قيادتها العقيد أ.ح أسامة إبراهيم محملة في ١٢ طائرة هيليكوبتر (مي٨) بالإقلاع من مطار أبو صوير بمهمة عرقلة تقدم احتياطيات العدو المتمركزة في منطقة المليز، إلى اتجاه قناة السويس. وكانت الخطة الموضوعة تقضي بتقدم الطائرات خلال الممر الجوي المحدد لها، في تشكيل طيران واحد حتى منتصف البحيرة المرة الكبرى، ثم التفرق بعد ذلك في مجموعتين، كل مجموعة تتكون من سرية صاعقة مدعمة بعناصر من المقذوفات الصاروخية المضادة للدبابات (مالوتكا)، وصواريخ الكتف المضادة للطائرات (سام ٧)، وعند النقطة المحددة للتفرق، انقسم التشكيل إلى مجموعتين كل مجموعة من ٦ طائرات هيليكوبتر. ولم تمر سوى خمس دقائق حتى هوجمت طائرات الهيليكوبتر، بواسطة مقاتلات العدو الاعتراضية، ونتيجة لهذا الهجوم هبطت ٦ طائرات من المجموعتين هبوطا اضطراريا على مسافة حوالي ١٢ كم شرق البحيرات المرة وعادت طائرتان إلى قواتنا مرة أخرى. ولم تتمكن من الهبوط بسلام في المنطقة المحددة للهبوط سوى ٤ طائرات فقط، وقد أصيب عدد كبير من

أفراد الصاعقة الذين كانوا في الطائرات التي هبطت اضطراريا بحروق جسيمة، وعاد الناجون فرادى إلى منطقة البحيرات المرة حيث انضموا لقواتنا.

هذا وقد تمكن الأفراد الذين كانوا في الطائرات الأربع التي هبطت سالمة من أداء مهمتهم بنجاح، فقد ظلوا يقاومون تقدم قوات العدو الاحتياطية لمدة ثماني ساعات، ولم تتمكن الطائرات الأربع التي حملتهم من العودة إلى قاعدتها. وكان إجمالي خسائر السريتين حوالى ١٥٠ شهيدا منهم ١٥ ضابطا، علاوة على ١٠ طائرات هيليكوبتر. وكان سبب الخسائر الجسيمة التي لحقت بهذه الكتيبة يرجع إلى أن عملية الإبرار الجوي تمت خلال النهار دون تخصيص حماية جوية لطائرات الهيليكوبتر سواء أثناء الاقتراب من الهدف أو عند الإبرار. وقد اتضح من معدل خسائر طائرات الهيليكوبتر في عمليات الإبرار الجوي أن نسبة الخسائر في الطائرات في حالة الإبرار نهارا تبلغ حوالي ثلاثة أمثال نسبة الخسائر في حالة الإبرار الليلي.

أما السرية المدعمة المتبقية من الكتيبة ١٨٣ صاعقة بقيادة النقيب حمدي شلبي والتي أسندت إليها مهمة تعطيل تقدم الاحتياطي الإسرائيلي على المحور الشمالي لمدة من ٣ إلى ٤ ساعات حتى يتم إنشاء معابر الجيش الثاني الميداني، فقد قامت ٦ طائرات هيليكوبتر (مي ٨) بتحميل هذه السرية والإقلاع بها من مطار أبوصوير في الساعة السادسة مساء حيث تمكنت من إبرارها بسلام في منطقة تل الفرما على المحور الشمالي، وقامت السرية بالتقدم بعد نزولها إلى منطقة العمل المحددة لعمل الكمائن في منطقة مضيق رمانة، على خط واحد وعلى جانب واحد من الطريق بمواجهة حوالي ٣ كيلو مترات. وعند منتصف الليل، أمر قائد السرية بوضع الألغام المضادة للدبابات على المدقات المؤدية إلى المحور الشمالي وتوزيع المجموعات، وقام بعمل قاعدة للدوريات في الخلف للارتداد إليها بعد أداء المهمة وكانت روح الأفراد غاية في القوة. وفي الساعة السادسة صباحا بدأت دبابات العدو في التقدم على الطريق الشمالي في اتجاه قناة السويس. وعندما دخل رتل العدو الرئيسي في منطقة الكمائن وكان يتكون من دبابات وعربات مدرعة نصف جنزير وعربات ناقلات جنود، أصدر قائد السرية أمره بالإشتباك. وخلال هذا الوقت قدمت عربة أوتوبيس كبيرة من الاتجاه العكسي من القناة إلى العريش فتم ضرب الأوتوبيس وإصابة جميع ركابه. ونتيجة للاشتباك مع رتل العدو المتجه صوب القناة دمرت سرية الصاعقة ١٨ دبابة إسرائيلية و٢ عربة مدرعة نصف جنزير و ٤ عربات نقل وونش وعربة جيب.

وأدى القتال المحتدم مع العدو إلى إغلاق المحور الشمالي تماما لمدة خمس ساعات.

ولكن القيادة الإسرائيلية لم تلبث أن اتخذت الإجراءات لإبادة سرية الصاعقة المصرية، فقامت بإبرار جوي لسرية مشاة في ٤ طائرات هيليكوبتر خلف موقع السرية، كما أرسل العقيد نيتكا الذي أوقفت سرية الصاعقة تقدم لوائه المدرع ٢٠ دبابة بقيادة أحد قادة كتائبه (عساف ياجوري) حيث قام بتطويق قوة الصاعقة المصرية من جميع الجهات، واندفعت بعض الدبابات الإسرائيلية لتسير بجنازيرها فوق أفراد الصاعقة. وقام أفراد الصاعقة في بطولة نادرة بالاشتباك مع الدبابات الإسرائيلية وقفز بعضهم فوق أبراجها حيث ألقوا بقنابلهم المضادة للدبابات مما أدى إلى انفجار بعضها، كما انفجر بعضها الآخر بسبب مروره على الألغام التي سبق لأفراد الصاعقة بثها. وبعد أن استشهد من أفراد الصاعقة نحو ٧٥ فردا ركز العدو اهتمامه في إخلاء الطريق منعا لتعطل قواته الاحتياطية، التي كانت متقدمة على المحور الشمالي، فأحضر بعض أوناش لرفع الدبابات والعربات المدمرة وهبطت بعض الطائرات الهيليكوبتر حيث قامت بنقل الجرحى بعد أن تأكد الإسرائيليون أن سرية الصاعقة قد تمت إبادتها. وقام قائد الصاعقة بقيادة الأفراد القليلين الذين بقوا على قيد الحياة في اتجاه القناة، مستغلا ساعات الظلام وحريصا على السير بمجموعته في مستنقعات سهل الطينة، حتى وصلوا في الصباح إلى منطقة رأس العش، حيث انضموا إلى قواتنا. وقد اعترف الإسرائيليون بأن أفراد الصاعقة المصريين الذين هاجموهم على المحور الشمالي، قد قاتلوا معركة بطولية فذة، وأن هجماتهم كانت هجمات انتحارية.

كمائن الصاعقة في مضيق وادي سدر

يعتبر مضيق وادي سدر أحد المضايق الرئيسية لعبور الحائط الغربي لسيناء وهو يقع جنوب مضيق متلا. وترجع أهميته إلى أن مدخله الشرقي في عين سدر تلتقي عنده ثلاثة طرق قادمة من نخل والتمد من وسط سيناء، ومن بئر التمادا من شمال سيناء ومنها يتم الوصول عبر المضيق إلى جنوب سيناء، عن طريق محور الطور الساحلي. ووفقا للخطة الموضوعة، أسندت إلى الكتيبة ١٤٣ من المجموعة ١٤٥ صاعقة (من احتياطي القيادة العامة) التي كان يتولى قيادتها العقيد أ.ح السيد الشرقاوي، مهمة تنظيم أعمال الكمائن في مضيق وادي سدر اعتبارا من آخر ضوء يوم ٦ أكتوبر ١٩٧٣، وكان تنفيذ الكتيبة لمهمتها يؤدي إلى تحقيق الأهداف التالية:

١ ـ حرمان العدو من دفع أي قوات تحاول نجدة الأهداف الحيوية على ساحل خليج السويس.

٢ ـ معاونة اللواء الأول مشاة ميكانيكي في أثناء تحقيقه المهمة المباشرة المسندة إليه بالتقدم على الطريق الساحلي حتى أبو رديس عن طريق تأمين جنبه الأيسر.

٣ ـ حماية الجنب الأيمن للجيش الثالث وتخفيف الضغط عن رءوس الكباري المصرية شرق القناة بجذب احتياطيات العدو جنوبا في اتجاه لم يكن مخططا له من قبل، وبذا يتم تشتيت جهودها في منطقة جبلية وعرة تعتبر من أصلح المناطق للعمليات القتالية لوحدات الصاعقة.

وفي يوم ٥ أكتوبر تحركت الكتيبة ١٤٣ صاعقة بالعربات من مكان تمركزها بالمنطقة العسكرية المركزية إلى منطقة جنوب غرب جبل عتاقة، ودعمت الكتيبة بفصيلة مقذوفات صاروخية موجهة مضادة للدبابات (مالوتكا). وفي الساعة الخامسة مساء يوم ٦ أكتوبر، تم تحميل الكتيبة في ١٨ طائرة هيليكوبتر مي ٨ وأقلعت الطائرات من منطقة الإقلاع في تشكيل كان يتكون من مجموعتين وفقا لقرار قائد الكتيبة الذي كان يتضمن ما يلي:

أ ـ كتيبة عدا سرية (المجموعة الرئيسية) يتم إبرارها على المدخل الغربي لمضيق وادي سدر.

ب ـ سرية من الكتيبة (مجموعة السرية) يتم إبرارها في منطقة قلعة الجندي على المدخل الشرقي للمضيق، وتقوم الكتيبة بتنظيم كمائن تعطيلية متعددة على طول المضيق، بهدف منع قوات العدو المدرعة من عبور المضيق. ولم تكد الطائرات الهيليكوبتر تعبر خليج السويس حتى هاجمها تشكيل جوي إسرائيلي كان مكونا من طائرات فانتوم وميراج. وقد ركز العدو هجومه على طائرات المجموعة الرئيسية، أما طائرات مجموعة السرية وعددها ٦ طائرات فلم تعترضها أي طائرات إسرائيلية وتابعت سيرها حتى تمكنت من إبرار سرية الصاعقة بسلام في منطقة الإبرار المخططة من قبل (قلعة الجندي). وقد حاولت طائرات المجموعة الرئيسية التي كانت تتكون من ١٢ طائرة هيليكوبتر أن تتفادى هجوم العدو الجوي عليها، ولكن التشكيل الجوي الإسرائيلي تمكن من إسقاط ٤ طائرات هيليكوبتر منها، وتم في آخر ضوء يوم ٦ أكتوبر إبرار ٨ طائرات هيليكوبتر في مناطق متفرقة. ونتيجة لإصابة قائد الكتيبة ورئيس عملياتها، فقد تولى أحد قادة السرايا قيادة الكتيبة، وتمكن من تجميع القوة والسيطرة عليها والتوجه بها إلى المنطقة المحددة التي سيتم فيها تنظيم أعمال الكمائن استعدادا لتنفيذ المهام التي أسندت إليها. ونظرا لإصابة ٩ أفراد من الطيارين والملاحين من أطقم الطائرات المصابة فقد تم اصطحابهم مع قوة الصاعقة إلى هذه المنطقة، وقد استغرقت عملية إعادة التجميع والسيطرة على القوة طوال الليل.

ولم تتمكن القوة من التحرك يوم ٧ أكتوبر في أثناء النهار لزيادة نشاط استطلاع العدو الجوي، ولكن بعد آخر ضوء يوم ٧ أكتوبر تحركت القوة ليلا لاتخاذ أوضاعها في الكمائن. وقبل ذلك تمكنت السرية المكلفة بتنظيم الكمائن شرق مضيق سدر بعد إبرارها في منطقة قلعة الجندي من اتخاذ وضع الكمين، وأصبحت جاهزة لتنفيذ المهمة المكلفة بها عند آخر ضوء يوم ٦ أكتوبر. ونظرا لعدم قيام العدو بأي تحركات في اتجاه المضيق في المدة من ٧ إلى ١٠ أكتوبر، فقد استغلت السرية هذه الفترة في تحسين أوضاعها وتحصين موقعها، وعقب آخر ضوء يوم ١٠ أكتوبر صدرت التعليمات إلى هذه السرية التي كانت على بعد حوالي ١٢ كم شرق المجموعة الرئيسية للكتيبة بالانضمام إلى باقي القوة وأصبح الفاصل بين المجموعتين حوالي ٣ كم فقط.

وفي أول ضوء يوم ١١ أكتوبر بدأت وحدات مدرعة إسرائيلية في التحرك خلال المضيق مع تأمين تحركها بطائرة هيليكوبتر تطير فوقها على نفس خط سيرها، ولكن الطائرة لم تتمكن من اكتشاف عناصر الصاعقة التي كانت منتشرة قرب المدخل الغربي للمضيق نتيجة لحسن استغلالهم للأرض. وفي الساعة السابعة صباحا يوم ١١ أكتوبر وصلت العناصر المدرعة المتقدمة للعدو، وعندما أصبحت في مواجهة منطقة الكمائن انهال عليها وابل من النيران الكثيفة، مما أدى إلى تدمير ٨ دبابات و٧ عربات مدرعة نصف جنزير وعربة جيب. وإزاء ذلك اضطرت القوة التي كانت تتبعها إلى التوقف وبدأت الدبابات والعربات المدرعة الإسرائيلية في الارتداد في اتجاه الشرق. . وبعد انتهاء المعركة تمت عملية إعادة التجميع وعلاج الجرحى وإعادة توزيع الذخائر. ومنذ الساعة الثامنة صباحا حتى الساعة الرابعة والنصف مساء يوم١١ أكتوبر شنت طائرات العدو غارات انتقامية على منطقة الكمائن، ولكنها لم تحدث أي خسائر لعناصر الصاعقة نظرا لحسن استغلالهم للأرض مما هيأ أماكن جيدة للاستتار من القصف الجوي.

وكان موقف الطعام والمياه والذخائر يبعث على القلق لعدم وجود أي وسيلة لتعويض ما يستهلك منها، ولذا اضطر قائد الكتيبة بالنيابة إلى تخفيض معدلات خروج كمائن الصاعقة، وكذا إلى تخفيض أنصبة الأفراد من الطعام والمياه وإلى الاقتصاد في استهلاك الذخيرة.

ورغم هذه الظروف القاسية، ورغم تعقد موقف الطعام والمياه وازدياد نسبة الخسائر في الأفراد والأسلحة، فإن رجال الكتيبة ١٤٣ صاعقة أصروا في شجاعة وبطولة على التمسك بالمضيق وحرمان العدو من عبوره مهما كلفهم ذلك من تضحيات، واعتمدوا في

بقائهم على قيد الحياة على تناول الأعشاب والزواحف كأطعمة رئيسية، حتى بدأت بعض الإمدادات الخفيفة تصل إليهم في يوم ١٧ أكتوبر على ظهور الجمال أي بعد ١١ يوما كاملة. وفي يوم ٢٠ أكتوبر صدرت الأوامر إلى قائد الكتيبة ١٤٣ صاعقة بالتخلص من المنطقة والعودة سيرا على الأقدام نتيجة لعدم توافر طائرات هيليكوبتر بالإضافة إلى نشاط العدو الجوي المتزايد.

وبدأت الكتيبة رحلة العودة سيرا علي الأقدام عبر المناطق الجبلية الوعرة: ورغم ما تكبدته القوة من خسائر، ورغم نفاد الطعام والمياه، تمكنت الكتيبة ١٤٣ صاعقة من قطع مسافة حوالي ٦٠ كم خلال يومين من السير الشاق، ومن الانضمام إلى قواتنا.

هذا، وتعتبر مهمة تنظيم الكمائن لعرقلة العدو في المناطق الجبلية من أنجح المهام التي أسندت إلى وحدات الصاعقة خلال حرب أكتوبر، حيث تم فيها إظهار قدرة وحدات الصاعقة على الظهور فجأة للتأثير على العدو، ثم الاختفاء والتخلص من المعركة.



ملحق صور الفصل الثالث عشر



عميد نبيل شكري
قائد قوات الصاعقة.



عقيد فؤاد بسيوني
قائد المجموعة ١٢٧ صاعقة.



عقيد علي هيكل
قائد المجموعة ١٢٩ صاعقة.



عقيد كمال عطية
قائد المجموعة ١٣٦ صاعقة.



عقيد أسامة إبراهيم

قائد المجموعة ١٣٩ صاعقة.



عقيد السيد الشرقاوي

قائد المجموعة ١٤٥ صاعقة.

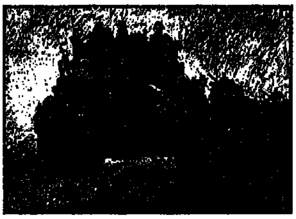


نقيب حمدي شلبي

قائد كمين الصاعقة على محور العريش رمانة.



قائد حصن لسان بور توفيق يستسلم للقوات المصرية عن طريق ممثل الصليب الأحمر يوم ١٣ أكتوبر ١٩٧٣.



■ الفصل الرابع عشر ■

الخطة «شامل» لتصفية الثغرة غرب قناة السويس

كان للنجاح الباهر الذي أحرزته القوات المصرية يوم ٦ أكتوبر١٩٧٣ ، في اقتحام قناة السويس واجتياح حصون خط بارليف، ثم تمكنها بعد ذلك من إقامة خمسة رءوس كبار على الضفة الشرقية للقناة بعمق١٠ ـ ١٢ كيلو مترا، وتدمير ثلاثة ألوية مدرعة إسرائيلية تدميرا يكاد يكون كاملا، أثر هائل في تقويض سمعة الجيش الإسرائيلي الذي ذاعت شهرته في الآفاق بأنه الجيش الذي لا يقهر، وأصيب الشعب الإسرائيلي بصدمة عنيفة وصفها بعض القادة والمحللين العسكريين بالعبارة الشهيرة «زلزال في إسرائيل» .

وكان المسئولون الأمريكيون في واشنطن على يقين عند بدء الهجوم المصري ـ وفقا للتأكيدات الإسرائيلية، ولتجارب الحروب السابقة ـ بأنه في خلال ٤٨ ساعة فقط وبعد إتمام عملية تعبئة القوات الاحتياطية، سوف يبدأ الهجوم المضاد الرئيسي الذي سيصفى رءوس الكباري المصرية شرق القناة ويرد المصريين على أعقابهم عبر القناة إلى الشاطئ الغربي مدحورين مهزومين، وبذا يتم تلقين القيادة المصرية درسا لن تنساه، وهو ألا تغامر باستخدام قوتها العسكرية ضد إسرائيل مرة أخرى.

ولكن أحلام القيادة الإسرائيلية لم تلبث أن تبددت. فقد انتهى الهجوم المضاد الرئيسي الذي شنته قواتها المدرعة يومي ٨و٩ أكتوبر بهدف اختراق المواقع المصرية وعبور القناة إلى الغرب على بعض الكباري المصرية بفشل تام، بعد أن عجزت القوات الإسرائيلية عن اختراق المواقع المصرية خاصة في القطاع الشمالي من الجبهة، حيث كانت تتمركز قوات الجيش الثاني. وعلى العكس نجحت تشكيلات هذا الجيش في سحق قوات الهجوم الإسرائيلي وفي إلحاق أفدح الخسائر بها.

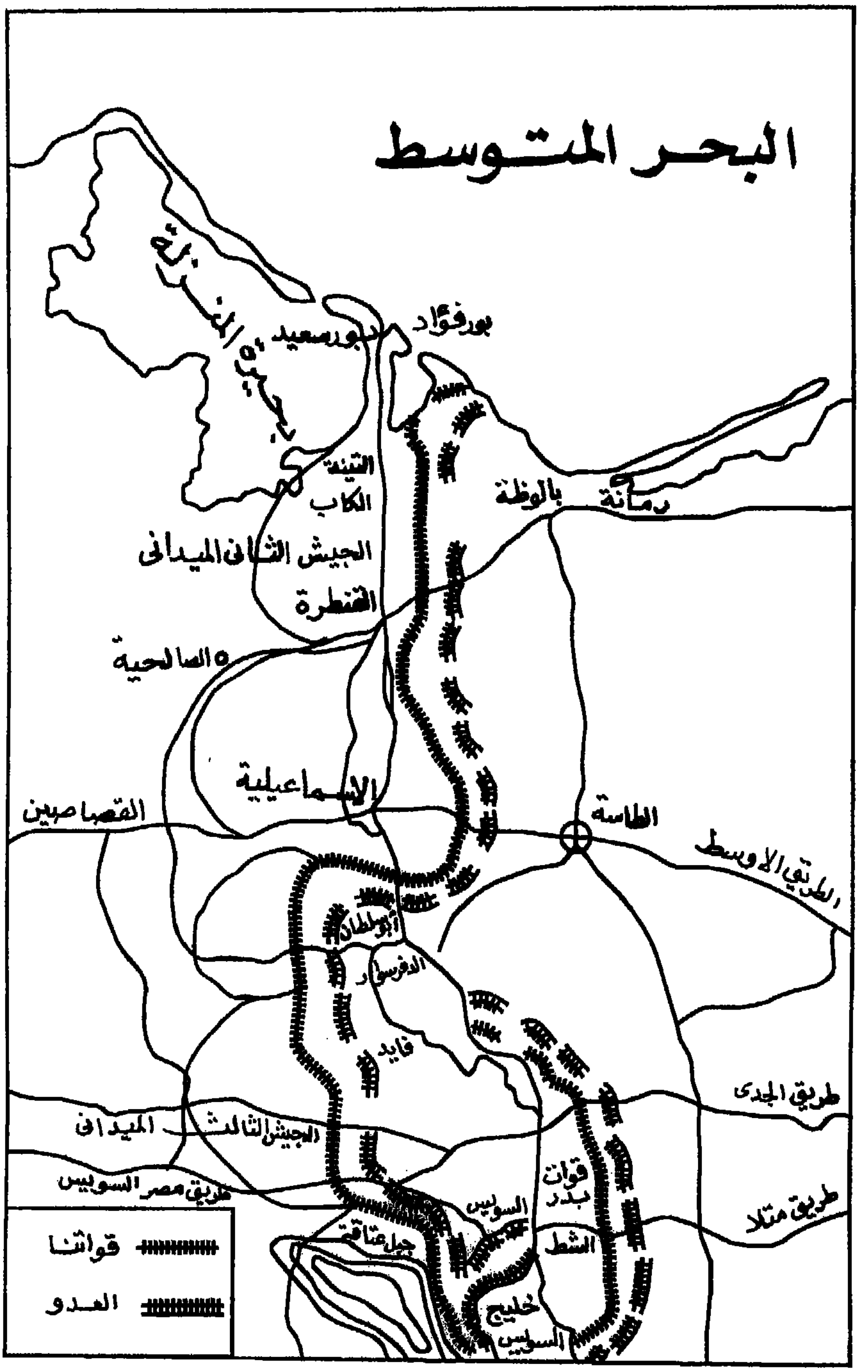
واضطر المسئولون العسكريون الإسرائيليون إلى مصارحة الشعب بالحقائق المرة التي

حجبوها عنه في بداية الأمر. فقد اعترف موشى ديان وزير الدفاع في المؤتمر الذي عقده لرؤساء تحرير الصحف بعد ظهر يوم ٩ أكتوبر بأن خط بارليف ذا المواقع الحصينة قد تم إخلاؤه وتم التخلي عنه، وأن القوات الإسرائيلية في سيناء اضطرت إلى اتخاذ خط دفاعي لاحتواء الهجوم المصري، كما اعترف لأول مرة بأن الإسرائيليين ليسوا أقوى من المصريين.

وفي مساء اليوم نفسه ظهر على شاشة التليفزيون الجنرال أهارون ياريف الذي استدعى من التقاعد لكي يتولى مسئولية الإعلام العسكري، وعرض على المشاهدين الوضع على جبهتي القتال في سيناء والجولان وقال: «الوضع ليس سهلا أو بسيطا والحرب من شأنها أن تطول. إن الجيش الإسرائيلي في وضع صعب وقد اضطر إلى الانسحاب من خطوط وقف القتال في الجولان وسيناء». وكانت هذه هي المرة الأولى التي يسمع الشعب فيها بيانا صريحا يدرك منه أن هذه الحرب ليست استمرارا لحرب الأيام الستة عام ١٩٦٧ وليست حربا خاطفة. وتذكرت الجماهير كيف خدعتهم تصريحات موشى ديان مساء ٦ أكتوبر عندما قال للصحفيين، «سنحول المنطقة إلى مقبرة كبرى لهم»، وكذا تصريحات الجنرال داڤيد أليعازر رئيس الأركان العامة عندما صرح في حماسة في المؤتمر الصحفي يوم ٨ أكتوبر وسط تصفيق الحاضرين بأن الجيش الإسرائيلي سيواصل ضرب العدو وتحطيم عظامه. وأدرك أفراد الشعب الإسرائيلي أن إسرائيل تواجه لأول مرة منذ قيامها معركة حياة أو موت.

لماذا فكر الإسرائيليون في العبور إلى غرب القناة؟

بعد المفاجأة الإستراتيجية التي لحقت بالجيش الإسرائيلي على جبهتي سيناء والجولان مما أدى إلى عجز القيادة الإسرائيلية عن تنفيذ ضربة الإجهاض التي كانت تعتمد عليها لسحق أي هجوم عربي قبل وقوعه، وبعد فشل الهجوم المضاد الرئيسي الذي كان أمل إسرائيل معلقا عليه لرد الهجوم المصري على أعقابه وإعادة الموقف إلى ما كان عليه قبل ظهر يوم ٦ أكتوبر ٧٣، كان تصميم القيادة الإسرائيلية يتركز على ضرورة تغيير الوضع الإستراتيجي على الجبهة المصرية تغييرا جذريا، قبل أن يصدر القرار المنتظر مجلس الأمن بوقف إطلاق النار في ظل هزيمة منكرة للقوات الإسرائيلية وفي ذروة انتصار مصري ساحق واضح للعيان، وهو الأمر الذي لا يمكن أن تقبله إسرائيل ولا يمكن أن يرضى به أحد من أصدقائها المخلصين في البيت الأبيض في واشنطن وعلى رأسهم وزير الخارجية



أوضاع القوات يوم ٢٢ أكتوبر ١٩٧٣.

الأمريكي اليهودي الديانة هنري كيسنجر. وكان النجاح الذي أحرزته القيادة الإسرائيلية على الجبهة السورية في مرتفعات الجولان بعد أيام قلائل من بداية الحرب، بإرغامها القوات السورية على إتمام الانسحاب من الجولان يوم ١٠ أكتوبر والعودة إلى خط وقف إطلاق النار عام ١٩٦٧ الذي بدأت منه الهجوم يوم ٦ أكتوبر ثم الهجوم العام الإسرائيلي على عمق سوريا اعتبارا من ١١ أكتوبر لتهديد العاصمة السورية دمشق. كان ذلك ما حفز القيادة الإسرائيلية على ضرورة استعادة الموقف أيضا على الجبهة المصرية في سيناء. ولذا اتجه تفكير المسئولين بها على وجوب القيام بعملية سريعة غير متوقعة يمكن عن طريقها استعادة ميزة المبادأة Initiative التي فقدوها منذ بداية الحرب، وإعادة ثقة القوات الإسرائيلية بقيادتها وثقة الشعب الإسرائيلي بجيشه الذي لا يقهر.

وكانت الطريقة الوحيدة لتحقيق ذلك هي عبور القوات الإسرائيلية قناة السويس من الشرق إلى الغرب والعمل على مؤخرة الجيشين الثاني والثالث، على أن يتم ذلك بعملية سريعة ومفاجئة قبل تدخل القوى العظمى كما هو منتظر، وفرض وقف إطلاق النار على جبهتي القتال.

وكانت الأهداف الإستراتيجية التي تتوخاها القيادة الإسرائيلية من عبور قواتها إلى غرب القناة تتلخص فيما يلي:

١ ـ الإخلال بالتوازن الإستراتيجي للقوات المصرية شرق وغرب القناة.

٢ ـ حصر وتدمير التجميع الرئيسي للقوات المصرية داخل رءوس الكباري شرق القناة لاستعادة الأوضاع إلى ما كانت عليه قبل ظهر يوم ٦ أكتوبر.

٣ ـ إحراز مكاسب سياسية وإعلامية على المستوى الدولي عندما يذاع على العالم بأن القوات الإسرائيلية تقاتل غرب قناة السويس.

٤ ـ فرض الحصار على الجيشين الثاني والثالث أو أحدهما عن طريق قطع خطوط مواصلاتهما مع غرب القناة.

٥ ـ إحراز نصر عسكري وسياسي ضخم بالاستيلاء على مدينة الإسماعيلية أو السويس أو كلتيهما.

ورغم خشية إسرائيل من التورط في مغامرة عسكرية غرب القناة وما يحف بها من مخاطر الامتداد البعيد بأكثر من طاقة الجيش الإسرائيلي ومن الدخول في الكثافة السكانية

المصرية، فقد كانت مواجهة الهزيمة وما سيترتب عليها من انهيار الجيش والنظام الإسرائيلي كله تجبر إسرائيل على ضرورة تحمل هذه المغامرة بأي ثمن، خاصة وأن قرار وقف إطلاق النار على وشك الصدور مما يحقق الأمان لقواتها التي ستعبر إلى غرب القناة.

وكان الدعم الأمريكي الواسع النطاق لإسرائيل من العوامل المهمة التي شجعت قيادتها العسكرية على الإقدام على هذه المغامرة. فلقد حصلت إسرائيل من الناحية الواقعية على جسر جوي أمريكي متنكر تحت ستر طائرات الجامبو الإسرائيلية التابعة لشركة العال اعتبارا من يوم ٧ أكتوبر، كما أصدر الرئيس الأمريكي نيكسون قرارا بتعويض إسرائيل عن كل خسائرها في الحرب. وفي يوم ١٣ أكتوبر بدأ بصفة رسمية الجسر الجوي الأمريكي الذي نقل إلى إسرائيل ـ حتى نهاية الحرب ـ حوالي ٢٨٠٠٠ طن من كل الأسلحة والمعدات المتطورة الحديثة، كما قامت طلعات طائرات التجسس الأمريكية فوق جبهة القتال بتوفير وتوصيل أدق المعلومات التفصيلية عن القوات المصرية إلى المخابرات الإسرائيلية.

ورغم أن فكرة عبور القوات الإسرائيلية إلى غرب القناة لم تكن فكرة فجائية طرأت على أذهان المسئولين في القيادة الإسرائيلية في أثناء الحرب، بل كانت عنصرا أساسيا في التخطيط العسكري الإسرائيلي الذي تم وضعه منذ عام ١٩٦٨ للدفاع عن سيناء في مواجهة أي هجوم مصري واسع النطاق عبر قناة السويس. ورغم الضرورة الإستراتيجية الملحة التي كانت تحتم على إسرائيل ـ كما أسلفنا ـ وجوب عبور قواتها إلى غرب القناة، فإن الجنرال حاييم بارليف الذي كان يتولى القيادة فوجئ بأن الخطة التي عرضها لعبور قواته إلى الغرب قد قوبلت بمعارضة شديدة من بعض الوزراء والقادة العسكريين في أثناء اجتماع مجلس الحرب الذي رأسته جولدا مائير رئيسة الوزراء مساء يوم الجمعة ١٢ أكتوبر في تل أبيب. وكان السبب الأساسي في معارضة خطة العبور الإسرائيلي إلى الغرب ترجع إلى وجود حشد ضخم من المدرعات المصرية يزيد على ٤٠٠ دبابة على الضفة الغربية لقناة السويس، وهي عبارة عن فرقتين مدرعتين وفرقتي مشاة ميكانيكيتين (الاحتياطي التعبوي للجيشين) مما كان يجعل عملية العبور الإسرائيلي إلى غرب القناة عملية محفوفة بالمخاطر ولا تؤمن عواقبها. وكاد قرار القيادة الإسرائيلية يصدر بتأجيل تنفيذ الخطة إلى توقيت أكثر ملاءمة في المستقبل، وكاد الجنرال بارليف يجمع أوراقه لينصرف من المجلس بعد أن أصابه الإحباط، لولا ذلك النبأ المثير الذي نقله إلى مجلس الحرب أحد ضباط

العمليات والذي قلب كل التقديرات رأسا على عقب، وهو بدء عبور القوات المدرعة المصرية إلى شرق القناة. وعلى ذلك تم الاتفاق على تأجيل تنفيذ عملية العبور الإسرائيلي إلى الغرب إلى أن تقوم القيادة الجنوبية بصد الهجوم المصري المنتظر.

وكان الأمر الذي جد على الموقف على الجبهة المصرية هو ذلك القرار الخطير الذي أصدره الرئيس الراحل السادات إلى القيادة العسكرية بتطوير الهجوم شرقا صباح يوم ١٣ أكتوبر لتخفيف الضغط عن سوريا. وقد تم تأجيل الموعد ٢٤ ساعة لكي يجري الهجوم صباح يوم ١٤ أكتوبر. ورغم معارضة الفريق سعد الشاذلي رئيس الأركان المصري وكذا اللواء سعد مأمون قائد الجيش الثاني واللواء عبد المنعم واصل قائد الجيش الثالث لهذا القرار الذي كان توقيته السليم قد فات، فقد أصر القائد العام الفريق أول أحمد إسماعيل على ضرورة تنفيذه استجابة لقرار القيادة السياسية.

وقد استغلت القيادة الإسرائيلية الموقف الإستراتيجي السيء الذي غدت عليه القوات المصرية بعد عبور القوات المدرعة إلى الشرق، والتي كانت تمثل الاحتياطي التعبوي للجيشين الثاني والثالث أحسن استغلال لكي تقوم بتنفيذ عملية العبور الإسرائيلي إلى غرب القناة بنجاح تام، وساعدتها الظروف على ذلك بعد فشل عملية تطوير الهجوم المصري يوم ١٤ أكتوبر فشلا ذريعا، وبعد أن منيت القوات المدرعة المصرية بخسارة فادحة بلغت حوالي ٢٥٠ دبابة في بضع ساعات دون أن تحقق أي هدف، وعجز قائدا الجيشين الثاني والثالث عن شن أي هجوم مضاد رئيسي على القوات الإسرائيلية التي عبرت إلى غرب القناة نتيجة لعبور احتياطيهما التعبوي إلى شرق القناة للقيام بعملية تطوير الهجوم الفاشلة.

الهدف من وضع الخطة «شامل»

لن نقوم في هذا المجال بإعادة أو تكرار ما سبق أن أوردناه في الفصول (من الخامس إلى التاسع) من هذا الكتاب فيما يتعلق بشرح وإيضاح التفاصيل الكاملة للعمليات التي جرت غرب القناة. ولكن نظرا لأنه من الضروري الربط بين الأحداث اعتبارا من ١٥ أكتوبر ٧٣ (اليوم التالي لفشل عملية تطوير القوات المصرية لهجومها شرقا) وحتى وقف إطلاق النيران من الناحية الفعلية اعتبارا من الساعة الحادية عشرة صباح يوم ٢٨ أكتوبر

١٩٧٣ ، لذا فإننا نرى أنه يمكن تقسيم هذه الفترة بالنسبة لما تم خلالها من عمليات حربية إلى ثلاث مراحل رئيسية كما يلي :

المرحلة الأولى: من (١٥ إلى ١٧ أكتوبر) وقد تم فيها ما يأتي :

١ ـ إتمام حشد القوات الإسرائيلية المكلفة بالعبور غربا في منطقة الدفرسوار .

٢ ـ عبور وحدات محدودة من هذه القوات قناة السويس إلى الغرب من منطقة العبور بالدفرسوار شمال البحيرة المرة الكبرى ليلة ١٥ / ١٦ أكتوبر .

٣ ـ إعلان جولدا مائير رئيسة وزراء إسرائيل أمام الكنيست في الساعة الرابعة مساء يوم ١٦ أكتوبر أن القوات الإسرائيلية تقاتل الآن شرق وغرب القناة .

المرحلة الثانية: من (١٨ إلى ٢٢ أكتوبر) وقد تم فيها ما يأتي :

١ ـ عبور القوات الإسرائيلية الرئيسية المخصصة للعملية قناة السويس عبر الكباري التي تم إنشاؤها والقيام بصد هجمات القوات المصرية المضادة وإنشاء رأس كوبري إسرائيلي غرب القناة في مساحة محدودة في بادئ الأمر .

٢ ـ فشل قوات الجنرال أريل شارون في الوصول إلى مدينة الإسماعيلية .

٣ ـ صدور قرار مجلس الأمن رقم ٣٣٨ بوقف إطلاق النيران اعتبارا من الساعة السادسة والدقيقة الثانية والخمسين يوم ٢٢ أكتوبر ٧٣ .

المرحلة الثالثة: من (٢٣ إلى ٢٨ أكتوبر)، وقد تم فيها ما يأتي :

١ ـ قيام القوات الإسرائيلية غرب القناة بتطوير هجومها تحت ستر وقف إطلاق النيران والاندفاع جنوبا وغربا .

٢ ـ معركة السويس وفشل القوات الإسرائيلية في احتلال المدينة .

٣ ـ إتمام حصار مدينة السويس وكذا حصار الفرقتين ٧ و١٩ مشاة من الجيش الثالث الميداني شرق القناة .

٤ ـ وقف إطلاق النيران الفعلي قبل ظهر يوم ٢٨ أكتوبر ١٩٧٣ .

وعلى ضوء الموقف العسكري الجديد الذي لم يكن في مصلحة قواتنا ، وبعد هذا التحول الخطير في ميزان القوى العسكرية لقواتنا وقوات العدو شرق وغرب القناة ، قامت القيادة العامة للقوات المسلحة المصرية بتنفيذ الإجراءات التالية على مرحلتين :

المرحلة الأولى:

من ٢٩ أكتوبر حتى وضع الخطة الهجومية «شامل» لتحقيق الأهداف التالية:

١ ـ التأكد من مقدرة قواتنا المسلحة في مناطق رءوس الكباري شرق القناة على صد أي هجمات رئيسية توجه ضدها.

٢ ـ حشد كل ما أمكن حشده من القوات المسلحة المصرية وما أمكن تدعيمها به من قوة بشرية وأسلحة ومعدات من بعض الدول العربية والدول الصديقة لاحتواء وتثبيت القوات الإسرائيلية في المواقع التي وصلت إليها غرب القناة، ثم وضع خطة دفاعية لمنع أي احتمال لإستغلال إسرائيل وجود قواتها غرب القناة لمحاولة التقدم في اتجاه الدلتا أو القاهرة.

المرحلة الثانية:

وضع الخطة الهجومية «شامل»، والتصديق عليها والاستعداد لتنفيذها، وهي خطة تصفية الجيب الإسرائيلي غرب القناة.

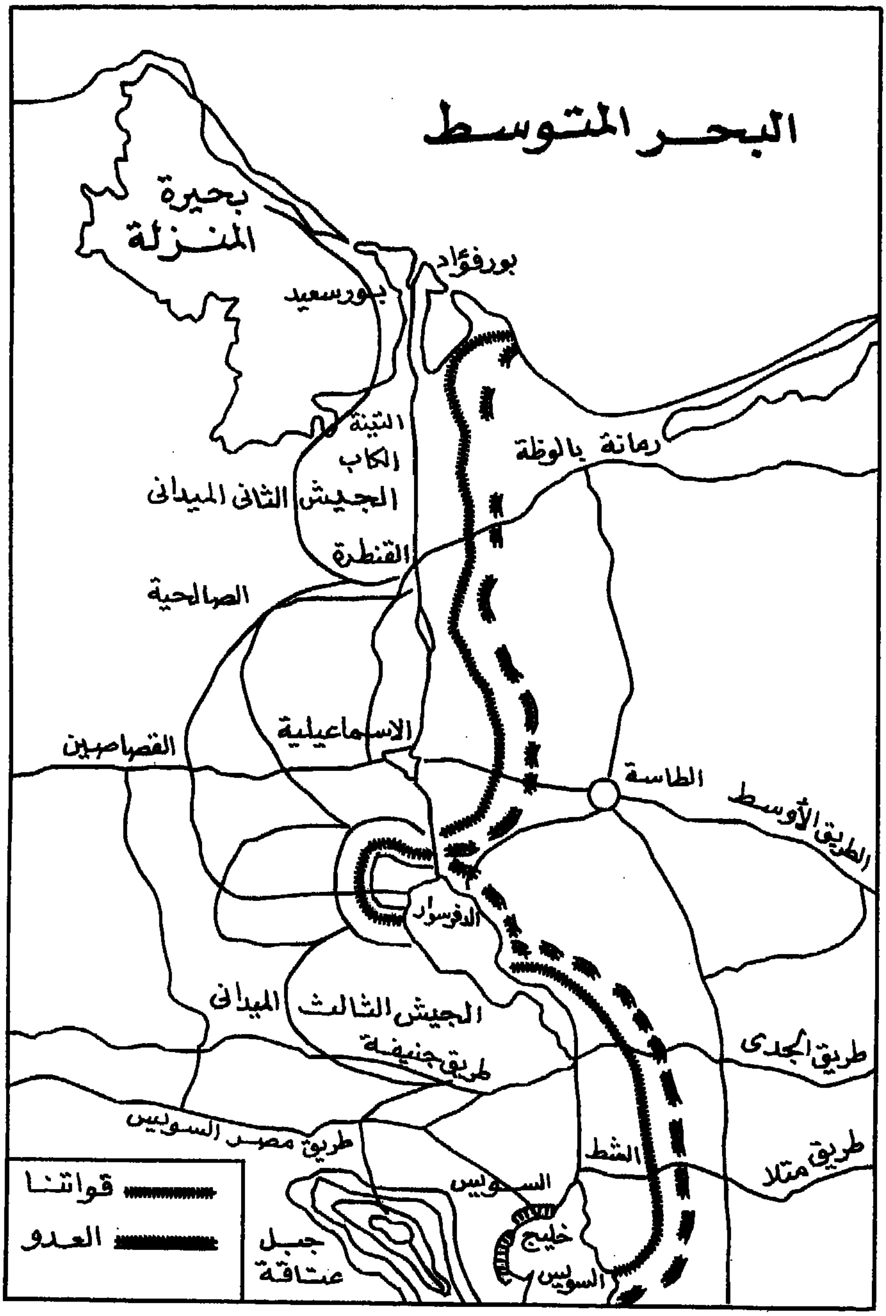
وخلال فترة حشد القوات المصرية غرب القناة لاحتواء العدو وتثبيته وفي أثناء وضع الخطة الهجومية لتصفية الجيب الإسرائيلي، وعلى الرغم من سريان قرار مجلس الأمن بوقف إطلاق النار، قررت القيادة العامة المصرية ألا تسمح للقوات الإسرائيلية غرب القناة بأي فترة هدوء أو راحة وحرمانها من تثبيت دفاعاتها أو تحصينها هندسيا وفي تشديد الخناق عليها في تعاون وثيق بين جميع القوات المحيطة بها. وقد تطورت الأعمال الدفاعية النشطة لقواتنا إلى الحد الذي جعل البعض يطلقون على هذه المرحلة اسم «حرب الاستنزاف الثانية».

وكانت أهداف القيادة المصرية في هذه المرحلة ما يلي:

١ ـ إحداث أكبر قدر من الخسائر في قوات العدو وأسلحته ومعداته.

٢ ـ القيام بعمليات إزعاج للعدو على أوسع نطاق ممكن حتى يصبح بقاؤه غرب القناة جحيما لا يحتمل.

٣ ـ إرغام إسرائيل على الاستمرار في تعبئة قواتها الاحتياطية، مما يرهق اقتصادها القومي ويهدد الحياة العامة بها بالشلل الكامل.



أوضاع القوات يوم ٢٤ أكتوبر ١٩٧٣.

٤ ـ منع العدو من تحسين وتحصين مواقعه شرق وغرب القناة .

وقد تم خلال هذه الفترة حوالي ١٥٠٠ اشتباك بالنيران اشتمل على حوالي ٤٣٩ عملية تم الإعلان عنها . وقد أسفرت هذه الاشتباكات عن إلحاق الخسائر الآتية بالقوات الإسرائيلية وفقا للبلاغات الرسمية :

أ ـ تدمير ١١ طائرة و٤١ دبابة وعربة مدرعة و١٠ رشاشات ثقيلة .

ب ـ تدمير ٣٦ (بلدوزر) ومعدة هندسية وعربة ركوب .

جـ ـ إصابة ناقلة البترول الإسرائيلية (سيرينا) بعطب جسيم .

د ـ إغراق قارب إنزال بحري .

هـ ـ قتل ١٨٧ فردا إسرائيليا وإصابة مئات من الجرحى .

وعقب زوال الخطورة التي كانت تهدد الوضع العسكري المصري غرب القناة ، بدأت الإجراءات لوضع الخطة «شامل» . وكان التفكير المبدئي للقيادة المصرية عند بداية وضع الخطة هو تخصيص قوات مناسبة يكون هدفها هو فتح الطريق عنوة من خلال الجيب الإسرائيلي للاتصال بقوات الفرقتين ٧و١٩ من الجيش الثالث شرق القناة ، وإنهاء الحصار الذي ضربته حولهما القوات الإسرائيلية . ولكن بعد إمعان القيادة المصرية في الأمر مليا وإجراء تقدير سليم للموقف ، وجد أن الأصوب هو تجميع كل ما أمكن تخصيصه من قوات مصرية غرب القناة وأن توضع هذه القوات تحت قيادة أحد القادة المشهود لهم بالكفاءة ، على أن يتبع وزير الحربية والقائد العام للقوات المسلحة مباشرة ، وأن يكون مسئولا عن تحقيق الهدف الذي تم وضعه وقتئذ ، وهو تدمير جميع القوات الإسرائيلية الموجودة على الأراضي المصرية غرب القناة وإعادة الموقف إلى ما كان عليه قبل الجيب الإسرائيلي غرب القناة . وقد أطلق على هذه الخطة المصرية الهجومية الاسم الكودي «شامل» . وكان القائد المصري الذي وقع عليه اختيار القيادة السياسية المصرية لتصفية الجيب الإسرائيلي وتدميره تدميراً تاما هو اللواء أ . ح سعد مأمون .

لماذا وقع الاختيار على سعد مأمون

كان اللواء سعد مأمون عند بدء حرب أكتوبر يتولى قيادة أكبر جيش ميداني مصري ، وهو الجيش الثاني الذي كان يضم ثلاث فرق مشاة (٢ , ٦ , ١٨) وفرقة مدرعة (الفرقة ٢١)

ولواء مدرعا مستقلا (اللواء ١٥) وفرقة مشاة ميكانيكية (الفرقة ٢٣) واللواء العاشر مشاة ميكانيكي الذي ألحق به من احتياطي القيادة العامة علاوة على اللواء ٣٠ مشاة مستقل و١٣٥ مشاة مستقل بقطاع بور سعيد. وقد تمكنت قوات الجيش الثاني من تنفيذ خطة اقتحام قناة السويس وإقامة الكباري التي عبرت عليها الدبابات والأسلحة والمعدات الثقيلة إلى الشاطئ الشرقي للقناة تنفيذا مثاليا، كما قامت باجتياح خط بارليف وإنشاء ثلاثة رءوس كبار، على الضفة الشرقية للقناة، وصد جميع الهجمات الضادة المحلية التي قامت بها الوحدات المدرعة التابعة للجنرال ألبرت ماندلر. وخلال يومي (٨ و ٩) أكتوبر دمرت قوات الجيش الثاني على طول المواجهة من القنطرة إلى الفردان إلى الإسماعيلية شرق، القوات المدرعة الإسرائيلية التي قامت بالهجوم المضاد التعبوي الذي شنته القيادة الجنوبية، والذي كانت تهدف منه إلى تدمير رءوس الكباري المصرية شرق القناة والعبور على الكباري المصرية في منطقة الفردان إلى الضفة الغربية للقناة.

وعندما صدر القرار يوم ١٢ أكتوبر بتطوير الهجوم المصري شرقا، اشترك سعد مأمون مع رئيس الأركان وقائد الجيش الثالث في معارضة هذا القرار بشدة. وفي المؤتمر الذي عقد مساء نفس اليوم بالمركز (١٠) برئاسة الفريق أول أحمد إسماعيل، عرض سعد مأمون تقديم استقالته إذا تم الهجوم بهذا الأسلوب وفي هذا التوقيت، حيث إنه من المنتظر أن تلحق بالقوات المدرعة القائمة بالهجوم خسائر فادحة، كما أن سحب هذه القوات ـ التي تمثل الاحتياطي التعبوي للجيشين الثاني والثالث ـ من الغرب إلى شرق القناة سوف يتيح الفرصة للقيادة الإسرائيلية لتحقيق هدفها والعبور بقواتها إلى غرب القناة. ولم تقبل القيادة العسكرية استقالة سعد مأمون، واضطر هو إلى تنفيذ قرار تطوير الهجوم صباح يوم ١٤ أكتوبر رغم اقتناعه بأنه قرار خاطئ لأنه كان مجبرا كقائد عسكري على تنفيذ تعليمات قيادته العليا. وفي الساعة الثامنة والنصف صباح يوم ١٤ أكتوبر، وقبل أن تتضح نتائج المعركة، أصيب اللواء سعد مأمون بنوبة قلبية وتم نقله إلى مستشفى القصاصين ومنه إلى مستشفى المعادي. وبعد خروجه من المستشفى تم تعيينه مساعدا لوزير الحربية.

وعقب تعيين اللواء سعد مأمون اعتبارا من ١٣ ديسمبر ٧٣ قائدا لقوات تصفية الثغرة غرب القناة، تلقى التوجيهات الخاصة بتنفيذ الخطة من الرئيس الراحل السادات ثم من الفريق أول أحمد إسماعيل القائد العام، نظرا لأن أنظار مصر والدول العربية كانت تتابع هذه العملية باهتمام وتركيز شديدين بسبب استغلال أجهزة الإعلام الإسرائيلية وجود الجيب الإسرائيلي غرب القناة للقيام بدعاية سياسية واسعة النطاق.

وقام اللواء سعد مأمون حال توليه القيادة بالمرور على القوات التي خصصت لعملية تصفية الثغرة ومراجعة الخطة مراجعة دقيقة، وإدخال ما رأى إدخاله عليها من تعديلات. وفي يوم ١٨ ديسمبر قام بعرضها على القائد العام الفريق أول أحمد إسماعيل للتصديق عليها. وفي يوم ٢٤ ديسمبر عرض القائد العام الخطة «شامل» في صورتها النهائية على الرئيس الراحل السادات باستراحة القناطر الخيرية بحضور رئيس الأركان وقادة الأفرع الرئيسية بالقوات المسلحة واللواء سعد مأمون. وأقر الرئيس الخطة، وأصدر توجيهاته بأن تكون جاهزة للتنفيذ في أي وقت اعتبارا من نفس اليوم (٢٤ ديسمبر).

الموقف العام لقوات الجانبين يوم ٢٤ ديسمبر ١٩٧٣

كان الموقف العام لقوات الجانبين المتضادين في هذا اليوم كما يلي:

أولا - بالنسبة للقوات المصرية:

١ - زال التهديد العسكري الإسرائيلي غرب القناة في اتجاه القاهرة والدلتا تماما، بعد أن تم حشد التشكيلات المصرية غرب القناة، وأعيد التوازن الإستراتيجي للقوات المصرية شرق القناة وغربها.

٢ - بينما كان لإسرائيل غرب القناة ثلاث فرق مدرعة (فرقة أريل شارون وفرقة إبراهام أدان وفرقة كلمان ماجن) وكانت هذه الفرق تضم ٧ ألوية مدرعة (٣ ألوية في فرقة أدان ولواءين في كل من فرقتي شارون وماجن) علاوة على لواء مشاة مظلات بفرقة شارون ولواء مشاة ميكانيكي بفرقة ماجن، كانت القوات المصرية التي خصصت لعملية تصفية الثغرة تتكون من فرقتين مدرعتين (الفرقة ٤ والفرقة ٢١) وثلاث فرق مشاة ميكانيكية (الفرق ٣ و٦ و٢٣) ووحدات من الصاعقة والمظلات علاوة على قوات مخصصة من احتياطي القيادة العامة جاهزة للدفع للاشتباك والانضمام إلى قوات تصفية الثغرة بقرار من القائد العام.

ويتضح من مقارنة القوات بعضها ببعض أن الموقف كان في مصلحة القوات المصرية، وأن نسبة التفوق بصفة عامة كانت تبلغ ٢ إلى ١.

٣ - قامت القوات المصرية غرب القناة بشن حرب استنزاف ضد القوات الإسرائيلية الموجودة بالثغرة بعد يومين فقط من وقف إطلاق النيران. وبلغ مجموع العمليات التي وجهت ضد القوات الإسرائيلية ٤٣٩ عملية عسكرية، مما كان له تأثير سيئ في الروح

المعنوية لأفرادها. وقدترتب على الموقف العسكري السيئ للقوات الإسرائيلية قيام هذه القوات بوقاية مواقعها عن طريق حفر خنادق مضادة للدبابات على معظم المواجهة بعرض من ٦ إلى ٧ أمتار وبعمق ٥ أمتار، كما تم لها وضع حوالي ٧٥٠ ألف لغم للدبابات وللأفراد.

٤ ـ في الوقت الذي انخفضت فيه الروح المعنوية للقوات الإسرائيلية، كانت الروح المعنوية للقوات المصرية مرتفعة، وكان الشعار الذي يردده القادة أمام جنودهم أنه إذا كانت القوات المصرية قد اقتحمت قناة السويس في ٦ أكتوبر رغم أنها من أصعب الموانع المائية في العالم وعرضها يزيد على ١٨٠ مترا، فإن مانع الدبابات الموجود أمام القوات المصرية في الجيب الإسرائيلي يعتبر مانعا بسيطا يمكن التغلب عليه بسهولة. وكان اللواء سعد مأمون يردد أمام قواته دائما أنه قبل ٦ أكتوبر كان لدينا العلم فقط، والآن بعد معارك الحرب أصبح لدينا العلم والخبرة.

٥ ـ كانت القوات المصرية مؤمّنة تماما من خطر الهجوم الجوي الإسرائيلي، فقد كانت داخلة في نطاق شبكة الدفاع الجوي المصري بعد أن استعادت هذه الشبكة قدراتها وكفاءتها على الوجه الأكمل.

٦ ـ بقيت رءوس الكباري المصرية التي أقامها الجيش الثالث شرق القناة صامدة قوية، ولم تفكر مطلقا في الانسحاب إلى غرب القناة أو التسليم رغم الحصار الإسرائيلي المضروب حولها. ويرجع ذلك إلى ارتفاع الروح المعنوية لأفرادها ولعدم مواجهتها أي مشكلات إدارية ـ رغم انقطاع خطوط مواصلاتها مع غرب القناة ـ نظرا لكفاية حجم المخزون والمكدس فيها من الاحتياجات الإدارية.

ثانيا ـ بالنسبة للقوات الإسرائيلية:

١ ـ لم تتمكن القوات الإسرائيلية التي عبرت إلى غرب القناة من القضاء على الاحتياطيات التعبوية للجيشين الثاني والثالث، ولا على الاحتياطي الإستراتيجي للقيادة العامة، بل تمكنت هذه القوات من حصار القوات الإسرائيلية واحتوائها ومنع انتشارها إلى الغرب.

٢ ـ اضطرت القوات الإسرائيلية غرب القناة إلى اتخاذ الأوضاع الدفاعية، ولم تحاول استخدام ميزة المبادأة مطلقا. فعلاوة على الخندق الصناعي المضاد للدبابات الذي أقامته أمام مواقعها وآلاف الألغام التي وضعتها حولها في كل مكان، كانت مواسير

المدافع الإسرائيلية تتجه دائما إلى أعلى دليلا على عدم استعداد أفرادها للبدء في إطلاق النار، كما كان من النادر أن يرد هؤلاء الأفراد على النيران المصرية (كان المعتاد أن يردوا بطلقة واحدة على كل عشر طلقات مصرية).

٣ ـ فشلت القوات الإسرائيلية في أثناء العمليات الحربية غرب القناة في الاستيلاء على أي من المدن الرئيسية في القناة، فقد تم صد هجوم الجنرال شارون على الإسماعيلية، كما فشلت قوات الجنرال أدان في اقتحام السويس رغم تكرار الهجوم عدة مرات.

٤ ـ أصبح الوجود الإسرائيلي غرب القناة مأزقا عسكريا ووضعا خطيرا للقوات الإسرائيلية التي اختل توازن قواتها الإستراتيجي شرق القناة وغربها. فإن الجيب الإسرائيلي غرب القناة أصبح منفصلا عن القواعد الرئيسية في سيناء لا يربطه بها سوى ممر ضيق عرضه حوالي ١٠ كيلو مترات يمكن قطعه بسهولة بواسطة القوات المصرية التي كانت تحيط به من كل جانب، وأصبحت القوات الإسرائيلية داخل الجيب غرب القناة رهينة لدى القوات المصرية التي تحاصرها.

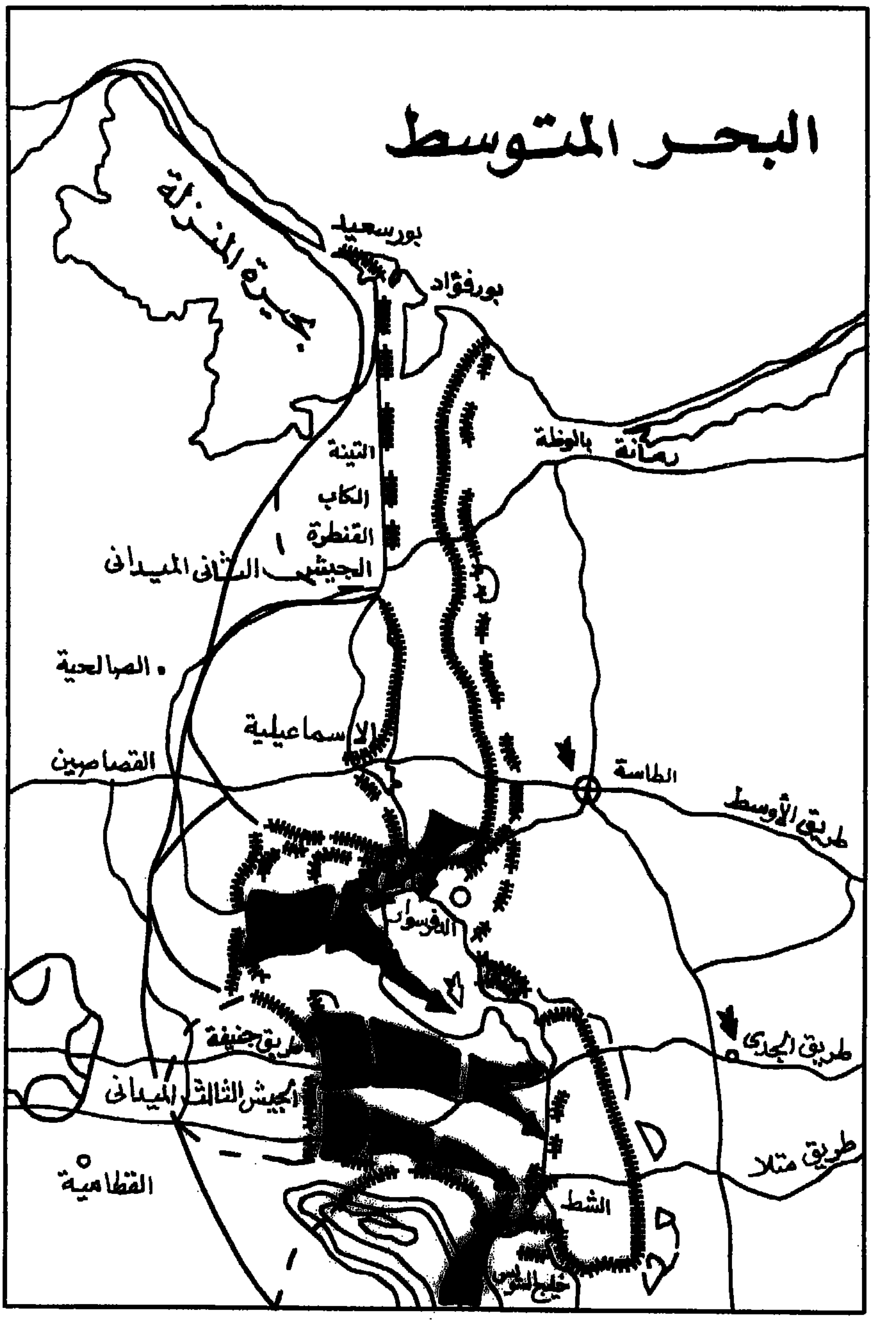
٥ ـ نتيجة لاحتياح إسرائيل للتدعيم المستمر لقواتها بعد أن امتدت عمليات قواتها شرق القناة وغربها بهذه الصورة، فقد اضطرت للاحتفاظ بدرجة تعبئة عالية لقواتها الاحتياطية ولمدة طويلة، مما كان يخالف سياستها المعهودة في نظام تعبئة الاحتياطي، وأصبح ذلك يهدد اقتصادها القومي بالشلل.

٦ ـ كانت القيادة الإسرائيلية مجبرة على نقل كل الاحتياجات الإدارية إلى قواتها الموجودة غرب القناة، مما زاد من أعبائها الإدارية وعرض خطوط مواصلاتها الطويلة التي تزيد على ٣٠٠ كيلو متر لخطر مهاجمتها برا وجوا.

٧ ـ ثبت أن عملية العبور الإسرائيلي إلى غرب القناة لم تكن عملية إستراتيجية كبرى يمكن أن تغير مجرى الحرب، ولم تكن في واقع الأمر سوى عملية تكتيكية استغلتها إسرائيل سياسيا وإعلاميا على أوسع نطاق رغم ضعف قيمتها من الناحية العسكرية.

التخطيط العام للخطة «شامل»:

بنيت الخطة «شامل» على أسس تكتيكية سليمة، وكانت تستهدف ضمان الاستغلال الأمثل للقوات المخصصة لتصفية الثغرة والتركيز على أهمية التعاون بين هذه القوات



خطة تدمير قوات العدو في الثغرة.

والقوات الجوية وقوات الدفاع الجوي ومراعاة الاستخدام السليم للقوات المدرعة باستغلال خصائصها أحسن استغلال مع الأخذ في الاعتبار عناصر القوة وعناصر الضعف لقوات العدو الموجودة داخل الجيب الإسرائيلي.

وقد قامت القوات المخصصة لتنفيذ الخطة «شامل» بمشروعات تدريب تتفق تماما مع المهام المخصصة لها في الخطة الحقيقية وعلى أرض مشابهة، كما تمت عملية تنظيم التعاون بين هذه القوات والقوات الجوية وقوات الدفاع الجوي تحت الإشراف المباشر للواء سعد مأمون.

وكانت خطة تدمير العدو داخل الجيب الإسرائيلي تقضي بمهاجمة هذا الجيب من ٥ اتجاهات رئيسية:

الاتجاه الأول: ضربة من اتجاه رأس كوبري الفرقة ١٦ مشاة شرق القناة لإغلاق ثغرة الاختراق من المنبع عند الدفرسوار (شرق القناة).

الاتجاه الثاني: ضربة على محور طريق أبو سلطان في اتجاه الدفرسوار (غرب القناة ومنطقة البحيرات المرة الكبرى).

الاتجاه الثالث: ضربة على محور طريق جنيفة في اتجاه البحيرات المرة الصغرى.

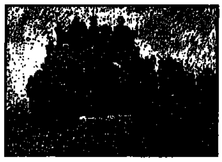
الاتجاه الرابع: ضربة على محور طريق السويس في اتجاه مدينة السويس للوصول بأسرع ما يمكن إلى المدينة وإلى قوات بدر المحاصرة (الفرقتين ٧و١٩ مشاة من الجيش الثالث شرق القناة).

الاتجاه الخامس: ضربة موازية لخليج السويس من الجنوب إلى الشمال في اتجاه ميناء الأدبية.

وكان هدف الهجوم في هذه الاتجاهات ـ فضلا عن إغلاق الممر الذي يربط بين الجيب الإسرائيلي وقواعده الرئيسية في سيناء ـ هو الوصول بأسرع ما يمكن إلى مدينة السويس وميناء الأدبية والشواطئ الشرقية للبحيرات المرة الصغرى والكبرى ومنطقة الدفرسوار شرق القناة وتقطيع أوصال الجيب الإسرائيلي وتحويله إلى أجزاء منعزلة يتم تدميرها جزءا فجزءا.

هذا ولم يقيض للخطة «شامل» التنفيذ العملي، ففي الساعة التاسعة من مساء يوم ١٧ يناير ٧٤ بتوقيت القاهرة، أذيع اتفاق فصل القوات بين مصر وإسرائيل تحت إشراف الأمم

المتحدة، ووضعت هذه الاتفاقية موضع التنفيذ اعتبارا من الساعة الثانية عشرة يوم ٢٥ يناير، وبدأت إسرائيل في سحب قواتها من المناطق المتفق عليها، وسارت أعمال فصل القوات وفقا للاتفاق. وبانتهاء الصراع السياسي في هذه المرحلة، صدرت أوامر القيادة السياسية بتجميد الخطة «شامل».



ملحق صور الفصل الرابع عشر



لواء سعد مأمون والسادات وإسماعيل

قائد قوات تصفية الثغرة يشرح خطته للرئيس أنور السادات ووقف خلفهما الفريق أول أحمد إسماعيل.



■ ملحق ١ ■

رسالة من الفريق سعد مأمون إلى جمال حماد

الأخ المؤرخ/ جمال حماد

تقديرا لجهدك في إعداد تاريخ حرب أكتوبر على هذا الوجه الدقيق المشرف، واحتراما لآرائك وتحليلك لكثير من المواقف السياسية والإستراتيجية والتعبوية التي لازمت هذه الحرب.

ورغم أنني توليت مناصب بالغة الأهمية والحساسية، سواء للإعداد لحرب أكتوبر أو تنفيذها اعتبارا من عام ١٩٦٩ وما تلا ذلك من مناصب ومسئوليات عسكرية أخرى، فإنني كنت وما زلت أحد القادة القلائل الذين لم ينشروا مذكراتهم رغم استكمالي لعناصر مادتها كاملة لأني أرى من وجهة نظري - ولعلي أكون مخطئا فيها - أن توقيت نشرها لم يحن بعد. ويحتمل أن يكون ذلك بعد لقائي ربي بإذنه تعالى. . . فالغرض منها ليس تمجيدا أو إقلالا من شأن آخرين، إنما لتكون مرجعا تاريخيا عسكريا في المقام الأول.

ولكنني أخرج عن وجهة نظري هذه في موضوعين ذكرتهما سيادتكم في مقالاتك عن هذه الحرب:

١ - مدى حق القيادة العسكرية في معارضة القرار السياسي.

٢ - اختلاف الأقوال حول السبب الحقيقي لمرض اللواء سعد مأمون يوم ١٤ أكتوبر.

فبالنسبة للموضوع الأول:

لا اعتقد أن هناك قائدا مصريا لديه الشجاعة التي تجعله يستقيل في أوج انتصاره يوم ١٢ أكتوبر ليؤكد لقيادته العسكرية العليا وليس للقيادة السياسية - فأنا مسئول أمام القيادة

العسكرية وليس السياسية - أن قرار تطوير الهجوم يوم ١٣ أكتوبر والذي عدل ليكون يوم ١٤ أكتوبر هو قرار خاطئ تماما وغير سليم بالمرة، ولن أسرد ذلك فلقد تكفلتم سيادتكم كمؤرخ عسكري ودارس ومدقق بشرح ذلك من وجهة نظركم شرحا وافيا، وواضح أننا نتفق في الرأي في هذا الموضوع في معظم عناصره.

ولقد عرضت نفسي بهذه الاستقالة في ذلك الحين وما بعده إلى مخاطر لا يمكن أن يقدرها أحد. ورغم معرفتي التامة بهذه المخاطر، فلم أتردد مطلقا في الاستقالة محاولا بها تجنيب الوطن النتائج الوخيمة لهذا القرار، والذي شرحت أبعاده ونتائجه المتوقعه في مؤتمر القيادة العامة للقوات المسلحة بالقاهرة مساء يوم ١٢ أكتوبر، مؤكدا ومصرا على أنه إذا تم تطوير الهجوم بهذا الأسلوب وفي هذا التوقيت على مواجهة الجيشين فسينتهي ذلك إلى تدمير نسبة عالية جدا من هذه القوات، وسينتهي القتال بعبور القوات الإسرائيلية للقناة، لأنني كنت متأكدا كقائد ميداني من سلامة تقديري للموقف خصوصا على ضوء خبرتي بالقتال ونتائجه - بالنسبة للطرفين المصري والإسرائيلي - والذي جرى اعتبارا من بدء الحرب في ٦ أكتوبر وحتى غروب يوم ١٢ أكتوبر.

كل ذلك بطبيعة الحال أمر لا يمكن إنكاره، فهو مسجل في سجلات الحرب، ولا أريد - فلكل رأيه - أن أفاخر بهذه الآراء وسلامتها، فلقد كفيتني سيادتكم ذلك ببعض آرائك وتحليلك لهذا القرار، علاوة على ما أثبتته الأحداث بعد ذلك.

كما أريد في هذا المجال أن أنوه لشدة اقتناعي بوجهة نظري وقلقي على مسار الحرب، أن الأمر قد وصل بي إلى أن أقرر أمام الحاضرين في مؤتمر يوم ١٢ أكتوبر أنه إذا لم يحدث بعد تطوير الهجوم ما أقدره وأتصوره من تدمير للقوات المصرية ثم عبور القوات الإسرائيلية لقناة السويس على ضوء خبرتي الميدانية بالقتال الذي تم حتى ذلك اليوم، فإنني مستعد للمحاكمة العسكرية. ولكنني في المقابل سألت الحاضرين والمخالفين لرأيي - جادا لا ساخرا - إذا حدث ما أتصوره من تدمير للقوات ومن عبور الإسرائيليين القناة، فماذا يمكن أن يكون موقف الذين وراء هذا القرار عسكريًا؟ فكانت الإجابة أن ما أتصوره وأقدره لن يحدث أبدا. ولكنه للأسف حدث كما قدرت بنسبة ١٠٠٪، وذلك يوم ١٦ أكتوبر وبعد ٤٨ ساعة من دخولي المستشفى وتركي قيادة الجيش الثاني، وكأنني كنت أقرأ كتابا مفتوحا.

وبالنسبة للموضوع الثاني:

وهو اختلاف الأقوال حول السبب الحقيقي لمرضى الساعة ٨,٣٠ صباح يوم ١٤

أكتوبر فأرجو أن نعود إلى الحقائق الآتية من واقع التقارير الرسمية والطبية وهي الفيصل الوحيد في هذا الأمر :

ـ عندما أصبت بنوبة قلبية في الساعة ٨,٣٠ صباح يوم ١٤ أكتوبر لم يكن قد اتضح الموقف تماما على مواجهة الجيشين، ولا يمكن أن يقرر أحد حتى تلك الساعة أن الهجوم قد فشل، فلم يكن قد مضى سوى ساعتين فقط على بدء القتال، وهناك وحدات قد توقفت. وهناك وحدات تقدمت عدة كيلو مترات. وفي جميع الأحوال لم يكن قد تم تبليغ قيادة الجيش الثاني عن حجم الخسائر، وطبيعي أنها لم تكن كبيرة حتى تلك الساعة.

وأرجو أن تعود سيادتكم إلى شرحكم لعملية تطوير الهجوم في قطاع الجيش الثاني وكذا إلى سجلات الحرب . . . ولهذا لا يمكن الأخذ بوجهة نظر الفريق الشاذلي من أن حجم الخسائر كانت سببا لهذه النوبة القلبية.

ـ يمكن للجميع الرجوع إلى التقارير الطبية، سواء تقارير الطبيب المعالج بالجيش الثاني، ثم الطبيب الذي أوفده قسم القلب بمستشفى المعادي للجبهة للكشف عليَّ في نفس اليوم، ثم إلى الأطباء المختصين بمستشفى القصاصين، ثم إلى رئيس قسم القلب بمستشفى المعادي الذي نقلت إليه، ثم إلى مدير الخدمات الطبية للقوات المسلحة في ذلك الحين، وهو من أشهر وأكفأ أطباء القلب وهو الفريق طبيب رفاعي كامل الذي كلفه المشير أحمد إسماعيل بالكشف عليَّ في مستشفى المعادي، حيث قدم كل هؤلاء الأطباء المذكورين تقاريرهم الطبية خلال الفترة من ١٤ أكتوبر حتى نهايته في هذا الشأن. وأعتقد أنك توافقني الرأي في أنه لو كان هناك شك بنسبة واحد في المليون في أسباب النوبة القلبية التي أصبت بها لكان للرئيس الراحل أنور السادات والمشير أحمد إسماعيل موقف آخر تجاهي أقل ما يمكن تصوره ـ أن تكون محاكمتي العسكرية والتشهير بي وبكفاءتي ـ بعد اعتراضي الشديد على هذا القرار العسكري الخاطئ إلى الحد الذي أوصلني إلى تقديم استقالتي في أوج نجاح القوات المصرية. وأثبتت الأيام القليلة بعدها صدق حدسي فيها أمام القيادة العسكرية العليا آنذاك، حيث قامت القوات الإسرائيلية بعبور القناة يوم ١٦ أكتوبر أي بعد ٤٨ ساعة من دخولي المستشفى وتركي لقيادة الجيش الثاني يوم ١٤ أكتوبر.

بل على النقيض من ذلك، إذا كان هناك أي شك أو قلق من موقفي في ذلك الحين وبعد صدور تقارير الأطباء، فهل يعقل منطقيا أن أرقى في نهاية أكتوبر ٧٣ لمنصب

مساعد وزير الحربية، ثم يختارني كل من الرئيس السادات والمشير أحمد إسماعيل من بين جميع القادة ـ الأقدم مني والأحدث ـ قائدا لقوات الثغرة. وهو أخطر منصب في ذلك الحين، وكانت مصر كلها تنظر بقلق بالغ إلى الجيب الإسرائيلي غرب القناة وتأمل بطبيعة الحال في تدميره؟

ويعلم الله ماذا قالا لي عند هذا الاختيار، سواء الرئيس السادات أو المشير أحمد إسماعيل. ولأن الرجلين قد رحلا عن الدنيا، فسأكتفي فقط بذكر عبارتين تؤكدهما الأحداث لا الأقوال وهما:

ـ «ليتنا سمعنا كلامك وأخذنا بوجهة نظرك بالنسبة لتطوير الهجوم».

ـ «لقد عيناك في هذا المنصب لتأكد نا من سلامة تقديرك . . . إلخ، وثقتنا المطلقة في قدراتك الذهنية والعسكرية، ويكفي ما حققه الجيش الثاني الميداني تحت قيادتك سواء في عمليات العبور أو تدمير للقوات الإسرائيلية خلال الهجوم أو تدمير جميع هجماته المضادة حتى مرضك».

وسيأتي يوم أطلعك فيه على وثائق ومعلومات كثيرة مفصلة تؤكد كثيرا من تحليلك القدير والممتاز لحرب أكتوبر وتضيف له أبعادا كثيرة.

ورجائي ما دمت مدققا عسكريا على هذه الدرجة من الأمانة . . وعرضت وجهة نظرك . . أن تضع الحقائق التي أوضحتها لك في هذا الرد موضعها المناسب . . والفيصل في ذلك تقارير وسجلات الحرب وليس الآراء الشخصية.

وأكون شاكرا لو تم نشر هذا الرد في كتابك عن حرب أكتوبر، إذ إن اهتمامي الأول هو إفادتك وإفادة القراء بهذه الحقائق قبل كل شيء للتاريخ.

فريق سعد مأمون



صور ملحق ١



لواء سعد مأمون

قائد الجيش الثاني أصيب بنوبة قلبية في الساعة الثامنة والنصف صباح يوم ١٤ أكتوبر ٧٣.



■ ملحق ٢ ■

القصة الحقيقية لحصار موقع كبريت

في شهر يناير من ١٩٧٢ ، وفي أثناء بحث الخطط المقترحة لعبور قناة السويس، صدر قرار القيادة العامة بإنشاء اللواء ١٣٠ الذي أطلق عليه اسم مشاة الأسطول في بادئ الأمر، وقبل حرب أكتوبر بفترة قصيرة تقرر تغيير اسمه ليصبح اللواء ١٣٠ المشاة الميكانيكي البرمائي Amphibious Brigade . وكان الغرض من إنشائه هو إيجاد قوة مشاة ميكانيكية لديها القدرة على التحرك بمركباتها البرمائية سواء عبر الأراضي أو عبر المسطحات المائية المحدودة، مثل البحيرات التي تقع على مجرى قناة السويس (بحيرة التمساح والبحيرات المرة الكبرى والصغرى) أو مثل خليج السويس، بغرض مفاجأة العدو في عمق دفاعاته لشل مراكز قيادته وتعطيل تقدم احتياطياته التعبوية .

وقد تم في الأشهر الأولى من عام ١٩٧٢ تشكيل اللواء ١٣٠ البرمائي في منطقة العامرية بالإسكندرية بعد أن اختير لقيادته العقيد أ. ح محمود شعيب، وكان يتكون من كتيبتي مشاة ميكانيكيتين اختير أفرادهما من قوات الصاعقة، وأطلق عليهما اسم الكتيبة ٦٠٢، وتولى قيادتها المقدم أ. ح. محمود سالم، والكتيبة ٦٠٣ وتولى قيادتها المقدم إبراهيم عبد التواب، علاوة على باقي وحدات الدعم الخاصة باللواء والتي كان من أهمها كتيبة دبابات برمائية من طراز ت ٧٦ وكتيبة مقذوفات صاروخية موجهة مضادة للدبابات (مالوتكا) وكتيبة مضادة للطائرات وكتيبة هاون ١٢٠ م. وقد زودت كل كتيبة مشاة ميكانيكية بعدد ٤٠ مركبة مدرعة برمائية من طراز (توباز) لنقل أفراد الكتيبة .

وفي أواخر سبتمبر عام ١٩٧٣، تم نقل اللواء ١٣٠ من العامرية إلى منطقة القناة حيث تمركز في معسكر حبيب الله شمال غرب مدينة السويس. وأسندت إلى الكتيبتين ٦٠٢ و٦٠٣ بعد تدعيم كل منهما بعدد ١٠ دبابات برمائية ت ٧٦ من كتيبة دبابات اللواء، مهمة

عبور البحيرة المرة الصغرى يوم ٦ أكتوبر ١٩٧٣ فور بدء التمهيد النيراني للمدفعية من نقطة عبور كانت تقع جنوب كبريت بحوالي ٢ كم، على أن تدفع الكتيبة ٦٠٢ على الطريق المؤدي إلى مضيق الجدي، وأن تدفع الكتيبة ٦٠٣ على الطريق المؤدي إلي مضيق متلا، بغرض الاستيلاء على المدخلين الغربيين للمضيقين، وبذا يتم تأخير وصول الاحتياطي التعبوي للعدو حتى صباح يوم ٧ أكتوبر، أي بعد ضمان إتمام إقامة المهندسين العسكريين المصريين للكباري والمعديات على القناة وعبور الألوية المدرعة للانضمام إلى الفرق المشاة الملحقة بها، وبذا تكون الفرق المشاة الخمس جاهزة لصد أي هجوم مضاد تعبوي للعدو.

وفي التوقيت المحدد عبرت الكتيبة ٦٠٢ البحيرة المرة، وتبعتها في العبور الكتيبة ٦٠٣، ولكن الكتيبتين فقدتا خلال العبور جانبا من قوتهما، إذ إن بعض الدبابات ت ٧٦ والعربات المدرعة توباز وبعض العربات من طراز بردم غرزت في قاع البحيرة. فقد اتضح أثناء العبور أنها ضحلة وموحلة، وذات تربة هلامية، مما أدى إلى أن تسير العربات المدرعة والدبابات على جنازيرها عبر البحيرة عدا الممر الملاحي الأصلي لقناة السويس في وسط البحيرة. وقامت جماعة من مهندسي اللواء ١٣٠ بفتح ثغرة في حقل الألغام الذي اكتشف على الشاطئ الشرقي للبحيرة. وعقب اشتباك قصير بالنيران مع العدو من اتجاه حصن كبريت شرق (حصن بوتزر الإسرائيلي من حصون خط بارليف) تقدمت الكتيبة ٦٠٢ إلى الطريق المؤدي إلى مضيق الجدي وفقا للخطة الموضوعة، ولم تكد تقطع ١٥ كم من الطريق - وكان آخر ضوء قد حل - حتى اصطدمت بكتيبة مدرعة إسرائيلية قادمة من مضيق الجدي من لواء العقيد دان شمرون الذي كان مسئولا عن القطاع الجنوبي. ودارت معركة عنيفة غير متكافئة في الظلام استخدمت فيها الدبابات الإسرائيلية من طراز M48 أشعة النور الباهر Zennon ونيران مدافعها من عيار ١٠٥ مم، وعجزت الكتيبة ٦٠٢ بمدافع دباباتها من عيار ٧٦مم وصواريخ المالوتكا التي يصعب توجيهها في الظلام وعرباتها المدرعة الخفيفة التدريع عن مجابهة هذه القوة المدرعة المتفوقة عليها تفوقا ساحقا. وانتهت المعركة التي وضعت لها هيئة العمليات بالمركز ١٠ أسوأ تخطيط ممكن - كما هو متوقع - بتدمير جميع الدبابات والمركبات المدرعة بالكتيبة ٦٠٢ رغم المقاومة الباسلة التي أظهرها أفرادها. وعاد أفراد الكتيبة الذين نجوا من المعركة مترجلين وعلى دفعات طوال ثلاثة أيام، إلى حيث انضموا على رأس كوبري الفرقة ٧ مشاة، فصدرت التعليمات بإعادة تجميع الكتيبة في معسكر حبيب الله.

احتلال الكتيبة ٦٠٣ موقع كبريت

لم تسنح الفرصة للكتيبة ٦٠٣ التي كان يتولى قيادتها المقدم إبراهيم عبد التواب للتقدم على طريق الشط - متلا وفقا للمهمة المسندة إليها، إذ لم تكد تعبر البحيرة المرة خلف الكتيبة ٦٠٢ وتصل إلى الشاطئ الشرقي في حوالى الساعة الرابعة والنصف مساء وتتجمع خارج حقل الألغام، حتى دارت معركة عنيفة بينها وبين سرية دبابات إسرائيلية كانت متقدمة من اتجاه كبريت شرق، وقامت بمعاونة الكتيبة سرية مقذوفات صاروخية (مالوتكا) من الفرقة ٧ مشاة كانت قد فتحت على الشاطئ الشرقي للبحيرة، مما أدى إلى تدمير دبابتين للعدو وثلاث مركبات صاروخية مضادة للدبابات، وانسحبت السرية المدرعة الإسرائيلية في اتجاه الشرق. وصدرت التعليمات للكتيبة ٦٠٣ بالبقاء في موقعها والدفاع عن رأس الشاطئ الذي تحتله نظرا لإلغاء المهمة التي كانت مسندة إليها وهي الاستيلاء على المدخل الغربي لمضيق متلا، بعد أن أدرك المسئولون في هيئة العمليات بالمركز ١٠ حقيقة المأساة التي حاقت بالكتيبة ٦٠٢ نتيجة لخطأ قرارهم وسوء تقديرهم مما جعلهم يسندون إلى كتيبة مشاة ميكانيكية هذه المهمة التي كان من المستحيل عليها تنفيذها ولم ينتج عنها سوى دمار الكتيبة.

وفي حوالي الساعة التاسعة صباحا يوم ٩ أكتوبر، بدأ تحرك الكتيبة ٦٠٣ شمالا بحذاء شاطئ البحيرة المرة الصغرى لتنفيذ المهمة الجديدة التي أسندت إليها بعد تدعيمها بسرية دبابات من اللواء ٢٥ المدرع، وهي الاستيلاء على الحصن الإسرائيلي بوتزر (كبريت شرق). وكان هذا الحصن قد تم لحاميته الإسرائيلية إخلاؤه مساء يوم ٨ أكتوبر، بعد أن تلقى العقيد دان شمرون قائد اللواء المدرع بالقطاع الجنوبي تصديق رئيسه الجنرال إبراهام ماندلر (البرت) على إخلاء بعض حصون خط بارليف في قطاعه، ومن ضمنها حصن بوتزر. وفي الساعة الواحدة إلا الربع ظهرا قامت الكتيبة ٦٠٣ باحتلال حصن بوتزر دون قتال، ولكن بعد أن انفجرت دبابة وعربة مدرعة لتورطهما في حقل الألغام الذي كان يحيط بالموقع، وتم رفع العلم المصري على الحصن. وقبض على فردين على مقربة من الحصن اتضح أنهما تابعان لهيئة الرقابة الدولية فأخلى سبيلهما. وعثرت الكتيبة داخل الموقع على كميات كبيرة من الذخائر والمعلبات المحفوظة لم يتسع الوقت للحامية الإسرائيلية لسحبها معها أو تدميرها. وقد بادر المقدم إبراهيم عبد التواب بطلب كميات كبيرة من التعيينات والمياه والذخائر من منطقة الشئون الإدارية للواء بمعسكر حبيب الله، الذي كان يقع على الضفة الغربية للبحيرة على بعد حوالي ٨ كم من الشاطئ وفي مواجهة

موقع كبريت تماما. وكانت وسيلة الاتصال المنتظمة بين منطقة الشئون الإدارية في الغرب وموقع كبريت في الشرق هي استخدام العربات حتى الشاطئ الغربي للبحيرة ثم عبورها باستخدام القوارب المطاطية (زودياك). وطلب المقدم إبراهيم عبد التواب أيضا كمية كبيرة من الألغام وأمر بعمل نطاق خارجي غير محدد من الألغام حول نطاق الألغام الإسرائيلي الذي كان يحيط بالموقع. وكان لهذا الحقل من الألغام الذي بلغ عمقه حوالي ٣٠٠ متر فائدة كبرى كما اتضح فيما بعد.

وفي الساعة الواحدة بعد ظهريوم ١٣ أكتوبر، أصدر اللواء عبد المنعم واصل قائد الجيش الثالث أوامره إلى قيادة اللواء ١٣٠ الميكانيكي البرمائي، التي كانت موجودة في مقر قيادة الجيش الثالث منذ بدء العمليات في ٦ أكتوبر، لأن تنضم إلى موقع الكتيبة ٦٠٣ في موقع كبريت وأن يخرج اللواء ١٣٠ المشاة الميكانيكي البرمائي من تحت قيادة الجيش الثالث ليوضع تحت قيادة العميد أ.ح أحمد بدوي قائد الفرقة ٧ مشاة، وأن يسحب من موقع كبريت ١٠ عربات مدرعة توباز بسائقيها لتنضم إلى الفرقة ٧ مشاة، وأن تنقل بقايا الكتيبة ٦٠٢ تحت قيادة المقدم أ.ح محمود سالم من معسكر حبيب الله إلى مطار كبريت (غرب البحيرة)، وأن يسند إلى هذه الكتيبة مهمة الدفاع عن مطار كبريت. وفي يوم ١٤ أكتوبر تم انتقال العقيد أ.ح محمود شعيب قائد اللواء وضباط قيادته إلى موقع كبريت، وأرسل رئيس إشارة الفرقة ٧ مشاة عربة لاسلكي إلى الموقع لإدخال قيادة اللواء ١٣٠ على الشبكة اللاسلكية للفرقة. وفي نفس اليوم قدمت من معسكر اللواء بالعامرية بالإسكندرية كتيبة الهاون ١٢٠ م وسرية المهندسين، وانضمتا إلى موقع كبريت. وأمر قائد اللواء باحتلال كتيبة الهاون موقعا غرب البحيرة لمعاونة دفاعات كبريت بالنيران بعد أن احتفظ بسرية منها ضمن الدفاعات الأمامية لموقع كبريت.

وأثناء وجود العقيد أ.ح محمود شعيب في قيادة الفرقة ٧ مشاة بعد الظهر يوم ١٦ أكتوبر، استمع إلى محادثة هاتفية أبلغ خلالها اللواء عبد المنعم واصل قائد الجيش الثالث العميد أحمد بدوي بعبور القوات الإسرائيلية إلى الضفة الغربية للقناة، وطلب منه الاهتمام بتأمين الجنب الأيسر للفرقة الذي هو نفس الوقت الجناح الأيسر للجيش الثالث. وفي يوم ١٧ أكتوبر مر تشكيل اللواء ٢٥ المدرع المستقل من أمام موقع كبريت تتقدمه زوبعة هائلة من الغبار، بعد أن تم دفعه في الصباح من رأس كوبري الفرقة ٧ ليتحرك شمالا بحذاء البحيرة المرة الكبرى، بمهمة تصفية ثغرة الاختراق الإسرائيلية من ناحية الشرق، وهي المهمة المؤسفة التي تم تخطيطها بأسلوب خاطئ في المركز ١٠،

والتي أدت إلى تدمير هذا اللواء بعد بضع ساعات على أثر وقوعه في كمين إسرائيلي محكم.

وقد لجأ إلى موقع كبريت عقب تدمير اللواء ١٠ دبابات (ت٦٢) و٧ عربات مدرعة (ب ك) و ١٨٠ ضابطا وجنديا من الكتيبة المشاة الميكانيكية التابعة لهذا اللواء المنكود الطالع، وقد أثر وصول هذه الشراذم المشتتة إلى الموقع تأثيرا سيئا على الروح المعنوية لأفراد موقع كبريت. وفي حوالي الساعة الواحدة بعد ظهر يوم ١٩ أكتوبر وصل إلى الموقع اللواء مصطفى شاهين رئيس أركان الجيش الثالث، الذي أمر بإعادة جميع أفراد ومعدات اللواء ٢٥ المدرع الذين التجأوا إلى الموقع إلى وحداتهم الأصلية برأس كوبري الفرقة ٧ مشاة، ولكنه سحب سرية الدبابات التي سبق تدعيم الكتيبة ٦٠٣ بها يوم ٩ أكتوبر وترك بدلا منها الدبابات العشر التي التجأت إلى الموقع بعد المعركة نظرا لسوء حالتها وعجز بعض جنازيرها عن الحركة. ولذا استخدمت هذه الدبابات في الموقع على أنها مدافع مضادة للدبابات، خاصة وقد كانت مدافعها من عيار ١١٥ م للاستفادة من قوة نيرانها وبعد مرماها. وعلاوة على ذلك أمر اللواء شاهين بسحب ٣ دبابات برمائية (ت ٧٦) و١٠ عربات مدرعة توباز لتنضم على قوة الكتيبة ٦٠٢ في مطار كبريت لتدعيمها بعد أن تم تدمير معداتها في معركة طريق الجدي كما سبق أن ذكرنا.

ضرب الحصار حول قوة كبريت

بدأ الحصار الفعلي لموقع كبريت منذ صباح يوم ٢٢ أكتوبر ١٩٧٣. ومما يستحق الالتفات إليه أن الحصار الإسرائيلي للموقع بدأ في نفس التوقيت الذي أصدر فيه مجلس الأمن القرار رقم ٣٣٨، وهو أول قرار للمجلس بوقف إطلاق النار، أي أن هذا الحصار قد جرى في ظل ثلاثة قرارات متتالية أصدرها مجلس الأمن بوقف إطلاق النار وتأكيده، وهي القرارات رقم ٣٣٨ في ٢٢ أكتوبر ورقم ٣٣٩ في ٢٣ أكتوبر ورقم ٣٤٠ في ٢٥ أكتوبر. ورغم أن اتفاقية النقاط الست التي وقعت في ١١ نوفمبر ١٩٧٣ بين الجانبين المصري والإسرائيلي في محادثات الكيلو متر ١٠١ كانت الفقرة الرابعة منها تنص على «عدم إعاقة الإمدادات غير العسكرية إلى الضفة الشرقية للقناة»، فقد استمر الحصار الإسرائيلي مضروبا حول موقع كبريت بشدة وإحكام بالغين، وظلت إمدادات الطعام والمياه التي تعد بالطبع إمدادات غير عسكرية تصل إلى الموقع بمغامرات تكاد تكون أشبه بالخيال. ويبدو أن القيادة الإسرائيلية الجنوبية كانت تطمع في أن تدفع ويلات الجوع

والعطش حامية كبريت إلى الاستسلام، أو أن تستخدم حصار قواتها لهذا الموقع الذي تم عزله عن العالم الخارجي، كأداة مساومة ووسيلة ضغط على الوفد المصري أثناء محادثات الكيلو متر ١٠١ بين الجانبين المصري والإسرائيلي. وعندما انتهت المرحلة الثانية من محادثات الكيلو متر ١٠١ بتوقيع اتفاقية فض الاشتباك في ١٨ يناير ١٩٧٣، ظل موقع كبريت تحت وطأة الحصار. ولم تغادر حامية كبريت موقعها إلا بعد أن قامت إسرائيل بتنفيذ المرحلة الثالثة من انسحاب قواتها وفقا لاتفاقية فض الاشتباك، والتي كانت تنص على انسحاب القوات الإسرائيلية من منطقة جنوب البحيرات إلى منطقة الجدي شرق القناة خلال ثمانية أيام كانت تنتهي في ١٢ فبراير ٧٤. وبإتمام هذه المرحلة، اعتبر أن الحصار قد رفع نهائيا عن موقع كبريت. وعلى ذلك تكون مدة الحصار على وجه التحديد قد بدأت في ٢٢ أكتوبر ١٩٧٣ وانتهت في ١٢ فبراير ١٩٧٣ أي استمرت ١١٤ يوما كاملة، ولذا ينبغي حفاظا على الأمانة التاريخية تصحيح المدة التي سجلت خطأ في جميع الصحف والكتب والمراجع على أنها ١٣٤ يوما.

وكان موقع كبريت باعتباره حصنا إسرائيليا سابقا من حصون خط بارليف يضم نقطة قوية حصينة كانت تقع في الجنوب الغربي من الموقع على مقربة من البحيرة، وكانت هذه النقطة القوية تتكون من عدة طوابق تغوص في باطن الأرض وتعلو حتى تصل إلى قمة الساتر، وكانت تضم عدة دشم قوية وملاجئ للمبيت، وكل دشمة مجهزة بعدة فتحات في اتجاه الغرب لاستخدام أسلحة الضرب ضد أي هجوم مصري، (كان الهجوم متوقعا في هذه الناحية) وجميع الدشم تتصل بعضها ببعض عن طريق خنادق مواصلات عميقة مبطنة بألواح الصلب وشكاير الرمل، ومصممة لكي تتحمل القصف الجوي أو البري الثقيل حتى قنابل زنة ١٠٠٠ رطل. وكان قائد اللواء العقيد أ.ح محمود شعيب قد خصص الدشمة الرئيسية في هذه النقطة القوية لإقامة قيادة اللواء، وخصص بعض الدشم الفرعية كمخازن لتعيينات الطعام والمياه الاحتياطية، كما أمر بتحويل أحد الملاجئ داخل النقطة القوية إلى نقطة طبية ليقيم فيها المرضى والجرحى الذين كان طبيب الكتيبة يشرف على علاجهم. وفي شرق الموقع كانت توجد عدة دشم صغيرة أعدها الإسرائيليون عند بناء الحصن لاستخدامها في صد أي هجوم مصري من ناحية الشرق عن طريق أي متسللين من هذا الاتجاه. وقد استفادت الكتيبة ٦٠٣ من هذه الدشم، وتم احتلالها بسراياها الثلاث لصد أي هجوم إسرائيلي متوقع من اتجاه الشرق. وفي شمال الموقع، كانت توجد خنادق مواصلات عميقة متصلة، تم للدبابات العشر الملحقة من

اللواء ٢٥ المدرع استخدامها في إخفاء هياكلها وإبراز أبراج المدافع منها ليمكنها الضرب المؤثر من هذا الوضع الحصين.

وخلال يومي ٢٢ أكتوبر (أول أيام الحصار) و٢٣ أكتوبر، شنت الطائرات الإسرائيلية من طراز فانتوم وسكاي هوك هجمات جوية مركزة استمرت معظم ساعات النهار حتى غروب الشمس. وأسقطت الطائرات قنابل زنة ١٠٠٠ رطل على دشم النقطة القوية بكثافة شديدة توحي بمدى تصميمها على هدمها وتقويض أركانها.

وقد جرت خلال هذين اليومين أشد الأحداث خطورة في تاريخ الحصار، وكان أهمها ما يلي:

● حاولت سرية من دبابات العدو اختراق الدفاعات الأمامية لموقع كبريت من اتجاه الشرق، فتصدت لها الأسلحة المضادة للدبابات، وتمكنت سرية المقذوفات الصاروخية الموجهة (مالوتكا) من تدمير بعضها على مسافة بعيدة عن الموقع. وعندما استعدت الدبابات الإسرائيلية لاقتحام الموقع، تورطت داخل حقل الألغام الخارجي الذي أقامته الكتيبة ٦٠٣، والذي كان الإسرائيليون يجهلون وجوده، وانفجرت ثلاث دبابات داخل الحقل بالقرب من الدفاعات المصرية، وبادرت الدبابات الباقية بالانسحاب في اتجاه الشرق.

● فوجئت السرية اليمين في الدفاعات الأمامية التي كان النقيب شوقي الجوهري يتولى قيادتها، بعربة جيب إسرائيلية تجتاز المواجهة من اليمين إلى اليسار قرب الدفاعات المصرية، فأمر قائد السرية بإطلاق النار عليها، وعندما توقفت العربة وتقدم الجنود صوبها وجدوا أحد ركابها الأربعة قتيلا، وتم لهم أسر الثلاثة الآخرين الذين اتضح أن أحدهم برتبة ضابط. وعندما استجوبهم الرائد سليمان رئيس استطلاع اللواء أفادوا أنهم يعملون في إدارة التوجيه المعنوي وأنهم قد ضلوا طريقهم. وأمر العقيد شعيب قائد اللواء أن يقتادهم رئيس الاستطلاع تحت الحراسة إلى قيادة الفرقة السابعة لتسليمهم إلي رئيس استطلاع الفرقة. ووفقا للطريقة المتبعة للتحرك بين موقع كبريت في الشمال ورأس كوبري الفرقة السابعة في الجنوب، اعتزم رئيس استطلاع اللواء أن يعبر بالأسرى البحيرة إلى شاطئها الغربي بواسطة أحد القوارب المطاطية زودياك ليستقلوا بعد ذلك إحدى عربات اللواء المنتظرة وفقا للتعليمات عند نقطة العبور كي تتحرك بهم جنوبا إلى معابر الفرقة السابعة، ليعبر بالأسرى قناة السويس من الغرب إلى الشرق ليصل إلى رأس كوبري

الفرقة ٧ مشاة . وكانت هذه الطريقة المطولة تستخدم في الانتقال نظرا لعدم صلاحية الطريق البري المحاذي لشرق البحيرة لتحرك المركبات بسبب رماله الناعمة المتهايلة. غير أنه لم يكن من الحكمة إرسال الأسرى بهذه الطريقة، وكان الأصوب ولدواعي الحذر إرسالهم تحت الحراسة عبر الطريق البري سيرا على الأقدام، إذ إن قائد اللواء كان يعلم منذ يوم ١٦ أكتوبر بنبأ العبور الإسرائيلي إلى غرب القناة. وحدث ما كان متوقعا، فقد أطلقت النيران على العربة، وعندما توقفت قفز الأسرى الثلاثة منها ليعودوا مرة أخرى إلى قواتهم، في الوقت الذي تسلل فيه رئيس الاستطلاع عائدا إلى مقر وحدته الأصلي بالإسكندرية، بعد أن رأى الإسرائيليين أمامه على الضفة الغربية.

● تسبب الضرب الجوي الإسرائيلي المروع في وقوع عدة حوادث أليمة كان لها أسوأ وقع في نفوس رجال كبريت البواسل كما يلي:

١ - بينما كان الملازم الشاب قائد فصيلة الهاون ١٢٠ مم يصلي العدو الذي يواجهه بنيرانه الحامية في شجاعة وبطولة دون اكتراث بالهجمات الجوية التي تزلزل الموقع، إذا بقنبلة مباشرة زنة ١٠٠٠ رطل تسقط على موقع الفصيلة فتدمره تماما، واستشهد القائد ورجاله الأبطال جميعا تحت الأنقاض.

٢ - في الوقت الذي كان فيه طبيب الوحدة في النقطة الطبية التي خصصت له بالملجأ الحصين تحت الأرض منهمكا في إسعاف الجرحى والتخفيف عن آلامهم، إذا بقنبلة مباشرة زنة ١٠٠٠ رطل تخترق سقف الملجأ وتحيل الطبيب والجرحى إلى كومة من الأشلاء والدماء.

٣ - عندما شعر العقيد شعيب قائد اللواء أن الدشمة الرئيسية التي كان يقيم فيها ضباط وجنود قيادة اللواء أخذت تهتز وتتصدع أركانها تحت وطأة القصف الجوي، أمر الجميع بسرعة إخلائها والانتقال إلى الحفر البرميلية المنتشرة حول النقطة القوية. وعندما اكتشف قائد اللواء أن الرائد نور الدين عبد النبي رئيس الإشارة قد ترك أجهزته اللاسلكية وبعض جنوده، داخل الدشمة الرئيسية أمره بالعودة بسرعة لجلب الأجهزة وإخراج الجنود، وأصر المقدم أ.ح محمد أمين مقلد رئيس عمليات اللواء على مرافقته إلى داخل الدشمة للتأكد من إخلاء الجميع لها.. ولم تمض دقائق قليلة على عودة الضابطين إلى الدشمة حتى سقطت فوقها قنبلة مباشرة زنة ١٠٠٠ رطل فدكتها دكا، واستشهد البطلان وهما يؤديان واجبهما حتى الدقيقة الأخيرة، واستشهد معهما كل الجنود الذين بالداخل، ودمرت جميع الأجهزة اللاسلكية.

٤ ـ اتضح أن الدشمتين اللتين تم تخزين كل تعيينات الطعام والمياه الاحتياطية داخلهما قد حولتهما قنابل الطائرات إلى حفر عميقة، وتهايلت فوقهما أكوام من الرمال ودفنت التعيينات والمياه تحت الأرض.

٥ ـ تم تدمير عربة اللاسلكي التي سبق أن أرسلها رئيس إشارة الفرقة السابعة لإجراء الاتصالات اللاسلكية بين قيادة الموقع وقيادة ٧ مشاة، وبهذا أصبح موقع كبريت منعزلا تماما عن العالم الخارجي.

٦ ـ أصيب العقيد شعيب قائد اللواء بشظية في يده من القنابل العنقودية التي كانت تقذفها الطائرات، وانتزع الشظية من يده بأسنانه النقيب نصر قائد سرية استطلاع اللواء. ونظرا لتلف القوارب المطاطية الموجودة في الشرق بسبب شظايا البلي تطوع النقيب نصر كي يعبر البحيرة سباحة إلى الشاطئ الغربي لإحضار قارب من هناك لإخلاء قائد اللواء إلى النقطة الطبية بالفرقة. ووقع قائد اللواء في نفس الخطأ للمرة الثانية، ولم يتعظ بالدرس السابق، وهكذا لم يكدالنقيب نصر يرى الإسرائيليين على الضفة الغربية حتى كرر نفس الأسلوب الذي اتبعه زميله الرائد سليمان، وتسلل هو الآخر عائدا إلى الإسكندرية. وهكذا فقد اللواء ١٣٠ عنصر استطلاعه بأكمله دون أي داع أو مبرر.

كيف تغلب أبطال كبريت على محنة الحصار؟

كان لابد أن توضع قيود على صرف الطعام والمياه واستهلاك الذخيرة حتى يمكن للموقع الصمود لأقصى مدة ممكنة. وأصبح تعيين الطعام للفرد الواحد يصرف له كل أربعة أيام. وكانت أعقد المشكلات هي مشكلة المياه لعدم وجود أي مصادر لها، ولكن جندي مؤهلات من خريجي كلية العلوم أرشد زملاءه إلي وسيلة عملية لتحويل مياه البحيرة المالحة إلى مياه عذبة عن طريق تبخير المياه المالحة ثم تكثيف البخار الصاعد ليتحول داخل الأواني إلى مياه عذبة. واستخدموا خشب أعمدة التليفونات وفلنكات السكة الحديدية لإجراء عملية التبخير، كما جلبوا مواسير نحاسية من بعض الدبابات والعربات المدرعة المدمرة لتوصيل بخار الماء من أوعية التبخير إلى أوعية التكثيف. وبرع الجنود بعد قليل في هذه العملية حتى قضوا على مشكلة نقص المياه تماما. ورأى العقيد شعيب ضرورة إعادة الاتصال مع قيادة الفرقة السابعة حتى يطلب منها دفع الإمدادات

التي أضحت حيوية من أجل إعاشة حامية الموقع، فأرسل يوم ٢٥ أكتوبر دورية صغيرة من ضابطين عبر الطريق البري المحاذي للبحيرة سيرا على الأقدام، ولما تأخرت عودتهما بعث بعد يومين بدورية قتال من ثلاثة ضباط وأحد عشر جنديا، ورافق الدورية عدد من الجرحى القادرين على السير والذين كانت جراحهم تسبب لهم أشد الآلام.

وكان يوم ٢٨ أكتوبر يوما لا ينسى بالنسبة لرجال كبريت، فقد عادت الدوريتان وبرفقتهما طبيب كان يحمل معه معداته الطبية وأدويته لعلاج المصابين كما حمل أفراد الدوريتين معهم أقصى ما استطاعوا حمله من مياه وطعام وسجائر ممارفع من روح الجميع المعنوية.

وفي يوم ٣٠ أكتوبر، سلم العقيد أ.ح محمود شعيب قيادة الموقع إلى المقدم إبراهيم عبد التواب وسار العقيد شعيب برفقة إحدى الدوريات المتجهة إلى الفرقة ٧ مشاة عبر الطريق البري الذي غدا طريق الاتصال الدائم بين الموقع ورأس كوبري الفرقة. وبعد أن تلقى العقيد شعيب العلاج اللازم في النقطة الطبية بالفرقة، مكث بعد ذلك حوالى عشرة أيام على الحد الأيسر للفرقة السابعة للإشراف على عملية نقل الإمدادات. وفي يوم ١١ نوفمبر تم نقله مع جرحى السويس إلى القاهرة وفقا لاتفاقية النقاط الست، وهناك دخل مستشفى المعادي.

وفي سبيل تنظيم عملية تزويد موقع كبريت بالإمدادات المطلوبة، أسند العميد أحمد بدوي قائد الفرقة السابعة هذه العملية إلى العميد فؤاد صالح زكي قائد اللواء الثامن والعقيد أ.ح حسن الأخرس رئيس أركان اللواء الثامن الذي كان يعد الحد الأيسر للفرقة. وقد قاما بهذه العملية على الوجه الأكمل. وكانت تحركات الدوريات التي تحمل الإمدادات على الطريق البري قد أصبحت مغامرة خطيرة، بعد أن تضخم عددها حتى وصل أحيانا إلى ٤٠ فردا. وبعد أن بدأ التفات العدو يتجه نحوها. وواصل ثلاثة ضباط شبان من أبطال كبريت البواسل القيام بهذه المهمة الخطيرة بالتناوب، ودون تردد أو خوف، وهم الملازمون أسامة عبد الله وإبراهيم العجمي وعبد الله عاشور حتى تمكن العدو أخيرا من إغلاق الطريق البري، ووصلت عناصره المدرعة إلى قرب الشاطئ.

وعقب إغلاق الطريق البري، تم للمسئولين عن الإمداد اللجوء إلى حل آخر لإنقاذ الموقف، وهو استخدام الطريق البحري عبر البحيرة. وتم استخدام لنش سريع بمحرك كان يقطر وراءه في كل رحلة عشرة قوارب خشبية مربوطة بعضها ببعض بإحكام لتملأ بالمياه والطعام، وكان التوقيت الملائم هو منتصف الليل في الليالي المظلمة التي يغيب فيها

القمر. وفور وصول القافلة إلى نقطة التفريغ بالبحيرة عند كبريت، يقطع الحبل الذي يربط القوارب باللنش كي يعود اللنش في الحال إلى نقطة التحميل في القناة بقطاع اللواء الثامن، بينما يبدأ رجال كبريت في تفريغ الإمدادات الوافرة التي تحملها القوارب العشرة. واشترك في قيادة القوافل البحرية ـ رغم المخاطر التي جدت بعد تدخل العدو بقواربه المسلحة ـ ثلاثة ضباط شبان من رجال اللواء ١٣٠ البرمائي، أثبتوا بطولة وشجاعة خارقتين وهم النقيب عصام عبد الحي والملازمان صابر كاسح وسيد حرب.

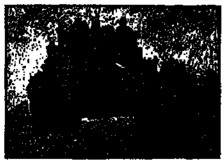
وكان المقدم إبراهيم عبد التواب قائد الكتيبة ٦٠٣ الذي تولى قيادة موقع كبريت ـ كما وصفه ضباطه وجنوده ـ قائدا مؤمنا شجاعا، وكان قدوة لرجاله في كل تصرفاته. فقد كان أقلهم طعاما وشرابا وأقلهم نوما وأكثرهم صلاة وعبادة وترتيلا للقرآن. وكان يؤم رجاله في الصلوات ويخطب فيهم خطبة الجمعة. كان زاهدا متقشفا ورعا ومن النوع الذي يختاره الله للشهادة.

وعند ظهر يوم ١٧ يناير وأثناء وجوده في نقطة الملاحظة الأمامية، أطلق العدو بعض طلقات المدفعية والهاونات على الموقع، واكتشف القائد نقطة الملاحظة الإسرائيلية التي كانت تقوم بتوجيه الضرب. وأثناء قيامه بتوجيه نيران سرية الهاون ١٢٠ مم وبجواره قائدها، سقطت على نقطة الملاحظة قنبلة هاون إسرائيلية مباشرة من عيار ١٢٠ مم فدمرت النقطة، واستشهد المقدم إبراهيم عبد التواب وبيمناه المصحف وبيسراه نظارة الميدان، واستشهد معه قائد سرية الهاون. وقام الرجال بدفنهما معا في مقبرة الشهداء خلف موقع السرية السادسة. وساد موقع كبريت سكون مطبق وصمت رهيب كانا أبلغ من كل كلمات الرثاء.

وفي صباح اليوم التالي مباشرة، وهو ١٨ يناير وقع الجانبان المصري والإسرائيلي عند الكيلو متر ١٠١ اتفاقية فض الاشتباك، وتولى قيادة موقع كبريت الرائد سعد دسوقي رئيس عمليات الكتيبة ٦٠٣. وعلى أثر إتمام انسحاب القوات الإسرائيلية من جنوب البحيرات إلى منطقة الجدي يوم ١٢ فبراير تنفيذا للمرحلة الثالثة من اتفاقية فض الاشتباك، تم رفع الحصار عن موقع كبريت. وفي يوم ١٣ فبراير سلم أبطال أبطال كبريت الموقع إلى قوة من الفرقة ٧ مشاة وانتقلوا إلى معسكر الربيكي على طريق السويس القاهرة حيث مكثوا ثلاثة أيام. وفي يوم ١٧ فبراير سافروا بقطار خاص من الربيكي إلى محطة مصر بالإسكندرية، حيث كان المسئولون قد أعدوا لهم استقبالا رسميا وشعبيا، وقام

محافظ الإسكندرية بتسليم علم المدينة إلى قائدهم تعبيرا عن تقدير الشعب المصري لبطولتهم وكفاحهم.

لقد ضرب رجال حامية كبريت حقا أروع الأمثلة في البطولة والإيمان والفداء وحق عليهم قوله سبحانه وتعالى: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾ (الأحزاب: الآية ٢٣) صدق الله العظيم.



صور ملحق ٢



عقيد محمود شعيب

قائد اللواء ١٣٠ مشاة ميكانيكي برمائي، وإلى يساره **مقدم محمد أمين** مقلد رئيس عمليات اللواء.



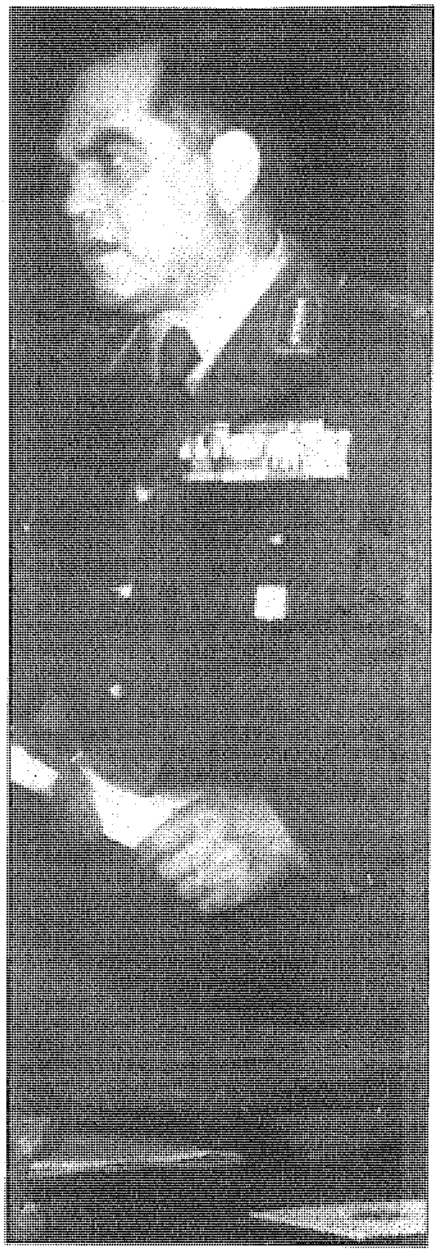
المقدم إبراهيم عبد التواب

قائد الكتيبة٦٠٣ والذي تولى قيادة موقع كبريت بعد إصابة قائد اللواء وإخلائه إلى القاهرة، وإلى يمينه **المقدم محمود سالم** قائد الكتيبة ٦٠٢.



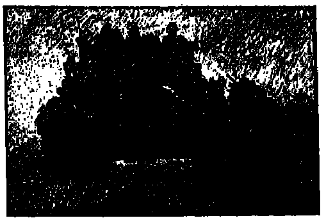
لواء عبد المنعم واصل

قائد الجيش الثالث.



عميد أحمد بدوي سيد أحمد

قائد الفرقة ٧ مشاة الذي وضع اللواء ١٣٠ تحت قيادته اعتبارا من ١٣ أكتوبر.



■ ملحق ٣ ■

الرسالة الأولى من الفريق سعد الشاذلي إلى جمال حماد

بعث إلينا الفريق سعد الشاذلي رئيس أركان حرب القوات المسلحة إبان حرب أكتوبر ٧٣ برسالة مستفيضة تضمنت رده على السؤال الذي سبق أن وجهناه إليه تحت عنوان «سؤال إلى الشاذلي: أين الألوية المدرعة التي يمكن سحبها إلى الغرب؟». ولا شك أن الرسالة التي بعث بها الشاذلي ـ علاوة على أهميتها بالنسبة للقراء بحكم المنصب القيادي الكبير الذي كان يتولاه خلال حرب أكتوبر ـ لها أهميتها الخاصة بالنسبة لي، إذ إن سعد الشاذلي بالإضافة إلى زمالتنا في السلاح كان أيضًا زميلاً لي في دراسة عسكرية راقية المستوى استمرت أكثر من عام عندما كنا معا في بعثة دراسية بكلية الحرب بالاتحاد السوفيتي، وقد زاملنا في هذه البعثة من قادة حرب أكتوبر البارزين الفريق سعد مأمون قائد الجيش الثاني والفريق أول كمال حسن على مدير سلاح المدرعات.

وبهذا الرد من الفريق الشاذلي، تتاح الفرصة للقراء سواء في مصر أو في الخارج للاطلاع على وجهتين مختلفتين للنظر في موضوع من أهم الموضوعات التي أثيرت في المرحلة الأخيرة من حرب أكتوبر، عقب حدوث ثغرة الاختراق في الدفرسوار والعبور الإسرائيلي إلى غرب القناة ليلة ١٥/ ١٦ أكتوبر٧٣، وهو موضوع سحب الألوية المدرعة من شرق القناة إلى الغرب لمواجهة التهديد الإسرائيلي، وهو الرأي الذي كان يتبناه الفريق الشاذلي والذي أثار خلافا حادا في المركز ١٠ مساء يوم ٢٠ أكتوبر. وقد سبق لنا شرح تفاصيل هذا الخلاف في الفصل العاشر من الكتاب، والذي أوضحنا فيه أسباب الخلاف بين الشاذلي والرئيس الراحل أنور السادات وقد تركز رد الفريق الشاذلي ـ كما سيرى القراء ـ على قضيتين رئيسيتين:

أولا ـ متى كانت عودة الشاذلي من الجيش الثاني؟ ومتى عقد المؤتمر برئاسة الرئيس الراحل السادات في المركز ١٠؟

ثانيا ـ موقف الألوية المدرعة شرقي القناة مساء يوم ٢٠ أكتوبر، ولماذا كان الشاذلي يرى ضرورة سحبها بأكملها إلى غرب القناة؟

ولقد حسم الأخ سعد الشاذلي في رده ـ كما سيرى القراء ـ القضية الأولى. فلقد اعترف بشجاعة أدبية يشكر عليها بأن التاريخ الصحيح لموعد عودته من الإسماعيلية ولموعد عقد مؤتمر القادة برئاسة السادات في المركز ١٠ هو التاريخ الذي سبق أن سجلناه، أي مساء يوم ٢٠ أكتوبر وليس يوم ١٩ أكتوبر كما ذكر السادات في كتابه «البحث عن الذات»، وكما دونه الشاذلي نفسه في مذكراته. وقد قدم لنا أربعة أسباب لتبرير ذلك الخطأ الذي وقع فيه كي يثبت أنه خطأ غير متعمد، ذاكرا الحكمة المأثورة التي تقول: «جل من لا يخطئ».

وبهذا الاعتراف، نكون قد حققنا مكسبا تاريخيا كبيرا، إذ استطعنا بعد مرور أكثر من ١٥ عاما على حرب أكتوبر، أن نصحح تاريخ أحد الأحداث المهمة التي وقعت خلال هذه الحرب، والذي سجل تسجيلا خاطئا حتى في سجلات ومراجع رسمية.

أما القضية الثانية، فهي تتعلق بالرأي الذي أبداه الشاذلي مساء يوم ٢٠ أكتوبر بضرورة سحب الألوية المدرعة من شرق القناة إلى الغرب. وقد سجل لنا في رده الأسباب التي دفعته لتبني ذلك الرأي وانتقاده لوجهة النظر التي أبديناها في الفصل العاشر من هذا الكتاب، والتي تتعارض مع وجهة نظره. وفيما يلي رسالة الفريق الشاذلي كاملة دون أي نقص، وسوف نقوم بمناقشتها بعد ذلك.

رسالة الفريق الشاذلي

قرأت باهتمام كبير ما كتبه الأخ جمال حماد عن حرب أكتوبر المجيدة ونشره تحت عنوان المعارك الحربية على الجبهة المصرية. وكان في نيتي أن أعقب على ما ورد في هذه المقالات بعد الانتهاء من نشر آخر حلقاتها. ولكن جمال حماد وجه إليّ سؤالا مباشرا كان عنوانه: «سؤال إلى الشاذلي: أين الألوية المدرعة التي يمكن سحبها؟». وبالرغم من هذا التساؤل فقد كنت أفضل تأجيل التعقيب على كل ما كتبه جمال حماد إلى أن ينتهي

من نشر كل ماعنده. ولكن بعض الأصدقاء والقراء طالبوني بالرد على هذا السؤال وهو ما زال ساخنا. واستجابة لرغباتهم، فإني أقدم للقراء اليوم إجابتي عن هذا التساؤل.

مؤتمر الرئيس بالمركز ١٠

ولكن قبل الإجابة عن هذا التساؤل، يجب علينا أولا أن نتفق حول التاريخ الذي على أساسه يتم تقدير الموقف العام على الجبهة المصرية وتقييم موقف الألوية المدرعة المصرية والإسرائيلية في هذا التاريخ. هل كان ذلك يوم ٢٠ أكتوبر أم كان ذلك يوم ١٩ أكتوبر؟ وبالتالي متى كانت عودة الشاذلي من الجيش الثاني؟ ومتى عقد المؤتمر برئاسة السادات في المركز ١٠؟

الذي أستطيع أن أجزم به هو أن تاريخ عودتي من الجيش الثاني هو نفس تاريخ انعقاد المؤتمر في المركز ١٠. فقد كنت أنا الذي طالبت بانعقاد هذا المؤتمر بعد عودتي من الجبهة؛ فإذا كان هذا المؤتمر قد عقد مساء يوم ٢٠ فإني أكون قد غادرت الجيش الثاني ظهر يوم ٢٠، وإن كان عقد مساء يوم ١٩، فإني أكون قد غادرت الجيش الثاني ظهر يوم ١٩، وإني أميل اليوم إلى الاعتقاد بأن التاريخ هو يوم ٢٠ أكتوبر. ولكن كيف وقع هذا الخطأ؟ وهل هو خطأ مقصود، أم أنه خطأ غير مقرون بسوء النية؟

إن من يلجأ إلى تغيير التاريخ عن عمد لابد أن يكون له هدف معين يرجو تحقيقه من وراء هذا الخطأ المتعمد. فإما أن يكون ذلك بقصد تحقيق مكسب، وإما أن يكون لدرء مسئولية. وحيث إن تسجيل عودتي من الجيش الثاني على أنها يوم ١٩ وليست يوم ٢٠ لا تحقق لي أي مكسب، ولا تدرأ عني أي خطأ، فإن التعمد ينتفي في هذه الحالة، ويصبح خطأ عاديا.

ويتساءل جمال حماد: كيف يخطئ الشاذلي في هذا التاريخ، وهو معروف بدقته وتسجيله للأحداث أولا بأول؟ وإليه أقول: «جل من لايخطئ». ومع ذلك فهناك أربعة أسباب لوقوع هذا الخطأ: الأول هو أنني لم أكن آخذ معي النوتة التي أسجل فيها مذكراتي عندما أغادر المركز ١٠، وبالتالي فلم تكن معي هذه النوتة عندما كنت في الجيش الثاني. السبب الثاني هو أنني لم أكن أسجل في هذه النوتة الأحداث فور حدوثها، بل كنت أسجلها في فترات الهدوء. وحيث إن فترة وجودي في الجيش الثاني وما بعدها وحتى

وقف إطلاق النار كانت من الفترات العصيبة، فإني لم أسجل أحداث هذه الفترة إلا في يوم ٢٥ أكتوبر. السبب الثالث هو أن الفرق بين فترة البقاء في مكان ما ٢٤ ساعة وفترة البقاء فيه ٤٤ ساعة، هو أنه في الحالة الأولى ينام الفرد ليلة واحدة، وفي الحالة الثانية فإنه ينام ليلتين. أما إذا كانت الفترة ممتدة لا فرق فيها بين ليل أو نهار ولا ينام الفرد خلالها إلا وهو جالس لمدة ساعة أو ساعتين، إذن فهذا هو التعب والإرهاق، فإنه في هذه الحالة يفقد الشعور بالوقت. أما السبب الرابع فهو أن التاريخ الرسمي المعلن للمؤتمر الذي عقد في المركز ١٠ هو يوم ١٩ أكتوبر ٧٣. لقد ذكر السادات هذا التاريخ منذ ١٣ سنة ولم يجادله أحد ممن حضروا هذا المؤتمر في صحة هذا التاريخ. وقد أعلن السادات بعد ذلك أنه عزلني من منصبي يوم ١٩ أكتوبر بعد عودتي منهارا من الجبهة. وفي المتحف الذي أقامته القوات المسلحة عن حرب أكتوبر ذكرت سجلات وإعلانات المتحف أن الفريق الشاذلي قد تمت تنحيته من منصبه يوم ١٩ أكتوبر. وهذا يعني أن القيادة العامة للقوات المسلحة تعترف بأن المؤتمر الذي عقد بالمركز ١٠ برئاسة السادات قد عقد يوم ١٩ أكتوبر، وبالتالي لابد أن تكون العودة من الجيش الثاني قد تمت يوم ١٩. لقد تضافرت كل هذه الأسباب لكي أقع في هذا الخطأ بحسن نية. فهل كان هذا هو أيضا موقف من سكتوا عن هذا الخطأ طوال السنوات الماضية؟

كان لابد لي من حسم هذا الموضوع قبل أن أبحث الموقف على الجبهة المصرية لمعرفة ما إذا كان الممكن سحب أربعة ألوية مدرعة من شرق القناة لمواجهة التهديد الإسرائيلي المدرع ضد قواتنا التي تتمركز غرب القناة. وسوف أجرى هذا البحث على أساس الموقف مساء يوم ٢٠ أكتوبر ٧٣.

الألوية المدرعة شرق القناة

كان أول شيء أعمله بعد عودتي من قيادة الجيش الثاني يوم ٢٠ أكتوبر، هو الإلمام بالأحداث المهمة التي وقعت خلال فترة غيابي عن المركز ١٠، وقد قام اللواء عبد الغني الجمسي رئيس هيئة العمليات بشرح الموقف في قطاع الجيش الثالث، وكذلك موقف القوات الجوية والبحرية والدفاع الجوي. وما يهمنا في هذا المجال هو موقف قواتنا المدرعة. لقد أخطرني الجمسي بأنه تم سحب اللواء الثالث المدرع من الشرق في قطاع الجيش الثالث لكي ينضم إلى فرقته الأم وهي الفرقة الرابعة المدرعة، وبذلك تكون الفرقة

الرابعة المدرعة قد اكتملت جميع عناصرها وأصبحت تتمركز غرب القناة جنوب ترعة الإسماعيلية. وحيث إني كنت على علم بأن اللواء ١٥ مدرع مستقل كان قد تم سحبه من الشرق في قطاع الجيش الثاني. . فإن ذلك يعني أنه بحلول مساء يوم ٢٠ أكتوبر كان لدينا ثلاثة ألوية مدرعة غرب القناة. . اثنان منهما في الفرقة الرابعة المدرعة التي كانت تتمركز جنوب ترعة الإسماعيلية. أما الثالث وهو اللواء ١٥ مدرع مستقل فكان يتمركز شمال ترعة الإسماعيلية.

وكان مازال لدينا شرق القناة خمسة ألوية أخرى. ثلاثة منها في قطاع الجيش الثاني هي: اللواءان المدرعان ١و١٤ التابعان للفرقة ٢١ مدرعة واللواء ٢٤ مدرع التابع للفرقة ٢٣ مشاة ميكانيكي. وفي قطاع الجيش الثالث، كان يتمركز لواءان مدرعان هما: اللواء ٢٥ مدرع مستقل واللواء ٢٢ مدرع التابع للفرقة السادسة مشاة ميكانيكي. وحيث إن اللواء ٢٥ مدرع مستقل كان قد تم تدميره تدميرا شبه كامل يوم ١٧ أكتوبر نتيجة المهمة المجنونة التي كلف بها، والتي وقع بسببها أول تصادم علني عنيف بين السادات الذي كان يؤيد هذه المهمة والشاذلي الذي كان يعارضها، فإنه يجب علينا أن نسقط اللواء ٢٥ مدرع من حسابنا. ونتيجة لذلك، فإن الألوية المدرعة التي كانت باقية لنا شرق القناة من الناحية الواقعية مساء يوم ٢٠ أكتوبر هي الألوية رقم ١، ١٤، ٢٤، ٢٢، وهذه هي الألوية الأربعة التي كنت أريد سحبها يا أخ جمال. وأود أن أوضح بأني عندما ذكرت في كتابي عن حرب أكتوبر بأنني طالبت بسحب أربعة ألوية مدرعة، فإني كنت أعني أن أسحب من الشرق جميع التشكيلات والوحدات المدرعة التي لا تدخل ضمن تنظيم الفرق المشاة.

إن القول بأن قوة اللواء الأول واللواء ١٤ مدرع قد انخفض عدد الدبابات فيهما إلى ٣٠ دبابة هو مبالغة في تصوير موقف هذين اللواءين. وعموما، فإن تقارير الموقف بالنسبة للوحدات المدرعة تتغير كل يوم وأحيانا تتغير كل ساعة.

ويتوقف ذلك على نشاط العمليات الحربية ونشاط عمليات الإصلاح. فقد يصل تقرير الموقف عن لواء مدرع بعد معركة من المعارك بأن عدد دباباته قد انخفض إلى أن أصبح ٢٠ دبابة. ولكن بعد بضع ساعات أو بعد ٢٤ ساعة يأتي تقرير موقف آخر يذكر أن الدبابات الصالحة للعمليات قد ارتفع عددها إلى ٤٥ أو ٥٠ دبابة، وذلك نتيجة إجراء الإصلاحات في الدبابات التي أصيبت بأعطال بسيطة. أضف إلى ذلك أن الدبابات وإن كانت هي السلاح الرئيسي في الوحدات المدرعة، إلا أن اللواء المدرع يدخل ضمن تنظيمه وحدات

مقاتلة أخرى كثيرة. فلعلك تعلم يا جمال أن ضمن تنظيم اللواء المدرع سرية استطلاع، وسرية مهندسين، وكتيبة مشاة ميكانيكية، وكتيبة مدفعية ميدان، وكتيبة مدفعية مضادة للطائرات. ومع هذه الوحدات ١٢ عربة حاملة للصواريخ الموجهة المضادة للدبابات، و١٢ مدفع ميدان، و٢٤ مدفعا مضادا للطائرات، وأكثر من ٦٠ قاذفا مضادا للدبابات قصير المدى. وتستخدم هذه الوحدات حوالي ٢٥٠ عربة أكثر من نصفها عربات مدرعة. ولا شك في أن هذه الوحدات قد تحملت هي الأخرى بعض الخسائر، ولكن من المؤكد أن خسائرها كانت أقل من خسائر الدبابات. وبالتالي فمن الخطأ إسقاطها من حسابنا. وبالإضافة إلى ذلك، فإن الألوية المدرعة الإسرائيلية كانت هي الأخرى قد تحملت خسائر جسيمة. وقد اعترف جمال حماد نفسه بأن عدد الدبابات في اللواءين المدرعين اللذين تتكون منهما فرقة ماجن انخفض إلى ٥٠ دبابة قبل أن يندفع بهما إلى الجنوب يوم ٢٣ أكتوبر ويحتل ميناء الأدبية ويكمل حصار الجيش الثالث ومدينة السويس.

وفيما يتعلق باللواء ٢٤ مدرع، يقدم جمال حماد سببين لتبرير عدم إمكانية سحبه من قطاع الفرقة ١٦ مشاة: السبب الأول هو ضعف إمكانية رأس كوبري الفرقة ١٦ مشاة إذا ما سحب اللواء ٢٤ مدرع. والسبب الثاني هو عدم وجود كباري منصوبة جنوب بحيرة التمساح. أما بخصوص السبب الأول، فهذه نقطة خلافية يكون الحسم فيها على أساس إجراء مقارنة بين الأسلحة التي كانت في حوزة الفرقة ١٦ مشاة مساء يوم ٢٠ أكتوبر، والأسلحة التي كان العدو يملكها في مواجهتها في نفس الوقت. ولكن جمال حماد اكتفى بذكر ضعف القوات في رأس الكوبري دون أن يذكر أيضا ضعف القوات المعادية في الشرق بعد أن نقل العدو معظم قواته المدرعة إلى غرب القناة. لقد نسى جمال حماد قوله تعالى في سورة النساء الآية «١٠٤»: ﴿إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً﴾. وببساطة شديدة وبإيجاز شديد، فإني أتساءل: «إذا كان لواء المظلات المصري رقم ١٨٢ بقيادة العقيد إسماعيل عزمي قد استطاع أن يتصدى لفرقة شارون التي كانت تتكون من لواءين مدرعين ولواء مظلي إسرائيلي.. وأن يقاتل هذا العدو غرب القناة لمدة أربعة أيام قبل وقف إطلاق النار... فكيف لا تستطيع ذلك الفرقة ١٦ مشاة، التي رغم ما تحملته من خسائر فقد كان لديها ثلاثة أضعاف ما يملكه لواء المظلات من سلاح، وكان العدو الذي في مواجهتها أو الذي ينتظر أن يهاجمها يقل كثيرا في حجمه وتسليحه عن قوة شارون التي كانت تهاجم

لواء المظلات رقم ١٨٢ في غرب القناة؟ وإني أتعشم أن تقوم لجنة تقصي الحقائق التي نطالب بتشكيلها بحسم هذه النقطة الخلافية.

أما مايدعيه جمال حماد من أن عدم وجود كبار منصوبة جنوب بحيرة التمساح كسبب آخر لعدم إمكانية سحب اللواء ٢٤ مدرع، فالرد عليه هو أن سحب الألوية المدرعة الثلاثة من الشرق في قطاع الجيش الثاني كان من المقرر سحبها عبر الكباري التي كانت قائمة شمال بحيرة التمساح في قطاع الفرقة الثانية المشاة والفرقة ١٨ المشاة حتى تكون بعيدة عن تدخل العدو. فحتى لو افترضنا أن كباري الفرقة ١٦ كانت ما زالت منصوبة جنوب بحيرة التمساح، فليس من المعقول تكتيكيا أن نقوم بسحب ألويتنا المدرعة عبر هذه الكباري التي كان العدو يعمل بالقرب منها.

ولكل ذلك، فإننا نعتقد أن جمال حماد لم يكن منصفا عندما بالغ في ضعف وإمكانات اللواءين المدرعين رقمي ١، ١٤ وفي ضعف الفرقة ١٦ مشاة. وكان يجب عليه - مراعاة لأمانة البحث العلمي - أن يقارن بين حجم ونوعية السلاح الذي كان في أيدي تلك التشكيلات، وبين حجم ونوعية السلاح الذي كان في أيدي العدو الذي يواجهها، في الوقت والمكان الذي كان من المنتظر أن تجري فيه المعركة. كما أن تبريره بعدم إمكانية سحب اللواء ٢٤ مدرع على أساس عدم وجود كبارٍ جنوب بحيرة التمساح، هو تبرير غير مقنع.

موقف اللواء ٢٢ المدرع

أما بخصوص اللواء ٢٢ الذي كان متمركزا في قطاع الجيش الثالث، فقد كان أقل الألوية المدرعة تحملا للخسائر، وبذلك لم يجادل جمال حماد في قدراته القتالية، ولكنه جاء بسبب غير مقبول لتبرير عدم إمكانية سحبه من الشرق. لقد قال إنه كان يعمل كاحتياطي في يد قائد الجيش الثالث. ونحن نقول له: احتياطي ضد من؟ ما قوة العدو التي كانت في مواجهة الجيش الثالث في شرق القناة؟ بل ما كل قوات العدو التي كانت في مواجهة الفرق المشاة المصرية الخمس مساء يوم ٢٠ أكتوبر؟ وهل كانت هذه القوات المعادية تشكل أي خطورة على مواقع قواتنا في الشرق؟ وما قوات العدو المدرعة غرب القناة؟ وهل كان في استطاعة قواتنا التي في غرب القناة أن تصمد أمام هجمات العدو المدرعة غرب القناة إذا لم نسحب هذه الألوية المدرعة الأربعة من الغرب؟ إن الإجابة عن هذه الأسئلة هي التي تحدد صحة القرار القاضي بسحب هذه الألوية المدرعة من الشرق إلى

الغرب أو عدم صحته. فلماذا يا أخ جمال لم تجر مقارنة بين قواتنا وقوات العدو شرق وغرب القناة؟ لكي تقنع القارئ بعدم صلاحية القرار الذي يقضي بعدم سحب هذه الألوية المدرعة الأربعة؟

مقارنة القوات

إن كل فرقة مشاة من الفرق المشاة المصرية الخمس التي عبرت القناة يوم ٦أكتوبر ـ بدون احتساب الألوية المدرعة والوحدات الأخرى التي دعمت بها ـ سواء في أثناء العبور أو بعده، كان يدخل ضمن تنظيمها الأسلحة الرئيسية التالية:

١٢٤ دبابة.

٤٠ مركبة مدرعة قانصة للدبابات طراز (ب م ب BMB)

٣٦ قاذفا صاروخيا موجها مضاداً للدبابات طراز مالوتكا.

٣٦ مدفعا ٨٥م مضادا للدبابات.

٥٤ مدفعا ب ١١ مضادا للدبابات.

٣٦ مدفعا ب ١٠ مضادا للدبابات.

٣٥٦ قاذفا صاروخيا مضادا للدبابات (ر ب ج ٧).

٧٢ مدفع ميدان.

٣٦ هاون (١٢٠) م.

٥٨ هاون (٨٢) م.

ومهما تحملت الفرقة المشاة من خسائر، فإن نصف هذا الحجم من السلاح يكفيها لصد أي هجوم مدرع يقوم به العدو بقوة لواءين مدرعين كاملي التسليح. فما حجم الألوية المدرعة الإسرائيلية التي كانت أمام كل فرقة؟ بل ما حجم الألوية المدرعة الإسرائيلية التي كانت أمام الجيش الثاني والثالث شرق القناة؟ لقد كان أقصى ما يمكن للعدو حشده أمام الجبهة المصرية هو ٩ ألوية مدرعة. وكانت المعلومات المتيسرة لدينا مساء يوم ٢٠ أكتوبر هي أن للعدو خمسة ألوية مدرعة غرب القناة، وأن ما بقى له لكي يحشده في اتجاه الجبهة

المصرية بعد تخفيف قواته في الجبهة السورية هو أربعة ألوية مدرعة فقط. وتحت هذه الظروف كان أمام العدو خياران: الخيار الأول هو أن يعبر ليلة ٢٠/ ٢١ أو ليلة ٢١/ ٢٢ بلواءين مدرعين إضافيين، فيصبح له في الغرب ٧ ألوية مدرعة ويحتفظ بلواءين مدرعين فقط في الشرق. أما الخيار الثاني، فهو إبقاء الوضع كما هو عليه بالنسبة لتوزيع قواته المدرعة؛ أي ٥ ألوية مدرعة في الغرب، و٤ ألو ية مدرعة في الشرق.

وسواء اتخذ العدو الخيار الأول أو اتخذ الخيار الثاني، فليس هناك أي خطورة على مواقعنا الدفاعية شرق القناة. أما بالنسبة للغرب، فما لم نسارع بسحب ألويتنا المدرعة من الشرق فإن العدو سيكون له التفوق سواء اتخذ الخيار الأول أو اتخذ الخيار الثاني، وإن كان الخيار الأول يحقق له التفوق الساحق في الغرب.

كان علينا أن نحتفظ باللواء ١٥ مدرع في احتياطي الجيش الثاني شمال ترعة الإسماعيلية لإفشال أي محاولة لتطويق الجيش الثاني. وهكذا لم يكن لدينا مساء يوم ٢٠ أكتوبر سوى الفرقة الرابعة المدرعة كاحتياطي إستراتيجي لصد أي هجوم مدرع في اتجاه القاهرة ولمنع تطويق الجيش الثالث. وكان عليها أن تفعل ذلك في مواجهة ٥ ألوية مدرعة إذا اتبع العدو الخيار الثاني، وفي مواجهة ٧ ألوية مدرعة إسرائيلية إذا اتبع العدو الخيار الأول. وهكذا، ففي ظل أوضاعنا ليلة ٢٠/ ٢١ أكتوبر - إذا لم نعمل بسرعة على تعديل هذه الأوضاع - أصبحت المعارك المنتظر وقوعها غرب القناة في الأيام التالية محسومة لمصلحة العدو.

ولكي ننتهي من هذا الموضوع، فإني أقرر أن الحل الأمثل للتعامل مع الثغرة هو اقتراحي الذي تقدمت به يوم ١٦ أكتوبر والذي كان السبب في وقوع أول تصادم عنيف مع السادات. لقد كان اقتراحي في هذا اليوم هو تجميع الفرقة الرابعة المدرعة واللواء ٢٥ مدرع المستقل وتوجيه ضربة ساحقة ضد العدو في منطقة الدفرسوار فجر يوم ١٧ أكتوبر.

أما اقتراحي بسحب الألوية الأربعة يوم ٢٠ أكتوبر، فقد كان هو الخيار الوحيد الصحيح أمامنا. وعلى كل من ينتقد هذا الخيار أن يقدم البديل الأفضل لمناقشته. إني لا أدعي أن هذه الألوية المدرعة الأربعة كانت كافية لتدمير الثغرة، لا سيما بعد أن عبر العدو ليلة ٢٠/ ٢١ بلواءين مدرعين آخرين إلى الغرب وأصبح له ثلاث فرق مدرعة تضم ٧ ألوية مدرعة.

ولكن لا شك في أنه بسحب هذه الألوية الأربعة ومعها قيادة الفرقة ٢١ مدرعة وباقي وحداتها (التي لابد أن ترافق لواءيها المدرعين رقم ١ ، ١٤ عند سحبهما من الشرق) ، فإنه سيصبح لدينا غرب القناة جنوب ترعة الإسماعيلية فرقتان مدرعتان (الفرقة ٢١ مدرعة ، والفرقة الرابعة المدرعة) ، وفرقة مشاة ميكانيكي هي الفرقة السادسة ، واللواء ٢٤ مدرع التابع للفرقة ٢٣ مشاة ميكانيكي . وتضم هذه التشكيلات جميعها ٦ ألوية مدرعة كان عليها أن تواجه ثلاث فرق مدرعة تضم ٧ ألوية مدرعة إذا اتبع العدو الخيار الأول ، أو ٥ ألوية مدرعة إذا اتبع العدو الخيار الثاني . وإني أعترف بأن هذا الحجم من القوات ـ ونتيجة لما تحملته من خسائر ـ لم يكن كافيا للقضاء على الثغرة . ولكن من المؤكد أن هذه القوات كان في مقدورها أن تمنع انتشار العدو غرب القناة ، وأن تحرمه من أي أمل في إمكانية تطويق وحصار أي من الجيشين الثاني أو الثالث . ولو تم الأخذ بهذا الاقتراح ، لما جرؤ العدو على خرق قرار وقف إطلاق النار يوم ٢٣ أكتوبر ، ولما استطاع بأي حال من الأحوال أن يطوق مدينة السويس والجيش الثالث ويصل إلى ميناء الأدبية ! !

كلمة أخيرة . هذا هو رأيي . والقول الفصل يكون للجنة تقصي الحقائق . فهل تقبل الأطراف التي تنتقد هذا الرأي ما تحكم به لجنة تقصي الحقائق؟



صور ملحق ٣



لواء عبد المنعم خليل

قائد الجيش الثاني.



لواء محمد عبد الغني الجمسي

رئيس هيئة العمليات.



عميد محمد عبد العزيز قابيل

قائد الفرقة ٤ المدرعة.



عميد أحمد حلمي بدوي

قائد اللواء ٢٥ المدرع المستقل.



■ ملحق ٤ ■

ردّ جمال حماد على الرسالة الأولى للفريق سعد الشاذلي

عرضنا في الملحق ٣ الرسالة التي بعث بها إلينا الفريق سعد الشاذلي رئيس أركان حرب القوات المسلحة خلال حرب أكتوبر ١٩٧٣، والتي تضمنت رده على السؤال الذي سبق أن وجهناه إليه في الفصل العاشر تحت عنوان «سؤال إلى الشاذلي.. أين الألوية المدرعة التي كان يمكن سحبها إلى الغرب»؟، ولا شك في أنه من المفيد للقراء أن يدور بيني وبين الفريق الشاذلي حوار علمي ونقاش موضوعي، بعيدا عن الإسفاف والمهاترات حول واحدة من أهم القضايا التي برزت خلال المرحلة الأخيرة من حرب أكتوبر، والتي أثارت جدلاً شديداً بين العسكريين سواء في مصر أو في الخارج حول اقتراح الشاذلي بسحب جميع الألوية المدرعة من شرق القناة إلى الغرب لمواجهة التهديد الإسرائيلي غرب القناة، وهو الاقتراح الذي رفضته كل من القيادتين السياسية والعسكرية وقتئذ. وستكون حصيلة هذا الحوار بلا شك، إضافة جديدة إلى الدراسة التاريخية الشاملة التي نجريها عن حرب أكتوبر ١٩٧٣، والتي نأمل أن يخرج منها القراء - سواء كانوا عسكريين أو مدنيين - بالنتائج المثمرة - والدروس المستفادة المطلوبة.

سر صمت الشاذلي في مؤتمر القادة يوم ٢٠ أكتوبر

كما لاحظ القراء في الرد الذي طالعوه، لقد دافع الشاذلي بكل ما في جعبته من حجج وأسانيد عن الرأي الذي ينادي بصواب فكرة سحب الألوية المدرعة من الشرق، إذ إن ذلك هو رأيه الشخصي، الذي سبق أن أبداه للفريق أول أحمد إسماعيل القائد العام في المركز (١٠) مساء يوم ٢٠ أكتوبر عقب عودته من الإسماعيلية، والذي قابله أحمد إسماعيل وقتئذ بالرفض.

ولا يمكن أن يلوم أحد الشاذلي على دفاعه عن وجهة نظره بهذه القوة والحرارة، فمن حق كل إنسان أن يدافع عما يعتقد أنه الحق والصواب، وأن يستعين في ذلك بكل ما في حوزته من أدلة وبراهين لإقناع الآخرين، ولكننا نلوم الشاذلي - ما دامت قضية سحب القوات إلى الغرب قد طرحت على نطاق البحث - بل ونعيب عليه أنه وهو الرجل الثاني في القيادة العامة المركز (١٠) ورئيس أركان حرب القوات المسلحة قد تقاعس عن إبداء رأيه والدفاع عن وجهة نظره التي كان يؤمن بأنها الحق أمام الرئيس الراحل السادات خلال الاجتماع التاريخي الذي عقد بالمركز (١٠) مساء يوم ٢٠ أكتوبر. وسوف نروي موقف الشاذلي في هذا الاجتماع وفقا لما سجله الشاذلي نفسه في مذكراته، حتى لا يتطرق لأحد الشك في صدق ما نرويه تاركين بعد ذلك الحكم للقراء.

وتتلخص رواية الشاذلي التي وردت في الصفحة (٢٦٧) من مذكراته في أنه بعد أن فشل في إقناع أحمد إسماعيل بوجهة نظره، وخوفا من وقوع كارثة في حالة عدم سحب جزء من قواتنا من الشرق إلى الغرب، قرر ضرورة استدعاء السادات إلى المركز (١٠) لشرح الموقف أمامه، وحتى يوضع أمام مسئوليته التاريخية. وعلى ذلك ذهب إلى أحمد إسماعيل في غرفته وقال له: «الموقف خطير، ويجب أن يحضر الرئيس للاستماع إلى وجهة نظر القادة». وعندما حاول أحمد إسماعيل أن يثنيه عن رأيه بحجة أن الوقت متأخر، وأنه لا داعي لإزعاج الرئيس، أصر الشاذلي على ضرورة حضور الرئيس إلى المركز (١٠) فورا.

وفي حوالي الساعة العاشرة والنصف مساء يوم ٢٠ أكتوبر، وصل إلى المركز(١٠) الرئيس الراحل السادات وبرفقته المهندس عبد الفتاح عبد الله وزير شئون رئاسة الجمهورية، وتوجه فورا إلى غرفة أحمد إسماعيل، حيث بقي معه ما يقرب من ساعة، في الوقت الذي كان فيه الشاذلي مجتمعا مع خمسة من كبار القادة الذين اتفق مع أحمد إسماعيل على حضورهم الاجتماع، وذلك في غرفة المؤتمرات الملاصقة لغرفة العمليات، وأخذو يتبادلون وجهات النظر حول الموقف انتظارا لحضور الرئيس. وكان هؤلاء القادة هم اللواءات: محمد على فهمي قائد الدفاع الجوي، وحسني مبارك قائد القوات الجوية، وعبد الغني الجمسي رئيس هيئة العمليات، وسعيد الماحي مدير سلاح المدفعية، وفؤاد نصار مدير المخابرات الحربية.

وفي النهاية، دخل عليهم الرئيس وبرفقته أحمد إسماعيل والمهندس عبد الفتاح عبد الله، وطلب الرئيس الكلمة من المجتمعين واحدا بعد الآخر، وقام كل منهم بشرح

موقف القوات بأمانة تامة. وبعد أن استمع إليهم جميعا لم يطلب الكلمة من الشاذلي، وعلق قائلا: «لن نقوم بسحب أي جندي من الشرق».

ومن هذا السياق الذي سجله الشاذلي في مذكراته يتبين لنا أن هناك حلقة مفقودة أغفل الشاذلي توضيحها عن عمد، رغم ما لها من أهمية قصوى بالنسبة للقضية التي يرويها، وهي: ماذا كانت وجهات نظر القادة الخمسة التي عرضوها على السادات بشأن اقتراح الشاذلي بسحب جميع الألوية المدرعة من شرق القناة إلى الغرب؟ على اعتبار أن هذا الموضوع كان هو الغرض الأساسي من استدعاء السادات إلى المركز (١٠) في هذا الوقت المتأخر من الليل.

إن الاستنتاج السليم الذي يمكن أن نتوصل إليه من مجرى الأحداث، هو أن آراء القادة الخمسة كانت ضد اقتراح الشاذلي، وكانت في جانب الرأي الذي أبداه القائد العام أحمد إسماعيل من قبل للرئيس. وهو وجوب عدم سحب أي قوات من شرق القناة إلى الغرب في هذه المرحلة. ومن الواضح أن هذا كان السبب في عدم طلب الرئيس الكلمة من الشاذلي مثل باقي القادة، لأنه كان يعلم جيدا حقيقة رأيه، وقد تمت له معرفة ذلك خلال اجتماعه مع أحمد إسماعيل في غرفته بالمركز (١٠) قبل لقائه مع القادة، وهو الاجتماع الذي استغرق ما يقرب من ساعة، كما روى الشاذلي.

ومما يؤيد هذا الاستنتاج أن السادات باعتباره ممثلا للقيادة السياسية، لم يكن في مقدرته تجاهل رأي قادة الحرب جميعا فيما لو أيدوا الشاذلي في ضرورة سحب بعض القوات من الشرق إلى الغرب، ولم يكن باستطاعته أن يتحمل وحده مسئولية القرار العسكري الذي أصدره بعدم سحب أي جندي من الشرق.

وحتى نوضح للقراء الصورة الحقيقية لموقف الشاذلي بعد أن أدلى السادات بقراره، فإننا سننقل للقراء نص ما سجله في الصفحة (٢٦٧) من مذكراته حول هذا الموضوع، فقد قال: «لم أتكلم ولم أعلق. غمزني المهندس عبد الفتاح عبد الله وهمس في أذني - قل شيئا - ولكنني تجاهلت نصيحته. ماذا أتكلم وقد اتخذ الرئيس القرار ولا يريد أن يسمعني؟ إنني أريد أن أسحب ٤ ألوية مدرعة من الشرق، وهو يعارض سحب جندي واحد. إنه لم يتخذ هذا القرار عن جهل بل عن معرفة تامة بالموقف، إنه لا يستطيع أن يدعي بعد ذلك بأنه كان يعتقد أن العدو لديه ٧ دبابات في الغرب. إنه يعرف الحقائق كلها عن الموقف وهذا هو قراره».

ولا يمكن تعليل سكوت الشاذلي وامتناعه عن التعليق في هذا الموقف إلا بأحد

احتمالين لا ثالث لهما: إما ـ وهو الاحتمال الأول ـ أن آراء القادة الخمسة التي عرضوها خلال الاجتماع والأدلة التي قدموها قد أفحمته فعدل عن رأيه واقتنع بوجهة نظرهم، ومن ثم لا يصبح القرار الذي أصدره السادات في نهاية الاجتماع هو قراره وحده، بل هو قرار القيادة العسكرية ممثلة في قادة الحرب الذين حضروا الاجتماع ومن ضمنهم الشاذلي نفسه. وفي هذه الحالة فإننا نعيب عليه أن يأتي بعد سبع سنوات على انتهاء الحرب ليهاجم في مذكراته التي صدرت عام ١٩٨٠ القرار الذي صدر مساء يوم ٢٠ أكتوبر ١٩٧٣ في المركز (١٠) ويحمل السادات وحده مسئولية إصداره، دون أن يذكر أن هذا القرار كان هو رأي القادة العسكريين جميعا الذين حضروا الاجتماع، ودون أن يضع في اعتباره أن سكوته عن التعليق وقتئذ ـ مهما كان الدافع إليه ـ كان يعني موافقته على هذا القرار.

وإما ـ وهو الاحتمال الثاني ـ أنه آثر الصمت إيثارا للسلامة رغم عدم اقتناعه بآراء زملائه من قادة الحرب، ورغم تأكده بأن اقتراحه كان هو الخيار الوحيد الصحيح أمام القيادة المصرية ـ كما ذكر في الرد الذي أرسله إلينا ـ وفي هذه الحالة، فإننا نعيب عليه هذا الموقف السلبي الذي وقفه والذي يتنافى مع الشجاعة الأدبية المنتظرة من قائد يشغل مثل هذا المنصب القيادي الكبير، على رأس القوات المسلحة. لقد كان واجبك يا أخ سعد ـ إذا كنت متمسكا برأيك ـ أن تقف أمام الرئيس وأمام زملائك الحاضرين لتجاهر بالرأي الذي كنت تؤمن به وقتئذ أنه الحق والصواب مهما كانت العواقب، لترضي ضميرك وتبرئ ذمتك أمام وطنك، وأمام حكم التاريخ. إنك أنت شخصيا الذي رتبت لهذا الاجتماع، وأنت الذي أصررت على دعوة الرئيس لحضوره رغم تأخر الوقت إيمانا منك بخطورة الموقف، وخوفا من وقوع كارثة لا يعلم مداها إلا الله ـ وهذا هو نص كلماتك ـ فكيف تمتنع بعد ذلك عن شرح الموقف الخطير غرب القناة، واقتراحك لإنقاذه بحجة أن الرئيس لا يريد أن يسمعك؟ إن القضية يا أخ سعد لم تكن تخص السادات أو أحمد إسماعيل أو سعد الشاذلي أو القادة الآخرين الذين حضروا معكم الاجتماع، وإنما كانت قضية مصر وشرفها وسمعة الجيش المصري وكرامته وقضية مستقبل الوطن، ومصير الأجيال القادمة، بل إن الأمر كان أكبر من ذلك وأخطر فقد كانت قضية الأمة العربية بأجمعها.

موقف اللواء ١٥ المدرع المستقل

ذكر سعد الشاذلي في رده ما يلي: «وحيث إني كنت على علم بأن اللواء ١٥ مدرع مستقل كان قد تم سحبه من الشرق في قطاع الجيش الثاني، فإن ذلك يعني أنه

بحلول مساء يوم ٢٠ أكتوبر كان لدينا ثلاثة ألوية مدرعة غرب القناة، اثنان منها في الفرقة الرابعة المدرعة التي كانت تتمركز جنوب ترعة الإسماعيلية، أما الثالث وهو اللواء ١٥ مدرع مستقل فكان يتمركز شمال ترعة الإسماعيلية». والمؤكد أن الشاذلي تولى قيادة الجيش الثاني في الفترة ما بين (١٨ و٢٠) أكتوبر، ومن المفترض أن يكون على دراية تامة بأوضاع تشكيلات هذا الجيش ووحداته، حتى إنه عند عودته من قيادة الجيش الثاني يوم ٢٠ أكتوبر، وعندما أراد الإلمام بالأحداث المهمة التي وقعت على الجبهة خلال فترة غيابه عن المركز (١٠)، قام اللواء عبد الغني الجمسي رئيس هيئة العمليات بشرح الموقف له في قطاع الجيش الثالث، وكذلك موقف القوات الجوية والبحرية والدفاع الجوي، ولم يتطرق في شرحه إطلاقا إلى أي مواقف أو أحداث تتعلق بالجيش الثاني، إذ إن آخر معلومات لدى هيئة العمليات عن موقف هذا الجيش وأوضاعه كانت قد استقتها من الفريق الشاذلي شخصيا عندما كان موجودا خلال اليومين الأخيرين في مركز قيادة الجيش الثاني بالإسماعيلية.

ولذا فإن الأمر الذي يدعو إلى العجب أن يسجل الشاذلي في رده أن اللواء ١٥ المدرع تم سحبه من الشرق، وأنه في مساء يوم ٢٠ أكتوبر كان يتمركز شمال ترعة الإسماعيلية. لقد سبق أن ذكرت في شرحي أن القرار الذي أصدره اللواء أ.ح عبد المنعم خليل قائد الجيش الثاني يوم ١٧ أكتوبر بسحب اللواء ١٥ المدرع من رأس كوبري الفرقة ١٨ مشاة، بالقنطرة شرق إلى غرب القناة، والتمركز شمال مطار أبي صوير للعمل كاحتياطي في يد قائد الجيش الثاني شمال ترعة الإسماعيلية لم يتم تنفيذه ـ رغم أنه كان قرارا تكتيكيا صحيحا ـ فلقد اتصل الفريق أول أحمد إسماعيل القائد العام هاتفيا باللواء عبد المنعم وأبلغه بإلغائه لهذا القرار، وأصدر له تعليماته القاطعة بعدم سحب أي قوات من الشرق إلى الغرب وفقا لأوامر الرئيس.

وقد أردت في هذا الشرح أن أصحح للشاذلي هذ المعلومة الخاطئة التي نشرها في مذكراته بطريقة لا تمس شعوره، فقلت إنه يبدو أن الفريق الشاذلي لم يكن يعلم بإلغاء قرار سحب اللواء ١٥ المدرع وكان يعتقد أنه موجود غرب القناة. فقد ورد في الصفحة ٢٦٥ من مذكراته أثناء عرضه لموقف الجيش الثاني مساء يوم ١٩ أكتوبر مايلي: «في الغرب وشمال ترعة الإسماعيلية كان يوجد لواء مدرع»، وكنت على ثقة من أن الأخ سعد وهو الرجل الذكي اللماح سوف تكفيه هذه الإشارة الواضحة لكي يصحح ما ورد في مذكراته بشأن هذا اللواء المدرع. ولكني فوجئت بأنه ما يزال مصرا على ترديد نفس الخطأ الذي

وقع فيه من قبل ، فقد سجل في رده كما قرأنا ، أن اللواء ١٥ المدرع تم سحبه من الشرق ، وأصبح يتمركز شمال ترعة الإسماعيلية . ولا يسعني سوى أن أؤكد له للمرة الثانية أن اللواء ١٥ المدرع الذي كان يتولى قيادته العقيد أ . ح تحسين شنن كان متمركزا منذ عبر قناة السويس في ٧ أكتوبر وحتى وقف إطلاق النار في رأس كوبري الفرقة ١٨ مشاة ، في قطاع القنطرة شرق (أي شرق القناة) ، ولم يسحب مطلقا إلى الغرب . وإذا كان لديه أدنى شك في كلامي ، فإنني أنصحه بالاتصال بالأخ اللواء أ . ح تحسين شنن محافظ السويس حاليا لكي يتأكد بنفسه من صدق ودقة المعلومات التي ذكرتها له ، وليبادر بتصحيح ما ورد في مذكراته من أخطاء تتعلق بوضع هذا اللواء .

موقف اللواءين ١ و١٤ المدرعين

كانت الألوية المدرعة في قطاع الجيش الثاني شرق القناة ـ كما سبق أن أوضحنا ـ عبارة عن أربعة ألوية مدرعة ، هي اللواء ١٥ المدرع مستقل ، واللواءان ١ و١٤ المدرعان (من تشكيل الفرقة ٢١ المدرعة) ، واللواء ٢٤ المدرع (من تشكيل الفرقة ٢٣ مشاة ميكانيكية) .
وبعد انتهائنا من مناقشة ما جاء في رد الشاذلي عن اللواء ١٥ المدرع المستقل ، فسوف نقوم بمناقشة ما ورد في رده بشأن موقف اللواءين ١ و١٤ المدرعين ، كي ننتقل بعد ذلك إلى مناقشة موقف اللواء ٢٤ مدرع .

وقد ذكر الشاذلي في رده عن موقف اللواءين ١ و١٤ المدرعين ما يلي :

«إن القول بأن اللواء الأول واللواء ١٤ المدرع قد انخفض عدد الدبابات فيهما إلى ٣٠ دبابة هو مبالغة في تصوير موقف هذين اللواءين . وعموما فإن تقارير الموقف بالنسبة للوحدات المدرعة تتغير كل يوم وأحيانا تتغير كل ساعة . ويتوقف ذلك على نشاط العمليات الحربية ونشاط عمليات الإصلاح ، فقد يصل تقرير الموقف عن لواء مدرع بعد معركة من المعارك بأن عدد دبابة قد انخفض إلى أن أصبح ٢٠ دبابة ، ولكن بعد بضع ساعات أو بعد ٢٤ ساعة يأتي تقرير موقف آخر يذكر أن الدبابات الصالحة للعمليات قد ارتفع عددها إلى ٤٠ أو ٥٠ دبابة ، وذلك نتيجة إجراء الإصلاحات في الدبابات التي أصيبت بأعطال بسيطة» . ويهمني أن أوضح للشاذلي أنني لم أبالغ في تصوير موقف هذين اللواءين ، لأن عدد الدبابات الذي ذكرته لم يكن اجتهادا شخصيا من جانبي ، بل كان من واقع سجلات رسمية ، فإن الفريق الشاذلي بمجرد وصوله إلى قيادة الجيش الثاني بالإسماعيلية بعد ظهر يوم ١٨ أكتوبر حيث تولى زمام القيادة طلب من جميع قادة

التشكيلات والأسلحة المعاونة تقارير عن موقف الوحدات التابعة لهم. ومن واقع السجلات فإن التقرير الذي قدمه العميد أ.ح إبراهيم العرابي قائد الفرقة ٢١ المدرعة إلى الفريق الشاذلي شخصيا مساء يوم ١٨ أكتوبر كان مسجلا فيه أن عدد دبابات الفرقة ٢١ المدرعة هو ٣٤ دبابة وفقا للتفصيل التالي: اللواء الأول المدرع ١٦ دبابة ـ اللواء ١٤ المدرع ١٤ دبابة ـ الكتيبة المدرعة في اللواء ١٨ مشاة ميكانيكي ٤ دبابات. ويرجع السبب في انخفاض عدد دبابات الفرقة ٢١ المدرعة إلى هذا الحد إلى عوامل عديدة سبق إيضاحها بالتفصيل من قبل، ولا يسمح المجال الآن بسردها مرة أخرى، حتى لا نخرج عن خطنا الأساسي في الرد على الشاذلي إلى دروب فرعية.

أما قول الشاذلي بأن موقف الألوية المدرعة يتغير كل يوم، وأحيانا كل ساعة نتيجة لإجراء الإصلاحات في الدبابات، فرغم صحة هذه العبارة من الناحية النظرية، فإنها لم تكن تنطبق من الناحية الواقعية، على ما كان يجري في الألوية المدرعة المصرية، إذ إن عملية إصلاح الدبابات المصابة بأعطال لم تكن تتم على هذا المستوى المرتفع الذي ذكره الشاذلي في رده، لأسباب تتعلق بمدى توافر قطع الغيار، ومدى كفاءة وحدات الإصلاح والنجدة من الوجهة الفنية، علاوة على عامل مهم شديد التأثير، خاصة بالنسبة لدبابات وحدات الفرقة ٢١ المدرعة بالذات، وهو صعوبة إجراء عملية إصلاح الدبابات في أثناء فترات الاشتباك مع العدو، وتحت وطأة قصف مدفعيته (سواء الميدانية أو بعيدة المدى) ونيران دباباته وستائره المضادة للدبابات، وخاصة بعد وصول الصواريخ TOW الأمريكية الفتاكة عن طريق الجسر الجوي الأمريكي، هذا بالإضافة إلى غارات العدو الجوية المدمرة ليل نهار.

ومن سجلات الحرب، يتضح لنا أن رأس الكوبري الموحد الضيق شرق القناة، والذي كانت تتمركز فيه الفرقتان ١٦ مشاة و٢١ المدرعة، لم يكف العدو عن تركيز هجماته الضارية عليه برا وجوا منذ فجر يوم ١٥ أكتوبر، أي منذ اليوم التالي مباشرة لفشل عملية تطوير الهجوم على مستوى الجبهة مستهدفا من ذلك تنفيذ مخططه المرسوم، وهو عبور قواته إلى غرب القناة ليلة ١٥/ ١٦ أكتوبر من منطقة الدفرسوار، ثم محاولة توسيع ثغرة الاختراق شرق القناة في اتجاه الشمال إلى أقصى ما يمكنه لتأمين عملية العبور إلى الغرب. وهكذا لم تتمكن الفرقة ٢١ المدرعة تحت وطأة هذه الاشتباكات العنيفة والمستمرة ليل نهار مع العدو، من القيام بعملية إعادة التجميع المفترض القيام بها عقب الخسائر التي تكبدتها خلال عملية تطوير الهجوم شرقا، إلى الطاسة يوم ١٤ أكتوبر، والتي كان محددا لها يوم

١٥ أكتوبر وفقا لتعليمات قيادة الجيش الثاني، وبدأ منذ ذلك اليوم الخط البياني لعدد دبابات الفرقة في الهبوط بالتدريج، فبينما كان عدد دبابات اللواءين ١ و١٤ المدرعين صباح يوم ١٥ أكتوبر ١٢٠ دبابة وفقا للمراجع الرسمية، نجد أن هذا العدد قد هبط مساء يوم ١٨ أكتوبر إلى ٣٠ دبابة، أي هبط إلى الربع في أقل من أربعة أيام. وبينما كان عدد دبابات الكتيبة المدرعة باللواء ١٨ مشاة ميكانيكي ٣١ دبابة. هبط هذا العدد في نفس المدة إلى ٤ دبابات أي هبط إلى الثمن. ولا يعني هذا سوى أن الفرقة ٢١ المدرعة عند تحليل موقفها مساء يوم ٢٠ أكتوبر كان من الواجب اعتبار أنها قد فقدت كفاءتها القتالية بسبب ما لحق بها من خسائر فادحة في الدبابات. فكيف كان في الإمكان دفعها إلى غرب القناة لتواجه فرقة شارون المدرعة التي كانت متمركزة غرب القناة جنوب الإسماعيلية، والتي كانت تتكشل من لواءين مدرعين ولواء مشاة مظلات، ولم تكن دباباتها قد اشتبكت في أي معارك دبابات على نطاق واسع جنوب ترعة الإسماعيلية، لعدم وجود وحدات مدرعة تابعة للجيش الثاني جنوب الترعة بعد نجاح فرقة الجنرال إبراهام أدان في تدمير اللواء ٢٣ المدرع (من الفرقة ٣ مشاة ميكانيكية ومن الاحتياطي الإستراتيجي للقيادة العامة) صباح يوم ١٨ أكتوبر، مما كان يجعل عدد دبابات فرقة شارون يبلغ عدة أضعاف عدد دبابات الفرقة ٢١ المدرعة، علاوة على التفوق الجوي الساحق للعدو جنوب ترعة الإسماعيلية نظرا لنجاح العدو في تدمير معظم كتائب الصواريخ أرض جو سام المصرية في هذه المنطقة.

وإذا كان الشاذلي يريد مثالا آخر أكثر وضوحا، فعليه أن يتذكر ما حاق باللواء ٢٥ المدرع المستقل الذي دفع صباح ١٧ أكتوبر شرق القناة من رأس كوبري الفرقة ٧ مشاة بقطاع الجيش الثالث في الجنوب بمهمة تصفية ثغرة الاختراق بالدفرسوار في الشمال، وهي المهمة التي أطلق عليها الشاذلي في رده اسم «المهمة المجنونة»، والتي بسببها لم يتبق من دبابات هذا اللواء بعد المعركة جنوب الخط كثيب الحبشي ـ تل سلام سوى ٢١ دبابة [1]، وظل هذا اللواء بعد المعركة ثابتا لا يتغير حتى نهاية الحرب ـ أي لأكثر من أسبوع ـ دون أن يزيد دبابة واحدة، وإذا كان ذلك هو حال هذه الألوية المدرعة الثلاثة التي تعرضنا لها، فأين إذن الإصلاحات التي ترفع عدد دبابات اللواء المدرع من ٢٠ دبابة إلى ٤٠ أو ٥٠ دبابة بعد ٢٤ ساعة من المعركة؟! ونأمل أن يعطينا الشاذلي مثالا واحدا فقط لأي لواء

---

(١) كان من ضمنها سرية دبابات في موقع كبريت لم تشترك في المعركة.

مدرع شرق القناة على مستوى الجبهة بأكملها اشتبك في إحدى المعارك وتكبد خسائر كبيرة، ثم أمكن بفضل إجراء الإصلاحات رفع عدد دباباته من ٢٠ إلى ٥٠ أو إلى ما يعادل هذه النسبة التي تزيد على الضعف، كما ورد في المثال الذي ضربه لنا.

كيف تقاس قوة اللواء المدرع؟

اتبع الشاذلي عند تقديره لقوة اللواء المدرع معيارا خاصا لا يتفق مع المعايير المعمول بها في القوات المدرعة، فقد ذكر في رده بشأن هذا الموضوع ما يلي: «أضف إلى ذلك أن الدبابات وإن كانت هي السلاح الرئيسي في الوحدات المدرعة، إلا أن اللواء المدرع تدخل ضمن تنظيمه وحدات مقاتلة أخرى كثيرة. فلعلك تعلم يا جمال أن ضمن تنظيم اللواء المدرع سرية استطلاع، وسرية مهندسين، وكتيبة مشاة ميكانيكية، وكتيبة مدفعية ميدان، وكتيبة مدفعية مضادة للطائرات، ومع هذه الوحدات ١٢ عربة حاملة للصواريخ الموجهة المضادة للدبابات و١٢ مدفع ميدان و٢٤ مدفعا مضادا للطائرات وأكثر من ٦٠ قاذفا مضادا للدبابات قصير المدى، وتستخدم هذه الوحدات حوالي ٢٥٠ عربة أكثر من نصفها عربات مدرعة. ولا شك في أن هذه الوحدات قد تحملت هي الأخرى بعض الخسائر، ولكن من المؤكد أن خسائرها كانت أقل من خسائر الدبابات، وبالتالي فمن الخطأ إسقاطها من حسابنا». وقد أدهشني أن يصدر هذا القول من الفريق سعد الشاذلي نظرا لثقتي في غزارة معلوماته العسكرية ووفرة تجاربه العملية، فإن أول المبادئ التكتيكية التي تنبغي مراعاتها عند حساب قوة الألوية المدرعة في أثناء عقد عملية مقارنة القوات بيننا وبين العدو Coorrelation of Forces ألا ندخل في حسابنا ـ في حالة العمليات الهجومية ـ إلا الدبابات فقط، أي أن نضع الدبابة في مقابل الدبابة باعتبارها العنصر الرئيسي في الهجوم. أما في حالة العمليات الدفاعية، فينبغي أن نضيف إلى عدد الدبابات عددا من الأسلحة المضادة للدبابات ـ باعتبارها قدرة صد ـ ويتم ذلك وفقا لجدول حسابي معين يسجل فيه عدد القطع من كل سلاح مضاد للدبابات الذي يتم حسابه كدبابة، ويكون المعيار في ذلك هو أعيرة هذه الأسلحة ومرماها المؤثر. ولا يجوز أن ندخل في حسابنا، سواء في العمليات الهجومية أو الدفاعية، الوحدات الفرعية التي تدخل في تنظيم اللواء المدرع، مثل سرية المهندسين أو الاستطلاع أو كتيبة المدفعية أو الكتيبة المضادة للطائرات وخلافه، كما ذكر الشاذلي. ويبدو أن الأخ سعد قد خانته ذاكرته فيما يتعلق بأعداد بعض الأسلحة والعربات في وحدات اللواء المدرع. فإن اللواء المدرع

(سواء المستقل أو التابع للفرقة المدرعة) لا يوجد به سوى ٦ عربات حاملة للصواريخ فقط، ولا توجد ١٢ عربة سوى في الألوية المدرعة التابعة للفرق المشاة الميكانيكية، كما أن كتيبة المدفعية المضادة للطائرات لا تضم سوى ٨ مدافع مضادة للطائرات (محملة على شاسيهات دبابات) وجماعة صواريخ سام٧ (ستريلا) وبالتالي لا يوجد بها ٢٤ مدفعا مضادا للطائرات كما ذكر الشاذلي، إذ لا يمكن حساب الرشاشات المحملة على عربات لواري من عيار ٧,١٢ م و٥,١٤ م على أنها مدافع مضادة للطائرات، فقد كانت تستخدم لمجرد الوقاية المحلية ضد الطائرات المنقضة. لكنها كانت بالطبع عديمة الجدوى في مواجهة الطائرات النفاثة المتطورة من طراز فانتوم وميراج وسكاي هوك.

كذلك لا يدخل ضمن تسليح اللواء المدرع أكثر من ٦٠ قاذفا مضادا للدبابات قصير المدى، كما ذكر الشاذلي، فإن هذه الأسلحة المضادة للدبابات القصيرة المدى لا تسلح بها إلا كتيبة المشاة الميكانيكية باللواء المدرع والتي يوجد بها ٢٧ قاذفًا آر بي جي ٧ (بمعدل قاذف واحد في كل جماعة) وكذا ١٠ مدافع ب ١٠ وب ١١، مما يجعل عددها الإجمالي ٣٧ قاذفا فقط، وليس أكثر من ٦٠ قاذفا كما قرأنا في الرد. وقد بالغ الشاذلي كذلك في عدد عربات اللواء المدرع عندما ذكر أنها ٢٥٠ عربة، وبلغت المبالغة ذروتها عندما قال إن أكثر من نصفها عربات مدرعة، أي أنه يوجد باللواء المدرع أكثر من ١٢٥ عربة مدرعة. والحقيقة أن كل العربات المدرعة الموجودة في اللواء المدرع لايزيد عددها على ٤٥ عربة مدرعة (يشمل هذا العدد العربات المدرعة ذات الجنزير بالكتيبة المشاة الميكانيكية والعربات المدرعة ذات العجل ببعض الوحدات الفرعية، وكذا عربات مراكز القيادة). كذلك لا نستطيع أن نؤيد تأكيدات الشاذلي بأن خسائر الوحدات الفرعية في الألوية المدرعة كانت أقل من خسائر الدبابات، إذ مادام اللواء المدرع مشتبكا في معركة، فإن نسبة الخسائر تكون متوازنة تقريبا سواء في كتائب الدبابات أو في كتيبة المشاة الميكانيكية أو في الوحدات الفرعية الأخرى التي يضمها اللواء. ويرجع السبب في ذلك إلى أن تشكيل القتال الذي يتحرك فيه اللواء المدرع، ويشتبك به بعد ذلك في المعركة لا تنفصل فيه الدبابات عن باقي الوحدات الفرعية، إذ إن جميع العناصر القتالية في اللواء المدرع تكون موزعة ومندمجة بعضها مع بعض في هذا التشكيل القتالي، وبالتالي يخضع الجميع لنفس ظروف المعركة، ويتعرضون لنفس النسبة من الخسائر.

وأحيانا تتحمل بعض الوحدات الفرعية نسبة أثقل من الخسائر نظرا لخفة تدريعها ولنقص قدراتها على الحركة والمناورة بالقياس إلى الدبابات من جهة، ومن جهة أخرى،

لأن طيران العدو يركز عادة هجماته الجوية على بعض هذه الوحدات مثل الكتيبة المضادة للطائرات وكتيبة مدفعية الميدان، لحرمان اللواء المدرع من معونتهما في أثناء المعركة الرئيسية، كما جرى في أثناء تقدم اللواء الثالث المدرع في اتجاه ممر متلا في عملية تطوير الهجوم شرقًا يوم ١٤ أكتوبر، وكما حدث في أثناء تقدم اللواء ٢٥ المدرع المستقل شمالا في اتجاه الدفرسوار يوم ١٧ أكتوبر. ولعل الأخ الشاذلي يذكر أن تقارير الموقف التي قدمها إليه قادة التشكيلات بالجيش الثاني مساء يوم ١٨ أكتوبر بناء على طلبه عندما تولى قيادة هذا الجيش، لم يسجلوا فيها بالنسبة للوحدات المدرعة التي تحت قيادتهم سوى عدد دبابات هذه الوحدات فقط، ولم يرد ذكر لأي وحدات فرعية أخرى ضمن هذه التقارير، ولم نسمع أنه أبدى أي اعتراض على ذلك.

كيف استعاضت إسرائيل خسائرها في الدبابات؟

أثار الشاذلي في القسم الأول من رسالته موضوعا مهما يستحق أن نشرح تفاصيله للقراء، وهو الوسيلة التي كانت تتبع لاستعاضة الألوية المدرعة الإسرائيلية خسائرها في الدبابات في المرحلة الأخيرة من الحرب، أي عقب العبور الإسرائيلي ليلة (١٥/ ١٦) أكتوبر إلى الضفة الغربية للقناة. فلقد ورد في رده بأنني ذكرت بأن عدد دبابات اللواءين المدرعين اللذين تتكون منهما فرقة الجنرال كلمان ماجن قد انخفض إلى (٥٠) دبابة قبل أن يندفع بهما إلى الجنوب يوم ٢٣ أكتوبر ويحتل ميناء الأدبية ويكمل حصار الجيش الثالث. والأمر الذي ينبغي إيضاحه أنه رغم الخسائر الكبيرة التي كانت الألوية المدرعة الإسرائيلية تتكبدها (سواء من تشكيل فرقة أدان أو فرقة ماجن) خلال اندفاعها السريع جنوبا على الضفة الغربية للقناة بهدف إحكام الحصار حول مدينة السويس والجيش الثالث، فإنها لم تكن تلبث أن تعود بعد وقت قصير إلى ما يقرب من حجمها التنظيمي الكامل، لا بفضل وحدات الإصلاح والنجدة الإسرائيلية التي كانت تقوم بإصلاح الدبابات المصابة بأعطال - رغم المستوى الفني المرتفع الذي أظهرته في المرحلة الأولى من الحرب - وإنما بفضل تدفق الدبابات الأمريكية عبر الجسر الجوي الذي بدأت طائراته في الوصول إلى مطار اللد بإسرائيل منذ يوم ١٤ أكتوبر ٧٣.

وكانت الدبابات الأمريكية الصنع من طراز M 60 تنقل من القواعد الجوية الأمريكية على طائرات النقل العملاقة من طراز جالاكسي ٥، وبعد إنزالها في مطار اللد يتم نقلها

بواسطة طائرات نقل من طراز هيروكليز إلى مطار العريش رأسا، وبعد أن توضع عليها في مطار العريش علامات الجيش الإسرائيلي تنطلق الدبابات الجديدة، على جنازيرها إلى ميدان القتال مباشرة. ولإتمام عملية نقل الدبابات من مطار اللد إلى مطار العريش تمت إعارة (١٢) طائرة هيروكيليز أمريكية إلى الجيش الإسرائيلي. ونتيجة هذا السيل الذي لا ينضب من الدبابات الأمريكية الجديدة أصبحت الألوية المدرعة الإسرائيلية لا يقتصر الأمر على استعاضتها لخسائرها فحسب، بل وأيضا كانت تزود بطراز من الدبابات أحدث من حيث الإنتاج وأفضل من ناحية المزايا والمعدات المتطورة من دباباتها القديمة التي دمرت أو أصيبت بأعطال، ولذا استمرت في مواصلة عملياتها الهجومية في سرعة وكفاءة عاليتين. وقد ثبت من معاينة بعض الدبابات الإسرائيلية التي وقعت في أيدي القوات المصرية غرب القناة أن العداد الخاص بقياس المسافات في معظمها لم يسجل أكثر من ٢٠٠ كيلو متر، أي ما يوازي المسافة تقريبا بين العريش والضفة الغربية لقناة السويس. وكان ذلك يجري في الوقت الذي لم تكن تسنح فيه الفرصة للوحدات المدرعة المصرية لاستعاضة خسائرها في الدبابات بعد المعارك العنيفة التي خاضتها لكي تعود مرة أخرى إلى ما يقارب حجمها التنظيمي حتى يمكنها استعادة كفاءتها القتالية، إذ إن مخازن القوات المسلحة لم تكن تحوي دبابات احتياطية، كما إن الاتحاد السوفيتي لم يمد مصر خلال الحرب عن طريق الجسر البحري السوفيتي بأي دبابة لاستعاضة خسائرها. بل إن جميع الدبابات التي أرسلت من ميناء أوديسا على البحر الأسود كانت تتجه بها سفن النقل السوفيتية إلى ميناء اللاذقية السوري، نظرا للخسائر الثقيلة التي تكبدتها القوات السورية في معارك الجولان. وكان هذا الموقف سببا في مهاجمة الرئيس الراحل السادات للاتحاد السوفيتي عقب انتهاء الحرب.

هل كان في الإمكان سحب اللواء ٢٤ المدرع؟

لم تواجه أي فرقة من الفرق المشاة المصرية الخمس التي عبرت القناة يوم ٦ أكتوبر موقفًا أقسى من ذلك الموقف الذي واجهته الفرقة ١٦ مشاة منذ بدأ العبور الإسرائيلي ليلة ١٥/ ١٦ أكتوبر ٧٣ إلى غرب القناة، فإن وقوع ثغرة الاختراق الإسرائيلية في الدفرسوار على جنبها الأيمن مباشرة جعلها هدفا للهجمات الإسرائيلية الشرسة سواء الأرضية أو الجوية، إذ إن الخطة الإسرائيلية لتأمين عملية العبور الإسرائيلي إلى الغرب كانت تقضي

بتوسيع ثغرة الاختراق شمالا إلى حوالي ٥ كيلو مترات في بادئ الأمر، ضمانا لعدم تعرض المعابر في الدفرسوار لنيران الأسلحة الصغيرة والهاونات.

وقبل أن يبدأ العبور الإسرائيلي إلى الغرب، كان رأس كوبري الفرقة ١٦ مشاة يضم داخله - بالإضافة إلى وحدات هذه الفرقة - وحدات الفرقة ٢١ المدرعة أيضا. فعلى أثر فشل عملية تطوير الهجوم شرقا يوم ١٤ أكتوبر، صدرت أوامر القيادة العامة ببقاء الفرقة ٢١ المدرعة في رأس كوبري الفرقة ١٦ مشاة، وأصبح يطلق عليه اسم رأس الكوبري الموحد.

ونتيجة للضغط الإسرائيلي المركز على الجنب الأيمن للفرقة ١٦ مشاة لتوسيع ثغرة الاختراق شمالا، اضطر لواء اليمين اللواء ١٦ مشاة إلى إخلاء مواقعه ليلة ١٧/١٨ أكتوبر، واضطرت وحدات الفرقة ٢١ المدرعة التي كانت تشترك في صد هجمات العدو المدرعة على الجانب الأيمن لرأس الكوبري، إلى الارتداد شمالا لتحتل مواقع دفاعية شمال المغذى الرئيسي بعد نجاح العدو في الاستيلاء على قرية الجلاء (المزرعة الصينية)، وأسندت إلى الفرقة ٢١ المدرعة نتيجة للأوضاع الجديدة مهمة حماية الجنب الأيمن للفرقة ١٦ مشاة، وكذا مهمة منع العدو من توسيع ثغرة اختراقه شمالا.

ورغم المحاولات المتكررة التي بذلت من القيادة العامة المركز (١٠) ومن قيادة الجيش الثاني لتصفية ثغرة الاختراق في الدفرسوار شرق القناة واسترداد قرية الجلاء، عن طريق قيام وحدات من الفرقة ٢١ المدرعة بهجمات مضادة على مواقع العدو، فإن كل هذه المحاولات قد باءت بالفشل نظرا للتفوق الساحق الذي كان العدو يحرزه في قواته المدرعة وفي سلاحه الجوي، مما أدى إلى إلحاق خسائر جسيمة بالفرقة ٢١ المدرعة. وانتهى الأمر باحتلال وحدات الفرقة موقعا دفاعيا قويا على الخط سرابيوم (حوالي ٥ كيلو مترات شمال الدفرسوار) - ولكن ثغرة الاختراق الإسرائيلية شرق القناة لم تلبث أن اتسعت لسبب لم يكن متوقعا. فعلى أثر انسحاب اللواء ١٨٢ مظلات غرب القناة تحت ضغط العدو من مواقعه في سرابيوم إلى طوسون شمالا يوم ١٩ أكتوبر، أصدر الفريق الشاذلي - الذي كان يتولى قيادة الجيش الثاني وقتئذ - أمره إلى العميد العرابي قائد الفرقة ٢١ المدرعة والذي عهدت إليه من قبل مسئولية قيادة رأس الكوبري الموحد، بالارتداد شمالا من الخط سرابيوم إلى الخط طوسون لتتحاذى مواقعه شرق القناة مع مواقع لواء المظلات على الضفة الغربية للقناة. واتسعت ثغرة الاختراق شرق القناة نتيجة لذلك لتصبح ١٠ كيلو مترات، وتقلص رأس الكوبري الموحد تقلصا خطيرا، وأصبحت الفرقتان ١٦ مشاة و٢١ المدرعة

محشورتين في رأس كوبري ضيق ومعرض لنيران العدو من جميع الجهات ولغاراته الجوية المدمرة، وازدادت تبعا لذلك نسبة خسائر الفرقتين في الأفراد والأسلحة والمعدات. ومن تقارير الموقف التي تلقاها الفريق الشاذلي من قادة التشكيلات حوالي الساعة الخامسة مساء يوم ١٨ أكتوبر عقب وصوله إلى قيادة الجيش الثاني، اتضح له أن عدد دبابات الفرقة ٢١ المدرعة قد هبط إلى ٣٤ دبابة، وأن الفرقة ١٦ مشاة قد هبط عدد الدبابات التي ضمن تشكيلها العضوي إلى ٣٧ دبابة.

وكان اللواء أ. ح عبد المنعم خليل قائد الجيش الثاني - نتيجة لتدهور الموقف في رأس الكوبري الموحد وارتفاع معدل الخسائر في الدبابات - قد أصدر أمره يوم ١٧ أكتوبر، بتحرك كتيبة مدرعة من اللواء ٢٤ المدرع الذي كان متمركزا في قطاع الفرقة ٢ مشاة بالفردان منذ بداية الحرب إلى رأس الكوبري الموحد لتدعيمه. وفي يوم ١٨ أكتوبر أمر اللواء عبد المنعم بتحرك باقي اللواء ٢٤ المدرع إلى منطقة شمال غرب الطالية داخل رأس الكوبري. وكانت المهمة التي تلقاها العقيد أ. ح نيازي الشيمي قائد اللواء ٢٤ المدرع (٦٧دبابة) هي الاستعداد للقيام بهجوم مضاد لتدمير العدو في حالة نجاحه في اختراق رأس الكوبري واستعادة الأوضاع الدفاعية إلى ما كانت عليه. ورغم وجود ثلاثة ألوية مدرعة داخل رأس الكوبري الموحد(١، ١٤، ٢٤) فإن الاعتماد الحقيقي في عملية صد الاختراق في هذه المرحلة كان مركزا على اللواء ٢٤ المدرع، فقد بدأت قيادة الجيش الثاني - نتيجة لفقد اللواءين ١ و١٤ المدرعين لكفاءتهما القتالية - في إرسال أفرادهما بالتدريج (بدون دبابات) إلى غرب القناة للانضمام إلى قيادة الفرقة ٢١ المدرعة التي صدرت الأوامر يوم ٢١ أكتوبر بتمركزها غرب القناة في منطقة تقاطع عثمان أحمد عثمان، للقيام بعملية إعادة تجميع وتسليح الفرقة بالدبابات والمعدات الجديدة لاستعادة كفاءتها القتالية.

وعلى الرغم من نقل العدو معظم قواته المدرعة إلى غرب القناة، فإن القيادة الجنوبية الإسرائيلية كان لديها التصميم والإصرار على ضرورة الاستيلاء على مواقع الفرقة ١٦ مشاة (كانت تطلق عليها الاسم الكودي ميسوري) بهدف توسيع ثغرة الاختراق شمالا كي تصل إلى الطريق الأوسط (طريق الإسماعيلية شرق - الطاسة) على الحد اليمين للفرقة ٢ مشاة. ولهذا الغرض أمرت القيادة الإسرائيلية باستبقاء لواءين مدرعين من فرقة شارون على مواجهة الفرقة ١٦ مشاة (لواء العقيد آمنون ولواء العقيد توفيا)، ولكن شارون الذي كان يتوق إلى الاستيلاء على الإسماعيلية ألح على قيادته لإمداده بلواء آمنون على اعتبار أن موقع ميسوري من الضعف بحيث يكفي لواء مدرع واحد لاختراقه، فأمر الجنرال

بارليف بعبور لواء آمنون إلى الغرب على أن يترك كتيبة مدرعة من لوائه في الشرق لتنضم إلى لواء توفيا عند هجومه على الموقع المصري .

والأمر الذي يبعث على الدهشة ، هو أن الفريق سعد الشاذلي رغم علمه بالطبع بكل هذه الحقائق التي ذكرناها بحكم منصبه كرئيس للأركان ، فإنه ما يزال مصرا على أن اقتراحه مساء يوم ٢٠ أكتوبر بسحب الألوية المدرعة الثلاثة ١ ، ١٤ ، ٢٤ من رأس كوبري الفرقة ١٦ مشاة كان اقتراحا سليما . وحتى ننهي النقاش في هذه المسألة فإنني سأفترض أن القيادة العامة قد أخذت باقتراح الشاذلي وأصدرت أمرها بسحب الألوية المدرعة الثلاثة من رأس كوبري الفرقة ١٦ مشاة . وفي ظل هذا الوضع الجديد فإنني أوجه إلى الأخ سعد الأسئلة الثلاثة التالية :

١ ـ هل كان في مقدرة الفرقة ١٦ مشاة التي كانت تتكون من لواءين فقط (أحدهما مشاة والثاني مشاة ميكانيكي) وليس لها تدعيم من الدبابات سوى ٣٧ دبابة انخفض عددها بالطبع منذ مساء يوم ١٨ أكتوبر إلى ٣٠ دبابة على أحسن الفروض أن تصد هجوما مدرعا تقوم به القوة الإسرائيلية التي تواجهها ، والتي كانت تتكون من لواء مدرع وكتيبة مدرعة عدد دباباتهما لا تقل عن ١٢٠ دبابة ، أي أن نسبة التفوق تبلغ ٤ إلى ١ لصالح العدو ؟

٢ ـ ألم يحدث خلال وجودك في قيادة الجيش الثاني بالإسماعيلية في المدة من (١٨ إلى ٢٠) أكتوبر أنك أجريت محادثة هاتفية مع اللواء الجمسي رئيس هيئة العمليات الذي كان بالمركز (١٠) بالقاهرة في الساعة السابعة مساء يوم ١٨ أكتوبر قلت له خلالها بالنص : «نحن نريد منع موقف عبد ربه ـ تقصد الفرقة ١٦ مشاة ـ من الانهيار؟» . ثم ألم تقل له في محادثة هاتفية أخرى جرت بينكما في حوالي الساعة الخامسة مساء يوم ١٩ أكتوبر بالنص : «عشان تعرف موقف عرابي فإن عدد الدبابات في رأس كوبري الفرقتين ١٦ مشاة و٢١ مدرعة يبلغ ٨٠ دبابة يدويك يستطيع التمسك برأس الكوبري»؟

أي أنك تعرف في المحادثة الهاتفية الأولى بسوء الموقف التكتيكي للفرقة ١٦ مشاة إلى الحد الذي أصبحت تخشى معه انهيارها . كما تعترف في المحادثة الهاتفية الثانية بأن عدد ٨٠ دبابة هو الحد الأدنى لإمكان التمسك برأس الكوبري ، وذلك يعني أنه في حالة نقص العدد عن ذلك فإن رأس الكوبري يصبح معرضا للسقوط .

٣ ـ ألم يقم العدو بعد ظهر يوم ٢١ أكتوبر بهجوم على رأس كوبري الفرقة ١٦ مشاة بكتيبتين من الدبابات، ورغم وجود الألوية المدرعة الثلاثة ودبابات الفرقة ١٦ مشاة والتي لم يكن يقل عددها جميعا عن ١٣٠ دبابة، فإن دبابات العدو تمكنت من اختراق رأس الكوبري والاستيلاء على قلب الموقع الدفاعي عند الطالية التي كان يقع بجوارها مركز قيادة الفرقة ١٦ مشاة، وبفضل وجود هذه القوة المدرعة المصرية الكبيرة داخل رأس الكوبري أمكن القيام بهجوم مضاد قوي، مما أدى إلى استرداد الطالية وطرد العدو؟ والسؤال الآن لو كان هذا الهجوم قد جرى على الفرقة ١٦ مشاة وحدها بدون وجود دبابات الألوية المدرعة الثلاثة ١، ١٤، ٢٤، هل كان لديك أدنى شك يا أخ سعد في أن رأس كوبري الفرقة ١٦ مشاة كان سيسقط كالثمرة الناضجة في يد العدو؟

موقف اللواء ٢٢ المدرع

تناول الفريق سعد الشاذلي في رده موضوع سحب اللواء ٢٢ المدرع من قطاع الجيش الثالث، فقال بالحرف: «لقد جاء جمال حماد بسبب غير مقبول لتبرير عدم إمكان سحبه من الشرق. لقد قال إنه كان يعمل كاحتياطي في يد قائد الجيش الثالث، ونحن نقول له: احتياطي ضد من؟ ما قوة العدو التي كانت في مواجهة الجيش الثالث في شرق القناة؟ بل ما كل قوات العدو التي كانت في مواجهة الفرق المشاة المصرية الخمس مساء يوم ٢٠ أكتوبر؟ وهل كانت هذه القوات المعادية تشكل أي خطورة على مواقع قواتنا في الشرق»؟

وعلى الرغم من أن الأخ الشاذلي قد صاغ هذه العبارات ببراعة بحيث تبدو للقارئ غير المتخصص أنها حقائق لا تقبل الجدل أو النقاش، فإنها في واقع الأمر تمثل خرقا واضحا للمبادئ التكتيكية الأساسية. فإن القاعدة العامة التي لا بد أن يلم بها كل قائد هو أنه لا يجوز له القيام بأي عملية حربية سواء كانت دفاعية أو هجومية دون أن يخصِّص لها احتياطي، يكون لديه المقدرة على التدخل في الزمان والمكان المناسبين من أجل استعادة الموقف في حالة الدفاع ولاستغلال النجاح في حالة الهجوم. إن أول الدروس التي يتلقاها الدارسون في كلية القيادة والأركان عندما يدرسون الأسلوب الصحيح لعمل أي تقدير للموقف، هو ألا يعتمدوا على أن العدو سوف يتبع أحد الحلول الثلاثة التي استنبطوها

والتي جرت العادة على وضعها في خانة طرق الحل المفتوحة أمام العدو، إذ إن تجارب الحروب قد أثبتت أن العدو غالبا ما يتبع الحل الرابع. وبمعنى أوضح: إن العدو لن يتبع واحدا من الحلول المنطقية الثلاثة التي تعبوا في استنباطها، إنما سيتبع حلا آخر لم يخطر لهم على بال، ربما لفرط غرابته ومجافاته للمنطق، وربما لقصور تفكيرهم عن الاهتداء إليه. ويدل ذلك على أن أي قائد مهما بلغت درجة براعته يتعذر عليه أن يعرف مقدما الخطة التي سيتبعها العدو الذي في مواجهته، ولذا فإن الوسيلة الوحيدة لمجابهة الاحتمالات غير المحسوبة والتصدي للمواقف غير المتوقعة هي تكوين احتياطي كاف في يد القائد في جميع مراحل المعركة.

لقد صدمتني العبارة التي ذكرها الشاذلي في رده وهي «احتياطي ضد من؟» فلقد كنت أعتقد أن الشاذلي هو آخر من يقول هذه العبارة بعد أن عاش بنفسه التجربة المريرة، بل المفجعة التي تعرضت لها قواتنا في المرحلة الأخيرة من حرب أكتوبر، على أثر العبور الإسرائيلي إلى غرب القناة ليلة ١٥/ ١٦ أكتوبر، والذي كان العامل الرئيسي في نجاحه بهذه الصورة المذهلة التي فاقت كل أحلام إسرائيل يرجع إلى خلو الضفة الغربية في قطاع الجيش الثاني جنوب ترعة الإسماعيلية من أي احتياطي، بعد أن تم دفع الفرقة ٢١ المدرعة ـ الاحتياطي التعبوي للجيش الثاني ـ إلى شرق القناة للقيام بالعملية التي جلبت أفدح النكبات على قواتنا، وهي عملية تطوير الهجوم شرقا يوم ١٤ أكتوبر.

إن الخطأ القاتل الذي وقعت فيه القيادة العامة وهيئة عملياتها أنها لم تبادر إلى تكوين احتياطي قوي جديد على الضفة الغربية ليحل محل الفرقة ٢١ المدرعة، وليعهد إليه بنفس المهام التي كانت مكلفة بها بمجرد دفع هذه الفرقة إلى الشرق.

وكان السبب في ذلك هو تصور خاطئ من المسئولين بالقيادة، وهو أن العدو بعد نجاح عبور قواتنا وتحطيم خط بارليف وانسحابه في اتجاه الشرق لا يمكن أن يخطط لعبور القناة إلى الغرب. إن انتقال اللواء ١١٦ مشاة ميكانيكي (من الفرقة ٢٣ مشاة ميكانيكية) من شمال ترعة الإسماعيلية إلى منطقة تقاطع عثمان أحمد عثمان جنوب الترعة لا يمكن اعتباره سدا حقيقيا للفراغ الذي تركته الفرقة ٢١ المدرعة غرب القناة، ولا يمكن أن يعد تكوينا صحيحا لاحتياطي تعبوي جديد، إذ إن اللواء ١١٦ مشاة ميكانيكي لم تكن لديه لا القوة ولا الإمكانات ولا الدراية بالأرض التي سيعمل عليها أو بالمهام التي أسندت إليه. ولذا كانت النتيجة المحتومة أنه عجز عن التصدي للعبور الإسرائيلي إلى غرب القناة ـ

حتى في مرحلته الأولى عندما كانت القوات الإسرائيلية التي عبرت في أضعف حالاتها ـ وعلى العكس من ذلك وقع اللواء الميكانيكي في عدة كمائن وأصيب بخسائر فادحة ، مما أفقده كفاءته القتالية .

إن التساؤل الذي طرحه الأخ الشاذلي في رده عن قوة العدو التي كانت في مواجهة الجيش الثالث ، والذي بدت في ثناياه نبرة من التهكم حينما قال : «بل ما كل قوات العدو التي كانت في مواجهة الفرق المشاة المصرية الخمس مساء يوم ٢٠ أكتوبر؟» يدل دلالة واضحة على أن درس العبور الإسرائيلي إلى غرب القناة ـ رغم قسوته ـ لم يأت بثماره ، إذ كيف تجوز الاستهانة بقوة العدو شرق القناة بهذا الشكل لمجرد أنه دفع بثلاث فرق مدرعة إلى غرب القناة؟ إن قوة العدو شرق القناة لم تكن على هذا المستوى من الضعف كما كان الشاذلي متصورا . وسوف نوضح ذلك فيما بعد عندما نقوم بعقد مقارنة بين قواتنا وقوات العدو شرق القناة وغربها .

وبهذه المناسبة أود أن أوجه نظر الشاذلي إلى أمر مهم ربما يكون قد غاب عن ذهنه ، وهو أن الفكرة التي كان يقترح تنفيذها مساء يوم ٢٠ أكتوبر بسحب الألوية المدرعة من الشرق إلى الغرب كان يمكن للعدو أيضا التفكير في تنفيذها ولكن في عكس الاتجاه بالطبع ، أي قد يفكر في سحب بعض وحداته المدرعة من غرب القناة إلى الشرق ، مما قد يؤدي إلى مضاعفة حجم قواته شرق القناة في فترة قصيرة وكانت الفرصة أمامه مواتية ، والظروف ميسرة ، فقواته الجوية تسيطر على سماء المعركة وجسوره الثلاثة الممتدة عبر القناة عند الدفرسوار قائمة ليل نهار ولا حاجة له لفكها نهارا وإخفائها كما كنا نفعل بفضل تفوقه الجوي .

ولقد أثبتت الوقائع أن الجنرال جونين قائد القيادة الجنوبية أراد تنفيذ هذه الفكرة بالفعل وأصدر أمرا إلى الجنرال شارون صباح يوم ٢١ أكتوبر بوقف تقدمه في الغرب في اتجاه الإسماعيلية ونقل قوة مدرعة من فرقته إلى شرق القناة لمعاونة القوات التي تهاجم رأس كوبري الفرقة ١٦ مشاة . وقد سبق شرح هذا الموضوع بالتفصيل في نهاية الفصل العاشر .

كيف كان يمكن إذن استبعاد هذا الاحتمال ، خاصة إذا ما عرف العدو ـ نتيجة لاستطلاعه ـ أن الضفة الشرقية قد خلت من الألوية المدرعة المصرية؟ إن من الخطورة بمكان ـ كما أثبتت تجارب الحروب ـ الاستهانة بقوة العدو في أي مكان بالجبهة أو أن نعتبر أن

الأوضاع الظاهرة أمامنا للعدو هي الأوضاع النهائية التي لن يحدث بعدها تغيير. ولقد دفعت قواتنا ثمنا غاليا يا أخ سعد نتيجة للتصور الخاطئ في القيادة العامة بأن مواقع العدو شرق رءوس الكباري المصرية هي أوضاعه النهائية التي لا تغيير بعدها. وكانت المأساة الكبرى حينما اكتشفتم فجأة وبدون سابق إنذار أن قوات العدو التي كنتم تظنونها بعيدة في الشرق قد عبرت القناة إلى الغرب، بل وأصبحت موجودة ومنتشرة وسط مواقع قواتنا.

مقارنة القوات

إن العبارات التي وصف بها الأخ الشاذلي موقف قوات العدو شرق القناة توحي لمن يقرؤها أن الفرق المشاة المصرية الخمس لم يكن في مواجهتها مساء يوم ٢٠ أكتوبر عدو له أي قيمة أو لديه أي مقدرة قتالية، ولذا فإن السؤال الذي قد يوجه إلى الشاذلي باعتباره كان رئيسا للأركان في ذلك الوقت: لماذا لم يستغل الفرصة ليأمر الفرق المشاة الخمس، وكانت ما تزال مدعمة بألويتها المدرعة، بتطوير هجومها شرقا للوصول إلى الطريق العرضي ٣ على بعد حوالي ٣٠ كم شرق القناة، وبذا يغلق على الفرق المدرعة الإسرائيلية الثلاث غرب القناة طرق إمداداتها البرية ويقطع خطوط مواصلاتها ويعزلها تماما عن قواعدها في الشرق؟! لقد كان الوصول إلى الطريق العرضي ٣ هو هدف عملية تطوير الهجوم شرقا يوم ١٤ أكتوبر، وكان من أهم أسباب فشل العملية هي قوة دفاعات العدو التي كانت تواجه وقتئذ قوات الهجوم المصرية، ولكن مادام الموقف قد تغير وأصبح الطريق خاليا والخطورة على مواقعنا قد زالت ـ كنص عبارة الشاذلي الاستفهامية التي يقصد منها تقرير الواقع، فلماذا لم يفكر في إعادة المحاولة من جديد؟!

نعود بعد ذلك لمناقشة اقتراح الشاذلي بسحب جميع الألوية المدرعة من الشرق إلى الغرب من جهة حساب عامل الوقت والمسافة. وسوف تتضح لنا مدى صعوبة هذه العملية إذا ما تصورنا ما يتطلبه تنفيذها من تحركات وإجراءات وتحضيرات، إذ إنها في الواقع تشمل ثلاث مراحل معقدة ومتداخلة فيما بينها: الأولى مرحلة التحركات شرق وغرب القناة، والثانية مرحلة إعادة التجميع غرب القناة لإعادة تنظيم الوحدات وتزويدها بالأسلحة والمعدات لاستعادة كفاءتها القتالية. أما المرحلة الثالثة، فهي مرحلة إجراءات تنظيم المعركة قبل الاشتباك بالعدو. ولا أجد المجال مناسبا للدخول في تفاصيل هذه المراحل الثلاث، إذ إنها تحتاج إلى ذكر تفاصيل فنية كثيرة لا حاجة بالقراء إليها، ولكن من

الضروري أن نذكر أن هذه المراحل بجميع خطواتها المتتابعة المتشابكة سوف تجري كلها في ظل تفوق جوي معاد، وتحت وطأة التهديد الذي يشكله وجود ثلاث فرق مدرعة إسرائيلية على الضفة الغربية للقناة. ولم يكن في الإمكان تنفيذ مثل هذه العملية الضخمة إلا بعد إنشاء قيادة خاصة لتتولى قيادة جميع القوات المصرية على الضفة الغربية، التي ستشترك في تصفية الثغرة على غرار القيادة التي تم إنشاؤها بعد ذلك عقب وقف إطلاق النار، وهي تلك التي تولى قيادتها اللواء أ. ح سعد مأمون يوم ١٣ ديسمبر ٧٣. وقد سميت الخطة التي وضعت لتصفية الثغرة وقتئذ باسم الخطة شامل، وقد احتاج اللواء سعد مأمون إلى خمسة أيام كاملة لمجرد مراجعة الخطة وتدقيقها وإدخال التعديلات اللازمة عليها. ولذا لم يتم تصديق القائد العام الفريق أول أحمد إسماعيل على الخطة شامل إلا يوم ١٨ ديسمبر ٧٣.

ومن هذا العرض الموجز، يتضح لنا أن الأخذ باقتراح الأخ الشاذلي بسحب جميع الألوية المدرعة من شرق القناة إلى الغرب، كان يحتاج إلى جهود شاقة وإجراءات مضنية وحسابات دقيقة وفترة زمنية طويلة لا تقل عن خمسة أيام على أحسن الفروض، مما كان يجعل هذا الاقتراح ـ علاوة على عيوبه الأخرى التي ذكرناها ـ مخاطرة كبرى دون أن تكون له نتيجة سريعة وحاسمة من الناحية العملية، لأنه لم يكن في الإمكان التكهن بالإجراءات المضادة التي سيقوم العدو باتخاذها لإفشال عملية سحب الألوية المدرعة من جهة، ولاستغلال فرصة خلو الضفة الشرقية من هذه الألوية المدرعة من جهة أخرى.

إن المعلومات الصحيحة المستقاة من المراجع الموثوق بصحتها والتي برهنت الوقائع والأحداث على صدقها أن العدو استطاع أن يحشد أمام الجبهة المصرية ١٠ ألوية مدرعة. ففي شرق القناة كانت له فرقتان مختلطتان بكل منهما لواء مدرع، كانتا تشغلان المواجهة من البحر المتوسط شمالا حتى الشط جنوبا أمام رءوس الكباري المصرية.

ونظرا لأن فرقة شارون كانت تتكون من ٣ ألوية مدرعة وألحق به قبل عبوره إلى الغرب لواء مظلات بقيادة العقيد داني مات، فقد ترك شارون قبل إتمام عبوره إلى الغرب لواء مدرعا بقيادة العقيد توفيا أمام مواجهة الفرقة ١٦ مشاة وفقا لتعليمات القيادة الجنوبية، وبذا يكون لإسرائيل على الضفة الشرقية للقناة ٣ ألوية مدرعة بخلاف ألوية أخرى مختلطة من المشاة والمشاة الميكانيكية. وفي نفس الوقت كان لإسرائيل غرب القناة ٧ ألوية مدرعة (٣ في فرقة أدان ولواءان في كل من فرقة شارون وماجن) علاوة على لواء مشاة مظلات بفرقة شارون ولواء مشاة ميكانيكي بفرقة ماجن.

كيف جرى التعامل الخاطئ مع ثغرة الدفرسوار؟

ذكر الفريق سعد الشاذلي في رده أن المعلومات التي كانت متيسرة لدى القيادة العامة مساء يوم ٢٠ أكتوبر هي أن للعدو ٥ ألوية مدرعة غرب القناة، وأن ما بقى له لكي يحشده في اتجاه الجبهة المصرية بعد تخفيف قواته في الجبهة السورية هو ٤ ألوية مدرعة فقط، على اعتبار أن أقصى ما يمكن للعدو حشده أمام الجبهة المصرية هو ٩ ألوية مدرعة. واستطرد قائلا إنه كان أمام العدو خياران: الخيار الأول هو أن يعبر ليلة ٢٠ / ٢١ أو ليلة ٢١/ ٢٢ أكتوبر بلواءين مدرعين، فيصبح له في الغرب ٧ ألوية مدرعة ويحتفظ بلواءين مدرعين في الشرق. أما الخيار الثاني فهو إبقاء الوضع كما هو عليه بالنسبة لتوزيع قواته المدرعة أي ٥ ألوية مدرعة في الغرب و٤ ألوية مدرعة في الشرق.

وفي الواقع أن المعلومات التي ذكرها الشاذلي عن حجم العدو وأوضاعه شرق وغرب القناة مساء يوم ٢٠ أكتوبر تفتقر إلى الدقة، وربما لا يكون الخطأ في ذلك يرجع إلى الشاذلي بقدر ما هو راجع إلى المصادر التي نقلت إليه هذه المعلومات حينما كان في المركز ١٠ في ذلك التوقيت بعد أن عاد إلى القاهرة من الإسماعيلية.

إن الأمر الثابت وفقا للمراجع الموثوق بصحتها والذي برهن على صدقه مجرى الأحداث نفسها، أن إسرائيل استطاعت أن تحشد أمام الجبهة المصرية ١٠ ألوية مدرعة، وليس ٩ ألوية كما قال. وكان لها على الضفة الشرقية للقناة ٣ ألوية مدرعة، لواءان منها ضمن الفرقتين المختلطتين اللتين كانتا تشغلان المواجهة من البحر المتوسط شمالا حتى الشط جنوبا أمام رءوس الكباري المصرية. أما اللواء الثالث فقد كان اللواء المدرع بقيادة العقيد توفيا (من تشكيل فرقة شارون) الذي أمرت القيادة الجنوبية ببقائه شرق القناة أمام مواجهة الفرقة ١٦ مشاة.

وفي غرب القناة كان للعدو ٧ ألوية مدرعة مساء يوم ٢٠ أكتوبر، وليس ٥ ألوية مدرعة كما ذكر الشاذلي، وبالتالي لم يكن أمامه الخياران اللذان تحدث عنهما. ففي هذا التوقيت كان الأمر قد تم حسمه، والألوية المدرعة السبعة قد أتمت عبورها واستقرت على الضفة الغربية للقناة. لقد بدأت عملية العبور من الدفرسوار إلى غرب القناة ليلة ١٥/ ١٦ أكتوبر بعبور لواء المظلات التابع لفرقة شارون قناة السويس إلى الشاطئ الغربي بواسطة القوارب المطاطية. وقد نجح المهندسون العسكريون في إقامة أول جسر إسرائيلي من معديات البونتون عبر القناة في الساعة الرابعة مساء يوم ١٧ أكتوبر، وتلا ذلك إقامة الجسر السابق

التركيب Preconstructed عند منتصف الليل يوم ١٨ أكتوبر في موقع يقع على بعد ٢٠٠ متر فقط شمال جسر معديات البونتون. وفي يوم ١٩ أكتوبر تمت إقامة جسر ثالث من معديات البونتون شمال الجسر الثاني، وكانت الجسور الثلاثة مقامة في مساحة طولية تبلغ نحو ٥٠٠ متر من القناة. وقد توالى عبور الألوية المدرعة الإسرائيلية على الجسور المقامة عبر القناة اعتبارا من ليلة ١٧/ ١٨ أكتوبر. وفي يوم ١٩ أكتوبر أصبح لإسرائيل غرب القناة ثلاث فرق مدرعة(فرقة شارون وفرقة أدان وفرقة ماجن). وكانت هذه الفرق تضم ٧ ألوية مدرعة (٣ ألوية في فرقة أدان ولواءين في كل من فرقتي شارون وماجن) علاوة على لواء مشاة مظلات بفرقة شارون ولواء مشاة ميكانيكي بفرقة ماجن.

هل كان يمكن للفرق المشاة الاستغناء عن الألوية المدرعة الملحقة بها؟

سجل لنا الفريق الشاذلي ضمن رده بيانا تفصيليا بعدد الأسلحة الرئيسية التي كانت تدخل ضمن تنظيم كل فرقة من الفرق المشاة المصرية الخمس التي عبرت القناة يوم ٦ أكتوبر، وعلق على هذا البيان بقوله: «ومهما تحملت الفرقة المشاة من خسائر فإن نصف هذا الحجم من السلاح يكفيها لصد أي هجوم مدرع يقوم به العدو بقوة لواءين كاملي التسليح». وليس هناك من شك في أن الأخ الشاذلي يرمي من وراء هذه العبارة إلى أن يدلل على أن اقتراحه بسحب جميع الألوية المدرعة من شرق القناة إلى الغرب كان اقتراحا صائبا، إذ إن الخطورة الحقيقية من سحب هذه الألوية من رءوس الكباري كانت هي احتمال سقوطها في يد العدو، ولذا فما دام الأخ سعد يؤكد لنا أن نصف حجم السلاح الذي يدخل في تنظيم الفرقة المشاة - بدون احتساب أي دعم خارجي - يكفيها لصد أي هجوم مدرع يوجه ضدها بقوة لواءين مدرعين إسرائيليين كاملي التسليح، فما الداعي إذن لانتقاد هذا القرار؟ ولماذا اعترضت عليه القيادتان السياسية والعسكرية مساء يوم ٢٠ أكتوبر؟ وقد كان اهتمام الشاذلي بالنص على أن نصف حجم السلاح الذي في حوزة الفرقة يكفيها لصد اللواءين المدرعين الإسرائيليين، يستهدف من ورائه غاية مقصودة، فقد أراد بذلك أن يجيب مقدما على أولئك الذين سيردون عليه بأن الفرق المشاة شرق القناة لم يكن في حوزتها مساء يوم ٢٠ أكتوبر - عندما قدم اقتراحه - أكثر من ٥٠٪ من تسليحها بسبب الخسائر التي حاقت بها خلال المعارك العنيفة التي خاضت غمارها طوال ١٥ يوما متتالية. ولكن هذه العبارة التي سجلها الشاذلي كحقيقة واقعة

وقضية مسلم بها ـ دون أي سند علمي أو دليل منطقي ـ أثارت عندنا طائفة من التساؤلات المهمة رأينا أن نوجهها إليه إيمانا منا بضرورة الاهتداء إلى الحقيقة التي لا نشك في أنه يهدف إلى الوصول إليها مثلنا :

أولا ـ إذا كنت يا أخ سعد على ثقة بأن نصف حجم السلاح الذي يدخل ضمن تنظيم الفرقة المشاة ـ وبدون أي دعم خارجي ـ يكفي لصد لواءين مدرعين إسرائيليين كاملي التسليح كما ذكرت، وبما أنك كنت رئيسا للأركان ومشتركا مع هيئة العمليات التي تتبعك في وضع الخطة الهجومية، فلماذا وافقت على تدعيم كل فرقة من الفرق المشاة الخمس بلواء مدرع يوضع تحت قيادتها؟ وعلى فرض أن هذه الألوية المدرعة وضعت مع الفرق المشاة في المرحلة الأولى من الحرب لأغراض العبور، وحتى تتمكن الفرق المشاة من إنشاء رءوس الكباري دون تدخل مؤثر من احتياطيات العدو التكتيكية، فلماذا لم تأمر بسحبها بعد انتهاء هذه المرحلة يوم ٩ أكتوبر كي تعود إلى تشكيلاتها الأصلية التي فقدت جانبا كبيرا من قواتها الضاربة بسبب سحب هذه الألوية المدرعة منها مما أثر على نتائج معاركها مع العدو عندما كلفت بالتصدي للزحف الإسرائيلي غرب القناة؟

ثانيا ـ ما دامت هذه الفرق المشاة الخمس لديها هذه القدرة الذاتية الضخمة على الصد، فلماذا وافقت يا أخ سعد على سحب كتيبتي المقذوفات الصاروخية الموجهة المضادة للدبابات (مالوتكا) من فرقتين من فرق الغرب، وأمرت بتوزيع سراياها لتدعيم فرق المشاة شرق القناة؟ ولقد اتضح لك فيما بعد مدى خطأ هذا التصرف عندما احتاجت الفرقتان اللتان سحبت منهما صواريخ المالوتكا إلى هذا العنصر القوي المضاد للدبابات لمواجهة المدرعات الإسرائيلية غرب القناة عقب العبور الإسرائيلي إلى الغرب بعد أن انخفضت قدراتهما على الصد. ونتيجة لإحساسك بالمسئولية وإبراء لذمتك، اضطررت إلى العمل على سحب سرايا صواريخ المالوتكا سرا دون إخطار الرئيس الراحل السادات ودون علم القائد العام أحمد إسماعيل لمعارضتهما في سحب أي سلاح من الشرق. ورغم أنك نجحت في سحب بعض هذه السرايا الصاروخية، فإن فصائل منها استمرت في مواقعها مع بعض الفرق في الشرق لإصرار قادتها على ضرورة بقائها في أمكنتها.

ثالثا ـ إن الأوضاع الدفاعية للفرق المشاة المصرية الخمس شرق القناة ـ كما تعلم ـ لم تكن

تعد أوضاعا ملائمة بالنسبة لأي فرقة مشاة في الدفاع بحيث يمكن الارتكان إلى قدرتها الذاتية على الصد. فقد كانت كل فرقة شرق القناة تحتل رأس كوبري على شكل نصف دائرة ترتكز قاعدتها على الشاطىء الشرقي للقناة مما أدى إلى مضاعفة مواجهة الفرقة. فبدلا من المواجهة المعتادة التي تبلغ حوالي ١٢ كم على أساس وضع لوائي مشاة في النسق الأول ولواء مشاة ميكانيكي في النسق الثاني، أصبحت المواجهة ٢٤ كم، وأدى اتساع المواجهة بهذا الشكل إلى اضطرار قائد كل فرقة إلى احتلال مواقعه الدفاعية داخل رأس الكوبري بثلاثة ألوية مشاة في النسق الأول، وإلى وضع اللواء المدرع الذي دعمت به الفرقة في الاحتياطي. وتبعًا لذلك أسندت إلى اللواء المدرع مهمة الاشتراك مع وحدات واحتياطيات الفرقة المضادة للدبابات في عملية صد الاختراق، وتم تكليفه بواجب القيام بالهجوم المضاد لتدمير قوة العدو في حالة نجاحه في اختراق رأس الكوبري واستعادة الأوضاع إلى ما كانت عليه. ونتيجة لهذا النظام الدفاعي، أصبح اللواء المدرع يشكل ركيزة أساسية في تحقيق التوازن لرأس الكوبري، وأصبح سحبه يؤدي إلى تقليصه بل اهتزازه وخلخلته.

رابعا ـ أنت تعلم جيدا يا أخ سعد بحكم دراستك وتجاربك أنه لا يوجد خط دفاعي غير قابل للاختراق، وقد أثبتت تجارب الحروب ذلك. وهذا يعني أن مرحلة الصد التي ستقوم بها أسلحة الفرقة المشاة هي مرحلة مؤقتة، ولابد أن تعقبها مع تركيز العدو لهجومه على مواجهة ضيقة بقوة مدرعة متفوقة مرحلة الاختراق ونفاذ مدرعات العدو في اتجاه العمق، لذا فإني أسألك: أين هي ـ في غياب اللواء المدرع ـ قوة الهجوم المضاد في الفرقة المشاة التي ستقوم بتدمير قوة العدو المدرعة التي نجحت في الاختراق؟ إن دبابات التعاون الوثيق التي من ضمن تنظيم الفرقة ـ والتي لم يكن عددها يزيد على ٥٠٪ من حجمها التنظيمي وقتئذ ـ سيكون معظمها موزعا على كتائب وسرايا النسق الأول للاشتراك مع باقي الأسلحة المضادة للدبابات في خطة الصد حتى يمكن تغطية مواجهة رأس الكوبري الواسعة وقدرها ٢٤ كم، ولن يبقى بالاحتياط في الخلف سوى عدد ضئيل من الدبابات ليس في مقدرته مع الاحتياطيات المضادة للدبابات التصدي لدبابات العدو خاصة إذا ما نجح في الاختراق كما هو منتظر في أكثر من اتجاه بحكم هجومه بقوة لواءين

مدرعين، ما الحل الذي تقترحه يا أخ سعد لمواجهة هذا الموقف؟ وكيف يمكن تدمير دبابات العدو التي نفذت إلى عمق الدفاعات؟

خامسا - هل يمكن تصور التأثير المعنوي الخطير الذي سيحدث في نفوس أفراد الفرق المشاة شرق القناة عند القيام بعملية سحب جميع الألوية المدرعة من رءوس الكباري وعبورها إلى الغرب؟ إنني لا أزعم أن سحب الألوية المدرعة إلى الغرب سوف ينقلب إلى انسحاب مذعور لوحدات الفرق المشاة، وأنها سوف تتبع الدبابات إلى غرب القناة، ولو أن هذا الاحتمال في الظروف التي كانت قائمة وقتئذ لا يمكن استبعاده من تقديراتنا. لقد سبق أن ذكرت من قبل أن سحب اللواء ٣ المدرع (من الفرقة ٤ المدرعة) إلى الغرب قد تم دون أن يحدث أي تأثير معنوي سيئ على قوات الجيش الثالث، ولكن هناك فرقا كبيرا بين انسحاب لواء واحد فقط وانسحاب جميع الألوية المدرعة جملة واحدة، خصوصا أن اللواء الثالث المدرع لم يكن معينا منذ بدء العبور مثل باقي الألوية المدرعة لتدعيم إحدى فرق المشاة، فقد تم تحركه إلى الضفة الشرقية للقيام بعملية خاصة وهي عملية تطوير الهجوم شرقا يوم ١٤ أكتوبر، وعندما فشلت العملية صدر له الأمر بالبقاء في رأس كوبري الفرقة ١٩ مشاة، وكان من الطبيعي ألا يؤدي سحبه إلى الغرب إلى أي انخفاض في الروح المعنوية إذ إن اللواء ٢٢ المدرع الذي دعمت به الفرقة ١٩ مشاة منذ بدء العبور كان ما يزال متمركزا داخل رأس كوبري هذه الفرقة. هل لديك شك يا أخ سعد في أن عملية سحب جميع الألوية المدرعة من شرق القناة - إن كانت لن تؤدي إلى انسحاب مذعور - فهي سوف تؤدي قطعا إلى تصدع خطير في الروح المعنوية بين جميع القوات الموجودة على الضفة الشرقية؟

التعامل الخاطئ مع ثغرة الدفرسوار

لقد ناقشت خلال ردي على رسالة الشاذلي الحجج والبراهين التي ساقها كي يدلل على صواب الاقتراح الذي قدمه مساء يوم ٢٠ أكتوبر بسحب جميع الألوية المدرعة من شرق القناة إلى الغرب، وأوضحت بالأدلة القاطعة المخاطر الجسيمة التي كان من المنتظر وقوعها فيما لو كانت القيادة العامة قد أخذت بهذا الرأي. ولقد كان ردي في الواقع بمثابة

مناقشة موضوعية لوجهة نظر الشاذلي التزمت فيها بالناحية العلمية والأسلوب المنطقي دون التأثر بأي عوامل شخصية من جهة الذين أيدوا رأي الشاذلي أو عارضوه. وعلى ضوء هذه الدراسة التي أجريتها فإنني أقرر في اقتناع تام ومن أجل الحقيقة والتاريخ أن هذا الاقتراح رغم عدم تعارضه مع أي مبادئ تكتيكية، فإنه كان من الخطر تنفيذه من الناحية الواقعية بسبب الأوضاع التكتيكية السيئة التي كانت قائمة وقتئذ على طول جبهة القتال. ولا شك في أنني أخالف الشاذلي في الرأى الذي أبداه في رده بأن اقتراحه كان الخيار الوحيد الصحيح أمام القيادة، فإنني مع تسليمي بتدهور الوضع العسكري غرب القناة نتيجة لعبور ثلاث فرق مدرعة إسرائيلية إلى الضفة الغربية، فإن الأخذ باقتراح الشاذلي ـ نظرا للمشكلات الجسيمة التي تعترض تنفيذه ـ لم يكن سيؤدي كما سبق أن أوضحت إلى تغيير مؤثر وسريع في الوضع على الضفة الغربية، بينما نستطيع أن نجزم بأن سحب الألوية المدرعة من الشرق كان سيعقبه تدهور شامل بلا شك في أوضاع رءوس الكباري المصرية شرق القناة. بحيث لم يكن هناك مفر من سقوط بعضها في يد العدو، وبذا فإن المحصلة النهائية في حالة تنفيذ اقتراح الشاذلي هي أن القوات المصرية كانت ستصاب بكارثة محققة سواء على الضفة الشرقية أو على الضفة الغربية في توقيت واحد.

وإنني يا أخ سعد لا أستطيع أن أدعي أن في إمكاني تقديم البديل الأفضل للحل الذي اقترحته أنت مساء يوم ٢٠ أكتوبر، فلقد وصل الوضع التكتيكي لقواتنا ـ بفضل أخطاء بعض المسئولين بالمركز ١٠ ـ إلى مأزق يصعب معه على أي إنسان ـ مهما بلغت براعته وعبقريته ـ أن يهتدي إلى حل عسكري سليم، إذ إن أي حل مقترح سيكون مليئا بالعيوب والثغرات، ولذا فإن أفضل حل في نظري ـ رغم اعترافي بما يكتنفه من عيوب جسيمة ـ كان هو إبقاء الأوضاع على الضفة الشرقية للقناة على ما كانت عليه حتى تظل رءوس الكباري قوية وصامدة، ومحاولة احتواء القوات المدرعة الإسرائيلية غرب القناة بكل ما يمكن حشده من قوات نظامية أو حتى غير نظامية لمنع العدو من توسيع الثغرة غربا.

وما دمنا يا أخ سعد قد تعرضنا لموضوع الثغرة، فسوف أحاول أن أوضح للقراء بإيجاز شديد بعض الأخطاء التي وقعت في التعامل معها، كي يخرج منها إخواننا وأبناؤنا في القوات المسلحة بالدروس المستفادة:

١ ـ لقد حدث تقصير كبير لا يغتفر تسأل عنه قيادة الجيش الثاني وقيادة الفرقة ١٦ مشاة، فقد سمحت القيادتان بترك حصنين من أكبر حصون خط بارليف (على الجنب الأيمن

للفرقة ١٦ مشاة) خاليين دون احتلالهما بعناصر من قواتنا رغم استيلاء قوات الفرقة ١٦ مشاة عليهما بعد عبور القناة، وهما حصن متسميد (الدفرسوار) وحصن لا كيكان (تل سلام). وكانت النتيجة أن العدو تمكن من الاستيلاء عليهما سرا ليلة ١٥/ ١٦ أكتوبر دون قتال، وقام بالعبور إلى الضفة الغربية في هذه الليلة من الدفرسوار دون أن يحس به أحد، واستخدم حصن الدفرسوار بعد ذلك كساحة لعبور قواته، كما استخدم حصن تل سلام لتأمين جنبه الأيسر خلال عمليات العبور.

٢ ـ أخطأت قيادة الجيش الثاني صباح يوم ١٦ أكتوبر لتأخرها في إبلاغ المعلومات الصحيحة عن عبور القوات الإسرائيلية إلى القيادة العامة المركز ١٠ بالقاهرة، وقامت بسبب عدم تحريها الدقة عن حقيقة الموقف بتضليل القيادة العامة بإبلاغها أن القوات الإسرائيلية التي عبرت هي ٧ دبابات فقط، وأن القيادة المحلية سوف تتولى تدميرها في الحال. وأخطأ الشاذلي بدوره خطأ بالغا بحجبه هذه المعلومات التي وصلته قبل ظهر يوم ١٦ أكتوبر ـ لفرط استهانته بها ـ عن القائد العام أحمد إسماعيل وعن رئيس الجمهورية مما جعل السادات يلقي خطابه أمام مجلس الشعب عند الظهر وهو يجهل تماما حقيقة الأمر. ولذا كانت مفاجأة مذهلة للسادات حين عاد إلى قصر الطاهرة وعلم عن طريق الإذاعات الخارجية، أن جولدا مائير رئيسة وزراء إسرائيل أعلنت في الخطاب الذي ألقته أمام الكنيست الإسرائيلي في الساعة الرابعة مساء يوم ١٦ أكتوبر، أن القوات الإسرائيلية تقاتل شرق وغرب القناة. وعندما استفسر السادات من أحمد إسماعيل عن صحة النبأ أجابه نفس الإجابة التي كانت أبعد ما تكون عن الحقيقة، وهي أن كل ما عبر إلى الغرب عبارة عن ٧ دبابات وجارٍ تدميرها.

٣ ـ كان الوضع العسكري في قطاع الجيش الثاني غرب القناة وجنوب ترعة الإسماعيلية يهيئ للعدو فرصة مثالية للعبور إلى الغرب، فعلى أثر دفع الفرقة ٢١ المدرعة ـ الاحتياطي التعبوي للجيش الثاني ـ إلى شرق القناة للقيام بعملية تطوير الهجوم شرقا يوم ١٤ أكتوبر أخطأت القيادة العامة وهيئة عملياتها بعدم تكوين احتياطي تعبوي جديد لديه القدرة على أن يحل محل الفرقة ٢١ المدرعة. وعلى الرغم من أن منطقة الدفرسوار التي تلتقي عندها قناة السويس بالبحيرة المرة الكبرى كان من المسلم به لدى جميع القيادات أنها أخطر منطقة في الجبهة، وأنه في حالة حدوث عبور إسرائيلي إلى الغرب ستكون أولى المناطق التي يحتمل عبور العدو من خلالها،

وكانت جميع المشروعات التي أجريت قبل الحرب لتدريب مراكز الرئاسات تفترض ضمن مواقفها عبورا إسرائيليا من الدفرسوار، لذا فإن الأمر الذي يدعو إلي الدهشة أن تسند مهمة حراسة هذه المنطقة وحراسة شاطئ البحيرات المرة الذي يقع جنوبها، إلى أضعف قوات في الجبهة (الكتيبة الكويتية في الشمال واللواء الفلسطيني في الجنوب)، وهي قوات ضعيفة التدريب وغير مسلحة إلا بالأسلحة الشخصية وبعض الأسلحة الخفيفة. وكانت عناصرها موزعة على مواجهة واسعة مما لم يسمح بتنظيم أي دفاع حقيقي. وقد ثبت أن لواء المظلات الإسرائيلي الذي كان أفراده أول من عبروا ليلة ١٥/ ١٦ أكتوبر في قوارب مطاطية قد تم إبرارهم على الشاطئ الغربي للقناة عند الدفرسوار دون أن يشعر بهم أحد أو تطلق عليهم رصاصة واحدة.

٤ ـ لم تبذل القيادة العامة وهيئة عملياتها الاهتمام الذي كان ينبغي بذله لسرعة تدمير القوة الإسرائيلية التي عبرت إلى غرب القناة والتي كان من السهل في بادئ الأمر إبادتها أو أسرها، وذلك بسبب التهوين المستمر في قوتها وحجمها، وساعد على رسوخ هذا الاعتقاد البعيد عن الواقع المعلومات الخاطئة التي كانت تصل إلى قيادة الجيش الثاني وإلى المركز ١٠ بالقاهرة، والتي كانت تبعث على الاطمئنان والاستهانة بشأن القوة الإسرائيلة التي عبرت إلى غرب القناة، مما كان يكشف بوضوح عن مدى القصور في وسائل جمع المعلومات وأعمال الاستطلاع على جميع المستويات سواء في المخابرات الحربية أو في أفرع الاستطلاع بالجيش الثاني أو في تشكيلاته الميدانية.

٥ ـ رغم صغر حجم وضعف حجم قوات العدو التي عبرت إلى غرب القناة في منطقة الدفرسوار، والتي كانت تتكون من لواء مشاة من المظلات لا يتجاوز عدده ٢٠٠٠ فرد وعدد ٣٠ دبابة وبعض العربات المدرعة ذات نصف جنزير، وكلها من تشكيل فرقة شارون، وكان القضاء عليها وتصفيتها عملية سهلة في بادئ الأمر، فقد ظلت القوة الإسرائيلية غرب القناة معزولة عن قواعدها شرق القناة حوالي ٤٠ ساعة وبدون أي تعزيزات إضافية لقوتها بناء على تعليمات الجنرال حاييم بارليف انتظارا لإقامة الجسور الثابتة عبر القناة. ونظراً لسوء الموقف التكتيكي لهذه القوة، فقد فكر بعض القادة الإسرائيليين المسئولين عدة مرات في سحبها وإعادتها ثانية إلي الضفة الشرقيةخوفا عليها من الإبادة أو الوقوع في الأسر. ورغم أن القيادة العامة خصصت

لعملية الهجوم المضاد على رأس الكوبري الإسرائيلي قوات مصرية كانت تتفوق بشكل واضح على قوات العدو من حيث الحجم والتسليح، فإن عملية تصفية الثغرة باءت بالفشل لمخالفة الأسلوب الذي اتبع لتصفيتها للمبادئ التكتيكية السليمة، إذ تم دفع الوحدات المصرية المهاجمة بطريقة الهجوم الموزع Piece Meal ولم تتم أي محاولة لتجميع قوة ضخمة تقوم بالهجوم في وقت واحد لسحق العدو.

٦ ـ رغم أنه بذلت محاولتان كبيرتان لتصفية الثغرة عن طريق مهاجمتها في كل مرة بلواء مدرع كامل، فإنه للأسف لم يتم تجميع اللواءين المدرعين للاشتراك في هجوم واحد من الناحية التي كان يمكن أن يرجى منها النجاح، وهي غرب القناة فقد تم دفع اللواء ٢٥ مدرع مستقل صباح يوم ١٧ أكتوبر من قطاع الجيش الثالث في الجنوب، ليتقدم شرق البحيرات المرة كي يقوم بتصفية الثغرة عند الدفرسوار شرق القناة، وهي المهمة التي أطلق عليها الشاذلي في رده اسم المهمة المجنونة. وفي يوم ١٨ أكتوبر تم دفع اللواء ٢٣ مدرع من منطقة تقاطع عثمان أحمد عثمان شرقا ليقوم بتصفية الثغرة عند الدفرسوار غرب القناة. ومما يدعو إلى العجب أن تتولى فرقة إسرائيلية واحدة وهي فرقة الجنرال إبراهام أدان مهمة تدمير اللواءين المدرعين في يومين متتاليين، مستغلة تفوقها الكبير في عدد الدبابات بالنسبة لكل لواء منهما على حدة. ففي يوم ١٧ أكتوبر دمرت فرقة أدان اللواء ٢٥ مدرع مستقل شرق القناة جنوب الدفرسوار، وفي ليلة ١٧/ ١٨ أكتوبر عبرت فرقة أدان القناة إلى الغرب على أول جسر إسرائيلي يقام فوقها وانتهى عبورها قبل الفجر. وفي صباح ١٨ أكتوبر قامت فرقة أدان بتدمير اللواء ٢٣ مدرع غرب الدفرسوار. وكان رفض السادات لاقتراح الشاذلي يوم ١٦ أكتوبر بدفع اللواء ٢٥ مدرع مستقل من غرب القناة بدلا من شرقها سببا في وقوع أول خلاف حاد بين الرجلين.

٧ ـ قامت القيادة العامة وهيئة عملياتها قبل العبور الإسرائيلي بتوزيع وبعثرة وحدات الاحتياطي التعبوي شرق القناة وغربها. وهذا التصرف من القيادة العامة بالإضافة إلى توزيعها لمعظم وحدات الاحتياطي الإستراتيجي المتمركز تحت يدها في القاهرة، والمفترض أن يكون على استعداد للقيام بالضربة المضادة Counter Blow في حالة فشل الهجوم المضاد الرئيسي Main Counter Attack على مستوى الجيوش، لهو دليل واضح على أن هيئة العمليات بالقيادة العامة لم تكن تتوقع إطلاقا قيام العدو بعملية اختراق للدفاعات المصرية شرق القناة ثم القيام بعملية عبور إلى الغرب لإقامة

رأس كوبري على الضفة الغربية. وكان تشتت الاحتياطي التعبوي للجيشين الثاني والثالث سببا في عجز قائديهما عن شن أي هجوم مضاد رئيسي ضد العدو، كما كان تشتت الاحتياطي الإستراتيجي سببا في عجز القيادة العامة عن القيام بالضربة المضادة المنتظرة، مما أدى إلى أن تتسع ثغرة الاختراق الإسرائيلية وتستفحل غرب القناة إلى الدرجة التي لم تكن تخطر على بال أحد من القادة الإسرائيليين حتى في أكثر أحلامهم تفاؤلا.

وهكذا نجحت هذه المغامرة الإسرائيلية المتهورة هذا النجاح المذهل بسبب الطريقة الخاطئة التي تم التعامل بها مع الثغرة. ولا شك في أن المسئولية عن حدوث ثغرة الاختراق في الدفرسوار وعن التعامل الخاطئ معها يشترك في تحملها عدد كبير من القادة على مختلف المستويات، وفي مقدمة هؤلاء بلا شك المسئولون عن إدارة العمليات بالمركز ١٠، وكذا قيادة الجيش الثاني الميداني، وقيادة الفرقة ١٦ مشاة. هذا بالإضافة إلى القيادة السياسية التي كان يمثلها الرئيس الراحل السادات بسبب تدخله المستمر في أخطر القرارات العسكرية رغم أن هذا لم يكن من اختصاصه، كما لم تكن لديه المؤهلات التي تسمح له بإصدار مثل هذه القرارت.

ونختتم بذلك الحوار البناء الذي دار بيننا وبين الفريق الشاذلي حول واحدة من أهم القضايا التي أثيرت خلال المرحلة الأخيرة من حرب أكتوبر، والتي أثارت جدلا شديدا بين العسكريين سواء في مصر أو في الخارج، وهي اقتراح الشاذلي بسحب جميع الألوية المدرعة من شرق القناة إلى الغرب لمواجهة التهديد الإسرائيلي. ولقد أتيحت لنا الفرصة لكي يعرض كل منا وجهة نظره كاملة، وليسوق كل منا ما لديه من حجج وأسانيد كي يبرهن على صحة رأيه. ونأمل أن يكون القراء قد استفادوا الفائدة المرجوة من هذا النقاش الجاد الذي جرى بأسلوب علمي وبطريقة موضوعية وبعيدا من أي إسفاف أو مهاترات. وأنتهز هذه الفرصة لأشكر الأخ سعد الشاذلي على رسالته التي هيأت لنا المجال لهذا الحوار المفيد.



صور ملحق ٤



الرئيس أنور السادات

رأس المؤتمر الذي عقد قرب منتصف الليل يوم ٢٠ أكتوبر بالمركز ١٠ بناء على طلب الفريق سعد الشاذلي. وقد صدر الأمر في نهاية المؤتمر بعدم سحب أي ألوية مدرعة من شرق القناة إلى غربها.



فريق أول أحمد إسماعيل

اجتمع معه الرئيس السادات في غرفته بالمركز ١٠ لمدة ساعة قبل انعقاد المؤتمر.



فريق سعد الشاذلي

كان يرى سحب ٤ ألوية مدرعة من شرق القناة إلى غربها وطلب من القائد العام ضرورة حضور الرئيس للاستماع إلى وجهة نظر القادة.



لواء محمد علي فهمي

قائد قوات الدفاع الجوي - حضر مؤتمر الرئيس مساء يوم ٢٠ أكتوبر بالمركز ١٠.



لواء طيار محمد حسني مبارك

قائد القوات الجوية. حضر مؤتمر الرئيس مساء يوم ٢٠ أكتوبر بالمركز ١٠.



لواء محمد عبد الغني الجمسي

رئيس هيئة العمليات - حضر مؤتمر الرئيس مساء يوم ٢٠ أكتوبر بالمركز ١٠.



لواء محمد سعيد الماحي

مدير سلاح المدفعية - حضر مؤتمر الرئيس مساء يوم ٢٠ أكتوبر بالمركز ١٠.



لواء إبراهيم فؤاد نصار

مدير المخابرات الحربية - حضر مؤتمر الرئيس مساء يوم ٢٠ أكتوبر بالمركز ١٠.



مهندس عبد الفتاح عبد الله

وزير شئون رئاسة الجمهورية. حضر برفقة الرئيس إلى المركز ١٠ وحضر مؤتمر الرئيس مساء يوم ٢٠ أكتوبر.



الرئيس السادات

يصافح بعض القادة العسكريين عقب انتهاء حرب أكتوبر ١٩٧٣.



■ ملحق ٥ ■

الرسالة الثانية من الفريق سعد الشاذلي إلى جمال حماد
ردّ جمال حماد على الرسالة الثانية

إن الموضوع الذي يدور الحوار حوله بيني وبين جمال حماد يمكن تقديمه على شكل سؤالين: السؤال الأول هو: «أيهما كان أفضل من وجهة النظر التعبوية المصرية مساء يوم ٢٠ أكتوبر ١٩٧٣: أن تسحب الألوية المصرية أرقام ١ و١٤و٢٤و٢٢ من شرق القناة للزج بها في الأيام التالية في المعركة التي كانت تسير في غير صالحنا غرب القناة في منطقة الدفرسوار، أم أن تبقى هذه الألوية في أماكنها حتى نهاية الحرب؟». والسؤال الثاني هو: «من الذي اقترح سحب هذه الألوية المدرعة الأربعة؟ ومن الذي عارض سحبها؟».

وللرد على السؤال الأول فإنه يتحتم علينا أن نقوم بإجراء مقارنة بين القوات المصرية والقوات الإسرائيلية مساء يوم ٢٠ أكتوبر في كل من شرق القناة وغربها. وأن نجري مقارنة أخرى بين قواتنا وقوات العدو على أساس الاحتمالات التي قد يتخذها العدو خلال الأيام الثلاثة أو الأربعة التالية. وللرد على السؤال الثانى، فإنه يمكن الرجوع إلى سجلات الحرب وإلى شهادة الذين حضروا المؤتمر العسكرى الذي عقد (بالمركز ١٠) مساء يوم ٢٠ أكتوبر.

كما سوف نرى، فقد قام جمال حماد بإجراء مقارنة عامة تؤكد تفوق العدو علينا غرب القناة. ولكنه لم يجر مقارنة دقيقة تبين قدرة قواتنا شرق القناة على صد أي هجوم مدرع يقوم به العدو. ولذلك فإنه توصل إلى استنتاجات خاطئة. كما أنه لم يتوخ الدقة التي عرفناها عنه للكشف عما دار في مؤتمر القيادة يوم ٢٠ أكتوبر. ولكن قبل أن أتعرض لتلك التحليلات والاستنتاجات، فإنى سأقوم بالتعقيب على المواقف الإيجابية والسلبية التي وردت على لسان جمال حماد.

أهمية تشكيل احتياطي

إن ما أبداه جمال حماد عن أهمية الاحتفاظ باحتياطى تعبوى واحتياطى إستراتيجى تحت يد القيادة العامة للقوات المسلحة . . وإنه عند الزج بأى جزء من هذا الاحتياطى في المعركة، فإنه يتحتم تشكيل احتياطى آخر يحل محله . . هو من البديهيات التي يعرفها القادة على جميع المستويات . ولكنى أود أن أوضح للقارئ أننا كدولة من دول العالم الثالث لاتصنع السلاح المتطور بل تستورده من دول أخرى، فإننا نبدأ الحرب وبعد تعبئة قواتنا الاحتياطية، فإنه لايتبقى لدينا احتياطى من السلاح المتطور الذي يمكن استخدامه في سد الخسائر أو في تشكيل وحدات جديدة .

وحتى لو افترضنا توافر هذا السلاح في المخازن، فإن تشكيل وحدات جديدة - لكى تحل مكان الاحتياطيات التعبوية والإستراتيجية التي تستهلك في المعارك - يحتاج إلى وقت طويل لاتسمح به طبيعة الحروب القصيرة التي تندلع بيننا وبين إسرائيل . ومن هنا، فإن القيادة العامة للقوات المسلحة يجب أن تكون حريصة جدا في استخدام احتياطياتها التعبوية والإستراتيجية، وأن تلجأ إلى أسلوب المناورة بالقوات عندما ترغب في خلق احتياطيات جديدة بدلا من الاحتياطيات التي تضطر إلى الزج بها في المعركة . وأقصد بالمناورة هنا أن تقوم بسحب بعض وحداتنا من الاتجاهات غير المعرضة لكى تشكل بها احتياطيات جديدة بدلا من تلك التي تم توزيعها أو تم استخدامها في اتجاهات أخرى . تماما كما يفعل لاعبو الشطرنج . فإذا ركز أحدهم هجومه في اتجاه معين، فإن خصمه يتحتم عليه أن يسحب عددا من قطعه من الاتجاهات غير المهددة وأن يحشدها في الاتجاهات المهددة .

وإذا كنا نريد حقا أن نستفيد من أخطائنا في حرب أكتوبر، وألا تذهب هدرا الدماء الزكية التي استشهدت في تلك الحرب المجيدة، فيجب علينا أن نعترف بأن القيادة العامة للقوات المسلحة المصرية قد ارتكبت أخطاء جسيمة فيما يتعلق بتوزيع واستخدام احتياطياتها التعبوية والإستراتيجية، وأنها لم تحاول قط استخدام أسلوب المناورة لخلق احتياطيات جديدة بدلا من تلك التي قامت ببعثرتها أو التي تسببت في تدميرها نتيجة سوء استخدامها .

لقد بدأنا حرب أكتوبر وكانت لدينا ٩ ألوية مدرعة كان المفترض أن تبقى جميعها في الاحتياطيات التعبوية والإستراتيجية، طبقا لخطة المآذن العالية قبل أن تتطور إلى الخطة بدر . فقد كنت على اقتناع بأن الفرق المشاة بما لديها من دبابات (ضمن تنظيم الفرقة المشاة

٤ كتائب دبابات) ووسائل مضادة للدبابات، كانت قادرة على تنفيذ المهام المكلفة بها ضمن الخطة دون الحاجة إلى تدعيمها بلواء مدرع. ولكن السادات طلب من أحمد إسماعيل أن يتم الاستيلاء على القنطرة في أسرع وقت ممكن حتى يمكنه أن يستغل ذلك دعائيا، فما كان من أحمد إسماعيل إلا أن أمر بتدعيم الفرقة المكلفة بالاستيلاء على القنطرة بلواء مدرع. ثم عاد السادات يكرر نفس الطلب بالنسبة للإسماعيلية والسويس. فهو يريد أن أن تصبح المدينتان خارج مرمى مدفعية العدو في أسرع وقت ممكن، فما كان من أحمد إسماعيل إلا أن أمر بتدعيم الفرقتين اللتين تدخل المدينتان في قطاعيهما كل بلواء مدرع. وهنا أبدى قائدا الفرقتين الباقيتين شكواهما، وطالبا بالمساواة مع الفرق الثلاث الأخرى، فأمر أحمد إساعيل بتدعيم كل منهما بلواء مدرع. وكان هذا يعنى أننا بعثرنا ٥ ألوية مدرعة من إجمالى ٩ ألوية، هى كل ما نملك منذ اللحظة الأولى للمعركة. وكان هذا هو الخطأ الأول. ولم أعارض بشدة هذا التصرف، نظرا لعلمى بالظروف النفسية التي دفعت السادات وأحمد إسماعيل إلى هذا النهج، وذلك على أمل أن يتم سحب هذه الألوية المدرعة الخمسة إلى الاحتياطيات التعبوية والإستراتيجية حال أن تنتهى الفرق المشاة من تعزيز مواقعها شرق القناة.

ولو أننا قمنا بإعادة هذه الألوية المدرعة الخمسة إلى الاحتياطيات التعبوية والإستراتيجية كما كان مفترضًا، لانتفى الخطأ، وأصبح الوصف الصحيح لقرار تدعيم كل فرقة مشاة بلواء مدرع هو مبالغة في الحرص. فالخطأ إذن هو تقاعس القيادة العامة في سحب هذه الألوية اعتبارا من يوم ١١و١٢ أكتوبر، وبالإضافة إلى هذا الخطأ البين، فإن القيادة العامة بدأت تفكر في دفع ألوية مدرعة أخرى إلى الشرق اعتبارا من يوم ١١ أكتوبر. وقد تم فعلا دفع لواءين مدرعين إلى الشرق يومى ١٢ و١٣أكتوبر، وكان ذلك على حساب الاحتياطيات التعبوية والإستراتيجية التي تقلصت إلى لواءين مدرعين فقط اعتبارا من فجر يوم ١٤ أكتوبر.

ومع أن القيادة العامة كان يجب عليها أن تتوقع أن خلو منطقة غرب القناة من القوات سوف يشجع العدو على أن يعبر بقواته إلى الغرب بعد فشل هجومنا يوم ١٤ أكتوبر، وبالتالى كان يجب عليها أن تسبق ذلك بسحب عدد من الألوية المدرعة من الشرق، فإنها لم تفعل ذلك. حتى بعد حدوث ثغرة الدفرسوار، فإن القيادة العامة كانت تعارض سحب أي لواء مدرع من الشرق تحت شعار زائف وهو عدم سحب أي بندقية أو جندى ناهيك عن دبابة واحدة من الشرق إلى الغرب، فقد بقيت القيادة العامة جامدة في

تفكيرها، فلم تقم بسحب أي قوات مدرعة من شرق القناة كي تتصدى بها للحشود المدرعة التي أخذت تتزايد يوما بعد يوم غرب القناة، إلى أن وصلت إلى ٧ ألوية مدرعة في مواجهة لواءين مدرعين مصريين. وكانت هذه التصرفات الشاذة من القيادة العامة للقوات المصرية مثار خلاف شديد بين الفريق الشاذلي من جانب وبين السادات وأحمد إسماعيل من الجانب الآخر، مما تسبب عنه مواجهات شديدة كان أكثرها صخبا تلك المواجهة التي قامت بين الشاذلي والسادات يوم ١٦ أكتوبر، فقد كان الشاذلي يريد سحب اللواء ٢٥ مدرع مستقل وباقى وحدات الفرقة الرابعة المدرعة من شرق القناة والزج بها في معركة ضد قوات العدو في منطقة الدفرسوار، بينما كان السادات يرفض سحب أي جندى من شرق القناة. وفى مساء يوم ٢٠ أكتوبر تقدم الشاذلي باقتراح آخر يقضى بسحب أربعة ألوية مدرعة من الشرق، وقال إن هذه هى الفرصة الأخيرة، وإنه إذا لم نبادر باتخاذ هذا القرار الآن فسوف تقع كارثة لا يعلم أبعادها إلا الله. ولكن هذا الاقتراح تم إجهاضه كغيره من الاقتراحات السابقة. وتمت الكارثة كما توقع الشاذلى، وبعد ثلاثة أيام كان قد تم حصار الجيش الثالث ومدينة السويس، وتم استيلاء العدو على ميناء الأدبية على خليج السويس!!

عندما أقرأ ما يكتبه جمال حماد أشعر أحيانا كأنى أمام باحث مدقق ورجل عسكرى مثقف واسع الإطلاع. وأحيانا أخرى أشعر كأنى أقرأ مرافعة محام وهب نفسه للدفاع عن السادات في قضية تشير جميع الأدلة إلى أنها قضية خاسرة. وما يحزننى حقّا هو أن مرافعات جمال حماد المحامى، كثيرا ما تفسد الجانب المضيء في جمال حماد الباحث والمحلل العسكرى.

لقد أقر جمال حماد الباحث بأن الشاذلي وسعد مأمون وعبد المنعم واصل عارضوا قرار تطوير الهجوم نحو المضايق. واعترف أن تطوير الهجوم بتاريخ يوم ١٤ أكتوبر كان قرارا خاطئا. وورد ضمن تحليله لهذه العملية مايلى:

«كان قرار تطوير الهجوم نحو المضايق يوم ١٤ أكتوبر قرارا عاطفيا خاطئا. ونتيجة لهذا القرار الخاطئ، فشل الهجوم المصرى وتكبدت القوات المسلحة خسائر فادحة، واهتزت الروح المعنوية لقواتنا بينما ارتفعت الروح المعنوية لقوات العدو. ولم يحقق هذا الهجوم أهدافه. فلم تسحب إسرائيل أي جزء من قواتها من الجبهة السورية إلى الجبهة المصرية. وعلى أثر ذلك، تمكنت القوات الإسرائيلية من انتزاع ميزة المبادأة من يد القوات المصرية التي ظلت في حوزتها منذ بداية الحرب». ولكن جمال حماد المحامى أضاف بعد

ذلك قائلا: «كان الضغط السوري الملحّ على القيادة المصرية لكي تتقدم إلى المضايق لتخفيف الضغط عن سوريا سببًا في إصدار السادات لهذا القرار الذي كان موعده المناسب قد فات نتيجة للوقفة التعبوية التي لم يكن لها ما يبررها لمدة خمسة أيام من ٩ إلى ١٣ أكتوبر». وفي غمرة الدفاع عن قرار السادات الخاطئ لم يتعرض جمال حماد الباحث إلى الأسباب التي أدت إلى هذه الوقفة التعبوية. تلك الأسباب التي ذكرتها بالتفصيل في مذكراتى عن حرب أكتوبر التي لاشك في أن جمال حماد اطلع عليها، ومع ذلك فإنه لم يتعرض قط لمناقشتها.

خطة القضاء على الثغرة يوم ١٧

انتقد جمال حماد الباحث خطة القيادة العامة للقوات المسلحة للقضاء على ثغرة الدفرسوار يوم ١٧ أكتوبر. فقال عند تحليله لهذه الخطة الموضوعة ما يلى:

«لقيت هذه الخطة معارضة شديدة، وأحدثت انقساما حادًّا بين القادة داخل المركز ١٠ إلى الحد الذي أدى إلى دعوة الرئيس السادات للحضور بنفسه إلى المركز ١٠ لإبداء رأيه في هذا الخلاف، وعند حضوره بعد ساعات قليلة لم يلبث أن أيد القائد العام وثار ثورة عنيفة في وجه القادة الذين طلبوا عبور اللواء ٢٥ مدرع إلى الغرب لدفعه من هذا الاتجاه. وأمر بعدم سحب أي قوات من الشرق إلى الغرب أو مجرد مناقشة هذه الفكرة على الإطلاق». ولكن جمال حماد المحامى حرص على ألا يشير من قريب أو بعيد إلى خطة الشاذلي للقضاء على الثغرة. تلك الخطة التي كانت تتضمن سحب اللواء ٢٥ مدرع وباقى وحدات الفرقة الرابعة المدرعة الملحقة على فرق المشاة شرق القناة خلال ليلة ١٦/ ١٧، وتوجيه ضربة مدرعة ضد الثغرة فجر يوم ١٧ أكتوبر.

تلك الخطة التي ثار بسببها السادات ثورة عارمة في وجه الشاذلي ظهر يوم ١٦ أكتوبر.

أقر جمال حماد الباحث أن الشاذلي ذهب إلى الجيش الثانى مساء ١٨ أكتوبر، وأنه عاد إلى المركز ١٠ بعد ظهر يوم ٢٠ أكتوبر بعد فترة غياب حوالى ٤٤ ساعة، وكان السادات قد ذكر في أكثر من مناسبة أن «الشاذلي ذهب إلى الجيش الثانى يوم ١٦ أكتوبر. وأنه كان في استطاعته أن يقضي على الثغرة فور وصوله، ولكنه أضاع ٢٤ ساعة لإنشاء قيادة ينافس بها قيادة أحمد إسماعيل، وأنه منع قوات الصاعقة التي بعثها السادات

للقضاء على الثغرة من الاشتباك مع العدو في منطقة الدفرسوار، وأنه عاد من الجبهة منهاراً يوم ١٩ لكى يوصى بضرورة سحب كل قواتنا من الشرق».

وقد كذّب جمال حماد الباحث كل هذه الادعاءات، وأقر بأن الشاذلي عندما عاد إلى المركز ١٠ يوم ٢٠ أكتوبر أوصى بضرورة سحب جزء من القوات (القوات المدرعة) من الشرق لكى يتعامل بها ضد العدو في الغرب. وفى هذا الموضوع بالذات تغلبت شخصية جمال حماد الباحث على شخصية جمال حماد المحامي. وقال في شجاعة إن السادات قد ادعى كل ذلك على الشاذلي لكى يحمله وحده مسئولية ثغرة الدفرسوار. وإني أسجل له هذا الموقف الشجاع الذي لم يصدر بشكل علنى من أي كاتب أو صحفي أو سياسى مصرى طوال الثلاث عشرة سنة الماضية، رغم عشرات الكتب ومئات المقالات التي نشرت في مصر والتى سجلت فيها إدعاءات السادات.

أين كان اللواء ١٥ يتمركز؟

ذكرت في مقالى السابق أن اللواء ١٥ مدرع ليس ضمن الألوية المدرعة التي كنت أريد سحبها ليلة ٢٠/ ٢١ أكتوبر لاشتراكها في المعركة ضد الثغرة، حيث إن هذا اللواء كان يتحتم الاحتفاظ به في احتياطى الجيش الثانى غرب القناة وشمال ترعة الإسماعيلية. وكنت قد ذكرت في كتابى عن حرب أكتوبر أن اللواء عبد المنعم خليل قائد الجيش الثانى قد أبلغنى مساء يوم ١٨ أكتوبر عندما وصلت إلى مركز قيادته، أنه قرر سحب اللواء ١٥ مدرع من شرق القناة لكى يصبح في احتياطى الجيش شمال ترعة الإسماعيلية.

فقلت له: حسنا فعلت لأن هذا هو الاستخدام الصحيح للقوات المدرعة. ولم أهتم بعد ذلك بهذا الموضوع لأن كل اهتمامى كان موجها إلى ما يدور في منطقة الدفرسوار. وحيث إنى كنت أعلم أن السادات وأحمد إسماعيل يعارضان سحب أي وحدة من الشرق، فإننى لم أثر هذا الموضوع أمام أحمد إسماعيل عند عودتى إلى المركز ١٠ مساء يوم ٢٠، وافترضت أن اللواء ١٥ مدرع مازال غرب القناة شمال ترعة الإسماعيلية كما أبلغنى اللواء عبد المنعم خليل. ولكن جمال حماد خلق مشكلة عن مكان تمركز اللواء ١٥ مدرع يوم ٢٠ أكتوبر. وأخذ يصر على أن هذا اللواء لم يتم سحبه من شرق القناة إلا بعد وقف إطلاق النار. وجاء على لسانه ما يلى: «إذا كان لدى الشاذلي أي شك في كلامى، فإننى أنصحه بالاتصال بالأخ اللواء تحسين شنن محافظ السويس حاليا لكى يتأكد بنفسه

من صدق ودقة المعلومات التي ذكرتها». ومع جزئية هذا الموضوع وعدم تأثيره من قريب أو بعيد على موضوع الحوار، فإنه مادام يحظى بهذا الاهتمام من جمال حماد، فإنى أنصحه بأن يعيد قراءة ما كتبه هو نفسه في دراسته حين كان يتحدث عن مقارنة القوات المدرعة المصرية والإسرائيلية يوم ٢٠ أكتوبر. فقد قال بالحرف الواحد: «كان للعدو غرب القناة ٧ ألوية مدرعة (٣ في فرقة أدان، ٢ في فرقة شارون، ٢ في فرقة ماجن) بينما لم يكن للقوات المصرية سوى ٣ ألوية مدرعة (٢ في الفرقة الرابعة المدرعة، علاوة على اللواء ١٥ المدرع المستقل بقطاع الجيش الثانى شمال ترعة الإسماعيلية). وبمقارنة القوات بعضها ببعض يتضح أن العدو كان يتفوق على قواتنا غرب القناة بنسبة ٧ إلى ٣ أي أكثر من الضعف». فأيهما نصدق يا أخ جمال؟ وقد سبق أن كتب جمال حماد الباحث ما يلى: «إن غرضنا الأساسى من إجراء هذه الدراسة هو الإجابة بطريقة علمية وبأسلوب موضوعى عن السؤال المهم الذي ظل بلا إجابة حتى الآن، وهو: «هل كان ممكنا من الناحية الواقعية تنفيذ الاقتراح الذي تقدم به الفريق سعد الشاذلي رئيس الأركان إلى الفريق أول أحمد إسماعيل القائد العام في مساء يوم ٢٠ أكتوبر بمقر القيادة العامة بالمركز ١٠ عقب عودته من الإسماعيلية، وهو سحب ثلاثة ألوية مدرعة من الجيش الثانى ولواء مدرع من الجيش الثالث من شرق القناة إلى الغرب لضرب الثغرة؟»».

والموضوع ببساطة شديدة يتطلب من أي باحث أن يجيب عن السؤال التالي: «أيهما كان أفضل للقوات المسلحة المصرية مساء يوم ٢٠ أكتوبر؟ أن تسحب تلك الألوية المدرعة من الشرق للتعامل بها ضد الثغرة في الغرب، أم تبقى في أماكن تمركزها شرق القناة حتى نهاية الحرب؟». ولكن جمال حماد المحامى اعتمد في دفاعه عن السادات على نقطتين رئيسيتين:

النقطة الأولى هى عدم إمكانية سحب الألوية الأربعة. النقطة الثانية هى أن جميع القادة العسكريين الذين حضروا مؤتمر القيادة مساء يوم ٢٠ أكتوبر عارضوا سحب هذه الألوية الأربعة من الشرق. وتصور أنه بذلك يمكنه أن يجد للسادات مخرجا ويشرك جميع القادة العسكريين في مسئولية القرار الذي يقضى بعدم سحب الألوية المدرعة من الشرق.

أما عن النقطة الأولى، فلكى يكون الدفاع مقنعا، فإنه يجب أن تجرى مقارنة بين قواتنا وقوات العدو شرق وغرب القناة مساء يوم ٢٠ أكتوبر، ويوضح عدد الدبابات لدى كل طرف، ولكن جمال حماد المحامى أخذ يترافع عن موقف ألويتنا المدرعة مساء يوم ١٨

أكتوبر، أي قبل يومين من التوقيت الذي ينعقد فيه مؤتمر القيادة في المركز ١٠ . أنا شخصيا لا أستطيع أن أقدم اليوم يومية قتال تبين عدد الدبابات التي كانت في كل لواء مدرع مساء يوم ٢٠ أكتوبر، ولكنى أرفض في نفس الوقت رفضا باتا الأرقام التي قدمها جمال حماد عن موقف قواتنا المدرعة يوم ١٨ أكتوبر. فلو صحت هذه الأرقام، فإن ذلك يعنى أن مصر قد خسرت ٨٥ بالمائة من قواتها المدرعة حتى يوم ١٨ أكتوبر فقط. في حين أن يوميات القتال التي تبين عدد الدبابات في الألوية الأربعة المدرعة يوم ٢٥ أكتوبر، أي بعد وقف إطلاق النار، وبعد أسبوع آخر من القتال، تبين أن خسائرنا في الدبابات كانت أقل من ذلك بل بكثير جدا. وأنا لن أحدد إجمالى خسائرنا في الدبابات في تلك الحرب حتى لا أتهم بأنى أذيع أسرارا حربية. ولكنى أشير إلى ما أعلنه السادات نفسه في خطاب له نشر بصحيفة الأهرام بتاريخ ١/ ١٠/ ١٩٧٦، يقول فيه إن إجمالى خسائرنا في الدبابات كانت ٥٠٠ دبابة. وهى نسبة تقل عن ٣٠٪ من عدد الدبابات التي دخلنا بها الحرب. طبعا ستقول إن نسبة الخسائر في لواء مدرع قد تختلف عن نسبة الخسائر في لواء آخر أو في كتيبة دبابات من تلك التي تدخل في تنظيم المشاة. وهذا صحيح. وقد تطعن في مصداقية السادات، وإن كان ذلك سيضعف موقف السادات الذي تدافع عنه. ولذلك ومن أجل معرفة الحقيقة، فإنى أقترح تشكيل لجنة تقصى الحقائق تحدد عدد الدبابات التي كانت في كل لواء مدرع وكتيبة دبابات مساء يوم ٢٠ أكتوبر، كما تقوم اللجنة بتقدير دبابات العدو شرق وغرب القناة في نفس التوقيت. حيث إنه بدون الاتفاق على ذلك، فإننا سندخل في مناقشات بيزنطية لن توصلنا إلى شيء. فهل يقبل جمال حماد المحامى بقرار هذه اللجنة؟

يقول جمال حماد ضمن دراسته: «إن الأمر الثابت وفقا للمراجع الموثوق بصحتها، والذى برهن على صدقه مجرى الأحداث نفسها، أن إسرائيل استطاعت أن تحشد أمام الجبهة المصرية ١٠ ألوية مدرعة وليس ٩ ألوية مدرعة». ويلاحظ أن جمال حماد يتحدث على أساس المعلومات المتيسرة بعد ١٣ سنة من انتهاء الحرب. أما أنا فإنى أتحدث على أساس المعلومات التي كانت متيسرة لدينا مساء يوم ٢٠ أكتوبر، والمرجع لنا في ذلك الوقت هو إدارة المخابرات الحربية فرع الاستطلاع. ومع ذلك فحتى لو افترضنا صحة البيانات التي قدمها جمال حماد وأن العدو مساء يوم ٢ أكتوبر ٧٣، كان له ٧ ألوية مدرعة غرب القناة و٣ ألوية مدرعة شرق القناة، فإن ذلك لن يغير إطلاقا من سلامة اقتراح

الشاذلي بسحب الألوية المدرعة الأربعة ليلة ٢٠ / ٢١ أكتوبر. بل العكس هو الصحيح، إذ إنه يجعل الاقتراح بسحب الألوية المدرعة الأربعة أكثر إلحاحا.

هذا من ناحية المقارنة في الغرب. أما بالنسبة لإجراء مقارنة تبين قدرة تشكيلاتنا في الشرق على صد أي هجوم مدرع يقوم به العدو بواسطة الألوية المدرعة الثلاثة التي يملكها في الشرق، فقد مر جمال حماد عليها مرورا سريعا بتوجيه سؤال إلى الشاذلي يقول فيه: «هل كان في مقدور الفرقة ١٦ مشاة أن تصد هجوما مدرعا يقوم به لواء مدرع قوامه ١٢٠ دبابة؟». وأقول له بدون تردد: نعم، وبكل تأكيد.. والحكم في ذلك هو حساب عدد الدبابات والقطع المضادة للدبابات التي كانت بحوزة الفرقة ١٦ مشاة مساء يوم ٢٠ أكتوبر.

وبالإضافة إلى هذا السؤال أثار جمال حماد نقطة مهمة جدّا وهى احتمال أن يقوم العدو بسحب عدد من ألويته المدرعة من غرب القناة إلى شرقها، وذلك عندما قال: «وبهذه المناسبة أود أن أوجه نظر الشاذلي إلى أمر مهم ربما يكون قد غاب عن ذهنه، وهو أن الفكرة التي كان يقترح تنفيذها مساء يوم ٢٠ أكتوبر بسحب الألوية المدرعة من الشرق إلى الغرب كان يمكن للعدو أيضا التفكير في تنفيذها ولكن في عكس الاتجاه بالطبع. أي قد يفكر في سحب بعض وحداته المدرعة من غرب القناة إلى الشرق، مما يؤدى إلى مضاعفة حجم قواته شرق القناة في فترة قصيرة». وإليه أقول: لم يغب عنى ذلك، فقد كنت أتمنى حدوثه. ولو فعل العدو ذلك فإنه يعنى أننا قد انتزعنا منه المبادأة. إن إجراء تحركات بواسطة وحداتنا وتشكيلاتنا يترتب عليها إرغام العدو على التصرف طبقا لإرادتنا، هو قمة النجاح على المستوى التعبوى والإستراتيجى.. فلو سحب العدو ألويته المدرعة السبعة إلى شرق القناة، فإننا نكون قد حققنا مكاسب متعددة أجملها فيما يلى: واحد: تصفية الثغرة في منطقة الدفرسوار. اثنين: العودة إلى خططنا الأصلية التي تقوم على أساس استنزاف القوة البشرية للعدو وإطالة فترة الحرب، وهما نقطتا الضعف الرئيسيتان لدى العدو. وبالإضافة إلى ذلك، فليس هناك أي خوف على مواقعنا شرق القناة. فليس من المعقول أن تتغلب ١٠ ألوية مدرعة إسرائيلية على ٥ فرق مشاة. قد يستطيع العدو أن يركز هجومه المدرع على إحدى الفرق المشاة. وقد ينجح في تدمير الفرقة ١٦، ولكنه كان سيدفع ثمنا غاليا جدا لايستطيع من بعده أن يواصل القتال، وتطول الحرب ويستمر استنزاف قوة العدو البشرية التي هى أساس الخطة التي دخلنا بها حرب أكتوبر..

موقف القادة من اقتراح الشاذلي

النقطة الثانية التي تقدم بها جمال حماد لتبرير قرار السادات الذي كان يقضى برفض اقتراح الشاذلي بسحب الألوية المدرعة من الشرق يوم ٢٠ أكتوبر، هى اعتقاده بأن السادات ما كان ليرفض الاقتراح لو أن القادة العسكريين أيدوه. . وهو لذلك يستنتج - مجرد استنتاج لا يعتمد على دليل - أن القادة العسكريين عارضوا اقتراح الشاذلي وأيدوا قرار السادات. . وهدف جمال حماد من ذلك واضح. . فهو يريد أن يقول إن القرار الذي اتخذه السادات في هذا الموضوع هو قرار جماعى. . وحتى لو ثبت أنه كان قراراً خاطئًا فإن مسئولية الخطأ لا تقع على السادات وحده وإنما تمتد لتشمل كل من أيد هذا القرار. .

فى مذكراتى التي نشرتها عن حرب أكتوبر، ذكرت أسماء القادة الذين حضروا مؤتمر القيادة مساء يوم ٢٠ أكتوبر، ولكنى لم أذكر تفاصيل ما دار في هذا المؤتمر احترامًا لحقوق الزمالة، وحتى أتيح لكل منهم توضيح موقفه بنفسه. لقد حضر هذا المؤتمر ثمانية رجال غيرى، مات منهم حتى الآن ثلاثة هم: السادات وأحمد إسماعيل، وعبد الفتاح عبد الله. وما زال على قيد الحياة خمسة هم اللواءات طبقًا لرتبهم في ذلك الوقت: محمد على فهمى قائد الدفاع الجوى، حسنى مبارك قائد القوات الجوية، عبد الغنى الجمسى رئيس هيئة العمليات، سعيد الماحى مدير المدفعية، فؤاد نصار مدير المخابرات. وبدلا من أن يذهب جمال حماد الباحث إلى هؤلاء القادة ليسألهم عما دار في المؤتمر، فإن جمال حماد المحامى أعلن في دفاعه أن الاستنتاج الوحيد لعدم قيام الشاذلي بذكر تفاصيل ما دار في هذا المؤتمر هو أن هؤلاء القادة لابد أنهم عارضوا اقتراحه بسحب هذه الألوية المدرعة، وبالتالى يكون رفض السادات لاقتراح الشاذلي قد تم بتأييد من جميع القادة العسكريين! ولا أعرف كيف يقبل جمال حماد الباحث بهذا الاستنتاج دون بحث وتمحيص؟ أليس هناك احتمالات أخرى غير ذلك؟ أما كان الأجدر بجمال حماد الذي يحاورنى وأنا على مسافة ٣٠٠٠ كيلو متر بعيداً عنه، أن يسعى إلى لقاء مع هؤلاء القادة الذين يعيشون جميعًا في القاهرة على بعد خطوات منه لكى يستمع إلى شهادتهم قبل أن يدلى بهذا الاستنتاج المتسرع؟ . . . لن أزيد اليوم في الحديث عن هذا الموضوع أكثر من ذلك، ولكنى في انتظار ما ينشره جمال حماد بعد لقائه مع هؤلاء القادة الخمسة.

سبق أن قلت إن الاقتراح بسحب الألوية المدرعة مساء يوم ٢٠ أكتوبر كان هو

أفضل الحلول المتاحة أمامنا مساء يوم ٢٠ أكتوبر . . وطالبت من يعارض هذا الاقتراح أن يقدم البديل . . وسبق أن قلت إن أفضل خطة للقضاء على الثغرة هى التي اقترحتها يوم ١٦ أكتوبر ولكنها لم تنفذ. ولكن جمال حماد انتهى من تحليله إلى القول: «إنني يا أخ سعد لا أستطيع أن أدعى أن في إمكانى تقديم البديل الأفضل للحل الذي اقترحته أنت مساء يوم ٢٠ أكتوبر، فقد وصل الموقف التكتيكى لقواتنا ـ بفضل أخطاء المسئولين في (المركز ١٠) إلى مأزق يصعب معه على أي إنسان ـ مهما بلغت براعته وعبقريته ـ أن يهتدي إلى حل سليم، إذ إن أي حل مقترح سيكون مليئا بالعيوب. ولذا فإن أفضل حل في نظرى ـ رغم اعترافي بما يكتنفه من عيوب جسيمة ـ كان هو إبقاء الأوضاع على الضفة الشرقية للقناة على ما كانت عليه، حتى تظل رءوس الكبارى قوية صامدة، ومحاولة احتواء القوات المدرعة الإسرائيلية غرب القناة بكل ما يمكن حشده من قوات نظامية أو حتى غير نظامية لمنع العدو من توسيع الثغرة غربا».

وأنت حر يا أخ جمال حماد في أن تدلى برأيك الذي تقتنع به. ولكنى أختلف معك اختلافا جذريا حول هذا الاستنتاج . . ويكفى أن نعلم أن هذا القرار الذي اتخذه السادات، والذى تؤيده أنت اليوم، قد أدى إلى حصار الجيش الثالث ومدينة السويس . . فهل تعتقد أن الأخذ باقتراحى كان سيؤدى إلى ما هو أسوأ من ذلك؟ إن هذا الموضوع أكبر من أن ينتهى بهذا الحوار الضيق. بل يجب أن يكون موضوع دراسات ومناظرات يشترك فيها أكبر عدد من العسكريين والسياسيين. ومهما اختلفنا في الرأى، فسيكون لك دائما الفضل في أنك أول من فتح هذا الملف المهم. وقبل أن أنهي هذا الحوار أود أن أعتذر مقدما عن أي كلمة أو تعبير جاف يكون قد صدر منى . . فأنت يا أخ جمال تمارس الكتابة كباحث وكمدافع عن تصرفات السادات مؤسس الحزب الوطني الديمقراطى الذي من المفترض أن تكون أحد أعضائه. أما أنا فإني أمارس الدفاع عن نفسي ضد اتهامات وافتراءات ظالمة. وقد قال تعالى في الآية رقم ١٤٨ من سورة النساء. ﴿لا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلاَّ مَن ظُلِمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾. فأرجو أن تقبل نقدي بسعة صدر.

من جمال حماد إلى الفريق سعد الشاذلي
نعم..القادة العسكريون عارضوا اقتراحك

أود قبل مناقشة ماورد في رسالة الأخ سعد من تعليقات أن أنوه أن ضيق المجال لن يتيح لي الفرصة كي أتناول بالتعليق كل ما ورد في رسالته من ملاحظات، ولذا سأكتفي لفائدة

القراء بالتركيز على النقاط الجوهرية التي أرى أنها ستكون موضع اهتمامهم. وقد لاحظت في المقابل أن الفريق الشاذلي قد أغفل أيضا الرد على كثير من الملاحظات والتساؤلات التي وجهتها إليه في ردودى السابقة على رسالته الأولى، ويبدو أن السر في ذلك يرجع أيضا إلى نفس السبب الذي ذكرته، أي إلى ضيق المجال.

تدعيم الفرق المشاة بالألوية المدرعة

ذكر الشاذلي في رسالته تعليقًا على ما أبديته من أهمية الاحتفاظ باحتياطي تعبوى واحتياطي إستراتيجى تحت يد القيادة العامة للقوات المسلحة، ما يلى: «إذا كنا نريد حقا أن نستفيد من أخطائنا في حرب أكتوبر، وألا تذهب هدراً الدماء الزكية التي استشهدت في تلك الحرب المجيدة، فيجب علينا أن نعترف بأن القيادة العامة للقوات المسلحة المصرية قد ارتكبت أخطاء جسيمة فيما يتعلق بتوزيع واستخدام احتياطياتها التعبوية والإستراتيجية، وأنها لم تحاول استخدام أسلوب المناورة لخلق احتياطيات جديدة، بدلا من تلك التي قامت ببعثرتها أو التي تسببت في تدميرها نتيجة سوء استخدامها».

ولقد سبق لى أن سجلت في مواضع عديدة من دراستى الأخطاء الجسيمة التي ارتكبتها القيادة العامة المركز ١٠ من جهة بعثرة وتشتيت الاحتياطى التعبوى للجيشين الثانى والثالث، مما أدى إلى عجز قائديهما عن شن أي هجوم مضاد رئيسى ضد العدو عقب عبوره إلى الضفة الغربية، وكذا تشتيت القيادة العامة لاحتياطيها الإستراتيجى مما جعلها عاجزة عن القيام بالضربة المضادة التي كان من واجبها القيام بها بعد أن اتسعت ثغرة الاختراق الإسرائيلية في الدفرسوار واستفحلت إلى الدرجة التي وصلت إليها في المرحلة الأخيرة من الحرب.

ولم أكن أطمع في ظهور تأييد للرأى الذي أبديته أكثر من ذلك الاعتراف الكامل الذي صدر من رئيس أركان حرب القوات المسلحة في حرب أكتوبر ٧٣.

ولكن السؤال الذي يحق لنا أن نوجهه إلى الأخ الشاذلي بعد إدلائه بهذا الاعتراف الخطير. ترى هل يعتبر نفسه وقد كان رئيسا للأركان في ذلك الوقت خارج نطاق المسئولية بالنسبة لهذه الأخطاء الجسيمة التي ارتكبتها القيادة العامة؟ ألم يكن بحكم وظيفته هو الرجل الثاني في القيادة العامة وكانت هيئة العمليات تتبعه مباشرة وبالتالي يصبح الاتهام الذي يوجهه إلى القيادة العامة بمثابة اتهام يوجهه ضد نفسه شخصيّا؟ ترى

هل نعتبر هذا الاعتراف منه بأخطائه شجاعة أدبية ينبغي أن يحظى منا من أجلها بالتقدير، أو أنه محاولة منه للتنصل من تبعة الأخطاء التي وقعت فيها القيادة العامة على اعتبار أن آراءه ووجهات نظره لم يكن يؤخذ بها نظراً لأوجه الخلاف التي كانت قائمة بينه وبين القائد العام وقتئذ الفريق أحمد إسماعيل؟ ولكن هل يعتقد الشاذلي أن ذلك على فرض صحته يعفيه من المسئولية التاريخية؟

ذكر الشاذلي في رده تعليقًا على النقاش الذي دار بيننا حول تدعيم الفرق المشاة الخمس التي عبرت إلى شرق القناة بألوية مدرعة ما يلى: «قد كنت على اقتناع بأن الفرق المشاة بما لديها من دبابات ووسائل مضادة للدبابات، كانت قادرة على تنفيذ المهام المكلفة بها ضمن الخطة دون الحاجة إلى تدعيمها بلواء مدرع. ولكن السادات طلب من أحمد إسماعيل أن يتم الاستيلاء على القنطرة في أسرع وقت ممكن حتى يمكنه أن يستغل ذلك دعائيا، فما كان من أحمد إسماعيل إلا أن أمر بتدعيم الفرقة المكلفة بالاستيلاء على القنطرة بلواء مدرع. ثم عاد السادات يكرر نفس الطلب بالنسبة للإسماعيلية والسويس، فهو يريد أن تصبح المدينتان خارج مرمى مدفعية العدو في أسرع وقت ممكن، فما كان من أحمد إسماعيل إلا أن أمر بتدعيم الفرقتين اللتين تدخل المدينتان في قطاعيهما كل بلواء مدرع. وهنا أبدى قائدا الفرقتين الباقيتين شكواهما، وطالبا بالمساواة مع الفرق الثلاث الأخرى فأمر أحمد إسماعيل بتدعيم كل منهما بلواء مدرع، وهذا كان يعنى أننا بعثرنا خمسة ألوية من إجمالى ٩ ألوية هى كل ما نملك منذ اللحظة الأولى للمعركة، وكان هذا هو الخطأ الأول. ولم أعارض بشدة هذا التصرف، نظراً لعلمي بالظروف النفسية التي دفعت السادات وأحمد إسماعيل إلى هذا النهج».

ويبدو أن الشاذلي قد أراد بهذا الرد التخلص من المأزق الذي وضعته فيه في ردي السابق عليه عندما سألته عن السر في قبوله، وهو رئيس للأركان وتتبعه هيئة العمليات، تدعيم كل فرقة من الفرق المشاة الخمس التي عبرت القناة بلواء مدرع ما دام قد أكد لنا في رسالته الأولى أن نصف حجم السلاح الذي يدخل ضمن تنظيم الفرقة المشاة - وبدون أي دعم خارجي - يكفي لصد لواءين مدرعين، أي أنه يعتبر مسئولا عن بعثرة خمسة ألوية مدرعة دون أي داع رغم أنها كانت من ضمن الاحتياطيات التعبوية والإستراتيجية. غير أن التبرير الذي ساقه الشاذلي لإقناعنا بالأسباب التي من أجلها تم تدعيم الفرق المشاة بالألوية المدرعة هو تبرير واه لا يمكن تصديقه، للأسباب الآتية:

١ - إذا كان هذا التبرير صحيحا، فإن ذلك يعني أن السادات الذي يمثل القيادة السياسية

والذى لا شأن له بالعمليات، كان يتحكم بآرائه وتوجيهاته في أدق الشئون الخاصة بالخطط والعمليات الحربية، وأن المسئولين في (المركز ١٠) كانوا حريصين على تلبية مطالبه والاستجابة لرغباته سواء كانت صحيحة من الوجهة التكتيكية أو غير صحيحة، وإلا فما معنى أن تخصص ثلاثة ألوية مدرعة لتدعيم ثلاث فرق مشاة لمجرد مراعاة ظروفه النفسية؟

٢ - هل من المعقول أن الخطة الهجومية التي تم إعدادها لحرب السادس من أكتوبر والتي كانت أنجح ما تم تخطيطه وتنفيذه في القوات المسلحة في عصرنا الحالي، قد جرى التخطيط لها بهذا الأسلوب الذي يتنافى مع جميع الأصول والمبادئ السليمة؟ هل نصدق أن تدعّم ثلاث فرق مشاة بثلاثة ألوية مدرعة - بلا داع - بناء على رغبة رئيس الجمهورية، ثم تدعم الفرقتان المشاة الباقيتان بلواءين مدرعين لمجرد أن قائدي الفرقتين تقدما بالشكوى وطالبا بالمساواة مع الفرق الثلاث الأخرى؟ وكيف يحدث ذلك رغم أن رئيس الأركان، وهو المسئول الأول عن إعداد الخطة الهجومية بالاشتراك مع هيئة العمليات، كان على اقتناع تام بخطأ هذا التصرف، واعترف بأنه بعثرة للألوية المدرعة الخمسة، وسجل في رده أن ذلك كان هو الخطأ الأول الذي ارتكبته القيادة العامة؟

وقد حرص الشاذلي على أن يوضح في رده أنه لم يعارض بشدة هذا التصرف حتى يتجنب الإحراج الذي يتوقع أن يواجهه حينما نوجه إليه سؤالنا عن السر في عدم تسجيل معارضته لهذا التصرف الخاطئ من وجهة نظره في مذكراته التي نشرت، رغم حرصه الشديد على تسجيل كل مواقف الاعتراض التي وقفها خلال الحرب سواء في مواجهة أحمد إسماعيل أو في مواجهة السادات.

الباحث ومحامي الدفاع

ذكر الشاذلي في رسالته ما يلى: «عندما أقرأ ما يكتبه جمال حماد أشعر أحيانا كأني أمام باحث مدقق ورجل عسكري مثقف واسع الاطلاع. وأحيانًا أخرى أشعر كأني أقرأ مرافعة محام وهب نفسه للدفاع عن السادات في قضية تشير جميع الأدلة إلى أنها قضية خاسرة. وما يحزنني حقا هو أن مرافعات جمال حماد المحامي كثيراً ما تفسد الجانب المضيء في جمال حماد الباحث والمحلل العسكري». ولست أشك في أن الدهشة التي أصابتنى من جراء هذا الاتهام الظالم قد أصابت الكثيرين من القراء ممن قرءوا مثلك يا أخ

سعد ما سبق لي أن دونته في هذه الدراسة والتي تعرضت فيها بالدراسة الموضوعية والتحليل الدقيق لقصة الخلاف الذي نشب بينك وبين الرئيس الراحل السادات خلال المرحلة الأخيرة من الحرب، والتي انتهت بتنحيتك عن منصبك وتعيين الجمسي مكانك، وهي الدراسة التي أوضحت فيها على الملأ وبالدليل القاطع مدى الافتراءات الظالمة التي ألحقها بك السادات ومدى سلامة موقفك إلى الحد الذي جعل البعض يتهمني بالتحيز إلى جانبك. ويعلم الله أنني لم أكن متحيزا إلا إلى جانب الحق. ولذا كانت مفاجأة مذهلة أن توجه لي أنت شخصيًا أحط تهمة يمكن أن توجه إلى مؤرخ، وهي أنني وهبت نفسي لا للدفاع عن الحق كما يشهد لي بذلك كل قرائي، ولكن للدفاع عن السادات. هل يوجد أي تبرير معقول يمكن أن يقنع الناس بهذا الافتراء الباطل الذي وجهته إلي؟ ما الفوائد التي سأجنيها يا أخ سعد حينما أهب نفسي للدفاع عن السادات، وهو ما يعني بصريح العبارة أنني سأنافقه على حساب الحق وتصبح مقالاتي كما ذكرت مجرد مرافعة محام للدفاع عنه في قضية خاسرة؟ إنني لم أحاول أن أنافق السادات حينما كان على قيد الحياة وكانت في يده مقاليد القوة والنفوذ والسلطان، وكان في الإمكان عن طريق هذه الوسيلة اجتناء المغانم والثمار والحصول على المكاسب والمناصب - مثلما فعل الكثيرون - ولكن ما الدافع الذي يغريني اليوم على أن أنافقه وقد انتقل الرجل إلى رحمة الله وأصبح لا يملك لي نفعا ولا ضرا؟

ومن العجيب أن تختتم رسالتك بقولك إنني أدافع عن تصرفات السادات لأنه هو مؤسس الحزب الوطني الذي من المفترض أن أكون أحد أعضائه. ويهمني أن أوضح لك يا أخ سعد أنني مع احترامي وتقديري للحزب الوطني - وهو الحزب الحاكم في البلاد - فإنني لم أكن في يوم من الأيام من أعضائه لأنني منذ أصبحت رجلا عسكريًا ظللت محافظا منذ ذلك الحين على تقاليد الجيش ولوائحه التي تحرم على ضباطه الانتماء للهيئات والأحزاب والاشتغال بالسياسة. وما زلت رغم تركي الخدمة العسكرية منذ زمن بعيد متمسكًا بهذه التقاليد بدقة وأمانة، ولم أنضم في حياتي إلى هيئة أو حزب إلا انضمامي بالطبع إلى تنظيم الضباط الأحرار الذي كنت أستهدف من ورائه الاشتراك مع إخواني وزملائي الأحرار في إنقاذ مصر من محنتها، حينما قمنا بالثورة ليلة ٢٣ يوليو ١٩٥٢. ولم تكد حركة الجيش تنتهي بالنجاح حتى عدت ثانية إلى صفوف الجيش - ضابطًا عاملاً منضبطًا - دون أن أنغمس في السياسة مثل غيري من ضباط الثورة، أو أحاول اجتناء أي مغنم أو مكسب لقاء الدور المهم الذي قمت به ليلة الثورة.

إن الكثيرين من القراء يا أخ سعد مبهورون بالحوار الدائر بيننا لفرط ما اتسم به من موضوعية وجدية، ولما تميز به من التركيز على النواحي العلمية والتكتيكية وأصول الفن العسكرى وابتعاده تمامًا عن أي مهاترات أو صغائر، فلماذا بربك تفسد هذا الحوار الذي شهدت أنت نفسك في رسالتك الأخيرة بأنه حوار ممتع؟ ولماذا ترضى أن يهبط الأسلوب الراقي الذي نتحاور به إلى مثل هذا الدرك الوخيم؟ إن القضية التي نتحاور بشأنها قضية عسكرية فنية تتعلق بالاقتراح الذي تقدمت به أنت مساء يوم ٢٠ أكتوبر ٧٣ إلى القائد العام لسحب أربعة ألوية مدرعة من شرق القناة إلى الغرب لمواجهة التهديد الإسرائيلي غرب القناة. لقد أبدى كل منا وجهة نظره في هذه القضية العسكرية الفنية، واجتهد كل منا في أن يسوق كل ما لديه من حجج وأسانيد منطقية ليدلل على صواب رأيه. وكانت المناقشة شائقة والحوار ممتعًا والأعصاب هادئة والقراء يتابعون تلك المحاورة العلمية بشغف واهتمام، وإذا بك تفاجئ الجميع بالخروج عن النظام وتوجيه ضربة إلىّ تحت الحزام.

ولعل أكثر ما أصاب الجميع بالدهشة والتعجب هو ذلك التناقض العجيب الذي وضح في رسالتك الأخيرة. ففى حين تتهمنى في مواضع منها بأننى محام وهب نفسه للدفاع عن السادات، إذا بك في موضع آخر منها تكيل لى المديح لشجاعتى في تكذيب ادعاءات السادات ضدك. ولعلك تذكر أنك قلت بالحرف: «لقد كذّب جمال حماد الباحث كل ادعاءات السادات ضد الشاذلي وأقر بأن الشاذلي عندما عاد إلى المركز ١٠ يوم ٢٠ أكتوبر أوصى بضرورة سحب جزء من القوات من الشرق لكى يتعامل بها ضد العدو في الغرب. وقال في شجاعة إن السادات قد ادعى كل ذلك على الشاذلي لكى يحمله وحده مسئولية ثغرة الدفرسوار، وإنى أسجل له هذا الموقف الشجاع الذي لم يصدر بشكل علنى من أي كاتب أو صحفى أو سياسى مصرى طوال الثلاث عشرة سنة الماضية رغم عشرات الكتب ومئات المقالات التي نشرت في مصر والتى سجلت فيها ادعاءات السادات». ولا أدرى ياأخ سعد بعد قراءتى لهذا الكلام كيف تتيسر لى المقدرة للقيام بدور محامى السادات وممثل الادعاء ضده في وقت واحد. ليس هناك أي تفسير لهذا التناقض والتخبط في تقييمك لكتاباتى التي يشهد الجميع بصدقها وحيدتها - سوى تعليل واحد وهو يتعلق بحالتك النفسية ومزاجك الشخصى حينما تقرأ ما أكتبه. فإذا صادف ما أقوله ارتياحا لديك ورضاء منك لأن الكلام في صفك فأنا في نظرك وقتئذ جمال حماد الباحث والمدقق والرجل العسكرى المثقف واسع الاطلاع والكاتب الشجاع الذي لم يستطع أن يجاريه في شجاعته أحد من الكتاب أو الصحفيين أو السياسيين منذ انتهاء حرب أكتوبر ٧٣ حتى

اليوم. أما إذا صادف ما أقوله صدًا ونفورًا أو سخطًا منك لأن وجهة النظر التي كتبتها تتعارض مع وجهة نظرك أو ليست في صفك فسرعان ما تسلبنى كل ما أسبغته علىّ من قبل من صفات حميدة، وأصبح في نظرك مجرد محام وهب نفسه للدفاع عن السادات، وتتحول كتاباتى الممتعة إلى مجرد مرافعات يائسة في قضية خاسرة. إننى يا أخ سعد لا أستطيع أن أسخر قلمى للكتابة في صفك بالحق وبالباطل لأحظى برضائك، فإن قلمى لم أسخره طول حياتى لحساب مخلوق مهما كان شأنه، ولكننى أكتب ما أقتنع بأنه الحق، مهما كلفنى من متاعب.

لقد أيدت موقفك حينما وجدت أن السادات قد تجنى عليك بالباطل، وعارضت اقتراحك بسحب الألوية المدرعة إلى الغرب لادفاعًا عن قرار السادات ولاتجنيا عليك، فإن الدوافع الشخصية لا تتدخل مطلقا في كتاباتى، وإنما لأننى مقتنع بأن اقتراحك لم يكن في الإمكان تنفيذه من الناحية الواقعية - رغم سلامته من الناحية التكتيكية - وقد أوضحت وجهة نظرى بالتفصيل بشأن هذا الموضوع من قبل، وقد استندت فيها إلى أدلة علمية وأسانيد تكتيكية، ولم أحاول الالتجاء إلى أسلوب العاجزين وهو أن أترك موضوع النقاش الأصلى جانبًا وأتخلى عن الأسلوب المتحضر في النقاش لكى أرمى من أقوم بمحاورته بالتهم الكاذبة والادعاءات الباطلة في سبيل الحصول على نصر رخيص، وهو الأسلوب الذي انتشر في الآونة الأخيرة للأسف وهبط بلغة الحوار بين بعض الكتاب إلى الحضيض. ولولا يا أخ سعد أننى أعرف جيدًا توقيعك لاتجه ظنى على الفور إلى أن أحد الحاقدين عليك قد دس علينا رسالتك للإساءة إليك وتشويه صورتك أمام القراء.

موقف القادة العسكريين من اقتراح الشاذلى

ذكر الشاذلي ضمن رسالته ما يلى: «فى مذكراتى التي نشرتها عن حرب أكتوبر ذكرت أسماء القادة الذين حضروا مؤتمر القيادة يوم ٢٠ أكتوبر ولكنى لم أذكر تفاصيل ما دار في هذا المؤتمر احترامًا لحقوق الزمالة وحتى أتيح لكل منهم شرف توضيح موقفه بنفسه.

وبدلا من أن يذهب جمال حماد الباحث إلى هؤلاء القادة ليسألهم عما دار في المؤتمر، فإن جمال حماد المحامى أعلن في دفاعه أن الاستنتاج الوحيد لعدم قيام الشاذلي بذكر تفاصيل ما دار في هذا المؤتمر هو أن هؤلاء القادة لابد أنهم عارضوا اقتراحه بسحب هذه الألوية المدرعة. ولا أعرف كيف يقبل جمال حماد الباحث هذا الاستنتاج دون بحث وتمحيص؟ أما كان الأجدر بجمال حماد الذي يحاورنى وأنا على مسافة ٣٠٠٠ كيلو متر

بعيداً عنه أن يسعى إلى لقاء مع هؤلاء القادة الذين يعيشون جميعا في القاهرة على بعد خطوات منه لكى يستمع إلى شهادتهم قبل أن يدلى بهذا الاستنتاج المتسرع؟ إننى في انتظار ما ينشره بعد لقائه مع هؤلاء القادة الخمسة».

وردى على هذه الأقوال التي سجلها الشاذلي في رسالته يتلخص في النقاط التالية :

لا أعتقد أن أحداً من المؤرخين أو الباحثين يمكن أن يوافق على ما قاله الشاذلي من أنه لم يذكر تفاصيل ما دار في مؤتمر القيادة مساء يوم ٢٠ أكتوبر بحجة هذين السببين اللذين لايمكن قبولهما عقلاً ولا منطقا، إذ كيف يمكن تسجيل التاريخ إذا أغفل المؤرخون والباحثون تدوين الأحداث الخطيرة التي تقع بحجة احترام الزمالة من جهة، ولكى يتاح للرجال الذين أسهموا في صنع الأحداث من جهة أخرى شرف أن يوضح كل منهم موقفه بنفسه؟ إن حرب أكتوبر قد مضى عليها الآن حوالى ١٤ عاما يا أخ سعد ولم يحاول أحد من هؤلاء الذين ذكرتهم أن يتولى شرف توضيح موقفه بنفسه كما رأيت، وأنت لا تريد ذكر تفاصيل ما دار في المؤتمر احتراما لحقوق الزمالة، ترى هل هذه هى الطريقة السليمة لتدوين التاريخ الصحيح، أو هى في واقع الأمر الوسيلة المبتكرة للتهرب من تسجيل الوقائع الصحيحة؟ إن السببين اللذين تذرعت بهما يا أخ سعد للتخلص من الحرج الذي تواجهه لا يمكن لأحد أن يصدقهما حتى ولو كان طفلا غريراً.

وفى الوقت الذي حرصت فيه يا أخ سعد على شرح تفاصيل اقتراحك بسحب الألوية المدرعة من شرق القناة إلى الغرب في مذكراتك وعلى إيضاح موقف كل من السادات وأحمد إسماعيل في المركز ١٠ سواء قبل انعقاد مؤتمر القادة مساء يوم ٢٠ أكتوبر أو بعده، وفى الوقت الذي لم تغفل فيه في الصفحة ٢٦٧ من مذكراتك عن تسجيل الغمزة التي غمزك بها المرحوم المهندس عبد الفتاح عبدالله وزير شئون رئاسة الجمهورية والهمسة التي همس بها في أذنك حين قال لك : «قل شيئا» عقب إصدار الرئيس الراحل السادات قراره في نهاية المؤتمر بعدم سحب أي جندى من الشرق، حرصت هذا الحرص المريب الذي ليس له أي سبب منطقى على إغفال الآراء التي أبداها القادة الخمسة خلال المؤتمر، في حين أن مذكراتك مليئة بلقاءات وأحاديث ومؤتمرات سجلت فيها نص الأقوال وأدق التفاصيل، منذ تعيينك في منصب رئيس الأركان حتى تمت تنحيتك عنه. ليس هناك من سبب حقيقي يدعوك إلى ذلك المسلك في اعتبارى إلا رغبتك في عدم نشر حقيقة الآراء التي أدلى بها هؤلاء القادة في المؤتمر لأنها لم تكن في صالح اقتراحك.

وإذا كان ما سجلته في البندين السابقين من باب الاستنتاج - رغم أنه يستند إلى حقائق دامغة لا تحتمل الشك - فإننى سأذكر فيما يلى وقائع فعلية تخرج عن دائرة الاستنتاج وتنتقل بنا إلى دائرة الأدلة والبراهين القاطعة :

أولا - لقد تم لقائى بالفعل مع اثنين[1] من هؤلاء القادة الخمسة الذين حضروا المؤتمر ممن أثق تماما بصدقهما وقوة ذاكرتهما ، عقب نشر ردى الأول على الشاذلى . وقد أكدا لى خلال اللقاء أن الاستنتاج الذي توصلت إليه ونشرته صحيح تمامًا ، وأن القادة الخمسة كانوا جميعًا ضد اقتراح الشاذلي بسحب الألوية المدرعة من شرق القناة إلى الغرب ، وأن ذلك كان هو السبب الحقيقي في تقاعس الشاذلي عن إبداء رأيه في المؤتمر رغم أن المؤتمر لم ينعقد ولم يحضره السادات إلا بناء على طلبه . وليس أدل على صدق كلامى من أن القادة الخمسة لم يكذب أحد منهم ما سبق لى نشره عن موقفهم خلال المؤتمر ومن أنهم جميعًا عارضوا اقتراح الشاذلي .

ثانيا - تم إنعقاد أول جلسة للمجلس الأعلى للقوات المسلحة بعد حرب أكتوبر في يوم ٤ مارس ٧٥ برئاسة الرئيس الراحل السادات وبحضور ١٩ قائداً يمثلون قيادة القوات المسلحة وقتئذ ، وكان من بين الحاضرين ثلاثة من القادة الخمسة الذين سبق لهم حضور مؤتمر يوم ٢٠ أكتوبر ، وهم الفريق أول عبد الغنى الجمسى (بعد تعيينه وزيراً للحربية وقائداً عامًا للقوات المسلحة عقب وفاة المشير أحمد إسماعيل) ، والفريق محمد على فهمى (بعد تعيينه رئيسًا لأركان حرب القوات المسلحة) ، واللواء فؤاد نصار مدير المخابرات الحربية . وكان الغرض من الاجتماع هو مناقشة الدروس المستفادة من حرب أكتوبر ٧٣ والموقف الحالى للقوات المسلحة واحتمالات المستقبل . وبعد الوقوف دقيقة تحية لذكرى المشير أحمد إسماعيل ، وبعد أن ألقى الفريق أول الجمسى كلمة عن الهدف الإستراتيجى للقوات المسلحة ، تحدث الرئيس الراحل السادات حديثًا مطولا عن بعض الأحداث المهمة التي جرت خلال الحرب وعن الأحوال السياسية والعسكرية وقتئذ .

ومن واقع الوثائق الخاصة بهذا الاجتماع ، يمكن تلخيص المعلومات التي أدلى بها السادات والتى تتعلق بما جرى مساء ٢٠ أكتوبر بالمركز ١٠ فيما يلى (مع ملاحظة أن

---

(١) القائدان المعنيان هما الفريق محمد علي فهمي والفريق سعيد الماحي ، وقد حرصت على تسجيل اسميهما هنا رغم عدم ذكر ذلك في ردي السابق على الشاذلي من أجل الحقيقة والتاريخ ، وحرصا على صالح القراء .

السادات أخطأ نفس الخطأ الذي وقع فيه في كتاب «البحث عن الذات» والذى سبق لى اكتشافه وتصحيحه، وهو أن بعض الأحداث التي يرويها وقعت يوم ٢٠ أكتوبر وليس يوم ١٩ أكتوبر):

١ ـ تحدث السادات عن استدعائه عند منتصف الليل للحضور إلى المركز ١٠ بواسطة المشير أحمد إسماعيل.

٢ ـ شرح السادات كيف عاد الشاذلي منهاراً من الجبهة وأنه قال وهو يرتعد: «لابد من حل سياسي، ولابد من سحب القوات إلى الغرب».

٣ ـ حدد السادات أسماء أربعة من القادة بالذات قال إنهم لم يهتزوا بسبب عملية الثغرة، وكان رأيهم مثل رأيه، وهو تثبيت القوات في الشرق والتعامل مع العدو في الغرب، وهؤلاء القادة هم: أحمد إسماعيل ـ حسنى مبارك ـ عبد الغنى الجمسى ـ محمد على فهمى.

٤ ـ ذكر السادات أن اللواءين حسنى مبارك قائد الطيران ومحمد على فهمى قائد الدفاع الجوى حضرا إليه فجر اليوم التالى للمؤتمر في مقر إقامته وقتئذ بقصر الطاهرة، وشجعاه على ثباته وعلى قراره بعدم سحب القوات من شرق القناة إلى الغرب وطلبا منه عدم الانزعاج.

٥ ـ أكد السادات أن عملية الثغرة ليست هى السبب الذي حمله على قبول قرار وقف إطلاق النار، وأن الهزة العنيفة التي حدثت في القيادة كانت هى السبب الأول بالإضافة إلى أمريكا التي وقفت ضدنا لمدة ١٢ يوما ودخلت بثقلها.

٦ ـ أوضح السادات أنه عقب المؤتمر عزل الشاذلي وعين الجمسى رئيسا للأركان دون الإعلان عن ذلك.

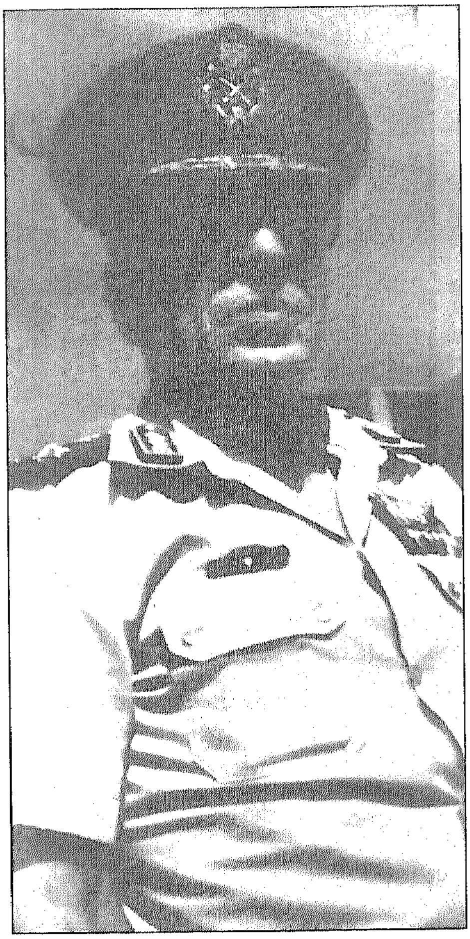
ولست هنا في معرض مناقشة أقوال السادات، ولكن ما يهمنى هو أن أوضح أنه في اجتماع المجلس الأعلى، شرح السادات موقف القادة الذين حضروا المؤتمر بالمركز ١٠ يوم ٢٠ أكتوبر، وقد كان حاضرا منهم في اجتماع المجلس الأعلى ثلاثة هم الجمسى ومحمد على فهمي وفؤاد نصار.

صور ملحق ٥



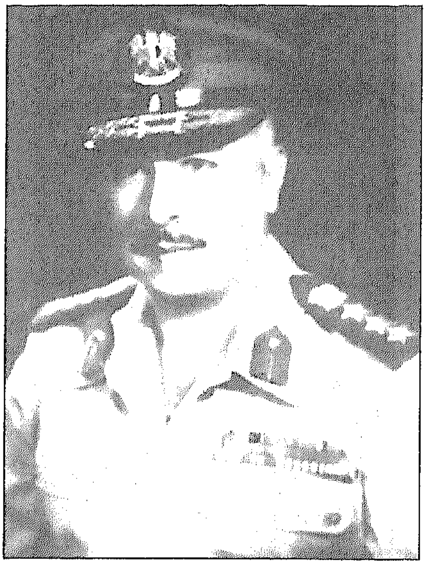
عقيد تحسين شنن

قائد اللواء ١٥ المدرع المستقل.



عميد إبراهيم العرابي

قائد الفرقة ٢١ المدرعة.



عقيد أحمد حلمي بدوي

قائد اللواء ٢٥ المدرع المستقل.

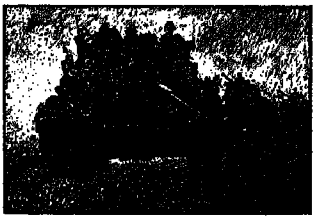




لواء محمد علي فهمي

لواء محمد سعيد الماحي

أيدا ما ذكره المؤرخ العسكري جمال حماد من أن القادة الذين حضروا مؤتمر الرئيس السادات مساء يوم ٢٠ أكتوبر رفضوا اقتراح الشاذلي بسحب أربعة ألوية مدرعة من غرب القناة إلى شرقها.



■ ملحق ٦ ■

كيف التحمت الشرطة مع الجيش والشعب في حرب أكتوبر

على مر تاريخنا الحديث أثبت رجال الشرطة فى جميع المواقف القومية أنهم أبناء أوفياء لمصر ووقفوا أثناء معارك الكفاح الشعبى ضد الاستعمار البريطانى إلى جانب الشعب، ولم يترددوا فى فداء وطنهم بالأرواح والدماء. وحينما اشتعلت ثورة (١٩١٩) وهبّ الشعب وراء زعيمه الخالد سعد زغلول ورفاقه الأبطال يطالبون - وهم الشعب الأعزل من السلاح - أقوى إمبراطورية على ظهر الأرض فى ذلك الوقت بريطانيا العظمى بإنهاء حمايتها وجلاء جيوشها كى تسترد مصر حريتها واستقلالها، أسهم أبناء الشرطة فى حركة الكفاح الوطنى ضمن طوائف الشعب. وكان من أروع ما قدمه بعض أبطال الشرطة، فتح مخازن أسلحتهم للمناضلين والثوار، وقدمت الشرطة شهداء أبرارا كان فى مقدمتهم الشهيد المقدم محمد كامل محمد مأمور أسيوط الذى أدانته محكمة عسكرية بريطانية بتهمة تمكين الأهالى من الحصول على السلاح من مخزن الشرطة بأسيوط، وصدر عليه الحكم بالإعدام، وتم تنفيذ الحكم فى ١٠ يونيو ١٩١٩.

معركة محافظة الإسماعيلية فى ٢٥ يناير ١٩٥٢

فى يوم الاثنين ٨ من أكتوبر عام ١٩٥١ ألقى مصطفى النحاس - زعيم الوفد ورئيس الحكومة وقتئذ - بيانه التاريخى أمام البرلمان (مجلسى النواب والشيوخ) الذى أعلن فيه إلغاء معاهدة ١٩٣٦ واتفاقيتى ١٩ يناير و ١٠ يوليو ١٨٩٩ بشأن إدارة السودان. وبدأت منذ ذلك اليوم مرحلة رائعة من مراحل الكفاح الشعبى المسلح ضد العدو الغاصب والمحتل الدخيل، وشكلت من طلاب الجامعات وعمال مصر ومناضليها من الوطنيين عدة كتائب من الفدائيين أخذت فى مهاجمة الثكنات والمنشآت داخل القاعدة البريطانية الضخمة التى

كانت تمتد على طول قناة السويس من بورسعيد شمالا حتى السويس جنوبًا. ودارت معارك حامية بين قوات الفدائيين وقوات الاحتلال خسر فيها البريطانيون خسائر مادية جسيمة وسقط فيها من المصريين عدد كبير من الشهداء والمصابين.

ولقد أثار انضمام قوات الشرطة إلى القوى الشعبية فى كفاحها الوطنى وقيامها بالرد - رغم أسلحتها الضعيفة - على اعتداءات القوات البريطانية على الأهالى، ثائرة القيادة البريطانية، فاعتزمت الثأر من رجال الشرطة والتخلص من وجودهم فى مدن القناة، وأعدت لذلك عدوانا غاشما سيظل - مدى الدهر - وصمة عار فى جبين بريطانيا. ففى فجر يوم الجمعة ٢٥ من يناير ٥٢ تحركت قوات بريطانية ضخمة - تقدر بسبعة آلاف مقاتل - من معسكراتها إلى شوارع الإسماعيلية، وكانت تضم عشرات من الدبابات والعربات المدرعة ومدافع الميدان وعربات اللاسلكى. واتجهت هذه التجريدة العسكرية الكبيرة إلى دار محافظة الإسماعيلية وثكنة بلوكات النظام التى تجاورها، واللتين لم يكن داخلهما أكثر من ٨٥٠ فردًا حيث ضربت حولهما حصارا محكمًا. وقدم القائد البريطانى الجنرال إكسهام فى منتصف الساعة السادسة صباحا إنذارًا إلى ضابط الاتصال المصرى المقدم شريف العبد طلب فيه أن تسلم جميع قوات الشرطة وبلوكات النظام بالإسماعيلية أسلحتها، وأن ترحل عن منطقة القناة فى نفس اليوم بكامل قوتها، وهدد باستخدام القوة فى حالة عدم الاستجابة لما جاء فى إنذاره. وقام اللواء أحمد رائف قائد بلوكات النظام وعلى حلمى وكيل المحافظة بالاتصال على الفور بوزير الداخلية وقتئذ فؤاد سراج الدين فى منزله بالقاهرة، فأمرهما برفض الإنذار البريطانى ودفع القوة بالقوة والمقاومة حتى آخر طلقة وآخر رجل.

وفى الساعة السابعة صباحا، بدأت المجزرة الوحشية، وانطلقت مدافع الميدان ومدافع الدبابات تدك بقنابلها مبنى المحافظة وثكنة بلوكات النظام بلا شفقة أو رحمة. وبعد أن تقوضت الجدران وسالت الدماء أنهارًا أوقف الجنرال إكسهام الضرب لمهلة محدودة لكى يعلن على رجال الشرطة المحاصرين فى الداخل إنذاره الأخير، وهو التسليم والخروج رافعى الأيدى وبدون أسلحتهم، وإلا فإن قواته سوف تستأنف الضرب بأقصى شدة. وتملكت الدهشة القائد البريطانى المتعجرف حينما جاءه الرد من ضابط شاب صغير الرتبة لكنه متأجج الحماسة والوطنية وهو النقيب مصطفى رفعت، فقد صرخ فى وجهه فى شجاعة وثبات «لن تستلموا منا إلا جثثا هامدة».

واستأنف البريطانيون المذبحة الشائنة، فانطلقت المدافع وزمجرت الدبابات وأخذت القنابل تنهمر على المباني حتى حولتها إلى أنقاض، بينما تبعثرت في أركانها الأشلاء وتخضبت أرضها بالدماء. ورغم ذلك الجحيم المستعر ظل أبطال الشرطة صامدين في مواقعهم يقاومون ببنادقهم العتيقة لمدة ساعتين كاملتين مدافع الميدان من عيار ٢٥ رطلا والدبابات السنتوريان ذات المدفع عيار ١٠٠م ونيران أقوى الفرق البريطانية من مشاة الكاميرون والهايلاندرز حتى نفدت ذخيرتهم. وقد سقط في ميدان الشرف في هذه المعركة من جنود الشرطة ٥٠ شهيدا وأصيب منهم نحو ٨٠ جريحا وسقط من البريطانيين ١٣ قتيلا و١٢ جريحا. وأسر البريطانيون من بقي على قيد الحياة من الضباط والجنود، وعلى رأسهم قائدهم اللواء أحمد رائف. ولم يفرج عنهم إلا في شهر فبراير ٥٢. ولم يستطع الجنرال إكسهام أن يخفي إعجابه بشجاعتهم، فقال للمقدم شريف العبد ضابط الاتصال: «لقد قاتل رجال الشرطة المصريون بشرف؛ واستسلموا بشرف، ولذا فإن من واجبنا احترامهم جميعا ضباطا وجنودا».

رجال الشرطة في معركة السويس في ٢٤ أكتوبر ١٩٧٣

نتيجة للعبور الإسرائيلي إلى غرب القناة ليلة ١٥/ ١٦ أكتوبر وتقدم الفرقة المدرعة بقيادة الجنرال إبراهام أدان يوم ١٩ أكتوبر في اتجاه السويس على محور طريق المعاهدة، وجدت المدينة نفسها فجأة على خط المواجهة الأمامي مع العدو دون سابق إعداد أو إنذار، وواجه جهاز الشرطة الذي كان يرأسه اللواء محيي خفاجي مدير الأمن موقفًا لم يسبق أن واجهه أي جهاز للشرطة في مصر من قبل. ويكفي أن المدينة التي كان تعدادها منذ بداية حرب الاستنزاف عام ٦٨ لا يتجاوز خمسة آلاف فرد، كان معظمهم من الجهاز الحكومي ورجال الشرطة والدفاع المدني وموظفي وعمال شركات البترول والسماد بالزيتية، زاد عدد سكانها في خلال ثلاثة أيام فقط بعد الزحف الإسرائيلي في اتجاه الجنوب حتى بلغ أكثر من عشرين ألف فرد. وحدثت هذه الزيادة المفاجئة بسبب لجوء آلاف حاشدة إلى المدينة كان معظمهم من العسكريين من المؤخرات الإدارية وكذا من المدنيين من مواطني القطاع الريفي، في محافظتي الإسماعيلية والسويس. وقد اضطر هؤلاء إلى دخول السويس بعد أن أغلقت القوات الإسرائيلية ـ رغم سريان قرار وقف إطلاق النار ـ جميع الطرق المؤدية إلى الشمال والغرب والجنوب. وقد سبب وصول هذه المجموعات الضخمة من المواطنين إلى داخل السويس فجأة ارتباكا للمسئولين بالمدينة، وخصوصا رجال

الشرطة، فقد وجدوا أنفسهم مطالبين بإيجاد أماكن إيواء خالية لهؤلاء الوافدين مع حرصهم الشديد في نفس الوقت على ألا تقتحم أي جماعة منهم بدافع الضرورة مساكن أو متاجر سكان السويس الغائبين الذين تم تهجيرهم إلى الخارج عام ١٩٦٨ . ورغم هذه المهمة الشاقة تمكن جهاز المحافظة بالتعاون مع رجال الشرطة من تدبير إقامة هؤلاء الوافدين في المساكن الخالية، ومن توفير وسائل إعاشتهم رغم ندرة الموارد والمؤن وقتئذ. وعندما علم المسئولون بالسويس مساء يوم ٢٣ أكتوبر أن الدبابات الإسرائيلية وصلت إلى منطقة شركات البترول بالزيتية بعد أن مرت على السويس من الخارج وأنها في طريقها إلى ميناء الأدبية، أخذوا يستعدون لتلقي الهجوم الإسرائيلي الذي قدروا أنه سوف يبدأ حتما في اليوم التالي.

وأصدر مدير الأمن تعليماته بالتأهب والاستعداد إلى جميع أقسام الشرطة ووحداتها، وأصبحت غرفة عمليات الدفاع المدني بميدان الأربعين التي كان يتولى إدارتها المقدم فتحي غنيم مقرا لقيادة الدفاع الشعبي، وتأهبت أجهزة الإطفاء والإنقاذ لأداء واجباتها خلال الغارات الجوية. وعندما اكتشف مدير الأمن أن المتطوعين للدفاع عن المدينة في حاجة إلى السلاح، أمر بفتح جميع مخازن الشرطة وأن تسلم الأسلحة والذخائر للقادرين على حملها واستخدامها.

وعلى أثر نجاح العدو يوم ٢٣ أكتوبر في قطع الاتصالات السلكية مع القاهرة، أصبحت الشبكة اللاسلكية الخاصة بشرطة النجدة هي حلقة الاتصال الوحيدة بين السويس والقاهرة. وكان الرائد رفعت شتا يتولى هذه الوحدة اللاسلكية ويعاونه الملازم أول عبد الرحمن غنيمة وتحت قيادته ١٨ ضابط صف وجنديا.

وفي صباح يوم ٢٤ أكتوبر، اقتحمت الدبابات الإسرائيلية مدينة السويس على ثلاثة محاور، وعندما أطلق بعض أبطال منظمة سيناء قذائف (آر-بي-جي ٧) على الدبابات التي تتقدم الرتل المدرع الذي اخترق شارع الجيش ووصل إلى ميدان الأربعين، توقفت الدبابات الأمامية أمام قسم شرطة الأربعين بعد أن اشتعلت فيها النيران، وقفز الجنود الإسرائيليون من أفراد أطقم الدبابات منها وأسرعوا إلى المباني المجاورة يحاولون الاحتماء بداخلها. ونجحت مجموعة إسرائيلية تتكون من حوالي ٢٥ فردا في اقتحام قسم شرطة الأربعين واستطاعوا بنيران رشاشاتهم السيطرة على القسم الذي كان في داخله عدد من ضباط الشرطة والجنود. وقد بذلت محاولتان بطوليتان من جانب رجال الشرطة لاسترداد

القسم من الإسرائيليين، وإنقاذ الضباط والجنود الموجودين داخله من قبضة الإسرائيليين. وقاد المحاولة الأولى الرائد نبيل شرف، وقاد المحاولة الثانية النقيب عاصم حمودة على رأس قوة من رجال قسم شرطة السويس وقسم شرطة الأربعين ومن جنود وحدة قوات الأمن، ولكن المحاولتين لم يصادفهما النجاح واستشهد الضابطان ومعهما ستة من ضباط الصف والجنود.

وطوال يوم المعركة قام اللواء محيي خفاجي مدير الأمن بمرافقة بدوي الخولي محافظ السويس في جميع تحركاته ولم يفارقه لحظة واحدة. وقد غادر المحافظ ومدير الأمن غرفة عمليات المحافظة في حوالي الساعة التاسعة والنصف صباحا، بعد أن علما أن الدبابات الإسرائيلية على بعد (٧٠٠) متر فقط من هذه الغرفة، وانتقلا إلى بعض الأماكن الخاصة بالأهالي في حي الأربعين، حيث قام المحافظ بالاتصال هاتفيا ببعض المسئولين عن المرافق وبالمستشفى للاطمئنان على أحوال المدينة.

وعندما علم المحافظ ومدير الأمن، أن الدبابات الإسرائيلية وصلت إلى ميدان الأربعين اندفعا في شجاعة وثبات إلى الميدان، والتحما بالجماهير المحتشدة التي كانت تملأ كل أركانه. وعندما أصيبت الدبابات أمام قسم الشرطة واشتعلت بالنيران، غمرت الفرحة المحافظ ومدير الأمن، واشتركا مع الجماهير التي احتشدت حماستها في ترديد الهتاف الذي انبعث من أعماق قلوبهم جميعا، وهو «الله أكبر، الله أكبر». وعلى أثر انتهاء المعركة وانسحاب باقي الدبابات مدحورة إلى خارج السويس، قام المحافظ بالاتصال بالمسئولين في القاهرة عن طريق وحدة الشرطة اللاسلكية ليزف إليهم نبأ انتصار السويس الباسلة على الغزاة المعتدين، بعد أن التحم الشعب مع الجيش والشرطة في أوثق عروة، واتحدوا جميعا في ساحة الجهاد والشرف.

وكان يوم ٢٥ أكتوبر مليئا بالأحداث؛ فعندما وصل المحافظ في الصباح وبرفقته مدير الأمن إلى غرفة الدفاع المدني، تلقى إنذارا من ضابط إسرائيلي تحدث إليه عن طريق الهاتف من شركة السويس لتصنيع البترول. وكان الإنذار يطالب المحافظ بتسليم المدينة في خلال نصف ساعة، وأن عليه الحضور هو ومدير الأمن والقائد العسكري للسويس في سيارة عليها علم أبيض وبصحبتهم جميع المدنيين في المدينة إلى الإستاد الرياضي، وإذا لم يتم ذلك في خلال نصف ساعة، فسوف تضرب المدينة بالطيران ويتعرض كل سكانها للإبادة. واتصل المحافظ هاتفيا بالرائد شرطة رفعت شتا قائد الوحدة اللاسلكية، وطلب منه إبلاغ المسئولين في القاهرة بالإنذار الإسرائيلي الذي تلقاه لتسليم المدينة.

وقام الرائد شتا في الحال بإبلاغ الرسالة إلى العميد محمد النبوي إسماعيل مدير مكتب ممدوح سالم نائب رئيس الوزراء ووزير الداخلية وقتئذ. وبعد مرور حوالي ٢٠ دقيقة تلقى الرائد شتا رد القاهرة، وكان نصه كما يلي: «لا تسليم.. بمعرفة المحافظ يتم الدفاع عن السويس، وعلى المحافظ ومدير الأمن الانضمام إلى المقاومة الشعبية». وعندما أبلغ الرائد شتا نص رسالة القاهرة إلى المحافظ أجابه قائلا: «خلاص حانضم للمقاومة الشعبية ونموت شهداء». وعندما علم مدير الأمن بمضمون الرد قال: «قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا». ونظرا لأن أنباء اتصالات الإسرائيليين بالمحافظ وتقديمهم إليه إنذاراً بالتسليم قد انتشرت بين كثير من المواطنين وأحدثت بلبلة شديدة، فقد طلب المحافظ من المقدم شرطة فتحي غنيم رئيس قسم الدفاع المدني والحريق أن يتجول في سيارة في شوارع المدينة، وأن يذيع على الناس بمكبر للصوت أن المحافظ قد رفض الإنذار الإسرائيلي بتسليم السويس وأن المدينة ستقاوم.

وقد ظلت وسائل الاتصال اللاسلكية بين السويس والقاهرة تعمل بدقة وكفاءة عن طريق الوحدة اللاسلكية للشرطة منذ أن انقطعت جميع وسائل الاتصال الهاتفية بين السويس والخارج يوم ٢٣ أكتوبر. ولكن هذه الوسيلة الوحيدة لم تلبث أن انقطعت يوم ٢٦أكتوبر، فقد تمكن العدو من الاستيلاء على مبنى الوحدة الذي كان يقع في مكان منعزل خارج المدينة، وقام بأسر الرائد رفعت شتا والملازم أول عبد الرحمن غنيمة والطاقم الذي كان يعمل معهم من ضباط الصف والجنود بعد أن أدوا واجبهم بشجاعة وشرف.

هذا، وقد قامت هيئة الشرطة بالسويس منذ بداية حرب أكتوبر، وخلال الحصار الذي فرضه العدو على المدينة لمدة مائة يوم، بكل ما طلب منها أداؤه من أعمال ومهام رغم أن كثيرا منها كان يفوق طاقتها وإمكاناتها، وبعضها لم يكن أصلا من اختصاصها، وذلك إدراكا من رجالها لواجبهم الوطني واستجابة لشعورهم الإنساني والأخوي نحو بني وطنهم، وقد أدى ذلك في النهاية إلى إيجاد روابط وثيقة بين أفراد الشرطة والمواطنين ورجال القوات المسلحة.

دور الأمن المركزي في حرب أكتوبر

في خلال أكتوبر المجيدة عام ٧٣، أسندت إلى جهاز الأمن المركزي مسئولية كبرى، وهي حماية مؤخرة القوات المسلحة وتأمين خطوطها الخلفية ضد أي عمليات للتسلل أو

التخريب من جانب العدو. وقد قامت قوات الأمن المركزي بأداء المهام الجسيمة التي أوكلت إليها بكفاءة بالغة ووطنية صادقة. وقد تم تكليف الأمن المركزي بأداء هذه المهام التي كان من المفترض تخصيص قوات عسكرية لأدائها نظرا للمظهر العسكري المتميز لقوات الأمن المركزي وللمستوى المرتفع الذي بلغته وحداتها سواء في الانضباط أو التدريب أو التسليح، مما جعل هذه القوات أقرب ما تكون من جهة مظهرها وتشكيلاتها إلى الجيوش النظامية.

وقد أسندت إلى قوات الأمن المركزي خلال الحرب عدة مهام حيوية، كان أهمها وأخطرها ما يلي:

أولا ــ تأمين منطقتي الإسماعيلية وبور سعيد:

تم تشكيل مجموعة كبيرة من الأمن المركزي بقيادة العقيد لطفي عبد الفتاح عطية بهدف تأمين منطقتي الإسماعيلية وبور سعيد، وكان إجمالي القوة ٣٤ ضابطا و١١٩٦ من ضباط الصف والجنود. وقد أرسلت هذه القوة من القاهرة على عجل إلى قطاع الجيش الثاني الميداني يوم ١٦ أكتوبر فور قيام القوات الإسرائيلية بالعبور من ثغرة الاختراق بالدفرسوار إلى الضفة الغربية للقناة ليلة ١٥/ ١٦ أكتوبر. وتم تخصيص المهام المسندة إليها بالتنسيق بين قائدها واللواء أ.ح عبد المنعم خليل قائد الجيش الثاني. ونظرا لخطورة المناطق التي تقرر أن تتمركز فيها هذه القوات بالنسبة لقربها الشديد من ساحات المعارك غرب قناة السويس، فقد روعي تقوية تسليحها لاحتمال تعاملها مع قوات العدو ودباباته. وهكذا تم تزويد أفرادها علاوة على البنادق الآلية (التسليح الشخصي) بعدد من الهاونات ٦٠ مم والرشاشات الخفيفة والبنادق ذات الوصلات (الإنرجا) المضادة للدبابات والقنابل اليدوية وزجاجات المولوتوف والقنابل المضادة للدبابات (من طراز حسام).

وكانت المهام التي أسندت إلى هذه القوات تتخلص فيما يلي:

١ ـ حراسة وتأمين طريق الإسماعيلية ـ القاهرة الزراعي الممتد شمال ترعة الإسماعيلية، وذلك في القطاع من مدينة الإسماعيلية شرقا حتى التل الكبير غربا، مع التركيز على بعض النقاط المهمة على الطريق وهي (البعالوة ـ

القصاصين ـ المحسمة ـ أبو صوير ـ الكوبري العلوي) والعمل على منع أي عمليات نسف أو تدمير من جانب العدو، وذلك عن طريق عمل الكمائن ونقاط الحراسة الثابتة.

٢ ـ حراسة المنشآت والأهداف الحيوية في مدينتي الإسماعيلية والقنطرة غرب ومنطقة أبو خليفة.

٣ ـ تأمين الطرق الفرعية المؤدية إلى طريق القاهرة ـ الإسماعيلية الزراعي وكذا القرى الواقعة في الأراضي الزراعية.

٤ ـ حراسة وتأمين المعديات المقامة على ترعة الإسماعيلية والاشتراك مع القوات المسلحة في تأمين الكباري على امتداد الترعة.

ثانيا ـ تأمين منطقة القاهرة:

تم تشكيل مجموعة من الأمن المركزي بقيادة العقيد عبد الرحيم النحاس، بهدف تأمين منطقة القاهرة. وكان إجمالي القوة ٥٠ ضابطا و ٥٠٠ ضابط صف وجندي. وقد تم تخصيص المهام المسندة إليها بالتنسيق بين قائدها وقائد المنطقة العسكرية المركزية بالقاهرة. وكان أساس عملها هو استخدام الكمائن ونقاط الحراسة الثابتة لتنفيذ المهام التالية:

١ ـ حراسة وتأمين وصلات الطرق الفرعية مع طريقي القاهرة ـ الإسماعيلية الصحراوي والزراعي.

٢ ـ حراسة وتأمين تفرعات طريق القاهرة ـ السويس.

٣ ـ حراسة وتأمين طريق القطامية الخلفي.

٤ ـ حراسة وتأمين مدخل حلوان من ناحية الطريق الجنوبي القادم من اتجاه خليج السويس.

٥ ـ حراسة وتأمين وصلات الطرق الفرعية من اتجاه منطقة القناة مع طريق القاهرة الإسكندرية الزراعي.

ثالثا ــ نجدة الأهداف الحيوية:

تم تشكيل مجموعة من الأمن المركزي بقيادة العقيد صلاح بهجت، كانت تتكون من ٣٠ ضابطا و٦ سرايا قتالية، وكانت مهمتها الأساسية هي نجدة المنشآت والأهداف الحيوية بدائرة المنطقة المركزية وتدمير أي قوات ينجح العدو في إبرارها من الجو. وكانت هذه المهمة مسندة من قبل إلى وحدات من القوات المسلحة، ولكن تقرر إسنادها إلى الأمن المركزي بعد أن أثبت جدارته في تأدية المهام العسكرية التي أوكلت إليه، وذلك حتى تتفرغ الوحدات العسكرية لمهامها القتالية في الجبهة.

طريقة الأداء: حرصا على حسن أداء قوات الأمن المركزي الموكولة إليها، تمت إقامة ملاجئ وقاية للأفراد ومواقع للنيران تشرف على طرق الاقتراب المهمة، كذا تم احتلال الهيئات المرتفعة التى تتحكم في المناطق المحيطة بها لتسهيل تعامل القناصة مع أي متسللين أو مخربين، كما تم تعزيز هذه المواقع بالأسلحة المضادة للدبابات. هذا وقد ظلت قوات الأمن المركزي باقية في مواقعها رغم صدور قرار وقف إطلاق النار يوم ٢٢ أكتوبر وبعد صدور قرار بإنشاء قوة الطوارئ الدولية، ولم تغادرها إلا في أواخر يناير بعد سريان اتفاقية فض الاشتباك الأولى بين مصر وإسرائيل يوم ٢٥ يناير ٧٤ في المحادثات الكيلو متر (١٠١).

تقدير جهاز الأمن المركزي: عقب انتهاء قوات الأمن المركزي من أداء المهام والمسئوليات التي ألقيت على عاتقها خلال الحرب وعادت إلى ثكناتها بعد أن أدت واجبها الوطنى بجدارة وإخلاص، استحقت من القيادات العسكرية والسياسة الشكر والتقدير. وقد أرسلت القيادة العامة للقوات المسلحة وقيادة المنطقة المركزية وقيادة الجيش الثاني رسائل إلى وزارة الداخلية وقيادة الأمن المركزي أعربت فيها عن تقديرها البالغ للدور الكبير الذي أسهم به رجال الأمن المركزي في المجهود الحربي. كما منح علم الأمن المركزي، وسام الاستحقاق من الطبقة الأولي. وقد أشاد الرئيس الراحل السادات بدور الأمن المركزي، فقد ذكر في الصفحة (٢٧٧) من كتابه البحث عن الذات مايلي: «عندما حاول الإسرائيليون الاستيلاء على مدينة الإسماعيلية لم يستطيعوا الوصول حتى إلى مشارفها. وكنت قد كلفت ممدوح سالم وكان في ذلك الوقت مسئولا عن المجلس الأعلى للدفاع الشعبي، فأرسل (١٠٠٠) فرد من قوات الأمن المركزي وهم مدربون على مستوى عال بأسلحتهم وعتادهم، وكانوا على أتم استعداد ومعهم الجيش والأهالي لاستقبال الإسرائيليين».

رابعا ـ تأمين وحراسة حدود مصر الشرقية:

تنفيذا لنصوص معاهدة السلام المصرية الإسرائيلية التي أبرمت في ٢٦ مارس ٧٩ وعلى أثر انتهاء المرحلة الأخيرة من الانسحاب الإسرائيلي عن أراضي سيناء الحبيبة يوم ٢٥ إبريل ١٩٨٢ تم دفع قوات من الأمن المركزي مسلحين بالبنادق الآلية والرشاشات الخفيفة في الساعة الثانية عشرة ظهرا من نفس اليوم إلى المنطقة (جـ) التي تحددت لتمركزها. وتحد هذه المنطقة غربا المنطقة (ب) التي تتمركز بها وحدات مصرية من حرس الحدود، ويحدها شرقا الحدود الدولية التي تمتد من رفح على ساحل البحر المتوسط شمالا حتى طابا على خليج العقبة، ثم بامتداد الخليج حتى شرم الشيخ جنوبا، وتبلغ مساحة المنطقة (جـ) حوالي ١٣,٠٠٠ كيلو متر مربع.

وقد أسندت إلى قوات الأمن المركزي في هذه المنطقة المهام المستديمة التالية:

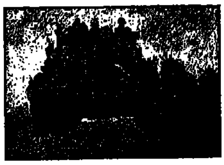
١ ـ احتلال نقاط مشرفة على طول خط الحدود الدولية.

٢ ـ القيام بالواجبات العادية الموكولة إلى الشرطة، وهي المحافظة على الأمن والنظام داخل المنطقة.

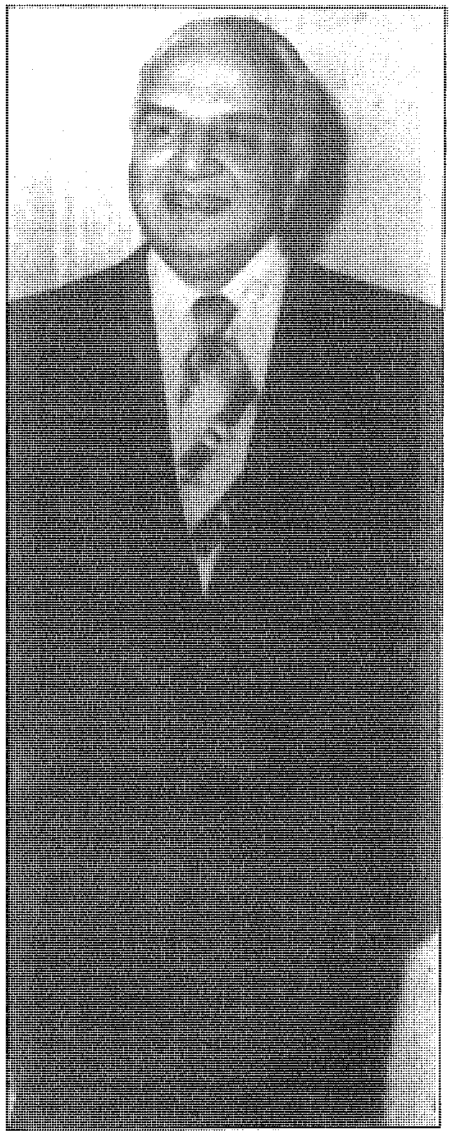
٣ ـ منع أي محاولات لاختراق الحدود وكذا التسلل بأنواعه كافة، بمافي ذلك مكافحة التهريب.

٤ ـ حماية أراضي وممتلكات الدولة وتنفيذ القوانين واللوائح المصرية على الجميع.

ولأداء هذه المهام بكفاءة، تم إعداد ستة مواقع على طول خط الحدود لتمركز القوة الرئيسية التي تدفع منها النقاط الأمامية، وهذه المواقع هي: رفح ـ القسيمة ـ الكنتلة ـ رأس النقب ـ نويبع ـ دهب ـ شرم الشيخ.



صور ملحق ٦



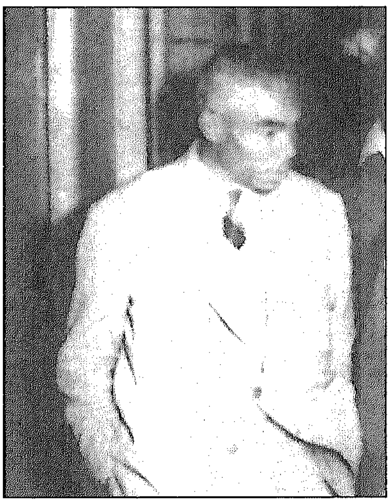
ممدوح سالم

نائب رئيس الوزراء ووزير الداخلية في أثناء حرب أكتوبر ١٩٧٣.



نقيب مصطفى رفعت

أحد أبطال معركة محافظة الإسماعيلية في ٢٥ يناير ١٩٥٢.



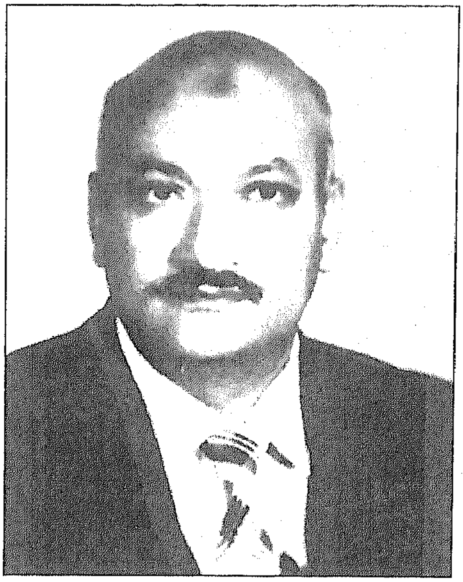
لواء محيي خفاجي

مدير أمن السويس قامت هيئة الشرطة بالسويس في أثناء حصار المدينة بكل ما طلب منها أداؤه من أعمال تفوق طاقاتها وإمكاناتها، وبعضها لم يكن أصلا من اختصاصها.



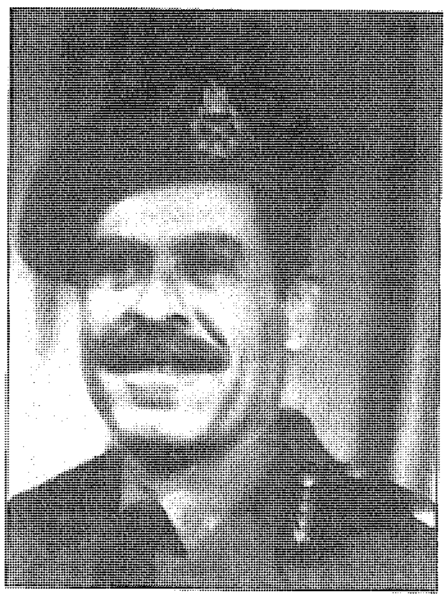
مقدم محمد رفعت شتا

قائد شرطة النجدة بالسويس.



عقيد لطفي عبد الفتاح عطية

قائد قوة تأمين الإسماعيلية (من قوات الأمن المركزي).



عقيد عبد الرحيم النحاس

قائد قوة تأمين القاهرة (من قوات الأمن المركزي).

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾

(آل عمران: الآية ١٦٩) صدق الله العظيم

أسماء القادة الشهداء



عميد أحمد عبود الزمر

قائد الفرقة ٢٣ مشاة ميكانيكية. استشهد يوم ١٩ أكتوبر ١٩٧٣.



عميد مهندس أحمد حمدي

نائب مدير سلاح المهندسين. استشهد يوم ٧ أكتوبر ١٩٧٣.



عميد شفيق متري سيدراك

قائد اللواء ٣ مشاة ميكانيكي. استشهد يوم ٩ أكتوبر ١٩٧٣.



عقيد نور الدين عبد العزيز

قائد اللواء ٣ المدرع. استشهد يوم ١٤ أكتوبر ١٩٧٣.



عقيد السيد محمد توفيق أبو شادي

قائد اللواء الأول المدرع. استشهد يوم ١٤ أكتوبر ١٩٧٣.



عقيد حسين رضوان

قائد اللواء ١١٦ مشاة ميكانيكي. استشهد يوم ١٦ أكتوبر ١٩٧٣.



عقيد إبراهيم الرفاعي

قائد مجموعة المخابرات الخاصة. استشهد يوم ١٩ أكتوبر ١٩٧٣.



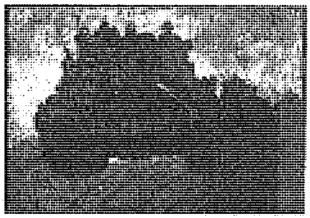
عقيد مصطفى حسن

قائد اللواء ٢٢ المدرع. استشهد يوم ٢٢ أكتوبر ١٩٧٣.



مقدم إبراهيم عبد التواب

قائد موقع كبريت. استشهد يوم ١٧ يناير ١٩٧٤.



■ ملحق ٧ ■

لأهم الأسلحة الإسرائيلية التي اشتركت في حرب أكتوبر ١٩٧٣م

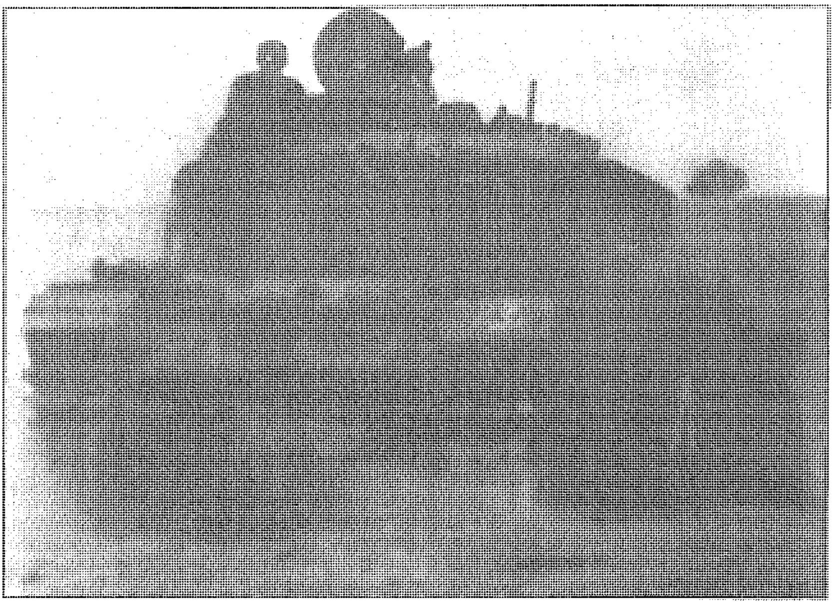
قـــوات مدرعـــة



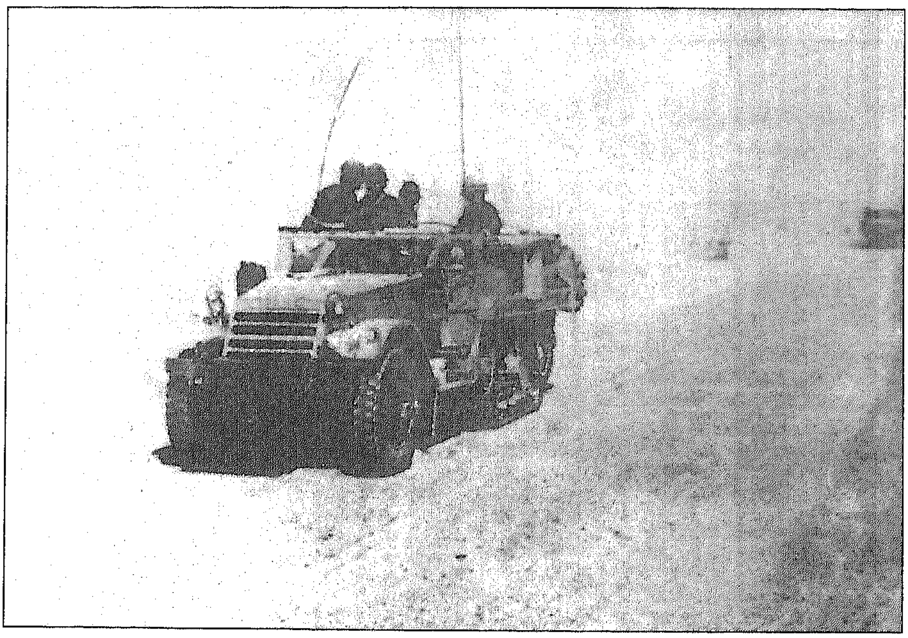
دبابة إسرائيلية من طراز M60.



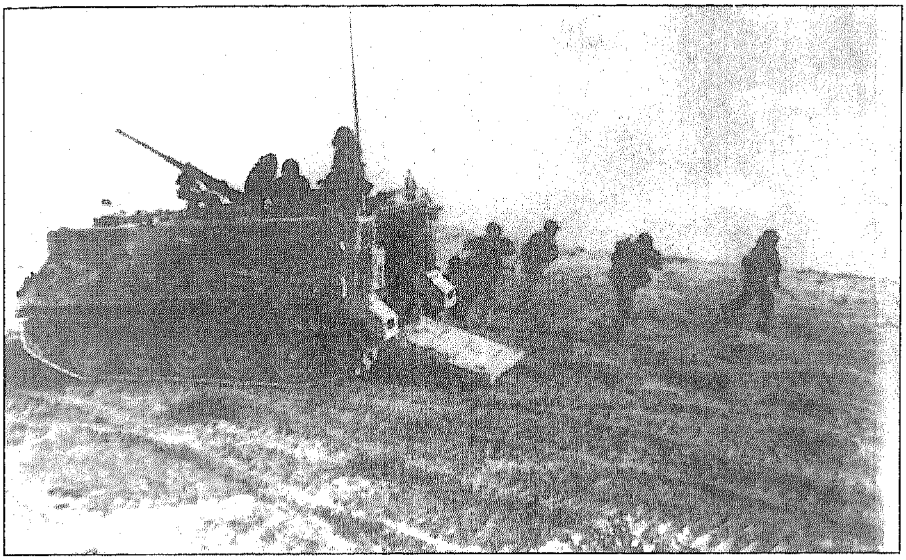
دبابة إسرائيلية من طراز سنتوريون Centurion.



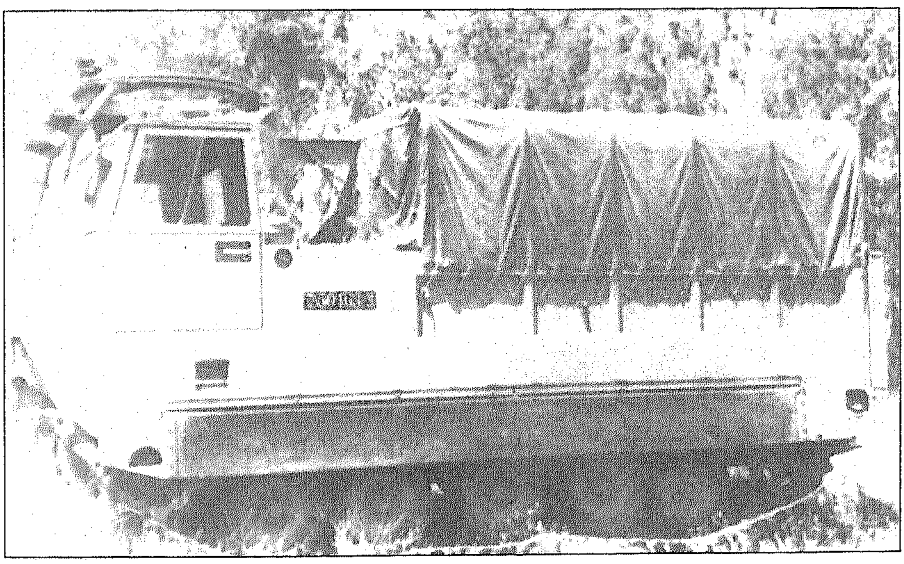
دبابة إسرائيلية من طراز سنتوريون وقعت في أسر القوات المصرية بعد إصابتها بصاروخ.



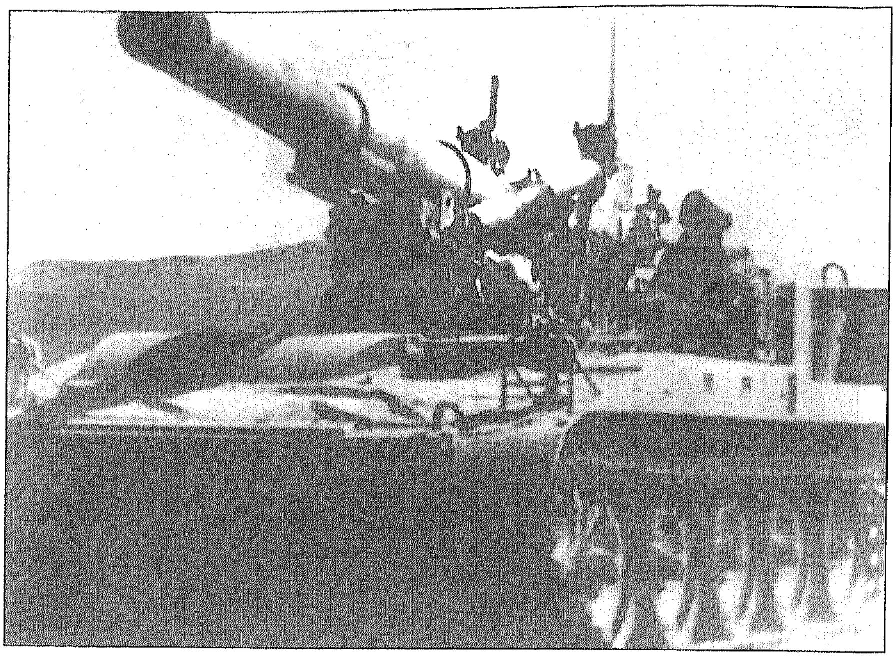
عربة مدرعة إسرائيلية نصف جنزير.



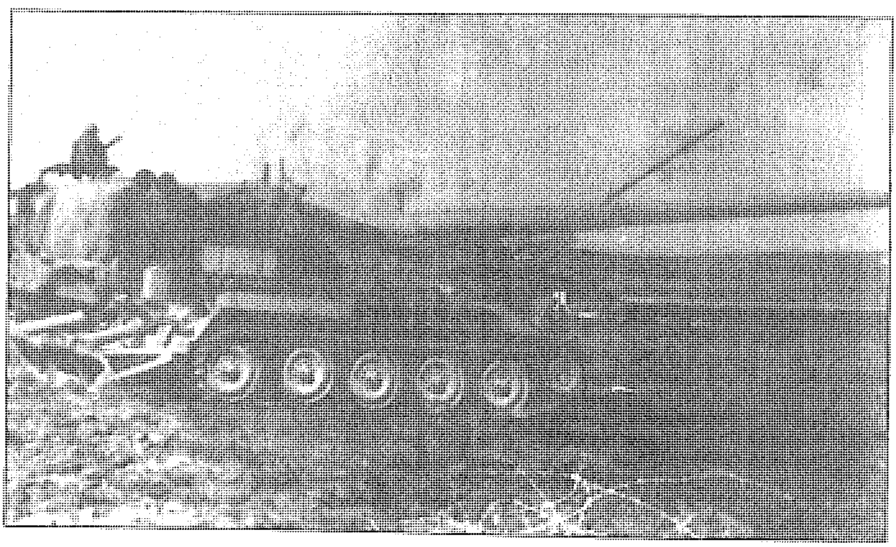
حاملة نقل جنود مجنزرة (طراز M113) لنقل المشاة (مسلحة برشاش ١٢,٧مم).



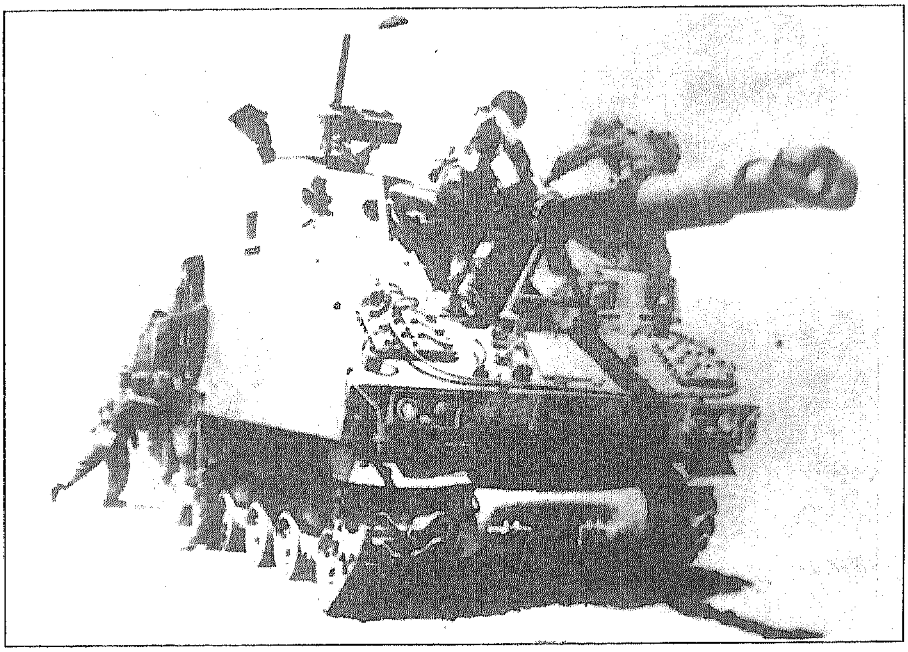
عربة نقل مجنزرة (طراز M548). تستخدم في نقل ذخيرة بطاريات المدفعية من عيار ١٥٥مم و١٧٥مم.



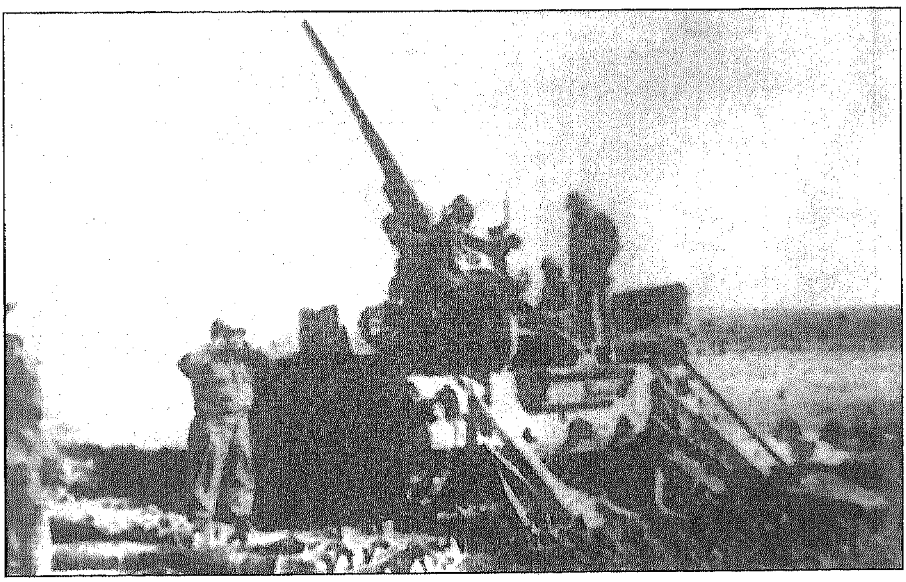
هاونتزر عيار ٢٠٣ مم SP ذاتي الحركة.



مدفع عيار ١٧٥ مم ذاتي الحركة وبجواره عربة نقل مجنزرة (طراز M548) لنقل الذخيرة.



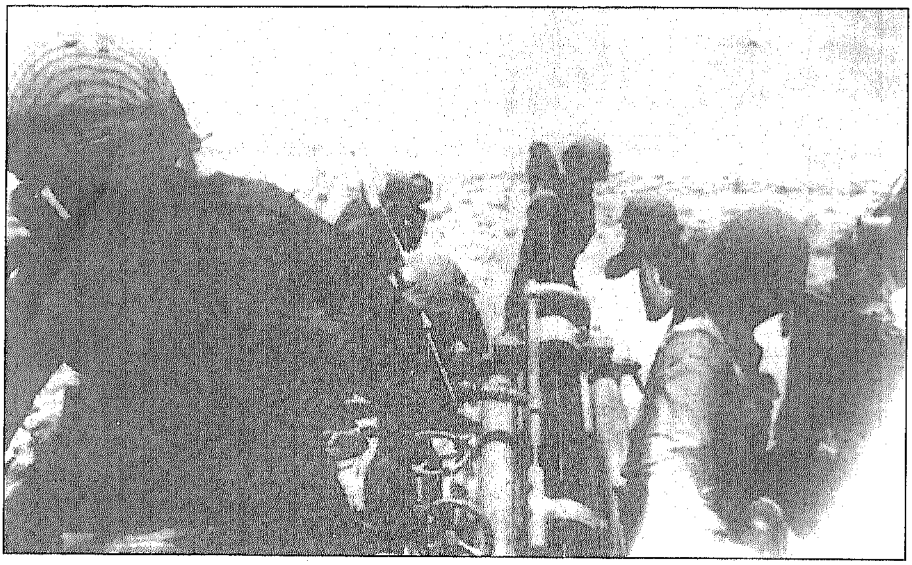
هاوتزر عيار ١٥٥ مم ذاتي الحركة.



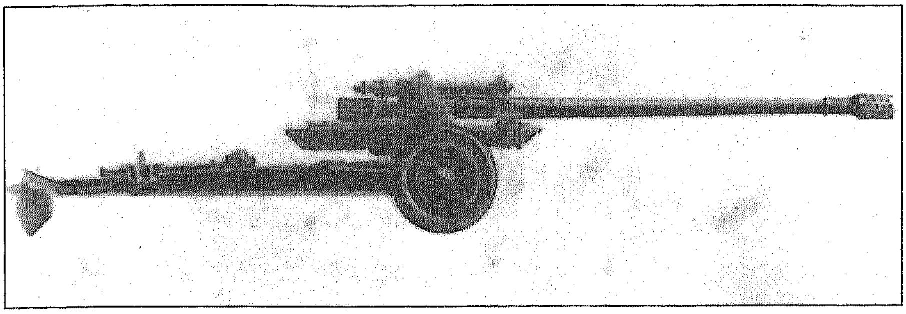
مدفع عيار ١٠٧ مم SP ذاتي الحركة.



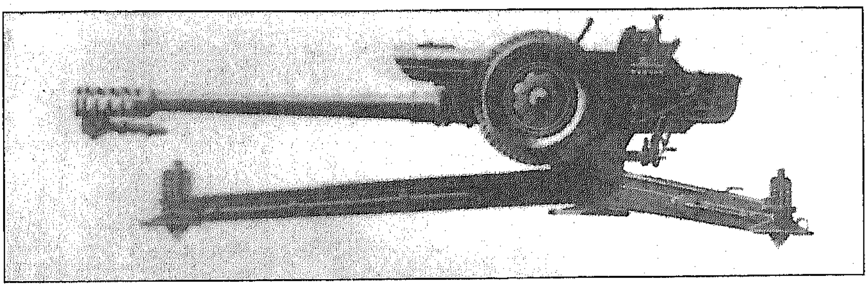
مدفع مضاد للدبابات طراز TOW يمكن تثبيته فوق عربة مجنزرة أو عربة جيب (ورد ضمن الجسر الجوي الأمريكي لإسرائيل) وكان له تأثير خطير على الدبابات المصرية.



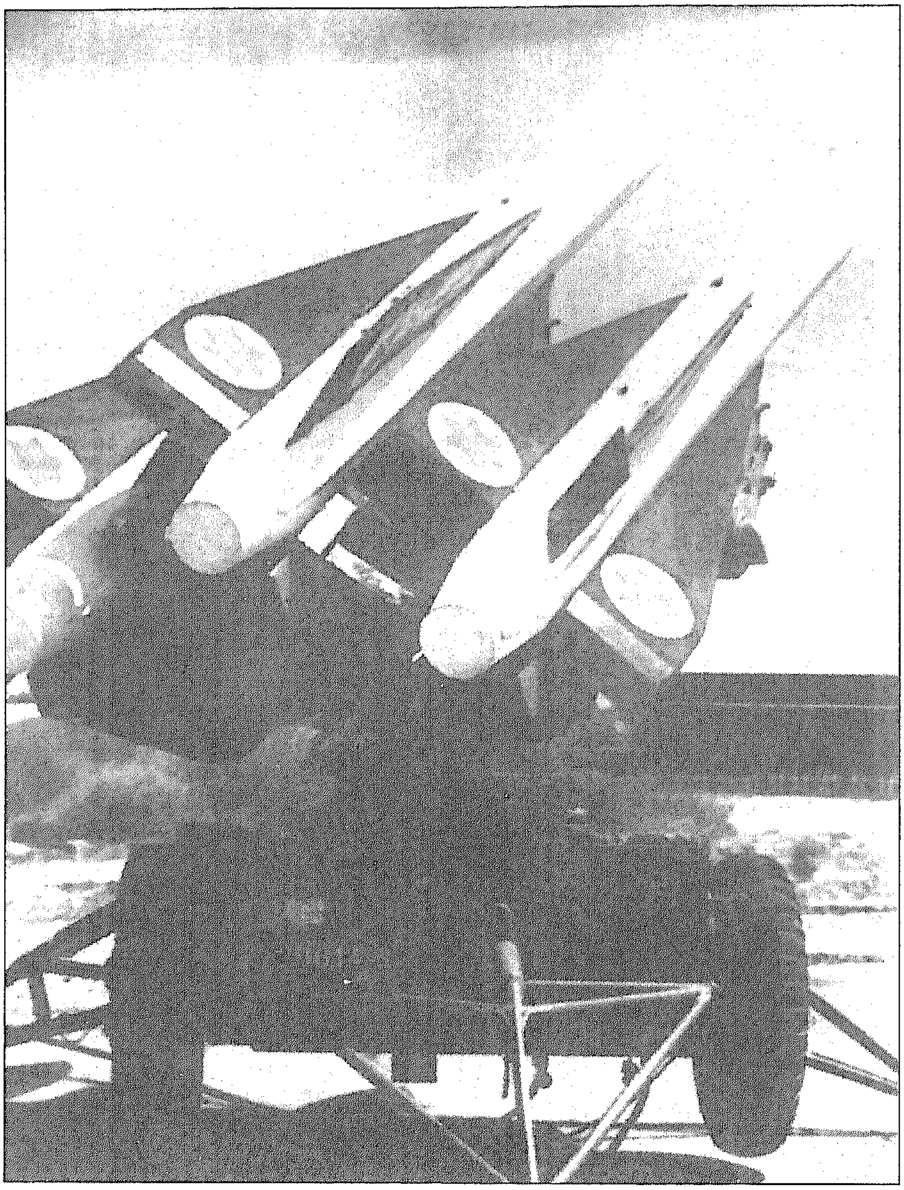
هاون من عيار ١٦٠ مم (سلطان) أثناء تعميره. استخدمته معظم الوحدات الميكانيكية الإسرائيلية بدلا من المدفعية، ويمكن تحميله في العربات المجنزرة.



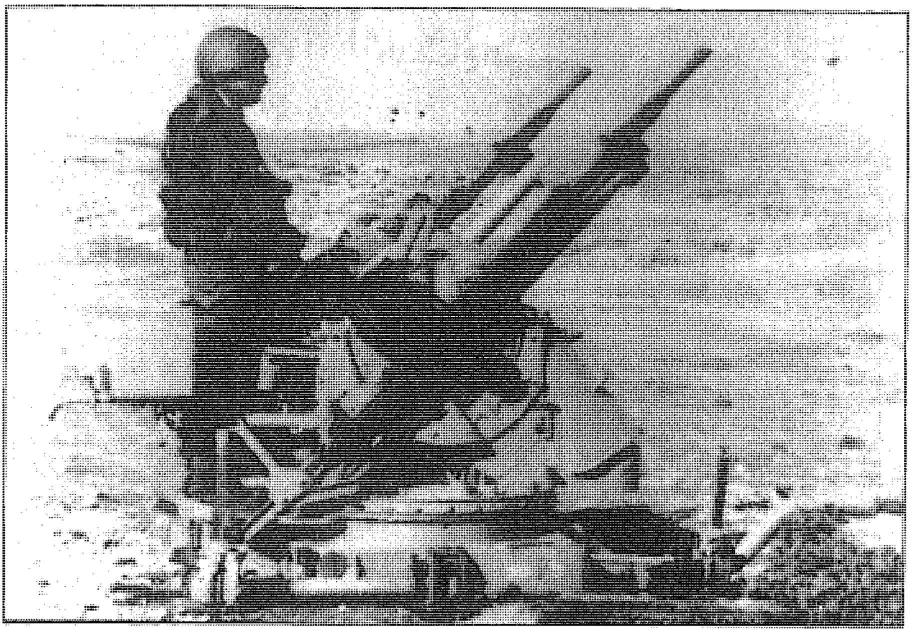
مدفع ميدان عيار ١٣٠ مم.



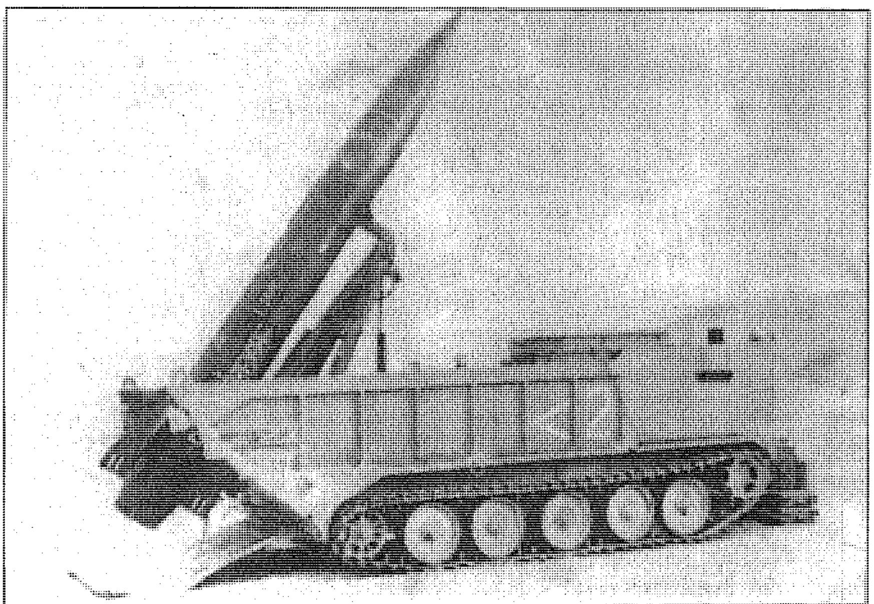
هاوتزر ١٢٢مم.



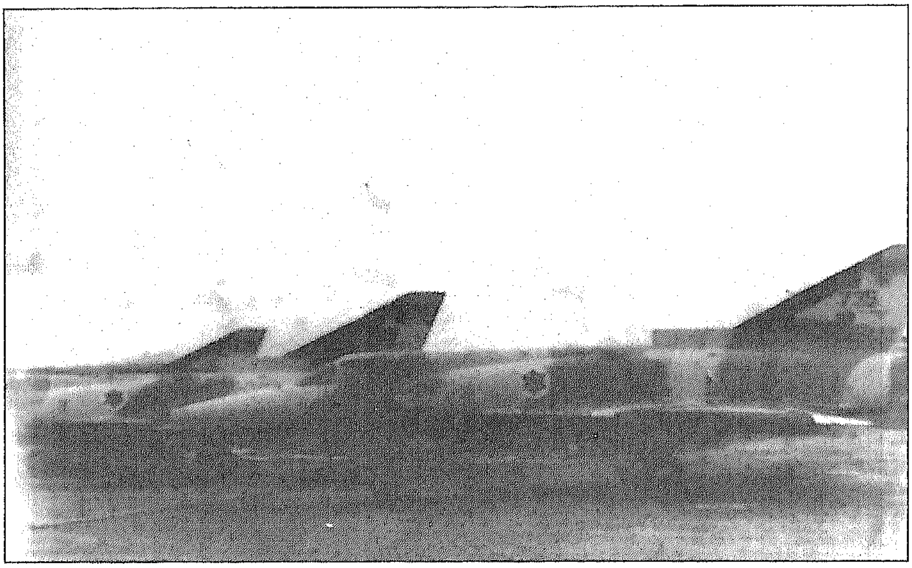
صاروخ أرض جو من طراز HAWK فوق منصة الإطلاق.



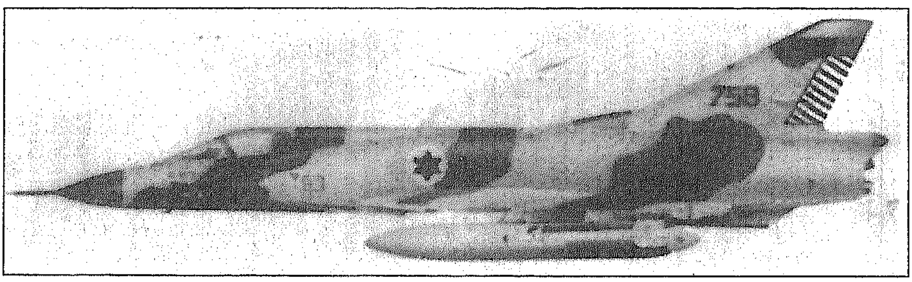
مدفع عيار ٢٠ مم ثنائي المواسير مضاد للطائرات.



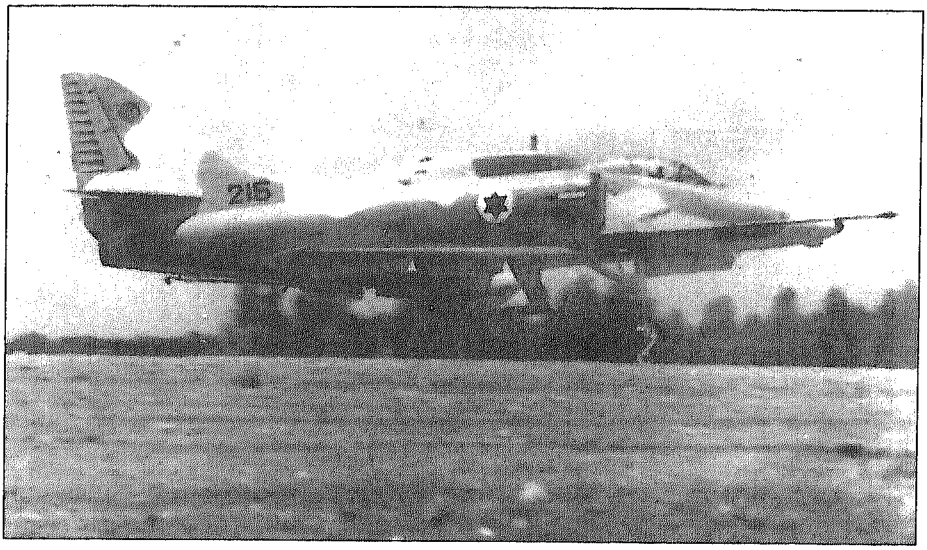
صاروخ أرض أرض مثبت فوق عربة مجنزرة وهو جاهز للانطلاق.



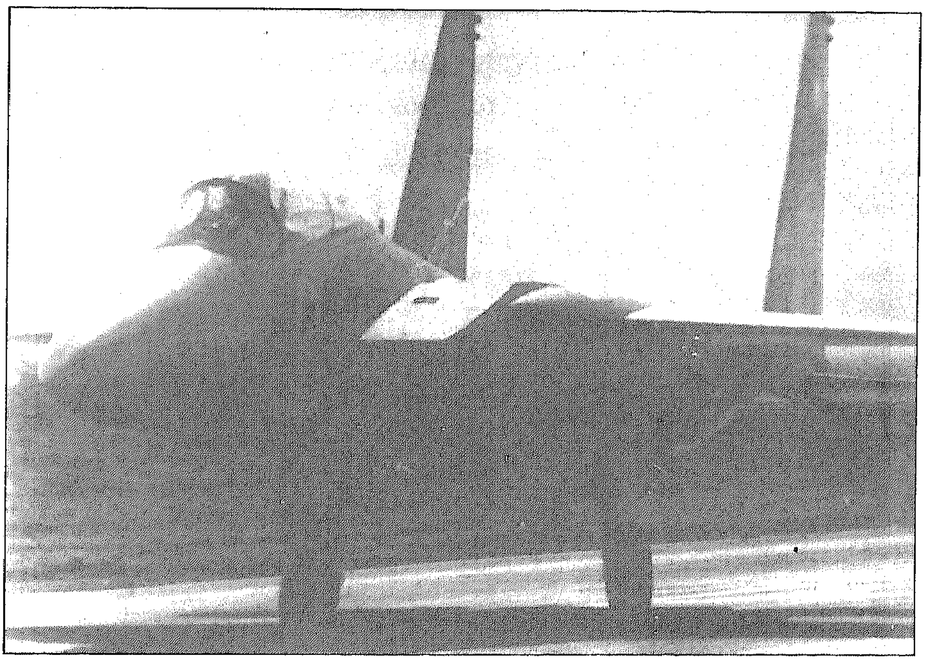
طائرة مقاتلة قاذفة من طراز كفير Kfir مشكلة من شاسيه ميراج (فرنسي الصنع) وموتور J79 (أمريكي الصنع) تستخدم أساسا للضرب على الأهداف الأرضية.



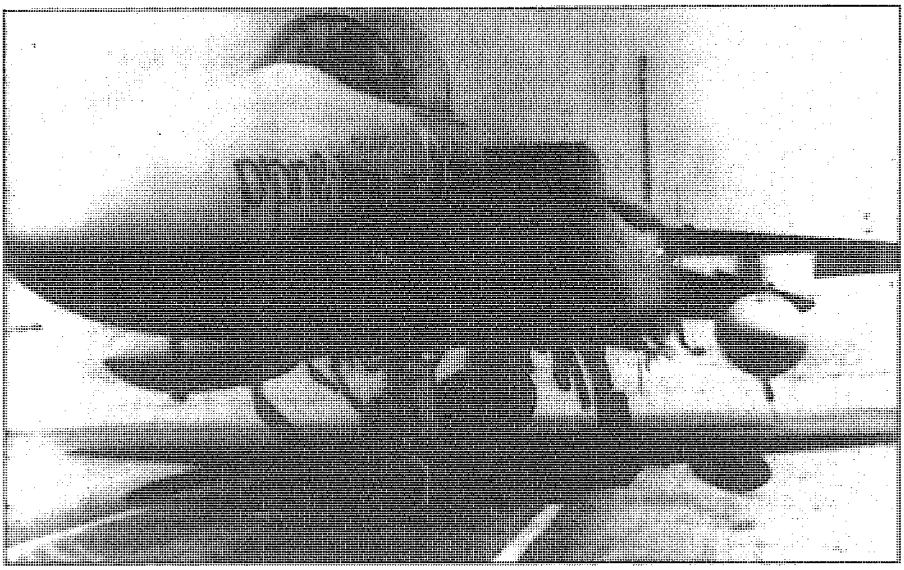
طائرة ميراج مزودة بالصواريخ.



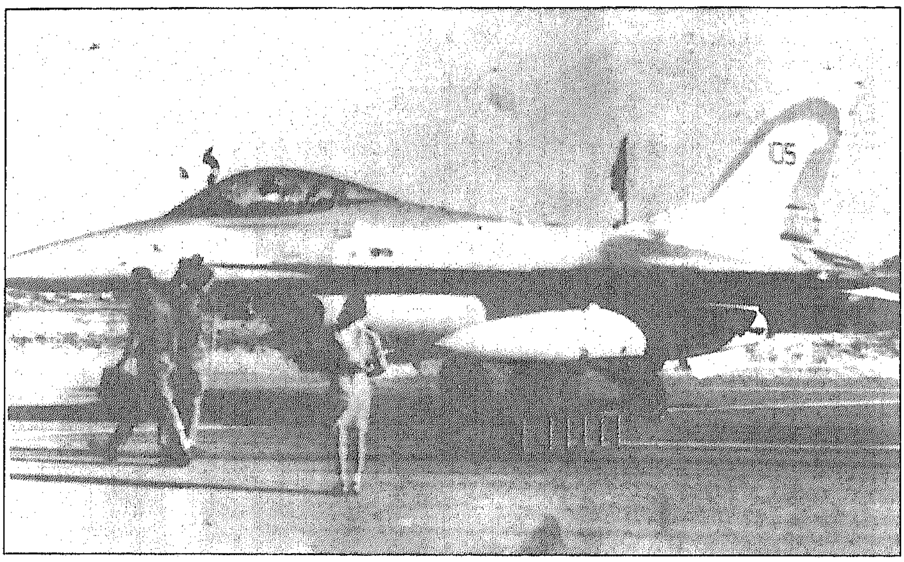
طائرة من طراز سكاي هوك A4 Sky Hawk قاذفة خفيفة.



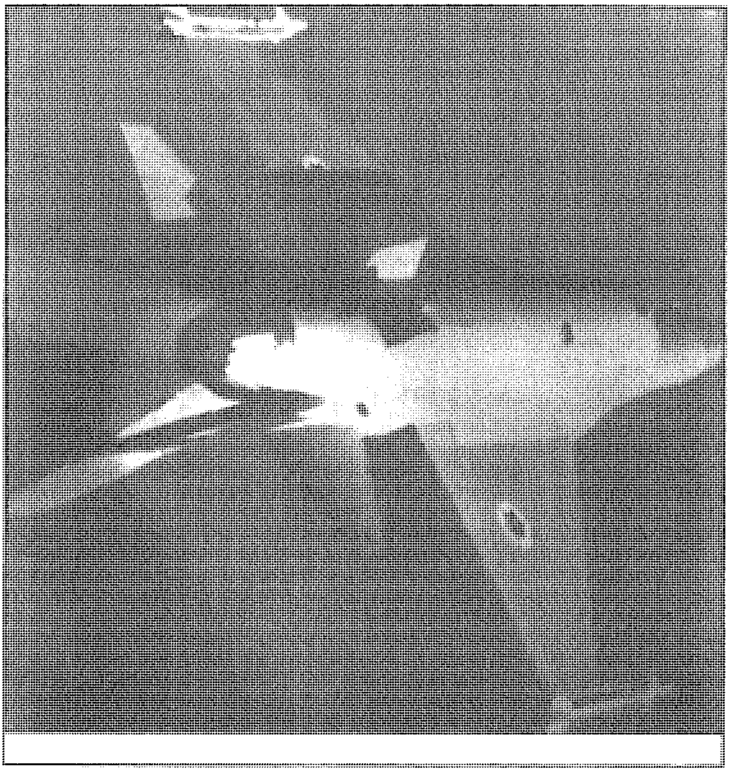
طائرة مقاتلة قاذفة من طراز F15.



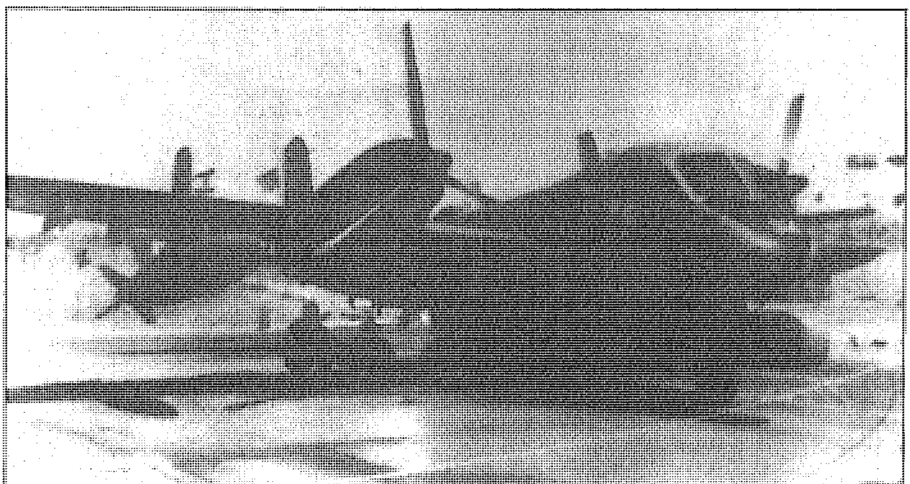
طائرة مقاتلة قاذفة من طراز F15.



طائرة مقاتلة قاذفة من طراز F16.



طائرة مقاتلة قاذفة من طراز F16 مسلحة بصواريخ سايد ويندر Side Winders.



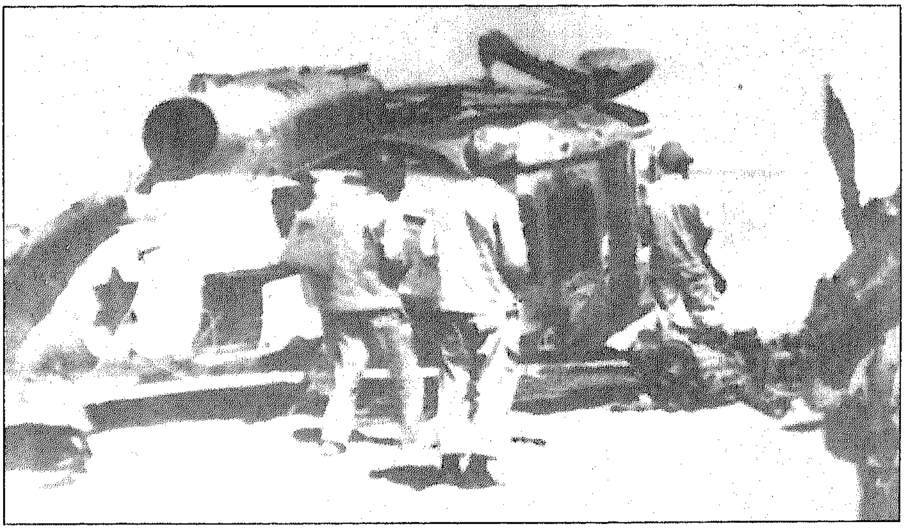
طائرة استطلاع إلكترونية من طراز ستراتو كروزر Strato Cruisers.



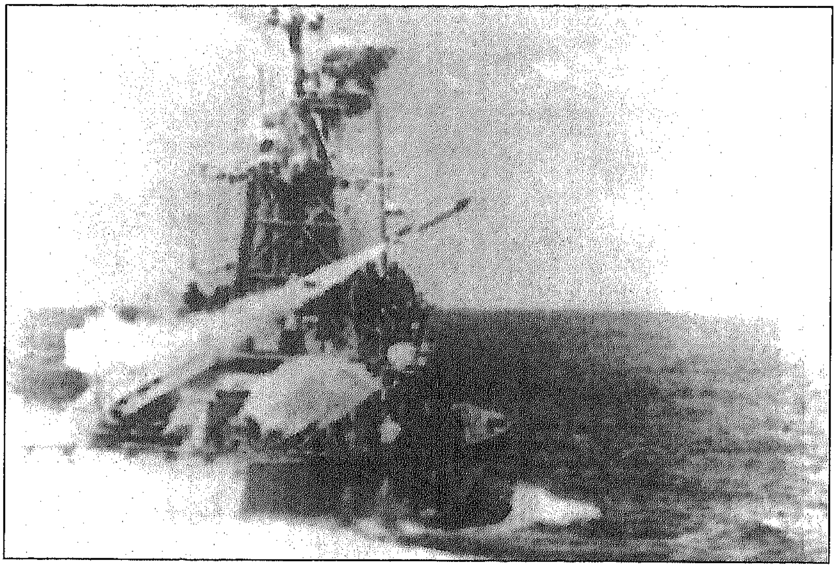
طائرة من طراز لوكهيد سي ١٣٠ C130 Lokheed تستخدم في النقل الجوي الثقيل وفي إعادة ملء الطائرات بالوقود وهي في الجو.



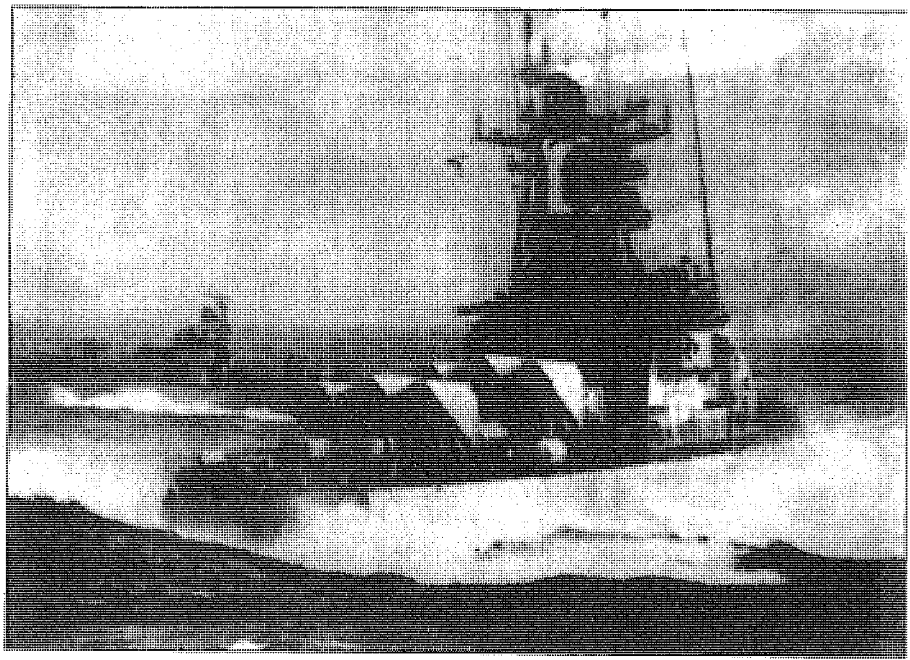
طائرة هيليكوبتر من طراز سيكورسكي S-65 في النقل الجوي الثقيل.



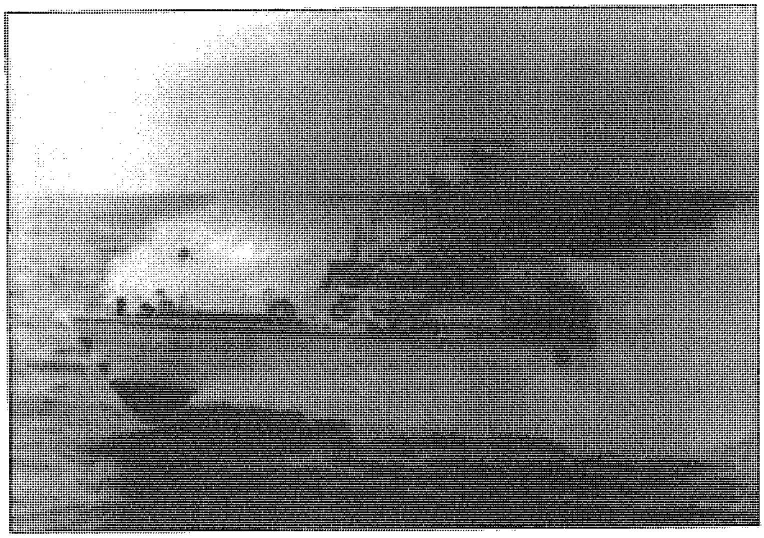
طائرة هيليكوبتر إسرائيلية من طراز AB205 أسقطت بصاروخ أرض جو سام ٧ مصري.



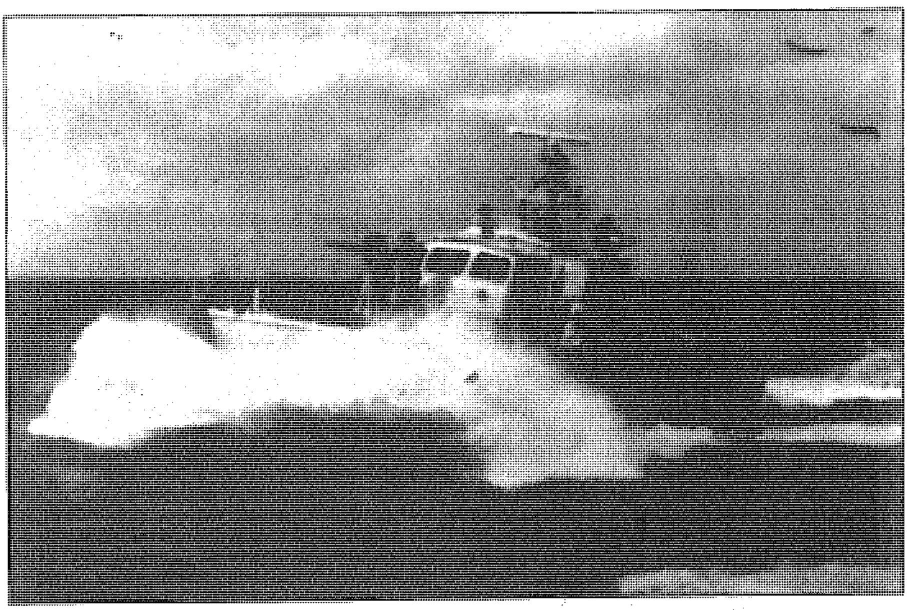
زورق صواريخ من طراز ريشيف Reshef يطلق صاروخه.



زورق صواريخ من طراز ريشيف Reshef.



زورق صواريخ طراز دبور Dabur يستخدم في دوريات حراسة الشواطئ.



زورق صواريخ طراز درورا Drora (عبارة عن تطوير لزورق دبور).

من وحي العبور

شعر جمال حماد

صقورُك أرْدَتْها نسورٌ أراقمُ ... تسَيدتْ الأجْواءَ والكلُّ راغمُ
وجحْفلُكَ المغرورُ بدّدَ شملَهُ ... عبادٌ أولو بأس شديد ضراغمُ
أقمْت على الشّط البعيد قريرةً ... حصونُك أبراج وجيشُك داهمُ
ونجمةُ داودَ ترفُّ كأنما ... تحققتَ الأحلامُ والدهرُ باسمُ
رويدكِ إسرائيل أمنُكِ زائفٌ ... وبأسُكِ أوهامٌ ويومُكِ قادمُ

***

صحوت على صوت العبور فقد دهتْ ... معاقلَكَ الشمّاءَ أسدٌ ضياغمُ
دروعٌ وأطوافٌ ونارٌ وفتيةٌ ... توالتْ كأمواجِ الخضمِّ تُلاطمُ
وروّعك الزحفُ الجسورُ كأنّما ... ملائكةُ الرحمن جاءتْ تهاجمُ
حصونُك في بَرْليفَ أحلامُ واهم ... وجمْعُك ذو البأس القويِّ شراذمُ
وأعلامُك النكراءُ بالشطّ قدْ هوتْ ... لينزاحَ عن سيناءَ باغٍ وغاشمُ

***

لك الحمدُ يا ربّاهُ أبرأتَ جُرحَنا ... وعادتْ لنا أيامُنا والمكارمُ
قضينَا السنينَ الكالحات نواكسًا ... كرامتُنَا تذْوي وتخبُو العزائمُ
يُمزقُنَا يأس ويسلب صفوَنا ... عداةٌ وأقسَى ما تكونُ الهزائمُ
أهذي ديارُ العُرْب أم تلك غابةٌ ... تفشّتْ بها أوصابُنَا والمظالمُ
تُمَزِّقُها البغضاءُ والليلُ دامسٌ ... وتنهشُها الأحقادُ والذئبُ جاثمُ

***

لكَ المجد جيشَ العُرْبِ أنقذتَ أمةً فعادتْ لها أمجادُهَا والعظائمُ
جعلتَ من الأشتاتِ أوثقَ عُروة فهُمْ صُدُقٌ عند اللقاء صوارمُ
وسرتَ على هدْي الإلَه تقودُهاً فما غيرُ عون الله هادَ وعاصمُ
عبرتَ فهبّتْ من ورائكَ أمةٌ يُؤَجِّجُها شوْقٌ إلى الروْع داهمُ
فأنتَ عمادُ الحقِّ في كلِّ موطن وأنتَ ملاذُ الدِّينِ والنصرُ دائمُ

***

رمضان ١٣٩٣هـ (أكتوبر ١٩٧٣)

نظام القيادة المصرى
في حرب أكتوبر ١٩٧٣م

● **القيادة العامة (مركز ١٠)**

وزير الحربية والقائد العام للقوات المسلحة : فريق أول أحمد إسماعيل علي

رئيس أركان القوات المسلحة : فريق سعد الدين الشاذلي

رئيس هيئة العمليات : لواء محمد عبد الغني الجمسي

مدير المخابرات الحربية : لواء إبراهيم فؤاد نصار

● **قادة القوات**

قائد القوات الجوية : لواء طيار محمد حسني مبارك

قائد القوات البحرية : لواء بحري فؤاد ذكري

قائد قوات الدفاع الجوي : لواء محمد على فهمي

● **قادة الأسلحة المقاتلة**

مدير سلاح المدفعية : لواء محمد سعيد الماحي

مدير سلاح المدرعات : لواء كمال حسن علي

مدير سلاح المهندسين : لواء مهندس جمال محمد علي

قائد قوات الصاعقة : عميد نبيل شكري

قائد قوات المظلات : عميد محمود عبد الله

● **منطقة البحر الأحمر**

قائد المنطقة : لواء إبراهيم كامل محمد

رئيس أركان المنطقة :	عميد إبراهيم رشيد
رئيس فرع العمليات :	عميد عبد الفتاح رسمي

● الجيش الثالث الميداني

قائد الجيش :	لواء عبد المنعم واصل
رئيس أركان الجيش :	لواء مصطفى شاهين
مساعد قائد الجيش :	لواء أحمد عبد الغفار حجازي
رئيس شعبة العمليات :	عميد محمد نبيه السيد
قائد الفرقة ٧ مشاة :	عميد أحمد بدوي سيد أحمد
قائد الفرقة ١٩ مشاة :	عميد يوسف عفيفي
قائد الفرقة ٤ المدرعة :	عميد محمد عبد العزيز قابيل
قائد الفرقة ٦ مشاة ميكانيكية :	عميد محمد أبو الفتح محرم
قائد مدفعية الجيش :	عميد منير شاش

● الجيش الثاني الميداني

قائد الجيش :	لواء سعد مأمون أصيب بنوبة قلبية صباح يوم ١٤ أكتوبر
	لواء عبد المنعم خليل . . . تولى قيادة الجيش بعد ظهر يوم ١٦ أكتوبر
رئيس أركان الجيش :	لواء تيسير العقاد
مساعد قائد الجيش :	لواء عمر الموجي
رئيس شعبة العمليات :	عميد فاروق سالم
قائد الفرقة ٢ مشاة :	عميد حسن أبو سعده
قائد الفرقة ١٦ مشاة :	عميد عبد رب النبي حافظ
قائد الفرقة ١٨ مشاة :	عميد فؤاد عزيز غالي
قائد الفرقة ٢١ المدرعة :	عميد إبراهيم عبد الغفور العرابي
قائد الفرقة ٢٣ مشاة ميكانيكية :	عميد أحمد عبود الزمر

قائد مدفعية الجيش : عميد محمد عبد الحليم أبو غزالة

● **قطاع بور سعيد**

قائد القطـاع : لواء عمر خالد حسن . . . نحي عن القيادة يوم ١٦ أكتوبر

لواء سعد الدين صبري . . . تولى القيادة يوم ١٦ أكتوبر .

رئيس أركان القطاع : عميد جابر عبد الله

رئيس فرع العمليات : عميد فاروق محمد الحفني

نظام القيادة الإسرائيلي
في حرب أكتوبر ١٩٧٣م

● **القيادة العامة**

وزير الدفاع : موشـــى ديـــان

رئيس الأركان العامة : ليفتنانت جنرال دافيد أليعازر (دادو)

نائب رئيس الأكان العامة : ماجور جنرال يسرائيل تال

رئيس العمليات : ماجور جنرال إبراهام تامير

مدير المخابرات الحربية : ماجور جنرال إلياهو زعيرا

● **القيادة الجنوبية**

الممثل الشخصي لرئيس الأركان العامة : ليفتنانت جنرال حاييم بارليف

قائد القيادة الجنوبية : ماجور جنرال شموئيل جونين (جوروديش)

نائب قائد القيادة الجنوبية : ماجور جنرال يوري بن آري

● **مجموعة العمليات رقم ٢٥٢**

قائد الفرقة المردعة : (مـن الجيش النظـامـي)
ماجور جنرال إبراهام ماندلر (ألبرت) قتل يوم ١٣ أكتوبر
ماجور جنرال كلمان ماجن تولى القيادة يوم ١٣ أكتوبر

قائد لواء مدرع : كولونيل دان شمرون

قائد لواء مدرع : كولونيل إبراهـام بـاروم

قائد لواء مشاة ميكانيكي : كولونيل ريفـين بنتشاس

● **مجموعة العمليات رقم ١٤٣** (من الجيش الاحتياطي)
قائد الفرقة المدرعة : ماجور جنرال أريل شارون (أريك)
نائب قائد الفرقة : بريجادير جاكوب أفين
قائد لواء مدرع : كولونيل حاييم أريز
قائد لواء مدرع : كولونيل آمنون ريشيف
قائد لواء مدرع : كولونيل توفيا رافيف
قائد لواء مظلات : كولونيل داني مات

● **مجموعة العمليات رقم ١٦٢** (من الجيش الاحتياطي)
قائد الفرقة المدرعة : ماجور جنرال إبراهام أدان (برن)
نائب قائد الفرقة : بريجادير دوفيك تماري
قائد لواء مدرع : كولونيل جابي أمير
قائد لواء مدرع : كولونيل نيتكا بارام
قائد لواء مدرع : كولونيل آرييه كارين
قائد لواء مختلط خفيف الحركة : بريجادير دوفيك تماري (نائب قائد الفرقة) تشكل من يوم ٢١ أكتوبر

● **القوات الدفاعية شرق القناة** تشكلت بعد العبور الإسرائيلي إلى الغرب (من الجيش الاحتياطي)
قائد الفرقة المختلطة (القطاع الشمالي للجبهة) : بريجادير ساسون
قائد الفرقة المختلطة (القطاع الجنوبي للجبهة) : بريجادير جرانيت إسرائيل (منح إجازة عقب مصرع ولده في الجولان)
بريجادير ميناحم بيرون تولى قيادة الفرقة بعد جرانيت

● **قيادة سيناء الجنوبية** (من الجيش الاحتياطي)
قائد القيادة : ماجور جنرال أشعيا هوجافيش

موسوعة حرب أكتوبر ١٩٧٣م

الكتاب الأول ـ من سيناء إلى الجولان ـ يناير ١٩٨٨

الكتاب الثاني ـ المعارك الحربية على الجبهة المصرية ـ (الطبعة الأولى) إبريل ١٩٨٩

ثبت المراجع

أولاً: المؤلفات العربية

أحمد بهاء الدين ـ وتحطمت الأسطورة عند الظهر ـ
قصة حرب أكتوبر ١٩٧٣ ـ دار الشروق بيروت ١٩٧٤

أنور السادات ـ البحث عن الذات
المكتب المصري الحديث القاهرة ١٩٨٠

أمين حامد هويدي ـ الصراع العربي الإسرائيلي بين الرادع التقليدي والرادع النووي
دار المستقبل العربي القاهرة ١٩٨٠

جمال حمدان ـ ٦ أكتوبر في الإستراتيجية العالمية
عالم الكتب القاهرة ١٩٧٤

حامد ربيع ـ سلاح البترول والصراع العربي الإسرائيلي
المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت ١٩٧٤
ـ تأملات في الصراع العربي الإسرائيلي
المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت ١٩٧٦

حسن البدري وآخرون ـ حرب رمضان الجولة العربية الإسرائيلية الرابعة أكتوبر ١٩٧٣.
الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ١٩٧٤

حسين طنطاوي	ـ بطولات حرب رمضان مطابع الشعب القاهرة ١٩٧٤
سعد الدين الشاذلي	ـ حرب أكتوبر ـ مذكرات مطابع لندن ١٩٨٨
صلاح الدين الحديدي	ـ حرب أكتوبر في الميزان العسكري مكتبة مدبولي القاهرة ١٩٧٤
عادل مالك	ـ من رودس إلى جنيف. الصراع العربي الإسرائيلي دار النهار بيروت ١٩٧٤
عبد الستار الطويلة	ـ حرب الساعات الست الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ١٩٧٤
عبد العظيم رمضان	ـ حرب أكتوبر في محكمة التاريخ مكتبة مدبولي القاهرة ١٩٨٤
عبد الكريم درويش	ـ حرب الساعات الست مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة ١٩٧٤
عبد الله الأسدي	ـ وتحطمت الطائرات في سماء دمشق وسقط خط بارليف عند الظهيرة دار العودة بيروت ١٩٧٣
عبده مباشر	ـ رجال أكتوبر دار أخبار اليوم القاهرة ١٩٧٥ ـ يوميات أكتوبر في سيناء والجولان. دار المعارف القاهرة ١٩٧٦ ـ المؤسسة العسكرية الإسرائيلية ـ معهد البحوث والدراسات العربية القاهرة ١٩٧٧ ـ سيناء الموقع والتاريخ دار المعارف القاهرة ١٩٧٨
ماهر عبد الحميد	ـ المفاجأة ـ دور المخابرات في حرب الشرق الأوسط مطبعة النهضة القاهرة ١٩٧٤

محسن محمد — حرب البترول ـ المحاضر السرية لاجتماعات وزراء البترول العرب
كتاب الإذاعة والتليفزيون القاهرة ١٩٧٤
محمد حسنين هيكل — حكاية العرب والسوفيت
شركة الخليج لتوزيع الصحف
الكويت ١٩٧٩
ـ عند مفترق الطرق حرب أكتوبر ماذا حدث فيها وماذا حدث بعدها
شركة المطبوعات للتوزيع والنشر بيروت ١٩٨٣
محمد حافظ إسماعيل — أمن مصر القومي في عصر التحديات
مركز الأهرام للترجمة والنشر القاهرة ١٩٨٧
محمد حمدي — حرب أكتوبر ١٩٧٣ وثائق ونصوص
قسم المعلومات جريدة الأهرام
محمد خضر الرفاعي — اتفاقيات السلام المصرية الإسرائيلية في نظر القانون الدولي
دار الجليل للنشر عمان ١٩٨٤
محمد سيد أحمد — بعد أن تسكت المدافع
دار القضايا بيروت ١٩٧٥
محمد عبد الحليم أبو غزالة — وانطلقت المدافع عند الظهر
دار الشعب القاهرة ١٩٧٤
محمد عبد المجيد مرعي — معارك رمضان في سيناء والجولان
عالم الكتب القاهرة ١٩٧٤
محمد عبد المنعم — ٦ أكتوبر الحرب الإلكترونية الأولى
الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ١٩٧٥
محمد علي فهمي — القوة الرابعة ـ تاريخ الدفاع الجوي المصري
الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ١٩٧٧
محمد فوزي — حرب الثلاث سنوات
دار الوحدة بيروت ١٩٨٢

محمد فيصل عبد المنعم ـ عندما سقطت السماء فوق إسرائيل
دار الشعب. القاهرة ١٩٧٥

محمود ريـــاض ـ مذكرات
دار المستقبل العربي. القاهرة ١٩٨٦

محمود عوض ـ ممنوع من التداول ـ أفكار إسرائيلية. كتاب الإذاعة والتلفيزيون القاهرة ١٩٧٣
ـ الحرب الرابعة
المكتب المصري الحديث للطباعة والنشر. القاهرة ١٩٧٤
ـ وعليكم السلام مصر وإسرائيل والعرب
دار المستقبل العربي. القاهرة ١٩٨٦

مرسي عطا الله ـ حقيقة الثغرة في الدفرسوار ـ رواية الحرب من غرفة العمليات
مطبعة أطلس. القاهرة ١٩٧٦

موسى صبري ـ وثائق حرب أكتوبر
المكتب المصري الحديث للطباعة والنشر. القاهرة ١٩٧٤

ثانياً: الدراسات والأبحاث

العسكرية الصهيونية	ـ المؤسسة العسكرية الإسرائيلية النشأة والتطور مركز الدراسات السياسية والإستراتيجية جريدة الأهرام القاهرة ١٩٧٢
حرب أكتوبر	ـ دراسات في الجوانب الاجتماعية والسياسية المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية القاهرة ١٩٧٣
الرجال والمعركة	ـ أكتوبر ١٩٧٢ ـ أكتوبر ١٩٧٤ وزارة الحربية القاهرة ١٩٧٤
الحرب العربية الإسرائيلية الرابعة	ـ وقائع وتفاعلات مركز الأبحاث منظمة التحرير الفلسطينية بيروت ١٩٧٤
آثار حرب أكتوبر	ـ النواحي العسكرية والسياسية والاقتصادية الهيئة العامة للاستعلامات القاهرة ١٩٧٥
حرب أكتوبر	ـ دراسات في الجوانب الاجتماعية والسياسية مركز الدراسات السياسية والإستراتيجية جريدة الأهرام القاهرة ١٩٧٤
الشرارة طريق النصر	ـ قصة حرب تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٧٣ مركز الأبحاث والدراسات. دار الصياد بيروت ١٩٧٤
الجولة العربية الإسرائيلية الرابعة	ـ ذكرى مرور عامين هيئة البحوث العسكرية. وزارة الدفاع القاهرة ١٩٧٤
حرب أكتوبر ١٩٧٣	ـ دور الجيش العراقي المركز العربي للدراسات الإستراتيجية. المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت ١٩٧٥

الندوة الدولية لحرب أكتوبر ١٩٧٣ بجامعة القاهرة (٢٧ ـ ٣١ أكتوبر ٧٥)	ـ القطاع السياسي والقطاع العسكري إدارة المطبوعات والنشر للقوات المسلحة القاهرة ١٩٧٦
مبادرات السلام	ـ للرئيس أنور السادات (١٩٧١ ـ ١٩٧٧) وزارة الخارجية ـ القاهرة ١٩٧٩
وثائق فلسطين	(١٨٣٩ ـ ١٩٨٧) ـ دائرة الثقافة، منظمة التحرير الفلسطينية ١٩٨٧

ثالثا: كتب أجنبية مترجمة

ـ المسح الإستراتيجي ١٩٧٣	المعهد الدولي للدراسات الإستراتيجية لندن	مركز البحوث والمعلومات القاهرة ١٩٧٣
ـ العودة لسيناء	الجنرال د. ك باليت	إدارة المطبوعات والنشر للقوات المسلحة ١٩٧٧
ـ البندقية وغصن الزيتون	دافيد هيرست	الهيئة العامة للاستعلامات ١٩٧٤
ـ حرب بلا نهاية وسلام بلا أمل	دافيد دوانج	الهيئة العامة للاستعلامات ١٩٧٤
ـ العبور العظيم	أيريش هلمندورفر	الهيئة العامة للاستعلامات ١٩٧٥
ـ الموساد (المخابرات الإسرائيلية)	دييس إيزينبرج	الهيئة العامة للاستعلامات ١٩٨٨
ـ رؤية شخصية للمباحثات المصرية الإسرائيلية	موشى ديان	الهيئة العامة للاستعلامات ١٩٨٨
ـ زلزال في أكتوبر (حرب عيد الغفران)	زئيف شيف	مركز البحوث والمعلومات

ـ تقرير لجنة إجرانات	لجنة إجرانات	مركز البحوث والمعلومات
ـ الصناعات الحربية في إسرائيل	يورام بيري	مركز البحوث والمعلومات
ـ إنشاء وتكوين الجيش الإسرائيلي	إيجال آلون	دار العودة بيروت ١٩٧١
ـ التقصير	يشعيا هوبن	مؤسسة الدراسات الفلسطينية بيروت ١٩٧٤
ـ من حرب الأيام الستة إلى حرب الساعات الست	كوبار جاك	الوطن العربي بيروت ١٩٧٤
ـ الحواجز الأخرى سياسة عملية السلام بين العرب وإسرائيل	هارولد. هـ. ساندرز	مركز المعلومات والدراسات ١٩٨٥
ـ الكمية والنوعية في الإستراتيجية الإسرائيلية	يهو شفاط هركافي	دار المنار للصحافة والنشر قبرص ١٩٨٦

رابعاً: الكتب الأجنبية

1 - The Making of War, The Middle East From 1967 to 1973 John Bulloch
London, Longman Group Ltd 1974.

2 - Insight on the Middle East War
The Insight Team of the sunday Times War -
London - Andre Deutsch 1974.

3 - Confrontation, the Middle East War and World Politics
Walter Laqueur -
London Bulter and Tanner Ltd 1974.

4 - The Road to Ramadan
Mohamed Heikal -
London Collins St James's Place 1975.

5 - The War of Atonement
Chaim Herzog -
London Weidenfeld and Nic olson 1975.

6 - My life, the Auto Biography of Golda Maer
Golda Maer -
Futura Macdonald 1975.

7 - The yom Kippur War -
The Insight Team of the sunday Times -
London Andre Deutsch 1975.

8 - The International year Book of Foreign policy Analysis -
London Groom Helm Ltd 1975.

9 - The Arab - Israeli Dilemma
New york Syracuse University 1975.
10 - On Both Banks of the Suez
Avraham Adan (Bren) - (مترجم من العبرية)
Jerusalem, Edanim Publishers 1979.
11 - Elusive Victory
Trevor Dupuy -
New york 1976.
12 - Two minutes over Baghdad
Amos Perlmutter -
Corgi Books 1981.
13 - Modern Military Powers (Israel)
New york, the Military Press Gendral Editor 1983.
14 - Autumn of Fury
Mohamed Heikal -
London Andre Deutsch 1983.
15 - Rommel
Desmond Young -
London St James Place 1950.

المحتويات

محتـويـات الملاحـق

محتـويات الخـرائـط



السيرة الذاتية الخاصة باللواء أركان حرب
جمال حماد
المؤرخ العسكري

أولا: الشهادات العليا الحاصل عليها:

١ ـ ماجستير في العلوم العسكرية من كلية أركان الحرب بالقاهرة عام ١٩٥٠ (كلية القادة والأركان حاليا).

٢ ـ بعثة قادة الألوية من كلية الحرب بالاتحاد السوفيتي عام ١٩٥٩.

ثانيا: الأوسمة والجوائز الحاصل عليها:

١ ـ نوط الجدارة الذهبي.

٢ ـ وسام الخدمة الطويلة والقدوة الحسنة.

٣ ـ وسام الاستحقاق السوري.

٤ ـ وسام الإخلاص السوري.

٥ ـ وسام الأرز اللبناني.

٦ ـ وسام الاستقلال الأردني.

٧ ـ وسام الرافدين العراقي.

٨ ـ وسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى.

٩ ـ جائزة الدولة التشجيعية عن كتاب «المعارك الحربية على الجبهة المصرية حرب أكتوبر ١٩٧٣».

١٠ ـ جائزة أحسن كتاب عن حرب أكتوبر ١٩٧٣ من إدارة الشئون المعنوية للقوات المسلحة بمناسبة الاحتفال باليوبيل الفضي لحرب أكتوبر ١٩٧٣ الذي تم الاحتفال به .

ثالثا: المؤلفات التاريخية:	**جهة الإصدار**
١ ـ معارك الإسلام الكبرى	مكتبة النهضة
٢ ـ غزوة بدر الكبرى	المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
٣ ـ ٢٢ يوليو أطول يوم في تاريخ مصر	دار الهلال
٤ ـ الحكومة الخفية	دار الزهراء للإعلام العربي
٥ ـ من سيناء إلى الجولان	دار الزهراء للإعلام العربي
٦ ـ المعارك الحربية على الجبهة المصرية (حرب أكتوبر ١٩٧٣ ـ العاشر من رمضان)	دار الزهراء للإعلام العربي (الطبعتان الأولى والثانية) (الطبعة الثالثة إصدار دار الشروق)
٧ ـ أعلام الصحابة	القاهرة الحديثة للطباعة

رابعا: المؤلفات الروائية:

١ ـ غروب وشروق	دار القلم وتم إخراجها في فيلم سينمائي .
٢ ـ وثالثهم الشيطان	دار الهلال وتم إخراجها في فيلم سينمائي .

خامسا: المناصب العسكرية والمدنية الكبرى التي تولاها:

١ ـ أركان حرب سلاح المشاة (قبل قيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢) .

٢ ـ الملحق العسكري بالدول العربية (سوريا ـ لبنان ـ الأردن ـ العراق) .

٣ ـ مدير القيادة المصرية السورية المشتركة بدمشق .

٤ ـ كبير معلمي الكلية الحربية .

٥ ـ قائد اللواء ١٨ المشاة وقائد منطقة العريش العسكرية .

٦ ـ رئيس هيئة الاتصال بقوات الأمم المتحدة (سيناء وقطاع غزة) .

٧ ـ قائد معهد المشاة .

٨ ـ رئيس هيئة الخبراء باليمن .
٩ ـ محافظ كفر الشيخ .
١٠ ـ محافظ المنوفية .

سادسا : الحروب التي اشترك فيها:

١ ـ حرب فلسطين عام ١٩٤٨ (أركان حرب الكتيبة السابعة مشاة) .
٢ ـ العدوان الثلاثي عام ١٩٥٦ (مدير القيادة المصرية السورية المشتركة بدمشق) .
٣ ـ حرب اليمن (رئيس هيئة الخبراء) .

سابعا: دوره في ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢:

١ ـ انتخبته الجمعية العمومية للضباط في ٣١ ديسمبر سنة ١٩٥١ عضوا بمجلس إدارة نادي الضباط عن سلاح المشاة، وهو المجلس الذي كان يرأسه اللواء محمد نجيب والذي تحدى الملك السابق حتى صدور القرار بحله في ١٦ يوليو سنة ١٩٥٢ وقامت الثورة بعد حل مجلس الإدارة بأسبوع واحد فقط .
٢ ـ عهد إليه بأحد الأدوار الرئيسية ليلة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ .
٣ ـ قام بكتابة البيان الأول للثورة الذي أذاعه الرئيس الراحل أنور السادات (صورة البيان الأصلي بخطه معروضة حاليا في المتحف الحربي) .
٤ ـ دون اسمه على رأس قائمة الضباط الأحرار في قرار رئيس الجمهورية رقم ١٣٨٦ الصادر في ٢٠ نوفمبر سنة ١٩٧٢، وهي القائمة المنقوشة على الحائط في جناح الثورة بالمتحف الحربي .
٥ ـ برغم دوره وجهوده في نجاح الثورة أصر على البقاء في الخدمة العسكرية كضابط عادي ولم يطلب تعيينه في أي منصب مدني، ولذا كان من القلائل من ضباط الثورة الذين حصلوا على رتبة اللواء، وفوجئ بتعيينه محافظا لكفر الشيخ منشورا بالصحف دون استشارته، وكان وقتها أحد الدارسين بالدراسات العليا في أكاديمية ناصر واضطر إلى الانقطاع عن الدراسة بعد أن أمضى عاما بأكمله في الأكاديمية ضمن أول فرقة دراسية قام بالتدريس فيها الخبراء والمستشارون السوفيت .

٦ ـ دون اسمه ضمن «الموسوعة القومية للشخصيات المصرية البارزة» التي أصدرتها الهيئة العامة للاستعلامات عام ١٩٨٩ .

دون اسمه ضمن «موسوعة أعلام مصر في القرن العشرين» التي أصدرتها وكالة أنباء الشرق الأوسط عام ١٩٩٦ .

ثامنا: إسهامه في المجال الثقافي العسكري:

١ ـ ألقى محاضرات عديدة بوصفه أستاذا زائرا في كل من كلية القادة والأركان وكلية الحرب بأكاديمية ناصر العسكرية العليا ومعهد المشاة عن ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ وحرب أكتوبر ١٩٧٣ وحرب تحرير الكويت ١٩٩١ .

٢ ـ شارك في ندوات عديدة عقدتها هيئة البحوث العسكرية وإدارة الشئون المعنوية للقوات المسلحة عن ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ وحرب أكتوبر ١٩٧٣ وبعض الموضوعات العسكرية المهمة الأخرى .

٣ ـ تنشر مجلة أكتوبر حاليا كل أسبوع سلسلة مقالات له عن معارك الصحراء الغربية التي جرت في بداية الأربعينيات بين جيش المحور بقيادة الفيلد مارشال إروين روميل والجيش الثامن البريطاني بقيادة الفيلد مارشال مونتجومري، وعن معركة العلمين الفاصلة التي بدأت ليلة ٢٣/ ٢٤ أكتوبر ١٩٤٢ والتي انتهت بهزيمة قوات المحور .

٤ ـ قام بالإشراف على صحة النواحي التاريخية في أفلام الفيديو التي أنتجتها الإدارة العامة للإعلام والعلاقات بوزارة الداخلية عن دور الشرطة المصرية البطولي بالاشتراك مع الشعب في مقاومة الاستعمار البريطاني في منطقة قناة السويس والذي انتهى بمعركة محافظة الإسماعيلية المجيدة في ٢٥ يناير ١٩٥٢ ، وكذا في المقاومة الباسلة بالاشتراك مع الجيش والشعب ضد العدوان الثلاثي في بور سعيد عام ١٩٥٦ وفي صد محاولة دخول القوات الإسرائيلية مدينة السويس في ٢٤ أكتوبر ١٩٧٣ .

تاسعا: نشاطه الأدبي والاجتماعي:

١ ـ مؤرخ وكاتب اشتهر بحياده وصدقه ونشرت له عشرات المقالات في المجلات والصحف المصرية .

٢ ـ أحد كتاب مجلة أكتوبر البارزين ويكتب مقالا أسبوعيا في المجلة بصفة منتظمة منذ

ثمانية عشر عاما، وكان أيضا أحد كتاب مجلة آخر ساعة لسنوات عديدة كما أنه أحد كتاب مجلة الشباب، وكتب العديد من المقالات في المجلات العسكرية (مجلات الدفاع والنصر والمجلة العسكرية والوفاء للمحاربين القدماء) التي تصدرها القوات المسلحة.

٣ ـ شاعر وقد نشرت له قصائد عديدة وأذيعت له أناشيد وطنية من دار الإذاعة اشترك في تلحينها كبار الملحنين كالأستاذ محمد عبد الوهاب ومحمود الشريف وعبد الحميد عبد الرحمن.

٤ ـ تولى رئاسة جمعية الصداقة المصرية الأمريكية من عام ١٩٨٤ حتى عام ١٩٩٠ خلفا للدكتور عصمت عبد المجيد عقب تعيينه وزيرا للخارجية، وقد تولى رئاسة الجمعية من بعده الدكتور إبراهيم فوزي وزير الصناعة ورئيس هيئة الاستثمار الأسبق.

٥ ـ ألقى محاضرات عديدة عن ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ وعن حرب أكتوبر سنة ١٩٧٣ بالعديد من محافظات الجمهورية ونوادي هيئات التدريس بالجامعات والنوادي الاجتماعية المصرية وشركات البترول في القاهرة وخليج السويس.

٦ ـ اشترك في عدة ندوات كان من ضمنها الندوة التي تولى رئاستها في معرض الكتاب الدولي في ١٠ يناير سنة ١٩٩١ عن «الأمن القومي العربي» وكان أعضاء الندوة هم الأساتذة لطفي الخولي وأحمد حمروش وراجي عنايت، كما تولى رئاسة ندوة في معرض الكتاب الدولي يوم ٢٥ يناير ٢٠٠٢ عن «ثورة يوليو والأمن القومي العربي» بمناسبة اليوبيل الذهبي لثورة يوليو وكان أعضاء الندوة هم الأستاذ الدكتور محمد عودة واللواء طيار أ.ح الدكتور جبر علي جبر والأستاذ أسامة غيث.

٧ ـ عين عضوا في اللجنة العليا للتاريخ التي شكلت عام ١٩٩٩ بقرار من السيد وزير التربية والتعليم لتطوير مناهج التاريخ لطلاب المراحل الإعدادية والثانوية، وقام بإعداد الجزء الخاص عن ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ وحرب أكتوبر ١٩٧٣ في كتابي التاريخ اللذين يدرسان حاليا لطلاب شهادتي الإعدادية والثانوية العامة.

٨ ـ عضو اتحاد الكتاب.

٩ ـ عضو اللجنة التاريخية لمتحف زعماء الثورة التابعة لوزارة الثقافة وهي اللجنة التي ستتولى الإشراف على إنشاء المتحف في مبنى مجلس قيادة الثورة بالجزيرة.

١٠ ـ عضو الجمعية المصرية للدراسات التاريخية.

رقم الإيداع ٢٠٠٢/١٧٥٥٨
الترقيم الدولي 5 - 0866 - 09 - 977

مطابع الشروق
القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصرى ـ ت: ٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس: ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت : ص.ب: ٨٠٦٤ ـ هاتف : ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٢١٣ ـ فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)